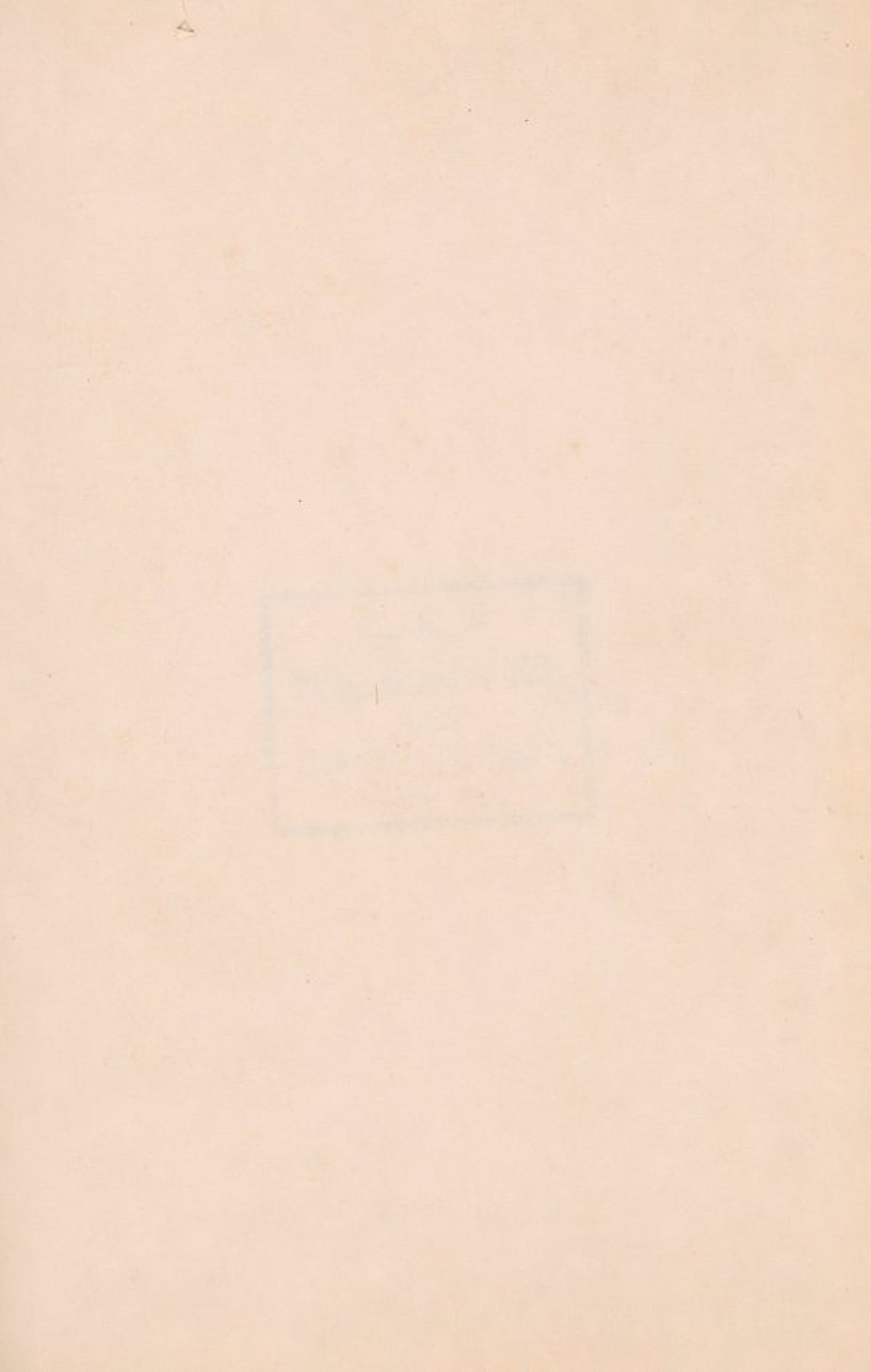






مشاهد الممالك

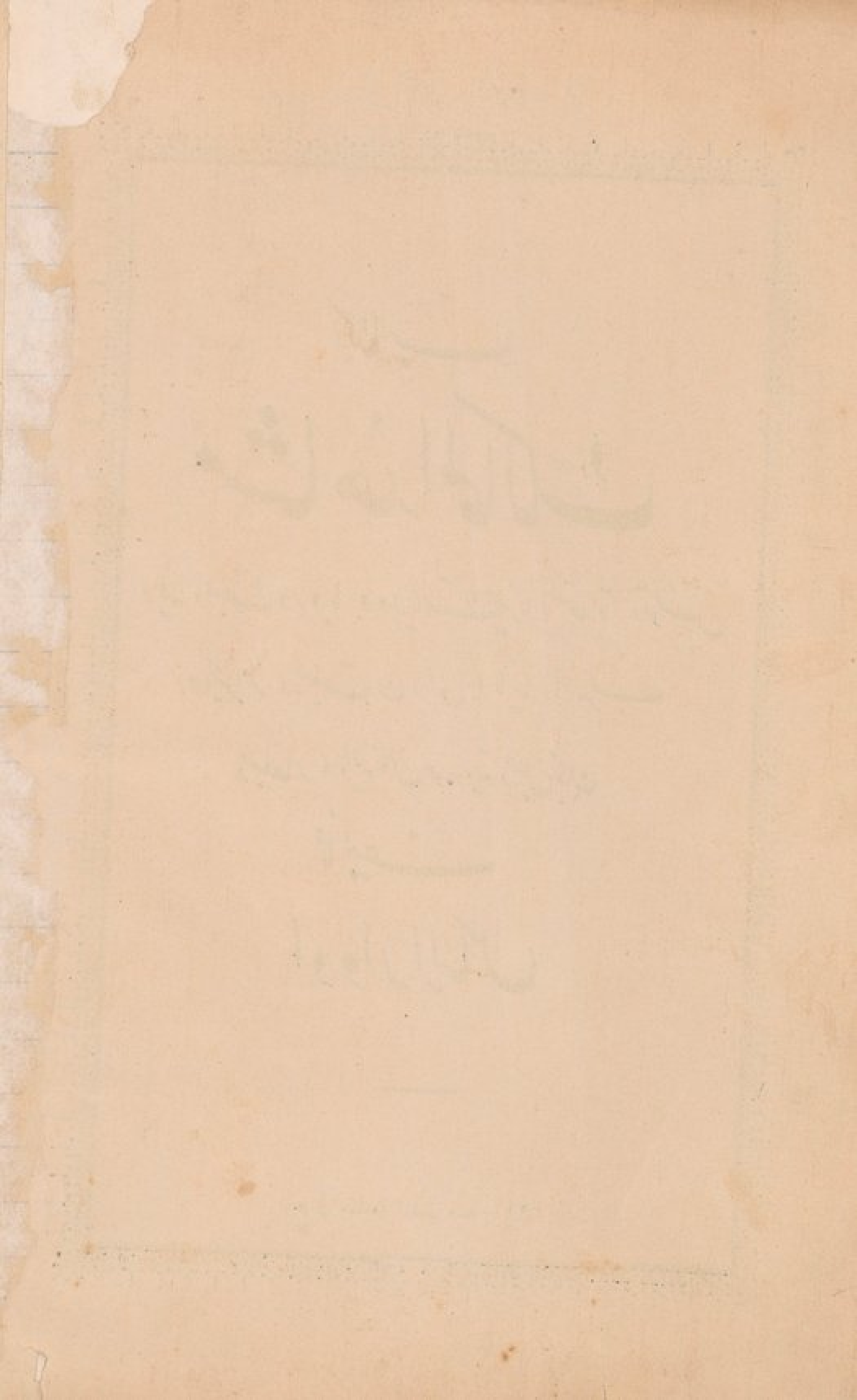
كتاب
مشاهد الممالك

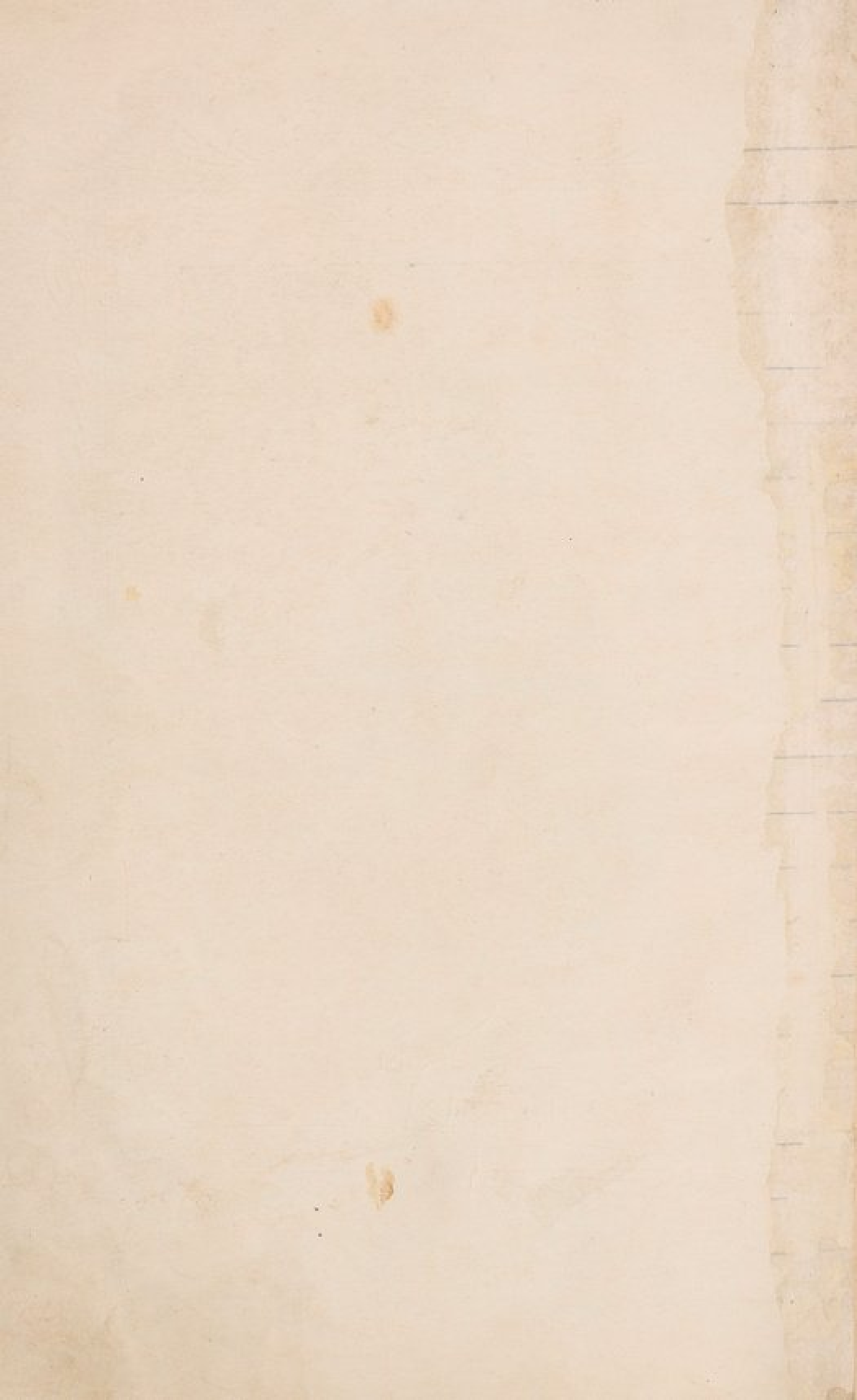
وفيه وصف اوروبا وولايات اميركا المتحدة وتونس والجزائر والبلقان (اي رومانيا والسرب والبلغار) واليونان وسورية وجبل لبنان

تأليف

ادوار الياس

طبع في مطبعة المقطم سنة ١٩١٠







عباس الثاني خديوي مصر

المقدمة

من عادات الغربيين الحميدة ان سيأحهم وسائحاتهم لا يقتصرون على اللهو والنزهة في رحلاتهم بل انهم يضيفون الفائدة العلمية والتاريخية الى ذلك . ولهذه الفائدة لذة خاصة بها لا يدركها الا من نالها فهي لا تقل عن لذة التنزه وتسريح النظر في طلاوة الجديد . وهؤلاء ضيوف مصر من الافرنج نراهم بين ظهرانينا في شتاء كل سنة . الواحد منهم لا يكاد يخرج من فندقهِ الا متأبطاً كتاب دليل مصر يستطلع منهُ شأن ما يزورهُ من آثار ومعالم هذه الديار كالاهرام وابي الهول والقلعة وبعض المساجد الاثرية وسواها . وقد يسترسل في البحث والسؤال والتنقيب بحيث يرجع من زيارتهِ مزوداً من المعلومات عن نفائسنا ومفاخرنا وهو لم يستغرق من الزمان الا اياماً معدودة مع ان الشرقيين قد يشبّون ويشيبون في بلادهم وهم لا يعرفون عنها شيئاً يستحق الذكر . وان ذهبوا الى البلاد الاجنبية فلا يقرنون النزهة بطلب الفائدة

وقد التفت الغربيون ولا سيما الانكليز والالمان الى رغبة مواطنيهم الشديدة في ما ذكرنا من فوائد السياحات فوضعوا كتاب دليل لكل قطر على حدتهِ يكشف الحجاب عن معظم محتوياتهِ . فراجت هذه الكتب عند القوم ايما رواج والفوها فهم لا يستغنون عنها في رحلاتهم وربما افتقدها احدهم ساعة السفر قبل ان يفتقد كيس دراهمهِ وحقبة ثيابهِ

وقد دفعتني الغيرة الوطنية الى الضرب على هذا المنوال فالّفت منذ سنوات

كتاب « مشاهد اوروبا واميريكا » على اثر رحلات لي ودوّنت فيهِ الشيء الكثير من الحقائق والخواطر . وبعد ان نفدت الطبعة الاولى من كتابي المذكور عزمت على اعادة طبعهِ مع زيادات في اصلهِ واضافة اشياء كثيرة عن الممالك والاقاليم التي لم تذكر فيهِ ومعظمها يتعلق بالحوادث الكبيرة التي جرت بعد طبعهِ اول مرة مثل وفاة الملكة ڤيكتوريا وافضاء العرش الى ولدها الملك ادورد السابع وتتويج ملك اسبانيا . ووفاة البابا لاون الثالث عشر . وخلافة البابا بيوس العاشر لهُ . والرسوم والتقاليد التي اجريت عند الوفاة والتنصيب . وانفصال نرويج عن السويد . ووفاة ملك الدنمارك وتتويج ولده . وزواج ملك اسبانيا . ووفاة ملك السويد وتتويج ولده الى غير ذلك من الحوادث المهمة التي اشتملت عليها الطبعة الاولى من الكتاب

ثم عزمت على سياحات اخرى فزرت معرض باريس الاخير ومدينة ڤيشي المشهورة بمياهها . والجبل الابيض . وبلاد المغرب اي الجزائر ومراكش . وتونس . وطرابلس الغرب . ووصفت اهم مدنها وصفاً واضحاً جلياً . وكتبت مقدمة تاريخية لبلاد المغرب اتيت فيها على ذكر الدول التي تعاقبت على البلاد من الفينيقيين فالرومانيين فالفندال فالروم فالعرب فالاتراك مع ايراد الاسباب لقيام وسقوط كل دولة . ثم بسطت الكلام في دخول الفرنساويين بلاد الجزائر ومحاربتهم للامير عبد القادر مدة تزيد عن عشرين سنة . ثم عرّجت على مالطه وصفت تاريخها من ايام احتلها فرسان مار يوحنا بعد ان طردهم السلطان محمود الثاني سنة ١٥٢٢ من رودس . ومحاربتهم فيها للعرب والاتراك والفرنساويين واسباب احتلال الانكليز لها

وبعد انتهاء رحلتي في المغرب سافرت الى بلاد اليونان فذكرتها وجبل لبنان

فوصفت سلسلة جبالهِ وعلوها · وذكرت انهارهُ في منابعها ومصابها وطولها وتعدادهُ ومذاهبهُ ومساحتهُ وحكومتهُ ومصايفهُ التي يؤمها كثيرون من القطر المصري · وتطرقت من ذلك الى وصف مدن بيروت ودمشق وبعلبك وحمص وحماه وحلب · وفي العام الماضي قصدت بلاد البلقان فزرت رومانيا وسربيا وبلغاريا وذكرت اهم مشتملاتها · وجعلت لكل منها مقدمة تاريخية ترتقي الى القرن الرابع للمسيح · وصدرت الكلام عن كل قطر بخلاصة تاريخية حتى يقف القارئُ على ما مضى ويدرك كثيرًا مما يلي ذكرهُ في وصف المشاهد والمعارض والآثار · وحليتهُ بستين رسمًا جميلاً لاعاظم الرجال والمشاهد لكي تستعين البصيرة بالبصر في استيعاب المبنى وتصوُّر المعنى · ولقد تحاشيت في عبارة الكتاب الاسهاب الممل والايجاز المخل فلم ادوّن في فصولهِ الاّ الذي شهدتهُ بعينيَّ في خمس سياحات طويلة حتى اني ضربت صفحًا عن ذكر كثير من المشاهد المهمة لاني لم أرها رأي العين · مثال ذلك ان في بطرسبورج عاصمة روسيا عشرات من القصور المنيفة ولكنني لم اكتب الاَّ عن ثلثة منها وهي اشهرها لاني ذهبتُ اليها وشاهدتها من دون بقية القصور · وكان هذا شأني في جميع السياحات. وقد سميتهُ « **مشاهد الممالك** »

ولما كان سمو مولانا الخديوي المعظم عباس الثاني ذا منن على العلم والآداب بدليل انتشار المعارف في هذا القطر على عهدهِ فقد جعلت الكتاب تقدمة لسموهِ تيمنًا باسمهِ واقرارًا بفضلهِ · وصدّرتهُ برسم ذاتهِ الكريمة فتنازل حفظهُ الله الى قبول هذه التقدمة الوضيعة · والله اسأل ان يجعل خدمتي مقبولة لدى القارئين

كتاب « مشاهد اوروبا واميريكا » على اثر رحلات لي ودوّنت فيهِ الشيء الكثير من الحقائق والخواطر . وبعد ان نفدت الطبعة الاولى من كتابي المذكور عزمت على اعادة طبعهِ مع زيادات في اصلهِ واضافة اشياء كثيرة عن الممالك والاقاليم التي لم تذكر فيهِ ومعظمها يتعلق بالحوادث الكبيرة التي جرت بعد طبعهِ اول مرة مثل وفاة الملكة فيكتوريا وافضاء العرش الى ولدها الملك ادورد السابع وتتويج ملك اسبانيا . ووفاة البابا لاون الثالث عشر . وخلافة البابا بيوس العاشر لهُ . والرسوم والتقاليد التي اجريت عند الوفاة والتنصيب . وانفصال نرويج عن السويد . ووفاة ملك الدنمارك وتتويج ولده . وزواج ملك اسبانيا . ووفاة ملك السويد وتتويج ولده الى غير ذلك من الحوادث المهمة التي اشتملت عليها الطبعة الاولى من الكتاب

ثم عزمت على سياحات اخرى فزرت معرض باريس الاخير ومدينة فيشي المشهورة بمياهها . والجبل الابيض . وبلاد المغرب اي الجزائر ومراكش . وتونس . وطرابلس الغرب . ووصفت اهم مدنها وصفاً واضحاً جلياً . وكتبت مقدمة تاريخية لبلاد المغرب اتيت فيها على ذكر الدول التي تعاقبت على البلاد من الفينيقيين فالرومانيين فالفندال فالروم فالعرب فالاتراك مع ايراد الاسباب لقيام وسقوط كل دولة . ثم بسطت الكلام في دخول الفرنساويين بلاد الجزائر ومحاربتهم للامير عبد القادر مدة تزيد عن عشرين سنة . ثم عرّجت على مالطه وصفت تاريخها من ايام احتلها فرسان ماريوحنا بعد ان طردهم السلطان محمود الثاني سنة ١٥٢٢ من رودس . ومحاربتهم فيها للعرب والاتراك والفرنساويين واسباب احتلال الانكليز لها

وبعد انتهاء رحلتي في المغرب سافرت الى بلاد اليونان فذكرتها وجبل لبنان

فوصفت سلسلة جباله وعلوها · وذكرت انهاره في منابعها ومصابها وطولها وتعداده ومذاهبه ومساحته وحكومته ومصايفه التي يؤمها كثيرون من القطر المصري · وتطرقت من ذلك الى وصف مدن بيروت ودمشق وبعلبك وحمص وحماه وحلب · وفي العام الماضي قصدت بلاد البلقان فزرت رومانيا وسربيا وبلغاريا وذكرت اهم مشتملاتها · وجعلت لكل منها مقدمة تاريخية ترتقي الى القرن الرابع للمسيح · وصدرت الكلام عن كل قطر بخلاصة تاريخية حتى يقف القارئ على ما مضى ويدرك كثيراً مما يلي ذكره في وصف المشاهد والمعارض والآثار · وحليته بستين رسماً جميلاً لاعاظم الرجال والمشاهد لكي تستعين البصيرة بالبصر في استيعاب المبنى وتصور المعنى · ولقد تحاشيت في عبارة الكتاب الاسهاب الممل والايجاز المخل فلم ادون في فصوله الا الذي شهدته بعينيّ في خمس سياحات طويلة حتى اني ضربت صفحاً عن ذكر كثير من المشاهد المهمة لاني لم أرها رأي العين · مثال ذلك ان في بطرسبورج عاصمة روسيا عشرات من القصور المنيفة ولكنني لم اكتب الا عن ثلثة منها وهي اشهرها لاني ذهبت اليها وشاهدتها من دون بقية القصور · وكان هذا شأني في جميع السياحات. وقد سميته « **مشاهد الممالك** »

ولما كان سمو مولانا الخديوي المعظم عباس الثاني ذا منن على العلم والآداب بدليل انتشار المعارف في هذا القطر على عهده فقد جعلت الكتاب تقدمة لسموه تيمناً باسمه واقراراً بفضله · وصدرته برسم ذاته الكريمة فتنازل حفظه الله الى قبول هذه التقدمة الوضيعة · والله اسأل ان يجعل خدمتي مقبولة لدى القارئين





النمسا

خلاصة تاريخية

معلوم ان هذه المملكة تضمّ الآن أمماً شتى لكلٍ منها تاريخ خاص بها فان بوهيميا وبولونيا وبلاد المجر والنمسا وكرواسيا وغير هذه من اجزاء السلطنة النمسوية كانت مستقلة ولا ينطبق تاريخها الخاص على تاريخ المملكة العام . واما النمسا فاسم أُطلق في ايام شارلمان على الممالك التي خضعت لهُ حول نهر الدانوب ونهر الانس في شرق اوروبا عُرفت باسم اوستريا او (اوسترك) اي المملكة الشرقية وكانت مؤلفة من معظم البلاد الواقعة الآن في حوزة المانيا والنمسا معاً وظلّت تابعة لشارلمان وخلفائهِ حتى ضعف هؤلاء الخلفاء وصار امراء الممالك الالمانية ينتخبون الامبراطور انتخاباً وكان الاساقفة في بعض الاحيان يقومون مقام الامراء في الانتخاب او ان البابا يعين امبراطوراً للسلطنة الالمانية . واشهر من انتخب لهذا المنصب بعد سلالة شارلمان هنري الاول ابن امير باڤاريا ملك سنة ٩١٨ واصلح اموراً كثيرة في البلاد واشتهر بعدهُ فريدريك الثاني الذي انتخب امبراطوراً في سنة ١٢١٢ وكان رجلاً حازماً عاقلاً مدّ سلطنتهُ في الشرق والغرب وملك اكثر جهات ايطاليا ولكنهُ كان عدو سلطة رجال الدين فحاربهم وحاربوهُ وانتهى الامر بفوزهم عليهِ لان الناس كانوا في تلك العصور آلات في يد رجال الكنيسة فلما مات فريدريك في سنة ١٢٥٠ وقعت البلاد في اضطراب كبير وطُمست اخبار عزها فلم يسمع لها بشيء يذكر الى عام ١٢٧٤ حين قام امير من اشراف سويسرا اسمهُ رودولف هابسبرج وعظم شأنهُ الى حد أنهُ صار اميراً لاوستريا او النمسا وهي يومئذٍ كما قلنا جزء من السلطنة الالمانية . وكان رودلف هذا عاملاً في بلاط ملك بوهيميا فعسر على الملك ان يقرّ لهُ بالامارة وحاربهُ رودلف فانتصر عليهِ واستتبّ لهُ الملك فاورثهُ من بعدهِ الى بنيهِ ولم يزل آل هابسبرج حاكمين في النمسا وهم من اكبر البيوت المالكة في اوروبا الآن

وظلت المانيا تحت سيادة آل هابسبرج الى ان قام نابوليون الاول وجعل همهُ الاكبر تقسيم السلطنة الالمانية وتجزئتها حتى لا تنضمّ الاقوام الالمانية على فرانسا فحارب بروسيا والنمسا حروباً متوالية قوّض بها اركان السلطنة الالمانية في سنة ١٨٠٦ حين أُبدلت تلك السلطنة القديمة بسلطنة النمسا الحالية ولُقب الملك الحاكم يومئذٍ في ڤينا من آل هابسبرج بامبراطور النمسا على مثل ما هو اليوم . ولكن نابوليون حارب بلاد النمسا مرتين وانتصر عليها في موقعة اوسترليتز المشهورة سنة ١٨٠٥ وفي موقعة واجرام سنة ١٨٠٩ وبعد هذه الحروب اقترن بالبرنسس ماري لويز ابنة الامبراطور مكسيمليان فصار حليفاً للنمسا وارتفع شأنها بين الممالك حتى انها ضمّت اليها في سنة ١٨١٥ بلاد لومبارديا والبندقية من اجزاء ايطاليا وبلاد كراكوفيا في سنة ١٨٤٧ . ولكنها كُسرت سنة ١٨٥٩ في حربها مع فرانسا وايطاليا فتخلت للدولة الايطالية الحالية عن املاكها في ايطاليا . وفي سنة ١٨٦٦ شبت حرب مشهورة بينها وبين بروسيا بتدبير بسمارك الشهير فكسرت في تلك الحرب ايضاً وتنحت عن الاتحاد الالماني حتى صارت بروسيا اكبر الممالك الالمانية ورئيستها

وفي سنة ١٨٦٧ أُبرمت معاهدة بين النمسا والمجر على ان تكون المملكتان دولة واحدة لكلٍّ منهما نظام خاص بها واستقلال تام في الشؤون الداخلية ويربطهما حكم الامبراطور على المملكتين فنتج عن هذا الاتحاد قوة كبرى للسلطنة النمسوية وجعلت السلطنة تنمو وتتقدم في ايامهِ حتى ان اوروبا اتفقت سنة ١٨٧٨ في مؤتمر برلين على اضافة ولايتي البوسنه والهرسك اليها موقتاً وهما الآن من اجزاء السلطنة النمساوية بعد الذي اشتهر على اثر اعلان الدستور العثماني . وابرمت معاهدة حربية بين روسيا والمانيا والنمسا سنة ١٨٧٩ ثم تنحت روسيا عن هذا التحالف فأُبرمت المحالفة الثلاثية المشهورة بين المانيا والنمسا وايطاليا وهي باقية الى اليوم فزادت البلاد تقدماً ونموًّا ونفوذاً واتسعت متاجرها وارتقت درجة العلم في انحائها

كل هذا تمّ على عهد جلالة الامبراطور فرانس يوسف الجالس على سرير النمسا الآن وهو محبوب من الامم الخاضعة لهُ حبًّا شديداً ولولا مكانتهُ في النفوس وما لهُ من المهابة لخشي على بلادهِ من التجزوء والانقسام لان رعاياهُ كثيرو الاجناس والمذاهب لا يضمهم رأي غير الولاء لشخصهِ . ولد في ١٨ اوغسطس سنة ١٨٣٠ وارتقى العرش بعد تنازل عمهِ في ٢ ديسمبر سنة ١٨٤٨ واقترن بالاميرة اليصابات ابنة الدوك مكسيمليان الباڤاري سنة ١٨٥٤ . وقد قسم لهذا الملك العظيم ان يكون منغص العيش كثير الهموم فانهُ قتل اخوهُ مكسيمليان في بلاد المكسيك وسيجيء الكلام عنهُ في باب تريسته وانتحر ابنهُ وولي عهدهِ رودلف سنة



فرانس يوسف امبراطور النمسا



١٨٨٨ فكدر صفو عيشهِ ثم قتلت قرينتهُ في جنيف في شهر سبتمبر سنة ١٨٩٨ من يد فوضوي اسمهُ لوكيني فتمَّ بذلك كاس حزنهِ الشديد . وهو من اعظم ملوك اوروبا الحاليين مهابةً واكثرهم خبرةً ولما تمَّ على ملكهِ ستون سنة في شهر مايو ١٩٠٨ اقيمت حفلات عظيمة اشترك بها امبراطور المانيا واكثر ملوكها وامرائها مع وفود من امراء الدول الاخرى وسراتها وعمَّت الافراح كل انحاء السلطنة النمسوية

وقد احصي سكان النمسا سنة ١٩٠٦ فكانوا خمسين مليون نفس ومساحتها ٦٧٥٨٨٧ كيلو متراً مربعاً غير مساحة البوسنه والهرسك اللتين سبق ذكرهما



تريسته

ركبت متن البحار من الاسكندرية في يوم راقت سماؤُهُ واعتلّ هواؤُهُ من شهر يونيو عام ١٨٩٣ وكان بدء السفر على غير ما يوافق ذلك اليوم لان السفينة جعلت تتقلب وتميل ونحن لانرى في البحر موجباً لهذه الحركة. فسألنا ربان الباخرة في ذلك قال انهُ بقية اضطراب في ما يلي سطح البحر من الماء من نوءٍ مرّ وان الحال ستبقى على مثل ذلك خمس ساعات. وصحّ قول الرجل فانهُ لما انقضى الموعد الذي نوّه بهِ هدأ اضطراب السفينة وتبدّت حلاوة السفر فتوارد المسافرون الى ظهر الباخرة واجتمعوا يتحدثون على عادة الناس في مثل هذه الاحوال. ومررنا في الطريق بمناظر شتى تستحق الذكر منها جزيرة كريت المشهورة رأينا جبالها الباسقة الى ناحية اليمين في اليوم التالي من سفرنا. وسرنا بعد ذلك بين جزر متعدّدة من جزائر الارخبيل الرومي مثل زانت وكلارنس وسفالونيا فكانت الباخرة في بعض الاحيان تقترب من الارض اقتراباً يمكن المسافر فيها من رؤْية مناظرها البهية وما فيها من كرم وزيتون وشجر كثير. ومن هذه الجزر المعروفة كورفو مررنا بها في أواخر اليوم الثالث من بعد ان غادرنا الاسكندرية حتى اذا كان صباح اليوم الرابع رست السفينة في مينا برندزي وهي مدينة صغيرة في جنوب ايطاليا لا أهمية لها الاَّ انها مرسى للبواخر ونقطة الاتصال بين الشرق والغرب في البريد فهي ينقل منها واليها البريد المتبادل بين اوروبا والشرق واخصهُ ما كان بين انكلترا والهند فتجولنا في جوانبها حيناً ثم عدنا الى السفر ووصلنا تريسته في اليوم الخامس

واما تريسته فهي اشهر مين النمسا ولها فوق شهرتها الحالية تاريخ قديم فانها وصلها الرومان في سنة ٦٠٠ قبل المسيح وبنوا بها المعاقل والحصون ثم خربها اتيلا

وطمست اخبارها زماناً حتى قامت السلطنة الغربية الجديدة على عهد شارلمان فتجددت اهميتها وأُلحقت بعد شارلمان بدولة البندقية فاختلط اهلها بالطليان اختلاطاً بقيت اثارهُ فيهم وهم او معظمهم يتكلمون النمسوية والايطالية معاً الى هذا اليوم . وانسلخت عن امارة البندقية سنة ١٣٨٢ فضمت الى سلطنة النمسا وجعلها الامبراطور كارل السادس فرضة حرّة أُعفيت من الرسوم ثم أصلحت فيها الامبراطورة ماريا تريزا شيئاً كثيراً كان من ورائهِ ان التجارة ما بين الشرق والغرب تحوّلت من مدينة البندقية اليها والمدينتان متقابلتان في بحر الادرياتيك . وهي الآن مقر تجارة النمسا البحرية مع الشرق وفيها مركز شركة لويد للسفن البخارية المعروفة هنا . وفي تريسته وضواحيها من السكان نحو ١٨٠ الف اكثرهم من الطليان ومنهم السدس مجر وخليط من الاقوام السلافية ونحو ٥٠٠٠ من الجنس الالماني والوف من اجناس شتى اوروبية فهي من اكثر المدن اشكالاً في نوع السكان . ولا يقل عدد السفن التي تدخلها في السنة عن ١٤٠٠٠ منها ٨٠٠ باخرة معدل محمولها مليوناً طونلاته وربع وصادراتها تبلغ في القيمة نحو ٢٤٠ مليون فرنك والواردات حوالي ٣٠٠ مليون ففي مينائها حركة كبرى بسبب هذه التجارة الواسعة . وقد أُنفق على تحسين الميناء نحو ثلثين مليون فرنك فجعلوا فيها الارصفة الفسيحة تستقرُّ البواخر والسفن الى جوانبها واشهرها رصيف (سان كارلو) يمتدُّ في البحر مسافة ٣٥٠ متراً والناس يقصدونهُ بعد العصر من كل يوم لمشاهدة تلك الحركة التجارية والتفرج على اشكال السفن الذاهبة والآيبة وهو من مناظر تريسته التي تستحق الذكر

وفي هذا البلد ساحة مشهورة تعرف باسم الميدان الكبير في وسطها بركة من الماء فيها تمثال نبتون اله البحر والامبراطور كارل السادس الذي مرَّ ذكرهُ وعمد

ذات شعب تنار بالكهربائية ومن حولها الحانات المتقنة والقهاوي البديعة يجتمع فيها كل مساء خلق كثير يدور بعضهم في جوانبها ويجلس البعض الآخر في هاتيك الحانات والانغام المطربة تعزف من وسط الميدان فيسمعها الناس في كل الجوانب. والى جانب هذه الساحة الرحيبة بناء المجلس البلدي والبورصة وشركة البواخر ومخازن جميلة وحانات كثيرة . ويمكن الوصول منها الى شارع الكورسو وهو كثير المخازن تباع فيها نفائس الاشياء الى جانبيهِ وفي آخرهِ الحديقة العمومية تصدح فيها الموسيقى الاميرية كل مساء · وفيها من انواع الزهر والشجر ومجاري الماء البهية ما يشرح الصدور . واذا استمرَّ السائر من تلك الحديقة شرقاً وصل جهة في أقصى المدينة تعرف باسم بوسكوتو معناهُ الغابة وهي عبارة عن حرجات فيها كثير من شجر الصنوبر يتخللهُ مطاعم منظمة وحانات متقنة وفيها تسمع الانغام الشجية ايضاً فتزيد ذلك الموضع المشهور بهجةً وقيمةً ولا سيما انهُ يتصل بجبل اسمهُ كاشاتوره ملئت جوانبهُ بشجر الصنوبر العطر وغيرهِ فكنا ونحن نرتقي قمتهُ في طرق كثيرة التعرج نستنشق النسيم العليل يخالطهُ عطر الشجر المذكور حتى اذا بلغنا القمة رأينا من دوننا القرى والعمائر والمزارع من كل جانب ولمجموعها بهاء يقرُّ الخواطر ويسرُّ النواظر

والى الجهة الجنوبية من الميدان الكبير الذي ذكرناهُ متنزه القديس اندراوس في اقصى المدينة يمكن الوصول اليهِ من الساحة الكبرى التي ذكرناها في الترامواي طولهُ نحو ثلثة اميال والى يمينهِ البحر من اولهِ الى آخرهِ وفي طرفهِ الشمالي اكام كسيت بالشجر والزهر على اختلاف الانواع ولها طرق جميلة رُصّعت ارضها بالحصى او فرِشت بالرمل وهي متنزه العائلات ترى فيها الاولاد والبنات افواجاً يسرحون في تلك الجوانب الرحيبة وليس هناك من المساكن غير منازل قليلة لبعض

اهل اليسار . وعلى مقربةٍ منها معمل السفن النمسوية دخلناهُ ووجدنا فيهِ اشكال العمل والترميم والصنع والتركيب ثم عدنا الى المدينة عن طريق ساحة جوزيه وفيها تمثال الامبراطور مكسيمليان ثم ساحة القديس جيوڤاني وفيها كثير من الابنية الفخيمة

ومن اشهر ما يذكر عن تريسته قصر عظيم يقصدهُ كل مقيم في المدينة او نازلٍ بها اريد بهِ قصر ميرامار بناهُ الارشيدوك مكسيمليان اخو امبراطور النمسا الحالي وانفق مالاً طائلاً على زخرفهِ واعدادهِ حتى اذا تمَّ لهُ ذلك انتخب امبراطوراً لبلاد المكسيك في اميركا فسار اليها وحكمها زماناً ولكن قسماً من اهلها ثار على حكومتهِ والَّف حكومة جمهورية انتصر زعيمها جوارز على الامبراطور واسرهُ وامر باعدامهِ في سنة ١٨٦٧ . وكان مكسيمليان من امراء البحر في بلادهِ والنمسويون يحبونهُ كثيراً فاسفوا شديداً لما اصابهُ وجعلوا قصر ميرامار تذكاراً لهُ يجلون ذكرهُ . والقصر باقٍ على مثل ما تركهُ صاحبهُ وفي قاعاتهِ الفخيمة رسوم الرجال والنساء الذين اشتهروا من آل هابسبرج وهم البيت الحاكم في بلاد النمسا وقد بني هذا القصر على مرتفع من الارض ولهُ حديقة غناء ومنظر من كل الوجوه بديع

ويقرب من هذا القصر في ارتفاع مركزهِ كنيسة القديس جوستو قصدتها قبل مبارحة المدينة حتى أطلَّ منها على كل الانحاء فرأيت تريسته بكل اجزائها وضواحيها . بنيت هذه الكنيسة في القرن الرابع عشر موضع معبد روماني قديم وفيها مدافن بعض المشهورين منهم الاميرتان ادلايد وڤيكتوريا عمتا لويس السادس عشر ملك فرانسا الذي حصلت في ايامهِ الثورة الفرنسوية . هذا جلُّ الذي يحسن وصفهُ في مدينة تريسته وهي اول ما يمكن للشرقي ان يراهُ من مدن النمسا فنتقدم منها الى ذكرنا عاصمة السلطنة النمسوية

ڤينا

برحنا تريسته بعد الاقامة فيها حيناً بسكة الحديد فطفقنا ندخل مواضع مختلفة المناظر بديعة الجمال حتى وصلنا مدينة جراتز قاعدة ولاية استريا من ولايات النمسا ولهذه المدينة شهرة بصنع نوع من البيرا يعرف باسمها وفي الولاية غابات وحراج مشهورة غضيضة الشجر تقطع منها الاخشاب وترسل الى سائر الاقطار. ويخترق جراتز نهر مور وقد بنيت منازلها على ضفتيهِ. تقدمنا منها بين هاتيك المناظر فرأينا في الطريق حصوناً بناها النمسويون على عهد السلطان سليمان الثاني اتقاء لهجمات جنودهِ كما سيجي؛ وقد هدم اكثرها الفرنسويون سنة ١٨٠٩ ووراء هذه الحصون جبال ومرتفعات من الارض يسير فيها القطار صُعداً بسير رويد وقد كان النمسويون اول من مدَّ خطوط الحديد في مثل هذه الجبال سنة ١٨٤٨ فان الطرق هنا متعرجة ملتفة تشبه الكاف العربية في شكلها فضلاً عما فيها من اختراق الجبال والسير تحتها فان في هذا الخط وحدهُ ١٥ نفقاً تحت الارض. وهذه الجبال تعدُّ فرعاً من جبال الالب المشهورة يبلغ ارتفاعها عند سمرين التي وقف القطار بها قليلاً ٢٢٠٠ قدم وكلها ملأى بالمناظر الفخيمة زادها بهاء ورونقاً اكتساؤُها بحلل خضراء من شجر الصنوبر وغيرهِ وقد رُصعت جنباتها بالمنازل المشيدة يقضي فيها كبراء النمسويين اشهر الصيف. ولا حاجة الى القول ان السفر في قطار كهذا يصعد الى قمة جبل شاهق من اغرب الامور واكثرها لذة فانك تدخل جوف الارض والجبال من فوقك ثم تخرج فاذا انت في سفح جبل والى جانبك الحقول والجداول والمنازل ثم تصعد اعلى الجبل والقطار مسرع بك فكانما انت محلقٌ في الجوّ تطير ومن دونك الارض بواديها وسهلها وبقية ما فيها وفي ذلك نزهةٌ غريبة

يعرفها الخبيرون . تلك مناظر الارض ما بين تريسته ومدينة فينا التي نحن في شأنها والمسافة بينهما ١٦ ساعة في سكة الحديد لا يشعر المسافر بملل في خلالها

واما فينا هذه فهي قاعدة سلطنة النمسا والمجر ومن اشهر العواصم الاوروبية في حالها الحاضرة وتاريخها الماضي وعدد سكانها نحو مليوني نفس واسمها القديم فندوما وقد ورد ذكرها على عهد يوليوس قيصر القائد الروماني في القرن الاول للميلاد ثم كثر تردد الرومانيين عليها بعد هذا ومات فيها احد قياصرتهم وهو ماركوس اوريليوس سنة ١٨٠ . وظلت محطًّا لرحال الفاتحين من تلك الايام حتى جعلها شارلمان حدًّا لمملكتهِ في القرن التاسع للميلاد فلما مات أُلحقت بمملكة المانيا وانفصلت عن فرانسا وصار يحكمها دوكات النمسا حتى قامت العائلة المالكة الحالية على مثل ما ترى في الخلاصة التاريخية . وقد توالت النكبات على فينا ولكنها لم تؤثر عليها تأثيرًا يذكر فانها حاصرها المجر سنة ١٤٨٥ اربعة اشهر وفتحوها ثم انقذها منهم سنة ١٤٩٠ مكسيمليان الاول من آل هابسبرج وجعلها قاعدة المملكة النمسوية الى اليوم . وحاصرها ملك بوهيميا مرة سنة ١٦١٩ فلم يفدهُ الحصار . وتقدم عليها الاتراك مرتين اولهما علَى عهد السلطان سليمان الثاني سنة ١٥٢٩ والثانية علَى عهد السلطان محمد الثالث سنة ١٥٨٢ وكان قائد جنودهم يومئذ الصدر قرا مصطفى باشا المشهور فضيق على المدينة تضيقًا شديدًا ولولا ورود النجدة اليها من بوهيميا تحت قيادة ملكها سوبيسكي لفتحها . وحاصرها نابوليون بعد ذلك على مثل ما تقدم في الخلاصة التاريخية وكان هذا الحصار الكثير داعيًا الى بناء دائرة كبرى من الحصون داخل المدينة أُبدلت الآن بشارع رنغ ستراس ومعناهُ درب الحلقة لاستدارتهِ طولهُ نحو ميلين وعرضه ٦٢ مترًا بني على نظامهِ الحالي سنة ١٨٥٨

خرجت مع الدليل من فندق متروبول الذي اخترت الاقامة فيهِ وبدأت بشارع رنغ ستراس هذا وهو اعظم شوارع ڤينا ليس في اوربا كلها شارع بطولهِ تجتمع فيهِ محاسن البناء وغرائب الصناعة وادلة العز والترف متوالية مترادفة مثل هذا الشارع العظيم في عاصمة النمسا فان فيهِ غير المخازن الجميلة والفنادق المشيدة والخانات المنظمة بناء البورصة والتلغراف والبوليس والمجلس البلدي والمرسح الامبراطوري والمتحفين ومجلس نواب الامة والاوبرا الكبيرة ووزارة الحقانية وقصوراً اخرى تدهش الابصار بمحاسنها في كل جانب منهُ وحديقة ستاد بارك وغير ذلك من بدائع هذا الشارع العظيم . وقد قسم هذا الشارع اقساماً ثمانية اولها رصيف يمشي عليهِ الناس من بعد الابنية المتقنة ثم طريق للعربات يليهِ طريق للتراموي فطريق للجياد وراكبيها وبعدهُ خطٌ من الشجر الجميل يزدان بهِ وسط الشارع ثم طريق للعربات وطريق للتراموي وطريق للجياد ورصيف للمارّة اي ان الشجر في وسط الشارع والطرق المختلفة صفان الى جانبيهِ صف من هنا وصف من هنا وفي ذلك نظام يمنع الزحام والاصطدام ومنظر لا تشبع العين منهُ ولو طالت مدة الامعان

ذكرنا ان في هذا الشارع بناء البورصة وهو عظيم الاركان شاهق الجدران في داخلهِ قاعات شتى بعضها للجلوس وبعضها للمطالعة وبعضها للاشغال والمداولات والمضاربات والمبايعات وغير هذا مما يدور في جوانب ذلك البناء وفيها من الحركة التجارية والجلبة الناشئة عن كثرة المركبات والمترددين ما يوجب الذهول ويشير الى نشاط اهل المتاجر والمضاربات من المتمدنين

واما مجلس النواب فانهُ قصر فخيم بني من سنة ١٨٧٤ الى ١٨٨٤ طولهُ ١٤٣ متراً ومنظرهُ من الخارج يدل الى الهيبة والوقار يُصعد اليهِ على درج عريض من

الرخام الابيض يتصل آخرهُ برواق قام على عمد من الرخام ايضاً له شكل الهيا كل اليونانية ومن ورائهِ رواق آخر طويل قائم على ٢٤ عموداً من الرخام الاحمر مذهبة تيجانها وفي الجدران والسقف رسوم حوادث ڤينا والنمسا التاريخية . والناس يجتمعون في هذا الرواق البهي ريثما تفتح ابواب القاعة الكبرى التي يجتمع فيها النواب للنظر في سياسة المملكة والجدال في ما يلزم لها من النظامات والقوانين. وفي تلك القاعة مقاعد امام كلٍّ منها منضدة صغيرة للنائب الذي يقعد اليها ومنصة للرئيس وكتابهِ ومواضع مرتفعة في جوانب القاعة خصَّ بعضها باعضاء العائلة المالكة والسفراء والبعض بالمتفرجين والزائرين او باصحاب الصحف وجماعة الاخبار وغير هذا مما تراهُ في اكثر المجالس النيابية . وقد اشتهر نواب النمسا الحاليون بكثرة الاحزاب والانقسام وما يحدث في وسط هذا المجلس الفخيم من الفتن والشحناء بينهم . وفي هذا البناء ايضاً قاعة لمجلس الشيوخ مثل قاعة النواب في نظامها وغرف كثيرة للمداولات وللوزراء واللجنات التي يأمر المجلس بعقدها ومطعم فاخر مستعد في الليل والنهار لتقديم ما يطلبهُ الاعضاء الذين يكثر بقاؤهم ٢٤ ساعة متوالية في جلسة واحدة اذا طال الجدال واحتدَّ الاعضاء بسبب امر تختلف الاحزاب عليهِ

وقصر الحقانية بني من ١٨٧٥ الى ١٨٨١ في وسطهِ تمثال القسطاس والعدل وفيهِ غرف لمحكمة الاستئناف العليا وادارة النيابة العمومية وهو من الابنية التي تستحق الاعتبار . وعلى مقربة منهُ المجلس البلدي وهو قصر طويل عريض كمل بناؤهُ سنة ١٨٨٣ بعد عمل ١١ عاماً وأُنفق عليهِ فوق ثلثين مليون فرنك وهو من اجمل المجالس البلدية في اوروبا واعظمها تولم فيهِ الولائم الكبرى وتعقد الاحتفالات العظيمة في قاعات فسيحة بديعة يُصعد اليها على درج من الرخام لهُ عمد من المرمر

المذهب ولا يقل طول قاعة الولائم عن ١٥٠ متراً ينيرها ثلثة آلاف انبوبة لنور لم ارَ لها نظيراً في قصر الامبراطور ولا في غيرهِ . ويقام فيها كل عام مرقص يشترك فيهِ اهل الترف والنعمة ومن امامها شرفة تطل على الشارع الكبير الذي نحن في شأنهِ . واما القاعة التي يجتمع فيها اعضاء المجلس البلدي فعظيمة فسيحة تشبه قاعة النواب التي ذكرناها في الوضع والنظام وفي سقفها ثريا من الانوار قيل ان ثمنها ١٦٠ الف فرنك وعلى جدرانها صور الرؤساء السابقين لهذا المجلس والمتوفين . وفي الدور الاسفل من هذا البناء الفخيم تحف ثمينة ونفائس تعدُّ من اثمن ما في مدينة ڤينا من ذلك مكتبة عظيمة فيها من نوادر الكتب ما يفخر بهِ اهل هذه المدينة وقد جمعت بنوع اخص ما فيهِ تاريخ ڤينا القديم والحديث . ومن ذلك ايضاً اثار وتحف كثيرة وصور تاريخية تمثل الحوادث المشهورة مثل هجوم الاتراك سنة ١٥٢٩ وهم بهيآتهم القديمة وملابسهم المعروفة واستيلاء بونابارت عَلَى ڤينا سنة ١٨٠٥ و١٨٠٩ وهنالك ايضاً ادوات شتى كانوا يستعملونها للتعذيب في ما مرَّ من الزمان وهي باقية تدل على قسوة الايام الماضية وحرية هذه الايام ورايات واسلحة قديمة غنمها النمسويون في حروبهم الكثيرة وغير هذ مما لا يمكن الاسهاب في شرحهِ

واما التياترو الامبراطوري المشهور فهو مثل اكثر ما في هذا الشارع من الآثار العظيمة جديد البناء قام مكان مرسح قديم احترق برمتهِ ومات فيهِ ٢٠٠٠ نفس وهو اكبر حريق في المراسح العمومية حدث في الايام الاخيرة . وقد انفقوا على هذا المرسح الجديد وزخرفهِ وفرشهِ مالاً طائلاً ولا حاجة الى القول ان فيهِ من السقوف المزخرفة والعمد المذهبة والجدران الملونة والفسحات المنظمة والذرى الفسيحة ما يستوقف الانظار . وفيهِ نصب لمشاهير المؤلفين من اصحاب الروايات مثل شاكسبير وموليير وشلر وغيرهم . وتضمُّ قاعته الكبرى اكثر من ثلاثة آلاف نفس

ولعلَّ اشهر ما في هذه المدينة واكثره نفعاً للزائرين المتحفين العظيمين وهما قصران بديعان بني احدهما تجاه الآخر وبينهما حديقة صغيرة بهية وامامهما الشارع الكبير الذي ذكرناه فكأنما هما توأمان بنيا من سنة ١٨٧٤ الى ١٨٨٩ وجعلا متشابهين في الوضع والشكل فان طول كلٍّ منهما ١٧٥ متراً وعرضهُ ٧٧ ولهما اروقة قامت على عمد ضخمة بديعة الصنع وفي الحديقة الصغرى ما بين القصرين نصب للامبراطورة ماريا تريزا ملكة النمسا والمجر وهي من اشهر ملكات هذه البلاد من آل هابسبرج . وقد اقام هذا النصب الامبراطور الحالي في سنة ١٨٨٨ على قاعدة من الرخام ارتفاعها ٤٣ قدماً وفوقها تمثال الامبراطورة وعلوهُ ١٩ قدماً وهو يمثلها في السنة الخامسة والثلاثين من عمرها باسطة ذراعها اليمنى وفي يسارها صولجان الملك والقانون الذي سنهُ كارل السادس سنة ١٧٧٢ بحصر الملك في البكر مثل قانون اكثر الممالك . والى جانب ماريا تريزا تماثيل المشاهير في الحرب والسياسة والعلم وهم لا يقلون عن عشرين

وفي المتحف الاول من هذين القصرين آثار تاريخية وتحف صناعية ورسوم ونقوش شتى لا يحصى عديدها حتى ان فهرست هذه الاشياء ملأَت ثلاثة مجلدات كبيرة فيها ٣٠٠٠٠ نمرة ولكل قطعة في المعرض او جملة قطع نمرة معلومة في هذه المجلدات فاذا شاء المرء ان يطلع على ما في هذا المعرض العظيم كلهُ لزم لهُ ايام واسابيع لان تاريخ الامم وبنوع اخص الامم الخاضعة لسلطنة النمسا الحالية جمع في تلك الآثار والنفائس . وقد قسم المتحف اقساماً كثيرة ليسهل على الناس رؤْية ما فيهِ منها قاعات جمعت فيها آثار الفينيقيين الاول ومعبوداتهم والى جنبها اروقة وقاعات ملأُوها بآثار نينوى واشور وتلك الاصنام صنعت على شكل الحيوان ولها اجنحة الطير وراس البشر كان الاشوريون يعدونها رمز القوة العقلية

والبدنية ويضعونها في اكثر منازلهم والاماكن العمومية . ثم قاعة اليونان وفيها من رسومهم المتقنة واثارهم ونقودهم ما نقتصر على الاشارة اليهِ . ومن ورائها قاعات التاريخ الروماني وفيها صورة قياصرة رومية وتماثيلهم وشيء كثير عن القيصر ماركوس اوريليوس الذي مات في ڤينا . وهنالك ايضاً قسم خاص بالتاريخ المصري فيهِ اجسام محنطة وتمثال رعمسيس الثاني واوزيرس المعبود القديم وغير هذا مما يعرفهُ الذين رأوا بعض ما في متحف مصر . ولكن في ذلك المتحف تمثالاً لابي الهول المصري بأربعة رؤُوس هو بلا نظير في المتحف المصري

ويلي ذلك قسم السلاح في هذا المعرض وهو كبير عظيم الاهمية جمعت فيهِ اسلحة البشر من اول عهدهم بالقتال اكثر ما فيهِ اسلحة النمسا وملابس قياصرتها وقوادها وقد زاد رونق هذا القسم بما فيهِ من اسلحة الجركس والارنؤُوط المحلاة بالذهب والفضة وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة . واشهرها ملابس اسكندر بك وهو امير الباني نشأ في القرن الخامس عشر وأُخذ اسيراً على عهد السلطان مراد الثاني فربي على الدين الاسلامي في قصر السلطان حتى اذا كبر صار من قواد الجيش العثماني ثم تآمر مع بعض الرجال واستعان بقوتهِ على ارجاع ملك اجدادهِ فتمَّ لهُ ذلك ولم يمكن للسلطان ان يستردَّ البانيا منهُ مدة حياتهِ ومات سنة ١٤٦٧ . ومن هذا القبيل سيف من الذهب للامبراطور كارل الخامس وعصا الملك للامبراطور فردينند الثاني وغير هذا كثير كان ملوك النمسا وامراؤُها يهدونهُ للمتحف او يتركونهُ ارثاً لهُ حتى اجتمع فيهِ كل هذه النفائس

وصعدنا بعد رؤْية هذا كلهِ الدور الاعلى من المتحف على سلم كلهُ من الرخام الابيض فوصلنا قاعات فسيحة بهية جمعت فيها الرسوم المتقنة من صنع اشهر الرسامين وهي تزيد عن الف صورة في عددها وبعضها كبير يملأُ الجدار كلهُ وقد

قسمت هذه الصور الكثيرة حسب انواعها فترى في كل قسم منها الصور الفرنسية او الهولاندية او الايطالية او النمسوية او غير هذا . واما مواضيع هذه الصور فيعسر على الكاتب عددها لانها مختلفة كثيرة الاشكال ولكن منها قسماً كبيراً يمثل حوادث التوراة والانجيل وبعضها ثمين كثير الاتقان من صنع رفائيل المشهور وسواهُ لا تقلُّ قيمة الصورة الواحدة منهُ عن عشرة آلاف جنيه . وبعض هذه الصور خيالات واوهام يختلقها المصورون لتمثيل هيئة الحب او العفة او البسالة او السعادة او غير هذا مما لا يحتاج المتفرج الى شرح معهُ لان الرسم ناطق بالمعنى المراد ولهذا النوع قيمة عند العارفين فان اشهر الصور الحديثة ما كان من هذا القبيل . وبعضها يدل الى مناظر طبيعية زائدة الجمال كأَن تكون مناظر السحاب والشمس من وراء الغيوم او مناظر الجبال والبحيرات والاودية . واكثر ما يرى هنالك رسوم ضفاف الابحر والبحيرات التي تسحر الناظرين بجمالها ويتمنى الرائي لو يمكن لهُ ان يعيش في بقعة من الارض جميلة مثل البقعة التي تشير اليها تلك الصورة . وبعض الرسوم تاريخية رأيت منها رسم واقعة بحرية كان امير البحر النمسوي تجتوف يحارب فيها الطليان على مقربة من جزيرة ليسا سنة ١٨٦٦ وفاز على اعدائهِ وبعض المعارك التي جرت بين الفرنجة والسلطان صلاح الدين ورسوم كثيرة لرودلف هابسبرج مؤسس العائلة الحاكمة في النمسا الى الآن وماريا تريزا التي اشرنا اليها كثيراً واشهرها رسم هذه الملكة حين قامت عليها فرنسا وبروسيا تريدان محاربتها بعد موت زوجها وفرت بابنها الطفل الى بلاد المجر فاستعانت برعاياها المجريين على ارجاع الملك الى ابنها وعقد القوم مجلساً حافلاً للنظر في امرها فلما انتظم المجلس جاءت وعلى ذراعها الطفل الصغير وخطبت في اعيان المجر خطاباً اثار حميتهم وحرك هممتهم الى نصرتها ثم ختمت خطابها بالقول ان هذا ابن مليكم يا ابطالي نخذوهُ وافعلوا ما تريدون

حتى اذا انتهت من الكلام صاح الجمع قائلين "لنمت جميعاً من اجل ملكتنا ماريا تريزا" ونصروها واعادوا الملك اليها والى ابنها وكانت ماريا تريزا من اعظم ملوك لنمسا والمجر

هذا مجمل ما في المتحف الاول. واما الثاني تجاههُ فانهُ خصَّ بالتاريخ الطبيعي اي بالقديم والغريب من اشكال النبات والحيوان والجماد ولهذا القسم بهاء القسم الاول وفخامتهُ من حيث البناء وهو ثلثة اقسام اولها لنوع الجماد وثانيها للنبات وثالثها للحيوان وفي كل قسم اجزاء لما ظهر من هذه الموجودات في كل دور من ادوار الارض الجيولوجية فترى في قسم الجماد احافير ومتحجرات شتى جاءوا بها من اقاصي الشرق والغرب بعضها لا قيمة لهُ الَّا من حيث العلم بتاريخهِ القديم والبعض كثير الجمال غالي القيمة. وقد جعلوا الدور الاول من البناء لقسم الحيوان واكثر ما ترى هنا وحوش مصبرة وزحافات هائلة مثل الحيات الاميركية والهندية على انواعها وبقية الانواع الغريبة. والثاني للنبات وفيهِ غرائب يعسر وصفها اكثرها مصبر ايضاً والثالث للمتحجرات وبعضها جميل الشكل غريب النـــوع. والذين ينتابون هذا المعرض ويتعلمون مبادئ العلوم الطبيعية فيهِ ليسوا بالعدد القليل

وذكرنا الاوبرا الكبرى وهي من احسن ما بني من نوعها تضم خمسة آلاف نفس وفي سقوفها وجدرانها ما لا يحصى من الزخارف ورسوم رجال الموسيقى وقد بنيت ما بين عامي ١٨٦١ و١٨٦٩ رأيت جوانبها الفخيمة وقاعتها الكبرى حيث يجتمع الناس لسماع التمثيل والانغام وفي اعلاها ثريا هائلة المقدار لا يقل فيها عدد الانابيب التي يخرج منها النور عن اربعة آلاف

ويزيد هذا الشارع رونقاً وبهاء ان فيهِ حديقتين احداهما حديقة فولكس احاطوها بسور من الحجر والحديد وفيها المطاعم والحانات والموسيقى فهي يؤمها اهل

ڤينا مئاتهم والوفهم عصارى كل نهار لانها في وسط المدينة . واشهر منها حديقة ستاد بارك هي من اعظم حدائق ڤينا واجملها تشرف على شارع الحلقة وينتابها اهل الطبقة العالية من سكان ڤينا فهي ذات دروب نظيفة وجوانب بهية ومزروعات كثيرة الجمال ومناظر بالغة حد الانقان والفخامة تمرّ في جوانبها قناة من الماء ينصب في بحيرة صغيرة جمعوا اليها اكثر اشكال الطيور المائية وغرسوا الى جوانبها الازهار من كل نوع وكل لون على شكل بديع النظام حتى انهم كتبوا بالزهر المختلف الالوان على ارضها اسم الحديقة وكلمات اخرى فكانما انت هنالك على بساطٍ من العشب وفي البساط صناعة وكتابة وانقان عجيب

هذا اشهر ما يذكر في شارع الحلقة العظيم وهو اجمل شوارع اوروبا واحدثها نشأةً واكثرها مشاهد يتفرع منهُ دروب توصل الى غيرهِ من الشوارع الكبرى وما فيها من المشاهد المعروفة مثل الشارع الموصل الى كنيسة القديس اسطفانوس وهي اشهر كنائس النمسا واعظمها بدىء في بنائها سنة ١٣٠٠ وما زال الملوك ورجال الدين يزيدون في محاسنها الى الآن طولها ٣٥٥ متراً والعرض ٨٩ رسم شكلها مهندس اسمه جورك حكم عليه بالجنون لفرط ذكائهِ ورسمهُ قائم في دار الكنيسة وهو في حالة السجن وبيده الآلات الهندسية . والكنيسة شائقة المنظر من خارجها بنيت على عمدٍ من الرخام وفي داخلها ما لا يمكن عدهُ من آيات الانقان منها الهياكل الكثيرة بعضها قديم العهد وفي جملتها هيكل بني سنة ١٨٥٢ تذكاراً لنجاة الامبراطور الحالي من القتل . وفي ساحة الكنيسة مدفن لبعض القياصرة والكبراء ولكن العائلة الحالية جعلت مدفن افرادها في كنيسة الكبوشيين في ڤينا وهنالك دفن رودولف ابن الامبراطور واليصابات زوجتهُ وقد ذكرناهما في غير هذا الموضع . والى جانب الكنيسة الكبرى التي نحن في صددها برج عظيم ترى منهُ معظم ڤينا وضواحيها

وليس يبعد عن كنيسة اسطفانوس شارع جرابن ولهُ شهرة ذائعة لانهُ ثاني الطرق الكبرى في هذه العاصمة وهو يحفُّ الشجر بجانبيهِ وفيهِ المخازن الملأَى بنفائس الحاجات فترى جماعات الناس تقصدهُ من كل جانب لمشترى بعض ما فيهِ . وهنالك نصب للثالوث الاقدس أُقيم في وسط الشارع على عهد الامبراطور ليوبولد الاول سنة ١٦٩٤ شكراً لله على زوال الطاعون من المدينة . ومن هذا الشارع يمكن لك الوصول الى قصر الامبراطور الذي يقيم فيهِ مدة الشتاء دخلناهُ وراء القيم عليهِ ورأينا من غرائبهِ المشهورة قاعة عظيمة للاستقبال فيها ٢٤ عموداً من الرخام وقاعة الرقاد وفيها سرير كانت تنام عليهِ ماريا تريزا وقاعة المرائي دعيت كذلك لكثرة مرائيها وفيها ساعة لا يلزم لها تدوير غير مرة في كل ثلثة اعوام . وكان الناس ساعة خروجنا من هذا القصر متألبين عند مدخلهِ يريدون التفرج على الكردينال وهو يومئذٍ قام لامرٍ يقضيهِ في قصر الامبراطور فانتظرنا قدومهُ معهم ورأيناهُ بملابسهِ الارجوانية وقبعتهِ المثلثة الجوانب ومن ورائهِ حشم ورجال الدين في عربات أُخرى حتى اذا توارى عن العيان سرنا من القصر الى المكتبة الامبراطورية وهي من اكبر المكاتب العامة في الارض فيها نحو اربعمائة الف مجلد نصفها كتب خطية وكثير منها عربي مطبوع او غير مطبوع ومجلدات من اول عهد الطباعة اكثرها ديني من اثمنها انجيل كتب عَلَى جلد احمر بالحروف الذهبية والفضية في اول القرن السادس وكتب أُخرى خطت على ورق مصنوع من شجر التوت وشجر النخل وغير هذا كثير . والناس من طلبة العلم وسواهم يقصدون هذه المكتبة ويدخلون قاعة المطالعة فيها باذن خاص فيبحثون عن دقيق المسائل في كتبها القديمة فاذا دخلت تلك القاعة اعجبت بما ترى من ادلة الاجتهاد وسيماء الوقار بين أُولئك المطالعين

ويذكر بين مشاهد ڤينا قصر الخزائن وهو مستودع للتحف الامبراطورية القديمة والحديثة لاكثرها شان في التاريخ عظيم من اهمّ ما يذكر بينها خوذة عسكرية من الفضة قدمها الشعب المجري للامبراطور الحالي عند تتويجهِ ملكاً للمجر سنة ١٨٦٧ وفي داخلها اوراق مالية بنحو ٧٥٠ الف فرنك اوقفها الامبراطور لاعانة اهل الحاجة من المجر . ومن ذلك التاج الامبراطوري والصولجان وبقية الحلى التابعة لبيت المالك منها الماسة وزنها ١٣٣ قيراطاً تقدر قيمتها بستين الف جنيه كانت من جواهر شارل الجسور احد ملوك فرانسا وراحت منهُ ثم قيل ان فلاحاً وجدها وباعها بفرنكين لامير توسكانا وانتقلت منهُ الى ملوك ڤينا . ومن ذلك ايضاً الوسامات المشهورة منها وسام فيليس فيهِ ١٥٠ حجراً كريماً في وسطها حجر وزنهُ ٤٢ قيراطاً . وتاج الامبراطورة ماريا تريزا وفيهِ ٥٤٨ حجراً ثميناً وحلي وجواهر اخرى غالية القيمة اودعتها العائلة المالكة وسواها هذا المتحف بعضها على سبيل الامانة وبعضها هدية للمملكة مثل ملابس شارلمان وتاجهِ وصولجانهِ وغير هذا مما لا يحصى

علمت ان ڤينا يدخلها فرع من نهر الدانوب الشهير فلهذا كانت محاسنها متفرقة ما بين قسميها الشرقي والغربي وقد ذكرنا معظم ما يهم ذكرهُ في القسم الغربي . واما القسم الشرقي فاهم ما فيهِ ليوبولدستاد وهو حيٌّ كبير من احياء ڤينا كلهُ منازل مشيدة وطرق فسيحة ومخازن كبيرة ومن اشهر مشاهدهِ تمثال امير البحر تجثوف الذي ذكرناهُ والقوم يعتبرونهُ من اكبر رجالهم لانهُ احيى الامة النمسوية بانتصارهِ على الطليان مع تكاثر عديدهم فهم اعتنوا بتمثالهِ وجعلوهُ على مدخل حديقة براتر المشهورة وجعلوا ارتفاعهُ ٣٦ قدماً وهو على قاعدة تشبه مقدم السفينة صنعت من النحاس والبرونز ومن تحتها رسوم خيل البحر تجرها وتذكّر الناس بالنصر في تلك المعركة البحرية

ولقد ذكرنا ان هذا التمثال في اول حديقة براتر والحق يقال ان في ڤينا حدائق كثيرة والناس يهتمون لحدائقهم ويجعلون لها شأناً خلافاً لما تعودناهُ من اهمال الناس شأن الازبكية في مصر مع انها من اجمل الحدائق العمومية وقد تضاهي الحدائق المشهورة في اوروبا ولكنها لولا الموسيق الانكليزية تصدح مدة وجيزة في بعض ليالي الصيف لما رأيت فيها شيئاً من مظاهر الهيئة الاجتماعية . وحدائق براتر هذه مجموع حراج غضيضة غرست في ارض اريضة وغابات بهية تتخللها مروج من العشب شهية فلا تقلُّ مساحة الكل عن اربعة آلاف فدان تقسم اقساماً ثلثة اولها متنزه هوبت وهو شارع عريض جميل تمرُّ بهِ العربات عشرات ومئات ويمرُّ الناس مشاة او على ظهور الجياد . ويحف بهذا الشارع غابات من شجر الكستنا تشرح بمنظرها الصدور وفي وسطها مطاعم يلذ للآكل فيها الطعام وحانات للبيرا وسواها يقعد الواحد فيها فيسمع شجيَّ الانغام واكثر ما يكون اجتماع الخلق هنا في ايام الاحد او يوم عيد الامبراطور او اليوم التالي لعيد الفصح وهو هنالك بمثابة شم النسيم في القطر المصري . والقسم الثاني من هذه الحديقة يعرف باسم (فورويك) وفيهِ العاب كثيرة من خيل خشبية تسير بالبخار واراجيح ومشاهد شتى يجتمع اهل الطبقة الوسطى لمشاهدتها في كل حين ويقصدها اصحاب العائلات فيركبون اولادهم تلك الخيول الصناعية ويجارونهم على اللعب والضحك . وهنالك بحيرة صغيرة تجري عليها زوارق صغيرة للاولاد ايضاً ويسيرها البخار والعاب اخرى يلذُّ التفرج عليها واولئك الصغار بملابسهم النظيفة يضحكون ويطربون

وما زلنا نسرّح الطرف بتلك المناظر حتى وصلنا بناء المعرض الذي انشئَ سنة ١٨٧٢ وهو عظيم الارتفاع يشرف على تلك الغياض والحراج والمنازل الى مسافة بعيدة بني من الخشب والحديد ومن ورائهِ سلم من الحديد ارتقينا ذراهُ حتى

اذا وصلنا القمة رأينا ڤينا وضواحيها من دوننا والنهر ينساب انسياب الافعى بين منازل مشيدة وغابات غضة نضرة وأودية بهية وهضاب منضدة بالزهر والبنيان الفخيم . ولا بد لكل سائح يريد ان ترسخ في ذهنهِ صورة المدن التي يزورها ان يطلَّ عليها من موضع مثل هذا مرتفع وقد كان هذا شأني في اكثر الاماكن فاني جعلت هذه النظرة الاجمالية خاتمة ما اردت رؤيتهُ في ڤينا وقصدت من بعدها الضواحي التي يجيء ذكرها في الفصل التالي

ضواحي ڤينا

لضواحي ڤينا شهرة تحكي شهرة الضواحي التابعة لاكثر الضواحي المشهورة ولا تزيد عنها في الاهمية غير ضواحي باريز البهية . من ذلك جبل كاهلبرج قصدناهُ صباح يوم في باخرة تقوم من ترعة الدانوب وكان الناس يومئذٍ جماهير تتسابق الى ذلك الموضع فسرنا في الباخرة هذه حتى بلغنا قرية نسدورف وكان قطار سكة الحديد ينتظر القادمين اليها لينقلهم الى اعلى الجبل في سكة كانت تختلف ما بين صعود ونزول وانحناء يمنة او يسرة ودخول وخروج بين غياض الشجر الباسق ومروج العشب النضر . واغرب من هذا صعود القطار في اكواعٍ ملتفة الى قمة ذلك الجبل والمناظر تتبدل من حين الى حين فتتبدَّى الطبيعة بكل جمالها الساحر للقاعد في الرتل وهو يتقدم صعداً الى تلك القنة ومن دونهِ الحراج والبقاع والاودية فيحدث جمال ذلك المنظر فتنةً في القلوب ويحيي في النفوس بهجة لا يوصف لها مقدار . وعلى مثل هذا بلغنا غاية المتفرجين ودرنا بين الطرق المفروشة بالرمل نرى هنا مزارع بهية وهنا منازل مشيدة مطلية وهنا حانات تجتمع الناس فيها والنفوس

منهم رضية وهنا مطاعم يتناولون فيها الالوان الفاخرة على صوت الالحان الشجية والكل ناظرون الى عاصمة النمسا وما يليها معجبون بما اوجدهُ التحسين الصناعي فوق تلك البدائع الطبيعية

ومن هذا القبيل قصر شونبرن وهو مصيف الامبراطور بنتهُ الملكة ماريا تريزا واقام فيهِ نابوليون مدة وجوده في هذه العاصمة . ومن مؤلمات الاحكام التي لا تردُّ ان ابن هذا الفاتح العظيم من امرأتهِ الثانية وهي ابنة امبراطور النمسا مات في الغرفة التي كان والدهُ ينام فيها وهي من غرف هذا القصر الفخيم . قصدت هذا القصر مع جماعة كثيرة من السائحين فاتانا خادمهُ وادخلنا بعض جوانبهِ ولا حاجة الى القول انهُ آية في الحسن والزخارف وان رياشهُ وبناءهُ وبقية ما فيهِ يليق بقيصر عظيم وملك بلادٍ كبرى وفي جملة قاعاتهِ واحدة تعرف باسم القاعة الصينية كل رياشها حرير اسود مزركش بالقصب وخشبها من اللك الاسود المصقول وقاعة واسعة الجوانب للاستقبال والولائم الكبرى تضم فوق ١٥٠٠ نفس . وفي القصر مكتبة خاصة بالامبراطور وكنيسة صغيرة لهُ ولاعضاء عائلتهِ وملهىً صغير لمن ذكرنا ايضاً ومواضيع اخرى فائقة الاتقان كثيرة الجمال . ويلحق بهذا القصر حديقة او هي مجموع غابات وحدائق كانت في ما مرَّ من الايام حراجاً يصطاد الامراء فيها الايل والارانب فمشيت في طريق بهذه الحديقة يحفُّ بهِ جداران او هما بالحقيقة صفان من الشجر تعرَّشت اغصانهُ والتفت عروقهُ وعولجت بالمقراض حتى صارت مثل السور الاخضر طولهُ ٣٢٢ متراً وفي آخرهِ بركة من الماء بديعة ووراؤُها اكمة تغشاها الاعشاب السندسية وفي اعلاهُ كشك بديع الصنع من الرخام النقي . وما زلت اسرح في هاتيك الطرقات البهية حتى بلغت معرض الزهر والحيوان فاما الزهر فانهُ جمع من اطراف الارض وغُرِس هنا في حقول بديعة

الترتيب وبعضهُ لا ينمو الاَّ في الاماكن الحارة فهم غرسوهُ داخل بيوت من الزجاج والنار توقد من تحت ارضهِ حتى يظلّ على النماء فترى من اشكال النبات في تلك الحديقة ما يعجز عن وصفهِ قلم المتغزل بمحاسن الطبيعة . واما الحيوانات فبينها في هذا الموضع كثير من كل غريب الطبع والشكل جاؤُا بهِ من اقصى الاقطار ولكن معارض باريز ولندن للحيوانات اشهر من هذا المعرض واكبر . وجملة القول ان هذه الحديقة من اعظم متنزهات ڤينا يقصدها الناس لفخامة منظرها وحسن هوائها واما الذين يريدون اللهو والطرب فعليهم بحديقة براتر التي ذكرناها

ومن هذا القبيل ڤيسلاو وهي مجموع عمائر لاهل الترف والاكابر واقعة على جبل ارتفاعه ٨٠٠ قدم ولها شهرة بالخمرة اللذيذة سرنا اليها بالقطار انتهى بنا الى سفح الجبل ومنهُ قمنا في عربة سارت صعداً الى راس الموضع . وفي تلك الجهات حمامات معدنية تفيد في تقوية الاعصاب والماء فيها بارد جداً يرشُّ على الجسم من كل الجوانب رشاً شديداً يكاد الرجل ان يقع من وقعهِ وقد رأيت هنالك رجلاً رومانياً من بخارست قال لي انهُ جاء تلك الحمامات مقعداً يسير على العكاز فتقوَّت اعصابهُ حتى صار يمشي بدونها . وبعد ان اقمت مدة في ذلك الموضع البديع عدت الى ڤينا بطريق بادن وهي بلدة مشهورة بحماماتها المعدنية تفيد في الامراض العصبية وتشفي من داء الروماتزم فالناس يأتونها من كل صوب بعيد للاستحمام في حماماتها الكثيرة واكثرهم يأتونها عن طريق ڤينا

بلاد المجر

قبل ان نتقدم الى وصف بلاد المجر وعاصمتها بودابست لا بدَّ من ذكر شيءٍ عن السياحة في نهر الدانوب العظيم لشهرة مناظره وجمال غرائبهِ فاني قمت في باخرة صغيرة اجتازت الترعة التي تتفرع من الدانوب الى ڤينا فلما انتهت الى النهر الكبير القت رحلها فتركناها ودخلنا باخرة اكبر منها سارت في صباح ذلك اليوم وظلَّت تمخر عباب النهر مدة ثلث عشرة ساعة ومرَّت على تسع عشرة محطة قبل ان بلغت بنا عاصمة المجر. وفي اوائل الطريق قريتا اسبرن وايزلن اللتان جرت فيهما المعارك بين النمسويين وجنود نابوليون الاول وكانت جنود ذلك الفاتح العظيم قد عبر نصفها نهر الدانوب الى الضفة اليسرى من النهر فاضرم النمسويون النار في الجسر الذي يوصل بين الضفتين عند جزيرة لوبو وهجموا علَى النصف من جنود نابوليون فاضطروهم الى التقهقر وكانوا ١٥٠ الف راجل و ٣٠ الف فارس و ٧٠٠ مدفع واستحكاماتهم باقية آثارها الى اليوم. على ان بونابارت عاد وعبر النهر من نقطة أُخرى واستأنف القتال فبطش بجيش النمسا وفلَّ مواكبهُ وسحق قوتهُ ودخل ڤينا علَى مثل ما جاء في الشذرة التاريخية. وسرنا من ذلك الموضع الى بلدة هنبورج وهي مشهورة بمعمل للدخان أنشأتهُ حكومة النمسا على نفقتها وعمالهُ بنات عددهنَّ الف وخمسمائة وتليها برسبورج وهي عاصمة المجر من قدم يبلغ عدد سكانها ٥٠ الفاً وهذه هي المدينة التي جاءتها ماريا تريزا تستنجد اهلها من ابطال المجر علَى الاعداء فأنجدوها ونصروها على مثل ما تقدم معنا. ومنظر البلاد في هذه الناحية جميل والناس الذين نزلوا في هذه المحطة او صعدوا الباخرة منها كثار لاهمية الموقع فكنا هنا وفي كل مدة أُخرى مدة السياحة في الدانوب نتطلع ابداً الى ما حولنا

من المشاهد ونستعين بالآلة المقربة على ما بعد من الاماكن ولطالما رأينا في الطريق جزراً بهية تمرّ الباخرات الذاهبة من احد جانبيها والغادية من الجانب الآخر وكلها خضرة تنفي عن القلب الحزن وعمائر وضياع نظيفة تدل اراضيها على الخصب الوافر واعتناء الناس باستدرار ما فيها من الخير الكثير وهم يسمون هذه الجزر بجزائر الذهب لان ارضها اريضة خصيبة وخيرها متدفق كثير

وبعد هذا مررنا ببلدة استرجوم التي كانت مقر القديس اسطفانوس اول ملوك المجر في آخر القرن العاشر للميلاد وكان اسطفانوس هذا اول من نشر الدين المسيحي في بلاده وما يليها . وعظمت استرجوم من بعدهِ فصارت مقرًّا للمتاجر الواسعة فلما اغار عليها التترسنة ١٢٤١ امحت آثار عظمتها وتقلص ظل تجارتها وعادت فانتعشت قليلاً في ايام بيلا احد ملوك المجر ثم استولى عليها العثمانيون سنة١٥٤٣ وهدموا كنائسها فلما انجلوا عن النمسا برحوا هذه المدينة ايضاً فعادت الى التقدم والنماء . وتقدمنا من هنالك الى جزيرة جميلة تعرف باسم مرغريت فما عتمنا ان ابعدنا عنها وتوارت هي عنا حتى اشرفنا على مدينة بودا في الضفة الشرقية من نهر الدانوب وتجاهها مدينة بست في الضفة الغربية ومن هاتين المدينتين تتكون بودابست عاصمة المجر فرست الباخرة قليلاً في بودا ريثما نزل منها من نزل ثم تحولت الى الضفة الاخرى. ونزلنا في مدينة بودابست في فندق اسمهُ اوتيل هنغاريا (المجر) وهو منزل واسع فخيم فيهِ ثلثمائة غرفة بُني على ضفة الدانوب ومنظر النهر والمدينتين منهُ في الليل من اجمل ما اكتحلت بمرآه العين لان الانوار الكثيرة من السفن في الماء ومن المنازل في الجانبين تنعكس على الماء ويضاف الى رونقها خرير الماء والحركة الدائمة في كل جهة فتجعل لهذه المدينة منظراً من اهم المناظر

✻ بودابست ✻ واما مدينة بودابست وعدد سكانها ثمانمائة الف نفس فهي مجموع

مدينتين كما علمت يوصل بينهما جسر عظيم سنذكره وزوارق من كل نوع تروح وتجيء ما بين الضفتين في كل آن. وقد أُسست هذه المدينة على عهد الرومانيين فلما اخلوها سنة ٢٧٥ للميلاد توطنتها قبائل الغوطة ثم جاءها اقوام الفندال سنة ٣٣٧ ثم وافاها الهون سنة ٤٠٧ وكلهم من اهل اوروبا الاول وتلاهم غيرهم حتى استولى عليها شارلمان في القرن الثامن وملكها المجر بعد وفاته ثم غزاها التتر على عهد باتوخان حفيد جنكيزخان المشهور في القرن الثالث عشر . فلما خرجوا منها اصلح بيلا ملك المجر ما تهدم من معالمها وعمل على اعادة عزها المتردم فدعا اليها الناس من كل جانب ورغبهم في السكن والاقامة فجاؤُها من باڤاريا وايطاليا وجزائر الروم وبولونيا . ومن ذلك الحين نمت وتقدمت ثم عادت وتأخرت من بعد هجمات الاتراك لانهم أعملوا السيف في اهلها واضرموا النار في جوانبها سنة ١٥٢٦ وسنة ١٥٤١ واقاموا فيها من بعد هذه السنة ستين عاماً ثم برحوها بعد متاعب كثيرة ولكنهم عادوا اليها سنة ١٦٠٤ فانتقموا من اهلها وظلوا فيها الى سنة ١٦٨٦ فلما خرجوا اهتم ملوكها باعادة رونقها حتى بلغت شأوها الحالي وهي الآن ثانية مدائن السلطنة النمسوية . وسكان هذه البلاد ١٥ مليوناً هم خليط من اجناس كثيرة كالالمان والمجر والسرب والرومان والسلاف والارمن والبلغار وبقايا الاتراك والارنؤوط والفرنجة ولكن المجر وهم ٦ ملايين عداً يسودون سواهم سيادة تامة في هذه البلاد واكثر الاحكام والاعمال الكبرى في يدهم . وقد تفرد هؤُلاء القوم بحسن الخلق وكرم النفس وسعة العقل وجمال المنظر ولعلهم كسبوا جمال الوجوه من كثرة الاختلاط فان نساءهم جمعن المحاسن الشرقية الى الاحاسن الغربية فهنَّ في طبقة ممتازة بين اهل الجمال ولاسيما في العيون النجلاء والوجوه البيضاء

واهم ما يذكر عن بودابست شارع اندراسي وهو اعظم شوارعها سمي باسم

الكونت اندراسي السياسي المجري المشهور الذي تولى الوزارات ورأسها مراراً وكان من اقران بسمارك ودزرائيلي في السياسة . والشارع طولهُ ميلان وعرضهُ ٤٠ متراً وارضهُ مرصوصة بالخشب وارصفتهُ واسعة وفي جانبيهِ اشجار جميلة من ورائها القصور والمنازل والمخازن البهية حيث تباع الابضعة الثمينة . وفي هذا الشارع بناء الاوبرا وهو من الابنية الجميلة تمَّ بناؤُه سنة ١٨٨٤ ويعمل الآن فيهِ نخبة من ارباب الموسيقى المجرية وهي ذات شهرة في اوروبا ذائعة فقلَّ ان يجتمع جوق للغناء ولا يغني احد الانغام المجرّية واكثر انغامهم حماسية وهي اقرب الى الشرقية من سواها كما ان المجر اقرب من سواهم في الطباع والعوائد والهيئة والاخلاق الى الشرقيين من معظم الاوروبيين حتى انهم ليعدون امة شرقية في اوروبا ولبعضهم اسماء لا تختلف كثيراً عن الاسماء العربية والتركية ولهم ملابس قديمة العهد يفخرون بها الى الآن في بعض الاحيان هي شرقية في زيها . وفي هذا الشارع بناء عظيم لادارة سكك الحديد المجرية والمتحف ومعظم ما فيهِ آثار ملوك المجر وقوادهم واسلحة قديمة ونقود ورايات وملابس وغير هذا مما يؤْخذ منهُ تقدُّم هذه الامة من عهد بعيد وفيهِ ايضاً مجلس النواب المجري وهو حديث البناء بالغ الزخرف والرواء يزيد اتقاناً عن مجلس النواب في ڤينا عاصمة السلطنة وقد انفقوا عليهِ نحو مليوني جنيه . وينتهي هذا الشارع بحدائق غناء فيها القصور الباذخة ومن هنا ركبنا الترامواي الكهربائي الى الحديقة العمومية وفيها الخانات والمطاعم والمتنزهات والبحيرات وكل ما راق منظرهُ من الزهر والشجر حتى انهم وجدوا فيها مياهاً كبريتية تفيد في الروماتزم وامثالهِ فبنوا فوقها حمامات يقصدها المستشفون ولها منظر جميل ونظام بديع . واما الترامواي الكهربائي الذي اوصلنا الى هذه الحديقة فيختلف عن الترامواي المعروف في مصر في ان العربات تستمد قوتها من اسلاك تحت الارض

متصلة بالخط الحديدي الذي تسير عليهِ العربات فلا حاجة الى مثل ما نرى هنا من العمد والاسلاك الكثيرة فوق رؤُوس المارة . واغلب الشركات في فرنسا وايطاليا جرت على الطريقة المعروفة في مصر واما في اسبانيا وهولاندا وانكلترا فانهم يضعون البطارية التي تتولد منها الكهربائية الدافعة للعربات في العربة الاولى من القطار . ويقال بوجه الاجمال ان الترامواي الكهربائي لم يشع استعمالهُ في اوروبا الى الآن وربما كان اقبال الناس في مصر عليهِ اكثر من اقبالهم في مدائن اوروبا . واكثر ما يكون الترامواي عندهم في الشوارع المتباعدة عن مراكز المدن حيث يقل الزحام واما في الشوارع الكبرى حيث تكثر الحركة فيندر ان تسير قطرات الترامواي وهذا يخالف الذي نراهُ في مصر حيث مدَّت خطوط الترامواي في شوارع ضيقة تكثر الحركة فيها مثل شارع كلوت بك ومحمد علي والفجالة وقد نشأ عن ذلك صعوبة في مرور الناس والعربات على ما يعلم الجمهور

قلنا ان المجريين اشتهروا بالموسيقى المعروفة عنهم والحق يقال انهم اشتهروا ايضاً بالرسم والنقش والتصوير والشعر فهم اهل ذوق لطيف لانهم اتقنوا الفنون الجميلة ومن اكبر آيات الفخر عندهم ان يشير المرء منهم الى جدٍ لهُ اشتهر بالشعر او بالتصوير وقد قام بينهم مشاهير بهذه الفنون وقادة وساسة كثار حتى انك كيفما سرت في هذه المدينة العظيمة ترى رسم كبير او نصب شهير من رجالهم ولعلَّ بودابست اكثر العواصم الكبرى نُصباً وتماثيل من هذا النوع وهم يتفاخرون بجميع الصور والآثار الفنية القديمة فاني عرفت عائلة من عائلات السراة عندهم اسمها استرهازي كان احد افرادها يتردد على مصر كل شتاء وينفق فيها الاموال الطائلة حتى آل بهِ الامر الى الحاجة فباع ما عندهُ من نفيس الرسوم وفاخر الصور بالمزاد

العاني واشترت حكومة المجر ما عندهُ بنحو مليونين وستمائة الف فرنك سنة ١٨٦٥ ونقلتها الى متحف فرانس جوزف للفنون الجميلة. واني قصدت هذ المتحف ورأيت غرائب الصناعة فيهِ واعظم صورهِ دينيـة تمثل حوادث ذكرت في الانجيل والتوراة مثل هرب المسيح الى مصر وصورة ابرهيم وامرأتهِ هاجر وغير هذا واكثر الصور المتقنة من صنع موريلو المصور الاسباني المشهور وبعض المصورين المجريين. وقد اطلقوا اسم فرانس جوزف على اشياء كثيرة غير هذا المتحف منها شارع كبير يمتد على طول ضفة الدانوب الى البورصة الجديدة وادارة الجمارك والناس يقصدون هذا الشارع البهي من كل جانب للنزهة والفرجة بعضهم على بعض وللجلوس في الاماكن العمومية الكثيرة فيهِ وهي تشرف عَلى الدانوب. وينتهي هذا الشارع او الرصيف عند الجسر العظيم المعروف بالجسر المعلق سمي بهذا لانهُ بني بدون عمد او دعائم ركزت في وسط النهر رسمهُ احد مهندسي الانكليز وانفقت مدينة بودابست على بنائهِ ثمانية ملايين وربع المليون من الفرنكات وهو من اجمل الجسور المعروفة في الدنيا واكبرها واشهرها طولهُ ٤١٨ متراً وعرضهُ ٣٠ قدماً وارتفاعهُ عن سطح الماء ٤٢ وفي طرفيهِ من هنا ومن هنا عمال يتقاضون رسماً طفيفاً من كل مارٍّ عليهِ ومنظر المدينة الى الجانبين من ذلك الجسر كثير الجمال

ومما يذكر بين مناظر بودابست جزيرة صغيرة على مقربة من المدينة اسمها مرغريت انفقوا الوف الالوف على رسمها وتنظيمها وتحسينها وجعلوها متنزهاً لاهل العاصمة فصارت من اجمل المواضع التي تنشرح الصدور لمرآها لانها واقعة في وسط النهر وكلها محاسن طبيعية وصناعية فترى الناس ينتابونها في كل يوم ولاسيما في ايام الاحد والاعياد وهم يأتونها في زوارق وسفن بخارية صغيرة تقوم اليها كل نصف ساعة وفيها غير ما تعلم من البرك والحدائق والمطاعم والحانات الكثيرة خط

للترامواي تجرُّ عرباتهِ الخيل يسير في طول الجزيرة بين صفوف الشجر وغرائب المنظر ويسمع في جانبها الانغام المجرية تصدح بها الموسيقى الوطنية ورجالها مترّدون بالملابس المجرية القديمة فيلذ للناس كثيراً سماع انغامهم ويظهر الجمع لهم الاستحسان بالتصفيق في نهاية كل دور . وللملابس المجرية القديمة شأْن عند هؤُلاء القوم وهي تعرف باللون الاخضر الغالب فيها لانهُ شعار الامة المجرية فبعضهم يلبسون القبعات الخضراء في الاحتفالات الوطنية دليل تحمسهم وتذكرهم شعار الوطن ولهذا أُضيف الى راية النمسا خط أخضر بعد انضمام المجر اليها . واكثر ما يكون لبسهم للقبعات الخضراء خارج بلادهم ليظهروا للملاءِ جنسيتهم

وجملة القول ان جزيرة مرغريت هذه من احلى ضواحي بودابست وابهاها قضيت فيها النهار بطولهِ حتى اذا خيم الغسق عدتُ الى المدينة وشهدت تمثيل رواية مجرية قديمة في الملعب الكبير رأيت فيها صفوفاً من البنات المجريات بالملابس العسكرية المجرية وهي قبعات خضراء مذهبة وسراويل بيضاء وسترقصيرة حمراء مزركشة بالقصب . وقد حمل افراد هذا الجيش الجميل الرماح وتقلدنَ السيوف وسارت واحدة منهنَّ بارعة الجمال في الطليعة فكان لمنظرهنَّ بهجة تفوق الوصف

هذا كله في مدينة بست او هي القسم الشرقي من عاصمة المجر وقد مرَّ بك ان الجسر العظيم موصل بينهما وان النهر تملأُهُ الزوارق والبواخر التي تروح وتجيء بالناس في كل ساعة بين الجانبين . واما بودا فاننا رأينا حال وصولنا انها بنيت على مرتفع من الارض سفحهُ عند النهر وقمتهُ عالية تشرف على ما بَعُدَ من المناظر فهم يصعدون من السفح الى القمة في آلة رافعة مثل التي يستعملونها في البنايات وهي عبارة عن غرفة برياشها ومقاعدها ترتفع بالقوة الميكانيكية او تنزل فتستقرُّ حيث يريد الناس فلما قعدنا فيها مع القاعدين وبدأَت بالصعود تأملنا مدينة بست وهي

امامنا من وراء النهر فاذا بها تهبط وتدور والحقيقة اننا كنا نصعد فيخيل لنا ذلك حتى اذا وصلنا آخر المسافة كانت المدينة تحت نظرنا من اولها الى آخرها وكان لذلك المنظر غرابة لا يزول ذكرها من الذهن . وفي بودا هذه قلعة قديمة كانت في يد الاتراك فلما خرجوا من بلاد النمسا والمجر بقي رجال هذه القلعة فيها ودافعوا عنها دفاع الابطال مدة اربعة اشهر فاظهروا ما اشتهر عن امتهم من البسالة الغريبة ثم سلموا لتكاثر العدد عليهم ولم يجد الفاتحون في القلعة حين دخولها غير عدد قليل من هؤلاء الرجال . ولم تزل آثار الترك باقية في هذه المدينة حتى ان فيها جامعاً صغيراً وفيهِ مقام للشيخ جول بابا بني على تلٍّ جميل المنظر وقد بقي الجامع والمقام على حالها الاول باتفاق تمَّ بين الدولة العلية ودولة النمسا حين خروج الاتراك من بودابست . وللجامع خادم تركي يلبس لبدة بيضاء وعمامة بيضاء صغيرة وبقية ملابسهِ تحكي ملابس المشايخ الاتراك . والمسلمون في بودابست يحيون مولد صاحب المقام في كل عام باحتفال يذكر وبعضهم يأْتون من الاستانة لحضور هذا الاحتفال . وللمجر علاقة بالدولة العلية تزيد عن غيرها نظراً لما بين المملكتين من القرب والاتصال ولاسيما بعد ان وصلت ڤينا بالاستانة عن طريق بودابست هذه بسكة الحديد وهي متصلة ايضاً ببقية اوروبا حتى انهُ ليمكن السفر في عربة واحدة من باريز الى الاستانة على هذا الطريق . ولم يتم هذا الاتصال الاَّ في سنة ١٨٨٨ فكان الذين يزورون الاستانة قبل ذلك عن طريق بودابست يسافر الى بخارست عاصمة رومانيا ومنها الى بلغاريا حيث تقوم باخرة من ڤارنا في الحدود البلغارية الى الاستانة

ومن اهم ما يذكر في بودا قصر فخيم للامبراطور يقيم بهِ حين يجيء المدينة ويستقبل كبراء المملكة ووزراءها ونوابها . واما النواب فلهم مجلس خاص بهم على

مقربة من الشارع الكبير في بست وقد اشتهر نواب المجر ببلاغتهم وفصاحتهم وغزارة معارفهم وقام من بينهم فطاحل السياسة مثل اندراسي وتاف وتسا وغيرهم وهم احرار في مبادئهم السياسية يميلون الى التقدم مع الزمان وقد سنوا لبلادهم نظامات حرة كثيرة الفائدة يحسدهم على مثلها النمسويون

وفي بودا ايضاً المجلس البلدي للمدينة وهو لا يختلف عن المجالس البلدية الاخرى في ترتيبهِ ونوعهِ . وفيها كنيسة مار متى المشهورة بنيت في القرن الرابع عشر تجاه المجلس البلدي كان ملوك المجر يعدونها خاصة بهم وقد توّج الامبراطور فرانس جوزف الحالي ملكاً للمجر في هذه الكنيسة سنة ١٨٦٧ . والذي يمكن وصفهُ في بودابست كثير وهي كما تقدم القول مدينة زاهرة عامرة اهلها ذوو يسار ونعمة وليس فيها ما في غيرها من قلاقل اهل الفوضى و كثرة الاحزاب واهلها راقون متعلمون لهم ولع بالامور المجرية وميل الى وطنهم شديد . فلما انقضت مدة زيارتي لهذه المدينة البهية عدت الى ڤينا ولكنني اخترت هذه المرة سكة الحديد بدل النهر حتى ارى الطريقين ما بين المدينتين والخط يجري بازاء النهر في اكثر الاحيان ويتباعد عنهُ في مواضع فيدخل اونة بعد اخرى بلاداً كثير جمالها يضيق المقام عن وصف احوالها

الحمامات المعدنية

معلوم ان بلاد النمسا اشتهرت بحماماتها المعدنية التي تقوي الاجسام وتشفي من بعض الامراض حتى انها صارت ملاذ الاكابر ومصيف الامراء يأتونها مستشفين او متفرجين واشهر هذه الحمامات في مدينة كارلسباد سرنا اليها بقطار سكة الحديد من ڤينا فوصلناها بعد ١٢ ساعة وهي مدينة مشهورة لا يقل عدد

الوافدين عليها كل سنة عن اربعين الفاً يأتونها من كل حدب وصوب وقد كثر ذهاب الناس من مصر اليها في الاعوام الاخيرة واشتهر امرها بين الكثيرين . وفي كارلسباد ١٤ نبعاً للماء المعدني على اشكالهِ تختلف حرارتهُ ما بين ٢٦ و ٧٢ درجة بمقياس سنتغراد . قيل ان اكتشاف هذه الينابيع المعدنية كان بطريقة غريبة هي ان الملك كارل الرابع خرج للصيد في احد الايام وبيناهو يتأثر الايل في هذه البقعة رأى كلابهُ تتوجع من حرارة الماء فأمر بارسال كمية منهُ الى الكيماويين ليحللوهُ ويعلموا امرهُ فعرفوا انهُ يخالطهُ قلويات واملاح تفيد الابدان واشتهر امر هذه الحمامات بعد ذلك حتى كبرت المدينة ونمت من كثرة القادمين اليها وفرضت المدينة ضريبة مقدارها عشرة فرنكات تتقاضاها من كل قادم للبلد وتنفق مجموع هذه الضرائب على تحسين المدينة وتسهيل الاقامة وتوفير الراحة للقادمين وقد بلغ دخل هذه المدينة في العام اربعمائة الف فرنك مع انها صغيرة لا يزيد سكانها عن خمسة عشر الفاً ولكن فيها نحو ٥٠ طبيباً مدة فصل الاستحمام يدلون المريض الى النبع الذي يجب الاعتماد على مائهِ وما يلزم لهُ من الاكل والشرب وغيرهذا من النصائح اللازمة . والناس يخرجون كل صباح الى اماكن الاستقاء من الماء المعدني وفي ايديهم اقداح يتناولون الماء بها كلٌّ في دورهِ وقد اوقفت البلدية رجالاً من البوليس لخدمة الناس والمحافظة على النظام بينهم وبنت اروقة وابنية بديعة الى جانبها يلجأُ اليها الناس ويستريحون او يقضون ساعات الفراغ وهم يسمعون الانغام الشجية . وليس ينحصر دخل هذه الينابيع في الضريبة التي تتقاضاها الحكومة من القادمين ولا في اجرة الحمامات ولكنهم يصدرون من مائها مقادير عظيمة في زجاجات معروفة الى كل ناحية فقد بلغ عدد الزجاجات التي تصدر من كارلسباد كل عام ثلاثة ملايين زجاجة وتسعين الف رطل من الملح يخرج من ماء الينابيع .

وبعض تلك الينابيع يندفع الماء منهُ بقوة كبرى مثل نبع سبرودل يرتفع ماؤهُ ١٣
قدماً عند خروجهِ ويصب في بركة نحو ٣٣ متراً مكعباً كل دقيقة ودرجة
حرارتهِ ٧٢ سنتغراد فيتناول الشاربون الماء مصاً كمن يشرب القهوة او الشاي.
واكثر الينابيع تجد فيها البنات يخدمنَ القادمين خدمة تنشرح لها الصدور وهؤلاء
الخادمات كثيرات ايضاً في المطاعم والمتنزهات المحدقة بالمياه المعدنية من كل جانب
ولكل خادمة منهنَّ نمرة تعرف بها . والمرء اذا فرغ من الاستقاء عند الصباح ذهب
الى المطاعم المذكورة وبعدها دار في تلك المتنزهات الكثيرة واهمها جبال تحيط
بالبلدة وكلها غياض غضة من شجر الصنوبر الباسق تفوح روائحهُ العطرة في كل
جانب وقد نظمت طرقات بديعة متعرّجة للصعود الى رأس تلك الجبال ووضعت
المقاعد في الطريق يستريح عليها الناس وعلقت في بعض الاشجار ايقونات لمن
يريد الصلاة في الطريق . واهم هذه الجبال جبل فرانس جوزف ارتفاعهُ ١٦٣٧
قدماً وجبل ايبر ارتفاعهُ ٢٠٠٠ قدم وغيرهما

واما المطاعم والفنادق في كارلسباد فكثيرة جداً تكفي لكل الزائرين والنازلين
وكلها تحت مراقبة الحكومة متبعة النظام الصحي فلا اطعمة غليظة فيها ولا افاويه
حارة ولا فاكهة مضرة . وكل الاماكن العمومية في كارلسباد تقفل عند الساعة
التاسعة من الليل حتى ان المراسح تقوم بالتمثيل في النهار اتباعاً لرأي الاطباء وعملاً
بما يفيد المستشفين وهم الفريق الاكبر من زوار المدينة يأتونها من كل جنس وملة.
واني اذكر اني اجتمعت على مائدة واحدة للطعام برومي وفرنساوي وانكليزي
وبلغاري ورأيت جماعة كثيرة من الوجهاء المعروفين في مصر

ومن المواضع المشهورة بحماماتها المعدنية قرية جيسهبلر يصدر من مائها المعدني
مقادير وافرة الى كل جهة فيشربهُ الناس صرفاً او ممزوجاً بالخمر وهي تبعد نحو

ساعتين عن كارلسباد سرنا اليها من المدينة المذكورة في طريق كلهُ غياض كثيفة لا يرى شعاع الشمس فيها من كثرة الشجر الاَّ في مواضع قليلة . وقد كانت ارض جيسهبلر هذه ملكاً لواحدٍ من امراء النمسا فلم يستفد منها شيئاً و باعها لرجل ذي همة وذكاء اسمهُ الخواجه ماتوني ماعتم ان ملك تلك الارض حتى عُني باستخراج مائها الشافي وجعل يصدر منهُ المقادير العظيمة ويعلن في الجرائد عن فائدتهِ ويسعى في تعميم استعمالهِ حتى نال شهرة عظيمة واثرى الرجل وصار عندهُ مال طائل فنقل بيتهُ الى هذه الجهة وقطع اشجاراً كثيرة بنى محلها قصراً جميلاً لهُ ولعائلتهِ ومساكن للعمال الكثيرين الذين يشتغلون في تعبئة الزجاجات ماء واصدارها الى بقية الجهات وهم مئات يعملون في الليل والنهار بعضهم يتلقى الماء من النبع و بعضهم يملأُ الزجاجات ماء و بعضهم يسد الزجاجة و بعضهم يلصق عليها اوراقاً باسم المحل وصاحبهِ وبعضهم يضعها في الصناديق المعدة لنقلها حتى اذا ملئت الصناديق نقلت الى الجهات الكثيرة ومعظمها يرسل الى البلاد الحارة وهي تجارة رابحة دائمة لا وقوف لحركتها مدة العام بطولهِ . وقد بنى الخواجه ماتوني ايضاً حدائق وفنادق للزائرين وجعل هذه البقعة ذات اهمية كبرى وسمي هذا الموضع بالميزاب لانهُ يدرُّ الذهب على صاحبهِ كما يدرُّ الميزاب ماء العين . والمكان بوجه الاجمال من انسب الاماكن للاستشفاء لان هواءهُ نقي والمناظر المحيطة بهِ في الدرجة الاولى من البهاء والرواء

ومن هذا القبيل ايضاً مدينة ماريمباد تقرب من كارلسباد في شهرة ينابيعها المعدنية وهي تفيد في تقليل السمن وعلى مقربة منها بلدة اسمها فرنسس باد تزيد المستحمين بمائها سمناً واكثر الذين ينتابون هذه الحمامات المعدنية سيدات من اللواتي يعتنينَ باجسامهنَّ فترى في ماريمباد جماعات منهنَّ سمينات يشربنَ ماءها و يغتسلنَ

ليذهب قليل من سمنهنَّ وقد جعل جلالة ملك انكلترا يقصد هذه الحمامات كل سنة في العهد الاخير فزاد اقبال الناس عليها زيادة كبرى واما السيدات اللواتي يجتمعنَ في فرنسس باد فيردنَ من ذلك اكتساب السمن . وقد كانت ماريمباد مجموع غابات وحراج من شجر الصنوبر وغيرهِ فليس يخلو منهُ موضع الاَّ حيث قطع واقيم في محلهِ بناءٌ . واكثر ابنية المدينة جديدة وهي وافرة التنظيم والجمال ولها شوارع فسيحة نظيفة وفسحات عدة يحيط بها كلها شجر الصنوبر تتضوع منهُ الرائحة المعروفة فتزيد المكان فائدة وجمالاً . ويبلغ عدد الوافدين على ماريمباد ١٥ الفاً كل عام ويصدر منها مليون زجاجة من الماء المعدني كل سنة الى الخارج ولهذه المياه شهرة واسعة . ولما استقرَّ بنا النوى في هذه المدينة درنا نتفرج على مشاهدها الطبيعية وآيات جمالها فجلست في قهوة اسمها قهوة جرلانديا بنيت فوق جبل يشرف على بحيرة طبيعية في سهل واسع الجوانب ولهُ منظر مفرط الجمال وفيهِ الفتيات البوهيميات المشهورات بالرشاقة واللباقة يخدمنَ القاعدين في القهوة وهنَّ لابسات الزي البوهيمي وهو قبعة صغيرة عَلَى رأس الفتاة وصدر مكشوف وسواعد ظاهرة وجلباب قصير الى ما تحت الركبتين بقليل وقد علُقت في اعناقهنَّ سلاسل من الفضة وهنَّ يخدمنَ بنشاط وهمة تزيد في رونق ذلك الموضع وتتم آيات حسنهِ وجمالهِ . وقد زرت الينابيع المعدنية وسرت تحت رواق عظيم الطول قائم على عمد كثيرة وهو محل الاجتماع العمومي تصدح بهِ الموسيقى وعَلَى مقربة منهُ اناس من اهل البلاد يبيعون قطعاً خشبية عليها نقوش وكتابات يجعلونها تذكاراً لزيارة هذا المكان او اواني الخزف البوهيمي المعروف وهي كثيرة في كل بلاد

وبرحت هذه المدينة الجميلة قاصداً بلاد المانيا فعرجت عَلَى درسدن عاصمة مملكة سكسونيا يقيم فيها ملك البلاد ووزراء دولتهِ . وسكسونيا مملكة من ممالك

المانيا المهمة عرفت بالتقدم في العلم والصناعة الى الدرجة القصوى ولعاصمتها المذكورة شهرة فائقة في معاملها ومدارسها العالية ومعارض الفنون الجميلة فيها . ويبلغ عدد سكانها نصف مليون نفس وهي مبنية على ضفة نهر الالب الذي يشطرها شطرين متساويين ويزيد منظرها رونقاً وحسناً لا سيما وقد بنوا فوقهُ الجسور البديعة اشهرها جسر اوغسطس طولهُ ٤٠٠ متر وعرضهُ ١٣ وفي هذه المدينة ٤ محطات لسكة الحديد تنقل منها المصنوعات السكسونية ومن اهمها الخزف الى بعيد الاقطار ويظهر منها ومن كل جهة اخرى في هذا البلد العظيم اثر الجد والنشاط على وجوه الاهالي . ويكثر مرور السفن والبواخر في نهر الالب مارة بين احياء المدينة وهي قاصدة انحاء سكسونيا التي يرويها هذا النهر . ولقد شهدت فيها من القصور والمتاحف شيئاً كثيراً لم ارَ حاجة الى ذكرهِ فاتقدم الى وصف بقية مدائن السلطنة الالمانية بعد شيء من خلاصة تاريخها





المانيا

خلاصة تاريخية

ان دولة المانيا الحالية حديثة العهد لم تبدأ على شكلها الحالي الا في عام ١٨٧١ ولكن الممالك التي تتكون منها هذه السلطنة قديمة لكلٍ منها تاريخ خاص بها وقد كان اكثرها يعدُّ في جملة الممالك الالمانية القديمة التي رأستها بلاد النمسا الى اواسط القرن الاخير

واشهر ما يذكر عن المانيا ان اقوامها عرفوا بالبطش والبسالة في ايام الرومانيين ولم يأتوا امراً يذكر حتى قام شارلمان ونظم مملكتهُ وخلفهُ ابنهُ لويس دبونابر وهو الذي قسم مملكتهُ الواسعة على اولادهِ في حياتهِ فاصاب احدهم واسمهُ لويس الجرماني اكثر الولايات الالمانية ومن ذلك الحين اي من سنة ٨٤٣ صارت المانيا دولة مستقلة ينتخب ملوكها الامراء والاعيان واساقفة الكنيسة واكثر الذين وقع عليهم الانتخاب من العائلات المالكة مثل عائلة شارلمان. وقام منهم ملوك اشتهر ذكرهم في التاريخ منهم اوتو الكبير ملك من سنة ٩٣٦ الى ٩٧٣ وهو رجل اكثر من الغزوات وحارب الباباوات مراراً فانتصر عليهم وجعل يعين من شاء منهم ولكن الامر انقلب بعد موتهِ الى ضد ذلك فعلا شأن الباباوات وصاروا يأمرون ملوك المانيا وينهونهم ويعزلون بعضهم ويولونهم ويفرضون عليهم الغرامات وانواع العقاب . وكان في جملة الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك فريدريك باربا روسا ملك من سنة ١١٥٢ الى ١١٩٠ واشترك في الحروب الصليبية وكان لهُ فيها المواقع المشهورة اهمها واقعة قونية التي فتحها عنوةً بعد قتال شديد

وظلَّ امراء المانيا ورؤساء الدين فيها ينتخبون الملوك واحداً بعد واحد حتى قام رودولف

هابسبرج المشهور في سنة ١٢٧٣ وهو الذي أسس الدولة الحاكمة الى الآن في النمسا وقد مرَّ ذكرهُ فعظم نفوذهُ وحصر الملك في عائلتهِ فصار قياصرة المانيا كلهم من آل هابسبرج الى ايام نابوليون ٠ وزاد نفوذ آل هابسبرج زيادة كبرى في القرن الخامس عشر بسبب اقتران الامير مكسيمليان ابن الملك فريدريك الثالث بالاميرة ماري من آل بورغونيا وتلا ذلك ان مكسيمليان هذا صار امبراطوراً واقترن ابنهُ فيليب بالاميرة حنة ابنة ملك اسبانيا فرزق الاثنان ولداً هو كارل الخامس ملك اسبانيا وامبراطور النمسا المشهور الذي حدث الانقلاب الديني وقامت طائفة البروتستانت في أيامهِ وهو الذي قيل ان الشمس لم تغرب عن املاكهِ لانهُ فوق ما ملك في اوروبا كان معظم القارة الاميركية لهُ وقام بحروب عديدة مع فرنسوا الاول ملك فرانسا ترى ذكرها في تاريخ الدولة الفرنسية ٠ وتنازل كارل الخامس هذا عن الملك لابنهِ فيليب سنة ١٥٥٦ فعاد امراء المانيا الى انتخاب الامبراطور واختاروا فردناند الاول من آل هابسبرج ثم تعاقب من بعدهِ الملوك ولا اهمية لاكثرهم

وبينا هذه الحوادث تجري قامت قوة جديدة في المانيا هي اصل المملكة الالمانية الحالية ٠ ذلك ان بروسيا كانت الى ذلك الحين بلاداً غير مشهورة تابعة لمملكة النمسا او لمملكة بولونيا ففي سنة ١٤١٥ اشتهر امير من امرائها اسمهُ فريدريك صاحب مقاطعة هوهنزولرن وضمَّ الى املاكهِ القليلة ولاية براندنبرج باذن من ملك بوهيميا فأسس بذلك دولة هوهنزولرن براندنبرج وهي الحاكمة الى الآن في بروسيا والمانيا ٠ وفي سنة ١٥٢٥ صار صاحب براندنبرج اميراً لبروسيا تحت سيادة ملك بولونيا وفي سنة ١٦٠٨ صار صاحب بروسيا هذه اميراً من امراء المملكة الالمانية الذين لهم حق انتخاب الامبراطور وهم يومئذٍ سبعة دوكات يلقبون بلقب «المنتخب» تمييزاً لهم عن الامراء الاخرين الذين لم يحق لهم ذلك ٠ فعظم من بعد هذا شان بروسيا حتى ان فريدريك وليم أحد امرائها و يعرف باسم المنتخب الكبير استقلَّ بالاحكام في بلادهِ استقلالاً تاماً في سنة ١٦٥٧ وحفيدهُ انتحل لقب ملك سنة ١٧٠١ واشتهر باسم فريدريك الاول ملك بروسيا ولما قام فريدريك الكبير في سنة ١٧٤٠ وتولى مهام الملك كان لبروسيا شأن عظيم بين دول اوروبا وعند ملكها خزانة عامرة بالمال والتحف وجيش قوي منظم عددهُ ستون الفاً فزادت قوة بروسيا واملاكها في ايامهِ زيادة تذكر . وحدثت حروب مشهورة بسبب انقطاع الذكور من آل هابسبرج ووصول الملك الى يد ماريا تريزا ملكة النمسا المشهورة وكان فريدريك الكبير ملك بروسيا طامعاً بزيادة الملك فلما رأت ماريا تريزا ذلك منهُ ارضتهُ بقسم كبير من بلاد سيليسيا في جنوب بروسيا فامتنع عن محاربتها ورضي ببقاء الملك الالماني

في يد آل هابسبرج وعقد معها ومع غيرها معاهدة ايكس لاشابل المشهورة في سنة ١٧٤٨ فاشتهر من بعد هذه المعاهدة ان بروسيا من اقوى دول اوروبا وصارت حليفة للنمسا بدل ان تكون تابعة لها في الاتحاد الالماني

وفي سنة ١٧٥٦ احسَّ ملك بروسيا بمؤامرة وتواطوء ما بين ملوك روسيا والنمسا وساكسونيا على محاربته واغتصاب شيء من املاكه فجند الجيوش وبدأ يحارب الاعداء في كل جهة واستعان بمحالفيه فاشتبكت اوروبا كلها بحرب طويلة دامت ٣٠ سنة وهي تعرف في التاريخ باسم «حرب الثلاثين سنة» عقد من بعدها صلح اهم شروطه ان تبقى الامور على مثل ما كانت قبل الحرب . ومات فريدريك الكبير هذا في سنة ١٧٨٦ فورثهُ ابن اخيهِ فريدريك ولهلم الثاني وكانت مملكة بروسيا في ايامهِ عظيمة الشان تقدمت في العلم والصناعة وقام منها الفطاحل مثل لبنتز وولف وكانت وجويث وشلر وهم من الفلاسفة الذين شادوا لبلادهم في ساحة العلم والقلم صروح الفخر العظيم . وحدثت في تلك الاثناء الثورة الفرنساوية فاهتزت لها عروش اوروبا ومن ثم تحالفت النمسا وبروسيا وانكلترا على محاربة فرانسا فبدأت تلك المعارك الهائلة التي انتهت بموقعة واترلو سنة ١٨١٥ بين نابوليون من جهة وجنود اوروبا من جهة وترى بيانها في تاريخ فرانسا . وقد كانت بروسيا خاسرة في اكثر المعارك التي حضرها نابوليون بنفسهِ واضطرت الى قبول ما اراد من الشروط وهو على ما يظهر للاكثرين كان يحسب حساباً كبيراً لاتحاد الاقوام الالمانية على بلادهِ فلما انتصر على امبراطور النمسا في معركة اوسترلتز وبدد جنود بروسيا في المعارك السابقة الغى الامبراطورية الالمانية التي كان مركزها الى ذلك الحين في ڤينا وصار امبراطور المانيا يعرف باسم ملك النمسا فقط واستقلت بروسيا من تلك السيادة الوهمية استقلالاً تاماً وانشئت ممالك أُخرى المانية رأس بعضها اخوة نابوليون بونابارت وبعضها صنائعهُ فتمَّ بذلك المراد للفاتح الفرنسي العظيم من تجزئة السلطنة الالمانية وظلَّ الحال على مثل هذا الى يوم خذلانهِ على يد الانكليز والبروسيين في معركة واترلو سنة ١٨١٥

ولما رأت الاقوام الالمانية عند سقوط نابوليون ان مصلحتها تقوم بالانضمام عادت اليهِ في الحال فعقد في ڤينا مؤتمر عظيم الشهرة في شهر نوفمبر من سنة ١٨١٥ حضرهُ النواب من ٣٧ مملكة وامارة المانية وقرروا فيهِ ان تتحد هذه الممالك والامارات اتحادها الاول وان تكون النمسا مركز هذا الاتحاد الالماني في الجنوب وبروسيا مركزهُ في الشمال وتظل كل مملكة او امارة حرة في شؤونها الداخلية وزادوا على هذا في سنة ١٨٣٧ انهم قرروا ابطال الرسوم الجمركية او

تخفيفها في ما بين هذه الممالك الالمانية فتم بذلك الاتحاد الذي كانت فرانسا تخشى شرهُ ولكنهُ لم ينتج عنهُ شر لاوروبا ولاسيما بعد ان تحاربت النمسا وفرانسا في سنة ١٨٥٩ ولم تنتصر الممالك الالمانية للنمسا واضطرت هذه المملكة ان تسلم بعض املاكها لايطاليا عملاً بشروط الطليان والفرنسيس الذين نصروهم في حرب الاستقلال الطلياني • وفي سنة ١٨٦٠ اتحدت النمسا وبروسيا على محاربة الدنمارك فانتصرتا عليها واخذتا منها ولايات شليسوج وهولشتين ولاونبرج وكانت النمسا تحكم اولاهما وبروسيا تحكم الثانية والثالثة من بعد ذلك النصر حتى اختلفتا على بعض المسائل وشهرت تلك الحرب المشهورة بينهما في سنة ١٨٦٦ وكان البرنس بسمارك المعروف بدير سياسة بروسيا وقتئذٍ والكونت مولتكي يقود جنودها فاحرز البروسيون نصراً عظيماً على النمساويين وملكوا منهم الاراضي اخصها التي اغتصبوها من الدنمارك • وعلى اثر ذلك عقدت معاهدة في فرانكفورت بالمانيا من مقتضاها اخراج النمسا من التحالف الالماني الشمالي والاتفاق على ان تكون بروسيا رئيسة ذلك التحالف بدلها . ثم استولت بروسيا على مملكة هانوفر وغيرها فصارت مملكتها قوية واسعة واشتهرت بقوة جيشها ومهارة قوادها حتى اذا كانت سنة ١٨٧٠ وانتصرت في حربها المشهورة على فرانسا لم يبقَ في اوروبا اعظم منها فاعيدت الامبراطورية الالمانية القديمة برئاسة بروسيا وتوّج ولهلم الاول جد الامبراطور الحالي امبراطوراً لالمانيا في فرسايل في قصر ملوك فرانسا سنة ١٨٧١ بعد ان تمَّ النصر لبروسيا وعقدت شروط الصلح مع فرانسا وبذلك بلغت بروسيا اوج العز وصارت مملكة المانيا التي ترأسها من اعظم ممالك الارض واقواها فنمت وتقدمت في الصناعة والتجارة تقدماً يذكرهُ الناس في كل حين مع الدهش والاستغراب

وكان ولهلم الاول مؤسس هذه الامبراطورية من الملوك العظام تعلق الالمانيون على حبهِ واكرامهِ حتى اذا مات سنة ١٨٨٨ احتفلوا بدفنهِ احتفالاً عظيماً وهم الى الآن يذكرون ايامهُ وتقدم السلطنة على عهدهِ • وخلفهُ ابنهُ فريدريك الثاني وكان يوم وفاة والدهِ في سان ريمو من مدن ايطاليا مريضاً بداء السرطان فجاء برلين وتولى مهام الملك بمساعدة البرنس بسمارك ونجلهِ الامبراطور الحالي فما طالت ايامهُ لانهُ توفاهُ الله في شهر يونيو من تلك السنة وحزنت المانيا لوفاتهِ كثيراً لانهُ اشتهر بالفضائل وندبهُ الانكليز ايضاً لان قرينتهُ كانت اكبر بنات الملكة فكتوريا وقد ولد لهُ منها ابنان هما ولهلم الامبراطور الحالي واخوهُ البرنس هنري احد قواد الاسطول الالماني وعدة بنات

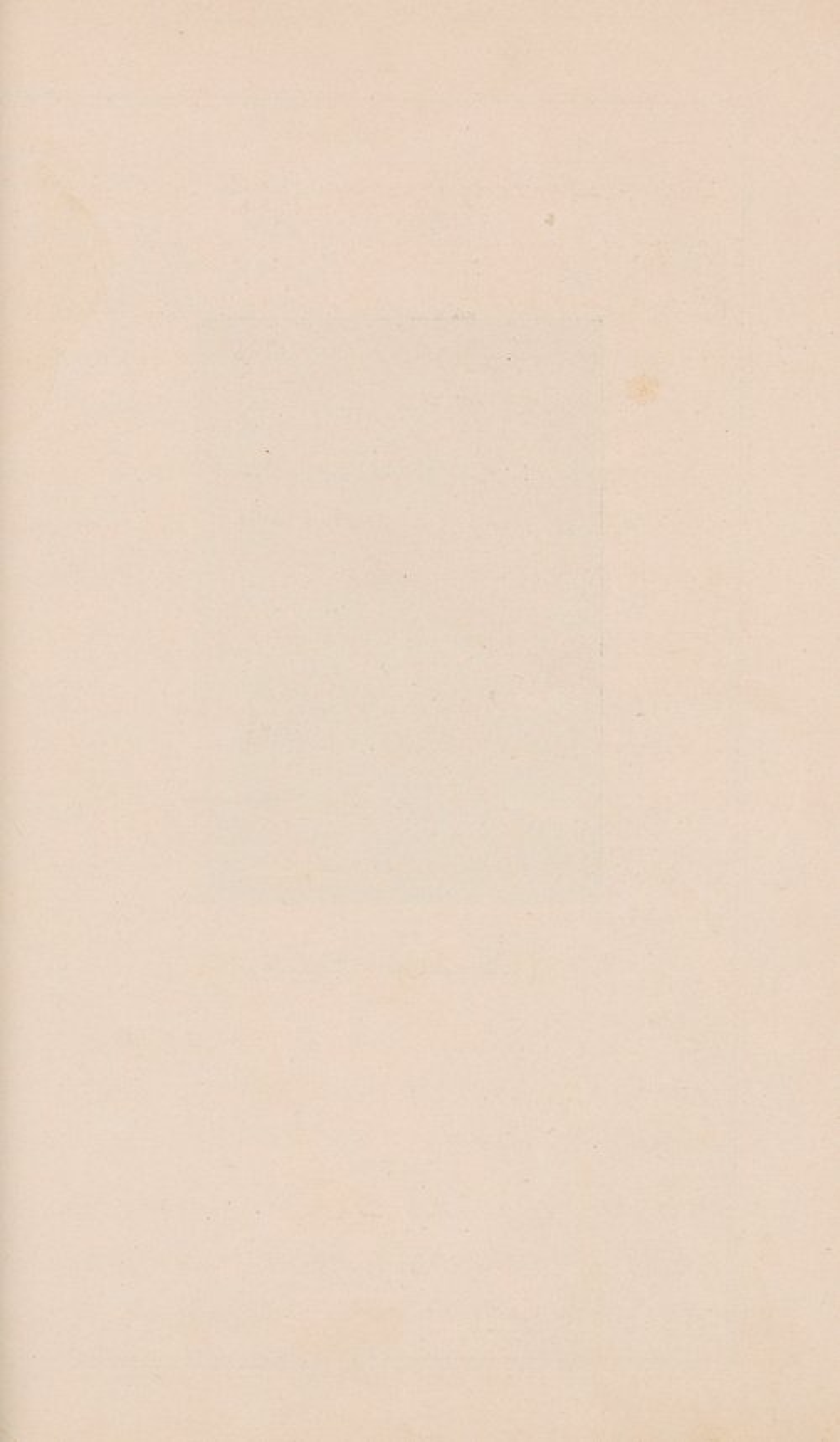
واشتهر جلالة الامبراطور الحالي بالحزم وسرعة الخاطر وحب التوسع في الملك وهو من

اشهر ملوك اوروبا الحاليين واقدرهم تقدمت المانيا في ايامهِ تقدماً عظيماً وملكت في الصين وافريقيا الاراضي الواسعة وامتدت متاجرها وكبر نفوذها الى حدٍ لم تعرفهُ من قبل هذا الحين . وعدد سكان هذه السلطنة الآن ٦٢ مليوناً وهي اشهر الدول في قوة جيشها البري وثانية دول اوروبا في القوات البحرية وتجارتها نامية نماءً لا نظير لهُ في التاريخ الحديث





(غليوم الثاني امبراطور المانيا)



برلين

هي عاصمة بروسيا والمانيا معاً تعدُّ ثالثة مدن اوروبا في العظمة والاهمية ولكنها حديثة العهد لم يبدأ تاريخ عظمتها الاَّ من بعد منتصف القرن الماضي ويزيد عدد سكانها عن مليوني نسمة. وكان في مكانها نهر على ضفتيهِ غياض وسهول خصيبة فلم تعمر الاَّ في القرن الثاني عشر حين سكنها بعض فلاحي الالمان وجعلوها مدينتين واحدة الى الضفة اليمنى من النهر وهي برلين والأُخرى تجاهها وهي كولن فاتحدت المدينتان سنة ١٣٠٧ ودخلت في حوزة آل هوهنزلورن في القرن الخامس عشر وصارت قاعدة امارتهم في اواخرهِ. وكان ذلك بدء تقدمها حتى اذا حدثت حرب الثلاثين سنة التي ذكرناها في فصل التاريخ وانتهت على ما يريد ملك بروسيا زادت برلين اهمية وكثرت فيها الابنية وظلّت على هذا التقدم وملوكها يزيدون محاسنها واحداً بعد واحدٍ حتى دخل هذا القرن وانتصرت بروسيا انتصاراتها الباهرة على الدنمارك والنمسا وفرانسا فزادت اهمية عاصمتها زيادة كبرى واكثر ما فيها الآن من منظر فخيم واثر عظيم يعدُّ حديث العهد ويدل دلالة قاطعة على نمو المدينة في السنوات الاخيرة من تاريخها ولا سيما في الضواحي خارج بوابة براندنبرج حيث بنيت احياءٌ جديدة برمتها فبلغت مساحة الشوارع ٢٥٠٠٠٠٠ متر مربع موزعة على خطوط لا يقل طولها عن ٤٨٧ كيلومتراً وعدد العاملين بكنسها ورشها يزيد عن ١٥٠٠ رجل و ٥٠٠ غلام.

والمدينة في منبسط من الارض يشطرها نهر صغير اسمهُ سبري شطرين ولها عدة مداخل او (بوابات) قديمة العهد اشهرها مدخل براندنبرج في القسم الغربي من المدينة وهو يفصل ما بين برلين القديمة والقسم الحديث منها علوهُ ٢١ متراً

وعرضهُ ٦٢ وفيهِ ثلاثة ابواب او منافذ تفصل بينها عمد من الرخام تمرُّ في الباب الاوسط منها عربات البلاط الامبراطوري والعائلة المالكة فقط وللناس الجانبان الآخران احدهما للداخلين وثانيهما للخارجين . وفي اعلى بوابة براندنبرج هذه تمثال الظفر أُقيم سنة ١٨٧١ تذكاراً للنصر العظيم على فرانسا وهو عبارة عن ثلاث افراس من النحاس الاصفر صنعت كانها تعدو مسرعة علامة التقدم السريع ومنظرها بديع يستوقف الانظار . والى كلٍّ من الجانبين بناءٌ صغير احدهما مخفر للجنود والثاني مكتب للتلغراف . ولو وقف الانسان عند بوابة براندنبرج هذه والقى بنظرهِ الى الجهات المحيطة بها لرأى افخم مشاهد برلين واعظمها فان اكثر ما سيرد وصفهُ هنا يحيط بهذه البقعة او يقرب منها ولذلك اخترنا ان نجعلها بدء وصفنا لعاصمة الالمان العظيمة . وقد زاد هذه البوابة اهميةً انها واقعةٌ في رأس شارع عظيم اسمهُ شارع اونترلندن ومعناهُ شارع الزيزفون طولهُ ١٥٠٠ متر وعرضهُ ٦٠ متراً وهو اقسام عدة بعضها للمسير على الاقدام وبعضها للخيل والبعض للعربات على مثل ما تقدم من وصف الشوارع التي تضارع شارع الزيزفون هذا وفيهِ اربعة صفوف من الشجر تزينهُ وتزيدهُ رونقاً وجمالاً وقد اطلق عليهِ اسمهُ المشهور بسبب هذه الاشجار . وفي هذا الشارع كثير من الابنية الفخيمة ومنازل الكبراء والسفراء وهو يبتدئ عند بوابة براندنبرج التي ذكرناها وينتهي في ميدان قام بهِ تمثال فريدريك الاول

وفي اول هذا الشارع عند بوابة براندنبرج ميدان فسيح عظيم يعرف باسم « ميدان باريز » وهو حسن الموقع في وسطهِ بركة من الماء عظيمة وتمثال للمريخ اله الحرب عند القدماء والى الجهة الجنوبية منهُ بناءٌ عظيم هو قصر البرنس بلوخر ووراءهُ نادٍ كبير لضباط الجيش الالماني في داخلهِ القاعات والغرف والملاهي على

اشكالها ويليهِ قصر البرنس ارنم . وفي الجهة الشمالية من هذا الميدان سفارة فرانسا وغيرها من الابنية اذا تقدمت في تلك الجهة رأيت اثناء سيرك شيئاً كثيراً منها مثل وزارة الاديان وسفارة روسيا وهي لها واجهة بديعة الشكل من الرخام الابيض النقي . ومن ذلك ايضاً وزارة الداخلية وعَلَى مقربة منها معرض للاسماك والطيور والقردة دخلناهُ وهو مؤلف من طبقتين في الطبقة العليا منهما بيوت من الزجاج للحيات عَلَى اشكالها ارسلت الى هذا المعرض من الهند واواسط افريقيا واميركا الجنوبية وغيرها من المواضع الحارة تراها غادية صادية وليس بينك وبينها الاَّ جدار من الزجاج المتين . هذا غير ما في البرك من انواع السمك الجميل ما بين احمر وذهبي وفضي ومرقط وملون بالالوان البديعة جلب اكثرهُ من البحار النائية ايضاً اتماماً لفائدة هذا المعرض . وقد صنعوا في ذلك المعرض مغارة كبيرة وعرة المنظر جلبوا اليها الشجر اليابس والحجر الكبير ووضعوها على نسق يحكي نسق الطبيعة في جمالهِ وادخلوا اليها من الطير انواعاً كثيرة تنتقل في جوانبها كانما هي حرة في الخلاء ولها منظر كثير الجمال

ويلي ذلك اذا استمرَّ المتفرج عَلَى المسير في الجهة التي ذكرناها « الرواق القيصري » وهو بناء ضخم شاهق يخيل لك انهُ مدينة صغيرة فيهِ مخازن ومطاعم ومكاتب كثيرة وفيهِ ايضاً معرض لتماثيل صنعت من الشمع بينها تماثيل الاسرة الامبراطورية والرجال العظام من اهل السياسة والحرب والشعر والعلم والصناعة والكل بهيئاتهم الصحيحة وملابسهم المعتادة وقد اتقن الصنع فيها اتقاناً عجيباً حتى انهُ ليلتبس عليك التمييز بين الاحياء والتماثيل . واذكر اني رأيت هنالك من هذا القبيل مائدة للطعام رُتبت عَلَى النسق المعروف وفيها الاطباق والادوات وبعض الالوان وقد جلس من حولها الناس رجالاً ونساء وهم كمن بدأ في الطعام ولولا

جمود منظرهم لحكمت انهم يشربون ويأكلون وفي هذا ما يراهُ القارئُ من احكام الصنع واتقان العمل

وفي وسط شارع الزيزفون قهوة بوير وهي من احسن حانات برلين يتسابق اليها الالوف لحسن مركزها واتقان معداتها ويقعد الناس فيها يتفرجون على المارة في الشارع الذي لم نزل في وصفهِ. وفي آخرهِ ساحة رحيبة اقاموا فيها تمثال فريدريك الاول وحولهُ القصور والمنازل في جملتها الاوبرا وقصر ولهلم الاول جد الامبراطور الحالي وقصر فريدريك الثاني والدهُ ودار المحافظة ونادي العسكرية والمكتبة العمومية والمدرسة الجامعة. اما التمثال فقد صنع من نحاس وقام على قاعدة ارتفاعها ١٤ متراً ولها اربعة جوانب في الجانب الشرقي تماثيل لبعض امراء المانيا وفي الجانب الغربي رسم القائدين زيتن وسيدلتز وهما اشهر من حارب مع فريدريك الاول. وفي الجوانب الاخرى رسوم المشاهير ايضاً من الذين شادوا لالمانيا صروح العز والفخار

واما المكتبة العمومية التي ذكرناها فبناءٌ عظيم كتب على صدرهِ من الخارج باللغة اللاتينية «غذاءٌ للارواح» وفيها زهاء مليون مجلد من الكتب المطبوعة وعشرين الفاً من كتب الخط في جملتها كتابات واسفار دينية قديمة العهد ولذلك يؤُم هذه المكتبة كل باحث وطالب للفائدة فاذا دخلت قاعة المطالعة فيها رأيت هنالك هيئة الوقار والعلم حيث يجلس الباحثون بعضهم وراء بعض وليس بين تلك الجموع علاقة غير الشغف بالمطالعة والسكوت التام وتقليب الاوراق فيتجلى لك الاجتهاد والدرس العميق بكل وجوههِ. ولابد للذي يريد مطالعة كتاب نادر المثال من كتب هذه المكتبة او مراجعة شيء فيها ان يطلب ذلك علَى ورق مطبوع في دائرة المكتبة ويعين الكرسي الذي يريد ان يقرأ الكتاب فيه والزمان فاذا جاء

في اليوم التالي وجد الكتاب حيث يريد وامامهُ الحبر والورق والاقلام فيعلق ما اراد وفي ذلك تسهيل على الباحثين لا تخفى فوائده

وتجاه هذه المكتبة الملعب او الاوبرا بني معظمها من الحديد والحجر حتى يقلّ خطر الحريق ما امكن ويمكن لالف وخمسمائة شخص ان يسمعوا التمثيل في قاعتها الكبرى وقد أصيبت هذه الاوبرا كما اصيب غيرها بالنار فاعادوا بناءها على مثل ما تقدم واكثروا من النوافذ والمخارج تسهيلاً للفرار حين اضطرام النار ولكن ذلك اصبح من الامور النادرة الآن بعد ان عوَّل مديرو المراسح على اضاءة اماكنهم بالنور الكهربائي ومنعوا التدخين في داخل المراسح الاَّ في قاعات معلومة ارضها من البلاط وفيها خدمة يراقبون ما يلقيهِ الرجال من السجاير وسواها

والنادي العسكري الذي مرَّ ذكرهُ ايضاً من المشاهد المذكورة في برلين وانت تعلم ان المانيا دولة حربية عسكرية وان نظام جيشها نال شهرة فائقة حتى ان بعض الدول الشرقية كبلاد الصين والدولة العلية واليابان تستخدم الضباط الالمانيين لتدريب جنودها وتنظيم جيوشها . وللقيصر الحالي ولهلم الثاني شغف بالجنود ونظاماتهم وحركاتهم فهو يستعرض الالوف منهم في كل حين ويزور المخافر والثكنات مراراً في الشهر . فلهذا اصبح مركز العسكرية خطيراً في البلاد وزادت أهمية هذا النادي وسواهُ واصبح للضباط امتياز على بقية الناس في المانيا . والحق يقال ان دولة الالمان لم تزل على النسق القديم الذي كان متبعاً في العصور المتوسطة في ما يخصُّ الجندية فان قسوة الاحكام العسكرية واستبداد الكبير بالصغير في جيش المانيا جرت مجرى الامثال ولطالما انتحر الجنود ورحل الاهالي الى اميركا تخلصاً من ظلم جاويش او جور ضابط او ثقل عمل شاق . هذا غير ان الضباط العسكريين لهم حق الدفاع عن شرفهم الى حد انهُ يجوز لهم قتل من

يتعرض لهم بأقل اهانة ولا يحاكمون على هذا المنكر ولا يعدمون وقد حدث من هذا القبيل عدة حوادث في عهد الامبراطور الحالي ونجا الضباط القاتلون من طائلة العقاب بعلة انهم قتلوا من قتلوا في سبيل المحافظة على الشرف العسكري

وكل من يزور برلين يرى اهمية الجيش الالماني فيها وحركات جنوده الكثيرة فان الضباط والعساكر يخطرون في كل الشوارع جماعات وافراداً والتمرينات العسكرية في ضواحي المدينة واطراف المملكة الالمانية شاغلة للاذهان يقصدها القواد والافراد من كل جهة والمسافر في سكة الحديد الالمانية يرى فرق الجند منتقلة من موضع الى موضع وقد ملأت بعض السهول والبقاع بكثرتها فان جيش المانيا لا يقل عن ستمائة الف في ايام السلم ولا يزيده في العدد غير جيش روسيا

وقد رأيت في هذا النادي من الاعلام والرايات شيئاً كثيراً اكتسبهُ الالمان من الاعداء في حروبهم القديمة والحديثة كحربهم مع الدنمارك والنمسا وفرانسا ومدافع غنموها من الفرنسيس في الحرب الاخيرة المشهورة واسلحة قديمة العهد كالرمح والفاس والسهم وغيرها حديثة من اجمل انواع المدافع والسيوف الجديدة . وهنالك ايضاً قاعة كبرى فيها رسوم قلاع وطوابي ووقائع حربية تمثل الجنود والخيل والاماكن والاسلحة تمثيلاً دقيقاً وقد صنعت كلها من الجبس وفي جملة ذلك شكل سيدان ومعركتها المشهورة فانك ترى تلك المدينة العظيمة باسوارها وقلاعها ومنازلها وطرقها وترى الجنود تتهيأ وتصطف لقتال الالمان في جانب والفرنسيس في الجانب الآخر والكل بملابسهم المعروفة واسلحتهم الكاملة والخيل لكل فرقة لها لون معروف وقد صفت المدافع من امام الجيش في الناحيتين ووقف الامبراطور الالماني مع قواد جندهِ في ناحية من الموضع وامامهم فرقة هاجمة على المدينة هجوم الاسود الكواسر فبعضهم اصابتهُ رصاصة وبعضهم بتر ذراعهُ وبعضهم سال الدم من

جسمهِ ونحو ذلك مما يوهم الرائي انهُ في معركة حقيقية لولا السكون السائد على ذلك المشهد الغريب

وفي الدور الاعلى من هذا النادي قاعات للضباط وغرف للمطالعة والكتابة وفي اكثرها رسوم حربية وصور ولهلم الاول وبسمارك ومولتكي وهم الثلاثة الذين رقت بروسيا بحكمتهم وعملهم اوج العز وصارت رئيسة للسلطنة الالمانية العظيمة. والذين يختلفون الى هذا البناء من الرجال العسكريين كثار العدد وقد يتوهم الساذج من كثرة المشاهد العسكرية في هذه العاصمة انها على اهبة الحرب كما ان الغريب الذي يأتي باريس لاول وهلة يظنها في عيد عظيم لكثرة ما يرى من الهرج والمرج وآيات الحظ في تلك المدينة الزاهرة

ويقرب من هذا النادي قصر الامبراطور ولهلم على ضفة نهر سبري وصلناهُ من جسر عليهِ رسوم وتماثيل حربية من كل نوع من ذلك تمثال رجل يقصُّ حديث الحرب على غلام وتمثال مارس اله الحرب يعلم شاباً استعمال السلاح ويقلد شاباً آخر سلاحهُ بعد ان اتمَّ دروسهُ العسكرية ويتوّج جندياً ظفر في ساحة القتال وينشط آخر مجروحاً على القيام محرضاً لهُ على مداومة القتال وغير هذا. وكان على باب القصر حين وصلت جماعة من السائحين في انتظار الاذن بالدخول فلما فتح الباب دخلهُ الجميع وراء حارس اخذنا الى الدور الاول وادخلنا غرفة عظيمة قال انها خاصة بالامبراطور — وكان جلالتهُ يومئذٍ غائباً عن برلين على عادتهِ في اكثر اشهر الصيف — وهي الغرفة التي اشتهر عن ولهلم الاول جد الامبراطور الحالي انهُ كان يطلُّ من نافذتها ليرى الجنود حين تروح وتجيء في الشارع او حين تذهب للمناورات وتعود منها. وفي قاعة اخرى من هذا القصر الفخيم صور افراد العائلة المالكة من آل هوهنزولرن صنِعت بالزيت ووُضعت في براويز مذهبة وكلها

آيات في الحسن والاتقان . وقاعة أُخرى تعرف باسم القاعة الذهبية فيها عمود من الفضة أُنشيء تذكاراً لايجاد وسام الصليب الاسود وفيها تمثال ولهلم الاول واقفاً في معركة جراڤلوت بفرانسا في الحرب السبعينية المشهورة . وقاعة النسر الاحمر تذكاراً لانشاء وسام النسر الاحمر الالماني وفيها ذلك الوسام معلَّق عَلَى عمود بديع الشكل . وقاعة النسر الاسود وهي مثل سابقتها في الغرض والوضع وقاعات أُخرى كثيرة كلها ملأَى بالفخر انواع الرياش النفيس وكان الحارس يقصُّ علينا اقاصيص تلك الغرف وحكاية ما فيها من الغرائب والتحف حتى دخلنا قاعة الطعام وهي فسيحة واسعة الجوانب بهية الشكل تشرح مناظرها الصدور ويمكن ان يجلس الى موائدها ٤٥٠ شخصاً لكلٍ منهم كرسي جميل يمتاز عنهُ كرسي من الفضة خصَّ بالامبراطور الحالي فهو يجلس اليهِ كلما تناول الطعام في هذا القصر وقد أُهدي هذا الكرسي اليهِ من مدينة برلين بعد جلوسهِ بقليل . واما عن قاعة الاستقبال او البهو الكبير فحدّث ما شئت وتصوّر من اشكال فخامتهِ ما اردت انهُ يقصر الوصف عن محاسنهِ ولقد اذهلني اتساعهُ ورياشهُ وزخارفهُ واعجبت بفرشهِ النفيس وسقفهِ السحيق وما يحدث من صدى الاصوات فيهِ عَلَى اتساعهِ وما يضيء فيهِ من نور المصابيح التي لا تعد وما تعكس صورتهُ على المرائي من الرسوم البالغة حد الاتقان وهي بالاجمال من اجمل ما رأيت بين القاعات العظمى في قصور الامراء والملوك . وسرنا بعد هذا في القصر الى القسم المخصص لجلالة الامبراطورة وفيهِ قاعة اسمها القاعة البيضاء كل رياشها من الحرير الفاخر الايض وفيها ١٢ تمثالاً جميلاً من المرمر الايض ايضاً تمثل ولاية براندبرج التي كانت اساس المملكة البروسية على مثل ما رأيت في فصل التاريخ ويلي هذا القسم جانب من القصر جعل كنيسة للعائلة الامبراطورية وجدرانها من الرخام الايض المحلى بالذهب

وكذلك المصابيح والاعمدة والمقاعد وبقية ما فيها ولها قبة من الرخام الابيض ايضاً يزيد ماء الذهب جمالها ظهوراً والناس يرون هذه القبة البديعة من خارج القصر. وفي الهيكل من هذه الكنيسة اعمدة من الرخام اخذوها من مصر وهي من شكل الرخام الذي صنعت منهُ اعمدة الجامع في قلعة مصر . وبعد ذلك رأينا قاعة الرسوم وفيها من الصور ما لا يعدُّ ولا يحدُّ اذكر منها صورة بطرس الاكبر قيصر روسيا والقيصرة كاترينا الثانية والسلطان سليمان الثاني ونابوليون الاول وولهلم الاول قيصر المانيا يتوَّج قيصراً في قصر فرسايل بفرانسا وصورتهُ وهو عائد الى برلين بموكبهِ الحافل بعد النصر في سنة ١٨٧١ فوقف السيَّاح طويلاً يتحدثون عن تلك الرسوم وتركتهم حتى ازور المتحف

والمتحف هذا عظيم الشأن لما بذلهُ الالمان في سبيل تحسينهِ وزيادة نفائسهِ وهم اهل عزيمة وجدٍّ في المسائل العلمية بلغوا في العلوم العقلية شأواً بعيداً حتى ان بقية الاوروبيين والاميركيين اذا ارادوا التعمق في الفنون الرياضية والعقلية والفلسفة على اشكالها قصدوا مدارس الالمان . والقوم يرسلون اللجنات العلمية في كل حين الى الاقطار البعيدة لجمع الآثار التاريخية والمتحجرات والاحافير وغير هذا مما يفيد اهل العلم وقد اشتهر من رجالهم عدد كبير بالاكتشاف مثل شليمن الذي سيمرُّ بك ذكرهُ وغيرهُ ممن جاب الاقطار النائية وراض الصعاب في مصر والشام والعراق والاناطول والهند وسواها للبحث عن بقايا السابقين والعلم بما مرَّ من تاريخ الارض وسكانها. ولطالما دفعت ادارة هذا المعرض من المال الوفا ثمن بعض معداتهِ وجادت بالشيء الكثير على الصور المتقنة وهي لها عندهم وفي كل بلاد متمدنة شأن عظيم لانها نتائج القرائح المتوقدة والافكار السامية تمثل للرائي الافكار والخواطر الرفيعة والحوادث المؤثرة فهي مثل الشعر الجيد وبقية

الفنون الجميلة مهذبة للافكار مرقية للعقول ومع ذلك فان اهل الشرق ونحن في جملتهم لا يهتمون لها وقد ينفقون الالوف على فرش البيت ولا يشترون صورة ذات قيمة حقيقية بمال يسير خلافاً للذين جروا في مضمار التمدن فان كبراءهم واغنياءهم يجمعون في منازلهم من الصور الثمينة ما تبلغ قيمتهُ المقادير الطائلة . والمتاحف مثل متحف برلين لا تضنُّ بمال كثير في سبيل الحصول على صورة نادرة المثال او ممتازة باتقان الصنع والجمال وهذا متحف برلين الذي نحن في شأْنهِ دفع مليون مارك او نحو خمسين الف جنيه ثمن بعض الصور الزيتية ولما ضاق نطاق المتحف عن كل ما ابتاعوهُ من التحف والنفائس بنوا متحفاً آخر وصلوهُ بالاول بدهليز حتى صار طول البنائين معاً ١٩١ متراً والعرض ٩٣ . ولو شئنا تعداد ما في المتحف من آثار اشور وبابل ومصر وفينيقية والروم والرومان وغيرهم من اهل الممالك الاولى لما امكن البيان بغير التطويل الكثير ولكننا نكتفي بهذه الاشارة اليها . ولبعض الآثار قيمة كبرى فاني رأَيت تمثالاً ليوحنا المعمدان يأكل عسل البر اشتروهُ بمايتي الف مارك — والمارك قطعة المانية من الفضة تعدل الشلن في قيمتها فيكون ثمن الاثر عشرة آلاف جنيه . هذا فضلاً عما في تلك الخزائن الكثيرة من النقود ما بين قديم وحديث وعددها لا يقل عن مايتي الف قطعة . واما قسم الصور في هذا المعرض فقد مرَّ بك كلام عن قيمتهِ واعتناء القوم بهِ وهو كبير كثير النفائس والغرائب غالي القيمة فمن امثلة سخائهم في اتمام غرائبهِ انهم اشتروا لهُ في سنة ١٨٧٠ صوراً كانت في منزل الكونت شوبرمن باربعين الف جنيه وانت لو دخلتهُ ترى في جوانبهِ من اشكال الصور الدينية ما يستوقف الانظار ويوهمك بعد طول التأمل انك في ايام الرسل والانبياء فقد رأيت في جملة هذه الرسوم صورة موسى وقد عاد من الجبل فرأى قومهُ يعبدون العجل فالقى

باللوحين اللذين كتبت عليهما الوصايا العشر الى الارض وكسرهما. وصورة مريم العذراء مع خطيبها وابنها هاربين الى مصر ثم هي جالسة تحت ظل شجرة تستريح من عناء السفر والطفل بين يديها فذكرني ذلك المنظر بشجرة العذراء في المطرية وهي التي يروى ان العذراء استراحت تحت ظلالها ولما اضناها الظمأ تضرعت الى خالقها ان يغيثها فتفجرت عين ماء معين امامها وشربت منها مع الطفل

هذا كلهُ في المتحف القديم واما القسم الجديد منهُ ففيهِ الآثار القديمة وضعت في غرف خصَّ بعضها بكل مملكة قديمة وهنالك ترى في القسم المصري الاجسام المحنطة وامثال قبور الفراعنة وانواع البردي (البابيروس) كتبت عليها المواد الكثيرة واهمها قانون هورس معبود المصريين القدماء كتب باللغة الهيروغليفية القديمة ولهذه الكتابة قيمة عظيمة عند علماء التاريخ . وهنالك ايضاً تماثيل الملوك والكهنة وآثار مصرية اخرى من كل نوع وضعت في غرف تمثل هيئة الهياكل والمنازل المصرية القديمة في وضعها وتلوينها . وقس على ذلك آثار بقية الممالك القديمة وهي كثيرة في هذا المتحف العظيم

وخرجنا من تلك الدار العظيمة فظللنا على المسير حتى وصلنا بناء المجلس البلدي وهو ذو ثلاث طبقات بنيت من الطوب الاحمر وليس لهُ رونق يزيد عما سواهُ بل انهُ لا يقاس بقصر المجلس البلدي في ڤينا وان تكن قاعاتهُ فسيحة كثيرة الزخارف اذكر اني رأيت في بعضها صورة مؤتمر برلين وهو اشهر ما عقد من نوعهِ في العصور الحديثة كان السبب في اجتماعهِ حرب الروس والدولة العلية سنة ١٨٧٦ وخوف اوروبا من امتداد المطامع الروسية بعد الانتصار فقام بسمارك وهو يومئذٍ وزير الدولة الالمانية ودعا الدول الى الاشتراك في عقد مؤتمر ينظر في مسائل الشرق ويقرر حالة كل مملكة وامارة في جنوب اوروبا وشرقيها ولبت اوروبا

الدعوة فعينت كل دولة اكبر فطاحلها وكان بسمارك مندوب دولة الالمان مع غيرهِ من الاكفاء وعين رئيس المؤتمر لانهُ عقد في عاصمة بلادهِ وهم يعطون الرئاسة لصاحب البلاد في كل مؤتمر من هذا القبيل . وكان النائبون عن انكلترا يومئذٍ بيكونسفيلد وسولسبري وعن روسيا غورتشاكوف وشوفالوف وعن فرانسا وادنتون واوليڤيه وعن الدولة العلية عمر باشا وسعد الله باشا وكلهم من اشهر رجال السياسة في هذه الممالك العظيمة

وتوجهت من هنالك الى موضع مثلت فيهِ مشاهد سيدان ومعركتها المشهورة بالبانوراما او النظارات المجسمة والمكبرة . وسيدان هذه مدينة في فرانسا انتصر فيها الالمان على ثمانين الفاً من جنود الفرنسيس كانوا تحت قيادة نابوليون الثالث امبراطور فرانسا فكان فوزهم فيها خاتمة الحرب ولم يبقَ عليهم غير حصار باريس فساروا اليها وحاصروها وفتحوها ولذلك ترى الالمان يذكرون واقعة سيدان معجبين متباهين وهم يحتفلون بعيد النصر في سيدان كل عام وما اكتفوا بما اقاموا من معالم النصر وما رسموا من الصور والنقوش في كل موضع للدلالة علَى ذلك النصر بل انهم جعلوا يظهرون ادوار المعركة بهذه الصور المجسمة هنا على هيئة يضطرب لها العقل ويجري الدم في عروق المتأمل ويقف الشعر في رأسهِ لانهُ اذا ما وضع عينهُ على تلك النظارات رأى سيدان والجنود الفرنسية والالمانية فيها تتقاتل قتالاً تشيب لهولهِ النواصي وتندك من شدة وقعهِ الرواسي فانك ترى الجيشين في بدء الامر وقفا يستعدان للقتال والنضال وشجر الحور في طرق سيدان الكثيرة من وراء هذه الجنود الباسلة تبكي اوراقهُ الحسناء علَى الذي ترى انهُ سيهرق من دم الانسان واغصانهُ تتمايل كانما هي سكرت من خمرة الحرب القادمة او زاد بها الالم واشتدت عليها الحسرات من عدوان بني الانسان فجعلت تميل حرقة وتوجعاً حتى

اذا تمّ المنظر الاول ورأى المتفرج هاتيك الصفوف من الجند تموج وتضطرب فغرت مدافع الحرب فاها وتصاعدت كراتها القتالة وثار دخانها من الف موضع وموضع ثم بدأ الجنود يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وتصادمت هاتيك الجموع المسلحة وتلاطمت بنارها وسيوفها فما ترى في تلك الساعة الدهياء غير صدر ينهال عليهِ الرصاص انهيال السيل وعنق تدقهُ سنابك الخيل ونار تقذفها المدافع وتفرقع بين صفوف المقاتلين البواسل فهنا جسم يتمزق ويتقطع وهنا فارس قدّ حصانهُ شطرين فوقع هو الى الارض يتألم من جراحهِ ويتوجع وهنا فرقة من الجنود تصطدم بفرقة فتردي الرجال وقد حجب بعضها قتام البنادق والمدافع وقامت قائمة البلاء والهول فما ترى كيفما قلبت النظر غير ويلٍ في ويلٍ في ويل. فاذا انتهيت من هذا واتضح لك بعد كل هذا البلاء ان معظم الخسران في جانب الفرنسيس ظهر لك جندي فرنسي يحمل علماً ابيض علامة التسليم وطلب الهدنة فيقل الاضطراب وتهدأُ الطلائع وترتد المواكب عن المواكب وبعد قليل من المخابرة ومناظر لا محل لوصفها ترى نابوليون الثالث امبراطور فرانسا قادماً وقد صغرت نفسهُ ولم يبقَ لهُ في العزّ مطمع فيصل الى حيث يلقى ولهلم ملك بروسيا الظافر في دائرة من رجالهِ العظام وبعد مبادلة الرسوم المقررة يسلم نابوليون سيفهُ لولهلم علامة الخضوع وينتهي بذلك دور حرب شابت لاخبار هولها الاطفال ولسوف يذكر الناس امرها على ممرّ الاجيال

هذا جلّ ما يستحق الذكر من مناظر برلين التي يراها المرء على خط مستقيم اثناء سيرهِ من حيث بدأنا ولا يضيع الزمان. وقد تقدم بك القول ان شارع الزيزفون الذي يوصل منهُ الى كل هذه المشاهد يمتدّ من الشرق الى الغرب ويلي ذلك في كثرة الحركة والزحام شارع فريدريك الممتد من الشمال الى الجنوب على

مسافة ٣٣٠٠ متروفي هذا الشارع حانات ومخازن كثيرة ملأى بالابضعة المختلفة واشهر ما يذكر منها مخزن الخواجا فابر صاحب معمل اقلام الرصاص المكتوب عليها اسمهُ وهي مشهورة ومعروفة في كل بلاد . واكثر منهُ اهمية شارع ولهلم وهو من اهمّ شوارع هذه المدينة العظيمة يمتد ايضاً من الشمال الى الجنوب وفيهِ من القصور الباذخة والمنازل الفخيمة ما لا يمكن الآن ذكر بعضهِ هنا من ذلك وزارة الحقانية والخارجية ورئاسة الوزارة وقصر لبسمارك وسفارة انكلترا وقصور للامراء ولحاشية الامبراطور وغير هذا كثير . وفي وسط الشارع حديقة جميلة ينتابها الناس كثار العدد وفيها غير الاغراس والبرك تماثيل القواد المشهورين ولاسيما الذين احسنوا البلاء في حرب السبع سنين التي ذكرنا طرفاً من حكايتها في الخلاصة التاريخية

وليس ينحصر جمال برلين في شوارعها وحاناتها ومتاحفها ولكن الضواحي المحيطة بها وهاتيك المصايف والمنازل لكبراء الناس وامراء السلطنة الالمانية من اعظم ما يجب ذكرهُ فاني لما علمت ذلك خرجت من باب براندبرج المعروف في عربة فوصلت في اول الامر مجموع غابات وحدائق تعرف باسم تير جارتن او حديقة تير وهي كما قلت مجموع غياض وحراج واغراس مساحتها ستمائة فدان وقد انشئت فيها الطرق بين صفوف الشجر والزهر والبحيرات البديعة تسبح فيها طيور الماء من كل جانب وتسير الزوارق الصغرى تحمل اناساً يسيرونها بايديهم بين هاتيك المناظر الساحرة والميادين الواسعة قطعوا من موضعها الشجر وجعلوها متسعاً للعب والرياضة فمن لاعب بالاكرومن فاعلٍ غير ذلك ترويضاً للجسم . وهم يحفلون بالرياضة والالعاب البدنية علماً منهم بفائدتها ولعلّ الالمان في ذلك بعد الانكليز شهرةً فان شهرة الانكليز بترويض الجسم واللعب على اشكالهِ واسعة في الخافقين

وقد اقاموا في قسم من هذه الغابات مسرحاً للحيوان غير الداجن ملأوهُ بانواع النمر والسبع والضبع والدب والزرافة وغير هـذا مما نقلوهُ بالنفقات الطائلة من مواطنهِ القاصية . ولكل نوع من هذه الوحوش اماكن خاصة بهِ كما ان الطيور لها اقفاص كبرى يعرف شكلها كل من زار حديقة الجيزة في مصر . وهنالك بحيرات للحيوانات والطيور المائية وابنية كثيرة للزائرين بعضها مطاعم وبعضها حانات قضيت فيها زمناً ثم برحتها الى الاحياء المستجدة في تير جارتن وهي مزدانة باجمل المساكن والطرق والطف البحيرات وابهى الحدائق والازهار يسكنها سراة الالمان واصحاب اليسار من اهل برلين وهم كثار العدد وتنار اكثر جوانبها بالنور الكهربائي الساطع في الليل فلا تعرف أهي اجمل في الليل ام في النهار

ويذكر بين ضواحي برلين البهية قصر شارلوتنبرج بُني سنة ١٧٦١ وكان مصيف آل هوهنزولرن من بعد ان صاروا ملوك بروسيا وفيهِ مدافن لبعض الرجال العظام من هذه العائلة المالكة اشهرها قبر ولهلم الاول مؤسس السلطنة الالمانية الحالية وجدّ الامبراطور الحالي وصلناهُ بعد سير طويل في العربة واجتزنا حدائق تير جارتن فرأينا جماعة كثيرة في انتظار الاذن بالدخول حتى اذا جاء الموعد نزل الناس ووقف الالمان منهم عند ضريح الامبراطور الكبير خاشعين متهيبين تبدو عليهم علامات الوقار والاحترام لمؤسس مملكتهم ورافع لواء عظمتهم واكثرهم يذكرونهُ ويذكرون لهُ الحسنات فكان المشهد حول ذلك الضريح مؤثراً في النفس عظيم الدلالة على قدر المدفون ومعرفة الناس لفعالهِ شأن الكرام الذين يذكرون للمرء فعلهُ ولا ينكرون

ودعاني للعشاء في ذلك اليوم الموسيو هارتمان الذي كان وكيلاً لقنصلاتو المانيا الجنرالية في بيروت وعرفتهُ يوم زار اللاذقية للبحث عن الآثار القديمة ونزل

ضيفاً على المرحوم عمي يعقوب الياس وهو يومئذٍ ڤيس قنصل المانيا في اللاذقية.
والموسيو هارتمان من علماء اللغات الشرقية توسع في درس اللغة العربية مدة وجوده في الشرق فعين مدرّساً لهذه اللغات في اكبر مدارس برلين الجامعة وقد اراني نسخة من كتاب نهج البلاغة في خطب الامام علي بن ابي طالب اهداهُ اليهِ المرحوم الشيخ محمد عبده المشهور

وفي ذلك اليوم قضيت السهرة في ملعب للخيل (هيبودروم) ينتابهُ الالوف وتجري فيهِ الالعاب المدهشة على نغم الالحان واكثر هذه الفعال غرابة تقوم بها فتيات لهنَّ خفة في الوثوب والحركات اذكر ان فتاة منهنَّ كانت تسوق ستة افراس وهي تثب من ظهر واحدة الى الأُخرى ولا تخطىء وأُخرى كانت ترقص على ظهر جوادٍ يسير بها مسرعاً ولا تهتزُّ وغير هذا كثير من الالعاب التي تحلو مشاهدتها في كل حين

وزرت في اليوم التالي رجلاً من مشاهير برلين اسمهُ الموسيو فون لاشان مدير المتحف التاريخي الثاني كان معي لهُ كتاب من صديقي المرحوم اسكندر كاتسفليس ڤيس قنصل المانيا سابقاً في طرابلس وقد لقيت منهُ ومن حضرة قرينتهِ كل ملاطفة واكرام وكانت السيدة تحدثني عما رأَت من الاطلال والآثار في نواحي الموصل حيث ذهبت مع زوجها حباً بالاطلاع والاكتشاف. ودعيت بعد ذلك منهما للتمضية يوم الاحد في (بوتسدام) وهي مدينة في ضواحي برلين عدد اهلها ٥٠ الفاً فلبيت الدعوة وسرت في القطار مع صحبي زهاء نصف ساعة ووصلتها فاذا هي مجموع محاسن طبيعية وصناعية نسبتها الى برلين كنسبة ڤرسايل الى باريس ترى في جميع جوانبها من بديع الزهر والشجر شيئاً كثيراً وفي وسطها بحيرات متسعة المجال تسير فيها البواخر الصغيرة وهي ملأَى بالمتنزهين من اهل برلين

وسواهم ولاسيما اذا كان ذلك في يوم احد او عيد وعلى هذا فالقُطُر الحديدية ما بين برلين و بوتسدام لا تقل عن خمسين في كل يوم . وقد كانت بوتسدام مسكناً لفريدريك الكبير ملك بروسيا الذي مرَّ ذكرهُ انشأَ فيها الحدائق الغناء واعتنى بتلك المروج الفيحاء وشاد القصور الشماء وفي جملتها قصر (سان سوسي) ومعنى الاسم «خلي البال» اشارة الى خلو اصحاب القصر من الشواغل وهم يطلقون هذا الاسم على مثل هذه المصايف حيث يقضي امراء الزمان وقت الفراغ . وفي حديقة القصر غير غرائب الزهر والشجر برك اشتهرت بقوة ما يندفع من ماء انابيبها فانهُ يصعد من بعضها الى علو ٣٩ متراً كانما هو جبل من الماء صاعد ثم يهوي ويصبُّ في بركة يحدث فيها لشدة وقعهِ اضطراباً وموجاً كبيراً . وقد جرى الامراء مجرى فريدريك الكبير الذي شاد القصور في بوتسدام وولع زماناً بسكناها فبنوا فيها نخيم المنازل هناك رأينا في جملتها قصر اورانجري او قصر البرتقال اشتهر باغراس البرتقال وضعت في براميل كبرى وقد صفت من حول البناء ولها رونق وبهاء فاذا اشتدَّ البرد عليها نقلوها الى مواضع ادفأَ في داخل المنزل . ومن ذلك قصر فريدريك الثالث والد الامبراطور الحالي مات فيهِ صاحبهُ فريدريك واقامت فيهِ الامبراطورة فريدريك والدة الامبراطور الحالي الى يوم مماتها . والقصر واسع الانحاء كثير الجمال فيهِ مايتا غرفة ولحديقتهِ منظر تضرب بهِ الامثال . ومن ذلك قصر بابلسبرج بني على عهد فريدريك الكبير وزادهُ الملوك من بعدهِ تحسيناً وفي حديقتهِ بقعة تعرف باسم المطحنة سميت بذلك لانهُ لما بنى الملك هذا القصر كان في هذه البقعة مطحنة لفلاح بروسي فقير فاراد الملك ان يشتريها منهُ وامتنع الرجل ثم استدعاهُ الملك بعد ان فرغت الحيل في اقناعهِ وتهددهُ باغتصاب الارض وبالعذاب اذا اصرَّ على الاباء فلم يهتز الفلاح لهذا الوعيد وقال للملك « ان هذا

يمكن اذا لم يبقَ في برلين قضاة » فاعجب الملك بجرأة الفلاح وثقتهِ بقضاة المملكة وترك المطحنة لهُ على حالها كما رأيتها في ذلك اليوم وانعم عليهِ بجملة مالٍ شأن الملوك العظام

وبعد التنزه في غياض بوتسدام وهضابها وبحيراتها عدنا الى منزل الموسيو ڤون لاشان في برلين وقضينا السهرة عندهُ وكان في جملة المدعوين بعض من اهل الادب والمقام فاطلعنا صاحب الدار على رسوم عندهُ لبعض مدائن الشام مثل بيروت واللاذقيه وجونية وطرابلس وسواها ثم ارانا اشكالاً من الجلد تمثل العاب « كراكوز » او هي خيال الظل وبينها رسوم عيواظ والمدلل وقد اعجبت باعتناء هؤلاء القوم بامور المشرق حين اراني المضيف رسالة من تصنيفهِ بالعلامات الموسيقية الافرنجية في اغاني « الكراكوز » واسمعوني بعض هذه الانغام فكأنني كنت في قهوة شرقية وهنا غاية الاعتناء بالعلم ومثال التدقيق في جمع المعارف

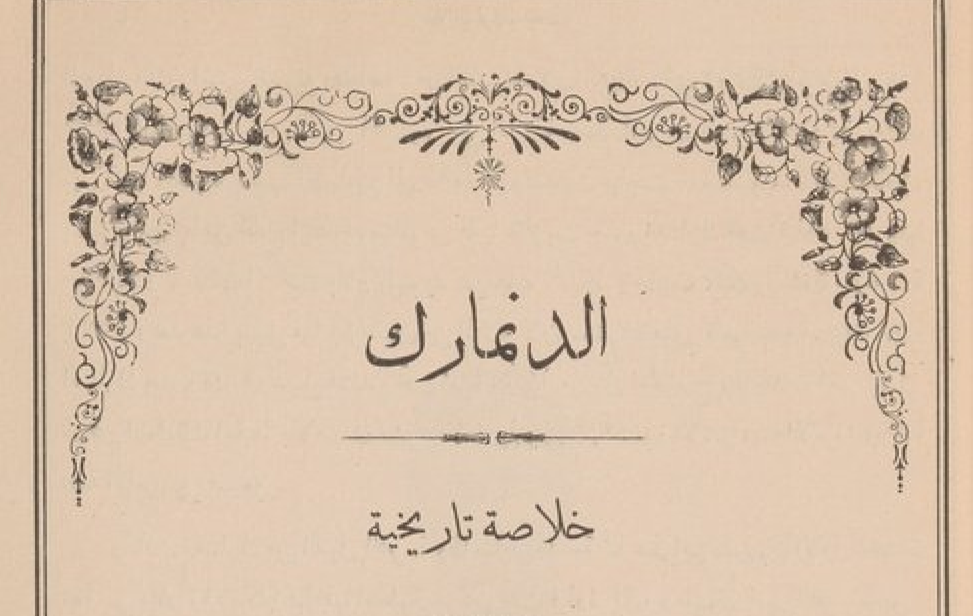
ودعينا الى زيارة المتحف الذي يديرهُ ڤون لاشان في اليوم التالي فذهبنا اليهِ ورأيت ما فيهِ من الآثار الالمانية التامة في كل فنٍّ ومطلب . هنالك مجموعة من الآثار النفيسة كشفها الاستاذ شليمان المشهور عند آثار تروادة وقد ذاع ذكر هذا المكتشف وجاء مصر مراراً ليبحث عن قبر الاسكندر ذي القرنين ظناً منهُ ان الاسكندر دفن في مصر فلم يتوفق الى اكتشافهِ . وفي المعرض من غرائب كل بلاد ما يقصر القلم عن وصفهِ استوقف نظري منهُ ملابس كثيرة الحشو والزخارف لهنود اميركا الاصليين وهي قديمة ضاع شكلها من بين الهنود الحاليين وبطل استعمالها حتى ان ڤون لاشان قال لي انهُ اذا اراد هنود اميركا الآن ان يعرفوا شكل اجدادهم الاقدمين وجب عليهم ان يأتوا برلين ويزوروا هذا المعرض حيث حفظت الاشكال الاولى على اصلها وغرابتها . وهنالك ايضاً ملابس

لثيودوروس ملك الحبشان الذي قتل في حربهِ مع الانكليز سنة ١٨٦١ وكوبة كان يشرب الماء بها وآثار لا تحصى من اميركا وافريقيا واسيا كلها ادلة على الاجتهاد والنشاط الذي امتاز بهِ القوم الالمان وهم بلا ريب من اهل الطبقة الاولى في العلم والصناعة والتعليم عندهم اجباري حتى انهُ يندر وجود واحد يجهل القراءة ومبادئ العلوم بينهم. على انني لم ابرح برلين قبل ان امتع النظر بمرآها جملة من مرتفع يسمى كروسبرج يطلُّ عليها فقصدت اكمة مجاورة لها ومعي الدليل والمنظار حتى اذا ارتقيت قمتها نظرت الى الجنوب سهولاً خضراء يزرعونها حنطة وغلالاً والى جانبها سهول يستعرض فيها الجيش الالماني وتجري المناورات العظيمة يرأسها الامبراطور بنفسهِ ويدعي اليها اكابر القواد من كل بلاد . وهنالك شجرة دلني اليها الدليل يقف تحتها الامبراطور ساعة الاستعراض

على مثل هذا قضيت اسبوعاً في عاصمة الالمان العظيمة حتى اذا تمَّ لي المراد من الدرس والفرجة برحتها في قطار قام ينهب الارض نهباً في وسط حراج غضيضة وسهول اريضة في اقليم مكلنبرج طوراً يشق الارض وتارة يسير على ضفاف البحيرات او فوق الجسور حتى وصلنا الحدود الفاصلة بين بروسيا والدنمارك عند محطة (وارنموندا) فسافرنا من هنالك في البحر زهاء ساعتين ووصلنا بعدهما فرضة جدسر وهي مدينة دنماركية ركبنا فيها قطار سكة الحديد ومررنا بعدها على عدة محطات آخرها محطة (دينجبونج) وهناك وصلنا خليجاً آخر لم يكن لنا بدٌّ من عبورهِ فعبرناهُ على طريقة غريبة لم ارَ مثلها قبل هذه المرة ذلك ان القطار وقف على ضفة الخليج واتصل اولهُ بباخرة بحرية في الماء وفوق سطحها خطوط الحديد ليقف عليها القطار كانما هي ارض مدت عليها الخطوط الحديدية وسار القطار على مهلٍ حتى صار كلهُ فوق تلك السفينة فوقف وتحركت هي

فسارت في الخليج حاملة للقطار حتى اذا وصلت البر من الناحية الثانية وقفت عند نقطة فيها خطوط الحديد للقطار فالقت رحلها ووقفت مكانها ومن ثم تحرك القطار فسار من ظهر الباخرة الى الارض وظلَّ سائراً في طريقهِ فكان ذلك من اجمل ما رأيت في طريقي بين برلين و كوبنهاجن وهي العاصمة التي وصلتها بعد سير ١٢ ساعة من برلين . واما بقية المدائن الالمانية التي زرتها مثل كونستانس وستراسبورج ومايانس ووسبادن وفرانكفورت و كولون فترى الكلام عنها في فصل يجيء من فصول هذا الكتاب





الدنمارك

خلاصة تاريخية

كان الدنماركيون اقواماً متوحشة شأنهم شنُّ الغارات على الممالك المجاورة لبلادهم واشتهروا بهذه الغارات والغزوات في البر والبحر حتى صار اسمهم وهم اهل الشمال مرادفاً للشر والهجوم عند سكان اوروبا في القرون المتوسطة وهم يومئذٍ مع اهل السويد والنرويج يداً واحدة لانهم من جنس واحد . وقد اشتهرت غزوات الدنماركيين في انكلترا من القرن التاسع الى الحادي عشر فان ملكهم سوين هاجم بلاد الانكليز في سنة ٩٨١ وملكها واورثها من بعده لابنهِ كانوت الذي صار اعظم ملوك زمانهِ لانهُ ملك انكلترا والدنمارك والسويد والنرويج وكان مشهوراً بالعدل والحكمة ولما مات في سنة ١٠٣٦ اقتسم اولادهُ الثلاثة املاكهُ فكانت بلادهُ الاصلية نصيب ابنهِ هرديكانوت وهو الذي ضاعت انكلترا من يد الدنمارك في ايامهِ واستعادت استقلالها

ولم يحدث بعد هذا امر مهم في تاريخ البلاد غير تعاقب الملوك والغزوات الى ان ورثت العرش ملكة اسمها مرغريتا كانت مفرطة الذكاء كثيرة الحكمة ظهرت مآثر اقتدارها في ممالكها الثلاث وهي الدنمارك والسويد والنرويج فسميت سميراميس الشمال اشارة الى سميراميس ملكة اشور التي تروى عنها عظائم الفعال وذلك في اواخر القرن الرابع عشر . ولما اشتهر امر الانقلاب الديني في اوروبا بعد ايام لوثيروس كان ملك الدنمارك رجلاً عاتياً جباراً اسمهُ كرستيان الثاني وهو يعرف عند بعض المؤرخين باسم نيرو الشمال اشارة الى نيرو قيصر

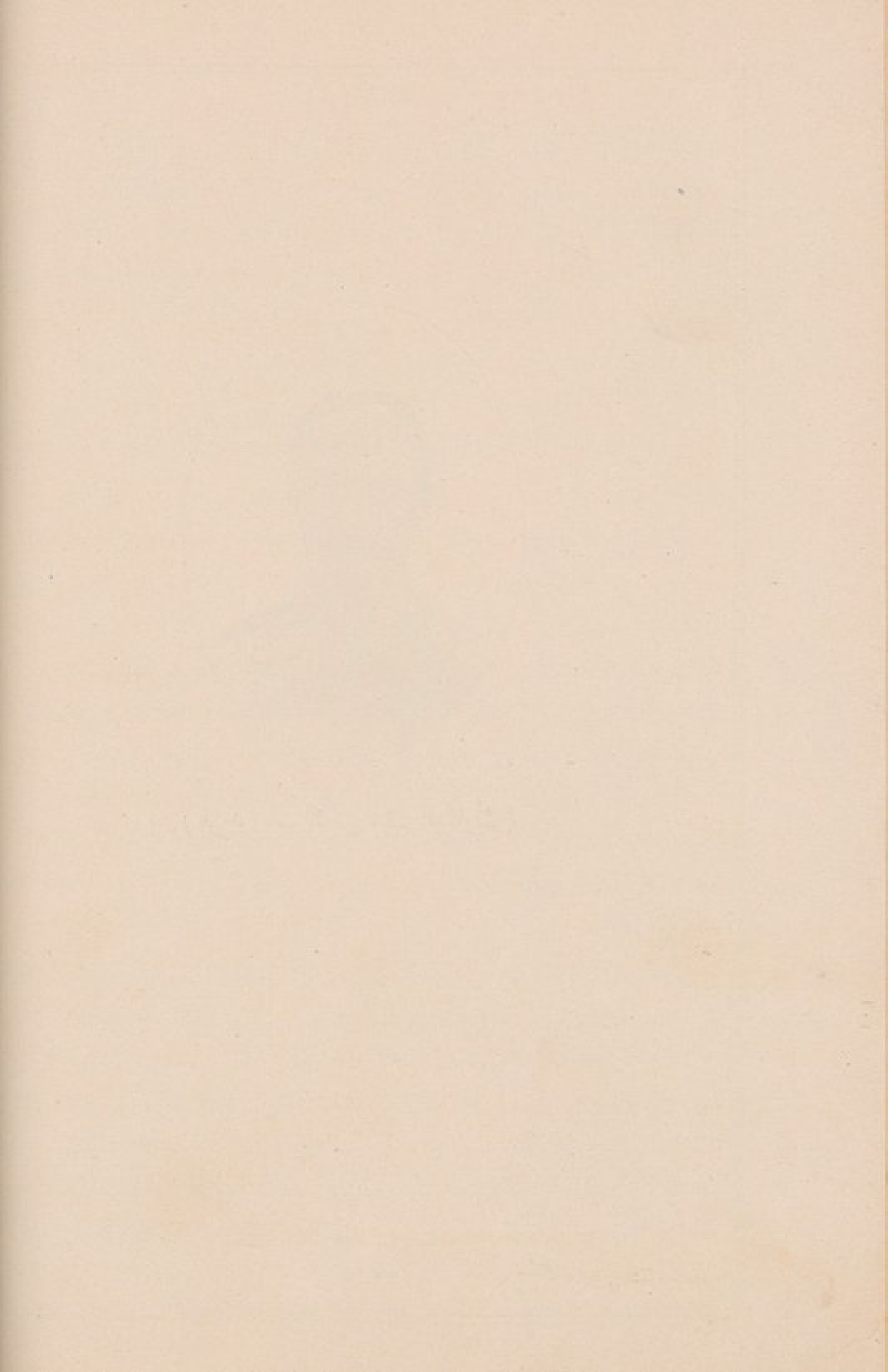
الرومان الذي اشتهر بقسوتهِ وفظائعهِ . فلما انتشر المذهب البروتستانتي في ممالك كرستيان هذا استعمل منتهى الشدة مع الذين اعتنقوهُ حتى انهُ دعا معظم اشراف السويد الى وليمة وفتك بهم غدراً وعدواناً بسبب انضمامهم الى طائفة البروتستانت نهاجت امة السويد لذلك وقامت بنصرة امير نجا من الذبح اسمهُ جوستافوس ڤاسا فحاربت جنود الدنمارك تحت قيادتهِ وطردتها من البلاد وبذلك انسلخت بلاد السويد عن هذه المملكة وصارت مملكة مستقلة في سنة ١٥٢١ وبعد هذا بقليل فرَّ كرستيان من البلاد لان معظم الاهالي قاموا عليهِ فسارت بلاد الدنمارك بعد ذلك في سبيل التقدم تحت امرة ملوكها من آل اولدنبرج ولم يحدث امر يذكر لهم غير ان الملك استبدَّ بالامر في سنة ١٦٦٠ ولم يبقِ اثراً لنفوذ الاشراف والامراء ووافقهُ عامة الناس على صنيعهِ

وكانت الدنمارك من الدول البحرية ولها متاجر واسعة فلما عظم امر نابوليون الاول اتحدت معهُ على مناوأة الانكليز فهاجمها اسطولهم مرتين تحت قيادة اللورد نلسون امير البحر المشهور في سنة ١٨٠١ و١٨٠٧ ودمر حصون عاصمتها كوبنهاجن وامر اسطولها برمتهِ فاستخدمهُ في محاربة نابوليون وكان ملك الدنمارك صديقاً لنابوليون حميماً ظلَّ على ولائهِ الى يوم سقوطهِ فاسخط ذلك دول اوروبا الناقمة على نابوليون وسلخت منهُ بلاد النرويج فاضافتها الى مملكة السويد على ما سيجيء في تاريخ هاتين المملكتين . وفي سنة ١٨٣٤ تحرَّك الاهالي لطلب الحقوق الدستورية فسلم بها الملك فريدريك السادس وصارت البلاد دستورية شوروية من ذلك الحين فتقدمت في درجات الحضارة ونمت ثروتها ولكنها فقدت بعض املاكها في سنة ١٨٦٤ بعد محاربة شاقة مع بروسيا واخذت منها ولايات لاونبرج وشليسوج وهولشتين كما تقدم عند الكلام عن المانيا

وفي سنة ١٨٦٣ رقي عرش الدنمارك ملكها السابق كرستيان التاسع وكان ذا منزلة عظمى بين ملوك اوروبا واقيالها لانهُ فضلاً عن فضائلهِ وحسن سياستهِ ارتبط باعظم العائلات المالكة بربط القرابة فان ابنتهُ الاولى اقترنت بجلالة ملك انكلترا الحالي ولها شهرة بالفضائل لا تفوقها شهرة يحبها الانكليز جميعهم حباً مفرطاً لحسن خصالها . واقترنت اختها الثانية بالمرحوم اسكندر الثالث قيصر روسيا والد القيصر الحالي وهي ايضاً من اشهر الاميرات في رقة القلب وحب الفضيلة . واقترنت الثالثة منهنَّ بالديوك اوف كمبرلند حفيد جورج الرابع ملك انكلترا وهو المطالب الآن بسرير مملكة هانوڤر التي ذكرنا خبر ضمها الى السلطنة الالمانية في الفصل السابق . واما اولادهُ الذكور فاولهم جلالة الملك الحالي وثانيهم جلالة ملك اليونان الحالي ايضاً والثالث



(فريدريك الثامن ملك الدنمارك)



امير اسمهُ ڤلاديمير عرضت عليهِ امارة البلغار فلم يقبلها · توفي هذا الملك الكبير يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ بعد ان ملك ٢٣ سنة وهو في سن الثمانين فاثرت وفاتهُ في اكثر عائلات اوروبا المالكة ودفن باحترام عظيم تخلفهُ جلالة الملك فريدريك كرستيان الحالي وهو الثامن من ملوك الدنمارك بهذا الاسم وقد بدأ حكمهُ بخطاب القاهُ على الناس من شرفة قصرهِ يوم وفاة ابيهِ قال فيهِ « ان ملكنا السابق والدي العزيز قد قضى نحبهُ وكان اميناً في قضاء الواجب عليهِ حتى ساعة الممات فورثت عنهُ الحمل الكبير ولي امل ان احذو حذوهُ واسأل الله اعانتي على تحقيق هذا الامل · ويسرني اني على اتفاق مع نواب الامة فيما يضمن خيرها وتقدمها · فلنناد كلنا بصوت واحد ليحيَ الوطن » فوقعت هذه الخطبة احسن وقع في النفوس · وعدد النفوس في بلاد الدنمارك نحو ثلاثة ملايين



كوبنهاجن

هي عاصمة الدنمارك فيها من السكان اربعماية وخمسون الف نفس ومعنى اسمها «فرضة التجارة» اشارة الى اشتهارها بالمتاجر من عهد بعيد او من عهد تأسيسها فانها بدأ ببنائها الاسقف اكسل في القرن الثاني عشر للميلاد وكانت في اول الامر قرية ينتابها بعض تجار السمك ويقيم فيها الصيادون فجعلت تكبر وترتقي الى ان تولى مملكة الدنمارك كرستيان الرابع سنة ١٥٨٨ وكان مقداماً نشيطاً ميالاً الى توسيع المتاجر هماماً باسلاً في الحروب فتقدمت المدينة على ايامهِ تقدماً عظيماً وبنيت فيها حصون لصد هجمات الاعداء اكثرها باقٍ الى الآن وهي من المناظر التي تستحق الذكر في كوبنهاجن. وقد اشتهرت هذه المدينة فوق المتاجر بصناعة القفاز او الكفوف والسفن الشراعية وبعض اشكال الخزف واتقنت صناعة الجبن لان اهلها اشتهروا بتربية المواشي وفيها من المشاهد المعدودة شيء كثير من ذلك الميدان الملكي كان اول ما قصدناهُ عند خروجنا من الفندق فاذا هو ساحة متسعة الاطراف أُقيم في وسطها تمثال للملك كرستيان الخامس راكباً جوادهُ وكان كرستيان هذا من ملوكهم العظام حكم البلاد من سنة ١٦٧٠ الى ١٦٩٩ واشتهر بمحاربة الاسوجيين واتحد مع النمسا لمحاربة لويس الرابع عشر ملك فرانسا وسنّ قانوناً للاحكام لم يزل اساس الاحكام الدنمركية الى هذا اليوم. وفي ذلك الميدان بناء المرسح الكبير وسفارات الدول العظيمة ومنازل لبعض السراة وفنادق وحانات ومطاعم في جوانبهِ الاربعة فترى الناس يقصدونهُ بسبب وجود هذه الاشياء كلها عصارى كل يوم يتمشون في جوانبهِ او يقعدون في احدى حاناتهِ وهو اشهر مواضع الاجتماع في كوبنهاجن

واني بعد ان رأيت هذا الميدان الملكي خطر في بالي ملك الدنمارك وطلبت الى الدليل الذي كان معي ان يسير بي قبل كل شيء الى قصر الملك السابق ففعل ولما انتهيت اليهِ تولاني العجب من بساطتهِ فعلمت ان القصر الذي كان الملك يقيم فيهِ احترق عام ١٨٨٤ ولم يشأ جلالتهُ ان ينفق الاموال الطائلة على تجديدهِ لانهُ كثير الميل الى البساطة فهو يقيم حيث تقدم الكلام . وللملك الحالي قصر اجمل من مسكنهِ ولاخيهِ جورج ملك اليونان قصر اجمل من الاثنين وهو مقفل لم يرضَ كرستيان ان ينتقل اليهِ لما اشتهر من حبهِ للعيش البسيط وانفاقهِ للمال على الاحسان بدل التلذذ بالاطايب والتفاخر باليسار وقد كان يوالي فقراء امتهِ بالمال والزاد ويوزع على بيوت كثيرة في كوبنهاجن وسواها وقوداً وطعاماً في زمن الشتاء ونوادر بساطتهِ كثيرة قصَّ عليَّ صاحب الفندق الذي نزلت فيهِ واحدة منها هي انهُ لما زارت هذه العاصمة البرنسس ستفاني ابنة ملك البلجيك وارملة رودولف ولي عهد النمسا الذي انتحر عام ١٨٨٨ جاء الملك ليسلم عليها في ذلك الفندق ووصل الباب وحدهُ كأنما هو واحد من تجار المدينة او صناعها فاخذ من جيبهِ بطاقة الزيارة واعطاها لواحد من الخادمين ليوصلها الى الاميرة وظلَّ هو منتظراً عند الباب يحدث صاحب الفندق ويسألهُ عن ايرادهِ ونفقاتهِ وعدد الذين يدخلون فندقهُ كل عام وغير ذلك من المباحث حتى عاد الخادم واخبرهُ ان الاميرة تنتظر تشريفهُ فصعد اليها وراء الخادم وبعد ان اقام معها زماناً عاد كما جاء بلا طنطنة ولا احتفاء . وكان الناس يحبون هذا الملك الفاضل واسرتهُ الكريمة حباً مفرطاً وهم يعلمون ميلهُ الى البساطة ونفورهُ من الطنطنة والابهة فاذا مرَّ بهم حادوا من طريقهِ احتراماً وتوقيراً وقد لا يسلمون عليهِ حتى لا يحملوهُ مشقة الردّ وفي ذلك موافقة لاميالهِ ايضاً

واما متاحف كوبنهاجن وقصورها العظيمة فاشهرها قصر روزنبرج وهو صرح تُركَ على حالتهِ الاصلية وفيهِ من نفائس التحف وثمين الآثار شيءٌ كثير بناهُ الملك كرستيان الرابع عام ١٥٨٨ ولهُ موقع في وسط المدينة جميل . وسرت الى هذا القصر في ثاني الايام فوجدت غيري ينتظرون الاذن بالدخول على مثل ما كنت ارى في اكثر هذه المتاحف المشهورة حتى اذا جاء الموعد اتانا خادم باللباس الاسود والقفاز الابيض وربطة العنق بيضاء ايضاً كأنما هو في حفلة للتشريفات وقادنا الى غرف القصر فاذا هي او اكثرها ملونة بالالوان الواضحة كالاصفر والاحمر والازرق واول هذه الغرف قاعة فسيحة كانت معدة لاستقبال الزائرين وقد وضعوا فيها صور افراد العائلة المالكة حالاً في الدغارك والكل بملابسهم الرسمية القديمة على اتمّ إحكام واوفى اتقان . وهنالك عروش كثيرة جلس عليها ملوك البلاد من آل اولدنبرج بعضها من الفضة والبعض الآخر من الخشب الثمين وقد نُقش على اكثرها شعار الدولة الدنماركية وهو ثلثة اسود ورسوم أُخرى تشير الى بعض ما حدث في البلاد من الامور الكبيرة . ومن غريب الآثار المحفوظة في هذه الغرفة ايضاً قرن جاموس لهُ حكاية خرافية فحواها ان الكونت اولدنبرج ابا مؤسس الدولة الدنماركية الحاضرة ظهرت لهُ منجمة في سنة ١٤٤٨ واعطتهُ ذلك القرن واشارت عليهِ ان يشرب ماء فيهِ فيرافقهُ السعد ويخدمهُ الزمان ففعل باشارتها وما مرّ زمان بعد ذلك حتى صار ابنهُ ملكاً لبلادهِ والملك باقٍ في يد سلالتهِ الى اليوم وقد ابقوا هذا القرن اثراً لمؤسس دولتهم فطلوهُ بالفضة ورصعوهُ بالحجارة الكريمة وحفظوهُ في هذه الغرفة مع حلي لبعض ملكاتهم واسلحة مثمنة لبعض ملوكهم وملابس مزركشة وغير هذا من آثار الملوك الذين درجوا نكتفي بهذه الاشارة اليها لانها كثيرة ووصفها يضيق عنهُ المقام

ودخلنا بعد ذلك غرفة الورد سميت بذلك لان جدرانها ملبسة بنسيج من الحرير النفيس عليهِ صور الورد من كل اشكالهِ وفيها المصابيح والثريات البديعة ومنضدة صُنعت من خشب الابنوس وزُخرفت بالعاج والصدَف ووُضعت على اشكال الطيور وفيها فوق العشرين من الادراج السرية يفتح كلٌّ منها بأُسلوب خاص وقد صنعت هذه المنضدة للملك في سنة ١٧٣٥ وانفق عاملها على صنعها نحو ٤٥٠ جنيهاً وهي من الآثار الجميلة في هذا المتحف لغرابة صنعها . وغير هذا كثير

ثم صعدنا الدور الاعلى من القصر ومن غرفهِ العجيبة قاعة المرائي سميت بذلك لان جدرانها كلها من هذه المرائي . وتليها قاعة النبلاء ملئت بصور الامراء والقواد الذين اشتهروا في تاريخ الدنمارك وفيها كرسي من الفضة جميل الصنع يتوج عليهِ ملوك هذه البلاد وجرن للعماد يعمد فيهِ اطفال الاسرة المالكة وقد نقش عليهِ تاريخ ١٧٢٠ وكلهُ من الفضة الخالصة وعليهِ رسوم كثيرة منها رسم يوحنا المعمدان يعمد المسيح في نهر الاردن . وفي جدران هذه القاعة صورة بطرس الاكبر قيصر روسيا الذي جاء هذه المدينة متنكراً واقام في معامل السفن يدرس بنفسهِ كيفية صنعها حتى يعلم اهل بلادهِ وكان مدة وجودهِ هنا مثل بقية العمال في معيشتهِ

وظللنا في ذلك القصر القديم ندور بين نفائسهِ ونمتع الطرف زماناً ثم انصرفنا وكثيرون من السائحين والسائحات يترددون في الخروج وقد رأينا من خدمة هذا القصر شيئاً لم نعهدهُ في امثالهم من الخادمين فانهُ لما عرض على احدهم مال قليل كالذي يأْخذهُ الخادمون في كل موضع ابى قبولهُ واظهر الاستغراب من صنيعنا وهذا امر يستحق الذكر للدنماركيين وهم قوم اشتهر عامتهم وخاصتهم بالامانة والصدق واحقر الناس عندهم لا يجهل القراءة والكتابة لان التعليم قسري في هذه البلاد فليس في طولها والعرض امي واحد . ونزلنا بعد ذلك الى

حديقة قصر روزنبرج هذا وهي بعيدة الاطراف فسيحة المجال فيها من صفوف الكستناء اشجار عمرت قروناً وهنالك تمثال للملك كرستيان الرابع الذي مرَّ ذكرهُ وتمثال آخر للعالم اندرسون الذي اشتهر بالكتابات الادبية والقصص الصغيرة يقرأها الاولاد في المدارس ويتعلمون منها احسن المبادىء وهو في التمثال هذا واقف بيدهِ كتاب ومن حولهِ صبية يصغون لاقوالهِ والناس يحترمون ذكر هذا الكاتب المفضال هنا حتى انهم اقاموا لهُ الذكر في عدة مواضع ولما ساروا بجثتهِ للدفن بعد وفاتهِ كان الملك في جملة الماشين وراء النعش احتراماً لفقيد الادب وهنا يظهر لك نفع البساطة والحرية عند الملوك فان اكرام العلماء الى مثل هذا الحد ينشط اصحاب العقول ويشجعهم ويدفعهم الى الاقدام على الدرس والكتابة في ما يفيد

وعلى ذكر هذه الحديقة التي نحن في شأنها اذكر اني زرت في كوبنهاجن حديقة اعظم منها واوفر جمالاً واوسع شهرة هي حديقة تيفولي تعدُّ من المتنزهات المشهورة عندهم وقد قضيت سهرة من احلى السهرات رأيت في جوانبها الواسعة مصابيح تعدُّ بالآلاف وهي صغيرة كثيرة الالوان صفت صفوفاً منظمة على ابواب الحديقة وعلى اقواس عدة نصبوها من هنا ومن هنا في نواحي الحديقة وعلى جوانب الطرق الكثيرة وفوق بركة من الماء كبيرة وبين غصون الشجر وفي المروج الخضراء وكلها كما تقدم ذات الوان مختلفة توافق محل وضعها ولها منظر بديع شائق لا تشبع العين من النظر اليهِ ولا سيما فوق ماء البحيرة وحول جوانبها حيث تنعكس الانوار الكثيرة الملونة فتزيد المنظر غرابة وبهاء . والقادم الى هذه الحديقة يحسب انهُ في يوم عيد عظيم مع ان هذا حالها في كل يوم وقد انفقوا المال الكثير على ايصالها الى هذه الدرجة من الجمال حتى صيروها من اجمل المشاهد وبنوا في وسطها الملاعب والحانات والمطاعم اذكر اني دخلت مطعماً منها سموهُ باسم قصر الحمراء في غرناطة

باسبانيا وجعلوهُ على شكل ذلك القصر الفخيم الذي ترى وصفهُ عند الكلام على مملكة اسبانيا وفي ذلك المطعم الموائد الشهية ومواضع لثلثماية شخصٍ صفت على اجمل الاشكال . وفي بحيرة الحديقة ايضاً سفائن صنعت على شكل السفن الدنماركية القديمة يدور بها المتنزهون حول تلك الضفاف البهية . ومغارة تشبه المغارة الزرقاء في نابولي وسوف يأتي الكلام عليها ايضاً عند الكلام على مملكة ايطاليا . وتل صناعي من الصخور الجميلة يتدفق الماء من جوانبهِ وينصبُّ في البحيرة ومن فوق ذلك التل صرح صغير او كشك انير بالمصابيح الملونة وفيهِ نفر من القوم الطليان يغنون الانغام الايطالية والناس يدورون بهم من كل جانب . وقد كانت سهرتي في تلك الحديقة كثيرة الفكاهة واللذة ولا سيما اذ ركبت زورقاً في البحيرة والزورق يخترق صفوف السفائن ملأَى بالمتفرجين . وأعجبني على نوع خاص ما رأيت من هدو اهل البلاد وسكونهم وتأدبهم في الحديث والاشارات فان الذين دخلوا الحديقة في تلك الليلة لا يقلون عن عشرة آلاف ومع هذا فان الهدو كان سائداً والانس شاملاً فما سمعت جلبة ولا ضوضاء ولا رأيت غير كل وقار ومهابة والناس يسيرون افراداً واسراباً في جوانب الحديقة على مهلٍ فرحين وشعور صغارهم ذكوراً واناثاً تتلألأُ بياضاً كأَنما هي فضة فوق ورد الخدود النقية وهي صفة عامة في اهل الشمال

واصبحت في اليوم التالي فقصدت المين الحربية وفيها الاستحكامات صفوفاً وقد تقدَّمت الاشارة اليها وبعضها يعدُّ موقعهُ من اجمل المواقع وتولم فيهِ الولائم العسكرية الفاخرة . وعلى مقربةٍ منها ميناء التجارة وهي واسعة كبيرة ترى فيها من اشكال السفن والبواخر والابضعة ما يعسر عدهُ . واكثر السفن في ميناء كوبنهاجن انكليزية لان للانكليز اوسع المتاجر مع اهل هذه البلاد وهم يشترون من انكلترا

الحديد والفحم الحجري وبعض المصنوعات ويرسلون اليها كثيراً من حاصلات بلادهم ومصنوعاتها . ويقرب من هذه المين مطعم من الطبقة الاولى بين المطاعم المعروفة بني على مرتفع من الارض واكثر الذين يقصدونهُ ضباط من أسطول هذه البلاد والدوارع التي تزورها . واذكر اني رأيت من ذلك المطعم عربة فاخرة يجرها فرسان من جياد الخيل وقد لبس سائقها والخادم الآخر الى جانبهِ القطيفة الحمراء مزركشة بالقصب فسألت الترجمان عن حقيقة امرها وعلمت انها جلالة الملكة الحالية وهي اميرة اسوجية لها ثروة طائلة وهبت منها نصف مليون جنيه لابنها الثاني البرنس شارل ملك نروج الحالي عند اقترانهِ بالبرنسس مود ابنة ملك انكلترا وهي ابنة عمتهِ كما يذكر القارئون . وقد اشتهر ملك الدنمارك والملكة بالادب وحب الدرس والمطالعة وهما على شاكلة الملك السابق في البساطة وحب الفقير فالناس يميلون اليهما كثيراً ويسرون كلما التقوا بواحدٍ من هذه العائلة الكريمة

وقصدت بعد ذلك الحديقة العمومية وهي من اجمل الحدائق اشتهرت باتساع مروجها البهية حيث يغطي الارض عشب قصير سندسي مرقط باشكال الأُقحوان والزهر الجميل على نسق يحيي في النفوس ذكر الجمال الطبيعي وتفوح من تلك الازهار روائح عطرية اكثرها يتضوَّع من الورد الكثير المزروع في هذه الحديقة علَى اشكالهِ . ولا حاجة الى القول ان في هذه الحديقة من الابنية والمشاهد ما في سواها وقد اسهبت في وصفهِ غير مرَّة فاتركهُ كما تركت الحديقة يوم زرتها وتوجهت الى متحف الآثار القديمة في كوبنهاجن وهو من المشاهد المعدودة في هذه العاصمة وقد قسم ثلثة اقسام اولها قسم التاريخ القديم ويليهِ قسم العصور الوسطى ثم قسم التاريخ الحديث فترى في الاوَّل اشكال الاسلحة الأُولى من الحجر والصوان وبعض الحراب والسيوف والرماح والنبال وما كان يستعملهُ الاولون من آنية

الطبخ وامشاط من قرن الجاموس وصناديق من قشر الشجر وادوات أخرى لا محل لذكرها تمثّل حالة الاوائل وكيفية معيشتهم وحروبهم اتمَّ تمثيل. واكثر ما في القسم الثاني ملابس واسلحة لفرسان العصور الوسطى ونقود من ايام شارلمان ومن قام بعد ايامهِ من ملوك الدول الاوروبية وقد رُتبت حسب تاريخ ضربها والممالك التي ضُربت فيها واكثرها يدلُّ على تقهقر الصناعة في العصور المتوسطة فان الاولين اتقنوا النقش والحفر والرسم لاسيما في ايام الرومان واليونان الذين تشهد آثارهم الكثيرة انهم وصلوا درجة عظيمة من التقدُّم في هذه الفنون الجميلة فلما انقرضت دولتهم وكثر ظلم من خلفهم استولى الجهل على العقول وسميت تلك الازمان بالعصور المظلمة لما اشتهر عن اهلها من الجهل الكثير فما افاقوا من تلك الغفلة الاَّ في القرن الخامس عشر حين هبّت ممالك اوروبا الحالية الى اتقان العلم والصناعة واخذت شيئاً كثيراً عن العرب وهم والحق يقال تفردوا في ايام دولة الاندلس بالعلم والارتقاء واوصلوا معارف الاولين للآخرين فلهم علَى الحضارة فضل لا ينكر

واما القسم الثالث من هذا المتحف ففيهِ آثار جمة معظمها يشير الى حوادث مشهورة في تاريخ اوروبا عموماً والدنمارك خصوصاً بينها كتب غريبة في جملتها كتاب هندي ألَّفهُ واحد من أُدباء الهند وقدمهُ لملك انكلترا الحالي حين زار سلطنة الهند سنة ١٨٧٦ وهو ولي العهد وفيهِ قصيدة ترجموا بعض ابياتها للاشارة الى ما في التعبير الشرقي من الغرابة على ذهن الغربيين وقد قال الهندي في احد تلك الابيات مخاطباً للامير ان « اين اللؤلؤ والكافور والقمر منك فان في القمر نقطاً سوداء تشوه وجههُ وفي اللؤلؤ ثقوباً تقلل متانتهُ وللكافور رائحة تطير ولا تبقى واما انت فان شهرتك ناصعة البياض وهي صلبة وباقية » وهي معانٍ تخطر في بال الشرقي كما لا يخفى

وسرت بعد ذلك لمشاهدة معرض للتماثيل يصنعونها من الشمع على شكل الرجال والنساء من مشاهير العصر الحالي والعصور الماضية وهو لهُ نظائر في اكثر العواصم الاوروبية يرى فيها الغريب رجال الدولة العظام ومشاهير الامة كانهُ واقف معهم فلا يفوتهُ العلم بهيئة الذين يذكرون بين عظماء البلاد التي يزورها وقلَّ من يزور اوروبا ولا تتوق نفسهُ الى مقابلة هؤلاء المشاهير فالذي لا تمكن لهُ المقابلة يكتفي بمثل هذا المعرض الذي رأيت فيهِ جميع مشاهير الدنمارك وسواها اذكر منها رسم غامبتا رجل فرانسا المشهور نقتلهُ عشيقتهُ ورسم ستانلي الرحالة وهو الذي اخترق القارة الافريقية من زنجبار في الشرق الى مصب الكونجو في الغرب واستغرقت سياحتهُ هذه ٩٩٩ يوماً رأى فيها من هائل المتاعب ما تنوء بهِ الرجال . وجاب الاقطار الاستوائية قبل ذلك باحثاً عن لفنستون الرحالة الشهير ايضاً . ثم عاد اليها ثانية لانقاذ امين باشا واكتشاف بعض المجاهل وكان قبل وفاتهِ من اعضاء مجلس النواب في بلاد الانكليز واحرز ثروة من سياحاتهِ ومؤلفاتهِ وكان مقامهُ بين الناس عظيماً . والى جانب ستانلي تمثال اثنين من نوتية الدنمارك رافقوهُ في بعض سياحاتهِ وتمثال الكونت مولتكي القائد الالماني العظيم الذي قاد جيوش بروسيا الى ساحات النصر والظفر في حربها مع النمسا ومع فرانسا وكان اصلهُ دنماركياً فنصبوا لهُ هذا التمثال هنا . واذكر ايضاً تمثال البرنس كرستيان بن هانز ملك الدنمارك ارسلهُ ابوهُ الى نروج في مهمة فلقي هناك فتاة فتانة بارعة الجمال وشغف بحبها فاقترن بها على كرهٍ من ابيهِ فغضب عليهِ الملك وحرمهُ الملك وبهذا اضاع الفتى ثلاث ممالك هي الدنمارك واسوج ونروج وهي يومئذٍ متحدة بسبب حبهِ لهذه الفتاة التي صوروها معهُ في هذا المعرض وهي في غيبوبة تفارق الحياة وقد امسك الشاب يدها يجس نبضها والحزن ظاهر على محياهُ الى درجة توجب

اشتراك الرائي معهُ في الاسف الشديد . ويقول الدنمار كيون ان هذا الشاب رقص مع تلك الفتاة ثلاث رقصات كلفهُ كل منها مملكةً وهو من الاقوال المأثورة عندهم الى اليوم

ولا بدَّ من القول ان ضواحي كوبنهاجن من المواضع الكثيرة الجمال وهي يقصدها الناس بحراً و براً لان بعضها في جزر قريبة من المدينة . منها كلامبربرج وهي على مسيرة ساعتين الى الشمال من كوبنهاجن واقعة على ضفة خليج السوند الفاصل بين الدنمارك واسوج والمنظر من المدينة اليها في غاية الجمال فلما وصلناها اعجبنا ما فيها من القصور في جملتها قصر كان الملك السابق يقضي فيهِ اشهر الصيف والقصر بسيط والى جانبهِ قصر عظيم كان القيصر اسكندر الثالث والد القيصر الحالي يقيم فيهِ حين يجيُّ مدة الصيف . هنالك كانت الاميرات والملكات تجتمع ومعهنَّ قيصر الروس وملك اليونان وملك انكلترا وآل اولدنبرج جميعهم من الاسرة المالكة في الدنمارك ويقضون اوقاتاً شهية ضيوفاً لملك البلاد الجليل حتى اصبحت تلك البقعة ملتقى الملوك والامراء على عهد اسكندر الثالث . وفي كلامبربرج مروج وغياض وحراج عجيبة الاتقان والجمال تسرح فيها اسراب الايل . وكان اسكندر الثالث الذي ذكرناهُ مولع بهذه الايائل وبالارانب يأتون بها من ابعد الاقطار ويطلقونها في تلك الغابات فيصطادها في ساعات الفراغ ولطالما رآهُ الفلاحون وحدهُ في الغياض راجعاً الى قصرهِ ومعهُ شيءٌ مما اصطادهُ وعرفوهُ من كبرجثتهِ وعلو قامتهِ فانهُ كان من اكبر اهل زمانهِ

وقضيت في كلامبربرج نهاراً كثرت مسراتهُ فلما عدت الى كوبنهاجن في آخر النهار رأيت على مقربة منها صفوفاً من المنازل البسيطة بنيت من الطوب الاحمر وهي فسيحة الطرق نظيفة المنظر فاخبرني الدليل انها مساكن لعمال البريد

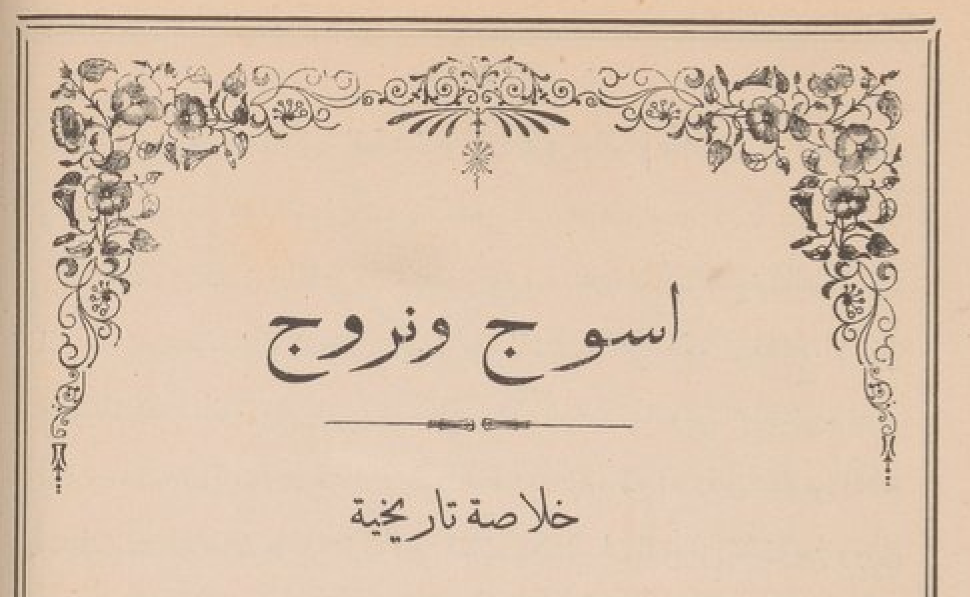
والتلغراف و بعض المصالح الأُخرى . والمستخدمات في هذه المصالح من البنات كثيرات في الدنمارك وسواها حتى انهنّ صرنَ اكثر من الرجال عدداً في بعض مكاتب البوسطة والتلغراف في اوروبا واميركا . ولما كانت أجرة هؤلاء العمال قليلة لا تسمح لهم باستئجار المنازل المبنية علَى قواعد الصحة في المدينة فقد بنى المجلس البلدي لهم هذه المنازل في خارج المدينة وعيّن لها الأُجر الزهيدة فأفاد العمال واستفاد وهذا شأن الحكومات المنظمة تنظر الى مصلحة عمالها ورعاياها وتساعدهم على تحسين حالهم وحكومة الدنمارك تعدُّ كما لا يخفى من احسن حكومات اوروبا نظاماً ومن اشهرها التفاتاً الى مصلحة الاصاغر والفقراء وبناء هذه المنازل مع ما ذكرنا من الاشياء الاخرى يدلُّ دلالة قاطعة على سهرها وحسن انتظامها

وسرت بعد ذلك الى قصر فردنسبرج وهو من اجمل متنزهات الضواحي يبعد نحو عشرة اميال عن العاصمة شمالاً بناهُ الملك فريدريك الرابع سنة ١٧٢٢ على اثر حرب مع بلاد السويد وجعلهُ في بحيرات يوصل اليها بجسور بديعة الصنع . ولما دخلنا هذا القصر رأينا في مدخلهِ ساحة كبرى يتوسطها بركة من الماء أُحيطت بجدار من الرخام الاسود وفيها تمثال نبتون اله البحر عند الاقدمين وغيرهُ والماء يتدفق من ٥٧ انبوبة دقيقة ومن وراء ذلك غرف القصر الكثيرة قُسمت الى جناح ايسر للملك وجناح ايمن للملكة و يحيط بالجانبين رواق على شكل شرفة فيهِ تحفٌ وآثار وصور تمثل تاريخ هذه البلاد ومن اشهرها صورة اهل هذه البلاد يهاجمون انكلترا في القرن الحادي عشر وصور الحوادث المشهورة واكثرها حروب مع بلاد السويد وروسيا وصور افراد العائلة المالكة وهم ٢٢ شخصاً بالقدّ الطبيعي وصور بعض المشاهير من قواد الدنماركين وأمرائهم في جملة ذلك امير البحر رانسو الذي « مات بالتقسيط » على ما يقول اهل بلادهِ ذلك لانهُ فقد عينهُ في واقعة

ويدهُ في واقعة ورجلهُ في واقعة أُخرى وأُذنهُ في واقعة وهكذا الى ان قضى نحبهُ. والصور التي من هذا القبيل كثيرة لا محل لسردها هنا

وبعد ان أقمت اياماً في كوبنهاجن على مثل هذا الحال غادرتها قاصداً بلاد اسوج ونروج ومررت بحصون كوبنهاجن المشهورة التي قاومت مدافع الانكليز في اوائل هذا القرن وهي التي كان بطرس الاكبر قيصر الروس يعمل فيها وجرى بينهُ وبين ملك الدنمارك حديث نسوقهُ هنا تفكهةً للقراء . قال بطرس الكبير لزميلهِ ملك الدنمارك يوماً «اني يا اخي الملك يمكن لي ان آمر من شئت من رجالي ان يلقي بنفسهِ من اعلى هذا البرج ولا يتردد فهل يمكن لك ذلك» فاجابهُ الملك «اني يا اخي القيصر يمكن لي ان اضع رأسي بين يدي من شئت من رعاياي ولا اخاف شراً فهل يمكن لك ذلك» . وكان جواب الملك مفحماً دالاً على فضل النظامات الدستورية . هذا ذكرتني بهِ الحصون السالفة الذكر وقد مررت عليها حين مبارحتي لهذه الديار قاصداً بلاد اسوج التي ترى الكلام عنها في الفصل القادم





اسوج ونروج

خلاصة تاريخية

ان هاتين المملكتين في اقصى الشمال من القارة الاوروبية وهما مرتبطتان جغرافياً ارتباطاً اوجب ان يكون تاريخهما بوجه التقريب واحداً ولكنهما افترقتا سنة ١٩٠٥ كما سيجيء الكلام.

وقد علم القارئ ان اصل الاهالي في هاتين المملكتين مثل اصل الدنماركيين وقد اشتهروا مثلهم بالغزو والسطو ولكن نروج صارت مملكة منظمة قبل غيرها وتبعتها الدنمارك ثم اسوج فصارت هذه الممالك الثلاث ذات مركز معروف وقوة مشهورة وكثرت بينها الحروب والمنافسات الى ان ملك بلاد الدنمارك رجل اسمهُ ولدمار الرابع في سنة ١٣٧٥ ولم يكن لهُ وريث من اولادهِ تخلفهُ ابن ابنتهِ مرغريتا وهي اميرة اقترنت بملك نروج ورزقت ابناً هو اولاف الذي ورث عنها وعن ابيهِ بعدئذٍ مملكة نروج فصار ملكاً للبلادين وكان ذلك بدء الاتحاد المشهور بين ممالك الشمال الثلاث. ومات اولاف هذا سنة ١٣٨٧ فانتخب امراء الدنمارك والدتهُ مرغريتا وهي ابنة ملكهم كما تقدم لتكون نائبة الملك الى ان يقع الانتخاب على ملكٍ سواها وكان تعيين الملوك بالانتخاب شائعاً يومئذٍ في الممالك الشمالية. وفي السنة التالية اي ١٣٨٨ اجمع سراة نروج على انتخاب مرغريتا ايضاً وصية او نائبة لملك في بلادهم الى ان يقوم ملك سواها وكان ذلك بعد مساعٍ كثيرة منها وبدعوى انها أم الملك المتوفي وزوجة ابيهِ فعاد بذلك الاتحاد بين نروج والدنمارك ووجهت مرغريتا همها الى امتلاك اسوج تخدمها السعد

لان اهالي تلك البلاد شقوا عصا الطاعة وقاموا على ملكهم البرت سنة ١٣٨٨ حتى اذا هاجمت البلاد ساعدها اكثر الاهالي فانتصرت على البرت وامرتهُ مع ابنهِ ثم اطلقت سراحهُ على ان يعيش بعيداً عن بلادهِ واقرَّ الاسوجيون انتخاب مرغريتا وصية للملك في بلادهم ايضاً وبذلك اتحدت هذه الممالك الثلاث تحت حكم ملكة واحدة اشتهرت بالحزم والسياسة حتى لقبت بسميراميس الشمال على ما تقدم في تاريخ الدنمارك . ولما تمَّ الاتحاد انتخبت كل مملكة ملكاً لها على شرط أن يحكم البلاد بعد وفاة مرغريتا وظلت هي نائبة الملك وحاكمة مستبدة ولم يسموها ملكة لان قانون اكثر الممالك الاوربية المعروف باسم «القانون الساليكي» يمنع النساء من الحكم واكثر ممالك اوروبا خاضعة لهذا الناموس ما خلا انكلترا وهولندا وقد ابطلتهُ البورتوغال من عهدٍ غير بعيد وعادت روسيا الى نوع منهُ بعد ايام القيصر بولس وهو قانون لا يعرف لابتداءِ تاريخ ولا يدري المؤرخون اسم واضعهِ ولكنهُ بقية آداب الاولين الذين كانوا يظنون ان المرأة لا تليق للاحكام

وقام بعد ذلك ملوك كثيرون ورثوا مملكة الدنمارك واسوج ونروج عن مرغريتا هذه لم يشتهر لهم ذكر حتى اوائل القرن السادس عشر حين عمت المبادئ البروتستانتية في هذه الممالك وكان الملك يومئذٍ كرستيان الثاني نقدم ذكرهُ في تاريخ الدنمارك فلما اشتدَّ ظلمهُ وامر بذبح سراة اسوج في ستوكهولم قام عليهِ الاهالي تحت قيادة جوستافوس ڤاسا احد ابناء ملوكهم الاولين واستقلوا في سنة ١٥٢١ وبذلك انفصلت اسوج عن المملكة الشمالية واما نروج فظلت مع الدنمارك الى سنة ١٨١٤ كما سيجيء القول

ونقدمت اسوج بعد استقلالها هذا واشتهر قوادها في حروب الاجيال الوسطى واعظمهم الملك جوستافوس ادولفوس وهو بطل ضرغام انتصر للمذهب البروتستانتي وحارب اعداءهُ واحتل بلاد المانيا ففلَّ جنودها وفرق مواكب امرائها وجعل لدولتهِ مقاماً عظيماً ثم قتل في معركة لوتزن سنة ١٦٣٢ بعد ان ملك البلاد من عام ١٦١١ فكانت مدة حكمهِ عزاً عظيماً لبلاد اسوج وخلفتهُ ابنته كرستينا على العرش ثم تنازلت عنه لابن عمها شارل العاشر سنة ١٦٥٤ وحدثت في ايامهِ حروب كثيرة مع بولونيا كان النصر في اكثرها لجنودهِ . وملك بعدهُ ابنهُ شارل الحادي عشر سنة ١٦٦٠ واشتهر بالعمل على تمدين بلادهِ وتنقيح نظاماتها وترقية شؤون فقرائها ولما مات في سنة ١٦٦٧ خلفهُ ابنهُ شارل الثاني عشر وهو يومئذٍ فتى في الخامسة عشرة من عمرهِ وكان ذكي الفؤاد هماماً حازماً باسلاً في الحروب ولكنهُ قليل الحظ سيء البخت فان ملك الدنمارك وملك بولونيا حارباهُ فانتصر عليهما ثم حاربه بطرس

الكبير قيصر روسيا المشهور فكان النصر في اول الامر لجنود اسوج ولكن الروس انتصروا في آخرهِ انتصاراً عظيماً في بولتافا سنة ١٧٠٩ فاضطرَّ شارل الى الفرار من بلادهِ والاقامة مدة ٥ سنين في مدينة بندر من مدائن تركيا فلما عاد الى بلاده مكرهاً بعد هذه المدة هاجت الامة وماجت واستقبلتهُ استقبالاً حماسياً عظيماً فعاد الى سابق همتهِ وعوَّل على قهر الاعداء ولكن القدر المحتم اصابهُ بقنبلة مدة حصار فردركشاد سنة ١٧١٨ في حربهِ مع الروس فمات مأسوفاً عليهِ والاسوجيون يعدّونهُ من اعظم ابطالهم واشهر ملوكهم

ولم يعرف عن اسوج شيءٌ يستحق الذكر بعد هذا الأَ سنة ١٨٠٩ حين تولى الملك شارل الثالث عشر ولم يكن لهُ وريث من آلهِ فتبنى البرنس بونت كورفو من امراء فرانسا وهو المشهور في التاريخ باسم المارشال برنادوت كان قائداً عظيماً من قواد الجيش الفرنسي على عهد نابوليون بونابارت وهو الذي صار ملكاً لاسوج سنة ١٨١٢ وما عتم ان رقي العرش حتى انضمَّ الى روسيا وبروسيا وانكلترا وحارب معها رئيسهُ نابوليون الذي كان السبب في ترقيتهِ فكافأتهُ الدول بعد سقوط نابوليون بتأييده على عرش اسوج واهدت اليهِ مملكة نروج ايضاً وكانت تابعة الى ذلك الحين للدنمارك . ولكن النروجيين لم يرضوا بالملك لبرنادوت فانتخبوا اميراً المانياً بدلهُ فتقدم برنادوت بجيش قوي عليهم اضطرهم الى الرضوخ على شرط ان تكون بلادهم مستقلة في امورها الداخلية تمام الاستقلال ولها النظامات القديمة فقبل برنادوت رأيهم ومن ذلك الحين صارت اسوج ونروج مملكة واحدة يحكمها آل برنادوت ولكل مملكة من المملكتين نظامات خاصة بها تقرب من النظامات الجمهورية او الملكية المقيدة . وقد ارتقت الامتان بعد ذلك فصار الاسوجيون والنروجيون الآن في طليعة المتمدنين لان التعليم عندهم اجباري فلا تجد امياً في طول البلاد وعرضها ما خلا بعض اقسام شمالية من اسوج . والقوم اهل همة وعزيمة وحب للعلم والمعارف وقد اشتهر من النروجيين كثيرون شغفوا بالاكتشاف ومن اشهرهم الدكتور نانسن الذي جاب الاقطار الشمالية والاستاذ اندريه الذي طار الى القطب في قبة او بالون ولم يسمع الناس باخباره الى الآن . والنروجيون اصحاب متاجر واسعة ولبلادهم مناظر غاية في الفخامة يقصدها السياح من كل بلاد ولهم اختلاط كثير ببلاد الانكليز . واهل البلاد بوجه الاجمال معروفون بالنشاط والصدق والامانة حتى انهُ ليضرب بهم المثل في الشهامة وكره الخداع وهي صفات لا توجد الأَ في المترقين

وقد ملك اسوج ونروج من آل برنادوت خمسة هم شارل الرابع عشر الذي اسس الدولة خلفهُ اوسكار الاول سنة ١٨٤٤ وتلاهُ شارل الخامس عشر سنة ١٨٥٩ ثم خلفه الملك اوسكار

الثاني سنة ١٨٧٢ اشتهر بحب العلم والمعارف شهرة لا تحتاج الى الذكر وعكف على درس التاريخ القديم والحديث حتى صار من الثقات في هذا العلم الجليل وعرف بالميل الى اللغات الشرقية وآدابها فرأس مجمع المستشرقين وجمع علماء اللغات الشرقية في عاصمتهِ على مثل ما يعلم الجمهور وجاد بالصلات والوسامات على اهل العلم والمؤرخين . وقد اشتهر فوق علمهِ ومعارفهِ برقة القلب وبساطة المعيشة ولطف المعاشرة والحب الشديد لبلادهِ واهلها واما الملك الخامس من آل برنادوت فهو جوستافوس ادولفوس الحالي وسنعود الى ذكرهِ بعد ان نذكر حادثة انفصال اسوج عن نروج لان هذه الحادثة تمت على عهد ابيهِ

قلنا ان اسوج ونروج كانتا مملكة واحدة الى عهد قريب . ولكن النفار كان شديداً مزمناً بين الامتين حتى اذا خالف الملك اوسكار رغبة اهل نروج في سنة ١٩٠٥ اشتدَّ النزاع وزاد ميل النروجيين الى الاستقلال فلما كان يوم ٧ يونيو من السنة المذكورة قرَّر البارلمان النورويجي انفصال امتهِ عن السويد . وكان الشعب قد اظهر ميلاً الى هذا الانفصال ما عدا قسماً منهُ صغيراً اراد بقاء الاتحاد فلما عرضت هذه المسألة في البارلمان تقرر فيهِ ان تؤخذ اصوات الشعب وضرب يوم ١٣ اغسطس موعداً لهذا الغرض فكانت النتيجة ان ٣٦٨٢٠٠ من الاهالي اقروا الانفصال وخالفهم في ذلك ١٨٤ صوتاً فقط وبذلك اصبحت نروج مملكة مستقلة بموجب هذا القرار الذي حملهُ وفد ذهب بهِ الى ملك السويد في عاصمتهِ استوكهولم . فلما اطلع الملك عليهِ قال متأسفاً انهُ كان يود الاتحاد لان الاتحاد يولد القوة او على الاقل ان يؤجل تنفيذ هذا القرار الى ما بعد وفاتهِ لانهُ صار في اواخر العمر وهو لا يريد سفك الدماء بسبب ذلك كما حدث في الممالك الاخرى فاذا كان الانفصال طلب الشعب النورويجي فهو يقبل بهِ فاجابهُ الوفد انهُ وان يكن الانفصال اصبح عندهم امراً مقرراً ولكنهم حباً بالملك يريدون ان يكون ابنهُ البرنس شارل ملكاً عليهم ترضيةً لجلالتهِ واعترافاً بجميلهِ ولكن الملك لم يشأ ان يقبل ولدهُ التاج . وبعد انصراف الوفد امر ملك السويد بنزع الاشارة الموجودة في العلم السويدي التي تدل على اتحاد النورويج معها وان يعين يوم اول نوفمبر لرفع العلم السويدي بطريقة رسمية خالياً من هذه الاشارة علامة الانفصال فتم ذلك في اليوم المذكور وكان ذلك آخر عهد المملكتين بالاتحاد

عاد الوفد النورويجي الى كريستيانا عاصمة بلادهِ وبلغ البارلمان نتيجة مأموريتهِ وكان قسم من الشعب يريد ان تكون الحكومة جمهورية وآخرون يريدونها مملكة فاتفق الفريقان على ان تؤخذ اصوات الشعب وعين يوم الاحد ١٢ نوفمبر لاخذ الاصوات فبلغ عدد الطالبين للجمهورية ٦٩٢٤٦ وعدد الطالبين للملكية ٢٥٩٥٦٣ فبناء عليهِ ذهب وفد الى عاصمة الدنمارك وقابل ملكها كريستيان وعرض التاج على حفيده البرنس شارل فارسل ملك الدنمارك

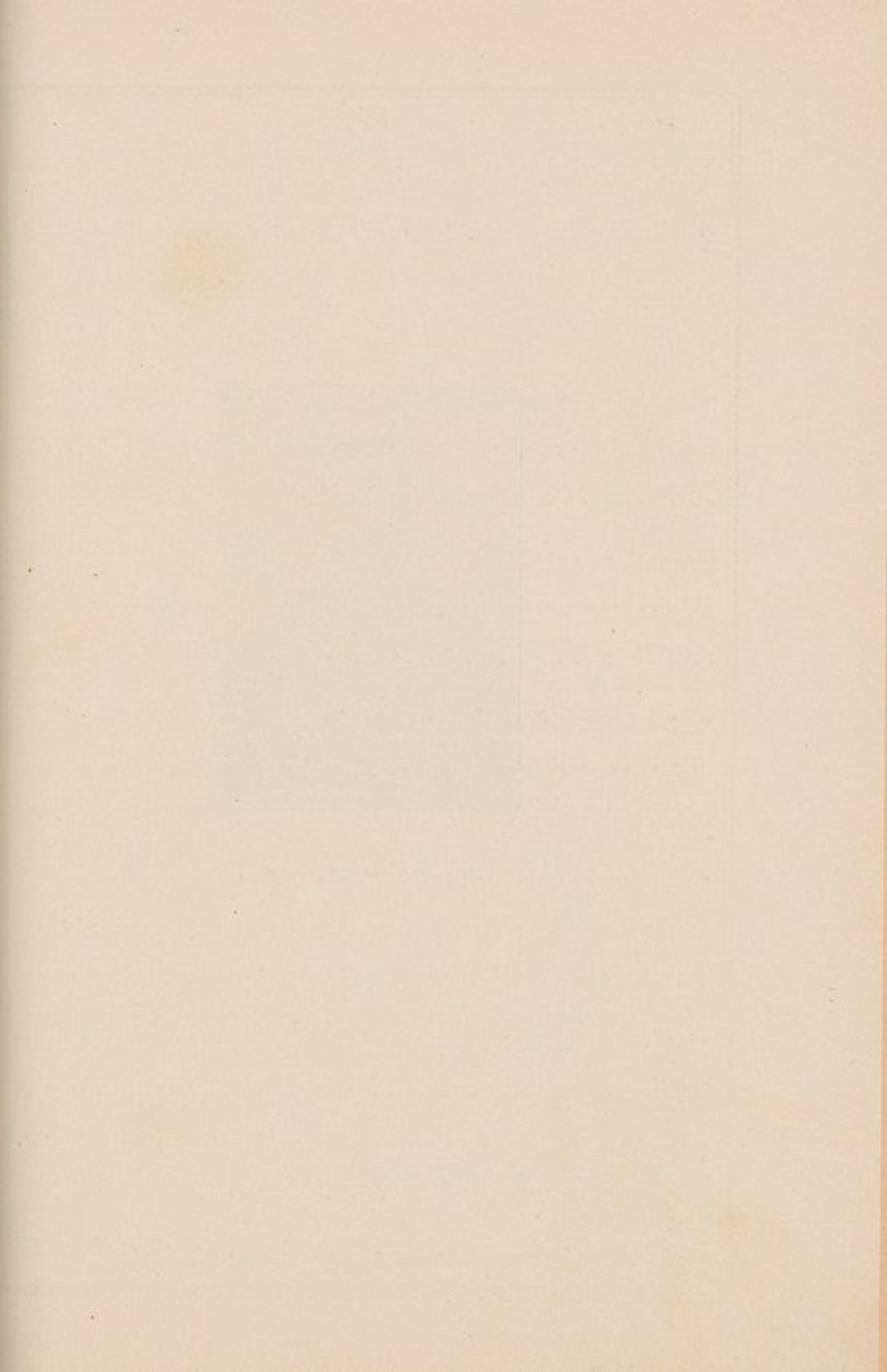
تلغرافاً الى ملك السويد يرجوه بالحاح ان يقبل لابنهِ تاج النورويج فاجابهُ الملك بالاصرار على رأيهِ السابق وتمنى للامير الدنماركي كل سعادة وهناء فاستدعى ملك الدنمارك حفيدهُ بحضور الوفد الذي جاء ليعرض عليهِ تاج نروج والقى عليهِ خطبة مؤثرة قال فيها ان حمل التاج وراءه مسؤلية فما عليهِ الاَّ ان يتدبر بحكمة في الامور التي تسند اليهِ فاجاب بالقبول ووعد انهُ وزوجتهُ يوقفان حياتهما على ارتقاء شأن الشعب النروجي ٠ وعلى هذا صار البرنس شارل ملك نروج واسمهُ الآن هاكون كاسيجي، ولد في ١٣ اغسطس سنة ١٨٧٢ واقترن بالبرنسيس مود ابنة ادورد السابع ملك انكلترا ولهُ منها ولد عمره الآن ٥ سنين واسمهُ اولاف

وصل الملك الجديد في مدرعة دنماركية الى عاصمة النورويج في يوم السبت ٢٥ نوفمبر فاطلقت المدافع من القلعة وبادر لمقابلتهِ رئيس البارلمان واعضاؤهُ ثم ذهب الى قصرهِ مع الملكة وابنهِ وسار في شوارع ازدحمت بجماهير الناس وهم يحيونهُ حتى دخل القصر وتمت فيهِ المقابلات الرسمية ٠ وفي الغد أي يوم الاحد ذهب هو وزوجتهُ وابنهُ الى قاعة البارلمان حيث حلف يمين الامانة لدستور البلاد بحضور المطران والاكليروس ولُقب بالملك هاكون السابع وهو اسم بعض من ملوك النورويج السابقين وكان هاكون السادس آخر هؤلاء الملوك توفي منذ خمسمائة سنة ٠ وسمي ابنهُ ولي العهد اولاف وهو ايضاً اسم الملك اولاف الذي جمع القبائل ووحد مملكة النورويج في القرن العاشر وجُعل راتب الملك ٣٨٨٨٨ جنيهاً في السنة٠ وكان الازدحام شديداً في ساحة البارلمان فلما خرج الملك الى الشرفة ورآهُ الشعب صاحوا مراراً وتكراراً بصوتٍ واحد « فليحي هاكون » وكان ولي العهد الصغير الى جانب والدهِ وفي يدهِ العلم النورويجي فلما حركهُ بيدهِ الصغيرة امام الجمهور الواقف في الميدان زاد الهتاف وتعاظم سرور الناس من هذا المنظر حتى بكوا من شدة السرور ٠ وبعد ذلك ارسل الملك تلغرافات الى القياصرة والملوك ورؤساء الجمهوريات يعلمهم بارتقائهِ عرش النورويج فوردت لهُ التهاني من الجميع وآيات النصح من جدهِ ومن حميهِ ملك انكلترا وهو الآن من الملوك الذين تعلقت الرعية على حبهم ولهُ شهرة بحب البسالة والفضائل مثل اكثر اقاربهِ العظام

وتوفي الملك اوسكار الثاني في ٩ دسمبر سنة ١٩٠٧ بعد ان بلغ من العمر ٧٩ سنة وخلفهُ ابنهُ الاكبر وهو الملك الحالي ولهُ ولدان اولهما البرنس غوستاف وهو الآن ولي العهد تزوج بابنة الديوك اوف كنوت شقيق ملك انكلترا وكان هذا البرنس وابنة الديوك قد حضرا للسياحة في مصر حيث حصلت المقابلة وتم الاتفاق بينهما على الاقتران ٠ والملك جوستافوس مشهور بالادب والعلم مثل ابيهِ واهل بلادهِ يحبونهُ ويكرمونهُ غاية الاكرام ٠ واما عدد سكان مملكتهِ فقد بلغ خمسة ملايين ونصف مليون من النفوس حسب الاحصاء الاخير



غوستاڤ ملك السويد



استوكهولم

لما تركت بلاد الدنمارك قمت في باخرة الى اسوج ومرَّت الباخرة في خليج السوند الفاصل بين البلادين فوصلت بعد مسير ساعتين او اقل الى مالمو وهي اولى الفرض الاسوجية من ناحية الجنوب ومركز ولاية سكان التي اشتق منها اسم سكاندناڤيا وهو اسم ممالك الشمال الثلاث وبعض ما يجاورها . ومالمو هذه بلدة صغيرة فيها ٥٠ الف نسمة ولكنها نظيفة مرتبة مثل اكثر المدن الاسوجية ولها بعض الشهرة بصنع القفاز (الجوانتي او الكفوف) وهي على بعد ٦١٨ ميلاً من العاصمة ستوكهولم او ١٦ ساعة في القطار تفرق بينهما اراضٍ بديعة المناظر كثيرة الجمال ويزيدها رونقاً ان بحر البلطيق الى جانب من الطريق الذي يمرُّ بهِ القطار والجبال الى الجانب الآخر فلا يشعر المسافر بشيء من التعب او الملل في كل تلك المسافة لان تغيير المناظر المفرحة يتبعهُ انقطاع الغبار لصلابة الارض وكثرة الامطار واتقان العربات في القطار . ومررنا باثنين وثلثين محطة بين مالمو وستوكهولم هذا غير القرى الاخرى التي لم يقف الرتل فيها فكنا نرى في كل ناحية الحراج الفخيمة والبساتين الجميلة والمزارع النضرة والبيوت البهية والناس يشتغلون بزراعتهم اشتغال الذي خلا بالهُ من الهم وأمن غدرات الدهر والاشجار تتدلى منها الاثمار المختلفة في كل جهة وهي دليل اجتهاد الاهالي في انمائها فاثر فينا منظر هذه البلاد تأثيراً عظيماً

واما مدينة ستوكهولم عاصمة اسوج فعدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ نفس ويضرب المثل بجمالها وبهائها لانها واقعة في ارضٍ بعضها جزر يصلون من احداها الى الاخرى

بالزوارق المتقنة او الجسور البديعة وبعضها في منبسطٍ من الارض فسيح المجال وبعضها
على مرتفعات وهضبات متدرجة في الارتفاع ولها منظر يقرب من منظر البندقية
في جزرها ومن منظر الاستانة في قرنها الذهبي وروابيها البهية . وقد زادها حسناً
ورونقاً ان معظم ابنيتها من الحجر المنحوت لا طلاء يكسوه ولا دهان وبعضها من
الطوب الاحمر تفصل بين طبقاتها خطوط بيضاء من الكلس وفي حدائقها وبعض
طرقها ايضاً صخور صوانية كبرى تركت على حالها الاصلية عند تنظيم المدينة
واشياء أُخرى غير هذه تميز مدينة ستوكهولم عن سواها وتجعلها من اجمل مدائن
الارض بلا مراء هذا غير انها نظيفة في كل جوانبها لارائحة تعرف عنها ولا اقذار
متراكمة ولا تراب يطير غباراً فيعمي الابصار ولا دخان ينعقد في الجو من كثرة
المعامل التي تدور بالبخار ولا بلية أُخرى من مثل ما يعرف عن اكثر مدائن الشرق
فلا غرو اذا تغنى الشعراء بمدحها ونظموا القصائد الحسان في وصفها فانها تستحق
الذي قالوا عنها . وقد اوصلها الملوك الحديثون من آل برنادوت الى درجتها الحالية
بالدأب والاجتهاد وحسن الادارة فانها لم تكن شيئاً يذكر قبل اول هذا القرن .
بنيت سنة ١٢٥٥ واسم مؤسسها جارل برجر جعل من حولها حصوناً ترد
غارات الاعداء وكان هجوم الدنماركين عليها في العصور الخالية كثيراً فان الملكة
مرغريتا غزتها سنة ١٣٨٩ وكرستيان الاول فعل مثل ذلك ايضاً في سنة ١٥٢٠
وغيرهما اغار عليها كثيراً فلم يترك هؤلاء المهاجمون لها وقتاً تتقدم فيهِ وتنمو الاَّ انها
لما استقلت من بعد ايام جوستافوس فاسا الذي ذكرناه في فصل التاريخ نمت
وتقدمت حتى اذا تولى برنادوت امرها في اول هذا القرن وهي يومئذٍ لا يزيد
عدد سكانها عن ٧٥ الفاً من النفوس زادت في العمران واتسع نطاقها وبنيت فيها
المنازل والشوارع والحوانيت الكثيرة خارج دائرة الحصون الاولى فصار عدد

سكانها الآن حوالي ٣٥٠ الفاً كلهم يعرفون بالتهذيب وصدق الوفاء والاجتهاد والامانة

ويزيد ستوكهولم جمالاً انهُ يرد الى مينائها شيء كثير من البواخر والسفن الشراعية تنقل الابضعة والمسافرين الى هذه المدينة ومنها . ثم ان السفن الصغيرة تمخر ما بين الجزر التي تتكون منها بعض احياء المدينة فترى في مياه ستوكهولم اينما سرت حركة وحياة تحبب اليك الاقامة فيها طويلاً . واني عند وصولي اليها والتمتع بهذه المشاهد من وجه عام قصدت درس ما فيها فجعلت وجهتي في بادىء الامر قصر الملك وهو في جزيرة شتادن حيث كانت مدينة ستوكهولم القديمة وهذه الجزيرة يمكن الوصول اليها من بقية اجزاء المدينة إما بحراً او من فوق جسر عظيم الشان اسمهُ جسر نور برو وهو ذات سبع قناطر مبنية من الصوَّان كثير الزخرف والارتفاع بحيث انك اذا وقفت عليهِ رأيت المدينة من هنا ومن هنا بين يديك والبواخر سائرة فوق الماء من كل جهة ما بين صغيرة و كبيرة فتتجلى لك المدينة بكل محاسنها من تلك النقطة . والقصر هذا بناء فخيم لهُ ثلاث طبقات مربع شكلهُ طول كل جهة منهُ ٤١٨ قدماً وفيهِ ٥١٦ غرفة . وهو ثلثة اقسام اولها للملك والثاني للملكة والثالث لولي العهد وفيهِ قسم للحرس الملوكي والاعوان الكثيرين ولكلٍ من هذه الاقسام عمال وخدمة خصوا بالخدمة فيهِ وهم يقومون بخدمة السياح والمتفرجين من الذين يقصدون التمتع برؤية ما في هذا القصر . وقد كان يوم دخولي اليهِ جمع من السائحين يتفرجون علَى نفائسهِ وجلهم من الانكليز والاميركان فجعلنا ندور في جوانب القصر ورأينا في الطبقة الاولى منهُ ملابس ملوك اسوج واسلحتهم في الزمان السابق وا كثرهم من بدء القرن السابع عشر الى الآن وفي جملة ذلك سروج من الذهب والفضة على النمط الشرقي وسيوف وخناجر

مذهبة ومرصعة قبضاتها بثمين الحجارة الكريمة ورأيت هنالك فرساً مصبرة كان يركبها الملك جوستافوس ادولفوس الذي قتل في معركة لوتزن على مثل ما رأيت في الخلاصة التاريخية وسيف الملك شارل الثاني عشر كان في يدهِ حين وقع قتيلاً في معركة فردركشاد . وهناك رايات واسلحة واشياء اخرى يعرف منها تاريخ اسوج او بعضهُ ولا كثرها علاقة بحروبها الماضية مع الدنمارك و بولونيا وروسيا وغيرها من الممالك الاوروبية

ثم ارتقينا سلّماً من الرخام الجميل اوصلنا الى الطبقة الثانية من البناء فدخلنا قاعة الموسيقى فقاعة الاستقبال وفي سقفها نقوش بديعة تمثل تاريخ الاسكندر ذي القرنين وحروبهِ وقاعة الصور فيها من الرسوم الزيتية شيء لا يعد فقاعة الولائم وهم يسمونها البحر الابيض اشارة الى لون جدرانها وكلها بيضاء ناصعة يتخللها عروق من الذهب ولها منظر ترتاح اليهِ النفوس . وقاعة المجلس الخاص يجتمع فيها الوزراء واهل الشورى تحت رئاسة الملك والقاعة الحمراء جدرانها مطلية بالالوان الحمراء المعرقة بالذهب وفيها صور لافراد الاسرة المالكة . وقاعة سرافين سميت باسم وسام اسوجي قديم هو الى الآن ارفع ما عند الدولة الاسوجية من النياشين . وقاعات أُخرى غير هذا لكلٍ منها غرض خاص وقد ملئت جوانب القصر كلهِ بافخر انواع الرياش وزخرفت بابهى الالوان حتى انهُ ليعد من احسن القصور في اوروبا واكثرها جمالاً واتقاناً

ورأيت معظم ما في الاقسام الثلثة من فاخر التحف وبديع المناظر فلما وصلت القسم المخصص لولي العهد رأيت سريراً للاطفال سوري الشكل صنع من خشب الجوز ورصع بالعاج والصدف وقد استعملتهُ زوجة ولي العهد لغرس الازهار الجميلة فيهِ . ورأيت هنالك ايضاً صورة سعادة احمد باشا زكي الياور الخديوي الاول

اخذتها قرينة ولي العهد تذكاراً لقيام سعادتهِ بخدمتها مدة وجودها هنا فانها كما يذكر القراء جاءت مصر مرتين واقامت هنا مدة الشتاء كلهِ عامين مراعاة لصحتها فكانت الحكومة المصرية تُعني براحتها وتقوم بواجب اكرامها وهي حفظت لمصر واميرها كل ذكر جميل

والى جانب القصر ميدان واسع جميل فيهِ مسلة علوها مائة قدم نصبها الملك جوستافوس الرابع تذكاراً لانتصارهِ على روسيا سنة ١٧٧٨ وفيهِ تمثال جوستافوس على قاعدة تشبه دفة السفينة تذكاراً لانتصارهِ على الاعداء في الحروب البحرية . ومن هذا الميدان يمكن الوصول الى السوق الكبرى وهي التي جرت فيها المعارك المشهورة في التاريخ والحوادث المريعة اشهرها حادثة قتل الامراء والاعيان على عهد كرستيان الثاني وهي التي ذكرناها في باب التاريخ وقد سُمي الموضع من بعدها « حمام الدماء » لكثرة ما اريق فيهِ من دماء النبلاء والابرياء

وقد مرَّ بك القول ان ستوكهولم يحيط بها البحر من ناحية وآكام وروابٍ من ناحية أُخرى فهي جامعة لاعظم المشاهد الطبيعية ولهذا فانها لم تشتهر بحدائقها اشتهار غيرها من المدن التي تحتاج الى الحدائق ولكن فيها حديقة بارسيلي الجميلة ينتابها الألوف بعد الاصيل من كل يوم وتصدح فيها الانغام الشجية وفيها مطعم فاخر لهُ طبقتان في الأَوَّل منهما انواع المشروبات تؤْخذ على موائد نصبت بين صفوف الشجر وفي الطبقة العليا موائد الطعام تشرف على ابهى مناظر المدينة

وفي هذه المدينة ايضاً متحف عظيم الشان هندسهُ ستولر المهندس الالماني المشهور وهو استقدم الى ستوكهولم لهذه الغاية وظلَّ العمال على بنائهِ وزخرفتهِ ١٦ سنة من ١٨٥٠ الى ١٨٦٦ . وللملك عناية كبيرة بهذا المتحف وما فيهِ وهو جامع للآثار الكثيرة لا تخرج في وصفها عما تقدَّم ذكرهُ من المعارض التي شرحنا امرها

في غير هذا الموضع ولا يسمح لنا المقام بالاسهاب فيها الآن

وفي هذه المدينة نفق تحت شاهق الجبل يخترق الارض ما بين المدينة واطرافها في الناحية المقابلة لها كان الغرض من حفرهِ تسهيل الانتقال بين الجهتين وقام بعملهِ مهندس من مهندسي البلاد على نفقة نفسهِ بطلب من الحكومة اشترطت عليهِ ان لا يجبي لنفسهِ من المارة رسماً يزيد عن عشر بارات على كل فردٍ منهم وان يتمتع بارباح مشروعهِ مدة عشرين عاماً ثم يصير النفق ملكاً لبلدية ستوكهولم فتمَّ ذلك واثرى صاحب المشروع ثم انتقل النفق الى المجلس البلدي فهو ينفق ايرادهُ على ما يفيد المدينة ويزيدها نظاماً وقد تسهل المرور على الناس في تلك الناحية كثيراً

ولما انتهيت من المرور في النفق سرت في آخر النهار الى قهوة تعرف باسم ستومبارتر وهي واقعة على ضفة الخليج ينزلون اليها بسلم وفيها حديقة شهية يقعد فيها الناس ويمتعون الطرف بمنظر الخليج وما يمرُّ فيهِ من السفن والبواخر الكثيرة. ومنظرها في الليل لا يقلُّ بهجة عنهُ في النهار لانهم ينيرونها باجمل الانوار موضوعة على اشكال شتى وبينها كثير صُنع على شكل الراية الاسوجية بالمصابيح الملونة

والمدينة هذه مشهورة بجزُرها على ما تقدَّم وقد ذكرنا بعضها ومن اجملها جزيرة دجورجارد فيها القصور والمنازل لكبراء القوم وفيها غابات كثيرة من شجر القرو وهو كثير في هذه البلاد تمتدُّ اغصانهُ وتتكاثف اوراقهُ فيشبه ارز لبنان في امتداد عروقهِ ويتخلل هاتيك الحراج طرق فسيحة نظيفة تخترق الشجر في الجهات الاربع لتسهيل المرور والانتقال ولها منظر يشرح الصدور. ولقد سرنا في احد هذه الطرق فانتهينا الى قصر روزندال الذي بناهُ الملك شارل الرابع عشر وفي ذلك القصر يقيم الكونت برنادوت وهو ثاني انجال الملك اعتزل الدنيا وتنازل عن كل

حقوقهِ في الملك والابهة لانهُ شغف بحب فتاة انكليزية فائقة الجمال وهي ابنة ضابط من ضباط الجيش الانكليزي فاقترن بالفتاة بعد ان نهاهُ ابوهُ الملك اوسكار عن الاقتران وتغلب الحب للفتاة على كل امرٍ آخر فغضب الملك غضباً شديداً على ابنهِ واصدر امراً بحرمانهِ من كل حقوق الامراء حتى انهُ سلخ عنهُ لقب الامارة فما اثر ذلك في الامير وهو الى الآن مع عروسهِ في هذا القصر يتنعم لانهُ ورث عن امهِ مالاً كثيراً والفتاة غنية ايضاً. ولهذا القصر حديقة غناء وعلى مقربة منهُ برج بناؤُهُ شاهق وعلو قمتهِ عن الارض ١١٠ قدم صعدتهُ فرأيت المدينة بجميع اجزائها تحت نظري والبرج مبني على اكمة علوها ٢٥٠ قدماً فكان منظر تلك الجهة بديعاً

وتحوَّلت من ذلك البرج الى غربي الجزيرة وهناك اماكن الاجتماع اقيمت في جوانبها الحانات والملاهي والمطاعم ومرسح بني على مثال القصور العربية في بلاد المغرب الاقصى ولهُ جدران خضراء عليها اشعار عربية بالقلم الابيض. وكان النهار قد انقضى فانيرت المصابيح الكثيرة وبدأت في المكان حركة من توافد الالوف الى تلك الملاهي والحانات لقضاء السهرة فكنت ترى من اشكال الاسوجيين كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً ما يمثّل لك حال البلاد برمتها وقد ظهرت على الجميع علامات التأدب والتهذيب وراحة البال من عناء المشاكل الداخلية والخارجية فان هذه المملكة من الممالك القليلة التي لا تشتد فيها حدة الاحزاب السياسية وليس لها من العقد الخارجية ما يشغل البال ويقطب الجبين

وقضيت السهرة في مسرة وحبور في تلك الجزيرة حتى اذا انقضت عدت بالتراموي الى الفندق والطريق كلهُ حدائق ومشاهد جميلة واصبحت في اليوم التالي علَى نية الاستقصاء في التفرج ودرس المناظر فكان الدليل ينتظرني وسرت معهُ الى قصر دروتنغولم ومعنى الاسم قصر الملكة سمي بذلك لان الملكة حنه

الثالثة بنتهُ في اواخر القرن السادس عشر واتمَّ زخارفهُ الملوك الذين جاؤُا من بعدها . والقصر في جزيرة من الجزر المحيطة بالعاصمة فسرنا اليها في باخرة جميلة تشق عباب بحيرة مالارن التي ورد ذكرها من قبل وطفقت هذه الباخرة تمر بقصور وحدائق ومتنزهات جمة وباخرات اخرى تنقل الناس من جهة الى جهة في نواحي ستوكهولم وكنا اذا مررنا باحدى الجزر البهية مثل التي كنت بالامس فيها نرى الناس هنالك يطربون ويسرون وقد دبَّ في بعض الرؤُوس تأثير بنت الحان فجعل القوم يرقصون ويتخاصرون واذا مرت بهم سفينتنا لوَّحوا لها بالمناديل تسليماً وتحيةً فيرد الركاب التحية بمثل ما فعلوا من رفع الاكف والقبعات وتلويح المناديل وبعض الاحيان يفعلون ذلك بالهتاف والصياح والتصفيق وفي كل هذا دليل على ما يرتع بهِ القوم من الرخاء وصفاء البال . وما زالت الباخرة في مسير بين مثل هذه المناظر ونحن نتمنى لو تطول مدة المسير حتى رست بعد ساعة في آخر البحيرة فنزل الركاب وانا معهم على رصيف من الخشب وسرنا من هنالك في طريق كثرت محاسنهُ الى القصر . ودخلنا القصر بعد ان بلغناهُ فرأينا جوانبهُ وقاعاتهِ ولا حاجة الى القول انهُ كامل الجمال والاتقان من حيث النقش والرياش وغيرهما وفي القسم المعد للملك منهُ صور ملوك اوروبا الحاليين وقياصرتها بالحجم الطبيعي وفي قسم الملكة صور الملكات والقيصرات بقدهنَّ الطبيعي ايضاً . والقصر يقيم فيهِ الملك بعض اشهر الصيف وهو قديم العهد مملوءٌ بالتحف والنفائس ولهُ حديقة غناء تستحق الذكر على نوع خاص فانها جمعت من اشكال الزهر والشجر كل جميل وغريب وغرست فيها الاشكال عَلَى نمط بديع يحيط بها طرق مرصوصة بالحصى ومنقنة الوضع يزيدها جمالاً انواع النُّصُب والتماثيل الكثيرة وبرك الماء المتدفق من الانابيب المختلفة . وفوق هذا فان الحديقة تشرف عَلَى البحيرة فيتم

بذلك رونقها و بهجتها

ومن اجمل ما اكتحلت بمرآهُ العين وابهى ما وصفهُ الواصفون ضاحية من ضواحي ستوكهولم لا مشاحة في انها لها رونق وجمال ما رأيت اعظم منهُ تأثيراً في النفس ولا سمعت باكثر غرابة وفخامة اريد بها ضاحية سولتجون . هنالك جمعت الطبيعة كل قواها ووفقت بين غرائب جمالها وساعدتها يد الصناعة والاجتهاد على ايصال البدائع الموجودة فيها الى حد النهاية فصار الموضع باقرار كل من رآهُ آية فتانة من آيات الجمال الرائع والمنظر المؤثر لا تنسى النفوس ذكراهُ . هنالك الجبل الشامخ والبحر الخضمّ والجدول المنحدر والصخر الصلد والحرجة الغضة والاكمة البهية والوادي القشيب والبحيرة النقية مياهها وكل حسنة من حسنات الطبيعة تتوق الى رؤيتها النفس وتشتاق سماع اخبارها الآذان وقد سرت اليها في باخرة من هاتيك البواخر الحسناء والمسافة بينها وبين العاصمة ساعتان في مضيق من الماء او هو بوغاز يضارع البوسفور في ما يليهِ من تنوع المناظر وجمال الضفتين وغرابة المحاسن من هنا ومن هنا . ولقد كان هذا البوغاز البهي يضيق تارةً ويتسع اخرى وسواءٌ ضاق او اتسع فان الذي يراهُ الراكب ليسحر العابد من حراج وغياض وخضرة نضرة ترصعها قصور شماءُ لاكابر الناس تطل كواها وشرفاتها علَى ذلك المنظر الفخيم . واعجبني فوق هذا كلهِ تلك الصخور الصوانية الباقية من عهد تكوين الارض شاهدة بفضل الطبيعة وقوتها وهي قائمة الى جانبي الطريق تليها الاعشاب واشكال الشجر المدلاة اغصانهُ ولاسيما اذا ما ضاق مجرى الماء وصار مثل شارع غير متسع المجال فان هاتيك الغصون تتقابل من الجانبين ويتكوَّن منها اقواس من الخضرة فوق الماء المترقرق فتمرُّ الباخرات من تحت تلك الاقواس البهية ويا لهُ من ممرٍّ عجيب ثم ان ذلك البوغاز غير مستقيم السير وهنا نقطة اخرى للجمال فانهُ

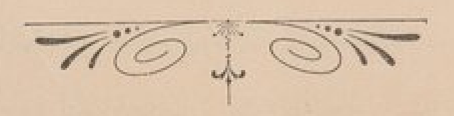
يتعرّج في بعض اجزائهِ تعرُّجاً كثيراً يوهم الراكب ان الطريق سُدَّت في وجه الباخرة فلا يظهر للرائي من الماء غير الذي تسير السفينة فوقهُ وتعترضها صخور وغياض ثم هي تنساب في تلك المسالك الشبيهة انسياب الافعى فما يشعر الراكب الاَّ وقد انفرج المجال وصار الى وسط بحيرة ماؤُها نقي ومنظرها شهي ولها ضفاف نقشت بمحاسن البناء في وسط الحدائق او على رؤُوس الآكام وفي وسطها جزيرات لطيفة كلها معارض لما اجتمع في هذا الصقع من بدائع الطبع والصنع

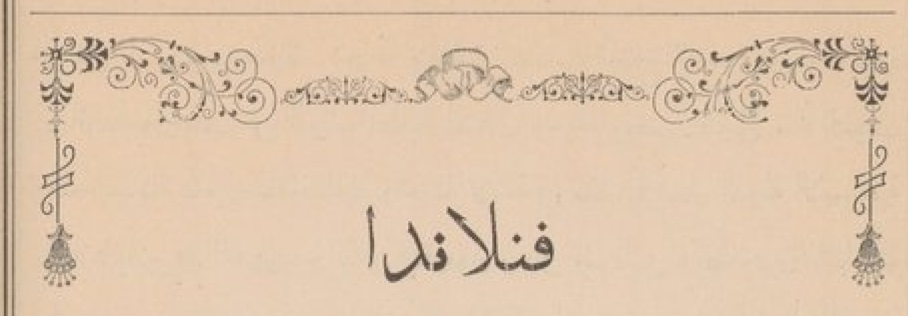
تلك حالة الطريق ما بين ستوكهولم وسولتجون لما وصلناها نزلنا من السفينة الى الارض على رصيف من الخشب دخل في الماء دخول اللسان من الارض في شواطىء البحار فسرنا منهُ صعداً الى قمة جبل بنيت عليها المنازل والمطاعم واماكن الاجتماع وهنالك مطعم تفننوا في اتقانهِ واتفقوا على معداتهِ الالوف فجعلوا الادوات والآنية كلها من الفضة والذهب والبلور والموائد نظيفة بالغة حد الاتقان يقف من حولها الخدم باجمل هندام واذكر اني رأيت عبداً اسود في ذلك المطعم عرفت بعد السؤَال انهُ سوداني أُخذ من بلادهِ صغيراً وربي في ذلك الموضع البهي فما ينطق بغير الاسوجية . وصعدت برجاً في ذلك المطعم اطللت منهُ على تلك المناظر البديعة فارتسمت في ذهني وذكرها لا يزول لاني لم اجد اكثر منها غرابة وجمالاً ثم عدت في المساء الى المدينة بعد ان قضيت النهار كلهُ متنقلاً بين هاتيك الغياض والمشاهد وكان رجوعي في قطار سكة الحديد والطريق لا يقلُّ غرابة وجمالاً عن طريق البحر الذي وصفناهُ

واعجبت في ستوكهولم بالامن العام والنظام الشامل فان حكومتها الدستورية من ارقى انواع الحكومات في الارض ولها بوليس لم ارَ في الشرطة اجمل منهُ منظراً ولا اكثر لطفاً وعلماً في كل العواصم الاوروبية فان الجندي البسيط من اولئك

الرجال يلبس لبس ضابط كبير لهُ بنطلون اسود من الجوخ اللامع ومن فوقه سترة من نوعهِ لها صفّان من الزرائر المطلية بالذهب وحزام مقصب يتدلى منهُ السيف وقبعة سوداء صغيرة لها خطوط ونحاسة لامعة في مقدمها شعار الدولة الاسوجية وقفاز ابيض في اليدين . والناس يحترمون رجال البوليس ويصدعون باشارتهم وهم اصحاب علم وذوق وتربية مثل كل الاسوجيين فلا عجب اذا شمل النظام وعمَّ الامن واستراحت قلوب الناس في هذه البلاد من الهم والمشاغل .

ويقال بوجه الاجمال ان هذه المدينة من مدائن الطبقة الاولى بجمال مناظرها الطبيعية وغرابة وضعها وبهاء ضواحيها ولكنها باردة الهواء في اكثر فصول السنة ما خلا فصل الصيف وهو لا يزيد فيها عن اربعة اشهر او ثلثة والماء يتجمد فيها مدة الشتاء فتصبح هاتيك البحيرات البهية صفائح من الجليد يزحف عليها الناس بالقباقيب الدراجة ويعدُّ ذلك عندنا كثر اهل الشمال من احسن ما يروّض الابدان ويسلّي العقول . هذا غير ان قرب اسوج من الشمال الاقصى يجعل اكثر ايام السنة فيها قصيرة والليل طويلاً فلا يزيد طول النهار في معظم ايام السنة عن ٦ ساعات لاسباب طبيعية يعلمها القارئون وهو من غرائب البلاد وفي جملة محاسنها الكثيرة . واهل هذه البلاد من الطبقة الاولى في حسن التربية بعيدون عن الغش والخداع في امورهم واعمالهم . واذا تزوج المرء منهم اعطى عروسهُ يوم الزواج نسخة من الانجيل مع بقية الهدايا واما العروس فتهدي زوجها قميصاً للنوم تخيطهُ بيدها يلبسهُ مرةً ثم يغسلهُ ويطويهِ فيبقى محفوظاً الى يوم الممات ليدفن فيهِ





فنلاندا

اني قصدت زيارة هذه البلاد حبًّا في الاطلاع لانهُ لم يزرها من اهل الشرق قبلي رجال كتبوا عنها وليس فيها من المشاهد ما في غيرها من بلدان اوروبا ولم اكتب لها خلاصة تاريخية كغيرها لانها لم تكن شيئاً يذكر في الماضي وتاريخها ينحصر في حروب ومنازعات على امتلاكها بين دول الشمال الى ان صارت ملكاً للروس في اوائل هذا القرن وهي الآن ولاية روسية ممتازة تعدُّ امارة مستقلة لها نظامات خاصة بها غير نظامات الدولة الروسية وفي قاعدتها مجلس للشيوخ ومجلس للنواب يسنان ما يلزم لها من القوانين ويصدق عليها قيصر الروس رأساً. والبلاد واقعة بين روسيا واسوج وهي واسعة الارجاء منبسطة الارض كثيرة الجزر والخلجان وعدد سكانها قليل لا يزيد عن مليونين ونصف من اهلها الاصليين وهم من النوع التوتوني

والحق يقال ان السياحة بين ستوكهولم وفنلاندا من اشهى السياحات يرى السائح في خلالها نحو ١٣٠٠ جزيرة في بحيرة مالار والخليج والبحر وفي ثمانين منها ١٥٠٠ نفس لصيد السمك

وتكثر الاسماك الكبيرة والصغيرة في شواطىء فنلاندا بسبب موقعها الطبيعي وكثرة جزرها فتجارة السمك من اعظم مصادر الثروة في هذه البلاد

والزائر يرى لاول وهلة اكواخاً كثيرة فوق صخور هائلة في وسط تلك الجزر يقيم فيها الصيادون اشهراً ويأتون بالزاد اليها حيناً وراء حين وقد ينبت فوق تلك الصخور اعشاب ويسمع عند الاكواخ خرير الماء المنحدر من المصايد وفي هذا كلهِ شيء لا يراهُ السائح في غير بلاد فنلاندا ويمكن للمسافر ان يراهُ في طريقهِ فان الباخرة التي سرت فيها قضت ١٥ ساعة تشق عباب البحر في وسط تلك المناظر وهي تتعرج وتتقلب في ميلها بين تلك الجزر الكثيرة فاثر فينا ذلك المنظر الغريب الخاص ببلاد سحيقة قلما يسمع عنها الشرقيون شيئاً . وكان في الباخرة خادمات للمائدة من اهل فنلاندا جميلات نظيفات الملابس حاسرات عن زنودهنَّ والمآكل تقدم مراراً للمسافرين ومناظر الخلجان والبحيرات والجزر تزيد غرابة في كل حين حتى انتهينا الى مينا هانكو وهي اول بلد في فنلاندا قائمة على لسان داخل في البحر وفيها حمامات يقصدها الناس من داخلية البلاد في فصل الصيف . ولم نقف في هانكو الاَّ قليلاً ثم عادت الباخرة الى المسير وظلت سائرة ثماني ساعات اخرى حتى استقرَّ بها النوى في هلزنفورس وهي عاصمة البلاد

هلزنفورس

هي مدينة بناها جوستافوس ڤاسا محرّر اسوج الذي مرَّ ذكرهُ سنة ١٥٥٠ وقد تقلّبت عليها الاحكام كثيراً الى ان صارت من املاك الروس في سنة ١٨١٢ وعدَّت قاعدة الولاية من سنة ١٨١٩ ونقلت اليها المدرسة الجامعة من آبو سنة ١٨٢٧ . يبلغ عدد سكانها ستين الفاً وفيها عدة ابنية فاخرة مثل دار الولاية والمدرسة والثكنة العسكرية وبناء مجلس الشورى والمرسح والكنيسة الكبرى

وغير هذا مما لا اتعرض لشرحهِ ووصفهِ لانهُ لا يختلف كثيراً عما تقدم ذكرهُ في المدائن الاخرى ولان البلاد هذه ليست بذات اهمية عند معظم القراء الشرقيين. وفيها ايضاً قصر امبراطوري امامهُ تمثال للقيصرة الكساندرا فيودوروفنا نصب تذكاراً لزيارتها تلك العاصمة عام ١٨٣٣ والى جانبهِ نسران روسيان. وفيها كنيسة مار نيقولاوس بنيت من حجر الصوان على مرتفع من الارض وقد جعلوا في اعلاها خمس قبات ملونة باللون الازرق السماوي وهو غاية في الجمال صعدت اعلاها على سلم ذات خمسين درجة من الحجر فاطللت على المدينة بكل انحائها وسرت بعد ذلك الى مجلس الامة وفي بنائهِ الفخيم اكثر مصالح الحكومة الادارية والمالية وقد رأيت في احدى غرفهِ صور القياصرة الروسيين المتأخرين في براويز جميلة وهي كثيرة الجمال والاتقان

واشتهرت هذه العاصمة بحصون منيعة بنتها دولة الروس وهي تمتد في البحر مسافة ثمانية آلاف متر وفيها تسعماية مدفع وستة آلاف جندي يزاد عددهم وقت الحرب . ومما يذكر عن هذه الحصون ان دولتي انكلترا وفرنسا ارسلتا الاساطيل لتدميرها سنة ١٨٥٥ اي مدة حرب القرم فلم تقوَ تلك الاساطيل على تخريب هذه الحصون العظيمة ولذلك اطلق عليها بعضهم اسم «جبل طارق الشمالي» اشارة الى جبل طارق الذي حصنهُ الانكليز عند مدخل البحر المتوسط في طرف اسبانيا الجنوبي وجعلوهُ اشهر المواقع الحربية منعةً وتحصيناً . والحصون كلها مبنية من الحجر مثل بقية ما في هذه المدينة من الابنية فان كل منازلها ومخازنها من الحجر لا يعلوهُ دهان ولكنهم يتفننون في ترتيب الحجر علىَ الوانهِ ترتيباً يروق للناظرين ويجعلون بين كل صف من البناء والصف الآخر خطاً من الكلس الابيض فهي في ذلك تقرب من بيوت بيروت في بعض الشيء . وقد استخدموا الحجر ايضاً

لرص الشوارع فترى ارض مدينتهم مبنية بالحجر وهم يغسلونها كل يوم بالماء فتظل ابداً نظيفة تشرح بمنظرها الصدور وفي ذلك ما يقرب من شوارع ابردين ونظافتها وهي مدينة اسكوتلاندية سيأتي الكلام عنها في فصل بلاد الانكليز

واقمت في بلاد فنلاندا هذه اياماً قليلة ثم برحتها قاصداً سلطنة الروس وهي في جوارها فقمنا في باخرة جميلة جعلت تجتاز تلك الجزر الغريبة حتى اذا دخلت بحر البلطيق وانفسح لها المجال طفقت تتمايل وتضطرب من تعالي الموج وهياج البحر فقلت لربان السفينة اذا كان هذا حال البحر هنا مدة الصيف فكيف بهِ في الشتاء قال ان البواخر تنقطع عن المسير في الشتاء هنا لان البحر كلهُ يجمد ماؤُهُ ويصبح سهلاً واسعاً من الجليد وقد صنعوا بواخر لها مُقدم محدَّد كالسيوف يقطع الجليد من امام الباخرة ويفتح لها باباً للمرور ومسير هذه الباخرات صعب لا يخلو من الخطر فهم يعوّلون في السفر مدة الشتاء علَى سكك الحديد الممدودة بين البلادين

على ان البحر هدأَ اضطرابهُ بعد ان سارت الباخرة قليلاً فلما اصبح الصباح التالي ظهرت لنا ارض روسيا ورست الباخرة في مينا كرونستاد وهي التي يجيء الكلام عنها مع ضواحي بطرسبرج





روسيا

خلاصة تاريخية

كانت روسيا بلاداً غير معروفة يسكنها اقوام محاربون اشتهر ذكر بسالتهم في تاريخ ايران واليونان والرومان ولكنهم عرفوا بالغلظة ولم يكن بينهم رابطة ولا ائتلاف حتى قام امير اسمهُ رورك في سنة ٨٦٢ من قبيلة تعرف باسم روسن واشتهر بالحكمة فاستدعتهُ قبائل أُخرى للحكم عليها وعظم امرهُ فكان هو اول من بدأ بتشييد الدولة الروسية الحالية وأُطلق على رعاياهُ اسم روسيين نسبة الى قبيلة روسن من ذلك العهد. وتوارث الملك عن رورك امراء من نسلهِ وسعوا نطاق الدولة حتى قام ڤلاديمير الاول وادخل الديانة المسيحية الى البلاد في سنة ٩٨٨ ومن ذلك الحين ظهرت دولة الروس وصار لها علاقات مع الدول الاخرى ولكن سوء الحظ فاجأها لان مملكة بولونيا اغارت عليها وكسرت جنودها وامتلكت اكثر اجزائها وظلت البلاد تابعة لبولونيا الى القرن الثامن عشر. وكان الجزء الذي تعد موسكو قاعدتهُ قد وقع تحت حكم التتر من بعد ايام ڤلاديمير فظلَّ خاضعاً لهم والامراء الروسيون يعدون من الولاة التابعين لسلاطين التتر حتى اوائل القرن الخامس عشر حين استقلوا في ايام ايڤان الثالث سنة ١٥٠٥ وكانوا مدة سيادة التتر قد انفصلوا عن الاجزاء الاخرى انفصالاً تامًّا فان الروسيين الذين خضعوا لبولونيا اعترفوا بسيادة البابا الدينية والذين خضعوا للتتر ظلوا تابعين للكنيسة الشرقية ثم اعلنوا استقلالهم وانفصالهم عنها مع بقائهم على عقائد الكنيسة الشرقية الارثوذكسية وكانت بلادهم تُعرَف باسم روسيا الكبرى او بلاد المسكوب وهي التي تغلبت بعدئذٍ على بقية الولايات

الروسية وصيرتها دولة واحدة وبدأت بذلك من ايام ايڤان الثالث الذي ذكرناه فانها اتسع نطاقها وعظم شأنها من بعد القرن الخامس عشر وضمت اليها بعض اجزاء سيبيريا والولايات الروسية التي اخضعها التتر مثل كازان واستراخان وغيرها

وفي سنة ١٥٩٨ انقرضت سلالة رورك فوقعت البلاد في فوضى طالت مدتها وانتهت سنة ١٦١٣ بقيام رجل اسمهُ ميخائيل رومانوف كان ابن احد الاساقفة وامهُ من بيت رورك واستلم هذا الزعيم ملك قياصرة الروس فأسس من ذلك العهد الدولة الحاكمة في البلاد الى الآن وبذل جهد المستطاع هو وابنهُ الذي خلفهُ على الملك في توطيد دعائم الامن وقطع دابر الفتن من البلاد فنجح في ذلك واعاد الى روسيا شأنها الاول . ولما جاءت سنة ١٦٨٩ قدّر للبلاد ان يتولى امورها رجل من اعظم رجال الدهر واكبرهم همة واوسعهم شهرة نريد بهِ بطرس المعروف باسم بطرس الكبير في التاريخ اظهر مقدرة تندر في الرجال وهو يومئذٍ فتىً في السابعة عشرة من عمرهِ وجعل همهُ الاول الوصول الى البحر الاسود وانشاء اسطول حربي وتجاري يدور في مينهِ فتوصل الى امتلاك فرضة ازوف وهي على ضفافهِ بعد عناء كبير ومن ثمَّ شرع في بناء اسطول يعاونهُ على ما يريد من الفتح ومهاجمة بلاد الدولة العلية وكان اهل بلادهِ الى ذلك الحين لا يدرون من صناعة السفن شيئاً ولا مال في خزينة حكومتهِ يقوم ببناء السفن المطلوبة ففرض مالاً طائلاً على اشراف مملكتهِ وخدمة الدين فيها واستخدم اناساً لجمع ذلك المال ثم سافر متنكراً الى ممالك اوروبا التي اشتهرت بقوتها البحرية فاقام زماناً في انكلترا والدنمارك على شواطىء البحار والانهار يعمل كعامل بسيط فقير في بناء السفن ويتعلم دقائق الصناعة والناس لا يعرفون من هو فاذا عرفوهُ انتقل من مكانهِ وعاد الى التخفي حتى اذا اتمَّ المراد من ذلك عاد الى بلادهِ سنة ١٧٠٠ واستلم مهام الملك وبدأ بعمل الاسطول في البحر الاسود ثم اتفق مع ملك الدنمارك وملك بولونيا على محاربة اسوج واقتسام املاكها ولكن اسوج كان لها يومئذٍ ملك باسل هو كارل الثاني عشر فردَّ جموع المهاجمين وفلَّ جنود اعدائهِ مراراً ثم حدث ما ذكرناهُ في تاريخ اسوج وعاد بطرس الكبير الى مهاجمتها فكسرها شرَّ كسرة في معركة بولتافا سنة ١٧٠٩ ونتج عن هذه الحرب ان عدة ولايات في الشمال والغرب اضيفت الى روسيا وصار لها الموانئ على بحر البلطيق فعظم شأن روسيا من بعد هذا النصر ولقب بطرس الكبير امبراطور روسيا جميعها وهو لقب القياصرة من آل رومانوف الى الآن

وانقطع بطرس الكبير بعد ذلك الى اصلاح داخلية بلادهِ فادخل اليها النظامات

الجديدة المصطلح عليها يومئذٍ في ممالك اوروبا المتمدنة واصلح الجيش وادارة الاحكام والمحاكم والمالية وفتح الترع وبنى الجسور والطرق ووسع نطاق المتاجر وانشأ المدارس وابطل امتياز البطاركة الاروام في كنيسة بلادهِ فجعل نفسهُ رئيس الكنيسة الروسية ولم يزل القياصرة رؤساء الدين في بلادهم الى الآن . وفي سنة ١٧٠٤ بنى مدينة بطرسبرج وسماها باسم القديس بطرس واسمهِ وجعلها قاعدة المملكة ولما مات في سنة ١٧٢٥ كانت روسيا في عداد الدول العظيمة مع انها لم تكن قبل ايامهِ على مثل هذا

وورث الملك عن بطرس الكبير امرأتهُ كاترينا الاولى ملكت عامين ثم ماتت وخلفها بطرس الثاني حفيد بطرس الكبير . ومات بطرس الثاني سنة ١٧٣٠ فخلفتهُ الامبراطورة حنه وهي ابنة ايڤان اخي بطرس الكبير حدث في ايامها حروب كثيرة مع الدولة العلية لم تستفد منها روسيا شيئاً ولما حان اجلها اوصت بالملك لايڤان حفيد اختها كاترينا وكان ايڤان هذا اميراً المانياً من آل هانوفر لا يزيد عمرهُ يومئذٍ عن ستة اشهر ولكن الجيش الروسي لم يرضَ بهِ ملكاً فخلعهُ بعد سنة وعين اليصابات امبراطورة سنة ١٧٤١ وهي اصغر بنات بطرس الكبير . وحكمت هذه الامبراطورة الى سنة ١٧٦٢ حين تنازلت عن الملك لابن خالتها امير هولشتين وهو ايضاً الماني فرقي العرش وسمي باسم بطرس الثالث ولكنهُ اغضب رجال الدين وقواد الجيش ببعض امورهِ فخلعوهُ واقاموا مكانهُ الاميرة صوفيا اوغستا من آل انهلت زربست في المانيا فحكمت روسيا باسم الامبراطورة كاترينا الثانية او الكبيرة وهي ملكة مشهورة في التاريخ بالحروب الكثيرة التي جرت بينها وبين الدولة العلية وكان الفوز في اكثرها لرجالها . واضيفت في ايام هذه الامبراطورة عدة ولايات ومدن الى روسيا من املاك الدولة العلية وفي ايامها ايضاً جزئت مملكة بولونيا وهي التي ملكت روسيا او بعضها حيناً من الدهر فلما ماتت سنة ١٧٩٦ كان ملكها عظيماً ودولتها قوية ورثها عنها ابنها بولس الاول وكان مشهوراً بقبح الخصال وقبح الوجه ولهُ امور لا تنطبق على قياس وهو الذي سنَّ لائحة تقضي بحرمان النساء حق الملك في روسيا وكان لهُ ولع خاص بالوقوف امام المرآة زماناً والتفرج على سحنتهِ فلما ثقل جورهُ على الناس تآمر بعضهم عليهِ وقتلوهُ سنة ١٨٠١ وبذلك بطلت الحرب بين روسيا وانكلترا التي كاد هذا الامبراطور يضرمها بسوء تدبيرهِ

وملك البلاد بعد بولس ابنهُ اسكندر الاول وهو من الملوك العظام لهُ شهرة في التاريخ بسبب تحالفهِ مع نابوليون الاول ومحاربتهِ لهُ بعد التحالف بعد ما كان من طمع نابوليون . وكان هذا الامبراطور حكيماً عادلاً عاقلاً تروى عنه المآثر الكثيرة وهو الذي كان السبب

في سحق قوة نابوليون لانهُ لما دخل ذلك الفاتح بلادهُ تمكن من ردهِ وكسر جنودهِ ثم دخل باريس مع من دخلها سنة ١٨١٢ وقضى بابعاد نابوليون عنها وكان في آخر ايامهِ صديقاً حميماً لدولة الانكليز · وتوفي اسكندر الاول سنة ١٨٢٥ فخلفهُ اخوهُ نقولا الاول وكان جباراً عظيم الخلقة شديد القوة يحكي الجبابرة الاول في قوة جسمهِ وكبرهِ ولهُ شهرة في البسالة وحب الاثرة لا تفوقها شهرة · وحدثت في ايام هذا الامبراطور عدة حروب منها ما كان مع بلاد ايران ونتج عنها استيلاءُ روسيا على ولاية اروان وما وراء نهر جيحون ومنها مع الدولة العلية ونتج عنها وضع حماية روسيا على الفلاخ والبغدان (رومانيا الحالية) وهي يومئذٍ من املاك الدولة العلية · ومنها مع بولونيا التي حاولت استرجاع استقلالها فسحقها نقولا سحقاً وبطش بقواتها الى حد انهُ اقعدها عن كل حركة قادمة · ومنها مع المجر لان امبراطور النمسا استغاث بهِ على قمع ثورتها وردها الى طاعتهِ فاعانهُ وارسل عليها جيشاً جراراً سحق ثورتها واخضعها اخضاعاً تاماً

وظلَّ نقولا الاول على المحاربة والفتح زماناً وهو لا يكتفي بما وصل اليهِ ونفسهُ الطماعة تتوق الى المزيد حتى انهُ لما ثار محمد علي والي مصر على الدولة العلية وعدها بالمساعدة على شرط ان يكون لدولتهِ الكلمة الاولى في الاستانة فتمَّ لهُ ذلك · ثم اخضع دولة ايران لنفوذهِ وحملها على ارسال جيش يقودهُ ضباط روسيون لمهاجمة الهند فردهم الانكليز على الاعقاب

وجملة القول ان هذا الامبراطور العظيم كان جباراً وفعل فعل الجبابرة وسحق اُمماً كثيرة لولا فعلهُ لكانت الآن دولاً زاهرة وظلَّ بهِ الطمع الى ان عول على ابتلاع ممالك الدولة العلية واثار عليها حرباً عنيفة سنة ١٨٥٤ تعرف بحرب القرم ولم يزل خبرها يرنُّ في الآذان ولما كانت انكلترا تخشى امتداد صولة الروس وصيرورة المراكز البحرية على البوسفور والبحر المتوسط الى يدهم جهرت بمضادتهم وانتصرت للدولة العلية وسعت في ضم غيرها الى هذا التحالف فانضمت اليها فرانسا ومملكة سردينيا وتحارب الفريقان زماناً اظهر فيهِ الروس والاتراك والانكليز والفرنسويون من اشكال البسالة والاقدام ما تعجز عن وصفهِ الاقلام · وانتهت حرب القرم بفتح سباستبول وهي فرضة على البحر الاسود في بلاد القرم التابعة لروسيا كان القيصر نقولا يظن انها لا تفتحها قوات الانس والجن وان جيشهُ لا يغلبهُ جيش في الوجود فلما انتهى الامر على غير ما أمل اضطرَّ الى عقد صلح لم تخسر منهُ روسيا كثيراً ولم تستفد الدول الاخرى غير رجوع روسيا عن الفتح زماناً · وضاق صدر القيصر نقولا من هذا الحادث وهو جبار

لا تذل نفسهُ ولا ترضى بغير النصر فمات بعد الحرب بقليل وخلفهُ ابنهُ اسكندر الثاني ويعدهُ البعض اشرف القياصرة نفساً لانهُ حرر الفلاحين في بلادهِ الواسعة وكان الفلاح الروسي بمنزلة عبد للاشراف فابطل ذلك النظام القديم وترك لهُ ذكراً حميداً في تاريخ البشر . وحارب اسكندر الثاني الدولة العلية الحرب الاخيرة المشهورة سنة ١٨٧٦ فانتصر في اكثر المواقع وملك بعض الاراضي العثمانية وساعد بلغاريا على الاستقلال فاسمهُ مقرون بالاستقلال والحرية في جميع فعالهِ

وكان هذا القيصر جميل الوجه طلق المحيا شريف الملامح لم يقم بين ملوك الروس اجمل منهُ وجهاً ولا اطيب قلباً ولكنهُ بلي في آخر ايامهِ بفئة النهلست التي قويت وامتدت صولتها وكثر اعوانها وهم اعداءٌ لهُ وللحكم الاستبدادي فقتلوهُ بقنبلة تفرقعت في طريقهِ سنة ١٨٨١ واسفت اوربا لفقدهِ اسفاً كبيراً فورثهُ ابنهُ اسكندر الثالث وهو المشهور باسم «بطل السلام» كان ملكاً شريف الخصال طيب القلب سليم النية كبير الجسم عظيم القوة حكم بلادهُ بالعدل والانصاف وعمل على ترقيتها بانماء موارد الرزق فيها وتوسيع جوانبها بلا حرب ولا قتال فعظم شأن روسيا في بلادهِ وتوددت اليها الممالك وأُبرمت بينها وبين فرانسا محالفة مشهور امرها . واقترن هذا الامبراطور قبل ان رقي العرش بالاميرة داجمار ابنة ملك الدنمارك وهي اخت ملكة انكلترا وملك اليونان فكان يحبها حباً مفرطاً ويعمل برأيها في اكثر الامور وقد رزق منها القيصر الحالي واخاهُ وبنتين . وتوفي هذا القيصر في ١ نوفمبر سنة ١٨٩٤

ورقي عرش القياصرة العظام بعد اسكندر الثالث بكر انجالهِ جلالة القيصر الحالي نقولا الثاني وهو شاب في مقتبل العمر اظهر الى الآن مقدرة في اختيار الوزراء وحباً للعدل ورغبة شديدة في ترقية مصالح بلادهِ . وزادت قوات روسيا في البحر مدة الاعوام الاخيرة واتسعت متاجرها وقوي نفوذها وقد جال جلالة القيصر قبل توليهِ في الشرق والغرب مع اخيهِ الغراندوق جورج وابن خالهِ البرنس جورج امير كريت ورآهُ اهل هذه البلاد وسواها وكان اينما حلَّ يلقى من آيات الاحتفال والتعظيم ما لم يلقهُ السوى . وحاول رجل في بلاد اليابان ان يقتلهُ فانقذهُ البرنس جورج اليوناني . وقد اقترن القيصر بالبرنسس اليس حفيدة ملكة انكلترا السابقة واحب الحفيدات اليها وهي ابنة امير هس درامستات من امراء المانيا ورُزق منها اربع بنات وولد . وهو مشهور بحبهِ لاهل بيتهِ واقاربهِ جميعهم وقد عرف بحسن الخصال واشتهر في ايامهِ ارتباطهُ بفرانسا وزيارتهُ لها وزيارة رئيس الجمهورية وبقية الملوك العظام لهُ وتعاظم نفوذ روسيا قبل حربها مع اليابان

وكان سبب هذه الحرب انهُ لما مدّت روسيا سكة الحديد من بلادها الى الشرق الاقصى عظم نفوذها هنالك وتجسمت مصالحها ولا سيا بعد ان احتلت منشوريا وبدأت بنيل الامتيازات في كوريا وزادت حصون بورت ارثر زيادة كبرى . كل هذا واليابان ترى ان في تقدم روسيا على هذا المنوال خطراً عليها عظيماً لان تلك البلاد مواجهة لها ومتصلة بها وهي مورد الارز الذي يعول عليهِ اليابانيون في الغذاء فاذا ملكتها روسيا اصبحت اليابان نفسها تحت تحكم الروس . ولذلك جعلت حكومة اليابان تخابر روسيا في الرجوع عن كوريا والوقوف على حدٍ معلوم في منشوريا فلم تعتدّ روسيا بها كثيراً لانها حسبت قوات اليابان دون الصحيح بمراحل وكان هذا هو الرأي الغالب في العالم المتمدن الى ذلك الحين فاضطرت اليابان الى اضرام نار الحرب قبل اعلانهِ رسمياً حسب عادة الدول وهجمت بخدعةٍ على مينا بورت ارثر فاضرت باسطولها ضرراً بالغاً وانقضت بوارجها على بارجتين صغيرتين كانتا في ثغور كوريا فاغرقتهما وعند ذلك هاجت روسيا وطفقت تسير الفيالق البرية عن طريق سيبيريا لمواقعة الاعداء وارسلت الاميرال مخاروف الى بورت ارثر ليقود قواتها البحرية وبدأ السير في حرب كبيرة دامت اكثر من سنة كان القائد العام فيها لدولة الروس الجنرال كورباتكين الذي تولى وزارة الحرب في بطرسبرج عدة سنين والقائد العام لليابان الجنرال اوياما . ولكن روسيا لقيت من المتاعب في هذه الحرب شيئاً كثيراً لانهُ لم يكن لجيوشها طريق الى الحرب غير سكة الحديد المنشورية ومركزها في خربين يبعد ١٥ يوماً عن عاصمة روسيا على الاقل . هذا غير ان اهل منشوريا كانوا اعداء لروسيا في الحرب وان اليابانيين اظهروا علماً بتلك البلاد وخبرة بما فيها يفوقان التصديق

وقد جرت في هذه الحرب عدة معارك بحرية وبرية فاما البحرية فمنها المعركة الاولى في ثغر بورت ارثر وقد ذكرناها ومعركة اخرى في شهر مارس من سنة ١٩٠٥ اصاب فيها بارجة الاميرال مخاروف نسافة اغرقتها وكان الاميرال المذكور في جملة القتلى . ومنها معركة في ١٠ اغسطس من تلك السنة حين حاول اسطول روسيا الافلات من ثغر بورت ارثر ففقد بعضَ بوارجهِ وتعطل البعض الاخر . وكانت آخر المعارك البحرية من المواقع المعدودة في تاريخ الامم وهي معركة بحر اليابان حدثت على مقربة من جزيرة تسوشيا حين التقى اسطول البلطيك لروسيا وقائدهُ الاميرال رودجفنسكي باسطول اليابان وقائدهُ الاميرال توجو فكان انتصار اليابانيين يومئذٍ عظيماً لان معظم الاسطول الروسي وقع في ايديهم . واما المعارك البرية فكانت كثيرة منها معركة نهر يالو عند حدود كوريا ومنشوريا حدثت في اوائل الحرب ومعركة

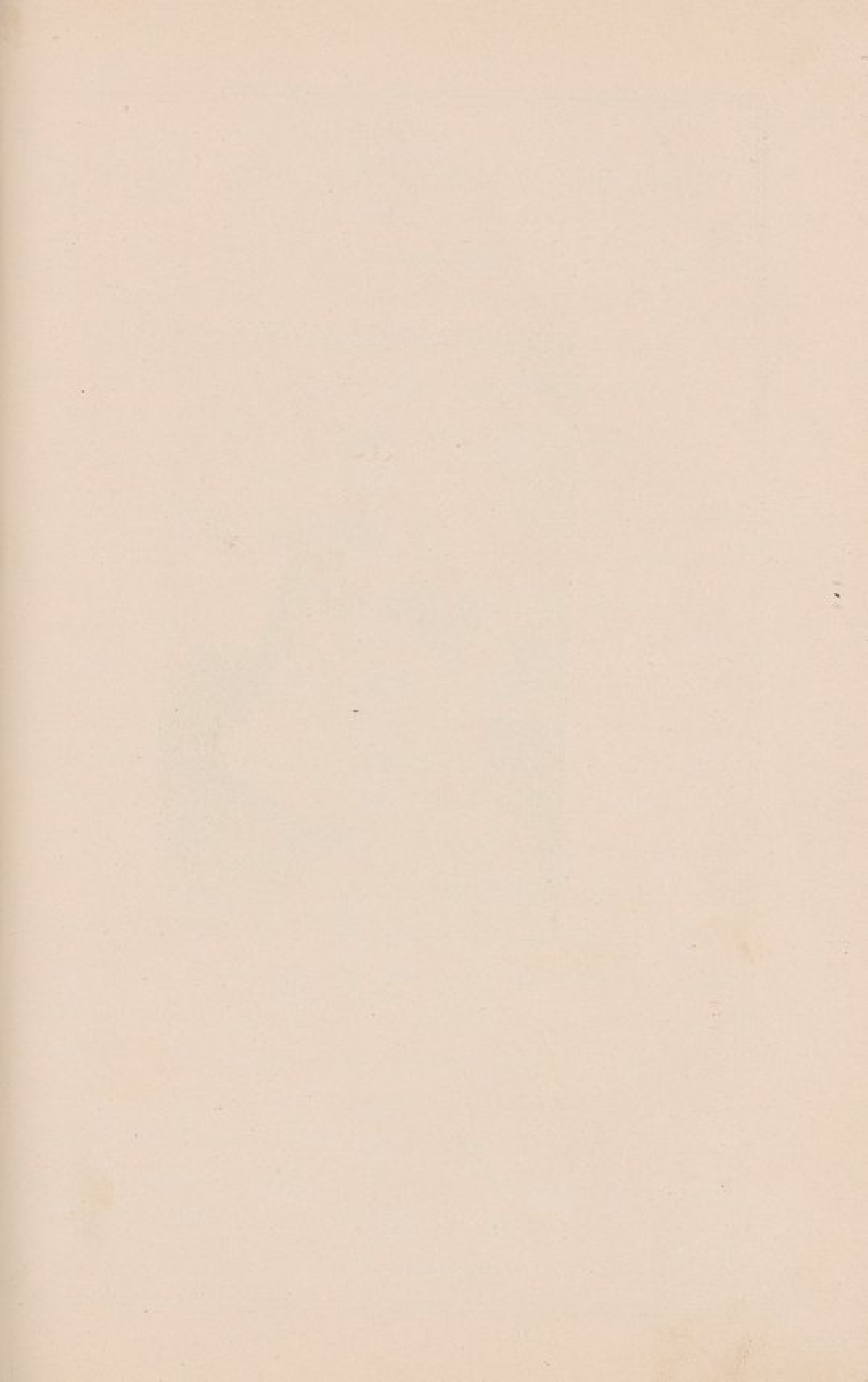
لياوتنج كانت من المواقع الكبرى والفوز فيها لليابانيين · ومعارك بورت ارثر وهي مدينة حصنها الروسيون واقام مئة الف جندي من اليابانيين على حصارها تحت قيادة الجنرال نوجي نحو عشرة اشهر ثم سلمت حاميتها حين قطعت الرجاء من وصول المدد اليها وقد حوكم الجنرال ستوسل قائد حاميتها كما حوكم الاميرال نبوجاتوف الذي سلم في معركة بحر اليابان لان قوانين روسيا الحربية لا تبيح التسليم للاعداء على اي حال فصدر امر المحكمة الحربية باعدام الرجلين وابدل القيصر هذا الحكم بالسجن في قلعة بولس وبطرس المشهورة في بطرسبرج ثم عفا عنهما مراعاة للسن والصحة بعد ٣ سنين

قلنا ان جيشاً قوياً من اليابان اقام على محاصرة بورت ارثر حتى اضطرها الى التسليم ثم انضمَّ الى الجيش الكبير الذي كان اوياما قائده في منشوريا فصارت قوة اليابانيين هنالك عظيمة قدرت بنحو ٤٥٠ الفاً وتقدمت على اهم مواقع الروس في مكدن وهي عاصمة منشوريا فحدثت هنالك معركة ربما كانت اكبر معارك التاريخ الحديث اشترك فيها نحو مليون محارب من الجانبين ودامت يومين ثم رأى القائد الرومي ان البقاء موضعهُ اصبح مستحيلاً نظراً الى تكاثر قوات الاعداء فارسل يخبر القيصر بتقهقره مرة اخرى واستعفى من القيادة العامة فخلفهُ الجنرال لنيفتش · ولكن الحرب وقفت بعد هذه المعارك الهائلة لان ام الارض بدأت ترى جسامة مصائبها فجعلت تسعى في الصلح وكان السابق في هذا السعي المستر روزفلت رئيس ولايات اميركا المتحدة سابقاً ففاز بالمراد ودعا مندوبي الدولتين الى بلاده لعقد الصلح · وقد تمَّ الصلح على شروط اهمها ان تعترف روسيا بسيادة اليابان على كوريا وتخلي لها بورت ارثر وتعيد الى الصين النصف الجنوبي من منشوريا وتتنازل لليابان عن نصف جزيرة سخالين ولكنها لم تدفع غرامة حربية وبهذا انتهت اكبر حروب القرن العشرين

على ان روسيا لم تنتهِ من هذه الحرب حتى وقعت فيما هو شر منها اذ ثارت في ارجائها القلاقل الداخلية وقام المطالبون بالدستور واهل الفوضى على الحكام والسراة فاودوا بكثيرين اعظمهم الغراندوق سرجيوس عم القيصر قتل في موسكو بقنبلة انفجرت تحت عربتهِ فحطمتها ومزقت الرجل تمزيقاً · والقيت قنبلة في منزل المسيو ستولبين رئيس الوزارة يومئذٍ فاودت ببعض الاعوان وجرحت ابنة الوزير وكثير من سواها · وما زال القوم في مطالبة بالدستور ومعظم رؤساء الدين والاشراف يقاومونهم حتى اذعن القيصر لرأي الامة وعمل بالمشهور عنهُ من حب الرعية فامر بانشاء مجلس نيابي اسمهُ الدوما واشراكهِ مع الحكومة في شؤون البلاد · ويبلغ عدد سكان روسيا مئة وخمسين مليوناً وهم يزيدون مليوناً ونصف مليون من النفوس كل عام فسيكون لها شأن عظيم في المستقبل



نقولا الثاني امبراطور روسيا



بطرسبرج

تعدُّ اليوم بمليونين من النفوس وقد اسسها القيصر بطرس الكبير على ما علمت في باب التاريخ وجعل موقعها على نهر النيفا وهو يخرج من بحيرة عظيمة اسمها لادوجا على مقربة من المدينة ويصب في البلطيق عند مدينة كرونستاد

كانت مدينة موسكو المشهورة عاصمة روسيا حتى قام بطرس الكبير ورأَى ان بعدها عن بقية انحاء اوروبا وعدم اتصالها ببلدان الغرب يضر ببلادهِ ولهذا انتخب موقع بطرسبرج ودعا اليها العملة الوفاً فكان يعمل في بناء المدينة نحو ٤٠ الف عامل مدة اعوام متوالية والاسوجيون يوالون الهجوم عليهِ حتى اضطرَّ ان يبني حصوناً تردُّ هجماتهم وتقي العمال شرَّ فعلهم ولم يزل ذلك الموقع حصيناً مشهوراً باستحكاماتهِ هو كرونستاد التي مرَّ عنها الكلام

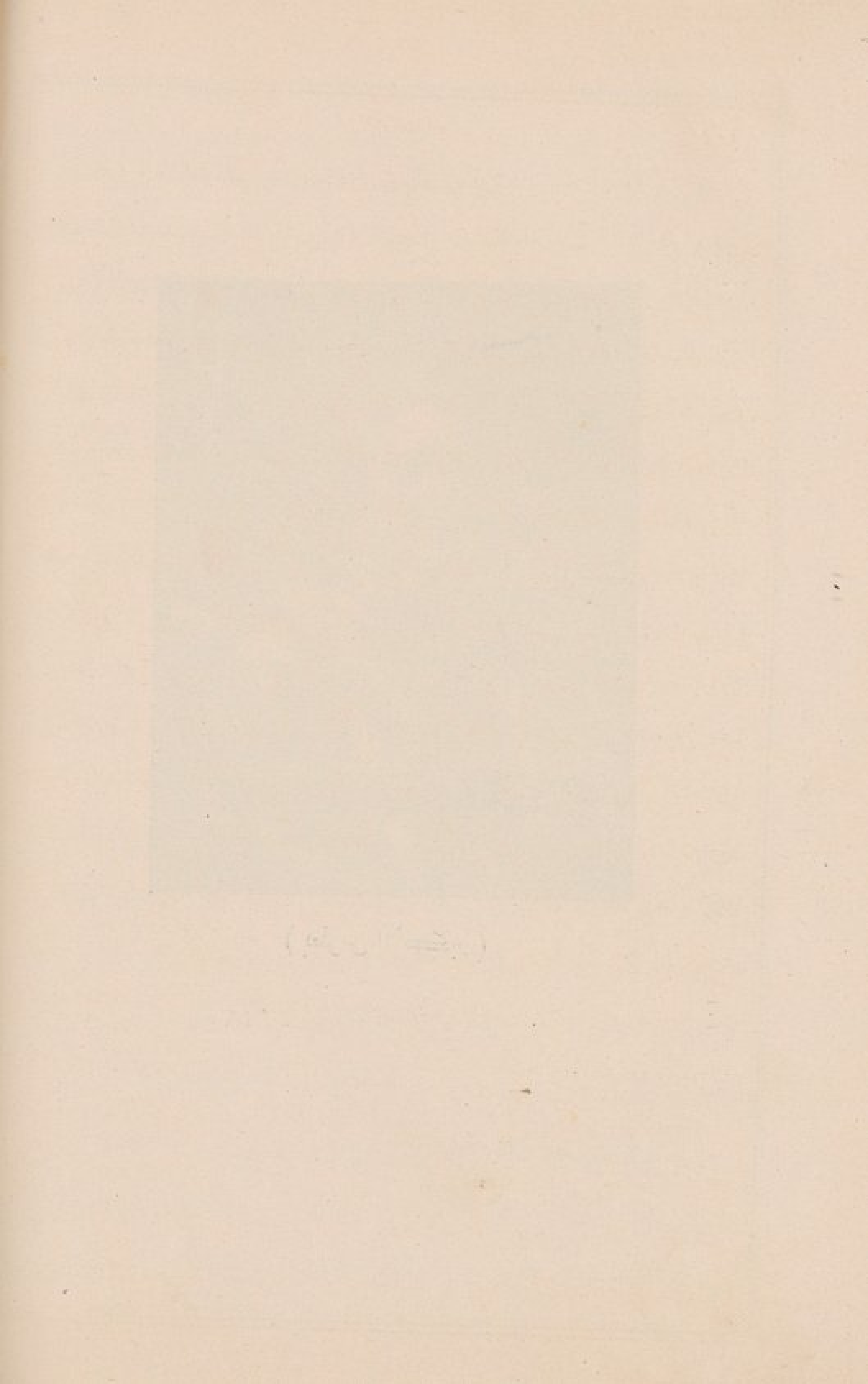
وبنى بطرس لنفسهِ كوخاً من الخشب في ذلك المكان وابدلهُ بعد ذلك بمنزل فخيم على ضفة النيفا فكان يراقب سير العمال ويرشدهم بنفسهِ ويدير امور المملكة من ذلك الموضع وكلما عسر عليهم امر فعلهُ بيدهِ حتى انهُ ليروى عنهُ انهُ جاءهُ عامل يشكو من ألم في ضرسهِ ويرجوهُ الاذن بالذهاب الى الطبيب فقام القيصر واقتلع ذلك الضرس بيدهِ حتى لا يغيب الرجل عن عملهِ زماناً ولم يزل الضرس محفوظاً في احد معارض العاصمة دليل اجتهاد هذا القيصر العظيم وكثرة مواهبهِ . وظلَّ الاسوجيون يهاجمون بطرسبرج الى ان سحق بطرس الكبير قواتهم في معركة بولتافا ومن ثمَّ تقدَّم العمل في بناء المدينة وتنظيمها حتى صارت من المدائن العظيمة وتقاطر السكان اليها من كل حدب بعيد

على ان تقاطر الناس للسكن في بطرسبرج لم يكن بغير عناء فان اهل موسكو وكيف وهما العاصمتان القديمتان لروسيا ما زالوا يحنّون الى وطنهم ويذكرون ما فيهِ من الكنائس والاديرة ومدافن القديسين وهم اهل تقى وورع مشهور كما يعلم القارئ فرأى القيصر ان يحوّل ميلهم الى مدينتهِ الجديدة بنقل عظام القدّيس نفسكي الذي يعتبرهُ المسكوبيون وليهم الاكبر من موسكو الى بطرسبرج وبنى لهذه العظام كنيسة وديرًا عظيمين ومدرسة يتلقى فيها رجال الدين العلوم اللاهوتية فمالت بعض النفوس الى الانتقال مع عظام هذا القديس وكان القيصر يلجأُ الى القوّة في بعض الاحيان لنقل العائلات وتعمير العاصمة الجديدة. وحوّل بطرس بعد موسكو نظرهُ الى كييف وهي العاصمة الاولى لروسيا فيها مدفن القدّيس اسحق الذي ادخل النصرانية الى البلاد وكانت يومئذٍ اشهر مدائن روسيا بمعابدها واديرتها فبذل القيصر جهدهُ وبنى للمهاجرين منازل من الحجر وحظر على كل المدائن الروسية ان تشيد منزلاً بالحجر حتى يتم بناء بطرسبرج وما زال على مثل هذا الجهد حتى عمر المدينة وغادرها حين وفاتهِ وفيها ٧٥٠٠٠ نفس ولم يكن هذا بالشيء القليل وقتئذٍ ولكن المدينة ظلّت على النماء والتقدّم حتى انها الآن من اشهر عواصم الارض واكثرها جمالاً وفخامة واعظمها مشاهد وابدعها نظاماً وهي مقرّ البيت القيصري والفيلق الاول من الحرس الامبراطوري ومركز تجارة روسيا من ناحية البطليق وليس في الارض مدينة تفوقها في القصور العديدة

وصلت هذه العاصمة العظيمة عن طريق كرونستاد وتوجهت الى فندق اوروبا وهو من الفنادق الكبيرة يمتاز عما سواهُ بتوسط مركزهِ ووقوعهِ في اشهر الشوارع اريد بهِ شارع نفسكي الذي سيجيءُ الكلام عنهُ وفيهِ من انواع المشاهد ما يعزُّ



(بطرس الاكبر)



نظيره . وقد اصبح موضع هذا الفندق محطة لقُطُر الترامواي وموقفاً للعربات الكثيرة نظراً لاهميتهِ يجتمع فيهِ خلق كثير من السائحين ومن اهل المدينة وضباطها وهم كثار العدد وقد كان قربهُ من المتاحف والمشاهد التي سيرد ذكرها داعياً كبيراً لتسهيل الرحلة عليَّ ودرس ما في بطرسبرج من آيات العظمة والاتقان.

وكان وصولي في مدة الصيف على ما تقدم والصيف هنالك قصير مدتهُ ولبطرسبرج هواءٌ واحوال جوية غريبة فان هذه المدينة نظراً لتطرفها في الشمال يطول زمان الشتاء فيها ويكثر البرد فتجمد مياهها ويصبح النهر والبحيرة الواحاً من الجليد تسير عليها العربات والجوع ومعظم القوم يلبسون الفرو الروسي المشهور مدة البرد ويتلثمون بانواع من القبعات كثيرة فلا يظهر منهم غير العينين اتقاءً للبرد ومضارهِ . واما الصيف فانهُ قصير الاجل لا يزيد عن ٦٦ يوماً في السنة اعني من ٧ يونيو (حزيران) الى ١٢ اوغسطس (آب) ولا يرى الناس في تلك المدة ظلام الليل الاَّ قليلاً لان النهار يطول والشفق يستمر معظم ساعات الليل فترى المدينة منيرة والشمس في كبد السماء عند الساعة الثالثة بعد نصف الليل والناس كلهم نيام لا حركة في المدينة ولا صوت للساكنين كأنما انت في مدينة خلت من اهلها ويذهلك ذلك بقدر ما يذهلك ظلام المدينة مدة النهار في اشهر الشتاء فان نور الصباح لا يظهر هنالك في فصل البرد الاَّ قبل الظهر بساعة ويغيب عند الساعة الثالثة بعد الظهر فترى المدينة في حركة كبرى وجدٍّ كثير والنواحي كلها منارة بالمصابيح في وسط النهار وهنا موضع للاستغراب ومزية لمدينة بطرسبرج على بقية العواصم المشهورة

وقد بنيت هذه المدينة على نهر النيفا كما تقدم وهو عظيم الاتساع ولكنهُ ليس من الانهر الطويلة يختلف عرضهُ ما بين ٢٦٠ متراً و ٦٥٠ وعمقهُ من ٣ امتار

الى ١٦ وهو داخل في العاصمة يقسمها سبعة اقسام ولهُ فروع واجزاء يتكون منها جزر تدخل في عداد احياء المدينة وتجعل لها رونقاً وبهاء كبيرين وقد مدوا في داخل المدينة ترعاً كثيرة لا يقل عديدها عن ٢١ بني فوقها ١٥٠ جسراً او قنطرة بعضها بالحديد والبعض بالحجر ولكلها نوع جمال ودقة في الصناعة يمرُّ فوقها الالوف مشاة وتجري العربات وقطر الترامواي واذا تجمد الماء من تحت هذه الجسور في الشتاء قلَّ مرور الناس عليها و كثر مشيهم على الجليد حتى ان العربات لتجري فوق ذلك الماء المتجمد ولا خطر عليها من الغرق . واما بحيرة لادوجا التي يخرج منها هذا النهر العظيم فتعد من اكبر بحيرات اوروبا مساحتها ١٨٠٠٠ كيلو متر مربع وطولها ٢٠٠ كيلو متر وعرضها ١٥٨ وهي جميلة المنظر يذهب اليها الناس للنزهة على تلك البواخر الكثيرة التي تروح وتجيءُ بين بطرسبرج وسواها ولهذه البواخر تسعة خطوط ينشأُ عن السير فيها حركة دائمة تدل الى اهمية المدينة وعظيم شأنها . وليس يقتصر الامر على هذه الخطوط البحرية فان في مدينة بطرسبرج خمس محطات للسكك الحديدية يسافر منها الناس الى الضواحي وداخلية البلاد وفيها ٢١ خطاً للترامواي ترى عرباتها ملأى بالمتنقلين من هنا ومن هنا في كل حين وهي اذا اضيفت الى الذي تراهُ من العربات في هذه المدينة كانت شيئاً يفوق الحصر ولا عجب فان بطرسبرج مسكن الامراء الفخام واهل السعة ورجال الادارة والاحكام و كبراء المتاجرين وسراة الروسيين

ولما كانت هذه العاصمة حديثة النشأة وقد بنيت على النظامات الاخيرة فهي ممتازة بانتظام اكثر شوارعها واتساع طرقها وميادينها وعدم وجود العوج والشذوذ في دروبها ويمكن ان يجتمع في ميدان واحد من ميادينها الكثيرة مائة الف نفس . وقد ساعدها على كل هذا وجودها في ارض منبسطة واتساع المجال من

ورائها فاهلها ليسوا في حاجة الى الحفر والردم ولا ابدال الاسوار القديمة والحصون بالطرق والمتنزهات كما فعل غيرهم في مثل ڤينا و برلين وباريس اذا ارادوا التوسع في دائرة المدينة فعندهم ارض للضواحي عريضة طويلة من كل جانب فلا عجب بعد هذا اذا اشتهرت بشوارع عظيمة فيها مثل شارع نفسكي الذي نقدم ذكرهُ لانهُ اكبر ما في هذه العاصمة من الطرق المعروفة طولهُ نحو خمسة آلاف متر وهو يمتدُّ في قلب المدينة من الشرق الى الغرب وفيهِ القصور الباذخة والمباني العمومية والكنائس الفاخرة والفنادق والمراسح والمخازن مملوءَة بانفس السلع واجود الابضعة فالناس ينتابون جوانبهُ الوفاً مؤَلفة في كل حين ويتنقلون في الشوارع التي تتفرع منهُ لقضاء الحاجات الكثيرة وهنالك يحلو التمشي للزائر لانهُ يرى عاصمة الروس بابهى مظاهرها وجميع ما تحوي من انواع الساكنين — هنالك يرى الزائر العربات صفوفاً صفوفاً تجرها الخيل الروسية المشهورة بكبر الخلقة وجمال المناظر ولا مثيل لها في خدمة العربات فهي يشتريها الناس لهذا الغرض من روسيا لجميع الاقطار ومعظم الجياد الكبيرة التي تدق الارض دقاً ولوقع حوافرها رنة وطنين يأْتي بها التجار من تلك البلاد . ويكثر ان تمرَّ هنالك عربات الامراء العظام من آل رومانوف وهم اصحاب الحكم في الدولة الروسية لهم املاك في هذا الشارع كثيرة وعدد البيوت التي يسكنونها لا يقل عن ماية في بطرسبرج وضواحيها لانهم عائلة كبيرة ولا كثرهم قصور منيفة ولهم رواتب من الدولة واراضٍ فسيحة تدر المال الوفير فاذا مرَّت عرباتهم في مثل شارع نفسكي وغيرهِ عرفها الناس من ملابس الساقة والخادمين لانها حمراء مزركشة بالقصب تحكي ملابس الغلمان الذين يقفون في خدمة العربات الخديوية في حفلات التشريفة الكبرى. والناس اذا مرَّ بهم واحد من اعضاء العائلة القيصرية ابدوا الاحترام الكثير لان هذه العائلة العظيمة

رفعت بلادهم الى اوج العظمة وامتاز افرادها بعلوّ النفس و كرم الاخلاق وسمو التربية حتى انهُ ليس في اوروبا كلها امراء يمتازون عن امراء الروس في حسن تربيتهم وعلو آدابهم وتمسكهم بالدين والفضائل

وليس يقتصر الامر على عربات الامراء والسراة واهل اليسار في شارع نفسكي فان عربات الاجرة المعروفة لا يقل عددها في تلك العاصمة عن ٢٤ الفاً وفيها فوق ذلك من اشكال الامنبوس والتراموايي ما يعسر عدهُ . هذا غير ان الذين يخطرون في هذا الشارع لهم مناظر جميلة مختلفة الانواع ومن اهم انواعهم الضباط من جيش روسيا واساطيلها وهم يلبسون الملابس الفاخرة تختلف الوانها باختلاف الآلايات التي يختصون بها ويغلب بينها اللون الاخضر الزيتي والقبعة السوداء تحكي الفرو في شكلها وهي تقرب من طرابيش الجراكسة في الجيش العثماني واما ملابس رجال الحرس القيصري فتبهر الانظار بجمالها و كثرة زخارفها لانها تكاد تكون من القصب والذهب ومن فوقها خوذة صفراء تسطع وتلمع وقد وضع في اعلاها تاج صغير مطلي بالذهب وفوقهُ صليب من الفضة فلا تشبع العين من النظر الى هذه الجنود وضباطها وهم كثار يخطرون او يمرون على ظهور الجياد فيستوقف منظرهم الابصار . ولا حاجة الى القول ان الجيش الروسي يمتاز بغير هذه الملابس ولهُ شهرة في البسالة والقوة لا تزيد عنها شهرة وقد تفردت هذه الدولة العظيمة بزيادة عدد الجنود الواقفة تحت السلاح في ارجائها الواسعة فهي مجندة الآن نحو مليون جندي وفي وقت الحرب لا يعسر عليها ان تجند عدة ملايين من الرجال

ويزيد منظر هذا الشارع جمالاً ان تلامذة المدارس الروسية يمرون فيهِ والعادة عندهم ان التلامذة يلبسون بذلاً تقرب من البذل العسكرية سواءٌ كانوا

من تلامذة المدارس الحربية او سواها ولكل مدرسة نوع من البذل فاذا مرت بك فرقة من طلبة العلم حسبتها نفراً من الجند وليس في بقية العواصم الاوربية مثل هذا النظام . هذا غير ان عمال الحكومة ومستخدميها الملكيين يلبسون ايضاً انواعاً معلومة من البذل لكل مصلحة او نظارة نوع خاص بها وقد اقتدت المصارف الكبرى والمحلات التجارية الواسعة بمصالح الحكومة فجعلت تميز عمالها ببذل خاصة بهم فكيفما اتجهت في عاصمة الروس رأيت اناساً يلبسون نوعاً لا يلبسهُ سواهم وزادت لذة التفرج على المارة في شوارع بطرسبرج بسبب هذا التنوع في الملابس والتفنن الذي يجهل الغريب سرهُ واما الواقف على الحقيقة فيمكن لهُ ان يعرف كل من مرَّ بهِ ببذلةٍ غير معتادة في اية المصالح هو وهذا ايضاً تمتاز بهِ بطرسبرج لا يقرب منهُ في المدائن الاوروبية الاخرى الاَّ ان يكون امتياز عمال البريد والتلغراف بالملابس الخاصة

ويرى المتأمل في هذا الشارع ايضاً عامة الروس وفلاحيهم يأتون من القرى والضواحي بهيئتهم المعروفة فيزيدون منظر المدينة غرابة والفلاح الروسي يُعرف بصفرة فوق بياض الوجه وقصر في القامة مع شيء من السمن ولحية كثير شعرها وراس كبير يلبس الجبة الكبيرة وحولها منطقة من الجلد وحذاء طويلاً يصل الى الركبتين فيفيدهُ في السير على الجليد وخوض السواقي الكثيرة وقبعة من الصوف او الفرو تشبه الطربوش الجركسي . وهو من ابسط الخلق حالاً واطيبهم قلباً واكثرهم ورعاً وتعبداً فقلَّ ان تلقى في الارض رجلاً يتمسك بدينهِ ويحترم رؤساء ملتهِ مثل الفلاح الروسي ولما كان القيصر رئيس الكنيسة الارثوذكسية في بلادهِ فالناس هنالك والفلاحون بنوعٍ اخص يحترمونهُ ويحبونهُ حب الرجل البسيط لمولاهُ ورئيس دينهِ وهذا سر عظمة القياصرة الروسيين وسبب صولتهم العجيبة ونفوذهم

الغريب . هنالك نرى ايضاً النساء الفلاحات وهنَّ عنوان صحة الجسم وبساطة القلب يرتدينَ جلباباً بسيطاً من الشيت الاحمر ويعتصبنَ بمنديل احمر فيشبهنَ نسوة الشام في القرى منظراً وهنَّ يأْتينَ مع الازواج لبيع الحاصلات في العاصمة او لمشترى الحاجات ويدرنَ في هذا الشارع حاملات صرراً من الملابس والزاد وهنالك ترى باعة الطعام يدورون بهِ منادين بلذتهِ ومحاسنهِ وآخرين يبيعون الاحذية او لعب الاولاد وفي بدء كل شارع قوم يبيعون الشاي وللروس ولع بشرب الشاي كما تعلم فهم والانكليز سواء في استعمالهِ غير ان الانكليز يشربون الشاي مع اللبن والروس يؤْثرون شربهُ بسيطاً او مع قليل من عصير الليمون. هذه كلها مناظر تعرض لك في شارع نفسكي اذا ما زرتهُ فتمثل لك حال الدولة الروسية بكل فروعها وتريك الفلاح البسيط الحقير والامير النبيل الكبير وتبسط امامك درجات الحياة الروسية كلها فتغنيك عن السياحة في داخلية البلاد وقلَّ ان تجد مثل هذه الاشكال المتنوعة في قلب مدينة عظيمة اوربية الاَّ ان يكون في الاستانة العلية وهي مشهورة بكثرة الاجناس التي ترى فيها والقاهرة وهي عاصمة قطر جمع ما بين اهل الغرب والشرق والشمال والجنوب فترى هنا الاوروبي والاميركي في شوارع مصر يمشي والى جانبهِ اسود الوجه من سنار او دارفور وقليل مثل هذا في عواصم الاوروبيين

والذي يقف في هذا الشارع العظيم يمكنهُ الوصول منهُ الى كثيرٍ من مشاهد بطرسبرج المشهورة . من ذلك كنيسة كازان (العذراء) الكاتدرائية ولها شهرة ذائعة في الخافقين فانها قائمة على ١٣٢ عموداً ضخماً من الرخام تشبه عمد كنيسة القديس بطرس في رومة وقد بنيت على النسق الكورنثي وهو الذي تحيط بهِ اعمدة كهذه ولها قبة من النحاس الاصفر قطرها عشرون متراً وقد طليت

بالذهب فكأنما هي ذهب خالص بما تشعُّ من الانوار وما يظهر لها من الجمال الساحر للانظار . والقبة هذه قائمة على عمد عددها ستة وخمسون قوائمها وتيجانها من النحاس الاصفر المغشى بالذهب ايضاً وفي جدرانها اعلام غنمها الروس في حروبهم الكثيرة مع الاتراك والنمسويين والالمان والفرنسيس والايرانيين والى جانب هذه الاعلام مفاتيح المدن التي دخلها جيش الروس عنوةً وضعت كلها تذكاراً لفعال الابطال الذين غنموها وعنواناً على فخر الامة بجيشها الباسل . واما هيكل الكنيسة وايقونسطاسها فقد صنعا من الفضة الخالصة وفي الكنيسة صور للعذراء كثيرة ورسوم أُخرى دينية . ولم يقتصر الروسيون على تحلية هذه الايقونات بالفضة والذهب بل هم رصعوها بحجارة الالماس الكبيرة (برلانتي) وهذا اتقان خاص بالروسيين دون سواهم

وفي هذا الشارع بعد الكنيسة المذكورة المكتبة القيصرية المشهورة وهي من اعظم مكاتب الارض في كثرة المجلدات ان لم تكن اعظمها فيها نحو مليون وستمائة الف كتاب مطبوع واكثر من اربعين الف كتاب بخط اليد وثمانون الف رسم متقن لجوانب الارض وكل هذه النفائس الثمينة في خدمة الذين يطلبون العلم من اهل البلاد وساكنيها . وبناء المكتبة واسع فخيم لهُ طبقتان وقد قسم اقساماً جمة بعضها للكتب الدينية والبعض للكتب الفلسفية او الطبية او الرياضية او غير هذا من مواضيع العلم والمعرفة وقد رأيت فيها كتباً عربية قديمة العهد منها ما كتب بخط اليد ومنها ما هو مطبوع وتوراة يونانية من الجيل الخامس وجدها الاستاذ تشندورف في دير طورسينا . وفي المكتبة أيضاً معرض لادوات الكتابة من اول امرها الى الآن واول كتاب روسي طبع في هذه السلطنة وغير ذلك من التحف التي لا تعد . وقد اسس هذه المكتبة العظيمة القيصر بطرس الكبير وعُنيت القيصرة

كاترينا الثانية بتحسينها من بعدهِ فانت كيفما سرت في انحاء المكتبة ترى رسوم هذا القيصر وهذه القيصرة اقراراً بفضلها واحياءً لذكر مآثرهما

والى جانب المكتبة هذه حديقة مشهورة في بطرسبرج تعرف باسم حديقة الكساندره انشأها القيصر اسكندر الثاني وجعلها تذكاراً لكاترينا الثانية وهي اعظم القياصرة بعد بطرس الكبير وقد نصب فيها تمثال هذه القيصرة في عنقها وسام القديس اندراوس اقدم وسامات الدولة الروسية وفي يمينها صولجان الملك وفي اليسار تاج ومن حولها تماثيل الرجال الذين اشتهروا بخدمة الدولة الروسية في ايامها سواءٌ في الحرب او في السياسة او في العلم والصناعة وكل ذلك صنع على اجمل نظام و بين اغراس وازهار بهية وطرق نظيفة مرصوصة بالحصى تزيد منظر تلك الحديقة رونقاً و بهاءً

وفي آخر هذه الحديقة مرسح الكساندره وهو من المراسح الكبيرة قائمٌ على عمدٍ كورنثية ولهُ قاعة من داخلهِ تضم الفي سامع للتمثيل . وللروس ميل الى الروايات الفرنسية فهم يستحضرون الاجواق الكبيرة من فرانسا و يدفعون اليها المال الطائل فوق الذي تمدهم بهِ الحكومة من الصلات . وليس يقتصر حب الروسيين على الروايات الفرنسية بل هم مغرمون باداب اللغة الفرنسية كلها واهل الطبقة العليا منهم يتكلمون هذه اللغة كما يتكلمها اصحابها وهم يستعملونها في بيوتهم ومع صحبهم وخلانهم كانما هي لغة اجدادهم و يقرأون المؤلفات الفرنسية كما يقرأها اهل فرانسا ويؤلف كثيرون منهم بهذه اللغة فلا يجهلها غير الفلاحين والخدمة من الروسيين . وقد تأصل فيهم هذا الميل من عهد بطرس الكبير الذي استعان باساتذة من الفرنسيس على تمدين بلادهِ وزاد من جيل الى جيل

وفي هذا الشارع قصور عديدة للامراء والسراة لا يستفيد القارئُ من عدها

واشهرها قصر نقولاي كان جلالة القيصر الحالي يقيم فيهِ مدة كان ولي العهد
وينتهي هذا الشارع بدير نفسكي الشهير وهو مقام رئيس الاساقفة واعظم اديرة
روسيا شهرةً وثروة يعدُّ احد الاديرة القيصرية وهي ستة منها ثلاثة في روسيا
اولها دير نفسكي هذا والثاني في ترويستا والثالث في كييف وثلاثة في الخارج هي
دير طورسينا ودير اورشليم ودير اثوس عند مدخل الدردنيل في بلاد الدولة
العلية . ودير نفسكي هذا مبني على شكل حصن عظيم تحيط بهِ الخنادق والاسوار
القوية وهو اغنى اديرة روسيا بما لهُ من الاوقاف وما فيهِ من الكنوز والذخائر بدأ
بهِ بطرس الكبير على مثل ما تقدم ووهبتهُ الامبراطورة اليصابات سنة ١٧٥٢
ما استخرج من الفضة مدة سنة كاملة من مناجم روسيا التي اكتشفوها وقتئذٍ فبلغ
ذلك ١٨٠٠ كيلو واهديت اليهِ هدايا لا حصر لها ولقيمتها فزينت كنيستهُ
بالذهب في اكثر جوانبها وعلقت فيها الايقونات الثمينة المرصعة وملئت جوانبها
بالمصابيح الفاخرة والنقوش البديعة حتى ان منظر هذه الكنيسة في داخل الدير
ليعدُّ من اجمل ما تراهُ العين . والى يمين الكنيسة قبر القديس نفسكي الذي نقلهُ
بطرس الكبير من موسكو وقد صنع القبر من الفضة الخالصة وفوقهُ انجيل مغشى
بالفضة وصليب من الذهب وامامهُ شمعدانان كبيران من الفضة هبة القيصر
اسكندر الاول وتحف اخرى لا محل لذكرها . وعيد هذا القديس من الايام
المشهورة في روسيا تقام لهُ صلوات ويحضر القيصر بنفسهِ صلاة العيد في كنيسة
هذا الدير واكثر الاحيان يتناول الغداء مع رئيس الاساقفة بعد الصلاة في منزلهِ
الكائن داخل سور هذا الدير العظيم . وفي فناء الكنيسة مدافن لبعض امراء
الاسرة القيصرية واشراف الدولة الروسية وهو بوجه الجملة من المشاهد العظيمة في
هذه العاصمة

على ان الذي مرَّ كلهُ لا يذكر في جنب القصر الشتوي المشهور وما لهُ من الاهمية الكبرى في مدينة بطرسبرج فان الواقف في الميدان المتسع امام هذا القصر الباذخ يرى اعظم المساكن القيصرية ويرى متحف ارمتاج وقصر اركان الحرب ونظارة الخارجية ودار وزارة البحر وندوة الاعيان والمجمع المقدس وكلها تشرف على نهر النيفا حيث بني رصيف عظيم الى جوانبهِ سفارات الدول الكبرى وقصور الامراء العظام حتى اصبحت تلك البقعة مركز روسيا وقلبها ونقطة السؤدد والفخامة فيها فليس يخفى ان حكومة روسيا مطلقة غير مقيدة وللقيصر في امورها القول الفصل غير ان جلالتهُ يعمل في مهام الدولة برأي مجلس الاعيان وهو مركب من وزراء البلاد وكبرائها واصحاب الشأن الخطير فيها وبرأي الدوما ايضاً او مجلس النواب . والمجمع المقدس يفصل في الامور الدينية كلها ولهُ رأي في المسائل الادارية الكبرى ايضاً يرأسهُ القيصر كما انهُ يرأس مجلس الاعيان فلا عجب اذا قلنا ان القوة والعظمة في روسيا تنحصران في تلك البقعة التي بني فيها القصر الشتوي وما ذكرنا من القصور الاخرى

ولطالما سمعت بشيم هذا القصر وبدائع صنعهِ وتاقت النفس مني الى رؤْيتهِ فاوصيت الدليل بعد استقراري في عاصمة الروس ان يأْخذني اليهِ فقام بالامر وجاء في احد الايام باذن يمكن لنا بهِ دخول القصر وهو ذات ابواب ومداخل عدة منها ما خصَّ بآل البيت القيصري ومنها ما اعدَّ لسفراء الدول ومنها باب لوزراء الدولة الروسية وقوادها يدخلون لقضاء المهام وتلقي الاوامر العالية ومنها باب لعامة الناس والسائحين دخلناهُ والهيبة ملءُ الفؤَاد لما رأينا من عظمة البناء في خارجهِ فان هذا القصر واسع عظيم الهيئة لهُ اربع طبقات بنيت كلها على عمد متناسقة من الرخام وفوق عمدهِ ونوافذهِ وابوابهِ آيات من النقش والزخارف

وضعت على نسق ترتاح لمرآهُ النفس ويحدث بعظمة البانين وبالمال الطائل الذي
انفق على تشييد مثل هذا البناء العظيم . وارتقينا من ذلك الباب سلّماً عريض الذرى
صنعت كلها من الرخام الابيض النقي حتى انتهينا الى بهوٍ عظيم يعرف بقاعة
اسكندر وهي قاعة فسيحة عظيمة قامت على عمدٍ من الرخام يتوّج كل عمود منها
نقش دقيق وقد اعدت من عهدٍ بعيد لذكر مجد الدولة الروسية في الحروب واحياء
الذكر لابطالها وقوادها المشهورين ففيها ٢٥٠ صورة محكمة الصنع تمثل اولئك
القواد من ايام القيصرة كاترينا الثانية الى هذا العهد وهنالك يستقبل القيصر
امراء البحر وقواد الكتائب من رجال اسطولهِ وجيشهِ فيرى القادم صورة اولئك
الرجال وصوراً اخرى تمثل بعض الحوادث العظيمة مثل دخول الروس مدينة برلين
سنة ١٧٦٠ وباريس سنة ١٨١٢ وحصار وارنا سنة ١٨٢٨ واستيلائهم على ارضروم
سنة ١٨٢٥ وغير هذا من الحوادث التي يفخر الروس بمثلها . وفي صدر هذه
الرسوم كلها رسم بطرس الكبير بقدهِ الطبيعي وضع في برواز غالي الثمن وكل
ذلك يذكر الرائي بمجد الامة الروسية وفعال ابطالها في الحروب

وقاعات هذا القصر العظيم اكثر من ان تعدّ هنا ولا مجال لوصف شيء منها
غير القليل اذكر منها قاعة الكساندره كلها بيضاء مذهبة لمنظرها تأثير يفرح النفوس
وينعش الصدور وقد زاد بهاؤُها في ان ادوات النور من الشمعدانات والثريات
فيها صنعت من اللازورد الغالي الثمن ومقاعدها وكراسيها محلاة بالذهب الوهاج
وملبسة بالحرير الابيض من احسن انواعهِ . وتليها قاعة بطرس الكبير وهي حمراء
اللون كسيت جدرانها ومقاعدها بالمخمل الاحمر وفيها رسم هذا القيصر العظيم
تحيط بهِ الملائكة وشعار الدولة الروسية صنعت بماء الذهب ولها منظر فائق الجمال .
وفي صدر هذه القاعة عرش القياصرة وهو مقعد كبير من الذهب مرصع بالحجارة

الكريمة لا يقعد فيهِ القيصر الاَّ مرة او مرتين في العمر . وقد اعتاد القياصرة في المدة الاخيرة استقبال سفراء الدول في هذه القاعة يوم رأس السنة وهو الاستقبال الذي يقول فيهِ القيصر شيئاً عن سياسة الدول ويرنُّ صداهُ في كل الاقطار

ومن هذه القاعات العجيبة قاعة القديس جورجيوس قائمة على عمد من الرخام بديعة وفيها الثريات والمصابيح العديدة وهم يحتفلون بعيد هذا القديس في القاعة المذكورة كل عام . وقاعة الرقص كلها زخارف ومرائي نقية وهي قائمة على ستين عموداً مذهبة القواعد والرؤُوس ولها ارض من خشب الورد المصقول يحكي المعدن اللماع في صقالتهِ . وقاعة الطعام يمكن ان يتناول الطعام فيها ٣٠٠ نفس وفيها خزائن وضعت ضمنها الآنية الفاخرة من الصيني النادر المثال والبلور الثمين والاشياء المصنوعة من الفضة والذهب وفي جملتها ممالح اهديت الى قياصرة الروس من الامراء الخاضعين لهم ولم يزل القياصرة يقتبلون يوم تتويجهم خبزاً وملحاً من رعاياهم علامة الخضوع وهي عادة قديمة تمسكوا بها ومن طبعهم الاحتفاظ بالقديم والنفور من التغيير السريع

ودخلت بعد هذا قاعة كان القيصر اسكندر الثاني الذي قتلهُ النهلست يتناول الطعام فيها وعلمت يومئذٍ قصة يعدها بعض الروسيين من غرائب العناية الالهية بذلك القيصر فان النهلست وهم فئة من اهل البلاد يكرهون العائلة المالكة وحكمها ويكيدون لها المكايد قصدوا قتل اسكندر الثاني بنسف هذه الغرفة بالديناميت مدة وجودهِ فيها ونجحوا في امرهم الى حد انهم وضعوا الديناميت تحت اساسات الغرفة التي يقيم فيها الحرس وهي واقعة تحت غرفة الطعام التي نحن في شأْنها فنسفت غرفة الحرس وقتل من هؤُلاء الخدام الامناء سبعة عشر رجلاً والغرفة التي كان جلالتهُ فيها تهدمت برمتها وتحطم كل ما فيها ولم يسلم من هذا

الهول الأ شخص القيصر فكان ذلك داعياً للاستغراب والشكر الكثير . ولكن هؤلاء الاشرار ما زالوا يعملون على الايقاع باسكندر الثاني حتى قتلوهُ في الطريق يوماً خرج فيهِ لزيارة شقيقتهِ وكان من عادتهِ الاشتغال في غرفة بهذا القصر بسيطة الرياش والادوات فابقوها على حالها الى الآن ودخلتها فاذا بالمنضدة التي كان يجلس اليها وعليها اوراقهُ كما تركها يوم اغتيالهِ وكرسي من الخشب لهُ مقعد من الجلد يدور مع القاعد كيفما اراد وقد وضع امام المنضدة ووجههُ الى ناحية الباب كما تركهُ صاحبهُ ساعة خروجهِ وهنالك شمعتان ذاب نصفهما وسيجارة أُشعل طرفها وورقة بدأ القيصر بالكتابة عليها ولم يكملها والكل في حالة تمثل لك اسكندر الثاني كانما هو باقٍ الى اليوم وقد خرج وترك غرفتهُ على هذه الحالة ليعود اليها بعد حين

وقصدت بعد ذلك الحمام التركي في داخل القصر وهو على شاكلة الحمامات الشرقية التي يكثرون من بناء مثلها في اوروبا ويطلقون عليها اسم الحمامات التركية فرأيت على بابهِ اشعاراً تركية وستاير عليها كتابات بمعنى نعيماً وهنيئاً والحمام كلهُ آية في الانقان والجمال بني اكثرهُ من الرخام الابيض الثمين

والعائلة القيصرية قدوة للامة الروسية كلها في الورع والتدين فلا يفوت افرادها حفلة عامة للصلاة ولها تمسك بالدين الارثوذكسي مشهور حتى ان امراء الروس لا يجوز لهم الاقتران باميرة غير ارثوذكسية ولا بدَّ للاميرة الاجنبية من اعتناق المذهب الارثوذكسي قبل الاقتران بواحد منهم وهذا الذي جرى لجلالة القيصرة الحالية والقيصرة الاخيرة وكثيرات غيرهما . ولما كانت هذه منزلة العبادة عندهم فهم اقاموا في داخل القصر الشتوي الذي نحن في شأنهِ كنيسة بنيت على اسم العذراء تقام فيها صلوات عامة في بعض المواسم والاعياد الكبرى وقد وضعوا

على باب هيكلها صورة للعذراء ثمينة مرصعة بالالماس والياقوت والزمرد وبعض هذه الحجارة يساوي الوفاً من المال . وهنالك خزانة غالية الثمن وضعت فيها عظام يقولون انها بعض عظام مار يوحنا المعمدان ومريم المجدلية وقد ارسلت الصورة والعظام الى قياصرة الروس من فرسان مالطة المشهورين اعترافاً منهم بفضل القياصرة على اهل النصرانية عامةً . ويحتفل في هذه الكنيسة بقداس عظيم يوم عيد الغطاس من كل سنة يحضره القيصر وامراء البيت القيصري وكبراء السلطنة ورؤساء الدين وقواد البر والبحر وبعد الصلاة يسير القيصر في جمع غفير من الشعب ورجال الحرس الامبراطوري الى نهر النيفا وتنصب فوق الجليد مظلة كبيرة يحتفلون تحتها بصلاة يحمل فيها رئيس الاساقفة صليباً يغطسهُ في الماء المصلى فوقهُ ويرش بهِ القيصر واعضاء عائلتهِ وبقية الحاضرين ثم يأخذ كل واحد شيئاً من ذلك الماء المصلى فوقهُ في زجاجةٍ ويبقيهِ في بيتهِ للتبرك وقد رأيت منهُ زجاجة في غرفة القيصر نقولا الاول باقية في هذا القصر من ايام الامبراطور المذكور

واجمل ما في هذا القصر العظيم واثمنهُ قسم منهُ خصص لجواهر القياصرة ونفائس التحف النادرة المثال وقد وضعت هذه المجوهرات الثمينة في غرفةٍ متينة ابوابها من حديد يقوم بحراستها اثنان من ضباط الحرس الامبراطوري فاذا أُذن لاحد الناس بالدخول اليها دخل معهُ الضابطان واوصدا من ورائهِ الابواب فيرى من غالي الحجارة الثمينة ما يبهر الانظار ويسحر الافكار في جملة ذلك حجر من الالماس عظيم القدر والقيمة قيل انهُ كان في عين معبود للهنود في مدينة دلهي اسمهُ المغول الكبير وكان في العين الثانية الحجر المشهور باسم « كوهِ نور » اي جبل النور وهو الان في حوزة الدولة الانكليزية والحجران من اثمن جواهر الارض طرًّا واعظمها جمالاً . ويقال في كيفية وصول ذلك الحجر الى قياصرة الروس ان هندياً

سرقهُ من عين الصنم وفرَّ بهِ الى مدينة مالابار في جنوبي الهند فلقيهُ ربان لسفينة بورتغالية واشترى الالماسة منهُ بالفي جنيه ولما عاد الى اوروبا باعها لتاجر اسرائيلي باثني عشر الف جنيه وباعها التاجر لصائغ ارمني في مدينة امستردام بهولاندا وهي مشهورة من قدم بصناعة الالماس وطرائق قطعهِ ونحتهِ وصقلهِ وكان هذا الصائغ الارمني روسي التبعة اسمهُ لازاريف فعرف بالامير الكونت اورلوف وهو يومئذٍ من كبراء الدولة الروسية واصحاب الثروة الطائلة فيها فاستقدم اليهِ الصائغ واشترى الجوهرة منهُ بنصف مليون ريال روسي ومعاش سنوي لذرية البائع مقدارهُ الفا ريال . ثم حمل الكونت ذلك الحجر الى القيصرة كاترينا الثانية وقدمهُ هدية لها ووزنهُ ١٥٨ قيراطاً فهو من اكبر الجواهر حجماً ووزناً . وللحجر الآخر الذي كان في عين الصنم بدلهي قصة اخرى تحكي هذه فان الفاتحين من ملوك ايران مثل نادرشاه ومحمود الغزني استولوا عليهِ مدة ثم عاد الى قبضة سلاطين دلهي حتى اتيح للانكليز دخول الهند والاستيلاء على بعض خزائنها فكان هذا الحجر الثمين اكبر ما احرزوا من الجواهر واعظمها فارسلوهُ الى امستردام ليضلع ويقطع . وكان الامير الهندي دوليب سنغ الذي أُخذ هذا الحجر من خزائنهِ بعدان طردهُ الانكليز من مملكتهِ لا يتحسر على شيء قدر تحسرهِ على تلك الجوهرة الثمينة واشتهر هذا الامير بالتجائهِ الى روسيا وعمل الدسائس الكثيرة ضد انكلترا فلما اخفق سعيهُ ورأى ان الحكمة في التسليم للقوة طلب الصفح من الملكة فكتوريا فصدر امرها بالعفو عنهُ ولما جاء لمقابلتها بعد العفو قال لها اني ارجو جلالتكِ في امرٍ صغير قالت ما هو قال ان تسمحي لي بنظرة من كوهِ النور او هي تلك الالماسة العظيمة فاني اشتاق لرؤيتها اكثر من شوقي لرؤية الوطن والخلان فامرت الملكة باحضار الجوهرة وقدمتها اليهِ فاخذها بيدهِ وجعل يقلبها ويعجب بباهر نورها ثم ردها الى الملكة قائلاً اني بكل

احترام اقدم هذه الهدية العظيمة الى امبراطورة الهند وملكتي المعظمة فقبلتها الملكة باسمة شاكرة وانصرف الرجل . وابن هذا الامير الهندي اسمهُ البرنس فكتور دوليب سنغ ربي في انكلترا واقترن بابنة اللورد كوفنتري احد اشراف الانكليز من عهد غير بعيد

على اننا في حكاية الجواهر التي رأيناها في خزائن القصر الشتوي العظيم فمنها ايضاً تاج قيصري صنع سنة ١٧٦٢ وتوجت بهِ الامبراطورة كاترينا الثانية في اعلاهُ صليب مرصع بحجارة الالماس النقي كبيرة بحجم البندق والنور يسطع منها شعاعاً شعاعاً وقد وضع هذا الصليب فوق ياقوتة حمراء كبيرة فاخرة يحيط بها ١١ حجراً من الالماس النقي . وعند حافة التاج مما يلي الجبين لؤلؤة عظيمة المقدار يحيط بها ٢٦ حجراً من الالماس وفيهِ جواهر اخرى نسقت تنسيقاً بديعاً حتى اصبح ذلك التاج مجموع جواهر كأنما هي مصابيح تتوقد انوارها وجمالها يفوق الوصف ولا عجب فان ثمن هذا التاج الغريب خمسة ملايين ريال وقليل بين تيجان الملوك ما كان مثلهُ . وفي جملة هذه المجوهرات كرة من الذهب الخالص تمثل الكرة الارضية فوقها صليب مرصع باثمن الجواهر يحملها القياصرة في اليسار يوم تتويجهم كما يحملون صولجان الملك في اليمين . وهذا الصولجان من الذهب الخالص يبلغ طولهُ ٣ اقدام وفيهِ ٢٦٨ حجراً من الالماس و٣٦٠ من الياقوت و١٥ من الزمرد . هذا غير المجوهرات والحلى والحجارة الاخرى التي اشتراها امراء الروس وقياصرتهم او اهديت اليهم وهي محفوظة في هذا القسم الثمين من القصر الشتوي الذي لا يفوقهُ قصر في اوروبا كلها في جمال متاحفهِ و كثرة كنوزهِ ونخامة بنائهِ واتساع قاعاتهِ و بدائعهِ الاخرى

وقد اطلت المقال في وصف هذا القصر وصرت اخشى ان يعتري القارئ

الملال ولولا ذلك لاسهبت في وصف حديقتهِ الغريبة وهي في الطبقة الثانية من البناء وفي ذلك غرابة لاتخفى . يكفي ان يقال اني قضيت هنالك ثلاث ساعات متواليات انتقل من غرفة الى غرفة فلا أرى شيئاً الاّ قلت هو ابدع ما نظرت من نوعهِ حتى اذا بصرت بغيرهِ زدت اعجاباً فوق اعجابي الكثير وما خرجت من ذلك القصر الفخيم الاّ وفي النفس رهبة لعظمة القياصرة وطرب بجمال ما رسخ في الذهن من المناظر الشائقة واعجاب بما وصلت اليهِ يد الصناعة الدقيقة وما تمكن سادة هذه السلطنة من جمعهِ في تلك القاعات وهو شيء يعجز عن مثلهِ كبار الملوك وتقصر عن امتلاك بعضهِ الدول الكبيرة . كل هذا وهم يقولون لك ان بين قصور القياصرة ما هو اعظم من هذا وافخم مثل قصر بترهوف وقصر تسارسكوي سيلو مما سنعود الى ذكرهِ

والى جانب القصر الشتوي متحف للصور عظيم يعرف باسم ارمتاج وهو بناء فخيم ملتصق بالقصر المارّ ذكرهُ طولهُ ١٥٦ متراً وعرضهُ ١١٣ وجهتهُ الشمالية تشرف على نهر النيفا والجنوبية تطل على ميدان القيصر . دخلنا هذا المتحف من باب قائم على عمد من الرخام عدتها ستة عشر والبناء كلهُ فيهِ من هذه العمد الجميلةماية واربعة وهو مشهور من قدم عني قياصرة الروس بامرهِ واحداً بعد واحد واحضروا اليهِ اثمن ما امكن لهم امتلاكهُ من الصور البديعة حتى بلغ عدد رسومهِ الآن ٢٠٠٠ صورة من صنع اشهر المصورين في اوروبا انفق عليها مال طائل من ذلك ان كاترينا الثانية وهي مؤسسة هذا المتحف اشترت سنة ١٧٦٣ مجموع صور من تاجر الماني عددها ٣١٧ ودفعت ثمنها مايتي الف ريال . وكان الرجل قد جمع هذه الصور ليبيعها لفريدريك الكبير ملك بروسيا فما قدر الملك على ابتياعها بسبب ما انفق من المال على الحرب . واشترت هذه الامبراطورة بعد ذلك مجموعة

المار كيز كروزات احد رجال البلاط الفرنسي في دولة الملك لويس الخامس عشر ومجموعة روبرت وولبول الانكليزي باربعين الف جنيه واشترى القيصر اسكندر الاول مجموعة من جوزفين زوجة نابوليون الاول بمليون فرنك ونقولا الاول اشترى صورة واحدة للعذراء من صنع روفائيل المشهور بمبلغ ثمانية آلاف جنيه ومن هذه الامثلة تعلم مقدار ما في متحف ارمتاج من الصور الثمينة . وقد قسمت الرسوم اقساماً ووضعت في مواضع مرتبة وطبعت لها جداول و كتب وهي كثيرة الاشكال لا يمكن الاشارة اليها بغير الايجاز لا سيما وانها تحكي ما في المعارض الاخرى للصور من رسوم تمثل حوادث التوراة والانجيل اذكر منها صورة احتراق سدوم وعمورة وقد انقضت عليهما النار من السماء انقضاضاً هائلاً اشعل جوانبهما وارجف اهلهما خوفاً حتى انك لترى الاولاد وقد تولاهم الرعب فارين ممسكين باذيال والديهم والرجال ينظرون الى السماء وقد تفطرت قلوبهم جزعاً وخوفاً . ومن ذلك صورة فرار لوط واهل بيتهِ من هذه النار المحرقة بناء على ما اوحي اليهِ وهي مما يمثّل للناظر حالة الناس في تلك الحوادث المشهورة ويزيدها رسوخاً في الاذهان . وهنالك صور معارك وحوادث معروفة واشخاص نوابغ ومناظر طبيعية تنشرح لجمالها الصدور

وليس يقتصر الامر في هذا المعرض على الصور والرسوم بل ان في الدور الاول منهُ تماثيل واشكالاً تمثل تاريخ الامم القديمة وهي كثيرة لا موضع لوصفها . وفيهِ قسم للآثار اليونانية القديمة اكثروا فيهِ من وضع الادوات والآلات البيتية بعضها من الفضة وبعضها من الذهب . وفي المعرض ايضاً قسم عظيم للنقود لا يقل مجموع القطع التي عرضت فيهِ عن مائتي الف قطعة قسمت الى روسية واجنبية وقديمة وحديثة . فالقسم الروسي فيهِ جميع انواع النقود الروسية من اول عهدها

الى هذا اليوم والقسم الاجنبي فيهِ نقود الممالك الغربية والممالك الشرقية والنقود القديمة عندهم شأن عظيم

ويلحق بهذا المعرض العظيم معرضان آخران احدهما على اسم بطرس الكبير والثاني على اسم كاترينا الثانية وقد وضعوا في المعرضين شيئاً كثيراً من آثار هذين المليكين العظيمين ولاسيما الذي صنعهُ بطرس الكبير بيدهِ او كان يستعملهُ مدة حياتهِ من ذلك علب للسعوط بعضها من الخشب البسيط وبعضها من المعادن الثمينة مرصع بالحجارة الكريمة وادوات رياضية زاول العمل بها اعواماً طويلة ومركبة من صنعهِ وقفص داخلهُ شجيرة فوقها ديك والكل من ذهب وغير هذا شيء كثير. واما الاشياء المحفوظة في معرض كاترينا الثانية فاكثرها ملابس وآثار من ايام تلك الملكة العظيمة

وخرجت من هذه المتاحف الى ميدان القصر وهو واسع بعيد الأطراف فارتحت الى منظرهِ الفسيح بعد التنقل بين الآثار العديدة كل تلك الساعات الطوال وفي هذا الميدان عمود للقيصر اسكندر الاول اقامهُ القيصر نقولا الاول سنة ١٨٣٤ تذكاراً لسلفهِ وهو من افخم الاعمدة التي نصبت لمثل هذه الغاية واطولها كلهُ من الرخام الاحمر المصقول جاؤوا بهِ من بلاد فنلاندا وقاعدتهُ رخام ابيض بهي المنظر وفي اعلاهُ كرة من النحاس كبيرة ملبسة بالذهب وفوقها رسم ملاك باسط جناحيهِ وقد رفع يداً الى السماء وامسك باليد الأخرى صليباً كبيراً من النحاس المذهب. ولذلك الميدان بهاء يزيدهُ بهاء القصور المجتمعة حولهُ مثل القصر الشتوي وهذه المتاحف وقصر اركان الحرب وهو بناء فخيم ذو ثلاث طبقات لها ٧٦٨ نافذة تطلُّ على الميدان. وفي جوانب هذا البناء وزارة المالية ووزارة الخارجية « والدفترخانة » الروسية وهي جامعة لشيء كثير من الاوراق الرسمية

والتقارير عن الحروب الحديثة . ومن تحت هذا البناء سرداب واسع وباب كبير يمكن الوصول منهُ الى شارع نفسكي وفوق الباب تمثال مارس اله الحرب صنع من النحاس تجر مركبتهُ ستة من الجياد . وقد دخلت وزارة البحرية فالفيتها قصراً باهياً باهراً دهن باللون الاصفر في خارجهِ ما خلا الاعمدة والاركان فانها بيضاء. وفي اعلاه نُصُب واعلام قيصرية وتمثال بطرس الكبير مؤسس هذه الوزارة يتناول من نبتون اله البحر خطافاً مثلث الزوائد وفوق الباب برج علوهُ ٧٥ متراً في اعلاهُ سهم مذهب يناطح السحاب وينتهي السهم بشكل تاج ومركب . وفي هذه الوزارة غير المواضع المعدة للاعمال الرسمية غرف للمدرسة البحرية ومكتبتها ومتحفها وفيها رسوم بحرية لا تعدُّ ترى في اولها رسم بطرس الكبير وبعض السفن التي صنعها بيدهِ وصورتهُ في معركة ازوف البحرية التي اشرنا اليها في الخلاصة التاريخية وغير هذا كثير

وسرت من هذه الوزارة الى ميدان بطرس الكبير فرأيت فيهِ تمثالهُ العظيم الذي اقامتهُ كاترينا الثانية واستقدمت لصنعهِ مهندساً فرنسياً اسمهُ فالكونه فرسمهُ راكباً جوادهُ وعلى رأسهِ اكليل الظفر يهمز جوادهُ ملتفتاً الى نهر النيفا وقدمدَّ يدهُ الى ناحية المدينة التي انشأها والجواد واقف على قاعدة من الرخام عظيمة الاتساع يتقهقر الى الوراء ويدوس تنيناً تحت رجليهِ . وقد لزم لهذا التمثال الكبير قناطير مقنطرة من النحاس وبلغت نفقاتهُ اكثر من مليوني ريال روسي وهو اكبر تمثال من نوعهِ في عاصمة الروس

وعلى مقربة من هذا الميدان الكبير مجلس الاعيان وهو الذي اشرنا اليهِ قبل وهنا يجتمع امراء المملكة وكبراؤُها للنظر في الشؤُون العامة تحت رئاسة القيصر او من يقوم مقامهُ . وفي قسم من هذا البناء المجمع المقدس وهو كما قلنا

قبل الآن يفصل في المسائل الدينية الخطيرة ورئيسةُ القيصر ايضاً . والبناء كلهُ على شاكلة القصور الاخرى التي ذكرناها فلا أُتعب القارئ بوصفهِ ولا اطيل عنهُ الكلام

وقد ذكرنا ان في شارع نفسكي كنيسة كازان واشرنا الى بعض ما فيها . ولكن في بطرسبرج كنيسة اخرى لها شهرة قديمة لا تقل عن شهرة اعظم الكنائس الروسية هي كنيسة مار اسحق ويسمونهُ اسحق الدلماسي لانهُ جاء من دلماسيا في بلاد المانيا وكان هو اول من بشر الروس بالانجيل وهداهم الى النصرانية على عهد فلاديمير كما رأيت في الخلاصة التاريخية فبنوا هذه الكنيسة على اسمهِ وجعلوها من اعظم الكنائس وافخمها وكان البادئ في بنائها القيصر اسكندر الاول وضع الحجر الاول فيها سنة ١٨١٩ واستمر في البناء القيصر نقولا الاول فما تم حتى عام ١٨٥٨ على عهد اسكندر الثاني فاشتغل في اتمامها واتقانها ثلاثة قياصرة عظام مدة ٣٩ عاماً وبلغت نفقاتها ٢٤ مليون ريال وهي مبنية من الرخام والصوان وقد جعلت على شكل صليب طولها ١٠٥ امتار وعرضها ٩٠ متراً ولها قبات كثيرة مختلفة الاشكال اهمها القبة الوسطى التي بلغ محيطها ٢٦ متراً وهي قائمة على ٢٤ عموداً ركزت فوق برج عظيم قائم على اعمدة اخرى وفي اعلاها صليب كبير والقبة باعمدتها وصليبها وقاعدتها وبرجها ملبسة بالنحاس المذهب ولها منظر فائق الجمال وهي تظهر للقادم الى بطرسبرج من عرض البحر نظراً الى ارتفاعها ولمعان معدنها ولا يقل علوها عن ماية متر

وللكنيسة اربعة ابواب منها اثنان اصليان كلٌّ منهما قائم على ١٦ عموداً من الرخام الاحمر المصقول وقواعدها وتيجانها من النحاس المذهب وهي تقرب من اعمدة الهياكل المصرية القديمة واعمدة قلعة بعلبك في منظرها وضخامتها فان

قطر العمود منها متران . وقد صنعت ابواب هذه الكنيسة من النحاس وحفر عليها
رسوم ملائكة الجنان والقديسين على مثال الموجود من هذه الرسوم في كنيسة
القديس مرقص في مدينة البندقية بايطاليا والدرجات الموجودة في هذه الكنيسة
كلها من الرخام او الصوان المصقول كل درجة منها حجر واحد . وواجهة الكنيسة
من الرخام الابيض تتخللهُ عروق من الذهب وفيها من الايقونات ما لا يعد
اكثرها مرصعة بالحجارة الكريمة وباب الهيكل من الفضة الخالصة يحف بهِ ١٨
عموداً باهر الجمال منها عشرة من اللازورد وثمانية من المالكيت الاخضر وهما من
الحجارة الغالية الثمن وعلى باب الهيكل الى اليمين واليسار صورة العذراء والمسيح
مرصعة بالالماس (برلانتي) ترصيعاً لم ارَ لهُ نظيراً في غير هذه البلاد فان حجارة
الالماس ادخلت في الصورة نفسها مرتبة حول الراس وفي الصدر وهي كبيرة الحجم
لا تقل عن البندقة والروسيون ينفقون على مثل هذا الترصيع مالاً وفيراً . واما
المذبح فكلهُ من الفضة الخالصة وآنية الخدمة من الذهب الدقيق الصناعة . وجملة
القول ان وزن ما في هذه الكنيسة من الآنية الفضية ١٢٠٠ كيلو ومن الآنية
الذهبية ٤٠ واكثرهُ هدايا من القياصرة واعضاء البيت القيصري وبعض المجالس
البلدية وسراة الروسيين . وفي هذه الكنيسة اعلام ومفاتيح مدن غنمها الروس
في حروبهم واشياء كثيرة لتذكار الفعال العظيمة التي قام بها رجالهم وهي بوجه
الاجمال من اغرب كنائس الدنيا واوفرها بهاء

وخرجت من هذه الكنيسة الى حديقتها ومنها الى ميدان مريم وهو متسع
من المدينة اشهر ما فيهِ تمثال لجبار القياصرة اعني بهِ الامبراطور نقولا الاول وقد
مثلوهُ راكباً جواداً جموحاً ونقشوا على جوانب القاعدة اعمال هذا القيصر العظيم
واثارهُ الكبيرة ووضعوا بينها رسوم زوجتهِ واولادهِ وعلى كل جانب من جوانب

القاعدة احدى هذه الكلمات الاربع وهي القوة — العدل — الايمان — الحكمة — وهم يمثلون هذه الكلمات في رسوم وتماثيل عديدة تجدها في دور القضاء وقصور الملوك كثيرة في كل المدن الاوربية . وقد اقيم هذا التمثال تذكاراً لحادثة تاريخية جرت في ايام نقولا الاول فان بعض الاهالي ثاروا وتجمهروا في هذا الميدان يقصدون الشر فجاءهم اليهِ القيصر راكباً جوادهُ فحالما رأوهُ خرّوا خاضعين وانتهت ثورتهم

ولما كانت وزارة الخارجية في قصر اركان الحرب الذي تقدَّم ذكرهُ وكان سعادة السري الموسيو سليم دي نوفل وطنينا الكريم في هذه الوزارة مستشاراً لها فاني دخلتها وقصدت زيارتهُ فعلمت من العمال انهُ مقيم من ايام في منزلهِ الكائن في شوفالوفو احدى ضواحي بطرسبرج فعدت الى فندقي . وفي ثاني الايام اخبرني صاحب الفندق ان تلميذاً من تلامذة المدارس القيصرية جاء بكتاب اليَّ مدة غيابي فتناولت الكتاب وفضضت غلافهُ فاذا بهِ من سعادتهِ نقلهُ نجلهُ الى الفندق وفي الكتاب انهُ طريح الفراش من كسرٍ اصاب رجلهُ اثر سقطة والحَّ عليَّ كثيراً ان اذهب الى شوفالوفو لزيارتهِ فذهبت في القطار الحديدي بين غياض وحراج وبقاع مرصعة بفاخر البناء والمنازل ولبساتينها وحدائقها الغناء جمال خاص بها حتى اذا وقف القطار في محطة شوفالوفو قصدت منزل صديقي وهو قائم في وسط حديقة جميلة فقابلتني حضرة قرينتهِ وحضرات انجالهِ بالترحاب وساروا بي الى غرفتهِ فسررت لذلك اللقاء سروراً كثيراً وظللت في غرفتهِ الى ساعة الغداء حين قمنا الى قاعة فسيحة للطعام مدفأة بالنار ونحن في اواسط شهر اوغسطس وبعد الغداء قمنا ندور بين تلك الحدائق ومتعت الطرف بهاتيك المناظر البهية وانا مع عائلة المسيو دي نوفل ثم عدنا الى المنزل والحديث اذكر منهُ ان صديقي سألني

عما رأيت لخدثته عما خلج صدري من التأثر حين زرت القصر الشتوي ورأيت غرفة اسكندر الثاني الذي اغتاله النهلست فقال لي ان هذا القيصر كان كثير الورع شديد الاعتقاد بحكم القضاء وبعناية الله بهِ حتى انهُ كان مع كل الذي اصابهُ من مكايد النهلست لا يحذر على نفسهِ منهم وحاول احدهم ان يغتالهُ سنة ١٨٧٦ فاخطأ سهمهُ المرمى . وفي السنة التالية حاول آخر بولوني الاصل ان يقتل جلالتهُ ايضاً فلم يفلح في سعيهِ المذموم . وفي سنة ١٨٧٨ خرج يتمشى من قصرهِ الشتوي فهجم عليهِ احد هؤلاء الاشرار وجعل يطلق الرصاص عليهِ خمس مرات متواليات وهو لا يصيبهُ وكان القيصر كما قلنا ماشياً ففرَّ من الرجل وظلَّ يعدو مسرعاً والرجل وراءهُ يطلق الرصاص حتى دخل وزارة الخارجية تجاه قصرهِ الشتوي ونجا من القاتل . وفي سنة ١٨٨٠ حاول النهلست نسف غرفتهِ على مثل ما تقدم . وما برح القوم يكيدون المكايد لهذا القيصر النبيل حتى ظفروا بهِ

قال صديقي وحدث انهُ يوم اغتيالهِ رجاهُ مدير البوليس السري الاَّ يخرج من قصرهِ في ذلك اليوم فما سمع النصيحة وذهب لزيارة شقيقتهِ فالقى الاعداء اللئام تلك القنبلة المفرقعة تحت عجلات عربتهِ وتفرقعت فقتلت الخيل والسائق وكان القيصر في داخل العربة فلم يصبهُ اذى ولو ظلَّ فيها لما وصلهُ مكروه . كذلك حذرهُ الذين كانوا معهُ ورجوهُ ان يبقى مكانهُ داخل العربة ولكن القيصر كان جسوراً كثير الاتكال على ربهِ فخرج من العربة ليسأل عن رجال حرسهِ فالقى احد الاشرار بين قدميهِ قنبلة ثانية قضت على حياتهِ الثمينة وحزن العالم المتمدن لموتهِ حزناً شديداً . وكان الموسيو دي نوفل يورد لي هذه القصة والحزن ملءَ فؤادهِ حتى اذا انتهى منها خنقتهُ العبرة لان اسكندر الثاني كان ولي نعمتهِ رقاهُ واحسن اليهِ برفيع الرتب والوسامات وقبل طلبهُ فتنازل الى ان يكون عراباً للموسيو

اسكندر بسترس نجل المرحوم سليم بسترس وكان القيصر اسكندر الثالث عراباً للموسيو ڤلاديمير وهو النجل الثاني للمرحوم سليم بسترس اصدر بذلك امراً قيصرياً حملهُ الموسيو دي نوفل الى لندن حيث كان الموسيو بسترس واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً حضرهُ سفير دولة روسيا وكثيرون من اهل المقام العالي وكان مع سعادتهِ ايضاً وسامات عالية من جلالة القيصر واحد منها للمرحوم سليم بسترس وآخر لحضرة قرينتهِ نظراً لما اشتهر عنها من الفضائل والمبرات

وآخر ما اذكر هنا من مشاهد بطرسبرج الاسطبلات القيصرية وما هي بالشيء الحقير كما يفهم من اسمها بل انها معرض لجياد الخيل من روسية ومجرية وانكليزية وعربية وللعربات الفاخرة والسروج النفيسة المرصعة بالحجارة الكريمة والادوات الاخرى كاللجم والمهاميز والازمة وسواها اكثرها من الذهب والفضة وبعضها هدايا من سلاطين آل عثمان وملوك ايران وامراء بخارى وخيوا وبقية الممالك التي علا فيها سوءدد روسيا في اواسط آسيا . وفي اول هذا المتحف جواد القيصر نقولا الاول محنطاً وهو الذي كان يركبهُ في حرب القرم ثم رسوم امراء الاسطبل القيصري بالزيت وبالقد الطبيعي من يوم انشئت هذه الوظيفة الى الآن . وهنالك عربات كثيرة للقيصر والقيصرة والاعوان والحشم وعربات أُخرى كثيرة الزخرف فائقة الاتقان للقياصرة السابقين اجملها عربة اسكندر الثالث وهي كلها مذهبة الجوانب تبرق وتلمع كانما هي شعلة من نار ومركبة لبطرس الكبير صنعها بيدهِ ومضرب لكاترينا الثانية كانت ترقد فيهِ وقت الحرب ومركبة نقولا الاول سار بها يوم تتويجهِ ومركبة اسكندر الثاني التي قتل بها وهي محطمة الجوانب بفعل الديناميت . وعلى مقربة من هذا المكان البقعة التي قتل فيها القيصر اسكندر الثاني وقد غرزوا صليباً حيث تفرقعت القنبلة القتالة وشرعوا ببناء كنيسة

ستكون من اعظم ما في بلاد الروس من نوعها وقد لا ينتهي العمال منها قبل اعوام كثيرة تجيء فوقفت في ذلك المكان اتأمل احكام القدر حيث سقط قيصر عظيم لم تغنهِ قواتهُ الهائلة شيئاً وفي ذلك عبرة للمعتبرين

وجملة القول ان مشاهد بطرسبرج العظيمة لا تعد في مثل هذا المقام وقد بنيت على جزر والنهر يشقها شطرين فتكثر فيها وفي ضواحيها الغابات والحدائق منها الحديقة الصيفية مساحتها ١٥ كيلو متراً مربعاً انشئت على النسق الفرنسوي وحديقة بطرس الكبير انشئت على النسق الانكليزي وتكثر فيها الروابي والهضاب . وحديقة الحيوانات وفيها من كل حيوان غريب ما في معارض الحيوان المعروفة في اوروبا . ومطاعم بطرسبرج كثيرة بعضها صيفي و بعضها شتوي وملاهيها ومراسحها كثيرة ايضاً ينفقون عليها المال الطائل و كثير منها تمثل فيهِ الروايات بالفرنسية و يحضرها سراة الروس وهم معروفون بالترف والبذخ في المعيشة وقد رأيت في احد هذه المراسح ما لم ارهُ في غيرها مدة سياحاتي من انواع الرقص الافرنجي البديع فان الستار رُفع عن نحو مائتي فتاة جعلنَ يتفتلنَ ويتمايلنَ ويترقصنَ على اشكال وحالات تسكر الاذهان وتخلب العقول وهنَّ بتلك الملابس المزخرفة ظللنَ في تفنن ولعب بديع والناظر الى حركاتهنَّ واقدامهنَّ يظنهنَّ آلة تدار بقوة واحدة فلا تخطىء السير في جهة من الجهات او اذا تأمل هاتيك القدود تنثنى وتتهادى ببهي الحلل خيّل لهُ انهُ يرى بحراً من الحسن تغرق فيهِ الافكار

هذا بعض من كلّ شهدتهُ في عاصمة الروس العظيمة ولو اني شئت التطويل لضاق المقام عن البيان فانقدم الآن الى ذكر شيء عن ضواحي هذه المدينة

ضواحي بطرسبرج

كنت مدة مكثي في عاصمة السلطنة الروسية اسمع ببهاء ضواحيها واول ما قصدت منها قصر تزارسكوي سيلو اي قرية القيصر انشأها بطرس الكبير وبنى بها قصراً ثم تبعهُ في البناء قياصرة الروس وسراتهم حتى اضحت هذه الجهة مجموع مشاهد باهرة ورياض زاهرة ومنازل عامرة فيها القصور المنيفة حيث يقيم اهل الشرف الشامخ والحدائق الغناء يتراوح بين ازهارها وشجرها جماعة الترف الباذخ وفي وسط هذا العز الساحر زينة القصور الشماء وصلة السعد ما بين عيشة الارض وعيشة السماء اريد بهِ قصر تزارسكوي سيلو بنتهُ كاترينا الثانية وهو الذي طارت شهرتهُ في الآفاق وملئت بوصف جمالهِ الاوراق. والقصر بناءٌ عظيم يحيط بهِ سور شاهق في اعلاهُ حديد مذهب وطول البناء لا يقل عن ٢٤٥ متراً وقد دهن من خارجهِ بلون اصفر بهي واللون الاصفر كثير الاعتبار في بلاد الروس خلافاً للمواضع الاوروبية الاخرى حيث يقل وجودهُ وقد زاد بهاءَ هذا اللون في قصر تزارسكوي سيلو ان العمد والقباب والقواعد والشرفات كلها مذهبة تسطع منها الانوار وتجعل لذلك القصر العظيم ابهة وجمالاً يقلُّ لهما النظير بين قصور روسيا وهي التي اشتهر انها امتازت عن جميع العواصم الاوروبية بقصورها وما فيها من القاعات الغريبة ولا عجب اذا قلنا ان قصر القيصر في تزارسكوي سيلو هذه يعد اعظم القصور الحالية فانهم انفقوا على تذهيب جوانبهِ المرة الاخيرة اثني عشر مليوناً من الفرنكات. فما قولك في بقية ما فيهِ من غرائب البناء والنقش والتصوير والزخارف والرياش الذي يعجز عن مثلهِ اقبال الزمان ولا تكفي لعشر معشارهِ اموال قارون

وقاعات هذا القصر تبلغ الثلثمائة عدًا منها ٣١ قاعة على خط واحد بعضها وراء بعض اذا وقف المتأمل في اولها عسر عليهِ ان يرى آخرها وكلها آيات معجزات في اتقان الصنع ونفيس الفرش وباهر التحف وبديع الجوانب المذهبة اذا اسعدك الحظ برؤيتها حكمت لاول وهلة انها زينة القاعات الملوكية ما رأى الراؤُن اكثر منها حسناً وبهاء ولاسمع السامعون باوفر منها رونقاً وزهاء تغرس في نفس الرائي بهجةً وحبوراً وتنسيهِ بقية ما في الارض من امرٍ شاغل او شيءٍ خطير . ولا قبل لنا بغير الاختصار فنذكر هنا من هذه البدائع الشهية قاعة الرقص والولائم يقيمون فيها الحفلات الراقصة او الولائم الفاخرة وهي قاعة حدّث عن جمالها ما شئت وقل في غرائبها ما استطعت انها مفروشة بالحرير الاصفر الفاقع وسقفها وجدرانها ملأى بالزخارف المذهبة ومرائيها عظيمة المقدار والقيمة فوقها الشعار القيصري وهي تعكس هاتيك المناظر الباهرة من هنا ومن هنا فلا يرى المتأمل غير جمالٍ وراء جمال ولا سيما اذ تدلى من السقف والجدران هاتيك الثريات تحكي الجواهر في لمعانها وهي متى اوقدت مصابيحها في الليل تألق نورها وكثر شعاعها الى حدٍّ يبهر الابصار وكلها تنار بالشمع لان النور الكهربائي غير مستعمل في قصور الضواحي . وفي هذه القاعة وحدها ٢٦٥٠ شمعة فتأمل بهاء تلك الانوار ومن حولها المناظر الساحرة لاسيما اذا احتفلوا بالليلة الراقصة التي يقيمها جلالة القيصر في كل عام ويدعو اليها امراء البيت القيصري واميراتهِ وسفراء الدول ووزراء المملكة وقواد الجيوش والاساطيل ورؤساء المصالح الكبيرة وسراة الامة وعظمائها فيأتون كلهم بالملابس الرسمية والوسامات ومعهم سيدات تنفق الواحدة منهنَّ الوفاً على لباس تلك الليلة وتحلى بنفيس الجواهر فما ترى في كل جانب غير عزٍ وبهاء ويسار كثير وترف ونعمة تزيد عما في بقية العواصم الكبرى والكل من سادة وسيدات يؤدون واجب

الاكرام للقيصر وهو متى بدأ الرقص يخاصر قرينة اقدم السفراء الحاضرين و يرقص معها دوراً ثم يتنحى . والقيصرة ترقص دوراً مع اكبر السفراء الحاضرين سناً ثم تتنحى ايضاً ويظل الباقون في طرب ونعيم الى آخر الليل

ولكن بدائع هذه القاعة الغريبة تعد شيئاً يسيراً عند قاعة الكهرباء الفاخرة وقد اطلق عليها هذا الاسم لان الكهرباء الثمينة فيها تقوم مقام الخشب والحديد فكل مقاعدها ومناضدها و كراسيها صنعت من الكهرباء مع ما تعلم من غلاء قيمتها والفرش من فوقها حرير اصفر يتلائم ببقية ما في القاعة وقد ذاعت شهرتها في اوروبا وتحدثت الركبان بعظيم قيمتها . ومن ذلك ايضاً قاعة الفضة وكل ما فيها من هذا المعدن الناصع صنع على نسق يحلو للانظار . وتليها قاعة اللازورد وهي لا تقلّ في الغرابة عن قاعة الكهرباء لان حجر اللازورد من اثمن الحجارة المعروفة وهو ازرق سماوي في لونهِ زينوهُ بعروق من ماء الذهب فصار لهُ منظر يشرح الصدور ولا تشبع العين من التأمل فيهِ . والقاعة الصينية وكلها من الاطلس الاسود المزركش بالقصب وخشبها كلهُ من اللك الاسود الفاخر . وقاعة الصور وفيها صور بعض الحوادث التاريخية مثل تسليم الشيخ شامل وتتويج اسكندر الثاني وتنصير اولادهِ وغير هذا كثير . وقاعة الموائد وهي للولائم الرسمية العظيمة فيها مواضع لمائتين وخمسين مدعواً وكل آنيتها من الذهب والفضة تليق بعظمة ذلك القصر العظيم . وقاعات اخرى لا يعي الذهن ذكرها وكلها من غرائب الصناعة ودلائل اليسار والعز الكبير

وفي هذا القصر كنيسة جميلة مدهونة جدرانها بلون ازرق تتخللهُ عروق ذهبية بديعة الاتقان وللقيصر والقيصرة كرسيان امام باب الهيكل من اجمل ما رأتهُ العين وللكنيسة قبة بديعة يراها القادم الى القصر من خارجهِ ويلي الكنيسة رواق عظيم

طوله ٨٢ متراً يطل على اشهى المناظر ومنهُ يمكن الوصول الى الحديقة المحيطة بقصر تزارسكوي سيلو وهي يقصر في وصفها قلم الكاتب البليغ تجولت في جوانبها حيناً من الدهر ثم غادرتها ونفسي تحدث بما رأت من محاسن هذا القصر الغريب وعدت الى المدينة وانا افكر بما رأيت فيهِ من الغرائب وقد خطر في بالي ان بانيتهُ العظيمة القيصرة كاترينا الثانية لما انتهت من بنائهِ واعدادهِ دعت سفير فرانسا في ذلك العهد لرؤيتهِ فجاء السفير وجعل يحدق ببصرهِ ويتأمل تلك البدائع وهو يتطلع ذات اليمين وذات الشمال كأنما هو يبحث عن شيء فسألتهُ القيصرة ان ما الذي تبحث عنهُ قال اني ابحث عن غطاء من البلور اغطي بهِ هذا القصر الثمين

وفي هذا اليوم قصدت مدفن القياصرة العظام فقمت من الفندق ماراً بميدان فسيح اسمهُ شان ده مارس سمي على اسم اله الحرب لان المناورات العسكرية تجري فيهِ ومن ورائهِ الحديقة الصيفية ثم الجسر المبني فوق نهر النيفا وفي آخرهِ على الشمال كنيسة لها قبة علوها ١٢٨ متراً وهي اعلى ما في روسيا من القبات وفي هذه الكنيسة مدفن القياصرة واصلهُ قلعة قديمة دخلتهُ ورأيت قبر بطرس الكبير وكاترينا الثانية واسكندر الاول صاحب وقائع بونابارت ونقولا الاول صاحب حرب القرم واسكندر الثاني اشرف القياصرة ومحرر الامم واسكندر الثالث بطل السلام وهو والد القيصر الحالي . وفي تلك المدافن مصابيح يوقد فيها الشمع ليلاً ونهاراً ولها منظر يؤثر في النفوس

بقي عليَّ من هذه القصور العظيمة في ضواحي بطرسبرج قصر بترهوف المشهور . وبترهوف هذه قرية على شاطئ البلطيق قريبة من بطرسبرج اول من عمرها بطرس الكبير فسميت باسمهِ كما ترى وكان هذا القيصر ينوي جعل قصرهِ في بترهوف مثل قصور ملوك فرانسا في ڤرسايل فبالغ في اتقانهِ وجاءت كاترينا

الثانية من بعده ونقولا الاول وغيرهما فاضافوا الى هذا القصر العظيم ما تعجز الالسن والاقلام عن وصفهِ . ويمكن الوصول الى بترهوف من العاصمة براً او بحراً في البلطيق فاخترت طريق البحر ووصلت موضع القياصرة العظام حيث يقضون معظم اشهر الصيف . والحق يقال اني اراني عاجزاً عن وصف هذا القصر الفخيم لكثرة محاسنهِ المشهورة ولكثرة ما تقدم من وصف امثالهِ فاكتفي ببسيط الاشارة الى اهم ما فيهِ وهو يظهر لك عن بعدٍ من بريق قباتهِ المذهبة ومن حولهِ العمائر الفاخرة لامراء الروس فكانما هو الشمس تدور بها النجوم السيارة في فضاء كلهُ جمال وبهاء ما بين بحر نقي ماؤهُ وارض فرشت بالسندس ورصعت بابهى ما في الرياض من زهرٍ وشجر ولاسيما حديقة القصر الامبراطوري نفسهِ وهي تحكي حدائق النعيم في جمالها واتساعها حتى ان الوفاً من العربات تسير في جوانبها ولا تظهر بين هاتيك المناظر الفاتنة . وللقصر ابواب كثيرة منها واحد ارتقينا عشرين درجة من الرخام الابيض البديع حتى وصلناهُ وامامهُ بركة للماء صُنعت من الرخام الابيض ايضاً يحف بها اربعون تمثالاً مذهباً وفي وسطها وزة كبيرة من المرمر يتدفق الماء من فمها تدفق السيل صعُداً ثم ينهمل من علو ٢٥ متراً وينصبُّ في البركة فيجري منها بين الاغراس والتماثيل الى ما وراء القصر ويستقر في بحر البلطيك

وقد جعلوا رياش كل غرفةٍ في هذا القصر من نسقٍ يختلف عن نسق غيرها فهذه فرشت على النسق الصيني وهذه هندية وهذه يابانية وهذه مصرية وهذه تركية وهذه اوروبية وكلها بدائع اتقان تحار في وصفها الافهام . وهنالك قاعة عظيمة للرسوم عنيت كاترينا الثانية بجمع اشكال النساء فيها فامرت برسم فتيات ونساء روسيات على اشكالهنَّ في كل اقليم ووضعت تلك الرسوم تمثل حالة المرأة الروسية في ايامها فلا يقلُّ عدد الصور هنا عن ٣٦٨ صورة . ويلي هذه الغرفة قاعة الاستقبال

الخاصة بهذه الامبراطورة فرشت بانفس الطنافس واثمن انواع الحرير وفيها صور بنات حزن قصب السبق في مدرسة البنات التي اسستها هذه الامبراطورة العظيمة وقاعة الاستقبال العمومية وقاعة نساء الشرف التابعات للقيصرة وقاعة المائدة لها ٣٠ نافذة او شباكاً لكل شباك برواز بارز جميل يحيط بهِ من داخل القاعة والى جانبيهِ الشمعدانات المذهبة في كلّ منها ٤٠ شمعة فيكون عدد الشمعات حول تلك الشبابيك فقط ١٢٠٠ غير المدلى من سقف القاعة في الثريات البديعة . وفي القصر كنيسة لها قبات مذهبة جميلة وفيها بعض غنائم الحروب من اسيا الوسطى وزخارفها اكثر من ان تعد . وهناك قصر الكساندرين وقصر اسكندرية وقصر بطرس الكبير حفظت فيهِ بعض ملبوساتهِ فصيف بترهوف هذا مجموع قصور شيدت في تلك الحديقة العظيمة وليس قصراً واحداً . واما عن تلك الحديقة فحدث اني ما رأيت في حدائق القصور اغرب منها ولا ابهى وقد قضيت النهار ادور في جوانبها واتفرج على روابيها ونجادها وجزرها وطرقها واغراسها واستلفت الدليل نظري الى شجرة لم ارَ لها في اول الامر مزية ولكنهُ تنحى عني الى حيث فتح انبوباً فانبعث الماء حالاً من فروع الشجرة واوراقها وازهارها وكل اجزائها وعلمت حينئذٍ انها شجرة صناعية ملئت بالمسام الغير المنظورة يخرج الماء منها على مثل ما رأيت

وقد رأيت في تلك الحديقة من الازهار والاغراس ما غرستهُ ايدي القيصرات فان والدة القيصر الحالي غرست شيئاً كثيراً والقيصرة التي تقدمتها كانت مغرمة بهذه الحديقة ايضاً ولكلّ منها قطعة تعرف باسمها وتدل على حسن الذوق وكثرة الاعتناء . وفي هذه الحديقة جزيرة صغرى فيها انواع الغرس والنبت ومنها شجرة اصلها من اميركا وقد اتفق ان سائحاً اميركياً رآها في احد الايام مهملة فدفع الى البستاني مئة ريال ليعنى بامرها ولذلك اطلقوا على هذه الشجرة اسم

واشنطون تخليداً لاريحية ذلك الرجل الاميركي

والقسم الخاص بكاترينا الثانية بين هذه القصور الشماء قديم العهد فيهِ غرفة الطعام الخاصة بها صنعت علَى شكل يمكن بهِ ارسال الصحون والوان الطعام في آلةٍ ترفعها من غرفة سفلى فتصل الى المائدة ويمكن بهذا الاستغناء عن خدمة يقفون حول المائدة ويسمعون حديث الملكة مع رجال الدولة. وهنالك ايضاً غرفة النوم وفيها بعض ملبوسات هذه الامبراطورة والى مقربةٍ منها حمامها الصيفي وهو عبارة عن بحيرة كبيرة كانت تسبح في مائها النقي وفي وسط البحيرة انابيب مستدقة ينبعث الماء منها تقرب من المائة عداً وهي كثيرة الجمال

واعود الى القول اني لو شئت عدَّ الغرائب في قصور بترهوف وحدائقها لما امكن لي بعض الشيء منهُ لان الموضع الذي اجهد البارعون قرائحهم في تحسينهِ وانفق القياصرة العظام مالاً لا يعدواعواماً طوالاً في اعدادهِ لا يكثر فيهِ وصف ولا يحيط بجمالهِ وغرائبهِ علم الاَّ الذي تسعدهُ الايام برؤيتهِ. فلما انتهيت من التجول في تلك الجنات البهية عدت الى العاصمة وقصدت من بعدها حصون كرونستاد وهي التي كان دخولنا من البلطيق اليها قبل الوصول الى بطرسبرج على ما تقدم. وكرونستاد هذه مينا بطرسبرج اشتهر امرها في الاعوام الاخيرة بزيارة الاسطول الفرنسي لها وابرام المعاهدة فيها بين الدولتين وقد كان منظرها يوم دخلتها مؤثراً وهيئة الحصون والقلاع والبوارج الحربية ترسخ في النفس واذكر منها بنوع اخص يخت لجلالة القيصر انفق والدهُ اسكندر الثالث على بنائهِ واعدادهِ اربعماية الف جنيه وكان يجتاز البحر فيهِ كل صيف الى الدنمارك حيث يجتمع بالاهل والاقارب. ولهذه المدينة مين تجارية ومين حربية كلها كاملة الاتقان وفي آخرها ارصفة عريضة وطرق جميلة وامامها فنادق عظيمة اكثر الذين يؤمونها من ضباط

البحرية الروسية ولا حاجة الى القول ان استحكامات كرونستاد هذه وحصونها في الطبقة الاولى من القوة والمنعة قضيت في التفرج على جوانبها زماناً ثم عدت الى بطرسبرج مودعاً لها متنقلاً من موضع الى موضع ومن شارع الى شارع فلما انقضى اليوم العاشر على زيارتي لهذه العاصمة العظيمة غادرتها وانا معجب بآيات العز فيها وسرت الى مدينة موسكو وهي التي يجيء الكلام عنها في الفصل التالي

موسكو

يبلغ تعدادها اليوم مليوناً ونصف مليون والمسافة بالقطار الحديدي اليها من بطرسبرج ست عشرة ساعة في مروج كلها مناظر بهية كسيت بالخضرة النضرة ورصعت بالعمائر والقرى تخرقها الجداول وترويها الانهار فكيفما وجهتُ نظري كنت ارى ارضاً اريضة ومزارع مقبلة ومراعي فسيحة تسرح فيها الابقار الضليعة والماشية الكثيرة فتمثل لك في كل جهة مقدار ما يعول الروسيون على الزراعة في بلادٍ واسعة الاكناف بعيدة الاطراف هائلة سهولها كثيرة غلالها يصدرون منها مقادير كبرى في كل عام وهي مصدر الثروة الكبرى في البلاد كما ان الصناعة والتجارة مصدر الثروة في بلاد الانكليز. ولما انقضى زمان المسير واشرفنا على مدينة موسكو العظيمة ظهرت لنا قبات كنائسها الكثيرة بعضها مذهب تنبعث منهُ اشعة النور في ذلك السهل الفسيح وبعضها ملون بالوان مختلفة هذه صفراء وهذه حمراء وهذه خضراء وهذه بيضاء او زرقاء اولها لون آخر يستلفت الانظار لا سيما وان لها اشكالاً غريبة لا تراها مجتمعة في مدينة من مدائن الارض غير موسكو فان تلك القباب بعضها مضلع وبعضها مستدير وبعضها اهليلجي وبعضها على شكل الرمان او الموز او الشمع او غير هذا

فالقوم ما تركوا شكلاً شرقياً او غربياً حتى جمعوهُ الى تلك الاشكال وعملوا على مثالهِ قبات في مدينة الروس المقدسة فاذا رأيت كل هذا وانت مشرف على المدينة من بعد ذكرت الاستانة ومآذنها . وقد بنيت موسكو في سهلٍ كما بنيت معظم مدائن الروس ومنازلها بعيدة بعضها عن بعضها وفيها من الحدائق والبحيرات والميادين الفسيحة ما يجعل لها مساحة لا تقل عن مساحة باريس ولما كانت هي مسكن اهل الطبقة العليا من اشراف الروس وفيها من اكابر التجار الموسرين عدد عظيم لكلٍّ منهم قصر او قصور تحيط بهِ الاغراس والحدائق فقد اتسع نطاقها وبعدت اطرافها فوق ما يقتضيهِ عدد سكانها فزاد في رونقها وجمالها وغرائبها الكثيرة التي سنورد بعضاً منها في ما يلي

واما ان هذه المدينة مقر الغرائب في بلاد الروس والعظائم فواضح من كثرة قصورها الشماء كما تقدم ومن كثرة كنائسها ايضاً واديرتها فهي المدينة المقدسة عند الروس وهي كانت عاصمة المملكة الى عهدٍ ليس ببعيد فيها الآن نحو ٤٠٠ كنيسة و٢١ ديراً و٤٦٠ مدرسة او تزيد وهي مقر الحاكم العام لولاية موسكو العظيمة يغلب ان يكون الحاكم فيها اميراً من امراء البيت القيصري وفيها مركز الفيلق الثاني من الجيش الروسي وكرسي المجمع المقدس يرأسهُ رئيس اساقفة موسكو وهو اعظم رجال الكنيسة الروسية بعد القيصر . وقد بنيت هذه المدينة الكبرى الى جانبي نهر صغير اسمهُ موسكوفا فدعيت المدينة باسمهِ وغلب هذا الاسم بعد ذلك على الولاية كلها ثم على المملكة برمتها لاسباب فصلناها في التمهيد التاريخي وهي اذا دخلها الزائر الغريب اذهلهُ ما فيها من الازياء الكثيرة والاجناس المتباينة يكثر فيها التتر والجراكسة والاتراك والايرانيون والبولونيون وبقية اشكال المتوطنين فيها من الناس حتى انك لترى فيها العجمي بقبعتهِ السوداء الطويلة

وجبته وسمرة وجهه والتتري لهُ صفرة وعين تدل الى شيء من القوة والغدر وهو بملابسهِ التترية وعمامتهِ المتدلية اطرافها او بشيء من الملابس الافرنجية لا تخفى عن المتأمل حقيقتهُ . وهنالك الجراكسة واهل داغستان و كرمان وقوقاف بعضهم يلبسون الفرو وجلود الغنم علَى مثل ما اعتادوا في بلادهم وهم يمشون بجنب الذين رقوا أعلى درجات التمدن الغربي من الروس وتهذبوا في المدارس الكبرى او الذين تراهم علَى تلك الخيول المطهمة وفي العربات الفاخرة من اغنياء المدينة وموظفيها وضباطها وابناء اشرافها فيختلط الشرق بالغرب في تلك المدينة اختلاطهُ في الاستانة او اعظم وفي ذلك نزهة للغريب وفرجة يعسر الوصول اليها في غير هذا المكان

وقد كانت روسيا في اول عهدها يحكمها امراء كيف على مثل ما رأيت في الخلاصة التاريخية فلما قويت شوكتهم قليلاً بعد التنصر بنى احدهم حصناً علَى ضفة نهر موسكوفا في سنة ١١٤٧ واسم هذا الامير فلاديميروفتش دولجوروسكي فكان ذلك بدء تأسيس المدينة واطلق اسم النهر عليها . والحصن الذي بناهُ عرف من يوم بنائهِ باسم كرملن وهو لفظ تتري معناهُ القلعة او الحصن فبقي هذا الاسم ملازماً للجهة الاصلية التي نشأت فيها مدينة موسكو وهو الآن اسم القصور العظيمة والكنائس والمنازل الفاخرة المختصة بالقيصر وعائلتهِ ويطلق ايضاً على القسم المجاور لهُ من اقسام موسكو وهو اعظمها وافخمها واكثرها غرائب . وطفقت موسكو تتقدم من بعد بنائها شيئاً بعد شيء حتى صارت مقر الولاية كما تقدم القول ولكنها احترقت مرتين في القرن السادس عشر وعادت الى النماء حتى اذا قام بطرس الكبير نقل تخت السلطنة منها الى بطرسبرج ولكن خلفاءهُ لم يسهل عليهم الانتقال فعادوا اليها ولم يستقر رأيهم علَى الانتقال منها نهائياً الاَّ في اوائل هذا القرن حين

اضرم اهلها النار فيها ليردوا جيش نابوليون عنها . ولكن موسكو عادت وبنيت
على احسن مثال من بعد تلك الحرائق وجددت معالمها وشيدت قصورها ومعابدها
وهي يتوَّج فيها القياصرة الى هذا اليوم وتعد مقر التجارة الروسية الداخلية ومركز
الرأي العام الروسي والكنيسة الارثوذكسية وهاانا مورد بعض الشيء من وصف
الذي فيها ملتزماً خطة الاختصار

تقدم القول ان قسم الكرملن اهم اقسام المدينة وهو في منتصف البلدة
آخرهُ متصل بنهر مسكوفا بني على رابية مرتفعة واسعة قام فوقها القصر
الامبراطوري والكنائس والاديرة وقد جمعت هذه الابنية العظيمة كلها في الدائرة
التي تعرف باسم الكرملن واحيطت بسور واطئ محيطهُ نحو الفي متر . وللكرملن
هذا عند الروس مقام عظيم واعتبار فائق حتى ان بين امثالهم مثلاً معناهُ ان
الكرملن يعلو كل شيء ولا يعلوهُ غير السماء ولهُ مداخل عدة منها مدخل المخلص
وهو باب عظيم علق فوقهُ ايقونة السيد المسيح جاء بها القيصر الكسي من بلدة
سمولنسك وهم يضيئون امامها مصباحاً لا يطفأُ في الليل ولا في النهار وقد جرى
الروس علَى عادة قديمة في عهد القيصر الذي ذكرناهُ واتبعوها بامرهِ هي انهم اذا
مروا من تحت هذه الصورة رفعوا القبعات احتراماً لها وخشوعاً وصار الاجانب في
موسكو يفعلون فعلهم ايضاً ولما دخلت الكرملن من ذلك الباب اذهلني كثرة
ما يضمهُ ذلك المكان من الابنية العجيبة والكنائس فانك كلما سرت خطوات
معدودة وجدت امامك كنيسة تزيد التي تقدمتها في محاسنها وغرائبها فقصدت
قبل كل امرٍ قصر القياصرة الذي يقيمون فيهِ عند زيارة موسكو او حين حضورهم
للتتويج فارتقينا سلماً عريضاً من الرخام النفيس درجاتهُ منبسطة لا يكاد الصاعد
عليها يشعر بعناء الصعود وفي آخرها رسوم تاريخية منها رسم تتويج اسكندر

الثالث ومشايخ الاقاليم يقدمون لهُ الخبز والملح علامة الخضوع وغير هذا من رسوم الحوادث المشهورة . والقصر عظيم الاتساع فيهِ ثمانماية قاعة وغرفة ورحبة شرع نقولا الاول في بنائهِ سنة ١٨٣٨ عَلَى اطلال القصور السابقة التي افنتها النار او تهدمت من طول الزمان فما تم البناء الاَّ سنة ١٨٤٩ وانفق عليهِ حوالي ١٢ مليون ريال روسي . وفي اول القسم الجديد من هذا القصر الفخيم رحبة مستطيلة قائمة على عمد من الرخام المصقول وهي توصل الى قاعات ثلاث لها شهرة ذائعة في اوروبا كلها وقد سميت باسماء القديسين الذين أُعطيت اسماؤُهم لاشرف الوسامات الروسية وهي قاعة القديس جورجيوس وقاعة القديس اسكندر نفسكي وقاعة القديس اندراوس

اما قاعة جورجيوس فسميت باسم القديس الذي تحترمهُ الطوائف الارثوذكسية وتروى عنهُ حكاية التنين وقد جعلوا طول هذه القاعة الفخيمة في قصر كرملن ٦١ متراً وبنوها من الرخام الابيض البديع تزينهُ عروق من الذهب ورسوم كثيرة . وارض هذه القاعة من الخشب المصقول مثل اكثر القاعات الكبرى في قصور الملوك والاشراف وسقفها قائم على عمد ودعائم من الرخام ايضاً نقش عليها بماء الذهب تاريخ الفتوحات الروسية واسماء المواضع التي ملكها الجيش الروسي وعلى الجدران اسماء الفرق التي امتازت بالاقدام في هذه الحروب والقواد الذين شادوا لهذه السلطنة صروح الفخار في معامع النزال وأُحسن اليهم بوسام القديس جورجيوس وهو اعلى وسام ينالهُ المرء عندهم بسبب بسالتهِ واقدامهِ. وفي آخر القاعة تماثيل قوادٍ عظامٍ من الفضة مثل القائد يرماك الذي فتح سيبيريا وفيها ثريات لا يقل عدد شموعها عن ٤٥٠٠ شمعة وكلها آية في الجمال والبهاء

ويتصل بهذه القاعة العظيمة قاعة القديس اسكندر نفسكي وهي حمراء الجدران

محلاة برسوم ذهبية طولها ٣١ متراً وعلو قبتها ٢١ متراً وفي هذه القاعة صور تمثل حياة القديس نقسكي الذي سميت القاعة باسمهِ وفيها ١٤ شباكاً امامها مرائي ترى فيها ما وراء القصر من المناظر وحركة المارين

ثم قاعة القديس اندراوس وهو يعد حامي بلاد الروس ووسامهُ اشرف وسامات الدولة الروسية انشأهُ بطرس الكبير سنة ١٦٩٧ وقد جعلوا هذه القاعة العظيمة خاصة بالعرش ولونها ازرق معرق بالذهب وضعوا في صدرها عرش القياصرة يحملهُ نسران عظيمان والقيصر يجلس عليهِ حين قدوم المهنئين بعد حفلة التتويج . وطول هذه القاعة ٤٩ متراً وهي محاذية للقاعتين السابقتين تكوّن معهما خطاً واحداً وتتصل بهما بابواب فسيحة فطول القاعات الثلاث كلها ١٤٦ متراً ولها منظر غاية في الجمال وهي تقام فيها الحفلات العظيمة وتولم الولائم للسفراء ورؤساء الكنيسة وكبراء الدولة بعد انقضاء حفلة التتويج . ووراء قاعة العرش هذه قاعات للحرس الامبراطوري ثم قاعات القيصرة وسيدات الشرف من الاميرات اللائي يسرنَ بمعيتها وكل هذه القاعات من الرخام الثمين المذهب وفي بعضها عمد بديعة الشكل من حجر المالكيت واما رياشها وادواتها فيكفي ان يقال بانها تليق باعظم القصور واعظم القياصرة ولا حاجة بعد هذا للاسهاب . وقد رأيت ان قاعة الطعام في هذا القصر كل كراسيها ومناضدها من الفضة الخالصة وادوات الأكل كالملاعق والسكاكين من الذهب . وهنالك حمام على النسق الشرقي كلهُ رخام وبلور ورسوم ذهبية وستائر ثمينة كتب فوق بعضها الفاظ شرقية وكل معداتهِ دالة على منتهى الترف . وكنيسة هذا القصر فاخرة نخيمة صنع بابها من الفضة المحلاة بالذهب ومثلهُ الهيكل

هذا كلهُ في القسم الجديد من قصر القياصرة في الكرملن واما القسم القديم

فانهُ باقٍ على حالهِ من ايام القيصر فيودور الكسوفتش والد بطرس الكبير الذي بنى هذا المنزل لاولادهِ فلهُ عند الروسيين اعتبار عظيم . ولهذا القصر القديم اربع طبقات كان بطرس واخوتهُ يشتغلون في الاوليين منهما بالصنائع كالرسم والنجارة والحدادة وغيرها ويقيمون في الدورين الباقيين والغرف كلها واطئة بسيطة اذا قابلتها بقاعات القصور الحديثة منها غرفة الرقاد فيها سرير من الحديد قديم في غاية البساطة لوالد بطرس الكبير وبساط صنعتهُ ابنة ذلك القيصر العظيم بيدها وصندوق كانت توضع فيهِ عرائض المتظلمين والمشتكين فكان القيصر ينزل في آخر النهار الى هذا الصندوق ويأخذ ما فيهِ من الاوراق بنفسهِ ثم ينظر فيها وينصف اصحابها . وفي داخل هذه الغرفة غرفة أُخرى صغيرة خصت بالعبادة توقد فيها الشموع حول الايقونات ليلاً ونهاراً . ومررنا من الدهليز الى القسم المخصص للمجمع المقدس حيث كانت تعقد جلساتهُ للمفاوضة في الامور الدينية وفي جدران هذا القسم صور تمثّل الحوادث الدينية المذكورة في التوراة والانجيل

وعلى مقربةٍ من قصر القيصر هذا دار التحف الامبراطورية وهي ذات طبقتين الاولى منهما للعربات الفاخرة كان يستعملها القياصرة في حفلات التتويج ترى في اشكالها المختلفة صناعة كل عصر وذوق اهلهِ واكثر العربات القديمة ضخمة ثقيلة واسعة تشبه القاعة الكبرى كثيرة الزخرف واما العربات الحديثة واخصها التي استعملها اسكندر الثاني مدة تتويجهِ فجميلة رشيقة فاخرة قليلة الادوات والقسم الذي فوق العجلات منها كلهُ ذهب واطلس نفيس . وقد كان القياصرة يسيرون في شوارع موسكو بعد التتويج بعرباتهم هذه ولكنهم صاروا يركبون الخيل ويسيرون على ظهورها ليراهم الناس جميعاً من بعد تتويج اسكندر الثالث . وفي هذا القسم غير العربات المختلفة اسلحة استعان بها بطرس الكبير على زمرة من



(كاترينه الثانية امبراطورة روسيا)



الجنود طغوا وبغوا يعرفون باسم اوسترلتز وهم اشبه بالمماليك الذين ابادهم محمد علي في مصر او الانكشارية الذين ابادهم السلطان محمود في الاستانة

هذا جلُّ ما في الدور الاسفل من دار التحف واما الدور الاعلى ففي صدره صورة الامبراطورة كاترينا الثانية امتطت جواداً مطهماً وقد ركبت كما يركب الرجال لا كما يركب نساء هذا العصر وتردت باثواب الفرسان فلا يظنها الرائي لاول وهلة من النساء . وفي غرف هذا المتحف انواع الاسلحة من قديمة وحديثة وشرقية وغربية وفيها شيء كثير أُهدي الى قياصرة الروس من سلاطين آل عثمان وملوك ايران وامراء خيوا وبخارى والبانيا والجركس . هذا غير اسلحة القياصرة الكثيرين مرتبة في دائرة واسعة وضعوا في وسطها رايتين للقائد يرماك فاتح سيبيريا وراية للبرنس يازارجسكي الذي انقذ الروس من دولة بولونيا في سنة ١٦١٢ على ما رأيت في الخلاصة التاريخية واعلاماً اخرى للامبراطور الكسي وغيرها لبطرس الكبير وسواهُ تشهد بمفاخر الروس وفعالهم في الحروب

وفي هذه الدار غرف وضعت فيها مجوهرات القياصرة والقيصرات وملابسهم الرسمية والاكاليل الفاخرة وعصي الملك الثمينة والحلي النفيسة وهي تامة هنالك مرتبة ترتيباً تاريخياً يوافق مدة هؤُلاء القياصرة فترى ملابس كل قيصر او قيصرة في موضعها حتى الاحجبة التي كانوا يعلقونها تحت قمصانهم وكذلك كراسيهم او هي العروش يجلسون عليها في ساعات الحكم والامارة اذكر منها عرش القيصر الكسي وهو مرصع بنحو ثمانماية حجر من الالماس وعرش ايفان فيهِ نحو تسعماية حجر من الالماس والفيروز اكثرها هدايا من شاه ايران في ايامهِ وقد جلس جلالة القيصر الحالي على هذا العرش يوم تتويجهِ . وعرش بطرس الكبير فيهِ الفان ومايتا حجر من الالماس . ورأيت هنالك كرسي الملك قسطنطين آخر ملوك الدولة

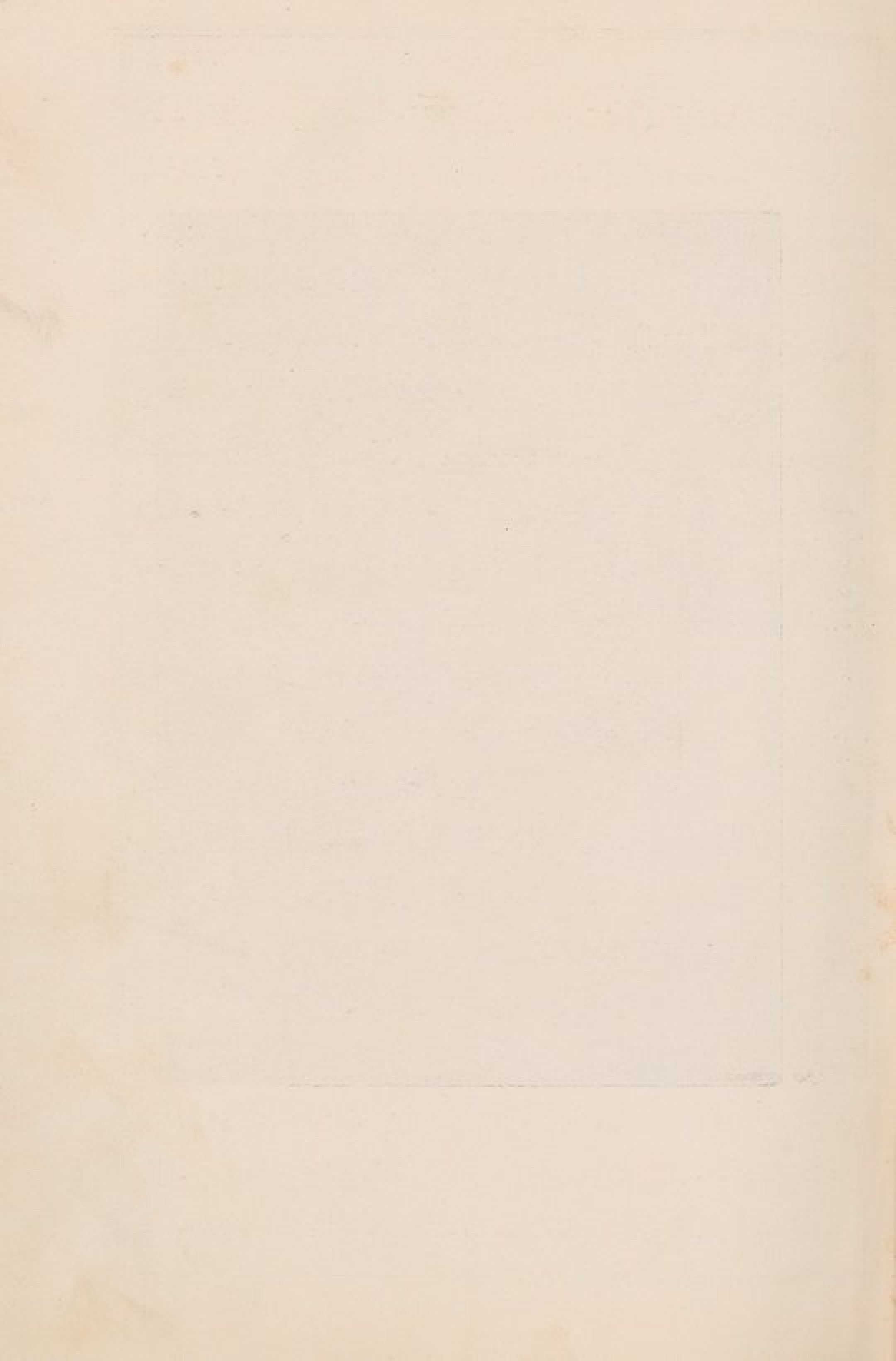
الشرقية في الاستانة صنع من العاج وقد نقل من الاستانة الى موسكو بمساعي الامبراطورة صوفيا وهو الذي جلس عليهِ اسكندر الثاني يوم تتويجهِ

ومما يذكر بين تحف هذه الدار العظيمة سيف عثماني مرصع بالالماس وسرج عربي مرصع ايضاً ولجام وركابات صنعت على النمط العربي وهي من الفضة محلاة بالذهب وقد اهديت هذه كلها الى الامبراطورة كاترينا الثانية من السلطان سليم الثالث . وهنالك آنية من الذهب وبقية المعادن الثمينة لا تعد اكثرها هدايا لقياصرة الروس من اقيال الشرق والغرب من ذلك آنية للمائدة كاملة كلها من الذهب الخالص تستعمل في ولائم التتويج . ومنضدة وسيف وديك ونسر من الفضة اهديت من مدينة باريس في ايام نابوليون الاول وقصع جميلة قدّم عليها الخبز والملح للقياصرة علامة الخضوع وطاقم صيني من انفس انواعهِ صنع في معمل سيفر المشهور واهدي من نابوليون الاول لاسكندر الاول . ورأيت هنالك كرسي خان خيوا استولى عليهِ الروس سنة ١٨٧٣ وكرسي عباس ميرزا سلطان ايران اخذ سنة ١٨٢٧ وسريراً لبطرس الكبير كان يضطجع عليهِ مدة الحروب وسريراً لاسكندر الاول لهذه الغاية وسريرين لنابوليون بونابرت وقعا في قبضة الروس سنة ١٨١٢ حين تقهقر ذلك الفاتح العظيم عن بلادهم بعد واقعة موسكو . واما ملابس القياصرة الموجودة في هذه الدار فيعجز القلم عن وصفها ويضيق المقام اذ كرمنها ملابس اسكندر الثالث وقرينتهُ وهما والدا القيصر الحالي وهي حلة من الحرير الاصفر الفاخر فوقها رسوم النسر الروسي بالقطيفة السوداء ولها ذيل طويل مبطن بالفرو الابيض الثمين وفي صدرها (بطرشين) اكليريكي عليهِ رسوم النسر الروسي والملائكة وفوقها التاج البطريركي مرصع بانفس الحجارة الكريمة على اشكالها وفي قمتهِ نسر من الذهب فوقهُ صليب من الفضة . واما حلة القيصرة فقد صنعت

كلها من الفضة الرقيقة وبطنت بالحرير الابيض وزر كشت بالرسوم مماثلة لما ذكرنا عن حلة القيصر وفوقها تاج اصغر من تاج القيصر ولكنهُ لا يقل عنهُ جمالاً وثمناً. وهذه حلة ثقيلة لا يمكن للقيصرة المسير بها ولكن الاميرات التابعات لها يرفعنَ جوانب الحلة من وراء القيصرة مدة وقوفها في حفلة التتويج ومسيرها القليل . وقد وضعوا هاتين الحلتين داخل قباء او مظلة من الحرير الاصفر المزركش بالرسوم الروسية يتدلى من جوانبها اهداب حريرية صفراء وهي قائمة على عمد رفيعة من الفضة المحلاة بالذهب عدتها اثنا عشر يمسك بكلٍّ منها قائد من قواد السلطنة الروسية ويرفعون هذه المظلة فيسير من تحتها القيصر والقيصرة بابهة عظيمة . وقد اوصت القيصرة الحالية في باريز على بدلة التتويج حين توج قرينها القيصر فاشتغل مهرة الرجال والنساء بها ١٢ شهراً وبلغ ثمنها ٤٠ الف جنيه . والبدلة كلها حجارة من الالماس واللؤلؤ نسجت بخيوط مستدقة من الذهب . وقدر بعضهم قيمة ما في هذا المتحف من النفائس بنحو ١٢ مليون جنيه

وقد اشرت مراراً الى حفلة التتويج كما ترى فرأيت هنا ان اوضح بعض الشيء عنها لانها اكبر ما يأتيهِ البشر من انواع الابهة ومظاهر العظمة والفخامة في الحفلات الكبرى وكانت زيارتي لبلاد الروس في ايام القيصر اسكندر الثالث والد القيصر الحالي فاخترت ان اصف كيفية الاحتفال بتتويجهِ لان نظام هذه الحفلات يتغير قليلاً بحسب مطالب الزمان ورغائب القيصر ولو ان الاشياء الجوهرية تظل على حالها. واما اسكندر الثالث فانهُ جاء ليتوج في موسكو مع عروسهِ في قطار خاص يتقدمهُ قطاران اولها رائد الطريق والثاني فيهِ بعض الاعوان والعمال وكانت الطرق كلها تحرسها الجنود الروسية والمحطات مزدانة ابهى زينة وفيها الجنود ايضاً يؤدون التحية العسكرية ويضجون بالدعاء كلما مرَّ القيصر بواحدة منها حتى اذا وصل

القطار الملكي موسكو اطلقت المدافع وجرت رسوم الاستقبال العظيم وسار القيصر والقيصرة الى سراي بتروفسكي في الضواحي في طرق زينت اخر زينة وكانت المدينة كلها يومئذٍ في فرح عظيم وفيها من الناس الوف فوق الوف جاؤوا من كل صقع بعيد ليروا اعظم الحفلات الملكية وكانت هذه الالوف تصيح بالدعاء وتطأطئ الرؤوس تجلة واكراماً اينما سار القيصر العظيم. وبات القيصر والقيصرة تلك الليلة في قصر بتروفسكي الذي ذكرناهُ وهي عادة جرى عليها القياصرة من اول هذا القرن تذكاراً لخروج نابوليون بونابارت منهُ فانهُ جعلهُ منزلاً لهُ مدة وجودهِ في موسكو محارباً للروس ولما بدأ الصباح التالي قامت موسكو عن بكرة ابيها لتحتفل بيوم التتويج فما كنت ترى الا جنوداً وقواداً وامراء وسفراء ووزراء ونواباً واهل مقام كبير يخطرون بالحلل الفاخرة وسيدات من كل نوع وملة يتهادين بجميل الملابس ويتفاخرن بنفيس الحلي والجواهر وقد تراكمت الوف الناس بعضها فوق بعض وامتلأت الطرق بهم وبالرياحين والازهار والطنافس والرايات وغيرها من ادوات الزينة وما بقي سطح ولا شرفة ولا نافذة حتى احتشد الجمع فيها بلهفة وشوق الى رؤية الموكب العظيم حتى ان البيوت والاماكن الواقعة في الشوارع التي مرَّ منها الموكب استأجرها اهل اليسار بالمال الكثير ودفع بعضهم خمسة آلاف ريال او تزيد اجرة موضع تقعد فيهِ العائلة وتطل على ذلك الموكب حين مرورهِ. ولما جاءت الساعة التاسعة من يوم التتويج امتطى القيصر صهوة جوادٍ كريم مطهم وتبعهُ فريق من اهل الشرف الباذخ والمقام الرفيع على ظهور الجياد ايضاً حارسين لجلالتهِ ومعظمهم امراء وقواد وكبراء بالملابس الرسمية والوسامات العالية والقيصر يومئذٍ بلباس قائدٍ من قواد جيشهِ الباسل. وكان امام هذه الفرقة العظيمة مركبة فاخرة اكثرها من الذهب قعدت فيها القيصرة ومن ورائها عربات أخرى

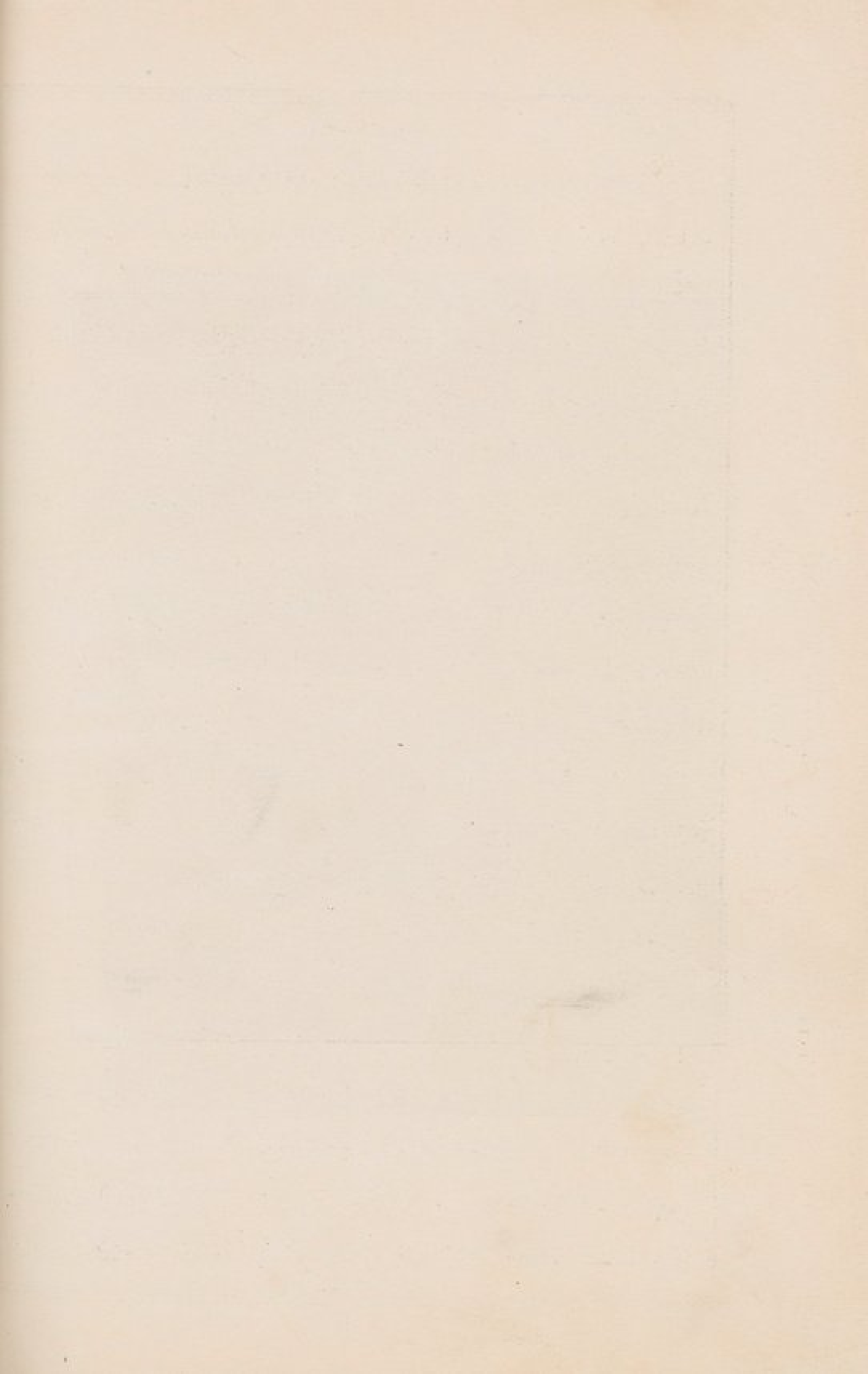




(تتويج القيصر تقولا الثاني)



(تتويج القيصر نقولا الثاني)



بديعة الصنع للاميرات ونساء الاشراف وتابعات القيصرة وامام الكل فرق من الجند ما بين مشاة وفرسان ومدفعية وقوزاق والكل بابهى الحلل واجمل المناظر يحار المتفرج في اي اقسام هذا الموكب اولى بالتحديق والامعان ومن وراء الكل ايضاً بقية المحتفلين وفرق الجند مصطفة الى جانبي الطريق . وما زال الموكب سائراً والابصار شاخصة والقلوب مفتونة ببهتهِ وكمالهِ حتى وصل القيصر والقيصرة قصر الكرملن حيث يتوجان فدخلا من باب المخلص الذي ترفع القبعات عند دخولهِ فرفع القيصر ومن احاط بهِ من القواد والامراء ايديهم الى رؤُوسهم علامة الاحترام ولم يرفعوا القبعات كغيرهم لانهم كانوا لابسين الملابس العسكرية وظلوا على ذلك الى ان اجتازوا الباب واما الباقون فكلهم طأطأوا الرؤُوس ورفعوا القبعات اجلالاً واكراماً واما القيصرة والاميرات والسيدات فانهنَّ جعلنَ يرسمن علامة الصليب على الوجوه والصدور حتى صرنَ وراء ذلك الباب ودخل الجميع ذلك القصر الفخيم فلبس القيصر والقيصرة بدلة التتويج التي مرَّ ذكرها وحمل التاج الملكي قائد عظيم من قواد الجيش وحمل الصولجان قائد آخر والكرة الارضية قائد ثالث وقد تقدم ذكر هذه الكرة عند وصف الجواهر في القصر الشتوي وهي ترى صورتها في شعار الدولة الروسية . ثم دخل القيصر والقيصرة تحت تلك المظلة التي وصفناها وقد رفعها فوق رأس القيصر ١٢ قائداً وسار الموكب العظيم على مثل ما سبق الذكر الى كنيسة الصعود بين هتاف صعد الى السماء من جموع الناس وقصف المدافع وكان الاساقفة وخدمة الدين في مقدمة الموكب ومن ورائهم امراء الدولة والوزراء والقواد وكل ذي مقام خطير حتى اذا دخلوا الكنيسة بدأت الصلاة بوقار وجلال عظيم وكان القيصر قد وقف فوق منصة عالية فرشت ارضها بالاطالس وزينت جوانبها بالذهب وبهي الالوان ولا حاجة الى وصف ما في

الكنيسة من البدائع وما خامر نفوس الحاضرين من هيبة ذلك الموقف العظيم وما كان لهُ من الوقع والجمال الغريب . وتقدم رئيس اساقفة موسكو في خلال الاحتفال الديني فناول القيصر ورقة خطٌ عليها يمين الامانة يقسمهُ القياصرة حين تتويجهم فاخذها القيصر منهُ وتلاها بصوت جهير والناس قد ملأت افئدتهم هيبة تلك الرسوم ووقار ذلك الموضع وهاك تعريب القسم المذكور

« يا ربي والهي يا ملك الملوك اني اعترف برأفتك واشفاقك وانحني خضوعاً امام مجدك العظيم لانك اخترتني ملكاً وقاضياً للسلطنة الروسية المظفرة فاجعل الحكمة السائدة في عرشك ان تهبط عليَّ من علو قدسك حتى آتي الذي يروق في عينيك وافهم كل ما ينطبق على اوامرك . وليكن قلبي مودعاً بين يديك الطاهرتين واهلني لعمل ما يفيد الامة العظيمة التي اقمتني رئيساً لها على ان اقدم الحساب عنها في يوم قضائك الرهيب . آمين »

هذه صورة القسم العظيم يتلوها القيصر وهو راكع والناس وقوف خاشعون حتى اذا انتهى من تلاوتها نهض وركع الحاضرون جميعهم الى ان يتم الاحتفال الديني . ولما فرغ القيصر من القسم تناول تاجهُ من يد رئيس الاساقفة ولبسهُ علامة انهُ هو رئيس الكنيسة الروسية ثم تناول تاج القيصرة ووضعهُ على رأسها ايضاً فتقدم رئيس الاساقفة ودهن رأس القيصر ويديهِ وجبينهُ بالزيت المقدس وباركهُ وبارك القيصرة وتلا صلاة وجيزة ثم رفع يديهِ مبتهلاً شاكراً الله وتمَّ بذلك الاحتفال فنهض الجمع الغفير ودقت اجراس الكنائس كلها واولها جرس كنيسة فان ثلكي وعدد هذه الاجراس لا يقل عن الف وخمسماية ثم أُطلق ماية مدفع ومدفع وهتفت الجنود بالدعاء وصاحت جماهير الناس والوفهم المؤلفة باصوات الفرح والابتهال حتى اذا اشتدَّ قصف المدافع ورنة الاجراس كلها اختفت عند تلك الاصوات

الكثيرة والضجة الهائلة وعاد القيصر ومن معهُ في وسط تلك الاصوات المتصاعدة الى السماء فدخل القصر المشهور واستقرَّ بهِ المقام في قاعة القديس اندراوس التي ذكرناها وفي صدرها العرش جلس فوقهُ والقيصرة عن يسارهِ وهنالك جاءَت وفود المهنئين والذين يقدمون علامات الخضوع خبزاً وملحاً وطال المقام لكثرة القادمين من اصحاب المراكز الكبرى حتى جاءَت ساعة الطعام فدخلوا قاعتهُ وهم لا يقلون عن ثلثماية شخص من اكبر كبراء الارض والقيصر في اولهم. وفي المساء زينت موسكو زينة باهية باهرة وظلت الحفلات والولائم والافراح قائمة بعد ذلك ثمانية ايام عاد من بعدها القيصر الى العاصمة وانتهى بذلك الاحتفال بتتويجهِ

وبعد ان خرجت من هذا القصر سرت في الطريق الذي اتبعهُ الموكب الى كنيسة الصعود التي يتم فيها التتويج ورأيت غيرها من كنائس موسكو العظيمة وهي كثيرة العدد اخاف ان اقدمت على وصفها ان يطول الشرح الى فوق ما يمكن ايرادهُ ولكنني اقول هنا بالاختصار ان كنائس موسكو تعدُّ في الطبقة الاولى من الاهمية بين الكنائس يكثر فيها الذهب والرخام وابواب الفضة والهياكل والمذابح من الفضة ايضاً وفيها صور ثمينة كلها مرصعة اذكر منها صورة العذراء في كنيسة الصعود هذه يقولون انها من صنع لوقا الانجيلي نقلت من الاستانة الى كنائس روسيا في القرن الثاني عشر ولا يقل ثمنها وثمن جواهرها عن خمسماية الف ريال روسي. وصورة أُخرى هنالك للسيد المسيح يحافظون عليها كل المحافظة ولا يراها الَّا القليلون في بروازها حجارة ثمينة من هدايا القياصرة لا تقل قيمتها عن نصف مليون ريال ايضاً. ومذبح هذه الكنيسة من الذهب الخالص صنع على شكل جبل طورسينا وفي اعلاهُ صورة الكليم موسى حاملاً الواح الشريعة ولا يقل ثمن هذا المذبح عن خمسين الف جنيه

ويقرب منها كنيسة على اسم رئيس الملائكة فيها مدافن لبعض قياصرة الروس الذين توفوا في موسكو يزورها كل قيصر يأتي هذه المدينة بعد الاحتفال بتتويجهِ ولكنهُ لا يقف في الكرسي المعدّ لهُ بل بين هذه المدافن عبرة وذكرى

ومن ذلك كنيسة العذراء العجائبية يزورها كل قيصر يأتي موسكو ايضاً ولا يمرُّ بها روسي الأ وهو يرسم الصليب على وجههِ فيها صورة العذراء داخل اطار غالي الثمن نفيس الحجارة واصل الصورة من دير طورسينا . والناس يعتقدون بكرامة هذه الايقونة ويقدمون لها النذور الكثيرة وقد يطوف الكهنة بها في عربة فاخرة تجرها افراس ستة فيدخلون بها بيوت المرضى ويحلُّ القوم مقامها اجلالاً عظيماً ويتبركون بحضورها فاذا قابلوها في طريق طأطأوا الرؤوس ورفعوا القبعات . وفي موسكو غير هذا من الكنائس ما ليس يمكن لنا الاشارة اليهِ بعد الذي تقدم ذكرهُ

ورأيت في موسكو ساحة الاعمال الحربية وهي على مقربة من هذه الكنائس فيها ركام متراكمة من المدافع القديمة يبلغ عددها ٨٧٥ مدفعاً منها ٣٦٦ تركها نابوليون الاول عند تقهقرهِ من بلاد الروس وعلى بعضها الحرف الاول من اسمهِ وهناك مدافع نمسوية وبروسيانية وبولونية وباقارية وهولاندية واسوجية وكلها من غنائم الحروب السابقة واعظمها مدفع مسكوبي من ايام القيصر فيودور الاول يقال لهُ ابو المدافع وزنهُ ٣٩٠٠٠ كيلو وقطرهُ متر ويلزم لكل طلقة من طلقاتهِ ٢٠٠٠ كيلو من البارود

ومما رأيت في موسكو متحف الصور واكثرهُ رسوم تمثل حوادث التاريخ الروسي فاني لما رأيت صورة حصار بلفنا مثلاً وقائد الجند الروسي سكوبلف يخطر على جوادهِ بين الصفوف بعد تسليمها ذكرني ذلك بما كان من بسالة الجنود

العثمانية والروسية في ذلك الحصار المشهور وما جرى للغازي عثمان باشا من الاكرام بعد ان سلم للروس وصار اسيراً عندهم فان القيصر اسكندر الثاني وقواد جيشهِ رأوا ان هذا البطل العثماني اظهر بسالة خارقة في الحصار فاحبوا اظهار اعجابهم بصفاتهِ وارسل القيصر وراءهُ وهو أسير فجاء في طريق اصطف جنود الروس الى جانبيهِ ولما دخل مضرب القيصر وجدهُ واقفاً بين قواد جيشهِ الظافر فحياهُ القيصر ولاطفهُ كثيراً وهناهُ باقدامهِ الغريب ثم ردَّ اليهِ سيفهُ والاسير لا يردّ اليهِ السيف الا علامة الاكرام العظيم فقبلهُ البطل العثماني شاكراً وخرج من خيمة القيصر فصاح الجنود الواقفون في الطريق « براڤو عثمان » معجبين ببسالتهِ وشكرهم هو على ذلك اللطف فكانت حكاية بلغنا من اجمل حكايات الحروب الحديثة

وقصدت بعد ذلك موضعاً في الضواحي يسمونهُ جبل العصافير سرت اليهِ في عربة فوصلتهُ بعد ساعتين ورأيت هنالك خلقاً كثيراً من المتفرجين وسفح هذا الجبل عند نهر موسكوفا ثم تتعالى جوانبهُ شيئاً فشيئاً حتى تناطح السحاب وكلها مكسوة بالشجر البهي كالسنديان والصنوبر فلما ارتقينا القمة رأينا موسكو تحت انظارنا والنهر ملتف بها متعرج بين جوانبها ومن ورائها هاتيك السهول الفسيحة والاغراس البهية وذكرت ساعتئذٍ ان بونابارت استطلع المدينة حين قدومهِ لمحاربتها من هذا الموضع ولعلَّ ذلك البطل الذكي لما رأى حصون موسكو وقبابها وعظمة ما فيها حدثتهُ النفس بالرجوع عنها مدحوراً فانهُ كان سريع الخاطر كثير الاصابة في ما سيكون من ارتدادهِ عن بلاد الروس بالخيبة وكانت حملتهُ عليها بدء سقوطهِ وضياع سلطتهِ . فذكرني ذلك بما كان يقولهُ لقوادهِ وهو ذاهب اليها « لافعلنَّ ما اريد » واما في عودتهِ فقال لهم « افعلوا ما تريدون » . وعدت الى المدينة في المساء في النهر فعند وصولي قابلني صديق لي هو مدير شركة الكسيف

التجارية العظيمة ذهبت معهُ الى مطعم ارمتاج وهو محل فخيم ينار بالكهربائية وكل ما فيهِ روسي محض فان الوان الطعام روسية والخدمة يلبسون ملابس الروس القديمة وهي سراويل ضيقة بيضاء وسترة بيضاء واسعة الاكمام وقبعة صغيرة بيضاء ايضاً فكان لهذه المناظر البهية ولصوت الموسيقى تأثير مطرب واثر جميل . واهل المدينة يقصدون هذا المطعم الفاخر لاحياء الليالي وعمل الولائم والاعراس وفيهِ استعداد تام لكل ما يلزم من هذا القبيل وغرف لكل امرٍ ومطلب حتى ان السمك يوجد في بركهِ حياً والمرء يختار السمكة التي يريدها فيصطادونها ويطبخونها لهُ في الحال

وقد سرت مع هذا الصديق في اليوم التالي لزيارة كنيسة المخلص وهي من اعظم الكنائس وابهاها بنيت فوق اكمة تشرف على المدينة ولها قباب مذهبة بديعة الاشكال بناها القيصر نقولا الاول تذكاراً لخلاص البلاد من الفرنسويين وبلغت نفقات بنائها عشرين مليون ريال جمعت بالاكتتاب من مدن روسيا وقد اشتغلوا ببنائها ٤٤ سنة والذي فيها من الصور الثمينة والانوار البديعة والجوانب المزخرفة يفوق الوصف وفيها خمسة آلاف نور . وكنيسة اڤان ڤليكي في برجها ٣٤ جرساً صنع اكبرها من بقايا اجراس قديمة بعد حريق موسكو سنة ١٨١٢ وزنهُ ٦٨٣٩٠ كيلو جراماً وعليهِ صور الامبراطور اسكندر الاول وبعض اعضاء عائلتهِ وهو يقرع مرتين في السنة اي يوم عيد الميلاد ويوم عيد الفصح ويقرع ايضاً عند التتويج او عند حدوث حادث في السلطنة عظيم كوفاة قيصر او ما يشبه هذا . واعظم منهُ بل هو اعظم اجراس الدنيا الجرس الكبير الملقى الى الارض على مقربةٍ من هذا البرج وضعوهُ في قبة متينة فسقطت من ثقلهِ علوهُ ٨ امتار ومحيط فوهتهِ ٢٤ متراً فيمكن لعشرين شخصاً ان يجتمعوا داخلهُ وعليهِ نقوش دينية ورسوم بعض القياصرة

ويؤْخذ من كتابة عليهِ ان الامبراطورة حنه صبتهُ سنة ١٧٣١ ويبلغ وزنهُ ١٩٥٠٠٠ كيلو

وقد ذكرنا ان القياصرة اذا اتوا موسكو للتتويج باتوا في قصر بتروفسكي تذكاراً لخروج نابوليون منهُ وهو بات فيهِ ليلة اندحارهِ وتقهقرهِ عن موسكو ومما يذكر عنهُ انهُ جاء بلاد الروس ومعهُ ١٥٠ الف جندي فلما خرج من موسكو كان معهُ ٤٠ الفاً فقط وذلك بسبب ما اصاب هذا الجيش من هجمات الروس والبرد الشديد وتراكم الثلج وقلة الزاد . وقد مات هذا الخلق الكثير اي ماية وعشرة آلاف في ثلثة ايام فقط من ١٩ الى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨١٢ فسرت الى هذا القصر في سهل فسيح تحيط بهِ الحدائق الغناء والرياض الفيحاء ووراءها ساحة التمرينات العسكرية وميدان لسباق الخيل ومتنزهات وقصور جميلة حتى اتينا القصر ورأينا جوانبهُ ولا حاجة الى الوصف والاسهاب بعد كل الذي كتبناهُ عن قصور القياصرة العظام

وجملة القول اني شغفت بهذه المدينة وآثارها العظيمة فما ابقيت منها شيئاً حتى قصدتهُ ولما انتهى الاجل وعولت على الرحيل منها غادرتها وقصدت غيرها من مدائن الروس

كييف

اجتاز القطار بنا المسافة بين المدينتين في ٢٧ ساعة قضينا معظمها نخترق الهضاب والبطاح ونسرح الانظار في تلك المروج النضرة والحراج الغضة والحقول الفسيحة مرصعة بالقرى والعمائر وفيها الفلاحون بالجبات الطويلة والجزم الروسية المتينة والنساء بملابس من الشيت يعملنَ في انبات الارض واستدرار خيرها على

مهلٍ والرزق متوفر لديهم بما نالوا من خصب الارض وطيب الهواء. وكييف ولايخفى كانت عاصمة الروس قبل موسكو وهي تعد مدينة مقدسة عند القوم لان النصرانية امتدت منها الى بقية نواحي المملكة وفيها مناسك الاولياء ومعابد قديمة العهد وهي عاصمة اقليم كبير بنيت على ضفة نهر دنيبر العظيم وهم يسمونهُ نهر اورشليم لان الذين اعتنقوا الدين المسيحي عند دخولهِ البلاد تعمدوا في مائهِ ولمنظرها جمال تحفظهُ الذاكرة لان احياءها واقعة على تلال واكام تليها عقبات وساحات وهي مشهورة بتجارة الغلال لانها مثل اكثر مدائن الروس في وسط سهول تكثر فيها الزراعة

ومن اشهر ما في كييف الدير القيصري وكنيستهُ والمغارات المقدسة الى جانبهِ وهو على رأس اكمة بديعة قصدناهُ ودخلنا تلك المغائر الضيقة فرأينا فيها مدافن المتعبدين الاول توقد الشموع الى جانبها ليل نهار وللناس ولع بزيارة هذا الموضع حتى انهم لا يقلون عن مايتي الف زائر كل عام. وفي هذا الدير مدرسة لاهوتية ومطبعة وفرن للقربان المقدس بلغ ثمن ما وزع منهُ على الزائرين في سنة واحدة خمسين الف ريال. وفيهِ كنيسة كانها قطعة من الذهب لكثرة ما ذهبوا من جوانبها وقد اودعوا فيها عظام القديس ثيودوسيوس. وهنالك موضع بسيط لا اثر فيهِ للعظمة غرسوا فيه صليباً والى جانبهِ بركة من الماء يحترمهما الروس احتراماً عظيماً لان هذا الموضع كان اساس النصرانية في البلاد واول من تنصر من اهلها عمد في تلك البركة فهم يتبركون بمائها وينقلونهُ الى ابعد الانحاء. واكثر ما في كييف مناظر مثل هذه لست ارى داعياً الى الاسهاب في وصفها. وعدد سكانها ثلاث مئة الف نفس

اودسا

تركت كيف قاصداً اودسا وهي مدينة للروس عظيمة في الجنوب على شاطئ البحر الاسود تبلغ المسافة بينها وبين كيف ١٦ ساعة في القطار ولا يصل المسافر من بطرسبرج اليها الاَّ بعد سفر ستين ساعة في القطار المستعجل يجتاز في خلالها ١١ اقليماً وفي هذا ما يكفي للدلالة الى اتساع بلاد الروس وعظمتها. والطريق الى اودسا لا يختلف في وصفهِ عما مرَّ ذكرهُ من مناظر البلاد الروسية ولكن المدينة عظيمة الاهمية والمتاجر يصدر منها في كل عام من الحبوب ما قيمتهُ مائة مليون ريال وفيها معامل للنشا وللصابون والحديد والجلد والدخان والشمع ومعامل لبناء السفن التجارية والحربية ولا يقل عدد السفن التي تدخل ميناءها كل سنة عن ستة آلاف سفينة. ولهذه المدينة تاريخ قديم مثل كيف فانها بنيت على عهد كاترينا الثانية واتاها في سنة ١٧٩٠ فرنسوي هو الدوك ريشليو هجر بلادهُ لاسباب سياسية فعين حاكماً لها ونظمها ورفع منزلتها فصارت من ايامهِ تعدُّ من امهات المدائن الروسية وهي الرابعة بين مدن روسيا الكبيرة الآن وعدد سكانها نصف مليون من النفوس

واعظم مشاهد اودسا محل يشبه منشية الاسكندرية في شكلهِ ووضعهِ وهو الى جانب البحر ترى منهُ البواخر الراسية او السائرة في كل الجهات وقسماً عظيماً من المدينة وهو مثابة الكبراء من اهل اودسا ينتابونهُ في الليل والنهار وفيهِ مطاعم ومواضع للتنزه من كل جانب. ويلي هذا الموضع البهي بناء البورصة والمكتبة العمومية ونادي الاشراف ومركز شركة البواخر الروسية والمرسح الجديد وغير هذا مما اكتفي بالاشارة اليه. هذا غير الضواحي الجميلة والقرى الكثيرة المحيطة بهذه المدينة مما قضيت ردحاً من الزمن في التفرج عليهِ الى ان آن زمان السفر من بلاد الروس فتركتها معجباً بما فيها



الدولة العلية

خلاصة تاريخية

اسس هذه الدولة العظيمة امير اسمهُ ارطغرل كان قد نزح مع ابيهِ وقبيلتهِ على عهد جنكيز خان من بادية خراسان الى جهات الاناطول في اواخر القرن السابع للهجرة وكان في اول امرهِ تابعاً لامير قونيه السلجوقي فلما مات ورث الامارة ابنهُ عثمان وهو جد هذه الدولة الذي اورثها اسمهُ كان حاكم قضاء صغير في امارة قونيه فلما مات اميرها علاء الدين استقل عثمان بولايتهِ سنة ١٢٩٩ مسيحية و٦٩٩ هجرية وجعل من بعد ذلك يوسع دائرة ملكهِ ويسطو على الاقوام المجاورة لهُ حتى انهُ توصل الى فتح مدينة بروسه (بورصه) المشهورة على يد ابنهِ اورخان وجعلها مقرّ امارتهِ الى يوم مماتهِ في سنة ١٣٢٦ (٧٢٦ ه)

وخلف عثمان ابنهُ اورخان وكان محباً للفتح ولهُ ميل الى تحسين الادارة الداخلية فهو اول من نظم الحكومة العثمانية ووضع اساس الجيش العثماني والانكشارية الذين اشتهروا بعد ذلك في تاريخ هذه الدولة واصلهم من اسرى الحروب ومن اولاد النصارى جعل السلطان يربيهم تربية اسلامية ليكونوا عدتهُ في الحروب القادمة وبقي وجاقهم ذا شأن كبير يولي السلاطين احياناً ويخلع السلاطين الى اواسط القرن التاسع عشر حين افناهم السلطان محمود واراح البلاد من عنادهم وتحكمهم

وتعاقب السلاطين بعد اورخان وكل منهم في اوائل هذه الدولة يوسع املاكها ويفتح اقطاراً جديدة حتى وقعت اسيا الصغرى كلها في قبضتهم وبعض اوروبا . ثم قام محمد الثاني فاتح القسطنطنية وتمكن من الاستيلاء عليها بعد حصار شديد سنة ١٤٥٣ فجعلها قصبة

ملكهم فهي دار السلطنة والخلافة الاسلامية الى اليوم . وكان الاتراك يتشوقون من زمان طويل الى فتح هذه المدينة واستخلاصها من يد الروم وقد قتل الملك قسطنطين باليولوغوس في اثناء الحصار وهو آخر ملوك السلطنة البزنطية وعرفت جثتهُ بعد دخول الاتراك الى المدينة فامر السلطان محمد ان تدفن بالاكرام . ثم استولى السلطان على خزائن الاستانة وعظم شأنهِ في الارض وبدأَت اوروبا تخاف على سلامتها من الفاتحين العثمانيين لانهُ من يوم تولى السلطنة سليم الاول صار فتح اوروبا امنية السلاطين . وسليم الاول هذا هو الذي ملك سورية ومصر وكردستان وبلاد العرب وورث الخلافة عن العباسيين فبلغت السلطنة العثمانية في عهدهِ مقاماً رفيعاً ولما آلت الدولة الى ابنهِ سليمان الاول وهو المعروف بالكبير او القانوني كان آل عثمان في اوج عزهم حتى ان نفس هذا السلطان سولت لهُ ان يفتح اوروبا برمتها فاكتسح بلاد البلقان وضمها الى ملكهِ ونقدم على بلاد المجر فاثخن في اهلها وزحف بعد هذا على ڤينا سنة ١٥٢٩ فحاصرها وضيق عليها الخناق ولكنهُ لم يتمكن من فتحها ولو هو فعل لوقع معظم اوروبا في قبضة الاتراك . وكان السلطان سليمان معاصراً لشارلكان امبراطور المانيا واسبانيا وفرانسوا الاول ملك فرانسا وقد تداخل مرة في الحروب بينهما نصرة لملك الفرنسيس . ولم ترَ الدولة عزًّا مثل الذي رأَتهُ على ايامهِ لانها بلغت حدًّا بعيداً في املاكها ولان سلطانها كان حكيماً في الادارة قديراً في حروب فلما آلت السلطنة الى من جاء بعدهُ بدأَت بالهبوط لما ان الخمول والانغماس في اللذات تغلبا على السلاطين . هذا غير ان الاضطرابات الداخلية كثرت من بعد ايام السلطان سليمان وعاث الانكشارية في البلاد فساداً وصيروا السلطان العوبة في ايديهم حتى اباده السلطان محمود كما تقدم القول . وقد ضعفت الدولة بتوالي الحروب مع روسيا وسواها وجعلت املاكها الاوروبية تضيع من قبضتها شيئاً بعد شيء حتى اذا كانت سنة ١٨٧٨ وعقد مؤتمر برلين بعد حرب روسيا وتركيا الاخيرة انتهى عملهُ بفصل معظم الولايات الاوروبية وتحريرها ثم تلا ذلك ان كريت استقلت ادارياً على اثر حرب الاتراك والاروام الاخيرة وان القلاقل الداخلية كثرت وتجسمت على عهد السلطان عبد الحميد الثاني حتى رأَى عقلاء الامة انهُ لا ينقذ هذه السلطنة من الاضمحلال غير الاصلاح على القاعدة الدستورية فظلوا يستعدون سرًّا لهذه الغاية والسلطان يبطش بكل ذي صراحة منهم حتى استمالوا اليهم قسماً عظيماً من الجيش واكرهوا السلطان على قبول الدستور واعادة القانون الاساسي الذي نودي بهِ في اوائل حكمهِ وكان ذلك في ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ ففرح العثمانيون بهذه النعمة فرحاً عظيماً في سائر الاقطار واقاموا الحفلات الشائقة وسارت الحكومة العثمانية سيراً دستورياً بضعة اشهر

سولت النفس في خلالها للسلطان عبد الحميد ان يعيد استبداده السابق فانتقض عليهِ الجيش مرة اخرى وتغلب على اعوانهِ وخلعهُ بفتوى من شيخ الاسلام يوم ٢٨ ابريل من سنة ١٩٠٩ ثم ارتقى العرش مكانهُ جلالة السلطان الحالي محمد الخامس وهو اول ملك دستوري رقي عرش عثمان واعلن رغبتهُ مرارًا في الحكم على الطريقة الدستورية وميلهُ الى الاختلاط بالامة والسياحة في الاقطار . وقد قلد جلالة السلطان محمد الخامس سيف آل عثمان يوم ١٠ من شهر مايو سنة ١٩٠٩ في حفلة باهرة هي بمثابة حفلات التتويج عند ملوك الافرنج ورأيت ان انقل هنا تفاصيل هذه الحفلة العثمانية اتماماً للفائدة فاقول :—

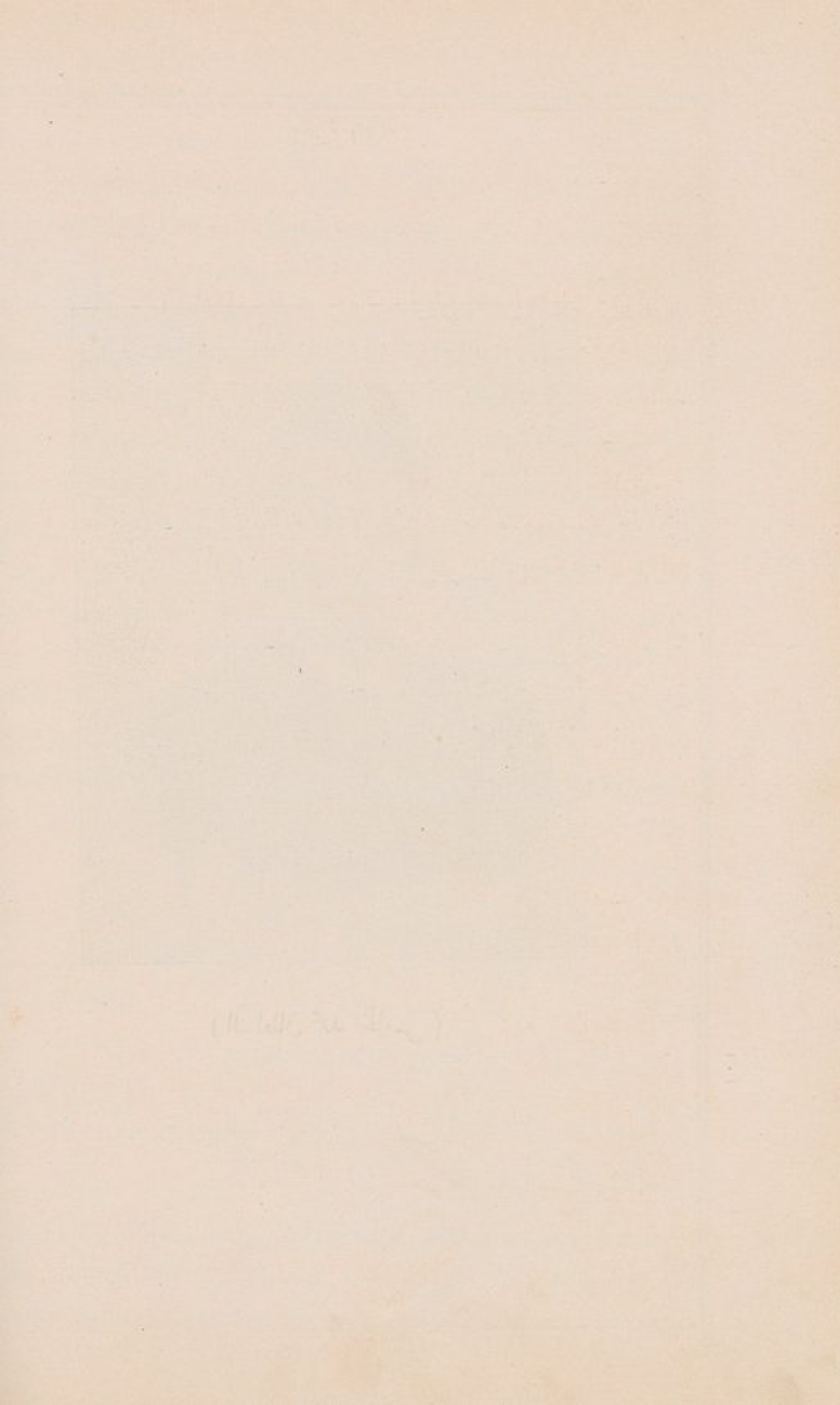
لما عزمت الحكومة العثمانية على تقليد جلالة السلطان سيف جدهِ عثمان ارسلت منشوراً الى سكان الاستانة بينت لهم فيهِ مواضع الاحتفال المنوي وآياتهِ واشارت بتزيين الطرق والمنازل ثم اهتمت باعداد الدواوين والجوامع والميادين وبقية المواضع العمومية التي مرَّ بها الموكب او تمَّ فيها شيءٌ من حفلات التتويج ونصبت السرادقات الخصوصية للسفراء والامراء والرؤساء الروحيين ونواب الصحف حتى اذا تم الاستعداد رسا يختان عثمانيان قرب سراي طولمه بغجه وهي منزل السلطان الحالي . فلما جاء موعد القيام خرج امراء البيت السلطاني وجلسوا في احد اليختين المذكورين . وركب حرم القصر العربات السلطانية وسرن محفوفات بالخدم والاغوات الى استمبول . وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٣٥ خرج جلالتهُ فصدحت الموسيقى بنغم الحرية وركب يخت سيوگلي فسار الى بستان اسكله سي وحيتهُ المراكب الحربية العثمانية باطلاق المدافع وفي مقدمتها المدرعة مسعودية

ولما وصل جلالتهُ بستان اسكله سي استقبلهُ الوكلاء وشيخ الطريقة المولوية جلبي افندي وهو الذي لهُ حق تقليد السلطان سيف عثمان وبعض المشائخ وسار الموكب الى جامع ايوب الانصاري مشياً على الاقدام فدخل جلالتهُ المكان المعد لهُ وجلس الوكلاء في اماكنهم وبعد ان استراح قليلاً دخل الى التربة حيث كان السيف موضوعاً على نمرقة فاخذهُ بحضور رئيس الاعيان والمبعوثان والصدر الاعظم وشيخ الاسلام واعطاهُ لجلبي افندي فقلدهُ اياهُ وقرأ دعاء لجلالتهِ وكان الانفعال بادياً على جلالتهِ . ثم خرج الناس وتركوا جلالتهُ يؤدي الصلاة لله شكراً على هذه المنة

ولما اجتمع الموكب خارج الجامع دخل السر تشريفاتي واخبر جلالتهُ بذلك فخرج وحيا المدعوين في صحن الدار وركب العربة وسار الموكب في ثلاث آلايات على الترتيب التالي



(السلطان محمد الخامس)



١ سيارة مصفحة نقل جماعة من الضباط سارت امام الجميع لفتح الطريق
٢ فصيلة صغيرة من فرسان سلانيك
٣ فصيلة من الفرسان ايضاً
٤ الموظفون الذين رتبتهم بالا راكبين العربات
٥ ثلاثة فرسان وراءهم
٦ الرؤساء الروحيون غير المسلمين
٧ العلماء بالجبات الزرق
٨ وفد المبعوثان
٩ وفد الاعيان
١٠ فصيلة من الرماحة
١١ الوزراء كل اثنين منهما في عربة
١٢ رئيسا النواب والاعيان
١٣ الصدر الاعظم وشيخ الاسلام
١٤ فصيلة من الفرسان
١٥ سر ياور
١٦ سر تشريفاتي
١٧ حرس سلانيك
١٨ قومندان الجندرمة
١٩ فصيلة رماحة
٢٠ قائد الجيش العام
٢١ انور بك بطل الدستور العثماني
٢٢ فرقة رماحة
٢٣ اركان الحرب
٢٤ السلطان في عربة سلطانية ومقابلهُ مختار باشا الغازي اقدم الضباط العثمانيين عهداً
٢٥ جنود من سلانيك ومعهم عدد من الرماحة
٢٦ ضياء الدين افندي نجل جلالة السلطان ولطفي بك تشريفاتي جلالتهِ
٢٧ نجم الدين نجلهُ الثاني
٢٨ عمر حلمي نجلهُ الثالث
٢٩ نيازي بك بطل الدستور
٣٠ فرقة من المدفعية
٣١ الفرسان
٣٢ الداماديون او هم اصهار السلطان
٣٣ طوبجية الفيلق الثالث

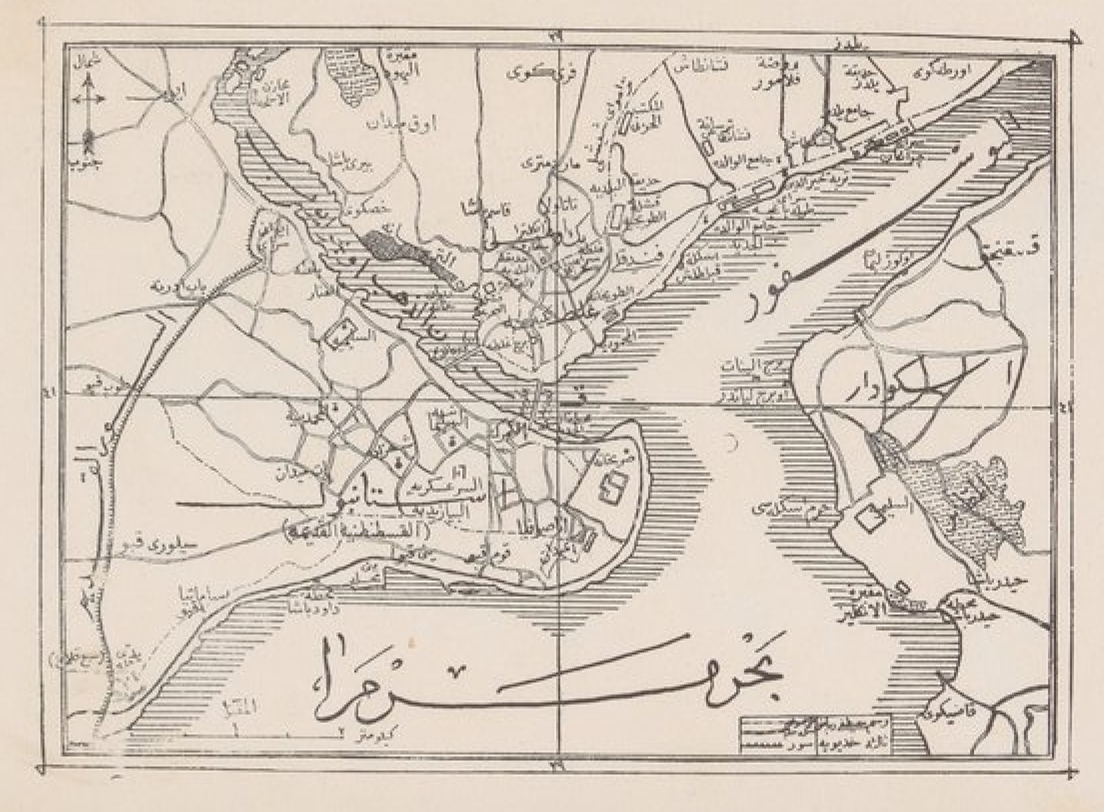
وقد رجع السلطان بهذا الموكب الباهر والناس محتشدة الوفاً موءلفة في كل موضع مرَّ بهِ وقضى ساعتين بعد خروجهِ من قصر طولمه بغچه حتى بلغ طوب قبوحيث تحفظ الآثار النبوية وهنالك نزل من العربة وتبعهُ الامراء والوكلاء والعلماء فزار تلك الآثار متبركاً بها ثم رجع من هنالك الى قصرهِ في الطريق التي جاء منها وبذلك انتهى الاحتفال بتتويج سلطان آل عثمان

الاستانة

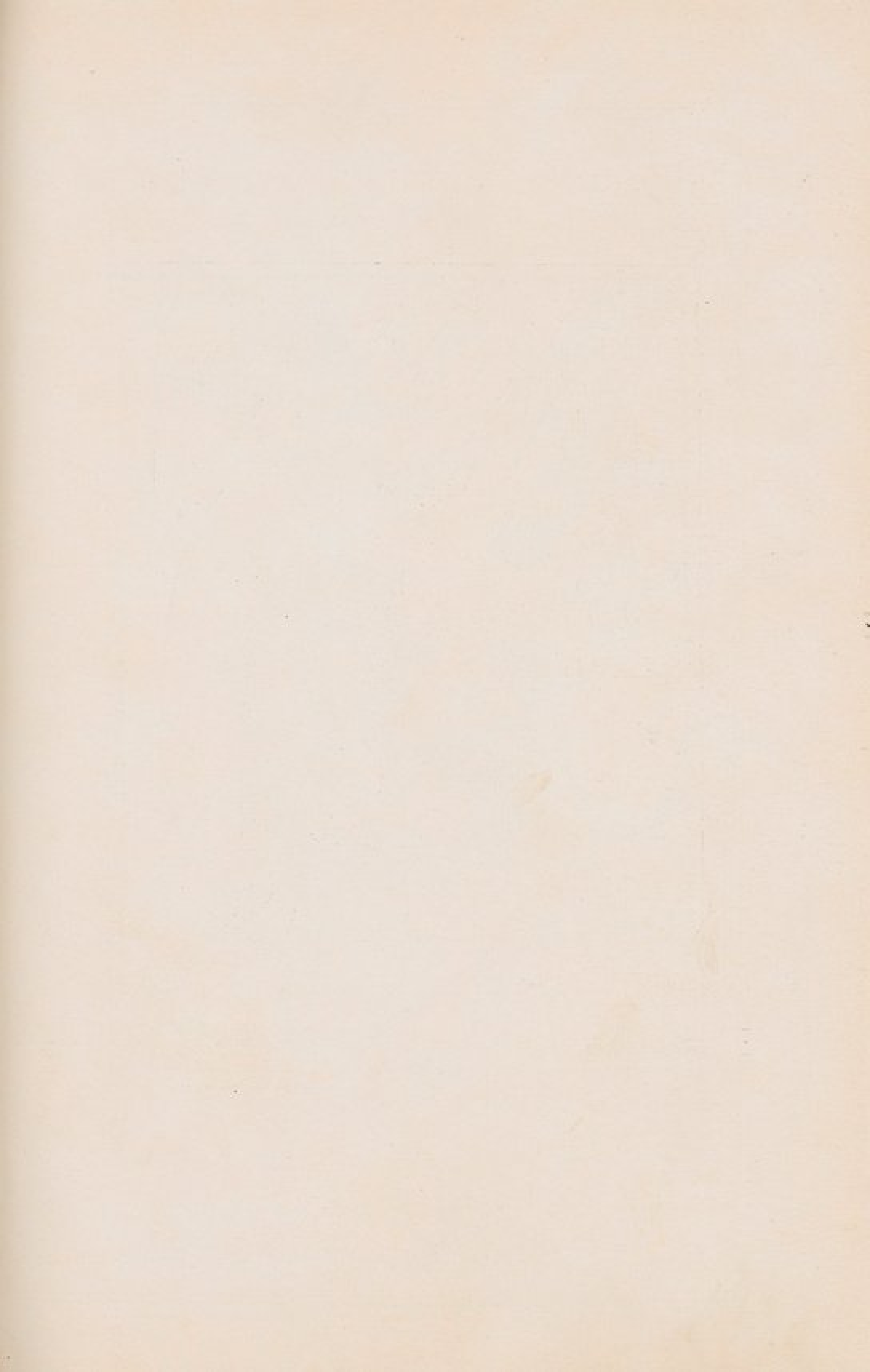
برحت اودسا وهي آخر المدن الروسية قاصداً الاستانة في البحر الاسود وركبت باخرة روسية ظلت ثلاثة ايام في هذا البحر حتى وصلت اول البوسفور فوقفت قليلاً وجعلتُ اتأمل تلك الحصون المنيعة التي اقامتها الدولة العلية الى جانبي البوغاز وصوّبت مدافعها الى حيث تجري البواخر . ولما سارت الباخرة في البوسفور ظهرت بدائعهُ من الجانبين سواء المناظر الطبيعية او القصور الشماء والرياض الفاخرة التي رصعت بها جوانب الارض مما سنصف بعضهُ حتى وصلنا جسر غلطه وهو الذي نزلنا من الباخرة اليهِ . وبعد التفتيش ذهبنا الى فندق رويال في حي بك اوغلي حيث اقمت مدة وجودي في الاستانة

وقد كان موقع الاستانة ذا شهرة من قدمٍ وعرف باسم بزانتيوم ورد ذكرها في القرن السادس قبل التاريخ المسيحي حين محاربة الفرس والروم وتوالت عليها الدول فيوماً كانت تقع في حوزة الروم ويوماً يملكها الفرس حتى اذا دالت دولة الايرانيين الاولى صارت من المدن الرومية وظلت على ذلك الى ان فتحها قياصرة الرومان مع بقية الولايات الرومية ولكنها لم تشتهر بشيء كبير حتى قام الامبراطور قسطنطين الاول سنة ٣٠٦ مسيحية واعجب بموقعها فشاد بها العمائر وجعلها مقرَّ سلطنتهِ وسماها « رومه الجديدة » الّا ان الخلف اطلقوا عليها اسم الامبراطور الذي اسس دور عظمتها فهي تعرف باسم القسطنطينية الى هذا اليوم

وفي سنة ٣٩٥ قسمت سلطنة الرومان هذه جزئين احدهما غربي عاصمتهُ رومه والثاني شرقي عاصمتهُ الاستانة فصارت هذه المدينة الجميلة مركز سلطنة كبيرة تعرف باسم المملكة الشرقية لم يشتهر عنها شيء يوجب الفخر لان الضعف



(خارطة الاستانه)



كان من صفات ملوكها والفساد عمَّ بين اهلها الى ان قام امبراطور اسمهُ جوستنيانوس في سنة ٥٢٧ فاصلح بعض امورها وطهر حكومتها من الفساد السابق ورفع منزلة جيشها وادارتها ونشط العلم واكرم العلماء واحيا بعض الصناعات فدخلت المملكة الشرقية على عهدهِ في دور جديد من الحياة ولم تزل آثار ذلك العصر البهي يرى السائح شيئاً منها في اكثر المعارض الحديثة . وحدث بعد هذا بقليل ان الاسلام انتشر في الشرق فجاء جنود العرب عاصمة الدولة الشرقية هذه وهاجموها مراراً ولكنهم لم يقووا على فتحها مع انهم اخضعوا عدة اقطار كانت تابعة لها . وظلت هذه المدينة محافظة على استقلالها مع الضعف الظاهر فيها حتى حصلت الحروب الصليبية المشهورة فمرَّ جنود من الفرنجة بها وملكوها واتلفوا شيئاً كثيراً من عمائرها ونفائس الصناعة القديمة فيها ثم عادوا عنها واسترجع الروم استقلالها فظلت على ذلك حتى قيام الدولة العثمانية وكان اول من هاجمها من سلاطين آل عثمان السلطان مراد الثاني اتاها من ادرنه في سنة ١٤٢٢ فلم يفلح وخلفهُ ابنهُ السلطان محمد الثاني وهو الملقب بالفاتح فوجه همهُ من يوم ارتقاء العرش الى افتتاح هذه المدينة وحاصرها في اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٤٥٣ ففتحها في التاسع والعشرين منهُ بعد قتال شديد وحرب عنيفة قتل فيها الامبراطور قسطنطين باليولوغوس وهو آخر ملوك الدولة الشرقية وصارت الاستانة من ذلك العهد مقر السلطنة العثمانية

ولا حاجة الى القول ان الاستانة دخلت في دور جديد من العظمة والاهمية بعد هذا الفتح لان سلاطين آل عثمان ارهبوا اوروبا وارجفوها وكانت عاصمة بلادهم تعتز بعزهم فلما اشتهر امر قوتهم الهائلة صارت هي اعظم مدائن الارض واشهرها وعدد سكانها الآن مع ضواحيها مليون ونصف مليون نفس وعني السلاطين

بناء الآثار فيها فسارت في خطة الارتقاء وهي زينة البرين ودرة البحرين والصلة الحسنى ما بين القارتين فانها وجدت في اجمل المراكز وامنعها اذا تأملتها من وجه سياسي رأيت انها في مركز العمران هي الحد الفاصل ما بين اوروبا واسيا حتى ان نصفها بني في اوروبا والنصف الآخر في اسيا والذي يملك مركزها يعدُّ مالك احسن المراكز الحربية في الوجود وهذا الذي قلناهُ رأي اكبر اهل السياسة والنظر من عهد بعيد . واما من حيث الاهمية الجغرافية فقليل بين مدائن الارض ما يحيط بهِ كل هذا العدد الغريب من الممالك والولايات واما في جمال المنظر فاجمع اهل العلم على وضع الاستانة في الموضع الاول

وقد زاد الاستانة بهاء وجمالاً انها بنيت على تلال فهي تعرف باسم مدينة التلال السبعة فالقادم اليها من جهة البوسفور يسحرهُ جمال هاتيك الروابي البهية رصعت بالمنازل وازدانت جوانبها بالخضرة النضرة من فوق ماء نقي في مجرى البوسفور وقد قسمت الطبيعة هذه العاصمة قسمين كبيرين شرقي في اسيا وهو المعروف باسم اسكودار واهلهُ جلهم اتراك وقسم آخر في الناحية الاوروبية وبين القسمين بوغاز البوسفور وبحر مرمرا. وقد توسط ما بين البوسفور ومرمرا متسع من الماء سمي قرن الذهب وهو يقسم الشطر الاوروبي من الاستانة قسمين اولهما قسم بيرا (بك اوغلي) وغلطه وسكانهما خليط من الفرنجة والارمن وبقية السكان غير الاتراك وهو اهم اجزاء المدينة والثاني وهو المدينة الاصلية يعرف باسم استامبول وسكانهُ اتراك ونزلاء على اختلاف الاجناس . وتمتاز هذه العاصمة البهية بامور عدة منها اجتماع الاجناس الكثيرة من كل لون وشكل في ربوعها فهنالك الجنس الاوروبي من اهل النسق الحديث والجنس الشرقي من اواسط اسيا واقاصيها واطرافها بالملابس الاسيوية والافريقي يسير الى جانب الشركسي والرومي يقيم

مع الداغستاني والاسوجي يلتقي في كل حين بالايراني فما ترى في مدينة من مدائن الارض موضعاً ضمَّ كل هذه الاجناس المتباينة وليس بين المدائن واحدة فيها من الازياء الغريبة ما في هذه العاصمة العظيمة التي لم يبنِ الناس موصلاً بين الشرق والغرب اهم منها ولا عثروا على مركز اجمل من مركزها

وقد مرَّ بك اني توجهت حال وصولي من غلطه الى الفندق في بك اوغلي وهذان القسمان اهم اجزاء الاستانة يمكن الوصول من احدهما الى الآخر بثلثة طرق اولها نفق تحت الارض حفروهُ ومدوا فيهِ خطوط الحديد تسير عليها العربات بقوة الضغط فاذا شاء المرء ان ينزل من بيرا الى غلطه وضفة البوسفور دخل محطة هذا النفق وقعد في عربة مع غيرهِ حتى اذا جاء موعد الحركة تحركت العربات هاوية تحت الارض فلا تستقرُّ الاَّ في محطة غلطه . واما الطريقة الثانية فالسير على الاقدام والشوارع التي تمر بها هنا مهملة مثل اكثر شوارع الاستانة لايستثنى منها غير شارع بيرا . والطريق الثالث تجري فيهِ عربات الامنبوس مارةً امام البنك العثماني

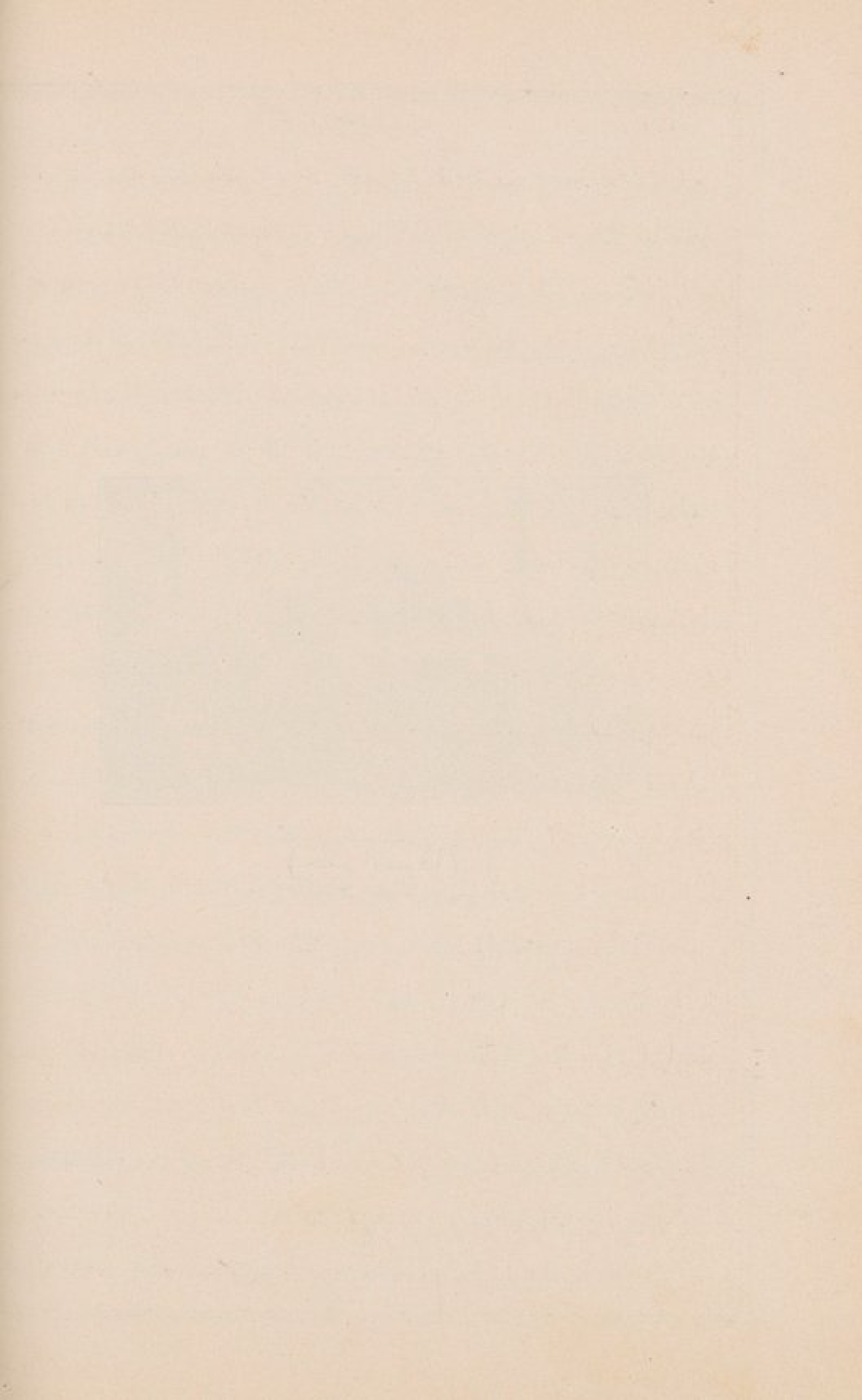
ولما كان منظر الاستانة بوجه الاجمال من ابهى مناظر الارض سبق الى ذهني ان اراها في لحظة من الزمان قبل ان ابدأ بالتفاصيل وذلك متيسر فيها من عدة اماكن نظراً الى وضعها البديع واحسن ما يكون منها برج غلطه المشهور وهو برج مرتفع بني عَلى مقربة من البوسفور وكان القصد من بنائه الاشراف على نواحي المدينة كلها لايصال أخبار الحريق اينما شبت النار الى رجال المطافيء . والحرائق كثيرة هنالك لان المدينة مبنية اكثر منازلها بالخشب وفي بعض جهاتها ازدحام يساعد عَلى انتشار النار فاذا رأى الرجل الواقف في اعلى هذا البرج ناراً لوَّح براية حمراء في يدهِ يراها رجل آخر في برج السردارية هو ابداً يرقب ما حولهُ ولا يبرح مكانهُ حتى يأتي

سواهُ لاستلامهِ فاذا لاحت الراية أُطلق مدفع يسمعهُ رجال المطافيء وأُعطيت اشارة بالجهة المقصودة فيهب الرجال ولا هبوب الرياح وهم يحملون المطافيء على اكتافهم ولهم حين يقومون لمثل هذه الغاية منظر غريب لان اكثرهم من اقوياء الرجال يعدون في الطريق وعلى وجوههم جرأة الاسود الكواسر فلا يقف في طريقهم شيء ولا يردهم عن امرهم رادٌ حتى يصلوا النار ويبدأُوا باطفائها وا كثرهم يتشاركون ويتعاونون على هذا العمل ولهم اجرة يتقاضونها على كل نار يطفئونها وماهم بفرقة منظمة تحت امرة الحكومة مثل رجال المطافيء في اكثر النواحي الاوروبية . ولذلك قصدت برج غلطه المذكور بعد وصولي بيوم واحد وارتقيت القمة فراق لي منظر هذه المدينة العظيمة وضواحيها الباهرة من كل جانب وانت اذا صعدت قمة هذا البرج وجدت نفسك في دار او رحبة لها ١٤ طاقة كبرى تريك ما حولك من الارض في كل جهة ففي الشمال جهة قاسم باشا ونظارة الحربية وقرن الذهب وفيهِ الباخرات العثمانية راسية وفي الشرق ترى حارة الطوبخانة وحي فندقلي وفيهِ سفارة المانيا وحي نشان طاش قامت في اواخرهِ سراي يلدز العظيمة . ثم اذا تلفتَّ يميناً بعد هذه المناظر لاح لك البوسفور البهي بمائهِ المترقرق والسفائن التجارية ذاهبة وآيبة فوق سطحهِ تحدثك بغريب امرهِ ويلي ذلك طاقات ترى منها الباب الهمايوني ومركز الصدارة العظمى ووزارات الدولة العلية من ورائها اسواق الاستانة تنتهي بمنظر ايا صوفيا وجامع السلطان احمد بمآذنهِ الست وجامع نور عثمان ثم سراي السرعسكرية وسراي شيخ الاسلام وبعض الجوامع المشهورة والمشاهد الاخرى التي سنعود اليها وجملتها تؤَثر في النفس تأثيراً عظيماً يشهد بما لهذه العاصمة من فريد الجمال وغرابة الموقع الطبيعي وعظيم المشاهد

ولا بد لكل من يقيم يوماً واحداً في الاستانة ويسمع بشطريها العظيمين



(جامع آیاصوفیا)



وبحريها البديعين ان ينتقل من احد قسميها الى الآخر فوق جسر غلطه المشهور وهو ينتقل عليهِ الناس بين غلطه واستانبول ويعد الحد الفاصل بين البوسفور وقرن الذهب يمرُّ عليهِ كل يوم الوف من الناس اكثرهم مشاة على الاقدام وبعضهم في العربات او على ظهور الخيل وكل ذاهب او آيب يدفع عشر بارات رسم العبور على هذا الجسر فيجتمع عند الحكومة من ايرادهِ مبلغ يستحق الذكر كل يوم . وما رأيت نقطة في الارض ترى فيها اشكال الناس المتباعدة مثل جسر غلطه هذا فان الذي يقف فوقهُ ويتأمل المارة ساعة من الزمن يرى الذي لا يراهُ بعض السائحين في اشهر طوال ولا عجب فهنالك الحلقة الموصلة بين العالمين كما قدمنا . والجسر مبني من الخشب على عمد من الحجر متينة يقف عند طرفيهِ خادمون يتقاضون الرسم من المارة باليدين فكلما امتلأَت يد واحدٍ منهم افرغها في مكتب من الخشب عند طرف الجسر يقيم فيهِ عامل من الحكومة يدفع اليها المجموع في آخر النهار وقد اعتاد هؤُلاء العمال جمع الضريبة حتى انهم لا يوقفون المارَّ لحظة بل يقبضون من هذا باليمين ويصرفون لذلك القطع الكبيرة باليسار ولا يخطئون وكلُّ سائر في طريقهِ لا يقف لدفع ما عليهِ

ولا بدَّ ان يعلم القراءُ ما الجامع آيا صوفيا من الشهرة وهو اقدم جوامع الاستانة كان اصلهُ كنيسة بنيت على عهد الامبراطور جوستنيانوس الذي مرَّ ذكرهُ وكان في نيتهِ ان يجعلها اعظم ما بني من نوعها فاستحضر لها الاعمدة الثمينة من الهياكل القديمة في اثينا ورومة وبعلبك ومن بعض الهياكل المصرية واستخدم في البناء عشرة آلاف رجل اقام عليهم المقدمين والوكلاء وكان هو يأتي بنفسهِ من حين الى حين ليراقب الاعمال وينشط العمال لفرط اهتمامهِ بتلك الكنيسة . ثم ان هذا الامبراطور اراد ان يجعل قبة الكنيسة من غرائب البناء فصنع لهُ عمالهُ نوعاً

من الآجر او القرميد خفيف الوزن لا يزيد عن عشر غيرهِ وزناً وجدوا ترابهُ في جزيرة رودس ونقشوا على كل قطعة منهُ جملة معناها «ان الله جبلها وهو يحفظها» وكانوا يصلون الى الله مدة البناء ان يؤيد دعائمهُ ويوطد اركانهُ فما اخطأوا لان البناء قاوم فعل الطبيعة مدة القرون الطوال ولم يزل الى يومنا الحاضر شاهداً على اجتهاد بانيهِ وغرابة وضعهِ وتقدم الصناعة في تلك الايام . ثم ان القوم انفقوا على تذهيب هذه الكنيسة مقادير وافرة من الذهب فان ادوات العبادة و٢٤ انجيلاً كانت كلها من الذهب الخالص وكان الهيكل قطعة من الذهب الثمين مرصعاً بالحجارة الكريمة ومائدتهُ قائمة عَلَى اربعة عمد من هذا المعدن النفيس ووزن سقفها ١١٨ رطلاً من الذهب الخالص وعليها صليب وزن ذهبهِ ٨٠ رطلاً مصرياً ولا حصر للاموال التي أنفقت على هذا المعبد العظيم . واحتفل بتدشينهِ رسمياً بعد الفراغ من البناء والزخارف وعمل ١٦ عاماً متواصلاً وكان الامبراطور حاضراً في ذلك الاحتفال فوقف في ختامهِ وقال «الحمد لله الذي اختارني لاتمام هذا العمل وها اني قد غلبتك ياهيكل سليمان» ثم ما زالوا يفرقون الصدقات ويرتلون ويسجون بعد ذلك مدة ١٤ يوماً كاملاً

ولما فتحت الاستانة في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الفاتح هذه الكنيسة وهو على جوادهِ والسيف مشهر في يدهِ ونادى (لا اله الاَّ الله محمد رسول الله) ثم جعلها جامعاً للمسلمين وابقاها على اصلها فلم يخرب منها الاَّ الذي لا يجوز في الشرع الاسلامي ولذلك ترى داخل الجامع الآن على شكل الكنائس وفيهِ من آثار العبادة النصرانية شيء كثير . واضاف هذا السلطان الفاتح مأذنة الى الجامع الجديد ثم اضاف السلاطين من بعدهِ مآذن أُخرى وكان آخر من انفق الاموال الطائلة عليهِ السلطان عبد المجيد فانهُ اصلح فيهِ كثيراً واستخدم لذلك



(محمد الفاتح على جواده يوم فتح القسطنطينية)

مهندساً ايطالياً مشهوراً فلما تمّ الترميم والبناء احتفل السلطان بذلك احتفالاً عظيماً في سنة ١٨٤٩ وهو الآن من اعظم جوامع الارض واشهرها دخلتهُ من احد ابوابهِ التسعة ومشيت في رواق طولهُ ٦٠ متراً وعرضهُ عشرة امتار وفي جدرانهِ قطع من الفسيفساء تلمع وتسطع مع قدم عهدها . والفسيفساء قطع من الزجاج تلصق بعضها ببعض وتدهن بالذهب فيكون لها منظر شهي رائق فظللت اسير في ذلك الرواق واتأملهُ حتى انتهيت الى ساحة الجامع الداخلية وهي لا تقل عن ٧٥ متراً في الطول و٧٠ في العرض ولها قبة مركزية علوها ٦٥ متراً وقطرها ٣١ متراً قامت على ستين عموداً ولها منظر غاية في الفخامة والبهاء وقد كتب على جدران القبة وجوانبها آيات من القرآن بخط جميل ومن حولها اسم الجلالة واسم النبي (صلعم) واسماء الصحابة وكل ذلك باجمل انواع الخط وفي الوسط نقوش وزخارف فاخرة نفيسة . والى جانب المحراب سجادة قديمة يقال ان محمداً الفاتح صلى عليها يوم دخولهِ هذه الكنيسة وهناك مكان خاص بجلالة السلطان يحجبهُ حاجز من الشعرية المحلاة بماء الذهب . وصعدت الطبقة العليا من الجامع وهي التي كانت على عهد النصرانية موضع النساء حين الصلاة

وفي صحن الجامع من الخارج مدفن السلطان سليم الثاني وسبعة عشر من اولادهِ وكذلك قبر السلطان مراد الثالث هذا واولادهُ التسعة عشر

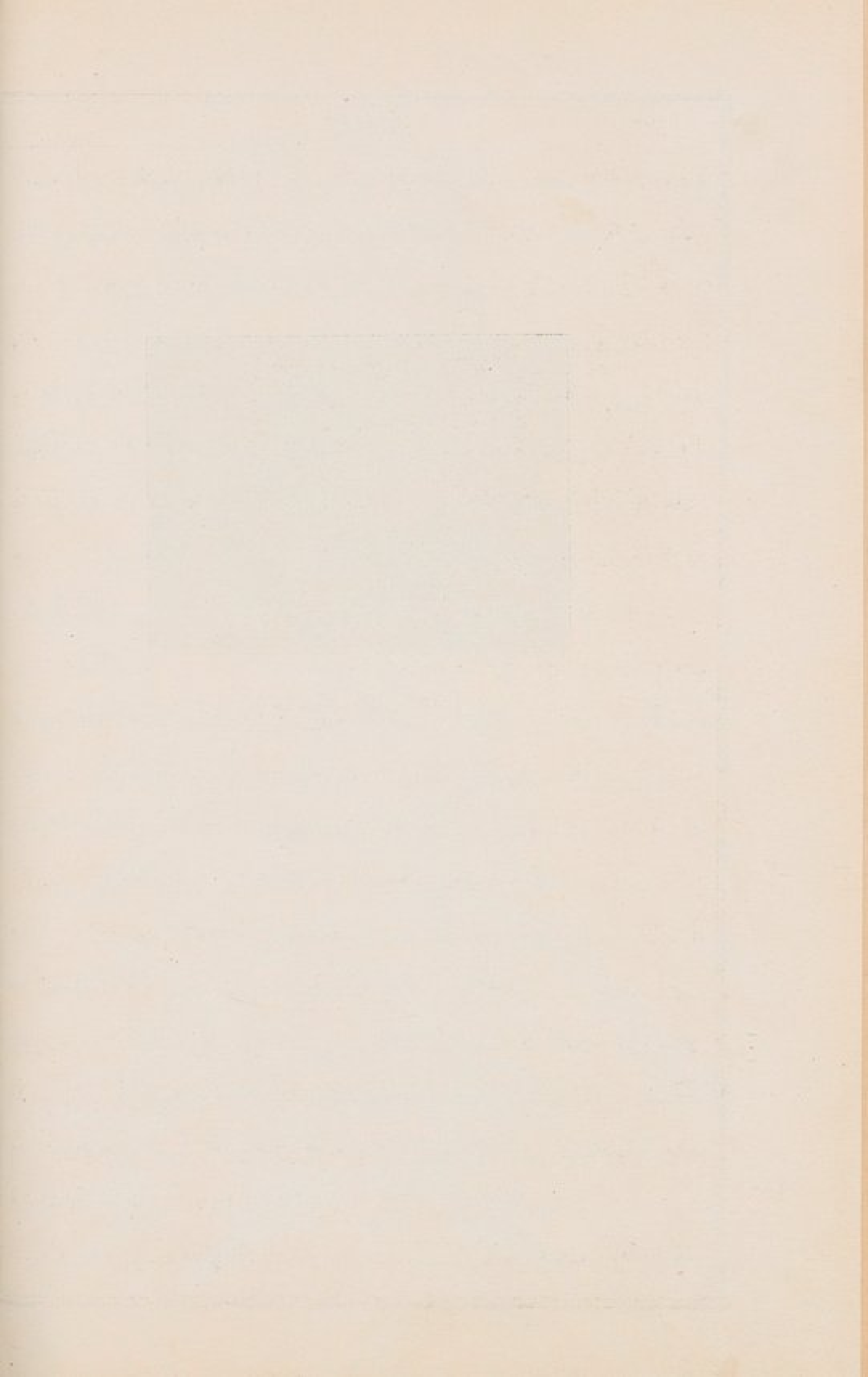
ويقرب من هذا الجامع في الاهمية والشهرة جامع الاحمدية بناهُ السلطان احمد سنة ١٦١٠ واهتمّ لامرهِ حتى انهُ كان يحضر مرة في الاسبوع ليشاهد العمل بنفسهِ وينشط العمال . ولهذا الجامع ست مآذن وباب كبير دخلنا منهُ الى رواق

عظيم يعلوهُ اربعون قبة صغيرة قامت على عمدٍ من الرخام وفي وسطهِ بركة جميلة من الرخام البديع . وانتهينا من هذا الرواق الى صحن الجامع طولهُ ٧٢ متراً وعرضهُ ٦٤ وفوقهُ قبة فخيمة قائمة على اربع عضائد ضخمة متينة وقد نقشت عليها الآيات القرآنية واما المنبر فمن المرمر وقد صنع عَلَى شكل منبر الجامع النبوي في مكة وفي قمتهِ تاج من فوقهِ هلال والتاج والهلال مذهبان . وقد اشتهر هذا المنبر في التاريخ لان الامر القاضي بالغاء وجاق الانكشارية في ايام السلطان محمود تلي عليهِ وكان ذلك بدء انقلاب عظيم في نظامات الدولة العلية العسكرية . وفي هذا الجامع شيء كثير من الشمعدانات الكبيرة تشبه العمد منصوبة في اليمين وفي اليسار وفوقها قناديل ضخمة ذات مناظر بديعة ولهُ عدة شبابيك مغشاة بالزجاج الملون لا يقل عدد قطعها عن المائة وهي زاهية الالوان عليها اسماء الصحابة وفي سقف القبة ثريات ومصابيح وعدد كبير من بيض النعام علِّق بسلاسل من النحاس المذهب واذا انيرت مصابيح هذا الجامع في شهر رمضان كان لنورها رونق وبهجة خاصة لايتخلف عنها احد من اهل الاستانة . وقد دفن السلطان الذي بنى هذا الجامع في صحنهِ الخارجي

ومثل هذا يقال في جامع السليمانية بناهُ السلطان سليمان القانوني وجعل لهُ اربع مآذن وظل العمال ستة عشر عاماً في بنائهِ فما انتهوا منهُ الَّا سنة ١٥٦٦ وقد اخذت ادوات كثيرة لهُ من بعض الكنائس . ولهذا الجامع قبة جميلة قطرها ٢٦ متراً وهي قائمة على اربع عضائد ضخمة من الرخام السماقي طولها ٢٠ متراً ومحيط الواحدة منها اربعة امتار . وجدران هذا الجامع من داخلها مدهونة كلها بلون ابيض ضارب الى الزرقة وقد حلي بعروق ورسوم من الذهب في كل جانب فكان لمنظرهِ بهجة تشرح الصدور وفي جميع نوافذهِ وكواهُ زجاج ملوَّن اتوا بهِ من بلاد ايران وعليهِ كتابات دينية وفي صدرهِ منبر عظيم القدر والقيمة ومصلًّى خاص بجلالة



(جامع السلطان احمد)



السلطان عليهِ نقوش بديعة وفي كل جانب منهُ آيات بينات تشهد بالاعتناء ووفرة المال الذي انفق عليهِ وهو لا يقل عن عشرة ملايين فرنك هذا غير الذي ينفق عليهِ كل سنة من اوقافهِ الكثيرة . وقد دفن باني هذا الجامع في ساحتهِ من الخارج والضريح يحيط بهِ رواق قائم على ٢٩ عموداً دخلناهُ من دهليز قائم على اربعة عمد وفوقهُ قبة خضراء بديعة لها اربعة عمد من الرخام الابيض واربعة من الرخام السماقي وفي القبة نقوش من الزجاج الملون تلمع وتسطع وقد تدلت منها ثريات غاية في حسن الصناعة والبهاء وتحت تلك القبة ضريح السلطان واضرحة بعض خلفائهِ وكلها مغطاة بالشالات الكشميرية والخدم من حولها يعتنون بامرها في كل حين

ولما انتهيت من رؤية هذه الجوامع المشهورة عدت الى غلطه ومشيت صعداً الى اعلاها لان الاستانة اكثرها صعود ونزول كما قدمنا يعسر على العربات ان تسير فيها بغير قلقلةٍ وقرقعة فدخلت حديقة البلدية وهي اشهر حدائق الاستانة ومقر المتنزهين من اهل غلطه وبك اوغلي (بيرا) وفيها موسيقى عسكرية تصدح كل مساء وبعض المطاعم والحانات وموقعها جميل معروف . وبعد ان خرجت من هذه الحديقة سرت الى شارع بيرا وهو قريب منها يعد اكبر شوارع الاستانة واعظمها واكثرها اتقاناً ترى فيهِ من الابنية الحديثة والمخازن الكبرى ملئت بالابضعة النفيسة ما بين شرقية وغربية ما لا تراهُ في ناحية اخرى من نواحي الاستانة . وشارع بك اوغلي هذا ملتقى الهيئة الاجتماعية في الاستانة واكثر ما يكون وجود النزلاء الافرنج في حاناتهِ ومخازنه وجوانبهِ حتى ان بعضهم ليعدهُ من الشوارع التي تستحق الذكر بين الشوارع الاوروبية

ولما كان اليوم التالي عدت الى استامبول بطريق النفق وجسر غلطه اللذين

ذكرناهما وقصدت جامع السلطان بيازيد وهو من الجوامع المشهورة بناهُ السلطان بيازيد سنة ١٤٩٨ لهُ باب من الرخام الاحمر والابيض قائم على عشرين عموداً ولم ازل اذكر اسراب الحمام الغريبة في هذا الجامع تعد بالولاف وينفق على طعامها من اوقاف الجامع ولها خدمة ينقطعون لخدمتها وهي اذا جاء الجامع غريب التفتت من حولهِ غير وجلة ولا جافلة حتى انك لتمسك بعضها بيدك وهي لا تحاول الفرار بل تتناول ما ينثر لها من الحبوب فتسر بمرآها الناظرين . ويروى من امر هذا الحمام ان السلطان بيازيد ابتاع زوجاً من فقير كان واقفاً على باب الجامع وامر ان يكون ذلك الزوج وقفاً فما زال يتناسل ولا يمسهُ احد بسوء حتى بلغ ذلك القدر

ولما تمَّ لي بذلك روءية اشهر الجوامع سرت لمشاهدة اثر قديم هو مسلة مصرية تعرف باسم الامبراطور ثيودوسيوس الذي مرَّ ذكرهُ وكان هذا الامبراطور قد نقلها الى عاصمتهِ من معبد الشمس (هليوبولس) في المطرية سنة ٣٩٠ مسيحية وقد نصبت على قاعدة من الرخام مربعة الشكل ونقش على احد جوانبها ثيودوسيوس جالساً على عرشهِ مع زوجتهِ واولادهِ وعلى الجانب الآخر رسمهُ يستقبل وفود الحكام ومعهم الهدايا وفي الجانبين الباقيين رسوم لهُ وهو يكلل الظافر في العاب اولمبيا وقد صنعت هذه المسلة من الرخام الاحمر وهي الآن في وسط ساحة صغيرة يراها كل زائر لعاصمة الممالك العثمانية

ومن الآثار القديمة في الاستانة او هي اقدم الآثار التاريخية عمود الحية بناهُ الروم الاقدمون في سنة ٤٧٨ قبل التاريخ المسيحي تذكاراً لانتصارهم على جموع الفرس في معركة بلاتا وانفقوا عليهِ مما سلبوهُ من جيش اعدائهم ونصبوهُ امام هيكل دلفي حيث كانوا يعبدون آلهتهم الكثيرة . وقد سمي عمود الحية لانهُ عبارة عن ثلاث حيات من النحاس الاصفر المذهب كسر اثنتين منها احد بطاركة الاستانة

على عهد الامبراطور ثيودوسيوس لانهُ تشاءَم منها ولما دخل فاتح الاستانة ورأى الحية الثالثة كسرها وظل الناس من بعدهِ يكسرون قطعاً من نحاس هذا العمود وقد اهملوا امرهُ فقوي عَلَى كل الايادي التي عبثت بهِ وهو باقٍ الى الآن اقدم آثار الاستانة وعليهِ اسماء ٣١ مدينة من مدائن اليونان القديمة وكتابات عن حرب الروم مع الفرس في ايام داريوس وزركسيس قبل التاريخ المسيحي بنحو خمسماية سنة

وتوجهت بعد ذلك الى اثر جليل هو تربة السلطان محمود الثاني الذي الغى وجاق الانكشارية وقد بني الضريح من الرخام الابيض تحت قبة نخيمة وغطي بشالٍ من الكشمير نفيس ووضع عند الراس طربوش غرست فيهِ ريشة آل عثمان المشهورة بجواهرها . وفي ذلك المدفن قبور للبعض من آل عثمان منهم السلطان عبد العزيز عند رأسهِ طربوش عزيزي من النسق المعروف وقد غطي الضريح بشالٍ بديع الصنع ايضاً . وفي هذه التربة مصاحف قديمة العهد في جملتها مصحف جيءَ بهِ من بغداد قيل انهُ كتب من الف سنة ومن حول المدافن فقهاء يوردون الاذكار ويجوّدون

وظللت على المسير من هنالك الى صهريج العماد وهو من المشاهد القديمة في الاستانة حفر في اوائل الدولة الشرقية ويقال ان اول بادىء بهِ قسطنطين الكبير باني هذه المدينة وكان القصد منهُ جمع ماء الامطار لحين الحاجة فان الاستانة خالية من الانهار الجارية وكان اهل المدينة كلما اصابهم بلاءٌ او هاجمهم عدو يطمرون تحفهم واموالهم في نواحي هذا الصهريج . ونزلت ذلك الصهريج منحدراً الى اسفلهِ فرأيت انهُ لم يبقَ منهُ غير القليل وقد كان لهُ الف عمود بقي منها نحو مايتين على كلٍّ منها رسم الصليب وهي على الجملة من الآثار القديمة ولا يبعد ان

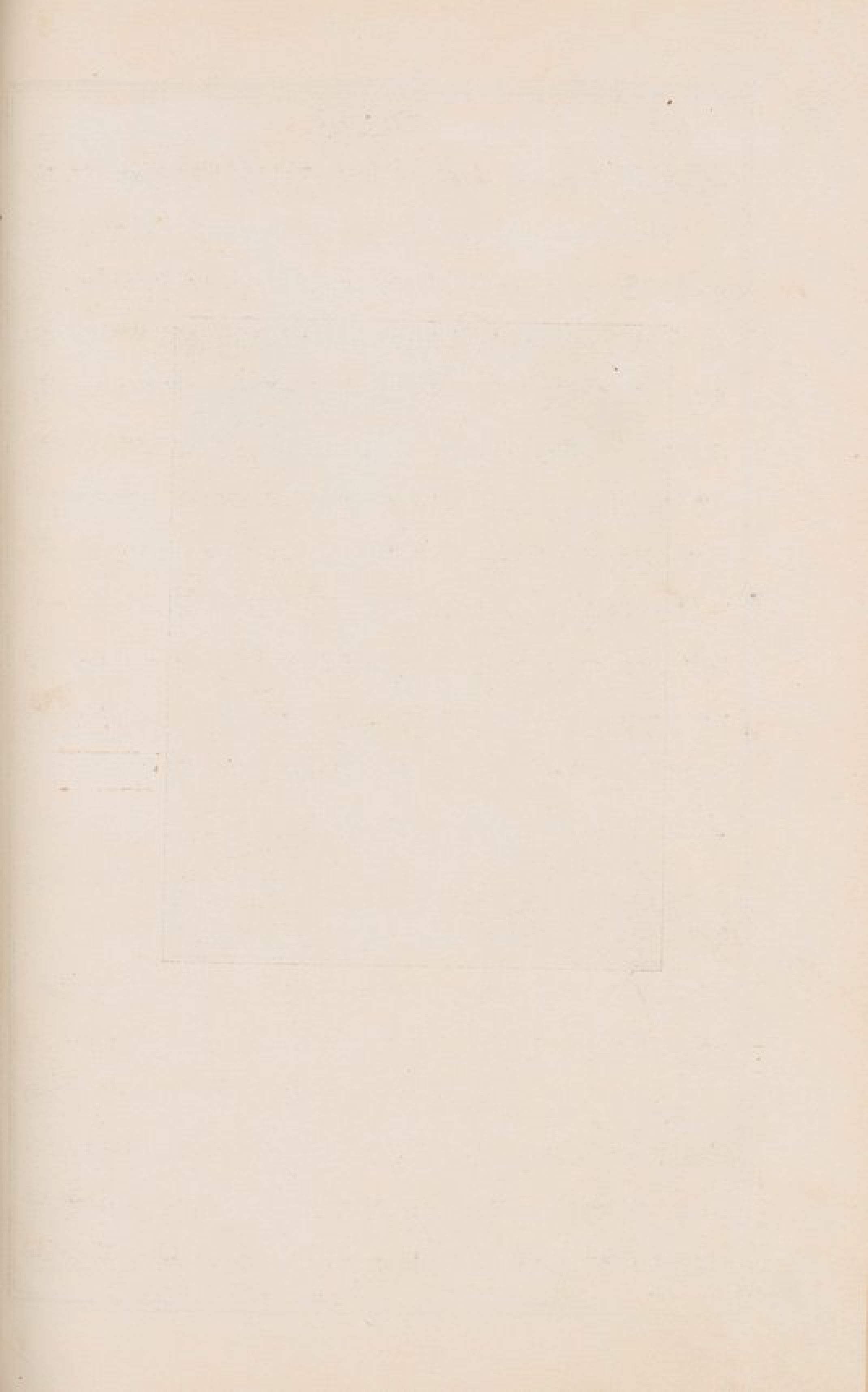
يكون في ما تردَّم منها بقايا ثمينة

ومن مشاهد الاستانة التي تذكر سوقها الكبرى المشهورة وهي مرجع الذين يبتاعون الابضعة الاستامبولية سواءٌ من اهل الاستانة او من الذين يقصدونها لشراء الابضعة المعروفة عنها كالمناديل واشكال الحرير والمقصب وقد قسمت هذه السوق الطويلة اقساماً لكل نوع من البضاعة قسم وتفرع منها عدة اسواق صغيرة ضيقة المجال حتى ان الغريب اذا قصدها يضيع فيها ولا بدَّ لكل من يريد الوقوف على حالة الاستانة الحقيقية من زيارة هذه السوق التي ينتابها الاتراك رجالاً ونساءً والسيدات يساومنَ الباعة من داخل البراقع ويشترينَ المطلوب كما تفعل نسوة الافرنج وهنَّ على غاية من التأدب والاحتشام

وقصدت في ذلك اليوم وزارات الحكومة فذهبت باديءَ بدءٍ الى اهمها واجملها اريد بهِ سراي السرعسكرية ودخلت ميداناً واسعاً جداً يستعرض بهِ الجند وحدث ان وزير الحربية جاء في تلك الساعة فاستقبلهُ رجال الجند بالاكرام والاحترام ودخل من باب كبير ودخلنا نحن من باب آخر وقف على بابهِ خادم بيدهِ بعض ريش ينظف بهِ احذية الداخلين ويغلب ان يتقاضى منهم شيئاً اجرة ذلك . واما الموظفون في هذه النظارات فانهم يلبسون حذاءً فوق حذاء كما يعرف القراء فيتركون الحذاء الخارجي عند الباب ويعودون الى لبسهِ حين الخروج . والسراي من داخلها واسعة جميلة كثيرة الاجزاء والغرف كتب على ابوابها وظائف المقيمين فيها هذه للوزير وهذه للوكيل وهذه للقلم الفلاني حسب ما تراهُ في اكثر الدواوين المنظمة . وقد بنيت هذه السراي من الحجر المنحوت طولها ٤٣٠ متراً وعرضها ٢٨٠ وهي منفردة عن سواها داخل سور متين وقائمة على رأس اكمة بديعة تجعلها اجمل سرايات الحكومة في هذه العاصمة المشهورة وفيها برج يقرب من



(ناووس الاسكندر)



برج غلطه في ارتفاعهِ اذا ارتقيتهُ رأيت الاستانة كلها تحت يدك وراق لك ذلك المنظر البديع

وسرت بعد ذلك الى باب همايون وهو باب عظيم بني من الرخام الابيض والاسود وفوقهُ الطغراء العثمانية يوصل منهُ الى بعض النظارات منها سراي الصدارة العظمى وفيها الاقلام التي تكاتب الولايات ونظارة الخارجية ونظارة الداخلية ونظارة النافعة . وفي الاستانة نظارات اخرى مثل نظارة الضابطة ونظارة الخزينة السلطانية الخاصة في جانب من سراي طولمه بغجه على ضفة البوسفور يبلغ عدد عمالها ستة آلاف ونظارة البحرية في قرن الذهب وتتبعها المدارس البحرية وادارة الترسانات والفنارات وسواها ونظارة الحربية في السرعسكرية ونظارة العدلية في ميدان آيا صوفيه ونظارة المالية في ميدان بيازيد بسراي فوأد باشا ونظارة المعارف بالقرب من جامع محمود باشا . واكثر جلسات الوزراء في الاستانة تعقد في سراي طولمه بغجه برئاسة جلالة السلطان وبعضها في الباب العالي في مقر الصدارة العظمى تحت رئاسة الصدر الاعظم ولكن الامور المهمة كلها تقرر في الجلسات التي يرأسها جلالة السلطان

ويستحق الذكر في هذا المقام موضع يقال لهُ طوب قبو كان مقرّ الحكومة السابقة على عهد الدولة الرومية وفيهِ قصورها وكنائسها ودواوينها وصار بعد ذلك مقر حكومة آل عثمان بنى فيهِ السلطان محمد الفاتح عدة ابنية وبنى السلطان محمود قصراً من الرخام وكذلك السلطان عبد المجيد

وفي هذا الموضع قصور ومنازل كثيرة الاتقان والزخرف منها كشك السلطان عبد المجيد وهو من بدائع الصناعة الحديثة ومنها قصر قديم لسلاطين آل عثمان لا يقيم فيهِ الآن احد ولكنهُ مستودع لكنوز هؤلاء السلاطين العظام وما جمعوا

من تحف الممالك التي دوخوها فانهم كما لا يخفى ورثوا ثروة الروم والعرب والفرس وبعض الافرنج وملكوا اطيب الاراضي ووصلوا الى الذي لم ينلهُ سواهم وقد جمعوا بعض هذه التحف في السراي التي نحن في شأنها واقاموا عليها الحراس واحتفظوا بها احتفاظاً يحذر بشأنها وقيمتها فما رآها من الناس غير قليلين قدروا قيمتها بعدة ملايين وهي مجموع من المثمنات والنفائس يندر مثالهُ ولقد اتيح لرجل انكليزي اسمهُ السر وليم روبنصن ان يدخل هذا المتحف العظيم بامرٍ خاصٍ من جلالة السلطان فكتب عنهُ ما يأتي

« رافقني احد الياوران يحمل الارادة السنية المؤذنة بدخولي تلك السراي فسلمها عند وصولنا الى كخيا الخزنة وهذا تناولها ورفعها الى رأسهِ وقبلها واعلن المستخدمين تحت ادارتهِ بفحواها ثم تقدم نحو باب الخزنة فصلى ونزع ختمهُ عن بابها بعد ان حدق بهِ طويلاً وتحقق سلامتهُ ولما فتح الباب ودخل الكخيا تبعهُ جميع المستخدمين باحترام وهدو حتى وقفوا حول الخزائن الحاوية للنفائس وكنت انا وراء هذا المأمور فاول ما رأيت في القاعة الاولى عرش من الذهب الخالص مرصع بالوف من الحجارة الكريمة كالالماس والياقوت والزمرد واللؤلوء واكثر هذه الجواهر غنمها السلطان سليم في حربهِ مع اسماعيل شاه صاحب دولة ايران في سنة ١٥١٤ ويليهِ عرش آخر من الابنوس والصندل مطعم بعرق اللؤلوء والعاج وعروق الذهب وفيهِ مئات من انقى الحجارة الكريمة . وكان السلاطين السابقون يجلسون على هذا العرش متربعين وفيهِ سلسلة من الذهب في طرفها زمردة بديعة طولها عشرة سنتمترات وسمكها اربعة وامامهُ جبة ثمينة مزركشة كان السلطان مراد الرابع يلبسها بعد الاستيلاء على بغداد سنة ١٦٣٨ وفيها حجارة ثمينة كثيرة العدد والى جانبها سيف ثمين مرصع بنحو الفي حجر . وهنالك خناجر وسيوف لا تعد كلها

من الذهب مرصعة قبضاتها وانصبتها باثمن الجواهر وسروج ركابها وادواتها من الذهب وكلها مرصعة ترصيعاً يبهر الانظار فضلاً عن اقداح من الذهب المرصع وملابس السلاطين السابقين من محمد الفاتح الى محمود الثاني اي من سنة ١٤٢٣ الى ١٨٣٩ وعلى كل كسوة عمامة غرست فيها الريشة المعروفة عن سلاطين آل عثمان وهي مجموعة حجارة ساطعة غالية الاثمان »

هذا بعض ما قيل في تحف آل عثمان وهو بلا ريب قليل فانهُ يمكن للمرء ان يبقى اياماً يتنقل بين تلك المثمنات الباهرة ولا تشبع العين من النظر اليها لكثرتها وجمالها ولكنها مخفية عن الانظار مع ان مثل هذه الجواهر في اوربا تعرض لعامة الناس وخاصتهم يتفرجون عليها في مواضعها كما علمت من فصولنا السابقة فيا حبذا لو درج اولياء الامر في الاستانة على هذه العادة فان تحف هذا القصر من اثمن ما في الارض واوفرهِ جمالاً

وفي هذه الجهة بناء يدعى (خرقة شريف اوداسي) فيهِ الآثار النوية المحمدية في جملتها الخرقة الشريفة وهي رداء اسود من شعر الابل قيل ان محمداً (صلعم) كان يضعها عَلَى منكبيهِ والراية النبوية اخذها السلطان سليم الاول من مصر لما فتح هذه البلاد في سنة ١٥١٧ ونقلها الى دمشق. وفي سنة ١٥٩٥ نقلها السلطان مراد الثالث الى غاليبولي. وفي سنة ١٥٩٧ نقلها السلطان محمد الثالث الى الاستانة وقد كان الاتراك يحملونها معهم الى ساحات الحرب. وهناك ايضاً شعرات من لحية النبي حلقت بعد موتهِ وسن من اسنانهِ ونعالهُ ونسخ من القرآن الشريف منقولة بخط بعض كبار الصحابة. وفي الخامس عشر من شهر رمضان كل عام يذهب جلالة السلطان بموكب عظيم يسير فيهِ سماحة شيخ الاسلام والوزراء والكبراء جميعهم بالملابس الرسمية والنياشين فيدخلون المكان لزيارة هذه الآثار وهي داخل

صندوق من الفضة فيقبلها ثم يتقدم امين السراي السلطانية ولديهِ مناديل يمسح
بها المخلفات النبوية ويوزعها على الحاضرين ثم يعيد هذه الآثار الى صندوقها
وبذلك تنتهي هذه الحفلة الفريدة

ومما يذكر من هذا القبيل متحف الآثار القديمة في الاستانة بني من عهدٍ
قريب وكان اول الذين وجهوا العناية الى تنظيمهِ مديرهُ الاول سعادة حمدي باشا
بن ادهم باشا بعد ان درس سنين طويلة في مدارس المانيا وعني بذلك من سنة
١٨٨١ فجمع في هذا المعرض اشكال الآثار الغريبة من ممالك الدولة العلية وهي
كما تعلم اغنى اراضي الدنيا بآثارها الفاخرة وكل معارض اوروبا التاريخية لا تقوم
بغير آثار مصر واشور وفينيقيا والروم والفرس وهاتيك الدول الشرقية القديمة
ومعظمها واقع في حوزة الدولة العلية الى الآن . واكثر ما في هذا المتحف آثار اشورية
وفينيقية لا حاجة الى وصفها بالاسهاب وبعضها نواويس من الرخام جميلة الصنع
غالية الثمن وجدوها على مقربةٍ من صيدا وعلى اكثرها نقوش بارزة ورسوم نسوة
تنوح وقد ظهرت ملامحها ظهوراً غريباً ويستفاد من بعض الكتابات التي عليها ان
احد تلك النواويس كان مدفن تبنت بن اشمنصر ملك صيدا

ولكن المتحف الذي نحن في شأنهِ لم يزل صغيراً قليل الاهمية بالنسبة الى
ما يماثلهُ من متاحف اوروبا ولما كانت بلاد الدولة العلية هي مقر الآثار القديمة
وفيها ما ليس في سواها فاذا زيد الاعتناء بهذا المتحف وانفق عليهِ مال يذكر صار
من متاحف الطبقة الاولى في الارض وحق للدولة العلية ان تفاخر سواها بما
جمعت من آثار الاولين

ولما عدت من زيارة هذا المتحف عرجت على البنك العثماني وهو بناء فخيم
من اجمل ابنية الاستانة لهُ ثلاث طبقات واشغالهُ كثيرة مع الاهالي والحكومة

لانهُ يعد البنك الرسمي للحكومة العثمانية باتفاق تمَّ بينها وبين الشركة الانكليزية التي انشأتهُ وقد قابلت مديرهُ العام وهو يومئذٍ السر ادجر ڤنسنت وكنت اعرفهُ من ايام وجودهِ في مصر مستشاراً مالياً

﴿السلاملك﴾ وحضرت بعد هذا حفلة السلاملك وهي موكب صلاة الجمعة تجري في الاستانة كل اسبوع حين يذهب جلالة السلطان للصلاة وكان السلطان عبد الحميد الذي شهدت هذه الحفلة في ايامهِ لا يصلي صلاة الجمعة الاَّ في الجامع الذي بناهُ على مقربةٍ من قصرهِ في يلدز . ولهذا الاحتفال ابهة وبهاءٌ لا مثيل لها فقد شهد الافرنج وغيرهم ممن حضرهُ انهُ من اعظم اشكال الاحتفال الرسمي ولا عجب فان الامر متعلق بسليل آل عثمان والامة العثمانية المعروفة بالمفاخر والمآثر . ومعلوم ان السلاملك او البناء الذي يستقبل فيهِ الضيوف كائن الى يسار هذا الجامع ولكنهُ لا يؤْذن لاحد بالدخول فيهِ الاَّ اذا كان من اهل المقام المعروف في الاستانة فاذا كان الزائر اجنبياً فلا بد لهُ من واسطة سفير دولتهِ او مصرياً فبواسطة حضرة قبوكتخدا الخديوية المصرية ولكنني لم اطلب وساطتهُ لبعد محلهِ فأوصيت سائق العربة ان يسير بي توّاً الى السلاملك ففعل حتى اتيت سلم السلاملك وقدمت رقعة عليها اسمي الى عامل على بابهِ بقصد الاستئذان بالدخول فاخذها الخادم واطال الغياب ثم جاءَني سعادتلو شفيق بك من ياوري الحضرة السلطانية فحياني برقة ولطف ودعاني للدخول فدخلت ورأيت ذلك الاحتفال العظيم من احسن موضع

وبدأ الموكب بقدوم فرقة عسكرية تلوح على رجالها لوائح البسالة والنجابة مثل اكثر فرق الجيش العثماني الذي طارت شهرتهُ في البسالة وفي تحمل المشاق والصبر على الكريهة وكانت الفرقة العثمانية التي ذكرناها تحمل البنادق فلما وصلت

الساحة الكائنة بين السلاملك والجامع احاطت بالجامع من كل جهة ووقفت تحرس جوانبهُ . ثم جاءت فرقة اخرى تتقدمها الموسيقى مثل الفرقة الاولى ووقفت في متسع من الارض ما بين الجامع والقصر ثم جاءت فرقة من الجنود العربية تلبس السراويل الضيقة والسترة الصغيرة ولها عمامات خضراء وتوجهت الى القصر وتلتها فرق اخرى من الفرسان يحملون المزاريق والمشاة بالبنادق والحراب والبحرية بملابسهم الخاصة وتفرقت في جوانب ذلك المكان الفسيح فكان عدد الجنود الذين وقفوا في ذلك الموكب العظيم يومئذٍ لا يقل عن عشرة آلاف . ودخلت فرقة من الحرس الخاص الى ساحة الجامع واحاطت بالباب الذي يدخل منهُ جلالة السلطان ثم دخل وراءهم عدد كبير من كبراء الاستانة واصحاب الرتب والوظائف العالية وجلهم من رجال المابين والعسكرية والرقباء وبعض المشايخ والعلماء فلما تمَّ عقد الجماعة على مثل ما ذكرنا اقبلت عربة الحرم السلطاني ومن ورائها عربتان اخريان فدخلتا الجامع وجاء بعد ذلك انجال السلطان السابق وجلالة السلطان الحالي وانجال السلطان عبد العزيز وكان دولتلو نجابتلو سليم افندي بكر السلطان عبد الحميد اشهر الذين رمقتهم الانظار وهو يومئذٍ شاب في مقتبل العمر ضئيل الجسم ابيض الوجه يلبس النظارات المقربة لقصر نظرهِ وعلى وجههِ دلائل الانفة والذكاء وهو كثير الظهور في متنزهات الاستانة . وكان هؤلاء الامراء العظام على ظهور الجياد الكريمة فدخلوا ساحة الجامع الخارجية ووقفوا على جيادهم كأنهم البدور ولما حدقت بهم الابصار كلها سمعنا بوقاً وحركة تشير الى اقتراب جلالة السلطان فتحفز كل من حضر ذلك الاحتفال وتهيأ لابداء مظاهر الاكرام حتى اذا تمَّ ذلك فتح باب القصر على عجل وظهرت عربة فاخرة يجرها فرسان كريمان وفيها جلالة السلطان بسترة اسلامبولية بسيطة وامامهُ في المركبة دولة الغازي عثمان باشا جالساً

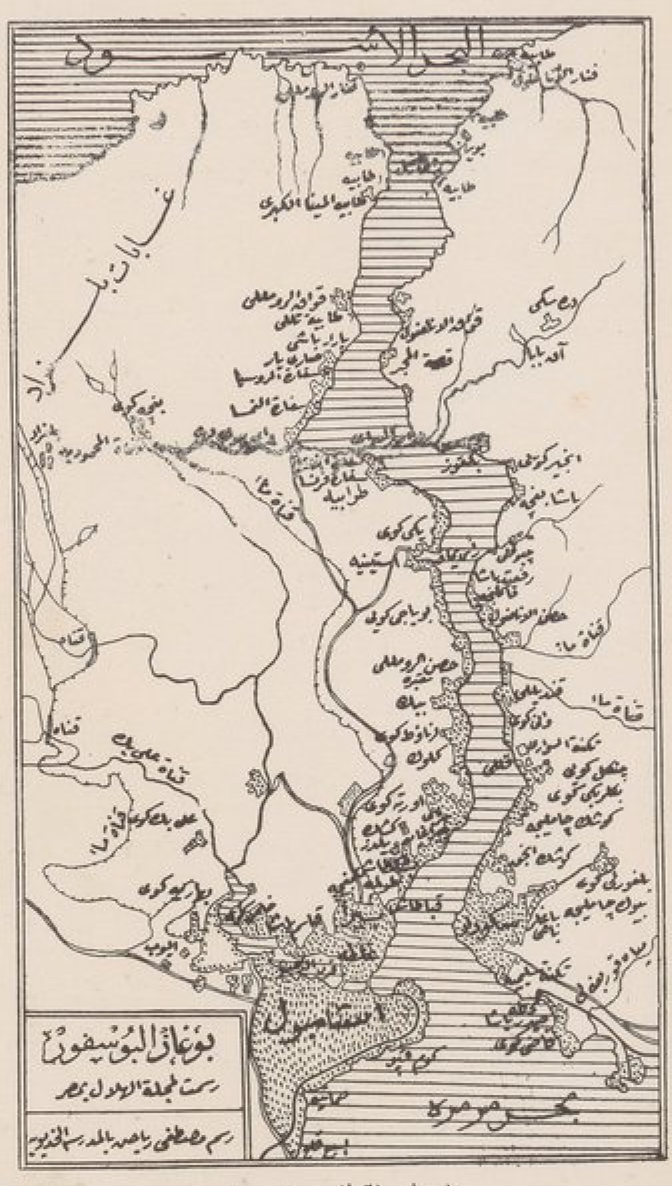
مكتف اليدين اجلالاً لمولاهُ واحتراماً ومن حول العربة حوالي ستين كبيراً من كبراء الدولة يمشون على الاقدام وهم بافخر الحلل الرسمية والوسامات العلية فما بقي بين تلك الابصار عين الاَّ واتجهت الى جلالة السلطان وجعلت فرق الجيش العثماني كلما اقترب جلالتهُ من احدها يهتف رجالها بالدعاء «افندمز جوق يشاه» وكان جلالتهُ يحيي الحاضرين برفع يدهِ وبدأ بتحية الواقفين في السلاملك فكان لبساطتهِ في وسط ذلك الموقف الرهيب والمناظر الباهرة تأْثير عظيم في النفوس

ودخل جلالة السلطان الجامع في عربتهِ واولئك الكبراء يحفون بهِ على ما تقدم والموكب على ابهى حالاتهِ فلما وقفت العربة عند الباب نزل جلالتهُ منها ولم يساعدهُ احد عند النزول كما هي عادة بعض الملوك والامراء ولما دخل بدأت الصلاة وبعد نحو نصف ساعة عادت الحركة لان جلالة السلطان خرج من الجامع ماراً بين صفوف الجند فنادت بالدعاء لجلالتهِ وكان جلالتهُ في الرجوع وحدهُ راكباً عربة غير الاولى وهي من نوع الفيتون يجرها فرسان كريمان ابيضان ويسوقها جلالة السلطان بيدهِ الكريمة وهو يمسك بالازمة بيسارهِ ويحيي الجماهير بيمينهِ الى ان يدخل باب القصر ويتوارى عن العيان ويرجع من عند حضرتهِ احد الياوران فيبلغ تحيتهُ للذين في السلاملك ويأمر الجنود بالانصراف الى ثكناتها فيتفرق الجمع وتعود الجنود وامامها الموسيقى العسكرية تصدح بشهي الانغام الى ان تصل مواضعها وينتهي بذلك احتفال السلاملك او موكب صلاة الجمعة المشهور

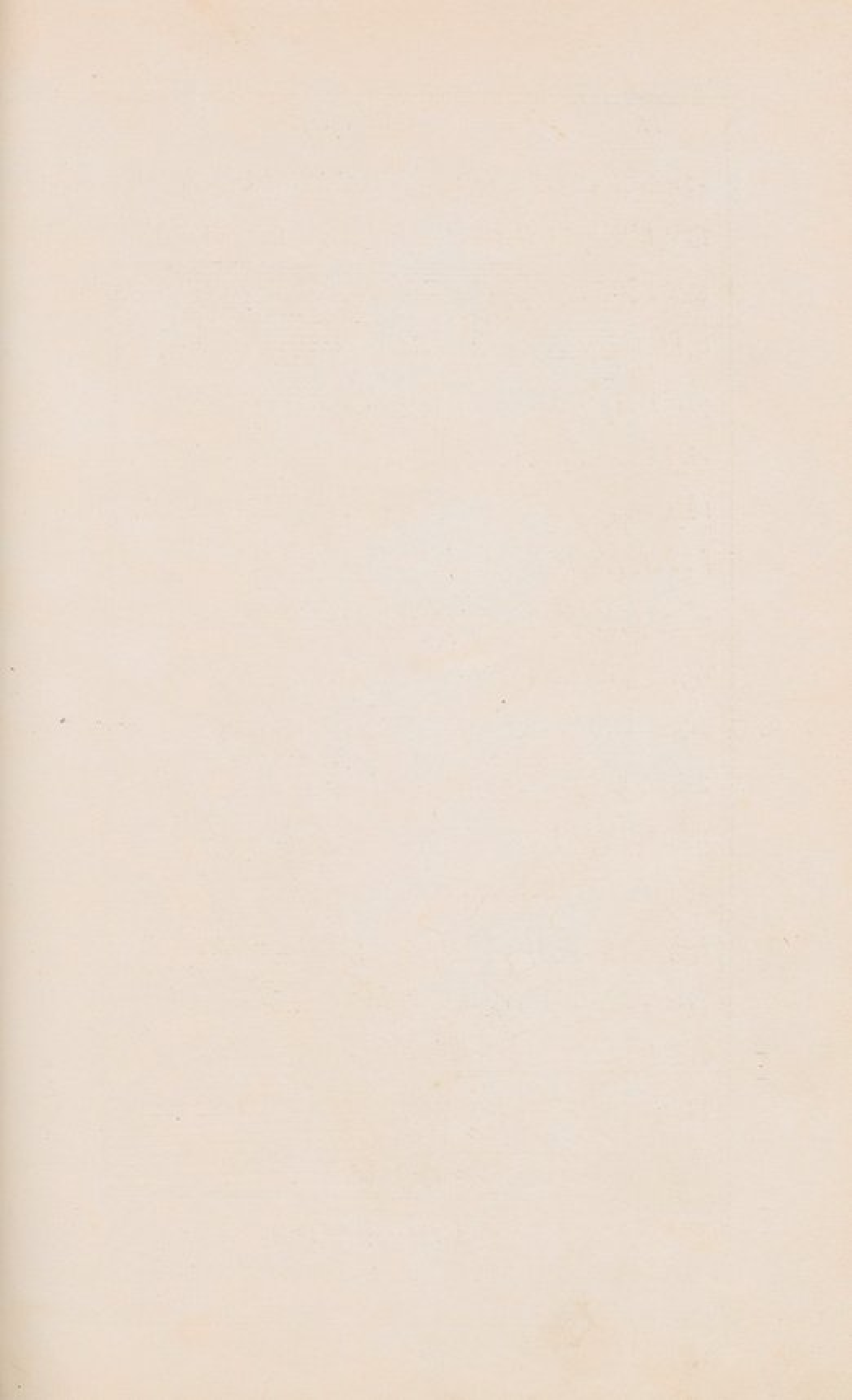
ولما رأيت السلطان السابق تأملتهُ طويلاً فاذا هو صغير الجسم نوعاً اصفر الوجه تلوح عليهِ لوائح الاشتغال العقلي والفكر الكثير ولا عجب فان الذي يدير امور سلطنة آل عثمان ولا يشاركهُ في الرأي كبير او صغير في معظم المسائل الداخلية والخارجية لا بد من ظهور ادلة الفكر والاهتمام على وجههِ . ورأيت لهُ

عينين براقتين لونهما اسود ولهما تأثير غريب في الناظرين اشتهر بهِ بين العالمين وقد
عرفهُ الذين تشرفوا بمقابلتهِ باللطف الزائد والذكاء الكثير وكان اذا اذن لضيف
ان يتشرف بالمثول بين يديهِ اكرمهُ ورفع مقامهُ حتى انهُ ليقدم السجاير الى ضيوفه
بيدهِ الكريمة ويحدث كل ضيف على حسب ذوقهِ فيظهر علماً باحوال الممالك غريباً
وقلَّ ان يخرج من حضرتهِ شخص الاَّ وهو معتقد باقتدارهِ

وقد آن لي ان اصف ملتقى البحرين والصلة الجامعة بين القارتين اريد بهِ
بوغاز البوسفور الشهي الذي يمتد من البحر الاسود الى البحر المتوسط طولهُ نحو ٢٨
كيلو متراً وعرضهُ يختلف ما بين ٥٠٠ متر و٣٢٠٠ ولهُ تاريخ مشهور فكم من
اسطول شراعي مرَّ بهِ وكم من معركة حدثت على ضفافهِ من ايام داريوس الفارسي
الى هذه الايام . ولقد اقمت في الاستانة شهراً ما مرَّ عليَّ من ايامهِ يوم الاَّ ولي
فوق ماء البوسفور فرأيت في آخر الامر ان اركب احدى بواخر الشركة الخيرية
التي تطوف نواحيهُ ولها مكتب تباع فيهِ التذاكر على طرف جسر غلطه وبواخرها
ترفع اعلاماً مختلفة منها الاخضر وهو دليل ان الباخرة تمرُّ على الشاطئ
الاوروبي من ضفاف البوسفور والاحمر دليل ان الباخرة تقصد الجهة الاسيوية
والاثنان معاً معناهما التنقل ما بين الضفتين . ذهبت اول الامر في باخرة علمها
اخضر تتنقل بين المحطات الاوروبية فقط الى محطة قباطاش فمرت بنا السفينة
بازاء سراي طولمه بغجه المشهورة بناها السلطان عبد المجيد من الرخام الابيض سنة
١٨٥٥ وانفق مالاً لا يحصى مقدارهُ حتى جعلها حيرة للالباب في فرط جمالها
وثمن مفروشاتها ودقة زخارفها وهي على ضفة البوسفور داخل سور جميل تحيط بهِ
الاشجار والازهار البديعة يراها المار فوق الماء من اكبر آيات الجمال في تلك
البقعة الطيبة وواجهتها بديعة الجمال من الرخام الابيض النفيس المزخرف بادق



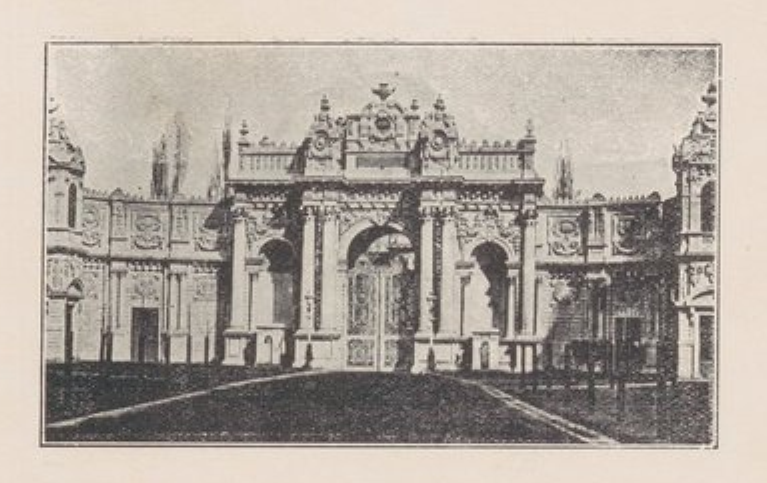
(خارطة البوسفور)



انواع النقش ويقرب طول هذه السراي من ٨٠٠ متر . وقد كانت مقر السلطان
عبد العزيز واولمت فيها الولائم الفاخرة للامبراطورة اوجيني حين زارت الاستانة
وفيها اجتمع مجلس المبعوثين الاول حين صدور الامر باجتماعهِ في اوائل حكم
السلطان عبد الحميد ومن قاعاتها واحدة يمكن اجتماع خمسة آلاف نفس فيها . وقد
اتيح للناس عامة دخول ساحة هذا القصر المنيف ولم يكن ممكنا قبل الآ بارادة
سنية من السلطان السابق . ومررنا بعد ذلك بمحطة باشكطاش وهو اسم الحي
الذي بنيت فيهِ سراي يلدز حيث اقام جلالة السلطان السابق وفي تلك المحطة
قبر امير البحر خير الدين باشا المعروف عند الافرنج باسم باربروسا او ذو اللحية
الحمراء . ورأينا بعد ذلك سراي جراغان وهي جميلة بنيت بالرخام الابيض
واحيطت بسور عالٍ منيع ويقرب طول هذه السراي من الف متر . وبعد ذلك
محطة اورته كوي فيها جامع والدة السلطان وهي ملاصقة لجدار يلدز وهنالك
منازل فخيمة وقصور عديدة لسراة الاستانة وكبراء السلطنة . ومثلها محطة بيك
التي تليها وهي مرصعة باجمل القصور والديار تملأ جوانب تلك الارض البهية من
شاطيء البوسفور الى قمة الجبل . وفي قمة الجبل المذكور كشك بديع الاتقان كان
السلاطين في ما مرَّ يختلون بسفراء الدول فيهِ ويتداولون بمهام الملك وعلى مقربة
منهُ مدرسة للاميركان كلية تعرف باسم كلية روبرت اسسها مرسل اميركي اسمهُ
روبرت سنة ١٨٦٣ وهي من اكبر المدارس في السلطنة السنية اذا لم تكن اكبرها
واعلاها يقصدها الطلاب من كل نواحي السلطنة ومن بلغاريا والسرب ورومانيا
وبلاد اليونان وبين وزراء بلغاريا كثيرون تلقوا العلوم في هذه المدرسة المشهورة
اشهرهم الوزير ستامبولوف الذي قُتل من بضعة اعوام وهو اشهر بلغاري رأس
الوزارة في بلادهِ . ولهذه البقعة اي محطة بيك شهرة في التاريخ فان جنود داريوس

وزركسيس وهي مئات من الالوف كانت تمرُّ منها قاصدة بلاد الروم لمحاربتها في القرن الخامس قبل المسيح . والصليبيون لما عرجوا على الاستانة جعلوا بيك هذه نقطة مركزية لحركاتهم ومحمد الفاتح هاجم الاستانة وملكها من تلك النقطة بعد ان اقام الحصون وركب المدافع مصوباً كراتها الى عاصمة الروم . ورست الباخرة بعد ذلك في محطة بوياجي كوي واكثر سكانها روم وارمن ثم محطة مير كون وفيها قصر للخديوي الاسبق اسماعيل باشا اهدي اليهِ من جلالة السلطان عبد الحميد . ثم وقفنا في يكي كوي وهي بلدة فيها نحو عشرة آلاف نفس اكثرهم من الروم والارمن ايضاً . وتليها محطة طرابية المشهورة واسمها رومي معناهُ الشفاء سمّيت بذلك لجودة هوائها وجمال مناظرها ولذلك اصبحت مقر الهيئة العالية من سكان الاستانة واختارها اكثر السفراء لمنازلهم فبنوا هنالك القصور المنيفة والصروح الانيقة وقامت من حولها الفنادق العظيمة فالذي يمرُّ تجاه هذه البقعة يرى سفارات انكلترا وفرانسا وايطاليا والمانيا في وسط حدائق غناء تتصل خضرتها النضرة برأس الجبل ومجموع طرابيه هذه جمال مدهش وبهاء مفرط. واما عامة السكان في طرابيه فاكثرهم اروام يقربون من خمسة آلاف نفس عداً ومنازلهم درجات بعضها فوق بعض في ذلك المنحدر البهي فهي متواصلة ما بين قمة الجبل وضفة البوسفور ولها رونق وحسن بديع . ويلي هذه البقعة الجميلة محطة بيو كدره فيها سفارات اميركا والنمسا وروسيا ومساكن بعض التجار الاغنياء وهي تقرب من طرابيه في جمالها الفتان . وآخر هذه المحطات قاواق وهي في طرف البوسفور من جهة البحر الاسود اقيمت حولها الحصون المنيعة والقلاع الكبرى . فلما انتهينا الى هذا الحد عدنا الى مقرنا في العاصمة وقد رأينا من جمال البوسفور ما تحفظهُ الذاكرة ولم يخطر لنا ببال

وفي اليوم التالي عدنا الى بواخر الشركة الخيرية واخترنا واحدة علمها احمر حتى



(قصر طولمه بغچه)



نرى الشاطئ الشرقي او الجهة الاسيوية من البوسفور العجيب فقمنا اولاً الى اسكودار وهي القسم الشرقي من المدينة ذكرناهُ قبل الآن وسرنا منها الى قوزغنجق فمررنا من امام سراي بكلربك وهي من اعظم قصور الاستانة تعد ثانية طولمه بنجه بناها السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٥ من الرخام الابيض النقي على شاطئ البوسفور في وسط حديقة غناء تمتد اغراسها البهية الى حدود الجبل ولها سور مذهب وزخارف يطول المقام لو اردنا وصفها . يكفي ان يقال ان الامبراطورة اوجيني اقامت في هذا القصر وان السلطان عبد العزيز انفق على اضافتها والهدايا التي قدمت لها مبلغاً كبيراً ثم لما جاء امبراطور المانيا سنة ١٨٨٩ اقام هنا ايضاً ولا غرو فانها تليق باعظم ملوك الزمان . ثم جئنا محطة جنكل كوي وفيها حديقة واسعة لها ذكر في التاريخ هو ان السلطان سليمان المشهور اختبأ فيها ٣ سنوات فراراً من والدهِ السلطان سليم وكان السلطان قد امر بقتلهِ فلما عرف بعد طول المدة ان ابنهُ حي في تلك الحديقة فرح فرحاً لا يوصف واقام الافراح في عاصمة بلادهِ . وظللنا على المسير نتنقل بين محطات البوسفور الشرقية حتى انتهينا منها عند آخر محطة في فم البوسفور وعدنا الى المدينة

بقي علينا الخط الثالث لهذه البواخر وهم يسمونهُ الزقزاق لانهُ يمرُّ على النقط الشرقية والغربية معاً في البوسفور فقصدناهُ في يوم ثالث وجعلنا نقف تارةً في الشرق وطوراً في الغرب وقد ذكرنا اسماء المحطات في الجهتين فلا حاجة الى التكرار وقضينا في ذلك خمس ساعات متواليات فما رأت عيني مثل الذي رأيناهُ من بهي الحراج وشهي المناظر الطبيعية وقد رصعتها يد الصناعة بالقصور الشماء والطرق الحسناء فما البوسفور الاَّ معجزة من معجزات الزمان وما اخطأ الذي قال ان الاستانة وضواحيها زينة البرين ودرّة البحرين

ولقد ذكرنا قرن الذهب كثيراً وهو مجرى من الماء بديع جميل يفصل بين القسمين الاورويين من اقسام الاستانة نريد بهما غلطه و بيرا من ناحية واستامبول من ناحية اخرى والموصل بين هذين القسمين جسر غلطه المشهور وقد مرّ ذكره. طول هذا المجرى ١١ كيلو متراً وعرضهُ ٤٥٠ متراً وهو يتصل عند طرفهِ الواقع في غلطه بالبوسفور و بحر مرمرا واما في الطرف الآخر فانهُ ينتهي بجبال بهية سرنا اليها في احد الايام ورأينا في الطريق بواخر الاسطول العثماني وعلى الشاطىء من تلك الناحية سراي وزارة البحر (طوبخانه) وهي بناء شاهق فخيم تتبعهُ المدرسة البحرية والترسانة ثم وقفت الباخرة في محطة ايا قبو في سفح الجبل وعلى قمة الجبل المذكور جامع السلطان سليمان وتليها محطة الفنار فيها بطرخانة الروم الارثوذكس ومدرستهم . ثم انتهينا الى آخر قرن الذهب في محطة ايوب فنزلنا الى البر و تقدمنا الى جامع ايوب بناهُ السلطان محمد الفاتح تذكاراً لمقتل ايوب الانصاري حامل الراية النبوية وكان قد جاء في جملة المسلمين الذين هاجموا الاستانة في صدر الاسلام سنة ٦٦٨ وقد وُضع سيف النبي (صلعم) في هذا الجامع فكلما بويع سلطان بالخلافة احتفلوا بتقليدهِ السيف هنا وهم لا يسمحون لواحدٍ من الاجانب ان يدخلهُ ولو يكون من السفراء هذا مع ان لسفراء الدول في الاستانة مقاماً خطيراً وامتيازاً لا نظير لهُ في العواصم الاوروبية فان لكل سفير هنا باخرتين حربيتين تقومان بخدمتهِ وحراسة السفارة والرعايا حين اللزوم وفي كل سفارة من القواصة والاعوان عدد كبير حتى ان السفير في الاستانة يعد بمثابة ملك صغير . وقد بني هذا الجامع من الرخام الابيض وصُنعت لهُ قبة عظيمة ومأذنتان ودفن حامل الراية النبوية فيهِ . و برحنا ارض هذا الجامع فصعدنا قمة الجبل واشرفنا من هنالك على متنزه يعرف باسم كاغدانه والافرنج يسمونهُ الماء الحلو لان النهر يلتقي عندهُ بالبحر .

وهذا الموضع مصيف لبعض الناس يكثر ترددهم اليهِ في ايام الربيع

هذا بعض ما يذكر بين ضفتي قرن الذهب . ولكن الاستانة كما علمت قسمان احدهما في اوروبا وقد وصفنا ما فيهِ والقسم الآخر في آسيا يعرف باسم اسكودار وهو مدينة لا يقل عدد سكانها عن خمسين الفاً كلهم من المسلمين ومعظمهم اتراك. وابنية اسكودار منتشرة ما بين ضفة البوسفور والجبل على شكل طبقات بعضها فوق بعض وفيها عدد ليس بقليل من الصروح والمنازل الفخيمة والبواخر تسير الى هذه الجهة ومنها في كل ساعة فلما وطأنا ارضها اخذنا عربة وسرنا في طرق عوجاء متعرجة الى مقبرة المسلمين وهي من اوسع مقابر الارض واكبرها طولها ثلثة اميال وفي كل جوانبها شجر من السرو باسق كثير العدد . وفي تلك الجهة مقبرة صغيرة للذين قتلوا من جيش انكلترا في القرم سنة ١٨٥٤ و١٨٥٥ وقد كتبت اسماء المدفونين هنالك من الانكليز على الاضرحة والارض هبة من الدولة العلية

وهنالك ثكنة (قشلاق) السليمانية وهي من اكبر الثكنات العسكرية واجملها بناها السلطان سليمان وحسنها السلطان مراد الرابع فتأملنا هذا البناء الكبير ثم تقدمنا صعداً حتى وقفنا اسفل جبل بولغورلو وهو الذي كنا نقصد الوصول اليهِ فترجلنا ومشينا ربع ساعة حتى بلغنا القمة وهنالك تجلت لنا عروس الطبيعة بابهى اشكالها ورأينا سهولاً زرعت بالعنب والتين والزيتون وغيرهِ ممتدة الى داخل القارة الاسيوية العظيمة ومن ورائها عدد كبير من القرى والمزارع والطرق تتشعب من هنا ومن هناك بين تلك السهول الاريضة وتتصل باطراف العمائر ترصع جوانب البر الفسيح فلا ترى من جانب البر الا مثل ما ذكرنا من ادلة الخصب ومشاهد الجمال الطبيعي حتى اذا تحول الطرف الى الناحية الاخرى رأيت البوسفور العجيب كانما هو خط من اللجين بين خطين من السندس وكل هاتيك المناظر البديعة التي

عددناها واقعة فوق مجرى الماء تسير من فوقهِ السفن والباخرات لا عداد لها وقد قامت من الجانبين قباب القصور والمآذن تشهد بتعاقد الطبيعة والصناعة في ذلك الموضع على ايصالهِ الى اعلى درجات الجمال . كل هذا والموضع الذي ترى منهُ تلك الغرائب ليس فيهِ جماهير الناس ولا معدات للراحة من مثل الذي تراهُ في الجبال المجاورة للمدن الاوروبية مع ان هذا الموضع احق بالالتفات والعناية من كل مكان ولو اقام الواحد فيهِ اشهراً واعواماً لما ملَّ النظر الى تلك المشاهد التي تحدث في النفوس فتنة وتحدّث بعظمة الباري الكريم

ولما عدتُ في المساء الى فندقي رأيت الوف الناس عند جسر غلطه تحتشد افواجاً وهي في حركة كبرى علمت منها ومن اطلاق المدافع ذلك الحين ان الغد وهو الجمعة سيكون موعد الاحتفال بميلاد النبي (صلعم) ويكون السلاملك حينئذٍ افخم منهُ في بقية الاسابيع واعظم فما تأخرت عن الذهاب اليهِ وسرت على ما تقدم في المرة الماضية الى باب السلاملك رأساً حيث قدمت بطاقتي وجاءني سعادة نادر بك احد الياوران الكرام فادخلني القصر مرحباً وقد اوضحت هيئة السلاملك في ما مرَّ فلا لزوم للتكرار غير اني رأيت في هذه المرة فوق ما رأيت قبلاً من توافد العظماء والقواد ووقوفهم في خدمة جلالة السلطان حين وصولهِ امام باب الجامع وكان في صدر المحتفلين حضرات الوزراء الفخام يتقدمهم دولة الصدر الاعظم فلما ظهر جلالة السلطان طأطأوا الرؤوس وانحنوا الى الارض اجلالاً وتكريماً ثم دخل جلالة السلطان جامعهُ واقام فيهِ ساعة كاملة فلما عاد الى قصرهِ دار العمال يوزعون علَى الناس علباً فيها من الحلوى والملبس شيء يسمونهُ المولدية يأخذونهُ هدية تذكاراً لذلك العيد وكانت الاستانة يومئذٍ في عيد عظيم لاسيما في الليل اذ انيرت جهاتها انواراً ساطعة وخرجت ربات الخدور في عرباتها

المتوالية فكان لمنظرها فوق ما يوصف من التأثير

وخرجت بعد حضور هذا الاحتفال قاصداً زيارة المغفور لهُ اسماعيل باشا خديوي مصر الاسبق وصاحب المآثر العظيمة في هذه البلاد فذهبت في باخرة تركتها في محطة مير كون وفيها قصرهُ المشهور فلما وصلت القصر استأذنت على يد التشريفاتي بمقابلة سموهِ فاذن رحمهُ الله بذلك وارتقيت سلماً بديعاً الى الطبقة العليا من القصر حيث وجدت ذلك الامير العظيم في صدر قاعة فخيمة وقد ظهرت عليهِ لوائح الكبر ولكن هيبة الملوك لم تفارقهُ فرحب بي وسألني اين كنت ولما اجبت اني زرت معظم العواصم الاوربية قال اذاً انت زرت اكثر العواصم المشهورة مع زيارتك للولايات المتحدة السابقة قلت انى لن انسى تعطف سموهِ وثقتهُ بي حين ندبني للنيابة عن حكومتهِ السنية في معرض اميركا سنة ١٨٧٦ ثم دار الحديث بيننا عن امور كثيرة اهمها مصر والنيل فلما اخبرت سموهُ ان الفيضان زاد عن حدهِ المعتاد في العام السابق حتى خيف على البلاد من الغرق قال ان الزيادة في الفيضان لها دواءٌ واما الشح فلا دواء لهُ غير بناء الخزان فهو اذا بني افاد مصر فائدة عظيمة . وخرجت من حضرة هذا الامير الجليل وانا افكّر في عبر الدهر وتقلب احوالهِ كيف اوصل اسماعيل الذي دانت لهُ رقاب الملايين وجمع من المال ما لم يجمعهُ ملك قبلهُ ورأى من اشكال العز ما يعز نظيرهُ على اكابر الملوك صار الى قصر واحد في الاستانة لا يبرحهُ وسبحان الذي يغير ولا يتغير

وقصدت في ذلك النهار قاضي كوي عند رأس البوسفور من جهة آسيا عدد سكانها نحو عشرين الفاً اكثرهم اروام ولها موقع بديع يقصدها الناس من اهل بيرا وغلطه لقضاء فصل الصيف ويفضلونها على غيرها لانها قريبة سهلة الاتصال بقلب الاستانة وقلّ ان يوجد هنالك بيت بلا حديقة صغيرة او كبيرة

امامهُ والناس يتنابون هذا المصيف البهي في يوم الاحد من كل اسبوع فيجتمع فيهِ من اشكال الساكنين في الاستانة ما ترتاح الى مشاهدتهِ العيون وتنشرح لمرآهُ الصدور . وهنالك كنيسة للروم الارثوذكس بنيت على اطلال كنيسة قديمة اجتمع فيها المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١ لتقرير بعض المبادىء الدينية فلما فتح البلاد آل عثمان هدموها واستعملت حجارتها في بناء جامع السلطان سليمان . وشوارع قاضي كوي مبلطة بالحجر وهي نظيفة منظمة ظللت اتمشى فيها حتى آن وقت الرجوع الى مقري في بيرا

على ان هذه المصايف والمتنزهات كلها ليست بالشيء الذي يذكر عند جوهرة المصايف وزينة المتنزهات طرًّا اريد بها برنكبو او جزيرة الامراء ولهذه الجزيرة شهرة طائلة في الآفاق فانها فريدة في الموقع المفرط جمالهُ وفي طيب الهواء والماء وما حوت من اشكال الحسن والبهاء وهي في بحر مرمرا تبعد عن الاستانة نحو ساعتين فيها قصور الامراء ومنازل السراة الاغنياء وفيها يتألب الالوف يوماً وراء يوم لرؤْية الذي امتازت بهِ هذه الجزيرة من المحاسن الطبيعية والزخارف الصناعية ولست اذكر ان بين الضواحي الاوروبية ما يزيد عن برنكبو هذه في جمالها وجودة هوائها فانهُ اذا كانت ضواحي باريس وبرلين وبطرسبرج وفينا ولندن معروفة بالمحاسن الكثيرة والانقان الفائق فشتان بين بردها وغيمها ومطرها وبين الهواء الرقيق في هذه الجزيرة والسماء الرائقة ووسائل الرغد والهناء المتوفرة في كل جانب . وبرنكبو احدى جزر عدة اولها من ناحية الاستانة جزيرة بيروتي وتليها جزيرة انتغوني وبعدها خالكي وهي مبنية بين جبال صغيرة كثيرة الجمال وعلى قمة احدها دير للروم الارثوذكس على اسم الثالوث الاقدس جعلوهُ سنة ١٨٤٤ مدرسة لاهوتية فيها نحو ماية طالب وقد كان من ضمن المتخرجين في هذه المدرسة

سيادة الارشمندريتي جراسيموس مسره المشهور بمؤلفاتهِ الدينية وهو الآن مطران
بيروت . وآخر هذه الجزر بل اعظمها وابهاها واكبرها جزيرة برنكبو هي مجموع
غياض وحراج وحدائق وبساتين وقصور صغيرة او كبيرة وطرق منظمة وفنادق
جميلة ومناظر بديعة في كل جانب يصلها الزائر فينزل الى شارع فسيح تحف
بهِ الاشجار من الجانبين ويمتدُّ ذلك الشارع حول الجزيرة برمتها فتارةً فيهِ
شجر غرس للتظليل على مثل ما في بقية الشوارع وطوراً يخترق حراجاً من شجر
الصنوبر البهي تتضوع منهُ الروائح العطرة او حدائق وكروماً واغراساً نافعة وحيناً
يشرف على البحر او تحدق بهِ الهضاب والآكام وما فيها من نبت وشجر من كل
ناحية فكأنما المرء في برنكبو يتقلب في نعيم الجنة او هو في بلاد مسحورة كلها جمال
رائع وبدائع في بدائع . هذا غير ان الموسيقى تصدح هنالك والمطاعم كثيرة نظيفة
والقهاوي والحانات والاماكن العمومية بوجه الاجمال لا تبقي حاجة في نفس يعقوب
فان شئت عيشاً هنيئاً فعليك بجزيرة الامراء انها مركز الجمال والهواء الطيب بلا
مراء . ولطالما تغنى الشعراء بمدح هذه البقعة العجيبة واطال كتاب الشرق والغرب
في وصفها مهما اقلْ في مدحها فاني مقصر لا افيها بعض حقها فاكتفي بما تقدم
واقول اني ارتقيت قمة جبل فيها من فوقهِ دير للقديس جورجيوس وهو للروم
الارثوذكس ايضاً كل طرقهِ مرصعة بالبطم والآس وهاتيك الاعشاب والاشجار
العطرة تعبق روائحها الطيبة في وجوه الزائرين فتزيد المكان حسناً على حسن
وغرابة على غرابة . ثم قصدت في اليوم التالي الجبل الآخر من جبال هذه الجزيرة
الحسناء فكنت أحمد الله على روائح الآس والبطم وبخور الاعشاب المختلفة
وعلى الذي اكتحلت عيني بمرآهُ من غريب المشاهد البرية والبحرية حتى اذا وصلت
قمة الجبل ورأيت دير المخلص وسرحت النظر في هاتيك البدائع المحيطة بهِ براً

وبحراً عدت الى موضعي وكلي اعجاب بجزيرة الامراء وقد حدثتني النفس ان اسميها اميرة الجزر او ملكة الضواحي واقمت فيها يومين كانا كطرفة عين ثم عدت الى الاستانة لاتمم الذي شرعت بهِ من درس مشاهدها

ولما انتهيت من اشهر المتنزهات الحديثة في الاستانة على مثل ما رأيت تذكرت تاريخها الاول ومتنزهاتها السابقة فذهبت الى حيث كان ملوك الدولة اليونانية قبل الفتح العثماني يسكنون ورأيت السور الذي قتل من ورائهِ آخر ملوك القسطنطينية في حربهِ مع العثمانيين على ما ذكرنا في صدر هذا الفصل. والسور طولهُ ٦٦٧١ متراً وعرضهُ اربعة امتار وعليهِ ٦٤ برجاً و٧١ متراساً ولهُ ابواب سبعة من الحديد وهو يحيط بالمدينة القديمة او القسم المعروف الآن باسم استانبول اخذهُ العثمانيون عن لفظ رومي معناهُ المدينة وهو (ستي بولي) فمرت بنا العربة في شوارع مهملة داخل هذا السور المتهدم وما بقي منهُ غير اجزاء قليلة وخنادق تملأ بالماء حين الحاجة منعاً للمتقدم عليها من الوصول. ووقفنا عند باب هليوبولس (اسم مدينة الشمس المصرية واسمهُ الآن باب مولانا) فرأيت فوقهُ رسوماً دينية مسيحية وكتابات يونانية. ورأيت بعد ذلك طوب قبو اي باب المدفع سمي بذلك لان العثمانيين نصبوا فوقهُ مدفعاً كبيراً وقت فتح الاستانة وكانت المدافع يومئذٍ في اول عهدها واول من استعملها العثمانيون في حربهم مع ايران اولاً ومع ملوك الدولة اليونانية ثانياً. ومما يروى عن طوب قبو هذا ان قسطنطين باليولوغوس آخر ملوك القسطنطينية مات وراءهُ وهو يحارب مع جنودهِ فماتت الدولة بموتهِ وصارت البلاد الى قبضة محمد الفاتح ومن خلفهُ

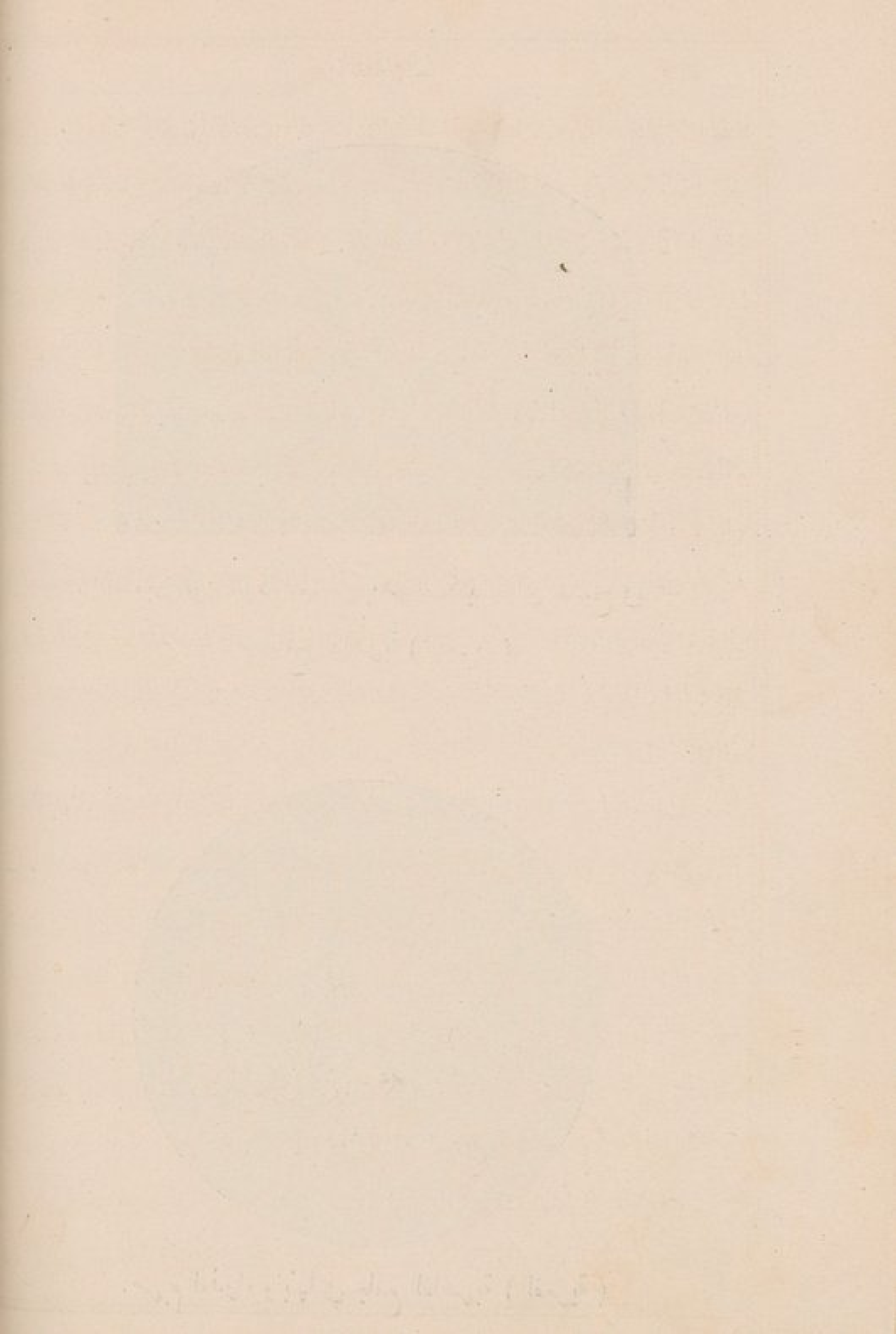
وخرجت من السور الى جامع القاهرية الذي كان كنيسة مشهورة قبل الفتح وصار جامعاً ولكن بعض رسومهِ الدينية في الرواق الخارجي باقية على حالها



الامبراطور تيودوسيوس يقدم الكنيسة الى المسيح في
جامع القاهرية (القمرية)



مريم العذراء وابنها في جامع القاهرية (القمرية)



يقصدها الناس للتأمل بمحاسنها من ابعد الانحاء حتى ان امبراطور المانيا زار هذا الجامع لمشاهدتها ومن هذه الصور رسم السيد المسيح يحيط بهِ الحواريون والرسم كلهُ مصنوع بقطع الفسيفساء النفيسة في سقف الرواق . وصورة العذراء والرسل وصور بعض الملائكة والقديسين والحوادث المذكورة في الانجيل مثل قتل الاطفال بامر هيرودس وفرار يوسف النجار مع عائلتهِ الى مصر وقيام العازر من الموت وغير هذا كثير كلهُ باقٍ على حالهِ الاصلي ولم يزل شيءٌ من رونقهِ وجمالهِ

وعدت من تلك الناحية بطريق قرن الذهب فاغتنمت تلك الفرصة لمشاهدة حارة الفنار حيث كان الاشراف يقيمون على عهد الدولة اليونانية وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت تحصن مدة الحصار في الليل على نور الفنار واشهر ما فيها منزل غبطة البطريرك القسطنطيني للروم الارثوذكس كان من حسن حظي اني زرتهُ ولما دخلت الدار رأيت في الدور الاول كنيسة عليها شعار الدولة الروسية حامية حمى الديانة الارثوذكسية والمنزل في الدور الاعلى حيث رأيت غبطة البطريرك يواكيم في غرفة واسعة وكان ساعة دخولي جالساً الى كرسي كبير وامامهُ منضدة تراكمت فوقها الاوراق ولديهِ كاتبان يقدم احدهما لغبطتهِ المحررات التركية فيختمها بختمهِ التركي والآخر يعرض الاوراق اليونانية فيكتب البطريرك اسمهُ عليها باليونانية . وقد قابلني غبطتهُ بالترحاب ثم حدثني عن عدة شؤُون ولما هممت بالانصراف دعاني لزيارة المدرسة التابعة لذلك المكان فزرتها ورأيت فيها ستماية تلميذ وهي تعرف بلونها الاحمر وارتفاع مركزها حتى انهُ ليمكن مشاهدتها من معظم نواحي الاستانة

ويذكر بين مناظر الاستانة حديقة تقسيم في آخر شارع بيرا الى جهة الشمال ولهذه الحديقة مركز عظيم لانها تطلُّ على البوسفور وما يليهِ والناس يقصدون

هذا المكان عند الغروب للتفرج عَلَى انعكاس اشعة الشمس عن زجاج المنازل المحيطة بالبوسفور وهي تشبه النار المتقدة في شكلها ولها منظر غريب ولكن الشجر هنالك قليل والاعتناء ليس عَلَى ما يذكر ولو وجه الاعتناء الى هذه الحديقة لصيرها من اجمل متنزهات الاستانة

ومما يذكر ايضاً مصادر مياه الاستانة وغابة بلغراد تبعد عن طرابيه ثلاث ساعات ذهاباً واياباً والطريق اليها من اجمل الطرق يكثر فيها شجر السنديان القديم والصنوبر والحور والصفصاف وتعد تلك الغابات حدود جبال البلقان المشهورة . واما مصدر الماء الذي يستقي منهُ اهل الاستانة فانهُ خزان كبير بناهُ السلطان محمود الاول سنة ١٧٢٢ وهو قائم على ٢١ قنطرة متينة وتحيط بذلك الماء حدائق بهية واغراس بديعة الاشكال فترى العائلات تقصد هذا الموضع الانيق وتقضي فيهِ نهاراً بطولهِ في نعيم وصفاء ولا عجب فان منظرهُ من المناظر التي تستحق الذكر على نوعٍ خاص

ومن هذا القبيل ايضاً سان ستفانو وهي من اشهر ضواحي الاستانة يقصدها الناس في ايام الآحاد والاعياد كما يقصدون سان ستفانو في الاسكندرية. ولا بد ان يذكر القراء ما لهذا الموضع من الشهرة البعيدة فان جنود الدولة الروسية وصلت اليهِ بعد حرب ١٨٧٦ وعسكرت فيهِ ولم ترجع عنهُ الاَّ بعد ابرام معاهدة سميت باسم هذا المكان . وقد ابدلت معاهدة سان ستفانو هذه في السنة التالية بمعاهدة برلين المشهورة وهي اهم المعاهدات الدولية الحديثة كل موادها متعلقة ببلاد الدولة العلية وممالك البلقان وكيفية استقلالها وتصرف الدول في امورها ولها شهرة تغني عن التطويل

ومما يذكر عن الاستانة كثرة كلابها فانها تكاد لا تعد في كل قسم منها

والناس يرأفون بها ويعدون الشفقة عليها من اكبر الفضائل حتى ان بعضهم اوقف لها رزقاً يوزع عليها من مواضع معينة والبعض يأخذ بيدهِ الطعام ويلقيهِ بين جماعة الكلاب من حين الى حين . وقد ألف اهل الاستانة منظر هذه الكلاب وعواءها فهم لا ينكرونهُ ولكن النزلاء يضيق صدرهم منها ولاسيما من نباحها المتواصل في الليل ويعدُّ السياح هذا من مميزات العاصمة العثمانية ولهم فيهِ احاديث ونكات

وجملة القول ان الاستانة وضواحيها مجموع محاسن طبيعية وصناعية ليس في الامكان تصويرها بالكتابة او الاصابة التامة في وصف جمالها وبدائعها وقد ذكرت شيئاً منها ولم اذكر اشياء اخرى لان عاصمة الدولة العلية معروفة عند الاكثرين والذين سبقوني الى الكتابة عنها ليسوا بقليلين . وقد اقمت في هذه العاصمة الزاهرة شهراً حتى اذا حان موعد السفر تركتها وقصدت مدينة بورصة وهي التي يأتي الكلام عنها في الفصل الآتي

بروسه (بورصه)

سمعت مراراً عن اهمية بورصة قاعدة ولاية خداوندكار وعن صناعتها وجمال مناظرها وما لها من الذكر الكثير في تاريخ آل عثمان ومن تقدمهم فعزمت على السفر اليها وهي التي كانت عاصمة الدولة العثمانية جعلها السلطان اورخان مقرَّ ملكهِ في القرن الخامس عشر قبل ان تملك العثمانيون مدينة ادرنه (ادريانوبل) ونقلوا اليها مركز قوتهم ولم تزل مدينة بورصة فيها آثار السلاطين العظام الذين اسسوا هذه الدولة القوية وسكانها ثمانون الفاً وهي في موقع لهُ شأن قديم في حوادث البشر فانها وسط جبال شهيرة اسم احدها اولمبوس ولهُ ذكر في تاريخ اليونان عظيم

ارتفاعهُ ٢٦٠٠ متر وعلَى مقربةٍ منهُ كانت مدينة طرواده الشهيرة التي حاربت بلاد اليونان تلك الحرب العظيمة في ايام اشلّس وعولس وغيرهم من الابطال الذين ورد ذكرهم في الالياذة وفي تواريخ اليونان القدماء . وقد اكتشف العلامة الالماني شليمان آثار طرواده هذه من نحو ثلثين عاماً ولقي فيها من الآثاروالتحف ما طير شهرتهُ في الخافقين ولا عجب فان مدينة بورصه وجدت في بقعةٍ رقيت سلم الحضارة حين كانت ممالك اليوم كلها طامسة الذكر وغير معروفة

والمسافة بين الاستانة و بورصه هذه خمس ساعات بعضها بالبحر و بعضها بالبر. ركبت باخرة من بواخر الشركة المخصوصة وسرنا في بحر مرمرا البهي نمرُّ بالضواحي المشهورة مثل جزائر الامراء وغيرها ثم تجاوزت السفينة هذه المناظر الفاتنة واطلت على غيرها لا تقل عنها بهاءً وحسناً حتى رست في مودانيه وهي فرضة بورصه واسكلتها نزلت اليها مع اثنين من وجهاء الروس احدهما الموسيوما كسيموف الذي كان قنصل دولتهِ الجنرال في مصر والثاني طبيب السفارة وكان الرجلان مثلي يقصدان مدينة بورصه وغايتهما من السفر الاستحمام في حماماتها المعدنية لان هذه المدينة امتازت باشياء كثيرة كالحمامات المعدنية وصناعة الحرير والطنافس وآثار الذين اسسوا دولة آل عثمان وغير هذا مما تراهُ في هذا الفصل القصير

واما فرضة مودانيه فانها بلدة صغيرة لا يزيد عدد الساكنين فيها عن خمسة آلاف نفس وكل اهميتها قائمة في انها الصلة ما بين بورصه والجهات الاخرى فمنها تنقل الابضعة الصادرة والواردة ولهذا اصبحت من المراكز التجارية المعروفة عند تجار الزيت والزيتون والعنب والكستناء والحرير والدخان ودخل الدولة العلية من جمركها ليس بالشيء القليل . والمسافة بينها و بين بورصه ساعتان ونصف في القطار الحديدي كلها وسط محاسن طبيعية من الطبقة الاولى فان البلاد هنا جبلية

والقطار يقضي مدة السفر في صعود ونزول وتعرُّج وتفتُّل بين هاتيك المسالك كانما هو الافعى تنساب في وسط الجبال ولهذا جعلنا نتطالّ لنمتع الطرف بمناظر الجبل وما حولهُ حين كان القطار يتسلقهُ فنرى بساتين الزيتون و كروم العنب وحقول الزرع والفاكهة تدل ثمارها الشهية على خصب الارض وجودة التربة ثم اذا انحدر القطار دخلنا في وادٍ شهي بهية ارجاؤُهُ ومن ورائهِ سهول ومروج تنشرح لمرآها الصدور وقد ملئت زرعاً . وما زال القطار يخترق هذه المناظر ويقف في محطات صغرى آناً بعد اخر حتى وصل بورصه فتركناهُ وقصدنا فندق سيدة فرنسوية عند مدخل المدينة في حديقة كثيرة الشجر والفواكه

ولما كانت بورصه مركز قوة آل عثمان في بدء عهدهم فان كثيراً من شهرتها ينسب الى ما فيها من الترب وآثار السلاطين السابقين ولهذا فاني قصدت تربة السلطان عثمان مشيد اركان هذه الدولة القوية وجدها الكريم والتربة محاطة بسورٍ جميل مرتفع وهي في وسط حديقة غناء فيها برك يتدفق منها الماء تشرف على وادي بورصه الشهير وقد اقام على بابها حارس امين فتح لنا الباب حين وصولنا فدخلناها واذا هي حسنة البناء عريضة الجوانب عالية الاركان لونها ازرق جميل ولها ثمان نوافذ وفي سقفها ثريا بديعة الصنع مدلاة علَى شكل بهي وفي جدرانها مصابيح جميلة والارض مفروشة بفاخر الطنافس والضريح في الوسط بني من الرخام وغطي بشال كشميري ابيض ثمين حسب العادة التركية وعند الرأس عمامة كالتي كان يلبسها هذا السلطان العظيم وقد كتب فوق الضريح تاريخ ولادة السلطان ومدة حياتهِ وتاريخ ارتقائهِ العرش وتاريخ وفاتهِ . وهنالك مصاحف قديمة وبعض الآثار النبوية وليس يمكن لزائر هذا الضريح ان يقف امامهُ الاَّ ويخطر في بالهِ انهُ واقف امام اثر الرجل العظيم الذي اسس دولة من اقوى دول الارض فيتأثر الواقف

لذكرهِ وذكر امور الدهرِ الذي لم يقوَ على طي عظمتهِ

ويلي هذه التربة مدفن السلطان اورخان ابن السلطان عثمان الاول وفاتح بورصه وهو يشبه التربة التي ذكرناها في شكلها . والى يمين هذا المدفن ضريح السلطان قورقور ابن السلطان بايزيد والى يسارهِ ضريح قاسم جلبي ابن السلطان اورخان . كل هذه الاضرحة النفيسة في وسط حديقة بديعة كما تقدم القول غرست علَى قمة جبل يشرف الواقف فيها على وادي بورصه وما حولهُ من الجبال والمزارع والوديان .والجداول تخترق هاتيك الحقول والبساتين حيث ينمو ألذّ اشكال الفاكهة الكثيرة ومنظرها فاتن الجمال . وهنالك ترى جبل اولمبيا الذي مرَّ ذكرهُ والماء يتدفق من جوانبهِ البهية فيسعى في جوانب السهل الممتد من تحتهِ ويروي تلك الاراضي الطيبة ناهيك عما يتدفق من الينابيع في قاع الوادي فتجري الجداول متشعبة في كل ناحية ما بين الاغراس النضرة والشجر الغضيض ويحلو للمرء ان يقيم اياماً في تلك البقعة يتفرج على محاسنها فذكرني ذلك بمحاسن سويسرا والفرق بين الجهتين في كثرة الذين ينتابونهما فان اراضي سويسرا حافلة بالسائحين والمتفرجين يأتونها الوفاً كل حين واما بورصه فقليل من يزورها غير اصحاب الحاجة مع انها اجود تربة واطيب هواءً واعذب ماءً وفيها غير الجمال الطبيعي تلك الحمامات المعدنية والمعيشة فيها ارخص واسهل من المعيشة في مصايف اوروبا فان اقة العنب تباع في السوق بعشر بارات والفاكهة فيها كبيرة الحجم لذيذة الطعم رخيصة الثمن فيا حبذا لو قام من يعنى بتسهيل سبل السفر والاقامة في تلك الناحية البهية

وذهبت بعد ذلك الى جامع المراديه بناهُ السلطان مراد الثاني سرنا اليهِ برواق قام على اعمدة من الرخام وكتب فوق بابهِ (يا خفيَّ الالطاف نجنا مما

نخاف) . ومحراب الجامع من الخشب الدقيق الصنع وعلى جدرانهِ قطع من القيشاني غالية المقدار . والى جانب هذا الجامع تربة بانيهِ في حديقة جميلة والضريح مبني بالرخام وقد زرعوا في اعلاهُ قمحاً وفتحوا سقف البناء حتى يسقي الغمام هذا الزرع فينمو فوق عظام السلطان العظيم وذلك قياماً بامرهِ لانهُ اوصى ان يبقى قبرهُ مفتوحاً لتمطر عليهِ السماء من بركاتها . وهو السلطان الذي اوصى قومهُ بفتح الاستانة وكتب ذلك بيدهِ على لوح حفظ عند ضريحهِ . وعند الضريح التواريخ المعتادة والشال والعمامة وبعض الآثار النبوية على مثل ما تقدم في وصف غيرهِ من الاضرحة . وفي حديقة التربة اشجار قديمة العهد كبيرة الحجم يبلغ محيط بعضها ٤٠ قدماً و٤٦ ومنها واحدة احرق الغلمان ساقها ليجعلوا داخلها ملعباً لهم يمكن ان تضم عشرة اولاد داخل ساقها

وقصدت بعد هذا الجامع الاخضر (اشل جامع) سمي بذلك لان ظاهرهُ بني بالقيشاني الاخضر النفيس وبعض آثارهِ باقية الى الآن . بناهُ السلطان محمد الاول سنة ١٤٢٠ وهو في سفح جبل يشرف على وادي بورصه وقد امتنع لمتانة بنائهِ على الزلازل ومرور القرون فما تهدَّم ولهُ شهرة عظيمة في جهات السلطنة . وداخل الجامع مكسو بالقيشاني الازرق عليهِ آيات قرآنية ولهذا القيشاني ثمن عظيم لانهُ قلَّ وجودهُ وضاع سر صناعتهِ ولهُ جمال كثير لا يمكن وصفهُ والاورو بيون اذا عثروا على قطعة منهُ احلوها محلاً عظيماً

هذا اشهر ما يذكر عن الاضرحة والترب العظيمة في العاصمة الاولى لسلطنة آل عثمان . ولكن شهرة المدينة الحالية قائمة بصناعتها ومتاجرها وبحماماتها المعدنية . فاما الصناعة فاشهرها الحرير فلن لاهل هذه المدينة علماً دقيقاً بصناعة المناشف الحريرية وهي مختلفة الاثمان لا يقل ثمن الطاقم منها عن خمسين ليرا اذا كانت من

الصنف الاول وتعدُّ من افخر المنسوجات الشرقية واجملها . وللناس هناك عناية بزرع التوت وتربية دود القز لاستخراج الحرير وقد نزحت عائلات فرنسوية كثيرة الى هذه المدينة من عدة اعوام لانماء هذه الصناعة وهي تسكن في حي النصارى فان المدينة قسمان اولها للمسلمين وهم نحو سبعة اثمان الساكنين والثاني للنصارى وهم الثمن واكثرهم اروام وارمن . وفي بورصه الآن خمسون معملاً للحرير اكثر عمالها من البنات لا يقل عددهنَّ عن ثلاثة آلاف بنت . قصدت مرة احد هذه المعامل فرأيت البنات على غاية من السكينة والاحتشام يتكلمنَ بصوتٍ منخفض وقد عكفنَ على صناعتهنَّ وعلمت من الاحصاء الرسمي ان صادرات الحرير من بورصه تبلغ قيمتها ١٢ مليون فرنك في السنة وليس هذا القليل على مدينة مثلها

واما متاجر بورصه الاخرى فاهمها بالحاصلات والحبوب والفاكهة الطرية والناشفة والذي يزور السهول والوديان المحيطة بهذه المدينة لا يعجب من اتساع تجارتها بغلة الارض لان ضواحيها في كل جهة ملأى بالمزارع والحقول وقد ظهرت آثار الاعتناء الى حد عجيب حتى ان الصخور لم تترك جرداء بل زرع فوقها شيء يستفيد منهُ الناس وعلمت ان اكثر الهمة في ذلك لقوم من الجراكسة هجروا بلادهم واقطعتهم الدولة العلية بعض ارضها هنا كما فعلت في عدة نواحي من سلطنتها الواسعة وقد صارت تلك الجبال جنات بحسن اجتهادهم واشتهرت غلتها وفاكهتها شهرة زائدة كما اشتهرت زراعة اخوانهم في جنوبي سورية حيث اقاموا بامر الحكومة وصيروا البراري جنات فسيحة تشهد لهم بالهمة والاجتهاد

واما الحمامات المعدنية في بورصه فهي علَى مسيرة ثلث ساعة من المدينة قصدتها مع الموسيو ماكسيموف وقد مرَّ ذكرهُ فاذا هي سبعة مختلفة الاشكال

بعضها ماؤُهُ حديدي والبعض كبريتي يفيد في الامراض الجلدية وبعضها بارد الماء نقيهُ والبعض حار مثل اكثر الحمامات المعدنية لا تقل في بعض الاحيان حرارتهُ عن ٨٠ درجة بقياس سنتغراد وقد أُتقن بناء هذه الحمامات واكثرها مبلط بالرخام والخدمة فيهِ متقنة ولو ان وسائل الانتقال والاقامة متيسرة في بورصه لأمَّ هذه الحمامات آلاف مؤلفة من السائحين تستدرُّ البلاد منهم مالاً وفيراً في كل عام لان الذين جربوا ماء حمامات بورصه شهدوا بنفعهِ وجودتهِ وفضلوهُ على ماء حمامات النمسا وهي لا يعدُّ المتقاطرون اليها من كل جهات الارض

ولما فرغت من روْية ما في بورصه خرجت الى ضواحيها على جواد مع ترجمان رافقني نريد الوصول الى جبل اولمبيا فمررنا بكثير من الربض والآجام راق لي فرط جمالها ورأيت بعض الحراج محروقاً فعلمت ان الرعاة يفعلون ذلك لينبت عشب في موضع الشجر ترعاهُ مواشيهم وكثيراً ما كنت التقي بهؤلاء الرعاة وتثور كلابهم علينا مثل الضواري وهم لا يردونها عنا . واشرفت من سفح الجبل عَلَى عدة اماكن مشهورة في التاريخ القديم والحديث منها بحيرة ابولونيا وسهول مسينيا وجبال ايدا وطرواده وغير هذا مما يذكّر المرء بعبر الدهر وحوادث الايام حتى اذا انتهيت من ذلك عدت الى الاستانة في الطريق الذي جئت منهُ وبعد ايام رجعت الى القطر المصري وقد اقمت في الاستانة وضواحيها شهراً كاملاً وقطعت المسافة بين تلك العاصمة وثغر الاسكندرية في باخرة روسية مرت على بيريا وهي اسكلة اثينا وما نزلنا لنراها بسبب الحجر الصحي ثم وصلنا ميناء الاسكندرية حيث استقرَّ بي النوى بعد سفرٍ طويل وسياحة عظيمة رأيت فيها من مشاهد اوروبا شيئاً كثيراً فما سطرت منهُ في هذه الفصول الا القليل

الصنف الاول وتعدُّ من افخر المنسوجات الشرقية واجملها . وللناس هناك عناية بزرع التوت وتربية دود القز لاستخراج الحرير وقد نزحت عائلات فرنسوية كثيرة الى هذه المدينة من عدة اعوام لانماء هذه الصناعة وهي تسكن في حي النصارى فان المدينة قسمان اولهما للمسلمين وهم نحو سبعة اثمان الساكنين والثاني للنصارى وهم الثمن واكثرهم اروام وارمن . وفي بورصه الآن خمسون معملاً للحرير اكثر عمالها من البنات لا يقل عددهنَّ عن ثلاثة آلاف بنت . قصدت مرة احد هذه المعامل فرأيت البنات على غاية من السكينة والاحتشام يتكلمنَ بصوتٍ منخفض وقد عكفنَ على صناعتهنَّ وعلمت من الاحصاء الرسمي ان صادرات الحرير من بورصه تبلغ قيمتها ١٢ مليون فرنك في السنة وليس هذا القليل على مدينة مثلها

واما متاجر بورصه الاخرى فاهمها بالحاصلات والحبوب والفاكهة الطرية والناشفة والذي يزور السهول والوديان المحيطة بهذه المدينة لا يعجب من اتساع تجارتها بغلة الارض لان ضواحيها في كل جهة ملأى بالمزارع والحقول وقد ظهرت آثار الاعتناء الى حد عجيب حتى ان الصخور لم تترك جرداء بل زرع فوقها شيء يستفيد منهُ الناس وعلمت ان اكثر الهمة في ذلك لقوم من الجراكسة هجروا بلادهم واقطعتهم الدولة العلية بعض ارضها هنا كما فعلت في عدة نواحي من سلطنتها الواسعة وقد صارت تلك الجبال جنات بحسن اجتهادهم واشتهرت غلتها وفاكهتها شهرة زائدة كما اشتهرت زراعة اخوانهم في جنوبي سورية حيث اقاموا بامر الحكومة وصيروا البراري جنات فسيحة تشهد لهم بالهمة والاجتهاد

واما الحمامات المعدنية في بورصه فهي علَى مسيرة ثلث ساعة من المدينة قصدتها مع الموسيو ماكسيموف وقد مرَّ ذكرهُ فاذا هي سبعة مختلفة الاشكال

بعضها ماؤُهُ حديدي والبعض كبريتي يفيد في الامراض الجلدية وبعضها بارد الماء نقيهُ والبعض حار مثل اكثر الحمامات المعدنية لا تقل في بعض الاحيان حرارتهُ عن ٨٠ درجة بقياس سنتغراد وقد أُتقن بناء هذه الحمامات واكثرها مبلط بالرخام والخدمة فيهِ متقنة ولو ان وسائل الانتقال والاقامة متيسرة في بورصه لأَمَّ هذه الحمامات آلاف مؤلفة من السائحين تستدرُّ البلاد منهم مالاً وفيراً في كل عام لان الذين جربوا ماء حمامات بورصه شهدوا بنفعهِ وجودتهِ وفضلوهُ على ماء حمامات النمسا وهي لا يعدُّ المتقاطرون اليها من كل جهات الارض

ولما فرغت من رؤْية ما في بورصه خرجت الى ضواحيها على جواد مع ترجمان رافقني نريد الوصول الى جبل اولمبيا فمررنا بكثير من الربض والآجام راق لي فرط جمالها ورأيت بعض الحراج محروقاً فعلمت ان الرعاة يفعلون ذلك لينبت عشب في موضع الشجر ترعاهُ مواشيهم وكثيراً ما كنت التقي بهؤُلاء الرعاة وتثور كلابهم علينا مثل الضواري وهم لا يردونها عنا . واشرفت من سفح الجبل عَلَى عدة اماكن مشهورة في التاريخ القديم والحديث منها بحيرة ابولونيا وسهول مسينيا وجبال ايدا وطرواده وغير هذا مما يذكّر المرء بعبر الدهر وحوادث الايام حتى اذا انتهيت من ذلك عدت الى الاستانة في الطريق الذي جئت منهُ وبعد ايام رجعت الى القطر المصري وقد اقمت في الاستانة وضواحيها شهراً كاملاً وقطعت المسافة بين تلك العاصمة وثغر الاسكندرية في باخرة روسية مرت على بيريا وهي اسكلة اثينا وما نزلنا لنراها بسبب الحجر الصحي ثم وصلنا ميناء الاسكندرية حيث استقرَّ بي النوى بعد سفرٍ طويل وسياحة عظيمة رأيت فيها من مشاهد اوروبا شيئاً كثيراً فما سطرت منهُ في هذه الفصول الا القليل



سويسرا

خلاصة تاريخية

عُرفت هذه البلاد من ايام الرومانيين باسم هلفثيا واشتهر اهلها من قدم بالبأس والجرأة والتفاني في طلب الحرية والدفاع عن الاستقلال ولم تزل هذه صفاتهم حتى يومنا وهم ما نالوا استقلالهم الحالي الاَّ بعد حروب كثيرة واقتحام الاهوال مدة القرون الطوال · وكان من امر هذه البلاد ان برابرة الاوروبيين الاول مثل الغوث والالمان والفرانك وسواهم دخلوا ارضها وعاثوا فيها فساداً بعد انحطاط الدولة الرومانية فظلت في حوزتهم اجيالاً ولم تزل آثار الرومانيين ظاهرة في القسم الجنوبي من البلاد واما القسم الشمالي فالماني اللغة والشرقي فرنسوي والكل جمهورية واحدة تعد في مقدمة الجمهوريات اعتدالاً وانتظاماً · ولما قامت مملكة شارلمان كانت سويسرا من املاكهِ ثم انفصلت عن فرانسا وصارت من ولايات النمسا او المانيا وحصلت بين اهلها وبين ملوك النمسا حروب كثيرة في القرون الوسطى اشتهر فيها رجل اسمهُ غليوم تل والمرجح في الاذهان ان قصتهُ وهمية ولكن الالسن تداولتها في كل بلاد حتى اضحت من امور التاريخ المشهورة وخلاصتها ان هذا الرجل كان من زعماء المحاربين للنمسا طلباً للاستقلال فظفر بهِ يوماً الحاكم النمسوي واراد تعذيبهُ بقتل ابنهِ وكان غليوم تل من المشهورين بالرماية ولهُ ولد وحيد تعلق على حبهِ فقال لهُ الحاكم انهُ لا يطلق سراحهُ الاَّ اذا رمى تفاحة توضع على رأس ابنهِ بسهم يصيبها ولا يقتل الولد وكان في ذلك خطر عظيم على الولد والوالد معاً ولكن غليوم تل اصاب التفاحة ولم يؤذِ ابنهُ وهي قصة تمثل على المراسح الاوروبية في كل مدينة

وكان من وراء هذه الحروب ان ملوك النمسا رضوا باستقلال الولايات السويسرية واحدة بعد واحدة مع بقائها تابعة اسماً للدولة النمسوية فقويت هذه الولايات بالاتحاد حتى انها فازت في الحرب على امبراطرة النمسا وعلى ملوك فرانسا · وكانت سويسرا بلاداً مهابة قوية في بدء القرن السادس عشر فما اجترأ احد على العبث باستقلالها من ذلك الحين حتى قام نابوليون بونابارت وغير نظامها كما فعل بغيرها ولكنها عادت الى حالها الاول بعد سقوطهِ وحدثت من ذلك الحين ثورات وقلاقل كثيرة انتهت بحرب اهلية في سنة ١٨٤٨ نظمت من بعدها الجمهورية الحالية على مثل ما تراها اليوم وعاصمتها مدينة برن في وسط البلاد ورئيس الجمهورية ينتخب كل سنة وراتبهُ لا يزيد عن ستمائة جنيه في السنة وهو يرأس مجلساً للنواب يقضي مصالح الامة عامة واما مصالح الولايات الخاصة فتقضيها مجالس محلية في كل ولاية · ويقال بوجه الاجمال ان حكومة سويسرا من انظم الحكومات واهلها من ارقى اهل الارض عقلاً واكثرهم علماً فان مدارسهم في الطبقة الاولى من التقدم وصناعتهم متقنة ومشهورة وهم اهل نشاط وهمة تليق ببلادهم الجبلية التي تكثر فيها العظائم والمحاسن الطبيعية الى حد يفوق التصديق ولهم امانة تضرب بها الامثال فقد كان ملوك اوروبا لا يستخدمون لحراستهم الخاصة وحراسة ذويهم غير رجال سويسريين لانهم اشتهروا بالبسالة والامانة · وهم من اقل الناس ميلاً الى الحيلة والخديعة واكثرهم حباً للغريب وصدقاً في المقال فلا عجب اذا كثر السائحون في سويسرا وهي جنة اوروبا ومتنزه السراة من اهلها ما دام ان البلاد كلها محاسن بديعة وهذه طباع اهلها المشهورة

واما عدد سكان هذه البلاد فقد كان في بدء القرن الحالي ٣٣١٣٠٠٠ نفس ومساحتها ١٥٤٦٥ ميلاً مربعاً

سان غوثار

اما وقد بدأت بذكرما في سويسرا من عجائب المناظر التي تؤثر في الذهن فاني اراني مقصراً في القليل الذي سيجيءُ لان هذه البلاد كعبة المتفرجين ومثابة السراة الموسرين ومصيف السائحين وهي فردوس اوروبا وجنتها الفيحاء تجمعت فيها محاسن الجبل والوادي والسهل والبحر والنهر وتناسقت على شكل يسحر الالباب ويقصر عن وصفهِ ابرع الكتاب . ولطالما سبقني البارعون الى تقرير الحقائق عما في هذه البلاد الحسناء من فخيم المناظر وبديع الامور فانا اكتفي هنا بقليلٍ مما رأيت فيها وقد كنت قصدتها من الاسكندرية في شهر يونيو سنة ١٨٩٥ ومررت ببعض مدائن الطليان قبل الوصول اليها مثل برندزي والبندقية وميلان ترى الكلام عنها في باب ايطاليا حتى وصلت حدود سويسرا ورأيت جبالاً شامخة شاهقة تعلو قممها الى السحاب هي جبال الالب المشهورة ليس في اوروبا ارفع منها قمة ولا اوعر مسلكاً ولا افخم منظراً فلما مدت خطوط الحديد في كل الممالك وكان لا بد من خطٍ حديدي يمرُّ في تلك الجهة ويربط هذه الممالك بعضها ببعض تعاونت المانيا وايطاليا وسويسرا على مدهِ في جبال الالب فانت اذا ركبت القطار من حدود ايطاليا ترى العجب من كثرة ما يخترقهُ هذا القطار من الجبال يدخل في نفقٍ ويخرج من نفقٍ طول الطريق حتى ان عدد السراديب في ذلك الخط لا يقل عن ٦٤ فضلاً عما دكوهُ من الجبال وما فتتوا من الصخور ومهدوا من الطرق مدة تسع سنين انفقوا في خلالها ١٢٠٠٠٠٠ كيلو من الديناميت لنسف تلك الجبال الهائلة واطول نفق في هذا الخط كلهِ النفق المعروف باسم سان غوثار وهو جبل شاهق طويل عريض نقبوهُ من جانب الى جانب والقطار يمرُّ في جوفهِ

* ترى وصف مدن سويسرا الفرنسوية في فصل خاص بها سيجيء

ويظلُّ ثلث ساعة سائراً سيراً حثيثاً في بطن الارض لان طول هذا النفق نحو مائة كيلو متر يقضيها المسافر في ظلام دامس ودخان متكاثف وتعتريهِ رهبة ودهش غريب متى فكر انهُ تحت الارض يسعى مجداً ومن فوقهِ جبال الالب الهائلة فيصفر عجباً لهمة الرجال وعظمة الانسان اذا تضافر واتمَّ الغرائب

وماذا اقول عن محاسن هاتيك الربوع التي يخترقها القطار في خط سان غوثار وانا لو اوتيت مقدرة اعظم الواصفين ما قدرت علَى عشر معشار الذي يليق بعظمة هذه المناظر الفخيمة وهي مقصد الطلاب ومطمع الروَّاد من كل بلاد فان قوى الطبيعة كلها تضافرت وتعاونت هنالك وعرضت من انواع الحسن الباهر ما يخلب الالباب ويفتن الانظار فبين انت في ذيالك القطر العجيب تسير في سهلٍ دبجتهُ يد الطبيعة باشهى الاعشاب وابهى انواع الزهر والشجر الباسق اذا انت على ضفة جدول لمائهِ خرير يلذُّ للسمع وقد راق زلالهُ ورقَّ استرسالهُ ورصعت جوانبهُ بوشيٍ من الخضرة واشكال الزهر الغريب تحملك على الظن انك في ديار النعيم حتى اذا ضاع فكرك في التأمل ببدائع هذا السهل رأيت انك فوق جسر عظيم يمتدُّ من جبل الى جبل كانما هو معلق بينهما وتحتهُ الوادي تجري فيهِ الانهار فاذا ما اجتزت ذلك الجسر سرت الى جانب المجرى سيراً متعوجاً متعرجاً كانما القطار افعى تنساب بك ما بين تلك المروج البهية والضفاف الشهية ونقع في حيرة الى اي الجانبين تحوّل الانظار الى جانب الوادي وما يليهِ من خضرة نضرة ومنازل رصعت بها الجوانب ترصيعاً وقد التفت من حولها الاغصان على شكل بديع وماء ينسيك متاعب الدهر واحوالهُ ام الى الجانب الآخر حيث قام جبل شاهق باسق في قمتهِ سحاب تتساقط منهُ كرات المطر كانما هي اللؤلؤ والدر على تلك الاعشاب الندية ومن دون السحاب ثلج يجلل قمة الجبل ويزيدهُ مهابةً وجمالاً ومن دون الثلج صخور بينها شجر تحنُّ

النفس الى ذكر مثلهِ وتصبو الى التظلل طول العمر بفيئهِ لاسيما وقد جرت من بين تلك الصخور والجبال جداول ماء معين يتدفق في هاتيك المسالك البهية تدفقاً يروق للناظرين ويتساقط من سفح الجبل فيريك اعجب ما رأيت من اشكال الجنادل وهي تغيب اونة وتظهر اخرى ما بين المسالك التي يتعشق القلب ذكرها وتمثل للرائي منتهى العز وحد الاعجاز في الجمال

لوسرن

وظللت ثمان ساعات في القطار يخترق الاراضي السويسرية وقد وددت لو تكون ثمانين حتى وصلت مدينة لوسرن وهي من اشهر مدن هذه البلاد واوفرها جمالاً بنيت في وسط جبال بدائعها لا توصف مثل اكثر مدن سويسرا والى جانبها بحيرة تعرف باسمها اشتهرت ايضاً بحسنها الفائق وطول هذه البحيرة ٢٣ ميلاً والعرض يختلف ما بين نصف ميل وميلين وعمقها ٧٠٠ قدم ولها مزية عَلَى اكثر البحيرات السويسرية في انها لا تتجمد مدة الشتاء كما ان لوسرن لها مزية باعتدال الهواء وجودتهِ فلا عجب اذا اضحت كعبة السائحين يفدون اليها الوفاً مؤلفة في كل عام وينفقون فيها الاموال الطائلة ويجدون ما يسرهم سواءٌ من محاسن الطبيعة التي تصبو اليها النفوس او من اجتهاد الحكومة والاهالي في تحسين ما عندهم فان الفنادق والمخازن كلها متقنة والمعاملة مع السويسريين ليس فيها شيءٌ من التعقيد ولا خوف على السائح من الغبن وسوء المعاملة . هذا غير ان المجلس البلدي لا يفتر عن اعداد وسائل الراحة للسائحين حتى انهُ انشأ مكتباً خاصاً لخدمتهم فيهِ المترجمون يتكلمون بكل لسان ويرشدونهم بلا اجرة الى كل حاجة . واهل لوسرن مثل اهل

سويسرا كلهم يتعلمون الفرنسية والالمانية في مدارسهم لان البلاد قسم الماني وقسم فرنسي فاما القسم الفرنسي فاهم ما فيهِ مدينة جنيف وهي واقعة على ضفة بحيرة جميلة تعرف باسمها طولها ٤٥ ميلاً وعرضها ٨ وقد امتازت هذه البحيرة بصفاء مائها وزرقتها وهي تمخر فيها الباخرات الحسناء بين المدائن الواقعة على شواطئها مثل اڤيان وڤڤيه ولوزان وكلهــا من المصايف المشهورة . ويحيط بهذه البحيرة جبال بهية يصطاف بها اكابر البلاد والسائحين وفي اكثرها قصور لبعض الاغنياء ولجنيف شهرة بمدارسها الجامعة يقصدها الطلاب من كل الانحاء وفيها معامل كثيرة للساعات والآلات الموسيقية وسنعود اليها في فصلٍ يجيء . واما القسم الالماني فاهمهُ لوسرن التي نحن في شأنها

واعظم متنزهات لوسرن البحيرة وما يحيط بها من آكام او جبالٍ بنيت فوقها القصور او طرق زرعت الى جانبيها الاشجار او حدائق رصعت بيدائع الاغراس او شوارع ملئت بالفنادق والمخازن الكبار وعلى ضفة البحيرة رصيف طويل فيهِ شجر من الدلب تطاولت جذوعهُ وتشبكت فروعهُ والناس يحتشدون في جوانب الرصيف ويسمعون شجي الانغام ينقلون الطرف من البحيرة الى ذلك الشجر وما يليهِ من محاسن المدينة ولا عجب ان يكون اهل سويسرا اصحاب ذكاء متوقد ومناظر حسنة ما دامت بلادهم هذه حالها وهذه مناظرها . ولقد ركبت مرة احدى البواخر الكثيرة التي لا تزال طول النهار وبعض الليل بين ذهاب واياب في جوانب البحيرة الشهية وكانت الباخرة تقف حيناً بعد حين في مواقف ما رأت العين اجمل منها وتدور بين مروج خضراء وجبال سحيقة شماء تتصل اطرافها بالسماء وحدائق فيحاء غناء وضياع وعمائر كتب على جبين اهلها الرغد والهناء وأُتقن ما فيها من طريق وبناء فما ترى اينما سرت الاَّ مناظر تتلو المناظر وكلها آيات في الحسن

بينات ينفرج امامك المجال حيناً ويضيق بعد حين فان الباخرة التي كنت فيها وصلت في سيرها الى موضع ضيق خيل لنا منهُ ان السفينة حصرت بين اربعة جبال شاهقة ولم يبقَ لهـا مخرج من ذلك الموقف فما عتمت ان دارت حول جبل من تلك الجبال الشهية فاذا نحن في بحيرة اخرى وقد اتسع المجال ورأينا المرابع والمراتع في كل جانب والابقار الضليعة ترعى على مهلٍ يقودها صبيان على ابدانهم دلائل العافية والحبور وقد رقدوا على العشب الندي يتأملون محاسن ما اوجد الله لهم او يتغنون ويسمعون اصواتهم للمارة في قطر الحديد والباخرات الطافية على وجه تلك البحيرة الصافية وقد يبيعون الازهار البرية للسائحين . وهنالك رجال ونساء يعملون في مزارعهم المتقنة بما اشتهر عن اهل هذه البلاد من الاجتهاد والكل يحرثون الارض وينقبون وملابسهم نظيفة ووجوههم طلقة لا ترى عليهم دلائل الهم والقلق فان حكومتهم عادلة غير جائرة والضرائب المفروضة عليهم يسيرة غير رابية واسواقهم حيث تباع حاصلات الارض رائجة غير كاسدة فما عليهم من همٍ ولا هم يحزنون . وهنالك ترى خطوط الحديد الى جانب الماء تمرُّ عليها الارتال وقد اطلَّ المسافرون من كل كوَّة او نافذة يسرّحون الطرف في تلك المناظر الشهية حتى لا يغيب عنهم جمال شبر من اشبار الارض . وسكة القطار كلها مرصوصة بالحصى والارض يرطبها المطر المتوالي لا ينقطع في الصيف او في الشتاء فالسفر هنالك لذة لا غبار يعمي الابصار ولا رجرجة تضني الاجسام وتذهب بالاصطبار ولا مراقبة مستمرة على التذاكر ولا تفتيش في كل حين تتألم منهُ الافكار فلا عجب اذا كان السفر في ارض سويسرا الحسناء لذة والاقامة فيها نعيماً تتوق اليهِ النفوس

وقد وقفت بنا الباخرة في محطة غليوم تل سميت باسم هذا الرجل الذي

ذكر في المقدمة التاريخية فرأينا فيها بنات لابسات الزي السويسري القديم ينشدنَ النغم الوطني وسرنَ في الباخرة الى آخر البحيرة معنا وهنَّ دائبات على الانشاد . وعدنا في آخر النهار الى لوسرن ونحن نسرح الانظار في تلك الجبال الفخيمة وهي ما بين مخروطة ومنبسطة ومتشعبة ومستدقة وكلها تكسوها الاعشاب وحراج الشجر البهي وتتساقط من جوانبها جداول الماء وفوق بعضها الجسور المعلقة بين طرفين من اطراف الجبل يمرُّ عليها الناس ومن دونهم ماء ينسكب بين هاتيك الشعاب الغريبة واجمل ما يكون في سويسرا منظر بحيراتها وجبالها المشهورة

واما الجبال المحيطة بلوسرن فكثيرة منها جبل بورجستوك ذهبنا في باخرة الى محطة في اسفلهِ وارتقينا قمتهُ في قطار يسير صُعداً بسير رويد وهو يتعرج وينثني بين مسالك الجبل وقد صنعوا لهُ دواليب مشبكة في وسطهِ غير الدواليب التي تسيرهُ فوق قضبان الحديد وفائدة هذه الدواليب المشبكة ان اسنانها ترد القطار عن ان يهوي ويتدحرج الى الوراء مدة سيرهِ بالصاعدين . وكان في أعلى الجبل آلة بخارية تساعد في جر القطار وقد ربطت اليهِ بسلسلة من الحديد قوية ولا حاجة الى القول ان السفر على هذه الطريقة يسحر الالباب بجمالهِ وغرابتهِ ولا سيما اذا اطلَّ الراكب ورأى ما فوقهُ وما دونهُ من عجيب المناظر الطبيعية وشعر كأنهُ صاعد في السحاب من بين شقوق الجبل البهي . والجبل منظم الطرق في اعلاهُ ترش جوانبهُ بالماء وقد صفت الاغراس فيهِ صفوفاً بهية وبني محل للتلفون وآخر للتلغراف يوصلان الموضع بلوسرن وبقية الارض وفيهِ فنادق والموسيقى تصدح بالانغام الشجية عصارى كل يوم فما احلى التنقل في تلك القمة الشماء وقد ترقرق ماء البحيرة من دونها وقامت شوامخ الجبال الراسيات وبدائع المحاسن المتناسقات حولهُ من كل جانب حتى تمثل لك صورة الهناء والنعيم . . ولقد قضيت في ذلك

الجبل ساعات ثم انحدرت الى سفحهِ وعدت الى المدينة فقصدت منها في الغد جبلاً آخر اشهر من هذا واكبر اسمهُ ريكي بلغ ارتفاع قمتهِ عن سطح البحر ١٨٠٠ متر وفيهِ كثير من الفنادق المتقنة سواءٌ في اعلاهُ او في اسفلهِ او في الجوانب التي تزينها الحراج الغضة . وقد كان القطار يصعد بنا هذا الجبل ولهُ آلة بخارية تجرهُ من الامام وأُخرى تدفعهُ من الوراء وقد نظمت قمة الجبل وزينت بمليح الطرق والبناء والقرى مثل التي مرَّ ذكرها فكان اكثر المتفرجين معنا يستلقون على تلك الاعشاب الندية ويتمرغون وقد لذَّ لهم بهاءُ الموضع وحسنهُ الباهر وتناسوا هموم الزمان وبعض الذين تراهم هناك يقضون اشهر الصيف كلها في ما شيد من المنازل الفخيمة في جوانب الجبل . واصحاب الفنادق هنا جروا على عادة لا تروق لاكثر الشرقيين هي انهم يوقظون الضيوف كل صباح عند شروق الشمس حتى يروا كيف يكون طلوع الغزالة من وراء الجبال وهم يدقون لذلك الاجراس عند الفجر وعند المغيب فيهرع الانكليز وسواهم للتأمل في ذلك المنظر الجميل ولكن الشرقي الذي لا تغيب الشمس من بلادهِ مدة النهار بطولهِ وهو يرى كيف تشرق وكيف تغيب في كل حين لا يهتم للقيام من النوم في ألذ ساعاتهِ حتى يرى هذا المنظر المعروف

واعلى من ريكي جبل بيلاطس وهو في ضواحي لوسرن ايضاً علوهُ ٢٠٠٠ متر والصعود اليهِ في قطر البخار يستغرق ساعة ونصف ساعة وهو لا يقل جمالاً عن الجبلين اللذين ذكرناهما وقد عنيت حكومة لوسرن بتشييد المنازل فيهِ وتمهيد الطرق البديعة وهي تأتي كل حيلة ممكنة لاستجلاب السائحين وترغيبهم في الاقامة طويلاً فيها كأَنما المحاسن الطبيعية التي تجمعت هنالك لا تكفيها وفي جملة الذي تأتيهِ الحكومة لهذا الغرض انها تقيم في كل عام زينة بهية في بحيرة لوسرن فتنار البواخر والجبال بالانوار الكهربائية وسواها وتخترق الفضاءَ

اسهم نارية تتصاعد على اشكال شتى تروق للناظرين ويتكوَّن من مجموع هذه الانوار منظر يزيد المدينة حسناً فوق محاسنها الكثيرة ولهذا يكثر ايراد المدينة من السائحين وهم الوف كثيرة لا يقل عدد الذين يرتقون جبل بيلاطس منهم عن ثلثين الفاً في كل عام

وفي لوسرن فنادق كثيرة بنيت فوق الروابي والآكام المحيطة بها غير هذه الجبال وهي تنار بالغاز والكهرباء واذا جاء الليل سطعت الانوار منها على البحيرة فكان لها منظر غريب كثير الجمال . وفي هذه المدينة الحسناء معارض تاريخية وتصويرية وكنائس واسواق تذكر وحدائق بديعة الوضع والاشكال ولكنني اكتفيت بما مرَّ ذكرهُ عنها لانهُ اهم ما فيها وشهرتها قائمة في جمال الموقع وجمال المناظر الطبيعية وجودة الماء والهواء ولو لم يكن فيها من المحاسن غير الذي اوجدهُ الله لكفاها عزًّا وهناءً

❊ زورخ ❊ برحت لوسرن بعد هذا ووجهتي مدينة زورخ وهي واقعة على بحيرة كبيرة تعرف بهذا الاسم ايضاً طولها ٢٥ ميلاً وعرضها ميلان ونصف ميل وقد قامت على ضفافها من كل جانب قصور فاخرة ومنازل كثيرة لكبراء السويسريين وبعض الانكليز والاميركان والالمان والروس وغيرهم ممن يصطاف في ربوع سويسرا البهية . والارض هنالك كلها محاسن مثل التي تقدم ذكرها حتى انهُ لو امكن للمرء ان يدور في البلاد ماشياً على قدميهِ لما شعر بالتعب من تغيير المناظر المدهشة في كل حين وقد يحسب ان الولاية كلها بلد واحد لان البناء متواصل والحركة دائمة في جوانب هذا القطر السعيد . واشتهرت زورخ بمعامل الحرير وهي عشرة آلاف معمل وفيها من الحدائق والابنية والشوارع ما يجعلها في الطبقة الاولى من الاهمية بين مدائن سويسرا من ذلك ساحة عظيمة فيها بركة

الجبل ساعات ثم انحدرت الى سفحهِ وعدت الى المدينة فقصدت منها في الغد جبلاً آخر اشهر من هذا واكبر اسمهُ ريكي بلغ ارتفاع قمتهِ عن سطح البحر ١٨٠٠ مترو فيهِ كثير من الفنادق المتقنة سواءٌ في اعلاهُ او في اسفلهِ او في الجوانب التي تزينها الحراج الغضة . وقد كان القطار يصعد بنا هذا الجبل ولهُ آلة بخارية تجرهُ من الامام وأُخرى تدفعهُ من الوراء وقد نظمت قمة الجبل وزينت بمليح الطرق والبناء والقرى مثل التي مرَّ ذكرها فكان اكثر المتفرجين معنا يستلقون على تلك الاعشاب الندية ويتمرغون وقد لذَّ لهم بهاءُ الموضع وحسنهُ الباهر وتناسوا هموم الزمان وبعض الذين تراهم هناك يقضون اشهر الصيف كلها في ما شيد من المنازل الفخيمة في جوانب الجبل . واصحاب الفنادق هنا جروا على عادة لا تروق لاكثر الشرقيين هي انهم يوقظون الضيوف كل صباح عند شروق الشمس حتى يروا كيف يكون طلوع الغزالة من وراء الجبال وهم يدقون لذلك الاجراس عند الفجر وعند المغيب فيهرع الانكليز وسواهم للتأمل في ذلك المنظر الجميل ولكن الشرقي الذي لا تغيب الشمس من بلادهِ مدة النهار بطولهِ وهو يرى كيف تشرق وكيف تغيب في كل حين لا يهتم للقيام من النوم في ألذ ساعاتهِ حتى يرى هذا المنظر المعروف

واعلى من ريكي جبل بيلاطس وهو في ضواحي لوسرن ايضاً علوهُ ٢٠٠٠ متر والصعود اليهِ في قطر البخار يستغرق ساعة ونصف ساعة وهو لا يقل جمالاً عن الجبلين اللذين ذكرناهما وقد عنيت حكومة لوسرن بتشييد المنازل فيهِ وتمهيد الطرق البديعة وهي تأتي كل حيلة ممكنة لاستجلاب السائحين وترغيبهم في الاقامة طويلاً فيها كأنما المحاسن الطبيعية التي تجمعت هنالك لا تكفيها وفي جملة الذي تأتيهِ الحكومة لهذا الغرض انها تقيم في كل عام زينة بهية في بحيرة لوسرن فتنار البواخر والجبال بالانوار الكهربائية وسواها وتخترق الفضاء

اسهم نارية تتصاعد على اشكال شتى تروق للناظرين ويتكوَّن من مجموع هذه الانوار منظر يزيد المدينة حسناً فوق محاسنها الكثيرة ولهذا يكثر ايراد المدينة من السائحين وهم الوف كثيرة لا يقل عدد الذين يرتقون جبل بيلاطس منهم عن ثلثين الفاً في كل عام

وفي لوسرن فنادق كثيرة بنيت فوق الروابي والآكام المحيطة بها غير هذه الجبال وهي تنار بالغاز والكهرباء واذا جاء الليل سطعت الانوار منها على البحيرة فكان لها منظر غريب كثير الجمال . وفي هذه المدينة الحسناء معارض تاريخية وتصويرية وكنائس واسواق تذكر وحدائق بديعة الوضع والاشكال ولكنني اكتفيت بما مرَّ ذكرهُ عنها لانهُ اهم ما فيها وشهرتها قائمة في جمال الموقع وجمال المناظر الطبيعية وجودة الماء والهواء ولو لم يكن فيها من المحاسن غير الذي اوجدهُ الله لكفاها عزًّا وهناء

❊ زورخ ❊ برحت لوسرن بعد هذا ووجهتي مدينة زورخ وهي واقعة على بحيرة كبيرة تعرف بهذا الاسم ايضاً طولها ٢٥ ميلاً وعرضها ميلان ونصف ميل وقد قامت على ضفافها من كل جانب قصور فاخرة ومنازل كثيرة لكبراء السويسريين وبعض الانكليز والاميركان والالمان والروس وغيرهم ممن يصطاف في ربوع سويسرا البهية . والارض هنالك كلها محاسن مثل التي تقدم ذكرها حتى انهُ لو امكن للمرء ان يدور في البلاد ماشياً على قدميهِ لما شعر بالتعب من تغيير المناظر المدهشة في كل حين وقد يحسب ان الولاية كلها بلد واحد لان البناء متواصل والحركة دائمة في جوانب هذا القطر السعيد . واشتهرت زورخ بمعامل الحرير وهي عشرة آلاف معمل وفيها من الحدائق والابنية والشوارع ما يجعلها في الطبقة الاولى من الاهمية بين مدائن سويسرا من ذلك ساحة عظيمة فيها بركة

وتمثال على اسم اشير موءسس سكة الحديد في سان غوتار الذي مرَّ ذكرهُ ويمكن الوصول من هذه الساحة الى شارع توسط ما بين المحطة والبحيرة وفيهِ كثير من الابنية العمومية وهي اكبر مدن سويسرا بالنظر الى عدد السكان

﴿شافهوسن﴾ وذهبت بعد هذا الى مدينة شافهوسن لارى شلال الرين فيها وهو اكبر شلالات اوروبا وقد كان السفر ما بين هاتين الجهتين حلواً شهياً توفرت فيهِ المناظر المطربة للنفس حتى اذا وصلنا شافهوسن اخذنا غرفة في فندق بني الى جانب الشلال ونافذة الغرفة تطل على مياههِ المرغية المزبدة ولها تأثير في النفس يفوق التعريف فانها كانت تنحط من علٍ هاويةً في الفضاء ولها دويٌّ يصمُّ الآذان كانما يد القدر تصبها صباً فوق صخور قويت على صدماتها القرون الطوال وهي اذا ما ماست الصخور لطمتها وصدمتها من كل جانب فترغي وتعج وتموج مضطربةً ثم تدور من حول الصخور وتسرع المسير مرعدة مرغية فيسمع دويها الهائل من بعدٍ باعد واذا تأملتها عن كثب كما فعلتُ تاهت افكارك وحرت في ما ترى من قوة ذلك المشهد العظيم وتأثيرهِ الشديد . ولقد نزلت غرفة من الزجاج بنيت فوق المياه المتلاطمة المتصادمة ووقفت في حجرة منحوتة بالجبل ترى منها منظر الماء من وراء الزجاج الملون غريباً حتى انك لتظن السيل احمر او اخضر او ازرق حسب لون الزجاج . ونزلنا غرفة اخرى يكاد الواقف في احدى نوافذها يماس الماء المنحدر . وسرت بعد ذلك في طرق متعرّجة بين الصخر والشجر والماء تصطدم امواجهُ من دوننا حتى اتينا موقفاً كانت الزوارق مستعدة فيهِ لنقلنا فدخلناها وارتدينا اردية من الجلد فوق ملابسنا حتى تقيها من الماء المتناثر عند الاصطدام بالصخور فسارت هذه الزوارق في الماء المضطرب تُثنى وتُفتل مجاراةً للتيار الشديد حتى وصلت صخراً عظيماً شاهق الارتفاع وارتقينا قمتهُ فاذا هو في وسط غريب المجال تصدمهُ

جيوش الماء وتقلقلهُ وقد خافت الحكومة عليهِ من السقوط فقوتهُ ببناء متين فاذا وقفت في ذلك الموضع البديع ترى الماء من دونك في هياج عظيم والسيل ينحدر منهُ في عرض ١٣٠ متراً ومن علو ٤٠ متراً فيكون لوقعهِ اصطدام هائل بتلك الصخور ولسيرهِ في الوادي بعد ذلك السقوط منظر كثير الغرابة يقصدهُ السائحون من بعيد الجوانب . ولما ارخى الليل سدولهُ خرجت على جسر بني فوق الشلال فانتهينا الى حانة منظمة بنيت فوق ذلك السيل الطامي ورأيت هنالك مناظر يعجز عن وصفها القلم واللسان لان اصحاب الحانة جعلوا يحولون اشعة النور الكهربائي على ذلك الشلال و يلونونها بالالوان المختلفة فتارةً ترى الماء قناطر خضراء تزري بالسندس وهي تعلو وتهبط وتتناثر فيتكون من اصطدامها وهبوطها وجريها واضطرابها مناظر تخيل لك انك في ارض مسحورة او ان الجن جاؤُا بمعجزاتهم وهم يعرضونها عليك. وطوراً ينقلب لون الماء فيصير احمر بلون الياقوت او اصفر او ازرق اومختلف الالوان فكانما الآلهة تضافرت على ايجاد جبال من الماء الجاري بهذه الالوان البديعة تراها كل لحظة على شكل من الاشكال ولا سيما اذ ينحدر السيل من ذلك العلو الشاهق وما اظن ان الذين وصفوا النعيم والفردوس من فلاسفة الاولين فطنوا الى ما يقرب من هذا العز الفاخر والحسن الباهر . وزاد المشهد جمالاً انهم وضعوا بعض المفرقعات النارية في وسط الصخور تصدمها المياه ثم اوصلوا اليها شرارة كهربائية فالتهبت وتطايرت في الفضاء هذه تنقضُّ شهاباً لامعاً وتلك تحلق في السماء نيزكاً ساطعاً وهذه تتناثر قطعها الملتهبة تناثر الدر والمرجان وهذه تشقُّ كبد السماء وقلبها يتوقد ناراً حتى اذا بلغت من العلو مكاناً فقعت واضاءت على اشكال تروق للناظرين

وبرحت هذا الموضع للسياحة في نهر الرين فركبت باخرة من بواخرهِ قامت

☀ستراسبورغ☀ وهي عاصمة ولاية الالزاس كانت تابعة لالمانيا ثم اغتصبها الفرنسيس وضموها الى مملكتهم في حرب الثلثين سنة التي سبقت الاشارة اليها وكان ذلك سنة ١٦٨٠ وظلت من املاك فرانسا حتى حربها الاخيرة مع بروسيا سنة ١٨٧٠ حين ضمت الى المانيا وصارت جزءًا منها وكان الالمانيون كل مدة استيلاء الفرنسيس عليها يعدون النفس باسترجاعها حتى ان احدهم انبأ في كتاب لهُ بين كان الفرنسيون يبنون الحصون فيها والقلاع بمجيء يوم تدك المدافع الالمانية تلك الحصون وتعيد المدينة الى اصلها الالماني فكان الذي قالهُ . ولما وصلنا المدينة ونزلنا من القطار الى محطتها الواسعة رأينا في صدر القاعة الكبرى من هذه المحطة صورة القيصر ولهلم الاول جد القيصر الحالي ومن ورائهِ ولي العهد واركان الحرب وكبراء الدولة فذكرنا ذلك بحرب سنة ١٨٧٠ وهي لا بد لزائر ستراسبورغ من تذكرها اينما سار لان المدينة ملآنة بالنُصُب والابنية والاشكال اقيمت لذكر استرجاعها من فرانسا وانتصار المانيا في تلك الحرب العظيمة حتى انك لترى صور قواد الجيش الالماني وتماثيلهم منتشرة في ارجاء المدينة غير ما فيها من الثكنات الواسعة والقلاع الحصينة الجديدة تقيم فيها الوف الجند المدربة وهي من اكبر مراكز الجيش الالماني. واني بعد وصولي رأيت عند المحطة ميدانًا واسعًا كثير الاتقان صفّت فيهِ الاغراس ووضعت المقاعد فترى الناس ينتابونهُ شأنهم في كل مكان مثل هذا للتنزه والتفرج بعضهم على بعض . ولما كانت المدينة من المواضع العسكرية كما مرّ فاني اخذني الدليل قبل كل شيء الى حصونها ومحل المعارك التي حدثت فيها مدة الحرب الاخيرة وقد اشتهر حصار الالمانيين لهذه المدينة فانهم حصروها مدة ٤٦ يومًا قبل ان فتحوها وطردوا الفرنسيين منها واطلقوا عليها ١٩٣ الف قنبلة دمرت حصونها واوقعت الفناء في حاميتها حتى سلم القائد الفرنسي

وانتهت ويلات الحصار بدخول الجيش الالماني ظافراً وكان في جملة الذي غنمهُ الفاتحون ١٢٠٠ مدفع و١٢٠٠٠ بندقية و١٨٠٠ حصان واسروا ١٨٠٠٠ رجل من جنود الفرنسيس . وقد هُدمت الحصون القديمة وانشئ مكانها طرق ومتنزهات وقصور وبنيت حصون حديثة فاتسع بعدها نطاق المدينة

وكانت ستراسبورغ يوم زيارتي لها حافلة بآلاف الوافدين عليها من كل صوب لانهُ اقيم فيها معرض عامّ في ذلك العام داخل حديقة واسعة الاطراف متنوعة المحاسن ووضعت فيهِ اشكال المصنوعات الحديثة متناسقة مقسمة فروعاً فالالات الميكانيكية للنقل والزراعة والصناعة على انواعها في قسم والمنسوجات في قسم والمفروشات في قسم وكلها ادلة عَلَى تقدم البلاد في هذه الصناعات ووصفها لا يختلف عن وصف غيرها من المعارض فلا اضيع الوقت عليهِ ولكنني اذكر بنوع خاص اني رأيت بناء جامع في ذلك المعرض احكم الوضع وبناء آخر يشبه كنيسة القبر المقدس في القدس الشريف بكل ما فيها من التحف والمصابيح الثمينة والملابس المقصبة التي يستعملها خدمة الدين وغير هذا مما يوهم الواقف هنالك انهُ في القدس وليس في المانيا . وكانت الاعشاب في بعض اجزاء هذه الحديقة مزروعة على نسق يقرأ منهُ اسم ولهلم وبسمارك ومولتكي الذين اسسوا الدولة الالمانية الحالية . واذكر اني حال خروجي من هذا المعرض دخلت موضعاً فيهِ مرائي عديدة لا تقل عن خمساية صفت قطعاً صغيرة بعضها الى جانب بعض فاذا وقف المرء امامها رأى شكلهُ خمساية مرة في كل ناحية وذكرني هذا بمحل مثلهُ في برلين اذا دخلهُ الزائر ورأى صورتهُ في كل جهة عسر عليهِ ان يعرف من اين يخرج اذا لم يساعدهُ صاحب المحل على ذلك

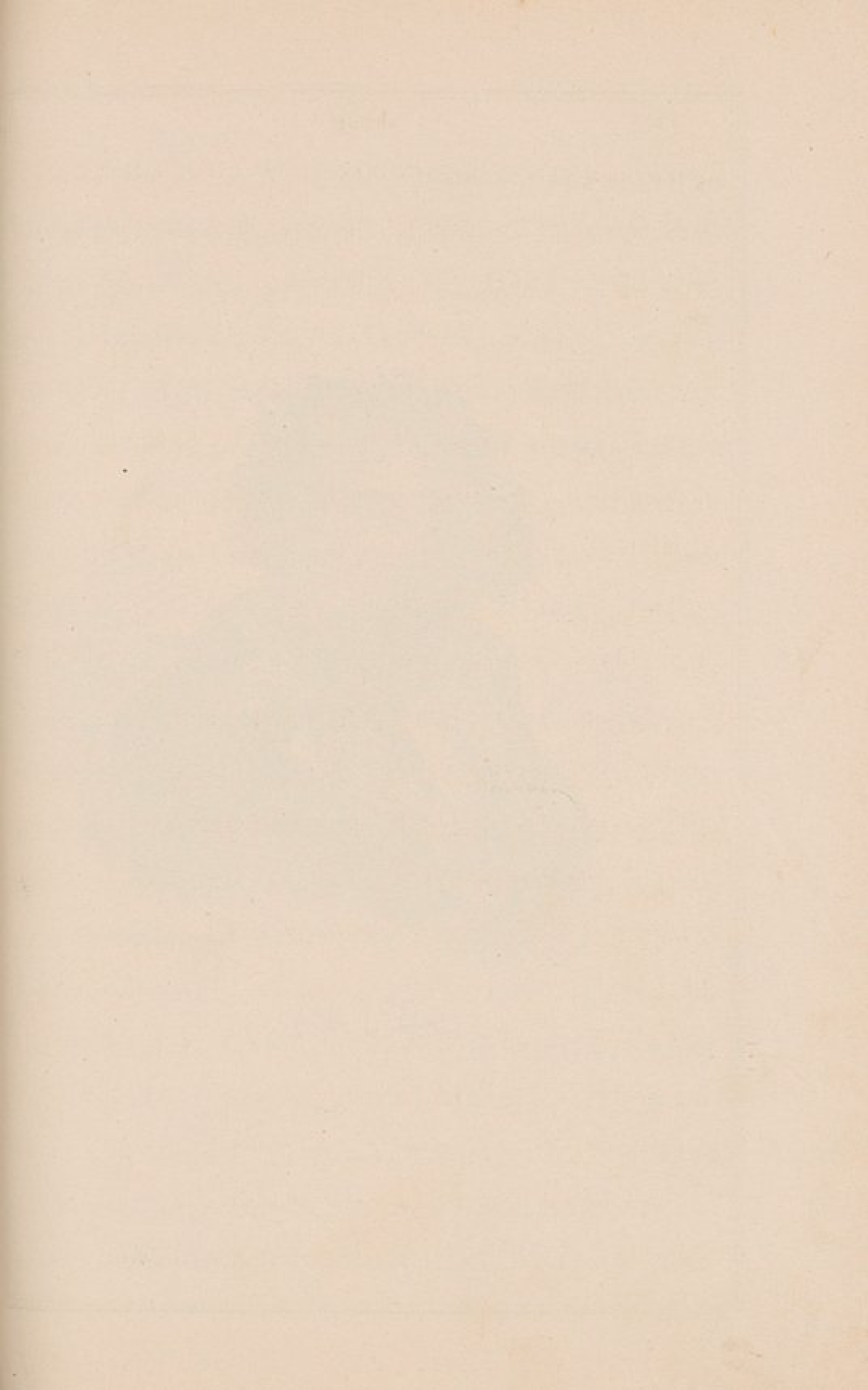
وفي ستراسبورغ حدائق وميادين وشوارع كثيرة وافرة الاتقان اذكر منها

ميدان جوتنبرج مخترع الطباعة فيهِ تمثال من الرخام الابيض يشرح معنى الحروف البارزة لجماعة من السائلين . وتمثال كلبر القائد الفرنسي الذي جاء مصر مع نابوليون وكان وكيلهُ في رئاسة الجيش ثم قتل في الازبكية على ما هو مشهور والرجل من ابناء ستراسبورغ ولد فيها سنة ١٧٥٣ وقتل سنة ١٨٠٠ كما ترى على احد جوانب التمثال المقام لهُ في هذا الميدان وهو من النحاس الاصفر . وكتبوا على الوجه الثاني واقعة المطرية سنة ١٨٠٠ وهي كان النصر فيها لهذا القائد على جيش الاتراك والمماليك وعلى الوجه الثالث عبارة قالها كلبر لجنوده عند افتتاح الحرب معناها « ايها الجنود ان الجواب الوحيد على هذه الاهانة هو الانتصار فدونكم والقتال » وعلى الوجه الرابع عبارة معناها « هنا بقايا ابن وطننا » ومع ان المدينة صارت المانية وكلبر كان من قواد الجند الفرنسي فلم يتغير من هذا الاثر شيء دليل اكرام الاهالي والحكومة لذكر الابطال . وفي المدينة ميدان آخر سمي باسم الدوك برولي الوزير الفرنسي الشهير فيهِ احسن المباني والقصور وفي آخرهِ الملهى الكبير ويمكن الوصول منهُ الى قصر الامبراطور بناهُ الاهالي بعد الفتح الالماني على نفقتهم وقدموهُ هدية لقيصر المانيا زرتهُ ورأيت فيهِ وفي حديقتهِ من البدائع ما يستحق الذكر ولاسيما الغرفة التي يستقبل الامبراطور فيها وفود الناس مدة وجودهِ في ستراسبورغ والقسم المخصص للامبراطورة . ويقرب من هذا القصر مدرسة جامعة لها شهرة في اوروبا حتى انها تعد من مباني العلم الاولى في اوروبا كلها وقد انفقوا على بنائها ١٢ مليون مارك وكتبوا على صدرها من الخارج « خدمة للعلم والوطن »

ولا بدَّ ان يكون القراء قد سمعوا بكنيسة ستراسبورغ وهي من اشهر كنائس الارض واغربها عرفت بساعة فلكية فيها تدق اشكالا وتعرف منها اسماء



(الجنرال كليبر)



الايام والاشهر وتاريخ الشهر والسنة وحالة المطر والهواء ومواقع بعض النجوم ومن ادوات هذه الساعة تماثيل اثني عشر رسولاً تنحني امام المسيح حين تدق الساعة الثانية عشرة وديك يصيح بعد ذلك ثلاثاً وغير هذا مما يحتاج الى شرح طويل . واهل ستراسبورغ عرفوا بالجد والنشاط واكثرهم المان ولكن بعضهم فرنسيون فيكثر الخصام بين الفريقين ولا يخشى الحزب الفرنسي من اظهار الميل لفرانسا مع قوة الحكومة وبطشها وكلهم يتكلمون اللغتين ولهم شهرة بالخطابة ودرس الفنون السياسية تحكي شهرة كنيستهم والثكنات العسكرية الكثيرة في مدينتهم

ولما انتهيت من مدينة ستراسبورغ برحتها الى جهة الشمال فمررت بما لا يعدُّ من المدائن العامرة وكلها بادية عليها ادلة التقدم والنماء ترى معاملها وخطوطها الحديدية في كل جانب ولو احصيت خطوط الحديد في الممالك بالنسبة الى اتساعها لكانت المانيا في مقدمتها هذا غير ان الاهالي بلغوا درجة قصوى من التهذيب وانتشرت مصنوعاتهم في كل قطر فقد مررت في هذا الطريق على مدينة (مانهيم) وهي تعرف في اصطلاح القوم بلقربول الرين لكثرة معاملها ومصنوعاتها التي ترسل الى هذا القطر وسائر الاقطار وظللنا نخترق العمائر حتى وصلنا

☼ مايانس ☼ او ميتز بلغة الالمان وهي من امهات المدائن الالمانية لها شهرة ذائعة في حسن موقعها على نهر الرين وجودة الهواء والمناظر ووفرة الحصون والاستحكامات التي قامت الى كل جانب منها واكثرها في جبال تحيط بهذه المدينة الى جانبي النهر ولذلك كانت هذه المدينة من المواقع العسكرية المشهورة وفيها حامية كبيرة لا يقل عددها عن اثني عشر الفاً وهم منتشرون في المدينة وضواحيها تراهم كيفما مررت وعلامات الانتظام والتعليم العسكري المشدد ظاهرة عليهم . وقد وصفنا حالة الجندية الالمانية وصعوبتها واستبداد ضباطها بالعساكر وغير هذا

عند الكلام عن برلين . وفي هذه المدينة الجميلة حديقة غناء قائمة على ضفة النهر تشغل مكاناً فسيحاً فيها وكلها آيات ومحاسن توجهنا اليها وسرنا منها الى كنيسة فيها مدافن الاساقفة القدماء الذين نشأوا في ميتز ونواحيها . وقد اذهلني ان امرأة هي قندلفتة الكنيسة او حارستها جاءت لنا بالمفاتيح ودارت معنا ترينا جوانبها والعادة في كل الانحاء تقريباً ان تكون هذه الخدمة للرجال لا للنساء

ورأيت في مايانس ميدان جوتنبرج المشهور مخترع الطباعة ولد في هذه المدينة فاقاموا لهُ هذا التذكار تمثالاً في وسط الميدان وكان الرجل من بسطاء الاهالي ولد في مايانس ونزح الى ستراسبورغ للارتزاق فحدث انهُ كان جالساً تحت ظل شجرة عند ستراسبورغ يوماً واسند ظهرهُ الى جذعها زماناً فلما نهض انتزع رداءهُ ليحملهُ على يدهِ فرأى في الرداء علامات طبعت عليهِ وهي تشبهُ الكتابة وكانت تلك العلامات اثر قشور الشجر طبعت على الرداء من استنادهِ الى الجذع ففكر صاحبنا مدة في هذا الاتفاق المليح وفطن منهُ الى انهُ يمكن ان تصنع حروف ناتئة اذا ضغط عليها ظهرت علاماتها على الورق او القماش فذهب الى بيتهِ وصنع بعض الحروف من الخشب ثم جعل يصبغها ويضع فوقها قماشاً او ورقاً يضغط عليهِ فترتسم هيئة الحروف على الورق وانتشر اختراعهُ فكان ذلك بدء الطباعة وصيرورة العلم الى حالهِ الحالية . وقد عمت المعارف بواسطة هذا الاختراع الجليل الى درجة لم تخطر على بال المخترع وكان اول كتاب طبع بهذه الحروف الانجيل والتوراة باللغة اللاتينية . واما الاختراع فتمَّ في ستراسبورغ سنة ١٤٤٠ ولما كان المخترع من اهل مايانس فقد أُقيمت لهُ التماثيل في المدينتين

ورأينا في هذه المدينة ايضاً تمثال الشاعر شلر في ميدان سمي باسمهِ . وصعدت حديقة في رأس جبل حصين يشرف على النهر والمدينة فتأملت الحصون المنيعة

ورأيت هنالك طريقاً عسكرياً قال لي الدليل الذي كان يرشدني الى هذه المواضع انهُ يوصل الى باريس توّاً وكان نابوليون الاول قد انشأهُ ليمهد الطرق لجيشهِ ويخضع المانيا عن هذا الطريق فكانت النتيجة ان الجنود الالمانية جعلتهُ طريقها الى باريس واخضعتها في الحرب الاخيرة . وانتقلت من مدينة مايانس هذه قاصداً

☀ وسبادن ☀ وهي علَى مقربةٍ منها تعدُّ من اشهر مدائن المانيا بجمال مناظرها وجودة هوائها وحماماتها المعدنية يقصدها الوف في كل عام للاستشفاء والاستحمام غير الذين يأتونها لتسريح الطرف بمناظرها البديعة والتمتع بهوائها المنعش . وقد مشيت في شارع كبير من شوارع هذه البلدة يعرف بشارع ولهلم وفيهِ صفوف من اشجار الكستناء الباسقة الى الجانبين ومنازل نخيمة وفنادق عظيمة في كل جانب منهُ وفي آخرهِ حديقة عمومية عظيمة الترتيب بهيجة الاشكال نصبوا فيها تمثال ولهلم الاول بملابسهِ الجندية وهو في ايام الكبر والتمثال كلهُ من الرخام الابيض الثمين . وعلى مقربةٍ من هذه الحديقة اروقة طويلة قامت على عمد وقناطر عديدة ومن تحتها المخازن والدكاكين فيها كل انواع الابضعة الالمانية والاجنبية وفي طرف هذه الاروقة ملهى او كازينو من الطبقة الاولى في الاتقان والجمال دخلنا قاعة فسيحةً فيهِ للرقص صنعوا قسماً علوياً منها داخل حواجز من النحاس الاصفر لجماعة العازفين والمغنين وعلق في سقفها ١٢ ثريا من النحاس الاصفر الذهبي غير المصابيح الاخرى تنار كلها بالنور الكهربائي ولضوئها جمال غريب . هذا غير ما في الكازينو من الغرف والمحاسن الاخرى التي لا تختلف عما ذكرنا او ما سنذكر في المدن الاخرى المشهورة بحماماتها . ومتنزهات وسبادن هذه متصلة بعضها ببعض لكثرتها فما تنتهي من احدها حتى تصل متنزهاً يضارعهُ في النظام والجمال وكثرة الواردين اليهِ . وفي

جبل فوق وسبادن كنيسة روسية بنيت تذكاراً لاميرة ناسو وهي الغراندوقة اليصابات الروسية ابنة القيصر نقولا الاول اقترن بها امير ناسو الالماني وتوفيت سنة ١٨٤٥ فبنيت هذه الكنيسة تخليداً لذكرها وهي يصعد اليها في طرق ومسالك متعرجة بين مشاهد الجبل البديعة وغياضهِ القديمة تضوع منها الروائح العطرة ويقيم بعض خدمة الكنيسة الروسية كل يوم قداساً عن نفس الاميرة المذكورة . وقد صنعوا قبر هذه الاميرة في تلك الكنيسة على شكل بديع ثمين من الرخام الابيض الناصع ووضعوا فوق الضريح تمثال الاميرة مستلقية على ظهرها وعينها ناظرة الى السماء والبسوها ثوباً ابيض نقياً ووضعوا على رأسها اكليلاً من الزهر وكل ذلك من المرمر الناصع الثمين يجعل لهذا الاثر منظراً يؤثر في النفس ويعيد الى الصدر ذكر الورع والعفاف . وقد بنيت في ذلك الجبل عدة فنادق ومطاعم وحدائق منظمة بديعة الترتيب قضينا بينها بعض النهار ثم سافرنا منها الى

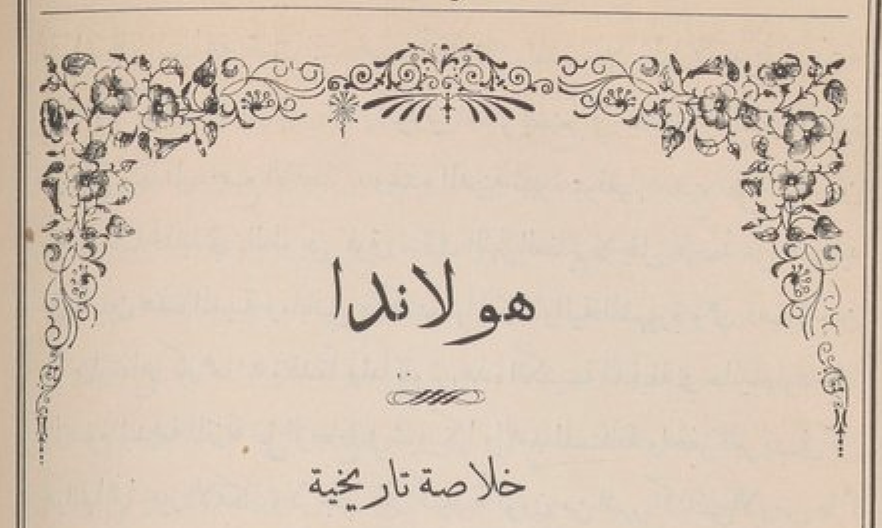
﴿فرانكفورت﴾ وهي من اشهر المدن الالمانية واعظمها عدد سكانها نحو مايتين وخمسين الف نفس ولها شهرة ذائعة بمدارسها العالية ومتاحفها العظيمة ومصارفها الكبرى ويعدُّ اهلها في الطبقة الاولى من التهذيب لانهُ لا يوجد بينهم امي واحد ولا متسوّل وهذا كثير مثلهُ في مدن المانيا العامرة . وفرانكفورت مشهورة في التاريخ بالحروب والمعاهدات التي امضيت بها واعظمها ما كان مختصاً باتحاد الدول الالمانية ولهذا فان ولهلم الاول جاءها قبل غيرها من المدن الالمانية بعد انتصاره على فرانسا سنة ١٨٧١ وهنالك أُمضيت المعاهدة النهائية بين المانيا وفرانسا . ومن اشهر ما يذكر عن هذه المدينة بنك روتشلد الكبير لهُ معاملات مع كل المحلات المالية في الارض وقد كان آل روتشلد العظام من اهل فرانكفورت ومنها بدأت عظمتهم بما اظهر جدهم انسلم روتشلد من الامانة لامير فرانكفورت حين هاجما

نابوليون وكان انسلم روتشلد هذا مقرباً للامير وقد جمع مالاً بالدأب والاجتهاد فلما خاف الامير من هجوم نابوليون استدعاهُ اليهِ واودع امواله كلها عنده ثم فرَّ من المدينة فاخذ روتشلد اموال الامير وخبأها مع مالهِ الخاص في بيتهِ والبيت باقٍ في فرانكفورت الى اليوم اثرًا جليلاً شاهدتهُ مدة وجودي فيها . ومن اغرب ما يروى عنهُ ان نابوليون لما دخل المدينة وفتحها بات ليلة في هذا البيت لانهُ كان من احسن بيوت المدينة وكانت تلك الاموال مخزونة في السقف فوق رأسهِ فما درى بها . ولما انتهت الحرب وخرج الفرنسيس من البلاد عاد الناس الى مساكنهم وعاد روتشلد الى هذا البيت فوجد الاموال وارجعها الى الامير كما كانت فسرَّ الامير بامانتهِ وساعدهُ على الارتقاء . وظلَّ روتشلد يجمع الاموال حتى صار من اكبر المثرين وورثهُ خمسة اولاد تفرقوا في عواصم اوروبا وكان اشهرهم ابنهُ الثالث ناثان روتشلد توطن في اول امرهِ مدينة مانشستر ثم جاء لندن وكان مقاولاً للجيش الانكليزي مدة حروبهِ الاخيرة مع نابوليون الاول حتى انهُ ذهب بنفسهِ في اواخر الحرب الى بروكسل ليرى فيما يلزم لهذا الجيش فحضر موقعة واترلو المشهورة وعلم ان النصر تمَّ فيها للانكليز ومن ثم اسرع في الرجوع الى لندن في سفينة لهُ خاصة فبلغها وهو عالم بخبر النصر قبل ان تصل الاخبار الى البلاد بيوم كامل قضاهُ كلهُ في مشترى الاوراق المالية وهي يومئذٍ في سقوط زائد بسبب خوف الناس من الحرب وجمع منها مقداراً هائلاً فلما انتشر خبر النصر وفرار نابوليون ارتفعت قيمة الاوراق ارتفاعاً عظيماً وربح منها روتشلد في يوم واحد عدة ملايين ومن ذلك العهد صار بيت روتشلد اكبر البيوت المالية في اوروبا ولم يزل علَى ذلك الى الآن

وبعد ان شاهدت هذا في فرانكفورت عدت الى مايانس لاتمم السياحة منها في نهر الرين وهو الامر الذي جئت هذه البلاد لاجلهِ .

وعرض هذا النهر لا يقل عن ٦٠٠ متر في بعض الجهات وانت اينما سرت ترى القلاع القديمة والحديثة على رؤوس الجبال وقصور الاغنياء تطلّ على النهر من تلك الاعالي والى جانب الماء من هنا ومن هنا مروج خضراء وحقول اريضة يتنقل فيها اناس يظهر عليهم النعمة والرواء وارتال تمرّ على خطوط الحديد مرة تقرب من النهر ومرة تفذّ في داخل البلاد حتى ان المسافر في النهر ليرى القطرات البخارية في بعض الاحيان خارجة من وسط الجبل على غير انتظار او سائرة على ضفة الرين فيشهد من ذلك حركة لا تنقطع في النهر والبر تشهد بعظمة هذه البلاد وتقدمها العجيب. والبواخر التي تسير في نهر الرين كثيرة الجمال والاتقان نزلت في واحدة منها اسمها ولهلم الاول لها طبقة علوية ممتدة على طول الباخرة وقاعة الطعام فيها فسيحة يدهش نظامها الابصار مدت فيها ١٢ مائدة عليها الآنية الفضية تسطع وتلمع ومن حولها الخادمون بانظف الملابس وكان الراكبون في هذه الباخرة من الالمان والانكليز والاميركان وسواهم يتأملون محاسن الرين مثلي ويعجبون وقد اشتروا رسماً لهذا النهر مطبوعاً رسمت فيه المدن التي تقف فيها السفن وهي كثيرة لا يمكن لي وصفها اذكر منها (بون) وهي مدينة زاهرة عامرة اشتهرت بمدرستها الجامعة التي تلقى الامبراطور الحالي دروسهُ فيها. ومنها (كوبلنتز) وهي نقطة عسكرية مشهورة فيها الوف من رجال الجند الالماني واذكر انا بعد ان تجاوزنا كوبلنتز رأينا في احدى الروابي قصراً فوقهُ راية اميركية حيّت السفينة واطلق من القصر مدفع صغير فضجّ الاميركيون السائحون معنا استحساناً وهكذا ظللنا مدة ١٢ ساعة في نهر الرين نمر على ابهى انواع الحقول والمدن والكروم تمتد من شاطىء النهر الى أعلى الجبال وهي التي يستخرج منها نبيذ الرين المشهور. ولا حاجة الى القول ان مشاهد وادي الرين تفضل اكثر المشاهد المشهورة في الارض والسفر فيهِ من

ألذ اشكال السياحة بقيت اتمتع بمحاسنها كل تلك المدة حتى وصلت مدينة
﴿ كولون ﴾ المشهورة بماء كولونيا العطر يصنع في معاملها قناطير مقنطرة
ويرسل منها الى جميع الاقطار . ولهذه المدينة شهرة بموقعها البديع على نهر الرين
وجسرها الحديدي الطويل فوق ذلك النهر العظيم لا يقل عرضهُ عن خمسماية
متر ما بين هذه المدينة ومايانس وبكنيستها الكاتدرائية المشهورة وهي ذات برجين
عالين ارتفاع اكبرهما ٦٥٠ قدماً واما نقوش هذه الكنيسة الدقيقة في خارجها وداخلها
والرسوم البديعة المنزلة على الزجاج في شبابيكها والعمد المستدقة والحفر الغريب في كل
جوانبها فمما يحير الافكار ولا عجب فان كنيسة كولون من اشهر كنائس الارض طرّاً
ويا ليت ان الوقت يسمح لي بالتطويل في وصف بنائها الانيق . بدأوا ببناء هذه
الكنيسة سنة ١٣٢٧ حين ارسل البابا منشوراً يطلب فيهِ جمع مال بالاكتتاب
لبنائها فما تمّ صنعها حتى عام ١٦٠٠ ولكنها تهدمت مراراً واضرت بها جنود نابوليون
سنة ١٧٩٤ اذ جعلتها مستودعاً للمهمات واخذت بعض التماثيل النحاسية منها فصبتها
مدافع فلما طُرد الفرنسيون منها اعادوا زخارفها وظلوا الى عهد قريب جداً يضيفون
اليها اغرب غرائب الصناعة الحديثة حتى صارت من اعظم مشاهد الارض الحالية .
وهي قائمة على ٥٦ عموداً كبيراً في طولها و ١٨ عموداً في العرض وتحت القبة
الكبرى عمودان ضخمان بلغ محيط كل منهما ٣٦ خطوة وفي ذلك من المزية مالا يخفى
حتى ان الذي يقف امام الكنيسة ويرى تلك العمد البديعة والقباب البهية والنقوش
الفاتنة وكلها من الرخام الابيض الثمين ليزيد عجبهُ عن الذي يدخل جوانبها الكبرى
ويقف امام تلك الصور الدينية المنزلة في الزجاج فيخيل لهُ انهُ يرى حقيقة لا رسماً
وجملة القول ان كولون من اهم مدائن المانيا مناظر وصناعة وتجارة . عدد
سكانها نصف مليون نسمة . وقد اقمت فيها اربعة ايام ثم برحتها قاصداً بلاد هولاندا



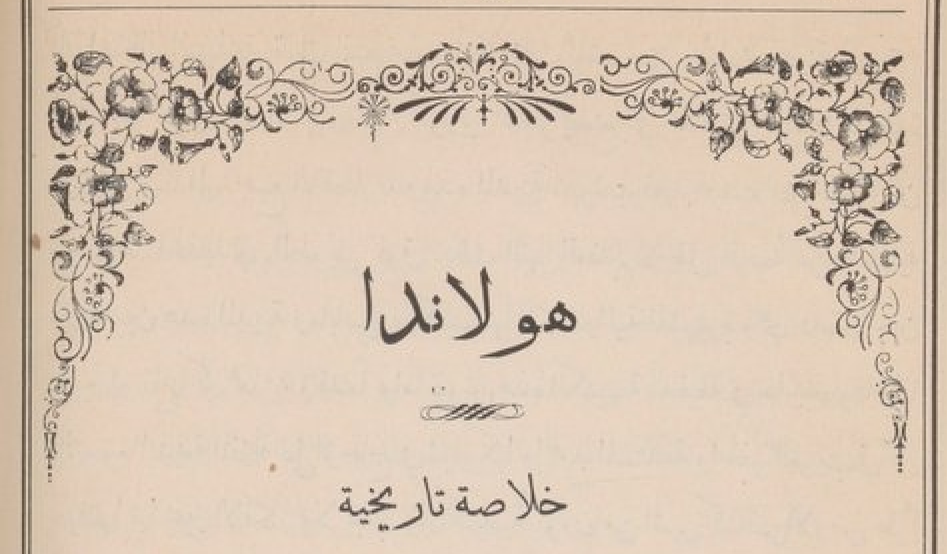
هولاندا

خلاصة تاريخية

كانت هولاندا في اول عهدها بالعمران تعد مع البلجيك بلاداً واحدة اسمها في اوروبا (نذرلاند) او البلاد الواطئة واطلق عليها العرب اسم الفلمنك نسبة الى ولاية فيها يتكلم اهلها اللسان الفلمنكي او الفلاماندي القديم وهو يقرب من اللسان الالماني . وكان يملك هذه البلاد امراء برغندي الى ان مات آخر امراء هذه العائلة وانتقل الملك الى آل هابسبرج الذين يحكمون بلاد النمسا اليوم باقتران الامير مكسمليان في سنة ١٤٧٧ بابنة الامير الاخير من امراء برغندي . ومكسمليان هذا صار بعد وفاة ابيهِ امبراطور النمسا وانتقل منهُ الملك الى كارلوس الاول الذي كان ملك اسبانيا وامبراطوار النمسا في آنٍ واحد فظلت البلاد تابعة لملوك اسبانيا حين وفاة ملكها كارلوس الثاني سنة ١٧٠٠ حتى صارت الدول الكبرى تتسابق على امتلاك الفلمنك وتحاربت فرانسا والنمسا عليها زماناً طويلاً فانتهت الحرب بصلح عقد سنة ١٧١٤ في راستاد بين كارلوس السادس امبراطور النمسا ولويس الرابع عشر ملك فرانسا وكان من مقتضى هذا الصلح ان اكثر البلاد المعروفة باسم البلجيك اليوم اعيدت الى مملكة النمسا وظلت في قبضتها حتى ايام الثورة الفرنسوية حين الحقت باملاك فرانسا

وكان من امر هولاندا انها لقيت من ملوك اسبانيا ظلماً كبيراً واضطهاداً دينياً لم يسبق لهُ نظير واشتدت وطأة الظلم عليها في ايام فيليب الثاني وكان هذا الملك شديد التعصب ساءهُ ان اهل هولاندا اتبعوا المذهب البروتستانتي فامر باعدام كل من لا ينكر هذا المذهب

وارسل الدوك الثامن قبلهِ لتنفيذ هذا الحكم الجائر وكان في جملة المحكوم عليهم الامير الحاكم على هولاندا من قبل فيليب الثاني وهو من آل اورانج العائلة الحاكمة حالاً على هذه البلاد فجهر الامير بالعصيان وجند من اهل بلادهِ جيشاً قوياً حارب الاسبانيين وانتصر عليهم بعد معارك جسيمة واستقلت هولاندا من ذلك اليوم فصار امير اورانج حاكماً عليها وتوارث آلهُ الامارة من بعدهِ وكان ذلك في سنة ١٧٥٠ . وتقدمت بلاد هولاندا في حكم هؤلاء الامراء تقدماً عظيماً واتسعت متاجرها وملكت المستعمرات الكبرى في الهندين الشرقية والغربية وظلَّت على ذلك حتى ايام الثورة الفرنساوية فان الفرنسويين انتصروا عليها وضموها الى جمهوريتهم ثم جعلها بونابارت مملكة لاخيهِ لويس نابوليون . وانتهزت انكلترا فرصة اشتغال هولاندا حينئذٍ بهذه المتاعب فسطت عليها وغنمت بعض مستعمراتها واهمها راس الرجاء الصالح في افريقيا وجيانا في اميركا الجنوبية . ولما بدأت قوة فرانسا بالسقوط في اواخر ايام نابوليون الاول قام الهولانديون عليها وتمكنوا من الاستقلال مرة اخرى في سنة ١٨١٤ واتحدوا مع بلاد البلجيك فساعدتهم اوروبا على ذلك وأُنشئت مملكة جديدة للبلاد الواطئة دعي وريث آل اورانج للحكم عليها . ولكن الاختلاف بين البلادين في الذوق والطبع كان كبيراً فلم تمر اعوام كثيرة على هذا الاتحاد وقام البلجيكيون يطلبون الاستقلال في سنة ١٨٣٠ فنالوهُ وساعدتهم اوروبا على نيلهِ وانتخب امير من آل ساكس كوبرج (امارة في المانيا) للحكم على البلجيك وظلت هولاندا تحت حكم ملوكها من آل اورانج وهي على هذا الحال الى اليوم . وقد كان من امرها ان عائلتها المالكة كادت تنقرض في اواسط هذا القرن ولم يبقَ منها غير امير واحد وريث آل اورانج وآل ناسو وهم حكام امارة لكسمبرج فورث الرجل البلادين وحكمهما زماناً باسم ولهلم الثالث وكان لهُ ولدان توفيا في حياتهِ وتوفيت بعدها زوجتهُ فاضطرَّ الرجل ان يقترن وهو في الثالثة والستين من عمرهِ مرة اخرى ليأتيهُ من يرث المملكة والامارة ولم يرزق غير فتاة هي ملكة البلاد الحالية ولهلمينا ولدت في ٣١ اغسطس سنة ١٨٨٠ وتوفي والدها سنة ١٨٩٠ فقامت امها بالوصاية عليها الى ان بلغت الثامنة عشرة من عمرها وتوجت ملكة لهولاندا في شهر مايو من سنة ١٨٩٩ . وكان الاحتفال بتتويجها عظيماً بديعاً كثر فيهِ فرح اهل البلاد وهم يحبون هذه الملكة حباً مفرطاً لما ظهر لهم من حسن خصالها وتوقد ذهنها. وقد ربيت جلالة الملكة ولهلمينا على يد امهر الاساتذة والمربيات وهي الآن تكتب بعدة لغات اوروبية غير لغتها ولها المام باللغات الشرقية التي يتكلم بها سكان الاملاك الهولاندية في الشرق. وضاعت امارة لكسمبرج من هولاندا في حكم ملكتها الحالية لانها بحسب نظامها القديم لا يحكمها النساء واقترنت هذه الملكة بالبرنس هنري الالماني من امارة مكلنبرج شورين في سنة ١٩٠٢



هولاندا

خلاصة تاريخية

كانت هولاندا في اول عهدها بالعمران تعد مع البلجيك بلاداً واحدة اسمها في اوروبا (نذرلاند) او البلاد الواطئة واطلق عليها العرب اسم الفلمنك نسبة الى ولاية فيها يتكلم اهلها اللسان الفلمنكي او الفلاماندي القديم وهو يقرب من اللسان الالماني . وكان يملك هذه البلاد امراء برغندي الى ان مات آخر امراء هذه العائلة وانتقل الملك الى آل هابسبرج الذين يحكمون بلاد النمسا اليوم باقتران الامير مكسمليان في سنة ١٤٧٧ بابنة الامير الاخير من امراء برغندي . ومكسمليان هذا صار بعد وفاة ابيهِ امبراطور النمسا وانتقل منهُ الملك الى كارلوس الاول الذي كان ملك اسبانيا وامبراطوار النمسا في آنٍ واحد فظلت البلاد تابعة لملوك اسبانيا حين وفاة ملكها كارلوس الثاني سنة ١٧٠٠ حتى صارت الدول الكبرى تسابق على امتلاك الفلمنك وتحاربت فرانسا والنمسا عليها زماناً طويلاً فانتهت الحرب بصلح عقد سنة ١٧١٤ في راستاد بين كارلوس السادس امبراطور النمسا ولويس الرابع عشر ملك فرانسا وكان من مقتضى هذا الصلح ان اكثر البلاد المعروفة باسم البلجيك اليوم اعيدت الى مملكة النمسا وظلت في قبضتها حتى ايام الثورة الفرنسوية حين الحقت باملاك فرانسا

وكان من امر هولاندا انها لقيت من ملوك اسبانيا ظلماً كبيراً واضطهاداً دينياً لم يسبق لهُ نظير واشتدت وطأة الظلم عليها في ايام فيليب الثاني وكان هذا الملك شديد التعصب ساءهُ ان اهل هولاندا اتبعوا المذهب البروتستانتي فامر باعدام كل من لا ينكر هذا المذهب

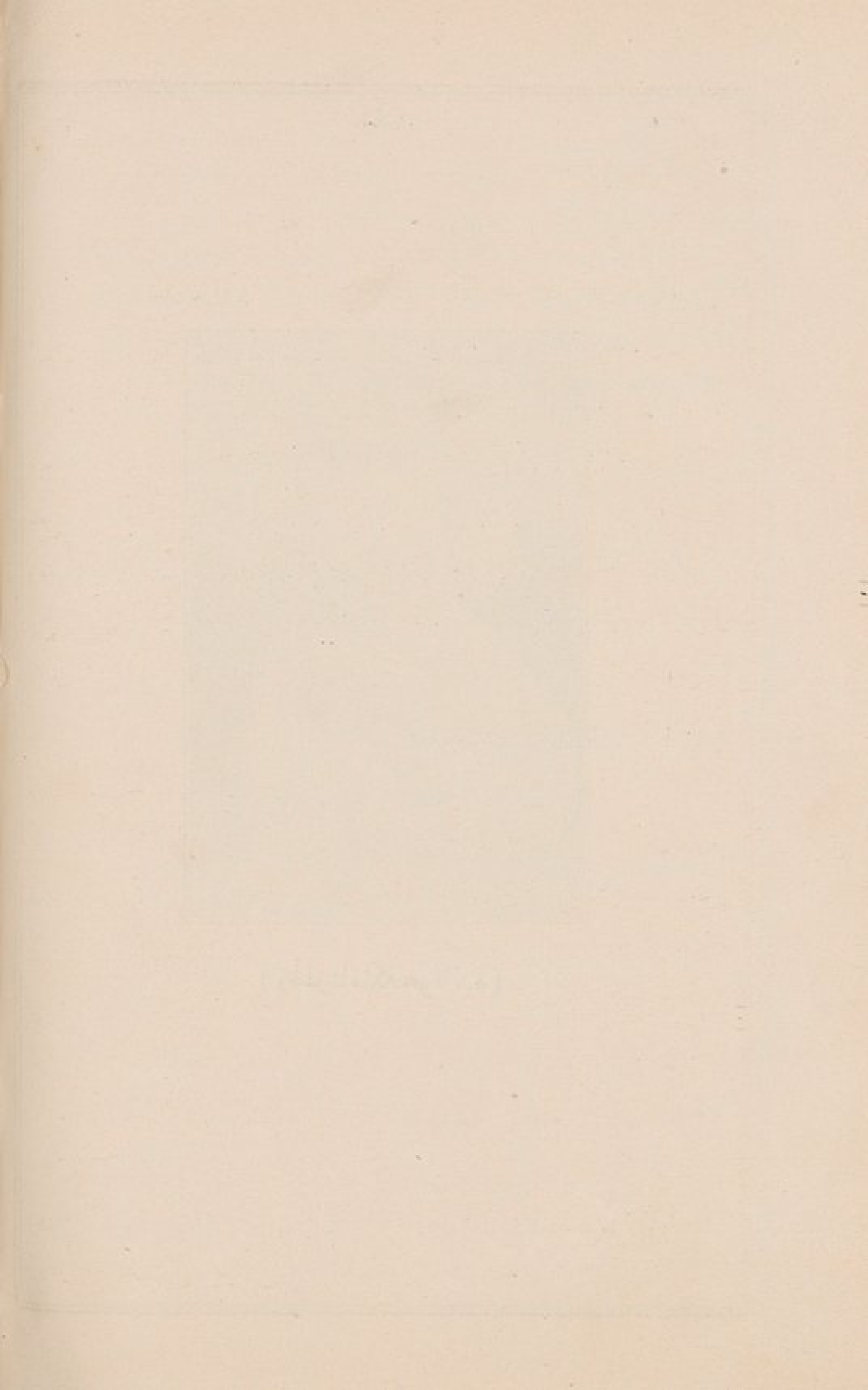
وارسل الدوك الثامن قبلهِ لتنفيذ هذا الحكم الجائر وكان في جملة المحكوم عليهم الامير الحاكم على هولاندا من قبل فيليب الثاني وهو من آل اورانج العائلة الحاكمة حالاً على هذه البلاد فجهر الامير بالعصيان وجند من اهل بلادهِ جيشاً قوياً حارب الاسبانيين وانتصر عليهم بعد معارك جسيمة واستقلت هولاندا من ذلك اليوم فصار امير اورانج حاكماً عليها وتوارث آلهُ الامارة من بعدهِ وكان ذلك في سنة ١٧٥٠ . وتقدمت بلاد هولاندا في حكم هؤلاء الامراء تقدماً عظيماً واتسعت متاجرها وملكت المستعمرات الكبرى في الهندين الشرقية والغربية وظلت على ذلك حتى ايام الثورة الفرنساوية فان الفرنسويين انتصروا عليها وضموها الى جمهوريتهم ثم جعلها بونابارت مملكة لاخيهِ لويس نابوليون . وانتهزت انكلترا فرصة اشتغال هولاندا حينئذٍ بهذه المتاعب فسطت عليها وغنمت بعض مستعمراتها واهمها راس الرجاء الصالح في افريقيا وجيانا في اميركا الجنوبية . ولما بدأت قوة فرانسا بالسقوط في اواخر ايام نابوليون الاول قام الهولانديون عليها وتمكنوا من الاستقلال مرة اخرى في سنة ١٨١٤ واتحدوا مع بلاد البلجيك فساعدتهم اوروبا على ذلك وأنشئت مملكة جديدة للبلاد الواطئة دعي وريث آل اورانج للحكم عليها . ولكن الاختلاف بين البلادين في الذوق والطبع كان كبيراً فلم تمر اعوام كثيرة على هذا الاتحاد وقام البلجيكيون يطلبون الاستقلال في سنة ١٨٣٠ فنالوهُ وساعدتهم اوروبا على نيلهِ وانتخب امير من آل ساكس كوبرج (امارة في المانيا) للحكم على البلجيك وظلت هولاندا تحت حكم ملوكها من آل اورانج وهي على هذا الحال الى اليوم . وقد كان من امرها ان عائلتها المالكة كادت تنقرض في اواسط هذا القرن ولم يبقَ منها غير امير واحد وريث آل اورانج وآل ناسو وهم حكام امارة لكسمبرج فورث الرجل البلادين وحكمهما زماناً باسم ولهلم الثالث وكان لهُ ولدان توفيا في حياتهِ وتوفيت بعدهما زوجتهُ فاضطرَّ الرجل ان يقترن وهو في الثالثة والستين من عمرهِ مرة اخرى ليأتيهُ من يرث المملكة والامارة ولم يرزق غير فتاة هي ملكة البلاد الحالية ولهلمينا ولدت في ٣١ اغسطس سنة ١٨٨٠ وتوفي والدها سنة ١٨٩٠ فقامت امها بالوصاية عليها الى ان بلغت الثامنة عشرة من عمرها وتوجت ملكة لهولاندا في شهر مايو من سنة ١٨٩٩ . وكان الاحتفال بتتويجها عظيماً بديعاً كثر فيهِ فرح اهل البلاد وهم يحبون هذه الملكة حباً مفرطاً لما ظهر لهم من حسن خصالها وتوقد ذهنها. وقد ربيت جلالة الملكة ولهلمينا على يد امهر الاساتذة والمربيات وهي الآن تكتب بعدة لغات اوروبية غير لغتها ولها المام باللغات الشرقية التي يتكلم بها سكان الاملاك الهولاندية في الشرق. وضاعت امارة لكسمبرج من هولاندا في حكم ملكتها الحالية لانها بحسب نظامها القديم لا يحكمها النساء واقترنت هذه الملكة بالبرنس هنري الالماني من امارة مكلنبرج شورين في سنة ١٩٠٢

فرزقت منهُ بنتاً سنة ١٩٠٩ هي ولية عهد المملكة الهولاندية وكان لولادتها رنة فرح في بلاد هولاندا تشبه افراح القوم يوم تتويج ملكتهم الحالية

وهولاندا بلاد صغيرة عدد سكانها خمسة ملايين ونصف من النفوس ولكنها في الطبقة الاولى من طبقات التمدن ولها مستعمرات عظيمة اكثرها في جزائر المحيط الهندي لا يقل عدد سكانها عن اربعين مليوناً فهي من اكبر دول الاستعمار الحالية ولها تجارة واسعة وعمارة قوية ولاهلها شهرة في الجد والاقدام والامانة العظيمة وهذا السر في نجاحهم مع قلة العدد



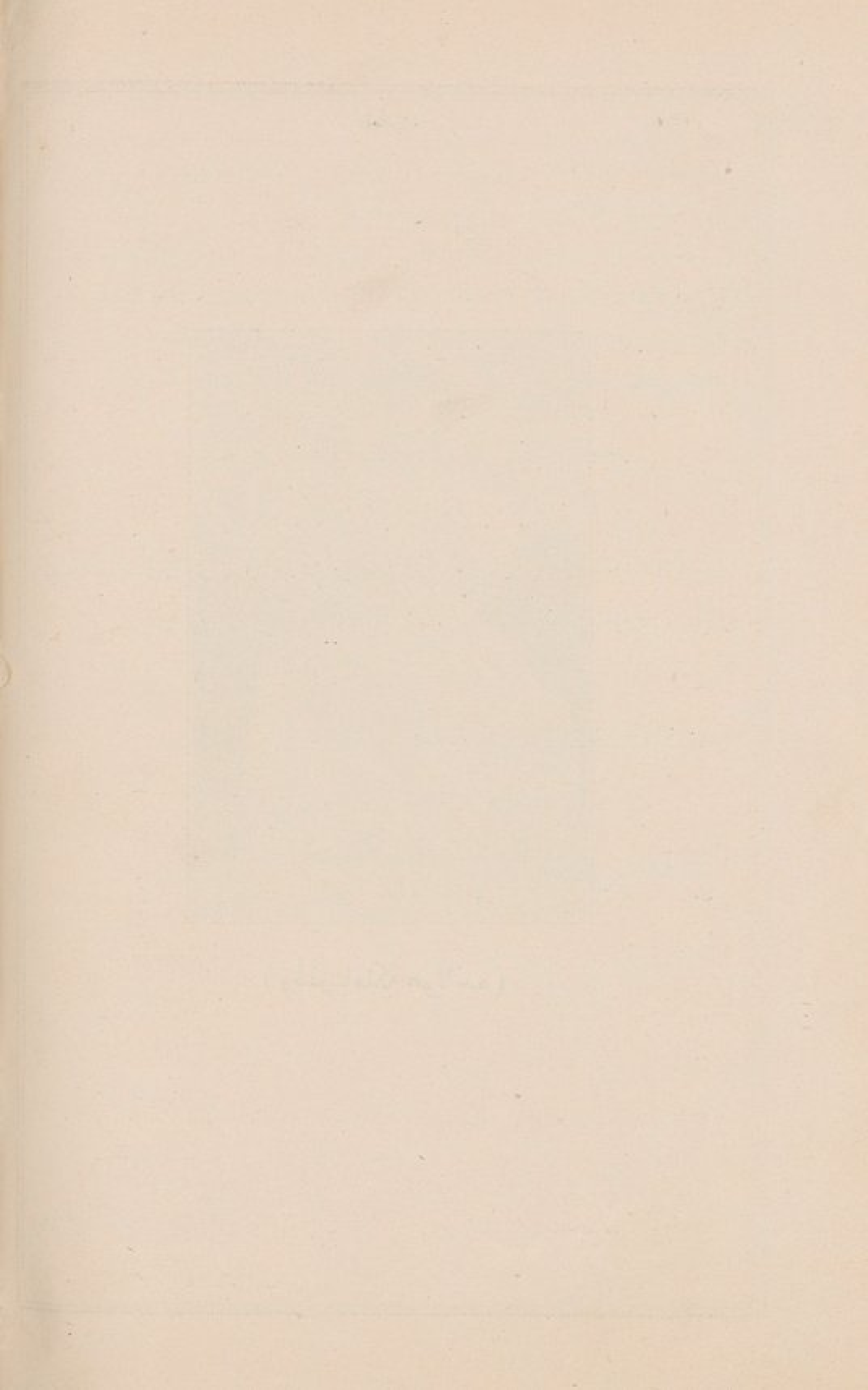
(ولهلمينا ملكة هولانده)



امستردام

جئت بلاد هولاندا عن طريق كولون التي تقدم ذكرها في الفصل السابق وكان اول بلدٍ منها دخلتهُ مدينة سفناخ الواقعة على حدود البلاد من الجنوب وقفنا فيها ريثما انتقلنا الى القطار الهولاندي وفتش العمال حاجاتنا ثم تابعنا المسير حتى اتينا مدينة امستردام وكان فيها يومئذٍ حركة كبرى بسبب معرضٍ عام اقامتهُ حكومتها فتوافد الناس عليها لمشاهدة ما في ذلك المعرض. ومدينة امستردام جميلة الموقع بهية المناظر بنيت على جزر صغيرة لا تقل عن تسعين عداً وهي متصلة بعضها ببعض بقناطر جميلة الشكل عددها ثلثماية وفيها من الترع ما لا يعد بسبب ذلك واهمها اربعة تحيط بالمدينة من كل جهاتها طول الواحدة منها من ٤ كيلو مترات الى ١٠ وعرضها نحو ٤٥ متراً والقناطر فوقها متوالية بعضها وراء بعض على نسق يروق للناظرين

واهم الترع في امستردام واحدة فتحت عام ١٨٦٢ توصل المدينة بالبحر طولها ٢٥ كيلو متراً وعرضها يختلف ما بين ٦٠ كيلو متراً ومئة فهي من الترع العظيمة تمخر فيها الباخرات الكبرى ذاهبة الى المستعمرات الهولاندية وراجعة منها وقد انفقوا على حفر هذه الترعة نحو ٧٠ مليون فرنك وهم ينفقون على ادارتها ووقايتها وتطهيرها نحو ٢٠٠٠ فرنك كل يوم. وشوارع هذه المدينة كلها واسعة غرست الى جوانبها الاشجار وقد ادّى اتساع الشوارع الى امتداد المدينة في مساحتها مسافة ١٢ ميلاً وفيها الآن من السكان نحو ٤٩٠ الف نفس ويشطرها نهر امستل شطرين وهو نهر كبير تدخلهُ الباخرات الكبرى التي ترود البحار القاصية وسنعود الى الكلام عن تجارتها العظيمة وميناها المشهور



امستردام

جئت بلاد هولاندا عن طريق كولون التي تقدم ذكرها في الفصل السابق وكان اول بلدٍ منها دخلتهُ مدينة سفناخ الواقعة على حدود البلاد من الجنوب وقفنا فيها ريثما انتقلنا الى القطار الهولاندي وفتش العمال حاجاتنا ثم تابعنا المسير حتى اتينا مدينة امستردام وكان فيها يومئذٍ حركة كبرى بسبب معرض عامٍ اقامتهُ حكومتها فتوافد الناس عليها لمشاهدة ما في ذلك المعرض.
ومدينة امستردام جميلة الموقع بهية المناظر بنيت على جزر صغيرة لا تقل عن تسعين عداً وهي متصلة بعضها ببعض بقناطر جميلة الشكل عددها ثلثماية وفيها من الترع ما لا يعد بسبب ذلك واهمها اربعة تحيط بالمدينة من كل جهاتها طول الواحدة منها من ٤ كيلو مترات الى ١٠ وعرضها نحو ٤٥ متراً والقناطر فوقها متوالية بعضها وراء بعض عَلَى نسق يروق للناظرين

واهم الترع في امستردام واحدة فتحت عام ١٨٦٢ توصل المدينة بالبحر طولها ٢٥ كيلو متراً وعرضها يختلف ما بين ٦٠ كيلو متراً ومئة فهي من الترع العظيمة تمخر فيها الباخرات الكبرى ذاهبة الى المستعمرات الهولاندية وراجعة منها وقد انفقوا على حفر هذه الترعة نحو ٧٠ مليون فرنك وهم ينفقون على ادارتها ووقايتها وتطهيرها نحو ٢٠٠٠ فرنك كل يوم. وشوارع هذه المدينة كلها واسعة غرست الى جوانبها الاشجار وقد ادَّى اتساع الشوارع الى امتداد المدينة في مساحتها مسافة ١٢ ميلاً وفيها الآن من السكان نحو ٤٩٠ الف نفس ويشطرها نهر امستل شطرين وهو نهر كبير تدخلهُ الباخرات الكبرى التي ترود البحار القاصية وسنعود الى الكلام عن تجارتها العظيمة وميناها المشهور

وقد مرَّ ان المدينة كانت في حركة كبرى يوم زرناها بسبب المعرض ولهذا قصدناهُ قبل غيرهِ من المشاهد المذكورة وكان في حديقة كبرى واسعة الارجاء شيدت فيها الابنية العظيمة حسب عادتهم في المعارض فدخلت القسم العام منهُ والاقسام الخاصة بالممالك الغربية والشرقية وفيهِ من حاصلاتها ومصنوعاتها واختراعاتها ما نضرب صفحاً عن وصفهِ لانهُ لا يخرج عن وصف ما في المعارض الاخرى وقد ذكرنا بعضها في هذه الرحلات. والظاهر ان الشرقيين تحولت انظارهم الى هذا المعرض اكثر من سواهم فانهُ كان في سوقهِ العمومية عدة مخازن وحانات ودكاكين لاناس من مصر والاستانة وحلب والقدس ودمشق والاسكندرية وافراد كثيرين من كل هذه الجهات واقيم الى جانب هذه المخازن منزل عظيم للصور المجسمة والمناظر المشهورة وعلى بابهِ اثنان من السودانيين بالملابس المعروفة في هذه البلاد وفي يد احدهما بوق ينفخ فيهِ دعوة للسامعين . وقد رأينا في ذلك المنزل صوراً كثيرة منها صورة الرحالة ستانلي في قلب افريقيا يخابر امين باشا في امر ارجاعهِ الى مصر وامامهما القرية الافريقية باكواخها وسكانها السود ونسائها يحملنَ الاطفال على ظهورهنَّ ومناظر طبيعية أُخرى والناس في شؤُون شتى منها ما استلفت الانظار وهو عقد الاخاء على طريقة اهل افريقيا الوسطى وهي ان يفصد كلٌّ من المتعاقدين نفسهُ ويمصُّ الرجل من دم الآخر شيئاً فيُعد ذلك دليلاً على الرضاء والوفاء وقد كان ستانلي وغيرهُ من الاوروبيين يلجأُون الى هذه الطريقة في معاملاتهم مع زعماء الافريقيين مدة السياحات الاولى ليأْمنوا شرهم وينالوا مساعدتهم

ولو شئت ان اعدد غرائب هذا المعرض وملاهيهِ للزم الشيءُ الكثير فاقتصر على القليل مما رأَيتهُ فيهِ مثل باخرة كبرى بحجم البواخر التي تمخر في البحار

وضعت في بحيرة داخل حديقة المعرض وهي كاملة العدد ليس ينقصها غير الآلة البخارية وقد جعلها اصحابها حانة ومطعماً لزائري المعرض مدة وجوده فكان الناس يدخلونها ويأكلون فيها ويشربون ويخدمهم رجال بملابس النوتية ويجلس معهم عَلَى المائدة ربان يمثل حالة السفن في البواخر العظيمة . وربح اصحاب هذه الباخرة من استخدامها لهذا الغرض مالاً وافراً . وفي جملة ذلك منزل بني على شكل الفيل بخرطومهِ وجسمهِ واقيمت فيهِ قهوة وحانة فكان الناس يصعدون هذا الفيل واصحابهُ يجمعون منهم المال . ومن هذا موضع من الخشب بني على الشكل الفلمنكي القديم وفيهِ مطاعم وحانات استخدموا لها البنات بالزي الهولاندي القديم وهو جلباب قصير الى الركبتين وسترة اكمامها قصيرة ايضاً وجوارب بيضاء صنعت باليد وحذاء مكشوف والشعر ملفوف في طاسة نحاسية تعلق في الرأس يقدمنَ اشكال الطعام والشراب على نغم الموسيقى الوطنية وغير هذا كثير

هذا بعض الذي يقال عن معرض امستردام واما مشاهدها الاخرى فكثيرة منها المتحف الهولاندي عَلَى مقربة من حديقة المعرض وهو يشغل ١١ الف متر من الارض ولهُ واجهة فخيمة طليت زخارفها بماء الذهب وفي داخلهِ تحف وصور جميلة لا تعدو من اثمنها واوفرها اتقاناً صورة زنوبيا ملكة تدمر بملابسها السورية القديمة وصور من الكتاب المقدس . وصورة لويس نابوليون ملك هولاندا الذي ذكرناهُ في الخلاصة التاريخية . وصورة نابوليون بونابارت في معركة واترلو التي قضت على عزهِ وهو مطرق في الارض مغضب مما لحق بهِ . وفي الدور الاسفل من هذا المعرض رسوم السفن والبواخر الحربية الهولاندية وقد كتب على كل رسم اسم السفينة وتاريخها والوقائع التي حضرتها . وهنالك اعلام ومدافع قديمة غنموها في الحروب ورسوم السفن الانكليزية التي غنمها الهولانديون من الانكليز سنة

١٦٦٦ ورسوم معركة تشاتم من شواطئ انكلترا في سنة ١٦٦٧ وهي التي انتصروا فيها على الانكليز ايضاً وهم يذكرون ذلك مع الفخر وينظرون الى هذه الرسوم معجبين

ومن هذه المشاهد ميدان عظيم (بلين) فيهِ حدائق بديعة في جوانبهِ الاربعة وفي وسطها برك من الرخام الابيض كثيرة الاتساع يخرج الماء فيها من عيون كثيرة وتحيط بها الرياحين والازهار والشجر الباسق ولها منظر كثير الجمال . والى جانب هذا الميدان قصر الصناعة الذي كان مركز المعرض السابق في هذه المدينة دخلناهُ ورأينا قاعتهُ الكبرى تضمُّ ستة آلاف شخص يجتمعون فيها لسماع الانغام . ولهُ رواق كبير ذات ثمانية ابواب فتحت فيهِ المخازن لبيع الحرير واشكال الابضعة . والى جانبهِ حديقة غناء تصدح فيها الموسيقى كل يوم بالانغام فتزيدهُ زهاء وجمالاً

وتوجهت بعد مشاهدة هذه المواقع الى القصر الملكي وهو الذي اقام فيهِ لويس نابوليون مدة ملكهِ القصير في اول هذا القرن ونقيم فيهِ الملكة الحالية حين تزور مدينة امستردام ولا حاجة الى القول انهُ بناء فخيم من ضمن قاعاتهِ غرفة كبرى للاستقبال لا يقل ارتفاعها عن ٣٠ متراً وطولها ٨٠ متراً والعرض ٣٣ وجدرانها ملبسة بالرخام الابيض المطلي بالذهب وارضها مفروشة بالرياش الفاخر وفي صدرها منصة وضع عليها عرش الملكة وهو من القطيفة الحمراء عليهِ شعار الملك واسماء الولايات التابعة لهذه المملكة . وفي القصر من انواع الزخارف والحدائق والقاعات البديعة ما لا يمكن لنا ان نشير اليهِ باكثر من هذا الايجاز

ومن اشهر مشاهد امستردام ميناؤُها المشهور وهو محط رحال السفن البخارية والشراعية تؤمهُ وتسافر منهُ الى كل جهة من جهات الارض لان هولاندا مشهورة بتجارتها الواسعة مع المستعمرات الباقية في حوزتها واكثر السفن التجارية الهولاندية

تعد ميناء امستردام مقرها ومركزها لان هذه المدينة اكبر مدن البلاد واهمها ولئن تكن غيرها العاصمة الرسمية فهي في الحقيقة عاصمة الحركة والتجارة بلا مراء . وقد بنوا عند الميناء الطرق المنظمة ومدوا فوقها خطوط الحديد تجري عليها الارتال حتى انهُ ليمكن ان تنقل الاشياء من السفن في البحر الى العربات في البر رأساً وقسموا المينا احواضاً ثلثة احدها اسفن المتاجر الاوروبية والثاني لسفن التجارة الشرقية في مستعمرات هولاندا والثالث للسفن الحربية . وبني عند هذه الاحواض مخازن ومستودعات عديدة للطرود التي تعد بمئات الالوف وقد تمشيت عند خط هذا المينا المشهور بحركتهِ التجارية حتى دخلت قسماً من المدينة يكثر فيهِ الزحام من الذاهبين والآيبين وفي ذلك القسم المعامل المشهورة لقطع الالماس وصقلهِ وقد امتاز الهولانديون بهذه الصناعة من زمان قديم حتى ان القطع الكبرى والصغيرة من هذا الجوهر النفيس ترسل من كل جهات اوروبا واميركا الى هذه المعامل الهولاندية لتقطع فيها على الشكل البلوري المعروف . وقد كانت هذه الصناعة سرًّا في عائلة اسرائيلية وصلت من بلاد البورتغال وما علمها اهل اوروبا الاَّ من نحو ٣٠٠ عام وهي الآن صناعة كثيرة الموارد ولها معامل كبيرة في هذه المدينة تدور آلاتها بالكهربائية وهي اذا دارت لقطع الالماس او جلائهِ احدثت صوتاً مثل صوت الحك على الزجاج يتألم السامع منهُ . وفي هذه المدينة معامل كبرى للسجاير الهولاندية وهي ذات شهرة واسعة ايضاً منها معمل للحكومة تعمل فيهِ اربعة آلاف بنت وامرأة وارباحهُ ليست بالشيء القليل . واهل امستردام اكثرهم من طائفة البروتستانت وبينهم نحو ٥٠ الفاً من اليهود جلهم سماسرة وتجار بالالماس وعمال في معاملهِ فقد قيل ان عمال معامل الالماس في هذه المدينة ١٠ آلاف منهم ٩ آلاف من الاسرائيليين . ولا تقل قيمة الذي يخرج من امستردام من هذا الحجر الكريم عن ماية مليون فرنك في السنة

لاهاي

اقمت زماناً في مدينة امستردام حتى رأيت كل الذي يُرى فيها ثم برحتها الى عاصمة المملكة وهي مدينة لاهاي قصدتها عن طريق مدينتي هارلم وليدن ولهما شهرة ومقام فالاولى يبلغ عدد سكانها ٥٠ الفاً ولها شهرة واسعة بتربية الازهار وانمائها وبيع بذورها والثانية عرفت بمعامل القطن وبمدرسة جامعة مشهورة خرج منها الفلاسفة واصحاب الاكتشافات الكيماوية وقد طبعت فيها كتب عربية كثيرة . وكنا نمرُّ في اراضٍ فسيحة تخترقها فروع من نهر الرين وتستقي منها الابقار الغريبة وهي تمتاز عن نوعها في بقية الجهات في ان نصف جلدها اسود والنصف ابيض ولتلك البقاع منظر جميل وادلة الاعتناء والتعب ظاهرة في جميع جوانبها

ودخلنا مدينة لاهاي عاصمة هذه البلاد سميت بهذا الاسم لانها بنيت في موضع غابة وتحيط بها الحراج من اكثر الجوانب ومعنى اسمها في لغة القوم غابة او حرجة . وهنا قاعدة المملكة ومركز الحكومة الهولاندية وما يتبعها من الادارات والمصالح وقصور الملك والسفارات وغير ذلك وهي من العواصم القليلة التي تقلُّ في الاهمية عن غيرها من مدائن المملكة فان سكانها لايزيدون عن مايتي الف والحركة التجارية فيها لا تذكر في جنب حركة روتردام وامستردام وهما فرضتا التجارة الهولاندية على مقربة منها وقد امتنعت الحكومة عن وصل هذه العاصمة بالبحر مع قربها منهُ لانها آثرت ان تبقى المدينة بمعزلٍ عن الحركة التجارية وتجعلها مثل واشنطن عاصمة الولايات المتحدة مقراً للحركة السياسية فقط . ولما وصلت هذه العاصمة استأجرت رجلاً صناعتهُ الترجمة ومرافقة السائحين فدلني الى اهم مشاهدها

وذهبتُ معهُ الى ميدان (بلين) فيهِ اشجار الكستناء الباسقة منسقة تنسيقاً بديعاً وقد اقيم في وسطهِ تمثال لوليم الاول امير هولاندا الذي اسس المملكة الحالية من آل اورانج ناسو . ويحيط بهذا الميدان وزارات المملكة لكل منها بناء خاص وفنادق عظيمة ومنازل ذات حسن و بهاء وهو على مقربة من ميدان آخر اجمل منهُ واكبر يعرف باسم فورهوت ومن حولهِ صفوف من الشجر الجميل وفي داخلهِ حدائق صغيرة رصعت باجمل الازهار والرياحين . ويتصل بهِ ميدان لانج فورهوت وهو مثل الذي سبق وصفهُ فيهِ تمثال الامير فريدريك ناسو اول ملوك الدولة الحالية من بعد خروج البلاد عن طاعة الدولة الفرنساوية في سنة ١٨١٣ والتمثال قائم على مرتفع من الرخام رسمت عليهِ صور الولايات الهولاندية وشعار الدولة وحولهُ سور من الحديد . وهنالك ميادين أُخرى كثيرة الجمال وهي متقاربة وضعاً وشكلاً ولهذه المدينة امتياز بهذه الميادين الفخيمة وبالحراج المحيطة بها وهي فوق جمال شجرها الطبيعي مرصعة بالزهر على اشكالهِ تتضوع منهُ الروائح العطرية وقلَّ ان ترى في المدينة شارعاً لا يطل على ميدان او غابة او حديقة فلا بدع اذا سميت باسم هذه الغابات التي تميزها عن سواها

ولاهاي مثل غيرها من مدائن هولاندا مبنية منازلها بالطوب الاحمر وارض شوارعها مرصوصة بمثلهِ ايضاً وهي آية في نظافتها لان الشوارع وجدران المنازل تغسل بالماء النقي من حين الى حين وللاهالي تمسك غريب بالنظافة يروى عنهم . وقد برع الهولانديون بالفنون الجميلة مثل التصوير والحفر والنقش وقام منهم مشاهير عظام تذكر اسماؤُهم في متاحف الفنون الجميلة في كل بلاد مثل ڤانديك ورمبراند وصورهما موجودة في كل متاحف اوروبا مثل صور رفائيل الايطالي ومنها قسم عظيم في متحف هذه المدينة دخلتهُ ودرت في جوانبهِ وذهلت من اتقان

ما فيهِ من الصور البديعة التي يقف المرء امامها ساعات ولا يملُّ من النظر اليها اذكر منها صورة آدم وحواء في الفردوس وصورة هيردوس والي فلسطين يأمر بذبح الاطفال عند ولادة المسيح وهي صورة كبيرة تشغل جداراً باكلهِ . وصوراً اخرى لا محل هنا لذكرها

وبعد ان رأيت هذا المتحف الجميل ذهبت ومعي الدليل الى قصر الملكة ودخلتهُ وحدي لان التراجمة لا يحق لهم مرافقة المتفرجين الى داخلهِ كما انهُ لا يجوز لاحد الخادمين ان يقبل مالاً من احد الداخلين ورأيت في ساحة القصر تمثال وليم الاول الذي مرَّ ذكرهُ نصب بامر ابنهِ وليم الثاني سنة ١٨٤٥ وفي القاعة العمومية من قاعات هذا القصر صور جميع الذين حكموا هولاندا من آل اورانج ناسو في جملتهم الملكة والملمينا الحالية والكل بقدهم الطبيعي . وفي هذا القصر قاعات عظيمة غير هذه وضع في احداها بعض ما أرسل الى ملوك هولاندا من نفيس التحف وثمين الهدايا من ذلك اوانٍ من الفخار الصيني البديع صنع معمل سيفر الفرنساوي المشهور ارسلها الامبراطور نابوليون الثالث الى وليم الثالث والد الملكة الحالية ومنضدة من حجر المالكيت الغالي الثمن من امبراطور روسيا اسكندر الثاني ومنضدة أخرى من قداسة البابا بيوس التاسع زينت بالفسيفساء ورسم قلعة من الرخام قدمها الجنود الهولانديون وفي رأسها العلم الوطني والى جوانبها الجنود من فرقة المدفعية بمدافعهم والمشاة ببنادقهم والفرسان بخيلهم وكلهُ حفر على رخام هذه القلعة الصغيرة . ومن ذلك ثريا (نجفة) من الفضة اهدتها بلدية امستردام للملك وغير هذا كثير . ودخلت ايضاً قاعة المكتب وهي ملبسة جدرانها بخشب الماهوجان الاحمر فقاعة النوم وجدرانها ملبسة بالحرير الاحمر رسمت عليه عروق وفروع وهو من النوع المسمى (دمشقي) ورياش الغرفة من هذا النوع ايضاً والسرير من

خشب الماهوجان فوقهُ ناموسية من الحرير الابيض وفي اعلاها التاج الملكي من الذهب

ومن اهم ما يذكر بين مشاهد هذه المدينة قصر الغاب بنتهُ اميرة اسمها املي سنة ١٦٤٧ تذكاراً لزوجها الامير فريدريك هنري من آل اورانج وانفقت مالاً طائلاً على كتابة تاريخ هولاندا بالرسوم في جدرانهِ وهذا نسق كما تعلم قليل المثال فلما ولجتهُ وجدت جوانبهُ غاصة بالسائحين والمتفرجين وفيهِ قاعات كبرى فرشت على النسق الصيني والنسق الهندي وقاعة بديعة واسعة الجوانب رسم على جدرانها وسقفها البرنس فريدريك المذكور بكل ادوار حياتهِ وحروبهِ واستقلالهِ من حكم اسبانيا وقتلهِ غدراً باغراء فيليب الثاني ملك اسبانيا على مثل ما مرَّ في الخلاصة التاريخية. ولهذا القصر منزلة في النفوس كبيرة حتى انهم لما قرَّ رأي الدول موءخراً على اجتماع موءتمر السلام في عاصمة هولاندا أُعدَّ لمندوبي الدول يتداولون فيهِ وهو من اهم الموءتمرات السياسية التي عقدت في العصور الحديثة

ومما يذكر ايضاً موضع مشهور في كل اوروبا وجد عَلَى مقربةٍ من هذه العاصمة واسمهُ شفننجن وهو للحمامات العظيمة يمكن ان يقال انهُ لمدينة لاهاي مثل سان ستفانو لمدينة الاسكندرية لانهُ محط الرحال ومقصد الجماعات في ايام الصيف يأتيهِ الناس من كل جهة فلا يقل عدد الزائرين عن خمسة وعشرين الفاً في السنة ويقرب الموجود منهم كل يوم من خمسة آلاف يأتون عن طريق لاهاي في عربات الترامواي البخارية وهي تسير بهم في تلك الغابات نحو ثلاث ساعات هذا غير الذين يأتونها رأساً من انكلترا في بواخر خاصة لهذا الغرض. والقارئ يعلم ان الحمامات البحرية في كل موضع موصوفة بالجمال ولكن شفننجن هذه من اكثرها شهرة وجمالاً بنيت في ارض رملية وفيها من المطاعم والفنادق والحانات واماكن ذوي الفراغ واللهو ما يعد بالعشرات ويمتد على شاطئ البحر مسافة ثلثة آلاف متر

ومن اشهر هذه الابنية حانة كبرى (كازينو) فيها قاعة للموسيقى تضم ثلثة آلاف سامع وسامعة ومطعم فيهِ موضع لخمسماية شخص وقاعة للرقص رياشها فاخر كلهُ من القطيفة الحمراء المزركشة بالقصب وعليها شعار الدولة الهولاندية وفي سقفها وجوانبها مصابيح تنار بالكهربائية . وفي هذا الكازينو ايضاً قاعة للقراءة والمطالعة وضعوا فيها عشرات من الصحف والمجلات اكثرها هولاندية وبعضها فرنساوية والمانية وانكليزية وفيها مناضد للكتابة وورق وبقية لوازم التحرير وصندوق للبريد ومكتب للتلغراف والتلفون وغير هذا مما تتوفر معهُ الراحة ويكثر الهناء . وفيهِ قاعات للتدخين وللمسامرة ولالعاب الورق على اشكالها ورحبات فسيحة مزخرفة الجوانب وفي الدور الاعلى من هذا الكازينو فندق فيهِ مايتا غرفة . والى مقربةٍ منهُ مرسح لتمثيل الروايات ومضمار لسباق الخيل ومسافات بعيدة من الرمل النقي يتمشى عليها الناس حفاة ويلعب الصغار برملها وهم يعدون ذلك من احسن انواع الرياضة المفيدة للابدان

والحمامات هنالك واسعة كثيرة العدد منها ما يختلط فيهِ الرجال والنساء ومنها ما حفظ للرجال وحدهم او للنساء وحدهنَّ وقد عُنيَ اصحاب هذه المحلات بما يلزم للسيدات من اسباب الراحة مع الحمام فصنعوا عربات خاصة تسير بالتي تريد الاستحمام الى الماء ولما تنتهي منهُ تعود بالعربة الى حيث يمكن لها المسير وتلبس ملابسها بالعربة وكل ذلك حتى لا تتحمل مشقة المشي على الرمل اذا ارادت . وهنالك كراسي كبيرة من القش يجلس اليها المرء او السيدة بعد الاستحمام ويلذُّ حينئذٍ شرب المنعشات او مطالعة الصحف والروايات . والى جانب الحمامات تلك الرمال التي ذكرناها والناس يتفننون في المشي عليها او اللعب على طرق شتى وبعضهم يركبون الحمير والخيل وبعضهم يجرون على الاقدام والبعض يتمرغون او يتكئون

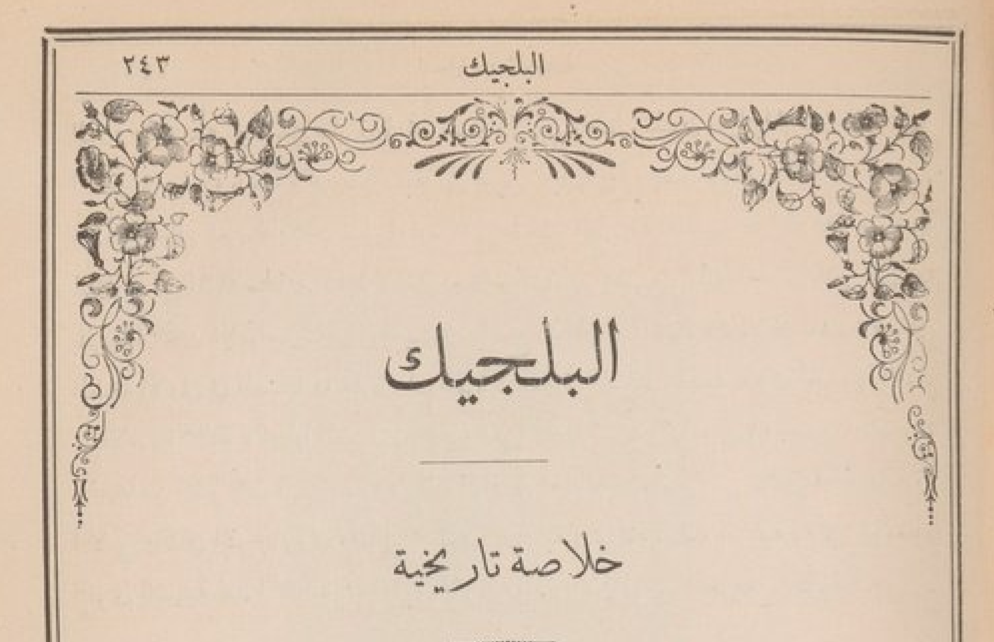
والبعض يقفون فترى على ذلك الشاطيء البهي نحو خمسة آلاف شخص على كل حالة من الحالات يلعبون ويطربون حتى اذا تمَّ لهم ذلك دخلوا الكازينو لسماع الانغام في قاعة الموسيقى او لتناول الطعام على تلك الموائد الشهية . ويقومون بعد العشاء اما للرقص والمخاصرة في قاعة (البالو) او ينفرد الرجال منهم جماعات جماعات في غرفة المقامرة واللعب فيقضون معظم الليل فيها وعلى هذا يقضي الناس اوقاتهم هنا حيث لا يعرف الهم ولا يخطر على البال كدر ولا غم

﴿ روتردام ﴾ ولما فرغنا من مشاهدة لاهاي وضواحيها البهية سرنا الى مدينة روتردام وهي تعدُّ اكبر مراكز التجارة في بلاد هولاندا لاتفوقها في ذلك امستردام وان تكن تلك اقل منها في عدد السكان وهم يبلغون ٢٥٠ الفاً وقد بنيت هذه المدينة على ضفاف نهر الموز المشهور ووصلتها بالبحر ترعة عظيمة تسير بها البواخر خمس ساعات من البحر الى داخل المدينة ولا يقل عدد البواخر التي تمرُّ بها في السنة عن خمسة آلاف اكثرها تنقل المتاجر بين هولاندا واقاصي الشرق في الهند وما يليها والغرب في اميركا . ويتفرع من هذه الترعة ترع أُخرى صغيرة تخترق المدينة في اكثر جوانبها وفي كل موضع سفن صغيرة تسير بالبخار ويتنقل عليها الناس للفرجة والنزهة ومشاهدة حركة تجارتها العظيمة وتلك الركام المتراكمة من الابضعة المراد نقلها الى شاسع الاقطار وكلها تنقل الى السفن او منها الى البر بالآلات البخارية الرافعة تسهيلاً للعمل واقتصاداً لاجرة العمال الكثيرين . وفي هذه المدينة مخازن عظيمة ملأَى بقوالب الجبن الهولاندي المشهور يأْتيها من القرى في داخلية البلاد ويرسل منها الى جميع الاقطار وهو يعرف باسمها في كل مكان

وشوارع هذه المدينة كلها او جلها واسعة صنعت على نسق واحد بديع المنظر فانك ترى في احد الجانبين صفاً من الابنية النظيفة وامامهُ رصيف واسع لمرور

الناس عليهِ ومن بعدهُ مجال واسع للعربات ومن بعد ذلك صف من الشجر الجميل وبعدهُ الترعة . والترع كما علمت داخلة في اكثر انحاء المدينة . وفي الجهة الثانية من الترعة شجر فمجال للعربات الذاهبة والآيبة فرصيف للمارة فمنازل الناس ومخازنهم بحيث انك اذا اردت الوصول من طرف احد الشوارع الى الطرف الآخر لزم لك العبور فوق القنطرة وكل ذلك المجال في جانبي الشارع . والنزهة في ترع روتردام ولاسيما الترعة الكبرى فيها من اجمل ما يمكن للسائح ان يمتع بهِ الطرف فهي تشبه ترعة السويس في اهميتها وجمال السفر فيها شبهاً كبيراً . وفي المدينة مشاهد كثيرة منها حديقة بديعة حوت نباتاً وزهراً عني اصحاب العلم بنقلهِ من اقصى انحاء الشرق والغرب ولاشكالهِ الكثيرة غرابة وجمال

ولما انتهينا من مشاهدة هذه المناظر عزمنا على مبارحة بلاد هولاندا والسفر الى بلاد البلجيك وهي كما علمت متاخمة لها فقمنا منها ومررنا على بلد روزنتال وعلى جسر عظيم بني فوق نهر الموز عند مصبهِ في البحر الشمالي ولذلك الجسر شهرة واسعة لانهُ يعد من اطول الجسور في الارض كلها ومن اكثرها جمالاً وغرابة يسير فوقهُ القطار نحو خمس دقائق وقد بني على ١٤ قنطرة يبلغ المجال بين الواحدة منها والثانية مابة متر وفيهِ من الحديد ما يزيد وزنهُ عن احد عشر مليوناً وسبعماية وتسعين الف كيلو لا يقلُّ ثمنهُ عن اثني عشر مليون فرنك وكان الركاب جميعهم مدة مرور القطار فوق هذا الجسر يتطالون ويتطلعون حتى لا يفوتهم منظر من اجمل المناظر . واستمر بنا الرتل يقطع المسافات حتى بلغنا بلدة اشن وهي عند الحدود الفاصلة بين هولاندا وبلجكا فنزلنا هنالك للتفتيش المعتاد عند الحدود وانتهينا بهذا من السياحة في هولاندا وهي بلاد الاجتهاد والنشاط الكثير

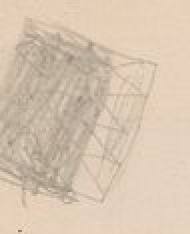


البلجيك

خلاصة تاريخية

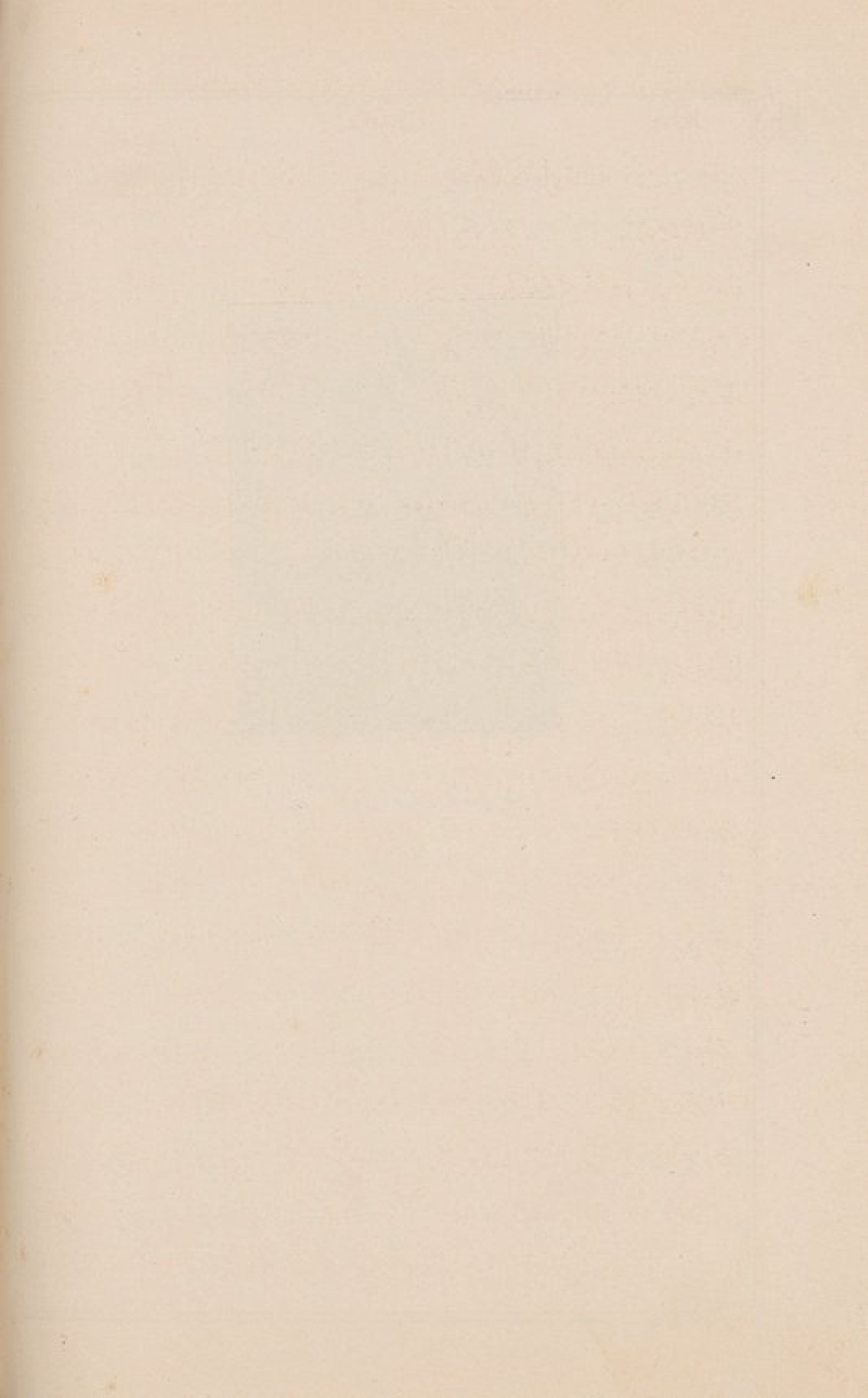
تقدم معنا ان تاريخ هذه البلاد مرتبط بتاريخ هولاندا التي اتينا على وصف الاهم فيها . ولا بد من القول هنا ان بلاد البلجيك هذه كانت جزءًا من بلاد اعظم واكبر تعرف بهذا الاسم نسبة الى القبائل القديمة التي عمرت هذه البلاد واسمها (بلجا) امتدت اطرافها الى نهر الرين من جهة ونهر السين من جهة اخرى وكان اول ما روى المؤرخون عنها ان يوليوس قيصر القائد الروماني المشهور وصلها في حروبهِ مع القبائل الشمالية فاخضعها في سنة ٥٢ قبل التاريخ المسيحي وظلت من ملحقات السلطنة الرومانية نحو اربعماية عام حتى ضمها كلوفيس الى املاكهِ وكان كلوفيس هذا اول ملوك فرانسا من الدولة الميروفنجية . وظلت البلاد جزءًا من فرانسا الى ما بعد موت شارلمان المشهور وتجزئة مملكتهِ فانقسمت اجزاء وكان كل جزء منها قائمًا بنفسهِ ثم الحق بعضها بفرانسا وبعضها بالمانيا ولكنها حافظت في كل تلك المدة على استقلالها في الشؤون الداخلية وتقدمت تقدمًا يذكر . وفي القرن الخامس عشر صارت هذه البلاد كلها ملكًا لملوك فرانسا بحكم الوراثة ثم انتقلت الى ملوك النمسا ثم صارت من املاك اسبانيا وعادت في القرن الثامن عشر فصارت من املاك النمسا حتى عام ١٧٩٥ حين ضمت الى فرانسا على عهد الجمهورية الاولى . ولكنها عادت واستقلت بمساعدة دول اوروبا في سنة ١٨١٣ وصارت مع هولاندا مملكة واحدة كما علمت في تاريخ هولاندا فانفصلت عنها سنة ١٨٣٠ بطلب اهل البلجيك وعين البرنس ليوبولد من آل ساكس كوبرج ملكًا عليها ومن ذلك الحين اقرت اوروبا استقلالها وعزلتها وجعلتها بمثابة الحاجز بين املاك المانيا وفرانسا فزهت

البلاد ونمت نماء عجيباً حتى صار فيها نحو سبعة ملايين ونصف مليون مع انها ارض صغيرة فهي اكثر بلاد اوروبا خلقاً وعمراناً بالنسبة الى ضيق ارضها وفي هذا دلالة كافية على تقدمها. وملكها الحالي ليوبولد الثاني تولى ادارة امورها على الطريقة الدستورية المعروفة وساعدته التقادير على انشاء سلطنة كبيرة لا يقل عدد سكانها عن عشرين مليوناً في بلاد الكونجو بافريقيا ففتحت الابواب لمتاجر البلجيكيين واتسع النطاق لصناعتهم وهم الآن يعدون من اهل الطبقة الاولى في الصناعة والتجارة ولهم شهرة واسعة في المصانع الحديدية وفي الهمة والاقدام على الامور العظيمة لا يجهلها المصريون وهم يرون من آثارها شركة الترامواي في مصر واسكندرية وغيرها من الشركات التي تجمع الارباح الوافرة . والبلجيكيون من نوعين اكثرهما عدداً الفلمنكي والثاني النوع الولوني والكل يتكلمون الفرنسية وهي لغة البلاد الرسمية ولكن في معظم القرى الشمالية تعد الفلمنكية لغة اهل البلاد . واكثر الاهالي من الطائفة الكاثوليكية





(البير الاول ملك البلجيك)



انفرس

لما انتقلنا من هولاندا الى بلاد البلجيك وصلنا مدينة انفرس هذه واسمها عند الانكليز والاميركان انتورب وهي اعظم الفرض البلجيكية ولها اهمية في التجارة عظيمة لان ميناها من اجمل المين تنقل منهُ واليهِ معظم متاجر البلجيكيين على اتساعها ويحيط البحر بها من الجهات الاربع كلها تقريباً بحيث ان الساكن فيها يرى البواخر تمخر في البحر عن يمينهِ ويسارهِ ومن امامهِ وورائهِ . وفي هذه المدينة نحو ثلثماية الف نفس ولها علاقات كبرى بجميع البلدان حتى ان الانكليز والفرنسيس والاميركان انشأوا بواخر خاصة تروح وتغدو بين انفرس ومين بلادهم وقد بنيت احواض وارصفة في هذا المينا عظيمة القدر والقيمة حتى تفي بمراد المتاجرين واصحاب الشركات والبواخر الكثيرة فما ترك اهل البلد وسيلة لهذا الغرض الاَّ واتوها من ايام نابوليون الى هذه الايام حتى انك اذا زرت هذا المينا العظيم الآن ترى من السكك الحديدية والارتال والابضعة الموضوعة ركاماً وتلالاً والآلات الرافعة تدار بقوة البخار وتنقل هذه الابضعة من البواخر الى المخازن او بعكس ذلك وغير هذا مما يدل على عظمة المدينة واجتهاد اهلها واهمية التجارة البلجيكية التي يعد هذا البلد مركزها ومفتاحها . ويمرُّ على خطوط هذا المينا كل يوم اكثر من ٢٥٠٠ عربة مشحونة بالابضعة تفرغ في الاحواض المختلفة واهمها الحوض الكبير خصص لمتاجر المملكة البلجيكية ومساحتهُ ٩٤٠٠٠ متر مربع وهنالك حوض آخر اتساعهُ ١٣١٠٠٠ متر مربع خصص لتجارة البلاد مع اوروبا وحوض ثالث خصص لمتاجر البلاد مع الشرق والديار القاصية . وكنا في عربة ندور حول هذه الاعمال العظيمة فلزم للتفرج عليها كلها ثلاث ساعات

نزلت في فندق اوروبا وهو في موقع بديع لانهُ في طرف ميدان يعرف باسم الميدان الاخضر لكثرة ما فيهِ من الشجر وهنالك تصدح الموسيقى في كل يوم بعد الظهر فيتألب الناس جماعات كثيرة لسماع الانغام تحت ظل الشجر وهم يخطرون بين صفوف الخضرة النضرة على مهلٍ فيرى المتفرج على تلك الجماهير ما يشرح الصدر من اختلاف الاشكال وادلة الترف . وتوجهت يوم وصولي الى مرسح واسع تلعب فيهِ الافيال والخيل العاباً مختلفة منها ان الفيلة ترقص على الانغام رقصاً افرنجياً من النوع المعروف عندهم بالكادريل فيكون لها في ذلك منظر غريب وقد قضى صاحب هذا المحل زماناً طويلاً على تعليمها حتى اوصلها الى هذه الدرجة وبدأ يجمع من رقصها المال . وفي اليوم الثاني دخلنا كنيسة انفرس الكبرى وهي اجمل ما في هذه المدينة من المعابد واكبر كنائس البلجيك طرًّا يشبهها القوم بكنيسة باريس المشهورة المعروفة باسم (نوتردام) . وفي هذه الكنيسة رسوم ونقوش وآثار تستحق الذكر اهمها صورتان من رسم روبان الشهير انجزهما في عامي ١٦١٠ و١٦١٢ فهما تعدان من اجل الآثار الباقية من القرن السابع عشر وقد جعل الصورتين للدلالة عَلَى صلب المسيح وارتفاعهِ عن الصليب فعلقتا في جدار الكنيسة وغطيتا بالحجب لا ترفع عنهما الاَّ متى انتهى المصلون من عبادتهم وبقي المتفرجون فتزاح تلك الحجب ويدور خادم المعبد يتقاضى من كل متفرج فرنكاً رسم مشاهدتها وهو يفعل ذلك في كل حين لكثرة الزائرين . ورأينا كنيسة أُخرى في هذه المدينة وهي قديمة العهد بنيت سنة ١٦٠٠ وفيها حفر على الخشب يمثل ملائكة الجنان والقديسين والحواريين وكل ذلك من صنع الرجال الماهرين

ولا حاجة الى القول ان هذه المدينة على اتساعها وكثرة المترددين اليها من الاجانب بسبب مركزها التجاري تحوي شيئاً كثيراً من المراسح والملاهي والمشاهد

ولكننا لم نذكر هنا غير المهم منها فنتقدم من ذلك الى ذكر عاصمة البلاد

بروكسل

قصدنا بعد انفرس هذه العاصمة البهية ووجدنا ان الذي قالهُ الواصفون عن محاسنها لا يزيد عن الحقيقة وما اخطأ الذين اطلقوا عليها اسم (باريس الصغيرة) فان عاصمة البلجيك اكثر مدن الارض زهاءً وبهاءً وبهجةً بعد مدينة باريس وهي تقرب منها في اوضاعها ومناظرها وبنوع اخص في طباع اهلها واميالهم واهوائهم وعوائدهم . وقد بنيت هذه المدينة على مرتفع من الارض تحتهُ وادٍ غير عميق فهي بهذا تقسم قسمين احدهما علوي والآخر سفلي وفي كلٍّ منهما ما يستحق الذكر والوصف من المشاهد العظيمة . والقسم السفلي من هذه المدينة الزاهرة مركز الحركة التجارية فيها وهو القديم من قسميها وفيهِ البورصة وادارة البوسطة العامة ومجلس البلدية وفيهِ من الشوارع المغروسة فيها الاشجار ما يشبه شوارع باريس الكبرى (البولفار) واهمها شارع اسبناخ ثم شارع الشمال ثم شارع هينو وكلها متصلة بعضها ببعض وهي ذات سعة وجمال بديع رصّعت بالمخازن المزخرفة باشكال البضائع والخانات المرتبة على اجمل مثال والمطاعم النظيفة وغير هذا مما يكثر وجودهُ في كل مدينة عظيمة . ومن اعظم ما يرى في هذا القسم من بروكسل سراي المجلس البلدي وهي كانت قصر الملوك السابقين الذين حكموا بلاد البلجيك بنيت في ساحة كبرى على مقربة من البورصة وقد عني الصناع الماهرون بزخرفتها ونقشها حتى جعلوها من اجمل المشاهد وطلوا ظاهرها بماء الذهب فزادوها رونقاً وبهاءً . وفي داخل هذا البناء صور الملوك الذين درجوا بعضهم هولانديون والبعض نمسويون والبعض فرنسيون والكل بالملابس التي كانت مستعملة في ايامهم فالنظر

الى هذه الصور من وجهٍ تاريخي يلذُّ لطالب الحقيقة لانهُ يمثل لهُ حالة اوروبا في العصور المتوسطة عَلَى اوضح الاشكال ويذكرهُ بما فعل اولئك الاقيال وما حاربوا وما عانوا من هياج الامة فان البلجيكيين قرروا الاستقلال من الحكومة الهولاندية في هذه الدار وقطعوا رأس ٢٥ كبيراً من كبراء الهيئة الحاكمة في غرفة من غرفها . هذا غير ان الصور المجموعة في هذا القصر تمثل تاريخ البلجيك كلهُ فيمكن لطالب المعرفة ان يدرس تاريخ البلاد من تلك الصور

واما القسم العلوي من هذه المدينة وهو القسم الحديث فاهم كثيراً من الذي مرَّ ذكرهُ وفيهِ مجموع عظمة بروكسل و بهائها الحاليين لان فيهِ قصر الملك وندوة النواب والاعيان والابنية الفخيمة الخاصة بالوزارات ودور الامراء من الاسرة المالكة في هذه البلاد الآن وسراي المحكمة وفنادق عظيمة وحوانيت بديعة الصنع ومخازن وافية الترتيب وغير هذا شيء كثير . واني قصدت هذا المكان من فندقي صعداً لانهُ كما علمت مبني فوق اكمة كبيرة و بلغت ساحة تعرف باسم الساحة الملوكية اقيم فيها تمثال الامير البلجيكي جوفروا دي بويون وهو امير اشتهر في الحروب الصليبية المعروفة شهرة زائدة ومُثل هنا في حالة الحرب والجهاد . وقد نصب هذا التمثال في سنة ١٨٤٨ وكتب عَلَى قاعدتهِ ما يأتي (جوفرواده بويون ملك القدس الاول ولد في مدينة بندي بالبلجيك وتوفي في فلسطين يوم ١٧ يوليو سنة ١١١٥ . وقد نصب هذا التمثال في حكم الملك ليوبولد الاول سنة ١٨٤٨) وعلى الجوانب الاربعة ذكر حروب جوفروا هذا واعمالهِ وهو في موضع يكثر مرور الناس منهُ . وفي هذه الساحة فندق فلاندر وهو اعظم فنادق المدينة وانخمها والى جانبهِ فندق المنظر الجميل (بيل فو) يتصل بقصر الملك ليوبولد وليس لهذا القصر من الخارج منظر يميزهُ عن منازل الكبراء والاغنياء فلا يعرف الغريب انهُ للملك الاَّ اذا اتاهُ العلم من

غيرهِ لاسيما وان القصر ملاصق لفنادق وابنية اخرى ويكثر ان تكون قصور الملوك داخل اسوار وحدائق خاصة بها لا تتصل بسواها . ولم يمكن دخول هذا القصر لانهم لا يأذنون بذلك في كل حين ولكن دخول الحديقة التابعة لهُ مباح فدخلتها مع الداخلين ودرت في جوانبها عَلَى صوت الانغام تصدح بها الموسيقى العسكرية . ويتصل طرف هذه الحديقة بمجلس النواب والشيوخ والنظارات وقد اقيمت عند مدخل المجلس تماثيل تدل الى العدل والقوة والحلم والحكمة وغير هذا مما يعدونهُ شعاراً للحكومة الدستورية

ولما انتهيت من رؤْية هذه المشاهد عدت الى الساحة الملوكية لاذهب منها الى المحكمة او قصر العدلية كما يسمونها وهي ذلك البناء الفخيم الذائع الصيت في الآفاق يعد من معجزات الاتقان في هذا الزمان اذا عدت الابنية العظيمة في الارض كان هو في اولها ولذلك ترى رسومهُ في كل جهة من جهات الارض ولطالما قال الناس ان هذا القصر الفخيم كثير على محاكم بروكسل وانهُ لا يجدر بدولة البلجيك الصغيرة ان تقيم اثراً عظيماً كهذا في عاصمتها ليس لهُ نظير في اكبر عواصم الارض واعظم ممالكها . شرعوا في بناء هذا القصر سنة ١٨٦٦ فانتهوا من البناء سنة ١٨٨٣ اعني انهم اشتغلوا بهِ ١٧ عاماً وانفقوا عليهِ اكثر من مليوني جنيه . وهو قائم على طرف القسم العلوي من المدينة ومن دونهِ القسم الواطئ فالذي يقف فيهِ يرى القصور والابنية الشاهقة في ذلك الوادي مثل الاكواخ الحقيرة امام منظرهِ الفخيم . يكفي السائح الذي يقصد بلاد البلجيك ان يدخل هذا القصر ويدور في داخلهِ وخارجهِ ويتنقل في غرفهِ وقاعاتهِ وردحاتهِ ودرجاتهِ وقباتهِ وعمدهِ وبقية غرائبهِ فانهُ اذا لم يرَ في بروكسل غيرهُ لم تعد زيارتهُ بلا فائدة . ويشغل هذا البناء ارضاً مساحتها ٢٤٦٠٠ متر مربع طولهُ ١٨٠ متراً

وعرضهُ ١٧٠ وعلو قبتهِ ١٢٢ وفيهِ ٢٧ قاعة كبرى يمكن ان يجتمع في كلٍّ منها مئاتٌ من الناس و ٢٤٥ غرفة متوسطة الحجم للمداولات والتحريرات وغير هذا وثمانية ردحات كبيرة تحيط بها القاعات والغرف احاطة النجوم بالشمس . واكثر هذا البناء العظيم من الرخام الابيض المصقول اذا تأملتهُ من الخارج او من الداخل وجدت لهُ رونقاً وبهاءً كثيراً وقد جمعت فيهِ علوم المتأخرين الهندسية والصناعية كلها فما ترك البلجيكيون واسطة حتى اتوها لاتقان هذا القصر وجعلوهُ بذلك من مشاهد الدنيا المعدودة ولعلهُ اجمل محكمة في الوجود . ودخلت بعض الغرف وفي جملتها غرفة الاستقبال كلها رخام بديع الصنع حتى ان جدرانها من الرخام الملون اسفلها اسود لماع وفوقهُ احمر قانٍ ومن فوقهِ الى السقف ابيض ناصع ولهذه الصفوف الثلاثة منظر بديع يؤَثر في الناظرين . وقد قامت القاعة كلها على اعمدة من الرخام ايضاً كثيرة الزخرف فاذا جلس المرء في صدر هذه القاعة وتأمل محاسنها شعر بعظمة في نفسهِ واقرَّ بالفضل للذين بنوا هذا الاثر الجليل . ومساحة هذه القاعة ٣٦٠٠ متر مربع وهي نظراً الى هذه السعة يرجع فيها صدى الصوت ويرنُّ مدة دقيقة واحدة فيزيدها مهابة ووقاراً . ودخلنا قاعات الجلسات للمحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف وكلها وضعت على اجمل مثال فيها الكراسي للقضاة من خشب الابنوس غطيت بالقطيفة الحمراء وفي صدر القاعات تماثيل العدل والقسطاس وكلها رموز منها شكل سليمان الحكيم في كرسي القضاء والى يمينهِ ميزان العدل والى يسارهِ شكل امرأة تحمل طفلاً

وجملة القول ان الساحة الملوكية في بروكسل تعد من اجمل الساحات لما يحيط بها من المشاهد العظيمة . وعلى مقربة منها متحف الفنون الجميلة مثل النقش والتصوير فيهِ من الرسوم ما يستغرق الكتب وصفهُ . ويليهِ قصر الكونت ده

فلاندرعم الملك وهو رجل طويل القامة طولاً ظاهراً رأيتهُ يتمشى الى جانب قصرهِ مع احد القواد العسكريين وقد اضطرهُ الطول الى الانحناء فلازمهُ وصار فيهِ طبعاً . ويتفرَّع من هذه الساحة اجمل شوارع المدينة وابهاها غرس الى جانبيها الشجر الجميل ولها اتساع يكفي للعربات الذاهبة والآيبة وارصفة عريضة للمارة من الناحيتين فهي تسمى عندهم باسم (الشانزليزه) وهو المتنزه المعروف في باريس لقربها منهُ في المناظر والناس يقصدونها عصارى كل يوم من كل صوب فتراهم زرافات ووحداناً يتمشى منهم الرجال والنساء او يسوقون العربات او يجرون على الدراجات او يمتطون صهوة الجياد الصافنات فيكون من مجموعهم مشهد من اجمل المشاهد للمتفرج او المتنزه . ولما تركت هذه الجهة سرت في الشارع الملوكي الى حديقة النبات وهي من الحدائق المشهورة في اوروبا وضعت في منحدر من الارض فهي اذا وقف المتفرج في اعلاها رأى من دونهِ صفوف الخضرة النضرة واشكال النبات العجيب والشجر البديع من كل نوع تعشقهُ العين وقد جمعوا في هذه الحديقة من غرائب النبات ما ينمو بعضهُ في البلاد الحارة فغرسوهُ في حديقتهم داخل بيوت من الزجاج يضرمون النار من تحتها لتوليد الحرارة اللازمة لانمائهِ فينمو هنالك كأنهُ لم ينقل من موضعهِ في اواسط افريقيا او اميركا الجنوبية . وبعد ان سرحنا الطرف ملياً في هذه الحديقة الشهية توجهنا الى القصر الثاني للملك حيث يقيم اكثر ايام وجودهِ في بروكسل ولهُ حديقة من اجمل ما اكتحلت بمرآهُ العين وطرقات في وسط الاشجار والازهار وبحيرات من الماء لها جمال غريب . وكان الحرس الملوكي واقفاً على باب القصر وهيئة المكان بوجه الاجمال تدل على الملك اكثر من هيئة القصر الآخر الذي مرَّ ذكرهُ فتأملناهُ من الخارج لان الدخول غير مباح للتفرجين . وقد مرَّ على هذا القصر زمان فانهُ بناهُ احد الولاة الهولانديين

لما كانت البلاد تابعة لتلك المملكة ثم استولى عليهِ نابوليون الاول وجعلهُ محل اقامتهِ من سنة ١٨٠٢ الى ١٨١٤ وفيهِ اصدر امرهُ باشهار الحرب على روسيا في سنة ١٨١٢ ويقال انهُ ظل بعد ذلك يعدُّ بروكسل وهذا القصر شوءماً ويتطير من ذكرهما الى يوم وفاتهِ لانهُ غلب في واترلو وهي بلدة تقرب من بروكسل سيأتي ذكرها وكانت واقعة واترلو هذه الضربة القاضية على عزهِ . وبدأ نجم سعدهِ بالافول من بعد الحرب الروسية التي امر بها في قصر بروكسل هذا فكانت عاصمة البلجيك وقصرها شوءماً عليهِ ومقدمة هبوطهِ على ما يزعم وهو مع اتساع مداركهِ وعظمتهِ كان كثير التشاؤُم راسخ الاعتقاد بمثل هذه الامور . وعاد هذا القصر بعد خروج البلجيك من قبضة فرنسا الى اصحاب البلاد في سنة ١٨١٥ وتوفي في احدى غرفهِ ليوبولد الاول موءسس الدولة المالكة حالاً وكانت وفاتهُ في سنة ١٨٦٥ فاقيم لهُ تمثال بديع الصنع ونصب على اكمة تسمى اكمة الرعد على مقربة من هذا القصر وقد بني عليها برج هرمي يصعد اليهِ من الداخل بسلم مستدير الشكل اذا رقي المرء اعلاهُ رأى قسماً كبيراً من مدينة بروكسل وبعض اجزائها ترى من ذلك الموضع بكل ما فيها . ويلي هذا البرج كنيسة مشهورة يصلي فيها الملك لقربها من قصرهِ وفي ساحتها مدفن الملوك والامراء من ذلك قبر ليوبولد الاول موءسس الدولة وقد ذكرناهُ غير مرة وولي العهد ابن ليوبولد الثاني توفي سنة ١٨٦٩ والبرنس بدوين ابن اخي الملك وكان ولي عهدهِ توفي سنة ١٨٩١ ووراء هذا المدفن المقبرة العامة تعرف باسم بير لاشيز تشبيهاً لها بمدفن في باريس يعرف بهذا الاسم ايضاً وهناك من الاضرحة واشكال النقوش والرموز شيءٌ كثير

وكان في بروكسل يوم زرتها معرض بديع لشركة من البلجيكيين والانكليز استأجرت قطعة من الارض واقامت معرضاً مثلت فيهِ هيئة مدينة البندقية

(فنيس) الكائنة في ايطاليا وكانت هذه الشركة قد اقامت هذا المعرض في لندن وكأنما هي نقلت مناظر البندقية وترعها وشوارعها وقصورها وجسورها وزوارقها الى لندن على طريقة غريبة فكان الذي يدخل هذا المعرض يظن انهُ في البندقية نفسها لا في مدينة أُخرى وتقاطر الناس على ذلك المعرض مدة وجودهِ وهي ستة اشهر فقط فربحت الشركة من ذلك اموالاً طائلة تزيد خمسة اضعاف عن رأس مالها والذي دفع من المساهمين الفاً اخذ في نهاية الاشهر الستة خمسة آلاف فلما رأى رجال الشركة هذا النجاح الباهر نقلوا معرضهم بصورهِ واكثر اشكالهِ الى مدينة بروكسل وحفروا الترع وبنوا الجسور والزوارق وجاءُوا بالعمال من مدينة البندقية نفسها فكنت اذا دخلت ذلك المعرض في بروكسل تسمع اللغة الايطالية ولا ترى غير مناظر مدينة البندقية فتظن ان تلك المدينة العجيبة انتقلت بقوة الآلهة او بفعل السحر الذي يفوق العقول من موضعها وفي ذلك من معجزات العلم والهمة ما لا يخفى . وكان رأس مال المعرض المذكور كبيراً جمع بالاكتتاب فربح اصحاب المشروع منهُ اموالاً وفيرة وهنا يتضح للقارىء مزية التشارك والتعاون على قضاء المهمات الكبرى فان كثيراً مما يتوفر منهُ الربح لا يمكن لفرد واحدٍ فاذا تعاون عليهِ افراد وتشاركوا على انجازهِ ربح الكل منهُ وغنموا ما يملأُ الجيوب كما غنمت شركة معرض البندقية في بروكسل وفي لندن من قبلها

وقد كنت مدة وجودي في هذه المدينة كثير التردد على حرجة بديعة تسمى بوا ده لاكامبر وهي على مثال الغابة الباريزية المعروفة باسم بوا ده بولون وفي هذا المحل الغريب مجارٍ من الماء وبحيرات تتخلل الخضرة وجزيرة من ارض الغابة تحيط بها المياه فيصل اليها القاصدون بالزوارق وهم يسمونها جزيرة روبنصن يأْتيها الناس افواجاً كثيرة في كل حين فيدورون بين تلك الاشجار وينثنون ملتفين

حول تلك الجداول وهم يسمعون الانغام المطربة تصدح بها الموسيقى العسكرية

هذا ولا بدَّ للذي يزور بروكسل من التنزه في اطرافها وضواحيها وهي كثيرة العدد وافرة البهاء متصلة بعضها ببعض من العاصمة الى جميع اطراف المملكة حتى ان المسافر اذا سار من اول البلجيك الى آخرها طولاً وعرضاً لم يسر على قدميهِ اكثر من نصف ساعة في ارضٍ بلا بناءٍ فكأَنَّ البلاد مدينة واحدة وهنا الدليل الاظهر على عمران البلاد وتقدمها العظيم وتوفر اسباب العدل والراحة فيها . واشهر الضواحي لعاصمة البلجيك هي واترلو حيث حدثت اعظم معارك التاريخ الحديث وانتجت اعظم النتائج وكانت بين نابوليون العظيم من جانب وبين جنود الانكليز وبعض مناصريهم من الجانب الآخر انتصر فيها الديوك اوف ولنتون القائد الانكليزي على نابوليون واعانهُ على النصر الجنرال بلوخر البروسي وبعض الجنود الفلمنكية . ولما كانت معركة واترلو كما قلنا اعظم معارك الآدميين في التاريخ الحديث وقد بنيت على نتائجها دول اوروبا الحالية فلا نرى بدًّا من شرح يسير عنها اتماماً للفائدة فنقول

كان نابوليون بونابارت كما يعلم القراءُ اكبر قواد زمانهِ واوصل فرنسا بحروبهِ الى قمة المجد ولكنهُ جعل اكثر دول اوروبا من اعدائها ولا سيما دولة الانكليز التي حاول جهدهُ ارغامها ولم يمكن لهُ ذلك نظراً لقوتها في البحر . وتحاربت جنود نابوليون والجنود الانكليزية مراراً في البر فكان النصر في اكثر المواقع للانكليز حتى اذا رأى هذا القائد العظيم ذلك قصد ملاقاة الديوك اوف ولنتون وهو اعظم قواد الانكليز يومئذٍ ومحاربتهُ بنفسهِ وجعل ذلك في سهول واترلو التي ذكرناها وكانت انكلترا قد اتفقت مع البلجيك وبروسيا على ان تعيناها في الحرب لرد غارة نابوليون وارغامهِ فاجتمعت العساكر الانكليزية في تلك السهول يوم ١٧ يونيو من

سنة ١٨١٥ وكان معها بعض الجنود البلجيكية ثم جاءت الجنود الفرنساوية وعسكرت على مقربة منها وكان يفصل بين الفريقين وادٍ صغير . وفي يوم ١٨ يونيو بدأ القتال فهجم الجنرال ناي احد قواد نابوليون على صفوف الانكليز هجوماً عنيفاً واخترق من معسكرهم صفوفاً فلما رأى البلجيكيون فعلهُ فروا هاربين وتركوا الانكليز وحدهم يحاربون الفرنساويين فثبت الانكليز على هجمات الفرنسيس ودارت رحى الحرب من كل جانب فحصد الرجال من الجانبين الوفاً وكان كل من نابوليون وولنتون لا يغفل طرفة عين حتى اذا كان آخر النهار وصلت الجنود البروسية التي كانت قادمة لنجدة الانكليز تحت قيادة الجنرال بلوخر الذي ذكرناهُ فدخلت في معامع القتال بلا امهال وقضت على آمال الفرنساويين قضاءً محتماً وبذلك تمَّ النصر للجانب الانكليزي في معركة واترلو وكانت هي اول معركة كبيرة حضرها بونابارت بنفسهِ وكُسر فيها واكبر معارك الاوروبيين في العصور الحديثة من حيث شهرة القواد فيها وجسامة نتائجها لانهُ لو انتصر بونابارت في تلك المعركة لتغيرت احوال اوروبا من ذلك اليوم وكانت بروسيا الى الآن من الولايات الفرنساوية وانكلترا دولة صغيرة اذا لم تكن تابعة لفرانسا ايضاً فهي على الاقل بلا املاك واسعة مثل التي نراها اليوم لهذه الدولة العظيمة

وكان مع بونابارت في هذه المعركة ٧١٩٠٠ جندي منهم ٤٨٩٥٠ من المشاة و ١٥٧٠٠ من الفرسان و ٢٤٦ مدفعاً . وكان مع الديوك اوف ولنتون القائد الانكليزي ٦٧٦٠٠ رجل منهم ٤٩٦٠٠ مشاة و ١٢٤٠٠ من الفرسان و ١٥٠ مدفعاً فلما جاء بلوخر بجنودهِ البروسيانية بلغت قوة الدول المتحدة ضد نابوليون ٧٥٠٠٠ رجل و ٢٢٠ مدفعاً . وقد قتل في هذه المعركة العظيمة ٢٥٠٠٠ من جيش فرنسا و ١٣٠٠٠ من جيش انكلترا و ٧٠٠٠ من جيش بروسيا واضطرَّ

نابوليون بعدها الى القهقرى والرجوع الى بلادهِ فرأى الهياج كثيراً ورحل عنها الى انكلترا حيث سلم نفسهُ وتمَّ بهِ الذي تمَّ كما يعلم من تاريخهِ

وبعد ان مرّت اعوام على هذه المعركة الكبرى اتفقت حكومات انكلترا وبروسيا والبلجيك على اقامة اثر باقٍ لها في محل حدوثها فارسل المهندسون وبعض الضباط الذين شهدوا الواقعة الى قرية واترلو وعملوا الرسوم اللازمة ثم اتفقت الحكومات الثلاث على ان يبنى تلٌ هرمي الشكل في موضع ترى منهُ كل جوانب الارض التي حصل فيها القتال فبنوا ذلك التل من التراب ارتفاعهُ ٤٥ متراً وفوق قمتهِ اسد بلجيكي من النحاس والناس يصعدون اليهِ بسلم عدد درجاتهِ ٢٣٥ درجة . قصدت واترلو للتفرج على هذه الآثار فركبت رتل سكة الحديد وسرنا نحو ساعة حتى وصلنا محطة واترلو فرأينا فيها عربات تنتظر القادمين ركبناها وتوجهنا فيها الى محل الآثار فلما وصلنا اسفل التل الذي ذكرناهُ صعدنا مع الصاعدين الى اعلاهُ وعددهم لا يقل عن اربعين اكثرهم من الانكليز ووجدنا هنالك ضابطاً من الجيش الانكليزي درس تاريخ واترلو ومعركتها درساً دقيقاً وعينتهُ الحكومة ليشرحها للزائرين فلما استقرَّ بنا المقام في اعلى تلك الرابية جعل الضابط يشرح الواقعة شرحاً مسهباً وهو كلما ذكر موضعاً يشير اليهِ بيدهِ حتى نزل المتفرجون وهم كانهم شهدوا موقعة واترلو من دقة الوصف

وقد اشار الضابط المذكور الى آثار ومشاهد كثيرة من ذلك عمود اقامتهُ الحكومة الانكليزية موضع شجرة يبست وارسل جذعها الى دار التحف في لندن وكان الجنرال ولنتون قد وقف تحت تلك الشجرة مدة القتال . ومن ذلك عمد وآثار اخرى واضرحة عليها كتابات اكثرها اقامها اقارب الضباط الانكليز الذين قتلوا في هذه المعركة تذكاراً لبسالتهم ولم يزل في سهول واترلو عظام كثيرة من

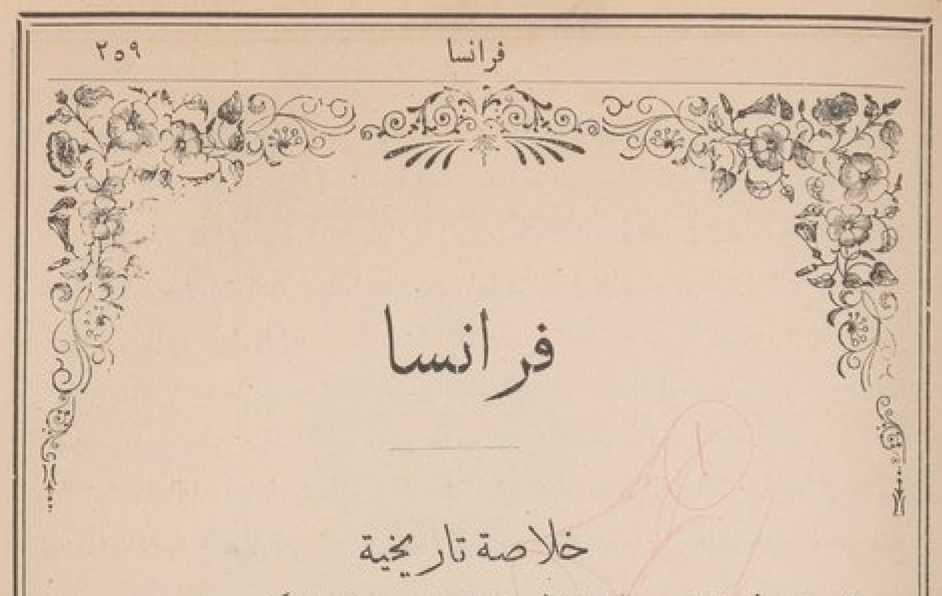
بقايا الذين قتلوا فيها ودفنوا يوم ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ حتى انهُ اذا هطل المطر في بعض الاعوام غزيرًا وكان جارفًا يجرُّ معهُ التراب الكثير ظهر من تحت التراب عظام المقتولين وذكر الناس باعظم معارك المتأخرين

ولما نزلنا من تلك الاكمة دخلنا معرضًا صغيرًا عند سفحها جمعت فيهِ السيوف والبنادق والخوذ وبقية الآلات الحربية مما استعمل في هذه المعركة العظيمة . وتباع الى جانبهِ رسوم وآثار يأخذها السائحون لتذكر واترلو فلما انتهينا من هذه الاشياء عدنا الى بروكسل في قطار مرَّ بين صفوف الزرع وغابات الشجر الكثير ومنازل الاكابر الذين يعملون في العاصمة مدة النهار وفي آخرهِ يعودون الى حيث تتمُّ لهم الراحة ولا يقلقهم دوي العواصم الكبرى وحركتها الدائمة . واقمنا فيها زمانًا وقد راق لنا لطف سكانها وحسن موآنستهم وكثرة ما في مدينتهم من اسباب الحظ والطرب حتى اذا حان زمان الرحيل عنها فارقناها ونحن من رأي القائلين انها باريس الصغرى وانها من ابهى عواصم اوروبا واكثرها رونقًا وجمالاً وقصدنا الحمامات البحرية المشهورة في مدينة اوستاند

ولا حاجة الى الاسهاب هنا في وصف الحمامات البحرية في مدينة اوستاند البلجيكية فان الذي يقال عنها لا يزيد عما في حمامات هولاندا وغيرها من الحمامات البحرية التي مرَّ ذكرها في هذه الرحلة . الَّا ان مدينة اوستاند هذه ذاعت شهرتها في الآفاق وعرفت بطيب هوائها فكثر ورود القادمين اليها من انحاء البلجيك ومن البلدان الاخرى وتسهلت وسائل النقل والمخابرة بينها وبين فرانسا وبلاد الانكليز نظرًا لكثرة الذين يقصدونها من البلادين والمسافة بين اوستاند وانكلترا في البحر لا تزيد عن عشر ساعات فهي يأتيها كل يوم ثلاث بواخر انكليزية ملأى بالزائرين ويأتيها ايضًا ثلاثة قطرات من فرانسا تنقل المتفرجين فلا يقل

عدد الموجودين على ضفة البحر في اوستاند كل يوم عن خمسة آلاف او ستة ولا يقل عدد الزائرين مدة فصل الصيف عن خمسين الفاً او ستين نصفهم من اهل البلاد البلجيكية والنصف انكليز واميركان وفرنسويون وافراد من جميع الجهات والانكليز اكثر الاجانب عدداً من بين زائري ذلك الموضع . وكثيراً ما يذهب ملك البلجيك بنفسهِ الى حمامات اوستاند ويؤمها اشراف البلجيك وسراتهم وتقصدها العائلات فتقيم فيها الايام والاسابيع وتقضي بين الرمل والماء اكثر ساعات النهار لا فرق في ذلك بين الكبار والصغار . وقد بني رصيف طويل عريض على شاطىء البحر هنا طولهُ ١٥٠٠ متر وعرضهُ ١٨ وعلوهُ عن سطح البحر ثمانية امتار وهنالك يتمشى المتنزهون رجالاً ونساء ويرى المتفرج من اشكال الناس. ما بين راكب وماشٍ وسابح في الماء ومتمرغ في الرمل ما يرى في اكثر هذه الحمامات البحرية . وقد بني على طول الرصيف المذكور فنادق وحانات ومنازل فخيمة بعضها للعائلات المصطافة واكثرها معد للاجرة وفيها كل ما تطلبهُ النفس من وسائل الراحة . وهنالك حانة كبرى على شكل الكازينو يسمونها (كورسال) وفيها الموسيقى وغرف اللعب والرقص والمطالعة والمسامرة وغير ذلك مما يوجد في كل محل من هذا القبيل وهنالك ايضاً لسان بني من الخشب والحديد كالجسر فوق البحر يمتد في الماء مسافة ٦٢٥ متراً وفيهِ كل ما يسر الخواطر من معدات الاتقان والراحة للقادمين وغير هذا مما يعسر عدهُ ويضيق المقام عن وصفهِ

فلما انتهينا من هذه المشاهد ولم يبقَ علينا في بلاد البلجيك ما يمكن رؤيتهُ برحنا تلك البلاد العامرة وسرنا منها الى فرنسا وهي مجاورة لها كما تعلم



فرانسا

خلاصة تاريخية

اشتهرت هذه البلاد ببسالة اهلها في ايام الرومانيين والمعارك الكثيرة التي جرت بينهم وبين قواد رومه وكانوا يسمونها وقتئذٍ (غاليا) ويعرفون الاهالي باسم (فرانك) اي الاحرار نظراً لما عرف عنهم من الميل الى الحرية والاستقلال ثم توسع الناس في هذا الاسم فجعلوهُ عاماً لكل الاوروبيين واخذهُ العرب عنهم فجعلوهُ الافرنج او الفرنجة كما نعلم وحرّف قليلاً بابدال الكاف سيناً فصار (فرانس) وهو اسم فرانسا اليوم · وليس يعرف عن ملوكها الاقدمين ما يذكر قبل واحد اسمهُ ميروفيوس اسس الدولة الميروفنجية واشهر افرادها كلوفيس الاول ولي سنة ٤٨١ وهو في العشرين من عمره وحارب الرومان واجزاء فرانسا والمانيا فانتصر في كل حروبهِ وجعل باريس قاعدة مملكتهِ واقترن بابنة ملك بورغونيا فعلمتهُ الدين المسيحي وحملتهُ على اعتناقهِ فكان من وراء ذلك ان فرانسا كلها تمثلت بملكها الهمام وصارت بلاداً مسيحية من ذلك الحين · ومات كلوفيس سنة ٥١١ مسيحية فخلفهُ اولاد لهُ اربعة وكلهم ضعفاء الرأي بلا تدبير فتضعضعت احوال المملكة وقلت هيبة الملوك وانتقلت السلطة منهم الى رؤساء البلاط الملوكي وكانت وظيفة رئاسة البلاط قد صارت وراثية في عائلة رجل اسمهُ بين ارستال قام من نسلهِ شارل مارتل القائد الشهير الذي انتصر على العرب سنة ٧٣٢ بين مدينتي تور وبواتييه في فرانسا وارجعهم عن اوروبا ويعدُّ انتصارهُ في تلك السنة من اعظم الحوادث التاريخية لانهُ غير تاريخ اوروبا وابقى الغرب للغربيين بدل ان يستولي عليهِ العرب

ولما مات شارل مارتل هذا ورث الوظيفة (رئاسة البلاط الملوكي) والقوة ابنهُ بين القصير وصار الملك في ايام هذا الوزير بلا مركز يعرف حتى ان البابا وافق الوزير على

اختلاس الملك فعزل آخر ملوك الدولة الميروفنجية واسمهُ شلدرك وتوّج بين القصير ملكاً في سنة ٧٥١ فكان ذلك بدء الدولة الثانية في فرانسا وتعرف باسم الكارلوفنجية

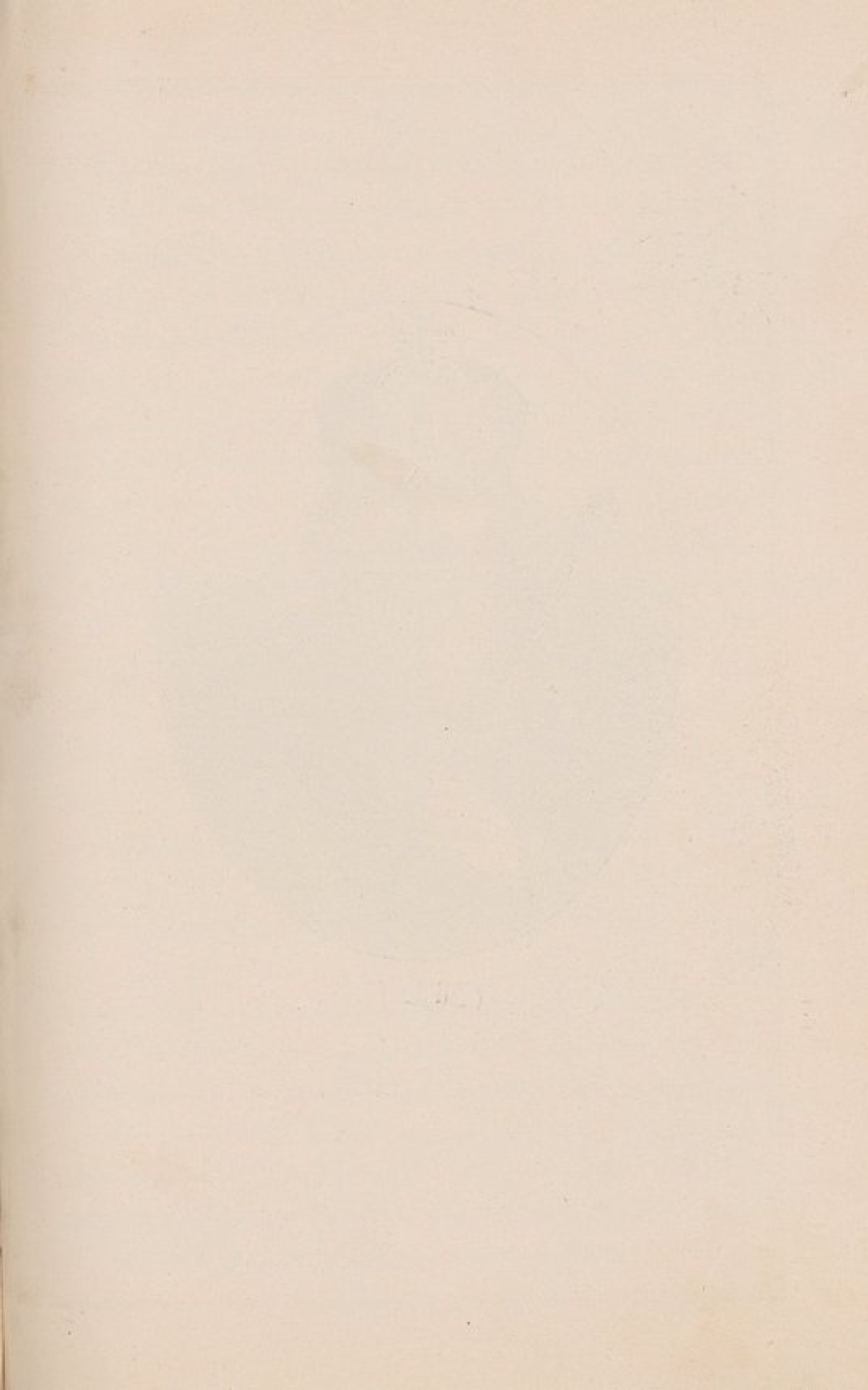
ومات بين هذا في سنة ٧٦٨ بعد ان ملك البلاد ١٧ سنة فاورث الملك من بعدهِ لابنيهِ شارل وكارلومان مات الثاني منهما بعد حين واستبدَّ شارل بالملك وهو الذي اشتهر في التاريخ باسم شارلمان اي شارل الكبير أُعطي هذا اللقب عن استحقاق لانهُ كان مدبراً حكيماً وقائداً باسلاً وملكاً عظيماً حارب في كل جهة وانتصر على كل الاعداء فوسع دائرة مملكتهِ وجعلها متصلة من آخر حدود فرانسا الغربية الى حدود الرين والدانوب وضمَّ جزءاً كبيراً من النمسا والمانيا وايطاليا واسبانيا الى مملكتهِ وكان في ايامهِ اعظم ملوك الزمان لا يضارعهُ في الشهرة غير هرون الرشيد سلطان العرب وكان بين الاثنين وداد ومخابرة .وظلَّ هذا الملك العظيم يفتح البلدان ويتقدَّم حتى توّج سنة ٨٠٠ امبراطوراً على يد البابا في رومه وكان تتويجهُ يوم عيد الميلاد من السنة المذكورة .ومات شارلمان سنة ٨١٤ وهو في الثانية والسبعين من عمرهِ فخلفهُ ابنهُ لويس دبوناير وجعل ايكس لاشابل قاعدة مملكتهِ وما لبث زماناً حتى قسم المملكة على اولادهِ وهو حي فجعلوا يتخاصمون ويتحاربون بسبب ضعف ابيهم حتى انفصلت ايطاليا والمانيا عن مملكة فرانسا وضعفت تلك السلطنة وكان جميع ملوكها بعد شارلمان ضعافاً لا يستحقون الذكر الى ان قام في ايام لويس الخامس المعروف بالكسلان وزير اسمهُ (هوك كاييت) اختلس الملك من مولاهُ واسس دولة تعرف باسم كاييت في سنة ٩٨٧

وقد قام من بيت كاييت فروع ملوكية كثيرة مثل آل فالوا واورليان وبوربون وفيليب ومن هؤلاء فيليب الثاني الملقب باوغسطس ملك البلاد سنة ١١٨٠ واتحد مع ريكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز على تجريد الحملات لمحاربة الترك والعرب في فلسطين مدة الحروب الصليبية المشهورة

ونمت البلاد قليلاً وتقدمت في حكم فيليب الثالث من ملوك هذه العائلة ما بين سنة ١٢٧٠ و ١٢٨٤ ولكنها عادت الى الضعف في ايام فيليب الخامس وحدثت في تلك المدة حروب طويلة بين انكلترا وفرانسا تعرف بحرب المائة سنة كان معظم النصر فيها للانكليز حتى ان هنري الخامس ملك انكلترا تقدم بجيش صغير على فرانسا وحارب جنودها في معركة اجنكور سنة ١٤١٥ فانتصر انتصاراً باهراً وتقدم على باريس ففرَّ منها ملكها الضعيف شارل السادس وامتلك الانكليز مملكة فرانسا مدة ٩ سنوات حتى اذا مات هنري الخامس ملك انكلترا وهو يومئذٍ اشهر قواد زمانهِ عاد الفرنسويون الى السعي في الاستقلال وتمَّ لهم



(شارلمان)



ذلك سنة ١٤٥٠ على يد فتاة اسمها جان دارك اعتقدت انهُ جاءها وحي بطرد الانكليز والحّت على ملك بلادها المعزول وامرائهِ ان يسلموها قيادة جيش فلما نالت بغيتها تقدمت في طليعة الجيش على الانكليز وحاربتهم فانتصرت عليهم في جميع المواقع وهي عذراء في الثامنة عشرة من عمرها ولكن جوادها كبا بها في الموقعة الاخيرة فأخذت اسيرة وقتلها الانكليز حرقاً بالنار لانهم زعموا انها ساحرة فما افادهم ذلك لان انتصار جان دارك اعاد فرانسا الى اهلها

ولهذه الفتاة ذكر عظيم في التاريخ وشهرة كبرى في فرانسا وهي تعد عندهم في جملة القديسين ولها في باريس تمثال امام قصر التولري وعدة آثار وتماثيل أُخرى في كل جوانب فرانسا

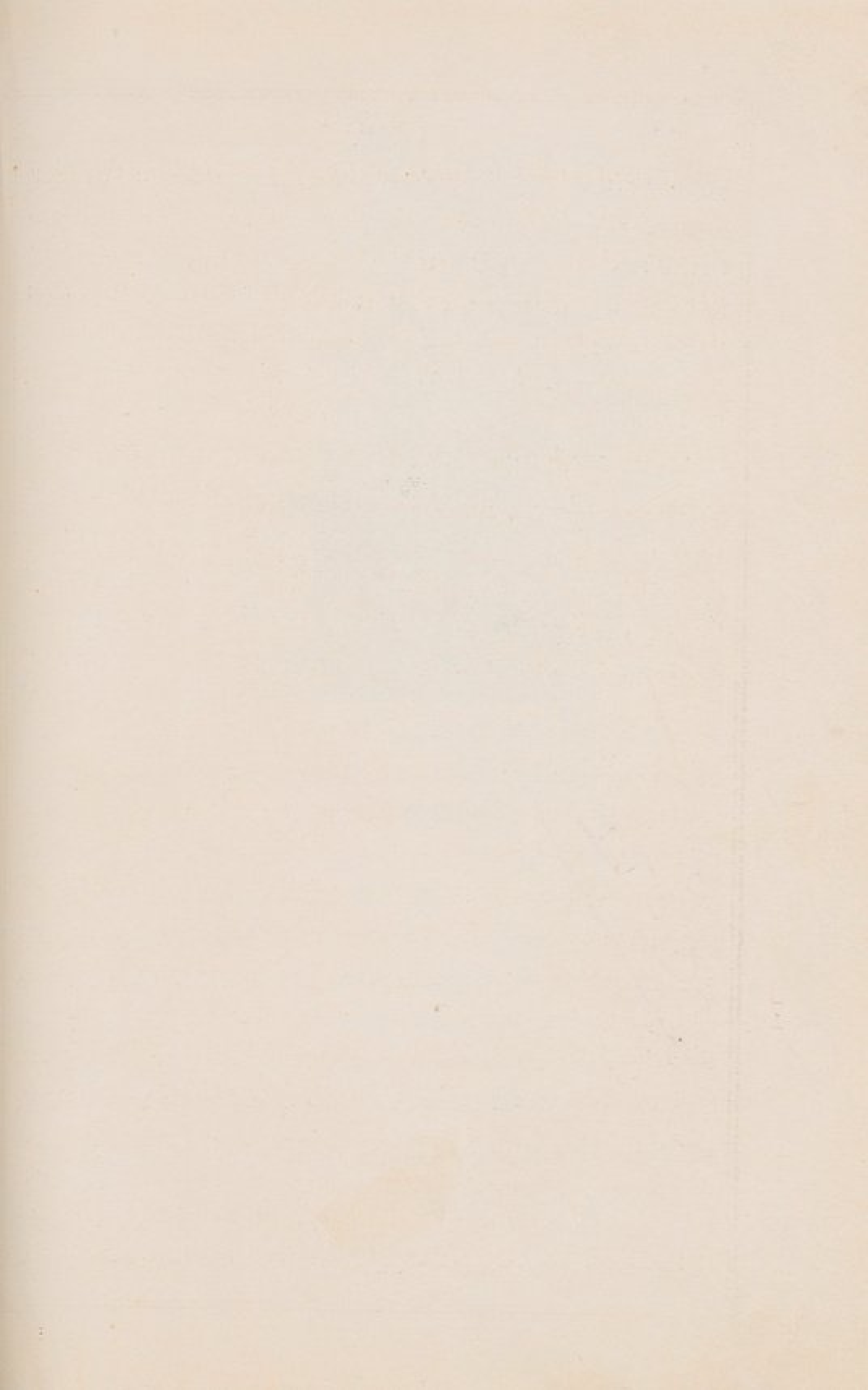
ولما استقلت فرانسا شرع ملكها شارل السابع في اصلاح شؤُونها وكان عاقلاً حكيماً وخلفهُ ابنهُ لويس الحادي عشر فحذا حذو والدهِ واهتمَّ بالطباعة وكانت يومئذٍ شيئاً حديثاً اهتدى اليهِ جوتنبرج سنة ١٤٥٠ فنقلهُ الملك الى باريس ونشط العلم والصناعة بكل قواهُ وخلفهُ ابنهُ شارل الثاني وكان هماماً حارب ايطاليا وملك جزءًا كبيراً منها ثم اضاعها ومات في شرخ شبابهِ فخلفهُ لويس الثاني عشر الذي اعاد جزءًا من شمالي ايطاليا الى مملكتهِ ثم خلفهُ فرنسوا الاول وهو من اشهر ملوك فرانسا واقدرهم حارب في عدة مواقع ولكن خصمهُ في اكثر الحروب كان اوسع منهُ سلطاناً واكثر جنوداً وهو كارلوس الخامس ملك اسبانيا وامبراطور المانيا فكان النصر في اكثر المعارك لكارلوس ولكن هذا لم ينقص من قدر فرانسوا الذي يعد من اعظم ملوك فرانسا . ومات هذا الملك سنة ١٥٤٧ فخلفهُ ابنهُ هنري الثاني ولم يكن لهُ ذكر في التاريخ غير ان الخلاف كبر في بلادهِ بين الكاثوليك والبروتستانت واشتد في ايام ابنهِ هنري الثالث وحفيدهِ فرانسوا الثاني وحصلت في تلك المدة حروب كثيرة بين الحزبين اشتهر فيها البرنس كوندي والبرنس هنري نافار الذي ملك فرانسا بعد ذلك باسم هنري الرابع والاميرال كوليني وكلهم من قواد البروتستانت وكان من امر المتحاربين انهم تصالحوا بعد حروب اهلية طويلة في ايام شارل التاسع ملك فرانسا الذي ملك البلاد في التاسعة من عمرهِ سنة ١٥٦٠ وكان تحت وصاية امهِ كاترين ده مديسي . ولكن الحزازات ظلت تحك في الصدور وساعد على انمائها تعصب الملك وامهِ فدبر حزب الكاثوليك دسيسةً لقتل البروتستانت جميعهم في ليلة واحدة في كل انحاء فرانسا واتفقوا على ان يكون اليوم ٢٣ اوغسطس من سنة ١٥٧٢ وهو يوم عيد القديس برثلماوس فلما جاء الموعد قام الكاثوليك على اخوانهم البروتستانت وقتلوا منهم الوفاً . وظلت البلاد في ارتباك الى آخر حكم هنري الثالث فلما قتل في سنة ١٥٨٩ ورثهُ هنري

الرابع الذي ذكرناهُ وكان حكيماً علاَّماً عادلاً كثير الذكاء ولكن مذهبهُ البروتستانتي ابعد عنهُ قلوب الكاثوليك من رعاياهُ فاعتنق مذهبهم ولما استتبَّ لهُ الملك اصلح ما اختل من اموره وقرر النظامات العادلة واطلق الحرية للاديان وكان بوجه الاجمال من اعقل ملوك فرانسا واعظمهم ولكنهُ قتل بيد راهب كثير التعصب سنة ١٦١٠ وخلفهُ لويس الثالث عشر ابنهُ وكان يومئذٍ في التاسعة من عمرهِ فجعلت والدتهُ ماري ده مديسي وصية عليهِ وكانت امرأة عاقلة استوزرت الكردينال ريشليو المشهور فاظهر الرجل من معجزات الاقتدار والدهاء ماحير اوروبا وحارب المانيا وايطاليا وسواها حروباً طويلة كان النصر في اكثرها لفرانسا وهي تعرف بحروب الثلاثين سنة من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ . وقد اسس ريشليو هذا مجمع العلوم الفرنساوي المعروف باسم (اكادمي) ورفع فرانسا بحسن تدبيرهِ الى ارفع الذرى ولكنهُ كان حقوداً طماعاً واشتغل كل عمرهِ بالفتن والدسائس . ومات لويس الثالث عشر فورثهُ حفيدهُ لويس الرابع عشر وهو طفل في الخامسة من عمرهِ فجعلت امهُ ماري هابسبرج وصية عليهِ حتى اذا بلغ اشدهُ واستلم زمام الملك اظهر اقتداراً عظيماً وكان اعظم ملوك زمانهِ بلا مراءٍ . وحارب هذا الملك اسبانيا والمانيا وايطاليا وانكلترا وهولاندا وكان النصر في اكثر الحروب لهُ ولكن الانكليز انتصروا عليهِ في عدة معارك اشهرها معركة بلنهيم وقائدهم يومئذٍ الدبوك اوف مارلبرو من بيت تشرتشل المشهور . وكان الكردينال مازارين وزيرهُ في اوائل حكمهِ فاصلح لهُ مالية البلاد اصلاحاً تاماً وسارت فرانسا في سبيل العز مدة هذا الملك حتى عدَّت اكبر دول اوروبا . ومات لويس الرابع عشر في السنة الثانية والسبعين من عمرهِ بعد ان حكم ٦٥ سنة وهو اطول حكم في تاريخ ملوك اوروبا وكان موتهُ في سنة ١٧١٥ . واشتهر حكم هذا الملك العظيم بتقدم العلم والصناعة وقيام الابطال الكثيرين وبناء القصور الفخيمة منها قصر ملوك فرانسا في فرسايل من ضواحي باريس ولكنهُ اشتهر ايضاً بابطال معاهدة نانت التي أُبرمت في ايام هنري الرابع واعطي الناس فيها حرية الضمير والاديان فنشأ عن رجوعهِ الى التعصب ان البروتستانت نزح اكثرهم من فرانسا الى انكلترا وبلغ عدد المهاجرين نحو خمسماية الف نفس اكثرهم من اهل الذكاء والصناع الماهرين فخسرت فرانسا معارفهم وكسبتها انكلترا وكان رحيلهم من الحوادث المشهورة في تاريخ لويس الرابع عشر

وخلفهُ لويس الخامس عشر وكان فاتر الهمة كثير الميل الى اللهو منغمساً في اللذات جمع في قصرهِ النساء الحسان من كل ناحية وآثر معاشرتهنَّ على تدبير مهام الملك . وكثر ظلم الحكام في ايامهِ وزاد تبذير البلاط الملوكي عن الحد المعتاد فكانت الحكومة تلجأ الى ابتزاز



جان دارك



الاموال اللازمة لذلك التبذير بالعنف والقسوة من الاهالي · وشاعت عن الملك امور كثيرة نفر منها الناس فكانوا يقرأون كتابات ڤولتير وغيره من الذين مهدوا السبيل للثورة وحدث في ايامهِ ان ولاية اللورين سلخت من المانيا وضمت الى املاك فرانسا وان جزيرة كورسيكا أُخذت من ايطاليا وضمت الى مملكة فرانسا ايضاً · ومات لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

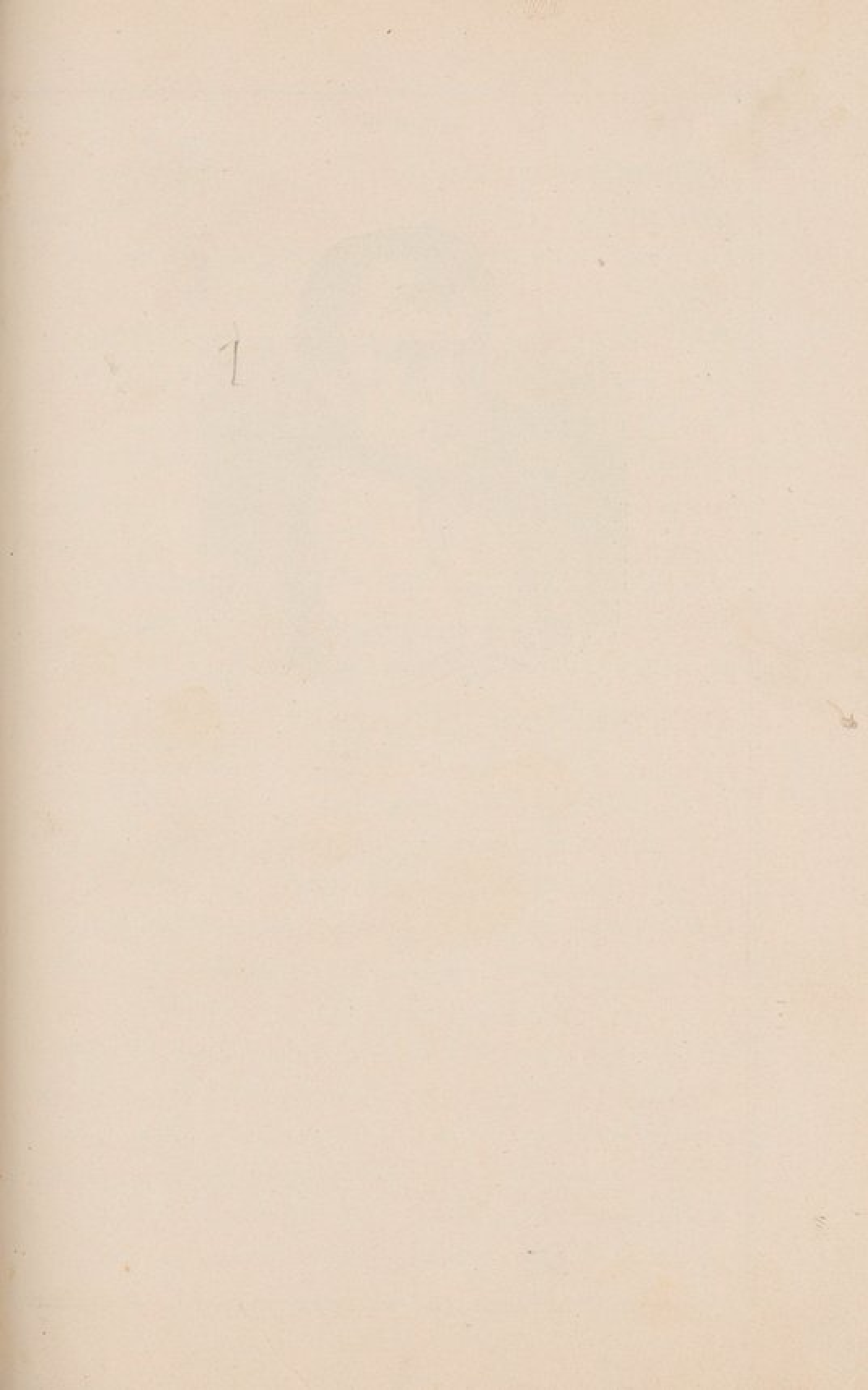
وكان لويس السادس عشر الذي خلفهُ وحدثت الثورة في ايامهِ رجلاً بسيط النية سليم القلب محبًا لخير رعاياه الا انهُ كان ضعيف الرأي فلم يقدر على ايقاف تيار الافكار الذي قاد الاهالي كلهم الى كره الملوك والامراء فحاول جهدهُ ان يرضي الامة وجمع مجلس نواب فتحهُ بنفسهِ وعرض على اعضائهِ كل ما يمكن للملك اعطاؤهُ للامة من الحقوق وتساهل ما امكن التساهل فلم يهدأ غضب الشعب وظلوا على الهياج حتى لم يبق للملك سلطة واحاطوا بقصرهِ يقصدون قتلهُ وقتل افراد عائلتهِ · وعاث الثائرون في البلاد مفسدين وارتكبوا الاهوال والفظائع وعمت في البلاد فوضى غريبة وثورة على الاغنياء والامراء ورؤساء الدين فلما رأى الملك انهُ لا يمكن لهُ استرجاع الملك بعد ذلك الهياج حاول الفرار مع عائلتهِ فعرفهُ بعضهم في وسط الطريق وارجعوا العائلة المالكة الى باريس ذليلة مهانة وهنالك اقاموا عليها الحجر وتولى الامر رجال الثورة وزعيمهم يومئذٍ رجل لا ذمة عندهُ ولا اشفاق ولا شعور اسمهُ روبسبير فبعد ان طال زمان فظائعهم وقتلوا الوفًا من نبلاء فرانسا قادوا الملك الى المحاكمة واجمعوا على انهُ خان المملكة وحكموا عليهِ بالاعدام فاعدم في ساحة الكونكورد بباريس في صباح ٢١ يناير من سنة ١٧٩٣ ولما وقف على آلة الذبح — والفرنساويون يعدمون المجرمين ذبحًا لا شنقًا بآلة قاطعة يسمونها جيليوتين — خاطب الحاضرين قائلاً ايها الفرنساويون انني اموت بريئًا مما اتهمني بهِ هذا الشعب واسامح الذين يريدون قتلي واطلب الى الله ان لا يحمل فرانسا مسؤولية سفك دمي · ولم تُسمع بقية كلامهِ لان الطبول قرعت وعلت ضوضاء المنتقمين وأُعدم لويس السادس عشر وهو لم يقم بين ملوك فرانسا اطيب منهُ قلبًا ولا اسلم نية · وزاد رجال الثورة في الاهوال والفظائع بعد ذلك فاتهموا الملكة ماري انتوانت وهي ابنة ماريا تريزا امبراطورة النمسا المشهورة بالاشتراك في الخيانة وحكموا عليها بالاعدام فقادوها الى الجيليوتين محملة على عربة حقيرة للابضعة وقبل ان تسقط الآلة القاتلة على عنقها صرخت «يا الهي اسألك ان تسامح قاتلي» وهكذا سفك دم امرأة لا ذنب لها وتمت فظائع الثورة الفرنساوية بان سجن بقية اعضاء العائلة المالكة ومات ولي العهد وهو صبي معذبًا في سجن كثير الظلام · وتمادت فرانسا في المبادىء الثوروية فهاج شعبها هياجًا عظيمًا وما ابقوا على كبير ولا اثر للنظام الملوكي ونادوا بالحرية والاخاء

والمساواة واعلنوا في الاقطار انهم يساعدون كل امة على ثل عرش الملوك فيها ونيل الحرية والاستقلال فارجف اعلانهم الملوك واهتزت لذلك ممالك اوروبا وبدأ اصحاب النفس الامارة بالسوء في بقية الممالك يفكرون في الثورة فاتحد اكثر ملوك اوروبا على محاربة الفرنساويين واذلالهم قبل ان يستفحل امرهم وتعم مبادئهم ولكن شبان فرانسا كانوا قد ثملوا بخمرة الثورة والاستقلال فحاربوا الاعداء حرباً شيبت الولدان واظهروا من البسالة ماحير العقول وانتصروا على جميع الاعداء وردوهم عن حدود فرانسا . وفي سنة ١٧٩٣ اجتمع نواب المملكة بعد كل تلك الاهوال وانتخبوا ١٢ عضواً من رفاقهم لادارة الاحكام فاداروها على نسق غريب من الفظاعة والشناعة حتى ألقوا الرعب في كل القلوب وسمي حكمهم «بحكم الرعب» لكثرة ماقتل فيه من الناس وما حدث من الامور المغايرة لطبع الانسان من ذلك انهم غيروا اسماء الاشهر وحساب السنة وسارت فرانسا على نظام جديد جعلت سنة الثورة بدء سنيه وذبح على الجيليوتين الوف من الابرياء حتى نفر الناس من فظائع تلك الحكومة وقادوا رؤساءها واشهرهم روبسبير الذي ذكرناه ودانتون الى المجزرة فضربوا اعناقهم واراحوا البلاد منهم وقامت على اثر ذلك حكومة جمهورية جديدة اسمها (ديركتوار) او الادارة وهي الجمهورية الفرنساوية الاولى كانت مركبة من ٥ اشخاص يحكمون البلاد برأي مجلسين احدهما مركب من ٥٠٠ نائب والثاني من ٢٥٠ نائباً ودامت هذه الحكومة الى سنة ١٧٩٩ حين أبدلت بحكومة القنصلية

وبين البلاد في حرب واضطراب قام فيها شاب غريب الذكاء عجيب الاقتدار كان جندياً بسيطاً لا يعرف الناس عنه شيئاً حتى اذا شرع الانكليز والطليان في محاصرة طولون كان هو حاضراً تلك المعركة وابدى من حسن الرأي والبسالة ما اعاد المدينة الى قبضة الفرنسويين وكان ذلك الشاب نابوليون بونابرت المشهور ولعله اعظم قواد الارض من يوم ذكر للناس حرب وقيادة . ولا حاجة الى سرد تاريخ هذا الرجل العظيم هنا ولكننا نكتفي بالقول ان حكومة الديركتوار اتصل بها ذكاؤه فرقته حتى جعلته قائد جيش حارب المانيا والنمسا وايطاليا وانتصر في كل المعارك انتصاراً باهراً وضم ايطاليا الى مملكة فرانسا وسن لها القوانين والنظامات وطرد جنود النمسا منها ثم عاد الى باريس فتلقاه الشعب بسرور عظيم واحتفلوا به احتفالاً لا مثيل له وارتفع ذكره بين الناس الى حد ان حكومة الديركتوار بدأت تحسب لشهرته حساباً فعرضت عليه قيادة العمارة البحرية لمحاربة انكلترا وغزو شطوطها ولكنه آثر ان يغتصب الهند منها اولاً وطلب جيشاً يسير به الى مصر والشام ليفتحهما ويتقدم الى الهند فجندت له الحكومة ٣٠ الفاً سار بها الى مصر في تلك الحملة المشهورة فانتصر ثم خذل



(نابوليون الاول)



في الشام وتحطم اسطولهُ في ابي قير واضطر الى الرجوع الى فرانسا فلما وصلها قلب الحكومة وجعلها قنصلية يحكمها ثلثة قناصل هو اولهم وحارب النمسا وايطاليا مدة القنصلية فانتصر عليهما ثم رقي الى رتبة امبراطور في سنة ١٨٠٤ فصار اعظم اهل زمانهِ

وقامت اوروبا على بونابرت بعد هذا الارتقاء تحاربها وانتصر في كل جهة حتى انهُ نظم الممالك الجديدة وتصرف بالبلدان فانشأ مملكة باڤاريا في المانيا وجعل صهرهُ مورات ملكاً عليها ونصب اخاهُ يوسف ملكاً على نابولي واسبانيا وعين اخاهُ لويس ملكاً لهولاندا واخاهُ جيروم ملكاً لوستفاليا في المانيا وقسم المانيا تقسيماً حتى اضعفها ولعلهُ نظر بذلك الى صالح فرانسا وخاف على بلادهِ من اتحاد الجرمانيين عليها كما حققت الايام ظنونهُ . وظلَّ ينصب الملوك ويعزل ويولي حتى دانت اوروبا لهُ بعد انتصاراتهِ الباهرة ما خلا انكلترا فانهُ حاول عزلها وعقد المحالفات مع الدول على قطع المخابرات معها فاخلفت روسيا وعدها من هذا القبيل وقام لمحاربتها فدخل بلادها ووصل موسكو ولكن اتساع البلاد ومقاومة الاهالي اضنت قواهُ فعاد من روسيا وقد فشل لاول مرة في حروبهِ فلما وصل فرانسا في سنة ١٨١٢ جند جيشاً جديداً وخرج لمحاربة الدول المتحدة عليهِ وهي روسيا وانكلترا والنمسا وبروسيا فغلب وتقهقر الى باريس ومن ثمَّ دخل ملوك الدول المتحدة عاصمة فرانسا وعزلوا نابوليون وولوا مكانهُ لويس الثامن عشر وهو اخو لويس السادس عشر الذي قتل في الثورة ونفي نابوليون الى جزيرة البا في البحر المتوسط ولكنهُ ما عتم ان رأى جنود الدول راحلة عن باريس حتى عاد اليها في سنة ١٨١٤ وجند جيشاً جديداً قام ليحارب بهِ الدول فكانت آخرتهُ في معركة واترلو التي ذكرناها في تاريخ البلجيك

واخذ بونابارت بعد ان سلم نفسهُ للانكليز اسيراً ونفي الى جزيرة القديسة هيلانة في الاوقيانوس الاتلانتيكي عند شطوط افريقيا الجنوبية حيث توفي في ٥ مايو سنة ١٨٢١ ونقلت عظامهُ بعد ذلك الى باريس باحتفال عظيم

وكان لهذا القائد العظيم زوجة اسمها جوزفين عاشت معهُ الى ان صار امبراطوراً ولم تلد لهُ نسلاً فاضطر الى الاقتران بغيرها ليولد لهُ من يرث الملك العظيم عنهُ ولهذا فانهُ طلق جوزفين على كرهٍ من البابا ورجال الدين واقترن بالارشدوكة ماري لويز ابنة مكسيمليان امبراطور النمسا فرزق منها ولداً واحداً سمي يوم ولادتهِ ملك رومه واوصى لهُ والدهُ بمملكة فرانسا من بعدهِ فعرف باسم نابوليون الثاني ولكنهُ لم يملك بعد ابيهِ ومات مسلولاً في قصر شونبرن من ضواحي ڤينا

واتفقت دول اوروبا بعد نفي نابوليون على اعطاء الملك ثانية للويس الثامن عشر فعاد

وملك الى يوم موتهِ سنة ١٨٢٤ وخلفهُ اخوهُ شارل العاشر وحصلت في ايامهِ ثورة لانهُ اراد ادخال نظامات لم يوافق الشعب على ادخالها فتنازل عن الملك وخلفهُ لويس فيليب من آل اورليان ودامت دولتهُ الى سنة ١٨٤٨ وهي سنة الثورة الفرنساوية الثانية حين سقطت المملكة ونودي بالجمهورية الثانية

وتقدم لرئاسة الجمهورية لويس نابوليون ابن اخي نابوليون الكبير فانتخب رئيساً في سنة ١٨٤٨ ثم نادى الرجل بنفسهِ امبراطوراً سنة ١٨٥٢ ولقب نابوليون الثالث واحسن السياسة حتى صارت فرانسا في ايامهِ الى ارفع مراكز العز والشرف واصبحت باريس مركز سياسة الارض واسم نابوليون عنوان القوة في كل بلاد . وحاربت فرانسا دولة الروس سنة ١٨٥٤ بالاشتراك مع انكلترا والدولة العلية في حرب القرم وكان لها النصر . ثم حاربت الصين مع انكلترا سنة ١٨٦٠ ونالت الفخر والنصر . وسنة ١٨٥٩ حدثت الحرب الايطالية المشهورة وكانت فرانسا معضدة فيها لايطاليا على النمسا ونالت النصر فاستقلت ايطاليا واخذت فرانسا بلاد سافوى ونيس اجرة مساعدتها . وسنة ١٨٦٢ حاربت المكسيك وانتصرت الجنود الفرنساوية فيها ونُصب مكسيمليان اخو امبراطور النمسا الحالي امبراطوراً لها . وما زال السعد مرافقاً لنابوليون الثالث وبلادهُ في عز كبير ومركز منيع الى ان كانت سنة ١٨٧٠ وحدثت الحرب المشهورة مع بروسيا فكسرت فرانسا كسرة هائلة وسقطت الامبراطورية فعادت البلاد الى النظام الجمهوري واسست جمهورية ثالثة كان اول رؤسائها الموسيو تيرس وتلاهُ المرشال مكماهون ثم الموسيو جريفي ثم الموسيو كارنو ثم الموسيو كازمير بريه ثم الموسيو فلكس فور ثم الموسيو لوبيه ثم الموسيو فاليير الرئيس الحالي

ولا حاجة الى الاسهاب في تاريخ فرانسا مدة هؤلاء الرؤساء لان اكثرهُ حديث باقٍ في الاذهان . ولكننا نقول على الجملة ان فرانسا كانت تحاول النهوض من سقطتها على عهد تيرس ومكماهون فما احست بثمرة جهادها الا في ايام جريفي وهو الذي اضطر الى الاستقالة بسبب اعمال صهرهِ التي ساءت جمهور الفرنسويين . وكان خلفهُ كارنو رجلاً عاقلاً تقدمت البلاد في ايامهِ ولكنهُ اغتالهُ احد الفوضويين فخلفهُ كزمير بريه واستقال بعد ارتقائهِ بقليل على اثر ظهور مسألة دريفوس المشهورة . وفي ايام فلكس فور تمت المعاهدة بين فرانسا وروسيا فتعزز مركز الجمهورية كثيراً . وفي ايام لوبيه تصالحت انكلترا وفرانسا واستقرت الجمهورية على شكلها الحالي . واما الموسيو فاليير رئيسها اليوم فانهُ من العقلاء المعتدلين وسياستهُ ترمي الى حفظ السلام والمصالحة مع جميع الامم على السواء

باريس

هي باجماع الآراء اول مدائن الارض زهاء وبهاء ما رأى الناس من يوم قامت للحضارة قائمة نظيراً لها في جمال شوارعها وميادينها ومتاحفها وحاناتها ومتنزهاتها . ويبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة ملايين نسمة وهي مركز التمدن الحالي ومقصد الطلاب والسائحين يؤمونها من كل صوب وحدب فلا تخلو هذه المدينة العظمى من آلاف مؤلفة تجتمع فيها سواء في الصيف او في الشتاء . وهي منبع الازياء ومصدر الكياسة واللباقة وبؤرة اللطف والرشاقة ينقل عنها الناس في كل جهة ما يستجد من شرائط التمدن . وهي في طليعة المدائن العظمى في العلوم والمعارف فيها من المعارض والمتاحف ودور العلوم وقاعات الصناعة ما يعجز القلم عن وصفهِ ولطالما تغنى المادحون بمدحها واجاد الواصفون وافاضوا في تلك المشاهد التي تسحر الناظرين والمناظر التي يحدث وصفها فتنة في عقول السامعين . على ان شهرة باريس وكثرة ما فيها من المحاسن والاحاسن تحملني على القاء دلوي في الدلاء ووصف بعض الشيء مما رأيت فيها فاني زرتها خمس مراتٍ كنت في كل مرة أرى آيات جديدة من الجمال وبدائع الاتقان ويخيل لي ان المدينة في عيد عظيم لانها ابداً في جذل وحبور تضحك سماؤُها وارضها وفي كل جانب منها معدات السرور متوفرة والناس جارون الى هاتيك المتنزهات الفخيمة حتى انهُ ليعسر على الذي يزور باريس وهذه حالها وهذه آيات جمالها ان يبدأ في وصفها لانهُ لا يدري من اين يكون البدء وكيف يجيءُ الختام ولذلك تراني اخترت البدء بهاتيك الشوارع الفسيحة المعروفة عندهم باسم (بولفار) فان هذه الشوارع الباريزية محور الجمال والاتقان ينفق عليها مجلس البلدية المبالغ الطائلة في كل عام

حتى تبقى على حالةٍ تليق بعظمة المدينة وجمالها فترى ابهى ما اكتحلت بمرآه العين الى جانبيك من قصور منيفة لخاصة الناس او هي لحفظ التحف او للفائدة العامة ومخازن جمعت ما تناهى في الحسن وغرابة الصنع من صناعة باريس وسواها رتبت فيها الابضعة على نسقٍ بديع وجواهر تسطع انوارها وتتلألأ من وراء الواح زجاجية نقية وهي في الليل اوفر بهاءً منها في النهار اذ يلقون عليها النور الكهربائي فتزهو فوق زهائها المعهود وبجذب بريقها المحبوب آلافاً من المتفرجين · وفنادق اجهد الصناع قرائحهم في تزيين جهاتها وحانات يضيع الهم من مجرد النظر اليهـا وفوق هذا فان في كل هذه الشوارع اناساً يخطرون بابهى الحلل وسيدات يرفلنَ بنفيس الاطالس وبديع الازياء ولهنَّ في حركات المسير علم عجيب فلو انك زرت باريس ولم تشهد ضواحيها ولم تدخل متاحفها ولم تسمع شيئاً في ملاهيها ولم تدرس غرائبها بل اقتصرت على التجول في هاتيك الشوارع الفيحاء لكفى بها منظراً ترتاح اليهِ النفوس وتشهد بغرابة هذه المدينة التي لم يبنِ الناس الى هذا اليوم نظيراً لها في الجمال

واذا ضمت هذه الشوارع او البولفارات بعضها الى بعض لم يقلّ طولها عن ٤٣٠٠ متر نبدأ منها بوصف بولفار سان مارتن فيهِ عدة مراسح وتياترات وقوس للنصر قديمة أُقيمت تذكاراً لانتصار لويس الرابع عشر ملك فرانسا في سنة ١٦٧٤ على الالمان · ويليهِ بولفار سان دنيس فيهِ باب اشتهر بهذا الاسم ايضاً اقيم تذكاراً للملك لويس الرابع عشر المذكور بعد انتصارهِ على هولاندا في سنة ١٦٨٢ · وبولفار بواسونيير اشهر ما فيهِ مدرسة لتعليم الموسيقى وفنونها تعطى فيها المكافآت للذين ينالون احسن شهاداتها ويقصدها الطلاب من كل صقع بعيد · وبولفار مونمارتر فيهِ معرض يعرف باسم صاحبهِ جرفلين قلَّ ان يجيء باريس سائح ولا يراهُ لان

فيهِ اشكال مشاهير الارض الحاليين كلهم وبعض المشاهير المتوفين صنعت بالشمع والجبس واتقن صنعها الى حد ان الغريب قد لا يميز الرجل الحي فيها من تمثالهِ وهم يضيفون الى هذا المعرض تماثيل بعض المشهورين والمشهورات في كل عام . وقد صنعوا بعض الاجسام قاعدة ووضعوها على اوضاع مختلفة والى جانبها مقاعد خالية يجلس اليها المتفرجون فاذا كنت دائراً تتفرج على تلك المناظر البهية لم يبعد عليك ان تصل الى شخص حي ساكن تظنهُ تمثالاً حتى اذا قربت منهُ وتحرك اضطربت وخجلت كما يحدث للكثيرين

ويستمرُّ هذا الشارع عَلَى خط واحد حتى يبدأ (بولڤار الطليان) وهو بلا خلاف اجمل شوارع باريس واكثرها زخرفاً واحسنها موقعاً وابعدها شهرة فيهِ من الحوانيت والمنازل البديعة ما يقصر الشاعر عن وصفهِ وفيهِ بنك الكريدي ليونه المشهور وهو بناء فخيم جمع ما بين المتانة والجمال وفي داخلهِ قاعات فسيحة لراحة القادمين اليهِ وغرف أُخرى للكتابة فيها المنضدات والاقلام وبقية لوازم الكتابة فاذا جاء المسافر يريد قبض مالٍ من هذا المصرف العظيم جلس الى احدى تلك المناضد ووقع على الورقة بيدهِ علامة وصول المال اليهِ فيأْخذ الورقة منهُ كاتب ويعودُ اليهِ بالمال المطلوب وهو لا يتكلف عناء الوقوف والانتظار .

وينتهي هذا الشارع في ميدان الاوبرا الكبرى وسوف نعود الى ذكرها ومن بعد ذلك الميدان يستمر الشارع المذكور عَلَى خط واحد ويتغير اسمهُ فيصير شارع (الكبوسين) وهو ايضاً من آيات الجمال في باريس الحسناء يبتدئ من ميدان الاوبرا التي ذكرناها والغران اوتل او الفندق الكبير ولهذا الفندق شهرة ذائعة في اوروبا كلها لانهُ في احسن مواقع باريس ولهُ سعة زائدة اذ يشغل جزءًا كبيراً من الارض وتحيط بهِ الشوارع المعروفة من كل جانب وهو كعبة القادمين الى

باريس . وليس هذا الفندق قاصراً على المسافرين الذين يبيتون فيهِ بل ان الذين يقصدون حانتهُ (القهوة) ومطعمهُ من اهل باريس ونزلائها كثيرون غير المقيمين فيهِ لانهم يقرأون هناك معظم صحف اوروبا المشهورة ويجدون في داخل الفندق مكتباً للبريد ومكتباً للبرق وموضعاً للعلم باسعار البورصة والمسائل المالية وفيهِ نادٍ لاهل السياسة ولذلك اشتهر هذا الفندق شهرتهُ الحالية

ومن هذا القبيل بولفار (لا مادلين) نسبة الى كنيسة المجدلية في آخرهِ وهي من اشهر كنائس فرانسا بدأُوا في بنائها على عهد لويس الخامس عشر سنة ١٧٦٤ ولم يتم ثم شرع نابوليون الاول في اتمامها متبعاً في ذلك الرسم الاصلي اي ان تكون واجهاتها الاربع ذات عمد باسقة على الشكل اليوناني القديم فتم بناؤُها سنة ١٨٤٢ ومنظرها جميل يسرُّ جميع الناظرين وعدد العمد المثلة في جوانبها الاربع مئة عمود . وهي الآن مشهورة بجوق ينشد فيها الالحان الدينية المؤَثرة وفيها تقام الاحتفالات الكبرى في ايام الاعياد ويعقد الزواج لاكثر اصحاب الشهرة . وبولفار مادلين هذا يتصل بالشارع الملوكي (رويال) اذا سار المرء الى آخرهِ لقي وزارة البحر الفرنسية وقد رفع فوقها علم الجمهورية وذكر ما أصاب الابنية العظيمة في هذا الموضع دون سواهُ من ثورة الكومون بعد حرب فرانسا وبروسيا الاخيرة فان هؤُلاء العتاة جمعوا قواهم في الشارع المذكور وجاؤُا بالمضخات والآلات المعدة لاطفاء الحرائق فملأُوها زيتاً وجعلوا يرشون تلك الاماكن بها ثم اضرموا النار فيها ففعلت فعلها الفتاك وقتلت كثيرين غير الخسائر الفادحة التي انتجتها من تدمير المعالم القديمة والابنية الفخيمة . وهذا آخر الشوارع من نوعهِ وهو يتصل في آخرهِ باشهر مواضع باريس واجملها نريد بهِ ساحة الكونكورد المشهورة . وساحة الكونكورد هذه ميدان لانظير لهُ في

الارض كلها ولا خلاف في ان البشر لم يصنعوا الى الآن ساحة عظمى يرى الناظر في وسطها والى جميع جوانبها ابهى المناظر وافخمها مثل التي نحن في شأنها وفي وسطها بحيرات بالغة الاتقان يتدفق الماء من انابيب فيها صنعت على اشكال بديعة ومن حولها نُصُب اقيمت لمدائن فرانسا المشهورة مثل مرسيليا وبوردو وليون وغيرها وبين هذه النصب تمثال مدينة ستراسبورغ التي اغتصبها الالمان بعد حرب ١٨٧٠ وفوقهُ اكليل اسود دليل الحداد على فقد ولاية الالزاس . وفي وسط الساحة المسلة المصرية التي اهداها المغفور لهُ محمد علي باشا الى لويس فيليب ملك فرانسا ونقلت الى باريس سنة ١٨٣٦ وهي قائمة على قاعدة بديعة الصنع مذهبة جوانبها ومن حولها الارصفة الفسيحة والممرات الواسعة يخطر فيها المتنزهون والمتفرجون . واذا وقف المتفرج في هذه الساحة رأى بعضاً من افخم مناظر باريس من ذلك نهر السين ووراوهُ مجلس النواب في الجهة الجنوبية والى الغرب متنزه الشان اليزه المشهور وسيأتي ذكرهُ والى الشرق حديقة التولري والى الشمال مخازن وابنية كثيرة تتصل بحديقة الاليزه وهو قصر رئيس الجمهورية

وساحة الكونكورد هذه قديمة العهد اشتهرت من قبل ايام الثورة الفرنساوية المشهورة ولكنها شهدت في ايام تلك الثورة العظيمة ما لم تشهدهُ الساحات والميادين من الاهوال التي تشيب الاطفال فان رجال الثورة جعلوها مقر فظائعهم ومظالمهم فأقاموا فيها المشنقة (الجليوتين) وضربوا الرقاب في وسطها مئات والوفاً حتى ان عدد الذين قطعت اعناقهم في ساحة الكونكورد مدة سنتين من سنة ١٧٩٣ الى ١٧٩٥ لم يقلوا عن ٢٨٠٠ شخص من عظماء فرانسا منهم الملك لويس السادس عشر وزوجتهُ ماري انتوانت واختهُ اليصابات واخوهُ الدوك دورليان وابن عمهِ فيليب والد الملك لويس فيليب ومنهم زعماء حزب الملوك وبعض الامراء ورؤساء

الحزب الديني ومنهم ايضاً بعض زعماء الثورة واعوانهم مثل دانتون وروبسبير .
هؤلاء كلهم قتلوا في ساحة الكونكورد التي صبغت جوانبها بدماء المقتولين في
مدة الثورة وصار ذكرها يرجف الابدان ويهول الرجال فسبحان الذي يشقي
ويسعد كيف تغير حال هذه البقعة بتغير الاحوال وموت الرجال واضحت الآن
مقر الانس ومركز البهاء والعز بعد كل ذلك الهول

ويتصل بهذه الساحة العظيمة متنزه الشان اليزه والحق يقال انهُ وما يليهِ
الى جميع الجوانب زهرة ما في مدينة باريس ونخبة مناظر المدائن المشهورة .
والشان اليزه هذا عبارة عن طرق كثيرة ما بين غابات صغرى من الاشجار
وصفوف منها بديعة الشكل في وسطها طريق عظيم كثير الاتساع تسير فيهِ العربات
كل يوم مئات والوفاً وفيهِ المطاعم والقهاوي والمقاعد ومواضع النزهة ومواقع
الطرب وبعض فنادقهِ فخيمة جداً غالية اثمانها لا يأتيها غير الامراء والكبراء ولمجموع
ذلك المتنزه بهاء عجيب فهو مقصد المتنزهين في باريس اذا سار اليهِ المرء بعد الظهر
من اي يوم اراد ولا سيما من يوم الاحد رأى من اشكال الناس وازيائهم
وجماعاتهم ما تطرب لهُ النفس وتحسب ان السعادة كلها حصرت في ذلك المتنزه
العظيم فانك كيفما سرت فيهِ رأيت شيئاً يروق لك حتى ان وصف المكان يعسر
عَلَى الكاتبين وليس يفيد فيهِ غير الخبر والعيان . وفي آخر هذا المتنزه الفسيح قنطرة
كبرى شاهقة البنيان عظيمة الاركان هي قوس نصرٍ شرع نابوليون الاول في بنائها
تذكاراً لانتصارهِ على جيوش اوروبا واتمها من بعدهِ لويس فيليب وفيها رسوم
المعارك العظيمة التي احرزت فيها الجنود الفرنسية نصراً على الاعداء عَلَى جدرانها
الاربعة هي اكبر قوس للنصر في الارض كلها لها اربعة ابواب متقابلة وتعرف
هذه القنطرة باسم قنطرة الكوكب وفي ذلك مطابقة وتشبيه بديع لان الكوكب

تشعُّ منهُ الانوار في كل جانب وقنطرة النصر هذه تمتدُّ منها الطرق وتتفرع الدروب في كل جانب واهمها عشرة تعرف باسماء كارنو وماكماهون وهوش واينا وفردلند وكلبر وهوجو ودارمه واليزه و بولون و كلها من اجمل الطرق وانظفها توصلك الى داخل المدينة وخارجها وقد زينت كلها بالاشجار والازهار والقصور الباذخة والمصايف اللطيفة ومن اهمها الشارع الذي يوصل الى غابات بولون وهي مجموع دروب عريضة وحراج غضة في ارض اريضة طارت شهرتها في الآفاق الى حد انها صارت مجتمع اهل الترف والبزة ومثابة جماعة الحظ واليسار يأتونها من سحيق الاقطار ليمتعوا بمحاسنها الطرف ويشهدوا بانها جذابة للنفوس ساحرة للانظار فيجتمع فيها كل يوم من اهل المدينة ونزلائها عدد عديد يزري بعضهم ببعض في تعدد الازياء وفي غرابة الجمال وحسن الرواء يسيرون اكثرهم في عربات نظيفة والازاهر من هنا والرياحين من هنا والشجر الباسق الانيق الى كل جانب وماء البحيرات الصناعية يتدفق من انابيبها و يزري بالزلال في نقائهِ فكأنما السائر هنالك في ارضٍ مسحورة جمعت فيها المحاسن بعضها الى بعض وليس فيها غير كل شهي بهي ولا عجب بعد هذا الحسن الوفير اذا توافد الناس على هذا المتنزه بخيلهم ورجلهم الى حد ان المسير يتعذر عليهم في ايام الآحاد فتضطر صفوف العربات ان تسير الهوينا وليس يسوء ذلك قوماً اذا وقفوا في غابات بولونيا متعوا الطرف بازهى المناظر الشهية

وقد بلغت مساحة هذه الحراج الفيحاء ٨٧٣ هكتاراً من الارض خططت بها الطرق المنسقة ومن ورائها حقول ومتنزهات اخرى تعرف باسم لونشان وحديقة (اكلمتاسيون) مساحتها نحو ٢٠ هكتاراً وهي تعد قسماً من الغابة وفي داخلها معرض للحيوانات البرية والطيور والزحافات واشكال المخلوقات الحية جمعت من اطراف الارض وبينها كل منظر غريب وفي جملتها سباع وضوارٍ اخرى ربيت

وعلمت طرائق كثيرة فكان المربي يضع يدهُ في فمها ورأسهُ على رأسها وهي مطيعة لامرهِ لا تكشر عن ناب ولا تتعمد الاذى . وجملة القول ان هذه الجهة من باريس هي نقطة الجمال فيها واكبر متنزهاتها لم ارَ الى الآن بين ضواحي المدن الكبيرة ما يقرب منها في فرط الجمال وغرابة الوضع وحسن الانتظام

وقد زرت بين المشاهد العظيمة في مدينة باريس الزاهرة قصر آل بور بون الذي مرَّ ذكرهُ وهو مجلس نواب الامة الفرنسية الآن تلقى فيهِ الخطب السياسية العظيمة التي يرنُّ ذكرها في الآفاق وتدار هنالك حركة السياسة للجمهورية الفرنسية . ولهذا القصر الفخيم منظر غاية في الجمال فانهُ بني على ضفة السين وامامهُ ساحة الكونكورد البديعة التي تقدم وصفها وقد انفق عليهِ آل بور بون الوفاً مؤلفة حتى ان البرنس كونده وحدهُ من امراء تلك العائلة انفق علَى زخرف هذا القصر عشرين مليون فرنك . دخلنا هذا القصر العظيم ومعنا واحد من عمالهِ واجباتهُ تنحصر في مقابلة الزائرين ومرافقة المتفرجين ورأينا قاعة الاجتماع وهي قائمة على عشرين عموداً فيها التماثيل المتقنة الصنع تمثل القوة والحرية والامن ومنصة الرئيس ويليها منصة اخرى يقف عليها الاعضاء حين يقومون للخطابة ومقاعد للاعضاء لكلٍ منهم مقعد خاص بهِ ومنضدة صغيرة توضع فوقها المذكرات واماكن خصت بالزائرين و باصحاب الجرائد و بالسفراء وغير هذا مما يراهُ المسافر في كل مجلس لنواب الممالك المنظمة . واكثر اصحاب الذوق والعلم الذين يزورون باريس يحضرون جلسة او اكثر من جلسات هذا المجلس العظيم بدعوة او اذن من احد الاعضاء حيث يتدفق سيل الفصاحة من فم الفطاحل في السياسة وارباب الخطابة وقادة الافكار . وعلى مقربة من هذا المجلس منزل انيق لرئيسهِ ودار رحيبة فيها الآن وزارة الخارجية وكلها تطل على شارع عظيم يعرف باسم الانفاليد وهو اسم

قصر عظيم الشهرة في باريس انشأهُ لويس الرابع عشر ملك فرنسا للعجزة والمقعدين من جنوده وجعلهُ واسع الجوانب يضم خمسة آلاف من هولاء العاجزين وفيهِ الآن معرض كبير القدر والقيمة للسلاح على اشكالهِ من قديم وحديث. ولا سيما الذي استعمل منهُ في الحروب الفرنسية. والذي غنمتهُ جنود فرانسا في حروبها العديدة من المدافع والسيوف وغير هذا كثير. وفيهِ من هذا القبيل ايضاً ١٥٠٠ راية غنمتها جنود فرانسا في معارك نابوليون الاول وهي كلها محفوظة في ذلك القصر الفخيم وسلسلة من الحديد متينة طولها ١٨٠ متراً استعملها العثمانيون في نهر الدانوب عند حصار ڤينا في سنة ١٦٨٣. وهنالك خزانات تحوي من اشكال الملابس القديمة لملوك فرانسا وفرسانها واسلحة ابطالها ما يملأ وصفهُ المجلدات. واهم ما في دار العجزة هذه عظام نابوليون الاول بطل فرانسا المشهور واكبر قواد الارض طرًّا في العصور الحديثة نقلت من جزيرة القديسة هيلانه حيث توفي هذا الرجل الكبير وبنيت فوقها قبة عالية مذهبة جوانبها ترى من عدة اماكن في باريس وعليها بلاطة حمراء كتبت فيها اشهر وقائع هذا البطل والناس يقصدون سراي الانڤاليد من كل صوب لرؤية قبر نابوليون قلَّ ان يأتي باريس فرد من الناس ولا يرى هذا الاثر العظيم وهو منظر يشعر الواقف امامهُ بعظمة الاثر الموجود فيهِ ويذكر عبر الدهر وغيَر الزمان

ومن ذلك القصر سرت الى (شان ده مارس) وهو متسع من الارض اشتهر في الاعوام الاخيرة لان المعارض العمومية أُقيمت فيهِ ومعظم استعراضات الحامية الباريزية تتم في بعض جوانبهِ. هنالك كان نابوليون الاول يستعرض جنودهُ حتى انهم اطلقوا عليهِ الى حين اسم ميدان نابوليون ولما صار لويس فيليب ملكاً لفرنسا بعد سقوط نابوليون حلف يمين الامانة للدستور هو والوزراء وقواد الجيش

والاساطيل ونواب الامة في ذلك الميدان ايضاً فجروا بذلك على خطة قدماء الفرنسيس الذين كانوا يجتمعون من بعد ايام كلوفيس في هذا الموضع لسن الشرائع وتقرير الامور العظيمة . وقد حدث في الشان ده مارس كثير غير هذا من الحوادث التاريخية يضيق المقام عن سردها

ولما كانت المعارض قد أُقيمت في شان ده مارس هذا كما تقدم فان اثر المعرض الاخير باقٍ فيهِ الى الآن واجل ما يذكر من هذه الآثار برج ايفل المشهور الذي يعدُّ الآن من غرائب الصناعة واجمل آثار التمدن الحالي بني سنة ١٨٨٨ و ١٨٨٩ للمعرض العام كما علمت برأي مهندس مشهور اسمهُ جورج ايفل نال من حكومة بلادهِ وسام اللجيون دونور حين نجز العمل ونصب علم فرانسا على قمة هذا البرج الشاهق وقد جعلوا علوهُ ٣٠٠ متر او الف قدم وهو اعلى بناء في الارض يليهِ في العلو كنيسة كولون وهي لا تزيد عن ١٥٩ متراً والهرم الكبير وعلوهُ الآن ١٤٦ متراً واكثرهُ من الحديد فاذا وزن حديدهُ لم يقل ثقلهُ عن ٧ ملايين كيلو وفيهِ ٢٥ مليوناً من المسامير وهو يشغل من الارض عند قاعدتهِ ١٦٧٠٠ متر مربع وقد جعل ثلاث طبقات يصعد اليها بدرج كثير او بالآلة الرافعة وهي المعول عليها عند الاكثرين يمكن ان ينقل بواسطتها الى الطبقة الاولى ٢٣٥٠ شخصاً في الساعة ومثلها للطبقة الثانية و ٧٥٠ للطبقة الثالثة ويمكن لعشرة آلاف نفس ان تجتمع في جوانب هذا البرج في آنٍ واحد . ويستغرق الصعود والنزول بهذه الآلة ٧ دقائق ما بين اسفل البرج واعلاهُ وفي رأسهِ نور كهربائي يظهر على بعد شاسع من جميع الجوانب والرجل اذا وقف في الطبقة العليا منهُ رأى باريس وضواحيها تحت يدهِ ولها منظر يسحر العقول . والبرج مبني على شكلٍ هرمي بمعنى انهُ كثير الاتساع عند قاعدتهِ ضيق عند رأسهِ وفي كل طبقة من طبقاتهِ غرف وقاعات واسعة للمطاعم

والقهاوي التي يعد القعود فيها من اجمل انواع النزهة . وهنالك ايضاً محل للبريد ومخازن صغيرة تباع فيها الاشياء الجميلة تذكاراً لزيارة البرج وقد كانت جريدة الفيغارو المشهورة تطبع بعض اعدادها في الدور الاول من هذا البرج في سنة المعرض وهو بوجه الاجمال من اجمل ما جادت بهِ قرائح المهندسين لا ريب انهُ اكثر مشاهد هذا الزمان غرابة وقد اقامتهُ شركة نالت بهِ امتيازاً لمدة ٢١ سنة فجمعت نفقاتهِ مدة المعرض وكل ايرادهِ في المدة الباقية ربح لها خالص فان عدد الذين صعدوا الطبقة الاولى منهُ في تلك المدة ١٩٦٨٢٨٧ والثانية ١٢٨٣٢٣٠ والثالثة ٥٧٩٣٨٤ فمجموع ذلك اكثر من اربعة ملايين شخص في مدة ستة اشهر وفي هذا من الاقبال العظيم ما لا يخفى

وتجاه برج ايفل قصر بديع هو قصر تروكاديرو سمي باسم قلعة في مدينة قادس ببلاد اسبانيا ملكها الفرنسيون سنة ١٨٢٣ وقد بُني هذا القصر لمعرض ١٨٧٨ على شكلٍ يقرب من المستدير ونسقٍ شرقي فيهِ قاعة فسيحة يمكن ان يجتمع فيها ستة آلاف نفس ولها قبة قطرها ٥٨ متراً ومتحف عظيم القيمة للحفر والنقش جمعوا فيهِ من ابواب الكنائس والجوامع ومن امثلة الحجارة المنقوشة ما يعسر عدهُ وقد نقلوا رسم اكثر النقوش المشهورة بالجص ووضعوا شكلها في هذا المتحف حتى ان زيارتهُ تعد عند اهل النظر من اهم ما يجب على الزائر فعلهُ في باريس . الى هنا ينتهي بنا الكلام عن مشاهد باريس التي ترى في الطريق الذي اتبعناهُ ولا يضيع معها الوقت وقد اختصرنا في ذكرها كل الاختصار نظراً الى شهرتها الذائعة وعدم افتقار الاكثرين الى الايضاح عنها وعلى ذلك فنحن نتقدم الآن الى وصف المشاهد الاخرى الكائنة في داخل المدينة

واحسن ما يكون للمتفرج على مشاهد باريس التي لم نذكرها بعد ان يبدأ من

ميدان الاوبرا الكبرى لانها واقعة في مركز القسم الاهم من المدينة وهي بناء فخيم عظيم اتفق الواصفون على انهُ احسن بناء للتمثيل والموسيقى في الارض كلها وانهُ لو عدّت الابنية التي تؤثر في نفس الناظر اليها من خارجها وداخلها فوق تأثير الابنية الاخرى لقال هي ثلثة الاوبرا في باريس والكنيسة المشهورة في ميلان وقصر المحاكم في بروكسل . وقد بنيت هذه الاوبرا الباريزية في وسط الشوارع الكبرى وملتقى الدروب الشهيرة فهي نقطتها ومركز بهائها وعظمتها بدأوا بها سنة ١٨٦٧ فتمّ البناء سنة ١٨٧٤ ولا حاجة الى القول ان كل الذي يمثل بها من نوع الاوبرا المعروف وهم ينتقون لها اكبر الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات ولها من الحكومة الفرنسية اعانة من المال سنوية فهي تحت مراقبة الحكومة الى حدّ معلوم . ويعسر على القلم ان يصف جمال هذا البناء العظيم وآيات حسنهِ الغريبة ولكن الذي يعلو عن غيرهِ فيها قدراً وقيمة قاعتها الوسطى حيث يتم التمثيل وهي كلها اعمدة مذهبة ونقوش دقيقة ومقاعد فاخرة وسقوف تلمع وجدران تسطع واشياء بلغت الغاية القصوى من الاتقان والجمال في كل موضع يصعد اليها الصاعدون على سلم غريب الوضع صنعت درجاتهُ من المرمر الابيض وفوقها سياج بديع من الرخام الاحمر وجدران من الرخام الاسود والاخضر والازرق فاذا ما صعد الداخل هذه الذرى رأى من كل جانب اناساً يصعدون وينزلون في الفروع الباقية من هذا السلم العجيب حتى انهُ ليظن نفسهُ في بلاد الجن لا يدري لها جانباً من جانب ويزيدهُ ذهولاً فخامة ذلك الموضع المذهب رخامهُ الساطع زجاجهُ وفيهِ نخبة الرجال والنساء بافخر الحلل وانفس الملابس واثمن الجواهر ترى في النور الكهربائي فوق ذلك السلم البديع على شكل من الجمال يفتن القلوب فيتمنى المرء لو تقضى ايامهُ في مثل ذلك الموضع العجيب . والناس يخرجون من قاعة التمثيل بين الفصل والفصل للتمشي

في رواق ما وصف مثلهُ الواصفون كلهُ رخام صقيل وبلور نضيد وذهب وضاح واطلس نفيس ونقوش بلغت حد الاعجاز في عرف اهل الصناعة وهو طويل متسع المجال تتفتل فيهِ القدود في تلك الفترات وتتورد الخدود وتكثر النظرات وتتهادى ربات الدلال بعجيب الازياء وبينهنَّ الآيات البينات فينسى المرء في ذلك الرواق ماضي الحادثات ويقول سلام لباريس وما فيها من عجائب الكائنات

فاذا ما انتهى الزائر من التمتع بنعمة النظر الى هذه الاوبرا داخلها وخارجها فما عليهِ الاَّ السير في طريق فخيم تجاهها يعرف باسمها (افنوده لوبرا) وهو من اهم شوارع باريس فيهِ من المخازن العظيمة والابنية الجميلة عدد كبير وفي آخرهِ القصر الملوكي بناهُ الكاردينال ريشيليو الذي ورد ذكرهُ في الخلاصة التاريخية في سنة ١٦٣٦ واهداهُ الى الملك لويس الثالث عشر وكان الملك فيليب يقضي اكثر ايامهِ فيهِ بالاسراف والتبذير حتى انهُ لما كثرت حاجتهُ الى المال بنى في القسم الارضي من هذا القصر مخازن ودكاكين اجرها للتجار حتى يستفيد من اجرتها ولم تزل هذه المخازن في جانب من القصر الملوكي الى الآن وهي او اكثرها لباعة الحلى والجواهر. وقد كان من امر هذه الدكاكين ان الرجل كاميل دي مولين الذي جهر بالعصيان ونادى بالثورة العظيمة قبل غيرهِ كان من اصحابها اشتد بهِ العوز وهو يرى من فوقهِ اسراف الملك وذويهِ فتبعهُ جماهير الناس الى الباستيل وهي قلعة قديمة كان اصحاب الذنوب السياسية يسجنون فيها بلا محاكمة واستولوا عليها بعد جهاد عنيف وكان ذلك يوم ١٤ يوليو من سنة ١٧٨٩ فعدَّ ذلك النهار بدء سقوط الاستبداد وقيام الحرية وهو عيد الجمهورية الفرنسية الى هذا اليوم وعبث اهل الثورة بجزء من هذا القصر الملوكي في ايام ثورتهم ثم رد الى حالهِ على عهد نابوليون الاول وفي ايام لويس فيليب عادت اليهِ ابهة الملك لان الرجل جعلهُ مقرهُ مثل من تقدمهُ من آل بوربون ولما

ثار الفرنسيس ثورتهم الثانية في سنة ١٨٤٨ دخلوا هذا القصر مرة أُخرى ودمروا بعضهُ ثم أُعيد الى حالهِ واقام فيهِ البرنس نابوليون ابن عم نابوليون الثالث امبراطور فرانسا حتى اذا عاد الناس الى الثورة بعد حرب ١٨٧٠ دخل جماعة الكومون الثائرين هذا القصر واحرقوا منهُ جانباً كبيراً ومن ذلك الحين قلَّت اهميتهُ

واذا سار المرء من هذا القصر توًّا الى ناحية النهر وصل شارعاً كبيراً من اهم شوارع باريس هو شارع ريڤولي اطلق عليهِ هذا الاسم تذكاراً لمعركة ريڤولي التي سحق فيها نابوليون الاول قوات النمسا في سنة ١٧٩٧ بدأُوا بناءَهُ سنة ١٨٠٢ على عهد نابوليون فما تمَّ الَّا في سنة ١٨٦٥ على عهد ابن اخيهِ الذي صار امبراطوراً باسم نابوليون الثالث وطولهُ الآن ثلثة آلاف متر كلهُ قناطر بديعة الصنع من احد الجانبين وتحت القناطر طريق عريض للمارة ومخازن متنوعة الاشكال ومكاتب لاصحاب الاعمال الخطيرة والى الجانب الآخر حدائق التولري وغير هذا من مشاهد باريس المعروفة . وهنالك وزارة المالية وهي بناء واسع الجوانب كثير الاقسام ومخازن اللوڤر المشهورة يعرف اسمها كل من اشترى بضاعة فرنسية وفيها جميع ما تطلبهُ النفس حتى ان عدد الموظفين من عمال هذه المخازن لقبض الاثمان من المشترين ثلثون رجلاً ومن هذا يتضح اهمية هذه المخازن وجسامتها للقارئ الكريم

ويقرب من هذه المناظر متحف اللوڤر المشهور يلزم لوصفهِ كتب ومجلدات ضخمة ولا يمكن رؤْية كل ما فيهِ الَّا بقضاء زمن طويل لان البناء واسع عظيم يضيع الخبير في جوانبهِ ولهُ طبقات ثلث في كلٍّ منها ما يحير العقل من انواع التحف والآثار والنقوش والرسوم ولو اردتَ استقصاء النظر البسيط في بعض ما تقع عينك عليهِ لزم لك على الاقل اسبوعان . ولطالما احسَّ المتفرجون على

هاتيك الرسوم البديعة بتعب في اعناقهم من كثرة التطلع الى المشاهد التي لاعد لها في هذا المتحف ولا يمكن لنا الكلام عنهُ هنا الأَ بمثل هذا الاجمال لان الاسهاب يملأ كتباً برمتها ولكننا نكتفي بالقول ان هذا القصر العظيم كان في اولهِ مسكناً لملوك فرانسا بدأُوا في بنائهِ سنة ١٥٤١ ووسعوهُ جيلاً بعد جيل وكان آخر ملك زادهُ حسناً الامبراطور نابوليون الثالث فانهُ وصلهُ بقصر التولري الذي اعدهُ لسكنهِ حتى بلغت مساحة القصرين في عهدهِ ١٩٥٠٠٠ متر مربع . وخرب جزء من التولري في ثورة الكومون بعد انكسار الامبراطور في الحرب فلم تهتم الحكومة الجمهورية لاصلاح القصر ولكنها ابقت بعض محاسنهِ اثراً جليلاً واهتمت للحديقة فجعلتها من متنزهات باريس المشهورة تنتابها العائلات في وقت الفراغ ويضرب المثل بما فيها من الحسن والاتقان . وهي تمتد من عند القصر المذكور فشارع رفولي حتى ساحة الاتحاد ولمنظر ازهارها وبركها تأثير في النفس شديد قلما يرى السائح نظيراً لها في قلب العواصم الكبرى ولكن في الباريزيين من لم يدخلها لان المدينة ملأى بالملاهي ومجلبات السرور

والقسم الاسفل من متحف اللوفر اكثرهُ للآثار القديمة وفيهِ القسم الشرقي بكل غرائبهِ وهو اقسام منها ما هو للآثار المصرية ومنها بعض للآثار الرومية او الرومانية او الفارسية او الاشورية او غيرها من الممالك القديمة يصل المتفرج من بعضها الى بعض بطرق متعرجة تدلهُ اليها كتابات رقمت فوقها . وهنالك التماثيل البديعة من صنع القدماء اجملها تماثيل آلهة اليونان من مثل منرف إلهة الجمال عندهم وهو اجمل ما وجد الى الان من رسم هذه الالهة وجد في جزيرة ميلو الرومية واشترتهُ حكومة فرانسا بستة آلاف فرنك من احد الفلاحين . وفي هذا القسم ما يمثل تاريخ الرومانيين برسوم مشاهيرهم ومواقعهم ويعيد الى الذهن ذكر

قوة الاشوريين وعظمة المصريين قبل ايامنا بآلاف من السنين بما يرى المتفرج من تماثيل ملوكهم وتحف صناعاتهم وجميل نقوشهم وثمين كتاباتهم على الحجر واجسام كبرائهم المحنطة وغير هذا شيء يدركهُ كل من دخل متحفاً للآثار القديمة . ولا يقاس بهِ متحف الجيزة المصري لانهُ قاصر على الآثار المصرية واما اللوفر وما كان على شكلهِ من متاحف اوروبا فان آثارهُ تشمل جميع الممالك المعروفة قديماً وحديثاً

وفي الدور الاعلى قسم الرسوم البديعة وهي تزيد عن ثلثة آلاف رسم بعضها تقدَّر قيمتهُ بعشرين الف جنيه او ما يزيد عن هذا الثمن . وفي متحف اللوفر هذا صور شتى لمهرة المصورين الفرنسويين وغيرهم بينها كثير لروفائيل المشهور ومنها صور للمصور ميسونيه الفرنسوي الذي توفي من عهد قريب ثمن الصورة الواحدة منها عشرة آلاف جنيه او اكثر ومن هذا يعلم مقدار ما في هذا المتحف من النفائس التي تقدر قيمتها بالملايين . من هذه الرسوم صورة يوم القيامة وصورة ابنة فرعون تنشل موسى من ضفة النيل وصورة كليوباترا ملكة مصر المشهورة وصور دينية تمثل حوادث الانجيل والتوراة او ترسم خيالات المصورين على اشكال فائقة الجمال شديدة التأثير . هذا غير صور المعارك والحوادث التاريخية في البر والبحر وهي كثيرة العدد وافرة الاتقان . وهنالك رواق عظيم القدر والقيمة اسمهُ رواق ابولون وضعت فيهِ نفائس التحف وغوالي الجواهر التي جمعها ملوك فرانسا القدماء واستولت عليها الحكومة الجمهورية بعد سقوطهم فباعت مقداراً كبيراً منها في سنة ١٨٨٧ وابقت هذا البعض في متحف اللوفر اثراً من الآثار التاريخية الجميلة وبينها حجارة ثمينة وحلى باهرة وسيف لنابوليون الاول مرصع بحجارة من الالماس لا يقل ثمنها عن مليوني فرنك وغير هذا شيء كثير

وليس يبعد كثيراً عن اللوفر ساحة فاندوم فيها عمود بهذا الاسم والاسم بالاصل

خص بالبرنس ڤاندوم ابن الملك هنري الرابع بنى فيهِ هذا الملك قصراً لابنهِ المذكور وفي محل القصر اليوم فنادق عظيمة وقد نصب فيهِ نابوليون الاول العمود المذكور وارتفاعهُ ٤٣ متراً على قواعد من النحاس والبرونز اصلها ١٢٠٠ مدفع غنمها نابوليون في حروبهِ العديدة وكتب على جوانب العمود وقاعدتهِ تاريخ بعض المعارك ورسومها

ولا بدَّ للزائر في باريس من مشاهدة حديقة النبات العظيمة وهي للنبات والحيوان معاً فيها من غرائب التاريخ الطبيعي لهذه الموجودات الحية ما تزيد لذة التفرج عليهِ عن كل لذة لان هذه النباتات والحيوانات والطيور والزحافات والاشكال الحية الاخرى جمعت في تلك الحديقة من جميع جهات الارض وانفق على جمعها المال الكثير وفيها بناءٌ لتعليم التاريخ الطبيعي يضم ٢٠٠ شخص يتلقون الدروس وهي تشغل من الارض ثلثين هكتاراً ولها شهرة ذائعة في كل اوروبا

ومن هذه الغرائب ايضاً معمل جوبلين للطنافس النفيسة وهو ملك للحكومة الفرنسية يعمل بهِ مهرة الصناع الذين تلقوا عن آبائهم سر الصناعة بالارث ولا يعرفهُ سواهم ويخرج من ذلك المعمل طنافس وبسط كثيرة الجمال عجيبة الصنع يباع البساط منها بخمسين الف فرنك وستين وماية الف واكثر ما يصنع هنالك يشتريهِ الاغنياء او تبتاعهُ الحكومات ويهدى الى الملوك والامراء والمتاحف العظيمة . ومن اجمل الطنافس التي رأيتها من صنع هذا المحل واحد رسمت عليهِ صورة كارنو رئيس الجمهورية الاسبق وقد وضع في البانتيون . والبانتيون هذا كنيسة قديمة لها قبة عالية ترى من انحاء كثيرة في باريس ولها ٢٢ عموداً فخماً تحيط بخارجها وقد خصت في هذه الايام الاخيرة بمدافن القواد والعظماء لا بدَّ لكل من يزور باريس ان يقصدها ويتفرج على آثار الذين شادوا للدولة الفرنسية فيها آثار العز والفخر واكثرهم من قواد الجمهورية الحالية والجمهورية الاولى رأينا بينهم اسم كارنو

الاول وكارنو الثاني الذي ذكرناهُ ومكماهون وروسو وفولتير والفتاة جان دارك وغير هؤُلاء من اركان الدولة الفرنسوية في كل زمان

ثم انك اذا عدت الى ميدان الاوبرا الذي جعلناهُ مركزاً عاماً للتفرج وسرت الى ناحية الشمال الغربي في شارع ٤ سبتمبر وصلت موضعاً كثير الشهرة في باريس هو البورصة او نقطة الحركة المالية في هذه العاصمة ومحل الاتصال بمتاجر الارض ومصارفها واموالها حيث يجسُّ الماليون نبض الممالك وتجري الالاعيب المالية الكبرى التي تقود الوزراء الى انتهاج النهج الموافق لاصحاب المال فصار المال الآن عقدة السياسات الاوروبية والماليون هم اصحاب الحل والعقد في اكثر الامور الخطيرة . ولا يعجبنَّ القارئُ اذا قلنا لهُ ان بورصة باريس وبنك انكلترا في لندن هما اهم مراكز السياسة ومقر الحركة التي تدير اعمال الممالك فان في بورصة باريس وحدها تباع اسهم الدين الفرنسي وتشرى وهي تزيد عن ٣٢ مليار فرنك او نحو الف ومائتين وخمسين مليوناً من الليرات الانكليزية . وعندهم اسهم من ديون الممالك الاخرى بمثل هذا المقدار او ما يقرب منهُ واسهم السكك الحديدية والمجلس البلدي وغير هذا مما تقرب قيمتهُ ايضاً من مجموع الديون على الحكومة الفرنسية فهم يقلبون بين ايديهم اوراقاً وقراطيس بالوف الالوف ولا عجب اذا اداروا سياسة الممالك باصعاد هذه القراطيس وانزالها ولا غرابة في القول ان الارض لاصحاب المال يديرون شؤُونها علَى ما يوافق مصلحتهم

ومما يذكر كنيسة نوتردام وهي اكبر كنائس فرانسا واشهرها فيها من الرسوم المنزلة على الزجاج ما تقدر قيمتهُ بعشرات الالوف ومئاتها والناس يقصدونها من كل جانب للتفرج على غرائب بنائها ونفيس تحفها . وليس بعيداً عنها الى الجهة الاخرى من النهر قصر كلوني كان في سابق الزمن مقرًّا لبعض الملوك وفيهِ الآن متحف

للآثار الثمينة اكثرها من الذهب والفضة وبينها عدد كبير مرصع بالجواهر الغالية وصوان غريبة ومفروشات فاخرة واحذية مزركشة واجواخ مقصبة وازياء قديمة يعمد اليها ارباب الزي في بعض الاحايين وينقلون عنها رسوماً يذيعونها في بعض المدائن ويدعون انها زي حديث فيتهافت الناس على استعماله

ولا بدَّ من القول هنا ان استيفاء الوصف يتعب القارئ فان في باريس شيئاً كثيراً لم نذكرهُ بعد مثل قصر لكسمبرج وهو بني في ايام فرنسوى الاول وصار الآن ندوةً لمجلس الشيوخ . ومجلس البلدية على مقربةٍ من السين وهو قصر عظيم قديم العهد من داخلهِ ولكن اكثر جوانبهِ الخارجية جددت على النسق الحديث ولهُ شهرة كبرى في تاريخ الثورات الفرنسية فانهُ كان مقرًّا للاحزاب الجمهورية في اكثرها . ومنها قصر الاليزه حيث يقيم رئيس الجمهورية حالاً وبابهُ في شارع سانت اونوريه وهو من المنازل العظيمة ولكنهُ ليس على شيء من جمال المنازل التي شادها ملوك فرانسا القدماء في ضواحي باريس . ومن الابنية التي تستحق الذكر بعض الفنادق الكبرى وذكرنا بعضها والمخازن العظيمة مثل مخازن اللوفر التي وصفناها ومخازن بون مارشيه ومخازن البرنتان وغيرها . والمراسح واشهرها الاوبرا والتياترو الفرنساوي وقد ذكرناهما ومنها مرسح الفودفيل والاوديون والجمناز والاوبرا كوميك وغير هذا مما لا يدخل تحت حصر

هذا بعض مما تلزم روٴيتهُ في داخل باريس واما الضواحي فلا يخفى عن القارئ انهُ ليس في الارض عاصمة تفردت بكثرة الضواحي البهية مثل فرانسا واشهر هذه الضواحي

✻ فرسايل ✻ وهي مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن ستين الف نفس بدأت شهرتها على عهد الملك لويس الرابع عشر الذي جعلها مقرهُ الرسمي مدة

الصيف وبنى فيها هو وبعض الذين خلفوهُ في الملك قصوراً لم تزل الى الآن افخم ما شاد الملوك الاوروبيون واكثرها بهجة وغرابة فان القصر العظيم الذي يقصدهُ السياح من كل جانب يبلغ طولهُ ٤١٥ متراً وفي حديقتهِ الواسعة ٦٠٠ بحيرة وبركة يتدفق منها عشرة آلاف متر مكعب من الماء يرد اليها بالآلات البخارية من مواضع بعيدة ولا تقل نفقة اخراج الماء من هذه الانابيب كل مرة عن ثمانية آلاف فرنك او عشرة فهم يعلنون عن موعد تدفق المياه في حديقة ڤرسايل في جرائد باريس ويكثر ان يكون ذلك في الشهر مرتين فيتقاطر الناس افواجاً لمشاهدة ذلك المنظر البديع . وقد صرف على هذا القصر وحديقتهِ الموصوفة ملايين واشتغل في البناء ٣٦٠٠٠ شخص واجهد الصناع قرائحهم في زخرفهِ وتحسينهِ حتى انك اذا دخلت قاعاتهِ الواسعة شعرت في الحال بعظمة الذين شادوهُ . ولطالما رأت هذه القاعات فخراً وعزًّا ولاسيما على عهد الملك لويس الرابع عشر ولكنها صارت مرسحاً للخلاعة والفسق عَلَى عهد لويس الخامس عشر وهو الذي جمع فيها حظياتهِ مثل مدام بومبادور وسواها ومهد بتهتكهِ السبيل للثورة العظيمة التي هبَّ الناس لها في عهد خلفهِ لويس السادس عشر المنكود الحظ

ولما كان هذا القصر الآن مشهداً عاماً جمعت فيهِ الادلة عَلَى فخر فرنسا وقوتها السابقة فلا بدَّ ان يحزن المتفرج اذا فطن الى ان البروسيين اجتمعوا بكل قوتهم في هذا المكان وتوجوا ملكهم ولهلم الاول امبراطوراً لالمانيا كلها في قصر ملوك فرنسا سنة ١٨٧١ فهناك الرسوم العديدة تدل الى انتصار فرنسا على الالمانيين وسواهم ولاسيما في عهد البطل نابوليون الاول ويمكن للمتفرج اللبيب ان يدرس تاريخ فرنسا كلهِ من الرسوم المجموعة في قاعة الحروب بقصر ڤرسايل هذا فانها تمثّل حالة فرنسا وحروبها من ايام شارلمان الى عهد نابوليون وقد قسمت هذه الرسوم

حسب تاريخها ومواضيعها في غرف خاصة بها فان صور الحروب الصليبية مثلاً وضعت في قسم خاص بها وصور حرب القرم كذلك ومعارك نابوليون المشهورة في قسم آخر وحرب الجزائر وغير هذا مما يمكن ان يقف الواحد امام الصورة منهُ ساعة او ساعتين وهو يتأمل ما فيها وما تشير اليهِ من الحادثات الكبرى فالناس الذين يتقاطرون على ڤرسايل لمشاهدة حديقتها وقصرها وهذه الرسوم يعدون بعشرات الالوف . ومما يذكر بين غرائب هذا القصر قاعة الزجاج لها ١٧ نافذة كبرى بين كل نافذة ونافذة مرآة كبيرة تنعكس عليها صور المتفرجين والرسوم الجميلة في سقف القاعة ومنظر بعض الحديقة فيتكون من مجموع هذه المناظر ما يعسر علَى الواصف وصفهُ لا وسيما اذا كانت المياه تتدفق من البركة الكبرى وهي تصعد على الف شكل وشكل بعضها يتموج وبعضها يتعرج وبعضها يشق الفضاء شقاً وبعضهُ يخرج على مهل وبعضهُ ضيق الدائرة وبعضهُ واسعها وفي بعض الاحايين يلونون الماء بالوان تسحر الناظرين في الليل فاذا تمشى الزائر بين ازاهر الحديقة وخضرتها النضرة وكانت المياه على ما وصفنا والناس على اختلاف الاجناس يتمشون امامهُ زال عن قلبهِ الهم ونسي كل ما يوجب الفكر والغم

وعلى مقربة من هذا القصر العظيم في ڤرسايل قصران آخران يعرف احدهما باسم قصر تريانون الكبير والثاني باسم تريانون الصغير . فاما الاول فانهُ بناهُ لويس الرابع عشر لاحدى حظياتهِ واشهر ما فيهِ الآن عربات قديمة فاخرة استعملها ملوك فرنسا الاول في الحفلات الرسمية واكثرها من ايام بونابارت وعربات أُخرى كثيرة الزخرف استعملها الامراء والسفراء في ايام نابوليون الثالث وهي من الآثار الجميلة . واما التريانون الصغير فبناهُ لويس الخامس عشر وكان مقراً لبعض افراد العائلة المالكة ولهُ حديقة جميلة تفتح كل يوم ويقصدها المتفرجون . وفي القصرين

رسوم وآثار تدل على الحوادث الماضية في تاريخ فرنسا نكتفي بالاشارة اليها هنا لان وصفها لا يزيد عن وصف الذي تقدم ذكرهُ من امثالها

ويذكر بين هذه الضواحي البهية سان جرمين وهي ايضاً كانت من مصايف ملوك فرنسا في زمان عزهم تبعد ١٨ كيلو متراً عن باريس ويسار اليها بالترامواي البخاري من ميدان الكوكب الذي مرَّ وصفهُ فيمرُّ المسافر باشهى الحقول واجمل المناظر في طريقهِ منها منظر السين وغابات الكستناء الى جانبهِ ومنها بلدة نولي اشتهرت بكنيسة لها على اسم القديس فردنان وقد بنيت موضع سقط الدوك دورليان (وكان اسمهُ فردنان) ابن الملك لويس فيليب من عربتهِ وقضي الامر بوفاتهِ سنة ١٨٤٢ وهنالك مساكن كثيرة لبعض الكبراء من سكان باريس. وفي هذا الطريق بلدة ماليزون وهي التي لجأت اليها جوزفين قرينة بونابارت الاولى بعد ان طلقت من زوجها وقضت نحبها في قصر اعدَّ لها سنة ١٨١٤ وكان من امر نابوليون انهُ لما سقط من شاهق عزهِ بعد معركة واترلو قصد هذا القصر قبل سواهُ واطال الفكر في ايام اقترانهِ بجوزفين وحبها لهُ ثم سافر منهُ الى انكلترا حيث سلم نفسهُ لدولة الانكليز وكان من امرهِ ما كان. وفي سان جرمين متحف للآثار المعدنية من النحاس والحديد والفضة والذهب وهي تزيد عن ثلثين الف قطعة مرتبة في خزائن ورفوف جميلة من داخل الزجاج وفيها خلاصة تاريخ فرنسا على هذه النقود والآثار والذين ينتابون هذا المعرض كثار في جملتهم عدد يذكر من السيدات الاميركيات تدور فيهِ الواحدة منهنَّ متأملةً قطعهُ وبيدها كتاب تدرس فيهِ حكاية كل ما تراهُ وهذا شأن اكثر السائحات من الانكليز والاميركان

ومن هذه الضواحي سان كلو ولها ايضاً شهرة ذائعة يوصل اليها بالترامواي الكهربائي من عند متحف اللوفر ويمر القطار في احسن البقاع وابهى

الضباع . وفي سان كلو قصر فخيم كان الإمبراطور نابوليون الثالث يقضي بعض الصيف فيهِ وقد اصاب القصر المذكور ضرر كثير من مدافع الجيش البروسي في حرب سنة ١٨٧٠ . وفي سان كلو ايضاً مناظر فائقة الجمال ومنازل للاغنياء من سكان باريس او من الذين يعملون فيها مدة النهار ويستريحون بقية يومهم في هذه المساكن البديعة وكثيراً ما يصل اليها الرجال والنساء مشياً على الاقدام من باريس بقصد التنزه او جرياً على ذات العجلتين المعروفة باسم بيسكل او في العربات لان منظر هذا الموقع من احسن ما يمكن ان تكتحل بمرآه العين . ويمكن الرجوع في نهر السين عن طريق سيفر وهي على مقربة من سان كلو واقعة الى ضفة السين وفيها معمل الفخار الصيني الفاخر المعروف باسم سيفر يزوره الناس كثيراً لشهرتهِ ويباع بعض الذي يصنع فيهِ بالوف من الفرنكات ثمن كل قطعة . ولباريس غير هذه من الضواحي الجميلة ما نرى ان الاقتصار عن ذكرهِ اولى لكثرتهِ لاسيما واننا قد اسهبنا في وصفها وذكرنا عنها اهم ما يجب ذكرهُ فنتركها الآن ونتقدم الى سواها

بوردو

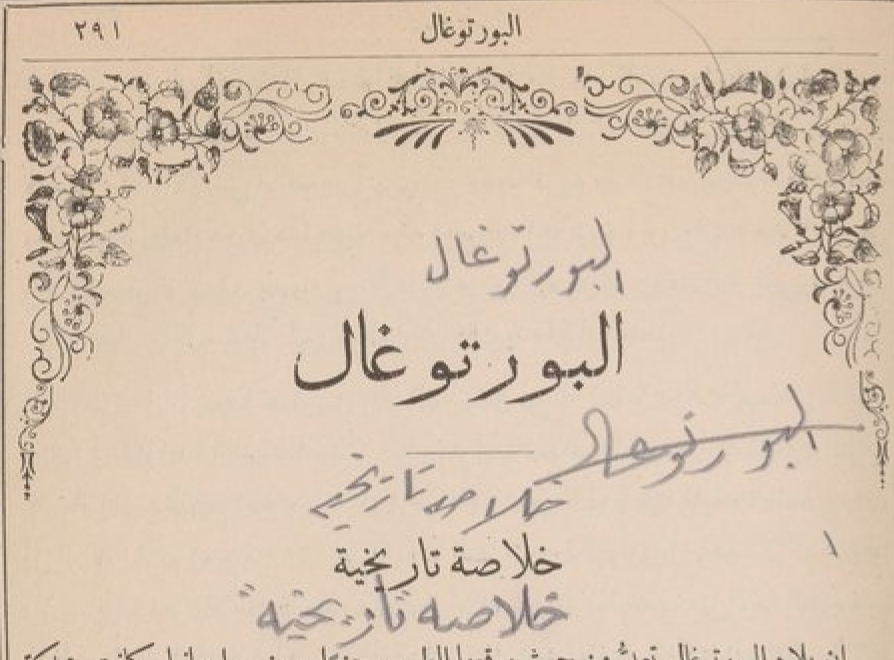
لما انتهيت من الاقامة في باريس العظيمة قصدت السفر الى بلاد البورتوغال وعرجت في طريقي على مدينة بوردو الشهيرة وهي من اهم المدائن الفرنسوية عدد سكانها ثلث مئة الف نفس وهي واقعة على ضفة نهر غارون تبعد نحو ٥٨ ميلاً عن مصبهِ في الاوقيانوس الاتلانتيكي وقد كانت من المدن التي استولى عليها الرومانيون في عهدها القديم ثم ملكها العرب وسموها بردال وفتحها الانكليز سنة ١١٥٢ فعادت الى فرنسا في سنة ١٤٥١ ومن ذلك العهد جعلت تتقدم وتنمو

حتى صارت الى درجتها الحاضرة من الاهمية والعظمة وهي لها مينا عظيم واسع ترسو بهِ الباخرات الكبرى وتنقل الى شاسع الاقطار مصنوعات بوردو من الورق والمنسوجات والاسماك المقددة . واشهر من هذا كلهِ خمر بوردو المعروفة وهي من الذّ الخمور وانخرها لا يعرف الناس طريقة صنعها الاَّ في ثلثة معامل في مدينة بوردو هذه ويصدر من معاملها نبيذ بقيمة ١٢ مليون جنيه في السنة

وكان في بوردو يوم دخلناها معرض مثل معرض امستردام الذي ذكرناهُ فدخلناهُ وكان محافظ مدينة لندن قد عوَّل في ذلك اليوم على دخول المعرض ايضاً والناس يستعدون لقدومهِ وملاقاتهِ . وصعدنا في المعرض أعلى برج جميل وضع في رأسهِ النور الكهربائي فيرى الناظر من اعلاه مدينة بوردو بكل اجزائها ولها منظر يذكر وحركة تجارية اهم من منظرها واشهر

وكانت بوردو هذه آخر مدائن فرانسا العظيمة التي زرناها في هذه السياحة فتركتها قاصداً اتمام السفر الى بلاد البورتوغال على مثل ما تقدم وسوف ترى الكلام عن غير هذا من مدائن فرانسا في فصلٍ قادم من فصول هذا الكتاب





البورتوغال

خلاصة تاريخية

ان بلاد البورتوغال تعدُّ من حيث موقعها الطبيعي جزءًا من اسبانيا كانت مملكة واحدة معها مدة من الزمان واختلط تاريخ الامتين الى ان استقلت بلاد البورتوغال وصارت مملكة ذات شأن في اواسط القرن السابع عشر ولهذا فان كثيراً مما يذكر عن تاريخ هذه البلاد تراهُ في الفصل القادم عن مملكة اسبانيا المجاورة لها . هذا غير ان الامتين من اصل واحد واميال واحدة وان العرب استولوا عليهما في زمنٍ واحد فالاسماء العربية تكثر في البلادين كما ترى بعد

ولقد كان الرومان اول من دخل بلاد البورتوغال وفتحها وهم الذين اطلقوا عليها اسم لوزتانيا ولقوا من اهلها عناداً وبسالةً في الدفاع عن استقلالهم وكان اهل فينيقية وقرطاجنة قد وصلوا البورتوغال ونقلوا اليها الابضعة من قبل الفتح الروماني الا ان ذلك لم يؤثر في حالتها كثيراً . وظلت هذه البلاد خاضعة لمملكة رومه من سنة ١٤٠ قبل التاريخ المسيحي الى حين سقوط المملكة الرومانية فتوالت على لوزتانيا او هي بلاد البورتوغال هجمات القبائل المتبربرة التي كثر شرها في تلك الاجيال وظلت في حرب مستمرة معها ومع من يجاورها حتى جاءها العرب واخضعوها مع اكثر الولايات الاسبانية في القرن الثامن وسيأتي ذكر العرب في الاندلس عند الكلام على اسبانيا

على ان اهالي اسبانيا لم يسكتوا عن محاربة العرب من بعد هذا الفتح فانهم ظلوا يناوشونهم ويسترجعون منهم الاراضي شيئاً بعد شيء وكانت بلاد البورتوغال الحالية في

جملة الاراضي التي أُعيدت الى قبضة الملوك المسيحيين من اهل كاستيل وليون وهم لم يخضعوا للعرب خضوعاً تاماً في زمنٍ من الازمان حتى ان الفونسو السابع ملك ليون وكاستيل وهب في سنة ١٠٩٥ الاراضي الواقعة بين نهري تاج ومنهو لقريبهِ هنري امير بورغونيا ووهبهُ ايضاً مدينة بورتو فجعل هنري هذا قصبة حكمهِ في بورتو المذكورة ومن ذلك العهد اطلق على البلاد اسم بورتوغال اي بلد بورتو ولما مات هنري البورغوني وخلفهُ ابنهُ الفونسو استبد بالملك وصار ملكاً مستقلاً للبورتوغال فكان ذلك بدء انشاء المملكة

وظل آل بورغونيا حاكمين في بلاد البورتوغال من سنة ١١٣٩ مسيحية الى ١٣٨٥ وكانوا في تلك المدة اكبر اعداء العرب حاربوهم في عدة مواقع مشهورة وردوا غاراتهم المتوالية ثم اضافوا الى مملكتهم شرقاً وغرباً حتى اوصلوها الى حدود البورتوغال الحالية ولما قام فرع جديد من العائلة المالكة في سنة ١٣٨٥ من آل افيز اشتهرت دولة البورتوغال وتقدمت تقدماً عظيماً ولا سيما في المتاجر والاسفار البعيدة ولم يقم بين امم اوروبا بعد امة صغيرة مثل الامة البورتوغالية لها فضل على العالم المتمدن بما فعل رجالها من السفر الى ابعد الاقطار واكتشاف الممالك العظيمة والمجاهل العديدة في افريقيا واسيا والبحر المحيط فان الاوروبيين كانوا يعتقدون ان المنطقة الحارة من افريقيا لا يسكنها البشر من بعد الدرجة ٢٩ شمالاً فلما نهض البورتوغاليون في ايام الملك يوحنا في بدء القرن الخامس عشر دارت سفنهم في البحار تحت قيادة الامير هنري ابن الملك المذكور فاكتشفت شطوط افريقيا الشرقية وجزيرة مديرا التي يصدر منها الخمر المعروف باسمها وهي كثيرة الشهرة وكان البرنس هنري هذا اول من زرع الكرم القبرسي فيها وعمرها بقومهِ البورتوغاليين • وتلا هذا الامير كثار من اهل الاقدام دخلوا بلاد جينيا المشهورة بتبرها والعاج وتجاوزوا حدود الاولين حتى قام المكتشف المشهور فاسكو دي جاما سنة ١٤٩٧ ووصل بسفائنهِ رأس الرجا الصالح وهو الذي اطلق عليهِ هذا الاسم ثم دار من حولهِ وزار بعض شطوط افريقيا الشرقية وخليج فارس وسار من هنالك الى بلاد الهند فوصل مدينة كلكتا فكان هو اول اوروبي رأى تلك الديار ولما عاد الى بلادهِ ومعهُ من الهند وافريقيا وشطوط العرب والعجم دلائل الغنى والحاصلات الثمينة اندفع البورتوغاليون الى الاكتشاف والاستعمار اندفاعاً لا مثيل لهُ وملكوا قسم ملابار من بلاد الهند وجعلوا مدينة جوا قاعدة املاكهم الهندية ثم توسعوا في ذلك فملكوا جزيرة سيلان وبعض سيام وملقا وتقدموا الى الصين وكان اهل اوروبا لا يعرفون عنها شيئاً الى ذلك الحين لولا حكاية رجل من اهل البندقية اسمهُ ماركو بولو وصل في اسفارهِ اليها وروى عنها بعض الغرائب • فاسس

البورتوغاليون مستعمرة في ماكاو ببلاد الصين ومنها وصلوا اليابان وكانوا اول امة اوروبية خالطت هذه البلاد الشرقية العظيمة ونقلت منها واليها المتاجر ونالت الامتيازات التي جمعت من ورائها مالاً كثيراً

ذلك زمان العز ما رأت بلاد البورتوغال مثلهُ فانها بعد ان تمتعت به وكانت تعدُّ اولى الدول الاوروبية زاحمها الهولانديون وكسروا شوكتها بتغلبهم على سفنها في البحر واغتصاب الكثير من املاكها ثم تقدم عليها ملوك اسبانيا وضموها الى مملكتهم فضاع مجد هذه الامة من بعد ذلك العز وظلت البورتوغال خاضعة لملوك اسبانيا الى سنة ١٦٤٠ حين قام امير براغانسا واعاد الاستقلال للبلاد وصار ملكاً عليها ومؤسس دولة براغانسا المشهورة وكان لهُ وزير عاقل اسمهُ بومبال ساعدهُ على انماء ثروة البلاد وارجاع املاكها القديمة فاعيدت برازيل في اميركا الجنوبية والمستعمرات الافريقية الى حوزة البورتوغال في ايامه

وتوالى الملوك من آل براغانسا بعد ذلك فلم يحدث ما يستحق الذكر في ايامهم حتى اوائل هذا القرن حين قام نابوليون الكبير واشترط على البلاد ان تجافي انكلترا وتمتنع عن قبول البضائع من التجار الانكليز وكان ذلك بعض سياسته في قهر انكلترا واخضاعها فابى ملك البورتوغال ان يجيب هذه المطالب ولذلك ارسل عليه نابوليون جيشاً جراراً تحت قيادة المارشال جونو لم يقوَ على ردهِ فاضطر الى الفرار مع عائلته ونجا الى بلاد برازيل وهي يومئذٍ من املاك البورتوغال · ولكن الجيش الفرنسي لم يملك هذه البلاد طويلاً فان انكلترا ارسلت وراءهُ جيشاً تحت قيادة ولنتون القائد المشهور انتصر على الفرنساويين وطردهم من البلاد والف جيشاً وطنياً ضباطهُ انكليز حتى اذا جاءت سنة ١٨٢١ عاد الملك يوحنا واستلم مهام الملك في بلادهِ على حين كثرت متاعبها والقلاقل · وانتهزت بلاد برازيل هذه الفرصة فنادت بالاستقلال واقامت الامير بدرو ابن الملك يوحنا المذكور امبراطوراً عليها وظلت على ذلك الى عهدٍ قريب حين صارت جمهورية مثل كل دول اميركا الشمالية والجنوبية · وعند وفاة الملك يوحنا استدعي ابنهُ امبراطور البرازيل للملك على البورتوغال فآثر البقاء في مملكته الجديدة ونصب ابنتهُ الدونا ماريا ملكة ومن ذلك الحين كثرت القلاقل في المملكة ووقفت حركة الاعمال ولكن المستعمرات التي بقيت في حوزتها لم تضع منها وهي باقية لها الى الآن بعضها في الهند وهو لا يذكر والبعض في افريقيا الجنوبية عند املاك الانكليز · ولما مات الملك بدرو الخامس سنة ١٨٦١ كانت المملكة قد عادت الى حالها الاول من حيث الهدو وانتظام الاعمال وعقدت محالفة مع انكلترا جعلت النفوذ الانكليزي في لسبون وتوابعها فوق

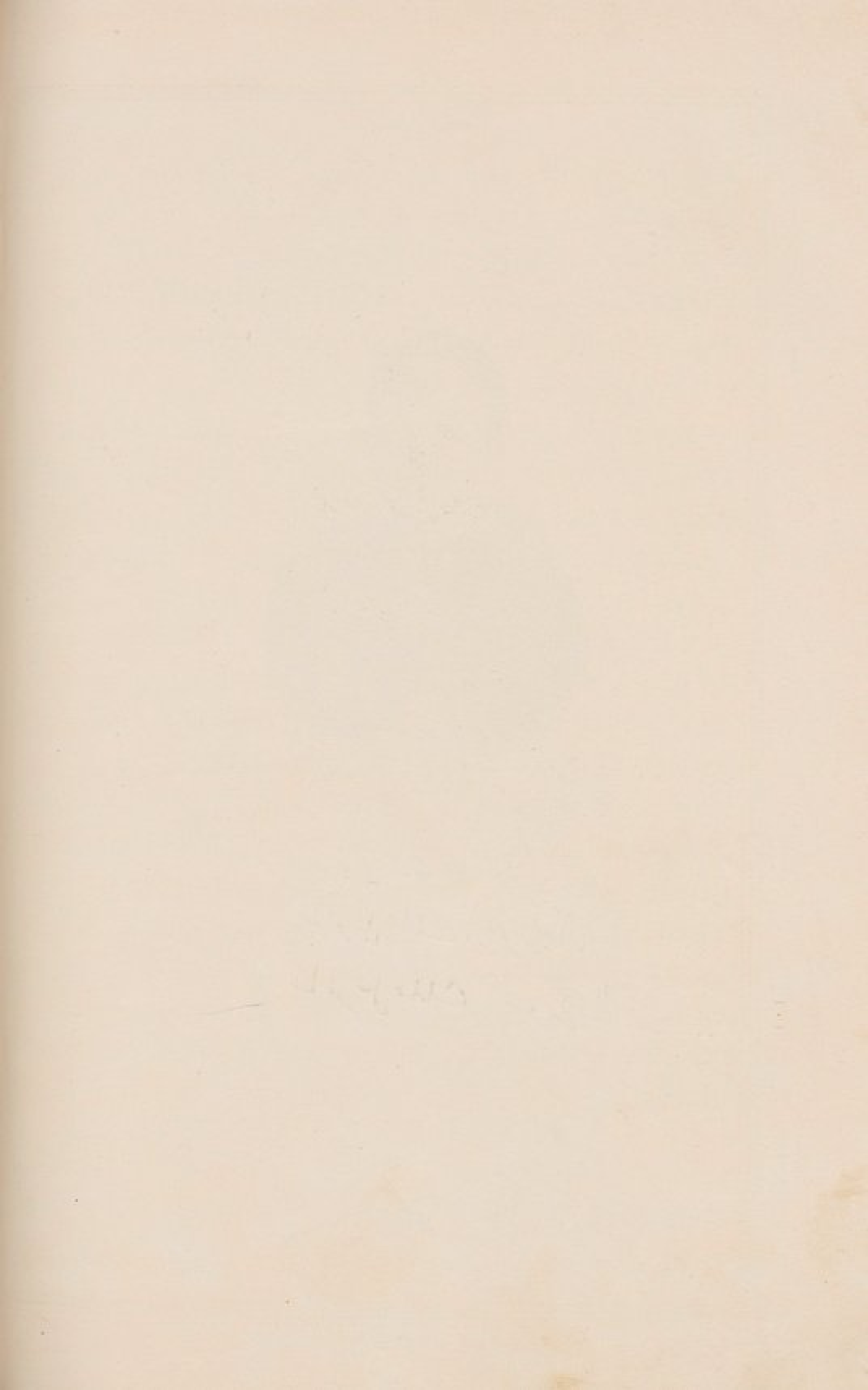
كل نفوذ · وخلف بدرو ابنهُ لويس الاول في السنة المذكورة وكان رجلاً حازماً عاقلاً كثير الميل الى الخير والاصلاح فوطد اركان دولتهِ وعُرض عليهِ تاج اسبانيا فرفضهُ لما يعلم من تقلب الاسبانيين وكثرة الثورات في بلادهم · ومات الملك لويس سنة ١٨٨٩ فخلفهُ ابنهُ كارلوس الاول اقترن بكريمة الكونت دي باري وارث ملوك فرانسا القدماء وهي الملكة املي المشهورة بالمحاسن والفضائل فرزق الملك منها ولدين اصغرهما هو الملك مانويل الحالي والكبير قتل مع ابيهِ في حادثة لسبون الشهيرة وتفصيلها كما سيجيء :—

كان الملك والملكة وولداهما راجعين من نزهة في يوم ٢ فبراير من سنة ١٩٠٨ فلما بلغت بهما العربة ميدانًا يعرف باسم ساحة التجارة تقدم احد الواقفين وجعل يعدو وراء العربة الملوكية و يطلق الرصاص عليها فاصاب الملك برصاصتين اودت احداهما بهِ في الحال وعند ذلك هبت الملكة املي وصاحت صيحة عظيمة ورمت القاتل بباقة من الزهر كانت في يدها ووقفت امام اولادها لان الرجل كان مصرًّا على قتلهم جميعًا لولا ان بادرهُ احد الجنود بضربة من سيفهِ قضت عليهِ في الحال وعند ذلك تقدم رجل آخر وتبع العربة برصاصهِ وساعدهُ في ذلك كثيرون من الذين كانوا واقفين هنالك بالمرصاد لهذه الغاية فأُصيب ولي العهد ايضًا برصاصات قاتلة وأُصيب اخوهُ الاصغر بجراح غير خطرة ولولا تكاثر الحراس لقتلت عائلة الملك كارلوس عن آخرها · ثم نقل الجرحى في الحال الى الترسانة وهي اقرب موضع يمكن التداوي بهِ من مكان الحادثة ولكن الملك مات قبل وصولهِ وولي العهد بقي نحو ساعتين في حالة النزع ثم مات ايضًا والملكة بين الاثنين في حالة من الحزن تفتت الاكباد ويعسر وصفها على الكاتبين · وعقد في الغد مجلس النظار فنودي بالملك مانويل بعد اعمال ادارية وحكمة لولاها لانقلبت الحكومة وضاع الملك من آل براغانسا لان حزب الجمهورية قوي في بلاد البورتوغال · وكان لحادثة لسبون هذه تأثير شديد جدًّا في سائر الاقطار وكان حزن الملوك والكبراء وعامة الناس على كارلوس وابنهِ بالغًا وعطفهم على الملك الحالي ووالدتهِ عظيماً الى النهاية · وكان سن الملك مانويل يوم ورث اباهُ ١٩ سنة وهو يعد بالغًا سن الرشد في قانون البورتوغال



مانويل ملك البورتغال

مانويل ملك البورتغال
مانويل ملك البورتغال



لسبون

هي عاصمة البورتوغال واسمها عند العرب لشبونه جئتها من بلاد فرانسا على ما علمت في فصلٍ تقدم هذا وكان سفري في باخرة كبيرة من بواخر الاتلانتيك تمرُّ على شطوط البورتوغال وتذهب منها الى عكره وهي اسكلة السنغال والى جهات اميركا مثل المكسيك والبرازيل وغيرها وكان في الباخرة ركاب كثيرون اهمهم سفير دولة فرانسا في لسبون عائداً الى مركزهِ . ووصلنا في اليوم التالي خليج بسكي المشهور بامواجهِ واضطراب مياههِ وهو شديد الخطر على السفن والبواخر غرقت فيهِ السفن مراراً ولكنهُ كان يوم وصولنا على ما يرام من الهدو والسكينة وقد ملأت جوانبهُ سفن شتى هذه ذاهبة وهذه آيبة ما بين جوانب اوروبا واسيا واميركا وافريقيا فهو يقرب في ذلك من ترعة السويس التي لا تخلو من باخرة او عدة بواخر تمرُّ منها في كل حين . ولما جاء اليوم الثالث على سفرنا اطلت باخرتنا على جبال البورتوغال وما زلنا نتقدم حتى صارت عاصمة البلاد على مرأى منا ودخلنا جوناً من البحر ما بين سلسلتي جبال ظللنا نسير فيهِ ثلاث ساعات حتى انتهينا الى المدينة فذكرنا ذلك بمنظر البوسفور وضفافهِ

والذي يصل لسبون من ناحية البحر يظنها لاول وهلة من المدائن الشرقية لان اكثر ما فيها من البناء مطلي باللون الابيض في ظاهرهِ على ما نرى في بلاد الشرق وهي متوالية الارتفاع من سطح البحر الى تلك الجبال المجاورة لها فكأَنما ارضها طبقات شيدت فيها المنازل بعضها فوق بعض وهي في هذا تشبه مدينة بيروت بعض الشبه والمدينة واقعة على نهر تاجوس او التاج كما سماهُ العرب يبلغ سكانها اربعماية الف نفس وتعرف في كتب العرب باسم لشبونه وهي قديمة العهد

وصل اليها تجار صيدا وصور في اسفارهم الغربية واطلقوا عليها اسم أليس او بو اي الخليج اللطيف وحرّف الاسم بعد هذا فصار لسبون كما ترى . وتاريخها مرتبط بتاريخ البلاد العام الذي تقدم ذكرهُ فهي رأت احسن ايام العز في القرن الخامس عشر والسادس عشر ولكنها تهدمت مراراً بفعل الزلازل ولم تزل آثار الزلزال العظيم في سنة ١٧٥٥ باقية فيها ولم يقل عدد القتلى عن اربعين الفاً في تلك المصيبة

وقد تمَّ هذا والناس في الكنائس في يوم عيدٍ هذا غير الذين كانوا في الاديرة والسجون والمستشفيات وغيرها من المواضع العمومية حيث احتشد الناس ونكبوا الوفاً . وكان من زيادة البلوى ان بعض الفارين من الزلزال لجأوا الى شاطيء البحر فثارت موجة شديدة علوها ٤٠ قدماً وتقدمت على هوءلاء المساكين فاغرقت منهم عدداً كبيراً . ثم ان الحرائق توالت بعد تلك الزلزلة على المدينة فدمرت كثيراً مما سلم وعممت البلوى فرأت لسبون في تلك المدة هولاً لم ترهُ من قبل وهم الى الآن يذكرون هذه المصائب وما كان من اجتهاد الملك ووزيرهِ بومبال في تخفيف المصاب والتعويض على الاهالي عن بعض ما فقدوا . وكان الملك يومئذٍ في الضواحي مع وزيرهِ المذكور فلما بلغهُ الامر استشار الوزير في ماذا يفعل فقال لهُ بومبال ان يا مولاي لندفن الموتى اولاً ثم نعيد بناء المدينة .

بعد وصولي بيوم واحد اخذت رجلاً من القوم يدلني الى ما فيها وسرت في اول الامر الى ميدان التجارة اقيم فيهِ تمثال الملك يوسف الاول وهو مستدير الشكل يشرف من احد جوانبهِ على البحر وقد اقيمت في الجوانب الاخرى منهُ اهم الابنية والمصالح الاميرية في هذه العاصمة مثل الوزارات والبريد والبورصة والجمرك والتلغراف وادارة بواخر الهند والمحاكم وغير هذا وكلها ابنية ليست على شيء خاص من الفخامة والجمال ولكنها ليست حقيرة فهي لا تستحق الاطالة في الوصف لا سيما

وان داخلها جعل على نسق غيرها من الادارات الاوروبية وقد تقدم لنا وصفها عند الكتابة عن الممالك الاخرى . ويتفرع من هذا الميدان شارعان هما اهم ما في المدينة من الشوارع اولها الى اليمين اسمهُ شارع اوجستا سمي باسم احدى ملكات البورتوغال وفي اولهِ قبة نصر نصب من فوقها تمثال الوزير بومبال الذي مرَّ ذكرهُ وثانيهما شارع الذهب . ويلاصق هذين الشارعين ميدان يعرف باسم بدرو الرابع احد ملوك البلاد فيهِ تمثال هذا الملك ومن حولهِ المخازن في اعلاها دور للسكن وفي آخر هذا الميدان الفندق الذي نزلت فيهِ ومنهُ يبتدئ ميدان افنيدا وهو اجمل فسحات لسبون برمتها واوسعها مجالاً فيهِ من غرس وشجر شيءٌ يستحق الذكر والاعجاب والناس ينتابونهُ للتنزه في طرقاتهِ المبلطة بالاسمنت وجوانبهِ المزينة بالزهر والخضرة وقد يجتمعون هنالك في بعض الاحيان فترى نخبة اهل الطبقة الوسطى والعليا في هذا الميدان . وقد نظمت طرق هذا الميدان للناس والعربات تنظيماً لطيفاً واقيم في طرفهِ نصب تذكاراً لاستقلال البورتوغال وانفصالها عن اسبانيا في سنة ١٦٤٠ وقد وجد هذا الميدان ما بين جبلين احدهما الى يمينهِ والثاني الى يسارهِ ومنظرهُ يزيد بذلك رونقاً وجمالاً والناس يصعدون تلك الجبال من هذا الميدان اما في الترامواي البخاري باجرة قليلة او في آلات رافعة (اسنسور) تحكي التي يستعملونها للصعود والنزول وهي كثيرة هنالك واجرة استعمالها قليلة لا تذكر فلما رأيت القوم يفعلون ذلك ارتقيت الجبل الايسر في الترامواي البخاري ورأيت في اعلاهُ حديقة عمومية جميلة عني القوم بغرس ما فيها وتنسيقهِ واستجلبوا لها غريب الزهر والنبات من اقاصي برازيل والهند ومنظرها يستحق الذكر وهنالك اشجار من النخل عظيمة الساق لم ارَ في القطر المصري علَى شاكلتها في الغلظ ولكن النخل الذي يزيد عنها في الطول هنا كثير واشجار برازيلية لا ورق لها وكلها اغصان دقيقة تتدلى

وتشتبك بعضها ببعض وقد كوّنوا من بعض الاغصان خيمة يجلس تحتها المتفرجون ومنظرها جميل . هذا اهم ما في الجبل الايسر لما فرغت من مشاهدتهِ هبطت الوادي الى ذلك الميدان ثم ارتقيت القمة اليمنى في الترامواي البخاري ايضاً واشرفت منها على قرى عديدة ومزارع كثيرة وبعض الضياع والعمائر والمروج زرعت زرعاً جميلاً ومنظرها من احسن ما يراهُ السائح في هذه العاصمة

ومن اهم ما يذكر في هذه المدينة قصور الملك وافراد عائلتهِ الكريمة قصدت منها قصر نسسدادس الذي يقيم فيهِ الملك وهو في طرف المدينة بني على رابيةٍ منفصلة عن غيرها تحكي في ذلك تلال الاستانة دخلت غرفهُ الواسعة وتأملت زماناً في رياشها الفاخر وبنائها المتقن وقليل نظيرها في هذه البلاد . هذا غير ان فيها بعض التحف التي جمعها ملوك البورتوغال السابقون منها ٤٦ عربة كانت تقل هؤلاء الاقيال في الازمان الغابرة واكثرها مذهبة كثيرة الزخرف متقنة الصنع . ومن هذا القبيل قصر اوجودا وقصر بيليم وهما من المنازل الفخيمة لا يسمح لنا المقام بالتطويل في وصفهما . ولكن الذي يستحق الذكر من هذا القبيل ويقصدهُ كل قادم الى بلاد البورتوغال جهة من الضواحي تعرف باسم (سنترا) لها شهرة في اوروبا كبيرة وهي واقعة في جبال صخرية صوانية بديعة الجمال حتى انهم يسمونها سويسرا البورتوغالية لفرط حسنها الذي يحكي حسن الجبال السويسرية . سرت الى هذه الجهة في قطار الحديد والمسافة من العاصمة اليها ٢٨ كيلو متراً وقد بني قصر الملك وغيرهُ من القصور في وسط تلك الجبال البهية فاذا اراد احد الناس الوصول اليها تحتم عليهِ المسير في عسير المسالك بين المشاهد الطبيعية التي يؤثر منظرها في النفوس ولا سيما انك ترى وانت تتقدم صعداً في تلك المسالك من كل جهة منظراً يختلف عن الذي قبلهُ ويلذّ لك المسير . وقد

كان هذا الذي فعلتهُ مع غيري وكنا في عربة كبيرة اوصلتنا الى باب القصر الملوكي فلما نزلنا منها علمنا ان جلالة الملك مقيم وقتئذٍ في ذلك القصر فالدخول اليهِ غير مباح والقصر بني على اطلال قصر عربي قديم فدخلنا الحديقة وهي في رأس جبل ولمنظرها بهجة خاصة لانها باقية على الحالة الطبيعية وفيها الصخور المتناثرة المتراكمة والدروب والمسالك قضينا نحو ساعتين ما بين صعود ونزول في جوانبها ورأينا هنالك نبعاً من الماء الحديدي بارداً وتمثالاً للمكتشف فاسكو دي غاما الذي مرَّ ذكرهُ في الخلاصة التاريخية وسبيلاً عربياً يتدفق منهُ الماء الزلال لم يزل على حالهِ من ايام الدولة العربية وباعلاهُ كتابات عربية محت بعضها الايام وقرأت البعض الآخر وهو (هذا السبيل المبارك على اسم حضرة السلطان عمر والاراضي التي وجدها) والذي يدور في جوانب البورتوغال واسبانيا يرى من هذه الآثار العربية شيئاً كثيراً . ولسوف ترى في الفصل القادم شيئاً عن بلاد اسبانيا هذه فاني برحت البورتوغال قاصداً ربوعها بعد ان اقمت هنا اياماً ورأيت اهم ما يستحق الذكر من مشاهدها وسكة الحديد التي توصل من لسبون الى اسبانيا تبتدئ من جبل فمحطتها يصعد اليها بالآلات الرافعة او بسلم كثير الدرجات . واما المسافة بين العاصمتين فلا تقل عن ٢٤ ساعة في القطار وبينهما ٦٢ محطة ترى الكلام عن بعضها في الفصل القادم



اسبانيا

خلاصة تاريخية

ان اسبانيا اول بلاد اوروبية بعد بلاد الروم ورد ذكرها في الكتابات القديمة فقد جاء في التوراة ذكر ترشيش حيث كان تجار الفينيقيين وتجار اليهود في زمان الحكيم سليمان يترددون لجلب الغنائم وترشيش في اصطلاح الاقدمين القسم الجنوبي من اسبانيا وهو الذي له ذكر في تاريخ البلاد اكثر من سواه . وقد كان تجار صور وصيدا يعرفون شطوط اسبانيا وينقلون منها الاشياء الثمينة قبل التاريخ المسيحي باكثر من الفين وثلثماية سنة ومن المؤكد انهم عمروا بعض اراضيها وبنوا فيها المدائن مثل قادش وملاغه وكوردوبا (ولكل من هذه المدن اسماء عربية سيجيء بيانها فيما يلي) في القرن السادس عشر والخامس عشر قبل التاريخ المسيحي

وقد ظلَّ الفينيقيون مستأثرين بخير اسبانيا زماناً حتى انتبه اليونان اليها في القرن التاسع قبل التاريخ المسيحي وجاء بعض التجار والمخاطرين من اهل رودس اليها فاسسوا مستعمرة رودبا وهي روزاس الحالية في ولاية كتلونيا وتلاهم غيرهم من اليونان ايضاً فتراجع الفينيقيون امامهم حتى كانت سنة ٤٨٠ قبل المسيح واشتبك اكثر اليونان في حروبهم مع الفرس فجاء اهل قرطاجه وهم من اصل فينيقي وملكوا اراضي الاندلس وبلنسية وكتلونيا واسسوا مدينة قرطاجه الجديدة فكثرت ارباحهم وزادت متاجرهم حتى اذا قويت شوكة الرومانيين وكبر سلطانهم تطلعوا الى هذه البلاد الغنية وحسدوا القرطاجيين على ما يربحون منها فبدأوا بالتداخل في سنة ٢٢٢ قبل المسيح ومن ذلك العهد بدأ التنافس بين الدولتين فلم ينتهِ الاَّ

بعد حروب هائلة سحقت فيها قرطاجه سحقاً وفاز الرومانيون في بدء القرن الثاني قبل الميلاد بالاستيلاء على اسبانيا ولكنهم ظلوا نحو مايتي عام يحاربون اهلها الاشداء ولا يقدرون على اخضاعهم اخضاعاً تاماً حتى انتهى الامر بالفوز التام لدولة الرومانيين في عهد الامبراطور اوغسطس قيصر سنة ١٩ قبل الميلاد . وما انفقت دولة رومه مالاً ورجالاً على فتح بلاد مثل ما انفقت على فتح اسبانيا في تلك السنين الطوال ولكنها شعرت بالربح بعد الاستيلاء عليها وعلمت انها لم تضع تلك النفقات سدًى . وصارت اسبانيا بعد ذلك اهم ممالك الرومانيين استوطنها كثيرون منهم وولد فيها بعض من اشهر قياصرتهم واعظمهم مثل تراجانوس وادريانوس وماركوس اوربليوس وكذلك قام من اهل قرطاجنة مدة زهائها اعظم القواد في اسبانيا واشهرهم اسدروبال وهنبال القائد الافريقي العظيم الذي لم يذكر التاريخ ابرع منهُ في قيادة الجنود وتدبير المواقع

وكان اهل اسبانيا على عهد الدولة الرومانية مثل غيرهم من عبدة الاصنام وهم اهل خشونة وشدة فما دخلت الديانة المسيحية بينهم الأ بعد انتشارها في الشرق . واهل البلاد يزعمون ان مار يعقوب احد الرسل وصلها وبشر الاهالي بالانجيل فيها ولكنها ما لبثت ان اعتنق اهلها هذا الدين بعد اضطهاد القياصرة الرومانيين حتى صارت من اشهر مراكزهِ وكان لاسقفها هوسيوس كرمي الرئاسة في المجمع النيقاوي المشهور الذي عقد سنة ٣٢٥ في نيقية وبقيت على حال واحدة من الخمول والتأخر حتى انقراض الدولة الرومانية وتسلط الاقوام المتبربرة على اراضي تلك الدولة المشهورة . وكانت اسبانيا مطمع هؤلاء الفاتحين لما اشتهر عن خصب ارضها وجودة هوائها فلما جاءت قبائل الغوث في سنة ٤١٠ بعد المسيح لمحاربة الرومانيين أخذت اسبانيا قبل غيرها واستولى الامير اتولفوس عليها فصار ملكاً لدولة كبيرة حكمت هذه البلاد ثلثماية سنة ولم يكن لهذه الدولة الغوثية شهرة في شيء سوى الخمول والمظالم وكان اول من ملك اسبانيا كلها من هؤلاء الملوك رشلان سنة ٤٣٨ وخلفهُ كثيرون اشهرهم اورك وهو الذي استولى على جنوبي فرانسا سنة ٤٦٦ وورثها من بعدهِ الملوك حتى اذا بدأ القرن الثامن بعد المسيح صارت الدولة الى حالة الضعف من جبن ملكها رودريك وكثرة المضادين لهُ والساعين في دس الدسائس . وكان من امر هؤلاء المضادين انهم لما اعيتهم الحيل في خلع الملك رودريك استعانوا بالعرب من اصحاب الغرب الاقصى فلبى العرب الدعوة وارسلوا على اسبانيا جيشاً صغيراً تحت قيادة الامير طارق بن زياد وكان هذا الجيش لا يزيد عن ١٥٠٠ محارب دخلوا اسبانيا من عند جبل كالب الذي سمي بعد ذلك جبل طارق باسم هذا الفاتح في آخر شهر

ابريل من سنة ٧١١ مسيحية وكان في ذلك سقوط الدولة الغوثية وقيام الدولة العربية

وقد كنت اتمنى لو يمكن التطويل في سرد وقائع العرب وتاريخ الاندلس الشهي لولا ان المقام ليس للتاريخ والمراد لمحة يفهم منها القارىء خلاصة ما مرَّ على البلاد التي نريد وصف مشاهدها . وعلى هذا فاذكر ان نجاح الامير طارق في اول الامر جرأ الامير موسى نائب الوليد وهو يومئذٍ الخليفة الاموي على ارسال جيش آخر قاده بنفسهِ والتوغل في البلاد فلما رأى الملك رودريك ذلك قام لمحاربة الهاجمين بجيش جرار قاده بنفسهِ وعدد افرادهِ تسعون الفاً ودارت رحى الحرب عند قرية زيرس وهي تقرب من موقع قادس المشهور ثلاثة ايام متوالية كُسر بعدها الاسبانيون كسراً تاماً وتفرقوا في جوانب الارض فوقعت البلاد برمتها في قبضة العرب لاسيما وان الملك رودريك نفسهُ قتل في تلك المعركة ولم يخلفهُ على الملك احد وكان جيش العرب في معركة زيرس لا يزيد عن ١٨ الفاً تحت قيادة موسى بن نصير الذي ذكرناه . وكان طارق بن زياد قد اخضع عدة مدائن قبل وصول الامير موسى في جملتها ملاغة (مالقه) وكوردوبا (قرطبة) وطوليدو (طليطله) فلما انتهى موسى من زيرس تقدم على بقية المدائن مثل سفيل (اشبيلية) وبيجا ومرتولا وغيرها وملكها على عجل فما مرَّ زمان على موسى وطارق حتى اخضعا كل اسبانيا ما خلا البلاد الجبلية الواقعة في الشمال وهي بلاد كاستيل واستوريا ظلّت مستقلة كل مدة الدولة العربية ونشأ منها بعد ذلك الملوك الذين طردوا العرب من البلاد على ما يجيء . وكان اهل هذه البلاد الجبلية في كل زمان اصحاب البأس الشديد في محاربة الاعداء لم يقوَ عليهم فاتح في زمن من الازمان وما زالوا من اول عهدهم اصحاب اليد الطولى في استقلال اسبانيا وتوحيد كلمتها حاول العرب في اول الامر اخضاعهم فرأوا من صعوبة مرامهم ما ردهم عنهم . واستمرت مملكة العرب نامية في اسبانيا ومملكة استوريا هذه الى جانبها والعرب لا يقربونها حتى ايام المنصور وذلك بعد الفتح بنحو مايتي عام وهو ايضاً اخفق سعياً مع هؤلاء القوم البواسل

وما زال الزعماء من العرب يتوالون الامارة في اسبانيا من قبل الخليفة الاموي حتى عام ٧٥٥ حين جاء البلاد الامير عبدالرحمن الاموي فاراً من وجه العباسيين بعد انقراض الدولة الاموية فنال لحسن حظهِ واتساع مداركهِ تعضيد الاكابر وصار ملكاً لاسبانيا كلها واسس دولة العرب العظيمة وفصلها عن الخلافة العباسية فكان ذلك بدء عصر مجيد لاسبانيا لم ترَ نظيرهُ في ما مرَّ من تاريخها لان عبد الرحمن كان رجلاً عالماً عاقلاً محباً للخير ساعياً في ترقية بلادهِ وتهذيب الافكار مقرباً لرجال العلم والادب جوَّاداً على الكتاب والشعراء شاد العمائر

واقام للعلم صروحاً كثيرة ولما دنا اجلهُ جمع من حولهِ الولاة والقواد واوصاهم بالخضوع لابنهِ هاشم من بعدهِ وكان ذلك في سنة ٧٨٧ مسيحية

وكان هاشم مثل ابيهِ عادلاً حكيماً عاقلاً فاقتفى خطواتهِ فزهت المملكة في ايامهِ وتقدمت تقدماً عظيماً ولكنهُ اصابهُ ما لم يصب اباهُ من هجوم اهل الشمال على بعض املاكهِ وارتداد جنودهِ عنها وبدأ امراء الاسبان من ذلك العهد يستعيدون سابق عزهم والعرب يتقهقرون ويخسرون بعض الامارات مدة هاشم والحاكم ومن تلاهما من الملوك حتى قام عبد الرحمن الثالث سنة ٩١٢ وكان ملكاً عظيماً واسع العقل كبير الدراية فاعاد الى مملكة العرب عزها الشامخ واسترجع الصولة المفقودة وهو الذي بنى قصر الزهراء عند قرطبة وسيجيء ذكرهُ يعدُّ اعظم ملوك العرب في اسبانيا وايامه احسن ايام هذه الدولة الزاهرة . وخلفهُ ابنهُ الحاكم الثاني سنة ٩٦١ وكان اشهر امراء العرب في حب العلم وتقريب العلماء رأت البلاد على عهدهِ عزًّا كثيراً فلما مات خلفهُ ابنهُ هاشم الثاني وهو صبي في الحادية عشرة من عمرهِ فتولى الوصاية الامير محمد بن عبدالله الملقب بالمنصور وهو اعظم قواد العرب في ايام تلك الدولة الكبيرة قاد الجيوش الى ساحات النصر وكان اكبر ضربات الزمان على اهل اسبانيا الذين لم يرضخوا لحكم الدولة الاسلامية فانهُ ظلَّ ٢٥ سنة يرسل عليهم كل سنة مرتين جيشاً قوياً يقودهُ بنفسهِ فيذيقهم البلاء الاكبر ويخرب معاقلهم ويقتل الالوف من رجالهم وينهب خير بلادهم حتى لم يبقَ في حوزتهم غير جبال استورياس الوعرة ولما جاءت سنة ١٠٠٠ استعدَّ استعداداً عظيماً لاستئصال شأفة المعادين واخضاع البلاد كلها للدولة الاسلامية فكان في تلك الشدة وذلك الاستعداد الهائل اصل البلاء على الدولة الاسلامية لان الاسبانيين شعروا بضيق كبير وهالهم قصد المنصور وفعالهُ الماضية فاتحدوا بعد الانقسام وتعاهدوا على الدفاع ومحاربة العرب بلا انقطاع حتى اجتمع لديهم قوة عظيمة اقسم افرادها على التفاني في محاربة العرب فلاقاهم المنصور عند قلعة النصر واصلاهم حرباً عنيفة هائلة لم يتم فيها النصر لاحد الجانبين ولكنها انتهت بالخذلان لجيش العرب لانهم رجعوا عن البلاد غير غانمين ونقوت شوكة الامراء المتحدين فما اطاق المنصور صبراً على هذا الخذلان ومات كمداً سنة ١٠٠٢ فكان موتهُ آخرة العز والسؤدد للدولة العربية في اسبانيا ولم تقم لها قائمة بعد ذلك

ولما شعر امراء اسبانيا بالقوة بعد هذا زادوا جرأة وكان من امرهم ان فرناندو الاول ملك كاستيل ضمَّ بلاد ليون الى مملكتهِ سنة ١٠٣٧ اذ اقترن بصاحبة تلك البلاد ومن ثمَّ

نشأت دولة اسبانيا قوية هي اساس الدولة الحاضرة . وتقدم فرناندو هذا على بلاد مدريد وطليطلة وضرب الجزية على اهلها من العرب وملكها ابنهُ الفونسو من بعدهِ في سنة ١٠٨٣ فعادت الى قبضة الملوك المسيحيين بعد ان ملكها العرب ٣٧٤ سنة . وكان من سوء حظ العرب وقتئذٍ انهُ كثر التحزب والانقسام بينهم فصار ملوك كاستيل يأخذون البلاد منهم ولاية بعد ولاية حتى ان الفونسو الثاني لقب نفسهُ سنة ١١٣٥ ملك اسبانيا كلها لانهُ لم يبقَ للعرب غير القسم الجنوبي منها ولما جاءت سنة ١٢٣٨ رحل كل العرب عن اسبانيا واموا ولاية جرنادا (غرناطه) حيث اسسوا دولة جديدة دامت بعد سقوط دولة الاندلس العظيمة ٢٥٠ سنة ولكنها كانت دولة ضعيفة عاشت بانقسام امراء اسبانيا وتضاغنهم وكانت في اكثر مدة وجودها تدفع جزية الى ملوك كاستيل

وكان اول ملوك غرناطه محمد الاول عاقلاً محبًّا للعلم مثل الذين اسسوا دولة الاندلس وهو الذي بدأ ببناء قصر الحمراء المشهور سيجيء ذكرهُ وخلفهُ سنة ١٢٧٣ ابنهُ محمد الثاني فسار على خطتهِ واتمَّ بناء الحمراء وعضد رجال العلم . ثم تلاهُ ملوك آخرون لم يشتهروا بشيء يذكر وكانت دولتهم تزيد ضعفاً وتقهقراً حتى قام فرناندو الثاني ملك اراجون واقترن بايزابلا ملكة كاستيل فضمَّ المملكتين وصيرهما دولة واحدة قوية في سنة ١٤٦٩ وكان ذلك بدء عصر جديد لاسبانيا ومجد عظيم لم يخطر على البال فان هذا الملك اكتشفت اميركا في ايامهِ وكانت اسبانيا السابقة الى الاكتشاف وامتلاك تلك القارة الواسعة . ثم جعل فرناندو همهُ طرد العرب من اسبانيا كلها حتى لا يبقى فيها ملك سواهُ وكانت امرأتهُ الملكة ايزابلا نشيطة مثلهُ وافقتهُ على رأيهِ فاثار على مملكة غرناطه حرباً شديدة واصلاها ناراً حامية وكان ملكها يومئذٍ واسمهُ ابو عبدالله رجلاً ضعيفاً لم يقوَ على خصمهِ الشديد فسلم البلاد لهُ سنة ١٤٩٢ ورحل مع قومهِ الى شطوط افريقيا وبذلك انتهت ايام العرب في اسبانيا

ولما مات فرناندو بعد امرأتهِ في سنة ١٥١٦ كانت اسبانيا دولة واحدة قوية وليس فيها من العرب غير بعض الآثار وكانت اميركا برمتها او ما عرف منها الى ذلك الحين في قبضة هذه الدولة وقد هاجت الخواطر من اكتشاف تلك القارة وبدأ الذهب يرد منها الى اسبانيا والهمم تتحرك ونفض الناس غبار الخمول وقامت اوروبا بعد ذلك الظلام الدامس تحاول التقدم فكانت اسبانيا في طليعة هذه الممالك العظيمة . ولما ولي الملك كارلوس الاول ابن فرناندو هذا كان صاحب اعظم الممالك ثم انتخب امبراطوراً لالمانيا بحق الوراثة لان امهُ كانت صاحبة الحق في تلك المملكة فصار كارلوس الاول ملك اسبانيا وهو شارل الخامس امبراطور المانيا

اعظم ملوك الزمان في ايامهِ لم تغب الشمس عن املاكهِ ولم ترَ اسبانيا عزًا مثل عز دولتهِ فان الذهب تدفقت ميازيبهُ على اسبانيا مدة حكمهِ من اميركا وصولتهُ عمت البلدان لانهُ قهر فرنسوى الاول ملك فرانسا والسلطان سليمان واذل الامراء المعاندين لهُ وبقية تاريخهِ ذكرت في تاريخ النمسا والمانيا · وتنازل هذا الملك العظيم في سنة ١٥٥٦ عن الملك فخلفهُ في اسبانيا ابنهُ فيليب الثاني وكانت البلاد يومئذٍ في اوج عزها ومعظم ثروتها · واقترن فيليب هذا بماري ملكة انكلترا فلما ماتت حاول الاقتران باختها اليصابات التي خلفتها على الملك وغضب من ابائها فصمم النية على قهرها واخضاع بلادها وارسل على انكلترا اسطولاً عظيماً يعرف باسم الارمادا الكبيرة كانت قطعها ١٣٥ وفي ظن الملك فيليب ان مثل هذه القوة البحرية لا تغلب ولكن الاقدار عاندتهُ فحطمت سفن الانكليز هذا الاسطول بقيادة امير البحر درايك وعاد فيليب عن بلاد الانكليز بالخسران · وكان المذهب البروتستانتي قد نشأ في المانيا على عهد كارلوس الاول فلما صار فيليب ملكاً ورأى تقدم البروتستانت ساقتهُ الغيرة على دينهِ الكاثوليكي الى تعذيب البروتستانت واضطهادهم في كل ممالكهِ وهو الذي ثارت هولاندا عليهِ على مثل ما تقدم في تاريخها وكان فعل القوم في اسبانيا على منتهى القسوة والشدة حتى لم يعد احد الاهالي يجسر على ذكر المذهب البروتستانتي فامحى من ذلك اليوم ولم تزل اسبانيا كلها كاثوليكية محة الى هذا النهار

ومات فيليب سنة ١٥٩٨ معذباً من اشد الامراض آلاماً فخلفهُ ابنهُ فيليب الثالث وتلاهُ فيليب الرابع وهو الذي سلخت البورتوغال عن اسبانيا في ايامهِ سنة ١٦٤٠ وخلفهُ كارلوس الثاني فلما مات سنة ١٧٠٠ احدثت ثورة وحرب انتهت بانتخاب امير من آل بوربون وهم ملوك فرانسا للحكم باسم فيليب الخامس وكان هذا الملك الجديد ابن احدى الاميرات الاسبانيات ويعد من اعقل ملوك اسبانيا هو والذين تلوهُ من آل بوربون فقد كانوا جميعاً اهل حزم وتعقل ظلوا حاكمين من تلك السنة الى ١٧٨٨ حين مات كارلوس الثالث وهو آخر ملوك الدولة البوربونية فحدثت حروب وثورات كثيرة لا محل لذكرها انتهت بعد تولية عدة ملوك وملكات بان كارلوس الرابع تخاصم مع ابنهِ على الملك وحكما نابوليون الاول في امرهما سنة ١٨٠٨ فحكم بعزل الاثنين وجعل اخاهُ يوسف ملكاً للبلاد وكان يوسف عادلاً متأنياً ولكنهُ لم يملك طويلاً لان البلاد قامت عليهِ وجاءت جنود انكلترا فطردتهُ وقائدها يومئذٍ الديوك اوف ولنتون الشهير الذي سحق قوة نابوليون في واترلو · وبعد خروج الجنود

الانكليزية عادت الحروب والقلاقل واستقلت ولايات اميركا الجنوبية كلها سنة ١٨٢٠ فصارت جمهوريات معلوم امرها وقد كان اكثرها للدولة الاسبانية ما خلا بلاد البرازيل فانها كانت تابعة لمملكة البورتوغال وما زال اهل اميركا الجنوبية الى هذا اليوم يعرفون باصلهم الاسباني ولغتهم اسبانية ايضاً . وظل اهل اسبانيا كل يوم ينصبون ملكاً او ملكة وهم لايقرلهم قرار حتى قر رأيهم على تمليك الاميرة ايزابلا سنة ١٨٤٣ ولكنهم عادوا وانقلبوا عليها وهم في ثورات وحروب اهلية الى سنة ١٨٧٠ حين انتخبوا امادبو الاول ابن ملك ايطاليا فكتور عمانوئيل وما ملك غير ثلاث سنين ثم تنازل عن الملك سنة ١٨٧٣ فانتخب الاهالي اميراً من آل بوربون هو الفونس الثاني عشر والد الملك الحالي كان ذكياً مقداماً اسكن ثائر الاهالي واعاد الطمأنينة الى البلاد واقترن باميرة من آل هابسبرج هي والدة الملك الحالي . ومات هذا الملك الطيب بالدواء الاصفر سنة ١٨٨٦ وامرأتهُ يومئذٍ حامل فحكمت مكانهُ وصية للملك حتى ولد ابنها الفونس الثالث عشر وهو الملك الحالي وقد عُنيت الملكة كرستينا بتربيتهِ تربية تساعدهُ على ادارة مهام الملك واستعانت بامهر الاساتذة والمربيات

وفي ١٧ مايو سنة ١٨٩٢ احتفل الاسبانيون بتتويج ملكهم احتفالاً قامت فيهِ اشكال السرور من جميع الناس بارتقاء جلالة الملك الفونسو الثالث عشر عرش ابائهِ واجدادهِ بين مظاهر الطرب والحماس الشديد . وكان يوم التتويج صافي الاديم معتل النسيم خرجت فيهِ مدينة مدريد عن بكرة ابيها مع القادمين اليها من بعيد الاقطار لتشهد الموكب العظيم وترى ابهة الملك . وكان كل المتفرجين باحلى الحلى واثمن الاطالس والحلى زاد عددهم في الشوارع الكائنة بين قصر الملك وقصر مجلس الامة عن ثلاثماية الف نفس . وكانت قاعات المجلس قد ملئت بالمدعوبين العظام من نواب اسبانيا واشرافها وقوادها ورؤساء دينها ووزرائها وحكامها وقضاتها والسفراء والامراء الاجانب الذين جاءوا وفوداً من قبل الدول المتعددة ليشاركوا الدولة الاسبانية في الاحتفال بذلك اليوم احاطوا بعرش الملك والمقاعد المعدة لاقاربهِ حين يجيء ليقسم يمين الامانة . وبينا هم ينتظرون سمعوا هتاف الجماهير من خارج القاعة وتعالت اصوات الناس وتصفيقهم وضجَّ الفضاء بانغام الطرب تزيد وضوحاً لحظة بعد لحظة حتى اذا قرب الملك وموكبهُ من باب المجلس صار الصراخ شديداً يصمُّ الآذان . ودخل جلالتهُ باسماً تظهر على محياهُ علامات السرور والشكر للحاضرين فجعل يلتفت ذات اليمين وذات اليسار يحيي اولئك الكبراء وقد وقفوا حال دخولهِ القاعة ثم جلس فوق العرش وجلس الباقون وتقدم رئيس مجلس الامة فوقف امام الملك ووقف الملك ثم تناول منهُ ورقة كتب عليها صورة

القسم فتلاهُ بصوتٍ جهيرٍ وتعريبهُ كما يجيء :—

« اقسم بالله العظيم وبهذا الانجيل الطاهر اني احافظ على نظام البلاد وقوانينها فاذا فعلت فليجزني الله بما يشأ وان لم افعل فليدعني الله للحساب »

ولما انتهى الملك من تلاوة هذا القسم ضجَّ الحاضرون هتافاً ودعاء وهم يقولون ليحيَ الملك مرة بعد مرة وعند ذلك تقدمت الملكة كرستينا الى ابنها فقبلتهُ وهنأتهُ وهنأهُ بقية الحاضرين من العظماء والكبراء والقى رئيس بلدية مدريد خطاباً موجزاً بين يديهِ فانتهى بذلك احتفال الاسبانيين بارتقاء ملكهم عرش البلاد ودار الملك بعد ذلك بين العظماء الحاضرين يحدث هذا ويلاطف ذاك حتى خرج من قاعة المجلس والكل من ورائهِ ثم ركب الجميع عرباتهم وساروا الى الكنيسة الكبرى حيث تليت صلاة التتويج وكانت الشوارع المؤدية الى تلك الكنيسة غاصة بالوف الخلق ومئات الالوف وآيات الزينة في جانبي كل شارع مرَّ بهِ الموكب تبهر الانظار وملابس الاسبانيين رجالهم ونساءهم ظاهرة الجمال كثيرة التزويق والالوان . وبلغت الزينات اجمل اشكالها حول الكنيسة لان خدمة الدين انفقوا الوفاً مؤلفة على اعدادها باعتبار انهم خدمة دولتهِ الكاثوليكية واعوان ملكهِ من قدم . وكان في الكنيسة من هؤلاء الرؤساء وكيل قداسة البابا وكاردينال سانتياغو وكاردينال برشلونة وثلاثون مطراناً واسقفاً وقفوا جميعهم في مدخل الكنيسة ليرحبوا بجلالة الملك حين وصولهِ . وكانت الصلاة مؤثرة جداً ولاسيما الانغام الروحية التي غناها افراد مدربون استعدوا لها اياماً طويلة من قبل التتويج

ولما عاد الملك الى قصرهِ بموكبهِ العظيم وردت عليهِ التهاني من كل الاقطار ومن نواحي مملكتهِ الوفاً وكان احسن ما قال الملك في الرد عليها جوابهُ المنشور على الامة الاسبانية وفيهِ ما يجيء

« اني وقد استلمت زمام الحكومة من يدي والدتي العزيزة ارسل الى افراد امتي الاسبانية خالص تحياتي وحبي واني عالم بمقدار المسئولية الكبرى التي وقعت عليَّ الآن عازم باذن الله العلي ان اقوم باعبائها باذلاً في سبيل ذلك كل قواي . ولست بجاهل اني ينقصني الاختبار والعلم الذي اناله على ممر الايام ولكنني اؤمل من امتي ان تسمح لي بالوقت الذي يلزم لهذا الاختبار . فاذا ساعدتني العناية الالهية واذا سمح الشعب الاسباني بتعضيدي كما عضدوا والدتي من قبلي في مدة وصايتها عليَّ فان الامة الاسبانية ستعلم اني لست اول افرادها في الرتبة فقط ولكنني اول ابنائها العاملين على ترقية شؤونها والمجدين في المحافظة على سلامتها وعظمتها ولي امل ان الشعب يساعدني على يوم بلوغ هذا القصد الشريف »

وفي تلك الليلة اقيمت حفلة رقص في قصر الملك وهو من اجمل قصور اوروبا كما سيجيء الكلام عنهُ حضرها اربعة آلاف نفس من الامراء والسفراء الاجانب ورجال الحكومة العظام من عسكرية وبحرية واشراف اسبانيا وفيهم العدد العديد من رؤساء العشائر القديمة التي لها شأن عظيم في تاريخ اسبانيا وكان الكل بملابسهم الرسمية ونياشينهم . وكان الملك يلاطف المدعوين باسماً ضاحكاً وعلى صدرهِ نحو عشرين وساماً وردت لجلالتهِ من القياصرة والملوك اثناء تتويجهِ

وفي الغد أي يوم ١٨ في الشهر المذكور استعرض الملك جيشهُ وخطب في الجنود خطبة حماسية وطنية ثم استعرض طلبة المدارس وفي مساء هذا اليوم اقيمت حفلة رقص كانت خاتمة الحفلات في زمان التتويج

وزار ملك اسبانيا عدة عواصم في اوروبا فتعرف بالقياصرة والملوك واسرهم . وكان ينوي في هذه السياحات ان ينتخب لهُ قرينة فاختار البرنسس اوجيني فكتوريا بنت البرنس هنري باتنبرج الالماني وامها البرنسس بياترس اخت جلالة ملك انكلترا الحالي . وكان والد الفتاة قد حضر حرب الاشانتي في شرق افريقيا سنة ١٨٩٦ وبين هو راجع منها الى انكلترا اصابتهُ الحمى قبل ان يبلغ تلك البلاد فمات بها واولادهُ يومئذٍ صغار ولذلك عنيت جدتهم الملكة فكتوريا وامهم بتربيتهم واهتمت البرنسس بياترس للفتاة على نوع اخص حتى انها شبت على احسن المبادىء واشتهرت بعد ذلك بجمالها الباهر حتى ان الملك الفونسو فضلها على كل بنات حواء وخطبها من امها وخالها فقبل طلبهُ وعين يوم ٣١ مايو من سنة ١٩٠٦ موعداً للاقتران في مدريد عاصمة اسبانيا . وكان الملك قبل الاقتران يتردد على لندن لزيارة خطيبته وترتيب معدات العرس ومقدماتهِ وهي كثيرة ما بين السراة والملوك لاسيما وان البرنسيس كانت على المذهب البروتستانتي والملك على المذهب الكاثوليكي . وقد تمت الرسوم اللازمة لذلك واهمها ان الاميرة غيرت مذهبها واعتنقت مذهب الكاثوليك ففي يوم الجمعة الموافق ٢٥ مايو سنة ١٩٠٦ ! اعني قبل الاقتران باسبوع قامت البرنسيس من قصرها بجوار لندن مع والدتها واخوتها وحاشيتها الى محطة ڤيكتوريا التي كانت غاصة بافراد الاسرة المالكة الانكليزية والوزراء واللوردات وفي مقدمتهم ملك انكلترا خالها . وكان فيها من الهدايا التي قدمها اهلها وكبار القوم في انكلترا والمانيا وغيرها ما يقدر بمليوني جنيه من ذلك تاج الماس اهدتهُ اليها الامبراطورة اوجيني ارملة نابوليون الثالث وهي عرابتها اي انها كانت وصيتها ساعة الولادة . وهي اي الامبراطورة صديقة ام الفتاة وجدتها يقال انها

اوصت لها ببعض مالها نظراً الى هذه العلاقة والى كون الامبراطورة اوجيني من اصل اسباني واسم ملكة اسبانيا اوجيني فكتوريا كما تقدم على اسم هذه الامبراطورة واسم الملكة فكتوريا ايضاً

ولما قامت الاميرة الى مدريد ذهب الملك الفونسو الى مدينة ايرون في حدود بلادهِ ومعهُ رجال دولتهِ لمقابلتها فتمت المقابلة بكل وداد وسار بهم القطار بعد المقابلة سيراً بطيئاً حتى يمكن للاهالي في المدن والقرى الاسبانية التي يمر فيها ان يروا ملكتهم الجديدة · وكان في محطة العاصمة الامراء والسفراء وكبار القوم وفي مقدمتهم والدة الملك لما رأت البرنسيس فرحت بها وعانقتها مراراً واملت ان تراها خير قرينة لولدها وملكة عظيمة لاسبانيا · فركبت والدة الملك مع العروس في عربة تجرّها اربعة بغال وكان الملك راكباً جواداً ولابساً كسوة قائد يسير على اليمين الى قصر الباردو الذي أُعد موقتاً للبرنسيس قبل دخولها القصر الملكي · وكانت الشوارع مزدحمة بجماهير الناس جاءوا ليحيوا الملكة الجديدة خصوصاً في شرفات المنازل وكان بعض السيدات يطلقنَ الحمام على عربة العروس من الشرفات · وفي الغد الذي هو يوم السبت الموافق ٢٦ من الشهر المذكور اتت والدة الملك الى قصر الباردو واخذت معها العروس الى القصر الملكي وطافت بها في القاعات والغرف ثم عادت معها الى قصر الباردو · وبعد الظهر من ذلك اليوم اتى الملك وركب مع البرنسيس في عربة من جنس الاوتوموبيل فدار معها في ضواحي العاصمة القريبة وفي يوم الاحد الموافق ٢٧ من الشهر المذكور اقيم قداس في ساحة مكشوفة في القصر بالدور الاعلى أُعدت لذلك وكان قسم من الشعب يصلي في ساحة القصر الخارجية في الوقت نفسهِ · وفي يوم الاثنين سار موكب مكون من مئات من عربات الاتوموبيل ركب فيها اعيان العاصمة وزينت بالازهار والاعلام ومرت امام القصر لتراها البرنسيس · وفي اليوم المذكور ايضاً تشرف رئيس واعضاء مجلس النواب بمقابلة البرنسيس في قصر الباردو فتلا الرئيس خطاب ترحيب مضمونهُ ان الشعب الاسباني اذا اراد ان يختار ملكة لهُ فهي الملكة وما دام قلب ملكهم قد اختارها فاختيارهُ هذا جاء مطابقاً لرأي الشعب وانها سترى من المحبة والاكرام في وطنها الجديد ما ينسيها الاسف على مبارحة الوطن القديم · وفي يوم الثلاثاء قابلها رئيس واعضاء مجلس الشيوخ ورفعوا لها خطاباً آخر مثل الخطاب الاول · وفي يوم الاربعاء حضر وفد من اقليم قطالونيه ومعهُ تاج مرصع بحجار الالماس قدمهُ هدية لها · وفي اليوم المذكور مساء اتت فرقة من المتطوعين الاسبانيين مكونة من ٩٠٠ ضابط و ١٩٠٠ عسكري بالملابس التي كانت الضباط

والجنود تلبسها في القرن السابع عشر ومعهم الطبول والزمور والنفير لحيوا البرنسيس فسرت كثيراً لمنظر هذا الموكب العديم المثال · وفي هذا اليوم ورد تلغراف الى البرنسيس من اهالي قرية براجوز يتوسلون اليها ان تطلب من الملك العفو عن رجل حكم عليهِ بالاعدام وتقرر شنقهُ في الغد بين ان البلاد كلها مشتركة في حفلات الاقتران فقرأتهُ البرنسيس ودفعتهُ الى الملك سائلة عفوهُ فعفا عنهُ وصدر امرهُ بارسال تلغراف الى حاكم تلك القرية بذلك وكان فرح الاهالي عظيماً لما علموا بالعفو

وفي يوم الخميس الموافق ٣١ مايو سنة ١٩٠٦ وهو اليوم المعين للاقتران كانت العاصمة مزدانة بالاعلام والرياحين وغاصة بالمتفرجين حضروا من اطراف اسبانيا وجوانبها حتى كان عددهم يزيد عن مايتي الف ومظاهر الزينة والانوار باهرة في الميادين والشوارع والمنازل والبنايات العمومية · وكان المنزل يوجر بمبلغ جسيم في شارع مايور الذي مرَّ منهُ الموكب · وفي الساعة الثامنة صباحاً ذهبت البرنسيس من قصر الباردو الى القصر الملوكي وجرت رسوم العقد ثم تركتهُ في الساعة العاشرة بموكب حافل كان مؤلفاً من عدة عربات جلست في الاولى منها العروس مع والدتها وجلست والدة الملك مع زوجة ولي عهد انكلترا في الثانية وكان في بقية العربات عدد كبير من الامراء والاميرات · وكان الملك قد سار من القصر الملوكي من جهة اخرى في منتصف الساعة العاشرة بموكب كثير الابهة في مقدمتهِ فارس من كبار اعوانهِ وفرقة من الفرسان ثم ٢٢ موكباً من اعيان اسبانيا بعرباتهم · واعيان اسبانيا مشهورون من قدم في اوروبا بالمجد الاثيل والشرف الباذخ وعلو الجاه ينقش شعارهم على عرباتهم وابواب منازلهم وامتعتهم · وتبع موكب الاعيان مندوبو الدول وهم ولي عهد انكلترا عن ملك انكلترا والكران دوك فلاديمير عن امبراطور روسيا والبرنس هنري فريدريك عن امبراطور المانيا والارش دوك فردنند عن امبراطور النمسا ودوك جنوا عن ملك ايطاليا والبرنس البرت ليوبولد عن ملك البلجيك والبرنس ادولف عن ملك السويد وجميعهم بالحلل الرسمية تتلألأ والوسامات الفاخرة على صدورهم ركبوا في عربات بلاط اسبانيا القديمة المذهبة وهي معروفة بضخامتها وفخامتها ترجع في قدمها الى القرن الثامن عشر وتحفظ لمثل هذه الحفلات قلَّ ان يوجد نظيرها الا في موسكو · ثم ظهرت عربة فارغة نوافذها مذهبة وتسمى عربة اللياقة او الدليل ووراءها عربة الملك سوداء محلاة بالذهب وعليها تاج اسبانيا وكان الملك لابساً كسوة جنرال · وكان النهار جميلاً والالوف المؤلفة من الناس الى جانبي الطريق وفي شرفات المنازل فالتقى الموكبان في ساحة كنيسة جيرومنيو الخارجية · ولما دخل الملك

الى الكنيسة صدحت الموسيقى بالنغم الوطني الاسباني ثم دخلت العروس الى يمينها والدتها والى اليسار ام الملك فصدحت الموسيقى بالنغم الانكليزي الوطني وسارت وامامها الصليب حتى وقفت امام الملك استعداداً للاكليل واذ ذاك ركع الملك برهة قصيرة ثم نهض ومشى من وراء عروسه لعند والدتهِ فركع امامها وقبل يدها وعاد الى محلهِ . ثم ان العروس سارت الى والدتها فعانقتها وعادت الى جانب الملك واذ ذاك بدأت حفلة الاقتران قام بها رئيس اساقفة طوليدو بمساعدة رئيس اساقفة الكاثوليك في توتنهام بارلانده . وكان اهم ما يستلفت النظر في الاحتفال الديني لف الشرائط من الكهنة حول اكتاف العروسين اشارة الى ارتباطهما بالدين الكاثوليكي . وكانت الكنيسة ترفل بحلةٍ من زهر البرتقال وقد ضاءت بالانوار الساطعة تقع اشعتها على الوسامات والحلل المذهبة ومجوهرات السيدات فتزيد الحفلة رونقاً وبهاء . وبعد الصلاة خرج الجمع من الكنيسة في منتصف الساعة الاولى بعد الظهر وكان الموكب الذي بلغ طوله اكثر من كيلو مترين يسير في غاية البهاء والرواء والملك يسلم بيدهِ على الجماهير والملكة تحني رأسها والشعب يهتف لهما وهما في غاية الفرح والابتهاج . وبين هم سائرون على هذه الحالة اذا بقنبلة رماها فوضوي من منزل بالدور الرابع في شارع مايور وقعت بين الخيل ومركبة الملك والملكة فحطمت المركبة وقتل في هذه الحادثة المشؤمة ١٦ نفساً منهم الماركيز دي سوتو مايور رئيس الحجاب وثلاثة ضباط وسبعة جنود من آلاي واد راي وخمسة من المتفرجين وجرح نحو المابة منهم الجنرال ويلر . فنهض الملك حالما انفجرت القنبلة كأنهُ يريد ان يحمي الملكة ولكن الله سلم الرجل وزوجتهُ من الاذى . وكان تأثير هذه الحادثة مؤلماً وشديداً في جميع النفوس . وكان قسم من الموكب قد وصل القصر الملوكي فاسرع احد الفرسان واخبر حاشية الملك والملكة بما حصل وعند ذلك علا النحيب والبكاء في القصر . وانتقل الملك والملكة من عربتهما ساعة هذا المصاب الى عربة أخرى فمرًا بين جثث المقتولين وهما يسمعان انين المجروحين وذهبا الى القصر الملوكي يذرفان الدمع وقد تلوث ثوب الملكة بدم المقتولين الابرياء ولكن الشعب حين علم بنجاة الملك والملكة جعل يهتف هتافاً عظيماً دليل الفرح بهذه النجاة . وكان الحزن والضوضاء شديدين حين نقلت جثث القتلى والجرحى من محل الحادثة فان النساء والاولاد كانوا يتراكضون وراء عربات النقل الذاهبة الى المستشفى هذه تبكي زوجها وتلك ولدها او اخاها والمنظر ساعتئذٍ هائل يفتت الاكباد وكان عدد الذين ماتوا في هذه الحادثة ٢٤ منهم الماركيزة دي تولوزا وعمرها لا يتجاوز ٣٢ سنة اصابتها شذرة من القنبلة وهي واقفة في احدى النوافذ وكان زوجها راكباً في موكب

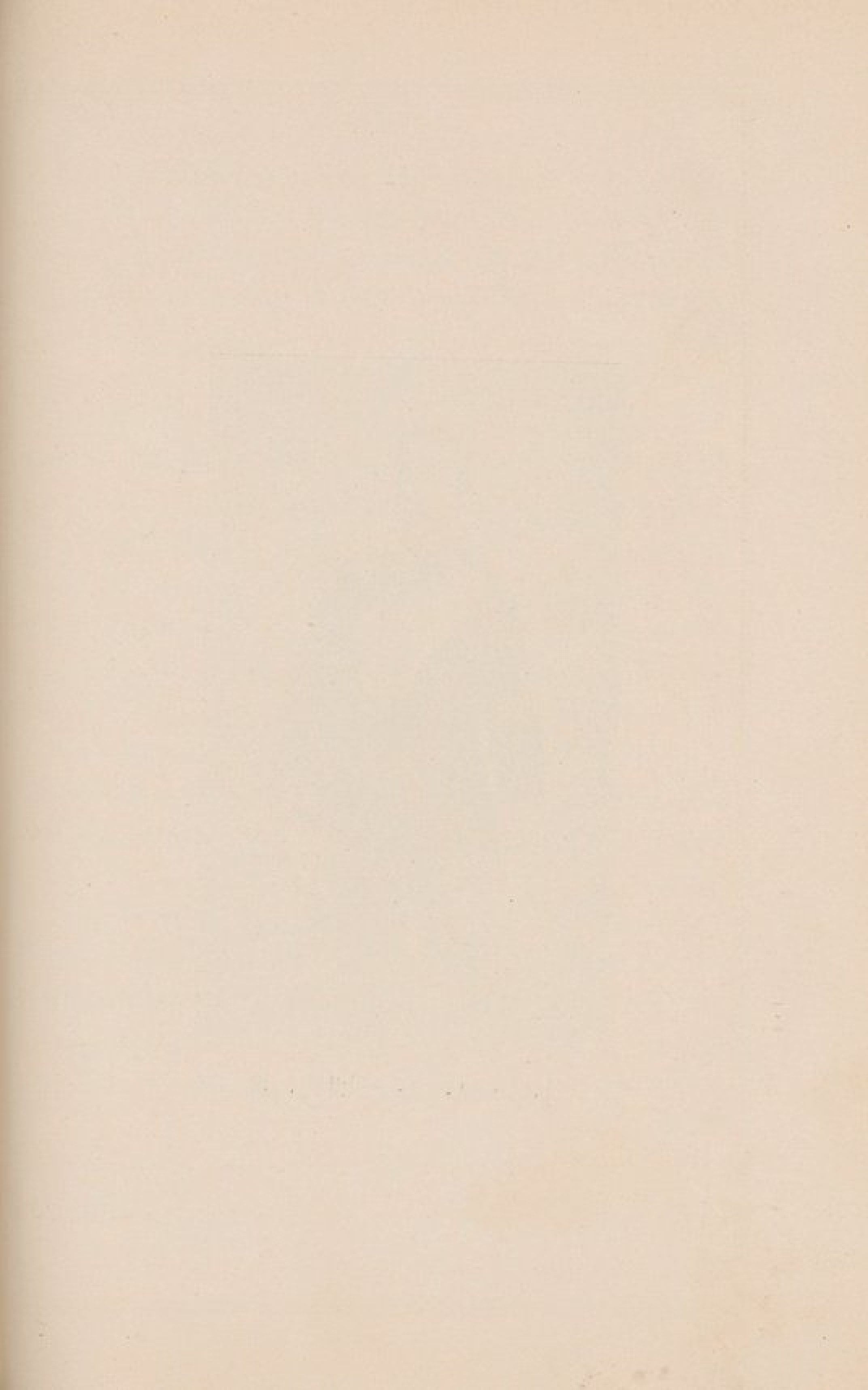
الملك ينظر اليها ساعة مروره النظرة الاخيرة · وقد قتل عدة اشخاص في نفس المنزل الذي القيت منهُ القنبلة لانها انفجرت في الهواء فحدث فيهِ ضغط اودى بالكثيرين ولما بلغت الارض زاد تفرقعها وقتلت عدداً من الذين كانوا حول عربة الملك · ومن الفحص الطبي رأوا ان الجاني كان قد سمَّ القنبلة تعمدًا فدب الفساد في دم كثير من الجرحى وماتوا وان شذرات تلك القنبلة الجهنمية اصابت اقواس النصر المنصوبة وبعض الجدران على مسافة ٩٠ متراً وانها كانت محشوة بنحو ٢٠٠ غرام من الديناميت · وفي اليوم المذكور وردت تلغرافات تهنئة من القياصرة والملوك الى الملك والملكة على نجاتهما واقيمت صلوات في الكنائس الكاثوليكية في اكثر جهات الارض وفي كنيسة قصر ملك انكلترا وارسل رداء الملك الذي تلوث بالدم الى الكنيسة ليخزن فيها علامة الشكر لله تعالى على النجاة · وفي اليوم المذكور مساء اطل الملك والملكة من شرفة القصر على جماهير العالم الواقفة امام القصر فهتفت لهما هتافاً عظيماً · وكان الجاني ينوي القاء القنبلة على الملك بداخل الكنيسة وقد سعى ان ينال ورقة دخول بصفتهِ مكاتب جريدة المانية ودفع ٣٠٠ فرنك لقاء ذلك ولكنهُ لم يتمكن من الحصول على الورقة · فلو انهُ دخل الكنيسة ورمى فيها تلك القنبلة لحبطت الكنيسة على الملك والملكة وبقية الحاضرين وكانت مصيبة من اكبر مصائب العالم

واما الجاني فانهُ فرَّ بعد فعلتهِ الشنعاء واراد السفر ولكنهُ التقى في اليوم التالي باحد جنود البوليس في ضواحي مدريد وسألهُ عن الطريق الى برشلونه فاشتبه الجندي بهِ ولما حاول ان يقبض عليهِ اطلق الجاني رصاصاً على الجندي فقتلهُ ثم اطلق على نفسهِ رصاصة اخرى فمات في الحال

ويقال على الجملة ان ملك اسبانيا الحالي وملكتها من احسن الحاكمين حالاً وخصالاً · وقد رزقهما الله حتى صدور هذا الكتاب ولدين وبنتاً وزادت قوة اسبانيا ونمت متاجرها كثيراً وتحسن مركزها السياسي في العهد الاخير · والملك الفونسو يتكلم عدة لغات اوروبية ولهُ المام بمبادىء الفنون العسكرية والبحرية · وقد لقي اولياء الامر عناء كبيراً في المحافظة على جلالتهِ ورد مكايد الاعداء عنهُ من يوم ولادتهِ لانهم كانوا يتآمرون على خطفهِ او قتلهِ في كل حين فسلمهُ الله من مكايدهم



الفونس الثالث عشر ملك اسبانيا



مدريد

هي عاصمة اسبانيا من ايام فيليب الثاني وسكانها الآن ثمانماية الف نفس فيها كثير مما يستحق الذكر ومن اهم ذلك ميدان الشمس سمي بهذا الاسم لان الاسبانيين يقفون فيهِ تحت اشعة الشمس ويلذُ لهم الوقوف وهو مثابة الخلق الكثير من عامة الاسبانيين . وللقوم ولع بالتدخين فقلَّ ان ترى اسبانياً بدون سيجارة في فمهِ او في يدهِ حتى ان العامل الحقير يؤدي عملهُ طول النهار وهو يدخن والتاجر يكلمك وينجز الاعمال وهو يدخن ايضاً والحوذي يسوق العربة والسيجارة في فمهِ فهي عادة متسلطة على كل فآت الاسبانيين. واسم مدريد عند العرب مجريط محرف عن الاسم الاصلي مثل كل الاسماء التي تداولوها مدة امتلاكهم هذه البلاد

قلنا ان ميدان الشمس هذا موضع مهم في مدينة مدريد فانهُ يحيط بهِ وزارة الداخلية وادارة البرق والبريد واحسن الفنادق والمخازن وهو يعد اوسط المدينة وقلبها تتفرع منهُ الشوارع الكبيرة او تنتهي اليهِ واشهر هذه الطرق شارع (الكالا) او القلعة سمي بذلك لانهُ كان ينتهي في زمن العرب عند قلعة بني موضعها الآن منازل حديثة الوضع . وفي هذا الشارع حوانيت وحانات متقنة ونادي العسكرية ومرسح ابولو ومجلس الوزراء ووزارة المالية وهي بناءٌ ضخم ذات ابواب ثلثة واسعة ووزارة الحرب داخل حديقة جميلة . وينتهي في ميدان آخر أُقيم بهِ قوس نصر تذكاراً لدخول الملك كارلوس الثالث مدريد يتفرع منهُ ثلاثة شوارع الاول يوصل الى مرسح الثيران ولهُ اهمية عظمى هنا سنعود الى بيانها والثاني شمالاً لحارة سلمنكا والثالث يميناً الى ميدان برادو وهو اهم مواقع هذه المدينة واجملها يكنس ويرش مرتين في اليوم لان الخلق تحتشد فيهِ للتمشي وسماع الانغام ونقرب منهُ الحديقة

العمومية دخلناها فاذا هي واسعة الاطراف مليحة الترتيب يزيد بهجتها بحيرة من الماء في وسطها وضعوا فيها زورقاً بخارياً صغيراً يسير عليهِ الاولاد متنزهين فوق الماء . واغراس هذه الحديقة جميلة زاهرة ولكن اشكالها مألوفة كلها وليس فيها شيءٌ غريب من مستعمرات اسبانيا القاصية

وتحوَّلت من هذه الحديقة الى معرض مدريد المشهور للصور وتحف الصناعة الدقيقة وهو بلا خلاف من احسن معارض الدنيا في شيء واحد هو ان الصور الموجودة في غرفهِ من عمل المصورين العظام تزيد قيمة وثمناً عما في غيرهِ . صحيح ان اللوفر الباريزي والناشيونال جالري في لندن فيهما صور اكثر من هذا المعرض ولكن اهل اسبانيا جمعوا اثمن ما صور المصورون الكبار في كل بلاد ووضعوهُ في هذا المعرض وكان ملوكهم يجودون من مال الدولة بسخاءٍ كثير على ابتياع الصور الثمينة لهُ واهمها من صنع رفائيل وڤان ديك وموريلو وهو اشهر من قام في اسبانيا بالتصوير الزيتي لا يمكن ان يخلو معرض في اوروبا من بعض رسومهِ البديعة . وقد جمع مديرو هذا المعرض اثمن ما عندهم من الصور ووضعوها في الدور الاسفل من البناء حتى يمكن نقلها في الحال اذا حدث حريق في المكان وهذا يخالف نظام المعارض الاخرى حيث توضع الصور العظيمة في الدور الثاني من البناء

هذا كلهُ تراهُ في الجهة اليمنى من ميدان الشمس والى ناحية شارع القلعة واما الجهة اليسرى من هذا الميدان فيتفرع منها شارع عظيم مقابل لشارع القلعة المذكور يعرف باسم مايور وهو يؤدي الى بعض ما في مدريد من المشاهد المأثورة مثل دار السلاح وهي معرض كبير للاسلحة لا تقل القطع فيهِ عن ١٢٠٠٠ قطعة ومن اهمها ملابس ملوك اسبانيا القدماء واسلحتهم وهم بهيئة الفرسان غرقوا بالزرد فما ظهر منهم غير العيون . وهنالك سروج عربية مزخرفة بالفضة والذهب وسيوف

من حديد طليطلة الذي اشتهر في الارض شهرة السيوف الدمشقية وآثار أخرى عليها كتابات عربية مثل « نصر من الله وفتح قريب » على شفار السيوف او « بسم الله الرحمن الرحيم » على الملابس وغير هذا مما هو مألوف في هذه البلاد

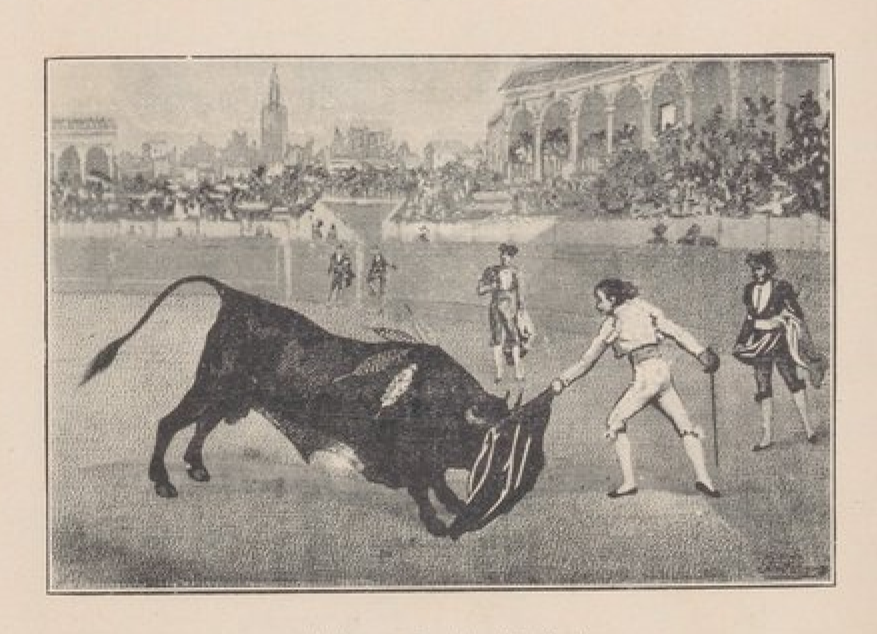
ويلي دار السلاح هذه قصر الملك بني سنة ١٧٦٤ وبلغت نفقاتهُ نحو ثمانين مليون فرنك لانهُ جعل حصيناً متيناً وقصراً فخيماً في آنٍ واحد فيهِ ثمانماية غرفة وامامهُ عدة حدائق متقنة الوضع فمساحتهُ مع الحدائق ٨٠ فداناً وقد جعلوا الدور الاسفل منهُ لوزارة الخارجية ووضعوا في ساحتهِ تماثيل القياصرة الرومانيين الذين نشأُوا في اسبانيا وذكرناهم في المقدمة التاريخية وفي هذا الدور عربات الملوك القديمة تستعمل في الحفلات الرسمية ولها بغال عظيمة لجرها يتفاخر بها الاسبانيون تفاخر غيرهم بالجياد الصافنات. واما الدور الاعلى فمنهُ قسم خص بالملك وقسم آخر للمقابلات الرسمية والتشريفات وهو لا يقل عن ثلثين غرفة واسعة متقنة الترتيب ثمينة الرياش تليق بابهة الملك وذوق الاسبانيين وهم اهل اعجاب بوطنهم وصلف وكبرياء كما تقدم. وقد رأيت غرفة السفراء في هذا القصر وهي قاعة فسيحة فخيمة ملبسة جدرانها بالقطيفة النفيسة ولها برواز من القصب وفيها ١٢ ثريا كبيرة تتدلى منها المصابيح العديدة وفي صدرها كرسي الملك ما بين اربعة سباع من النحاس المذهب وتماثيل تشير الى الحكمة والعدالة وصورة الدولة الاسبانية حانية رأْسها امام الكنيسة وهي علامة التدين وتمسك اسبانيا بالمذهب الكاثوليكي. وفي هذا القصر كنيسة صغيرة ولكنها بديعة الصنع قامت عَلَى عمد من الرخام الابيض وفيها من نفيس الصور وجميل التذهيب والزخارف ما يستحق الاعجاب. وفي الدور الاسفل من هذا القصر موضع للعربات التي اقلت ملوك اسبانيا السابقين واكثرها بني على الطرز الشرقي ولبعضها جمال كثير. هذا اهم ما يذكر في عاصمة الاسبان غير مرسح

الثيران و بيانهُ في الفصل التالي

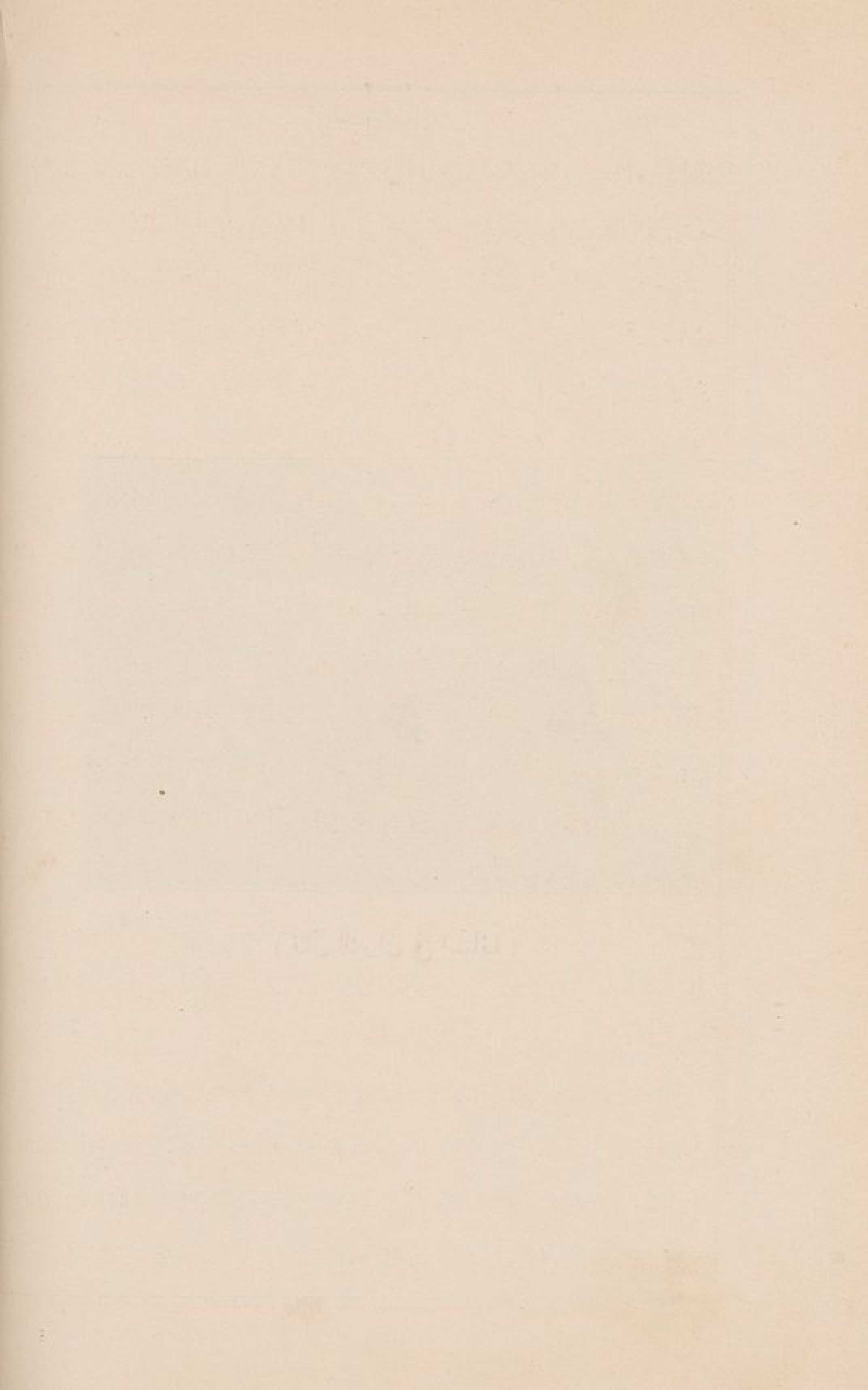
قتال الثيران

افردت لهذه العادة الغريبة فصلاً خاصاً بها لانها اهم ما يروى عن اسبانيا واشهره ُ ولان الاهالي لهم بها شغف يقرب من الهوس والجنون وهي عادة منكرة قاصرة على اهل اسبانيا لا تليق بتمدن الايام الحديثة ولا تزيد هذه العادة عن مجزرة للخيل والثيران وفيها خطر عظيم لبعض الافراد يلذُّ للاسبانيين التفرج عليها الى حدٍ يفوق التصديق فانهم يأْتون بثيران كبيرة قوية القرون يعلفونها ويحضرونها للقتال في مراسح واسعة ثم اذا جاء موعد الفرجة هيجوها وحرشوها ودفعوها الى ذلك المرسح فتجد امامها رجالاً يهيجونها بالشالات الحمراء والوخز بالحراب الدقيقة حتى اذا اشتد هياجها جاءها فرسان يقاتلونها بالحراب فتهيج هذه الثيران وتهجم على الفارس والفرس فتبقر بطن الفرس وتلقي الرجل في الخطر واذا انتهت من فعلها هذا قتلوها وجروها من المرسح مع الخيل المقتولة فالفرجة كلها على هذه الحيوانات كيف تقتل . كل هذا يراه ُ المتفرجون رجالاً ونساء ولا يتأثرون بل هم اذا اشتدَّ الهول و كثرت فظاعة المنظر ورأوا دماء هذه الحيوانات المعذبة تسيل طربوا وفرحوا وصفقوا لها كثيراً وقد ماتت عواطف الحنان والشفقة منهم بفعل تلك العادة

قصدت مرسح الثيران في مدريد يوم الاحد فما قدرت على ابتياع التذكرة لدخولهِ الاَّ بعد عناء كثير تكبده ُ صاحب الفندق لان الاقبال على تلك الفرجة كان فوق ما تتصوره ُ العقول . ومرسح مدريد اعظم مراسح الثيران في اسبانيا كلها وفي صدرهِ اماكن للاسرة المالكة ومع انهُ يضم خمسة عشر الفاً فما بقي فيهِ موضع



(قتال الثيران في اسبانيا)



خالياً وكان الوصول في ذلك النهار الى المرسح عسراً جداً من كثرة الزحام ووفود القاصدين ومنظر الناس فيهِ وهم ١٥ الفاً غريباً لانهم قعدوا طبقات طبقات تتدرج من ارض المكان الى سقفهِ وفي الاسفل ساحة كبيرة للمصارعة يحيط بها حاجز من الخشب غير مرتفع ولكنهُ متين وهو يفصل الساحة عن مقاعد المتفرجين وفي احدى الجهات من تلك الساحة ابواب من الخشب تفتح وتقفل من الوراء ليدخل منها المبارزون والوحوش. وكان الناس ينتظرون بدء القتال بذاهب الصبر حتى اذا فتح احد الابواب وبدأ الفصل الاول صفقوا كلهم طربين معجبين ودخل ثور كبير جعل يركض في عرض الساحة كانما هو يقول هل من مبارز هل من مناجز فعندئذٍ دخل الساحة رجلان يلبسان الجوخ الاحمر المقصب ومع كلٍّ منهما شال احمر يحرش الثور ويهيجهُ فجعلا يغضبانهِ بابراز الشال حتى هاج وغضب ففرّا الى ما وراء الحاجز الخشبي الذي ذكرناهُ

ثم دخل رجلان آخران على شاكلة من ذكرنا ومعهما باليد اليسرى شال احمر وباليمنى حراب طول الواحدة نحو متر ونصف ملبسة بالقماش الاحمر ويتدلى منها شرائط حمراء فجعلا يقاتلان الثور بهذه الحراب وهما كلما تقدم عليهما عرضا لهُ الشال الاحمر فينطحهُ تشفياً منهُ وغيظاً. وبعض هذه الحراب المذكورة تغرز في رقبة الثور وبعضها لا يعلق بها بل يسقط الى الارض ويوجب سقوطها ازدراء الحاضرين كما انهم يصفقون استحساناً اذا غرزت الحربة في رقبة الثور. فلما سال دم هذا الثور واشتدَّ هياجهُ دخل ثلاثة فرسان على الخيل معهم حراب طويلة جعلوا يطعنونهُ كلٌّ في دورهِ فعند ذلك هجم الثور على الحصان الاول ووضع رأسهُ تحت بطنهِ فبقرهُ والقاهُ شطرين ثم هجم على الحصانين الآخرين وفعل بهما كالاول حتى وقعت الافراس الثلاثة تتخبط بدمائها واما الفرسان فانهم سقطوا الى الارض لما قتلت خيلهم وفي

الحال فروا من وراء الحاجز ما عدا احدهم اغمي عليهِ فبادروا الى اعانتهِ وانتشالهِ حينما كان الثور يدوس جثث الخيل و ينظر الى الحاضرين نظر الفائز المنتصر

وبعد هذا دخل محارب يسمونهُ تورير و اي الرجل الثوري ومعهُ الشال الاحمر والحربة فجدَّ في محاربة الثور الى حد ان وقف الاثنان ينظر احدهما الى الآخر غيظاً فحينئذٍ طعن الرجل الثور بحربة في رقبتهِ فاخرجها من الجانب الآخر فلما وقع هذا الثور المسكين قتيلاً هاج المتفرجون طرباً وصفقوا استحساناً وصدحت الموسيقى فرحاً بتلك المذبحة ثم دخلت عربات ورجال جرَّت الجثث الى الخارج. هذا هو الفصل الاول من صراع الثيران يتبعهُ فصلان آخران لا يختلفان عنهُ كثيراً غير انهُ يدخل في الدور الثاني بنات على ظهور الخيل يبدهنَّ الحراب فيحاربنَ الثور ولا يعرضنَ انفسهنَّ ولا خيلهنَّ للخطر بل يلتزمنَ الفرار كلما هجم الثور عليهنَّ

وقد تأثرت من هذا المنظر واذهلني فقد الشفقة من صدور القوم حتى اني عند خروجي من هذا المرسح سألت رجلاً منهم رأيهُ في ذلك فاجابني بما يفهم منهُ انهم يعدون ذلك القتال براعة وجرأة واما الخطر الذي يلحق بالرجال المحاربين فلا يعتدون بهِ لانهم يعدون ذلك من اشكال الاقدام ولا بدَّ في رأيهم من قاتل ومقتول في كل معركة. وقد زادني عجباً ان فقد الشعور الى هذا الحد غير قاصر على الرجال بل هو يشمل النساء والاولاد والبنات وهم جميعاً كانوا يصفقون طرباً لتلك المناظر الفظيعة

وفي كل مدينة اسبانية تذكر مرسح لقتال الثيران تنشر اعلاناتهُ في الجرائد فتأتيهِ الناس خاصة في السكك الحديدية من الاماكن والقرى البعيدة لما اشتهر عنهم من الولع بهذه المناظر. وقد حاول بعض الفرنسيين ان يدخلوا هذه العادة الى فرانسا وانشأُوا لذلك محلاً في غاب بولونيا في باريس فعارضتهم الحكومة

واضطروا الى ابطالهِ . ولا عجب في هذا فان اكثر الامم المتمدنة لا تخلو من عادات وحشية تلام عليها من ذلك عادة الملاكمة عند الانكليز ولها مراسح خاصة يتلاكم بها الرجال الاقوياء ويسيل الدم من وجوههم على مرأى من الالوف وهم يفرحون لبلواهم ويطربون ويصفقون للفائز من المتلاكمين

الاندلس

كان جلُّ مرادي من السياحة في اسبانيا ان أرى بلاد الاندلس البهية حيث شاد العرب مملكتهم الزاهرة المشهورة ولهذا فاني قمت من مدريد في قطار الحديد قاصداً هذه الولاية ومررت في ارض كثيرة المزارع والربى والآجام يزرع فيها الرمان والبرتقال والعنب والتين وغير هذا من اشكال الفاكهة اللذيذة والبقول الخضلة التي تكثر في اسبانيا كلها وفي هذا الاقليم بنوع اخص وهو يرويهِ نهر سماهُ العرب باسم الجدول الكبير واسمهُ الاسباني (جواد الكفير) . وبعد سفر ١٢ ساعة في القطار وصلت مدينة

☸ كوردوفا ☸ واسمها عند العرب قرطبة وهي مدينة قديمة العهد في تاريخ اسبانيا كانت مقرًّا لمتاجر الفينيقيين الذين انشأوا فيها معاصر للزيت وانتقاها الرومانيون من بعدهم فجعلوها نخبة المدائن الاسبانية حتى ان بعض قياصرتهم ولدوا فيها مثل تراجانوس وادريانوس . كل هذا وهي ما رأت عزًّا عظيماً مثل عز الدولة العربية حين جعلها عبد الرحمن الاموي قاعدة مملكة الاندلس وصارت مقرًّا للعلم والصناعة تضاهي بغداد في ذلك على عهد الدولة العباسية حتى ان عدد الجوامع في قرطبة على عهد عبد الرحمن بلغ ٧٠٠ جامع غير المدارس والحدائق والمتنزهات الكثيرة

وحين وصولي قرطبة نزلت في فندق اوريان بني في ميدان يعرف باسم

قبطان باشا وقد تميز هذا الميدان باغراس من البرتقال والنخل جعلت صفوفاً متبادلة اي انهم زرعوا نخلة تليها شجرة برتقال في طول تلك الصفوف وهم يقصدون من ذلك تمثيل الذوق العربي . وخرجت من هذا الفندق ماراً بالميدان المذكور فقصدت آثار جامع عظيم بناهُ الامير عبد الرحمن الاول صاحب الاندلس وقصد من بنائهِ ان يجعلهُ نداً للجامع الاموي في دمشق . ولهذا الجامع شهرة ذائعة فلطالما بالغ كتاب الافرنج في شرح محاسنهِ حتى انهُ ليعدُّ من معجزات الصناعة وافخر ما تركهُ الاولون للآخرين بني على عمد من الرخام بعضها احمر وبعضها اخضر والبعض ابيض او لها الوان أُخرى وعدة العمد كلها من داخل الجامع ٧٥٠ فكأنما هي حقل زرع عمداً شهية وقد نصبت صفوفها الحسناء تلي بعضها البعض علَى نسق يمثل للناظر الجمال والفخامة والعظمة في لحظة واحدة . وطول هذا المعبد من داخلهِ ١٦٧ متراً والعرض ١١٩ وصفوف الاعمدة العظيمة فيهِ لا تقل عن ٣٦ صفاً لها مهابة يقصر عن وصفها الشرح الطويل ولهُ مأذنة عريضة يمكن للرجل ان يرتقيها على ظهر الجواد وعلوها ٩٣ متراً ومحراب وقفت امامهُ زماناً اتأمل تلك المحاسن البديعة وهو قطعة واحدة من الرخام الابيض زخرف بالفسيفساء النادرة الاتقان وفوقهُ مصباح من الذهب الوهاج ولذلك منظر لا يمحي من الاذهان . ولهُ ايضاً مقصورة صنعت من خشب الابنوس والند حفرت فيها رسوم وآيات كاملة الجمال قد لا يأتي بمثلها مهرة الصناع في هذا الزمان وقد كان هذا الجامع ينار بمصابيح عددها ٧٤٢٥ ولا عجب في ان الاسبان لما جعلوهُ كنيسة لم يغيروا شيئاً من وضعهِ اللطيف فقد قيل ان احد الاساقفة اراد تغيير شيء منهُ على عهد شارل الثالث ولكن المجلس البلدي خالفهُ في الرأي فبقي الجامع على حالهِ وحدث ان هذا الملك زار الجامع بعد ثلاث سنين فقال لمن حولهُ من خدمة الدين بحقكم ألاَّ تغيروا شيئاً في

هذا المعبد العظيم فان الذي تريدون احداثهُ يمكن وجود مثلهِ في كل يوم واما هذا فلا نظير لهُ في الوجود . وهذه شهادة بعظمة هذا البناء الفاخر الذي يفتخر بمثلهِ الاوائل على الاواخر

وليس في قرطبة الآن شيءٌ يستحق الذكر غير هذا الاثر العظيم واطلال دارسة وآثار عفت ما بقي منها غير الموضع . من ذلك ناحية على مقربة من المدينة اسمها فيجا بنى فيها عبد الرحمن الثالث قصر الزهراء المشهور في تاريخ الاندلس بطلب من زوجتهِ الزهراء اذ رجتهُ ان يبني لها قصراً تقضي فيهِ آخر ايام الملذات فاحضر المهندسين والبنائين من بغداد والشام و بلاد الروم وجهات اسبانيا وجاء بالخشب من الشام وافريقيا و بالمرمر من بعيد الاقطار واشغل في البناء عشرة آلاف عامل وثمانماية بهيم . ثم انفق مالاً على زخرفهِ ورياشهِ ووضع فيهِ الادوات المرصعة بالحجارة الكريمة بعضهُ شري بالمال و بعضهُ جاءهُ هدية من الملوك المعاصرين . وكان من قاعات هذا القصر غرفة زوجتهِ التي بني القصر لها زر كشت مفروشاتها باللؤلؤ وجدرانها بالفسيفساء ومن ادواتها سرير لها قام على عمد من البلور وطشت وابريق من الذهب مرصعان بالجواهر . ويتبع ذلك مواضع للخادمين والاعوان منهم ٦٠٠ جارية وحراس خارج القصر لا يقلون عن ٤٠٠٠ راجل و٨٠٠٠ فارس . وقد كان عبد الرحمن ينفق ايراد الدولة على بناء هذا القصر مدة ٢٥ سنة ويقال بوجه الاجمال ان النفقات بلغت مبلغاً هائلاً وما بقي لهذا القصر العظيم الى الآن اثر بل ان في مكانهِ بساتين واغراساً فسبحان الذي يغير ولا يتغير

☀ سفيل ☀ واسمها العربي اشبيلية — قصدتها بعد قرطبة وهي التي كانت مقر ملوك اسبانيا على عهد الدولة الغوثية ومنها نشأت الفتنة التي ادت الى قدوم العرب وخضوع البلاد لهم . وهي الآن مدينة جميلة يخترقها نهر جميل وتكثر فيها

البساتين والحدائق الغناء كانت في ايام العرب معروفة بعلومها واثارها وعدد سكانها الآن نحو ١٥٠ الفاً . يذكر عن هذه المدينة انها شرقية في منظرها عامة وخاصة فان كثرة البساتين والفاكهة ونظام البيوت والشوارع يخيل لك انك في بلاد شامية لان البيوت هنا شرقية الوضع لها في مدخلها فسحة صغيرة يجلس فيها رب الدار ويقضي اعمالهُ مع زائريهِ ويليها حاجز من الشعرية ووراؤهُ فسحة كبيرة مبلطة بالرخام الابيض تزرع فيها الازهار والاغراس من برتقان وورد وزنبق ومنثور وفي وسطها بركة من الماء يجلس حولها اهل البيت وفوقهم القبة الزرقاء ومن حولها الغرف ارضها بلاط ابيض فكل ذلك يحكي ما في دمشق الشام من نظام المنازل

واني حال وصولي هذه المدينة قصدت بناء شهيراً يسمونهُ الكازار محرفاً عن القصر وقد صارت هذه الكلمة ذات شهرة في اوروبا مثل الممبرا المحرفة عن الحمراء يسمون بها الحانات والملاهي والمراسح في اكثر العواصم الاوروبية. وذهبت الى الالكازار وهو قصر الامير عبد العزيز من امراء الدولة العربية قام عَلَى عمدٍ وركائز من الرخام الابيض وقاعاتهُ كلها مزينة بالفسيفساء المذهبة وهي نادرة المثال عظيمة المجال والسقوف الواح سميكة من الخشب حفرت عليها رسوم وآيات جميلة على النسق العربي المشهور والشبابيك فيهِ واطئة عريضة اكثرها لا يخلو من رسوم عربية . ودخلت الحمام الكائن في هذا القصر فاذا هو آية من آيات الاتقان الشرقي كان بانيهِ يرتاح الى الجلوس على مصاطبهِ لاسيما وروائح الند والعود تتضوع من جوانبها ولهُ في اعلاه كشك كانت الغيد الحسان تسمع الامير منها شجي الالحان وهو راقد فوق وثير الفراش وقد نسي متاعب الزمان. هذا هو الحمام الشتوي واما الصيفي فوضع داخل قسم النساء من وراء الحديقة

يشبه بمنظرهِ فسقية شبرا المشهورة ولهُ طريق مبلطة ارضها بالطوب الاحمر ينفذ الماء من انابيب فيها لا تظهر للعين فاذا فتح لها مفتاح تدفق الماء على نسق بديع من تلك العيون الخفية . وحديقة الحرم مشهورة بجمالها ايضاً تمشينا فيها بين شهي الاغراس واشجار المانلا تفوح منها الروائح العطرية واشجار نخل و برتقال وتفاح وغير هذا مما يذكر المتفرج بالهناء الشرقي والحياة الخالية من الهم . واعجبني نوع من البرتقال تظهر الفصوص في ثمرهِ من قبل ان يقشر وطعمهُ شهي لذيذ

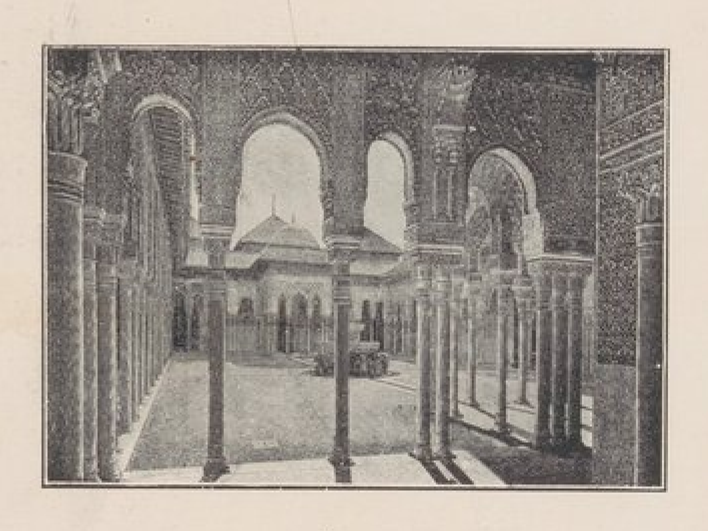
ومما يذكر في هذه المدينة كنيسة جيرالدا هي اعظم كنائس اسبانيا واشهرها بدأ كارلوس الاول ببنائها واتمها الملوك من بعدهِ وكانت بغيتهم جعلها احسن الكنائس فوسعوا نطاقها واشتروا لها من التحف والمثمنات ما يقرب من تحف كنيسة مار بطرس في رومه و كنائس روسيا المشهورة . وفي هذه الكنيسة مدفن ابن خرستوفوروس كولومبوس مكتشف القارة الاميركية . وفي هذه المدينة معمل للسجاير للحكومة تعمل بهِ اربعة آلاف ابنة وامرأة وسجايرهُ مشهورة باسم سفيل. وضواحي المدينة بديعة الجمال نامية الشجر والاغراس الشهية قضيت نهاراً ادور في جوانبها وراق لي حسنها الباهر وعدت في السهرة فرأيت رقص البنات الاسبانيات وهنَّ يلبسنَ جلباباً قصيراً الى حد الركبة ويمسكنَ بالدفوف ينقرنَ عليها ساعة الرقص وعلى رأسهنَّ منديل مثل بنات العرب ومنظرهنَّ كثير الجمال وهذا جل الذي يذكر عن اشبيلية برحتها قاصداً غرناطه والمسافة ١١ ساعة في قطار الحديد

✻ جرنادا ✻ سكانها تسعون الف نسمة واسمها العربي غرناطه . لم يعرف عنها شيء قبل دخول الاسلام الى اسبانيا فهي مدينة عربية محضة ولم تزل كل محاسنها الى هذا النهار آثاراً عربية ووضعها عربي يروق للناظرين وقد اصبحت بلدة لا يزيد عدد سكانها عن سبعين الفاً على حين ان منازلها كانت تزيد عن هذا

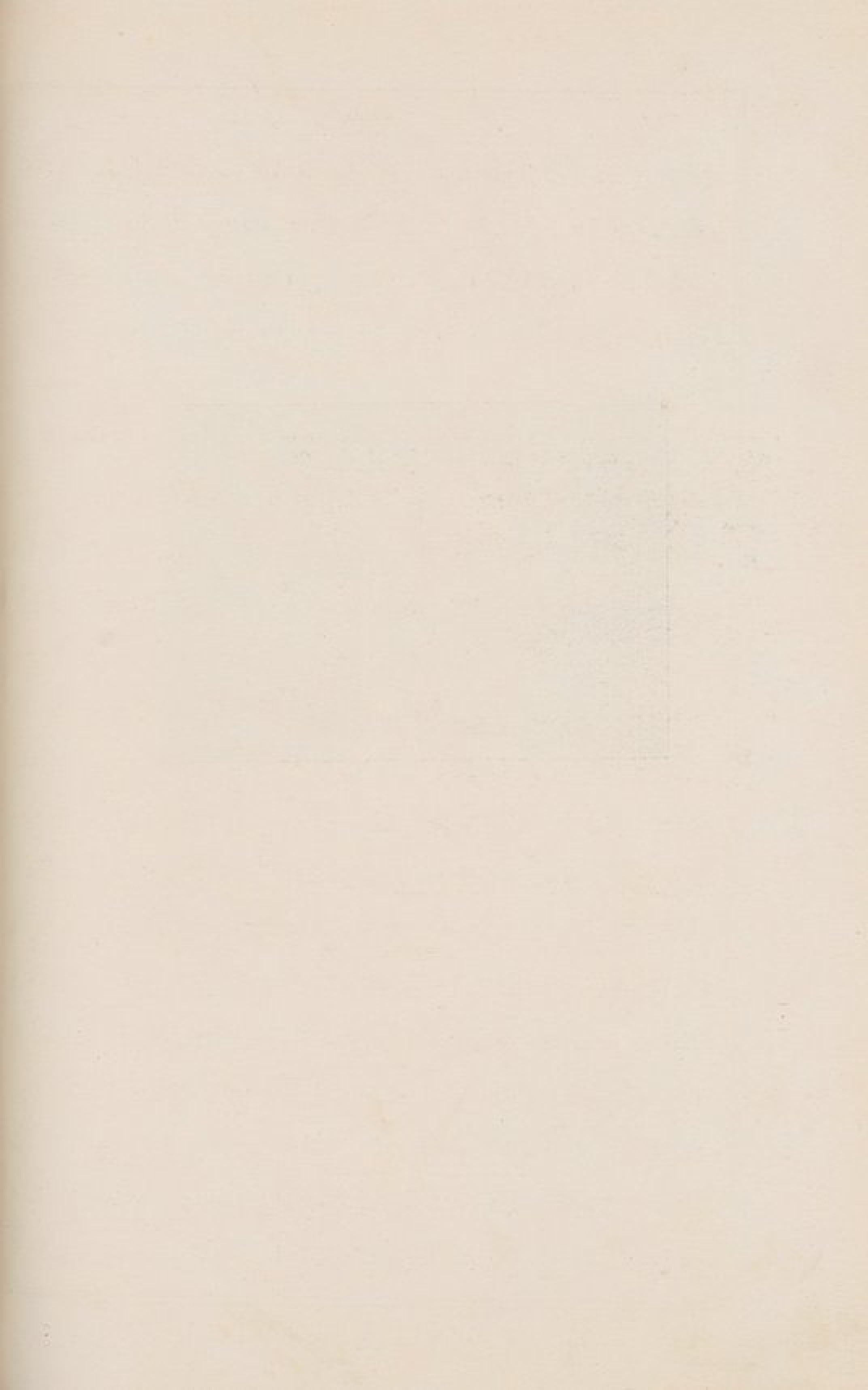
العدد في ايام عزها السالف حتى انهُ ليس فيها شيء يذكر غير هذه الآثار العربية المبنية على قمة جبل شيدت فوقهُ الفنادق العظيمة يقصدها السائحون وقد كانت غرناطة عاصمة الدولة العربية الثانية التي اسسها محمد ابن الاحمر المعروف باسم محمد الاول الغالب سمي بذلك لانتصاره في كثير من المواقع ولما سمع الناس يقولون لهُ ذلك يوماً اجابهم ان « لا غالب الاَّ الله » وقد اشتهرت هذه العبارة عنهُ ونقشت على كل جوانب القصر العظيم الذي بناهُ ويعرف باسم الحمراء او الهمبرا وهو من عجائب الآثار الجليلة ولعلهُ اعظم آثار القرون الوسطى في البلاد الاوروبية . واسم الهمبرا متداول في اوروبا يسمون بهِ المراسح والحانات وهذا بعض ما يستحق الذكر عنهُ

اني جعلت همي الاول بعد وصولي مدينة غرناطه التفرج على الحمراء هذه وكنت قد قرأت عنها في كتب الفرنجة اشعاراً وفصولاً نفيسة حتى اني رأيت في كتابة بواتو الرحالة الفرنسي ما يزيد عن المبالغات الشرقية في وصف عظمة هذا القصر وغرائبهِ وهو والحق يقال يمثل قوة الادراك والخيال وبراعة التنظيم والهندسة والاتقان الى حدٍ يوجب كل هذا الاعجاب وما كذب الذي قال ان باني هذا القصر جمع كل ما وصلت اليهِ علوم البشر من انواع الزخارف واضاف اليها فنون الجن وقصورهم الفخيمة على ما جاء في حكايات الاولين فكانت النتيجة بناءٌ يسحر الالباب ويذهل العقول وجمالاً ما لهُ في آثار الغربيين مثيل

ولقد مررت باغراس وصفوف من الشجر البديع في طريقي من الفندق الى الحمراء وخرير الماء بين صفوف الصنوبر والحور والصفصاف يزيد بهجة المكان ويعدُّ الفكر للتلذذ بمرأى تلك الدار الغريبة حتى اذا وصلتها دخلت من باب العدل نقش فوقهُ مفتاح ويد مبسوطة الى ناحية السماء ورأيت من بعد الباب " ساحة



(قصر الحمراء)



كبرى توسع للفكر المجال اسمها حوش القاضي ويليها حوش الآس زرع بهِ من اغراس الآس شيء كثير وهو على ما تعلم من اجمل اشكال النبات واطيبه نفحاً وسرت بعد ذلك في رواق مستطيل قام على ١٤٨ عموداً من الرخام الابيض مكللة رؤوسها بالنقوش البديعة وقد وضعت اربعة اربعة وثلاثة ثلاثة وهي طويلة مستدقة لها جمال رائق وفي اكثرها آثار التذهيب من ايام بنائها . وارض هذا الرواق مبلطة بالرخام الابيض وجدرانهُ مكسوة بتراب الرخام وقد نقشت كلها نقشاً دقيقاً حتى صار منظرها يقرب من منظر الخرج المشغول بالابر لدقة زخارفهِ ورقة نقوشهِ والواقف في هذا الرواق يتأمل منظر عمدهِ الباسقة وجدرانهِ المتناسقة لا يملك النفس عن اظهار الطرب والاعجاب بذكاء الذين نظموا تلك المحاسن على هذا الشكل المليح

ودخلت بعد هذا قاعة السفراء وهي من غرائب هذا القصر بني سقفها مثل سقوف الجوامع وكسيت جدرانها لحد مترين بالقيشاني الازرق يشبه الفيروز وفوق هذا القيشاني الثمين في جميع الجدران نقوش دقيقة رقيقة مثل التي مرَّ ذكرها وعبارة « لا غالب الاَّ الله » في كل الجوانب . وهنالك عبارات أُخرى ايضاً مثل « الفتح والنصر المبين لمولانا ابي عبد الله امير المسلمين » . ولهذه القاعة شبابيك واطئة كثيرة الاتساع يمكن الجلوس عليها لعدة افراد وهي تطل على وادٍ بهي وراء غرناطه واتساع القاعة مع ما فيها من تلك الزخارف يشرح الصدور . واعظم منها حوش السباع سمي بذلك لان في وسطهِ بحيرة يتدفق الماء من انابيب جميلة فيها وقد قامت على سباع عدة كلها من الرخام ولهذه البركة ذكر في التاريخ لانهُ قتل فوقها ٣٦ اميراً من بني سراج اصحاب الدولة العربية في ذلك الحين بدسيسة من آل زقل ومن حول تلك البحيرة مجال واسع مبلطة ارضهُ بالرخام ايضاً وصفوف

من العمد المستدقة ذات النقوش الفاخرة والتيجان المجللة باحسن الزخارف وقد ارتفعت من فوق هذه العمد قبة شاهقة تزيد بهاء هذه القاعة فاذا ما وقف المتفرج في وسط هذه القاعة الكبرى يسمع خرير الماء ويرى من حولهِ هاتيك العمد كالعرائس تسطع وتلمع من كل جانب خيل لهُ انهُ في جنة الخلد وزاد اعجابهُ بمقدرة الذين بنوا هذا الاثر العظيم

ودخلت بعد ذلك الحمام الصيفي والحمام الشتوي وهما على شاكلة الذي تقدم وصفهُ من حمامات العرب الاخرى وتأملت تلك السقوف في غرف القصر كلها وهي مصنوعة من الواح خشبية سميكة عليها حفر وترصيع بالذهب والعاج وعرق اللؤلوء واكثر الخشب في السقوف من الابنوس الثمين وليس في البناء كلهِ سقف او جدار يخلو من نقوش عربية وآيات قرآنية محبوكة اطرافها مشتبكة فروعها كنت اقصدها للتأمل في محاسنها يوماً بعد يوم لئلا يفوتني شيء منها وهي كما تعلم كبيرة طولها ٧٢٦ متراً وعرضها ١٩٧ وقد بنيت على احد جبال ثلثة غرست فيها اشجار الصنوبر والسنديان من قدم والماء يتدفق من جوانبها فما اجتمعت محاسن الطبيعة والصناعة في مكان اكثر من اجتماعها في ذلك المكان البديع

وفي غرناطه وضواحيها عدة آثار عربية منها قصران على مقربة من الحمراء وهما يشبهانها بعض الشبه في النقوش والزخارف كانا مسكناً لقواد العساكر . وفي الضواحي قصر آخر يسير اليهِ المتفرج بين حراج من الزيتون والرمان والبرتقال والجوز وهو ايضاً على شاكلة الحمراء بناهُ محمد الثاني وكتب على جدرانهِ قول سلفهِ « لا غالب الاَّ الله » مراراً . وقد اعجبني منظر الرمان في هذه الجهة وهو مشهور بلذتهِ حتى ان الافرنج يسمونهُ باسم غرناطه (بومجراناد) ومعنى اسمهُ عندهم تفاح غرناطه . وقد زاد في حسن هذا القصر انهم ادخلوا الى حديقتهِ الغناء فرعاً من

النهر فالذي يرتقي الاكمة المبني عليها القصر بين صفوف الشجر و بحيرات الماء وجداولهِ لا يملك نفسهُ عن ابداء الطرب والعجب . وفي داخل القصر هذا ايضاً جامع نخيم مبلط بالرخام وجدرانهُ مملوءة بالقيشاني وخشبهُ منزل بالذهب والعاج وفيهِ رسوم كثيرة الجمال وآيات دينية مختلفة الاشكال

واما جرنادا او غرناطه الحالية فليس فيها شيء يذكر غير اني شهدت احتفالاً دينياً يجلّون قدرهُ هنا كثيراً فانهم في عيد العذراء من كل عام — وهو يقع يوم ٢٣ سبتمبر — يسيرون بموكب حافل في طرق المدينة ويشترك في هذا الموكب رجال الحكومة والدين والاهالي كلهم واصحاب الحرف والصنائع ويتكوَّن من ذلك مشهد عظيم يستحق الذكر يبدأ بجوق من رجال الموسيقى جميل الملابس تتبعهُ شرذمة من الجنود ثم جوق آخر وشرذمة اخرى من الجنود ايضاً يتبع اثرها رئيس المجلس البلدي واعضاؤهُ والتجار وارباب الحرف ومع كل فئةٍ علم كتب عليهِ اسم الحرفة . ويلي هؤلاء محافظ المدينة بملابسهِ الرسمية والنياشين ثم رجال الدين يرفع احدهم صليباً قديم العهد فوق عصاً من الفضة ثم تمثال العذراء من الجبس لابسة فاخر اللباس المزركش وعلى رأسها اكليل من الالماس والملابس كلها مرصعة بنفيس الجواهر ويرفع هذا التمثال اكبر سراة المدينة واعيانها فيمرون بهِ في الشوارع الكبرى على هذا الشكل المهيب ولا يتم الاحتفال قبل ساعتين او ثلاث ساعات

﴿ مدائن اخرى ﴾

واسبانيا كثيرة المدائن التي لها ذكر في التاريخ فاني لما فرغت من مشاهدة ما في غرناطه برحتها قاصداً

﴿ ملاغه ﴾ واسمها العربي مالقة من الثغور الاسبانية المعروفة وصلتها من ارض تختلف ما بين سهلٍ وجبل فجعل القطار يخترق الارض ويدخل نفقاً بعد نفق وعدتها عشرون في مسافة ٦٥٠٠ متر ثم يخرج الى سهول زرعت فاكهة وعنباً يستخرج منهُ نبيذ ملاغه المشهور بحلاوتهِ والارض هنالك حمراء يختلط ترابها بماء نهر يسمونهُ (جواد لهوارس) واسمهُ العربي جدول الحرث فيحمر ماؤهُ حتى يخيل لك انهُ سيل من الدماء. واما ملاغه هذه فسكانها لا يزيدون عن ١٢٠ الفاً وهي من اقدم المدائن الاسبانية اتاها الفينيقيون وجعلها الرومان من المراكز المشهورة وعرفت في ايام العرب بمقاومة عبد الرحمن مؤسس الدولة العربية وعدم الاعتراف لهُ بالخلافة ولهذه المدينة شهرة الآن باعتدال الهواء لانها واقعة على ضفة البحر فلا يشتد حرها في الصيف ولا بردها في الشتاء ونساؤُها جميلات يلبسنَ المنديل على الرؤُوس بدل القبعة المعروفة واهم ما فيها متنزه يسمونهُ أَلميدا وهو اسم يطلق على كثير من متنزهات اسبانيا ولعلَّ المراد منهُ الميدان محرفة. وفي الميدا هذه اشجار ومقاعد هي مثابة المتنزهين. وفي هذه المدينة معامل للخمر المشهورة زرنا احدها وكان مديرهُ مرافقاً لنا يشرح لنا كيفية صنعها. وفيها ايضاً سوق تعرف باسم سوق العرب باقية على حالها من ايام العرب وعلى بابها باللغة العربية عبارة «الله الغني» ومنها اتجهنا الى معمل الليمون اريد بهِ محل يصدر منهُ الليمون المعروف الى الخارج تلف كل ليمونة في ورقة وتشحن ويقوم بهذا العمل فتيات من سكان المدينة

﴿ أَلميرا ﴾ واسمها العربي الميريه وهي على مسيرة ٦ ساعات بحراً من ملاغه اشتهرت بما تصدر من معادن اسبانيا ولذلك ترى بواخر الانكليز وسواهم كثيرة في ميناها ولم تزل بها بقايا الاستحكامات العربية في الجبل الملاصق لها. وسكان الميرا لا يزيدون عن خمسين الفاً ولها متنزهات اهمها ميدان الامير فيهِ تماثيل شهداء

الحرية الذين قتلوا بسبب ميلهم الى الحرية في ثورة سنة ١٨٢٤

﴿ قرطجنه ﴾ وذهبت بعد هـذا الى قرطجنه في حين كثرت الانواء واضطربت مياه البحر بسبب ريح تعرف عندهم باسم مسترال تهب من شطوط اسبانيا وهم يخشون في مرسيليا شرها لانها توجد الخطر في البحر وقد تضر بالمزروعات في البر . ولذلك عقدنا النية على اتمام السفر براً بسكة الحديد مع طول المسافة وهي لا تقل عن ٨٠ ساعة . فلما وصلنا قرطجنه رأينا في الميناء عدة بواخر انكليزية لنقل الابضعة فانهُ يشحن من هنا الى الخارج خمر كثير غير معادن الحديد والرصاص التي يستخرج منها قناطير مقنطرة كل عام . وفي الجبل المحدق بهذه المدينة آثار حصون عربية تشهد باهميتها الماضية في تاريخ اسبانيا

﴿ ڤالنسيا ﴾ عدد سكانها ماية وثمانون الف نسمة واسمها العربي بلنسيه تبعد عن قرطاجنه بقطار البخار عشرين ساعة والارض بينهما اريضة رصعت يانع الخضرة ومن اجمل مناظرها غابات من شجر البرتقال ظلَّ القطار البخاري يسير بينها مدة ٤ ساعات متوالية وقليل مثل هذا بين المزارع في اتساعهِ حتى انهُ متى جاء موسم الزهر تكثر رائحتهُ في هذه الغابات الى حد ان المسافرين في القطار يضطرون الى اقفال نوافذهِ من شدة هذه الرائحة . ووصلناها بعد ان مررنا بمدن عديدة مثل المنارة ومرسي والشي وهي كثيرة الشبه بالجيزة لما فيها من شجر النخل . وبلنسية ثالثة مدن اسبانيا في الاهمية ولتجارتهـا اهمية كبرى . والمدينة قسمان القسم العربي القديم والقسم الاسباني الحديث فاما العربي فطرقهُ ضيقة عوجاء واهمهُ مواقع حصون وقلاع وفيهِ قصر قديم عربي جعلوهُ الآن مقراً لمجلس التجارة ولم تزل محاسنهُ العربية على حالها وجوانبهُ المذهبة تسطع كانها هي من صنع الامس . واما القسم الجديد فاكثر من الاول نظاماً وتكثر فيهِ منازل الاغنياء

والسراة شادوها على النسق العربي وفيهِ متنزه اسمهُ أَليدا يكثر تردد الخلق اليهِ نساءً ورجالاً . ولهذه المدينة شهرة بالجمال وحسن الموقع وهي من اكثر مدن اسبانيا حركةً وعملاً

﴿ برشلونه ﴾ ولكن اجمل مدن اسبانيا بلا خلاف هي برشلونه ليس يستثنى من ذلك مدريد ولو تكون هي العاصمة فان برشلونه هذه قريبة من فرانسا فاهلها يتخلقون باخلاق الفرنسيس في حب الزخارف وفي الاجتهاد والسعي . وقد كان سيرنا الى برشلونه في اقليم من الارض لا مثيل لهُ في جودة التراب وطيب الهواء والماء وارضهُ تسقى من اقنية نخارية صنعت في ايام العرب وما طرأ عليها اختلال الى هذا اليوم والسفر في هذه الجهة من اسبانيا الجنوبية كثير اللذة بديع المناظر من ناحية البر وناحية البحر فان هيئة اسبانيا هنا مشهورة بجمالها وبدائعها الكثيرة

وعدد سكان برشلونه ستماية الف نسمة وهي وافرة الاتقان وافية التنظيم خلافاً لاكثر مدائن اسبانيا ولاهلها اخلاق الفرنسيس وهمتهم كما ذكرنا وهم ينددون بالحكومة لاتخاذها مدريد عاصمة لها بدل مدينتهم الزاهرة . واهل برشلونه اقل سمرة من بقية الاسبانيين واكثرهم نعمةً وترفاً ترى الرجال والنساء منهم دائماً يتزيون بالازياء الفرنسية وهم اهل بذخٍ ورواءٍ ظاهرين ولقد كانوا في ما مرَّ اهل بأس في الحروب ردوا الاعداء عن بلادهم مراراً ولهم تاريخ مشهور وبرشلونه حافلة بالملاهي والمراسح والميادين والمتنزهات في كل جانب ولاهلها ولع بالقصف والطرب فهي مجموع قصور بين غياض الشجر وبرك الماء البديعة وشوارعها تحكي الحراج الغضيضة في تناسق اشجارها ونضرتها واهم هذه المواضع ميدان رامبلان واسمهُ العربي رمله طولهُ ١٢٠٠ متر وعرضهُ ٤٥٠ وهو حافل بالشجر الباسق تشامخت اغصانهُ واهل المدينة يؤمونهُ عصارى كل نهار لاستنشاق الهواء النقي

وسماع الانغام فيلذُّ للغريب انتياب هذا الموضع لانهُ يرى فيهِ من المناظر الحسنة والوجوه النقية الطلقة ما لا يراهُ في موضع آخر من اسبانيا

وينتهي هذا الميدان عند البحر حيث اقيم تمثال خرستفوروس كولمبوس مكتشف اميركا ويتصل بميدان آخر اسمهُ ميدان العمود طولهُ ٦٠٠ متر وهذا يتصل بميدان الملكة اليصابات طولهُ ٧٠٠ متر ويليهِ ميدان رابع اسمهُ ميدان الملكة طولهُ ٥٠٠ متر والى جانبهِ ميدان خامس يعرف باسم سان جوان طولهُ نحو ٥٠٠ متر فطول هذه الميادين جميعها لا يقل عن ٣٥٠٠ متر . وقد كنت امرُّ في شوارع هذه المدينة البهية فلا انتهي من ميدان حتى ادخل ميداناً آخر مثلهُ في الرونق والبهاء وكلها معارض لجميل الشجر وشهي الزهر والابنية المتقنة تحيط بها من كل جانب فيها المنازل المشيدة والمخازن الكبيرة والحانات المزخرفة والبرك الواسعة تتدفق منها المياه العذبة فكان لمنظر برشلونه هذه تأثير في نفسي . والى يمين الميدان الاخير حديقة عمومية دخلتها فالفيتها روضة غناء من ضمن محاسنها تمثال الظفر وهو عبارة عن جسم امرأة في مركبة تجرها جياد اربعة والتمثال كلهُ مذهب فوقهُ شلال ماء ينحدر منهُ الماء الزلال على صخور صناعية ويصب في غدير تروى منهُ جوانب الحديقة فاذا وقفت في طرف الرواق وتأملت هذه المناظر كلها لم يزل رسمها من ذهنك ولو طال عليها الزمان . هذا غير ما في المدينة من معارض الصور ومرابض الوحوش البرية مما اعدل عن وصفهِ مطولاً لانهُ لا يختلف عما ذكرت من نوعهِ في المدائن الاخرى

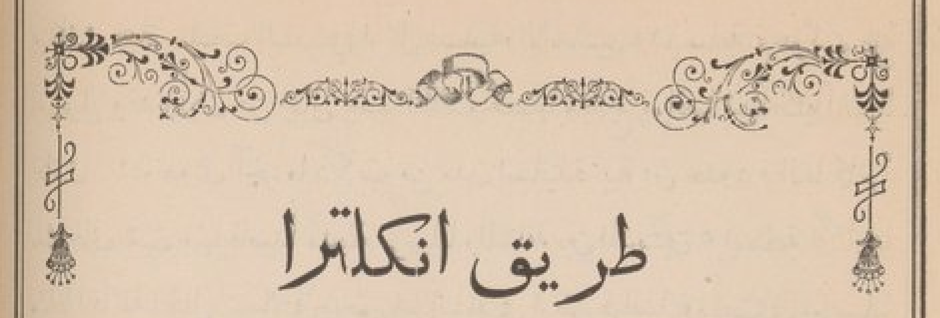
ومما يذكر في برشلونه ايضاً كنيستها الكاتدرائية زرتها واعجبت بجمالها واتقان ما فيها ورأيت هنالك وفي كل جهة من تعبد الاسبانيين شيئاً كثيراً فهم اشد الكاثوليك تمسكاً بدينهم وقد كنت اراهم يقبلون جدران الكنائس واذا رأوا في

القطار قسيساً مسافراً دنوا منهُ وقبلوا يديهِ وعلاقة حكومة اسبانيا بالحضرة البابوية مشهورة من عهد بعيد وقد نشأ في هذه البلاد طغمة الاباء اليسوعيين وهم من اركان المذهب البابوي كما لا يخفى فان اغناتيوس لويولا موءسس هذه العشيرة كان اسبانياً

ومن اجمل ما يذكر عن برشلونه احدى ضواحيها نريد بها جبل مونسرات المشهور في الارض لا يخلو معرض للصور في اوروبا من رسم لهُ وهو عبارة عن عدة اكامٍ تشبه قوالب السكر في شكلها تجمعت هنالك على نسق غريب وقد بنى الرهبان ديراً فوق ذلك الجبل لهُ شهرة ذائعة وذكر في الحروب كثير وفيهِ صورة للسيدة العذراء يزعمون انها من صنع لوقا الانجيلي ويحتفظون بها احتفاظاً كثيراً فلطالما اخفوها في لحف الجبل وفي المنازل مدة الحروب ولم يبالوا بغيرها من تحف الدير ثم أعادوها اليهِ بعد الحرب باحتفال كبير واكثر ما تمَّ ذلك مدة الحروب الاهلية الاخيرة وحرب فرانسا واسبانيا على عهد نابوليون فقد كان الفلاحون والرهبان يظهرون بسالةً وحماسةً غريبتين في الدفاع عن هذه الصورة وحفظها ولا عجب فان اعتبارها عند القوم قديم حتى ان اكبر رجالهم كانوا يجلون قدرها ويحترمون الدير احتراماً كبيراً . ومن الذين زاروا هذا الدير البابا بنوا والملك كارلوس الرابع مع زوجتهِ والملك فردناند السابع سنة ١٨٢٧ وهو الذي وهبهُ ١٣٠ الف فرنك والدير غني باوقافهِ ونذورهِ واسع الجوانب يمكن ان يضم الفي شخص وزوارهُ لا يقلون عن سبعين الفاً في السنة وقد زرتهُ فرأيت منظر المدينة والبحر والجبل والسهول المحيطة من قمة مونسرات فاذا هي من اهم مناظر الارض واكثرها جمالاً

وعلى هذا فاني سحت في اسبانيا سياحة طويلة بدأت من بلاد البورتوغال عند شطوط الاقيانوس الاتلانتيكي وسرت من الغرب الى الشرق ومن الشرق

الى الجنوب متبعاً ضفاف هذه البلاد حتى انتهيت من اهم مناظرها ومدائنها المعروفة وكانت جملة ساعات السفر في ارتال اسبانيا والاندلس ١٢٤ ساعة ثم عوّلت على الرحيل وقد رأيت من جمال هذه البلاد وخصبها وبديع مواقعها شيئاً كثيراً . ولما كانت برشلونه وهي آخر ما ذكرت من مدن اسبانيا قريبة من حدود فرانسا كما مرّ بك فاني قمت منها قاصداً مدينة مرسيليا والمسافة بين المدينتين ١٥ ساعة اكثرها مناظر فائقة الجمال سواء في ارض اسبانيا او في ارض فرانسا ورأيت في مرسيليا عدة من المعارف عائدين الى هذا القطر السعيد وكان من حسن حظنا ان سيد المحامد والفضائل سمو البرنس محمد علي باشا شقيق الحضرة الخديوية الفخيمة كان معنا عائداً الى مصر فكان هذا الامير الكريم يلاطف كل مسافر و يعمل بكرم خلقهِ وطيب أصلهِ وفرعهِ حتى وصلنا ثغر الاسكندرية وألقينا عصا الترحال فيها بعد تلك السياحات المطولة والحمد لله على كل حال



طريق انكلترا

(وفيهِ وصف بعض مشاهد فرانسا)

يذكر القارئون ان الامة الانكليزية احتفلت في شهر يونيو من سنة ١٨٩٧ بمرور ٦٠ عاماً عَلَى حكم جلالة الملكة فكتوريا وأُطلق على ذلك العيد العظيم اسم اليوبيل وهو من حوادث الدهر المشهورة لم يسبق لهُ نظير في تاريخ الارض وقد لا يمرُّ على الناس حادث مثلهُ ولهذا فاني قصدت انكلترا في ذلك العام للسياحة فيها ولحضور هذا الاحتفال الغريب وقد نشأ عن ذلك اني جعلت كلامي عن هذه البلاد العظيمة اقساماً لا بدَّ منها اولها وصف الذي مررت بهِ من مدائن فرانسا وغيرها قبل وصولي انكلترا . والثاني تاريخ موجز لدولة الانكليز لا غنى للقارىء عنهُ وهو عَلَى شاكلة ما تقدم من الخلاصات التاريخية . والثالث وصف لمدينة لندن عاصمة هذه البلاد . والرابع وصف الاحتفال العظيم الذي تقدم ذكرهُ ويتقدمهُ كلام عن جلالة الملكة فكتوريا صاحبة هذا العيد وهذا الفصل من الذّ فصول الكتاب . والقسم الخامس وصف لبعض مدائن المملكة الانكليزية المشهورة على مثل ما تم لنا في الممالك الاخرى . وعلى هذا فنحن نبدأُ بالكلام عن مدائن ليست من انكلترا ولكنها كانت في طريقنا واليك البيان

برحت الاسكندرية يوم الجمعة الموافق ٤ يونيو من سنة ١٨٩٧ في احدى بواخر الشركة الفرنساوية المعروفة باسم مساجري ماريتيم في يوم راقت سماؤُهُ ورق هواؤُهُ وكانت وجهتنا الاولى مدينة مرسيليا فكنا في الطريق نسرّح الطرف في اطراف البحر الواسعة ونتأمل عظمة الفضاء حتى ظهرت جبال ايطاليا في اليوم الثالث وقربت الباخرة من مدينة مسينا حتى اننا كنا نرى شوارعها ونحن سائرون في البحر. وفي اليوم التالي سرنا ما بين جبال كورسكا الى اليمين وجبال سردينيا الى الشمال حتى اذا كان اليوم الخامس ظهرت مدينة (مرسيليا) واوضح ما فيها عن بعد كنيسة (نوتردام ده لاجارد) اي السيدة الحارسة وقد بنيت هذه الكنيسة على مرتفع من الارض كثير الجمال وسنعود الى ذكرها

☀ مرسيليا ☀ هي مدينة قديمة يغلب عَلَى الظن ان الفينيقيين اول من بناها واوصل الابضعة الصورية اليها وهي الآن من امهات المدن الفرنسية واعظم الثغور التجارية في جنوبي اوروبا كان لها فعال كبيرة في تاريخ فرانسا القديم والحديث ولاسيما في ايام الثورة المشهورة وقد كان جل تقدمها من بعد ايام هذه الثورة فان اهلها عكفوا على المتاجر وجمعوا المال الكثير ولما صار نابوليون الثالث امبراطوراً وجه اليها عناية خاصة ورقى شؤُونها ثم فتحت ترعة السويس فصارت هي الصلة الكبرى بين الشرق والغرب في نقل المتاجر لتوسط مركزها بين القارتين ولذلك بنيت بها المرافىء الوسيعة والحياض الفسيحة والشوارع الكبرى والساحات والحدائق على اشكالها وكثرت الدور والمنازل واصبح سكانها لا يقلّون عن سبع مئة الف نفس ترى بينهم خليطاً من كل جنس وملة يقصدونها للمتاجرة وفي اكثر شوارعها حركة وضجيج دائمان يشهدان بكثرة الاعمال واهمية المركز التجاري فهي لا يزيد عنها في هذه الحركة غير مدن قليلة في اوروبا واميركا

واهم الشوارع التي تستحق الذكر في مرسيليا شارع الكنابيير يضرب المثل بجمالهِ ورونقهِ حتى انهم جرى عَلَى لسانهم قول معناهُ انهُ لو كان في باريس مثل شارع الكنابيير لما وجد لها نظير وهو في وسط المدينة يشطرها شطرين متساويين تقريباً ويمتد من المرفإ وفيهِ من الابنية العمومية والخصوصية ما يعسر عدهُ من ذلك بناء البورصة وهو فخيم المنظر قام على عمد متينة وفي صدرهِ نقوش تشير الى الملاحة والصناعة والتجارة وفي داخلهِ يعقد مجلس التجارة جلساتهِ وتجاههُ في هذا الشارع الحانات والمطاعم على اشكالها يقعد الناس فيها واكثرهم يشربون الابسنت الذي اصبح مسكراً عاماً لجماعة الفرنسيس يتعاطونهُ في كل حين ويقول بعض المدققين انه مسكر كثير الضرر بالاجسام والعقول تقرب نتيجة استعمالهِ من نتائج الافيون والمخدرات السامة ولكن للفرنسيس ولعاً بهِ مشهوراً

وفي طرف الكنابيير هذا شارع نوايل بني عن يمينهِ فندق نوايل من احسن فنادق المدينة وعن شمالهِ فندق لاپيه وفي نهايتهِ ميدان ملهان غرست بهِ الاشجار الجميلة صفوفاً صفوفاً ومهدت طرقهُ تمهيداً لطيفاً وفيهِ نصب للجنود الذين قتلوا في حرب ١٨٧٠ فهو مثابة المرسيليين ومجتمع افرادهم يؤمونهُ في كل عصر لسماع الانغام والتفرج بعضهم على بعض على عادة الناس في مثل هذه المواضع . ويقرب من هذا الميدان او هو يحدهُ قصر الماء المشهور (شاتودو) وهو اشهر ما في مرسيليا من المناظر التي يذكرها الغريب اذا قصدتهُ رأيت قبل كل شيء ماء يتدفق سيلاً مدراراً ويتساقط من رابية كأَنما هو شلال عظيم فينصب عَلَى صخور اقيمت في طريقهِ ويتحول منها الى سلم من الحجر فيجري الماء عَلَى الدرج واحدة بعد واحدة ولهُ خرير ومنظر جميل فوقفتُ اتأمل ذلك المنظر زماناً ثم ارتقيت الدور الاول من القصر لهُ سلمان مستديران واحد الى يمين الشلال والثاني الى شمالهِ وفي

غرف القصر متحف تاريخي اذكر من بين آثارهِ تمثال جندي مصارع من المرمر يستعد للقتال وقد اتقن صنعهُ وظهرت جميع عضلاتهِ وتمثال كليوباترا يلسعها الثعبان وغير هذا من المشاهد التاريخية . وفي الدور الاعلى متحف للصور اكثرها من صنع المصورين المرسيليين وقليل بينها مشترًى من الخارج وقد صارت الارض التي تلي هذا القصر حديقة عمومية لها شهرة بتنسيق اغراسها واشجارها وما حوت من الزهر الغريب بعضهُ منقول من اقاصي الارض هذا غير ان فيها مجموع طيور من اطراف المعمور وقد لا يوجد مثل بعض الطيور المجموعة هنا في حدائق لندن وباريس المشهورة ولبعضها جمال غريب منها ما يشبه ريشهُ الفضة ومنها ما يقرب من الذهب ومنها ما لهُ الالوان الزاهية الكثيرة العدد فهي من الاشياء التي يجب على الغريب في مرسيليا زيارتها مرةً على الاقل

وذهبت من هنالك الى متنزه برادو المشهور غرست اشجار الدلب البهية الى جانبيهِ صفوفاً كثيرة على مسافة طويلة وقد نمت نموًّا عظيماً واحاطت بها حدائق كثيرة لاهل اليسار من داخلها فخيم المنازل وبديع القصور . ويتصل بهذا المتنزه حديقة بور بلي وهي مشهورة باتساعها حتى انهم ليقيمون سباق الخيل فيها كل سنة ومنها يبتدئ متنزه الكورنيش العظيم وهو محاذٍ لشاطئ البحر طولهُ خمسة كيلومترات ومنظرهُ فائق الجمال لانهُ يحدهُ البحر المتوسط عن شمالهِ والى يمينهِ منظر المدينة بحدائقها ومنازلها وبقية ما ذكرنا من مشاهدها . ويتصل آخر هذا المتنزه بالمينا القديم الذي بدأنا بوصف المدينة منهُ ويحدهُ من احد اطرافهِ شارع فيريول ترى ان ازدحام الناس في جوانبهِ شديد متواصل لانهُ اهم اماكن البيع والشراء في هذا البلد التجاري . واذا استمرَّ المرء سائراً الى اليمين من هذا الشارع وصل ميدان بيير بوجه وفي طرف الميدان تل مرتفع يمكن ارتقاء قمتهِ بطرق متعرجة والنظر

منها الى هذه المدينة اجمالاً والمنظر هنالك غير جميل لان الرائي لا يلقى غير رؤُوس المداخن وسطوح المنازل بنيت بالآجر سوَّدهُ الدخان المتصاعد من المعامل والمنازل الكثيرة وهذا منظر لا يروق لشرقي تعوَّد النظر الى سطوح نظيفة منبسطة يمكن ان تكون مثابة لاصحاب البيت في اواخر النهار

وذهبت في مساء يومي هذا الى مرسح البلور حيث تمثل الروايات المفيدة وقد سمي المرسح بهذا الاسم لاكتساء جدرانهِ كلها بمرائي البلور تعكس للناظرين هيئاتهم واذكر ان التمثيل في تلك الليلة كان كلهُ مفيداً دالاً على براعة الفرنسيين في الانتقاد واظهار الخلل المراد اصلاحهُ فانهم شخصوا حالة النواب في المجلس البلدي كيف يتذللون في اول الامر لصعاليك الناس ويتملقونهم ويعدونهم المواعيد الكبيرة حتى اذا صدَّق الناس وعدهم وانتخبوهم للنيابة في المجالس قصروا هممهم على ما يفيد انفسهم وجعلوا يزيدون الضرائب ويسعون في ترقية احوالهم الخاصة فاضحك ذلك الحاضرين كثيراً . ومثلوا بعد ذلك قواد الجيش فاظهروا ان كلاً منهم يستخدم ثلثة رجال من الجنود او اربعة لقضاء حوائجهِ الخاصة ثم انتقلوا الى اصحاب الاملاك واظهروا مطامعهم مع المستأجرين ثم مثلوا حالة المضاربين بالبورصة وتلاعبهم باموال صغار الناس وغير هذا من ضروب التمثيل المفيد التي ترسم للناس صورة العادات او الامور المستهجنة وتبالغ في تقبيحها حتى تنفر العامة منها وتضطر الى طلب تغييرها وهذا خير ما يمثل على المراسح في جميع الانحاء فيا ليت ان الاجواق العربية تجري عندنا على هذا المثال . وسرت بعد مرسيليا الى مدينة

❊ ليون ❊ وهي من اعظم مدن فرانسا ايضاً ولعلها اجمل المدن الداخلية موقعاً ومنظراً لانها يدخلها نهر الرون ونهر السون فيتكون منهما جزيرة بهية حافلة بالعمائر والمشاهد الحسناء سواء في وسط المدينة او في الجانبين اللذين

تكون منهما مدينة ليون المشهورة . وقد زاد جمال المدينة لان القوم غرسوا صفوف الشجر على ضفاف النهرين واقاموا المتنزهات العديدة وبنوا الجسور الجميلة توصل اجزاء المدينة بعضها ببعض فترى الحركة فوق هذه الجسور وتحتها والى جوانبها كثيرة لان ليون مدينة تجارية معروفة بمعامل الحرير وفيها مدارس كلية ذائعة الصيت بعضها للعلوم وبعضها للطب او للهندسة او للحقوق . ولمدرسة الطب في ليون فرع في بيروت وهم يرسلون في كل عام طبيباً من هذه المدرسة الى بيروت لامتحان تلامذتها بدل تكليفهم الذهاب اليها فياليت مدرسة الحقوق الفرنسية في مصر تفعل مثل هذا وتوفر على تلامذتها عناء السفر ونفقاته الى فرانسا لطلب الشهادة . ولمدرسة الطب هذه شهرة بعيدة ومقام كبير فان كثيرين يفضلونها على مدارس باريس الطبية لخلوّ ليون من دواعي الخلاعة والملاهي الكثيرة التي تفتن الشبان في عاصمة الفرنسيين

وقد زرت البورصة في ليون فرأيت في الدور الاعلى منها معرضاً للاقمشة الحريرية من صنع هذه المدينة وهي كثيرة الاشكال وافرة الاتقان والجمال وقد وضعوا الى جانبها جداول وكتباً فيها احصاء الصادر من مصنوعات ليون الحريرية الى اقصاء الارض سنة بعد سنة واكثر الاطالس الفرنسية وانواع القطيفة تصنع في معامل ليون

وزرت في هذه المدينة قصر المجلس البلدي وهو بناء فخيم في موضع فسيح من البلد يليهِ الملهى العام ووراءهُ متحف مشهور دخلتهُ فرأيت في اولهِ تماثيل بعض القياصرة الرومانيين وغيرهم واذكر من تلك الآثار جثة حيوان كبير الخلقة نادر الشكل يسميهِ علماء التاريخ الطبيعي باسم « ماموث » وهو من الحيوانات الكبرى التي عاشت وانقرضت قبل زمان التاريخ الحالي وما بقي منها غير بعض الهياكل

وهي تشبه الفيل شكلاً ولكنها اكبر من الفيل جسماً . واذكر اني رأيت في ذلك المعرض حجراً بسيطاً كتب عليهِ بالعربية « توكلت على الله » وجدوهُ في البحر عند بيروت وفي ذلك دليل اعتناء القوم بالآثار الشرقية . ورأيت اشياء اخرى لا تزيد في وصفها عما يراهُ السائح في كل معرض للآثار التاريخية ولا موضع للكلام هنا عنها

ويحد نهر الرون حديقة عمومية مشهورة في ليون يتوافد اليها جماعات الساكنين في كل حين . واما نهر الرون ففي طرفهِ تل فوربيير بني من فوقهِ كنيسة جديدة على اطلال كنيسة سابقة بنيت في القرن التاسع وقد كان الداعي الى بناء هذه الكنيسة الجديدة ان رئيس الاساقفة فيها نذر ان يشيدها اذا لم تمر الجنود الالمانية في مدينتهِ عام ١٨٧٠ فتحققت امنيتهُ ولم تمر جنود الاعداء في ليون فما عتم الناس ان استراحوا من تلك الحرب حتى اكتتبوا بالالوف لبناء هذه الكنيسة وهي من جملة الآثار الدالة على تدين اهل هذه المدينة المعروفة باسم «ليون الكاثوليكية» . وعلى مقربة من هذه الكنيسة نحو ٥٠ مخزناً فيها اشكال الشمع والكؤوس والصلبان والمباخر وغير هذا مما رسم عليهِ شكل الكنيسة يباع تذكاراً للزائرين . وقد ارتقيت قمة برج بني عند تلك الكنيسة وتأملت منظر المدينة منهُ وفي وسطها النهران والحدائق والاغراس لا تعد فكان لذلك المنظر في الذهن تأثير حسن نزلت بعدهُ حتى استعدَّ للسفر من هذه المدينة الى باريس في طريقي الى بلاد الانكليز

واما مدينة باريس فقد سبق الكلام عنها ولا اعيد ما قيل هنا غير اني وصلتها في يوم احدٍ مشهود كان القوم يحتفلون فيهِ بسباق للخيل في سهول لونشان من ضواحي باريس . وسباق الخيل عند الاوروبيين امر عظيم الاهمية ولاسيما الانكليز

منهم فانهم ينفقون عليهِ الالوف المؤلفة و يقضون الايام في الاستعداد لهُ حتى بلغ الامر من بعضهم في انكلترا ومستعمراتها انهم يجعلون يوم السباق يوم عيد تقفل فيهِ المخازن وتبطل الاعمال . وتزيد اهمية السباق عندهم من التراهن الكثير وانتقال الاموال من جيب الى جيب فان الذي يرهن المال على سبق الجواد السابق قد يربح ما يغنيهِ طول العمر في ذلك اليوم او قد يفقد ثروة برمتها واشتهر بين الناس ان لوردة الانكليز مغرمون بهذا السباق وما يتبعهُ من التراهن حتى ان اللورد دربي احد سراة الانكليز خسر ٢٥٠ الف جنيه في بضعة اعوام على مثل هذه الامور وقد نال اللورد روزبري الوزير الحر المشهور بعض مكانتهِ من الفوز في سباق الخيل في دربي ونيل الجائزة الاولى وقدرها ٢٠٠٠٠ جنيه . ومما يروى عن هذا الوزير العظيم انهُ سئل يوم كان صغيراً عما يتمنى قال ان اكون مثرياً تعدُّ اموالي بالملايين وان اصير رئيس الوزارة الانكليزية وان انال الجائزة الاولى في سباق دربي الذي يقام للخيل مرة في كل عام فتحققت كل آمالهِ وعدَّ عند القوم فوزهُ في ميدان السباق مثل فوزهِ في ميدان السياسة

هذه اهمية السباق عند الاوروبيين وعلى ذلك فاني حين وصلت باريس ذهبت الى لونشان مارًا بميدان الكونكورد البديع والشانزاليزه البهي و كانت العربات الوفًا وراء الوف تقلُّ جماهير الذاهبين الى ذلك الموضع غير الماشين وحضر هذا السباق المرحوم فلكس فور وهو يومئذٍ رئيس الجمهورية الفرنسية ووزراء الدولة وقوادها واصحاب المقام المعروف فيها وكان من غرائب هذا الاحتفال ان الجرائد جعلت تنشر نتيجة السباق عند نهاية كل شوط وتبيع ملحقاتها للواقفين يقرأون فيها خبر ما يرون بعد حدوثهِ بربع ساعة وذلك لان المكاتبين كانوا يرسلون الخبر بالتلفون الى الجريدة وهي تطبعهُ وترسلهُ مع باعة يسرعون على الدراجات الى محل

وهي تشبه الفيل شكلاً ولكنها اكبر من الفيل جسماً . واذكر اني رأيت في ذلك المعرض حجراً بسيطاً كتب عليهِ بالعربية « توكلت على الله » وجدوهُ في البحر عند بيروت وفي ذلك دليل اعتناء القوم بالآثار الشرقية . ورأيت اشياء اخرى لا تزيد في وصفها عما يراهُ السائح في كل معرض للآثار التاريخية ولا موضع للكلام هنا عنها

ويحد نهر الرون حديقة عمومية مشهورة في ليون يتوافد اليها جماعات الساكنين في كل حين . واما نهر الرون ففي طرفهِ تل فوربيير بني من فوقهِ كنيسة جديدة على اطلال كنيسة سابقة بنيت في القرن التاسع وقد كان الداعي الى بناء هذه الكنيسة الجديدة ان رئيس الاساقفة فيها نذر ان يشيدها اذا لم تمر الجنود الالمانية في مدينتهِ عام ١٨٧٠ فتحققت امنيتهُ ولم تمر جنود الاعداء في ليون فما عتم الناس ان استراحوا من تلك الحرب حتى اكتتبوا بالالوف لبناء هذه الكنيسة وهي من جملة الآثار الدالة على تدين اهل هذه المدينة المعروفة باسم «ليون الكاثوليكية » . وعلى مقربة من هذه الكنيسة نحو ٥٠ مخزناً فيها اشكال الشمع والكؤوس والصلبان والمباخر وغير هذا مما رسم عليهِ شكل الكنيسة يباع تذكاراً للزائرين . وقد ارتقيت قمة برج بني عند تلك الكنيسة وتأملت منظر المدينة منهُ وفي وسطها النهران والحدائق والاغراس لا تعد فكان لذلك المنظر في الذهن تأثير حسن نزلت بعدهُ حتى استعدَّ للسفر من هذه المدينة الى باريس في طريقي الى بلاد الانكليز

واما مدينة باريس فقد سبق الكلام عنها ولا اعيد ما قيل هنا غير اني وصلتها في يوم احدٍ مشهود كان القوم يحتفلون فيهِ بسباق للخيل في سهول لونشان من ضواحي باريس . وسباق الخيل عند الاوروبيين امر عظيم الاهمية ولاسيما الانكليز

منهم فانهم ينفقون عليهِ الالوف المؤلفة ويقضون الايام في الاستعداد لهُ حتى بلغ الامر من بعضهم في انكلترا ومستعمراتها انهم يجعلون يوم السباق يوم عيد تقفل فيهِ المخازن وتبطل الاعمال . وتزيد اهمية السباق عندهم من التراهن الكثير وانتقال الاموال من جيب الى جيب فان الذي يرهن المال على سبق الجواد السابق قد يربح ما يغنيهِ طول العمر في ذلك اليوم او قد يفقد ثروة برمتها واشتهر بين الناس ان لوردة الانكليز مغرمون بهذا السباق وما يتبعهُ من التراهن حتى ان اللورد دربي احد سراة الانكليز خسر ٢٥٠ الف جنيه في بضعة اعوام على مثل هذه الامور وقد نال اللورد روزبري الوزير الحر المشهور بعض مكانتهِ من الفوز في سباق الخيل في دربي ونيل الجائزة الاولى وقدرها ٢٠٠٠٠ جنيه . ومما يروى عن هذا الوزير العظيم انهُ سئل يوم كان صغيراً عما يتمنى قال ان اكون مثرياً تعدُّ اموالي بالملايين وان اصير رئيس الوزارة الانكليزية وان انال الجائزة الاولى في سباق دربي الذي يقام للخيل مرة في كل عام فتحققت كل آمالهِ وعدَّ عند القوم فوزهُ في ميدان السباق مثل فوزهِ في ميدان السياسة

هذه اهمية السباق عند الاوروبيين وعلى ذلك فاني حين وصلت باريس ذهبت الى لونشان ماراً بميدان الكونكورد البديع والشانزليزه البهي وكانت العربات الوفاً وراء الوف تقلُّ جماهير الذاهبين الى ذلك الموضع غير الماشين وحضر هذا السباق المرحوم فلكس فور وهو يومئذٍ رئيس الجمهورية الفرنسية ووزراء الدولة وقوادها واصحاب المقام المعروف فيها وكان من غرائب هذا الاحتفال ان الجرائد جعلت تنشر نتيجة السباق عند نهاية كل شوط وتبيع ملحقاتها للواقفين يقرأون فيها خبر ما يرون بعد حدوثهِ بربع ساعة وذلك لان المكاتبين كانوا يرسلون الخبر بالتلفون الى الجريدة وهي تطبعهُ وترسلهُ مع باعة يسرعون على الدراجات الى محل

السباق وفي ذلك من ادلة الارتقاء في الصحافة مالا يحتاج الى زيادة في الايضاح. ومن الغرائب ايضاً اني لما عدت الى الفندق وقرأت صحف ذلك اليوم علمت ان بعض الاشقياء المعتوهين حاول قتل الموسيو فور رئيس الجمهورية ولكنهُ لم يمسهُ بضرٍ فتواردت رسائل التهاني من ملوك الارض واقطابها على جناب الرئيس في الحال وما شعر بتلك المكيدة من الذين حضروا السباق غير القليل. ورأيت الرئيس في ذلك اليوم ذاهباً الى السباق بابهة وموكب حافل ولكنهُ عاد في عربة بسيطة لا يحفُّ بهِ جند ولا يحرسهُ احد وكان يحيي الجماهير التي تعلقت قلوبها على حبهِ بكل لطفٍ ووقار. والقصد من رجوعهِ بهذه الصفة اظهار ثقتهِ بالجمهور وعدم خوفهِ من اصحاب النفوس الامارة بالشر وكان الرجل محباً للناس ومحبوباً منهم في جميع ادوار حياتهِ

وبرحت باريس قاصداً مدينة لندن لان حضور احتفال اليوبيل كان بغيتي من هذه السياحة وجعلت طريقي من كاليه وهي مدينة صغيرة في طرف فرانسا الشمالي ظلَّت سنين عديدة في يد الانكليز في القرون الخالية وتجاهها في بلاد الانكليز مدينة دوفر يفصل بينهما خليج المانش وهو مضيق من الماء شديد الاضطراب تتعالى امواجهُ وتجعل السفر فيهِ من اعسر الامور لان التيار فيهِ شديد وعرضهُ قليل فاذا جاءت الامواج من البحر الواسع قبلهُ طفيفة ودخلتهُ انحصرت فيهِ بسبب ضيقهِ المذكور وعلت فسببت الاضطراب الذي يذكر في ذلك المضيق. ومع ان المسافة بين هاتين المدينتين لا تزيد عن ٢١ ميلاً تقطعها البواخر في ٨٠ دقيقة فان عناء السفر في ذلك الخليج لا يوصف ودوار البحر فيهِ ضربة عامة تصيب كل المسافرين. ولكن اتقان البواخر والمعدات جعل السير منظماً فقلَّ ان تتأخر البواخر هنالك عن مواعيدها مهما علت الامواج ويندر الغرق مع ان الراكب يظن في كل

حين ان السفينة على وشك النزول الى قعر البحر من كثرة صعودها وهبوطها مدة هذا السفر القصير . ولطالما عرضت الشركات التجارية ان تبني جسراً عظيماً طوله ٢٢ ميلاً فوق هذا الخليج او نفقاً تحت البحر يوصل انكلترا بفرانسا فلم تقبل الحكومة الانكليزية بذلك لانهُ يفقد انكلترا مزية كونها جزيرة تحميها البوارج القوية ولعلهم يرضون بهِ بعد حين ويتم عمل هو بلا ريب من اعظم ما شرع بهِ الآدميون الى الآن . وقد عرض اصحاب الهمم غير مرة ايضاً ان يبنوا نفقاً تحت البحر بين البلادين وصادقت حكومة فرانسا على هذا الرأي ولكن الحكومة الانكليزية رفضتهُ بتاتاً مع ان بين سراتها عدداً كبيراً يميل الى انجاز هذا العمل الخطير وفي جملتهم جلالة الملك ادورد السابع يروى انهُ كان اذا قصد باريس في ايام صباهُ واصابهُ الدوار قال ان المانش مطهر لا بدَّ منهُ للذي يذهب من باريس الى لندن حتى يكفر عن آثامهِ . واكثر الذين لا تهمهم السرعة في عبور المانش يؤثرون السفر من دييب في فرانسا الى نيوهاڤن في انكلترا حيث الموج اقل والمسافة ٤ ساعات ولكن طالبي السرعة في هذه الايام كثار وما زال الطريق من كاليه الى دوڤر اشهر من سواهُ وفي القطرين رجال يسعون الى الآن في وصل احدهما بالآخر على طريقة تسهل السفر وتقلل متاعب المانش





انكلترا

خلاصة تاريخية

كانت بلاد الانكليز في اوائل التاريخ المسيحي مثل غيرها من بلدان اوروبا غير معروفة للسوى يقطنها قوم تقرب عوائدهم وطرائقهم مما نراه الآن بين المتوحشين حتى امتدت مملكة الرومانيين واخضعت هذه الممالك فعرفنا بعض امورها من تواريخ الرومانيين . واول ما ذكرت بلاد الانكليز في تاريخ رومه على عهد قائدها المشهور يوليوس قيصر فانهُ هاجم هذه الجزيرة واخضعها سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحي ولكن الحرب ظلَّت مستمرة بين جنود الرومانيين واهل البلاد نحو مائة سنة حتى خضعت انكلترا لهم خضوعاً تاماً ثم ضعفت دولة الرومانيين فعادت المناوشات والحروب وتقوى عزم الاهالي شيئاً بعد شيء فما اتت سنة ٤٢٠ مسيحية حتى انتهى حكم الدولة الرومانية في انكلترا

ومعلوم ان بلاد الانكليز ثلثة اقسام هي انكلترا واسكوتلاندا وارلاندا القسمان الاولان جزيرة واحدة والقسم الثالث جزيرة منفصلة عن جارتها وكان الرومانيون قد اكتفوا باخضاع انكلترا ولم يقووا على اسكوتلاندا لانها بلاد جبلية واهلها اشداء فلما تقلص ظلهم وخرجوا من البلاد كان اهل انكلترا قد تعودوا الذل وبعض الخمول فهاجمهم اهل اسكوتلاندا وغنموا ارزاقهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة حتى انهم استغاثوا باهل سكسونيا وهم قبائل المانية اشتهرت بالبأس في الحروب فجاؤا انكلترا لاعانة اهلها على جيرانهم الجبليين وتمكنوا من طرد المعتدين ولكنهم لما ارادوا امتلاك انكلترا قاومهم اهلها وطالت الحروب بين الفريقين فما اخضعوا هذه البلاد الأ بعد ١٥٠ سنة ومن ذلك الحين قامت في انكلترا سبع دول سكسونية

واختلط الدخلاء بالاهالي فصاروا بعد مرور الاجيال امة واحدة تعرف الى اليوم باسم انجلو ساكسون وهم الامة الانكليزية وما نشأ منها في اميركا والمستعمرات البريطانية الكثيرة

وليس في تاريخ الدول السكسونية السبع ما يستحق الذكر غير انها ضمت وصارت مملكة واحدة بعد تشكيلها باربعماية سنة فان اجبرت وهو ملك احدى هذه الدول ورث بعضها واغتصب البعض الآخر فصار ملكاً عاماً لبلاد الانكليز سنة ٨٢٧ ولكن البلاد لم يهدأ لها بال بعد هذا الاتحاد فان اهل الشمال من الاوروبيين وهم سكان الدنمارك واسوج ونروج اكثروا من الغزو والسطو على ما علمت في الشذرات التاريخية السابقة واقلقوا راحة الانكليز زماناً حتى انهم ملكوا البلاد في ايام الملك الفرد الكبير وهو من اعظم ملوك انكلترا اختفى زماناً بعد ان كسر الشماليون جنوده حتى لم شعثهُ وعرف مواقع الضعف في اعدائهِ فحاربهم وانتصر عليهم وطردهم ولكنهم عادوا الى انكلترا بعد موتهِ سنة ٩٠١ وملكوا البلاد زماناً وكان ملكهم سوين وابنهُ كانوت اشهر ملوك ذلك الزمان في القوة . وثار الاهالي على حكومة اهل الشمال سنة ١٠٤١ فاستقلوا وحكموا عليهم اميراً من ورثة الملوك السكسونيين الاول وكان من امر الملك ادورد آخر هؤلاء الملوك انهُ رأى من بعض اشراف دولتهِ ميلاً الى اختلاس العرش من بعدهِ فاوصى بالملك من بعدهِ الى امير نورماندبا احدى امارات فرانسا الشمالية وكان هذا الامير من اقاربهِ وهو الذي سمي بعد ذلك وليم الظافر فانهُ لما مات ادورد هذا سنة ١٠٦٦ جاء بجيش قوي الى انكلترا وحارب اميرها هارولد الذي خاصمهُ على الملك فانتصر عليهِ انتصاراً تاماً وملك البلاد واسس دولة جديدة قوية هي التي شكلت انكلترا بشكلها الحالي ولم تزل الدولة المالكة الآن من سلالة وليم الظافر وبعض النظامات والاسماء على مثل ما وضعت في ايام هذا الملك

وورث مملكة انكلترا امراء من ابناء وليم الظافر وحفدتهِ كثار اشتهر منهم رتشرد الاول وهو المعروف بريكاردوس قلب الاسد كان بطلاً مغواراً ملك سنة ١١٨٩ وجاء مع غيرهِ من ملوك اوروبا وامرائها لمحاربة الدول الاسلامية في الحروب الصليبية فكان هو اعظم من حارب العرب ولهُ مع السلطان صلاح الدين حكايات مشهورة . وورث الملك عن قلب الاسد اخوهُ يوحنا سنة ١١٩٩ وكان ضعيف العقل سفيه الرأي فحدث في ايامهِ ثورة في الخواطر بسبب جورهِ وسوء تدبيرهِ واتحد الاشراف على طلب الحقوق منهُ لهم وللاهالي فاصدر امراً عالياً يمنح فيهِ الرعايا حق الاشتراك مع الملوك في الاحكام وكان ذلك بدء نظام الانكليز الدستوري وهم يذكرون هذه الحادثة مع اعظم الحوادث التاريخية لانها اساس حريتهم

وعظمتهم . وقام بعدهُ ملوك آخرون اشتهر منهم ادورد الاول ملك سنة ١٢٧٢ لانهُ اخضع امارة ويلس وهي جزءٌ من انكلترا في الشمال الغربي عرف اهلها بالبسالة وهم بقية الانكليز الذين نجوا من حكم الرومانيين وسواهم وامتنعوا في ارضهم ولهم الى الآن لغة خاصة بهم وعوائد معروفة لا شبه بينها وبين لغة الانكليز وعوائدهم لحاربهم ادورد حروباً طويلة واخضعهم وقتل امراءهم وجعل بلادهم جزءًا من اجزاء مملكتهِ في سنة ١٢٨٣ . وحاول ادورد الاول ان يخضع اسكوتلاندا وهي التي كان اهلها يسطون على بلادهِ من زمان طويل ولكنهُ لم يقدر على ذلك لانها كانت مملكة منظمة مثل مملكتهِ ولها جيش واعوان وكانت الحروب من ذلك العهد مستمرة بين المملكتين والمنافسة دائمة حتى صارتا دولة واحدة على مثل ما يجيء

ولم يحدث بعد هذا ما يذكر في تاريخ الانكليز حتى سنة ١٣٤٨ حين ادعى ملك انكلترا ادورد الثالث ان مملكة فرانسا ارث لهُ بسبب قرابة لهُ مع ملوك تلك البلاد . وكان ملوك انكلترا الى ذلك الحين امراء نورماندیا في شمالي فرانسا فلما اشتهرت هذه الدعوى قام ملك فرانسا فيليب لمحاربة خصمهِ وجمع مائة الف محارب فقابلهُ ابن ملك الانكليز وهو المعروف باسم الامير الاسود بثلثين الفاً وهزمهُ شر هزيمة في معركة كرسي واول ما استعمل الانكليز المدافع في الحروب كان في هذه المعركة وكانت البنادق معروفة قليلاً فانها لم تستعمل الأسنة ١٣٤٠ . ومات فيليب ملك فرانسا بعد انكسارهِ بقليل فخلفهُ ابنهُ جان وقصد محاربة الانكليز ولكنهُ كسر مثل ابيهِ وجاء بهِ الامير الاسود اسيراً الى انكلترا وكان الملك ادورد الثالث يحارب اسكوتلاندا حين حارب ابنهُ فرانسا فانتصر هو ايضاً على اعدائهِ واسر ملكهم داود الثاني وجاء بهِ اسيرًا الى لندن فالتقى فيها حينئذٍ ملكان في الاسر وعظم شان الدولة الانكليزية كثيراً . ولكن انكلترا لم تستفد من هذه الانتصارات شيئاً سوى امتلاك مدينة كاليه في شمالي فرانسا فان اسكوتلاندا وفرانسا عادتا الى الاستقلال حالاً وضعفت انكلترا بعد موت ملكها ادورد الثالث وابنهِ الامير الاسود الباسل لاسيما وان الذي ورث ادورد الثالث وهو حفيدهُ رتشرد الثاني كان ضعيفاً فجعل اقاربهُ يتخاصمون ويتنافسون في الدسائس واشهرهم اثنان هما الدیوك اوف يورك والدیوك اوف لانكاستر اختلس الثاني الملك من ابن اخيهِ واضطرهُ الى الاستقالة ثم قام الدیوك اوف يورك يطالب بالملك وحدثت حروب اهلية مشهورة في تاريخ البلاد تعرف بحرب الوردتين لان حزب يورك اتخذ شعارهُ الوردة البيضاء وحزب لانكاستر الوردة الحمراء فما انتهت تلك الحروب الأ بعد ان ولي ملوك وعزل ملوك وقام في ذلك العهد ملك عظيم هو هنري الخامس ملك سنة ١٤١٣ وهو شاب في اول العمر فسمع

باضطراب فرانسا وضعف ملكها وعزم على اخضاعها فهاجمها بثلثين الف جندي يقودهم بنفسهِ وانتصر في كل معركة حارب الفرنسيس بها ولا سيما معركة اجنكور سنة ١٤١٥ فهرب ملك فرانسا من وجههِ ودخل هنري مدينة باريس فتوّج بها ملكاً على فرانسا وما زال ملوك الانكليز يسمون انفسهم ملوك فرانسا الى عهد قريب · وحدث بعد هذا ان هنري الخامس مات فطمع الفرنسيون بالاستقلال وعادوا الى محاربة الانكليز فساعدهم القدر بوجود الفتاة جان دارك التي مرَّ الكلام عنها في تاريخ فرانسا واسترجع الفرنسيون مملكتهم

وظلت الحرب الاهلية في اشتغال حتى قام هنري السابع وملك البلاد وهو سليل آل يورك اقترن بفتاةٍ من بيت لانكاستر فبطلت الحرب واسس هذا الملك دولة جديدة قوية تعرف باسم تيودر قام منها اعظم الملوك ومنهم ابنهُ هنري الثامن كان معاصراً لفرنسيس الاول وكارلوس الخامس واشتهر بكثرة زوجاتهِ اقترن بهنَّ الواحدة بعد الاخرى وكانت اول زوجاتهِ كاترين اخت كارلوس الخامس ملك اسبانيا والنمسا وارملة اخيهِ المتوفي فلما احبَّ هنري الثامن احدى خادماتها وهي حنه بولن والدة الملكة اليصابات التي سيأتي ذكرها اراد ان يطلق كاترين امرأتهُ فعارضهُ البابا في الامر وحدث بين الاثنين خلاف ادى الى انتقاض ملك انكلترا على رئيس الكنيسة الكاثوليكية مع ان هنري الثامن كان غيوراً على الدين والف كتاباً في الرد على مارتينوس لوثيروس المصلح الانجيلي المشهور الذي نشأ في المانيا على عهدهِ ولقبهُ البابا بحامي الدين وهو لقب ملوك انكلترا الى هذا العهد يكتب على نقودهم واوراقهم الرسمية . فلما حدث هذا الخصام بين البابا وملك انكلترا انفصلت الكنيسة الانكليزية عن كنيسة رومه الكاثوليكية واتبع اكثر الانكليز الطريقة البروتستانية من ذلك الحين ولم تزل انكلترا الى الآن اقوى الدول البروتستانية واشهرها

ومات هنري الثامن هذا سنة ١٥٤٧ وهو من اكبر ملوك الانكليز فخلفهُ ابنهُ ادورد السادس ومات بلا عقب فخلفتهُ اختهُ ماري وماتت بلا عقب فخلفتها اختها اليصابات وهي من اعظم ملوك الارض طرًّا واشهرهم بلا مراء ملكت من ١٥٥٨ الى ١٦٠٣ اي ٤٤ سنة حدثت في خلالها الامور العظيمة وبدأت انكلترا تتوسع في امتلاك الاراضي في اميركا وغيرها وصارت مملكة اسكوتلاندا رهينة امرها بدون حرب ولا قتال لانها عرفت كيف تدس الدسائس لقريبتها ماري ستيورت ملكة اسكوتلاندا حتى ان تلك الملكة المسكينة طردت من بلادها وجاءت انكلترا فالقيت في السجن ١٩ سنة وفي آخر تلك المدة حكم عليها بالاعدام بدعوى انها اشتركت في مؤامرة ضد اليصابات · وكان من حوادث هذا العهد العظيمة ان فيليب الثاني

ملك اسبانيا وهو يومئذٍ يعد اكبر ملوك الزمان طلب الاقتران باليصابات فرفضته بتاتاً فعول على قهرها واخضاع مملكتها وارسل عليها اسطولاً عظيماً حطمهُ الانكليز تحطيماً وساعدتهم الارياح على تكسيرهِ فنجت انكلترا من خطر جسيم وهم الى الآن يذكرون تحطيم الاسطول الاسباني ويعدون يومهُ من الاعياد الكبرى · وقام في عهد اليصابات رجال عظام في الحرب والسياسة واشتهر شاكسبير الشاعر العظيم في ايامها ايضاً ونمت دولة الانكليز نماء عجيباً

ولم تتزوج هذه الملكة العجيبة فلما توفيت اشارت باعطاء الملك من بعدها الى جيمس ملك اسكوتلاندا وهو يومئذٍ اقرب اقاربها فجاء جيمس هذا وحكم زماناً لم يشتهر بشيء سوى امتداد نفوذ انكلترا في اميركا· ومات سنة ١٦٢٥ فورثهُ ابنهُ تشارلس الاول وكان لسوء حظهِ ميالاً الى الاستبداد والشعب قد ترقى وطلب الحقوق والامتيازات فحدثت بينهُ وبين نواب الامة انواع كثيرة من الخصام انتهت بحرب بين الحزبين انتصر فيها نواب الامة على الملك وكان قائد جنودهم بطلاً عظيماً اسمهُ كروموبل · هذا استبدَّ بالامر بعد عزل الملك وامر بمحاكمتهِ فحاكموهُ وحكموا عليهِ بالاعدام وهو اول ملك قتل في اوروبا بمثل هذه الطريقة ثم استبدَّ كروموبل بالحكم زماناً واورثهُ لابنهِ من بعدهِ ولكن الاهالي نفروا من قتل الملك واثرة الجمهوريين فاعادوا ابن ملكهم الى عرشهِ وهو تشارلس الثاني ملك سنة ١٦٦٠ وكان مضاداً للامة في آرائهِ واميالهِ فتحملهُ القوم بالصبر حتى اذا مات ورثهُ اخوهُ جيمس الثاني وكان كاثوليكياً محاً يريد قلب النظام البروتستانتي وكل اميالهِ فرنسوية فاشتد الخلاف بينهُ وبين الاهالي حتى انهم قاموا عليهِ في آخر الامر وطردوهُ واعطوا الملك لابنتهِ ماري وزوجها وليم امير اورانج وصاحب هولندا فجاء هذا الامير بجيش صغير الى لندن وطرد عمهُ منها وساعدهُ الاهالي على طرد جيمس فرحين فانقلبت بذلك دولة آل ستورت وسمي هذا الانقلاب بالثورة الانكليزية تاريخها سنة ١٦٨٨ وهو تاريخ الاستقرار على نظام الشورى وآخر عهد انكلترا باستبداد الملوك

وحدث في ايام وليم الثالث هذا عدة حروب بين انكلترا وفرانسا لم يستفد منها الانكليز شيئاً فلما مات وليم وامرأتهُ ماري ورثت المملكة عنهما حنه اخت ماري وكانت حنه من الملكات المشهورات ملكت من سنة ١٧٠٢ الى ١٧١٤ وأصلحت الكنيسة الانكليزية في ايامها وسنَّ لها النظام المعمول بهِ الى الآن · وحدثت حروب هائلة بين انكلترا وفرانسا في ايام هذه الملكة بسبب مطامع لويس الرابع عشر ملك فرانسا المشهور فانتصر الانكليز في عدة مواقع بحسن تدبير قائد من اعظم قواد الزمان اسمهُ الجنرال تشرتشل الذي صار بعد انتصارهِ على الفرنسيس

الديوك اوف مارلبرو وسلالتهُ من اشراف الانكليز الى هذا العهد . ومن اشهر الحوادث في عهد هذه الملكة ان انكلترا واسكوتلاندا انضمت احداهما الى الاخرى وصارتا مملكة واحدة بعد ان كانتا مملكتين مستقلتين يحكمهما ملك واحد من ايام جيمس الاول الذي ذكرناهُ وكان ذلك سنة ١٧٠٧

وتوفيت الملكة حنه بلا عقب وكانت اقرب قريباتها زوجة ملك هانوفر فآلت المملكة بعدها الى جورج الاول ملك هانوفر الالماني سنة ١٧١٤ ولم يحدث في ايامهِ غير بعض القلاقل بسبب محاولة آل ستورت استرجاع الملك ومساعدة فرانسا لهم فلم يمكن ذلك . ومات جورج سنة ١٧٢٧ فخلفهُ ابنهُ جورج الثاني وحدثت في ايامهِ حروب كثيرة مع فرانسا كان النصر فيها اكثرهُ للفرنسويين في اوروبا وللانكليز في اميركا حين اخذوا بلاد كندا من الفرنسويين وهي لهم الى الآن . وبدأ الانكليز في ذلك العهد باكتشاف جزر المحيط والامتلاك في الشرق فكان اساس سلطنتهم الهندية على عهد جورج الاول والثاني

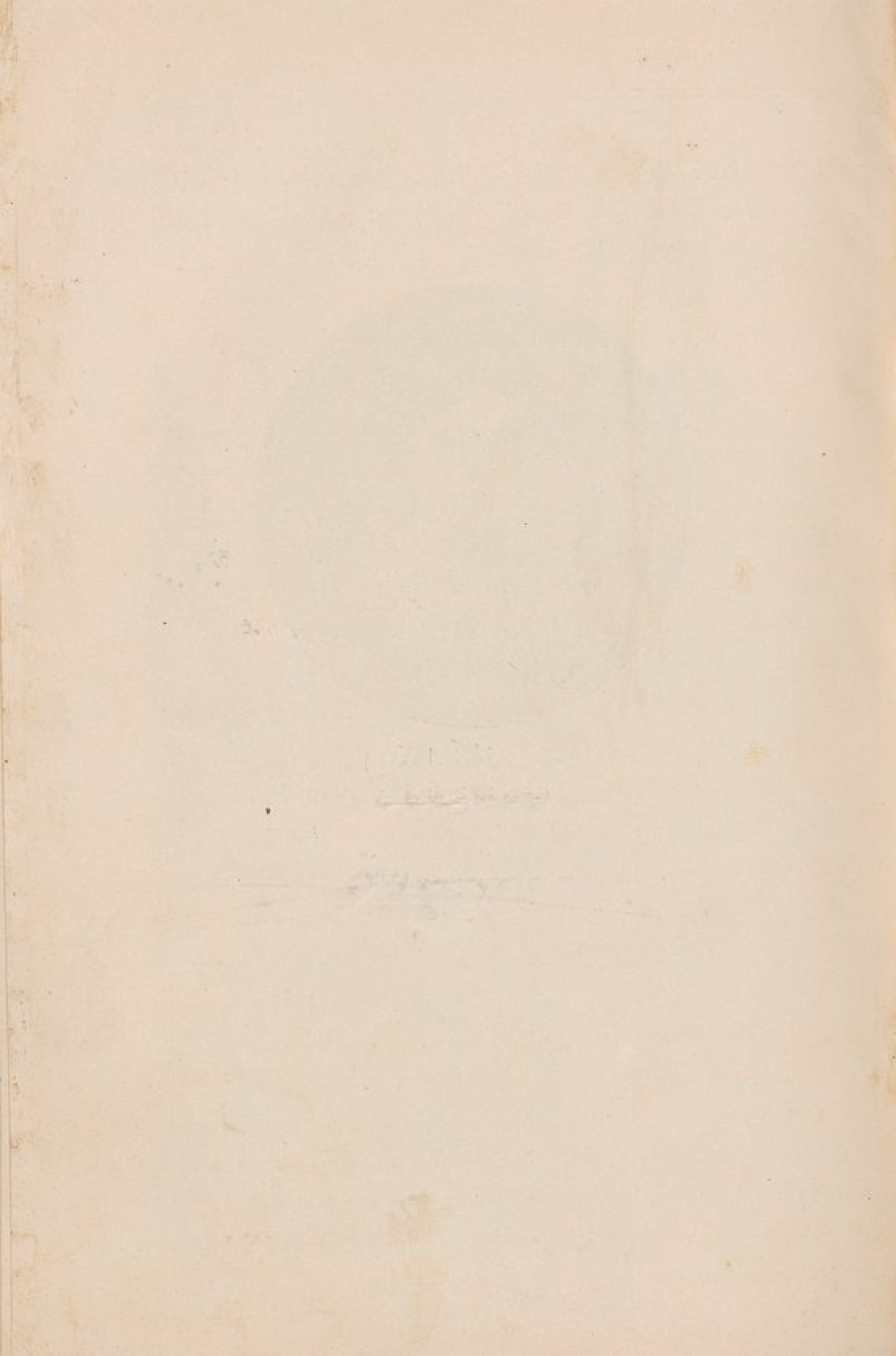
ومات جورج الثاني سنة ١٧٦٠ فخلفهُ جورج الثالث وهو الذي ملك البلاد ٥٩ سنة وحدث في ايامهِ اعظم الثورات نريد بها ثورة فرانسا المشهورة وثورة اهل اميركا حين استقلوا وصاروا دولة الولايات المتحدة المعروفة بسبب اهمال من حكومة لندن وكان ذلك سنة ١٧٨٢ وفي سنة ١٧٨٨ بدأ الانكليز باستعمار جزر اوستراليا وجعلوا يرسلون اليها المنفيين واهل الجرائم ثم بطلت هذه العادة واوستراليا الآن من المستعمرات الانكليزية العظيمة . وكانت الحرب دائمة تقريباً بين فرانسا وانكلترا في كل تلك المدة لا سيما اذ قام نابوليون وكسر الانكليز اساطيلهُ في ابي قير وترافلجار وغيرها من المواقع العظيمة في البحر واخرجوهُ من مصر والشام واسبانيا والبورتوغال حتى اذا جاء عام ١٨١٥ كسروهُ في واترلو الكسرة الاخيرة على مثل ما جاء في تاريخ فرانسا . ومن حسن حظ الانكليز انهم رزقوا في تلك المدة رجالاً هم نوابغ وجبابرة في الاقتدار منهم نلسون امير البحر وولنتون قائد الجيوش في البر وبت الوزير المشهور في السياسة استعملوا مواهبهم كلها لارغام نابوليون ومحاربتهِ فكانوا هم الفائزين

وخرف جورج الثالث في آخر ايامهِ ولكن ايامهُ كانت ايام عز ونصر للانكليز ولولا ضياع الولايات المتحدة لعدت مدتهُ احسن المدات في تاريخ هذه الامة العظيمة . وكانت نتيجة الانتصارات العديدة ان نفوذ انكلترا اتسع وامتد واملاكها زادت ومالها كثر وتجارتها فاقت الحدود حتى اذا ولي الملك جورج الرابع سنة ١٨٢٠ كانت الدولة الانكليزية في طليعة دول الارض قوة واقتداراً وثروة وعلماً ولم تزل على هذا الى يومنا الحاضر . ومن اعظم الحوادث

التاريخية في ملك جورج الثالث اتحاد ارلندا مع انكلترا واسكوتلاندا وصيرورة الكل مملكة واحدة تعرف باسم بريطانيا العظمى وارلندا في سنة ١٨٠١ وكانت ارلندا الى ذلك الحين خاضعة لانكلترا تدير شؤونها الداخلية على حدة فصارت جزءًا من اجزاء المملكة الانكليزية من ذلك الحين

وكان جورج الرابع فاتر الهمة فلم يحدث في ايامهِ ما يستحق الذكر لان الدولة استراحت من الحروب وثرقت في المعارف والصنائع وتوسعت في الامتلاك والاستعمار توسعاً هائلاً حتى صارت اكبر دول الارض واوسعها نفوذًا وملكاً . ومات جورج الرابع فخلفهُ وليم الرابع ملكاً على بريطانيا العظمى فحكم سبع سنين وتوفي بلا عقب . وكانت وفاتهُ بعد نصف الليل في قصر وستمنستر فاضطر رئيس اساقفة كانتربري ان يذهب في الحال حسب الاصول القديمة ليبلغ البرنسس فكتوريا صيرورتها ملكة البلاد . ولما قامت الملكة من سريرها وعرفت الخبر بكت حزنًا على عمها ثم سألت رئيس الاساقفة ان يصلي معها بطلب العون من الله فركع الاثنان وصليا . وكانت فكتوريا يومئذٍ في الثامنة عشرة من عمرها وهي بنت الديوك اوف كنت شقيق وليم الرابع وامها من اميرات المانيا هي شقيقة ليوبولد الاول ملك البلجيك عنيت بتربية فتاتها على اشرف المبادىء حتى اذا رقيت عرش انكلترا كانت كل خصالها ممدوحة وفرحت بها الامة فرحاً كبيرًا

ولا حاجة الى الاسهاب في تاريخ الملكة فيكتوريا فان معظم حوادثهِ لم يبرح من اذهان الناس ولكننا نقول انها ولدت في ٢٤ مايو سنة ١٨١٩ وهو يوم عيد السلطنة الانكليزية تحتفل بهِ هذه الامة في ممالكها ومستعمراتها كل سنة احتفالاً عظيماً . وصعدت العرش في شهر يونيو من سنة ١٨٣٧ وكان تتويجها في تلك السنة من حوادث التاريخ الحديث التي تذكر الى آخر الزمان . وقد اقترنت بابن عمهـا البرنس البرت صاحب امارتي ساكس كوبرج وغوتا في المانيا سنة ١٨٤٠ فعاشت معهُ ٢١ سنة رزقت في خلالها عدة بنات وبنين فلما مات سنة ١٨٦١ حزنت عليهِ حزنًا مفرطاً تضرب بهِ الامثال وظلت على رثائهِ الى آخر عمرها الطويل . وقد زوجت بنتها الكبيرة لامبراطور المانيا السابق وابنها الثاني لعمة قيصر روسيا الحالي . واقترن بناتها واولادها الآخرون ورزقوا الاولاد فاصبحت علاقات القربى رابطة لانكلترا بمعظم دول اوروبا في ايامها وحدث على عهدها من الحروب شيء كثير من ذلك حرب القرم سنة ١٨٥٤ اشتركت انكلترا فيها مع دول اخرى لمحاربة روسيا وحرب ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وحروب في الهند وايران وافغانستان والصين وافريقيا



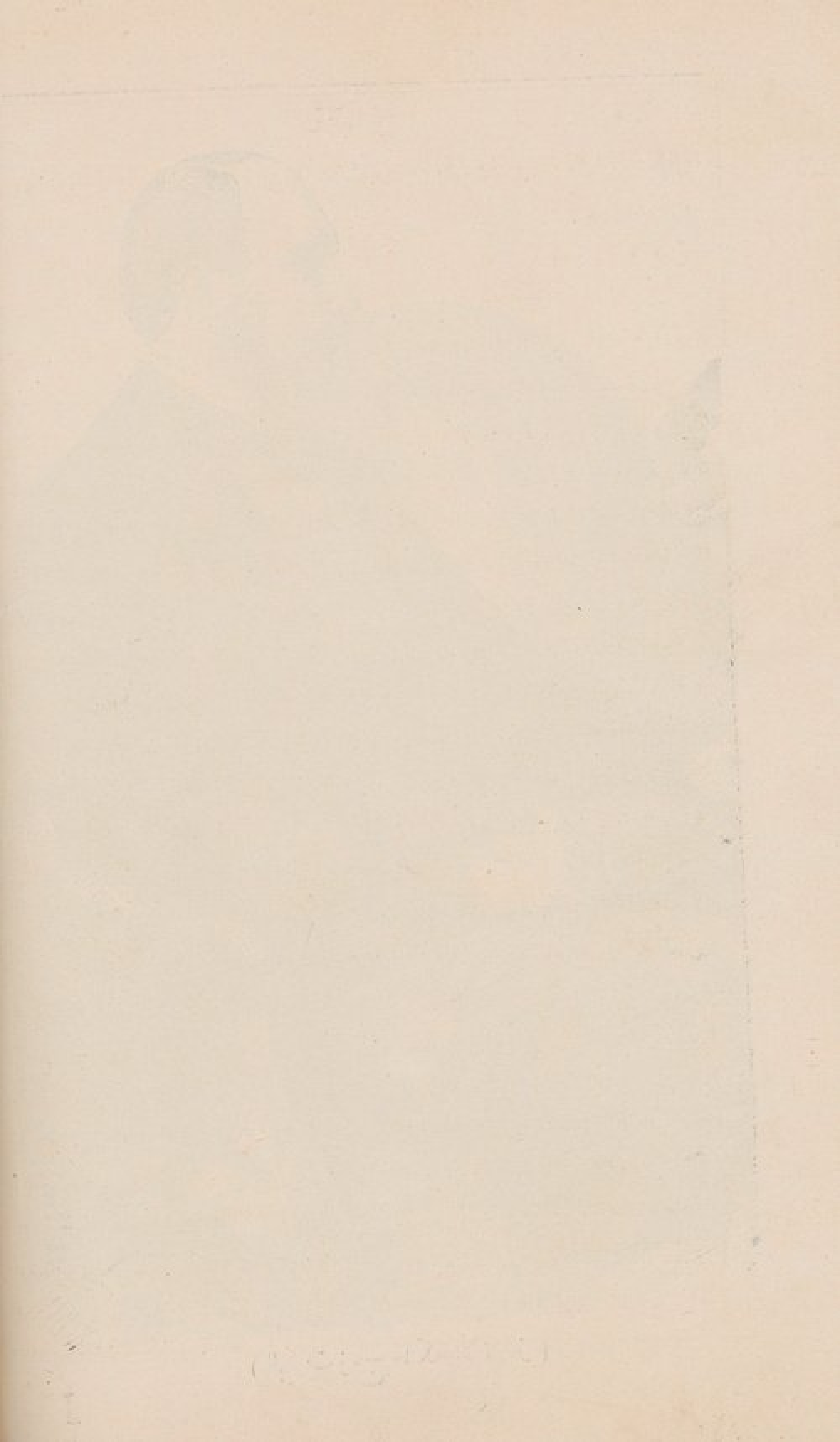


(ملكة الانكليز في صباها)





(البرت زوج ملكة الانكليز)



الجنوبية والوسطى ومصر والسودان والحبشة وغيرها انتهت كلها بفوز الامة الانكليزية واتساع سلطانها حتى قيل ان الشمس لم تغرب عن املاك فكتوريا وبلغ عدد الخاضعين لرايتها نحو ٤٠٠ مليون نفس او هم ربع سكان الارض ومساحة هذه السلطنة لا تقل عن ١١ مليون ميل مربع فهي اعظم السلطنات الحديثة والقديمة على الاطلاق

ونمت انكلترا في قواتها البرية والبحرية وفي متاجرها وصنائعها نماء عجيباً مدة حكم الملكة فكتوريا وتحسن حال عمالها وفقرائها بما سنّ من النظامات المتوالية وضمت الهند على عهدها الى املاك السلطنة وكانت قبلاً ملك احدى الشركات التجارية فلقبت على اثر ذلك بامبراطورة الهند · وكانت حياة الملكة في داخل قصورها واعمالها بين الناس مثال العفة والكمال والشرف والوطنية وحب الانسانية فتعلق الناس على حبها تعلقاً لا نظير له في تاريخ انكلترا حتى انهم اقاموا الحفلات الكبرى سنة ١٨٨٧ اي عام بلوغها سنة الخمسين من حكمها وهو عام اليوبيل الذهبي · وأمّ لندن يومئذ ملوك وامراء ونواب امم ووفود لا تعد ثم بلغت السنة الستين من حكمها بعد ١٠ سنوات فأقاموا يوبيلاً آخر اهم من السابق واكبر وظلوا في حفلاته الباهرة عدة ايام · وقد عمرت هذه الملكة ورأت من باذخ العز وآيات النصر وباهرات الحظ واكرام الانام ما لم يرَ الاولون والآخرون · وماتت في ٢٢ يناير سنة ١٩٠١ بداء الانحلال الطبيعي فلبست اوروبا كلها الحداد عليها واثرت وفاتها في الانكليز تأثيراً شديداً وخلفها في الملك جلالة نجلها الاكبر وهو ادورد السابع ملك انكلترا وامبراطور الهند الحالي

ولد في ٩ نوفمبر من سنة ١٨٤١ ولا حاجة الى القول انهُ ربي احسن تربية وشب على اشرف المبادىء · واقترن يوم ١٠ مارس من سنة ١٨٦٣ بكريمة ملك الدنمارك السابق وهي الملكة الكساندرا صاحبة الشهرة الذائعة بالمحاسن وآيات الكمال الباهر · ورزق ثلثة اولاد وثلاث بنات فمات اثنان من الاولاد وما بقي غير ولي العهد الحالي وهو الآن في الثالثة والاربعين من عمره ولهُ بنت واربعة اولاد ذكور · واما بنات الملك فكلهن في قيد الحياة احداهن زوجة الديوك اوف فيف من سراة انكلترا والثانية بلا زواج والثالثة قرينة ملك نروج الحالي

ارتقى الملك ادورد عرش اجداده في ٢٢ يناير سنة ١٩٠١ وكان ذلك في خلال حرب البوير المشهورة · وقد حدث على عهده انقلاب في سياسة اوروبا تمّ اكثره بسعيه لصالح دولته واشتهر من حوادث ملكه في الاوائل حادثة التتويج افردنا لها فصلاً هنا نظراً

الى اهميتها وغرابة ادوارها وما في وصف مشاهدها من الفائدة للقارئين

حادثة التتويج

لما رقي جلالة الملك ادورد السابع عرش انكلترا عين يوم ٢٦ يونيو من سنة ارتقائهِ موعداً لتتويجهِ ودعا الملوك والامراء ووفود الامم لحضور حفلات التتويج المذكور من سائر الاقطار وكان الوفد من قبل مصر يومئذٍ دولة البرنس محمد علي باشا نائباً عن سمو اخيهِ الخديوي وعطوفة مصطفى باشا فهمي رئيس الوزارة السابق نائباً عن الحكومة المصرية . وبدأت الالوف تتوارد على لندن من كل صوب والناس تستعد للتتويج وتنفق على الزينات ولكن الاخبار جعلت تتوالى من ٢٠ يونيو المذكور بان جلالة الملك في حاجة الى النزهة واستبدال الهواء وكان جلالتهُ ملازماً لغرفتهِ خرج مرة في عربة مقفلة والناس يتلقون هذه الاخبار ولا يفقهون لها معنى حتى اعلن رسمياً ان صحة الملك تستدعي عملية جراحية وانهُ لا بدَّ من تأخير موعد التتويج الى ما شاء الله . فكان لهذا الخبر دوي عظيم في انحاء الارض وخصوصاً مدينة لندن حيث انفقت الاموال الطائلة في اعداد الاماكن اللازمة لرؤية موكب التتويج . هذا غير المنصات والمواضع التي اعدت للفرجة وبيع منها الوف دفعت اجرها مقدماً . على ان ذلك كلهِ لم يحدث تأثيراً سيئاً بل زاد القوم تملقاً بالملك فكانوا يتهافتون لقراءة النشرة اليومية عن صحتهِ في الصباح وفي المساء ولما تم الشفاء للملك بعد هذه الحادثة المؤلمة عين يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٢ موعداً لتتويجهِ في كنيسة وستمنستر القديمة حيث يتوج الملوك القدماء فتم ذلك على النسق الآتي :

قام الملك من قصرهِ بموكب حافل الى الكنيسة فلما وصلها بدأُوا بالصلاة فوقف رئيس الاساقفة والاساقفة وبقية الكهنة بالحلل الرسمية على باب كنيسة وستمنستر حتى اذا قرب موكب الملك دخلوا واعدوا الزيت المقدس المعد لمسح الملك والملكة. فلما دخلا نهض الشعب وجعل ينشد بعض المزامير ثم تقدم رئيس الاساقفة مواجهاً للشعب وخاطبهُ الخطاب الآتي :—

« ايها السادة — اني اقدم اليكم الملك ادورد صاحب هذه المملكة بلا خلاف . فبما انكم جئتم هذا المكان لاظهار ولائكم لهُ فهل انتم فاعلون ذلك »

فاجاب الحاضرون كلهم بالهتاف والضجيج قائلين « الله يحفظ الملك ادورد » وعند ذلك جاء اللوردات الحاملون ادوات التتويج كل في دورهِ ووضع ما معهُ من سيف او تاج او صولجان او غير ذلك فلما انتهوا من هذا اشترك الجمهور في صلاة ختمها رئيس الاساقفة .

بدعاء عقبهُ عظة القاها احد الاساقفة حتى اذا انتهوا من ذلك وقف رئيس الاساقفة وسأل الملك ان هل تريد ان تتلو القسم يا ايها المولى

فاجاب الملك · نعم اريد ذلك

س · وهل تقسم رسمياً وتعد صريحاً انك تحكم اهل مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وما يتبعهما من الممالك والمحقات حسب اللوائح التي سنها مجلس الامة وحسب شرائع هذه الامم وعوائدها المقررة

ج · اعد رسمياً اني افعل كل ذلك

س وهل تأمر باجراء العدل والقانون مع الرحمة في جميع ممالكك بقدر ما تستطيع

ج · نعم افعل ذلك

س · وهل تعد بالمحافظة على شرائع الله ودين الانجيل الصحيح والمذهب البروتستانتي المقرر في قانون البلاد · وهل تحافظ على اعتبار الكنيسة الاسقفية كنيسة انكلترا الرسمية وتمنع كل عبث بها ومس لشؤونها وتسير على تعاليمها ونواميسها ونظامها

ج · اني اعد بفعل هذا كله

فعند ذلك وقف الملك وكشف رأسهُ وتقدم الى مذبح الكنيسة ومن حوله رؤساء التشريفات والحجاب وحملة السيف والتاج وبقية الاشياء من كبار اللوردة كلهم بالحلل الرسمية واتى رئيس الاساقفة بالكتاب المقدس فوضع الملك يمينهُ على الكتاب ثم جثا على ذروة العرش واقسم كما يجيء

« اني افعل الاشياء التي وعدت بها الآن واحافظ عليها باكملها · فأعني يا الله » ثم قبل الكتاب المقدس ووضعهُ على رأسهِ ونهض ووضع امضاءهُ على ورقة كتبت فيها صورة القسم المذكور وتلا ذلك رسوم شتى وادعية متوالية انتهى بها التتويج وجاء من بعد ذلك الامراء ولوردة المملكة كل فئة في دورها الديوكات اولاً ثم اصحاب رتبة ماركيز ثم اصحاب رتبة ارل ثم اصحاب رتبة فيكونت ثم اصحاب رتبة بارون فاقسموا يمين الطاعة للملك ووارثي عرشهِ وكلما انتهت فئة من القسم يتقدم اكبرها ويقبّل الملك بالاصالة عن نفسهِ وبالنيابة عن اقرانهِ · فلما انتهت هذه الاقسام والرسوم انشد المغنون نشيداً مفرحاً وتلا النشيد هتاف الابواق وصراخ الحاضرين جميعهم هكذا : —

الله يحفظ الملك ادورد

الله يطيل عمر الملك ادورد

ليحيَ الملك الى الابد

وبهذا تمَّ تتويج الملك ادورد على الطرق التي اتبعها الانكليز في تتويج ملوكهم السابقين ·

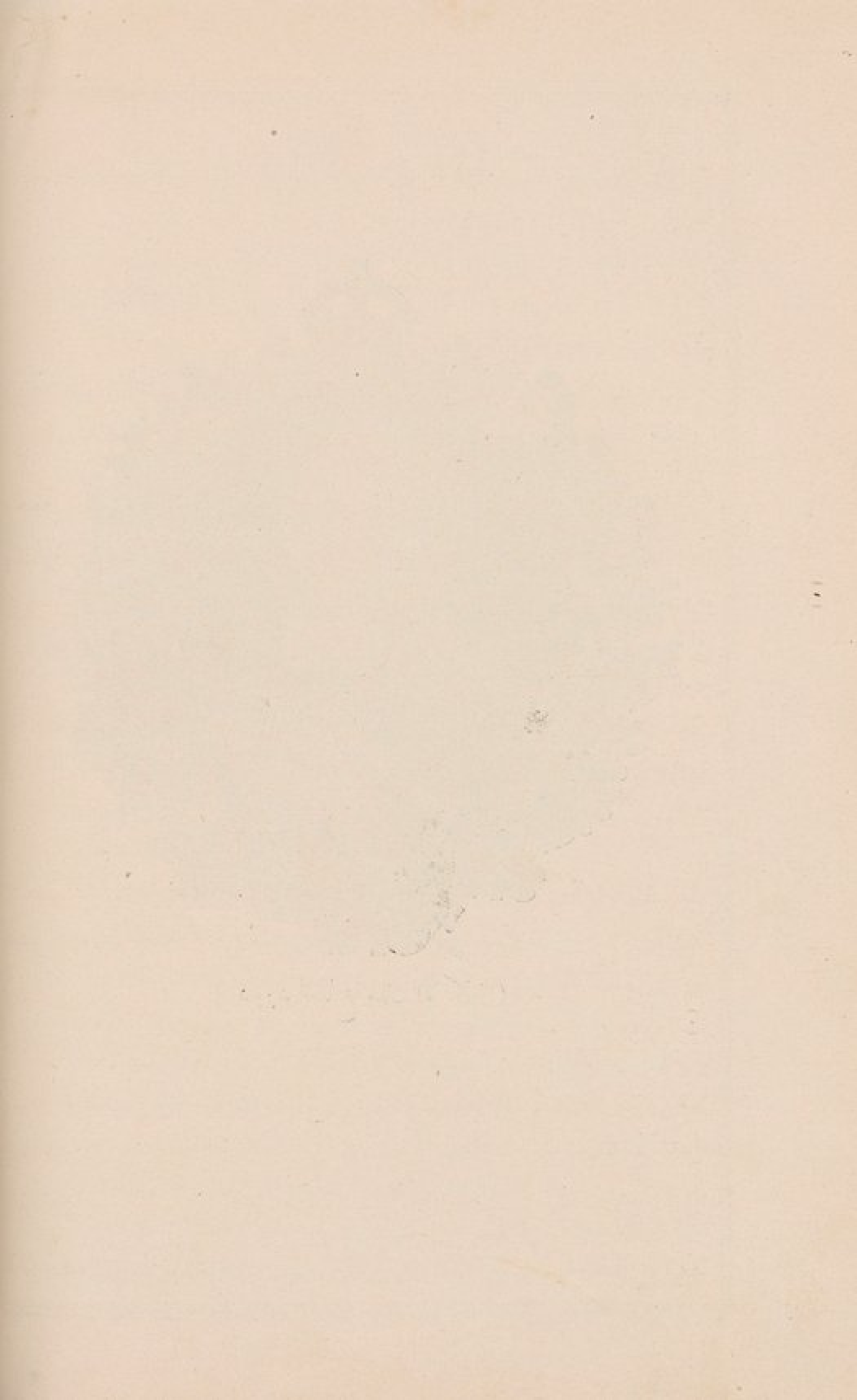
واما ولي عهد انكلترا فقد أُعطي هذا اللقب في حفلة رسمية جرى عليها جلالة والدهِ الملك مجري غيرهِ من الملوك القدماء فقلد ولي عهدهِ سيفاً والبسهُ تاجاً بسيطاً ووضع في يدهِ خاتماً وعصاً من الذهب ثم اعلن انهُ جعلهُ امير ويلس وانتهى بذلك الاحتفال في حضرة الوزراء ومشيري الدولة وكبراء البلاط وهذا كلهُ كما قلنا من العوائد القديمة ورثها الانكليز عن الاجداد واحتفظوا بها وهم اشهر امم اوروبا في المحافظة على المبدإ القديم

ولا ريب ان بين القراء عدداً كبيراً لا يعرف معنى تلقيب ولي العهد في انكلترا بهذا اللقب وحقيقة الامر ان ويلس بلاد في الشمال الغربي من انكلترا كانت في الزمان السابق امارة مستقلة ولها امير مستقل وبأس في الحروب مشهور فحاربها ادورد الاول ملك الانكليز وانتصر عليها وضمها الى ملكهِ وقتل امراءها فما بقي منهم واحد ولكنهُ رأى من اهلها عناداً وميلاً عن الخضوع لوالٍ انكليزي فجمع اليهِ مشايخ ويلس وكبارها وقال لهم اني اريد معاملتكم بالحسنى فهل اذا عينتُ لكم اميراً لم يشب شرفهُ عيب وهو لا يعرف من الانكليزية كلمة واحدة تقبلونهُ قالوا نعم قبلنا وعلى هذا الشرط خضعنا فلما استوثق الملك منهم ارسل في الحال وراء قرينتهِ الملكة وهي حامل واقام معها في قلعة كارنارفون في ويلس فولدت غلاماً فرح بهِ الملك ثم دعا كبراء الامارة مرة اخرى ولما اجتمعوا جاءهم بالطفل وقال لهم قد جعلت لكم اميراً لم يشب شرفهُ عيب ولا يعرف من لغة الانكليز كلمة وهو ابني هذا فما قولكم فيهِ . فرأى القوم ان الملك لم يخلف الوعد وان وصفهُ ينطبق على الطفل فاذعنوا ولقب ابن الملك بامير ويلس ومن ذلك الحين صار اكثر امراء انكلترا الذين ولدوا ليرثوا العرش يعرفون باسم برنس اوف ويلس

واما وارثو التيجان في الممالك الاخرى فبعضهم يعرف بالاسم المعين والبعض الآخر لهُ اسماء او القاب ترد الى مواضع معلومة ويرثها عنهم امير بعد امير . من هذا القبيل ولي عهد البورتوغال اسمهُ في جميع الاوقات امير القنطرة وولي عهد ايطاليا اسمهُ امير نابولي وولي عهد اليونان امير سبارطه وولي عهد اسبانيا امير استورياس كلها مواضع في بلاد القوم معروفة . واما الباقون فيعرفون باسمائهم الصحيحة او باسماء وظيفتهم فان ولي عهد روسيا اسمهُ تساروتش او ابن التسار وهو لفظ مسكوبي معناهُ الامبراطور . وولي عهد النمسا يعرف باسمهِ الصحيح وهو اليوم الارشدوق فردناند . والباقون مثل ولي عهد المانيا والدنمارك والسويد وهولاندا والبلجيك يعرفون باسم ولي العهد او الاسم الصحيح وكل ذلك تتبع فيهِ العوائد القديمة لان الملوك والامراء في هذا الزمان يرون كل الفخر والشرف في البقاء على عوائد الاجداد الكرام ولا عجب فانهم ورثوا عن اجدادهم اثمن ما في الوجود فليس يكثر عليهم ان يفخروا بعوائد اولئك الاجداد



(ادورد السابع ملك الانكليز)



لندن

وصلت مدينة لندن بعد سفر سبع ساعات ونصف من باريس عن طريق كاليه ودوفر وحالما وطأت ارض الانكليز في دوفر شعرت كما يشعر كل مسافر غيري يلاحظ الامور انني في ارضٍ رقتها الحضارة و بين قوم صاروا الى اعلى درجات العزّ فان الاشياء تجري هنالك على نظام ودقة غريبين معهما وقار وترفع كثير فالمحطة حافلة بمئات المسافرين والخدمة في كل الجوانب واقفون ولكن كثرة الزحام وتعدد القطر لا توجب اضطراباً ولا تسبب ضجةً ولغطاً فلا صفارة تنبئ عن قيام القطار ولا حارس يصيح في الناس ان ارفع رجلك او « المسافرير كب» ولاجرس يطن ولا راكب يزن او يدن والكل يسيرون من باب المحطة الى نافذة التذاكر يبتاعون منها اوراق السفر و يبرحونها الى عربات القطار بكل احتشام ووقارحتى اذا دنت لحظة المسير قام القطار يسير حثيثاً بين سهول تظهر عليها آثار الاجتهاد ومزارع صيرتها يد الانسان جنات تجري من تحتها الانهار بعد ان كانت بركاً للماء الآسن او ركاماً قاحلة لا يستفيد منها الانسان وقد رُصّعت الارض الى الجانبين بحصىً تمنع عن الناس الغبار وقامت الى جانب الخط من هنا ومن هنا ابنية ومساكن ومعامل ومغازل لا عداد لها وشقت الوهاد والنجاد في كل موضع قضبان الحديد تسير عليها الارتال في الطول والعرض فبينا انت راكب في قطارك تسير بسرعة تخطف الابصار ترى قطاراً بلى قطاراً قادماً من الجهة المقابلة على خطٍ محاذٍ للخط الذي انت فيهِ وترى قطراً أخرى تعترض الخطوط من كل جهة فلا يكاد القطار الذي انت فيهِ يجتاز نقطةً من الارض حتى تمرُّ فوقها القطر الاخرى واذا تأخر لحظة عن موعدهِ اصطدم بغيرهِ لكثرة القطر الناشئة عن الحركة التجارية

الهائلة في هذه البلاد العظيمة. و يتفق احيانًا انك تأتي موضعًا تمرّ فيهِ فوق جسر من الحديد عظيم فترى من تحت الجسر قطرًا أُخرى سائرة سير قطارك وقطرًا غيرها آتية من كل الجوانب متقابلة متعارضة فتعتريك حيرة من بلوغ الحركة التجارية هذا المبلغ العظيم اذا كنتَ لم تشهد مثلها من قبل . وفوق هذا فان الوقت الثمين في بلاد الانكليز لا يضيع منهُ لحظة والزمان عندهم ذهب على ما جاء في بعض اقوالهم المتعارفة فهم اذا جاءت الباخرة بمن فيها من الخارج والقت رحلها في ميناء دوفر على مثل ما ذكرنا قام الركاب في القطار على عجل ولم يمكن لعمال البريد في مدينة دوفر ان يرتبوا الكتب والرسالات الاخرى ترتيبًا يسهل معهُ توزيعها وليس يجوز ان يترك البريد على حالهِ حتى يرتب ويوزع في مكاتب لندن لان اشغال البريد فيها تفوق الحصر والتصديق بسبب الملايين الكثيرة التي تقطنها وهي اعظم مدائن الارض طرًّا واكثرها حركة وعلاقات بالبلاد الاخرى فلذلك ترى في القطار عربات طويلة خصت بعمال البريد يرتبون الرسالات فيها والقطار سائر في سبيلهِ فاذا وصل لندن كانت رسائل البريد حاضرة للتوزيع بلا امهال وفي هذا من التسهيل على اصحاب الاعمال واتقان العمل ما لا يخفى عَلَى البصير وهم يأتونهُ في كل الخطوط الانكليزية المشهورة

ولما انقضى زمان السفر ودخل القطار مدينة لندن العظيمة جعلت اتأمل هاتيك الجبال الراسية من البناء تمتد اميالاً الى كل جانب او هي بحار لا حدَّ لها من الشوارع والفنادق والمخازن والحوانيت والمساكن شوَّه الدخان الكثير ظاهرها فاشتدَّ سوادها وما ترك لها من الجمال شيئًا الاَّ في قليل من المواضع الكثيرة التي تراها العين مدة سير القطار بين احياء لندن . والجهة التي يراها المسافر القادم من الخارج قبل سواها اقل جهات لندن زخرفًا وجمالاً لولا ان المسافر يعلم من

اتساع المدينة وطولها البالغ وابنيتها التي لا تعد انهُ في لندن لظنٌ انهُ لم يصلها بعد او هو في مدينة اخرى صناعية احقر من عاصمة المملكة الانكليزية الواسعة ومركز تجارة الارض ومالها ومقر المالكين ربع هذه الدنيا ونقطة الارتقاء العصري والاقتدار

ولما بلغت محطة تشارن كروس في لندن لقيت فيها من الخلق الكثير ما يعسر عدهُ حتى انهُ لم يمكن لي ان القى عربة اسير فيها الى الفندق لان المدينة كانت يومئذٍ حافلة بالملايين فوق طاقتها بسبب عيد اليوبيل العظيم فوضعت امتعتي في مخازن المحطة وخرجت ماشياً اخترق الصفوف واصطدم بالمئات والالوف وقد قامت للناس ضجة ما سمع بمثلها السامعون واحتشد الربوات والملايين في تلك الشوارع الكبرى احتشاداً يكسف محافل الاولين والآخرين ولا عجب ففي لندن وضواحيها من السكان سبعة ملايين نفس وهو عدد يزيد عن عدد الساكنين في بعض الممالك برمتها وزاد عليهم من أمها في ذلك الحين وهم نحو مليوني نفس اخرى جاءت لتشهد حفلات اليوبيل التي ترى وصف بعضها في الفصل التالي

واما الذي اقول عن اعظم مدائن الارض وافخمها واكبرها واهمها فاني لو خصصت هذا الكتاب برمتهِ لوصف عشر معشار الذي يستحق الذكر فيها لانتهيت وبيني وبين الاشباع بعد باعد لان لندن هذه مملكة او بلاد عظيمة مساحتها ١١٨ ميلاً مربعاً وقد قامت على ضفتي نهر التمز وامتدت الى كل جانب حتى اضحت كانما هي بلا آخر تتصل اطرافها بالعمائر والمدائن الاخرى فلا تعلم اين تبدأُ المدينة واين تنتهي ولو جمعت شوارعها العديدة بعضها الى بعض لبلغ طولها ثلاثة آلاف ميل او اكثر وهي مسافة تزيد عن البعد ما بين مصر ولندن . او لو أُحصي سكانها طائفة طائفة لوجدت ان فيها من اهل اسكوتلاندا اكثر مما في عاصمة تلك البلاد ومن الكاثوليك

اكثر مما في رومه وهي عاصمة العالم الكاثوليكي ومن اليهود اكثر مما في القدس ومن الالمان اكثر مما في مدينة المانية من مدن الطبقة الثانية — هذا غير ان اهل الارض كلهم يجدون فيها من المواطنين عدداً عديداً وقد يوجد في لندن آلاف من بلاد واحدة لا يجتمعون بعضهم على بعض الاَّ في حفلات نادرة او قد يعيش المرء عمراً كاملاً فيها ولهُ صديق في ناحية اخرى منها لا يلتقي بهِ لاتساع هذه المدينة وكثرة احيائها واحتشاد الملايين في كل جوانبها . واما اذا شئت ان تحصي ما يرد اليها من بضاعة وتجارة وما يودع فيها من كتب البريد ورسائل البرق وما ينفق فيها من المال على هذه الحاجة وذلك الشيء فانك ترى ارقاماً يمكن لك قراءتها ولا يمكن ادراكها فهي مثل ابعاد الكواكب واجرام السماء الوف فوق الوف لا تدرك اهميتها العقول . يكفي ان يقال ان بعض مخازنها العظمى تبيع بنحو خمسة ملايين جنيه في السنة والعمال في بعض مصارفها ومعاملها عشرات آلاف يتناولون الرواتب الطيبة وفيها ٢١٦ ميداناً كبيراً غير الميادين الصغرى و ٥٦٥ محلاً للانغام الموسيقية والتمثيل وحوالي ثلثماية معرض ومتحف من جميع الاشكال واكثر من عشرة آلاف اثر او تمثال في حدائقها وشوارعها والميادين وفوق مليون مصباح تنير جوانبها الواسعة بعضها كهربائي والباقي اكثرهُ غاز مثل نور المدائن المصرية . وفي شوارعها ازدحام لا تفهمهُ العقول من الوصف ولا بدَّ لادراكهِ من المشاهدة فان الناس والمركبات والعربات والارتال والخيل وسواها سلسلة متصلة الحلقات الى الجانبين لا تنقطع طول النهار حتى انك لو وقفت عند بنك انكلترا مدة النهار من اولهِ الى آخرهِ تريد ان تجتاز الطريق من جانب الى جانب لما لقيت فرصة تناسب مرادك ولا امكن لك العبور الاَّ اذا وقفت العربات قليلاً من هنا ومن هنا باشارة من رجل البوليس الواقف امامك . وهنا لا بد من القول ان بوليس لندن من اعظم قوات الارض

انتظاماً وقد لا يكون في الممالك المنظمة بوليس مثلهُ في حسن المنظر والترتيب فان رجالهُ ينتقون من ذوي القامات الطويلة والمناظر الحسنة ويشترط فيهم ان يكونوا ذوي معارف وخبرة باحوال البلاد فهم يرشدون الناس الى كل امرٍ بلطف لا مزيد عليهِ ويسوقون اهل الجرائم الى المحاكم فتكفي شهادتهم لادانتهِ ولا يلزم لذلك مرافعة او نيابة ويخلون الشوارع من الزحام على كثرة الوافدين والمحتشدين ولا يظهر عليهم ملل او عناءٌ وان تسلهم عن مطعم او نزل او معرض تريد ان تذهب اليهِ اجابوك بوقار ورقة ان سر الى الجهة الفلانية خطوات معدودة ثم تحوَّل الى يمينك او يسارك ثم انتقل ثم سر امتاراً يعدونها لك بوجه التقريب فتصل الى حيث تريد ولهم في معرفة الاماكن علم عجيب . واما اشارتهم للعربات بالوقوف فمن اجمل الحركات فيها الاشارة الى مقدرتهم واحترام جماهير الانكليز للقانون والسلطة الشرعية لان هذه العربات كما قلنا تعدُّ آلافاً في كل شارع بعضها يلي بعضاً فاذا اجتمع المارة في نقطة يريدون العبور منها الى الجهة المقابلة اشار رجل البوليس الواقف في منتصف الطريق برفع يديهِ قليلاً وعند ذلك تبطل كل حركة وتقف الحوافل والعربات كلها من الجانبين كأَنما يد الرجل آلة تتصل بعجلات المركبات فاذا رفعت هذه الآلة اوقفت مسير العجلات وعند ذلك يمكن للمارة الانتقال حتى اذا تمَّ هذا رفع الرجل يدهُ مرة أُخرى فتعود سلسلة المركبات الى المسير ولا يخالف الامر حوذي ولو يكون سائق عربة الملك بنفسهِ . ولطالما رأيت العربة وانا راكب فيها تقف حيناً بعد حين في مسيرها واتطلع فلا أجد بوليساً يوقفها حيث اكون وعلمت ان الامر جاءَ من موضع في آخر الشارع فوقفت كل عربة واوقفت التي وراءَها حتى وصل الدور الى عربتي ووقفت ثم عادت الى المسير والذي يوقفها ويسيرها رجل لا تراهُ وفي هذا من بدائع النظام ما يسرُّ العقول

وقد كانت مدينة لندن صغيرة في اول امرها لا تزيد مساحتها عن ميل مربع الى ضفتي التمز ثم اتسع نطاقها وامتدت فروعها حتى صارت اوسع مدائن الارض واكبرها ومساحة ارضها خمسة اضعاف مساحة باريس لان منازلها في ما سوى القسم المتوسط منها غير مزدحمة وشوارعها رحيبة وحدائقها كثيرة وميادينها عديدة . واما البقعة الاصلية التي كانت فيها لندن الاولى فتعرف باسم « ستي » او المدينة وهي قسم خاص من اقسام لندن لهُ اهمية كبرى لانهُ خصَّ بالتجار والمصارف والاعمال المالية الخطيرة وفيهِ بنك انكلترا العظيم والبنوك الاخرى وادارات الشركات التجارية والجرائد اليومية ومقر محافظ لندن ومحكمة خاصة باعمال « الستي » هذه . وهي بالاجمال مركز الحركة ونسبتها الى بقية لندن نسبة القلب الى جسم الانسان لان الدم يدور في الجسم متفرعاً من القلب وحركة المال والاعمال تدور في كل لندن ومرجعها الى « الستي » ولذلك نجد اجرة المخازن والوكالات فيها عظيمة وثمن الارض فوق التصديق لا يقل عن خمسين جنيهاً عن كل قدم مربعة وقد يزيد . ولو بيعت بعض الاراضي المجاورة لبنك انكلترا بالفدان لزاد ثمن الفدان الواحد عن مليوني جنيه وفي هذا ما يكفي للدلالة علَى عظمة المدينة واتساع نطاق الحركة التجارية فيها . وللستي او المدينة قوانين خاصة بها وعوائد قديمة لم تتغير عما كانت عليهِ في ايام الملوك الاول الاَّ قليلاً ولها محكمة تجارية خاصة بها وباعمال تجارها في قصر مشهور يعرف باسم جلدهول وهو دار البلدية تولم فيهِ بعض الولائم الرسمية يقيمها حاكم مدينة لندن او اللورد مايور وهو ينتخب من بين اعضاء مجلس يدير شؤُون هذا القسم العظيم من اقسام لندن ويسمى لورداً مدة تولي الوظيفة ويعطى راتباً سنوياً مقدارهُ عشرة آلاف جنيه ولا تزيد مدة ولايتهِ عن سنة واحدة وهم في كل يوم تاسع من شهر نوفمبر ينتخبون حاكماً

جديداً و يحتفلون بتعيينهِ احتفالاً لا مثيل لهُ عند الانكليز في الابهة والفخامة حتى ان يوم اللورد مايور ليعد بينهم من الاعياد الكبرى و يتطلع اليهِ الصغار والكبار في كل حين فاما صغار الناس فلان الكتاب والعمال منهم يستريحون يومئذٍ من عناء الاعمال و يتفرجون على موكب اللورد مايور حين يدور في اهم شوارع المدينة واما الكبار فانهم يدعون الى وليمة فاخرة مساء ذلك اليوم في قاعة جلدهول التي ذكرناها ومن شروط هذه الوليمة ان يدعى اليها كل كبير وذي مقام وفي الجملة وزراء الدولة الذين اعتادوا الحضور والقاء الخطب الرنانة تعرب عن سياسة المملكة في تلك الليلة حتى ان وزراء الخارجية اذا ارادوا التصريح بامرٍ ذي بال ابقوهُ الى ليلة اللورد مايور والذين يهمهم معرفة خطة الحكومة في مسألة من المسائل يقرأون الخطب التي تتلى في تلك القاعة البديعة وفي كل سنة تنقل الاسلاك البرقية اقوال هؤلاء الوزراء العظام الى جهات الارض في ٩ نوفمبر علَى ما يذكر القارئون . وهم في مثل هذه الاحوال يبدأون بالطعام ويتلوهُ الشراب الفاخر ثم يقف اللورد مايور مرحباً بالضيوف وفي يدهِ كاس من الخمر يشربهُ في سر جلالة الملك فيشاركهُ الحاضرون مظهرين آيات الاكرام ويقوم بعد هذا الوزراء للخطابة ثم يشرب رئيس الوزراء نخب اللورد مايور ويشكرهُ على اعداد تلك الحفلة متمنياً لهُ عاماً سعيداً في الختام وبهذا يتم الاحتفال الذي تدوي الارض باخبارهِ في كل عام

ولما كان اتساع لندن الهائل و كثرة الاعمال فيها توجب تسهيل طرق المواصلة فقد بنوا فيها من محطات سكك الحديد شيئاً كثيراً من ذلك ١٤ محطة كبيرة لشركات مختلفة توصل لندن بجهات البلاد واطرافها وكلها واسعة فخيمة البناء تنار بالكهربائية وفوق اكثرها فنادق عظيمة مشهورة تديرها شركات سكك الحديد واكبرها مساحةً محطة واترلو فيها ١٦ رصيفاً تقوم القطر منها وينتقل الناس من

رصيف الى رصيف على جسور جميلة فاذا ذهب الرجل الى هذه المحطة للسفر او لغيرهِ وجب عليهِ ان يسأل العمال الواقفين في مدخلها عن الرصيف الذي تسير منهُ القطرات الى الجهة التي يريدها ولا بد ان يجد المسافرون في كل محطة رجالاً يخبرونهم عن المواعيد وكل ما يلزم لراحتهم وبعضهم لا يبطل الكلام جواباً على السؤالات التي يوجهها القادمون اليهِ مدة النهار بطولهِ . وفي لندن غير هذه المحطات ست وعشرون محطة أُخرى خصت بهذه العاصمة وقد بنيت كلها تحت الارض وانفقت الشركة على حفر السراديب لها وعملها مبالغ طائلة وهي تخترق لندن في جميع جهاتها فلو رأيت رسم هذه العاصمة تحت الارض لعجبت من كثرة الطرق والسراديب ينتقل فيها الالوف ومئات الالوف كل يوم فانهُ يقوم كل يوم اكثر من الفي قطر تسير تحت الارض من جهة في لندن الى جهة وكلها ملأى بالركاب والمتنقلين فيبلغ عددهم مليون ونصف من الخلق في كل اسبوع او نحو ٧٧ مليوناً في السنة . واغرب من هذا ان القطرُ التي تسير على الارض وتحت الارض لم تكفِ للمطلوب فعندهم قطر حديدية تسير فوق الماء وتحت الماء فاما فوق الماء فانهم بنوا لها جسوراً عديدة متينة فوق نهر التمز ترى الارتال دائمة المرور عليها واعظمها جسر البرج عند برج لندن الذي سيجيء الكلام عليهِ بني حديثاً على نسقٍ بديع وجعل طبقات واحدة منها لسكة الحديد وواحدة فوقها للمشاة يصعدونها على سلمٍ في اولها وينزلون من سلم في آخرها ويقرب منهُ في الجمال جسر لندن طولهُ ٩٢٨ قدماً وعرضهُ ٥٤ وهو قائم علَى عمد ضخمة وقناطر عظيمة تمر من تحتها السفن والمراكب السائرة في نهر التمز وقد انفقوا على بنائهِ مليوني جنيه وحسبوا انهُ يمر فوقهُ ٢٠ عربة في الدقيقة او ١٥ الفاً في كل يوم . واما تحت النهر فان في لندن خطين تسير عليهما القطر في سراديب عظيمة تحت بطن النهر سقفوها بالحديد وبنوا لها

محطة في كل جانبٍ من جانبي النهر والمسافر ينزل المحطة في آلة رافعة وخافضة او على سلم كثير الدرجات حتى اذا وصلها رأى الارض تعج بالخلق تحت ماء النهر والمحطة الفسيحة منارة بالكهربائية فيركب العربة ويسير بهِ القطار في ذلك النفق يجري الماء من فوقهِ حتى يصل الضفة الاخرى ويعود الى وجه الارض

وكل هذه الخطوط وهذه السكك لم تكفِ ايضاً حتى انهم انشأُوا من البواخر تسير في نهر التمز ما لا يعدو هي طول النهار في رواحٍ ومجيء بين اطراف المدينة . هذا غير ما في عاصمة الانكليز من الترامواي والامنبوس والحوافل والعواجل والعربات على اشكالها وعدد العربات الصغيرة للاجرة من نوع الهانسم الذي يركب سائقهُ في أعلى العربة من الوراء ٣٠ الفاً فاحسب عدد العربات الاخرى للاجرة ولاصحابها العديدين وتصور مقدار الحركة الهائلة في هذه المدينة العظيمة : ومن اجمل ما يمكن للغريب ان يراهُ ويعرف منهُ اهمية لندن ان يصعد الطبقة العليا من جسر البرج الذي مرَّ ذكرهُ فيرى تحتهُ قطر الحديد والعربات عَلى اشكالها سائرة محدة من الجانبين وتحتها سفن البخار والزوارق والقوارب لا تعد سائرة فوق الماء وتحتها ارتال عظيمة سائرة بالالوف في سراديب تحت الماء ومن حولها الى الجانبين قطر وعربات سائرة على وجه الارض في كل جهة فاذا رأى الغريب كل هذا صفر عجباً لعظمة الانكليز ومقدار اشتغالهم واتساع نطاق اعمالهم وعظمت عاصمتهم الكبرى في عينيهِ فوق عظمتها المعروفة

واحسن ما يكون لمشاهدة ما في لندن من المتاحف والمعارض والآثار العظيمة ان يبدأ المتفرج من ساحة ترافلجار لانها نقطة الفصل بين اقسام لندن الاربعة اي الشمال والجنوب والشرق والغرب . بدأت من هذه الساحة فدخلت شارع ستراند وهو من اعظم شوارع انكلترا اهمية وازدحاماً فيهِ التجارة والبنوك وشركات

التأمين والبوسطة العمومية والتلغراف والبورصة ودار البلدية وبنك انكلترا وهناك الازدحام الشديد والحركة التي لا تحدها العقول وكل هذه في الجهة الشرقية من ساحة ترافلجار. واول شيء يلتفت اليهِ الغريب كنيسة مار بولس تعد اعظم كنائس الانكليز وتقام فيها اكثر الاحتفالات العظيمة مثل احتفال اليوبيل الذي سنذكرهُ طولها ٥٠٠ قدم وعرضها ١١٨ ولها قبة عظيمة تعد من غرائب البناء الجديد محيطها من الداخل ٢٢٥ قدماً وعلوها ٣٦٥ فهي من أعلى ابنية الارض. وفي ساحة هذه الكنيسة من الخارج تمثال الملكة حنه التي نظمت في ايامها قوانين الكنيسة الانكليزية على ما تقدم في فصل التاريخ وتماثيل الرسولين بطرس وبولس وفي داخلها قبور وتماثيل لكثيرين من عظماء الدولة الانكليزية الذين شادوا لها صروح الفخار في هذا العصر وسابق الاعصار مثل امير البحر نلسون وقائد الجيوش ولنتون وهما اللذان حاربا نابوليون وكسراهُ ومثل اللورد ملبورن اول وزراء الملكة فكتوريا وغوردون الذي قتل في الخرطوم وغيرهم كثير. ولقبةً هذه الكنيسة كما قلنا شهرة ذائعة قضوا اعواماً كثيرة يشتغلون بتذهيبها وزخرفتها وقد انفقوا على ذلك الاموال الطائلة ويمكن ارتقاء البرج على سلم كثير الدرجات عددها ٦١٦ والتفرج على مدينة لندن من ذلك العلو الشاهق اذا سمحت احوال الجو بذلك فان جو لندن متلبد بالغيوم في الصيف والشتاء واذا اشرقت الشمس فان كثرة البخار والضباب والدخان في الهواء لا تساعد على النظر الى البعيد من المشاهد

لما انتهيت من مشاهدة هذه الكنيسة سرت في روستريت وهو شارع عظيم فيهِ تمثال روبرت بيل الوزير المشهور توفي سنة ١٨٥٠. وعلَى مقربة منهُ ادراة البوسطة العامة واعمالها تحير البصر لانها اكبر ادارة لاكبر عاصمة ولاكثر الناس حركة واعمالاً. ومثلها ادارة التلغراف العمومية وهي تجاهها يكفي ان

يقال في وصفها ان فيها مئات من آلات التلغراف ترسل كل سنة عدة ملايين من الاشارات والعمال فيها لا يرفعون رؤوسهم من العمل مدة النهار بطولهِ او مدة نوبتهم وبينهم كثار من البنات في كل فروع البوسطة والتلغراف . وايراد الدولة لا يقل عن ١٦ مليون جنيه كل سنة من هذه المصلحة بعد كل نفقاتها الهائلة . وقد سرت من تلك النقطة الى موضع هو مركز مدينة لندن حيث قام قصر حاكم لندن او المانشن هوس يقيم فيهِ العميد مدة توظفهِ سنة مع عائلتهِ وهو من القصور المنيفة فيهِ احسن الرياش والخدمة بالملابس المقصبة برواتب من البلدية . والعميد يدخل هذا القصر كل سنة باحتفال رسمي ويسلمهُ لخلفهِ بحفلة أُخرى عند تجديد الانتخاب السنوي

وتجاه المانشن هوس قصر البلدية او جلدهول بدأوا ببنائهِ سنة ١٤١١ وانتهوا سنة ١٤٣١ وقد احترق واعيد بناؤُهُ سنة ١٨٦٦ وزيدت زخارفهُ حتى صار من المشاهد المعدودة في اوروبا . وفي هذا القصر تولم الولائم لضيوف لندن من الملوك والكبراء وتقام الحفلات السنوية واهمها حفلة ٩ نوفمبر من كل سنة حين يدعو العميد وزراء انكلترا للعشاء ويدعو معهم كل ذي مقام خطير فتلقى في تلك الحفلة خطب تعرب عن سياسة الدولة وقد تقدمت الاشارة اليها . طول القاعة العمومية هنا ١٥٢ قدماً وعرضها ٤٩ ومنظر شبابيكها القديمة من أحلى ما يفتخر بهِ الانكليز . وفي هذه القاعة تماثيل الرجال العظام الذين شيدوا ملك انكلترا الواسع مثل القواد والوزراء . وقد بني هذا القصر وقصر المحافظ وبنك لندن في ساحة واحدة على شكل مثلث هو على وجه الجملة اهم موضع في عاصمة الانكليز

اما بنك انكلترا فانهُ في ملتقى شوارع كثيرة بني من دور واحد بناء متيناً فاخراً ومساحة ارضهِ ١٦٨٠٠ متر تحرسهُ فرقة من الجنود وفيهِ ثلثة آلاف عامل

التأمين والبوسطة العمومية والتلغراف والبورصة ودار البلدية وبنك انكلترا وهناك الازدحام الشديد والحركة التي لا تحدها العقول وكل هذه في الجهة الشرقية من ساحة ترافلجار. واول شيء يلتفت اليهِ الغريب كنيسة مار بولس تعد اعظم كنائس الانكليز ونقام فيها اكثر الاحتفالات العظيمة مثل احتفال اليوبيل الذي سنذكرهُ طولها ٥٠٠ قدم وعرضها ١١٨ ولها قبة عظيمة تعد من غرائب البناء الجديد محيطها من الداخل ٢٢٥ قدماً وعلوها ٣٦٥ فهي من أعلى ابنية الارض. وفي ساحة هذه الكنيسة من الخارج تمثال الملكة حنه التي نظمت في ايامها قوانين الكنيسة الانكليزية على ما تقدم في فصل التاريخ وتماثيل الرسولين بطرس وبولس وفي داخلها قبور وتماثيل لكثيرين من عظماء الدولة الانكليزية الذين شادوا لها صروح الفخار في هذا العصر وسابق الاعصار مثل امير البحر نلسون وقائد الجيوش ولنتون وهما اللذان حاربا نابوليون وكسراهُ ومثل اللورد ملبورن اول وزراء الملكة فكتوريا وغوردون الذي قتل في الخرطوم وغيرهم كثير. ولقبة هذه الكنيسة كما قلنا شهرة ذائعة قضوا اعواماً كثيرة يشتغلون بتذهيبها وزخرفتها وقد انفقوا على ذلك الاموال الطائلة ويمكن ارتقاء البرج على سلم كثير الدرجات عددها ٦١٦ والتفرج على مدينة لندن من ذلك العلو الشاهق اذا سمحت احوال الجو بذلك فان جو لندن متلبد بالغيوم في الصيف والشتاء واذا اشرقت الشمس فان كثرة البخار والضباب والدخان في الهواء لا تساعد على النظر الى البعيد من المشاهد

لما انتهيت من مشاهدة هذه الكنيسة سرت في روستريت وهو شارع عظيم فيهِ تمثال روبرت بيل الوزير المشهور توفي سنة ١٨٥٠. وعلى مقربة منهُ ادراة البوسطة العامة واعمالها تحير البصر لانها اكبر ادارة لاكبر عاصمة ولاكثر الناس حركة واعمالاً. ومثلها ادارة التلغراف العمومية وهي تجاهها يكفي ان

يقال في وصفها ان فيها مئات من آلات التلغراف ترسل كل سنة عدة ملايين من الاشارات والعمال فيها لا يرفعون رؤُوسهم من العمل مدة النهار بطولهِ او مدة نوبتهم وبينهم كثار من البنات في كل فروع البوسطة والتلغراف . وايراد الدولة لا يقل عن ١٦ مليون جنيه كل سنة من هذه المصلحة بعد كل نفقاتها الهائلة . وقد سرت من تلك النقطة الى موضع هو مركز مدينة لندن حيث قام قصر حاكم لندن او المانشن هوس يقيم فيهِ العميد مدة توظفهِ سنة مع عائلتهِ وهو من القصور المنيفة فيهِ احسن الرياش والخدمة بالملابس المقصبة برواتب من البلدية . والعميد يدخل هذا القصر كل سنة باحتفال رسمي ويسلمهُ لخلفهِ بحفلة أُخرى عند تجديد الانتخاب السنوي

وتجاه المانشن هوس قصر البلدية او جلدهول بدأُوا ببنائهِ سنة ١٤١١ وانتهوا سنة ١٤٣١ وقد احترق واعيد بناؤُهُ سنة ١٨٦٦ وزيدت زخارفهُ حتى صار من المشاهد المعدودة في اوروبا . وفي هذا القصر تولم الولائم لضيوف لندن من الملوك والكبراء وتقام الحفلات السنوية واهمها حفلة ٩ نوفمبر من كل سنة حين يدعو العميد وزراء انكلترا للعشاء ويدعو معهم كل ذي مقام خطير فتلقى في تلك الحفلة خطب تعرب عن سياسة الدولة وقد تقدمت الاشارة اليها . طول القاعة العمومية هنا ١٥٢ قدماً وعرضها ٤٩ ومنظر شبابيكها القديمة من أحلى ما يفتخر بهِ الانكليز . وفي هذه القاعة تماثيل الرجال العظام الذين شيدوا ملك انكلترا الواسع مثل القواد والوزراء . وقد بني هذا القصر وقصر المحافظ وبنك لندن في ساحة واحدة على شكل مثلث هو على وجه الجملة اهم موضع في عاصمة الانكليز

اما بنك انكلترا فانهُ في ملتقى شوارع كثيرة بني من دور واحد بناء متيناً فاخراً ومساحة ارضهِ ١٦٨٠٠ متر تحرسهُ فرقة من الجنود وفيهِ ثلثة آلاف عامل

ولهُ مدير ينتخب من بين التجار المساهمين كل ٥ سنوات مرة ومجلس ادارة . وهو اقدم بنك في انكلترا أُسس سنة ١٦٩٤ وظلَّ يرتقي حتى صار مستودع اموال الامة والحكومة واشهر مصارف الارض طرًّا يدخل اليهِ من المال ويخرج منهُ كل يوم نحو مليون جنيه وفيهِ من النقود عَلَى الدوام نحو ٢٠ مليونًا ومن الاوراق المالية نحو ٢٥ مليونًا واوراقهُ شائعة في كل بلاد تعد احسن من النقود قيمةً وهو على الجملة مركز مال الارض واكبر البيوت المالية فيها . واما البورصة تجاههُ فجل ما يعلم العامة عنها انها بناءٌ عظيم يتضارب فيها الموسرون بالالوف والملايين وقد نقش فوق اعمدتها الضخمة من الخارج صور الحاصلات التي يتجر بها الانكليز في جميع الاقطار وفي صدر الساحة تمثال الملكة فكتوريا واما الدخول الى البورصة فغير مباح لغير المشتركين واعمالها سرية محضة خلافًا لمعظم البورصات الاوروبية فالذي يريد التأمل بعظمة لندن عليهِ بهذه النقطة والشوارع المحدقة بها ولاسيما شارع ثردنيدل وهو القائم بهِ تمثال مستر بيبودي المحسن الاميركي المشهور وقد كان من امر هذا الخير الكريم انهُ اتجر في بلاد الانكليز واثرى ورأى شقاء فقرائهم فجاد بنصف مليون جنيه لتبنى بها بيوت صحية لهؤلاء الفقراء بدل اكواخهم العفنة ولم يجد كريم في الايام الحديثة بهبة كبرى كهذه فعظم قدر الرجل عند الانكليز وارادت الملكة ان ترقيهُ الى رتبة سر وتجعلهُ من النبلاء ولكنهُ وهو اميركي لا يعرف للالقاب قيمة اعتذر عن قبول هذا الشرف فارسلت اليهِ جلالتها كتابًا بخط يدها تشكرهُ على مروءتهِ وارفقت بالكتاب رسمها الكريم . ولما مات هذا المحسن جمع الانكليز مالاً بالاكتتاب واقاموا هذا التمثال لهُ وبنوا بمالهِ بيوتًا للعمال تضمُّ الآن عشرين الف نفس وتقدر قيمتها بنحو مليوني جنيه وقد كان احسانهُ في وطنهِ بالولايات المتحدة اكثر من احسانهِ في لندن رحمهُ الله رحمة واسعة واكثر

من امثالهِ بين الناس

وبعد هذا اتجهت في اليوم التالي الى الرصيف المعروف باسم الملكة فكتوريا بني على ضفة التمز من الجهة الغربية وطولهُ ٢٣٠٠ متر وعرضهُ ٩٤ متراً وهو من اعظم شوارع لندن اتساعاً واكثرها جمالاً لانهُ يشرف على النهر وقد زرعت الى جانبيهِ الاغراس وانواع الشجر ورصع الجانب الآخر بافخر انواع البناء مثل نادي الاحرار وفندق سافوى وفندق سسل وهما من اهم فنادق لندن وقد جعلوا اوسط هذا الرصيف للعربات بعرض ٦٤ متراً والى كلٍّ من الجانبين طريق للمشاة فترى الناس يتمشون هنا الوفاً في اوقات الصحو ويتنقلون في الحدائق الصغيرة الملاصقة لهذا الممر العظيم ويتأملون ما في النهر من ماء وسفينة وقد انفقوا مليوني جنيه على هذا الرصيف وهم الآن شارعون في تطويلهِ . وهناك المسلة المصرية التي نقلها الانكليز بعد عناء وافر من الاسكندرية ووضعوها حيث يمكن ان ترى من جهات عديدة كما وضعت المسلات المصرية الاخرى في باريس ونيويورك وهي من مشاهد لندن المذكورة . ولهذه المسلة تاريخ مفيد فانها على ما يظهر من كتابات قديمة عليها صنعت في ايام تحوتمس الثالث في سنة ١٥٠٠ قبل المسيح ونقلت على عهد اوغسطس قيصر الى الاسكندرية في بدء التاريخ المسيحي فظلت بها الى ان ملك البلاد محمد علي باشا خديويها الاول وقدمها هدية لحكومة انكلترا فقبلتها ولكنها لم تهتم بنقلها حتى اذا جاءت سنة ١٨٧٧ تبرع احد رجالها واسمهُ ولسون بعشرة آلاف جنيه لنقلها الى لندن فنقلت على صندل من الخشب جرتهُ باخرة كبيرة ولكنها غرقت في الطريق بسبب نوء اصابها في خليج بسكي فاخرجوها في السنة التالية ووضعوها في الرصيف المذكور وكتبوا على بعض جوانبها ما يشير الى خلاصة تاريخها الذي ذكرناهُ

وقد ركبتُ سفينة بحرية من احدى نقط الرصيف هذا وذهبت الى برج لندن المشهور وهو الآن متحف للسلاح والجواهر لهُ حراس من الجنود الطاعنين في السن يلبسون ملابس الحراس القديمة وفي مدخلهِ مدفع جميل منقوش نقشاً تركياً أهدي من السلطان عبد المجيد الى الدولة الانكليزية جزاء اشتراك جنودها في حرب القرم مع جنود الدولة العلية . وقد قام هذا البرج على ضفة النهر واحاطت بهِ خنادق حفرت ايام كان يلزم البرج للحرب والحصار فانهُ بناهُ وليم الظافر واستعمل بعد ذلك لحبس الكبراء وتعذيب الناس من اعداء الملك كما استعمل الباستيل في باريس . ولطالما حدثت في هذا البرج اهوال وفظائع لم تزل آثار بعضها باقية الى الآن من ذلك خنق الولدين البريئين ابناء الملك ادورد الرابع بامر عمهما الطاغية رتشرد الثالث وكان ذلك في ايام حروب الوردتين وقد وجدت عظامهما تحت سلم قاعة الاجتماع . وهنا سجنت الملكة اليصابات بامر اختها الملكة ماري وأُغرق الديوك اوف كلارنس اخو الملك ادورد الرابع وقتل هنري السادس . وهنا ايضاً قطع رأس الملكة حنه بولن والدة الملكة اليصابات ولم يزل موضع قتلها معروفاً يراهُ كل داخل الى هذا البرج القديم وفيهِ قتلت الكونتس سولسبري سنة ١٥٤٢ واللورد سيمور الاميرال سنة ١٥٤٩ . وهنا أيضاً سجن الملوك الاجانب الذين اسرهم الانكليز مثل داڤد بروس ملك اسكوتلاندا و يوحنا ملك فرانسا وقد مرَّ ذكرهما في فصل التاريخ . وهنا حدثت حوادث كثيرة يتذكرها المرء معتبراً بنوائب الدهر لا محل لسردها الآن

فانت ترى من هذا ان اسم برج لندن كان يرجف الابدان في سابق الزمان واما الآن وهو متحف بديع الى جانب النهر ومن ورائهِ جسر عظيم سبقت الاشارة اليهِ فقد صار من المتنزهات واما كن الفرجة فانهُ متحف للسلاح من قديم وحديث

وشرقي وغربي على جميع الاشكال وضعوهُ في غرف شتى مرتباً ترتيباً تسهل معهُ المطالعة والذي يدخلهُ يرى هيئة المحاربين الاول من اهل اوروبا بخوذهم ودروعهم وملابسهم وخيلهم وسلاحهم كلهِ ويلزم للفرجة على هذه الملابس والاسلحة زمان طويل لا سيما اذا عرف المتفرج ان هذا السيف كان في يد الملك هنري يوم اخضع فرانسا وهذا الرمح جاء بهِ ريكاردوس الى فلسطين ايام الحروب الصليبية وهذا الخنجر كان في يد ملك اسكوتلاندا حين اسرهِ وغير ذلك من الآثار العظيمة لا محل لذكرها . ومن اغرب الآثار هنا الرايات القديمة غنمها الانكليز في بعض الحروب وملابس الملوك القدماء من بعد سنة ١٢٧٢ وغير هذا من آثار الاقيال الانكليز ودلائل حروبهم الماضية

وفي البرج قسم هو في منتهى الجمال تؤمهُ الالوف كل يوم اريد بهِ القسم الذي أُودعت فيهِ جواهر المملكة الانكليزية في علب من الزجاج احيطت بقضبان من الحديد والنحاس وهي تبهر الانظار بانوارها الساطعة وجمالها الفائق منها تاج الملك تشارلس الثاني ظلَّ الملوك يستعملونهُ الى ايام الملكة السابقة وقد سرق مرة سنة ١٦٧١ واعيد من سارقيهِ بعد عناء كبير وللملكة فكتوريا تاج آخر صنعتهُ في بدء حكمها وهو عظيم القيمة فيهِ ٢٧٨٣ الماسة غير الجواهر الاخرى . وفي تلك الخزائن ايضاً غير هذين التاجين صولجان الملك من الذهب الخالص مرصعة قبضتهُ بانفس الجواهر وتاج ولي العهد وتاج قرينتهِ ومجوهرات ملوك انكلترا وملكاتها السابقين تبلغ قيمتها نحو ثلثة ملايين جنيه . والى جانب هذه المجوهرات النفيسة امثلة من الوسامات الانكليزية والاوروبية فرشت على قطيفة حمراء ولها شكل بهي وقطعة من الزجاج تمثل الالماسة المشهورة كوه النور التي مرَّ ذكرها

وقد ورد في هذا الكتاب ذكر كثير من جواهر الملوك فرأيت ان اسرد

معظمها هنا اتماماً للفائدة

في خزنة الفاتيكان في روميه حجر الماس وزنهُ ٢٧٩ قيراطاً وتليهِ الماسة اورلوف في القصر الشتوي في بطرسبورغ وزنها ١٩٤ قيراطاً وحجر آخر فيهِ وزنهُ ١٢٤ قيراطاً . وفي خزينة اللوفر في باريز حجر وزنهُ ١٣٩ وعند امبراطور النمسا حجر وزنهُ ١٣٦ وعند شاه ايران حجر وزنهُ ٩٥ قيراط وعند البرنس داميدوف الروسي حجر وزنهُ ٥٣ قيراطاً وعند الامبراطورة اوجيني حجر وزنهُ ٥١ قيراطاً وفي تاج قيصر روسيا حجر وزنهُ ٤٠ قيراطاً

واكبر هذه الحجارة الماسة كلنان المشهورة وجدت في ٢٠ يناير سنة ١٩٠٥ في منجم كلنان بالترانسفال فكان ثلثها لحكومة الترانسفال والثلثان للشركة ولكن الحكومة اشترتهُ وقدمتهُ هدية للملك ادورد جزاء ميلهِ الى التساهل مع البوير في شروط الحرب التي انتهت على ايامهِ وفي تقرير مبدإ الاستقلال الداخلي للترانسفال . وعلى ذلك ذهب وفد من قبل حكومة الترانسفال واغتنم فرصة عيد مولد الملك في ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٧ فقدم هذا الحجر الى الملك ووزنهُ ٣٠٢٤ قيراطاً وطولهُ ١٠ سانتيمترات وعلوهُ ٦ سنتيمترات وربع السنتيمتر وسمكهُ ٣ سنتمترات وربع وقد قطع وصقل في مدينة امستردام بهولاندا وهو الآن موجود في خزينة الملك

وقد مرَّ بك ان هذه العاصمة الكبرى مشهورة بكثرة ميادينها البهية واشهر هذه الميادين بلا مراء ساحة ترافلجار سميت بهذا الاسم تخليداً لذكر نلسون ومعركة ترافلجار البحرية التي جرت عند شطوط اسبانيا على مقربة من جبل طارق سنة ١٨٠٥ وقد اقيم في وسطها عمود رفيع باسق وفي اعلاهُ تمثال نلسون والقاعدة من نحاس المدافع الفرنسوية التي غنمها الانكليز في حروبهم البحرية لها ٤ جوانب يمثل احدها معركة ترافلجار هذه وقد كان الانكليز فيها

يحاربون اسطولي اسبانيا وفرانسا معاً فحطموهما تحطيماً ونجت انكلترا بهذا النصر من تحكم نابوليون لانهُ كان قد اعدَّ جيشاً مؤلفاً من ١٧٢٠٠٠ من المشاة و٩٠٠٠ من الفرسان واعدَّ ٢٤١٣ سفينة لنقل هذا الجيش القوي من شطوط بلادهِ الى انكلترا فلولا انتصار الانكليز في ترافلجار لتمكن نابوليون من الوصول الى انكلترا وسحقها ولا عجب اذا اكبر القوم بعد هذا ذكر نلسون وحروبهِ . ونقش على جانب آخر من القاعدة رسم معركة كوبنهاجن وهي التي انتصر فيها نلسون على الدنمارك كما تقدم في بابهِ . وفي الجانب الثالث رسم استلام السيف من القائد الاسباني بعد معركة سان فنسان وفي الجهة الرابعة رسم معركة ابي قير وكلها كان النصر فيها للانكليز تحت قيادة نلسون ايضاً . ويرى المتأمل في تلك القاعدة جملة صارت من آيات التاريخ يتداولها الانكليز خلفاً عن سلف ويحنون الرؤُوس لذكرها لانها كانت شعار نلسون كتبها في أعلى سارية ليراها كل جنودهِ يوم معركة ترافلجار وهي « ان انكلترا تنتظر من كل فردٍ ان يقوم بالواجب عليهِ » — وفي هذة الساحة تماثيل كبراء كثيرين من القواد والساسة غير تمثال نلسون تحيط بهِ احاطة الهالة بالقمر . وهنالك مقاعد وبرك تتفجر منها المياه وممَاشٍ تزيد اهمية هذا الميدان لانهُ محاط من كل جهة باعظم مشاهد لندن فامامه محطة تشارن كروس وفندقها والفندق الكبير وفندق سسل فيهِ ٧٠٠ غرفة و٥٠ قاعة خصوصية فضلاً عن القاعة العمومية حيث تولم الولائم الكبرى . ولا يبعد عنهُ فندق ساڤوي فيهِ ٥٠٠ غرفة وهو على مرمى حجر من فندق متروبول وفيهِ ٥٠٠ غرفة وكل هذه الفنادق من اعظم ما في عاصمة انكلترا . وامام ميدان ترافلجار المذكور معرض الفنون الجميلة ووراءهُ بقليل ميدان لستر فيهِ اعظم مراسح لندن مثل مرسح امباير والهمبرا وغيرهما ومنهُ يرى مجلس النواب

واللوردة ودواوين الحكومة وكثير من الاندية المشهورة ويتفرع منهُ شارع ستراند وشارع فليت وشارع ريجنت وبال مال وبكادلي وكلها من اعظم شوارع لندن او هي اعظمها فميدان ترافلجار هذا نقطة مركزية في لندن واقع في طرف الستي او المدينة الاصلية ولا بدَّ لكل زائر ان يراهُ من اول يوم كما انهُ لا بد لزائر باريس ان يرى ساحة الكونكورد في الحال والموضعان متشابهان في الاهمية

قلنا ان معرض الصور فوق هذا الميدان واسمهُ عند الانكليز « ناشيونال جالري » وهو من المتاحف العظيمة انفقوا على بنائهِ مبالغ طائلة وما زالوا يزيدونهُ اتقاناً وزخارف من عام الى عام وقد ابتاعوا انفس الصور ووضعوها في غرف هذا المعرض الفسيحة . ولو شئنا عد شيء قليل من تحف هذا المعرض لضاق بنا المقام ولكن القارئ يعلم مقدار اهميتهِ من القول ان الحكومة ابتاعت بعض صورهِ بالمال الوفير فانها دفعت تسعة آلاف جنيه ثمن صورة واحدة تمثل السيدة وولدها من صناعة ليولانارود دي فنسى . واهم من هذا صورة العذراء من صنع رفائيل المصور المشهور اشترتها الحكومة لهذا المعرض بسبعين الف جنيه من الديوك اوف مارلبرو وهي أغلى صورة في الوجود لم تبلغ صورة أُخرى ثمنها الى الآن . وقد درت في جوانب هذا المتحف واعجبت باتقان بنائهِ وزخارفهِ وفخامة عمدهِ في المدخل الكبير وهي من الرخام السماقي الثمين تليها درجات من الرخام الأبيض عريضة والداخل من تلك الواجهة العظيمة يشعر بالعظمة والوقار قبل ان يرى ما في المعرض من نفيس الآثار

واما الجانب المقابل لهذا المتحف من ساحة ترافلجار ففيهِ مركز الوزارات الانكليزية وهي ابنية عظيمة فخيمة متوالية بعضها وراء بعض في شارع اسمهُ دونن ستريت يطل على حديقة سان جيمس المشهورة باتقانها واجمل هذه الابنية من

الخارج لوزارة المستعمرات ومن الداخل لوزارة الخارجية حيث يستقبل السفراء وامراء الاجانب وتولم بعض الولائم العظيمة . ويلي هذه الابنية الشاهقة قصر سان جيمس مقر ملوك انكلترا الاول لم يزل على حالتهِ القديمة دليل ميل الانكليز الى المحافظة عَلَى القديم وامامهُ جنود من الايات الحرس بتلك القامات الطويلة والوجوه الجميلة والملابس الثمينة يخطرون وهم فرجة للناظرين يقضون الوقت بالتمشي لا يلتفتون الى شيء آخر فاذا كلمتهم لم يظهروا انهم شعروا بوجودك او سمعوك . وعلى الابواب جنود منهم على الخيل وملابسهم جميلة يقف الجندي فوق حصانهِ ساعتين في موضعهِ فلا هو يتحرك ولا الحصان يتقلقل كل تلك المدة ولمنظرهم مهابة ووقار كثير

ووراء هذه القصور بناء البرلمان العظيم وهو مجلس نواب الامة ولورداتها وعظمتهُ لا تخفى على احد لانهُ مركز قوة الدولة حيث تُتلى اعظم الخطب السياسية والمحاورات . وقلَّ ان يمرَّ يوم لا نسمع فيهِ ان فلاناً قال قولاً خطير الشأن في هذا المجلس العظيم . والبناء من خارجهِ في غاية الفخامة والجمال يندر ان ترى في الارض اعظم منهُ اتقاناً ومهابة صرف عليهِ ثلاثة ملايين ونصف من الجنيهات ولا تمرُّ سنة الاَّ ويصرف عليهِ الوف أُخرى لزخرفهِ واصلاحهِ . ولهُ من الخارج عدة ابراج شاهقة ترى من مسافات بعيدة فتزيدهُ حسناً ومهابة اهمها برج سان ستيفنس وهو في الطرف الشمالي علوهُ ٩٧ متراً وفي الوسط برج آخر طولهُ ٩١ متراً وبرج الملكة بني فوق قنطرة وعلوهُ ١٠٣ امتار وفي هذا البرج ساعة ذات اربعة وجوه قطر كل وجه منها سبعة امتار تسمع دقاتها الى بعد باعد . وقد بني الى ضفة نهر التمز وضعت لهُ المماشي والارصفة عند الماء يجلس اليها الاعضاء للسمر وتناول المشروبات حين الفراغ من الاعمال ويكثرون ان يدعوا الى ذلك الموضع اصحابهم

من السيدات والرجال فيراهم الراكبون في السفن من النهر ويتأملون عظمة الموضع الذي تدار فيهِ سياسة الممالك ومهامها ويتأملون ايضاً واجهتهُ المطلة على النهر يبلغ طولها ٢٧٥ متراً وقد نقش عليها صور ملوك انكلترا من عهد وليم الفاتح الى الملك ادورد الحالي وكذلك صور وتماثيل كثير من عظماء الرجال الذين شيدوا المملكة وقووا باعمالهم الكبيرة دعائمها . وقصر وستمنستر هذا او هو مجلس البرلمان يشغل ارضاً مساحتها ٣٣٩٠٠ متر وفيهِ احدى عشر ردهة او حوشاً ومائة سلم والف ومائة غرفة يمكن للناس ان يدخلوهُ مرة في الاسبوع وهو يوم السبت من الساعة العاشرة صباحاً الى الساعة الرابعة بعد الظهر للتفرج على بعض جوانبهِ واما دخول القاعات التي يجتمع فيها اللوردة والنواب وسماع المداولات فلا يمكن الاَّ باذن من احد الاعضاء . وقد ذهبت الى هذا المجلس العظيم مع صديق قديم لي هو المستر موبرلي بيل مدير جريدة التيمس المشهورة ودرت معهُ في تلك الاروقة والقاعات حتى خيل لي انني في بلد انتقل في شوارعهِ ولست في بناء واحد ودخلت قاعة العرش فاذا هي آية في الجمال والرواء رصعت ارضها بالفسيفساء البديعة الالوان وزينت السقوف والجدران بالصور والرسوم منها صورة امير البحر نلسون كأنهُ يموت في واقعة ترافلجار ورسم الدوك ولنتون يقابل معتمد فرانسا عقب واقعة واترلو الشهيرة . وفي صدر القاعة العرش يجلس عليهِ الملك في بعض الحفلات الرسمية ومنهُ ينتقل الى قاعة مجلس اللوردة حيث يتلى الخطاب الملوكي وحين ذاك يذهب موظف من مجلس اللوردة الى مجلس النواب في الجانب الآخر من البناء يدعو النواب الى الحضور لسماع الخطاب الملوكي فيترك النواب كل عمل لهم ويبطل كل قول ويتوجه بعضهم لسماع الخطاب وهي عادة قديمة لم يتحول عنها الانكليز الى الآن . واعضاء هذا المجلس نحو ٥٥٠

لورداً اكثرهم يرثون هذا اللقب عن الآباء والاجداد وبعضهم يرقى اليهِ باجتهادهِ مثل كرومر وولسلي وكتشنر . ولكن لا يحضر المجلس من الاعضاء اكثر من ماية الاَّ في احوال نادرة . وليس فيهِ مقاعد لجميع الاعضاء لو حضروا . وفي داير القاعة من اعلاها مواضع للسفراء والمدعوين من السيدات والرجال واصحاب الجرائد . وسنذكر عن نظام هذا المجلس بعد الكلام عن قاعة النواب

دخلت مجلس اللوردة وهو قاعة باهرة ذهبت جوانبها وزخرفت سقوفها وفرشت ارضها بالقطيفة الحمراء وفيها اثنا عشر شباكاً زجاجياً رسمت عليها صور ملوك انكلترا واسكوتلاندا وبين تلك الشبابيك صور اللوردات الذين اضطروا الملك جون ان يمضي الدستور الذي قام عليهِ نظام الحكومة الحاضرة . وهذا الرسم على الزجاج في الالوان من الصناعة البديعة . وفي صدر القاعة من ناحية الجنوب منصة مرتفعة قليلاً عليها المنبر او الكرسي الذي يجلس عليهِ الملك عند افتتاح جلسات المجلس او اقفالها وبجانبهِ كرسي للملكة

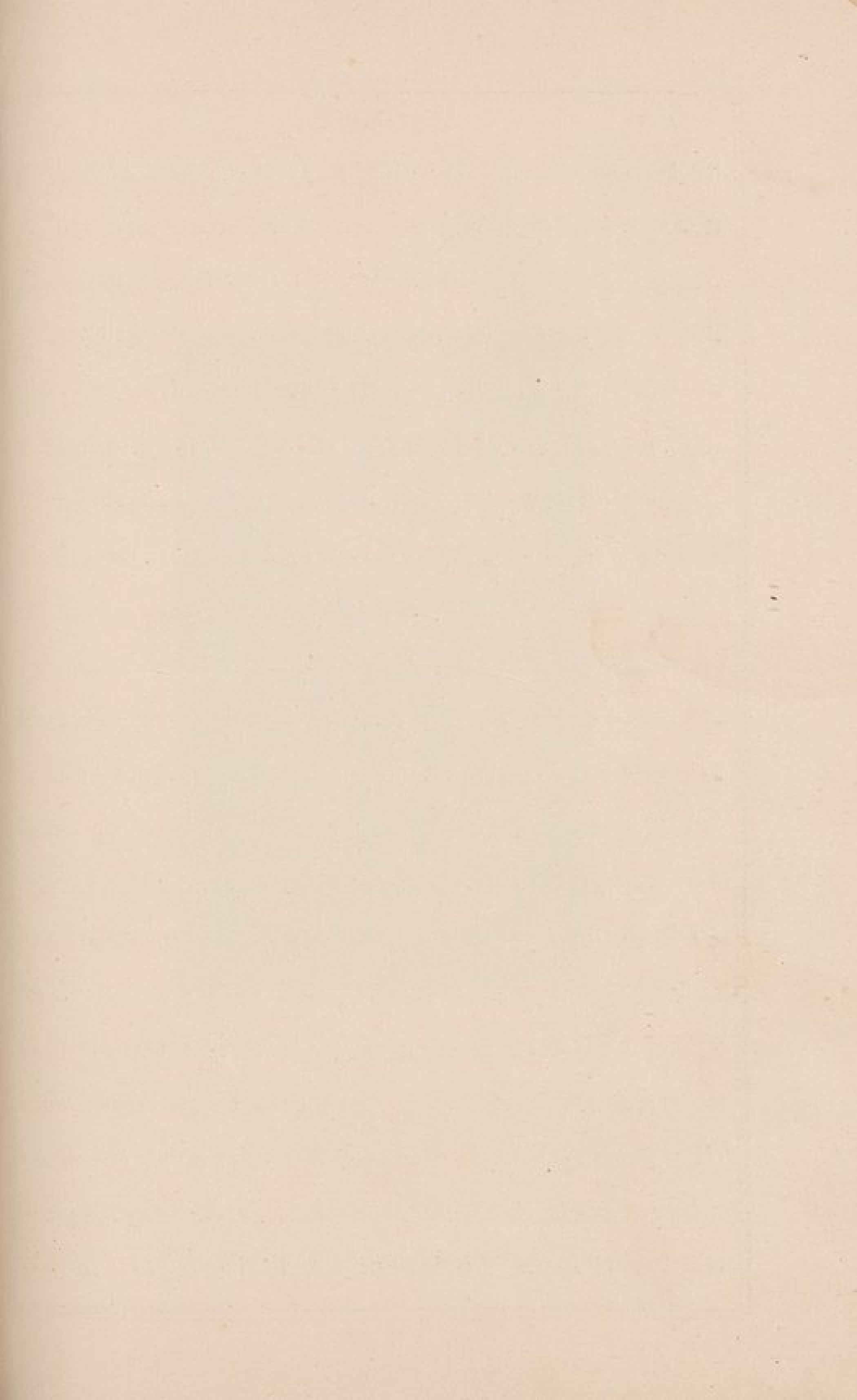
ودخلت بعد ذلك مجلس النواب وهو اقدم المجالس النيابية عمراً واعظمها صولة تنقل الاسلاك البرقية اقوال اعضائهِ كل يوم الى اقاصي الارض ولكنهُ اذا رآهُ الغريب لم يصدق انهُ في ذلك المجلس العظيم لانهُ لا يزيد عن قاعة بسيطة فيها كراسي ومقاعد وفي صدرها محل الرئيس وهم يسمونهُ (سبيكر) او المتكلم عن الشعب بحاجاتهِ . وعدد اعضاء هذا المجلس ٦٧٠ ولكنهم لا يجتمعون كلهم فيهِ الاَّ نادراً ولا يمكن لاكثر من النصف ان يقعدوا فيهِ لصغرهِ وقد ابقوهُ على هذه الحالة لانهُ مجتمع النواب الاول فحافظوا علَى شكلهِ عملاً بسنة المحافظة التي يميل اليها الانكليز . واعضاء هذا المجلس احزاب كثيرة اشهرها حزب المحافظين وحزب الاحرار . ومن احزابهم حزب الاحرار المتطرفين وحزب الاحرار المنشقين والحزب

الارلندي وهو يخالف الاحزاب جميعها ويطلب ان تستقل ارلندا في شؤونها الداخلية ويكون لها مجلس خاص بها وهي نقطة الخلاف الدائمة بين هؤلاء الاعضاء وزملائهم الانكليز . والنواب ينتخبون كل ست سنوات او اقل وهم يجلسون الى كراسيهم ولا ينزعون قبعاتهم مدة الجلسات خلافاً للمتفرجين وهذا امتياز قديم لاعضاء المجلس حافظوا عليهِ كما انهم حافظوا على عادات قديمة أُخرى لا محل لذكرها هنا . وليس لهم رواتب مثل بقية النواب في اوروبا بل هم يخدمون بلادهم بلا اجرة وقد اشتهر عنهم الرزانة والوقار فلا تحدث في مجلسهم الضوضاء واشكال الخصام التي تسمع عن النواب في بعض الممالك الاخرى . وفي مجالسهم مقاعد للمتفرجين واصحاب الصحف ويتبع محلهم غرف للمداولات وللوزراء واروقة كثيرة فيها رسوم الحوادث التاريخية وتماثيل الرجال العظام من الانكليز

ويقرب من مجلس البارلمنت هذا دير وستمنستر العظيم وهو معبد فاخر يتوَّج فيهِ الملوك ويحتفل بزواج الامراء والكبراء وفيهِ مدفن لمشاهير الامة ايضاً. ويليهِ شارع عظيم اسمهُ شارع فكتوريا يتصل آخرهُ بقصر بكنهام . والى جانب القصر حديقة جميلة اسمها سان جيمس پارك يليها حديقة أُخرى اسمها جرين پارك ويتصل بهذه حديقة أُخرى اسمها هيد پارك هي من اكبر حدائق الارض لا تقل مساحتها عن خمسماية فدان ويجتمع فيها الالوف في كل يوم متنزهين ولا سيما يوم الاحد حين يخرجون من الكنائس وينقطعون عن العمل وهنالك يخطب الخطباء على السامعين في كل موضوع سياسي او مدني او ديني وتجري العربات الفاخرة لسراة لندن والخيل المطهمة ولا يجوز لعربات الاجرة ان تجتاز طرق هذه الحديقة والذي يريد ان يرى لذة العيش في لندن وثروة سراتها او فقراوباشها فما عليهِ الاَّ ان يدور في جوانب هيد پارك يرَ ذلك رأي العين



(ادورد السابع يقرى الخطاب في البارلمان)



ذكرنا ان ميدان ترافلجار نقطة مركزية ومنهُ يتفرع شارعان مهمان غرباً هما بال مال بيكادلي وفيهما الاندية من الطبقة الاولى يؤُمها سراة الانكليز حيث يقضون اوقاتهم بالمطالعة والمسامرة . ويتصل بالميدان المذكور ابهى واجمل شارع في الارض اعني بهِ شارع ريجنت تمرُّ بهِ جميع اشكال الامة الانكليزية وفيهِ الحوانيت تباع فيها أحسن البضائع وهو يشبه اعظم بولفارات باريز . وفي طرفهِ شارع اكسفورد لا يقل طولهُ عن ميلين ولو شئنا وصف شيء من هذه الشوارع او عدّ المهم منها كلهِ للزم لذلك المجلدات . يكفي الغريب ان يتمشى في هذه المثابات الكبرى ويتأَمل مخازنها وتحفها وجماعات الداخلين اليها والخارجين منها لانهُ اذا قضى في ذلك عاماً كاملاً لم يملّ الفرجة

واما متاحف لندن ومعارضها فاكثر من ان تعدّ ايضاً لانها اعظم مدن الارض واشهرها وفيها كل ما يمكن ان يخطر على البال . ولعلّ اشهر معارضها المتحف البريطاني المشهور بالآثار التاريخية لكل ملة وكل امة لهُ منظر من الخارج فخيم وقد قام على عمد بديعة الشكل ومدخلهُ رهيب رحيب يؤُمهُ الناس مئات والوفاً حيث يدرسون آثار الامم الدارسة بلا ثمن ويرون بقايا الشعوب الغابرة وقد قسمت اقساماً هنا للروم وهنا للرومان وهنا لمصر وهنا لبلاد اشور والكلدان وليس في الارض معرض آخر فيهِ من الاجسام المحنطة والآثار المصرية البديعة ما في هذا المعرض الاَّ متحف الجيزة . وهنالك من انواع النقود القديمة والحديثة لكل الممالك ما يقصر القلم عن وصفهِ ومحررات وكتب خطت بيد المشاهير من جميع الازمان ومؤلفات غريبة بعضها عربي قديم لهُ قدر وقيمة . هذا غير المكتبة التابعة لهذا المعرض وهي قاعة كبرى مستديرة الشكل يدخلها الطالبون باذن خاص من مديرها وفيها نحو اربعماية الف كتاب فاذا دخلها الزائر قعد الى كرسي وكتب اسم

الكتاب الذي يريده على ورقة يجدها امامهُ فيأتي خادم من خدمة المحل ويأخذ الورقة ثم يعود بالكتاب ويضعهُ امامهُ بلا حديث ولا لغط فترى العلماء والمنقبين يدرسون هنالك بكل وقار ولتلك القاعة تأثير في النفس عظيم . وقد اشتهر المتحف البريطاني هذا بما انفق عليهِ من الالوف وما فيهِ من هدايا الانكليز النفيسة والآثار من أشهرها حجر رشيد الذي اهتدى الناس الى العلم باللغة المصرية القديمة منهُ وجدهُ العلامة شامبليون الفرنسوي سنة ١٨٠٤ مدة الحملة الفرنسوية واخذ منها يوم حاربهم الانكليز فاودع في هذا المعرض . ومن ذلك آثار بابل ونينوى التي جمعها السر هنري ليارد وغيره وهي اقدم آثار الآدميين وفيهِ غرفة للتحف النفيسة والجواهر القديمة لا تفتح الاَّ باذن خاص لبعض الزائرين

ومن هذه المعارض متحف كنستنون خص بالفنون الجميلة كالحفر والنقش والتصوير وفيهِ أشكال الآلهة القديمة والرجال العظام كلهم على اختلاف الملل . ومتحف التاريخ الطبيعي وهو بناء جميل في صدرهِ تمثال دارون العلامة المشهور وفيهِ أشكال النبات والطير والسمك والحيوان كلها وهو من المعارض الجميلة في لندن . ومن هذا القبيل أيضاً متحف مدام توسو على مقربة من حديقة النبات التي ذكرناها فيهِ تماثيل الرجال والنساء العظام بملابسهم المعروفة وقد اتقن الى حد ان الغريب لا يفرق بين التمثال والشخص الحي . وغير هذه المعارض كثير لا يمكن ان نطيل في وصفهِ

وفي القسم الغربي من لندن اهم مشاهدها وهو مسكن الاغنياء واهل الترف وليس في الارض بقعة أعظم من البقعة المحيطة بقصر بكنهم في جمال ابنيتها واتساع شوارعها وفخامة مناظرها وثروة أصحابها وكثرة مشاهدها وما فيها من آيات العظمة والاتقان . ومثلها في الجمال واتساع الطرق بعض الضواحي يسكنها الموسرون

والاكابر وهم يقضون اعمالهم في المدينة . وفي لندن من تماثيل الرجال العظام ما لا يعد ولا يعدد تراهُ اينما سرت واحسن هذه التماثيل البرت مموريل او تذكار البرنس البرت زوج الملكة أُقيم لهُ بعد وفاتهِ في طرف حديقة هيد بمال الامة وانفق على زخرفهِ وتشييدهِ نحو ١٢٠٠٠٠ جنيه ويليهِ في آخر الحديقة الى الشمال قاعة مستديرة كثيرة الفخامة والزخرف اسمها البرت هول يجتمع فيها الالوف للامور الخطيرة وسماع الخطب المهمة وهي تضم نحو عشرة آلاف نفس . وقلَّ ان تسمع باسم رجل عظيم من الذين نبغوا بين الانكليز وليس لهُ تمثال في هذه العاصمة . واما فنادقها فمحاولة عدها خطاء لان الفنادق هنا بلا عدد وبعضها ضخم كبير الى حدٍّ غريب ومطاعمها ايضاً لا حصر لها ولكن اكثرها يقفل يوم الاحد مثل كل المخازن والاماكن العمومية فترى المدينة ذلك النهار في سكون وهدو غريبين حتى يخيل لك انك انتقلت من لندن وهي مركز الحركة الهائلة والضجة الكبرى

ويكثر الضباب في لندن حتى انهم يضطرون الى انارة الطرق والمخازن بالانوار الكهربائية وغيرها في وسط النهار احياناً وجوها قاتم في اكثر ايام السنة حتى ان المرء لا يرى امامهُ الاَّ مسافة قريبة . ومنازلها معروفة بالسواد من الخارج بسبب هذا القتام المولد عن كثرة مداخنها والمقادير الكبرى التي تحرق فيها من الفحم كل يوم ففيها اكثر من ٦٠٠ الف منزل ونحو ١٥ الف معمل ويتطاير منها الدخان في كل آن

ومن اهم مشاهد لندن موانيها الكبرى علَى ضفاف نهر التمز اذا زارها المرء رأى العجب وتحقق ان تجارة الانكليز تصل كل صقع بعيد وان مملكتهم لا تغيب الشمس عنها وسمع من الضجة وشهد من الجد في العمل وكثرة السفن والعمال والابضعة ما يحير العقول ويبهر الانظار فان طول المينا اربعة اميال يدخلهُ كل

عام ما يزيد عن سبعة وعشرين الف سفينة محمولها ستة عشر مليوناً ونصف طونولاته وتبلغ قيمة صادرات هذه المملكة حوالي ٥٥٠ مليون جنيه حسب احصاء سنة ١٩٠٨ . ويمكن لثلثماية سفينة بصنادلها ان ترسو في هذا الميناء العظيم . وهناك الارصفة التابعة للمينا اهمها رصيف كاترينا صرف عليهِ ثلاثة ملايين جنيه مساحتهُ نحو ماية فدان ورصيف التجارة يشغل ٣٥٠ فداناً ورصيف الهند يشغل ايضاً ٣٥٠ فداناً ورصيف ڤيكتوريا ٥٠٠ فدان . ويدخل الى هذه الارصفة اربعون قطاراً من قطارات السكة الحديدية في كل يوم . وهناك مخازن للبضائع اهمها محل مساحتهُ ٣٠ فداناً للبهائم يضم ثلاثماية وخمسين الف رأس من البقر والضان . فالذي يتأمل تلك العربات التي لا تحصى ذاهبة آيبة لنقل البضائع وهاتيك الالوف من العمال تشتغل بلا انقطاع يعلم انهُ في مقر الحركة الكبرى ومركز تجارة الارض بلا خلاف

ضواحي لندن

ان ضواحي لندن كثيرة العدد متنوعة المناظر يسهل الوصول اليها من كل جهات المدينة . ولما كان وصف هذه الضواحي التي جعلها اواسط الانكليز واكابرهم محل اقامتهم لا يختلف كثيراً عن وصف ضواحي العواصم الاخرى فقد رأيت ان اكتفي منها بما يجيء :—

(حديقة ريجنت) هي اكبر حدائق لندن تبلغ مساحتها ٤٧٢ فداناً من الارض وفيها قسم للحيوانات على شكل حديقة الجيزة من ضواحي مصر ولكن معرض الحيوانات في حديقة ريجنت هذه من اكبر معارض الحيوان في ديار الغربيين فيهِ اكثر من ٢٥٠٠ حيوان وقد يزيد عددها او يقل حسب الاحوال

كما ان عدد المتفرجين عليها يختلف باختلاف الاوقات . واكثر ما يكون توارد المتفرجين الى هذه الحديقة في ساعات العصر حين تخرج هذه الوحوش من مكامنها وتشم رائحة اللحم فتأتي حركات تروق للناظرين . ولصغار الانكليز ولع بهذه الحديقة فهم ينتابونها الوفاً مؤلفة وتلذ لهم فيها مشاهدة القردة على انواعها وتأمل حركاتها وامورها . وربما قضى الزائر ساعات متواليات في هذه الحديقة يدور من مشهد الى مشهد ويتأمل غرائب المخلوقات المتعددة حتى اذا شعر بملالٍ او تعب جلس الى احد المقاعد المنثورة في جوانب الحديقة بين شهي الاغراس وبهي الازهار او انتاب قهوة يسمع فيها شجي الالحان واذا جاع او عطش فلديهِ مطعم فيهِ من كل فاكهة زوجان ومن الاطعمة ما يشاء من الاطباق والالوان

وفي هذه الحديقة اقسام أُخرى بعضها لانواع الطير وقد لا تقلُّ الطيور المختلفة في اقفاصها عن ١٥٠٠ طير جمعوها من سحيق الاصقاع ونائي القارات فمنظرها غاية المتفرجين . وفيها ايضاً قسم للزحافات مثل الحيات وسواها جاوُا بها من الهند واميركا وجاوه وافريقيا وهي داخل بيوت من الزجاج لبعضها شكل يخيف القلوب ولكن هذه المخلوقات على الجملة تشرح الصدور بمنظرها وحركاتها وتعد حديقة ريجنت من أحسن مثابات لندن وانفعها في جميع الاوقات

(قصر البلور) هو بناءٌ من الزجاج والحديد شادتهُ شركة انكليزية في قسم سدنم من ضواحي لندن سنة ١٨٥٤ برأي المرحوم البرنس البرت والد ملك انكلترا الحالي ليكون معرضاً عمومياً لمصنوعات الامم جمعاء وقد نقلت باريز وغيرها هذا الفكر عن لندن فاقامت المعارض العمومية المشهورة وما زالت ترجع اليها من حين الى حين . انفقوا على هذا البناء يوم انشائهِ مليوني جنيه وجعلوا لهُ فناءً طولهُ ١٦٠٨ اقدام وفيهِ محل للموسيقى بلا سقف يمكن ان يقعد فيهِ ٤٠٠٠ نفس وقاعة

عظيمة واسعة تضم نحو ٢٠ الفاً وحدائق ومناظر تعد من حسنات العاصمة الانكليزية فالناس يقصدون هذا القصر وحديقتهُ ويكثر عديدهم في الاعياد والآحاد حين تزداد المشاهد ومشوقات النفس الى الحضور وتطلق في الليل العاب نارية مختلفة الرسوم والالوان فتلذ الفرجة لجمهور المتفرجين . واما حديقة هذا القصر التي ذكرناها فلا تقل مساحتها عن ٢٠٠ فدان فيها كل ما يفتن الابصار من الاعشاب والازهار وبرك الماء وممهد الطرق وبقية الحسنات المعهودة في مثل هذا المتنزه الكبير . وفي هذا القصر تماثيل بديعة منقولة عن صنعة القدماء ومعرض لبعض الآثار والاسلحة القديمة واسواق صغرى تباع بها النفائس من احسن معامل الانكليز

(رتشمند) مكان بهي بديع تنشرح آياته الصدر ويشعر المرء فيهِ براحة البال وتعاون الطبيعة والصناعة على ابراز الجمال باحلى الاشكال . يمكن الوصول الى هذه الجهة بسكة الحديد او بالعربات تجرها الخيل او بحافلات الاوتومو بيل او بغير ذلك من وسائل النقل وقد قصدتها بعربة تجرها اربعة جياد وتسير العربة ساعة من الزمان في طريق مستقيم ليس بهِ اعوجاج ولا انحناء ولا تعريج الى الشمال او الى اليمين . بنيت رتشمند على ضفة نهر التمز الذي يخترق مدينة لندن ويشطرها شطرين ففيها القوارب الحسناء يركبها من شاء التنقل فوق ماء البحر والى مقربةٍ منهُ حديقة رتشمند المشهورة وهي مجموع حرجات وجنات وغابات تمرّ بها الناس فوق الجياد او في مركباتها متلذذة بالهواء النقي . ومساحة هذه الحديقة ٢٢٢٥ فداناً كانت فيما سبق من املاك ملوك انكلترا فتنازلت الملكة فكتوريا عنها في اوائل حكمها وجعلتها من املاك الامة حتى تكون مثابة الجمهور كما هي الآن

(حديقة كيو) وهذه ايضاً من بدائع الضواحي الانكليزية ومثابات اهل

الترف والبطالة يمكن الوصول اليها من حديقة رتشمند التي ذكرناها والمسافة بينهما طويلة ولكن السائر في هذا الطريق يرى قسماً كبيراً من اطراف مدينة لندن . وهم يعنون بانبات الاعشاب والنباتات الغريبة في هذا الموضع فيضعون بعضهُ داخل بيوت من الزجاج وقد يوقدون النار من تحت جذورهِ لانهُ منقول عن بلاد حارة فلا ينمو الاَّ بمثل هذا التدبير . اذكر اني لقيت مدير هذه الحديقة ساعة زيارتي وانهُ رافقني وارشدني بنفسهِ الى كثير ما تحلو مشاهدتهُ واظهر لطفاً عظيماً . واذكر ايضاً اني رأيت في هذه الجهة لاول وهلة احدى بنات الانكليز تشتغل بعزق الارض والزراعة وهي بنظيف الملابس وفي رجليها حذاء وفي يديها قفاز او كفوف تقيها المضار . وقد رأيت اشجار النخل هنا داخل محل علوهُ ٧٠ قدماً وحرارتهُ لا تقل عن درجة ٨٠ على مدار السنة وهو منظر غريب لا نظير لهُ في بلاد الانكليز وفي وسط الحديقة طريق عريض جميل الى جانبيهِ صفوف الزهر والعشب يمتد منها الى ضفة التمز . وفيها كل ما تطلب النفس من لوازم الطعام والشراب فزيارتها عائدة بالمسرة والقوم الذين ينتابونها جمهور كبير

اليوبيل

ولدت جلالة الملكة فكتوريا في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨١٩ وهي ابنة الديوك اوف كنت ابن الملك جورج الرابع وامها المانية من آل كوبرج . وربيت هذه الملكة في مهد الفضيلة حتى اذا توفي عمها سنة ١٨٣٧ ورثت الملك عنهُ بحسب نظام المملكة الانكليزية واظهرت من ساعة تتويجها رقة وشعوراً بالواجب جذب قلوب الناس اليها وجعلهم يجلون مقامها ويحبونها حباً مفرطاً واقترنت سنة ١٨٤٠ بابن عمها البرنس البرت امير كوبرج وغوثا وكان الرجل من

انجب اهل زمانهِ واعقلهم وابرعهم طالما قام مقام الملكة في المحافل وارشدها في المهمات وقد حدثت في ايامها حوادث كثيرة اشرنا الى بعضها في الخلاصة التاريخية من هذا الفصل وتقدمت الامة الانكليزية تقدماً لم يسبق لهُ نظير في ايام هذه الملكة العظيمة التي اشتهرت بالفضائل ولم تغضب شعبها مرة واحدة مدة حكمها الطويل . ولما بلغت الخمسين من حكمها احتفل الانكليز بذلك العيد احتفالاً عظيماً دعوا اليهِ ملوك الارض وامراءها ولكنهم عادوا الى احتفال اعظم منهُ سنة ١٨٩٧ حين تمَّ على الملكة ستون عاماً وهي فوق العرش وكان هذا هو اليوبيل الذي نحن في شأنهِ

كانت الحكومة الانكليزية والامة قد استعدت لذلك الاحتفال الباهر قبل زمانهِ بمدة طويلة وظلّت الجرائد اشهراً واعواماً تكتب عنهُ وتقدم الآراء في وجوه اظهارهِ وجمع الافراد والجماعات في المملكة الانكليزية والمستعمرات مبالغ طائلة لتنفق على الزخارف والزينات في يوم الاحتفال ولتقدم بها الهدايا لجلالة الملكة او لتنشأ المدارس والآثار الدالة على ذلك العيد العظيم الذي لم يدوّن لهُ التاريخ مثيلاً فانهُ لم يملك في الارض ملك او ملكة ٦٠ عاماً على سلطنة لا تغيب الشمس عنها مثل سلطنة الانكليز الأ اثنان هما لويس الرابع عشر ملك فرانسا وجورج الرابع ملك انكلترا وكلاهما لم يكونا على تمام القوى العقلية مدة حكمهما الطويل . وارسلت حكومة انكلترا في اوائل سنة ١٨٩٧ كتباً الى ملوك الارض وامرائها ووزرائها تعلنهم ان الاحتفال العظيم بمرور ستين عاماً على حكم الملكة فكتوريا يتم يوم ٢٢ يونيو من تلك السنة فانتدبت كل دولة وفداً من عظمائها يحضر ذلك الاحتفال بالنيابة عنها وكان رئيس الوفد في اكثر الاحيان من امراء الدولة المالكة او ولي عهدها او اقدم وزرائها وبعض الملوك ذهبوا بانفسهم مثل

ملك البلجيك وملك سكسونيا وملك اليونان وملك الدنمارك وغيرهم . وارسلت الوزارة الانكليزية الى سلطنة الهند والمستعمرات تدعوها لحضور هذا الاحتفال فجاءَ من كل مستعمرة وزيرها الاول مع قرينتهِ واستأجرت لهم الحكومة فندق سسل من اشهر فنادق لندن في شارع ستراند فاقاموا فيهِ مدة الاحتفال ضيوف دولتهم وكذلك جاءَ من كل مستعمرة نفر من الجند فكنت ترى العساكر الوسترالية والكندية والقبرسية والهندية والصينية والملقية والمالطية والافريقية علَى اشكالها وانواعاً من الجند والناس اتت من مشارق الارض ومغاربها حيث يخفق العلم الانكليزي الذي تظلل بظلهِ في ايام الملكة فكتوريا نحو خمس البشر جميعهم وهو عدد لم يحكم مثلهُ واحد من بني آدم قبلها . وكان منظر هؤلاء الاقوام المختلفة ومنظر ضباط الجيش الهندي بملابسهم المزوقة وعمائمهم المزخرفة يستحق الذكر والاعجاب ويشير اشارة واضحة الى اتساع السلطنة الانكليزية وقوتها الهائلة . ودعي الى هذا الاحتفال ايضاً قواد الاساطيل الانكليزية والجيوش البرية واعضاء البارلمنت ومجالس الشورى والبلدية والوزراء السابقون وكل ذي حيثية ومُقام فكان في ذلك المشهد العظيم من امراء الارض وملوكها وقوادها ووزرائها واصحاب المقام الخطير فيها ما لم يتفق اجتماعهُ في نقطة واحدة من عهد تأسيس الحضارة الحديثة ولا غرو اذا قيل ان اليوبيل كان من اعظم اعياد المتمدنين

واما عن استعداد الاهالي والزينات الباهرة في كل جوانب لندن وفي الشوارع التي تقرر ان يمرَّ بها الموكب العظيم في ذلك اليوم المشهود فحدث ولا تسل لان حلقات الزهر والاعمدة والقبات والمصابيح والكرات والرايات واشكال الزينة الاخرى كانت متواصلة متوالية من قصر بكنهام الذي خرجت منهُ الملكة وبقية الكبراء الى كنيسة مار بولس التي اقيم فيها الاحتفال الديني ومن هذه الكنيسة

الى القصر في شوارع غير التي قدم الموكب منها وقد استغرق مسير الموكب ذهاباً واياباً ٤ ساعات ونصف ساعة ومرّ في شوارع طولها ثمانية اميال حتى يتمكن الناس من روءية ملكتهم ومشهدها الباهر في ذلك اليوم من عدة اماكن . وكان الناس قد استأجروا كل شرفة او كوة او نافذة يمكن لهم ان يقعدوا فيها ساعة مرور الموكب حتى ان اجرة الشباك في تلك الشوارع بلغت مبلغاً كبيراً وهدمت مواضع قديمة بني موضعها مقاعد من الخشب صفوفاً فوق صفوف فما بقي رصيف ولا سطح ولا مكان حتى احتشد فيهِ المئات والالوف وخيل للناظرين في ذلك اليوم الغريب ان شوارع لندن وارصفتها وابنيتها انقلبت الى مراسح فيها صفوف الجالسين بعضهم يلي بعضاً اولهم في الارض وآخرهم في اعلى السطوح والكل باجمل هندام مع اولادهم واصحابهم فرحين بذلك العيد الذي طبقت الآفاق بذكرهِ مدة الاعوام الماضية وقد تحلوا رجالاً ونساءً بالوان الراية البريطانية وهي الاحمر والابيض والازرق بعضهم لبسوها ازراراً في الرداء او رباطاً للعنق او زينة لملابس الرأس او بطرق أُخرى تظهر وطنيتهم وفرحهم الكثير . وتخلل صفوف الناس في كل جانب تلك الرايات المعقودة على اشكال بهية والزينات الباهرة وشعار الدولة الانكليزية وقد كتب عليها في معظم الجهات « الله يحرس الملكة » باحرف مختلفة الاشكال والالوان

وكان الهواءُ في ذلك النهار صحواً بديعاً يوافق ما تعودتهُ الملكة فكتوريا حين خروجها مدة حكمها الطويل فانها لم تخرج لامر خطير مدة ايامها الاَّ والهواء معتدل والمطر قليل مع كثرة وقوعهِ في بلاد الانكليز حتى صار من مصطلحات القوم انهم يسمون اوقات الصحو « بهواء الملكة » . وابتدأ الموكب العظيم بالخروج من قصر بكنهام الساعة ٨ والدقيقة ٤٥ صباحاً بين دق الاجراس وقصف المدافع

وعزف الآلات الموسيقية وصياح الناس من كل جانب فكان لذلك الاحتفال تأثير كبير . وكان بدء ذلك الموكب خروج فرق من الشرطة والجند لبست أبهى الملابس المعروف جمالها وقد تألقت الوسامات الحربية على صدور الرجال ووقفت الجنود في طول الطريق لحراسة اولئك العظام الذين تألف منهم الموكب والمحافظة على النظام بين الذين احتشدوا لمشاهدة ذلك المنظر الغريب وما كاد النظام يتم والوقت يجيء حتى برزت من داخل القصر البهي فرقة من الحرس الملوكي وهم جنود تضرب الامثال بجمال وجوههم وقاماتهم وملابسهم ينتقون من طوال الرجال واصحاب المناظر البهية و يلبسون فاخر الثياب من خوذة نحاسية تلمع كالذهب الوهاج فوقها شعار الدولة الانكليزية وريشة بيضاء وسلسلة تربطها الى العنق وكل هذه تسطع وتلمع من دونها سترة حمراء بديعة الجمال مزركشة بالقصب والذهب من اعلاها الى اسفلها و بنطلون ابيض متين لهُ حواشٍ من القصب وجزمة صفراء الى الركبتين وقفاز ابيض في اليدين هذا غير ما على الجواد من الادوات الثمينة فكان منظر اولئك الجنود مما يشرح الصدور وترتاح اليهِ النفوس . وتقدم هذه الفرق من الحرس الملوكي ضابط صغير الجسم ضئيل امتطى جواداً ابيض وقد غطي صدر هذا الضابط بافخر الوسامات وكان في يدهِ عصا المشيرية وعليهِ امارات العظمة مع صغر جسمهِ فعرف الناس في الحال انهُ بطلهم المغوار والليث الكرار اللورد روبرتس الذي قاد جنود الهند وانكلترا في مواقع الهند وبرما وافغانستان والترانسفال وشاد لدولتهِ صروح الفخار فصاحت تلك الجماهير لرؤيتهِ فرحة مرحبة ونادت الالسن ان ليعش روبرتس وكان بعضهم يقول « برافو بوبس » وهو اسم هذا القائد العظيم عند العامة التي تحبهُ حباً مفرطاً فكان بدء الموكب ببروز هذا القائد العظيم استهلالاً بديعاً . وتوالت بعد ذلك فرق لا عدَّ لها ولا

حصر من فرق الجيش الانكليزي وجيوش المستعمرات وكان وراء كل فرقة وزير المستعمرة التي جاءت منها الجنود في عربة خاصة بهِ مع قرينتهِ . وجاءت بعد هذه فرق من بحرية انكلترا وتلامذة مدارسها البحرية فكانت تلك الجموع تصيح مرحبة بها صياحاً دوت بهِ الآفاق لان الانكليز يفخرون بقوتهم في البحار وهي عنوان ملكهم الوسيع فما رأى البحرية من اكرام الناس لهم مثل ما رأوا في ذلك اليوم العظيم . ومرّت بعد هذا فرق الجيش الهندي فصفق لها الناس كثيراً وبالغوا في اكرامها مبالغة ثم توالت عربات الوفود القادمة من كل مملكة فكانت الجماهير كلما عرفت اميراً عظيماً او مندوباً سامياً تنادي مرحبة بهِ وتعظم قدرهُ وقد خصوا بالاكرام الجنرال ميلز قائد جنود الولايات المتحدة ومعتمدها في ذلك الاحتفال والبرنس هنري البروسي شقيق الامبراطور ورئيس الوفد الالماني والغراندوق سرجيوس عم القيصر ورئيس الوفد الروسي . وظلّ القوم يرحبون بهذه الجماعات وقد جاء وراء الوزراء اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب والمجالس البلدية وحكام الولايات وتلامذة المدارس الحربية والبحرية حتى اذا تعددت الاشكال ومرّت فرق العظماء على مثل ما تقدم برز من وراء الجند امراء امتطوا صهوات الجياد وفي جملة هؤلاء الامراء العظام الغراندوق سرجيوس الروسي عم جلالة القيصر والبرنس هنري الروسي شقيق امبراطور المانيا والارشدوق فردناند النائب عن امبراطور النمسا وسمو البرنس محمد علي شقيق الجناب الخديوي وامير الجبل الاسود وولي عهد السويد وولي عهد الدنمارك وملك سكسونيا وولي عهد رومانيا وكثار غير هؤلاء من امراء اوروبا واقيال الهند والممالك الشرقية وكان من وراء هؤلاء الامراء عربة الملكة ووراءها ولي العهد البرنس اوف ويلس واخوهُ الديوك اوف كونوت وابن عم الملكة الديوك اوف كامبردج والكل بفاخر اللباس العسكري

والوسامات العالية على ظهور الجياد فكانت جماهير الناس كلما رأت احد الرجال العظام او كلما وصلت جلالة الملكة الى احد المواضع ترفع اصواتها الى السماء طرباً وترحيباً . وقد تكرر هتاف الناس وتصفيقهم وطارت في الفضاء قبعاتهم ولاحت في الهواء مناديلهم وظهر لهم من الحماسة والفرح ما لم يروَ نظيرهُ عن الانكليز وكانت جلالة الملكة في عربة فاخرة يجرها ثمانية من جياد الخيل وقد قعدت في صدرها والى يمينها ابنتها البرنسس كرستيان والى يسارها ابنتها الاخرى البرنسس هنري باتنبرج وسار امامها في طليعة هذا الموكب العظيم اللورد ولسلي وهو يومئذٍ القائد العام لجيوش انكلترا كلها وصاحب النصرات المتوالية في جهات الارض ومن اركان الدولة الانكليزية واكبر مشيدي صروح العز والمجد لها في ايام هذه الملكة السعيدة

ويضيق بنا المقام لو وصفنا عشر معشار الذي تلا مركبة الملكة والذي تقدمها أو الذي أتتهُ ملايين الناس في ذلك اليوم المشهود ولكننا نكتفي بالقول ان هذا الموكب الهائل وصل كنيسة مار بولس وكان الذين تقدم ذكرهم من وزراء المملكة ونوابها وقوادها ووزراء المستعمرات الانكليزية وغيرهم قد سبقوا جلالة الملكة الى تلك الكنيسة حيث أُقيمت الصلوات شكراً لله على ما انعم على الملكة من طول العمر والتوفيق العجيب لها ولمملكتها الزاهرة وهذه عادة الانكليز يجعلون مدار كل احتفال كبير على الصلاة . وحضرت تلك الوفود هذه الصلاة فسمعت الالوف تنشد نشيداً خاصاً بذلك الاحتفال كتبهُ احد اساقفة الانكليز وحفظهُ الناس حتى اذا جاءت ساعة انشادهِ اشترك الجماهير المحيطون بالكنيسة من كل جانب بترتيلهِ فكان لذلك وقع غريب وتأثير خارق في جميع النفوس

ولما جاء المساء اولمت في قصر بكنهام وليمة فاخرة لنحو اربعماية ضيف من

هؤلاء الملوك والامراء والكبراء وتلا الوليمة مرقص بهي حضره نحو ثلثة آلاف نفس من نخبة اهل الارض ظلوا الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل في تفتل وتمايل وقصف وسرور وامراء الدولة الانكليزية بينهم يلاطفون الجميع . كل هذا ومدينة لندن في زينة من الانوار تبهر الابصار وقد قام قائم المصابيح والاشعة الكهربائية في كل جانب وظهرت صورة الملكة وشعارها والدعاء لها وسني حكمها ١٨٣٧ — ١٨٩٧ بالمصابيح الصغيرة المختلفة الالوان فكنت ترى شوارع لندن كلها زينات وراء زينات فكأنما أنت في ارض مسحورة تنتقل من آية في الجمال الى آية وقد ازدحمت جماهير الخلق في تلك الميادين الواسعة والشوارع الفسيحة فضاقت بها الارض على رحبها وجعل الناس يمشون كتفاً لكتف وهم بحر زاخر لا يعرف لهُ اول من آخر . ولكن هذا الازدحام العجيب لم يحدث قلقاً ولا اضطراباً فانهُ مرَّ على لندن ثلثة ايام بلياليها وهي في ضجة وحركة ما لهما مثيل وتزاحم بين الناس لم يروَ لهُ في تاريخ الاعياد الكبرى نظير وما انتج ذلك شرًّا ولا شكا احد عاقبة سوء بل ان الافراح عمت وآيات السرور قامت في كل جانب . ولم يقتصر ذلك على دور الحكومة والبنايات العمومية مثل ادارات الصحف وبنك انكلترا وشركات التأمين والمحطات وغير هذا بل ان الزينة تناولت بيوت الخاصة والعامة والفرح تشارك فيهِ الرفيع والوضيع

هذا كلهُ في لندن واما في الجهات الاخرى فان مدن انكلترا والهند والمستعمرات الانكليزية كلها اشتركت في هذا الاحتفال وحيثما وجد انكليز في الارض فهم نظموا لجنة تأتي ما يدل على اشتراكهم في ذلك العيد العظيم . وكان من آيات هذا الاحتفال في انكلترا انهم استعرضوا الجيوش الانكليزية في ضواحي لندن وفي اولدرشوت وسواها من المواقع العسكرية وكان تقاطر الالوف لمشاهدة هذه الاستعراضات عجيباً ولا سيما حين استعرضت الفرق التي جاءت من المستعمرات

الانكليزية وهي من كل جنسٍ وملة . واهم من هذا كلهِ استعراض الاسطول العظيم في سبتد وقد جعلوه خاتمة الحفلات دلالة تباهي الانكليز بقوتهم في البحر وكان ذلك الاسطول مركبًا من ١٦٥ قطعة حربية وهو عدد هائل وقد تيسر للدولة الانكليزية ان تستعرض كل تلك البوارج والمدرعات والطرادات والنسافات بدون ان تفصل باخرة واحدة من بواخرها الحربية عن مركزها فان اساطيل انكلترا في البحار البعيدة بقيت كلها على حالها وجمع مع ذلك هذا العدد الوفير فاتضح للجميع حينئذٍ ان قوة انكلترا في البحر لا تجارى ولا تبارى . وقد ذهبتُ الى سبتد لمشاهدة هذا الامر المدهش مع الوف سواي أُعدت لهم قطارات خاصة قامت من لندن حتى اذا وصلت هذه القطُر بن فيها انتقل الركاب الى بواخر بحرية دخلت انا واحدة منها عظيمة الاتساع اسمها مارغريت فكنا كلما دخل الواحد هذه الباخرة يعطى رسمًا طبع فيهِ شكل البوارج المزمع استعراضها مع اسمائها وطرزها ومدافعها ومراكزها بين تلك الصفوف وذلك بانهم رقموا على كل باخرة نمرة اوضحوها في ذلك الرسم تسهيلاً للاستدلال وكانت تلك الباخرات راسية في البحر صفين عظيمين امتدا مسافة ٢٥ ميلاً فمخرت باخرتنا بين الصفين وجعلت تسير ساعتين ونصفًا حتى وصلت آخر الصفوف ثم عادت فلزم لها ساعتان ونصف أيضًا . واما عن عظمة ذلك المشهد الغريب فلا تسل لاننا كنا بين جبلين او صفين من القلاع الحصينة طفت علَى وجه الماء وقد زاد على قوتها الهائلة حسن تنسيقها وجمال منظرها وما فيها من عدة وسلاح وهي لو جمع مقدار المال الذي أُنفق عليها لبلغ ٤٠ مليون جنيه او يزيد . وزاد المنظر رونقًا ان الدول الاخرى ارسلت كل دولة منها بارجة حربية لتشهد هذا الاستعراض فكنا نخترق صفوف هذه الرواسي وكلما دنت باخرتنا من احداها هتف الركاب مسلمين على ضباط تلك البارجة

وبحريتها وهم وقوف بالهيئة الرسمية على ظهور بوارجهم ويتبادل القوم الهتاف فرحين حتى اتينا على آخر الصف وعدنا وفي النفس من وقار ذلك الاستعراض شيءٌ كثير . ولما انتصف النهار صدر لهذه البوارج جميعها من مركز القيادة العامة اشارة فاطلقت كل بارجة ٦٠ مدفعاً اشارة الى مرور ٦٠ عاماً على حكم الملكة فكتوريا فكان لقصف المدافع دوي هائل تقلقلت لهُ الرواسي وطبقت بهِ جوانب الارض وعدد المدافع التي اطلقتها كل هذه القطع الحربية في تلك الساعة ٩٩٠٠ وكأَنما هذا كلهُ لم يكفِ القوم حتى انهم ابقوا لنا آخر أشكال الزينة برمتها الى الليل حين اضاء الفضاء بما سطع من انوار البوارج الكهربائية فان قطع الاسطول كلها أُنيرت في لحظة واحدة على حين غرة فظهرت الباخرات كأَنها شعلة من نار وقد ترقرق الماء من تحتها واتضحت جميع اجزائها وظهرت آيات البهاء كلها فما رأيت دهري اجمل من منظر ذلك الاسطول العظيم وهو لابس حلتهُ الكهربائية . وكان النائب عن جلالة الملكة في هذا الاستعراض ولي عهدها الملك الحالي

وظلَّ الفرح قائماً على مثل هذا في سبتد حتى ولّى الليل وعدنا في الصباح التالي الى لندن في قطر خاصة وكان عمال القطار يهتمون لراحة الصغار والكبار اهتماماً يذكر لهم مع الشكر فانهُ مع كل هذا الازدحام الهائل لم يشكُ أحد الناس تعباً أو مللاً وهذا شأن الموظفين في سكك الحديد من الانكليز في أعيادهم ومواسم سباق الخيل والايام الكبرى يتعبون ليستريح المسافرون ويعودوا الى منازلهم وهم مثل أفراد العائلة الواحدة عمهم السرور وشملهم الامن وظهرت عليهم آثار الراحة والارتياح شأن القوم الذين ترقوا في مدارج الكمال وأُعدَّت لهم كل وسائل الراحة والهناء.

وقد حضرت من بعد هذا أشكالاً كثيرة من الاحتفال بيوبيل الملكة من ذلك انهم مثلوا رواية في مرسح الهمبرا بلندن وهو من مراسحها العظيمة اظهروا فيها تاريخ

الملكة فكتوريا بكل أدواره وانفقوا على الاستعداد لهذه الرواية ورسومها وملابسها ومعداتها الاخرى نحو سبعين الف جنيه وكان الممثلون كلهم بنات ذوات حسن باهر لبسن الاشكال المختلفة وجعلن في بعض الادوار يجتمعن للرقص سوية وهنّ لا يقل عددهن عن مايتي فتاة فكان لرقصهنّ على الانغام منظر يسحر العقول ويدهش الالباب ولا سيما حين جعل بعضهنّ يتفتل والبعض يترقص وفي الوسط عميدة الممثلات تدور على شكل بهي غريب وقد لبس الكل انفس الاطالس وتحلين بامثلة الجواهر تشع الانوار . وحملت فرقة من هذه الممثلات سعوف النخل ودارت فرقة أخرى بالمناديل الكبيرة من الحرير الرقيق الملون الوانًا بالغة حد الجمال فجعلن يقلبن في أيديهنّ هاتيك السعوف والحرائر وهنّ يرقصن ومن فوقهنّ بنات لهنّ جمال لا يوصف علقن في الفضاء بحبال لم تظهر للرائين وركبت لهنّ اجنحة فكنّ يطرن فوق الرفيقات كانما هنّ ملائكة الجنان فوق ذلك الجمع اللطيف الباهر وليس يمكن ان يصف القلم او اللسان جمال ذلك المنظر الفتان . وفي آخر الامر مثلوا جلالة الملكة جالسة على عرشها وفي يدها صولجان الملك وعلى رأسها التاج والكل بهيئة لا تختلف عن الهيئة الحقيقية ودار بجلالتها صفوف الجند وهنّ من هؤلاء الفتيات بالملابس العسكرية فادين بعض الرسوم ثم اشتركن في انشاد النشيد الوطني عند الانكليز وعند ذلك وقف الحاضرون ورفعوا القبعات وطأطأوا الرؤوس اجلالاً لملكتهم واكراماً تلك عادة في الانكليز يظهرونها في محافلهم ومجتمعاتهم دليل حبهم للملك والوطن ونعم ما يفعلون

ومن هذا القبيل انهم استدعوا المطربة المشهورة مدام باتي لتغني خمسة ادوار في القاعة المعروفة باسم البرت هول وقد مرّ ذكرها وهي تضم عشرة آلاف نفس فابتاع تذاكر الدخول عشرة آلاف من الانكليز حال علمهم بالامر ولما جاء موعد

الغناء كان كلٌّ في موضعهِ وليس لذلك الخلق الكثير ضجة ولا اضطراب حتى اذا بدأت المغنية بالغناء والكل منصتين كأَن على رؤُوسهم الطير اظهروا لها في آخر كل دور سرورهم بالتصفيق ولم يسمع لاحدهم في اثناء ذلك صوت ولا حركة أُخرى يستاء منها الباقون وفي هذا مخالفة ظاهرة لمجتمعات الانس في هذه البلاد حيث يكثر اللغط والكلام في اثناء الغناء وقبلهُ وبعدهُ . ودفع القوم لمدام باتي الف جنيه اجرة غنائها في تلك الليلة

وكان من آيات الاحتفال ايضاً معرض دائم سمي باسم الملكة فكتوريا أُنشئت فيهِ الاسواق والمخازن لعرض صناعة انكلترا واملاكها وبيع الابضعة النفيسة كان الداخلون اليهِ لا يقلون في اليوم عن خمسين الفاً وفيهِ المطاعم والحانات ومرسح للتمثيل واجواق الموسيقى والعاب جمة أشهرها دولاب كبير لم يصنع الى الآن دولاب مثلهُ تديرهُ الآلات البخارية وقطرهُ ٣٠٠ قدم ركبوا فيهِ اربعين عربة كل عربة تنقل ١٦ شخصاً فكان الراكبون يقعدون في مواضعهم وهذا الدولاب العظيم يدور بهم على شكل الاراجيح المعروفة في هذه البلاد حتى اذا وصل المتفرج أعلى الدولاب من ناحية الفضاء رأى قسماً كبيراً من لندن تحت يدهِ فكان تقاطر الناس على هذا الدولاب عظيماً ولا سيما الصغار منهم وأَصحاب العائلات . ولقيت المستر موبرلي بل مدير التيمس الذي سبق ذكرهُ فدعاني الى وليمة فاخرة اولمها في منزلهِ لرؤَساء الوزراء الذين جاءوا من المستعمرات الانكليزية وكانوا موضوع اكرام الحكومة والافراد مدة وجودهم في انكلترا . ثم دعيت ايضاً الى دار محافظ لندن التي مرَّ ذكرها لوليمة شائقة اولمها حضرتهُ لهؤُلاء الوزراء ايضاً فكان المدعوون يفدون ويستقبلهم الغلمان المستخدمون للتشريفات في مثل هذه الحفلات وهم يلبسون اثواباً من القطيفة الحمراء مزركشة بالقصب وللسترة ازرارٌ من النحاس كبيرة مذهبة وعلى

الكتفين حلية من القصب تحكي التي يضعها رجال البحرية والعسكرية فوق اكتافهم والبنطلون من القطيفة الحمراء ايضاً مزركش بالقصب من جانبيهِ وهو ينتهي عند الركبتين بازرار من النحاس المذهب وتليهِ جوارب من الحرير الابيض واحذية من الجلد الاسود اللماع . ويذرُّ هؤلاء الغلمان المسحوق الابيض (البودره) عَلَى شعورهم وهي عادة قديمة كان الرجال جميعهم يأتونها في الاجيال الماضية فبقيت بين امثال هؤلاء الخادمين واذا استقبل الغلمان المذكورون مدعوًّا تقدموهُ الى قاعة الاستقبال ونادوا باسمهِ واسم قرينتهِ بصوت عالٍ حتى يعلم صاحب الدار من القادم ويتقدم للترحيب فكان كل مدعوٍّ الى حفلة محافظ لندن هذه يصل على مثل ما تقدم . وكان من حسن حظي اني عرفت جناب السر جورج فودل فلبس محافظ لندن في ذلك العام وحدثتهُ وحدثني بعد الوليمة وشكرني على ما قدمت من المساعدة لنجليهِ حين قدما مدينة الاسماعيلية في الشتاء السابق وانا قائم مقام المحافظ . وقد تعب السر جورج فلبس هذا مدة العيد واحتفالاتهِ نظراً لمركزهِ في عاصمة الانكليز فانهُ القى مدة هذا العيد نحو ٣٠٠ خطاب وجمع عَلَى يدهِ نحو مليون جنيه بالاكتتاب للزينات وغيرها وضربت على التجار ضريبة غير اجبارية تعرف بضريبة البني (أي قرش تعريفه) فجمعوا منها عشرة آلاف جنيه لبناء مستشفى خيري . وفي غد ذلك النهار زرت جناب اللورد كلارندون نجل اللورد كلارندون الذي تقلد وزارة الخارجيــة مرة ولهُ فضل على المرحوم والدي بما انعم عليهِ مدة وجودهِ قبس قنصل انكلترا في اللاذقية . وجناب اللورد كلارندون مثل اكثر اشراف الانكليز مقيم في قصر قديم كان قلعة لاجدادهِ فما غير منهُ في ظاهرهِ الاَّ الذي لزم لهُ ترميم او اعادة بناء . وفي هذا القصر آثار ومفروشات باقية من ايام اللوردات كلارندون الاول وقد مرت عليها في تلك القاعات عدة قرون

وجملة القول ان انكلترا واملاكها ومستعمراتها كانت في اعياد تلي اعياداً سنة اليوبيل هذه ولو شئنا عدّ الهدايا والآثار والاحتفالات التي اشتهر امرها لما كفى لذلك كتب كثيرة . وكان من امر جلالة الملكة انها لما رأت من شعبها كل هذا الاكرام العجيب لها والحب الخارق جادت في العطاء والولائم والصلات وانعمت بالرتب والوسامات على مئات من نبلاء دولتها وكرام مملكتها وارسلت في آخر الحفلات رسالة خطتها بيدها الكريمة تشكر رعاياها جميعهم على ما اظهروا من الولاء شكراً قلبياً وامرت ان تنشر الرسالة هذه في صحف انكلترا والهند والمستعمرات في آنٍ واحد فارسلت الى اقاصي الارض بالتلغراف ونشرت في يوم واحد وقد ورد في ذلك المنشور عبارة فصلت الخطاب في اشاعة تداولتها الالسن من عهد بعيد فان الكثيرين كانوا يظنون ان جلالة الملكة تكتفي بحكم ٦٠ عاماً وتتنازل عن الملك بعد الاحتفال لولي عهدها فورد في منشورها المذكور قول صريح يفهم منهُ انها عازمة على التمسك بالعرش ما ظلت حية وكان ذلك ختام عيدٍ ما رأى مثلهُ الاولون والآخرون

اسكوتلاندا

لما انتهيت من هذه الحفلات برحت لندن قاصداً مدن اسكوتلاندا وجبالها وهي مصايف الاشراف الانكليز واكثر الاراضي البريطانية جمالاً وقد مرَّ بك ان اسكوتلاندا هي القسم الشمالي من بريطانيا العظمى وهي جزء من الاجزاء الثلاثة المكونة للمملكة الانكليزية اريد بها انكلترا واسكوتلاندا وارلندا وتاريخها مختلط بتاريخ الانكليز فراجعهُ في الخلاصة التي صدرنا بها هذا القسم من الكتاب . ركبت قطاراً وصلت بهِ قبل ان أَدخل حدود اسكوتلاندا بلدة (وندرمير) وهي

بلدة زاهرة زاهية بنيت عَلَى ضفة بحيرة تعد أكبر بحيرات انكلترا واوفرها جمالاً طولها عشرة أميال وعرضها ميل وثلث ميل والى جانبيها نجاد بهية وهضاب شهية كسيت بالخضرة السندسية وقد رصعت ارضها بالطرق الرحبة والاغراس البديعة وتخللها قصور باذخة شماء وصروح فائقة الاتقان بعضها فنادق ومتنزهات والبعض مساكن لاهل النعمة والترف من الانكليز وهم كثار كما تعلم فما في الارض بلاد يكثر سراتها واغنياؤُها مثل هذه البلاد العظيمة . وقد عني القوم بهذه البحيرة وما حولها فوضعوا فيها البواخر والزوارق على أشكالها يتنزه بهـا السيدات والرجال والصغار معجبين بصفاء مائها وجمال ما حولها من المناظر ووسعوا الطرق للعربات والعجلات وجماعة المارة من كل جانب واكثروا من الغرس الشهي والعشب الندي حتى أضحت تلك البقعة مثابة اهل العز ومحجة الذين يريدون قضاء مدة ينسون فيها متاعب الدنيا وهمّ العمل من المتزوجين حديثـاً إذ هم يقضون هنا شهر العسل وهو الشهر الاول بعد الزواج لا همّ فيهِ غير التلذذ والتمتع بنعيم الحياة . وقد زرت جناب الخواجا بويل وقرينتهُ وهما والدا المستر بويل من موظفي الوكالة البريطانية هنا سابقاً لهما قصر في طرف هذه البحيرة وسمعت منهما الشكوى لان نجلهما الوحيد لا يزورهما الاَّ قليلاً لكثرة اعمالهِ في القطر المصري ولقيت منهما اكراماً وترحيباً كثيراً . واقمت في تلك الجهة اربعة ايام ووددت لو تكون اربعة اشهر نظراً الى جمالها المفرط ولذة العيش فيها ثم برحتها قاصداً مدينة ادنبرو عاصمة اسكوتلاندا

﴿ادنبرو﴾ هي من أجمل المدائن البريطانية وان تكن ليست من اكبرها فهي لها شهرة قديمة وحديثة بمن نشأ فيها من الفلاسفة وفطاحل السياسة ولمدارسها الفلسفية والطبية شهرة ذائعة في الخافقين . والمسافة بين هذه المدينة ولندن نحو اربعماية ميل تجتازها القطر السريعة مراراً كل يوم ذهاباً واياباً وعدد

سكانها ٣٥٠ الفاً فهي نظراً الى قلة السا كنين لو قابلتها بغيرها من المدن المشهورة كثيرة النظافة والاتقان يندر ان تلقى مدينة مثلها في نظافة شوارعها وابنيتها كما انهُ يندر ان تلقى في الارض اناساً أطهر سيرة واجمل قلباً وارفع آداباً من اهلها لانهم مثل سكان اسكوتلاندا عامةً اهل تقى وتعقل ورزانة وادب كثير وليس في حاراتها وشوارعها ما في ازقة لندن وباريس وبعض المدن الكبرى من الاجلاف والاوباش الذين يدنسون البقاع بقذر ملابسهم ودنيء الفاظهم كما انهُ ليس فيها من ضجة العربات والحركة الهائلة مافي المراكز التجارية الخطيرة فهي مطمع الطامعين بالعيش الهنيء ومقر البهاء والجمال بين المدائن الشمالية

ولما وصلت ادنبرو ذهبت تواً الى فندق (سنترال) في شارع اسمهُ برنسز ستريت أي شارع الامراء وهو اهم شوارع المدينة واعظمها يشرف على وادٍ طويل عريض حولتهُ يد الاجتهاد الى مجموع حدائق بهية غرس بها من انواع الزهر والشجر كل ما تشرح الصدور رؤيتهُ وأُنشئت فيها الطرقات الجميلة والبرك البديعة وقد صنعوا لها عدة سلالم تتصل بشارع برنسز هذا حتى ينزل الاهالي منها الى الحديقة للتنزه وسماع الانغام التي تصدح بها مساء كل يوم فيحتشد الناس هنالك الوفاً على عادتهم في كل مكان مثله وقد لقيت في هذا الشارع تمثال السر ولتر سكوت الراوية المشهور وهو من أعظم كتاب اللغة الانكليزية ولد في ادنبرو وبني لهُ هذ التمثال على قاعدة من حجر الصوان وهو بالملابس الاسكوتلاندية الجبلية تحكي ملابس العساكر الجبليين في فرق الجيش الانكليزي نراها هنا كل يوم ومن فوق التمثال برج علوهُ ٢٠٠ قدم من الصوان رسم على جوانبهِ بعض ملوك اسكوتلاندا القدماء . والى جانب هذا التمثال أثر آخر يمثل الرحالة المشهور لفنستون صاحب السياحات المعروفة في افريقيا حيث توفي سنة ١٨٧٣ وهو من اهل هذه

المدينة . وقد ظللت سائراً في هذا الشارع وهو ملتقى الهيئة الاجتماعية في ادنبرو
حتى وصلت سفح مرتفع يسمى عندهم تل كالتون ارتقيتهُ ورأيت في اعلاهُ مسلة
من الصوان الاحمر اللامع علوها عن سطح المدينة ٤٤٣ قدماً وقد أُقيمت تذكاراً
لبعض طالبي الاصلاح من اهل المدينة نفوا سنة ١٧٩٤ بسبب مطالبهم . ويشرف
هذا المرتفع على المدينة وضواحيها ولها منهُ منظر كثير الجمال . ثم عدت الى شارع
الامراء وتوصلت منهُ الى شارع آخر في قصر الملوك القدماء وهو مثل قلعة مصر
في شكلهِ كان منزلاً لهؤلاء الملوك وحصناً يدفعون منهُ غارات الاعداء ولطالما
ثارت الفتن وسفكت الدماء في هذا القصر كما حصل في قلعة مصر . وقد دخلت
هذا القصر من باب كبير ورأيت وراءهُ مدافع صوبت الى المدينة ومنها اثنان
غنمتهما الجنود الاسكوتلاندية المشهورة بالبسالة من الروس في حرب القرم ويلي
ذلك غرف القصر في بعضها آثار تاريخية منها تاج الملك جيمس الخامس وسيفهُ
ومنها غرفة فيها آثار الملكة ماري ستوارت التي مرَّ ذكرها في الخلاصة التاريخية
وقتلتها الملكة اليصابات الانكليزية وكنيسة قديمة العهد بنيت سنة ١١١٠ .
وتركت هذا القصر متوجهاً الى قصر آخر اسمهُ هولي رود فيهِ كنيسة الصليب
المقدس وقد دعيت بهذا الاسم لحكاية تاريخية متعلقة بالملك الذي بناها وهو
داڤيد الاول قيل انهُ كان واقفاً في تلك البقعة للصيد وهجم عليهِ ثور هائل يريد
الفتك بهِ ولكن الملك كان معهُ قطعة من خشب الصليب المقدس اوقفت ذلك
الثور كالصنم وكانت تلك القطعة هدية للملك من والدتهِ الملكة مرغريت المشهورة
بالتقوى فبنى الملك الكنيسة في تلك الارض تذكاراً لنجاتهِ وبنى من حولها ذلك
القصر الذي دخلتهُ ولم أرَ فيهِ كثيراً مما يستحق الذكر غير انهُ أثر تاريخي جليل
حدثت امامهُ عدة حروب ومعارك وفيهِ قاعة عمومية جمعت صور ملوك اسكوتلاندا

القدماء وغرفة تحوي آثار الملكة ماري ستورت باقية على حالها الاصلية وحمام لها كانت تمزج ماءهُ بالنبيذ الابيض حين الاستحمام محافظة على نقاء جسمها وبعض السيدات الآن يفعلنَ مثل هذا ويمزجنَ الماء بالحليب أو ببعض العطور

وعدت مرة أُخرى الى شارع الامراء فدخلت بعض الشوارع الجميلة التي تتفرع منهُ واهمها شوارع القلعة وفردرك وهنوفر وكلها ملآنة بتماثيل الرجال العظام الى درجة لم أرَ لها نظيراً في مدائن انكلترا الاخرى واذكر من هؤلاء الرجال توماس غلادستون وهو من الذين ولدوا في هذه المدينة ولكنهُ رحل بعد ذلك باولادهِ الى مدينة لفربول للمتاجرة ومن اولادهِ المستر غلادستون الرجل العظيم المشهور . ودخلت مدرسة الطب المشهورة التي سبقت الاشارة اليها وهي مجموع أبنية فسيحة بديعة فيها الوف الطلبة وقد نشأ منها بعض الشبان الشرقيين مثل الدكتور حبيب خياط وحضرة الآنسة انيسه صبيعه من سيدات طرابلس الشام تلقت فيها الطب بمزيد الاجتهاد . وزرت مدرسة أُخرى في الضواحي للمبتدئين وهي مثل القصور الفاخرة في بنائها ووضعها اتقن التدريس فيها كما اتقن في كل مدارس اسكوتلاندا ولها فرع لتدريس علم اللاهوت يكثر طلابهُ لان الاسكوتلانديين اهل ورع وتدين لا تقل شهرتهم في التقوى والامانة عن شهرتهم في الاقدام والبسالة المعروفة عن جنودهم الجبلية وآثار تدينهم ظاهرة في كثرة الكنائس وفي محافظتهم الغريبة على يوم الاحد فانك ترى ادنبرو في ذلك اليوم كأنها في منام وقد اقفلت كل حوانيتها وبطلت كل حركتها فلا عربة ولا قطار ولا شيء امامك الّا افواج الناس ذاهبة بالهدو والسكينة الى الكنائس وعائدة منها حتى ان المطاعم الضرورية لا تفتح فيها الّا بعد موعد الصلاة في الكنائس والسفر من ادنبرو يوم الاحد غير ممكن لان محطات السكة الحديدية تقفل ابوابها

مدة ذلك النهار حتى ان الفنادق وضعوا في كل غرفة من غرفها نسخة من التوراة وترى بعض الظهر شوارع المدينة وفسحاتها ملأى بالمصلين والمرتلين والواعظين يحثون الناس على التزام الفضيلة والناس من حولهم كأن على رؤوسهم الطير وفي ذلك ما يشهد للاسكوتلانديين بالتدين الصحيح

وكان معي في الفندق سائحة اميركية الحت عليَّ بالذهاب الى كنيسة روسلن لانها أثر تاريخي في هذه العاصمة جميل فذهبت اليها مع غيري من السائحين في عربة كبيرة يجرها اربعة خيول وسارت بنا نحو ثلاث ساعات في مروج خضراء ومناظر بهية حتى وصلت تلك الكنيسة ورأيت بها من أنواع النقش علَى الحجر كالزهر والورد والشجر ما يشهد ببراعة صانعيها . والكنيسة هذه قديمة بنيت سنة ١٤٤٦ واقام اللورد روسلن في قصر الى جانبها كان يدفع منهُ غارات اعدائهِ وقد حارب الانكليز هنا في معركة شديدة انتصر بها انتصاراً تاماً مع ان جنودهُ كانوا ٨٠٠٠ والانكليز ٣٠٠٠٠ فترى الاسكوتلانديين يفخرون بذكر هذه المعركة في كل حين

وزرت بعد ذلك ثغر المدينة وهو بلد مهم سكانهُ ٧٠ الفاً تقوم منهُ البواخر الى جميع الجهات ويليهِ الى جهة الجنوب جسر عظيم مشهور اسمهُ جسر فورث بني على نهر فورث وهو أعظم جسر في الوجود بني على طريقة هندسية عجيبة بمعنى انهُ ليس لهُ قناطر وعمد في النهر بل هو قوس واحدة قائمة على قاعدة في الارض من هنا وقاعدة من هنا الى جانبي النهر وطولهُ ٢٧٦٥ متراً فهو اقل طولاً من جسر بروكلن في نيويورك الاَّ انهُ اعظم منهُ متانة وادق صناعة واغرب شكلاً وقد انفق علَى بنائهِ اكثر من ثلاثة ملايين جنيه ووضع فيهِ من الحديد والفولاذ ما يكفي لبناء خمسين جسراً عظيماً واشتغل بهِ خمسة آلاف عامل مدة سبع سنين

فلما انتهى بناؤُهُ سنة ١٨٩٠ احتفلوا بافتتاحهِ احتفـالاً عظيماً شائقاً رأسهُ ملك انكلترا الحـالي بنفسهِ وقد شهد الموسيو ايفل مهندس البرج المشهور في باريس ان جسر فورث هذا أعظم الاعمال الهندسية الحديثة وكان هو من المدعوين يوم الاحتفال بافتتاحهِ . والمهندس الذي بنى هذا الجسر العظيم هو السر وليم فولر أُعطي لقب الشرف حين نجز عملهُ وتقرر في الاذهان انهُ اتمّ أعظم جسور الارض بلا خلاف وقد جاء هذا الرجل مصر على عهد المغفور لهُ اسماعيل باشا لابداء رأيهِ في امور هندسية واكرم مثواهُ وجاء من عهدٍ قريب ليبدي رأيهُ ايضاً في اصلاح القناطر الخيرية فاعطي على تقريرهِ الف جنيه وهو يقبض في بلادهِ الالوف اجرة رأي او تقرير صغير عن كل عمل هندسي يندب لهُ

﴿ابردين﴾ وبعد ان قضيت اسبوعاً في هذه المدينة واعجبني منها نظافتها وحسن اخلاق اهلها برحتها مسافراً في سكة الحديد الى ابردين وتسمى أيضاً مدينة الصوان لكثرة هذا الحجر في نواحيها وهي والحق يقال كلها من هذا الحجر فانهُ يقطع وينحت من نحو ثمانين موضعاً في جوارها وتبنى بهِ المنازل كلها حتى ان الشوارع تبلط بهذا الحجر واكثر ما يكون البناء هنالك بالحجر الاسمر قطعاً كبيرة ترص بعضها فوق بعض ولا يدخلها قرميد ولا خشب ولا حديد واما القوائم والعمد والواجهات فتصنع من حجر اسود ويتكون من ذلك مجموع أبنية غريبة المناظر كثيرة الجمال تقرب من بعض ابنية بيروت في شكلها ولكنها تخالف أبنية اوروبا بوجه الاجمال وهم يصدرون الى الخارج شيئاً كثيراً من هذا الحجر الذي جعل مدينتهم زينة بين المدائن فما رأيت دهري مدينة نظيفة مثل ابردين هذه حتى انك لو درت الشوارع كلها لم تلق شيئاً من الوسخ ولا قطعة صغيرة من الورق في طريقك . ويزيد هذا البلد جمالاً انهُ يشطرهُ نهران اولهما اسمهُ دي والثاني دون وهما صغيران ولكن تجري

فيهما السفن المتوسطة و يصبان في البحر القريب من ابردين . واكثر منازل هذه المدينة من دورين فقط وامام كل منزل حديقة جميلة فمنظرها بديع من جميع الجوانب والساكن فيها يشعر براحة وطمأنينة وارتياح الى تلك الاشكال لايتولدفي النفس الاَّ من مثل هذا الجمال المتجمع في ابردين . وقد تمشيت في شارع الاتحاد الذي بني بهِ الفندق حيث نزلت وهو أحسن شوارع ابردين طولهُ حوالي ميل وعرضهُ ٧٠ قدماً فالتقيت بتمثال البرنس البرت زوج الملكة فكتوريا وهو كان اهل اسكوتلاندا يميلون اليهِ لما اظهر من الميل الى المشروعات المفيدة ويليهِ تمثال لجلالة الملكة نفسها تذكاراً لزيارتها هذه المدينة مع زوجها المذكور سنة ١٨٥٩ وفي طرف الشارع ايوان كبير حفرت على حجارتهِ صور ملوك اسكوتلاندا القدماء والى جانبهِ نادي الضباط فمنزل اللورد بيرون الشاعر المشهور حيث عاش وهوطفل صغير فمدرسة مارشال في ساحتها مسلة من الصوان الاحمر علوها ٧٢ قدماً وهي مصقولة تضيُء كالمرآة وقد بنيت تذكاراً للسر ماكرجور الذي تولى رئاسة المدارس هنا ٣٠ عاماً ولها ايضاً ابراج عالية في الزوايا صعدت أوسطها فاشرفت على المدينة كلها وانت تعلم ان اوفق محل لرؤْية المدن مثل هذه المرتفعات حيث ترى صورة اجمالية ترتسم في الذهن ولاتمحى . ووراء هذه المدرسة مكتبة للعامة مجانية فيها تمثال الجنرال ولس الذي حارب الانكليز ببسالة لا مزيد عليها و يروى عنهُ انهُ لما جاءهُ القائد الانكليزي بطلب المخابرة ارجعهُ قائلاً اذهب وقل لمولاك اننا وجدنا للمحاربة بالسيف وليس للمخابرة . ويلي هذه المكتبة مدرسة غوردون للعوزين والايتام وقد نقشوا على بابها جملة من يوميتهِ هي هذه «اني عملت الواجب عليَّ لشرف امتي تحريراً في الخرطوم يوم ١٤ دسمبر سنة ١٨٨٤» . ولغوردون مدارس كثيرة غير هذه في انكلترا واسكوتلاندا اقيمت بعد قتلهِ اظهاراً لاعتراف

الامة بفضلهِ وتأثرها من مصابهِ واكثرهم يعتقدون ان الحكومة اهملت امرهُ اهمالاً ادى الى موتهِ ويذكرون ذلك الى اليوم . وقبل ان ابرح المدينة دعاني صديق لي عمرهُ نحو ٧٠ سنة لاذهب الى الحمامات البحرية فذهبت وكان البرد يومئذٍ شديداً والمطر منهملاً فاذهلني حين وصولي ان الرجال والنساء كانوا يستحمون في تلك الامواج المتلاطمة والمطر يسقط على رؤوسهم والريح الباردة تهب على اجسامهم وهم لا يبالون حتى ان صديقي المسن هذا اشترك في الاستحمام حال وصولهِ ولم يرجعهُ برد ولا مطر . فلا عجب اذا كان الانكليز اقوياء اشداء على ما اشتهر عنهم ما دامت هذه عوائدهم وما دام الكبار والصغار منهم يقضون نصف اوقاتهم في الرياضة والركوب والالعاب على أشكالها فليس في الارض امة تمرن الاجسام مثل الامة الانكليزية او تعتني بالنظافة مثلها وهذا فيما اظن من اكبر اسباب ارتقائها لان الجسم القوي يتبعهُ عقل قوي في اكثر الاحوال

✻ انفرنس ✻ وتركت ابردين بعد هذا في قطار جعل يخترق الهضاب والبطاح ويدخل تارةً بين حراج اسكوتلاندا وحزونها وطوراً يسير على مقربةٍ من البحر حتى وصلت بعد ست ساعات مدينة انفرنس وهي في حدود اسكوتلاندا على مسافة ٦٠٠ ميل من لندن وقد اضحت هذه البلدة مصيفاً للكثيرين ينتابونها لاعتدال هوائها في الصيف وجمال مناظرها لانها في وسط جبال اسكوتلاندا المشهورة بالفخامة والبهاء بنيت على ضفة نهر اسمهُ نس يتخلف منهُ عدة جزر صغيرة يوصل بعضها ببعض جسور من الحجر والحديد متقنة الصنع وقد أُقيم في احد ميادينها تمثال للجنود الاسكوتلانديين الذين قتلوا في حروب مصر والسودان وكتب على القاعدة اسماء الضباط والمعارك مثل التل الكبير وجنس وكوشه والاثر كلهُ من الصوان المصقول . وفي طرف هذه البلدة قلعة قديمة تحكي كل القلاع التي

بناها الملوك الاول في المدائن المتطرفة للدفاع عن حدود المملكة وفيها مدفعان روسيان غنمهما الانكليز في حرب القرم ورايات وآثار حربية تدل الى عدة مواقع اظهر فيها الجنود الاسكوتلانديون بسالتهم المعروفة . ويبدأ من هذه المدينة نهر كليد المشهور بحسن ضفافهِ وجمال مناظرهِ وكثرة الذين يتنقلون في اسكوتلاندا على بواخرهِ . وقد ركبت احدى هذه البواخر مع كثيرين غيري في يوم رقَّ هواؤُهُ وراقت سماؤُهُ والنهر طولهُ ٢٤٠ ميلاً يمرُّ في جبال ووديان ونجاد ووهاد وغياض ومدن وعمائر شتى ويتكون منهُ جزر وبحيرات كثيرة الانواع فالذي يسير فيهِ يرى كل محاسن الطبيعة والصناعة وآثار النعمة والحضارة في تلك الجهات السعيدة . وقد قامت بنا تلك الباخرة ونحن على ظهرها نتأمل تلك المناظر وندرس خرطاً فيها رسم كل وادي النهر وضواحيهِ حتى اذا آن اوان الطعام نزلنا قاعة فسيحة صفت فيها الاواني الفاخرة وقدمت الالوان الشهية وكان اكثر الحاضرين من الاسكوتلانديين يشربون الوسكي مع الطعام وهو مشروبهم الوطني . وكانت الباخرة تقف على تلك الضفاف البهية من حين الى حين ليصعد من شاء وينزل من شاء ورأيت بين المسافرين في تلك الجهات اناساً يذهبون للصيد مع عدتهم وكلابهم وهم يستأجرون الاراضي الفسيحة لذلك بالمال الوفير لمدات معلومة حتى ان بعض السراة يؤَجرون غابات لهم بآلاف من الليرات كل سنة لهذه الغاية وهم يستحضرون اليها الغزلان والثعالب والارانب ويطلقونها في جوانب الارض ثم يتراكض وراءها الصيادون وهذا من ملاهي الانكليز المشهورة

وفي جوانب هذا النهر صروح فخيمة وفنادق لا تعد وغرف ومنازل مفروشة ومعدة للاجرة يقضي فيها المصطافون بعض زمانهم مستريحين متنعمين . والمناظر تتنوع يرى المسافر اشكالها ولاسيما اذ تلتف السفينة مع النهر بين تلك الجبال

والغياض ومن اجملها منظر جبل بن نفس وهو أعلى جبال اسكوتلاندا . وبعد هذا الجبل سرنا في منبسط من الارض بديع زرعوا فيهِ الى جانبي النهر من هنا ومن هنا صفوفاً طويلة من شجر الحور الجميل فكنا في تلك البقعة كمن يتمشى بين جدارين من الخضرة النضرة والشجر البهي يهب بين اوراقها الهواء فيسمع لها حفيف ترتاح اليهِ القلوب . وبعد ذلك كثرت في النهر الجزائر والبحيرات فكنا ساعة في نهر وساعة في بحيرة ثم نحن مرة أُخرى في النهر ثم ندور حول جزيرة او نقف عند بلدة او نلتفُ حول غابة ومن فوقها منظر الجبل الفخيم او في وادٍ خصيب رصعت جوانبهُ بالقصور والحدائق والمناظر المنعشة للنفوس حتى وصلنا مدينة غلاسكو العظيمة بعد سفر يومين في هذا النهر ونحن نتمنى لو تطول تلك السياحة المفرحة في نهر كليد البهي

☀ غلاسكو ☀ هذه من اشهر مدن الارض وهي ثالثة المدن الانكليزية فان الاولى لندن والثانية لفربول كما لا يخفى . ولا يقل عدد سكان غلاسكو عن مليون نفس وهي لو رآها الغريب ظنها لندن لانها نظيرة لها في الاتساع وضخم الابنية وفخامتها وسوادها و كثرة الشوارع والميادين والمشاهد والمتاحف والمعامل التي لا تعد وفيها سكك الحديد تحت الارض وفوق الارض والجسور والسفن تمخر في النهر والعمال الوف فوق الوف على مثل ما في مدينة لندن ولكنها نالت شهرة لم تنلها مدينة سواها في صنع السفن والبواخر من تجارية وحربية على اشكالها فانها تصنع في معاملها معظم مدرعات الاسطول الانكليزي وشيئاً كثيراً للدول الثانية وقد تزيد نفقة المدرعة الواحدة من الطبقة الاولى عن مليوني جنيه ولا يقل عدد الباخرات التي تخرج من معاملها في السنة عن ٣٠٠ باخرة فهم قد صرفوا مالاً طائلاً على الاحواض والترسانات وبنوا لها الارصفة والاسوار وكل

ما يلزم مسافة ستة أميال . وهي من قدم مشهورة بعمل السفن فقد كان جيمس
واط اول من ارتأى تسيير السفن بالبخار من اهل هذه المدينة واول باخرة قامت
منها في سنة ١٨١٢ فهي السابقة في هذا المضمار من اول عهد الناس بالبخار .
زرت أحد هذه المعامل فرأيت من الوف العمال وادوات العمل ما لا يوصف في
كتاب وسمعت من طرق المطارق وقرقعة الآلات ما يصم الآذان . ومررت في
ذلك اليوم باهم شوارع المدينة مثل شارع ارجيل وبكنان وميدان جورج فيهِ
حديقة وبرك وتماثيل العظام مثل الملكة فكتوريا وزوجها ولفنستون وواط
وارجيل وولتر سكوت ويحيط بهذا الميدان قصور باذخة واندية فخيمة اهمها بناء
المجلس البلدي وهو صرح يندر نظيرهُ في الارض ولا مثيل لهُ في مدن انكلترا
كلها انفقوا علَى بنائهِ اكثر من نصف مليون جنيه وفتحتهُ الملكة فكتوريا
باحتفال باهر . وقد تفردت هذه المدينة بمجلسها البلدي ونظام اعمالهِ حتى
اقرَّ العارفون كلهم ان غلاسكو لها أحسن الحكومات المحلية من بين مدائن الارض
طرًّا وكل ذلك من حسن التفات رجالها ونظام مجلسها البلدي ومحافلها .
وقد اسعدني الحظ اني قابلت حضرة محافظها يوم زيارتي للمدينة وكان معي توصية
لجنابهِ فلما ارتقيت سلم ذلك البناء العظيم ووصلت مكتب المحافظ ارسلت
اليهِ اسمي فخرج لمقابلتي مرحباً مكرماً ودعاني الى حضور مرقص عظيم يقام في دار
المحافظة في كل عام وموعدهُ ذلك اليوم فقبلت الدعوة شاكراً ولما حضرت في
المساء للمرقص رأيت نحو الفين ما بين سادة وسيدات تردوا بانفس الاطالس وابهى
الحلل وقد برزت السواعد والنهود وتحلت الصدور ببارق الجواهر وابرقت الاسرة
فرحاً وحبوراً وفاحت من جوانب القصر وقاعاتهِ التي تحكي قاعات الملوك الروائح
العطرية وصدحت الانغام الشجية وكان المحافظ واقفاً بملابسهِ الرسمية وهي جبة

من القطيفة الحمراء تجر ذيولها وتشبهُ ملابس الشيوخ الشرقيين بطنت بالفرو الابيض ولها اكمام واسعة مطرزة وقبعة مستطيلة مثل قبعات القناصل الرسمية حملها المحافظ في شمالهِ وسلسلة من الذهب مدلات من العنق على صدره في آخرها قطعة من الذهب عليها شعار الدولة واسم المجلس البلدي وكان اعضاء المجلس بملابسهم الرسمية ايضاً واقفين حول جنابهِ وقرينتهُ مع بعض قرباتها وصديقاتها يستقبلنَ الضيوف بالترحيب والبشاشة . ولا حاجة الى القول ان الرقص وما تلاهُ من الوان الطعام الشهي بعد منتصف الليل كانا علَى غاية ما يرام فخرجت من تلك السهرة الشهية وكلي اعجاب بعظمة غلاسكو وانس اهلها وعزمت في اليوم التالي على مبارحتها لازور بعض مدن ارلندا وسافرت في البر والبحر بين مناظر لا تختلف كثيراً عما تقدم وصفهُ حتى دخلت جزيرة ارلاندا والقيت رحلي في مدينة بلفاست



بلفاست

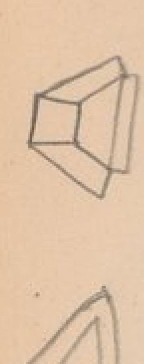
ارى قبل التقدم الى الكلام عن مدينة بلفاست هذه في جزيرة ارلاندا وعن عاصمة الجزيرة دبلن وغيرها من الاماكن الارلاندية ان اقول شيئاً عن تاريخ هذه البلاد موجزاً لان اهم ما يقال فيهِ ورد في الخلاصة التاريخية العامة عن انكلترا . غير ان ارلاندا هذه عمرت وتقدمت في الحضارة قبل انكلترا بزمان طويل وكان لها دولة زاهرة من قبل ايام التاريخ المسيحي ولما دخل يوليوس قيصر انكلترا واخضعها سنة ٥٥ لم يمكن لهُ ان يخضع ارلاندا لان ملوكها كانوا اقوياء

ولما بدأ الدانماركيون واهل شمال اوروبا يسطون على ممالك اوروبا كانت هذه الجزيرة في جملة ما دخلوا من الاراضي وتمكنوا من الانتصار على ملوكها في اول الامر فدام القتال بينهم وبين الاهالي من سنة ٤٣٨ مسيحية الى سنة ٨٣٨ حين جاء اولاف ستريك ملك الدنماركيين وملك البلاد وظلت ارلاندا خاضعة لهُ ولخلفائهِ حتى سنة ١٠٨٤ حين قام بطل من اهلها اسمهُ اوبريان حارب المعتدين وطردهم من البلاد واعاد اليها استقلالها فنمت وتقدمت تقدماً عظيماً

وكانت مملكة انكلترا في ذلك الزمان تقوى وتمتد ايضاً وهي مجاورة لارلاندا فبدأ ملوكها يتطلعون الى هذه الجزيرة واول من حاول فتحها منهم هنري الثاني فانهُ صدر لهُ امر من البابا بضم ارلاندا الى املاكهِ في سنة ١١٥٥ وحارب البلاد فملكها بعد عدة مواقع وولى عليها اناساً من قبلهِ ونقل بعضاً من الانكليز اليها ومن ذلك العهد بدأ العدوان بين الارلانديين والانكليز وتعاظم في ايام ادورد الثالث الذي ضيق على اهل هذه الجزيرة وقمع ثورتهم بعد ان هبوا يريدون الاستقلال وعين حكاماً جائرين شددوا الوطأة على الاهالي واشتد بسبب ذلك الجفاء بين الامتين . وكان لارلاندا مجلس نواب يسن النظامات الداخلية فصدر امر الملك

هنري السابع سنة ١٤٩٥ بان تكون قرارات هذا المجلس كلها قابلة للتغيير لا يعمل بها الاَّ اذا صدق عليها مجلس النواب الانكليزي ثم لما ولي الملك جيمس الاول نقل الى الجهة الشمالية من ارلاندا عدداً كبيراً من اهل اسكوتلاندا وانكلترا واقطعهم الاراضي في ولاية الستر التي تعد مدينة بلفاست عاصمتها وزاد الملوك الباقون على هذا الى ان كانت ايام الثورة الانكليزية سنة ١٦٨٨ وولي الامر بعدها الملك وليم الثالث فنقل كثيرين من الانكليز ايضاً الى قضاء الستر وكان القوم من حزبهِ ضد المنتمين لآل ستيورت المعزولين وعرفوا من ذلك الحين باسم الحزب الاورانجي نسبة الى وليم الثالث وهو في الاصل يعرف باسم امير اورانج وما زالوا حتى يومنا هذا شأنهم في البلاد

وبقيت ارلاندا على هذا النظام وهي تشكو ظلم العمال الانكليز والنظامات التي افقرت الاهالي وجعلت الارض كلها ملكاً لبضعة من الاكابر حتى اول هذا القرن الماضي حين سعى وزراء الدولة الانكليزية في ضم ارلاندا ضماً نهائياً الى انكلترا وتم لهم ذلك فابطل البرلمان الارلاندي وصار اعضاؤهُ من اعضاء البرلمان الانكليزي في سنة ١٨٠١ ولكن الاعضاء الارلانديين شعروا بفقد الاستقلال والخسارة من هذا النظام فبدأُوا يطلبون العود الى النظام الاول ويلحون على مجلس النواب الانكليزي ان ينصف اهل بلادهم ويغيّر نظام الاراضي فيها حتى قام منهم في العصر الحاضر رجال كبار العقول نظموا الحزب الارلندي وجعلوا لهُ قوة كبرى تحسب الحكومة حسابها وكان رئيس هذا الحزب ايام صولتهِ المستر بارنل المعروف باسم ملك ارلاندا الغير المتوج ولكنهُ تضعضعت احوالهُ قليلاً بعد موت بارنل وما زال افرادهُ على مطالبهم واهمها ان يغير نظام الامتلاك الجائر لان الجزيرة كما قلنا ملك بعض اللوردة والموسرين ورثوها عن اجدادٍ اخذوها في ايام ملوك انكلترا



الذين ذكرناهم في هذه الخلاصات التاريخية واهل البلاد قاعدون في الارض بصفة مستأجرين يزرعونها ويستغلونها ويؤدون مالاً معلوماً عنها للورد كل سنة يتقاضاهُ وهو بعيدٌ عن الارض سواء صحت المواسم او لم تصح فاكثر مال البلاد يروح الى انكلترا وينفق على غير الارلانديين والأجر التي يؤديها المستأجرون للوردة كبيرة فاذا عسر في احد السنين عليهم اداؤُها امكن للورد ان يطردهم منها ولو انهم اقاموا فيها هم واجدادهم الاجيال . وقد حدثت عدة حوادث من هذا القبيل اظهرت جور النظام الحالي وهيجت احقاد الارلانديين فاصروا على مطالبهم حتى رأى المستر غلادستون المشهور ان يجيب سؤلهم ويمنحهم استقلالاً داخلياً ولم يوافقهُ جمهور الانكليز على رأيهِ لما بين الامتين من العدوان ولان الانكليز يخشون ان يتخذ الارلانديون هذا الاستقلال الداخلي وسيلة للاستقلال التام وتجزئة المملكة الانكليزية وما زالت هذه عقدة المسألة الارلاندية الى الآن

وارلاندا جزيرة بهية تعرف بمروجها السندسية حتى انهم يسمونها جزيرة الزمرد لكثرة خضرتها الشهية واهلها اكثرهم من الكاثوليك ما خلا سكان ولاية الستر فان اكثرهم من البروتستانت وهم اهل ذكاء وفصاحة وحذق كثير قام منهم عظام الرجال من القواد مثل ولنتون وروبرتس وولسلي وكتشنر وارباب السياسة مثل دفرن واوبريان وبارنل وغيرهم وكتاب الارلانديين وخطباؤهم البلغاء في هذه الايام اكثر من ان يعدوا . وقد كانت ارلاندا عامرة بالسكان لا يقل عدد سكانها عن ٨ ملايين نفس في بدء القران الماضي فنزح منهم الوف وملايين الى الولايات المتحدة والمستعمرات الانكليزية بسبب نفورهم من نظام الحكومة الحالي حتى انهم لا يزيدون اليوم عن اربعة ملايين



واما بلفاست فانها مدينة زاهرة عامرة في الجهة الشمالية من ارلاندا لا يزيد

عنها في الاهمية في هذه الجزيرة غير العاصمة دبلن التي سيجيء الكلام عنها وقد اشتهرت بلفاست في الايام الحديثة بما حدث فيها من المظاهرات السياسية ضد الحزب الارلاندي الوطني الطالب الانفصال عن انكلترا لان معظم اهل هذه المدينة من الحزب الاورانجي كما تقدم معنا في الخلاصة التاريخية. وقام منها بعض فحول السياسة واصحاب النفوذ الكثير . وعرفت ايضاً بين المدائن البريطانية بالنماء السريع والتقدم الباهر مدة الاعوام الاخيرة فانها كانت في بدء حكم الملكة فكتوريا مدينة صغيرة وصارت الآن ثانية مدائن ارلاندا عدد سكانها ٣٥٠ الف نفس ولها شهرة بتنسيق الشوارع وجمال الابنية وغنى المخازن واهمية المعامل الكثيرة المشهورة عنها منها معامل السفن البخارية والشراعية على اشكالها تصنع فيها الباخرات الكبرى لوزارة البحر الانكليزية ولبعض الممالك الاخرى وللشركات التجارية العديدة ولا يقل عدد العمال في بعضها عن ثلثين الفاً

وامتازت بلفاست ايضاً بصنع الخزف واشكال الفخار و بالمنسوجات الجميلة من الكتان (التيل) والحرير ولاقمشتها الكتانية شهرة ذائعة في الخافقين حتى ان ملوك اوروبا وسراتها يوصون معاملها على ما يلزم لهم من القماش للقمصان والمناديل والفوط وهم يرسلون منها في كل عام مقادير كبرى الى الاقطار الخارجية. ولما كانت صناعة الكتان من الاسرار الخاصة بهذه المعامل على طرقها المعروفة فهم يحرصون عَلى ابقاء سر الصناعة في معاملهم و يحذرون من السرقة وتقليد بضاعتهم فلا يصرحون لزائر ان يزور معاملهم الاَّ اذا وثقوا من امرهِ ولم يخشوا عاقبة زيارتهِ ولهذا فاني لما قصدت التفرج على احد هذه المعامل دخلت مع احد المعارف وكان المعمل في شارع يعرف باسم شارع يورك وهو متسع المجال يشغل من الارض مساحة اربعة فدادين ولهُ بناءٌ فخيم كبير ذو خمس طبقات فدار بنا اصحاب المعمل في جوانبهِ

يروننا كيفية صنع التيل من بدء امرهِ الى آخرهِ فرأينا كيف يغسل التيل ثم ينقى وينظف ثم يسرح ويمشط ثم يجدل ويفتل ثم يغزل ثم ينسج ثم يبيض ويصقل ثم يقطع ويفصل ثم يطوى ويحزم كل نوع منهُ على حدةٍ فكانت الفرجة على طرق هذه الصناعة من ألذ ما يمكن للمرء ان يمتع النظر بهِ ويستفيد من درسهِ . وقد رأيت ابضعة هذا المعمل بعد ان ينتهي العمال منها فاذا هي متينة بيضاء جميلة تشرح الصدر بهيئتها واخص بالذكر منها انواعاً من المناديل البيضاء يرسلون منها المقادير الى جلالة الملك واهل بلاطهِ وكثير من السراة الانكليز وفي هذا المعمل ٤٥٠٠ عامل وقوة آلاتهِ البخارية ١٤٠٠ حصان وفي قاعة منهُ عظيمة للنسج ٦٥٠٠٠ دولاب تدور عليها خيطان التيل فتغزل وتنسج ولها دوي هائل يصم الآذان

واتجهت بعد هذا الى معمل للحبال وصناعة الحبال في هذا الثغر مشهورة ايضاً حتى ان اكبر معامل الارض للحبال توجد في مدينة بلفاست هذه وكان المعمل الذي دخلتهُ عظيماً يشغل من الارض مساحة عشرين فداناً وفيهِ ثلاثة آلاف عامل ومئة كاتب فدرت في جوانب المعمل ورأيت من أدلة الاجتهاد في هذه الصناعة البسيطة ومن مقدار الربح الوافر ما جعلني افكر في حال الشرق ومصنوعاتهِ التي كادت تنقرض بسبب وجود هذه المعامل الكبرى في مدائن الغرب وتمنيت لو يبدأ أهل هذه الاقطار بالتعاون على العمل والاشتراك حتى يمكن لهم مجاراة اهل اوروبا في بعض الصناعات وابقاء مقدار من الربح لهم بدل ان يكون النفع كلهُ لمعشر الاوروبيين

وقد اشتهر تجار هذه المدينة بالثروة وبنوا لهم القصور الفخيمة في جوانبها وتقدموا في العلم ايضاً حتى ارتقت مطابعهم وجرائدهم ومدارسهم ارتقاء كبيراً

والذي يرى مكتبة الخواجات ارل في هذه المدينة يظنها قصراً فانها في بناء لها ذي ثلاث طبقات ملئت بالمؤلفات والعمال في كل الجوانب . وفي بلفاست من الشوارع الكبرى والحدائق والمتنزهات ما يعسر علينا عده ولا يفيد سرده ولكن اهم هذه الطرق الفسيحة شارعا يورك ورويال يتصل احدهما بالآخر وينتهيان في الطرف الواحد بميدان فسيح جميل اسمهُ ميدان دونجال وفي الطرف الآخر بالمينا والاحواض البحرية حيث تبنى السفن وقد سبقت اليها الاشارة . ويمر بهذه المدينة من ناحيتها الجنوبية نهر لاجان فتستقي منهُ الحدائق والمتنزهات يؤمها القوم في اكثر الاحيان ولها منظر كثير الجمال

وقد اقمت في بلفاست اياماً تمكنت فيهامن مشاهدة معالمها وآثار عظمتها ثم برحتها الى دبلن عاصمة ارلاندا والمسافة بين البلدين بقطار الحديد ١٠٠ ميل يقطعها المسافر في ارض جميلة تكسوها المزارع والخضرة تحكي مناظر فرانسا في اتقانها ولها دروب جميلة زرع الحور والصفصاف الى جانبيها وقد نمت نماء عجيباً بسبب خصب الارض وكثرة الامطار فاضافت الى حسن البلاد حسناً

دبلن

بنيت هذه المدينة في سهل فسيح واتسع لها المجال واحاطت بها المناظر الطبيعية الجميلة فكان موقعها من احسن المواقع في المملكة الانكليزية ولها اهمية سياسية كبرى لانها عاصمة ارلاندا من قدم . فيها آثار العظمة الاولى والقوة الحالية وعدد سكانها لا يقل عن ستماية الف نفس جلهم من الكاثوليك فهي مخالفة لبلفاست في هذا الامر لان اهل بلفاست اكثرهم من البروتستانتيين ويزيد هذه المدينة حسناً

انها يشطرها نهر ليفي شطرين و يخترقها من الشرق الى الغرب ثم يصب في خليج مار جرجس الفاصل بين انكلترا وارلاندا وعند مصبهِ احواض ومين عظيمة الاهمية لا يقل عدد السفن التي تنتابها كل عام عن عشرة آلاف سفينة و باخرة وقد نظموا خطوطاً من البواخر تسير بين هذه المدينة وثغور انكلترا والسويد واميركا وروسيا تنقل الركاب والامتعة واهم ما تنقلهُ من ارلاندا الى الخارج حاصلات البلاد الزراعية مثل البطاطس والماشية والاسماك المقددة تصاد من شطوط البلاد وبحيراتها و بعض الحبوب والزبدة واللبن والبيض والجبنة فان للاهالي عناية بالزراعة و بسباق الخيل مشهورة · وقد بنوا فوق نهر ليفي الذي يخترق المدينة ١١ جسراً تسهيلاً للمرور ووسعوا الشوارع لسبب انبساط الارض ورحبها في تلك الجهة فجاء منظر المدينة بديعاً لا سيما وان لها مميزات كثيرة في مناظرها واهلها . من ذلك ان طول القامة صفة تكاد تكون عامة في رجال هذه المدينة ونسائها حتى انك لترى الصبيات والسيدات يمشينَ على عجلٍ بسيط اللباس في شوارع المدينة ولهنَّ قامات تزري بغصن البان ووجوهٌ طلقة ناصعة البياض وترى الرجال ايضاً اكثرهم طوال ولا سيما افراد البوليس فانهم ينتخبون انتخاباً لحسن مناظرهم وتعتني الحكومة بامرهم وتدرسهم في مدارس خاصة بهم حتى ان بعض الممالك الاخرى تنسج على منوال ارلاندا في نظامات البوليس وتنقل عنها

وتمتاز هذه المدينة ايضاً بعربات الاجرة فيها فانها بنيت على طرز لا نظير لهُ في اكثر المدائن المعروفة يقعد الراكب فيها الى مقعدٍ طويل ويمد رجليهِ ويسند ذراعهُ الى وسادة في آخرهِ وفي الجانب المقابل لهُ مقعد آخر على شكلهِ والحوذي علَى منصتهِ بين المقعدين · وهذه العربات كثيرة في كل ناحية من المدينة اخذت واحدة منها حين خرجت من فندقي لادور في جوانب دبلن و كنت قد نزلت في

فندق متربول وهو في شارع ساكفيل اكبر شوارع هذه المدينة يبلغ عرضهُ ستين مترًا وفي وسطهِ عمود شاهق نصب في اعلاهُ تمثال نلسون امير البحر المشهور والعمود مجوَّف في داخلهِ ١٦٨ درجة صعدت أعلى البرج عليها ورأيت المدينة كلها من دوني فاذا بها زاهرة بهية لا يشوه منظرها دخان المعامل الكثيرة لان المعامل متباعدة عنها في الضواحي الفسيحة ثم هبطت الذرى الى قاعدة العمود وسرت في شارع ساكفيل حتى التقيت بتمثال اوكونل الذي كان زعيمًا في ارلاندا ورأس مجلس نوابها في اواخر القرن الماضي نصبوا لهُ هذا الاثر على قاعدة علوها ٤٠ قدمًا وارتفاع الاثر من فوقها ١٢ قدمًا . ثم ظللت على المسير وانتقلت فوق جسر من الجسور المشهورة في هذا البلد الى الجانب الآخر من الشارع فوجدتني امام بناء قديم فخيم هو مجلس النواب الارلاندي الاول بني سنة ١٧٣٩ ولما أُلغي نظامهُ على مثل ما ترى في الخلاصة التاريخية صار هذا المجلس مصرفًا وهو الآن موضع بنك ارلاندا المشهور من منذ سنة ١٨٠٢ وقد تركوا في جانب من البناء قاعة الاجتماع على حالها فهي باقية فيها كراسي الرئيس والاعضاء علَى مثل ما كانت في القرن الثامن عشر وانشأوا على مقربة منهُ مدرسة تدرس بها العلوم العالية ولها مكتبة عمومية طولها ٣٠٠ قدم كلما طبع كتاب مفيد اضيف الى ما فيها من نفيس الكتب حتى اضحت من اكثر المكاتب قيمة ونفعًا . وللمدرسة هذه حديقة جميلة يقضي التلامذة فيها اوقات الرياضة وفيها تمثال وليم اوبرين وهو من فصحاء الارلانديين حرض قومهُ على الثورة ومحاربة الدولة الانكليزية سنة ١٨٤٨ حين كانت الامة في هياج على أثر الثورة الفرنسية الثانية فقبض عليهِ اولياء الامر وحكموا عليهِ بعد المحاكمة بالاعدام ولكنهم اشاروا على الملكة ان ترأف بهِ فابدلت الاعدام بالنفي المؤبد وما مرت اعوام حتى صدر العفو عنهُ وعاد الى بلادهِ

ومررت بعد هذا بكثير من الشوارع المهمة مثل شوارع آدم وناسو قامت الى جانبيها المنازل المشيدة والصروح الفخيمة والمخازن الكبرى حتى وصلت حديقة ستيفن جرين في وسط العاصمة وقد أحيطت بسورٍ من قضبان الحديد وملئت بالاغراس الشهية والاعشاب الندية يلعب عليها الرجال والنساء والاولاد بقصد ترويض الاجسام وفيها برك وتلال وطرق تشرح بمرآها الصدور ومن حول سورها بيوت الأكابر والموسرين كثرت زخارفها واطلت شرفاتها على جوانب الحديقة فهي مرتع الآمنين ومقر اهل اليسار المتنعمين مع انها كانت في الذي مرَّ من الزمان مقرَّ اللصوص واهل الجرائم يتنابونها على مثل ما كان اشقياء مصر يتنابون الازبكية قبل ان عمرت وصارت مركز العز في هذا القطر السعيد

وتابعت المسير في هذه الجهة حتى اتيت المتحف الارلاندي وهو من مشاهد دبلن المعدودة فيهِ من آثار ارلاندا الاولى شيءٌ كثير مثل الخلاخل والاساور والجبب والجلاليب على أشكالها وبعضها يقرب في طرزهِ من الشرقي والطبول ظهرها من النحاس كالتي يستعملها العرب حتى اليوم في افراحهم والادوات الحربية على انواعها والاقمشة الارلاندية مع آلات الغزل والنسج والحياكة الاصلية وغير هذا كثير مما يستحق الذكر ويضيق عن سردهِ المقام

كل هذا يراهُ السائح اذا سار عَلَى خطٍ واحد من حيث بدأْنا في شارع ساكفيل حتى اذا اثنى من ذلك الطريق رأى بعض الابنية العظيمة مثل بناء المحاكم على ضفة النهر انفقوا عليهِ نحو ٢٠٠ الف جنيه وبناء الجمرك وهو من اثمن ما في هذه العاصمة لا تقل الاموال التي صرفت عليهِ عن ٥٠٠ الف جنيه وكنيسة القديس باترك تضاهي كنائس اوروبا الكبرى في تحفها وجمالها وهي اعظم كنائس ارلاندا طرًّا بنوها على اسم القديس باترك حامي الجزيرة وقديسها الخاص

بها يجل الاهالي ذكرهُ اجلالاً ولهم وسامات رفيعة الشأن باسمهِ ومحافل يدخلها كبراء الناس تعرف باسم القديس باترك ايضاً فهو بمثابة القديس جورجيوس عند الانكليز او القديس نقسكي عند الروس

ولما انتهيت من هذه المشاهد قصدت اعظم حدائق دبلن واشهرها اريد بها حديقة فنكس العظيمة اشتهرت في الايام الحديثة ببعض الحوادث التي سنذكرها وبالاجتماعات السياسية التي تعقد بعض الاحيان في جوانبها . وتعد حديقة فنكس من اكبر حدائق المملكة الانكليزية تبلغ مساحتها ١٧٥٣ فداناً وفيها من الهضبات والاكام والرُبض والاجام وحراج الشجر الغضيض ومرابع العشب السندسي وباسق الشجر ويانع الزهر ما يقصر عن وصفهِ قلم البليغ . وقد زادها حسناً ان النهر يشطرها شطرين اذ يمر في وسطها وان فيها من التماثيل والآثار لذكر مشاهير الرجال شيئاً كثيراً اهمهُ مسلة من الصوان الاحمر اقيمت لذكر ولنتون القائد العظيم الذي يتباهى الانكليز على ممر الزمان بانتصارهِ على نابوليون وهو من الذين ولدوا في هذه المدينة صرفوا على اقامة هذا الذكر لهُ ٢٠ الف جنيه ونقشوا جوانب المسلة بكتابات مذهبة تدل على انتصارهِ في المعارك المشهورة . والمنزل الذي ولد فيهِ هذا القائد العظيم كائن في شارع ماريون نمرتهُ ٢٤ يقصدهُ السائحون ويذكرون من رؤيتهِ اعمال هذا البطل الكبير . ولوالي ارلاندا قصر صيفي في هذه الحديقة يقرب منهُ موضع فيها وجه الدليل نظري اليهِ لانهُ قتل فيهِ اللورد كافندش والي الجزيرة والمستر بورك وزيرها سنة ١٨٨٢ في وسط النهار وكان لقتلهما رنة ودوي في الاقطار بسبب مكانة الاثنين واولهما اللورد كافندش اخو الديوك اوف دفونشير ومن اكبر البيوت الانكليزية العريقة في شرف المحتد والثاني وهو المستر بورك كان من الخطباء وفحول السياسة . وعدت من هذه

الحديقة فرأيت الناس في استعداد لزيارة الديوك اوف يورك حفيد جلالة الملكة مع قرينتهِ وكان الاثنان قد عزما على هذه الزيارة ليحضرا سباق الخيل وبنوعٍ اخص النوع المعروف منهُ بقفز الخيل من فوق الاسوار في علو عظيم وهو سباق تعطى فيهِ الجوائز الكبرى ويشهدهُ الالوف من اطراف البلاد فهم يعتنون بتربية الخيل عناية خاصة. وكان سمو الديوك يريد من زيارتهِ ايضاً ازالة اثر الجفاء من صدور الاهالي الناقمين على الهيئة الحاكمة وعلى الامة الانكليزية فاحسنت البلاد استقبالهُ وكانت اكثر الجرائد تحرض الناس على اكرامهِ واظهار الاحترام لهُ فعاد الرجل من ارلاندا شاكراً مسروراً

ولدبلن من الضواحي الجميلة مالا يمكن لنا وصفهُ الَّا موجزين نذكر منها تلال كيلني سرنا اليها بالترامواي البخاري ما بين مناظر البحر من جهة وخضرة الجبال الشهية من ناحية أُخرى حتى اذا وصل الترامواي سفح الجبل قمنا في عربة جعلت تلتف وتتعوَّج بين تلك الصخور حتى وصلت غابة اضطررنا من بعدها ان نترجل ونرتقي قمة التلال على الاقدام وهنالك رأينا منظراً من اجمل المناظر يحكي في بدائعهِ منظر جبل العصافير في موسكو او كاهلبرج من ضواحي فينا ويزيدهُ حسناً ان فيهِ صخوراً طبيعية او هي من بقايا معبد وثني قديم تركت في جوانب الجبل. وفي تلك الجوانب قصور وحوانيت تلتقي حولها جماعات الناس وتلتذ بالنظر وسمع الانغام

ومن هذه الضواحي الجميلة موقع اسمهُ كلوندارف ذهبت اليهِ مع غيري من السائحين وهو موقع معركة حربية انتصر فيها اهل ارلاندا على الدنماركيين في العصور الاولى وطردوهم من البلاد. وهنالك قصور وحوانيت وحمامات بحرية يأتيها عدد كبير من الناس في فصل الصيف وتقصدها جماعات الناس من دبلن

في اكثر الاحيان

ولكن الذي ذكرناه لا يعد شيئاً عند بحيرات كيلارني الذائعة الصيت في الآفاق وهي من المشاهد المعدودة في اوروبا تبعد عن دبلن مسيرة ٤ ساعات في القطار وهو يخترق سهولاً فسيحة تزرع فيها البطاطس التي يعول الارلانديون عليها في الغذاء حتى انهم اذا امحل موسمها اصابت بلادهم مجاعة . وينبت في هذه السهول جذور يقطعها الاهالي و يجففونها ويستعملونها وقوداً وهي كثيرة المراعي للماشية تحدها صخور الجبال الزرقاء اللون وفي بعض نواحيها حراج الصنوبر وغيره . وظللنا في القطار حتى وصلنا جهة هي ملك اللورد كيلدر اكبر اصحاب الارض والمالكين في هذه الجهة لهُ نصف القضاء برمتهِ والنصف الآخر لثلاثة من الموسرين الانكليز ما عدا قليلاً منهُ للاهالي . ونزلنا في فندق بتلك الجهة فوزع علينا بيان السياحة في البحيرات مطبوعاً وسرنا ذلك النهار مع جماعة كبيرة تقصد البحيرات في عربات كبيرة تنقل الواحدة منها ١٢ راكباً وتسير ساعتين بين الجبال والآكام وكان المطر يهطل يومئذٍ مدراراً ورفاقي من السياح لا يعبأون بهِ ولا يبالون حتى اذا انحبس المطر جعل صبية من اولاد القرى يجرون وراء عرباتنا ويبيعون للسائحين امتعة وجوارب من الصوف يعملونها بايديهم . وبعد مسير ساعتين في هذه العربة تركناها وركبنا خيلاً سارت بنا في وادٍ هائل المنظر كثير الصخور والعقبات لولا اني كنت مع كثيرين مدة سفري فيهِ لحسبت اني في ارض خلت من الآدميين . ثم مررنا باراضي بعض المالكين الكبار وقد فرضوا رسماً عَلَى كل عابر طريق يمر في ارضهم قيل انهُ يعطى للخادمين حتى وصلنا ضفة البحيرات وجاءنا الزاد من الفندق لكلٍّ زادهُ في سلةٍ صغيرة عليها نمرة الغرفة المخصصة لهُ فجلسنا نأكل والماء من حولنا وقد لذَّ الطعام وحلت مناظر

البحيرات امامنا وهي ثلثة اسم الاولى منها البحيرة العليا وطولها ٥ اميال وفي وسطها صخر علوهُ ١٠٠٠ قدم اسمهُ صخر النسر لان النسور تعيش فيهِ وقد رأيت عدداً كبيراً منها تحوم فوق البحيرة وقد درت فيها مع غيري من السائحين في احد القوارب واما البحيرة الثانية فطولها ميلان وتدعى الوسطى مرنا فيها مع التيار من غير مقذاف ثم دخلنا في البحيرة الثالثة او السفلى وهي اجمل الثلثة طولها ٥ اميال وعرضها ٣ فيها ٢١ جزيرة وصخور متناثرة هنا وهنا في البحيرة ومنظرها جميل . ولطالما تغنى الاهالي بمدح هذه البحيرات ونظموا القصائد في وصفها يغنيها الارلانديون في مجتمعاتهم الى اليوم . ويفصل بين هذه البحيرات شلال تهبطهُ الزوارق ويرتجف من هبوطها بعض السائحين فاثر فينا ذلك السفر البديع ولا سيما حين اجتاز زورقنا الشلال ودخل البحيرة السفلى وهي اجمل اخواتها واوسعهنَّ مجالاً ولها منظر مفرط الجمال . ولما وصلت كل الزوارق منتهى البحيرات من ناحية داخلية البلاد رأينا العربات تنتظرنا على الشاطىء فركبناها وعدنا الى الفندق في تلك العربات . وقد رأيت اثناء سفري هذا ابن اللورد كيلدر الذي ذكرناهُ كانت امرأة فقيرة الحال ترجوهُ ان يأمر وكيلهُ بالرفق بها وتتوسل شاكية وهو لا يرد عليها حتى قام القطار وغاب اللورد عن نظرها وبعد سفر اربع ساعات فيهِ وصلنا دبلن ومن ذلك الحين عزمت على السفر الى لفربول التي ترى الكلام عنها في ما يلي

لفربول

ان المسافة في البحر ما بين دبلن ولفربول ١٢ ساعة اجتزناها في يوم راقت سماؤُهُ وصفا هواؤُهُ فلما دخلت الباخرة نهر مرزي الذي بنيت عليهِ هذه المدينة

رأيت من ضجة الخلق الكثير المزدحم فوق رصيف الميناء وحركة البواخر الذاهبة والقادمة ما يعجز القلم عن وصفهِ لان هذه المدينة من اهم مراكز التجارة في الارض برمتها يقوم منها كل ثلاث ساعات باخرة كبرى الى بعيد الاقطار ومن هذه البواخر ١٥٠٠ تذهب الى شطوط اميركا ويأتي ميناها الكثيرة اكثر من عشرين الف سفينة في كل عام تنقل اليها حاصلات الارض وتأخذ منها الابضعة الانكليزية التي اشتهرت هذه المدينة العظيمة بتوريدها حتى انهُ لا يخلو بلد صغير في اطراف الشرق والغرب من اثر لمدينة لفربول

ولقد وصفت كثيراً من مدائن بريطانيا العظمى وارلاندا فلست أرى موجباً للاسهاب في ذكر بقية المدن الآتي ذكرها لان اكثر ما فيها متقارب في نوعهِ لا يخرج كثيراً عن وصف الذي تقدم ايرادهُ عن مشاهد انكلترا وعواصم الممالك الاوروبية الاخرى . غير اني اقول هنا موجزاً ان لفربول كانت مدينة صغيرة لا تذكر وما عظمت الاَّ من عهد قريب فقد ورد في التاريخ انها كانت قرية لبعض صيادي السمك في ايام الملك تشارلس الاول وكانت ضريبة الدولة على اهلها ١٥ جنيهاً في كل عام وهم يعدونها ثقيلة رابية يريدون خفضها حتى انهم لما رفع الملك مقدارها في سنة ١٥٧٢ وجعلها ٢٥ جنيهاً ثاروا علَى حكومتهِ ونادوا بالانضمام الى الحزب الذي رأسهُ كرومويل وكانت شكواهم من أسباب الحرب التي انتهت بخذلان الملك واعدامهِ . ولكن هذه المدينة كبرت ونمت بعد تلك الايام فمنحها الملك وليم الثالث سنة ١٧٢٣ لقب مدينة وبدأ اهلها من ذلك الحين يتجرون ويرسلون ابضعة ومصنوعات حديدية الى اراضي افريقيا الشرقية في سفن شراعية جعلت تعود من تلك الاراضي محملة عبيداً وراجت تجارة العبيد عندهم زماناً لانهم كانوا يرسلونهم الى جزائر الهند الغربية ويسخرونهم في الزرع وبقية الاعمال فلما

بطلت النخاسة من كل الممالك الانكليزية في سنة ١٨٠٦ تحولت الاذهان الى الاتجار والمصنوعات والبضائع ونقل حاصلات الممالك الاخرى الى انكلترا عن طريق ليفربول . وكان هذا كلهُ يتم في سفن الهواء فلما صنعت البواخر وجرت فوق نهر مرزي تجاه لفربول كبرت اهمية المدينة وتيسرت احوالها وزادت حركة التجارة فيها حتى انهُ بعد ان كان الناس يعبرون البحر ما بين لفربول هذه ونيويورك في سفن البخار في ٢٦ يوماً كما فعل احد الاميركيين سنة ١٨١٥ في زورق بخاري اصبح المسير الآن هيناً والمسافة تقطع في خمسة ايام وبعض الساعات وشركات البواخر كثيرة منها شركة كيونارد وشركة النجم الابيض وغيرها من الشركات التي تبني البواخر الكبرى منها وتنقل في السنة الوفاً من بعيد الاقطار واليها

ولفربول الآن ثانية المدائن الانكليزية في العظمة بعد لندن لا يقل سكانها مع الضواحي عن مليون نفس بنيت على شاطيء النهر كما تقدم وهي قريبة من البحر وفيها من محطات سكك الحديد شيء كثير فالاتصال دائم بينها وبين مدن انكلترا والاقطار النائية وقد لا يقل عدد القطر التي تقوم منها في اليوم الواحد عن الف ومن هذا تعلم مقدار اهميتها وعظيم حركتها التجارية . وامام لفربول مدن عامرة اهمها نيوبريطن وهي متنزه لطيف على شاطيء البحر فيهِ مرابض ورمال شهية يتنابها المتنزهون وفيها الاعيب وحانات وهواؤُها جميل. ومنها بركنهد وهي مدينة كبيرة سكانها مائة الف تعد ساعد لفربول وعضدها في الاعمال التجارية والاتصال بين هذه الجهات والمدينة تام لا ينقطع فان في لفربول شركات لبواخر خاصة بنقل الناس بين الضفتين كثيرة الجمال تقوم منها كل نصف ساعة وهي ابداً ملأى بالمتنقلين لان عدداً كبيراً من سكان لفربول يسكن في هاتين المدينتين والذي يزور ارصفة المينا حيث تقوم هذه البواخر يرى المهابة والعظمة لان ارصفة

لفربول اكبر ما في الارض من نوعها واعظمها وهي كثيرة العدد بعضها للجهات القريبة وبعضها لبواخر الشركات الكبرى فلا يقل عدد الاحواض التي ترسو فيها عن ٢٦ حوضاً وطول المينا من طرف الى طرف ثمانية اميال بنوا فوقها الارصفة للسفن العظيمة كما قلنا ومهدوا بها الطرق الفسيحة والى جانبها طريق فسيح للعربات والمارة تليه البيوت والمخازن والحانات العديدة وهي تشرف منافذها وكواها على تلك الحياض والمرافيء ويرى الناس منها اعظم مشاهد الحركة التجارية في الارض. ولم يكفِ كل هذا لتسهيل النقل والانتقال حتى ان القوم بنوا سكة حديدية فوق قناطر من الحديد تمر من تحتها العواجل والحوافل وعربات النقل على اشكالها ومن فوق القناطر ارتال تقوم بالراكبين وتسير بالقوة الكهربائية اتموا بناءها سنة ١٩٠٢ واحتفلوا بافتتاحها احتفالاً عظيماً وهي مرتفعة ١٦ قدماً فوق سطح الارض ومنظرها في غاية الجمال ومنظر المينا والمدينة منها يستحق الذكر والاعجاب . وهذا كلهُ لم يكف ايضاً للحركة الكبرى في لفربول حتى انهم حفروا نفقاً تحت النهر ومدوا فيهِ سكة الحديد تنقل الارتال وما فيها بين ضفتي نهر مرزي وهم ينزلون هذا النفق بالآلات الرافعة والخافضة او على سلم كثير الدرجات فاذا وصل المرء المحطة تحت الارض رأى نفسهُ في مثابة تنيرها الكهربائية ويأتيها الهواء النقي بمراوح يديرها البخار وفيها الخلق والمناظر البهية والارتال تسير تحت مجرى النهر الى الجهة الاخرى مسافة الفي متر تظهر فيها غرائب الصناعة الحديثة واقتدار جماعة المتمدنين

ومشاهد لفربول كثيرة منها البورصة تلي المينا ولها شهرة ذائعة في الخافقين منها بورصة الاقطان وبورصة الحبوب واعمالها تفوق الحصر حتى ان المشتغلين بها لا يلقون وقتاً لمناولة الطعام على مهلٍ فهم يتغذون في مطاعم قريبة منها ويقرأون

الصحف التجارية والنشرات في حين هم يأكلون ويشربون حتى لا يضيع عليهم شيء من الوقت الثمين . ويمكن الوصول من هذه البورصة الى ميدان القديس جورجيوس في شوارع بهية غنية اهمها اسمهُ لورد ستريت ويليهِ تشرتش ستريت وغيرهما حتى اذا وصل المرء هذا الميدان رأى من عظمة المدينة ما يؤثر في النفس ولا سيما تلك القاعة الكبرى في البناء الفخيم المعد للولائم الرسمية وفيهِ دار المحافظة والمجلس البلدي الى جانبهِ من الحدائق والكنائس والمكاتب العمومية والشوارع ما يضيق المقام عن عدهِ . وقد صرفوا على هذا البناء العظيم نحو اربعماية الف جنيه واحاطوهُ بالحدائق اللطيفة وتماثيل العظام منهم الملكة فكتوريا وزوجها في بدء الاقتران وهما على الجياد . وهنالك تمثال غلادستون الوزير المشهور والجنرال ارل الذي كان من قواد حملة السودان سنة ١٨٨٥ وقتل في معركة كربكان والرجلان ولدا في هذه المدينة وما زال البيت الذي ولد فيهِ غلادستون باقياً على حاله يذكر الناس بفعال هذا الرجل العظيم

مانشستر

ضربت صفحاً عن ذكر كثير من المعامل والاشياء المهمة في لفربول وانا سأفعل ذلك في مانشستر التي ذاع صيتها في الخافقين بمصنوعاتها والاقمشة القطنية التي تنسج في معاملها العظيمة فهي أشهر مواضع النسج في الارض بلا مراء ليس في الاقطار كلها بلدة حقيرة تخلو من بعض ما نسج في هذه المعامل الكبرى التي اشتهرت بها مانشستر ولفربول حتى صار ذكرهما مرادفاً لذكر الشيت والخام وكل ما نسج من القطن . والحق يقال ان اهم ما في مدينة مانشستر هذه معاملها العظيمة واماكن التجارة الكثيرة فيها وهي لا تمتاز بجمال في المنظر والابنية ولو انها

من اشهر مدن الارض طرّاً فان احسن بناء فيها للمجلس البلدي ويعرف باسم مار جورجيوس ايضاً . ومن اشهر مواضعها البورصة الجديدة دخلتها مع احد المعارف فاذهلني اتساعها وزخارفها وعلو سقفها وهي قليل نظيرها في كل مدن اوروبا ومحطات سكك الحديد التي يقوم منها عدد يماثل القطرات التي تقوم من لڤربول والترعة التي حفروها بين مانشستر ولڤربول وانفقوا عليها الملايين حتى ترد اليهم البضاعة رأساً من البحار بدل ان تفرغ في لڤربول وتنقل منها الى معاملهم وقد اشتهرت هذه الترعة بكثرة ما انفق عليها وقلة ايرادها وجمال البواخر التي تجري فيها وهي لا تزيد في الطول عن ٣٦ ميلاً وعرضها ١٢٠ قدماً والعمق ٢٦ . وهنالك أبنية ضخمة هي وكالات ومكاتب قد لا يقل عدد المكاتب في بعضها عن الف . واما عن العربات والحركة وقتام المعامل فلا تسل فان ظاهر المدينة كلهُ اسود من كثرة الدخان والجلبة في بعض انحائها لا تطاق والسكن غير ذي لذة الاَّ لاصحاب المكاتب والاعمال وهي مع كل هذا تكسو الارض بمنسوجاتها ولا تفوقها في الشهرة مدينة قديمة او حديثة وهي تعد بثمانماية الف نفس

بريطن

وقد زرت من مدائن الانكليز كثيراً غير الذي ذكرتهُ لا أرى حاجة الى وصفهِ فلما عولت على الرحيل من هذه البلاد العظيمة قصدت اشهر مصايفها الواقعة على الشطوط الجنوبية وهي مدينة بريطن هذه لا ريب في انها من اجمل المدن الاوروبية منظراً وموقعاً والذين ينتابونها في اشهر الصيف من كبراء الانكليز لا يعدون فهي قائمة بمال المصطافين من اهل لندن وسواهم وفيها من الحوانيت والفنادق

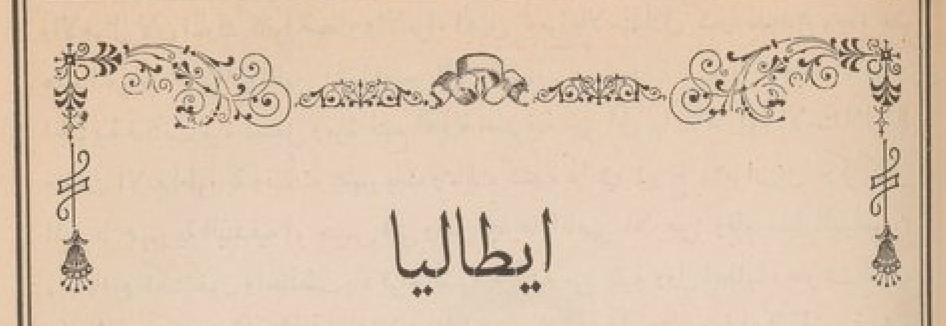
ما ليس في غيرها من مدن انكلترا ا كثره ُ واقع على البحر صفًا واحداً طوله ُ اربعة اميال ومن دون هذا الصف البديع طرق جميلة على ضفة الماء يسير فيها المتنزهون وحمامات والعاب ومشاهد بحرية من اشكال شتى أجملها لسان من الخشب ادخلوه ُ في البحر مسافة ١١٥٠ قدماً وفي آخرهِ فوق الماء مطاعم وحانات وملاهٍ تشتغل في الليل والنهار ومن حولها الزوارق البهية تنقل المتفرجين في البحر وقد انشرحت منهم الصدور وافترت الثغور . وزاد بهجة ذلك الموقع انهم بنوا على مقربة منهُ سكة حديدية في وسط البحر يغمرها الماء وجعلوا القطار لها قاعة من الزجاج قائمة على عمد من الحديد ولها من الاسفل عجلات تجري فوق خطوط الحديد التي يغمرها الماء فهي اذا سارت في البحر بجماهير المتنزهين تظنها قصراً من البلور سابحاً فوق الماء ولا تعرف كيفية مسيرهِ وعلوها عن سطح البحر ٣٠ قدماً تدفعها القوة الكهربائية في المسير فتجعل النزهة فيها من غرائب المشاهد التي لم أرَ لها نظيراً في الحمامات البحرية مع كثرة ما رأيت منها في اوروبا واميركا

ومن مناظر هذه المدينة قصر بناه ُ الملك جورج الرابع سنة ١٧٨٧ وانفق عليهِ مايتين وخمسين الف جنيه ليكون مصيفًا له ُ وقد باعته ُ جلالة الملكة الحالية في اوائل حكمها بخمسة وثلثين الف جنيه لانها لم تعول على قضاء فصل الصيف في هذه المدينة وتقام الآن في هذا القصر بعض الولائم وهو يحيط بهِ عدة ابنية جميلة التزويق والنقش ترتاح النفس الى السكن فيها وقلَّ ان ترى مدينة مثل بريطن كهذه تحلو الحياة في منازلها ومتنزهاتها وسكانها نحو ١٥٠ الفاً من النفوس

هنا انتهت سياحتي في مدائن المملكة الانكليزية فبرحت بريطن بقطار سكة الحديد الى نيوهافن وهي بعد دوفر اقرب فرضة من شطوط انكلترا الى المين الفرنساوية . وهنا اوضح للقاريء ان الخطوط ثلثة ما بين فرنسا وانكلترا لبواخر

الركاب . فالخط الاول ما بين ثغر كاليه في فرانسا وثغر دوفر في انكلترا ورد تفصيله في هذا الكتاب عند وصف السفر من فرانسا الى انكلترا حتى اذهب منها الى امريكا . والخط الثاني من ثغر بولون في فرانسا الى فولكستون في انكلترا . والثالث هو هذا من نيوهاڤن بانكلترا الى ديپ في فرانسا والمسافة بينهما تستغرق ثلاث ساعات في عرض البحر . وفي الناس من يؤثر هذا الطريق نظراً لاتساع البحر هنا خلافاً لطريق كاليه ودوفر فان بحره ضيق ولكنهُ قصير لا يزيد عن ثلاثة ارباع الساعة وصلت من بعدها الى ديپ وذهبت منها بالسكة الحديدية الى باريس قاصداً بلاد الطليان





ايطاليا

خلاصة تاريخية

كانت ايطاليا في الزمان القديم بلاد العز والسؤدد ومقر العظمة والسلطان الواسع حينما عمَّ ملك الرومان من رومه وهي عاصمة البلاد من قدمٍ وانتشر نفوذهم في انحاء الارض فما بقي لغير دولتهم ذكر مدة وجودها الى ان سطا عليها برابرة الشمال ودوخوها ومن ثمَّ بدأ تاريخ ايطاليا الحديث واما التاريخ القديم فمشهور وعلاقتهُ بهذه الرحلة لا توجب اكثر من الاشارة اليهِ

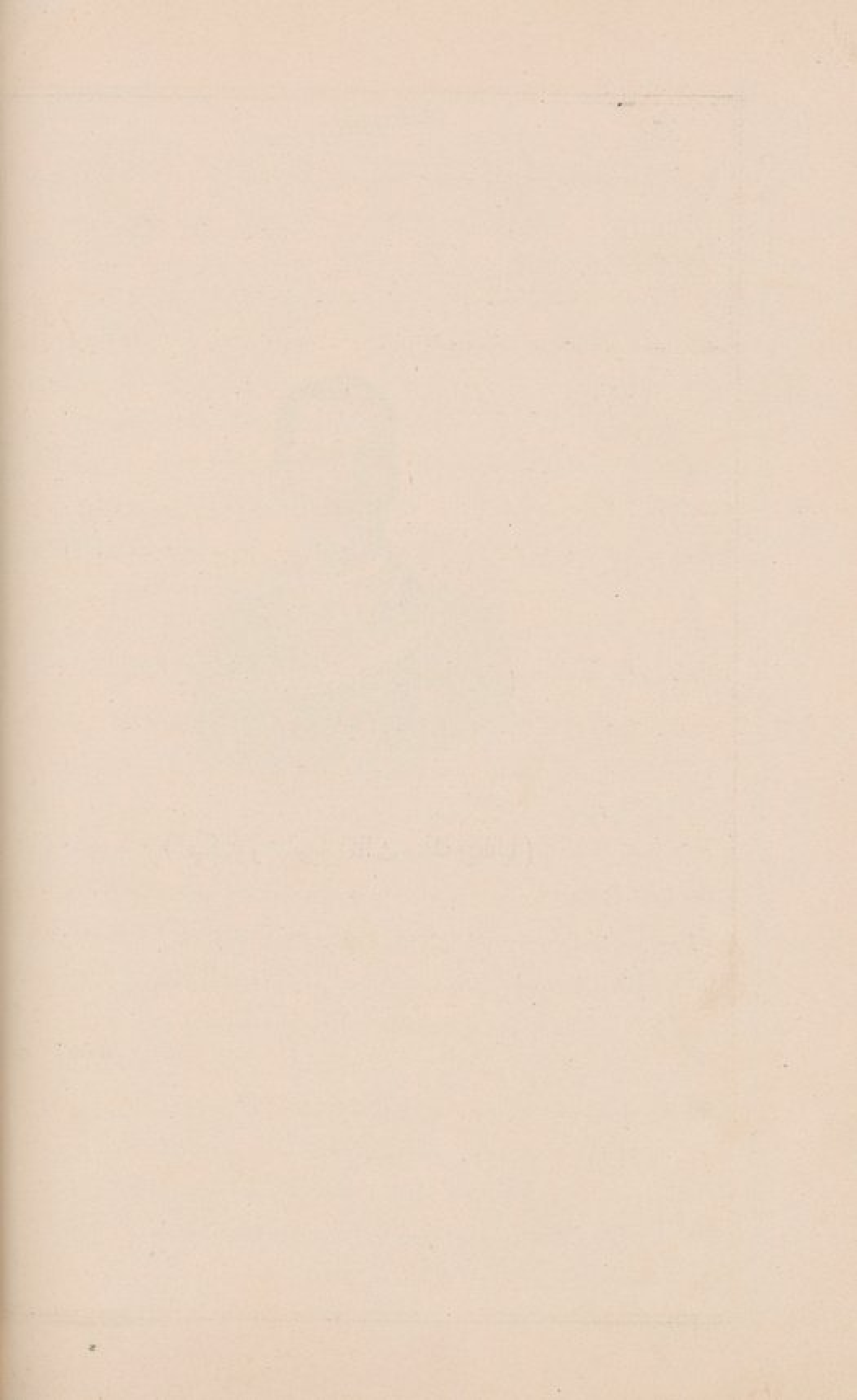
وقد كانت اكثر اجزاء ايطاليا الحالية من ممالك رومه القديمة فلما انقسمت سلطنة الرومان شطرين احدهما غربي قاعدتهُ رومه والثاني شرقي قاعدتهُ القسطنطينية ظلت هذه الاجزاء الايطالية تابعة للمملكة الغربية حتى خلع آخر الامبراطرة سنة ٤٧٦ وتولى الملك اودتشر زعيم قبائل الغوثة ثم ضاعت المملكة من يدهِ ونالها تيودوريك ملك الاستروغوث سنة ٤٩٣ بعد التاريخ المسيحي ومن ذلك الحين لم يهدأ لبلاد الرومان بال من كثرة الهاجمين والطامعين ولاسيما في الجهات الشمالية وهي لم تزل اثار الرومان والقبائل الاولى كثيرة فيها حتى ان اسم الجهة المحدقة بولاية ميلانو تسمى الى الآن لومبارديا نسبة الى قبيلة اللومبارديين الذين دخلوا البلاد من الجهات الالمانية واسسوا فيها مملكة طال عهدها واشتهر امرها زمانًا ولكن ملوكها طمعوا برومه وزحفوا عليها في القرن الثامن فاستغاث البابا وهو يومئذٍ صاحب المدينة بملوك فرانسا واغاثهُ بين وابنهُ شارلمان وهو الذي اخضع مملكة اللومبارديين وضمها الى املاكهِ وتوج في سنة ٨٠٠ امبراطورًا للسلطنة الغربية في رومه فاعاد عزها الى حين. وقسمت الامبراطورية على حفدة شارلمان بعد وفاتهِ كما رأيت في تاريخ فرانسا فاصاب لوتاير الولايات الايطالية وظلت البلاد تابعة من بعد هذا لملوك الدولة الكارلوفنجية زمانًا كثرت فيهِ الحروب

والاهوال لان الملوك كانوا ضعفاء والامراء الذين طمعوا بالاستقلال كثر عديدهم وجاء بعد هذه الحروب اوثو امبراطور المانيا ففتح الجزء الشمالي من ايطاليا سنة ٩٥٠ واما الاجزاء الجنوبية فكانت مرة تستقل ومرة تتبع الدولة الشرقية حتى آل بها الامر الى الاستقلال لما ضعفت الامبراطورية ونشأت جمهوريات وممالك كثيرة لها في تاريخ العمران ذكر كبير اشهرها جمهورية البندقية او ڤنيس التي وصل تجارها اقاصي الارض وقام منها السياسيون والعلماء والمكتشفون واختلطت بالاقوام الشرقية اكثر من بقية دول ايطاليا وحاربت العرب واتصلت بممالكهم زمانًا ونال تجارها الامتيازات من سلاطين آل عثمان وملوك اليابان وغيرهم. وعظمت قوة بابا رومه في تلك العصور حتى صار الملوك يتذللون لهُ ويعدون رضاءهُ واجبًا لبقاء الملك في ايديهم. وكانت الدولة الالمانية السابقة الذكر تخسر بعض املاكها حينًا وتضيف اليها حينًا وساد في كثير من الجهات اشراف اهتضموا حقوق العامة فحاربهم الشعب زمانًا حروبًا طويلة انتهت سنة ١٣٢٨ بتقسيم البلاد على بعض العائلات المالكة ولا محل هنا لتسميتها كلها. وفي سنة ١٤٩٤ بدأت حروب طويلة بين فرانسا والنمسا على امتلاك ايطاليا فانتهى الحال بانكسار الفرنساويين في معركة باڤيا سنة ١٥٢٥ وتخليهم عن البلاد

وبقيت ايطاليا وممالكها في زهاء وحروب متواليين واتسع نفوذ البابوات فحكموا غير رومه اكثر الممالك الاوربية وقبضوا على سياسة الدول وتصرفوا بحقوق الملوك والامبراطرة وحدثت حروب كثيرة في ايطاليا ذكر معظمها في تاريخ الدول الاخرى. وكان امراء فسكونتي يحكمون امارة لومبارديا وآل مدمي يحكمون فلورنسا وفرع من آل بوربون يحكم نابولي وصقلية واكثر الجهات الباقية جمهوريات زاهرة نامية يرأس البابا شؤونها رئاسة سياسية ودينية حتى قام نابوليون بونابارت المشهور وسطا على لومبارديا ورومه وبقية ممالك ايطاليا فاخضعها وضمها الى املاك فرانسا سنة ١٧٩٢ ثم انتقضت عليهِ وساعدتها المانيا وروسيا وانكلترا على الاستقلال فعاد اليها بونابارت واخضعها مرة أُخرى سنة ١٨٠٠ وتوَّج ملكًا عليها وسمى ابنهُ الصغير بعدئذٍ ملك رومه وكان يوم تصرَّف بالممالك قد اقام اوجين بوهارني ربيبه ملكًا عليها ثم صار يوسف اخو نابوليون ملكًا لنابولي فما دام هذا الحال طويلًا لان ايطاليا خرجت من قبضة الفرنسويين بعد سقوط نابوليون وعادت الى الاستقلال فقويت شوكة ملوك نابولي وصقلية وهم من آل بوربون وملكت النمسا جزءًا مهمًّا من شرقي ايطاليا فما تخلت عنهُ الَّا في اول حكم فرانس جوزف الامبراطور الحالي حين ساعدتها فرانسا على الاستقلال في سنة ١٨٩٩



(ڤيكتور عمانويل الثالث ملك ايطاليا)



وبين البلاد في هذه الحالة تتنازعها عوامل الحرب والثورة قام في سردينيا فكتور عمانوئيل ملكها المشهور بالدهاء وبدأ بتحريض الناس على الانضمام الى رايتهِ وساعدتهُ فرانسا وانكلترا لانهُ انضم اليهما في حرب القرم وحارب روسيا معهما وكان من حسن حظهِ انهُ رزق وزيراً عظيم الذكاء واسع العقل اسمهُ كافور وقام على ايامهِ غاريبالدي بطل ايطاليا المشهور فحارب ملوك لومبارديا ونابولي وغيرهم واستخلص البلاد منهم فجعلها مملكة واحدة ثم دخل رومه في ٢٠ سبتمبر من سنة ١٨٦٩ بمساعدة الجنود الفرنسية واغتصب القوة من البابا فصارت ايطاليا كلها مملكة واحدة عاصمتها رومه كما كانت في الزمان الاول . ومات فكتور عمانوئيل اول ملوك ايطاليا بعد اعادة حياتها في ٩ يناير من سنة ١٨٧٨ فخلفهُ ابنهُ اومبرتو عرف بين قومهِ بالبساطة الزائدة وحب الرعية والميل الى الاصلاح والعدل وقد تقدمت ايطاليا في ايامهِ تقدماً يذكر في الصناعة والتجارة وحاولت ان تمد سلطانها وتعمر الجهات القاصية فملكت بعض الحبشة والصومال وابرمت محالفة مشهور امرها مع النمسا والمانيا وهي الآن من الدول العظيمة في الارض . وقد بقي الملك امبرتو على سرير ايطاليا الى يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩٠٠ حين كان راجعاً الى قصرهِ في مونزا وانقض عليهِ في العربة فوضوي اطلق عليهِ الرصاص فقتلهُ وكان حزن اوروبا وايطاليا على نوع اخص شديداً جداً على هذا الملك وكان ولي عهدهِ وهو جلالة الملك فكتور الحالي يومئذٍ متجولاً في البحر مع عروسهِ فلم يعرف بما اصاب والدهُ الا بعد الحادثة بيومين حين اسرع الى رومه واستلم مهام الملك . وقد اقترن هذا الملك بالاميرة هيلانه كريمة البرنس نقولا صاحب الجبل الاسود ورزق منها ثلاث بنات وابناً واحداً واشتهرت هذه الملكة بما اتتهُ من المساعدة في الزلزال الذي اصاب مدينة مسينا فكانت تداوي الجرحى وتؤاسي المصابين ولما هاج جبل النار في نابولي وجعل يقذف بنيرانهِ كانت هي في مقدمة الجميع لترى بنفسها الخطب وتسعف المصابين . واعترف الملوك بحسن عملها فارسلوا اليها الوسامات تذكاراً لما قامت بهِ من واجبات الانسانية والمروءة . وسكان ايطاليا حسب الاحصاء الاخير سنة ١٩٠٦ نحو ٣٦ مليوناً ونصف مليون

تورين

غادرت باريس ووجهتي المدائن الايطالية اولها مدينة تورين فمرّ بنا قطار سكة الحديد في عدة مدن فرنسوية مثل شمبيري ومودان وهذه الاخيرة واقعة على حدود فرانسا وايطاليا فيها جمرك مشترك للدولتين نزلنا من القطار فيها ليفتش العمال ما معنا من امتعة وعفش ثم عدنا الى قطار آخر ايطالي ودخلنا في نفق جبل سيني المشهور وهو من آثار المدنية العظيمة ومن المناظر المشهورة في الارض يعد نداً لنفق سان غوثار الذي تقدم الكلام عليهِ في باب سويسرا وقد بدأوا بنقبهِ في الجبل سنة ١٨٦١ فما انتهى عملهُ الأ عام ١٨٧٠ واشترك في هذا العمل أُمتا الطليان والفرنسيس فبلغت جملة المال الذي انفق عليهِ ٧٥ مليون فرنك . وطول هذا النفق ثمانية اميال من جانب في الجبل الى جانب وعرضهُ ٢٦ قدماً وعلو سقفهِ عن سطح ارضهِ ١٩ قدماً وفيهِ خطان لارتال البخار احدهما للقُطُر الذاهبة والآخر للقادمة وهم ينيرونهُ بمصابيح غاز بين الواحد منها والآخر مسافة ٥٠٠ متر فاذا دخل القطار هذا النفق اقفلت نوافذهُ والكوى ولم يسمح لاحد المسافرين بفتح شيء منها ولا بمد يدهِ او اخراج رأسهِ مدة وجود القطار داخل النفق لئلا يدخل قتام الآلة البخارية عربات المسافرين او يحدث مكروه بسبب ضيق المجال فكأنما المسافر في هذا النفق محبوس تحت قلب الارض الى حين تم يأتيهِ الفرج اذ يخرج الى وجه الارض فيرى المرء نفسهُ طائراً في هذا القطار محلقاً في تعاريج الجبل البهي يلتف من حول جبال الالب الموصوفة وتتنوع من دونهِ آيات الجمال الطبيعي الرائع فيكون الفرق بين ظلام النفق وقتامهِ وبهاء هذه المشاهد البديعة مما يزيد تأثيرها في النفس رسوخاً ويبقى لجبل سيني ونفقهِ

ذكراً غريباً في الاذهان

ووصلت تورين بعد سفر ٣٠ ساعة في القطار المستعجل ولهذه المدينة اهمية كبرى فانها كانت قاعدة امارة بيامونته في القرون الوسطى ثم علا شأنها حين دخلت في حوزة امراء ساڤوا سنة ١٤١٨ ولما عاد امراء هذه الدولة الى امتلاك ايطاليا برمتها على عهد ڤكتور عمانوئيل جد الملك الحالي جعلت هذه المدينة ايضاً قاعدة المملكة الايطالية الجديدة من سنة ١٨٥٩ الى ١٨٦٥ ومن بعد ذلك نقل الملك كرسيهُ الى فلورانس فاحتج اهل تورين واعترضوا على هذا الابدال لانهم كان لهم اليد الطولى في توحيد المملكة الايطالية فما سكتوا عن الاحتجاج الاَّ لما صارت رومه عاصمة المملكة وهي اكبر مدائن ايطاليا وسيدتها من قدم كما تعلم . وفي هذه المدينة مع ضواحيها نحو اربعماية الف نفس وهي مبنية في منبسطٍ من الارض واسعة الميادين مبلطة الشوارع تبليطاً حسناً واكثر شوارعها طويلة لا يقل الواحد منها عن الف مترٍ في طولهِ وكلها تحف بها الاشجار من الجانبين وفيها الابنية الجميلة المنسقة فهي ممتازة بهذا الوضع وبنظافتها عن بقية المدن الايطالية . وقلَّ ان يخلو شارع او رحبة في هذه المدينة من تمثال لاحد المشاهير الذين نبغوا في تورين او سواها من مدن ايطاليا فترى فيها تماثيل الجنرال لامرمورا قائد عساكر سردينيا في حرب القرم وغاريبالدي وكاڤور وغير هؤُلاء من الذين خدموا بلادهم خدمة خلّدت لهم الذكر والحق يقال ان مدن ايطاليا ملأَى بهذه الآثار الجميلة

ومن اهم مواضع هذه المدينة ميدان كاستيلو واقع في قلب البلد وهو يتفرع منهُ عدة شوارع مهمة كشارع غاريبالدي وشارع پو وشارع رومه وفيهِ قصر قديم يعرف باسم "قصر المداما" او السيدة سمي بذلك لانهُ كان لوالدة الملك ڤكتور اماديوس الثاني . وفي الجهة الشمالية من هذا الميدان قصر آخر للملك يقيم فيهِ

حين يزور المدينة ولا تخلو مدينة مهمة في ايطاليا كلها من قصر للملك او قصرين كانت للامراء والملوك الاول وهي كاملة الرياش والمعدات ولكن اعضاء العائلة المالكة لا يقيمون في هذه القصور الآن الا قليلاً . وقد دخلت هذا القصر المنوه بهِ وهو قديم العهد بني سنة ١٦٦٠ فالفيت رياشهُ جيداً بسيطاً وقاعاتهِ رحبة واهمها قاعة السلاح وفيهِ تمثال نابوليون الاول والسيف الذي انتضاهُ في معركة مارنجو ونسران فرنسويان واسلحة قدمتها مدن ايطاليا للملك فكتور عمانوئيل وسيف قدمتهُ لجلالتهِ مدينة رومه سنة ١٨٥٩ واكليل من مدينة تورينو قدمتهُ سنة ١٨٦٠ وغير هذا كثير . وهنالك ملابس آل ساڤوا الحربية الاولى تشبه التي وصفناها في غير هذا الفصل من ملابس فرسان القرون الوسطى واسلحتهم وسروج خيلهم اكثرها من القطيفة الحمراء المزركشة بالقصب وتجاه هذا القصر اي في الجهة الجنوبية من ميدان كاستيلو قصر كاريناني القديم ولد فيهِ الملك فكتور عمانوئيل ويليهِ متحف فيهِ من الآثار المصرية ما لا يوجد في المتاحف الاخرى ولا سيما البردى او ورق البابيروس فان فيهِ ما لا يوجد نظير لهُ في متحف الجيزة وفيهِ من تماثيل الفراعنة الضخمة المصنوعة من الصوان الاحمر ما يستحق الذكر والاعجاب وقد وصل معظم هذا الى متحف تورين من قنصل لدولة ايطاليا اقام زماناً في مصر وأصلهُ من هذه المدينة فارسل الى متحفها كل هذه الآثار النفيسة

وفي تورين ميدان آخر يعرف باسم كارلو عمانوئيل نصبوا فيهِ سنة ١٨٧٣ تمثالاً لكافور الوزير المشهور وهو من ابناء هذه المدينة ايضاً وقد وضعوا على رأس التمثال اكليل الظفر وفي يده لوح عليهِ شعار كافور وهو (كنيسة حرة في بلاد حرة) وما زال كتاب الغرب يتناقلون هذه العبارة عن كافور في كتاباتهم السياسية وقد نقشوا على قاعدة هـذا التمثال تاريخ استقلال ايطاليا وتاريخ رجوع الجنود

الايطالية من حرب القرم وتاريخ موتمر باريس وغير هذا مما كان لكافور بهِ دخل كبير. ويتفرع من هذا الميدان شارع باسم كافور ما زال فيهِ البيت الذي ولد فيهِ هذا الوزير سنة ١٨١٠ وتوفي سنة ١٨٦١ والناس يقصدونهُ ويذكرون صاحبهُ العظيم كما يفعلون في كل موضع مثل هذا لذكر الرجال الكبار

على ان اجمل ميادين تورين بلا مراء هو المعروف باسم فكتور عمانوئيل مؤسس المملكة الايطالية الحالية والشارع الفخيم الذي يتفرع منهُ بهذا الاسم ايضاً فان هذين الموضعين هما نقطة الاهمية في المدينة ترى فيهما طبقات الاعيان واهل البزة والترف وفي كل الجوانب قصور نخيمة ومخازن عظيمة وشجر بهي وغرس شهي وماء يتدفق من البرك البهية ومئات من سراة المدينة تخطر متنزهة او تروح وتغدو لشراء البضاعة النفيسة او لقضاء الحاجات وانغام شجية تسمع في جوانب الميدان فهنا ملتقى العز ومركز الحظ وهناء البال في هذه المدينة الحسناء . ويمكنك الوصول من هـذا الشارع العظيم الى الحدائق العمومية او الى الجسر المبني فوق نهر پو وهو الذي مررت من فوقهِ وذهبت صعداً الى جبال الكبوشيين البهية سميت بهذا الاسم لان بعض رهبان الكبوشيين بنوا فوقها ديراً على ارتفاع الف قدم عن سطح الارض والصاعد الى قمة هذا الجبل في الترامواي البخاري يسير في طرق تزينها الصخور الضخمة وتتخللها الاعشاب الندية واشجار الصنوبر العطرية فاذا ظللت صاعداً الى جبل هنالك اسمهُ السوبرجا وارتفاعه ٢٠٠٠ قدم عن سطح الارض وجدت في اعلاهُ كنيسة ومدفناً لآل سافوا بناها الدوك فكتور اماديو من امراء الدولة الحاكمة في ايطاليا الآن وفي الكنيسة قبة علوها ١٤٠ قدماً اذا ارتقيت اعلاها رأيت من دونك منظراً يسحر الالباب لفرط جمالهِ فانك يحيط بك المدينة والسهل والنهر وسلسلة جبال الالب العظيمة منها جبل روزا ارتفاعهُ

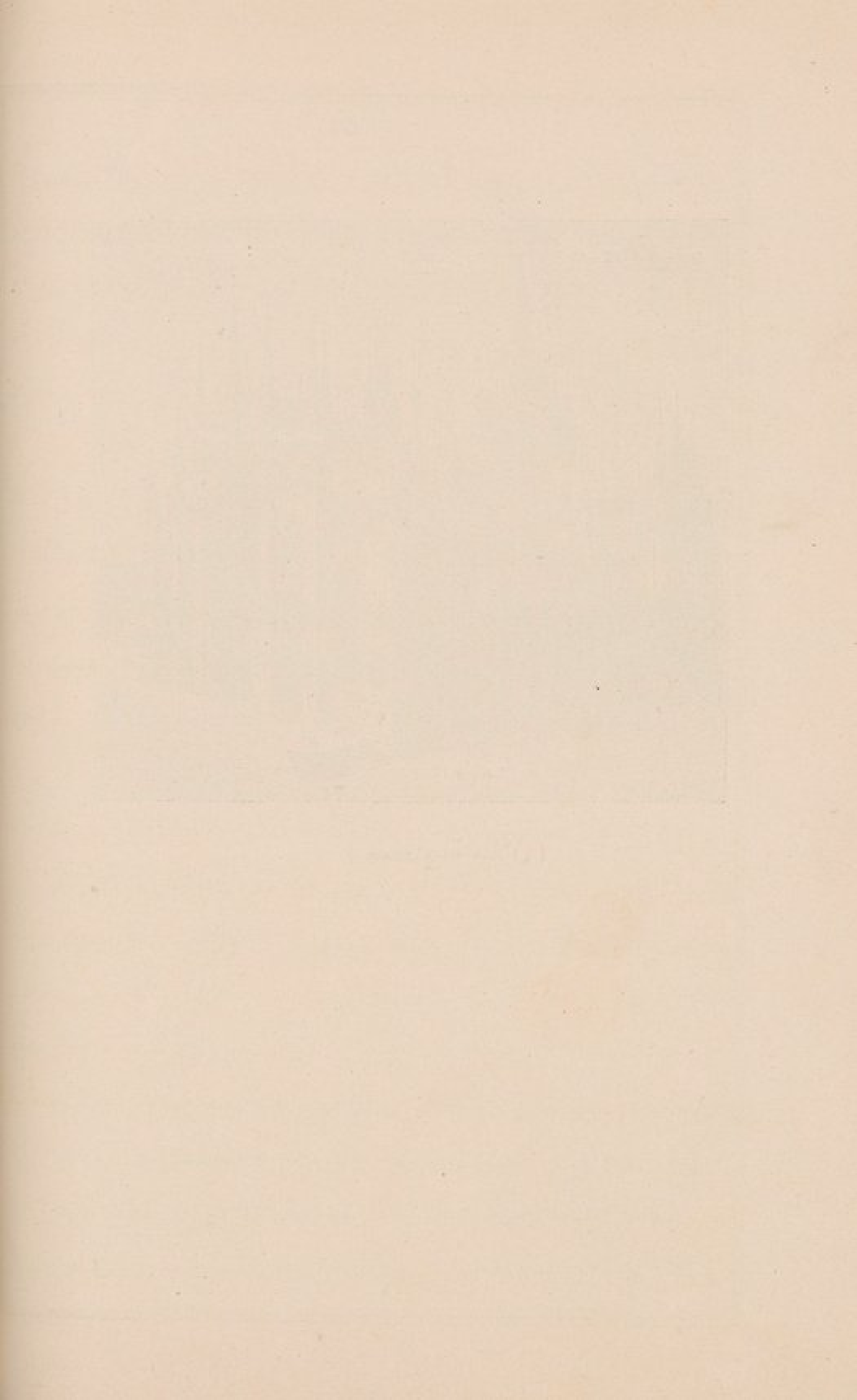
١٥١١٥ قدماً وجبل براديزو علوهُ ١٣٧٨٠ قدماً وغير هذا مما تحلو الفرجة عليهِ وتنشرح لرؤيتهِ الصدور وهو كثير في تورين وفي اكثر المدن الايطالية التي زرنا عدة منها . وكانت وجهتي من بعد تورين مدينة ميلان المشهورة واليك بعض ما يستحق الذكر عنها

ميلان

هي عاصمة اقليم لومبارديا المعروف بالاقليم العالي في ايطاليا وقد كانت من اهم مدن المملكة الرومانية في اكثر العصور لانها في القرن الحادي عشر كان تعدادها ثلاثماية الف نفس واشتهرت في القرن الخامس عشر بصناعة التصوير حين قام فيها برامانته وليوناردي ڤنشي وتلامذتهما الكثار ولها الآن شهرة بالمصنوعات كالمنسوجات الحريرية لما يزرع من شجر التوت في اقليم لومبارديا وغيرها من لوازم الاثاث والرياش وهي بوجه الجملة من اكبر مدن ايطاليا تجارةً واكثرها ثروةً يبلغ عدد سكانها الآن نصف مليون ويشطرها شارع ڤكتورعمانوئيل المتصل بشارع ڤنسيا وهما يوصلان الى الحديقة العمومية وفيها من اشجار المانيلا شيء كثير يتضوع منها روائح عطرية قوية وحول البركة زهر ومقاعد وغير هذا مما لا اطيل وصفهُ لانهُ مثل الموجود في الحدائق العمومية الاخرى وقد وصفت كثيراً منها ولكن مدينة ميلان هذه تمتاز باشياء لا نظير لها في الارض من ذلك الدوم او الكنيسة تعد من عجائب الدنيا ولا يزيد عنها في الاتساع الاَّ كنيسة بطرس في رومية وكنيسة جيرالدا في اشبيلية بالاندلس وقد مرَّ ذكرها وتعد كنيسة ميلان بين كنائس الطبقة الاولى في جمال بنائها وزخارفها وما فيها من تماثيل القديسين المنقوشة عَلَى الحجر والرخام في سقفها وجدرانها داخلاً وخارجاً وما انفق على



(كنيسة ميلان)



تذهيبها ودقائق صناعتها العجيبة حتى ان مجموعها يعد مثال الجمال المؤثر في الاذهان ولمنظرها مهابة من الخارج والداخل يشهد بها كل من اسعده الحظ برؤيتها وصورها منتشرة في كل جهات الارض . ومساحة هذه الكنيسة العظيمة ١٤٠٠٠ متر مربع يمكن نحو اربعة آلاف نفس ان يجتمعوا فيها ويبلغ طولها من الداخل ١٦٢ متراً وعرضها ٩٦ متراً وعلوها ٢٢٠ قدماً والكنيسة كلها مبنية من الرخام وهي قائمة على ٥٢ عموداً محيط كل منها ١٢ قدماً وسقفها من الرخام المختلف الالوان ولها عدة شبابيك ونوافذ صنعت الواحها الكبيرة من قطع الزجاج المختلف الالوان على شكل الفسيفساء وهي تمثل حوادث الانجيل والتوراة ولا يقل عدد هذه القطع في كل نافذة عن ٣٥٠ قطعة وهي من أثمن ما نزل على الزجاج من الصور المتقنة يقف المرء امام بعضها ساعات ولا يمل الفرجة وقد يخيل للناظر اليها انهُ يرى رجالاً ومناظر صحيحة طبيعية لولا ان الصور تنقصها حركة الاشياء الحية . وعلى جدران الكنيسة من الخارج ٢٠٠٠ تمثال نقلاً عن التوراة والانجيل في القد الطبيعي ولا حاجة الى القول انهُ كتب مجلد في تاريخ بنائها وعمل المهندسين الذين اشتغلوا بها والنقود التي جمعت وصرفت عليها حتى تمت وتكرست في سنة ١٥٧٧ وهي من ذلك العهد لا تبطل التحسينات فيها سنة بعد سنة حتى انهُ اضيف اليها تمثال نابوليون الاول في سقف الكنيسة سنة ١٨٠٥ ولكن العين المجردة لا ترى بدائع النقش والزخرفة في أعلى السقف بالنظر الى ارتفاعهِ ولهذا ترى كثيرين من السياح في يدهم النظارات ينظرون الى ما فوقهم قبل البدء في الصلاة او بعد ختامها . ولهذه الكنيسة برج يصعد الى اعلاهُ على ٣٠٠ درجة ترى من اعلاها جبال الالب مثل الجبل الابيض وجبل برنار وجبل السوبرجا في تورين السابق الكلام عنهُ وغير هذا من المناظر البديعة

وفي شارع فكتور عمانوئيل رواق دعي باسمهِ مبني على شكل صليب صرف عليهِ ثمانية ملايين فرنك طولهُ ٣٢٠ متراً وعرضهُ ١٦ وارتفاعهُ ٩٤ متراً وعلو قبتهِ ١٨٠ ينتابهُ خلق كثير بعضهم يجلسون في القهاوي وبعضهم يأكلون في المطاعم والبعض يشترون لوازمهم من مخازنهِ كل ذلك داخل الرواق وهو يمكن الوصول منهُ الى تياترو سكالا المعدود من اكبر مراسح ايطاليا يضم ٣٦٠٠ شخص والقارئ يعلم ان الطليانيين اهل طرب وفن فالفقير منهم لا يتخلف عن الذهاب الى ملهى لسماع الروايات او الاغاني وهم لا ينكرون الغناء اثناء مرورهم في الشوارع تراهم في ليالي الصيف يجتمعون ومعهم آلات الموسيقى فتدوي الشوارع باغانيهم وهم يعزفون ويطربون . وفي ساحة التياترو تمثال ليوناردو دي فنشي ومن هذه الساحة يبتدئ شارع مانسوني وهو من ابناء ميلان كان من اكبر الساعين في توحيد مملكة ايطاليا بقلمهِ كما سعى غاريبالدي بسيفهِ . وليس بعيداً من هنا متحف بريرا رأينا في ساحتهِ الخارجية تمثال نابوليون الاول ثم دخلنا قاعاتهِ فرأينا صوراً كثيرة من صنع رفايل وليوناردو وهي تعد في الطبقة الاولى واكثرها دينية بينها صورة مار مرقص يبشر في الاسكندرية وصورة موسى وقد وجد طفلاً على ضفة النيل وخروج بني اسرائيل من مصر وخمسون الف قطعة من النقود القديمة والجديدة من الذهب والفضة . ومما يذكر بين مشاهد ميلان مدفنها المشهور مساحة ارضهِ مايتا الف متر وهو يحيط بهِ سور لهُ اعمدة وابواب بنيت بادق صناعة فاذا دخلت المدفن رأيت تماثيل الرخام الابيض قائمة على تلك القبور وهي اشكال كثيرة العدد والاتقان فيها رموز واشارات الى المتوفين فاذا كان المتوفى طفلاً صوّر ووالدتهُ تنوح عليهِ او شاباً فهناك عمود من الرخام قصف قصفاً وغير هذا من ادلة الاعتناء وقد خططت شوارع منظمة فيها الاشجار والزهور

والرياحين و برك الماء فما هذا المكان الاّ من المتنزهات الموصوفة وليس هو مجموع قبور يأنف من رؤيتها او سمع حديثها السامعون

ومن ضواحي ميلان بلدة مونتزا وهي على مسافة ساعة بالسكة الحديدية واقعة في اخصب بقعةٍ من بقاع الارض في جهة يقل لها النظير بين الجهات المعروفة بجمالها واعتدال هوائها ولهذا اتخذها والد الملك الحالي مصيفاً لهُ وقد زارهُ في قصرها رصفاؤُهُ الملوك والقياصرة في السنوات الاخيرة ودبرت هنالك المهام الخطيرة والبلدة كلها غياض غضيضة ورياض غناء ملئت بشهي الشجر ولذيذ الفاكهة وفيها من شجر التوت وجداول الماء العذب وبهي الحدائق ما لا تشبع العين من التمتع بحسنهِ المنعش وقد غرست اشجار الصفصاف والحور في طرقها وجهاتها على طرق هندسية وهم يعتنون باغراس العنب و كرومهِ لانك ترى عروق العنب واثمارها ممتدة ومدلاة من شجرة الى شجرة على نسق يروق للناظرين . وقد كان لوجود قصر الملك هنا تأثير كبير فان سراة ميلان بنوا لهم قصوراً ومنازل فخيمة وبعضهم يقضون فصل الصيف في بحيرة كومو يبلغ طولها ٣٠ ميلاً وتتصل بها بحيرة أُخرى تدعى لوكو بنيت على ضفافها القصور والمنازل والفنادق يؤُمها سراة الميلانيين وغيرهم وهذه البحيرات تضاهي بحيرات لوسرن وجنيف في سويسرا وتمخر فيها البواخرات ما بين المدن القائمة عَلَى ضفافها و يتخللها غابات واشجار الكستناء والصنوبر فهي من جنات الارض المعدودة والذي يقضي زمن الصيف في هذه الجهة من ايطاليا فانهُ ينشرح صدرهُ من المناظر الطبيعية على اشكالها لا سيما وان الفنادق فيها متقنة ورخيصة الاثمان . وقد عدت من مونتزا بعد ان متعت النظر بآيات جمالها ورجعت الى ميلان ثم برحت هذه المدينة قاصداً مدينة فنسيا

فنسيا

هي البندقية المشهورة التي تفرَّدت بعجيب موقعها وغريب وضعها حتى اطلق عليها الكتاب اسم سلطانة الادرياتيك وضربت بمحاسنها الامثال وتعشق طلاب الادب ذكرها وزيارتها من قدم فنظموا عقود الشعر الرنان في مدحها ووصف غرائبها واشتهر اللورد بيرون الانكليزي وغيرهُ بما نشروهُ من نفثات يراعهم عنها ولا عجب فانها المدينة العجيبة التي بنيت فوق الماء بدل الارض والتي تقوم فيها الزوارق والقوارب مقام العربات والخيل وتحل الترع محل الشوارع والبرك محل الميادين والرحبات فكل ما فيها خاص بها يميزها عن سواها . بنيت علَى ١١٧ جزيرة تتكون منها احياء المدينة وتفصلها بعضها عن بعض ١٥٠ ترعة هي الشوارع العمومية بنوا فوقها ٣٧٨ قنطرة فسهل المرور من جانب الى جانب واكثر هذه القناطر جميل المنظر واما الاحياء او الجزر المتباعدة فلا بدَّ للوصول اليها من ركوب هاتيك الزوارق المستدقة المعروفة عندهم باسم جوندولا وهم يتقنون عملها ويديرها رجل واحد او رجلان يقعد احدهما في مقدمة القارب والآخر في المؤخرة وترى هذه الزوارق أينما سرت تنقل الناس في ترع البندقية وهي تلتني وتتعرج بين الجدران والمنازل وتحت الفنادق والمخازن او تنساب انسياب الافعى فوق الماء المترقرق واذا تقابل منها عدة تخللت بعضها بعضاً وانسلت هذه من هنا وهذه من هنا بلا صدام ولا قرقعة فيحلو السير فيها لجماعة المتفرجين

ولقد اتيت هذا البلد مراراً براً وبحراً ومررت هذه المرة على بلدة دزنسو وهي قريبة من سلفرينو التي حدثت فيها المعركة المشهورة بين جنود ايطاليا وجنود فرانسا من جهة وجنود النمسا من جهة أُخرى سنة ١٨٥٩ وقد تقدم ذكرها وكان من

نتيجة انكسار النمسويين فيها ان دولتهم تنازلت عن اقليم البندقية لايطاليا · ومازال القطار من هنالك يجتاز الابعاد ويخترق المزارع والعمائر مدة عشر ساعات حتى دخلنا محطة البندقية وسرنا منها في زورق الى باب الفندق

واهم ما يذكر عن ڤنسيا ساحة القديس مرقس يبلغ طولها ١٧٥ متراً وعرضها ٨٢ وهي مثابة الهيئة الاجتماعية ينتابها خلق كثير في اواخر النهار ويكثر الازدحام في الليل حتى يتعذَّر المسير مع اتساع تلك الساحة وهم يخطرون في جنباتها لسمع ما تصدح بهِ الموسيقى من الانغام الطليانية الحماسية. ويحيط بهذه الساحة من ثلاث جهات اروقة بني تحتها حانات ومطاعم ومخازن تباع فيها الحلى والجواهر وكثير من مصنوعات ڤنسيا الزجاجية الملونة وهذه حرفة قديمة العهد حفظ سرها للآن وفوقها منازل كانت لنواب البلاد وهم اصحاب المراكز الاولى في حكم البندقية ولكن قسماً منها آل بالارث الى اربابهِ وقسماً خص بالملك يقيم فيهِ حين يأتي هذه المدينة · وفي الساحة المذكورة برج قديم بني سنة ١٣٢٩ لاجراس الكنيسة صعدنا الى اعلاهُ على طريق مبلط لا درج لهُ وهو في عرض مترين يدخل النور اليهِ من نوافذ وكوى صغيرة ولما بلغنا القمة رأينا الجزر عشرات ولمنظرها تأثير في النفس · قيل ان نابوليون الاول صعد اعلى هذا البرج ممتطياً جوادهُ · وفي طرف الساحة برج قديم لساعة فلكية ومع انها تخربت فما زال فيها امر غريب فانهُ يظهر من خلف البناء عبد بيدهِ مطرقة يضرب بها المواقيت وفي الساحة اسراب الحمام يقال انهم كانوا في ايام جمهورية البندقية يطلقونها من الكنيسة للساحة في احد الشعانين ابتهاجاً وفرحاً وكان لها مرتبات وهي الى الآن تأوي هذه الرواقات فاذا دقت الساعة موعد الظهر اجتمع الحمام لالتقاط الحبوب التي تنثر لهُ في الساحة المذكورة

وفي آخر الساحة من الشرق كنيسة مار مرقس قيل ان عظام هذا القديس نقلت من الاسكندرية ودفنت فيها سنة ٨٢٨ وهي مبنية على شكل الكنائس الشرقية (البيزانتية) لها هيكل في داخلها بني في الشرق وهي من اقدم الكنائس انشئت في القرن التاسع وأُدخل فيها نحو خمساية عمود ما بين كبير وصغير وكلها من الرخام الشرقي فيها من اشغال الفسيفساء مثل ما في كنيسة آيا صوفيا في الاستانة وتقدر مساحتها بخمسة واربعين الف قدم وفيها من الاواني الذهبية كالصلبان والمراوح والمباخر القديمة شيء كثير يعد كنوزاً يباهون باظهارها للطالبين.ويوصل من هذه الكنيسة الى دار الدوجات وهي قديمة العهد انشئت في القرن الثامن ومن غرائب بنائها انها قائمة على ١٠٧ اعمدة منها ٣٦ عموداً صفت الواحد بعد الآخر في الدور الاول وفوقها هذا العدد في الدور الثاني وذلك في طول واجهة القصر على مسافة ٨٢ متراً وهم كلما تهدم منها شيء اعادوهُ الى مثل حالتهِ الاصلية فدخلنا في قاعاتها الواحدة بعد الثانية وهي كثيرة العدد والزخارف اهمها القاعة التي كان الامراء او الدوجات يقابلون فيها سفراءهم ومندوبي الاجانب وقد نقش عَلَى جدرانها وسقفها صور زيتية دينية تمثل حوادث الانجيل والتوراة حتى انك لتفهم منها ولادة المسيح وحياتهُ وصلبهُ وارتفاعهُ او قصة يوسف مع اخوتهِ وابراهيم وولدهُ وفيها ايضاً صور تاريخية تمثل حياة الدوجات في كل ادوارهم وقس على ذلك

واحسن أشكال النزهة في هذا البلد ان يدخل المرء زورقاً من الزوارق المبنية على الطرز الحربي القديم فانها مستدقة طويلة ورأسها ومؤخرها مرتفعان يسمونها جوندولا ولها مقاعد في الوسط مغطاة لوقاية الجالسين من الشمس والمطر وهي تمخر في الترعة العمومية فيرى المرء على الجانبين منازل وقصوراً بنى بعضها

الدوجات و بعضها بناهُ نواب المملكة وقد فطن لها جماعة من الامريكان الموسرين فاشتروا بعضها واعتزلوا فيها الاشغال حتى ان السر هنري لايارد السياسي والاثري الانكليزي المشهور اشترى قصراً منها لم يزل لورثائهِ . ومن المتنزهات المعدودة في زمن الصيف انهُ يجتمع مئات من هذه الجوندولات او الزوارق في هذه الترعة ويحتشد الناس فيها ازواجاً وافراداً معهم آلات الطرب اخصها النوع المعروف بالماندولين (القيثار) يغنون ويطربون ويأْتي بعض الناس لهذه الغاية من البلاد المجاورة في الليالي المقمرة ونظراً الى كثرة الجزر المتباعدة فهم عندهم بواخر صغيرة تمخر كل نصف ساعة بين البلد وهذه الجزر منها جزيرة ليدو وهي جيدة التربة فيها حدائق غناء واشجار غرست صفوفاً عَلَى شاطيء البحر وهناك حانات وملاهٍ صيفية وتراموای توصل الى الحمامات البحرية يجتمع فيها خلق كثير . فزيارة هذه الجزيرة يعدها الغريب من اجمل النزهات لانهُ يتأمل منها حسن موقع ڤنسيا خصوصاً من جهة البحر . ويقال مثل هذا عن جزيرة ثانية تسمى موارنو فيها قسم كبير من معامل الزجاج الملون وهم يعملون منهُ المرائي المعروفة ويحيطونها ببراويز من البلور ملونة بالوان مختلفة . وقد وقفنا امام الصناع وهم يفعلون ذلك ويظهرون الزجاج كالخيط او كالشعر في طول متر واكثر . ويصنعون من خيوط هذا الزجاج ادوات ومنسوجات كأَنها صنعت من القطن وازراراً للقمصان او دبابيس للبرانيط كل ذلك وانت واقف امامهم تتفرج . هذا اهم ما يمكن ان يذكر عن ڤنسيا ولتاريخها لذة وفائدة ما بعدهما لذة كما يعلم القارئون . وقد برحتها قاصداً مدينة فلورانس والمسافة بينهما ثماني ساعات فقام القطار يمر في ولاية توسكانا المشهورة ووقف في عاصمتها بولونيا الواقعة في اهم مركز حربي فلهذا وضعوا فيها لواءً من الجيش يقيم في حصونها وهي مبنية في منبسط من الارض عند اسفل

جبال الالب ويلتقي فيها عدة انهر وهي أيضاً مركز اسقفية ومع ان سكانها لا يزيدون عن ماية وثمانين الفاً فان فيها ١٣٠ كنيسة وهذه حالة اكثر مدن ايطاليا او كلها في كثرة الكنائس

فلورانس

لم تكن هذه المدينة شيئاً يذكر قبل ان قام فيها رجل يدعى جيوڤاني دي ميديسي موسس الدولة التي حكمت هذه البلاد واشتهرت في اوروبا وخلفهُ ابنهُ كوزيمو سنة ١٤٣٤ الذي ادخل اصلاحات شتى حتى ان الاهالي لقبوهُ بابي الوطن ثم خلفهُ ابنهُ بيترو سنة ١٤٦٤ وتلاهُ سنة ١٤٩٦ لورنسو الذي لقب بالعظيم لانهُ وجه الفكر الى انشاء المدارس وتعليم الفنون اللطيفة واهمها فن التصوير حتى صارت فلورانس على عهدهِ المستودع العام لبيع الصور ولها الفضل الاكبر على متاحف اوروبا كما ان لمدارسها الفضل على اللغة الطليانية لانها اصلحت قواعد نطقها وكتابتها وما زال الفلورانسيون حتى يومنا هذا يحسنون التكلم باللغة الطليانية اكثر من بقية اهل ايطاليا

اما فلورانس الحالية فاسمها عند الطليان (فلورانس الجميلة) يشطرها نهر ارنو الصغير ويرى المتجول فيها جبال الالب العظيمة عن بعد تتقدمها تلال بهية على مقربة من المدينة وهي الضواحي التي اشتهرت عنها فيها قصور عظيمة للموسرين من الاهالي والاجانب ولا سيما الانكليز فانهم يستوطنون هذه الضواحي بعد اعتزال الاشغال حتى ان الملكة فيكتوريا قضت زمناً في احد هذه القصور . وقد مهدوا في هذه التلال شوارع معوجة متعرجة طولها اربعة اميال وعرضها ستون متراً يرى

المتجول فيها بالعربة مناظر بديعة تتنوع في كل اوان من صفوف الاشجار واشكال الحدائق فيرى المدينة من دونهِ وهو سائر في هذه التلول . والمتنزه الآخر في طرف البلد يدعى كاشيني طولهُ بضعة كيلو مترات وصفوف الشجر الى جانبيهِ والماءُ يتدفق من بركهِ الكثيرة ومنظر حدائقهِ الصغرى بديع والموسيقى تصدح فيهِ كل يوم فهو من اعظم متنزهات اوروبا عامةً ويظنهُ بعضهم معادلاً للشان اليزيه في باريز. وقد اكثرت في سياحتي هذه من ذكر المتاحف والآثار القديمة وما يقرب منها حتى خشيت ان يملَّ القارئُ فلهذا اضرب هنا صفحاً عن بعضها واقتصر على ذكر ميدان واحد يعرف بميدان السنيورة اي السيدة فيهِ تمثال كوزيمو الاول من عائلة ميديسي وقصرهُ القديم بني في القرن الثاني عشر ترى على جدرانهِ شعار الاحزاب القديمة من حزب جلفه شعارهُ النسر وحزب ميديسي شعارهُ البندقية . وقد قام من حزب جلفه امراء وملوك عظام لهم شهرة في التاريخ واهم فروعهم ملوك هانوفر الذين صاروا بعدئذٍ ملوك انكلترا والملكة فيكتوريا آخر الملكات من هذا البيت . واما آل ميديسي فذكرهم اشهر من نار على علم لانهم اختلطوا باكثر العائلات المالكة في اوروبا وقام منهم سيدات حكمنَ مملكة فرانسا زماناً في القرون الوسطى وعرفنَ بالذكاء والاقتدار . وعلى مقربة من هذا القصر رواق قديم قائم على عمد من الرخام كانوا في القرن الثالث عشر يقيمون فيهِ الاحتفالات لرئيس الجمهورية وزوجتهُ فتركنا هذا المكان وذهبنا الى متحف اوفيسي الذي اسس في القرن الخامس عشر على ضفة النهر للصور الزيتية جمعوها قرناً بعد قرن مدة خمسة قرون فلما ضاق بها هذا الموضع بني دهليز طويل من هذا المكان الى الضفة الاخرى سرنا بهِ حتى اذا وصلنا الى الجانب الآخر ذهبنا الى قصر بيتي وقد سمي باسم امير اشتهر بمقاومة آل ميديسي في القرن الرابع عشر ولكنهم فازوا عليهِ واستولوا على هذا القصر واقاموا

فيهِ وهو الآن ملك حكومة ايطاليا يقيم فيهِ الملك الحالي حين يزور هذا البلد فدخلناهُ من باب كبير وصعدنا الى الدور الاعلى اثم ما فيهِ القاعات وفيها خمسماية صورة زيتية ويتبع هذا القصر حديقة بو بولي سميت باسم امير من آل ميديسي وانشئت في القرن الخامس عشر فوق مرتفعات تشرف على البلد . ولما عدنا في الغد الى ميدان المداما ومشينا في شارع كالسايولي رأينا بعض السياح يسيرون حثيثاً وعلمنا من الترجمان الذي كان معنا بانهم يقصدون المنزل الذي ولد فيهِ دانته الشاعر الايطالي المشهور فسرنا معهم لزيارته ورأينا على باب البيت لوح رخام كتب عليهِ (ان الشاعر دانته ولد في هذا البيت) وليس يؤجر البيت ولكنهُ يدخلهُ السائحون بدفع فرنك فيجمع صاحبهُ من هذا الرسم مالاً وفيراً وفي غرف المنزل كتب قديمة استعملها ذلك الشاعر المجيد . ثم سرنا الى متحف الآثار المصرية تجد بينها تمثال الآلهة هاتور ترضع الملك الطفل هور مهب وجد في الاقصر بالصعيد . وما زلت اتردد على متنزهات فلورانس حتى جاء موعد السفر فبرحتها وقمت الى روميه والمسافة بينهما ثمان ساعات في سكة الحديد

روميه

هي عاصمة الرومان و كرسي مملكتهم من قدم مرّت عليها اعوام كانت فيها سيدة الممالك وحاكمة العالم المتمدن وقام فيها اقيال الرومان العظام وقوادهم وفلاسفتهم وقياصرتهم واجتمع فيها كبراء كل الممالك المعروفة في الزمان القديم بعضهم اسرى وبعضهم تجار او طلاب علم فما سادت مدينة وشادت كما سادت مدينة روميه هذه في ايام صولتها . وتاريخها القديم من ألذ فصول التاريخ وا كثرها فائدة للعالمين لم

نتعرض لذكره لاننا لم نجمل غير تاريخ الممالك الحديثة في هذا الكتاب ولكننا نذكر القارئ هنا ان روميه بنيت سنة ٧٥٣ قبل التاريخ المسيحي وكان بانيها روملوس قيصرها الاول وظلت هي سيدة المدائن الايطالية وقاعدتها الى سنة ٨٠٠ بعد المسيح حين توّج شارلمان امبراطوراً للغرب على مثل ما ورد في تاريخ فرانسا وصارت المدينة من ذلك العهد مقرًّا لبابوات الكنيسة الكاثوليكية ومازالت حتى الساعة مركز الملك والرئاسة الدينية معاً . وكانت روميه القديمة محاطة بسور عظيم لا يقل طولهُ عن ١٢ ميلاً ولهُ ٣٧ باباً يخرج منهُ الجنود ويدخلون واشتهرت من قدم برحباتها الفسيحة وشوارعها الكبرى التي كان القواد العظام يعرضون فيها على الرومانيين غنائمهم ودلائل انتصارهم في الحروب فكم من ملك وامير قادهُ الرومان في تلك الشوارع اسيراً ذليلاً وكم من كنز ثمين وملك عظيم غنمهُ اهل روميه وتاهوا بهِ فخراً ودلالاً في تلك العصور حين كانت هذه المدينة سيدة الارض واهلها لا يقلون عن مليونين وخمسمائة الف يعدون امراء الزمان وحكام الممالك وموالي الامم في مشارق الارض ومغاربها واصحاب العز العظيم

وقد بنيت روميه الحديثة موضع المدينة القديمة على تلال عشرة فهي كثيرة المرتفعات والمنخفضات في اسواقها وشوارعها وهي لا تبعد عن البحر غير ١٣ ميلاً ولكن ميناها شيفيتا فيكيا ليست بذات اهمية لان العاصمة قريبة من مدينة نابولي ولها ارتباط بداخلية البلاد من كل جانب بواسطة سكك الحديد وعدد سكانها الآن نصف مليون

ولا حاجة الى القول ان أشهر ما في روميه قداسة البابا ومقرهُ وجلالة الملك ومركزهُ فاما البابا فمقرهُ في الفاتيكان وهو حيٌّ من احياء المدينة قائم بنفسهِ فيهِ القصور والكنائس والحدائق والمنازل صار مقر البابوات من بعد رجوعهم من

اڤنيون في فرنسا في القرن الخامس عشر وكان البابوات يزيد الواحد منهم بعد
الآخر في قصور هذه الجهة ومحاسنها حتى بلغ عدد الغرف في هذه الدائرة العظيمة
عشرة آلاف غرفة . وقد اتاح لنا الحظ زيارة الڤاتيكان ورأينا على الباب حرساً
سويسرياً مازال افرادهُ ينتقون من اهل سويسرا ويلبسون الملابس المزوقة بالالوان
الباهرة على مثل ما كان الحرس يلبس في الايام القديمة . ودخلنا القصر فرأينا
قاعات رفائيل المصور العظيم حيث كان يشتغل بالهندسة والرسم مع تلاميذهِ
واطلنا النظر في هاتيك الصور البديعة التي تشغل جوانب كثيرة من القصر ولها
قدر في العيون وقيمة لان مصورها أبرع من اشتهر بهذا الفن اللطيف الى الآن
واكثرها صور دينية كما تعلم . والذي يزور متحف الڤاتيكان يلزم لهُ ايام واسابيع
حتى يرى نفائسهُ ويدرك مقدار قيمتهِ فقد رأيت هنالك من النقوش والتماثيل
وقبور القياصرة والآثار العظيمة المختلفة الاشكال ما يعجز القلم عن وصفهِ اذكر منها
تمثال اوغسطس قيصر وجد سنة ١٨٦٣ وتمثال النيل من الرخام وهو عبارة عن
بلاطة جميلة حفر عليها ١٦ صبياً دلالة الى اذرع النيل في زمن فيضانهِ وغير هذا
من الآثار شيءٌ كثير . ولا يخفى ان الڤاتيكان مركز العالم الكاثوليكي وان الزوار
يأتون هذه المدينة من كل الاقطار ليروا آثارها وكنائسها وليحظوا برؤية قداسة
البابا اذا امكن وهم يرونهُ حين يحضر للصلاة مراراً معلومة في السنة ويمكن لوجهاء
الناس ان يقابلوهُ مقابلة خصوصية بعد المخابرة والاستئذان ولكن يشترط على
المرأة ان تغطي رأسها برداء اسود ولا تلبس في يديها الكفوف (القفاز)

ولما كان هذا مركز روميه في العالم الكاثوليكي صار لكنائسها شهرة عظيمة
وقيمة كبرى واشهر هذه الكنائس بل هي اشهر كنائس الارض طرًّا واوفرها قيمة
واكثرها تحفاً وآثاراً نفيسة كنيسة مار بطرس الكبرى المعروفة بنيت سنة ١٥٠٦

وما انتهى العمل منها الّا بعد ماية عام من ذلك التاريخ واشتغل في الرسم والنقش لها رفائيل وانجلو اللذين ذكرناهما قبل وقد سميت باسم القديس بطرس لانهُ دفن في هذا الموضع وبنى الاقدمون كنيسة صغيرة من الخشب فوق قبرهِ ثم شيدت هذه الكنيسة العظيمة موضع الاولى وطولها ١٨٧ متراً والعرض ١٣٧ ومحيط قبتها ٤٢ متراً وهي مشهورة بهذه القبة المرتفعة. وقد احيطت القبة باربعماية تمثال من الحجر طول الواحد منها ٢٥ قدماً وهي يراها الناس من صحن الكنيسة واذا وقف المرء حول سياجها رأى الناس في ارض الكنيسة صغاراً نظراً الى علوهِ الكثير. وقد وضعوا في صحن هذه الكنيسة قياساً يعلم منهُ اتساع الكنائس الكبرى في الارض وهاك بيانها

متر	
١١٠	طول كنيسة آيا صوفيا في الاستانة
١٢٨	« « مار بولس في رومية (خارج السور)
١٣٦	« « ميلان
١٥٩	« « مار بولس في لندن
١٨٧	« « مار بطرس الكبرى

هذا في الاتساع واما في العلو فبعض الكنائس تزيد عن هذه الكنيسة العظيمة واشهرها كنيسة كولون في المانيا وكنيسة روين في فرانسا وكنيسة ستراسبورغ في الالزاس. وقد قامت هذه الكنيسة على عمد وركائز عظيمة الضخم وفيها تمثال القديس بطرس الرسول جالساً الى قاعدةٍ من الرخام في يدهِ اليسرى مفاتيح السماء وهو رافع يدهُ اليمنى يبارك بها على الطريقة الشرقية. وقد تقدم القول ان الرسول بطرس دفن في ارض هذه الكنيسة وهنالك دفن كثار غيره من

الباباوات والكاردينالية وخرستينا ملكة السويد دفنت سنة ١٦١٩ بعد اعتناقها المذهب الكاثوليكي . فالمرء حال دخوله هذه الكنيسة يشعر بمهابة ووقار ولكن الفائدة لا تتم للمرء الّا اذا اكثر من التردد فانهُ في كل مرة يرى ما لم يرهُ من قبل لان هذه الكنيسة وغيرها من الكنائس الشهيرة بنيت يوم كان الدين اهم شأناً منهُ في العصر الحالي وليس في الامكان الآن جمع الملايين للقيام ببناء كنائس كالموجودة في رومية وغيرها فضلاً عن كثرة عددها في كل مدن اوروبا وخصوصاً في ايطاليا وروسيا . وامام هذه الكنيسة فسحة قائم في وسطها تمثال بطرس وبولس ومسلة مصرية من الصوان الاحمر باعلاها صليب وبجانبها رواق اهليلجي لهُ اربعة صفوف من الاعمدة يبلغ عددها نحو ثلاثماية تخرقها دروب وفي اعلاها تماثيل كثيرة للقديسين

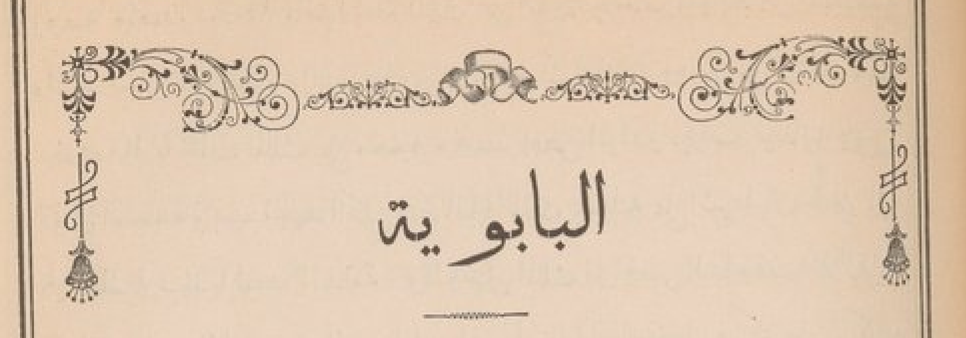
ومن هذا القبيل كنيسة يوحنا ده لاتران بنيت على احد التلال وهناك مسلة نقلها قسطنطين الكبير من هليوبوليس اي مدينة الشمس عند مصر الى الاسكندرية ثم نقلها ابنهُ قسطنطينوس الى رومية وقد لا يخلو تل او ميدان في رومية من مسلة مصرية نقلها قياصرة الرومان . وكنيسة ماري ماجيور فيها من الاواني الذهبية ما يبهر البصر . واشهر منها كنيسة مار بولس خارج السور فانها من بدائع الزمان قائمة على ٨٥ من الاعمدة الضخمة الصوَّانية الورديَّة اللون وتيجانها من الرخام الابيض ينشرح الصدر من رؤيتها ولها خمسة اروقة منها الرواق القائم على هذه العمد باعلاهُ صور جميع الباباوات بهيئتهم الطبيعية صفّت صفوفاً وزخرفت بالفسيفساء وفيها عشر نوافذ كبيرة من الزجاج الملون عليها رسوم القديسين والملائكة وهي على ما يقال اجمل من كنيسة مار بطرس وليس فيها مقاعد او كراسي مثل بقية كنائس رومية بل هم يقفون فيها او يركعون لسماع الصلاة

قلنا ان رومية خالية من المتنزهات والميادين والشوارع العظيمة مثل التي في العواصم الكبرى ولكن فيها متنزه البنشيو وميدان الكيرينال على احد التلال بهِ قصر الكيرينال المشهور كان مسكناً للباباوات فاهتمَّ كل منهم بزخرفتهِ وعلى نوعٍ اخص قداسة البابا بيوس التاسع فانهُ انفق عليهِ المبالغ الطائلة والقصر الآن مسكن ملك ايطاليا منذ سنة ١٨٦٠. ويتصل بميدان الكيرينال هذا شارع فكتور عمانوئيل في قلب البلد فيهِ الفنادق والحوانيت وفيهِ عمود الامبراطور تراجان من قياصرة الرومان العظام علوهُ ٤٣ متراً وفي اعلاهُ تمثال هذا القيصر تذكاراً لانتصاره عَلَى الداكين وقد دفن تحت العمود المذكور ولكن البابا سكستوس الخامس وضع مكانهُ تمثال القديس بطرس. والعمود المذكور أثر جليل حفظ عَلَى حالتهِ هذه من ايام الرومانيين وهو من الرخام لبّس بالبرونز وحفر عليهِ من اسفله الى اعلاهُ ٢٥٠٠ رسم تمثل الرجال والسلاح القديم والخيل والوقائع الحربية وفي جوف هذا العمود سلم لولبي لهُ ١٨٢ درجة يدخل لها النور من ٤٣ نافذة نقبت في جوانبهِ

ومشاهد روميه كثيرة لا اقدر عَلَى عدها كلها هنا منها الحمامات التي بناها قياصرة الرومان مثل نيرون وتيطس وكاركلاً في الحمام الواحد منها كثير من المغاطس والاجران والبرك فيها مياه سخنة وباردة وبخارية وكلها من الرخام الطلياني النقي يسع الواحد منها ٢٥٠٠ مستحم في وقت واحد : وهناك بنيت القاعات للتكييس والتعطير وانشئت الحدائق والالعاب الرياضية . وفي روميه ايضاً آثار الملاعب الاولى بنيت على شكل مستدير (امفتياتر) وضعت فيها المقاعد بعضها فوق بعض صفوفاً متوالية منها ملعب مارشلّس كان يضم ٤٠٠٠٠ وملعب سكاروس ٨٠٠٠٠ وكان الرومانيون القدماء يطلقون الوحوش في هذه الاماكن ويتفرجون من مقاعدهم عَلَى قتالها او مصارعة الرجال لها وكثيراً ما كانوا يلقون

الذين اعتنقوا الديانة المسيحية للوحوش في هذا الموضع فتفترسهم وتقطع اجسامهم والمتفرجون يسرون لعذابهم ولا يتأَثرون . وما زال في العاصمة آثار الفوروم وهو البارلمان الروماني وقصور القياصرة وهياكل للمعبودات مثل جوبيتر والزهرة والمشتري وهم كلما وجدوا اثراً ينقلونهُ الى المتحف. دخلناهُ فرأينا فيهِ قبور القياصرة من الرخام عليها نقوش بارزة تشير الى وقائعهم الحربية وتاريخ حياتهم في الحروب. ويرى في اطراف المدينة بقايا اقواس النصر التي اقامها القياصرة وقس على ذلك من آثار عظمة رومية الاولى وبقايا اصحابها السابقين





البابوية

لا حاجة الى القول ان البابا كان اعظم اصحاب السلطة الزمنية في الزمان السابق وكان الكهنة والاساقفة بمثابة حكام للشعوب وقضاة . ولما كان الاساقفة تابعين في أحكامهم لروميه كان استئناف احكامهم يرفع الى قداسة البابا ولا مرد لحكمهِ وعليهِ اصبح الملوك والامراء كالشرطة ينفذون أحكامهُ ويأتمرون باوامرهِ اذكر من ذلك ان شارلمان ملك فرانسا ومؤسس مملكة جرمانيا الذي ظهر في اواخر القرن الثامن كان نصيراً لكرسي روميه طمعاً بمساعدة البابا له حتى يصير امبراطوراً فنصبهُ البابا لاون الثالث وألبسهُ تاج المانيا وسماهُ امبراطوراً . وعرف شارلمان للبابا ذلك الفضل فوسع اختصاصات الاكليروس ووهبهم المال والعقار وفوَّض اليهم كثيراً من امور الحكومة ولكن هذا الحال لم يدم فانهُ لما تولى هنري الرابع مملكة جرمانيا اراد ان يزيل السلطة الزمنية من يد البابا فاستحال عليهِ الامر لان البابا يومئذٍ كان غريغوريوس السابع وهو من اشهر بابوات روميه واعظمهم دهاءً وعقلاً وسياسة فلما ثار السكسونيون على ملكهم اغتنم البابا هذه الفرصة وطلب الى الملك هنري ان يحضر الى روميه لاستجوابهِ عن كيفية معاملتهِ لرعاياهُ . فاعتبر الملك هنري ذلك الطلب خارجاً عن حقوق البابوية ورفض المجيء ثم استصدر حكماً بخلع البابا غريغوريوس السابع فلما سمع البابا بذلك الحكم جمع اساقفة

روميه واصدر حكماً قاضياً بخلع الملك عن مملكة جرمانيا وحرمهِ من الكنيسة واشتد الحال بين الملك والبابا فالبعض من ملوك اوروبا وقسم من رعايا الملك عضدوا البابا نخاف الملك على منصبهِ ووسط بعض امراء واميرات ايطاليا من ذوي الوجاهة وبعد الجهد الكلي اذن البابا للملك بمقابلتهِ على شرط ان يأتي اليهِ بلا حاشية مرتدياً ثوب الندامة . ولما وصل الملك الى قصر البابا وقف ثلاثة ايام متوالية خارج الباب وفي اليوم الرابع اذن لهُ البابا بالدخول فركع على ركبتيهِ وطلب منهُ السماح والتوبة

دامت سلطة البابوات قروناً وكان لهم ما للملوك من الجيوش الجرارة والقواد العظام حتى نهضت ايطاليا كما سبق في الخلاصة التاريخية ودخل ملكها فيكتور عمانوئيل الثاني مدينة روميه عنوة في سنة ١٨٦٠ واحتل قصر الكيرينال ولكنهُ قلق بعد دخولهِ الى روميه وشعر بحرج مركزهِ لدى العالم الكاثوليكي فعرض وزيرهُ الكونت كافور الذي كان لهُ اليد الطولى في توحيد ايطاليا (كالبرنس بسمارك في توحيد المانيا) على قداسة البابا ان يتنازل عن املاكه فتضمن لهُ ايطاليا الاستقلال التام في اعمالهِ الدينية وان الكنيسة تكون حرة في بلاد حرة ويعطى لهُ حي الفاتيكان وما فيهِ من القصور والمتاحف ويعامل للبابا حيثما سار في ايطاليا بنفس الاحترام الذي يؤدى للملك ولهُ التقدم على الملك في الحفلات الرسمية . وكان حين ذاك على الكرسي البابوية بيوس التاسع فرفض جميع ما عرض عليهِ ولذلك صدر قرار من حكومة ايطاليا بتجريده من املاكه وتخصيص مبلغ ١٥٠ الف جنيه سنوياً لهُ ولكن البابا رفض ذلك رفضاً باتاً وهذا المبلغ متكوم في خزينة ايطاليا على ذمة البابوات منذ صدور القرار المذكور .وعلة البابا في عدم قبولهِ ان القبول يعد ذلك اعترافاً منهُ بملك ايطاليا وهو لا يريد ان يعترف بهِ هذا غيرانهُ

ليس بذي حاجة للمال فانهُ لما بلغ البابا ليون الثالث عشر السنة الخمسين من صيرورتهِ كردينالاً سنة ١٨٩٢ وردت عليهِ هدايا من العالم الكاثوليكي لم تقل قيمتها عن مليوني جنيه ولما احتفلوا بيوبيلهِ في ٢٠ فبراير سنة ١٩٠٢ اي بمرور ٢٥ عاماً وهو على الكرسي البابوي بلغت الاموال والهدايا التي قدمت لقداستهِ مليوناً ونصف مليون . وقد رأيت ان اصف هنا كيفية الرسوم التي يجرونها عند وفاة البابا وتنصيب خلفهِ فاقول

انهُ لما ثقل المرض على البابا السابق ليو الثالث عشر في اواسط شهر يوليو سنة ١٩٠٣ وكان عمرهُ ٩٣ سنة طير التلغراف قرب اجله الى اقاصي المعمور فورد للفاتيكان ١٢٠٠٠ رسالة برقية فيها سؤال عن صحتهِ واقيمت الصلوات في كنائس روميه وغير روميه طلباً لشفائهِ. ولما بدأ البابا بالنزع اجتمع الكرادلة ودخلوا غرفة المريض وجثوا عند فراشهِ . وعند ما لبى داعي ربهِ بلغ كاتب سره الخبر رسمياً الى الكردينال الكمرلنغ (الحكمدار) وهذا سار من وقتهِ الى البلاط البابوي فجلس فيهِ كأَنهُ رب البيت واخذ في مباشرة مهنتهِ . واول عمل قام بهِ هو انه عين احد الحجاب البابويين ليصون غرفة البابا ويسجل كل ما تتضمنهُ ثم لبس لبس الحداد وهو الثوب البنفسجي البحت وسار الى حجرة الميت يتقدمهُ بعض الخواص فبعد صلاة وجيزة على وسادة بنفسجية تقدم من الميت ليثبت موتهُ فضرب جبينهُ ضرباً خفيفاً بمطرقة من فضة ثلاثاً وهو ينادية باسمهِ الاصلي قبل ان نال الاسم البابوي فلما انتهى من ذلك اعلن موتهُ حالاً قائلاً : (ان البابا قد مات) فحينئذٍ نزع حاجب البابا من اصبع الميت خاتمهُ المعروف بخاتم الصياد وسلمهُ للكردينال المذكور يريد بذلك ان سلطة الكنيسة صارت الى يده موقتاً وهذا الخاتم يمثل صورة القديس بطرس في سفينة وعليهِ اسم البابا وبهِ يختم البرآآت . وفي اول مجمع اجتمع فيهِ

الكرادلة كسر هذا الخاتم مع الخواتم الاخرى التي فيها اسم البابا المتوفي دلالةً على فروغ الكرسي البابوي ثم كتب احد الكتاب قراراً دوّن فيهِ حجة موت البابا وتسليم الخاتم الى يد حكمداره وبدأ ناقوس كنيسة مار بطرس الكبير يدق دقة الحزن واجابتهُ نواقيس روميه كلها وخرج الحكمدار ليذيع خبر وفاة البابا بالتلغراف رسمياً في الاقطار واعلن سفراء الدول في رومية بوفاة البابا ودعي للحضور الى رومية جميع الكرادلة . ثم انهم حنطوا جثة البابا وعرضوها على منصةٍ مرتفعة نصبوها في رواق الغرفة البابوية والميت مضجع بالثياب البابوية فوق فراش مغطى بحرير احمر وعلى طرفيهِ شمعدانان كبيران تسطع انوارهما . وعند مدخل الرواق حارسان واقفان و بيديهما سيفٌ مشهر طرفهُ الى الارض . ثم نقلت الجثة بكل اكرام الى كنيسة مار بطرس بموكب حافل ولبس الجسم الملابس المقدسة من بدلة ودرع الرئاسة وتاج وصليب ووضع في معبد القربان الاقدس ولهذا المعبد شعرية كبيرة فبقي علَى هذه الحالة ثلثة ايام متوالية ثم دفن الجسم دفناً موقتاً في احد جدران كنيسة القديس بطرس بحفلة مؤثرة لم يحضرها سوى الكردالة وحاشية البابا وحجابهِ ونحو ماية شخص من الاخصاء

كان البابا لاون الثالث عشر المتوفي من افاضل البابوات وهو من اسرة ايطالية عريقة في المجد ولد في الثاني من شهر مارس سنة ١٨١٠ وتوفي في التاسع عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٣ الساعة الرابعة بعد الظهر

(كيفية انتخاب البابا) كلٌ يعلم ما للبابا من النفوذ الدبني لانهُ يحكم ثلثماية الف الف من الكاثوليك ولهُ ايضاً نفوذ سياسي كبير بسبب منصبهِ السامي فالممالك الكاثوليكية تود لو يكون البابا من ابناء امتها حتى يميل الى تعضيدها ساعة اللزوم . وقد حصل عند الانتخاب الاخيران حكومة النمسا الكاثوليكية ابدت

معارضة في انتخاب الكردينال رامبولا الذي كان المظنون في العالم الكاثوليكي انتخابهُ لانهُ اقدر الكرادلة فنهض الرجل في الحال وقال اني احتج على دخول السلطات العالمية في الانتخاب ولكنني اعد نفسي سعيداً اذا اعفيت من اعباء البابوية .

وطريقة الانتخاب هي ان الكرادلة يجتمعون للتفاوض في امر الرئاسة البابوية لمجلس الكونكلاف اعني المجلس المقفل وذلك في قصر الفاتيكان حيث تعد القاعات والدور التي حولهُ لتصلح لسكن الكرادلة طول ايام اجتماعهم الى يوم انتخاب الحبر الجديد . وتجعل هذه القاعات الكبرى حُجراً صغيرة تفصل بينها حواجز خشبية يعطى فيها كل كردينال اربع حجر احداها للنوم والثانية للعمل وحجرتان لكاتب اسراره وخادمهِ وهذه الحجر تعطى بالقرعة . ويدخل مع الكرادلة في مجلسهم المقفل كاتب اسرار المجمع واصحاب التشريفات وعدد معلوم من العمال كطبيب وجراح وصيدلي ومزين وبناء ونجار يختارهم الكرادلة في الجلسات التي تعقد قبل الانتخاب بعد التثبت من اهليتهم وحسن سلوكهم وبعدهم عن الدسائس . واذا دخلوا معهم المجمع فلا يجوز لهم الخروج منهُ مطلقاً الاَّ في امر ذي بال يحكم بصوابهِ الكرادلة جميعاً وبعد اجتماع المجلس يخطب احد السادة ليحض المنتخبين على التجرد من كل الغايات الشخصية واختيار من يعرفونهُ اهلاً لرئاسة الكنيسة وفي نهاية الخطبة يتقدم احد التشريفاتية ويمسك بيدهِ الصليب البابوي ذا الشعب المثلثة ويمشي امامهُ حاشية الكرادلة الذين تعينوا لخدمتهم ويتبعهم المرنمون وهم ينشدون التسابيح فاذا بلغوا المعبد السكستي الذي يتم فيهِ الانتخاب جلس كلٌّ حسب رتبتهِ تحت المظلة المعدة لهُ . ثم تتلى على مسامعهم رسوم الاحبار الرومانيين بخصوص هذا الانتخاب وعلى أثر ذلك يقومون بالترتيب ويقسم كل منهم ويده على الانجيل

المقدس بانهُ يختار لرئاسة الكنيسة الرجل الذي يعرفهُ اجدر بهذا المنصب الجليل من سواهُ . و بعد ذلك يخرج من المعبد السكستي ومن المكان المعد لاقامة الكرادلة كل من ليس لهُ عمل في المجمع . ثم يسدُّ البناؤُون كل الابواب بجدران من الحجارة الاَّ باب السلم الملكي فانهُ يقفل باربعة اقفال منها قفلان في الخارج وقفلان في الداخل وكلها تقفل امام الشهود وبعد ان اقفل هذا الباب قام على حراستهِ نفر من الجند يتقدمهم احد اشراف رومية يدعى محافظ المجمع . وكذلك دار الكردينال الحكمدار مع ثلاثة من الكرادلة وزار كل الحجر ليتحقق انهُ ليس ثم غريبٌ وان الاحكام البابوية روعيت تماماً . وعمل بين المحجوزين والخارج اربعة منافذ او دواليب يحرسها قوم ثقات يفحصون كل ما يوضع فيها لئلاَّ ينفذ منها مكاتيب وما شاكل ذلك . وكانوا اذا طلب احد من الخارج كالسفراء وغيرهم ان يواجه احداً من الكرادلة استدعاهُ الى الدولاب وفاوضهُ بحضور الحرس . وجعلت المطابخ في داخل سكني المنتخبين وكل كردينال يأكل وحدهُ . اما الخدم والحاشية فكانوا يأكلون في مطعم عمومي

وفي اليوم الاول بعد دخول الكرادلة في مقام الانتخاب المعد لهم عند الساعة الثامنة ناداهم مدير التشريفات بدق الجرس ثلاثاً وهو يقول :

سادتي الى المعبد . فلما قرع الناقوس توارد الكرادلة يتقدم كلاًّ منهم خدمة حاملين محفظتهُ حتى اذا دخلوا المعبد تلا اسقف رومه الصلوات مبتهلاً الى الروح القدس طالباً انواره . ثم أشار مدير التشريفات الى الذين كانوا هنالك من غير الكرادلة ان يخرجوا فخرجوا وبقي الكرادلة وحدهم في المعبد واقفل المعبد من داخله ثم جلس الكرادلة على مقاعد منتظمة على شكل مربع حول الهيكل وفوق رؤُوسهم مظلات وامام كل مقعد منضدة للكتابة مغطاة بطنفسة نسج عليها شعار الكردينال

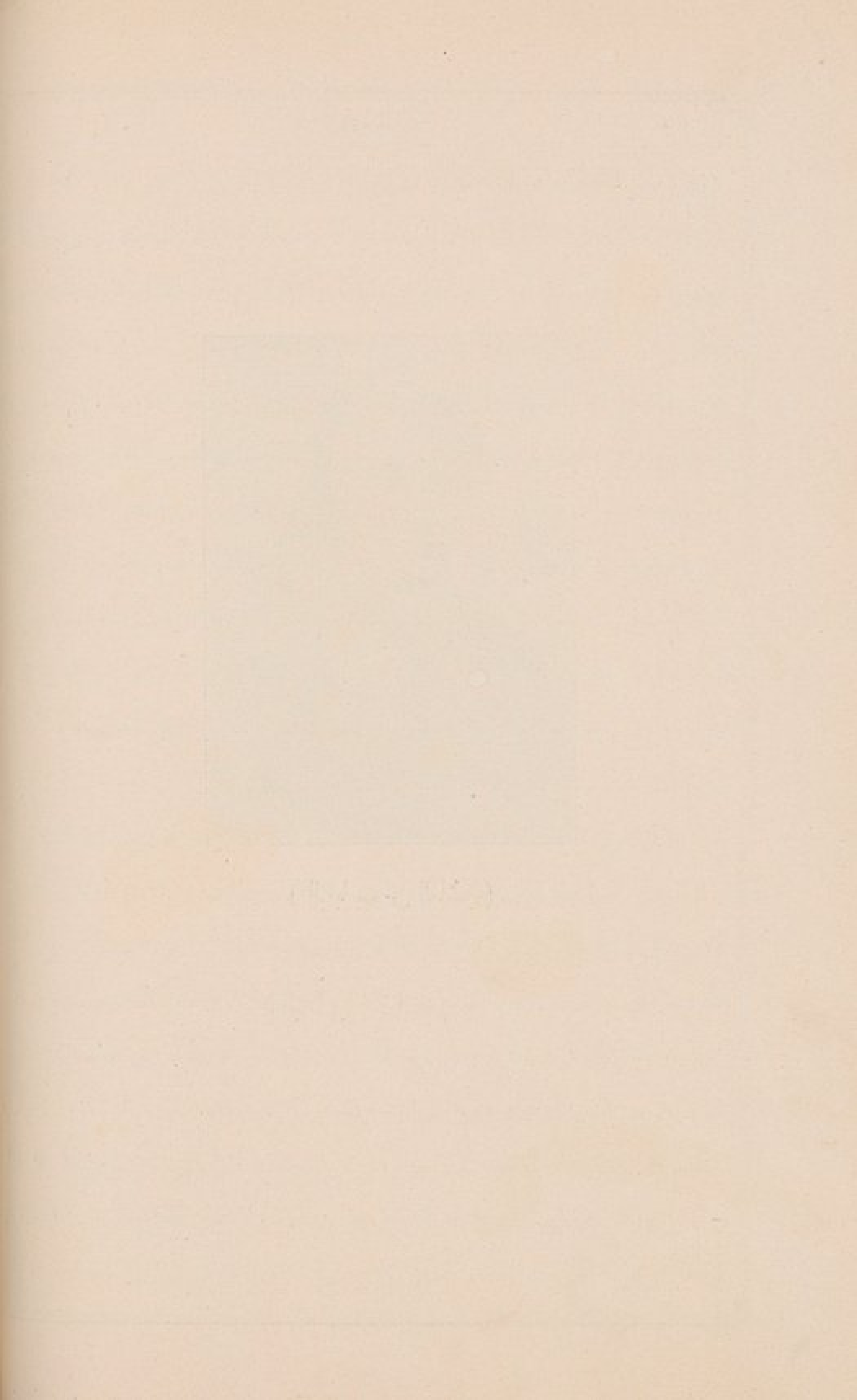
الجالس اليها . وبازاء الهيكل منضدة كبيرة عليها كأس من فضة جعلت فيهِ اوراق الانتخاب واتخذ لذلك اوراق مطبوعة كتب عليها « اني اختار الكردينال (فلان) حبراً أعظم » فلما كتبت هذه الاوراق قام كل كردينال الى الهيكل وصلى صلاة وجيزة راكعاً امام الصليب واقسم مرة ثانية بانهُ ينتخب من يراهُ أحق بالسدة البطرسية واشهد الله على نفسهِ ثم القى الورقة في الكأس وعاد الى مكانهِ بعد الانحناء امام الصليب وعدّت اوراق الانتخاب عدًّا مدققاً حتى تكون بعدد الكرادلة المنتخبين ثم راجعوها وهم يعدون الكردينال منتخباً للباباوية اذا نال ثلثي الاصوات في هذه الجمعية . وكانوا في مدة الانتخاب يحرقون تبناً في موقدة ليتصاعد دخانهُ ويعلم الشعب الواقف في ساحة القديس بطرس ان الانتخاب ما زال مستمراً فلما تمَّ الانتخاب احرقت اوراق بلا تبنٍ لنارها لهيب بلا دخان فعرف الواقفون خارجاً ان الانتخاب قد تم . وعندذلك تقدم كبير الكرادلة سناً مع مدير التشريفات والكرادلة الثلثة الموكول اليهم في ذلك اليوم ترتيب المجمع فسألوا البابا الجديد بصوتٍ جهوري « أترضى بانتخابك القانوني لرتبة عظيم الاحبار » فحالما أجاب بالقبول اعلن مدير التشريفات قبولهُ لفيف الكرادلة المجتمعين . فخادعنهُ في الحال الكردينالان الجالسان الى يمينهِ ويسارهِ اجلالاً لرتبتهِ الجليلة ونزعت كل المظلات الأ مظلتهُ اشعاراً بمقامهِ . ثم سألهُ كبير الكرادلة ثانية : وباي اسم تريد ان تدعى . فقال باسم بيوس العاشر وللحال كتب كاتب الكرسي الرسولي قراراً بذلك وسار البابا بين اثنين من الكرادلة الى الهيكل فنزع ملابس الكرادلة وتردى بالثياب الحبرية وجلس الى كرسي امام المذبح ووجههُ الى جهة الحاضرين فتقدم اليهِ كل الكرادلة وجثوا امامهُ ولثموا يديهِ فقبلهم بقبلة السلام . وفي أثر ذلك قدم الكردينال الكمدار للحبر الجديد خاتم الصياد فجعلهُ في اصبعهِ وفي هذا

اليوم اعلن انتخاب الحبر الاعظم رسمياً فاسرع البنائون الى فتح النوافذ المسدودة وفتحت الابواب فسار اقدم الكرادلة وامامهُ الصليب البابوي الى شرفة فوق كنيسة القديس بطرس تطل على الساحة الكبرى واخبر الشعب بالانتخاب قائلاً (ابشركم بفرح عظيم فان حبرنا الجديد هو الكردينال سارتو وقد دعي بيوس العاشر) والقى من الشرفة ورقة تتضمن هذه البشرى تناولتها الوف من الايدي فانتشر الخبر في روميه انتشار البرق. وللحال دقت نواقيس كنيسة القديس بطرس واجابتها نواقيس المدينة كلها وطير البرق هذا الخبر الى اقاصي الارض. وفي غد اليوم التالي جرت حفلات في غاية العظمة والابهة في قصر الفاتيكان فانهم البسوا البابا في احدى ردهاتهِ السفلى ملابسهُ الحبرية وساروا بهِ الى المعبد السكستي فبعد صلاة وجيزة ارتقى العرش البابوي فتقدم اليهِ الكرادلة ونالوا من قداستهِ البركة. وفي اليوم عينهِ عقد الحبر الاعظم مجلساً لسفراء الدول في احدى قاعات الفاتيكان حيث تقبل تهانيء الدول جميعها

وقد تولى رئاسة الكنيسة في رومية الى الآن ٢٦٣ بابا منهم ٢١٤ ايطالياً و ٢١ من الشرقيين اسيـ الاروام والمصريين والسوريين و ١٧ فرنساوياً و ٥ المانيون و ٣ اسبانيون وبورتغالي وانكليزي وهولاندي. واول من تولى رئاسة الكنيسة في رومية بطرس الرسول من سنة ٤٢ الى ٦٦ وخلفهُ القديس لينوس من سنة ٦٦ الى سنة ٧٧ وتوالى بعد ذلك الاحبار الآخرون. وفي سنة ١٣٠٥ نقل الكرسي البابوي من رومية الى افنيون من اعمال فرانسا على عهد البابا كلمان الخامس وبقي فيها لغاية تنصيب غريغوريوس الحادي عشر وفي ايامهِ اعني في سنة ١٣٧٠ اعيد الكرسي الى رومية. والبابا بيوس العاشر من اصل وضيع ولد في قرية ريز من ابطاليا في ٢ يونيو سنة ١٨٣٥ ورقي الى رتبة كردينال في سنة ١٨٩٣



(البابا بيوس العاشر)



على فنسيا (البندقية) وهو الذي اجرى بعض ترميمات في كنيسة مار مرقص الشهيرة يشكر عليها وانتخب بابا في ٤ اغسطس سنة ١٩٠٣

ولما كانت روميه في ملك البابوات كانت تطلق المدافع من القلعة وتدق الطبول وتستعرض العساكر ويعقد موكب للانتخاب بهي يسير من قصر الكيرينال (المقيم بهِ الآن ملك ايطاليا) الى بلاط الفاتيكان فتظهر البابوية بكل رونقها . وكان البابا يركب عجلة ملكية بديعة تجرها الخيل المطهمة ويتقدمهُ الكرادلة كل منهم في مركبتهِ لابسين دروع الحرير الاحمر والبردة الارجوانية المحشاة بالقاقم وكان هذا الموكب يمرُّ من شوارع روميه الغاصة بجماهير الخلق حتى يبلغ قصر الفاتيكان

نابولي

اذا عدَّت مدن الارض المعروفة بجمال الموقع وغرابة المشاهد كانت مدينة نابولي في مقدمتها بلا مراء فان الواصل اليها يذهلهُ فرط بهائها وكثرة غرائبها لانهُ يدخل في جون من البحر مقوس الشكل والعمائر البديعة مرصوصة حولهُ من طرف الى طرف على ضفة الماء وتتصل الابنية والطرق المنظمة من البحر الى هاتيك الروابي والتلال البهية الواقعة وراء المدينة وكلها تتخللها الحدائق والاغراس والرحبات والميادين وبقية أشكال الجمال الموصوف في المدن العظيمة ومن وراء الكل جبل النار (فزوفيوس) يتقد جوفهُ اتقاداً فيقذف النار من فوهتهِ ولطالما اوقع هذا البركان بعمائر الآدميين ولهُ في تاريخهم ذكر كبير فمن وقائعهِ تدمير مدينة بومبي الباقية اثارها على مقربةٍ من نابولي وهي من المشاهد العظمى التي يقصدها السائحون من كل جوانب الارض . وعامة الناس هنا يقولون في امثالهم

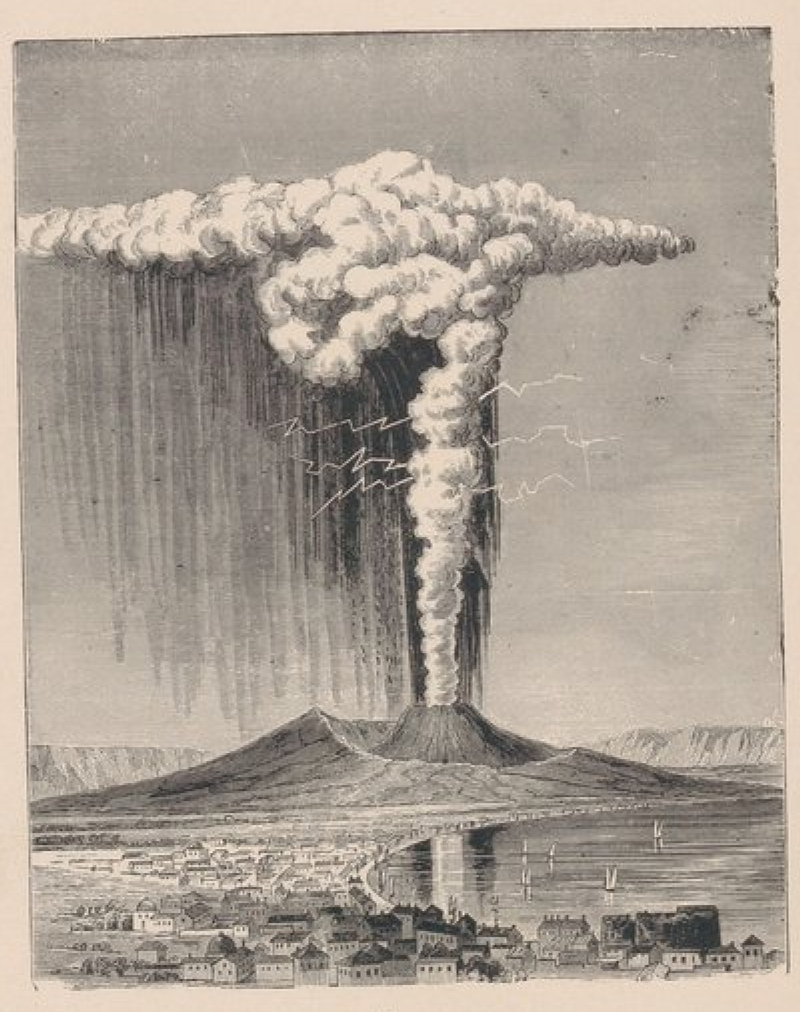
« انظر نابولي ومت » ولا عجب فانها من اشهر مواضع الارض في آيات الحسن وهي اهم مدن ايطاليا واكبرها لا يقل عدد سكانها عن سبعماية الف نفس وفيها من المتاحف والمشاهد والآثار ما يقل نظيره ولكن السياح الكثار الذين يفدون على هذه المدينة آلافاً مؤلفة يشكون من الشكوى من اهلها فانهم حالما يصلونها يزحمهم التراجمة والمرشدون والحوذيون والباعون وصغار المنادين هؤلاء يعرضون عليك كبريتاً ويعترضونك في المسير وهؤلاء يصيحون في اذنك باسماء الجرائد والصور التي يحاولون بيعها للذين يتعبون منهم ويتضجرون وهؤلاء يضجون من حولك ويلغطون وبعضهم يقتفي منك الاثر ويضيق صدرك بالحاحه طالباً ان يكون رفيقك ويدور معك على المشاهد بارخص الاجر او يقدم لك ما شئت من الخدم وغير هذا كثير وعلى الجملة فان نابولي مدينة كثيرة المشاهد والآثار والغرائب يحار المرء في كيف يبدأ بوصفها واحسن ما يكون ان يجعل المتفرج فاتحة الامور زيارة

❊ ڤيلا ناسيوناله ❊ وهو متنزه ممتد بجانب البحر غرست فيه الاشجار والازهار وانشئت برك الماء وهناك تصدح الموسيقى كل يوم من بعد الظهر وفي وسط هذا المتنزه محل الاسماك وهو بناء متسع جمعت فيه انواع السمك والوحوش البحرية الغريبة الشكل مما يقل نظيره وقد رأيت فيه السمك الكهربائي (توربيل) وهو اذا مسه المرء شعر بقوة كهربائية . ورأيت ايضاً المرجان الاحمر والابيض وقلّ ان يأتي احد الناس الى نابولي ولا يزور هذا المحل وهو تحت ادارة لجنة لها مرتبات سنوية من حكومة ايطاليا ومن الحكومات الاجنبية مثل المانيا وانكلترا تدفع ذلك تنشيطاً لجمع ما يمكن جمعه من الجزر والخلجان من الوحوش والحشرات البحرية والاجانب يأخذون الى بلادهم كل نوع غريب الشكل بعد ان يدفعوا رسماً صغيراً

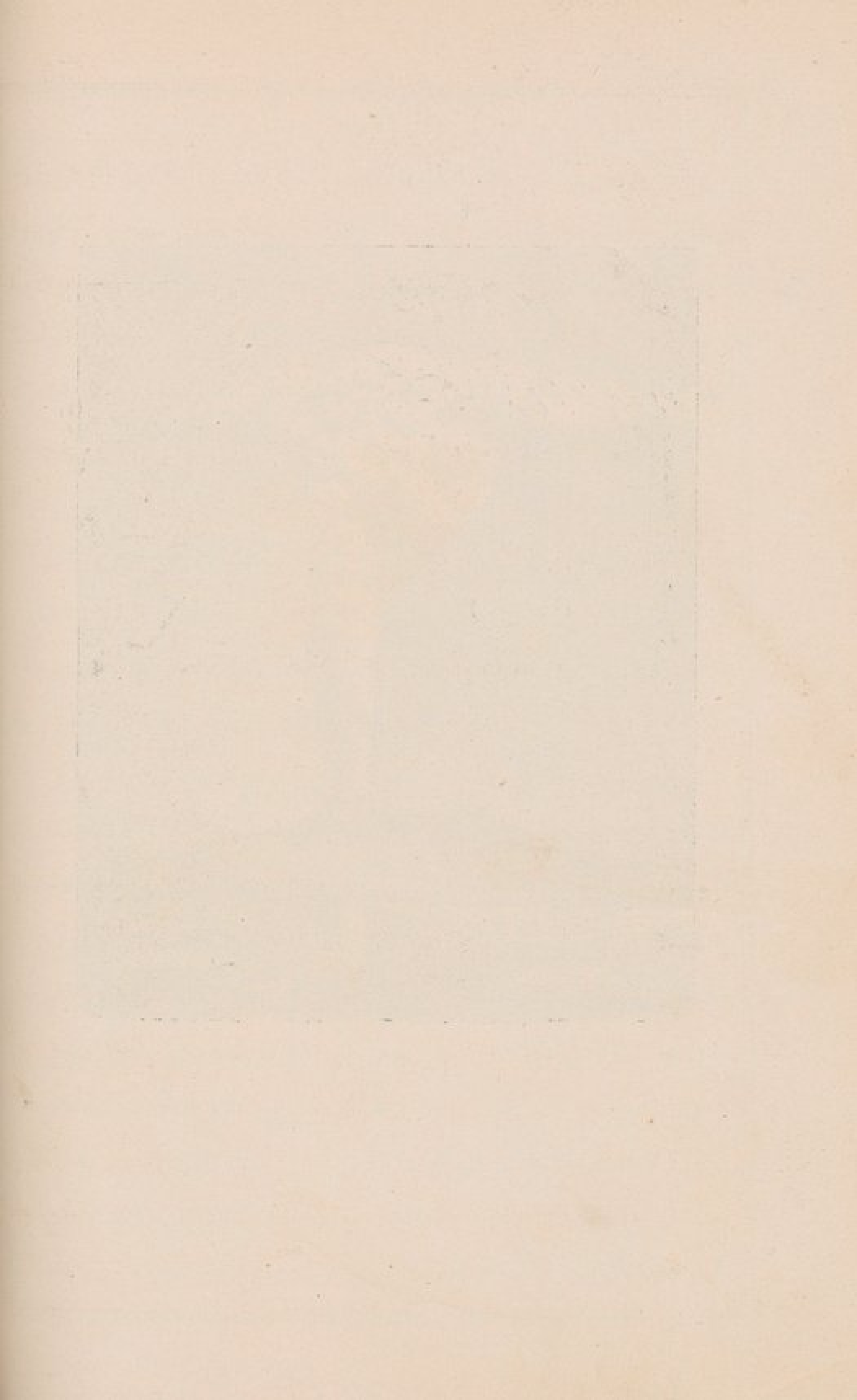
فتركت هذا المكان وذهبت الى قصر الملك وهو بعد قصر روميه اجمل القصور الملوكية في ايطاليا فيهِ صور وتماثيل ملوك نابولي مدة الثمانماية سنة التي حكموا فيها هذه البلاد وشيء كثير من آثارهم والهدايا التي ارسلت اليهم. وبجوار القصر المذكور تياترو او ملهى سان كارلو وهو من أحسن الملاهي في شكلهِ وزخارفهِ وغير بعيد عنهُ رواق اومبرتو سمي باسم الملك وهو حديث بني في سنة ١٨٩٠ بمبلغ اثنين وعشرين مليون فرنك يبلغ طولهُ ١٨٥ متراً ويقسم الى اروقة نقشت وزخرفت ولهُ في الوسط قبة جسيمة تحتها المخازن والحانات يزدحم فيها الناس على مثل ما ترى في كل مركز مثل هذا المركز الشهير

وبعد ذلك سرت في شارع توليدو ويقال لهُ ايضاً شارع روميه وهو يخترق البلد من الجنوب الى الشمال في طول ميل ونصف ويمتد من البحر الى الجهات العالية وهو ابداً مزدحم بالخلق يتصل ببعض الميادين منها ميدان كافور يقرب منهُ المتحف وهو أحسن متاحف ايطاليا فيهِ غرف كثيرة العدد ملئت بالنقوش على الحجر والتماثيل الرخامية والصور الزيتية مما لا يعد ولا يحصى. وفي نابولي البركان او جبل النار لا ينقطع دخانهُ المتصاعد يبلغ ٤٠٠٠ قدم تقريباً في الجو ولما يشتد هيجانهُ يقذف حجاراً وصخوراً ومواداً أُخرى مصهورة ويسمع لهُ صوت كقصف الرعد او دوي المدافع يخرج من باطن الارض وقد تألفت شركة مدَّت سكة حديدية توصل الى قمة هذا الجبل يصعدون بها الى اعلاهُ ثم يعودون. ولطالما انفجر هذا البركان والحق الاذى بالساكنين حولهُ واهم انفجار لهُ في التاريخ حدث سنة ٧٩ بعد المسيح حين انصبت مصهوراته الملتهبة على غير انتظار فوق مدينة بومبي ومدينة هيراكولانوم فطمستهما وابقت اثارهما العجيبة كما سبق القول واثار بومبي من مشاهد ايطاليا المعدودة الى الآن وما زال البركان يشتد وينفجر

من حين الى حين حتى انهُ بلغ درجة كبرى في سنة ٣٠٦ حين علا رمادهُ وطارت بهِ الرياح حتى موقع الاستانة . وقد تكوّن من هذا الرماد وعلى شاطئ البحر جبل آخر في مدة ٢٤ ساعة بلغ علوهُ ١٣٠ متراً وسماهُ الاهالي الجبل الجديد وفي ١٦٣١ و١٦٣٨ و١٦٦٠ و١٦٨٠ عاد الى الهيجان ولم يكن ضررهُ كبيراً واما في سنة ١٧٩٠ فان مقذوفاتهِ المصهورة احرقت كل شيء اصابتهُ من زرع وضرع . وفي سنة ١٧٩٤ كان الانفجار شديد الهول حتى ان الرماد احرق قرية توري التي أُعيد بناؤُها بعد ذلك . وفي سنة ١٨٧٢ كان الانفجار اشد هولاً فارتفع من فوهة الجبل عامود نار كان علوهُ ١٣٠٠ متر مات مئات من الانفس في القرى المجاورة . ومن عهد ليس بعيد اعني في شهر ابريل من سنة ١٩٠٦ هاج بركان فزوف هياجاً شديداً وفتحت لهُ فوهة جديدة . وقد ذعر اهالي القرى من قضاء سان جيوزيبه المجاورة لهُ وجعلوا يفرون الى مدينة نابولي والبركان يصب عليهم ناراً حامية وكانت الاحجار تخرج من الفوهة الوفاً وتعلو لحد ٣٠٠٠ قدم ثم تتساقط . وجرى نهر من المواد المصهورة علوهُ ٢٠ قدماً وعرضهُ ٦٠٠ قدم فاغرق قرية بوسكو وكان سيره بمعدل نصف ميل في الساعة وكان الرماد يغطي القرى المجاورة وتعذر على اهاليها الوصول الى نابولي حتى انهم لجأُوا الى الكنائس . واصيبت قرية اوتاجانو بضرر عظيم لان الرماد اوقع سقف كنيسة سان جوزيبه فقتل فيها ١٥٠ نفساً . وعلا الرماد في قرية لتوري وتراكم فوق السوق فسقط من ثقلهِ وقتل تحتهُ ١٤ قتيلاً وجرح ١٢٤ وخرب البركان القرى المجاورة لهُ فباتت جرداً ليس فيها نبت اخضر . وبلغ سمك الرماد في بعض الجهات ست اقدام . وكانت الغازات المتصاعدة من جوفهِ تقتل الذين يستنشقونها . وقد علموا فيما بعد ان اتساع الفوهة كان ١٥٠٠ متر وبلغ عدد الذين قتلوا في قضاء سان



(جبل النار)



جوز به مايتين . فلما سمع ملك ايطاليا بهذا الحادث اصدر امرهُ الى بعض البواخر الحربية ان تذهب الى ثغر نابولي للاسعاف وسار هو اليها بنفسهِ من روميه ومعهُ الملكة فذهبا الى جبل فزوف وكان في ذهابهما خطر لان الرماد والرمال كانت تنسف في الوجوه حتى انها حجبت الهواء وجعلت التنفس امراً عسيراً ومع ذلك فانهما تقدما ولم يضطربا . وقد زارا كل القرى المصابة وامرا بتوزيع ٤٠٠٠ جنيه للمصابين في هذا الحادث الاليم . وما زال ملك ايطاليا وقرينتهُ يظهران مثل هذه المروءة في جميع الحوادث المحزنة وقد خاطرا بالنفس في خرائب مسينا ورجيو الاخيرة حين دهمتها الزلازل في اوائل سنة ١٩٠٩ وقتلت من اهلها ٧٠ الف نفس واضرت بمآت الالوف وهي اكبر حوادث الزلزال في التاريخ الحديث ربما كان سببها فعل هذا البركان وما احدث بمقذوفاتهِ من الفراغ في جوف الارض حتى هبط سطحها واحدث المصاب المذكور

وضواحي نابولي كثيرة بهية الجمال منها عدة جزر في البحر ومنها جبال وسهول يمكن ان يقضي الزائر فيها اواقيت الهناء واهمها من وجه تاريخي مدينة پومبي كتب مجلدات عنها وعن جبل النار وقد كان من امرها انهُ في سنة ٧٢ مسيحية اشتد هياج البركان وقذف من الحجارة والطين والمواد المحرقة فوق مدينة پومبي طبقة ردمتها وغطتها سمكها نحو ٢٠ قدماً فمات في هذا الحادث نحو الفين من الاهالي وفرَّ الباقون في جوانب الارض فدفنت المدينة وطمست اخبارها من بعد هذا المصاب وحدث في القرن الخامس عشر ان بعض المهندسين وجدوا اساس منازل مدفونة ثم عثر بعض الفلاحين سنة ١٧٤٨ ببعض الاواني المنزلية من النحاس وغيرهِ ولذلك تنبهت الافكار الى مدينة پومبي القديمة فصدر امر الملك شارل الثالث بازالة الردم واستمر العمل اعواماً عديدة وكانوا كلما وجدوا اثراً ينقلونهُ الى متحف نابولي من ذلك

هيا كل الرجال والنساء محجرة وحلي ذهبية وفضية واشكل لا تدخل تحت حصر او قياس . وقد سرت الى هذه الآثار مع احد الادلاء الذين يعينهم المجلس البلدي ولهم رواتب منهُ فدخلت المدينة المتردمة وسرت في شوارعها ومماشيها ورأيت انهُ ما بقي من اثر لهذا البلد الأ جدران بعض المعابد الوثنية ومواضع للرقص وافران ومنافذ بعض المنازل فاعتراني من وصف الدليل على ابهامهِ حيرة حين تأملت تلك الخرائب والشوارع المقفرة وذكرني حالها بعبر الدهر وغيرَ الزمان

ومن ضواحي نابولي (كاستلاً ماره) وهي مدينة صغيرة زاهية زاهرة مبنية عَلَى خليج نابولي غرباً تشرف على الخليج وجزرهِ ومنازلها ممتدة مسافة ميل على طول الشاطيء ومنها يمكن الصعود الى التلال المجاورة المكسوة بشجر الكستناء وقد اشتهرت هذه الجهة ببدائع جمالها الطبيعي حتى ان الملك فردناند اتخذها مصيفاً لهُ سنة ١٨٢٠ حين اشتدت وطأة الطاعون في نابولي واطلق عليها اسم كوي سي سانا — اي هنا الشفاء — وهي من مثابات السائحين المشهورة . وعلى مقربة منها بلدة (سورنيته) ذهبنا اليها في طريق جميعهُ محاسن طبيعية وهي مثل شقيقتها مبنية على شاطيء البحر يصطاف فيها العدد العديد من السكان والغرباء واكثر الغرباء انكليز وامريكان فانهم يرون في هذه المدينة الصغيرة كل ما يوافق ذوقهم من ذلك الحمامات البحرية والتجول في البحر في زوراق شراعية والتنزه على الاقدام او على الخيل والحمير ما بين الغابات وقلَّ ان يشتد الحر هنا فان الهواء البحري الغربي يرطبهُ وينعش الاجسام . فلما قضيت زمناً في سورنيته عدت منها الى نابولي وفي الغد ركبت باخرة صغيرة مع العدد العديد من السياح الى جزيرة كابري وهي ايضاً من المصايف المعدودة ومع ان عدد سكانها لا يزيد عن ثلاثة آلاف فهم اوجدوا فيها عدداً كبيراً من الفنادق لكثرة المصطافين فيها والوافدين اليها لرؤية

(المغارة الزرقاء) وقد زرت هذه المغارة في زورق من الزوارق التي تنقل المسافرين في تلك الجزيرة ووجدت طول المغارة من الداخل ١٧٥ قدماً والعرض ١٠٠ قدم وعمقها ثمان اقدام وسقفها الصخري لا يزيد عن اربع اقدام فوق رؤُوس الداخلين وقد سميت الزرقاء لان المياه بداخلها زرقاء اللون ولها منظر غاية في الغرابة. ويجتمع هناك غواصون من الاهالي نزلوا امامنا للقاع فكان لون اجسامهم ازرق كالفيروز ثم عدنا الى الجزيرة مع السياح وهم يذكرون المآكل اللذيذة ورخص اثمانها ولاسيما النبيذ فان الموجود منهُ في ضواحي نابولي من احسن الخمور وارخصها ثمناً وقد جرت معامل الخمر في فرانسا علَى جلب المقادير الوافرة منهُ ومزجهِ مع خمورها وهم يضعون علامة معاملهم على الزجاج و يبيعونهُ باغلى الاثمان

ومن اجمل ضواحي نابولي مدينة كازرته ونسبتها الى نابولي نسبة ڤرسايل الى باريس فان فيها قصراً لملك ايطاليا من افخر قصور الملوك في اوروبا . وهي على نحو عشرين ميلاً من نابولي يقصدها خلق كثير للنزهة

واما أشكال الخضر والفاكهة فكثيرة في نابولي وثمنها رخيص وقد لا تجد في اوروبا كلها بلداً لهُ جمال هذه المدينة ورخص المآكل فيها وتنوع المناظر في البر والبحر وغرابة المشاهد الحديثة والآثار التاريخية . وقليل بين الناس ايضاً من كان مثل اهل نابولي في سرعة الاختلاط بالغريب ولعلَّ اهل هذه المدينة اكثر الطليان ميلاً الى الاغتراب والضرب في مناكب الارض فان اكثر الطليان من نزلاء مصر وغيرها من اهل نابولي يعرفهم المرء لاول وهلة أينما كان من اللهجة الخاصة بهم وقد مرَّ عنها الكلام

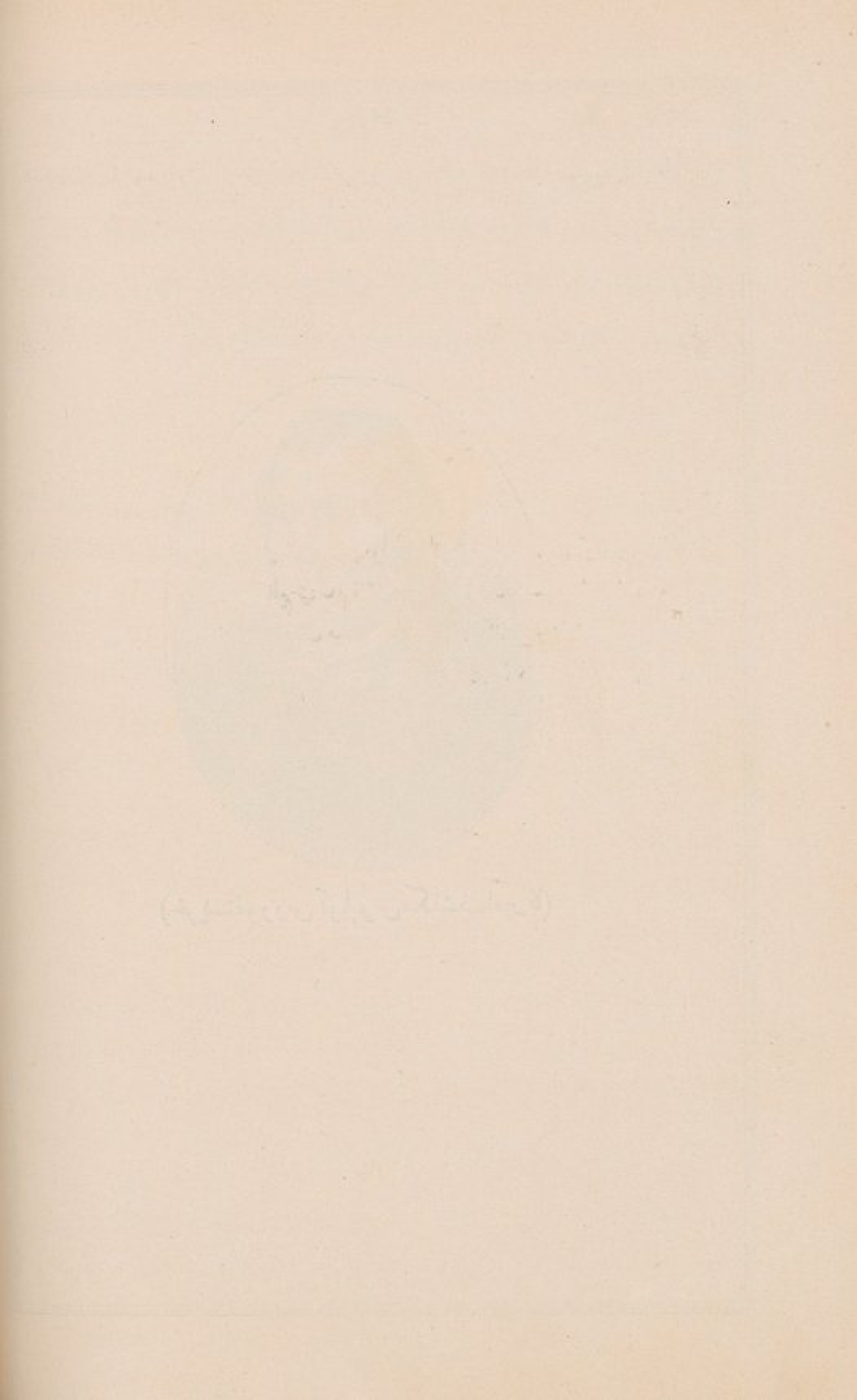
هذا آخر ما شهدت في بلاد الطليان وقد اوجزت في وصفهِ لاسباب كثيرة اهمها ان ايطاليا معروفة اكثر من سواها عند قراء العربية وان الوصف متقارب

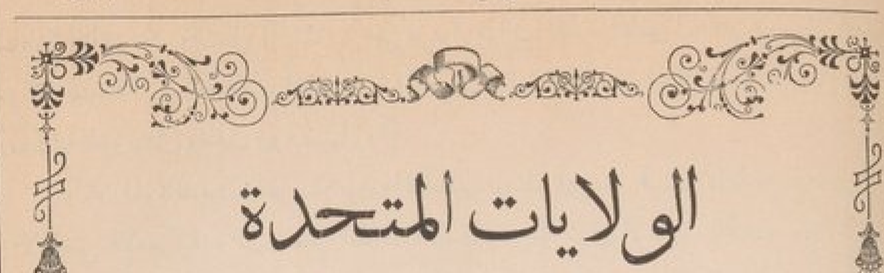
في اكثر الفصول .والمشاهد هنا تقرب من مشاهد اوروبا التي اطلت الكلام عنها. واني لما انتهيت من هذه السياحة عدت الى القطر المصري وكانت زياراتي لمدائن ايطاليا عديدة فاني مررت بها كثيراً في الذهاب والاياب عند زيارتي للمالك التي سبق الكلام عنها في الفصول الماضية من هذا الكتاب





(خریستفوروس کولمبوس مکتشف امیرکا)





الولايات المتحدة

خلاصة تاريخية

كانت القارة الاميركية برمتها من مجاهل الارض عند الساكنين في بقية الانحاء الى ان قام المكتشف العظيم خرستوفور كولومبو في اواسط القرن الخامس عشر واذهل باكتشافها العالمين . وقد ولد هذا الرجل العظيم في عام ١٤٣٦ في مدينة جنوا من مدائن ايطاليا وكان والده صاحب معمل للنسج واما هو فعرف من اول عهده بحب السفر وخوض البحار حتى اذا كثرت معارفه وزاد ميله الى السفر البعيد خطر له ان يصل الهند من ناحية البحار الغربية وجعل يفكر في ذلك زماناً ويحسب ان لا بدّ من وجود ارض في الطريق لم يصلها سواه فطلب من حكومة بلاده ان تعينه على اكتشاف تلك الارض ولم يلقَ منها قبولاً ثم قصد حكومات البورتوغال وفرانسا وانكلترا فكان نصيبه منهنّ الاعراض حتى انه طرق باب الحكومة الاسبانية وملكها يومئذٍ فردناند والملكة ازابلا فرضيا بطلبه وامرا باعداد سفن قليلة تسير في عرض البحار تحت امره فقام من شطوط اسبانيا في ٧ اغسطس من عام ١٤٩٢ وبعد سفر ٦٥ يوماً بلا انقطاع ومعاناة متاعب شتى وصل جزائر الهند الغربية مثل كوبا وسان سلفادور وهو الذي اطلق عليها هذا الاسم لانه ظنها جزءًا من بلاد الهند المعروفة. وعاد كولومبو بعد هذا الاكتشاف الى اسبانيا فاكرمت وفادته وعيّن والياً على الارض التي اكتشفها ثم عاد اليها في سياحة ثانية وظلّ يروح ويجيء ما بين اسبانيا وتلك الجزر حتى اكتشف القارة الاميركية بنفسها في رحلته الرابعة عام ١٥٠٢ عند شطوط فنزويلا في اميركا الجنوبية

وكثر الكارهون للمكتشف العظيم بعد اشتهار امره حتى انه حرم لذة اكتشافه فمات حزيناً والناس لا يعرفون قدره وتوافد المكتشفون على اميركا من بعده وكان في جملتهم ربان اسمه اميركو عرف باكتشاف مصب نهر الامازون في بلاد برازيل وسميت القارة كلها باسمه

وظلَّ الناس بعد ذلك في اكتشاف حتى عرفوا جوانب القارة الاميركية كلها في زمان قصير وكان للدولة الاسبانية القسم الاوفر منها ولاسيما في القارة الجنوبية ما خلا بلاد البرازيل فانها ملكتها البورتوغال وظلت في قبضتها زماناً

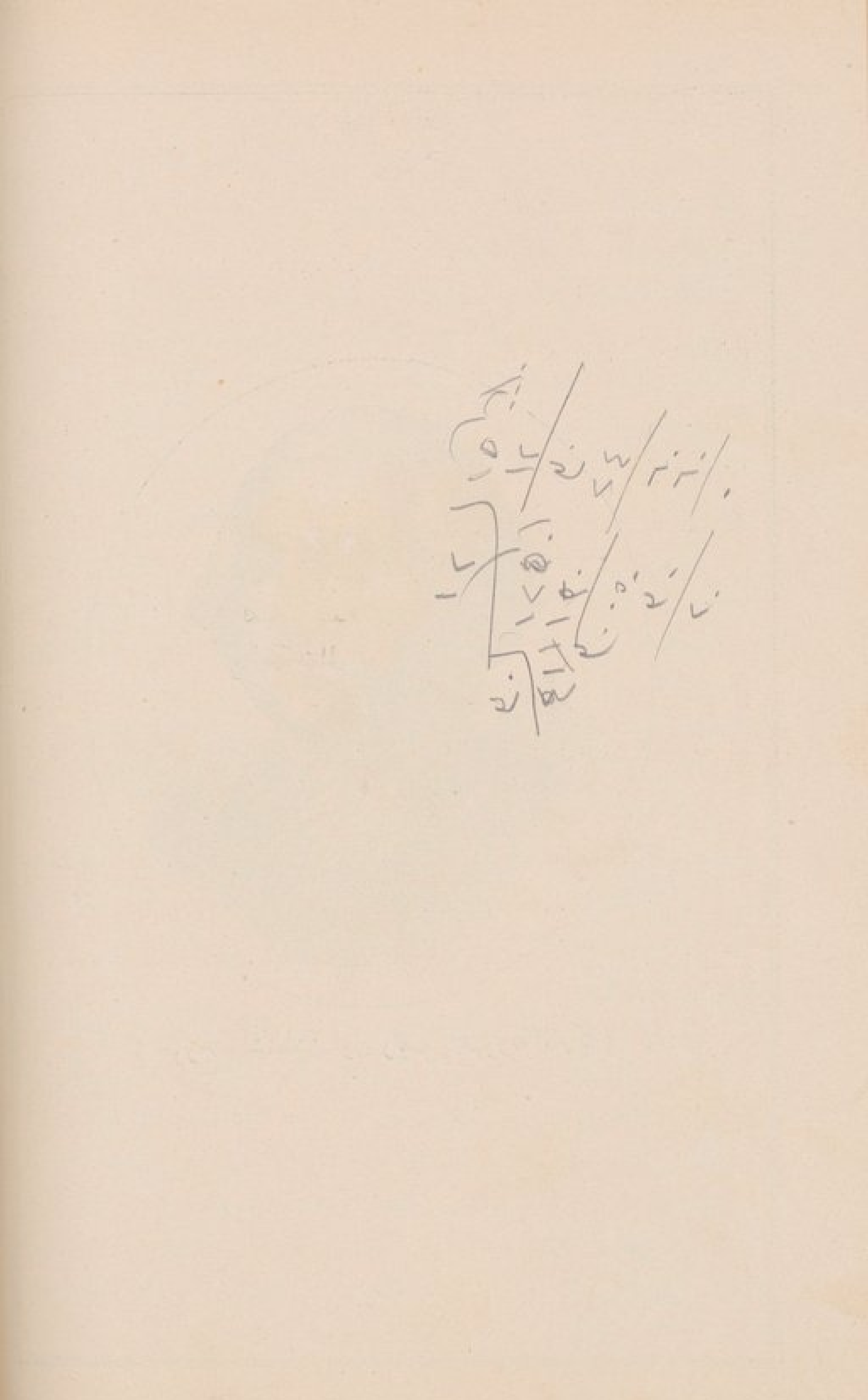
وكان الهولانديون والفرنساويون والانكليز يومئذٍ في بدء قوتهم فاخذوا يملكون الاراضي الاميركية وكان معظم املاك الانكليز في شمال الولايات المتحدة والى شمالهم الفرنسيس في بلاد كندا والى الجنوب منهم الهولانديون ولكن الانكليز حاربوا هاتين الامتين وانتصروا عليهما فصارت كندا ونيويورك واكثر الولايات المتحدة من املاكهم. ثم تقهقرت الدولة الاسبانية فاستقل معظم البلدان الاميركية التي كانت خاضعة لها وانفصلت بلاد البرازيل عن دولة البورتوغال وصار للقارة الاميركية شأن عظيم

اما الولايات المتحدة فانها ظلت تحت حكم انكلترا الى سنة ١٧٧٦ حين هبت للثورة ومعظم سكانها يومئذٍ مهاجرون من بلاد الانكليز ساءهم ان حكومة بلادهم قررت عليهم ضرائب فادحة ولم تنظر الى بعض مطالبهم فارسلوا اليها يطلبون ان يكون لهم نواب في مجلس الامة الانكليزية يناضلون عن حقوقهم اسوة بالانكليز الذين تطلب منهم الضرائب والرسوم فامتنعت حكومة انكلترا عن اجابة هذا الطلب وزادت الضغائن بين الطرفين حتى اجتمع نواب الاميركيين من الولايات كلها وهي في ذلك الحين ثلث عشرة ولاية وقرروا محاربة الدولة الانكليزية والانفصال عنها وتأسيس حكومة مستقلة وجعلوا جورج واشنطون الشهير قائد جنودهم ومن ثم دارت رحى الحرب وكان النصر في اكثر مواقعها للاميركان وساعدتهم فرانسا على الانكليز ففازوا بالاستقلال المرغوب واسسوا جمهورية مستقلة كان رئيسها الاول جورج واشنطون الذي ذكرناهُ وسنوا نظاماً بديعاً لبلادهم هو على حالهِ الى اليوم وسنعود في فرصة أُخرى الى بيانهِ

ورقيت الولايات المتحدة بعد استقلالها مراقي العز والفلاح وفتحت ابوابها للراحلين والمهاجرين من كل بلاد حتى تقاطر اليها الالوف والملايين فعمروا البلاد واستدروا خيرها وزادوا قوة البلاد وعظمتها في عهد قريب حتى ان هذه الجمهورية العظيمة اشترت من فرانسا ولاية لويزيانا في الجنوب بعد استقلالها بقليل اي سنة ١٨٠٣ واستولت على فلوريدا وهي في الجنوب ايضاً عام ١٨١٨ وعلى تكساس وكالفورنيا ومكسيكو الجديدة عام ١٨٤٦ وكانت كلما ملكت ارضاً تجعلها ولاية مثل بقية الولايات المتحدة حتى عظم شأن البلاد وزاد عدد سكانها زيادة عجيبة فان عددهم لم يزد اول القرن الغابر عن خمسة ملايين وصار ١٢ مليوناً في سنة ١٨١٢ و ٢٣ مليوناً في سنة ١٨٥٠ و ٣٥ مليوناً في سنة ١٨٦٦ و ٥٠ مليوناً في سنة ١٨٨٠



(جورج واشنطون اول رئيس لجمهورية اميركا)



وهو الآن لا يقل عن ٨٥ مليوناً منهم ٧٧ مليوناً من اصل اوروبي و ١٦ من العبيد و ٦ من الهنود الاصليين · ومعظم العنصر الافرنجي في اميركا من اصل انكليزي فافراد هذا الجنس الآن نحو ٣٥ مليوناً ومعهم ١٥ مليوناً من ارلاندا و ١٣ من المانيا و ٥ من فرانسا و ٤ من اسبانيا و ٥ من اجناس أُخرى

وفي الولايات المتحدة الآن اكثر من مئتي الف ميل من السكك الحديدية منها الخط الذي يوصل نيويورك بسان فرانسيسكو على شاطىء الباسيفيك وهو يخترق القارة الاميركية من الشرق الى الغرب مسافة ٣٥٠٠ ميل او خمسة ايام ونصف يوم متوالية في القطر المستعجلة

وتحاربت الولايات المتحدة وانكلترا مرتين بعد الاستقلال كان النصر فيهما اكثره للاميركان · وفي سنة ١٨٦١ نشبت في البلاد حرب اهلية هائلة دامت ٤ سنوات بين اهل الولايات الشمالية والولايات الجنوبية بسبب ان اهل الشمال ارادوا ابطال النخاسة واستعباد البشر وخالفهم اهل الجنوب لكثرة ما عندهم من مزارع القطن والسكر والعبيد فتحارب الفريقان حرباً يذكرها معظم كبراء الاميركان الى الآن ففاز اهل الشمال بعد اهوال جمة والغي الاستعباد من تلك البلاد الحرة · وقد اشترت الولايات المتحدة بعد هذه الحرب بلاد الاسكا من روسيا وحاربت اسبانيا سنة ١٨٩٨ ففازت وظهر للملا اقتدارها وهي اليوم اغنى دول الارض بلا مراء ولها قوة تحكي قوة اعظم الممالك الاوروبية وشان في الخافقين عظيم

وقد توالى الرؤساء على هذه الجمهورية من بعد استقلالها فكان اولهم جورج واشنطون وتلاه آخرون اهمهم ابراهام لنكون الذي حدثت الحرب الاهلية السابقة الذكر على عهده · والرئيس ينتخب مرة كل ٤ سنوات كان راتبه في اول الامر ٥ آلاف جنيه في السنة ثم صار ١٠ آلاف وهو الآن ١٥ الفاً · واسم الرئيس الحالي تافت والرئيس السابق روزفلت وكلاهما من اعاظم الرجال · وقد زادت قوات اميركا البحرية في الزمان الاخير حتى انها اصبحت الثانية بين دول الارض في قوة اساطيلها ولكن جيشها البري قليل الاهمية · واما صناعة هذه البلاد وتجارتها فانهما نمتا نماء هائلاً عجيباً كما نما السكان في عددهم حسب البيان الذي ذكرناه

المعرض الاميركي

لما اشتهرت مصر وسارت في سبيل الحضارة والارتقاء بعد الذي فعلهُ ولاتها العظام من آل محمد علي باشا صارت الدول العظمى تنظر اليها وتعدها في مصافها عند كل حادثة علمية او تاريخية كبرى ولا سيما من بعد ان فتحت ترعة السويس على عهد المغفور لهُ اسماعيل باشا الخديوي الاسبق وما كان من احتفالهِ الباهر بافتتاحها فانهُ كما يعلم الجمهور فاق الاوائل والاواخر في السخاء على الاستعداد لتلك الحادثة المشهورة ودعا اليها ملوك الزمان واعدَّ لهم فوق الذي يليق باهل الابهة والسلطان فجاء هذا القطر السعيد ملوك عظام في مقدمتهم امبراطور النمسا وامبراطورة فرانسا السابقة نريد بها اوجني ارملة نابوليون الثالث وجاء الامراء الفخام مثل ولي عهد السلطنة الانكليزية والوزراء النائبون عن بقية الملوك فزادت شهرة مصر زيادة كبرى وجعلت الدول من بعد ذلك الحين تدعوها الى معارضها ومؤتمراتها فهي دعيت رسمياً لمعرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ولمعرض ڤينا الذي تلاهُ . ولما اقامت دولة الولايات المتحدة معرضاً عاماً في مدينة فيلادلفيا عام ١٨٧٦ احتفالاً بمرور ماية عام على استقلالها كما ترى في الخلاصة التاريخية كانت مصر في عداد الدول المدعوة فصدر امر اسماعيل باشا الخديوي بتشكيل لجنة في مصر تعد المعدات اللازمة للقسم المصري في ذلك المعرض وكان رئيس اللجنة توفيق باشا الخديوي السابق رحمهُ الله وهو يومئذٍ ولي عهد الخديوية المصرية . فجمعت هذه اللجنة شيئاً كثيراً من الابضعة المصرية والحاصلات الطبيعية كسن الفيل وريش النعام والصمغ وخشب الابنوس والسمكة والخرتيد من السودان . ومصنوعات فضية كالصواني وعلب السجارة وظروف وفناجين واطباق وسلال قش من عمل

السودانيين . واخذت من محصولات مصر قطناً وغلالاً على انواعها واخذت من المتحف المصري مثالاً للاهرام بديعاً وبعض الحلى والآثار الثمينة ووضعت هذه كلها مع حاصلات البلاد ومصنوعاتها في صناديق عدتها ماية وخمسون علَى ان ترسل الى المعرض الاميركي فلما انتهت من ذلك صدر الامر بانتخاب رجال ينوبون عن البلاد المصرية في ذلك المعرض وترسل معهم تلك التحف والروامز فوقع الانتخاب على دانينوس باشا وبروغش باشا وكاتب هذه السطور وورد علينا كتاب من دولتلو نوبار باشا ناظر الخارجية في ذلك الحين يعلننا بالانتقاء لهذه المهمة بامرٍ من سمو الخديوي ويشير علينا بالاسراع في السفر الى الولايات المتحدة حتى نكون في المعرض يوم افتتاحه في اول مايو سنة ١٨٧٦ فصدعنا بالامر ومثلنا بين يدي الخديوي فاوصانا بالاجتهاد واتقان شكل المعرض المصري حتى يكون من ورائهِ شهرة لمصر ومقام مذكور ثم تشرفنا بمقابلة ولي عهدهِ توفيق باشا وهو رئيس اللجنة التي مرَّ ذكرها فسر بانتقائنا لهذه المهمة وسألنا ان نرسل اليهِ كل اسبوعين تقريراً عن المعرض وشؤُونهِ واعطانا رسمهُ الكريم فخرجنا من لدن الامير وولي عهدهِ معجبين وبدأْنا بالاستعداد للسفر بدون امهال

وتركنا مصر وجهتنا الاسكندرية ومنها ركبنا باخرة من بواخر الشركة الانكليزية الشرقية في ٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وكان ذلك اول عهدي بالسفر الى الغرب فعسر عليَّ امرهُ لا سيما وانهُ كان في فصل الشتاء حين يكثر البرد القارس في جهات اوروبا واميركا ويشعر بهِ الذي يعرف شتاء مصر اللطيف . ووصلنا مدينة برندزي في ايطاليا بعد سفر اربعة ايام فخرجنا من السفينة الى قطار كان في انتظار الركاب والبريد لينقلهُ الى لندن فقام بنا القطار يمر حيناً على المين الايطالية الواقعة على بحر الادرياتيك مثل انكونا وحيناً يوغل في داخل البلاد ويمرُّ بمدائن

مشهورة مثل فوجيا واسكندرية وبارما حتى وصل بعد ثلثين ساعة الى مدينة تورين وهي من مدائن ايطاليا الزاهرة ترى وصفها ووصف غيرها في باب ايطاليا من هذه الرحلة. وقمنا من تورين على عجل الى مدينة باريس في قطار سريع يسير بين الجهتين ويخترق جبال الالب المشهورة ويدخل في نفق تحت الارض نقبوهُ لهذه الغاية عند جبل سيني فلما وصلنا حدود فرانسا عند مدينة مودان خرجنا من القطار الايطالي الى قطار فرنساوي جمل يخترق الهضاب والبطاح ويمر بالاراضي العامرة مثل بلاد شامبيري وماكون وديجون حتى وصل باريس بعد سفر ٢١ ساعة

وقمنا من باريس في قطار سريع (اكسبرس) الى حدود فرانسا لنبحر منها الى بلاد الانكليز فلما اتينا فرضة كاليهوهي اقرب المين الفرنسوية الى انكلترا دخلنا باخرة تسير في بحر المانش وشعرنا في الحال بصعوبة السفر في ذلك البحر المزبد الطامي ولهُ شهرة ذائعة في كثرة امواجهِ وعلوها لانهُ خليج قليل عرضهُ حصر بين بحرين واسعين فهو آفة المسافرين من بلاد الانكليز واليها اصابنا فيهِ الدوار الشديد كما يصيب سوانا حتى اتينا على آخرهِ ورست الباخرة على مينا دوفر في بلاد الانكليز فخرجنا من الباخرة الى قطار اعد على الشاطيء وسرنا بهِ الى مدينة لندن فبلغناها في اليوم السابع من مبارحة الاسكندرية ورأينا على المحطة فيها جناب المستر تيلر قنصل اميركا السابق في مصر فرحب بنا ودعانا الى منزلهِ في ريتشموند وهي من ضواحي لندن وفي اليوم التالي رأينا المرحوم الطيب الذكر سليم بسترس وكان لنا معهُ علاقات وداد ففرح بوصولنا وسرَّ لمأموريتنا ودعانا الى منزلهِ الفخيم في شارع الملكة . ومرَّت ايام قليلة علينا في لندن اخذنا بعدها تذكرة السفر الى نيويورك في باخرة من بواخر شركة كيونارد ومقرها في لفربول فسافرنا من لندن

في يوم كثر ضبابهُ واشتد بردهُ الى درجة جعلتني افكر في مصر وسمائها الصافية وهوائها العليل حتى اذا وصلنا مدينة لڤربول سرنا الى الباخرة توًّا وقمنا الى اميركا في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥ فلما وصلت بنا الى كوينستون وقفت قليلاً لتأخذ ما يرسل الى هذه الفرضة من بريد لندن ثم عادت تمخر في عباب البحر ولا وقوف من بعد ذلك الموضع حتى تستقر في مينا نيويورك والمسافة بين الجهتين ٣٠٠٠ ميل . وكان يوم سفرنا من بلاد الانكليز الى اميركا جميلاً والهواء معتدلاً فلم نلقَ عناءً كبيراً ورأينا في اثناء المسير دخاناً يصعد من تحت الماء وبخاراً يخرج من البحر فعرفنا ان ذلك من بركان تحت الماء وحرارة في داخل الارض وكان من امر بعض النوتية انهم القوا ادلية في الماء وانتشلوها ملأى بماء حميم . كل هذا مع ان الماء بارد في هاتيك النواحي ويزيد بردهُ في جهات (نيوفوندلاند) حيث يجمد الماء وتطفو منهُ على وجه البحر قطع كبرى اذا اصطدمت بها البواخر لحق بها اذى كبير واصحاب السفن يحذرون شرها ويحسبون لها فوق حسابهم للانواء والعواصف. وظللنا على مثل هذا الحال الى اليوم السابع حين خيم الغسق وملأ الضباب جوانب الافق فتعذر على باخرتنا المسير فامر الربان بان تسير الباخرة على مهل وجعل يطلق الاسهم النارية في الفضاء والمدافع ايضاً تحذيراً للسفن القادمة من الاصطدام وتنبيهاً فكان من وراء ذلك اشتغال بالنا زماناً بهذا الامر حتى اذا خلصنا منهُ وظهر نور الشمس هاج البحر وعلت امواجهُ فتأملتها ووجدتها أشد هولاً من امواج البحر المتوسط وهي تختلف عنها في ان لونها قاتم والفترة بين الموجتين طويلة واما البحر المتوسط فان امواجهُ اصغر ولون مائها ضارب الى الزرقة وهي سريعة التوالي موجة بعد أخرى . وظل البحر في هياج كهذا يومين كاملين ونحن تارة نصعد مع الباخرة فوق الماء كمن يرتقي جبلاً وطوراً نحط كانما نحن

في وادٍ او حضيض حتى اننا لما فررنا من هذا الهول الى غرف النوم وعوّلنا على تناسي الموج جعلنا ننقلب من هنا ومن هنا ونكاد في بعض الاحيان نهوي من السرير بسبب ميل السفينة مع الامواج ميلاً شديداً . ولكن الازمة فرجت في اليوم الحادي عشر من هذا السفر حين علمنا اننا صرنا على مقربةٍ من اميركا وخرجنا الى ظهر الباخرة نتفرج فاذا نحن تجاه الشطوط الاميركية وقرب فرحنا في تلك الساعة من فرح كولومبو مكتشف هذه القارة.وكان اول ما رأيناه من العالم الجديد منارة جزيرة فاير ثم بعد ان سرنا ثلاث ساعات دخلنا خليج ساندي هوك وسارت الباخرة الى ان دخلت ما بين جزيرة ستاتن وجزيرة أُخرى اسمها لونغ آيلند وبعد حين ظهرت مدينة بروكلين وهي ملاصقة لنيويورك الى جهة اليمين يفصل بينهما نهر ثم ظهرت مدينة جرزي وهي ايضاً ملاصقة لنيويورك الى جهة الشمال فهي مثل الاستانة يرى القادم اليها هاتين المدينتين كما يرى الداخل الى الاستانة قاضي كوى الى اليمين وبرنكبو الى الشمال

نيويورك

في اليوم الثامن من شهر دسمبر سنة ١٨٧٥ استقر النوى بالباخرة والقت رحلها في مينا نيويورك وكان ذلك بعد قيامنا من الاسكندرية بشهر كامل وهو زمان طويل لو يذكر القارئون . ولكن طرق السفر والاسراع تقدمت في هذه الاعوام الاخيرة حتى صار الوصول من مصر الى نيويورك ممكناً في ١١ يوماً فقط .وحين خرجنا من السفينة الى الجمرك واراد عمالهُ ان يفتشوا ما معنا من الامتعة اعلمناهم بالمهمة التي كنا فيها وابرزنا الاوراق اللازمة فرحبوا بنا ترحيباً وسهلوا

طرق الخروج ومن ثم استأجرنا عربة توصلنا الى الفندق الذي اخترنا النزول فيهِ وهو (ففث اڤنيوهوتل) وهو الى اليوم من اكبر فنادق هذه المدينة العظيمة وافخمها واوفرها استعداداً فلما صرنا اليهِ طلب منا مديرهُ ان نسجل اسماءنا والجهات التي قدمنا منها حسب العادة المتبعة في اكثر الفنادق المعروفة ثم سألنا ان تدخل غرفة ظننا انها لراحة المسافرين فدخلناها ورأيناها مفروشة بالرياش الكامل وفيها الكراسي والطنافس والسجف والمرايا وغيرها حتى اذا جلسنا فيها تحركت من نفسها وصعدت باكملها الى الادوار العليا من البناء فعلمت حينئذٍ انها الآلة الرافعة التي يستغنون بها عن الدرج وكان ذلك اول عهدي بهذه الآلة واسمها الاسنسور او (لفت) في لغة الاميركان والانكليز وفي فنادق العاصمة المصرية اليوم منها اشكال بديعة وهي من اختراعات الاميركان نقلها عنهم اهل اوروبا وشاع استعمالها على ما تعلم. وبعد ان غيرنا الملابس في غرف النوم نزلنا الى قاعة رحيبة واسعة الجوانب اعدت لموائد الطعام وقد وقف من حولها الخادمون بانظف الملابس وعدتهم ستون من العبيد الاميركان فبدأنا بالاكل ورأينا اختلافاً عن فنادق اوروبا في النظام فان الفنادق الاوروبية يجوز في اكثرها للسائح ان يأكل أينما اراد واما في فنادق اميركا فالمرءُ يدفع اجرة اليوم باكملهِ ولا بد لهُ من الاكل فيها. غير انهم قد سهلوا ذلك على الناس فجعلوا للفطور وللغداء وللعشاء اوقاتاً يمكن معها للاكثرين ان يحضروها فان فطور الصبح يمكن تناولهُ هنالك من الساعة السادسة في الصباح الى الساعة العاشرة والغداء من الظهر الى ما بعدهُ بساعتين والعشاء من الخامسة بعد الظهر الى السابعة او من السابعة الى التاسعة. وتمتاز فنادق اميركا عن فنادق الاوروبيين الآن في ان اكثرها يأكل فيها الواحد الاصناف التي يختارها من كشف يقدم اليهِ وفيهِ جميع الالوان والمسافر يدفع المطلوب عن الايام

التي يقيمها في الفندق ويستريح من دفع الذي يدفعهُ في الفنادق الاوروبية ثمن الشمع او الخدمة او غير هذا ومما ينقدهُ للخادمين على سبيل (البخشيش) فان الرجل قد يدفع في اوروبا الى هؤلاء الخادمين رسوماً على مثل ما ذكرنا تقرب في قيمتها مما يدفعهُ الى اصحاب الفنادق ثمن الطعام واجرة النوم . اما المطاعم الاميركية فانها علَى نسق المطاعم الاوروبية

وقد بدأ الاميركان من عهد ليس ببعيد باستخدام البنات للخدمة في المطاعم فعمَّ هذا النظام في اكثر المحلات المشهورة وصار ذلك مزية لفنادق الاميركان ومطاعمهم وداعياً الى التشويق والاتقان . وتمتاز فنادق الاميركان ايضاً في ان اهل البلاد يجعلونها مساكن للعائلات اكثر من سواهم وفي مدائن الولايات المتحدة عائلات كثيرة تسكن في الفنادق وتؤثر ذلك على استئجار البيوت وادارتها ولو ان فيهِ زيادة في الاسراف . وفنادق الاميركان كاملة العدة في ما يلزم لراحة النازلين فيها من الحمامات ومواضع الغسل والحلاقة وغير ذلك . وفي غرف النوم رفوف مرتفعة قليلاً توضع عليها الصناديق والامتعة ولا ترمى في الارض وفي ذلك حرص على الشيء نفسهِ من التلف وعلى راحة المسافر لانهُ اذا فتح صندوقاً لهُ لم يتكلف الانحناء الى الارض ولم يجد مشقة . وفي اكثرها آلات من الخشب تنزع الاحذية من الرجل بدل ان تتعب الايدي بها وامور أُخرى تدل علَى انتباه الاميركان واتقان اعمالهم . وفي (الففث افنيو هوتل) هذه اولاد نجباء يلبسون الكساوي المميزة لهم عن سواهم وهم تعينهم البلدية لقضاء الاغراض وايصال الرسائل من الفندق الى انحاء المدينة باجرة تقدر على نسبة المسافة التي يسيرونها

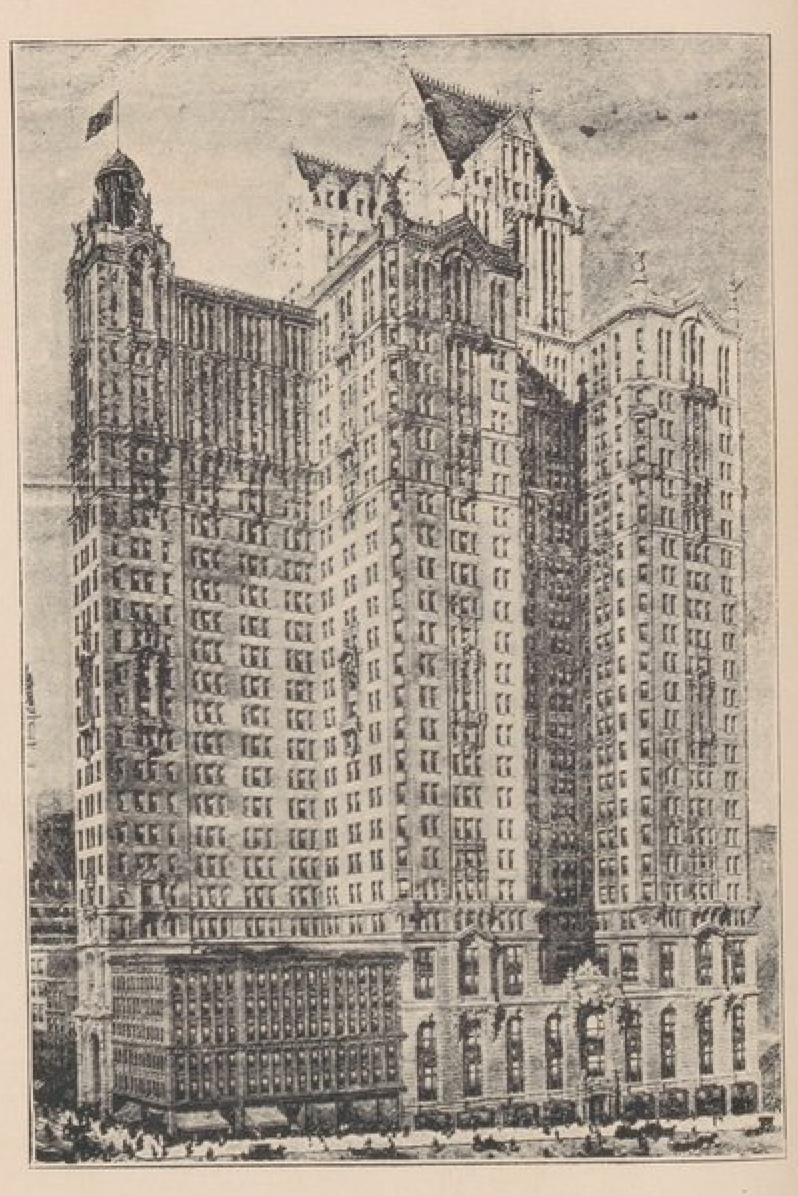
وكنا قد اتينا بكتب الى بعض الوجهاء اكثرها توصيات ومنها كتاب الى والد المستر تيلر الذي مرَّ بك ذكرهُ وهو من اصحاب الملايين الكثيرة ولهُ منزل

في ففث افنيو حيث اقيم الفندق الذي كنا فيهِ وهو أحسن شوارع المدينة وابهاها . وجاء على أثر قدومنا كثيرون من مكاتبي الجرائد طلبوا مقابلتي لاخبرهم ما اعلم عن مصر وحصتها في المعرض العام فحدثتهم بما يريدون وانثنوا وهم يشكرون ثم جعلوا يكتبون عن القسم المصري في المعرض وعما سيكون من غرابتهِ اموراً شتى ولاسيما اذا ذكروا انهُ سيكون فيهِ آثار بالغة في القدم تشهد باقتدار امة نمت وعظمت من خمسة آلاف عام في حين ان بلادهم لم يمر على استقلالها وبدء عظمتها غير مائة عام

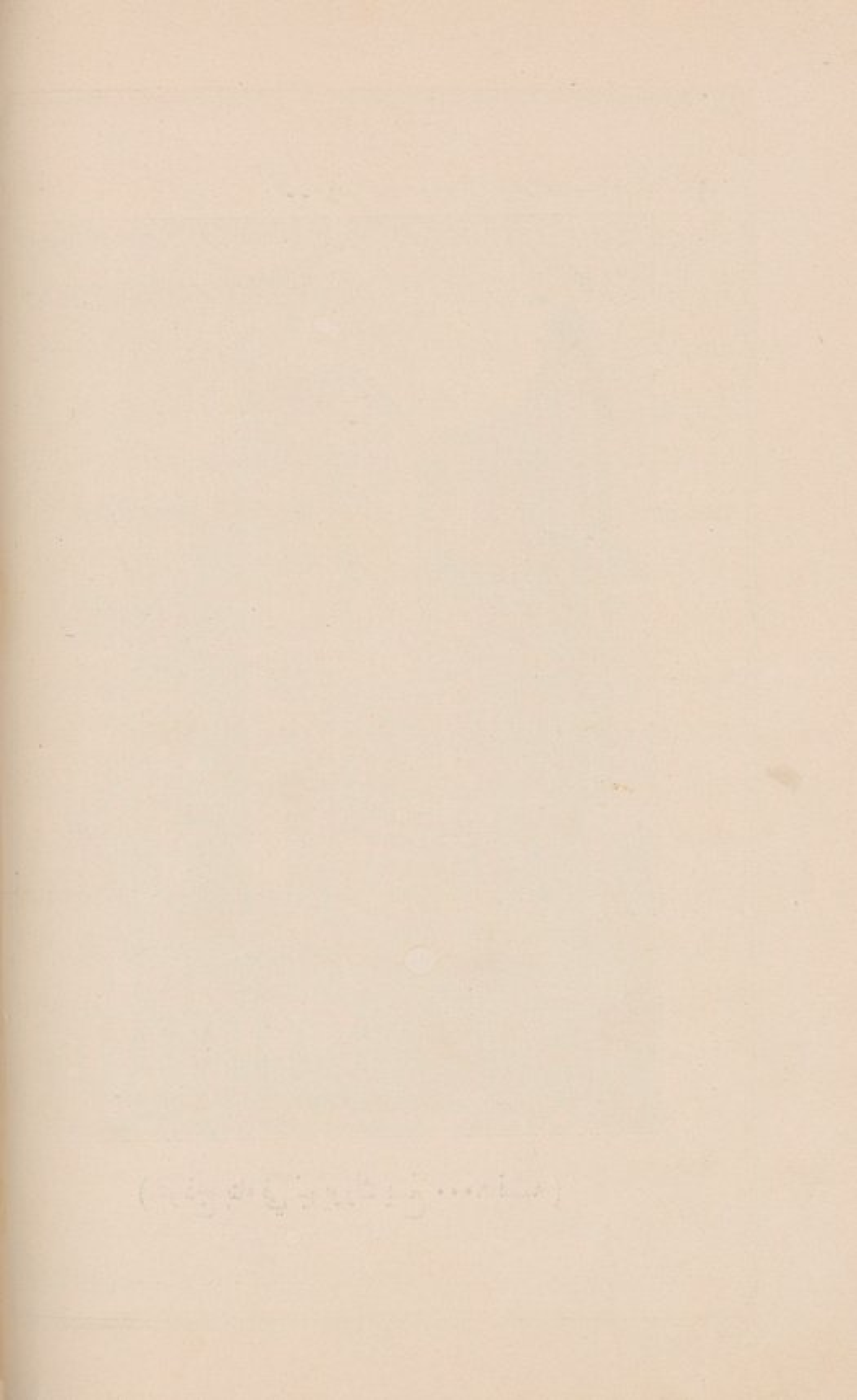
ولا بدَّ من افراد قسم من هذا الكتاب لوصف نيو يورك فاقول ان تاريخها يقرب من تاريخ الولايات المتحدة كلها او بعضهُ فقد قيل ان اول من وطأ ارضها السنيور فرازاني في سنة ١٥٢٤ ولكن المعروف ان انكليزياً اسمهُ هدسن كان من عمال الشركة الهولاندية جاء النهر الشمالي الذي يحد نيو يورك من جهتها الغربية ومعهُ بعض السفائن الهولاندية وقد سمي النهر ومصبهُ باسمهِ الى هذا اليوم فرفع عليها العلم الهولاندي في سنة ١٦٢٤ وكان اول حاكم هولاندي عليها رجلاً اسمهُ بيتر منوي اشترى تلك الارض التي بنيت عليها المدينة من اصحابها الهنود الاصليين بخمسة جنيهات وسماها امستردام الجديدة على اسم المدينة الكبرى في بلادهِ . وتوالى على نيو يورك الحكام الهولانديون بعد من ذكرنا الى سنة ١٦٥٠ وهي لا يزيد عدد سكانها يومئذ عن الف نفس اكثرهم يشتغلون بتجارة الخشب والفراء والهنود يتهددونهم من كل جانب حتى جاءها الانكليز في سنة ١٦٦٤ واحتلوها وملكوها وقائد جنودهم يومئذٍ الكولونيل نيكولسون سماها نيو يورك باسم الدوك اوف يورك الذي صار فيما بعد الملك جيمس الثاني وكان امتلاك الانكليز لهذه المدينة فاتحة الاقبال علَى الولايات المتحدة لانها مفتاح البلاد ودليل

خيرها الوافر وربوعها الواسعة فتوافد عليها الالوف من كل جانب ولاسيما من انكلترا وارلاندا وتفرقوا في جوانب البلاد فعمروا المدائن العظيمة مثل بوسطون وفيلادلفيا وهي كلها من المدائن العامرة . فلما رأت الحكومة الانكليزية ان البلاد التي ملكتها حديثاً بلغت هذه الدرجة من الاهمية عنيت بتنظيمها وتقسيمها ١٣ ولاية وكان من امرها ما كان الى ان استقلّت في ٤ يوليو من سنة ١٧٧٦ على مثل ما رأيت في الخلاصة التاريخية وكان لمدينة نيويورك النصيب الاوفر في المحاربة والاستقلال فتحها واشنطون عنوةً وطرد الانكليز منها فكان ذلك داعياً الى خروج الجنود الانكليزية من البلاد كلها

ونيويورك هذهِ تعد جزيرة لانها واقعة بين نهرين يجعلانها كثيرة الطول قليلة العرض احدهما نهر الشمال غرباً وثانيهما نهر الشرق شرقاً ولها الآن مينا جميل وافر الاتساع يكفي للعدد العديد من السفن التي تصلهُ وتقوم منهُ كل يوم طولهُ ثمانية اميال وعرضهُ يقرب من خمسة وهو يمثّل ما وصلت اليهِ التجارة البحرية في هذه الايام من اتساع النطاق فان نيويورك اول اساكل الولايات المتحدة واكبر مراكزها التجارية تقرب تجارتها من ثلثي تجارة البلاد كلها فقد لا يقل عدد السفن التجارية التي تزورها سنوياً عن عشرة آلاف وهي فوق هذا مركز المهاجرة الى الولايات المتحدة والمهاجرة من اهم الامور هنالك لان البلاد ما عمرت الاَّ بالملايين التي جاءَتها من كل صقع وصوب ولا يقل عددهم عن نصف مليون نفس كل سنة واكثرهم يقيمون فيها زماناً ثم يضربون في مناكب الارض ويتفرقون منها في جوانب البلاد ولذلك زاد عدد سكانها زيادة مدهشة ولا سيما بعد ان ضُمَّت اليها مدن بروكلين ولونغ آيلند ومن عهدٍ ليس ببعيد اضيف اليها بعض البلاد المجاورة فاصبحت مساحتها ٣٢٦ ميلاً مربعاً وسكانها اربعة ملايين



(نموذج بناء في نيويورك يسع ٦٠٠٠ نسمه)



فهي المدينة الثانية في العالم . ولنيويورك مزية خصوصية على بقية المدن المشهورة بعلو بناياتها المؤلفة من ١٨ طبقة الى ٣٠ طبقة ويقال انهم يقيمون الآن اعظم ما فيها من الابنية فيهِ ٤١ طبقة وعلوه ١٨٦ متراً وفيهِ اربعة آلاف غرفة للنوم وللجلوس وفيهِ المطاعم والمخازن والقهاوي ودوائر تجارية . والبناء على العموم يضم ٦٠٠٠ نسمة يشتغلون ويأكلون ويشربون وينامون ويجدون كل ما يحتاجونهُ كأنهم في مدينة ومساحة ارضهِ اربعمائة الف قدم مربع وستكون قيمتهُ مليوني جنيه

وفي نيويورك ٣٤٤ فندقاً منها ٥١ يسع الواحد منها ٦٠٠ شخص وفيها ٩٨ مرسحاً للتمثيل و٢٦ غابة وحديقة للنزهة وسكك الحديد الداخلية تنقل اربعة ملايين راكب في كل يوم . ولا ازيد القارئ علماً بثروة الامريكيين بل اني اذكر واحداً منهم وهو روكفلر ايرادهُ فيما يقال يزيد عن ٤ ملايين جنيه في السنة واغنياؤهم يبذلون المال في الاعمال النافعة مثل مساعدة المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية فان روكفلر وهب في سنةٍ واحدةٍ وهي سنة ١٩٠٧ نحو ٤٠ مليون ريال والست ساج ١٣ مليوناً وكرنجي ٨ ملايين والست جنيش ٥ ملايين وقس على ذلك . ولنساء الاميركان الاغنياء ولع يقرب من الجنون بانفاق الاموال على الملابس وغيرها ذكر سنكلير وهو عالم خبير بهذه الامور ان السيدة منهنَّ تصرف على جلباب حرير مطرز من الزي الباريزي نحو ٣٠٠ جنيه وتعمل لهُ قبعة ثلاثة بمبلغ ٥٠ جنيهاً . وقبعات الربيع بنحو مايتي جنيه . وتشتري الحذاء من جلد الايائل وازرارهُ من صدف اللؤلوء بعشرين جنيهاً وملابس لحفلات الرقص مزخرفة بالفضة على اشكال الزهور ولها ذيل مرصع بالجواهر ثمنها ١٢٠٠ جنيه غير ما عليها من الجواهر . وتدفع ثمن المنديل عشرة جنيهات وثمن الجوراب الحريرية عشرة جنيهات وثمن مظلة قبضتها ذهب ولؤلؤ خمسين جنيهاً وبعضهنَّ يلبسنَ

الثوب مرة او مرتين ثم يهملهُ. وقد قدرت ثمن الحلى على احدى السيدات بخمسين الف جنيه وهي ذاهبة لحفلة رقص وكان معها احد رجال البوليس السري يحرسها بالذهاب والاياب. ولما اشتهرت ثروة الامريكان في اوروبا جعل كل ذي لقب برنس ولورد وكونت وبارون يطلب الاقتران بامريكية فمنهم اللورد كرزون والي الهند السابق والدوك اوف مارلبرو والمستر شامبرلن والديوك اوف مانشستر وغيرهم من الانكليز تزوجوا الاميركيات. هذا غير سراة الفرنسيس والالمان والمجر وسواهم من الذين تزوجوا بنات الاميركان حتى قيل ان المبالغ التي اكتسبتها اوروبا من المثريات الاميريكيات لا تقل عن خمسين مليوناً من الجنيهات

وقد خططت شوارع نيويورك الاصلية من الشرق الى الغرب تقطعها شوارع اخرى على زوايا قائمة فتجعل منظر الطرق الكبرى متشابهاً يضلل الغريب لو لا ان لها نمراً فوق كل منزل او باب تدل عليهِ. ونمرت الشوارع من واحد الى ما فوق فما على الغريب الاَّ ان يطلب عدد الشارع فاذا وصلهُ رأى نمرة المنزل على اليمين او على الشمال وهي طريقة بسيطة يسهل حفظها على الغريب. وقد بدأت التفرج على هذه المدينة من شارع وول واولهُ عند البحر ولشارع وول هذا اهمية لان بهِ الاعمال المالية الكبرى وفيهِ الابنية العظيمة اذكر منها البورصة وهي بناء فخيم من المرمر دخلناها مع بعض الاصدقاء وسمعنا فيها من الغوغاء ورأينا من الحركة ما يعسر وصفهُ فانهم قدروا ان قيمة الذي يباع في هذه البورصة من اسهم السكك الحديدية وحدها تبلغ مليون جنيه في كل يوم. ولاحظت هنالك لاول مرة ان كثيرين من الاميركان يمضغون الدخان مضغاً وقد وضعت لهم براميل صغيرة في زوايا القاعة ليبصقوا بها. واذكر ايضاً بناء عظيماً لاعمال التأمين على الحياة وفي داخلهِ ١٥٠٠ عامل والى القرب منهُ مصارف ومحلات تجارية كبرى فيهما من الحركة

التجارية ما يشهد لهذه المدينة بالتقدم في مضمار الاعمال المفيدة . ويلي هذا في الاهمية شارع عظيم اسمهُ برودواي او الطريق العريض وهو طويل يمتد مسافة خمسة اميال على خط واحد وفيهِ عمارات عظيمة عمومية اذكر منها محل البوسطة وفيها ٢٥٠٠ عامل وخلفها المجلس البلدي والمحكمة التي انفقوا على بنائها وزخرفها نحو مليونين واربعماية الف جنيه . وقد سرت في هذا الشارع واجتزت نحو ميلين بين صفوف البناء الفخيم حتى بلغت المكتبة العمومية التي بناها آل استور الكرام وملأُوها بنفائس المؤلفات ومفيد الكتب وانفقوا عليها حوالي ثلثمائة واربعين الف جنيه وهم من العائلات العريقة في المجد الوافرة اليسار في اميركا تقدر ثروتهم الآن بنحو ستين مليون جنيه او تزيد وتعد من اغنى العائلات في الدنيا وكان عدد الكتب في هذه المكتبة يوم زرناها ٢٨٠ الف كتاب وعدد الذين يدخلونها للمطالعة والبحث عما يفيد ٧٠ الفاً في السنة والى مقربة من هذا الشارع طريق الاشراف والسراة ومقر آل اليسار والنعمة نريد بهِ (ففث افنيو) الذي ذكرناهُ وفيهِ الفندق الذي اخترنا النزول فيهِ مدة اقامتنا بمدينة نيويورك . وفيهِ ميدان ميدسون حيث اقيمت التماثيل لعظماء الاميركان وقوادهم منهم امير البحر فاراجوت والجنرال ورث والمستر ستورت الذي كان وزير الخارجية مدة الحرب الاهلية . وواصلنا المسير من هذا الشارع الى شارع ٥١ وفيهِ كنيسة قديمة يتبعها ارض زادت قيمتها زيادة فاحشة بعد ان تقدمت المدينة وعلت اسعار ارضها فباعوا جانباً منها باربعمائة الف جنيه انفقوهُ على تجديد بنائها . والى جانبها بيت آل ڤاندربلت وهم من اغنى اهل الارض وقد عني ببناء هذا القصر جد المستر ڤاندربلت الحالي وهو الذي جمع المال كلهُ واورثهُ لابنهِ وبناتهِ وكنت قد رأيت هذا الرجل في الصعيد وتعرفت بهِ لما ساح في مصر فوددت مقابلتهُ ولكنني علمت انهُ غائب فوقفت اتأمل بيتهُ وتلك الزخارف

المدهشة التي انفق الرجل عليها بعض ملايينهِ. وظللت على المسير حتى وصلت الحديقة العمومية وهي في عرف الاكثرين من اجمل حدائق الارض تبلغ مساحتها ٤٨٠ فداناً وقد جاء في كتاب بادكر انهُ صرف عليها ثلاثة ملايين جنيه فلا عجب اذا كانت جنة زاهرة وروضة باهرة تحيي بجمالها النفوس وتختلب بمحاسنها العقول. ذلك مع انها كانت قبل غرسها مستنقعاً تضر روائحهُ بالابدان فصيرها المال وهمة الرجال جنة تجري من تحتها الانهار وهي يدخل اليها من ٢٠ باباً فيها اربعمائة فدان غرست بباسق الاشجار ولطيف الازهار و٤٣ فداناً يتدفق منها الماء ما بين جداول وبحيرات تسحر الانظار وبقية ارضها طرق مرصوصة بالحصى او شوارع فسيحة بعضها للعربات وطولها عشرة اميال وبعضها لراكبي الخيل وطولها ستة اميال وبعضها للمارة على الاقدام وطولها ثلثون ميلاً وفي قسم منها القناطر البديعة بنيت لوقاية الناس من المطر فاذا زرت الحديقة في احدٍ او عيد رأيت ما ترقص لهُ القلوب طرباً من اجتماع الجمال الطبيعي بجمال الصناعة والتقيت بالوف وعشرات الالوف من المتفرجات والمتفرجين في هاتيك الطرق البهية والموسيقى تعزف بالالحان والناس ما بين راكب وماشٍ يسمعون وينظرون وآخرون في قوارب بديعة الصنع تجري فوق ماء البحيرات البهية وآخرون في المطاعم او فوق الكراسي بين ادغال الحديقة وازاهرها والكل في نعيم يمرحون. وعند باب الحديقة معرض ومسلة مصرية هي التي اهداها الخديوي اسماعيل باشا للجمهورية الاميركية ونقلت من مصر على نفقة المستر ڤاندربلت الغني الذي سبق ذكرهُ وقد كنت واقفاً في الاسكندرية يوم جاء المهندس الاميركي ونزع هذه المسلة من موضعها وهي من ايام الملك توتمس الثالث امر بصنعها قبل المسيح بنحو ١٥٠٠ سنة وعليها الكتابات الهيروغليفية بهذا المعنى. ثم زاد الملك رعمسيس الثاني اسمهُ عليها بعد ثلاثة قرون اي في ايام موسى

النبي وهي تبلغ ٦٩ قدماً في طولها ووزنها ما يتا طونلاته بلغت نفقات نقلها الى نيويورك عشرة آلاف جنيه لانهُ صنع لها ادوات خاصة بها وباخرة قامت لهذا الغرض

واما المتحف الذي اشرت اليهِ فلم يكن يوم زيارتي لهُ بالشيء الذي يذكر بل ان فيهِ رسوماً وصوراً تقل كثيراً في العدد والقيمة عما في متاحف اوروبا وسبب ذلك واضح هو ان متاحف الاميركان جديدة لم تمر عليها الاعوام حتى يجتمع فيها مثل ما في متاحف اوروبا من النفائس ولكن القوم ذوو انفة وغيرة اذا قيل لهم ان في اوروبا شيئاً أحسن مما عندهم اثر ذلك فيهم ولهذا فهم جمعوا مالاً طائلاً بالاكتتاب لمتحف نيويورك واشتروا لهُ بنحو مليوني جنيه في مدة عشرين سنة ما يفتخر بهِ كل اميركي . وعدت الى فندق في قطار سكة الحديد الذي يسير فوق الارض وهم يبنون لذلك القناطر العظيمة قائمة علَى عمد من الحديد متوالية الوضع فتسير القطر فوقها والناس من تحتها في حركتهم واعمالهم فهم في هذا يخالفون نظام الانكليز الذين يبنون سكك الحديد في لندن تحت الارض ونظام الاميركان اصلح للمسافرين لا يضطرهم الى استنشاق الهواء العفن تحت الارض ولا يحرمهم منظر الارض التي يسافرون فيها ولكن نظام الانكليز اوفق لاصحاب الحركة التجارية ولمنظر الشوارع لانهُ لا يشوه منظرها ولا يقلل سعة الطرق على الساكنين . وقد مدَّ فوق هذه القناطر ثمانية خطوط للسكك الحديدية تنقل في السنة اكثر من مليوني نفس في جهات المدينة من مائة وعشرين محطة يقوم ٣٠ قطاراً في كل ساعة وهي من املاك المستر فاندربلت المثري الشهير يدخل منها ثلاثة آلاف جنيه في اليوم لهُ ولشركائهِ

وقد علمت ان مدينة بروكلن متصلة بنيويورك يفصل بينهما نهرٌ وفوق

النهر جسر يعد من عجائب هذا الزمان في دقة صنعهِ وغرائب شكلهِ لانهُ بني بدون قناطر بل هو معلق على قوائم متينة في الطرفين واسمهُ الجسر المعلق ولعلهُ اجمل الجسور التي بنيت من نوعهِ الى الآن وقلَّ ان تخلو جريدة مصورة او رحلة من رسوم هذا الجسر ووصف بدائعهِ فان طولهُ ٥٩٩٠ قدماً وعرضهُ ٨٥ قدماً وعلوهُ عن سطح النهر ١٣٥ قدماً فهو تسير من فوقهِ العربات على أشكالها والمارة على الاقدام وارتال سكة الحديد فلا يقل عدد الذين يمرون فوقهُ في السنة عن اربعين مليوناً فلا عجب اذا قيل انهُ من عجائب هذا الزمان . ولما كان الوصول الى هذه المدينة لا بد منهُ لسائح زار نيويورك فقد قصدناها ودرنا في جوانبها وتأملنا محاسنها وزرنا احد الاصدقاء عرفناهُ في الاسكندرية ثم عدنا الى الفندق في نيويورك استعداداً للسفر الى مدينة فلادلفيا التي اقيم فيها المعرض العام وندبنا لحضورهِ . وكنا نظن اول الامر اننا سنعاني مشقة نقل الصناديق معنا في السفر فعلمنا اننا في غنى عن ذلك لاننا سلمنا هذه الصناديق باشارة العارفين الى شركة آدم واخذنا منها وصلاً بها ثم سافرنا وأُرسلت تلك الصناديق على يد الشركة وعلى ذلك تمت مدة اقامتنا في مدينة نيويورك العظيمة ووصلنا مدينة فلادلفيا بعد سفر يسر الخواطر في داخلية الولايات المتحدة فوجدنا صناديقنا في الفندق الذي قصدناهُ واسمهُ اوتل كونتيننتال

فلادلفيا

بنى هذه المدينة قوم من طائفة الكويكرس او جمعية الاصحاب وكان ذلك في سنة ١٦٨٢ . واما هذه الطائفة فلها شهرة في اوروبا واميركا وان تكن غير

معروفة في القطر المصري وهي من الطوائف البروتستانتية لها امور كثيرة تمتاز بها عن غيرها من الطوائف منها انها تحرم القسم تحريماً تاماً فلا يقسم افرادها بالله او بغيره ولو يكون ذلك في المحكمة حتى ان انكلترا اضطرت ان تسن اللوائح الخاصة للقسم في المحاكم ومجلس الامة بسببهم . وهم يعدون انفسهم جماعة السلام فلا ينتظمون في الخدمة العسكرية ولا يقبلون حرباً ولا يشربون مسكراً ولا يحفلون بالمراقص والملاهي ولا يتأنقون في الملابس وقد كان من اشهر رجالهم الوزير جون بريط الحر الانكليزي المشهور الذي يعدهُ الانكليز من اكبر اركان النهضة الانكليزية في العهد الحديث دخل مع غلادستون في عدة وزارات واستقال من الوزارة عام ١٨٨٢ لانهُ لم يوافق زملاءهُ على محاربة مصر . وافراد هذه الطائفة لا يعرفون للاشهر وايام الاسبوع اسماء بل هم يقولون اليوم الاول للاحد والثالث للثلاثاء والسادس للجمعة وقس على ذلك . ويعرفون الاشهر بنمرها ايضاً فيقولون الشهر الاول والشهر الخامس بدل يناير ومايو وفي ذلك مزية لهم مشهورة. وهم يختلفون عن كل طائفة من الطوائف النصرانية في انهم لا يعتدون بالمعمودية وتناول العشاء الرباني او الاشتراك ولهم شهرة صحيحة في الصدق والشهامة والمحافظة التامة على مبادىء الشرف والشهامة فليس بين اهل الارض كلها اناس اشهر منهم في الفضيلة والصدق ذلك حق يعترف به لهم كل العارفين . وهم ذوو بساطة في معيشتهم وعبادتهم لا ينفقون المال على الزخرف الفاني ولا يشربون الخمور ولا يؤمون مواضع الرقص والطرب والناس في انكلترا واميركا اذا قلت لهم انك كويكري عدوا ذلك دلالة كافية على سمو آدابك

هذا مجمل الذي يقال عن طائفة الكويكرس التي اسست مدينة فلادلفيا والولاية الملتفة حولها وقد سميت الولاية بنسلفانيا باسم المستر بن رئيس هذه

الطائفة في ذلك الحين وسميت المدينة فلادلفيا ومعنى الاسم " بلد المحبة " اشارة الى مبدإ الذين اسسوها وكان ذلك في سنة ١٦٨٢ على ما علمت . وتوارد الناس على هذه المدينة فعمروها ولكنها ظلت بلا امتياز بلدية حتى سنة ١٧٠١ وكان عدد سكانها يومئذٍ ٤٥٠٠ نفس فقط فجعلت تنمو وتتقدم حتى صار عدد السا كين فيها الآن فوق مليون وربع مليون من النفوس واصبحت ثالثة مدن الولايات المتحدة في الاهمية التجارية واولها في الاهمية الصناعية لانها تمتاز الآن عن مدن اميركا كلها بكثرة ما فيها من المصانع والمعامل . ولهذه المدينة موقع بديع لانها بنيت في سهل فسيح بين نهرين هما نهر دلوار ونهر سكولكل ولها شهرة في اتساع المجال فان طولها ٢٢ ميلاً وعرضها لا يقل عن خمسة اميال واكثر منازلها ذات طبقتين وقلَّ ان تزيد عن اربعة فهي من هذا القبيل انسب لسكن العائلات وافضل من حيث الشروط الصحية من كل مدينة كبرى تكثر فيها طبقات البناء. ولما اسس المستر بن هذه المدينة جعل شوارعها اسماء تنطبق على ما كان فيها من الاشجار فاحسن طرقها الان تعرف باسم شارع البندق او شارع الكرم او شارع الصنوبر وغير هذا. وفي المدينة اربعة ميادين كبرى تعرف باسماء واشنطن وفرانكلن ولوجان ورتنهوس وكل شوارعها فسيحة جميلة واضحة النمر لا يضيع فيها الغريب . وفي فلادلفيا مركز ادارات سكك الحديد الكبرى ولثغرها اهمية كبرى لانها واقعة على الاوقيانوس الاتلانتيكي ولها خطوط عظيمة من البواخر البحرية تمخر بينها وبين بقية البلدان واخصها انكلترا وفرانسا وممالك الشرق الاقصى

ولا بدَّ ان يسأل القارئ عن السبب الذي حمل حكومة الولايات المتحدة بعد ان تمَّ ماية عام على استقلالها على جعل هذه المدينة مقر الاحتفال بذلك العيد العظيم ومركز المعرض العام الذي بني لهذه الغاية فنخبرهُ ان هذه المدينة كان

لها اليد الطولى في حرب الاستقلال المشهورة لان الجمعية التي قررت محاربة انكلترا في ذلك الحين عقدت في فلادلفيا وهنالك وقَّع نوَّاب الاميركان على قرار الاستقلال رسمياً في ٤ يوليو من سنة ١٧٧٦ وهو اليوم الذي يعتبرهُ الاميركان في كل زمان ومكان يوم عزهم وبدء حياتهم ويجعلونهُ عيدهم الوطني الاكبر. ولما انتخب القائد جورج واشنطون رئيساً اول للجمهورية الاميركية بعد استقلالها كان مركزهُ ومركز الجمعية العمومية في هذه المدينة ايضاً وظل الحال على مثل هذا حتى بنيت مدينة واشنطن وهي العاصمة الحالية ونقلت الادارة اليها في سنة ١٧٩٧ . ولم يزل المنزل الحقير الذي أُمضي فيهِ قرار الاستقلال في فلادلفيا على حالهِ والاميركان يحتفظون بهِ ويعدونهُ اجل آثارهم وفيهِ ادوات استعملت في ذلك القرار منها الكراسي التي جلس النواب وواشنطن عليها والمنضدة التي وقع فوقها ومقاعد وبعض الرياش كانت يومئذٍ في ذلك البيت واقلام وجرس رنَّ في ساعة مشهورة علامة الاجماع على المناداة بالاستقلال وعَلم كتب عليهِ بالانكليزية عبارة معناها « احذر ان تطأني » وصور الرئيس والاعضاء الاثني عشر ورسوم الثلاث عشرة ولاية التي نالت الاستقلال وغير هذا كثير مما تعدهُ الامة الاميركية كبيراً غالي الثمن

واما مشاهد هذه المدينة العظيمة فكثيرة تستحق الوصف . صحيح انهُ ليس فيها ولا في غيرها من مدائن الولايات المتحدة ما يقرب من كنائس اوروبا المشهورة مثل كنائس رومه و كولون وميلان وستراسبورغ التي مضى عليها مئات من السنين في زيادة وتحسين ولكن الاميركان كما قلنا اهل حماس وغيرة وهم يحاولون سبق اوروبا في كل باب ومطلب وقد اوجدوا من غرائب المشاهد ما ذكرنا بعضهُ ومنهُ قصر المجلس البلدي في هذه المدينة كلهُ من الرخام الابيض الجميل

وقد اشغل بناؤُهُ ١٢٨٠٠ متر وفيهِ ٧٥٠ غرفة معدة لاعمال المجلس البلدي والمجالس المحلية والاستئناف ويبلغ ارتفاعهُ ٥١٠ اقدام وفوقها تمثال المستر بن موٌسس المدينة ويلي هذا بناء فخيم للماسون انفق عليهِ ثلاثماية الف جنيه ويقول الخبيرون انهُ لو بناهُ غير هذه الفئة لانفق عليها فوق هذا المال الكثير . ومن هذه المشاهد مركز البوسطة وهو بناء عظيم من الرخام الابيض ايضاً بلغت نفقاتهُ مليون جنيه . ومنها مدرسة كبرى تعرف باسم موٌسسها جيرار ولها شهرة واسعة يقصدها طلاب العلم من شاسع الاقطار وكان المسيو جيرار هذا رجلاً فرنسياً رحل الى الولايات المتحدة وهو فقير فاثرى وجمع مالاً طائلاً ثم عاد الى بلادهِ وهو يضمر الخير لاقاربهِ الفقراء وقد عزم عَلَى اعطائهم بعض مالهِ ولكنهُ تنكر وجاءهم بلباس الفقراء فنفروا منهُ وتبرأوا من قرابتهِ ونصحوا لهُ ان يعود الى حيث أتى فلما رأى الرجل هذا من اقاربهِ اظهر حقيقة امرهِ وعدل عن امدادهم بالمال وشعروا بذلك فجعلوا يعتذرون ويتقربون ولكنهُ لم يقبل لهم عذراً واعلنهم انهُ عائد الى حيث أتى فعاد الى فلادلفيا وتوفي فيها سنة ١٧٥٠ وترك ثروتهُ وقفاً لمدرسة بنيت وسميت باسمهِ وفيها الآن نحو الفي تلميذ ولا تقل الاموال والعقارات الموقوفة لها عن ثلاثة ملايين جنيه

ولهذه المدينة حديقة من اكبر حدائق الارض واجملها تبلغ مساحتها ٢٨٠٠ فدان وهي تمتد مسيرة اربعة اميال على ضفة نهر سكولكل ولها بذلك رونق وبهاء كثير . وكنت اتردد على هذه الحديقة وغيرها من مشاهد المدينة وانا استعد للمعرض الذي جئت من اجلهِ فلما رأيت ان الفندق الذي كنا فيهِ بعيد عن محل المعرض انتقلت الى منزل اقرب منهُ الى المحل المقصود وجعلت اتردد على محل اللجنة المفوضة بالنظر في امور العارضين وابضعة الممالك والولايات احرر القوائم

اللازمة حتى فرغت من الاستعداد وقرب يوم افتتاح المعرض . وحصل لي في ذلك المنزل نادرة غريبة وهي ان في كل منزل سلكاً يتصل بادارة الاولاد السعاة الذين سبق ذكرهم اذا ضغط صاحب المنزل او من فيهِ على زر كهربائي في طرف السلك دق جرس في ادارة السعاة فحضر احدهم لقضاء المطلوب . وكان عندي كتاب في ذلك اليوم اريد ارسالهُ الى أحد الاصدقاء فضغطت على الزر ولما ابطأَ الساعي في الحضور ضغطت مرة ثانية وثالثة فما مضى على ذلك زمان حتى رأيت العربات المعدة لاطفاء الحريق ومعها المضخات والطلمبات يسوقها الرجال المتمرنون بملابسهم المعروفة وخوذهم النحاسية جاؤوا اليَّ يستعلمون عن محل الحريق فقلت انهُ لم يحصل ذلك عليَّ ما اعلم قالوا انك طلبت ادوات اطفاء النار بالضغط على الزر ثلاثاً واوضحوا لي حينئذٍ ان الضغط على الزر مرة معناهُ طلب الساعي ومرتين طلب البوليس لضبط واقعة وثلاث مرات طلب الرجال والادوات لاطفاء النار وكان ذلك اول عهدي بهذا النظام

ويذكر القارئ ان المغفور لهُ توفيق باشا رئيس لجنة المعرض الذي نحن في شأنهِ كان قد كلفنا ارسال تقرير اليهِ كل ١٥ يوماً فانا قمت بهذا الامر وارسلت اول التقارير بعد ان رأيت المعرض قبل افتتاحهِ وارسلت معهُ رسوماً وجرائد وجعلت ذلك دابي كل ١٥ يوماً وقد اسعدني الحظ بورود كتب بخط يدهِ الكريمة اليَّ رداً على تلك التقارير وهي الى الآن عندي حفظتها كنزاً ثميناً . ووردت الصناديق التي وضعت فيها المعروضات المصرية قبل غيرها فسر لذلك مدير المعرض وسهل لنا الطرق لترتيبها في مواضعها . وكان نواب الامم يتواردون واحداً بعد واحد والناس يدعونهم الى الولائم الحافلة حضرت منها في اول الامر وليمة حضرها من النواب غيري النائبون عن مملكتي الصين واليابان لانهم جاؤوا

فلادلفيا عن طريق البحر الباسفيكي فلما كان الصباح التالي لهذه الوليمة وفد عليَّ مكاتبو الجرائد الكبرى يطلبون الاستعلام عما سيكون في معرضنا المصري من التحف والآثار فاعطيتهم ملخص الكشف العمومي ونشروهُ في جرائدهم ومن ذلك الحين كثرت عليَّ الدعوات والزيارات من اعظم العائلات حتى ان ايام الاسبوع لم تعد تكفيني لاجابة كل الدعوات لا سيما وقد اشتهر الاميركان بالكرم وحب الغريب اذا كان من بلاد بعيدة مثل مصر لها شهرة بآثارها القديمة وتميل نفوسهم الى سماع اخبارها ووصف مناظرها . والآن انقدم الى وصف المعرض العظيم الذي ذهبنا الى فلادلفيا من اجلهِ واجعل الاختصار خطتي في وصفهِ لان التطويل لا يمكن في هذا المقام

المعرض

علمت مما مرَّ بك انهُ لما مرَّ مائة عام على استقلال الولايات المتحدة اتفق اهلها على الاحتفال بذلك احتفالاً باهراً ودعوا كل ممالك الارض ودولها الى ارسال من ينوب عنها في حضور معرضٍ اقيم لهذا الغرض وفي عرض ما تريد من الآثار او الاشياء الدالة على منزلتها . وقرروا ان يظل المعرض ستة اشهر من اول مايو الى آخر اكتوبر من سنة ١٨٧٦ . ولما كنت من المندوبين المصريين لحضور الاحتفال والمعرض توجهت لمقابلة مدير هذا المعرض بعد وصولي الى مدينة فلادلفيا بقليل واطلعتهُ على اوراق تعييني وتداولت معهُ طويلاً في ما يلزم للقسم المصري وفي اليوم التالي جاءني هذا المدير مع كاتب يدهِ العام وردَّ لي الزيارة واخذني معهُ الى الحديقة الكبرى التي بني فيها المعرض ومرَّ ذكرها فذهبت ورأيت ارض المعرض وهي داخل دائرة يحيط بها سور ومساحتها ٢٣٦ فداناً منها الارض المخصصة

لعرض البهائم ومليونا قدم مربع لاصحاب الابضعة المطلوب عرضها على الزائرين والمتفرجين . وكان في ذلك المعرض ابنية فخيمة خصصت كل منها لغرض معلوم منها الابنية الآتية

١ القسم العمومي في بناء فخيم مساحة ارضهِ ٢١ فدانًا وطولهُ نحو ١٨٨٠ قدمًا وعرضهُ ٤٦٤ قدمًا وعلوهُ ٧٠ قدمًا وفيهِ قسم لكل حكومة خارجية دعيت للاشتراك في هذا المعرض وفي جملتها القسم المصري

٢ قسم الآلات الصناعية و (الماكنات) مساحة ارضهِ ١٤ فدانًا وطولهُ ١٤٠٢ اقدام وعرضهُ ٣٦٠ قدمًا وارتفاعهُ ٧٠ قدمًا وهو محاذٍ للقسم العمومي كانهما بناءٌ واحد طولهُ ٣٨٢٤ قدمًا

٣ قسم الزراعة مساحتهُ عشرة افدنة طول بنائهِ ٨٢٠ قدمًا وعرضهُ ١٢٥

٤ قسم النبات في فدان واحد من الارض طول بنائهِ ٢٨٣ قدمًا وعرضهُ ١٩٣ وعلوهُ ٧٢

٥ قسم الصور والرسوم طولهُ من الداخل ٣٦٥ قدمًا وعرضهُ ٢١٠ وارتفاعهُ ٩٥ وفيهِ قبة من الرخام ارتفاعها ١٥٠ قدمًا انفقوا على بنائها مليونًا ونصف مليون من الريالات

هذه الاقسام العامة في المعرض واما الخاصة فكان فيهِ بناءٌ عظيم للحكومة عرضت فيهِ الآلات القتالة كالمدافع والبنادق وامثلة على شكل البواخر الحربية. وقسم لكل ولاية من الولايات المتحدة بني اكثرها على الطرز الخاص بتلك الولاية وملئ بانواع الابضعة الفاخرة وادلة التقدم العظيم . وكان في ارض المعرض سكة حديدية ينتقل فيها المتفرجون من احد جوانبهِ الى الآخر نظرًا لاتساع ارضهِ واقيمت فيهِ المطاعم البديعة واشهرها للخواجات بروفانسو جاؤُا من باريس لهذا

الغرض . وقد بلغت نفقات هذا المعرض ٦ ملايين ريال اميركي جمع الاهالي منها بالاكتتاب خمسة ملايين فلما لم يكفِ ساعدتهم الحكومة بمليون واشترطت ان يرد اليها المليون من ايراد المعرض بعد اشتغالهِ

واما افتتاح المعرض فكان يوم ١٠ مايو من سنة ١٨٧٦ وقد تم باحتفال عظيم من الحكومة والاهالي معاً فانهُ لما جاء اليوم الموعود حضر رئيس الولايات المتحدة وهو يومئذٍ جناب الجنرال غرانت المشهور وجاء معهُ من واشنطن عاصمة البلاد وزراء الجمهورية ونواب الولايات واعضاء مجلس الشيوخ وكبراء الحكومة فوصلوا في قطار خاص كثير الزخارف ونزل الرئيس ضيفاً على المستر تشايلد وهو من سراة هذه المدينة وصاحب جريدة لدجر المشهورة التي لا يقل الربح منها عن مايتي الف ريال في السنة . ذلك فضلاً عن ايراد المستر تشايلد من اموالهِ واملاكهِ الاخرى وهو مثل اكثر اصحاب الملايين في الولايات المتحدة جاء مهاجراً يطلب الرزق في بدء عمرهِ فجمع ثروتهُ الطائلة بالجد والدأب وحسن التوفيق . وكان وصول رئيس الجمهورية ومن معهُ الى فلادلفيا قبل افتتاح المعرض بيوم واحد فلما كان الغد ازدحمت الطرق من جميع الجوانب بخلق كثير من الاميركين والسياح المتفرجين وملئت جوانب الحديقة التي أُقيم فيها المعرض بالناس على اختلاف الاجناس وجاء الرئيس الى منصة بديعة في الحديقة امام القسم العمومي زينت بالازهار والاعلام علَى شكل يسحر الناظرين وكانت الطرق كلها يحرسها جنود ارسلوا من كل الولايات لهذا الغرض فرقة من كل ولاية . فلما رقي رئيس الجمهورية تلك المنصة جلس الى كرسي كبير وضع لهُ في وسطها وجلس الى يمينهِ المدير العام للمعرض والى شمالهِ المدير المالي للمعرض وجلس من ورائهِ وزراء الجمهورية وكبراؤُها واعضاء مجلس الامة والشيوخ وحكام الولايات والى جانبيهِ من هنا

ومن هنا مندوبو الممالك والدول الاخرى وبعض خاصة المدعوين . وكان في الحديقة منصة اخرى تجاه هذه المنصة وقف فيها خمسماية سيدة لينشدنَ نشيد الاستقلال بصوتهنَّ الرخيم . فلما تم عقد ذلك المجلس المهيب وقف جناب رئيس الجمهورية وقال "اني افتح هذا المعرض بعد مرور ماية عام على استقلالنا مظهراً لامتنا وللامم الاخرى نتيجة تقدمنا في قرن واحد من الزمان . واني أسأل الله تعالى ان يحفظ ولاياتنا المتحدة". فتصاعدت اصوات التأمين على هذا الدعاء من اربعماية الف نفس تجمعت في حديقة المعرض ثم اطلقت المدافع مائة وواحداً ونزل الرئيس من تلك المنصة فدخل اقسام المعرض والجموع من ورائهِ وجعل يتفقدها قسماً قسماً وكان كلما جاء قسماً من اقسام الدول الاجنبية يلاطف المندوبين فيها بالكلام الرقيق حتى اذا وصل قسم الآلات الصناعية صدر امرهُ بتشغيلها فصدع العمال بالامر وجعلت تلك الآلات هذه تدق وهذه تثقب وهذه تخرط وهذه تضغط وهذه تدور وكان لها دوي هائل . ولما زار معرض الزراعة امعن نظرهُ في آلات الزرع والحرث والحصد وغيرهنا وكان في ذلك القسم آلات ترفع الماء من حوض وتصبهُ في حوض وهو يتدفق تدفقاً بديعاً . وكان في كلٍّ من هذه الاقسام جدول يبيان ما فيهِ والناس يتفرجون ويعجبون ولاسيما اذا وصلوا الى معرضنا المصري وشاهدوا غرائبهُ ولطالما سألوني وسألوا غيري عن امورٍ لا تخطر على بال المواطنين فهذا يريد العلم بكيفية تربية دود القز اذا رأى الحرير الطبيعي وهذا يسأل ان كيف يفقس البيض ويصير فراخاً بالطرق الصناعية وبعضهم يطلب جريدة عربية ليحفظها عندهُ اثراً من الآثار وهذه تسألنا ان نكتب اسمها بالعربية على بطاقة الزيارة وتلك تستفهم عن طرق الزواج وتعدد الزوجات عندنا وغير هذا مما لا يخطر الأ على بال الغريب . وكانت جرائد اميركا تنقل الى قرائها اخبار هذا المعرض بالبيان الوافي

واكثرها ترسم صور المناظر والاشخاص وكان اكثر الرسوم شيوعاً رسم الرئيس وهو في المنصة يفتح المعرض ومن حولهِ من ذكرنا وفي جملتهم مندوبو الحكومة المصرية بملابسنا الرسمية والطرابيش

وقد تشرفنا بمقابلة الرئيس غرانت بعد يوم الافتتاح في بيت المستر تشايلد وكان ذلك بدعوة أُرسلت الى جميع مندوبي الدول فاظهر جنابهُ للجميع لطفاً كثيراً وبعد ان مرَّ على هذه المقابلة يومان ورد الينا كتاب من المستر تشايلد المذكور يقول فيهِ ان قرينة الجنرال غرانت رئيس الجمهورية عازمة على زيارة القسم المصري في المعرض وهو يرجونا ان نستعد لمقابلتها واطلاعها على ما تريد فعملت بهذه الاشارة وكنت في الموعد المضروب مستعداً لمقابلة هذه السيدة الكريمة حتى اذا حضرت ومعها ابنتها وصهرها درت معها اوضح لها ما في معرضنا من الآثار والاشكال وهي تطرب وتعجب مدة ساعة من الزمان وتستقصي العلم بكل ما تراهُ وقد استلفتت انظارها ملاعق صغيرة صنعت على شكل غريب من خشب الابنوس فرجوت حضرتها ان تقبل تلك الملاعق هدية صغيرة وتذكاراً للمعرض المصري فقبلتها متلطفة شاكرة ومعها بعض الآثار المصرية القديمة . ثم خرجت بعد ان تكرمت بدعوتي الى قصرها في واشنطن عاصمة الجمهورية فشكرتها وارسلت تقريراً خاصاً الى سمو الخديوي توفيق باشا عن هذه الزيارة التي جعلت للقسم المصري شأناً كبيراً في هذا المعرض . ومما يريك الفرق بين الحكومات الجمهورية المبنية على رأي الامة وتوافق الافراد وبين الحكومات الوراثية التي يتعالى امراؤُها عن بقية الناس ويتشامخون ان رئيس الجمهورية في هذه البلاد العظيمة يعد نفسهُ واحداً من الناس فينزل في بيت صديق لهُ كما رأيت ويقبل طلب اصدقائهِ فيحضر سهراتهم وولائمهم ولا فرق بينهُ وبينهم مع انهُ رئيس امة في الطبقة العليا من التمدن

يزيد عدد افرادها عن عدد الناس في كل مملكة اوروبية ما خلا مملكة روسيا وقد كان من امر الجنرال غرانت ان المستر پول من الوجهاء دعاهُ الى العشاء في احد الايام ودعانا معهُ ايضاً فذهبتُ الى بيتهِ في الساعة المعينة وكان رئيس الجمهورية وقرينتهُ وغيرهما في قاعة فخيمة بانتظار ساعة العشاء وقد حدثت حضرة السيدة الكريمة زوجها بما كان من واجب اكرامنا لها عند زيارتها للعرض المصري فرحب بي جنابهُ ترحيباً خاصاً وقمنا على أثر وصولي الى المائدة الفاخرة فلما انتهينا من العشاء دخلنا قاعة التدخين حسب عادة الرجال وكانت السيدات في قاعة الاستقبال ريثما ينتهي الرجال من التدخين ولما كنا في تلك القاعة اخبرني رئيس الجمهورية بعزمهِ على السياحة في مصر في الشتاء التالي فسألتهُ اذا كان يسمح لي بابلاغ ذلك رسمياً للحكومة المصرية فاجابني بالايجاب واظهر لطفاً لا ينتظرهُ المرء من بطل ضرغام مثلهُ شهد الحروب وحارب الالوف وانتصر على القوات العظيمة فانهُ ولا يخفى كان قائد الجنود الشمالية في الحرب الاهلية التي ورد ذكرها في الخلاصة التاريخية بين اهل الجنوب واهل الشمال وكان لهُ النصر في كل المواقع القاضية . واشتهر جنابهُ بالصمت وكثرة التأمل ولكنهُ لم يقلل الكلام لما تشرفت بمعرفتهِ واذكر انهُ لما ورد اسم السياحة قال لي انهُ لا بدَّ من معاناة المتاعب اذا ساح في فرنسا والنمسا وايطاليا لان لهُ لساناً واحداً فقط هو لسان الصدق فضحك الحاضرون لهذه النكتة . وكان لهُ ولع بالتدخين حتى انهُ لم يترك السيجار من يدهِ الَّا عند الاضطرار الى تركها وهو يعد من اكبر رؤساء الجمهورية الاميركية واعظمهم

وقد كان احتفال الناس بهذا المعرض وبمرور القرن على استقلالهم عظيماً يعز نظيرهُ فان المدينة كانت مزدانة من جميع جوانبها على نفقة الاهالي وكانت الجماهير الوفاً مؤلفة في كل شارع كبير ولا سيما في جوانب المعرض وحول ذلك البناء القديم

الذي تمَّ فيهِ قرار الاستقلال وذكرناهُ قبل الآن وفي جميع الساحات والحدائق الاخرى . وكان الخطباء يقومون للخطابة في موضوع الاحتفال والوطنية والناس تتألب من كل جانب لسماع اقوالهم حتى اذا فاه الخطيب بقول يوجب الحماس الوطني او اشار الى ما كان من حزم الاجداد الكرام والنصر في الحرب التي ادَّت الى الاستقلال صرخوا مستحسنين متحمسين والقوا قبعاتهم في الهواء رجالاً واطفالاً وفي مثل هذه المظاهر ما يبث روح الوطنية في القوم ويوضح لابناء اميركا منزلتهم الرفيعة من بعد الاستقلال فهم يعدون انفسهم اهل كرامة لما نالوا من الحرية التامة وفي ذلك ما لا يخفى من الفخر الصحيح

ولما جاء الليل في يوم الاحتفال سطعت الانوار الباهرة في كل ناحية من المدينة ودار في شوارعها موكب حافل لهُ منظر مؤثر مهيب وتبع ذلك الموكب آلاف من الناس حتى ان الذي رأى تلك الليلة في فلادلفيا رسخ في ذهنهِ ذكرها وذكر معرضها واحتفالها الباهر . وقد كان حاكم المدينة في مقدمة هذا الموكب ومن ورائهِ اشكال المحتفلين واغربهم اصحاب الحرف كالنجارة والحدادة والتجارة والفلاحة وغيرها يتقدم كل فئة من اصحاب هذه الحرف شيخها ومعهُ علم خاص بها وموسيقى تصدح بالانغام الوطنية وانوار باهرة وكان عدد المحتفلين كثيراً جداً الى حد انهُ لو وقف المتفرج على الموكب في نقطة من المدينة ومرَّ بهِ الموكب لم ينتهِ من الفرجة الاَّ بعد انقضاء ثلاث ساعات تتوالى فيها المناظر المختلفة والمشاهد العظيمة . وكانت لجنة المعرض قد اقامت وليمة فاخرة في تلك الليلة لكبراء الناس وفي جملتهم نواب الممالك الاخرى فحضرنا تلك الوليمة وسمعنا من بعد الطعام خطباً رنانة كان اول القائلين فيها رئيس المعرض الذي رحب بالحاضرين واطنب في مدح الحرية وتلاهُ غيرهُ من الاميركان والمندوبين الذين شاركوا الاميركان في فرحهم

وهنأُوهم بما وصلوا اليهِ فاستغرقت تلك الوليمة ثلاث ساعات من الزمان

وظللنا في المعرض نقوم بواجبهِ حتى بلغنا في احد الايام ان رئيس المعرض عقد اتفاقاً مع مديري سكك الحديد على اعداد قطر خاصة لمندوبي الدول تأْخذهم الى اعظم مشاهد الولايات المتحدة على نفقة الدولة واهم هذه المشاهد شلال نياغارا واقليم البترول (زيت الغاز) والفحم الحجري وغير هذا مما سيأْتي وصفهُ . وبعد قليل وردت الينا اوراق تدعونا الى هذه السياحة الجميلة وشارات خاصة توضع على صدر المدعوين لتميزهم عن سواهم وطبعت اوراق أُخرى فيها بيان هذه السياحة وما تم الاتفاق على ان يراهُ المدعوون وعين اثنان من اهل الخبرة والمهندسين الاميركيين لمرافقة المندوبين الاجانب في هذه السياحة واطلاعهم على كل امرٍ يريدون العلم بهِ . فبناءً على هذه الدعوة قمنا في قطار خاص في الساعة السابعة من احد الايام وسرنا في داخلية البلاد نحو ٧ ساعات رأينا في خلالها بلاد لانكاستر ولاندسفل وجاكستون وغيرها حتى بلغنا مدينة التونا وهي شهيرة في انها معمل بناء العربات لشركات السكك الحديدية في ولاية بنسلفانيا وما يجاورها ولهذه الشركة اراضٍ لا تقل في اتساعها عن عشرين الف فدان . ولما وقف القطار في المحطة ركبنا عربات أُعدت للمندوبين وسرنا الى فندق استوْجرت فيهِ غرف لنا ايضاً وكان اهتمام عمال هذا الفندق باكرامنا شديداً حتى ان مدير الفندق كان يخدمنا على مائدة الطعام بنفسهِ ويملأ كؤُوس الخمرة لنا بيدهِ وهو يعرب عن سرورهِ باجتماعنا لمشاركة قومهِ في احتفالهم العظيم . وسرنا بعد ذلك بقليل الى معمل العربات والآلات لسكك الحديد وهو محل واسع يشغل من الارض حوالي ١٥٠ فداناً او ٦٣٠٠٠ متر وفيهِ عشرة آلاف عامل ويصنع فيهِ من الآلات البخارية التي تجرُّ الارتال مئاتٍ كل عام ومن عربات الركاب والابضعة الوفاً كثيرة فلما وصلنا

ذلك المعمل دار بنا مديروهُ يشرحون ويوضحون وكانوا يأمرون العمال ان يصنعوا (الوابورات) والعربات على مرأى منا ونحن نتفرج معجبين لجمال تلك الآلات والعربات التي تمتاز عن العربات الاوروبية بطولها واتقان صنعها والعمل على راحة المسافرين فيها . وليس يخفى ان اهل اوروبا جعلوا يشترون بعض عربات الركوب لقطاراتهم من اميركا او هم يصنعون على مثالها واشتهرت عربات التونا هذه بمحاسنها حتى قام المستر بولمان المشهور واخترع نوعا من العربات المتينة التي يقل في سيرها الارتجاج وتكثر الراحة للمسافرين واحتكر صناعتها ولشركتهِ أكبر معامل العربات في ولاية نيويورك وقد اصبح الرجل من اصحاب الملايين وشركات السكك الحديدية في كل بلاد تشتري من عربات بولمان لقطاراتها . ورجعنا الى الفندق بعد ان تمتعنا بمشاهدة هذا المعمل وغرائبهِ فكنا نرى العربات معدة لركوب من من شاء منا بلا اجرة ندفعها حتى اذا شاء احدنا ان يقصد نزهة او فرجة كانت العربات في خدمتهِ متى اراد . وفي تلك الليلة اولموا لنا في العشاء وليمة فاخرة ودعونا بعدها الى موضع للتمثيل وكان كل مندوب يطلب فيهِ وفي الحانات والقهاوي ما ارادمن المشروب ولا يؤخذ منهُ الثمن حتى اني مسحت حذائي ولم يشأ الصبي ان يأخذ اجرة لانهُ رأى من الشارة في صدري اني احد المندوبين واجرة عملهِ واصلة من الحكومة فذكرني هذا بالكرم الحاتمي الذي أظهرهُ سمو اسماعيل باشا الخديوي الاسبق عند الاحتفال بترعة السويس فانهُ أتى مثل ذلك في المطاعم والفنادق التي أمها المدعوون للاحتفال وذلك غير الذي اتاهُ لاكرام امبراطور النمسا وامبراطورة فرانسا وولي عهد انكلترا على وجه خاص

بتسبرج

قمنا في اليوم التالي على قطار يشقُّ الجبال شقاً ويخترق الاودية والسهول فيمر في مناظر بهجة للغاية ويدور من حول الجبال فلا يخترق قلب الارض في نفق او سرداب الاَّ اضطراراً وفي هذا مزية للاميركان على الاوروبيين في سككهم الحديدية فان اهل اوروبا يحفرون للارتال نفقاً تحت الارض كلما وصلوا الى جبل فاذا ما دخل القطار مثل هذا النفق لم يرَ المسافر غير الظلام الدامس وفاتهُ منظر الجبال وسفحها واما في اميركا فانهم يجتنبون النفق ما أمكن ويعرجون من حول الجبل بدل اختراقهِ فيتسنى للراكب في بلادهم ان يمتع نظرهُ باحسن المناظر الطبيعية وظللنا على المسير في هذا القطار حتى بلغنا منابع كريسون وهي عيون من الماء الحديدي فيهِ نفع للابدان وعافية يقصدها كل ذي علة يستشفي بمائها المعدني فتفرجنا عليها وشربنا ثم عدنا الى القطار وعاد يخب في الارض خباً ويرينا من اشكال الطبيعة عجباً حتى وصلنا مدينة بتسبرغ المشهورة فنزلنا في محطتها ولقينا العربات معدة لنا على مثل ما رأينا كل موضع زرناهُ مدة هذه السياحة

ومدينة بتسبرغ هذه ثانية مدائن ولاية بنسلفانيا يبلغ عدد النفوس فيها ثلثماية الف او يزيد ولها موقع بديع ما بين نهري الجاني ومونونجاهيلا يلتقيان فيها ومنهما يتفرع نهر اوهايو. وتجاه هذه المدينة مدينة اخرى اسمها الجاني على اسم النهر الذي ذكرناهُ وفيها من النفوس حوالي ١٣٠ الفاً والبلدان يعدان في عرف الاكثرين مدينة واحدة لانهما يفصل بينهما ذلك النهر فقط وفوقهُ جسور عديدة وطرق شتى للاتصال . وهذه المدينة حديثة العهد مثل اكثر مدن الولايات المتحدة فان تأسيسها كان في سنة ١٧٥٤ حين بنى بها القائد الفرنسي دو كين قلعة سميت باسمهِ

واستولى عليها الانكليز بعد ذلك ثم اخلوها بعد انخذالهم في حرب الاستقلال فعمر المدينة لا يزيد عن ١٤٤ سنة وهي في وسط اقليم كلهُ حديد وفحم حجري تكثر فيهِ المناجم لاستخراج هذين المعدنين حتى انهم ليخرجون من اربعة مراكز فيهِ مليونين ونصف مليون طونلاته من الحديد وعشرين مليون طونلاته من الفحم الحجري في كل سنة. ويخرج من الاقليم فوق اربعين مليون من زيت البترول وبذلك تعلم اهمية هذه الجهة من جهات الولايات المتحدة ووفرة غناها في المعادن. ومعلوم ان زيت البترول هذا علَى شهرتهِ الحالية لم يعرف الاَّ من نحو ماية عام فقط ولم يشتهر استعمالهُ الاَّ في سنة ١٨٢١ وقد حسبوا طول الانابيب التي يسيرفيها البترول هنا فاذا هو ١٢٠٠ ميل ومقدار الزيت الذي يجري فيها مليار قدم مكعب

وسرنا بعد هذا الى معامل الحديد العظيمة واشهرها معمل الخواجات تومسون يعمل فيها العاملون بنحو ستماية الف طونلاته في كل سنة اكثرها قضبان لسكك الحديد وفيها افران هائلة لتذويب الحديد وسكبهِ وتليينهِ يسميها العمال جهنم وهم يزيدون في هذا المعمل عن ستة آلاف عامل اعتصبوا مرة واضربوا عن العمل بغية ان تقلل لهم ساعات العمل وتزاد الاجور فاقتضى لتسكين هياجهم ان تجرد الحكومة عليهم فرقة منظمة من الجيش ومعها المدافع وقائدها جنرال من قواد الجيش الاميركي. وتجولنا بعد زيارة هذا المعمل في انحاء المدينة وصعدنا الى قسم منها فوق قمة جبل وشنطن وهو مسكن الاكابر واهل اليسار ولما كان الصعود اليه والنزول عسراً بسبب علوهِ صنعوا آلات تصعد وتنزل بقوة البخار وتنقل الناس والبهائم والحاجات كلها وهي على شكل الآلات المستعملة في جبال سويسرا الاَّ انها اسرع سيراً لانها تصعد وتنزل على خط مستقيم والركوب فيها يخيف الذي لم

يتعود استعمالها · والذي يصعد القمة بهذه الطرق يرى منظراً يعز نظيرهُ فانهُ في وسط بلد زاهر فخيم المباني ومن تحتهِ معامل يتصاعد منها الدخان فيحجب منظرها عن العيون والنهر في الجانب الآخر ينساب فيهِ الماء انسياب الافعى فيفتن بجمالهِ الناظرين

وفي هذه المدينة ابنية كبرى أنفق عليها الملايين وهي تضارع اجمل ما رأينا في مدن اميركا الاخرى من ذلك بناء البنك العمومي والبنك المحلي والبوسطة وغيرها · والبواخر التي تسير فوق الماء من هذه المدينة واليها في داخلية الولايات المتحدة تجتاز مسافة عشرين الف ميل في جوانب البلاد من هنا ومن هنا لانها تجري عَلَى ثلثة انهر فيبلغ مجموع ما تنقل مليون طونلاته ونصف مليون في العام وهي كل عام في ازدياد · والذي يسافر على هذه البواخر في هذه الانهر يرى كل ما يسر الخاطر من جمال الطبيعة وتقدم الصناعة في بلاد الحرية. وكان حاكم هذه المدينة شديد الاهتمام بما يسر المندوبين ويريهم اقتدار مدينتهِ حتى انهُ امر باضرام النار في منزل وارسل اليهِ رجال المطافيء بمضخاتهم وطلمباتهم على مرأى منا ومسمع فارانا كيف يجدُّ اولئك الرجال في المسير على تلك العربات الثقيلة وهي تقرقعوهم يصيحون ويقرعون الاجراس تنبيهاً للمارة حتى يفروا من طريقهم ولا تصدمهم العربات في عدوها السريع . واكثر رجال المطافيء في اوروبا يسيرون على مثل هذا عند حصول الحرائق ولكن الاميركان امتازوا بحسن نظامهم وسرعة قيام المطافيء عندهم الى محل النار وايصال المساكن كلها باجراس كهربائية الى مقر العمل حتى ان مدينة لندن مع اشتهارها بالنظام والاتقان في كل الاعمال لما ارادت ان توصل اعمال المطافيء الى درجة الكمال ارسلت احد رجالها المشهورين الى مدن اميركا ليتعلم فيها طرق الاميركان وينقل المفيد منها الى بلاده

وسرنا في صباح اليوم التالي على القطار الخاص الى اقليم الزيت ووقفنا في بلدة تعرف باسم اويل ستي او مدينة الزيت وبعد الغداء في الفندق الذي اعدَّ لنا توجهنا الى مناجم البترول وكنت اظنها في ارض قاحلة قفرة شوَّه الزيت ظاهرها واحرق الكلاء والعشب فلم يبقَ غير منظر قبيح ورائحة كريهة فرأيت الحال على غير ما ظننت لان الارض هنالك مكسوة كلها بالخضرة البهية وفيها مئات من الآبار يستخرج زيت البترول منها وهي تختلف حجماً وعمقاً فمنها ما يقل عمقهُ عن ثلثمائة قدم ومنها ما يزيد عن ثلثة آلاف وهي كلها تستخدم فيها الطلمبات لاخراج الزيت منها الى اقنية تجري فيها جداولهُ وتصب من بعد ذلك في حوض كبير ومنهُ يؤْخذ الزيت ويعلل بالطرق المعروفة عندهم ثم يوضع في الصناديق الصفيحية ويرسل الى جوانب الارض . وهو متى خرج من البئر يعرف بصفائهِ ولكن النزح يؤثر فيهِ فانهُ يختلط بالاكدار كلما اخذ منهُ شيء وقلَّ الموجود في البئر فاذا كثرت اكدارهُ تركوهُ يوماً او يومين ريثما يعود الى النقاء ثم عادوا الى نزحهِ . وبعض هذه الآبار تنشف بعد نزحها مرات معلومة فيتركها اصحابها ويحفرون آباراً أُخرى علَى مقربةٍ منها وهم يربحون منها الاموال الطائلة حتى ان اكبر اصحاب الملايين اليوم هم تجار الزيت واصحاب الاسهم في سكك الحديد . وكان احد المهندسين الاميركيين مدة وجودنا عند هذه الآبار يشرح لنا طرق استخراجها وشحنها وتنقيتها ويوضح كل ما اشكل علينا حتى اذا انتهينا من هذه الفرجة عدنا الى القطار فعاد الى المسير في وسط اراضٍ شهية ومناظر بهية ظهر لنا في آخرها بحيرة مشيغان وهي اكبر بحيرات اميركا ليس لها في اوروبا نظير من حيث الاتساع طولها ٣٦٠ ميلاً وعرضها ١٠٨ وعمقها ٩٠٠ قدم . وتقدمنا الى ما وراء هذه البحيرة فمررنا ببحيرة اصغر منها تعرف باسم تشور وبعد ١٢ ساعة وصلنا الى بلدة اري بنيت على

بحيرة بهذا الاسم ولها منظر بديع وهي من الاماكن التاريخية في الولايات المتحدة حصل فيها معركة بين الانكليز والاميركان في الحرب الثانية بعد الاستقلال وكان النصر في هذه المعركة للقائد الاميركاني بري فانهُ حطم سفن الانكليز وملك الموقع سنة ١٨١٣ . وبتنا تلك الليلة في فندق ريد بهذه المدينة . وفي ثاني الايام اراد حاكم المدينة ان يدعو المندوبين الى روءْية البحيرة وجوانبها وهي من البحيرات العظيمة طولها ٢٩٠ ميلاً وعرضها ٦٠ ميلاً ولها اتصال ببحيرتي هورون وبحيرة اونتاريو ويخرج منها نهرا دتروا ونياغارا فاستأْجروا لهذه الغاية باخرة جميلة قمنا فيها وسارت تجري في ماء البحيرة تارةً توغل في عرضها وطوراً تتنقل بين الشطوط وتشرح الصدور بمرأى هاتيك الضفاف البهية والمنازل العظيمة التي رصعت بها تلك الارض الطيبة فعدنا في المساء وكلنا أَلسنة تلهج بحسن تلك المناظر

﴿بفالو﴾ وتركنا هذه البلدة في اليوم التالي فاستقرَّ بنا النوى بعد ذلك في مدينة بفالو وهي من مدن اميركا العظيمة التي تقدمت تقدماً سريعاً لا مثيل لهُ في تاريخ المدن الاوروبية لانها بنيت في سنة ١٨٢٥ وعدد سكانها الآن يزيد عن ثلثمائة الف وهي في وسط سهول فسيحة وفيها مروج خضراء وحدائق غناء وقد اطلق عليها اسم بفالو او جاموس لانها كثيرة المرعى ولان هذا الحيوان يستقي من نهرها وهي ذات هواء طيب وماء عذب يقصدها المهاجرون من كل ناحية وتزيد على نسبة كبرى كما تقدم القول وفيها معامل مشهورة للجعة والصابون والنشا يشتغل بها الوف من العمال اكثرهم من الالمانيين والارلنديين ويصدر من معاملها لهذه الاصناف الثلاثة ما تقدر قيمتهُ بمائة مليون ريال كل سنة

﴿نياغارا﴾ ويعلم القارئُ ان غاية هذه السياحة اللطيفة الوصول الى نياغارا وهي اعظم شلالات الارض طرًّا واكثرها غرابةً وجمالاً قلَّ ان يجيء

الولايات المتحدة زائر او سائح ولا يقصدها وعلى ذلك فنحن عدنا الى المسير حتى وصلنا الى هذه الشلالات العظيمة وهي واقعة في حدود الولايات المتحدة من جهة الشمال حتى ان قسماً كبيراً منها تابع لبلاد كندا الانكليزية فبعد ان استرحنا قليلاً في احد الفنادق قمنا لنرى أعظم المشاهد التي جئنا لاجلها وهي تلك الشلالات العجيبة التي تلتقي فيها اربع بحيرات كبرى هي اري وهورون ومشيغان وسوبيريور يخرج منها نهر نياغارا في عرض ٤٧٥٠ قدماً و ينصب فيهِ من الماء نحو ١٥ مليون قدم مكعب في كل دقيقة وهذا المقدار الهائل من الماء ينحدر من علو ١٦٧ قدماً الى وادٍ كبير الصخور فينحط عليها بقوة لا توصف ويحدث ضجة تصمُّ الآذان ومنظراً لم تكتحل بمثلهِ عين انسان . هذا هو الجانب الاميركي من الشلال العظيم ومجموع الشلالات المعروف باسم نياغارا وتجاههُ القسم الكندي وهو كثير الاتساع يعرف باسم « نعل الحصان » لانهُ يشبه النعل في تكوينهِ ويجري الماء هنالك في عرض ٣٠٠٠ قدم فينحط من علو ١٥٨ قدماً الى وادٍ بهيج ولشدة انحدار الماء يتكون منهُ قوس من القطرات يحيط بها هالة من الضباب تزيد منظرهُ رونقاً ومهابةً وما اخطأ القائلون ان نياغارا افخم ما في الطبيعة من المناظر ولطالما تغنى شعراء الفرنجة في وصف هذه الاماكن العجيبة وعني المصورون برسمها حتى ان واحداً منهم قضى ١٧ عاماً في رسم وتصوير نقلاً عن بدائع الطبيعة في ذلك المكان . وقد اهتم الانكليز والاميركان في بناء الحواجز والارصفة حول هاتيك السيول المتدفقة و بنوا الفنادق والمتنزهات الى جانبها فصارت السياحة حول نياغارا من ألذ ما يمكن التمتع بهِ . هذا غير انهم اهتدوا من عهدٍ قريب الى استخدام القوة الكبرى الناشئة عن انحدار الماء في تلك الشلالات لتوليد الكهربائية وهم الآن ينيرون بعض المدن بالقوة الكهربائية المتولدة منها وفي نيتهم ان يتوسعوا في

العمل ويجروا القوات وينيروا الجهات بهذه القوة الغريبة . والذي يقف الى مقربةٍ من ذلك السيل المنحدر ويتأمل غرائب الطبيعة يضيع في التأمل وينسى الذي كان فيهِ واذا كان مع صديق الى جانبهِ لم يسمع لهُ قولاً ولو صرخ بملء صوتهِ لان هدير الماء في انحدارهِ وصوت التطامهِ بالصخور يصمُّ الآذان. والماء اذا ما استقرَّ في تلك الاودية بعد انحدارهِ الغريب سار في النهر الذي يقل عجيجهُ حيناً وحيناً يصل مقدار الماء الهائل الى مضيق من الارض يجري فيهِ او الى نقطةٍ من مجراهُ تكثر فيها الصخور فينشأُ عن ذلك منظر يقرب في الغرابة من انحدار ذلك السيل الغريب لان الماء تتعالى امواجهُ ويشتد في السير هياجهُ فيؤَثر ذلك على ذهن السامع والرائي تأْثيراً لا يمحوهُ الزمان ولو طال

وقد مرَّ بك القول ان القوم اهتموا لتشييد الفنادق واقامة المتنزهات حول هذه الشلالات وساعدهم على هذا خصب الارض وكثرة الماء يروي الغرس والزرع حتى ان الاشجار التي تنمو على ضفاف تلك المجاري تكبر الى حد عجيب وهم قطعوا بعضاً منها وعرضوها في المعرض مع غرائب البلاد . وقد كان اجتماع المحاسن الطبيعية في هذا الموضع داعياً الى توافد الافراد والجماعات عليهِ من كل صوب فلا يقل عدد الزائرين كل عام عن نصف مليون وكثير من الذين يتزوجون في الولايات المتحدة يقصدون نياغارا في الشهر الاول بعد الاقتران وهو يعرف عندهم بشهر العسل فيختلي المرء بعروسهِ مدة الشهر في أرض كلها دواعٍ الى الفكر والتأَمل وتناسي زحام الدنيا ومشاغلها ويروق للمتزوجين ذلك الشهر . وفوق هذا فان بعضاً من أصحاب الهوس تعلقوا من عهد قريب على أمرٍ ينهى عنهُ العقل وهو ان ينحدروا مع الشلال في نياغارا ويصلوا الى طرفهِ الاخير سالمين وفي ذلك من الخطر العظيم ما لا يخفى ولكن كثيرين منهم حاولوا ذلك فراحوا ضحية الهوس والمخاطرة الكبرى

وكان اكثرهم يضمون انفسهم في براميل محكمة السد عليها تقيهم من ضغط الماء وفعل الامواج المتلاطمة فما نجا منهم أحد وكان في جملة هؤلاء الناس انكليزي اسمهُ الكبتن وب اجتاز بحر المانش الكائن بين فرنسا وانكلترا سباحةً ولم يعبأ بكثرة أمواجهِ ونال من وراء ذلك شهرة وجمع لهُ بعضهم مكافأة بالاكتتاب بلغت الف جنيه فذهب هذا الرجل بعد حين الى نياغارا مع امرأتهِ وهناك أراد فعل المستحيل ولم يصغِ لنصائح امرأتهِ والحاحها وكانت النتيجة انهُ اختفى في عباب ذلك البحر العجاج ولم يقف لهُ الباحثون على أثر وكان قد قصد نياغارا لتمضية شهر العسل مع عروسهِ نخيب منها الآمال . وقد خربت جسور بنيت فوق هذا التيار لقوة سيرهِ فجعلوا الآن كل الجسور من النوع المعلق التي تقف على عمد في طرفي الارض من الجانبين وليس لها قوائم ولا عمد في الماء

ولما انتهينا من التأمل في بدائع نياغارا اجتزنا الحدود ودخلنا مدينة اونتاريو في بلاد كندا التابعة للدولة الانكليزية وكان البعض منا يودون لو تطول الاقامة هنا زماناً ولكننا عدنا باشارة اولياء الامر الى القطر وسافرنا الى مدينة روتشستر وهي يبلغ عدد النفوس فيها نحو مائة وثمانين الفاً وقد بنيت علَى ضفة نهر جنسي وعلى مقربةٍ منها شلالان ينحدر الماء في اولهما من علو ٢٥ قدماً وفي الثاني من ارتفاع ٨٥ قدماً . والماء هنالك عذب نقي يشبه الفضة في لونهِ لذَّ لنا الشرب منهُ . وعلَى ضفاف ذلك النهر البهي عدة معامل منها معمل للجعة (البيرا) لما علم صاحبهُ بقدومنا دعانا للتفرج على محلهِ فسرنا اليهِ وهناك فتحت لنا البراميل الصغيرة هدية من صاحب المعمل فشربنا وشكرنا وعدنا الى المسير حتى وصلنا بحيرة سنكا وهي مشهورة بجمالها طولها ٣٨ ميلاً وعرضها يختلف ما بين ٣ أميال و٦ وعمقها يزيد عن ٦٠٠ قدم ولها مزية انها لا تجلد في فصل الشتاء . وقد بني على

شطوطها منازل عظيمة وقصور نخيمة لها الحدائق الغناء فسرحنا الطرف زماناً بمناظرها وتابعنا السفر حتى بلغنا خور واتكنس وهو من المشاهد العجيبة لا مثيل لهُ في اوروبا طولهُ نحو ميلين ونصف وعمقهُ ٣٠٠ قدم وفيهِ صخور هائلة الحجم واعشاب برية بالغة منتهى الضخم فيحار الانسان في وصف غرابتهِ ونخامتهِ ويعلم منهُ مقدار عظمة الطبيعة وتقصير المناظر الصناعية عنها في الفخامة والغرابة . وفوق هذا الخور جسر كبير مررنا عليهِ ثم نزلنا الى قسمٍ من اسفلهِ على سلم من الخشب والصخور ترشح ماء من فوقنا ولذلك المنظر وقار ومهابة وصعدنا من الناحية الثانية الى فندق بني في ذلك الموقع البديع ومنهُ يرى المرء البحيرة والاودية والشعب والسهول المحيطة بتلك البقعة فبتنا هنالك ليلةً واحدة وقمنا في الصباح التالي الى مدينة وليمسبورت فلما دخلناها اطلق ٢١ مدفعاً وجاء حكمدا البوليس ومعهُ نفرٌ من رجالهِ لاستقبال المندوبين وبتنا في تلك المدينة ليلةً أخرى

وفي اليوم التالي وقف بنا القطار بعد مسير ساعة في احدى القرى الصغيرة لنرى كيف تقطع الاخشاب وتنقل فرأينا الرجال يقطعون الاشجار ويلقون بها الى النهر من داخل البلاد فتسير من نفسها مع الماء حتى تبلغ هذا المكان فيلتقطها اصحاب المعامل بالآلات التي ترفع القطع الكبرى كما يرفع المرء القلم باصابعهِ وتنتشلها من الماء فتدخلها في آلات اخرى في دور اعلى من البناء فتقشرها وتدفعها الى آلات اخرى تنشرها الواحاً وهذه تدفعها الى مكان ترص بهِ بعضها فوق بعض الى ان يجيء زمان ارسالها الى المواضع البعيدة وهي تشحن في قطر خاصة لها والعربات والخطوط وبقية اللوازم في داخل المعمل وقد قطعت امامنا عدة اشجار بالآلات البخارية باسرع من لمح البصر . وفي ذلك المعمل الواح مقطعة واخشاب تشغل مساحة لا تقل عن مائة فدان من الارض . وزرنا بعد ذلك مدينة هارسبرج دعيت على

اسم مؤسسها المستر هارس وهي على نهر صغير وفيها حديقة لطيفة في مركزها تمثال للمستر هارس المذكور والى جانبهِ جذع الشجرة التي ربطهُ اليها الهنود حين احرقوهُ حيًّا في سنة ١٧١٨. وكان ذلك ختام السياحة البديعة التي اعدها مديرو المعرض لمندوبي الدول واستغرقت ١٢ يومًا رأينا في خلالها من كرم اصحاب البلاد ولطفهم ومن اعتناء اولياء الامر بشأننا ما اطلق السنتنا بالشكر وغرس ذكر تلك السياحة في اذهاننا الى آخر الزمان

☼ عودٌ الى المعرض ☼ ولما عدنا الى اعمالنا في المعرض كان فصل الصيف قد دخل وهجر اهل اليسار فلادلفيا وقصدوا مصايفهم في الجبال او على شاطئ البحر واشهر هذه المصايف فرضة لونغ برانش على المحيط عرفت بحماماتها ويرد اليها نحو ثمانين الف زائر وزائرة كل سنة وفيها الفنادق الكبرى كثيرة العدد على شاطئ الاوقيانوس بطولهِ . وللكبراء قصورٌ في ذلك الموضع منها قصر للجنرال غرانت رئيس الجمهورية وفيها السباق المشهور للخيل يعقد مرةً في العام وتكثر مسابقة الناس اليهِ وتراهنهم على اي الخيل يسبق فقصدت هذا المحل ونزلت في فندق كان فيهِ بعض عائلات اعرفها . وفي اليوم التالي ذهبت الى الحمامات ورأيت هنالك لاول مرة ان الرجال والنساء يستحمون في حمام واحد بعضهم مع بعض فانكرت هذه العادة وهي ينكرها كل شرقي ولكن الذين يأْلفونها لا يرون فيها نكرًا لاسيما وان المستحمين والمستحمات يسترون الابدان بملابس خاصة للحمام ولا يأْتون ما يوجب النفور . وقد كان هذا الامر قاصرًا على الاميركان فصار الاوربيون يأْتونهُ في عدة اماكن بحرية . وقد شرحت لذة الاقامة في الحمامات البحرية عند الكلام على هولاندا وبلجكا . وقضيت في تلك الناحية زمانًا الى ان اتصل بي خبر وصول جلالة امبراطور البرازيل الى فلادلفيا وعرفت ان في نيتهِ التفرج عَلَى المعرض فعدت اليهِ

حتى اكون على استعدادٍ لمقابلتهِ اذا اراد زيارة القسم المصري . وبعد ذلك ابلغنا ولاة الامر ان جلالتهُ سيقابل مندوبي الدول في قاعة المدرسة الجامعة بواسطة سفيرهِ في الولايات المتحدة فذهبنا في الاجل المضروب ولقينا من مؤانستهِ وضعتهِ شيئاً كثيراً وكان جلالتهُ يحدث كلاً بما يسرهُ فلما وصل اليَّ اشار عليَّ ان ادقق في درس طرق التعليم ونشر المعارف في الولايات المتحدة لان مصر في حاجة الى ذلك لترقية شعبها . وفي ثاني الايام وصلني كتاب من مندوب دولة البرازيل يخبرني فيهِ ان جلالة الامبراطورة عزمت على زيارة القسم المصري في المعرض فانتظرت قدومها في الساعة المعينة ولما جاءَت مع المندوب البرازيلي درت مع جلالتها افصل لها واشرح وهي تبدي الاعجاب والمسرة حتى انتهت من قسمنا وخرجت شاكرة متلطفة

ودعاني بعد هذه الامور حضرة الصديق المستر ولش مدير المعرض الحالي الى الاقامة في مصيفهِ اياماً في جرمانتون من ضواحي فلادلفيا فلبيت الطلب واقمت معهُ ومع عائلتهِ ثلاثة ايام وتلك عادة عند هؤُلاء القوم الكرام يدعون الغريب الى منازلهم ويرحبون بهِ ترحيباً وهم يعدون كل كلمة يقولها عن بلادهِ علماً ثميناً حتى اني لما رأيت مندوب بلاد السويد بعد هذا اخبرني انهُ تعرف بعائلة دعتهُ الى مصيفها اياماً وهنالك تعرف بعائلة اخرى فدعتهُ وعرفتهُ بعائلة ثالثة واستمر على ذلك مدة شهر كامل يتنقل في تلك المصايف معززاً اينما حل . وهم يتبادلون الدعوات بعضهم مع بعض بمعنى ان الذي لهُ مصيف على البحر يدعو صديقاً مع عائلتهِ لهُ مصيف في الجبال ثم يزورهُ مع عائلتهِ فهم يتمتعون بكل اطايب النزهة على اشكالها بمثل هذا النظام اللطيف . وقد كان من حسن حظي اني اقمت تلك الايام في بيت المستر ولش المذكور الذي صار سفيراً لبلادهِ في انكلترا بعد

ان انتهت مهمتهُ في المعرض وكان لهُ ابنة لها ولع بركوب الخيل فدعتني في احد الايام الى الركوب والمسابقة على ظهور الجياد وقدمت لي فرساً مثل فرسها فعملت باشارتها ووقف والدها حكماً بيننا يحكم للسابق بالفضل فسبقتها في اول الامر ولكنها جدت في السير ووصلت الشأو الاخير قبلي فصار الواقفون يصفقون لذلك تهنئة للفتاة باحراز قصب السبق . وتمشينا من هنالك الى النقطة التي حصلت فيها المعركة بين اللورد هو الانكليزي والجنرال واشنطن محرر اميركا وكان الفوز فيها للاول . ورافقت مضيفي وعائلتهُ يوم الاحد الى الكنيسة وهم لا يهزأ شبانهم بالمتعبدين كما يفعل شبان غيرهم بل يعدون ذلك دليل العلم والتهذيب

ودعاني بعد ذلك المستر شاربلس من وجهاء فلادلفيا الى مصيفهِ في شستر فسرت اليهِ وقضيت اياماً مع الرجل وعائلتهِ في هناء ونعيم نقضي الاوقات بلعب الاكر وركوب الخيل والنزهة في قارب بديع يمسك المستر شاربلس دفتهُ ويقذف اولادهُ وبناتهُ ترويضاً لابدانهم . وعدت بعد هذا الى مركزي في فلادلفيا

وحصل في هذه الاثناء اني كنت اتمشى في بعض شوارع المدينة وسمعت الناس يجرون ويقولون النار اضرمت في المعرض فخشيت ان يكون ذلك في القسم المصري وتضيع المثمنات التي لا تعوَّض فيهِ وركبت عربة اسرعت بي الى جهة المعرض والتقيت بعربات الاطفاء مسرعة فلما دخلت حديقة المعرض علمت ان النار في فنادق بعيدة عن قسمنا ورأيت رجال المطافيء يصبون سيلاً مدراراً على النار ويخربون الابنية المجاورة لها حتى يحصروها في دائرة معينة فاخمدت النار بعد ان اتلفت ثلاثة فنادق بعد الاشتغال ساعتين ولم يصب احد الناس بضر . وظللت في تنقل بين ضواحي فلادلفيا حتى جاء الموعد الذي اخترتهُ لزيارة عاصمة الولايات المتحدة وحضرة رئيسها بناء على دعوتهِ ودعوة قرينتهِ كما رأيت في الفصول السابقة

واشنطن

والآن اتقدم الى عاصمة هذه الدولة العظيمة وأصف بعض مشاهدها الكبرى ولا بدَّ من ذكر شيء عن نظام حكومتها حتى يكون القارئ على بينة من امره . واني ذاكر هذا النظام على وجه الاختصار وسوف اجعل ذكره في خلال الكلام عن المشاهد حتى لا يشعر القارئ بشيء من الملل ونتم الفائدة

فقد مرَّ بك ان حضرة زوجة الرئيس غرانت لما جاءت المعرض دعتني الى زيارة (البيت الابيض) في مدينة واشنطن وهذا اسم القصر الفخيم الذي يقيم فيهِ رئيس الجمهورية مع عائلتهِ مدة تولي الرئاسة بني على نفقة الدولة واكثرهُ من الرخام الابيض وفيهِ كل ما يلزم من لوازم المعيشة المنزلية والخدام تصرف لهم رواتبهم من الحكومة فلا يتكلف الرئيس غير نقل امتعتهِ وخدمتهِ الخاصة فقط حتى اذا انقضت مدته ترك القصر لمن يخلفهُ في المنصب . وفي هذا القصر غرف فسيحة بديعة الانقان فرشت بالرياش الفاخر على نفقة الدولة ايضاً لاستقبال وفود الناس والسفراء ورجال الامة وغيرهم من الذين لا غنى للرئيس عن مقابلتهم وهو في كل اسبوع يقابل من شاء مقابلتهُ من الناس ويصافح الصغير والكبير ويسير بين رجال الدولة واصغر العمال سيراً واحداً فلا تعرفهُ من بقية الرجال الاَّ اذا دلك اليهِ عارف بحالهِ . ومدة الرئاسة عندهم اربع سنوات يمكن ان يعاد الانتخاب من بعدها ولكن القوم تعودوا من بعد ايام استقلالهم الاَّ يعيدوا انتخاب الرجل للرئاسة اكثر من مرة واحدة لئلا تطول مدة حكمهِ ويستأثر بالامر فيكون في ذلك رجوع الى الحكم الملوكي الذي ينفر منهُ الاميركان نفوراً كبيراً . ويعد الرئيس بمثابة رئيس الوزارة والملك في الممالك الدستورية فهو اوسع سلطة واكبر قوة من

ملك الانكليز او ملك ايطاليا ولهُ حق تعيين الوزراء من اعوانهِ دون سواهم وكذلك هو يعين السفراء والقناصل من اهل حزبهِ . ولهُ راتب قدرهُ ٧٥ الف ريال في السنة أي ١٥ الف جنيه فقط وكان في ما مرَّ خمسة آلاف . ويجوز لمجلس الشيوخ محاكمتهُ وعزلهُ اذا ثبت عليهِ اثم ولهُ الحق في رفض كل قرار لمجلس الامة الأ اذا أصرَّ المجلس على القرار بعد رفضهِ ولم يحصل ذلك الى الآن غير ان احد الرؤساء السابقين واسمهُ اندرو جونسون اتهم بامور ووقف امام مجلس الشيوخ للمحاكمة فلم يقر المجلس على ادانتهِ

ووكيل الرئيس قليلة خصائصهُ ولكنهُ ينتخب مثل الرئيس لاربع سنوات وهو يرأس جلسات مجلس الشيوخ الذي سيأتي ذكرهُ واذا مات الرئيس او قضت عليهِ علة بالانسحاب لم ينتخب سواهُ للرئاسة بل قام الوكيل باعمالهِ الى آخر المدة

واني بناءٍ عَلَى دعوة الرئيس غرانت وقرينتهِ تركت فلادلفيا في قطار مرَّ على ضفة سكونكيل ودلوار وهما النهران المحدقان بالمدينة واخترق بعد ذلك سهولاً فسيحة فوصل واشنطن بعد ست ساعات وذهبت من المحطة توًّا الى فندق فبتُّ ليلتي وقمت في الصباح التالي في عربة الى قصر رئيس الجمهورية فبعد سير قليل وقف الحوذي وقال لي ان هذا هو « البيت الايض » فاخذني العجب لاني لم أرَ شيئاً من ادلة الرئاسة والملك حول ذلك البيت فلا حراس يخطرون ولا جنود يقيمون ولا رجال بملابس الابهة والزخارف يظهرون وفي ذلك مخالفة لكل الممالك الاوروبية فنزلت من العربة وقرعت الجرس عملاً باشارة الحوذي فظهر لي خادم فتح الباب وقال من تريد فاعطيتهُ اسمي على بطاقة الزيارة وسألني أتريد مقابلة الرئيس نفسهِ ام قرينتهِ ام صهرهِ المستر سارتوريوس وجميعهم خرجوا من المنزل قلت اذاً قدم ورقتي هذه الى جناب الرئيس بنفسهِ وانصرفت وقد اذهلني بساطة

الحاكم على دولة من اقوى دول الارض وعجبت لقوة النظام الذي يسود بلا جنود والحرية التي تساوي رئيس الامة الكبرى باحقر افرادها . وعدت الى الفندق فاتاني في اليوم التالي مديره وبيده بطاقة الزيارة باسم الجنرال غرانت رئيس الجمهورية وعليها دعوة للعشاء في الغد عند الساعة السابعة مساء وعلمت ان أحد المعاونين في القصر الابيض احضر الي تلك البطاقة . فذهبت الى البيت الابيض في الساعة المذكورة وادخلني الخادم الى قاعة جميلة ما لبثت فيها قليلاً حتى جاءتها زوجة الرئيس ثم حضر هو ومعهُ الجنرال شريدن وزير الحرب وهو من ابطال الحرب الاميركية الاهلية أيضاً وذهبت معهم الى قاعة الطعام فوجدنا ابنة الرئيس وصهره وجلسنا جميعاً على المائدة وتناولنا العشاء ونحن نتحدث عن امور كثيرة اهمها عن مصر ومشاهدها واحوالها . ولم أرَ في هذا القصر شيئاً يوجب الذكر غير انهُ في فرشهِ وادواتهِ ونظامهِ ومنظرهِ لا يختلف عن بيوت الاكابر من الاميركان وكثيرون من أصحاب الملايين لهم قصور أعظم من هذا القصر وانهم انفقوا على زخرفها واتقانها أضعاف الذي انفق على بيت رئيس الجمهورية . ولطالما رأيت هذا الرئيس العظيم مدة اقامتي في واشنطن نازلاً من بيتهِ الابيض او في الشوارع المعروفة يتمشى وحدهُ مثل بقية الناس ويداهُ من وراء ظهرهِ حسب العادة التي اشتهرت عنه

واما مشاهد هذه المدينة غير البيت الابيض الذي يقيم فيهِ رئيس الجمهورية فاهمها الكابتول وهو دار الندوة الاميركية حيث يجتمع نواب الامة وشيوخها للبحث في مهام الدولة وما يلزم لها من النظامات والشؤون . ومعلوم ان حكومة هذه الجمهورية مثل غيرها من الحكومات الدستورية لها رئيس هو الذي تقدم ذكرهُ ومجلسان احدهما مجلس الشيوخ يرأسهُ وكيل رئيس الجمهورية كما تقدم واعضاؤهُ

٨٨ كبيراً ينذبون من كل ولاية اثنين وعدد الولايات المتحدة الآن ٤٤ ولاية . وتنحصر اعمال هذا المجلس في التصديق على مشروعات النواب ولكن لهم سلطة كبرى ليست لغيرهم من اعضاء المجالس العليا في اوروبا فانهم يعدون المجلس الاعلى في الجمهورية يحاكم امامهُ رئيس الجمهورية والوزراء اذا ارتكبوا في وظائفهم ما يوجب هذه المحاكمة . ولهم حق المعارضة للرئيس اذا انتخب للمناصب العليا غير الذين يليقون لها . وفوق هذا فان لهذا المجلس حق التصديق على المعاهدات او المحالفات التي يبرمها الرئيس والوزراء مع الدول الاخرى فهم بهذا لهم سلطة فوق كل سلطة في الولايات المتحدة و كبراء الاميركان يتسابقون الى احراز العضوية فيهِ و يدفعون الاموال الطائلة لنيل هذا الشرف فترى أكثر الشيوخ الحاليين من الاغنياء واصحاب الملايين.ولكل عضوٍ من اعضاء مجلس الشيوخ هذا او السناتو كما يسمونهُ خمسة آلاف ريال في السنة او الف جنيه وهم ينتخبون لمدة ست سنوات يجوز اعادة انتخابهم من بعدها وفي كل سنة يتغير ثلثهم و يبقى الثلثان الى ان تنتهي السنوات الست فيتغير الكل او يعاد انتخابهم . وهم يجتمعون في قاعة كبرى من قاعات الكابتول التي نحن في شأنها ولكلٍ منهم مقعد خاص بهِ امامهُ منضدة صغيرة ودرج لكتابة المذكرات وحفظ الاوراق وفي ناديهم اماكن كثيرة للزائرين على اختلاف انواعهم ولمكاتبي الجرائد فهم في هذا مثل بقية المجالس النيابية في كل الممالك الدستورية

وفي الكابتول ايضاً قاعة كبرى لمجلس النواب وهم الآن ٣٥٦ نائباً ينتخبون من الولايات كلها على نسبة عدد السكان في كل ولاية ولكل نائب راتب مثل راتب الشيوخ اعني الف جنيه في السنة وهم ينتخبون كل اربع سنوات مع رئيس الجمهورية و ينتقون من اعضاء المجالس النيابية في كل ولاية فليس يخفى ان الولايات

المتحدة مجموع ولايات مستقلة تمام الاستقلال في امورها الداخلية ولكلٍّ منها نظام يوجده رجالها وحاكم ووكيل الحاكم واحكام وقوانين خاصة بها ومجلسان لسن القوانين . وبقية ما يقال عن مجلس النواب مثل الذي قيل عن مجلس الشيوخ واسم المجلسين عند الاميركان (كونجرس) كما ان اسم مجلسي النواب والشيوخ عند الفرنساويين والانكليز (بارلمنت)

وفي قصر الكابتول غير هذه القاعات اماكن أخرى لا محل لذكرها هنا . والكابتول بناء بديع أسس على اكمة قائمة بنفسها مرتفعة حوالي ٩٠ قدماً وطول هذا البناء ٧٥١ قدماً وعرضهُ ٣٢٤ وعلو قبتهِ ٢٨٨ قدماً في رأسهِ تمثال الحرية . وتعد هذه الدار من أعظم ابنية المتمدنين فانهُ انفق عليها نحو ثلثة ملايين ومايتي الف جنيه ولها ثلثة مداخل كبرى فالذي يدخلها من الباب الاوسط يرى في صدر البناء تمثال كولومبوس مكتشف اميركا والى يمينهِ من الداخل تمثال الاستقلال الاميركي وعند الباب الشمالي تمثال يشير الى تنصيب واشنطن على رئاسة الولايات المتحدة وتماثيل اخرى تمثل وصول كولومبوس الى هذه القارة سنة ١٤٩٢ والتوقيع على قرار الاستقلال سنة ١٧٧٦ وتسليم كورنوالس القائد الانكليزي سنة ١٧٨١ ورسم الولايات الاصلية وعددها ١٣ وغير هذا مما يوضح تاريخ اميركا وتقدمها من سنة الاكتشاف الى سنة المعرض الذي كنا في شأنهِ

هذا كلهُ تجدهُ في بناء الكابتول العظيم ولا بدَّ قبل الانتقال منهُ ان نخبر القارئ ان حكام الولايات المتحدة ورئيس جمهوريتها والنواب والشيوخ وكل الذين يجتمعون في هذا المحل وذكرنا اسماءهم ينتمون الى احد الحزبين العظيمين في البلاد وهما حزب (الربوبليكنس) او الجمهوريين وحزب (الدموقراطس) او العاميين وكل من لهُ دخل في سياسة الولايات المتحدة لا بدَّ ان يكون تابعاً لاحد هذين

الحزبين ولكن الاكثرية لحزب الجمهوريين من زمان طويل واكثر رؤساء الجمهورية الذين انتخبوا من بعد الحرب الاهلية منهُ ما خلا المستر كليفلاند رئيس الجمهورية السابق فانهُ زعيم الحزب الديموقراطي . فما دام الحزب الجمهوري لهُ الاكثرية في البلاد فالرئيس يكون منهُ وكذلك السفراء والقناصل لان حكومة الولايات المتحدة جرت على عادة تختلف عن عادة الممالك الاوروبية في ترقية سفرائها ونقلهم فان الرئيس هو الذي يعين هؤلاء القناصل والسفراء في مراكزهم فاذا انتهت مدتهُ وجاء رئيس جديد تغير اكثرهم وجاء بدلهم اصدقاء الرئيس الجديد وفي هذا ما لا يخفى من تسليم المناصب السياسية الى الذين لم يتمرنوا على اعمالها

ويلي الكابتول في الاهمية المكتبة العمومية ولها بناء عظيم تظنهُ قصراً منيفاً طولهُ ٤٧٠ قدماً وعرضهُ ٣٦٥ وقد انفقوا عليها مليون ومايتي الف جنيه وفيها اربعة ملايين مجلد يجوز لمن شاء ان يطالع الذي يريدهُ فيها وهم كل سنة يزيدون عدد الكتب حباً في ترقية شأن العلم وافادة الجمهور

ودار التحف وفيها من الاواني الصينية الغريبة صنعت في الهند والصين واليابان وفرانسا شيء كثير . وفيها قسم للصور من ضمن رسومهِ ستماية رسم او تزيد تمثل هيئة الهنود ومشايخهم وطرائق معيشتهم ونريد بالهنود هنا اهل اميركا الاصليين وهم جنس منفرد عن غيرهِ من اجناس البشر عرفوا بطول القامة ودقة الانف وحدة النظر واللون النحاسي المميز لهم عن سواهم . وقد كانوا كثاراً في اول الامر ولهم اطلاع واسع على بعض العلوم . ولا سيما الفلكية منها وآثارهم في بلاد المكسيك وما يليها الى الجنوب تشهد بتقدمهم في العصور الخالية . ولكنهم اصحاب خديعة ومكر وحيلة ينفر الاوروبيون الذين عمروا اميركا منهم وقد حدثت بين

الفريقين حروب كثيرة كادت تفضي الى انقراض هؤلاء السكان الاصليين . وفي الولايات المتحدة نحو نصف مليون منهم الآن في الولايات القاصية وهم بلا صوت في ادارة البلاد ولا شأن ولا نفوذ واكثر اهل الولايات المتحدة يكرهونهم كرهاً شديداً واذا سجن احدهم لجناية تعمدوا اذيتهُ ولم يصبروا عليهِ الى حين صدور الحكم القانوني · وقد اشتهر هؤلاء الهنود بالفتك الذريع بالفتيات الاميركيات واهاجوا سخط الاميركان عليهم بسبب هذه الخلة فصار القومِ الآن كلما سجن اثيم لمثل هذه التهمة يتنكر بعضهم ويهجمون على السجن ليلاً فيستاقون الهندي الاثيم ويشنقونهُ بامرِ انفسهم بدل امرِ العــدل وهذه عادة غريبة قاصرة عَلَى تلك الولايات المتحدة لا يأتونها الاَّ مع الهنود ولا سيما اذا كانت جريمتهم من نوع تعذيب البنات وتعرف هذه العادة الاميركية "باسم لينتش" وهي من اغرب ما يروى عن الاميركيين

ويلي هذا المتحف في الاهمية بناءٌ عظيم للمتقاعدين او هم ارباب المعاشات فيهِ قاعات فسيحة تعقد داخلها بعض الجمعيات الحافلة ويمكن ان تضم عشرين الفاً من السامعين

وقصر الاختراعات وهو من اعظم الابنية الانيقة خصَّ بادارة الاجتماعات وحصرها في المخترعين وفيها الدلالة الكافية على اتساع نطاق الاختراع والسعي المفيد في بلاد الولايات المتحدة فان عدد الطلبات المسجلة في هذه الادارة لا يقل عن الوف الالوف وفيها نموذج من كل اختراع يقدمهُ الذين يطلبون ان تحصر منفعة الاختراع فيهم فلا يقل عددها عن نصف مليون مثال متقن الصنع . وقانون الاحتكار والاختراع في الولايات المتحدة كثير المواد ولكنهُ يفي بمراد المخترعين اكثر من قوانين انكلترا وفرانسا وغيرهما واهم موادهِ ان المخترع يحق لهُ ان يحتكر

بيع الصنف الذي يخترعهُ او بعضهُ الى مدة معلومة لا تقل عن عشر سنين وفي بعض الاحوال خمس عشرة سنة لقاء رسوم لا تذكر يدفعها الى خزانة الدولة اقساطاً. فلا عجب اذا نمت الصناعة وكثر الاختراع في ظل دولةٍ هذا نظامها

ويلي ذلك قصور عظيمة للنظارات وهي الخارجية والمالية والحربية والعدلية والزراعة والبحرية والبوسطة وليس للداخلية وزارة في واشنطن لان كل ولاية حرة في امورها الداخلية ولها وزير خاص بها في قاعدة الولاية . وقد دخلت سراي الخارجية بعد ان ارسلت اسمي الى الوزير وهو يومئذٍ المستر فيش فقابلني وقرأ كتاب توصيةٍ بي جئت بهِ من صديقٍ لهُ في فلادلفيا فرحب بي كثيراً واراني بعض جوانب الوزارة وفي جملتها قاعة عظيمة حوت رسوم الوزراء الاميركيين جميعهم من يوم تأسيس الجمهورية الى ذلك الحين . وقد دعاني هذا الوزير للعشاء في منزلهِ فلبيت الطلب ووجدت عندهُ المستر سانفورد سفير الاميركان في بلاد البلجيك . وتوجهنا بعد العشاء الى منزل وكيل الوزارة لحضور مرقص واحتفال كبير فلقيت هنالك النواب والشيوخ والحكام وسراة الاميركان وفي جملتهم بعض من الذين قضوا فصل في الشتاء في مصر وعرفتهم فيها . ودخلت ايضاً وزارة المالية متفرجاً في جوانبها وفيها مطبعة سرية تطبع اوراق الحكومة المتداولة بين الناس كالنقود وعملها سري لا يصل اليهِ العمال انفسهم لان الذي يطبع لا يرى الذي يجمع الحروف والذي يصنع الورق لا يعرف صانع الحبر وهلم جرًّا وفي كل ذلك حذر من التقليد وتحمل الغبن والخسارة . ونظارة المالية هذه تصرف كل ورقة من هذه الاوراق تقدم اليها بقيمتها نقود وهي في ذلك مثل بنك انكلترا وبنك فرانسا وغيرهما من المصارف تتداول الايدي اوراقها كما تتداول النقود . واذا وجدت اوراق مالية مزوَّرة من هذا القبيل فما على صاحبها الَّا ان يحضر الى نظارة المالية

فتعطيهِ ورقة بقيمتها وتغير ايضاً الاوراق البالية من كثرة الاستعمال

ومدينة واشنطن مثل الدولاب شكلاً مركزها الكابتول الذي ذكرناهُ ومن هناك تتفرع الشوارع في شكل دائرة وتسمى باسماء حروف الهجاء تسهيلاً واختصاراً . والمنازل والحوانيت كلها منمرة مثل بقية المدن الكبيرة . والشوارع مصقولة بالاسفلت وهي واسعة كثيرة النظافة . وفي المدينة نحو ثلثمائة وخمسين الف نفس كانوا في اول هذا القرن ٨٠٢٨ فصاروا ٢٣٣٦٤ في سنة ١٨٤٠ ومائة وعشرة آلاف في سنة ١٨٧٠ ونحو ماية وخمسين الفاً في سنة ١٨٨٠ . وفي جملة سكانها ٤٠ الفاً من النواب والشيوخ وموظفي الحكومة والسفراء وعائلات هؤلاء الموظفين فلذلك قيل انها مدينة الموظفين والنواب وقد ارتفعت اسعار المأكولات فيها ارتفاعاً كبيراً حتى انها لتعد الآن من اكثر مدن الارض غلاء . واكثر الخادمين في منازلها من سكانها السود وهم يقربون من خمسين الفاً فيها . وفيها من المشاهد الكبرى غير الذي عددناهُ تماثيل لواشنطن محرر اميركا ومسلة تعرف باسمهِ ايضاً ارتفاعها ٥٥٥ قدماً وكلها من الرخام الابيض بلغت نفقة انشائها ثلثمائة الف جنيه . ومنها تمثال لافايت القائد الفرنساوي الذي اعان الاميركان على الاستقلال وتمثال مارشال وهو مؤسس نظام المحاكم والقضاء في الولايات المتحدة

وعدت بعد هذه السياحات الى مركزي في فلادلفيا فعلمت من المستر تشايلد ان فيها اثنين من اشراف الانكليز وكبراء مشاهيرهم هما اللورد دوفرن واللورد روزبري . فاما اللورد دوفرن فقد كان مدعواً للعشاء في تلك الليلة عند المستر تشايلد ودعيت انا أيضاً وكان اللورد دوفرن يومئذٍ حاكم مستعمرة كندا الانكليزية ثم صار والياً للهند ونقل منها الى الاستانة سفيراً ثم نقل الى رومه فالى باريس

ومنها استقال من الخدمة بعد ان شهد جميع الناس انهُ من ابرع سفراء زمانهِ واكثرهم استعداداً لحل المعضلات وقد كان من حسن حظي اني اجتمعت بهِ للعشاء في منزل المستر تشايلد وكان في جملة قولهِ لنا انهُ شديد الميل الى رؤية مصر وآثارها وقد تحققت امنيتهُ هذه لانهُ جاء مصر بعد اخماد الثورة العرابية مندوباً من قبل حكومتهِ لتنظيم حكومتها وتقرير القواعد التي تسير عليها. ويذكر القراء ان مصر سائرة الآن بحسب آرائهِ المنشورة في التقرير المشهور وانهُ كان يدير حركة المسألة المصرية مدة وجودهِ في الاستانة. ولما جاء مصر في مهمتهِ المذكورة ندبني دولتلو رياض باشا يوماً لابلاغهِ كلاماً فلما اجتمعت بهِ ذكرني باجتماعنا في فلادلفيا قبل ذلك الحين بسبعة اعوام. واما اللورد روزبري فاني اخبرني صديقي المستر دركسل الذي مرَّ ذكرهُ انهُ كان ضيفاً عندهُ ودعاني للعشاء في ذات ليلة فاجتمعت بهذا الرجل العظيم وهو الذي صار بعد ذلك وزيراً للخارجية على عهد غلادستون ثم خلفهُ في رئاسة الوزارة الحرة وله شهرة تدوي بها الآفاق فلست ازيد القراء بهِ علماً. وكان يوم قابلتهُ شاباً تلوح عليهِ ادلة العظمة ويكثر من الصمت والتأمل ولكنهُ اذا قال شيئاً كان قولهُ عذباً طلياً يسحر السامعين



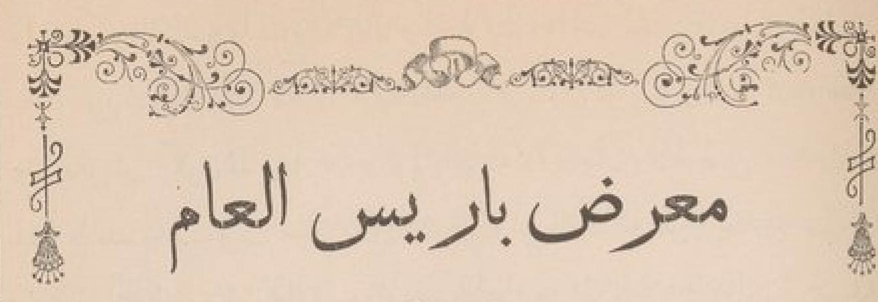
ختام المعرض

كل الذي مرَّ بك تمَّ في ستة اشهر ونحن في المعرض الاميركي العام حتى اذا قرب ختامهُ بدأنا بالاستعداد للعود الى مصر ووزعت الجوائز قبل الختام بقليل على أصحاب الصناعة والتجارة وغيرهم ممن عرض شيئاً يستحق الذكر وكان في جملة الجوائز واحدة للمعرض المصري نالها على نوع من القطن . ولما جاء يوم الختام وهو ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧٦ قدم رئيس الجمهورية من العاصمة باحتفال مثل الذي وصفناهُ عند افتتاح المعرض فالقى خطاباً وجيزاً شكر فيهِ الدول المتحابة التي شاركت الولايات المتحدة في احتفالها ومعرضها وذكر مصر معها بنوع خاص واعلن اقفال المعرض فاطلق مائة مدفع ومدفع وصدحت الآلات الموسيقية بالانغام ودار ذكر الوداع والتهاني وكان مدير المعرض وعمالهُ يثنون على الحاضرين ويودعون ويذكرون اوقات الصفاء . وفي مساء ذلك اليوم استقبل رئيس الجمهورية مندوبي الدول للوداع وشكر كلاً منهم على حدة وانصرفنا ونحن نذكر اياماً قضيناها بكل ما يفيد العقل والنفس وارسلت آخر التقارير عن المعرض الى سمو الخديوي توفيق باشا وبدأنا بتوديع اولئك الاصدقاء الذين اظهروا لنا لطفاً وكرماً غير معتاد ثم سافرنا من مدينة فلادلفيا آسفين لفراقها ومن فيها وسرت الى مدينة نيويورك ونزلت في فندق هوفمان اياماً ثم ركبت باخرة من بواخر شركة هويت ستار الانكليزية ومعنى اسمها النجم الابيض ومركزها في مدينة لفربول بيلاد الانكليز فودعت الاصدقاء وغادرت ربوع الاميركان بعد اقامة ١٤ شهراً وكان ربان الباخرة رجلاً كريم الاخلاق وفيها كثار من اهل الوجاهة بينهم الموسيو باتنف معتمد روسيا في المعرض. ولما كان زمان سفرنا في فصل الخريف او اول الشتاء فان الجو أظلم مدة السفر

كله وكثر الضباب والمطر ولكن الامواج لم تزد عن الحد المعتاد فوصلت السفينة ميناء لفربول ليلة عيد الميلاد من تلك السنة بعد ان مخرت في البحر تسعة ايام اجتازت فيها ٣٠٠٠ ميل وكان بعض الركاب لا يصدقون انها تصل في ذلك اليوم والبعض يصدقون فجعلوا يتراهنون ولما قضي الامر وتمّ المراد ربح بعضهم من البعض الآخر مالاً وافراً بهذا الرهان وعوّل اكثرهم على شراء هدية لربان الباخرة بهذا الربح لانهُ كان كثير الاهتمام براحة المسافرين

وعدت بعد ذلك الى مصر فتشرفت بمقابلة سمو الخديوي وعرضت عليهِ نتيجة المأمورية فاظهر الرضى والارتياح وكان ذلك ختام سياحتي في الولايات المتحدة ومأموريتي في معرضها المشهور والحمد لله على حسن الختام





معرض باريس العام

سنة ١٩٠٠

لما اوشك قرن الحضارة والاختراع على الختام خطر لامة الفرنسيس ان تجعل عامهُ الاخير ممثلاً لآياتهِ جامعاً لكل حسناتهِ فتقيم في باريس الحسناء معرضاً عاماً تتسابق الامم فيهِ الى عرض النفائس والبدائع وتجلى آيات التقدم الباهر في كل ابواب العمران والارتقاء فنادت ام الارض تدعوها الى الاشتراك في هذا المعرض العظيم ولبتها الشعوب متوافدة على عاصمتها البهية من جميع الامصار قادمة بما انتجت قرائح نوابغها من فنون هذا الزمان ومصنوعاتهِ وعلومهِ واكتشافاتهِ حتى اذا فتحت ابواب هذا المعرض المشهور كانت القصور المنيفة قائمة في جوانب ارضهِ الرحيبة بين ما مهدوا من بهي الطرق وبديع الحدائق والمشاهد التي تختلب العقول وقد ملئت هاتيك القصور بآثار الاوائل والاواخر ونسقت غرائب التقدم الحديث من مبتكرات الاقوام المختلفة فبدت جميعها آيات بينات تشهد بمقدرة الانسان وارتفاع درجة العمران في ذلك القرن العجيب لان المعرض كان صورة للارض مصغرة ولكنها بديعة الاتقان وافية البيان ساحرة للاذهان ما أتى الناس بمثلها في جميع الازمان

وما اشتهر في الاقطار بناء هذا المعرض حتى بدأ كل ذي قدرة على الذهاب يتحفز استعداداً لرؤْية محاسنهِ وبدائعهِ لان المعرض مدرسة للمرء تزيدهُ علماً

واختباراً وتمثل لديهِ ما صنع الاولون والآخرون وما ادركوا من اسرار الطبيعة وما سخروا من عناصرها وما انجزوا لترقية حالة الافراد والاقوام في كل زمان ومكان وما يمكن ان يكون قد بلغهُ بالخبر ولم يظهر امامهُ بالعيان ولا سيما هذه المخترعات التي لا تعد وقد تناولت معظم ما في الارض وغيرت شكلهُ تغييراً يكاد يحسب من خوارق المعجزات مثل البخار الذي اودى بالابعاد وقرب البلاد من البلاد حتى انهُ يمكن ان يسير المرء في ايامهِ حول الارض في اقل من اربعين يوماً لو استمرَّ علَى المسير وما كان ذلك في ما قبل بالامر الميسور . ومثل التلغراف الذي جعل الارض اصغر مما صغرها البخار حتى ان الواقف في اطراف الشمال يمكن لهُ العلم باخبار النائي في اقاصي الجنوب والوقوف علَى احوال كل صقع سحيق ساعة بعد ساعة . واصبح الامر الذي كان يلزمهُ صبر الاعوام حتى يصل بعض المواقع المتباعدة يذيع حال وقوعهِ وينتشر بين جميع الاقوام . واغرب ما في هذا النوع تلغراف ماركوني الذي ينقل الاخبار بلا سلك ولا موصل غير دقائق الهواء تدفعها آلتهُ الكهربائية امواجاً تلو امواج في الفضاء حتى اذا بلغت موضع آلة أُخرى من هذا النوع نقرت عليها نقراً خفيفاً وطبعت اشارات مثل اشارات التلغراف المأْلوف فيقرأها القارئون وهم لا يرون مصدرها ولا واسطة وصولها. وقد اصبح اهل اوروبا واميركا يتناقلون درجات الحرارة واخبار الهواء ومجاريهِ في الاوقيانوس الاتلانتيكي ويعلمون حقيقتها قبل ان تبلغ شطوط ارضهم بهذا التلغراف العجيب حتى اذا ظهر لهم ان اعصاراً او عصفاً كبيراً قادم عليهم استعدوا لهُ ولم يخاطروا بالسفن في ساعة البلاء الكبير . واهم من هذا ان السفن ترسل اخبارها الى الشواطيء وهي في عرض البحر على بعد الف وخمسمئة ميل عن البر فيدري الناس باخبارها وتعرف كل اخبار الناس وهي بعيدة عنهم هذا البعد حتى اذا وقعت احداها في مصاب امكن لها ان تخابر اقرب

الشواطيء بامرها فتأتيها النجدة بدل ان تستسلم للقضاء وتغرق في البحار. ثم هم جعلوا الآن يطبعون جرائد تصدر في البواخر كل يوم مدة سيرها وتستقي اخبارها ساعة بعد ساعة على طريقة ماركوني من الشطوط فلا يحسب المسافر نفسهُ منقطعاً عن العالم واهلهِ مدة السفر لانهُ يعلم ما يريد بهذا الاختراع البديع. هذا وكثير غيرهُ يراه المرءُ في المعارض موضحاً من نشأتهِ الى آخر درجاتهِ ويدرك بالعيان ما يلزم لادراكه في الكتب طويل الاعوام. ولو شئنا ان نعدّ غرائب العصر الحديث التي مثلت في هذا المعرض لضاق دون عدها المقام لانهم طيروا الاصوات بتلفونهم وانطقوا الجماد بفونوغرافهم وولدوا غرائب الصناعة بهذه المجاري الكهربائية التي تعد اساس الاختراعات الاخيرة وقاعدتها حتى انهم بدأُوا يستعيضون بها عن البخار ويستخدمونها لكل غاية من امثال ما ذكرنا ولا بد ان يكون شأْنها عظيماً في المستقبل القريب ففائدة المعارض الجامعة في هذه الابواب ظاهرة ولكن الخبر ليس كالعيان. هذا غير ان المعارض تعد اندية لاهل العقول ورجال العلم والعمل ومجامع لكل فن ومطلب يختلف اليها زعماءُ الافكار ويتنابها المجدون العاملون على ترقية درجة الحضارة في الشرق والغرب فيتبادلون الآراء ويتناقلون اخبار علومهم واكتشافهم وينشرون آيات اختبارهم وفوائد بحثهم على العالمين

ولقد كان من حظ العالم العربي ان معرض باريس الاخير انتابهُ اثنان من من الكتاب المجيدين ونشروا على الجمهور خلاصة ما رأوا فيهِ بالطف اسلوب واجلى بيان. هما حضرة الفطن الذكي احمد بك زكي اتفق مع صديقهِ حضرة الدكتور الفريد عيد صاحب مجلة طبيب العائلة وارسل رسائل رنانة عن المعرض طبعهُ كتاباً اسمهُ الدنيا في باريس ووزع على قراء تلك المجلة بلا ثمن فكان تحفة عدد صفحاتهِ ٢٧٢ مزينة بجميل الرسوم تستحق الذكر بين مفيد المطبوعات الى آخر الزمان

وثانيهما حضرة العلامة المشهور الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف الغراء فانهُ طبع في مجلتهِ سلسلة مقالات بلغت غاية الارب في متانة عبارتها وبديع تنسيقها وصدق معانيها حتى انهُ لم يكتب بلغة العرب احسن منها في كثير من الفصول . هذان الكاتبان المجيدان سبقا كل سابق في كتابة المواد عن المعرض حتى اني لما بدأت بتسطيرِ هذا الفصل عولت في كثير من اجزائهِ على مقالاتهما واصبح شكرهما واجباً بلا مراء

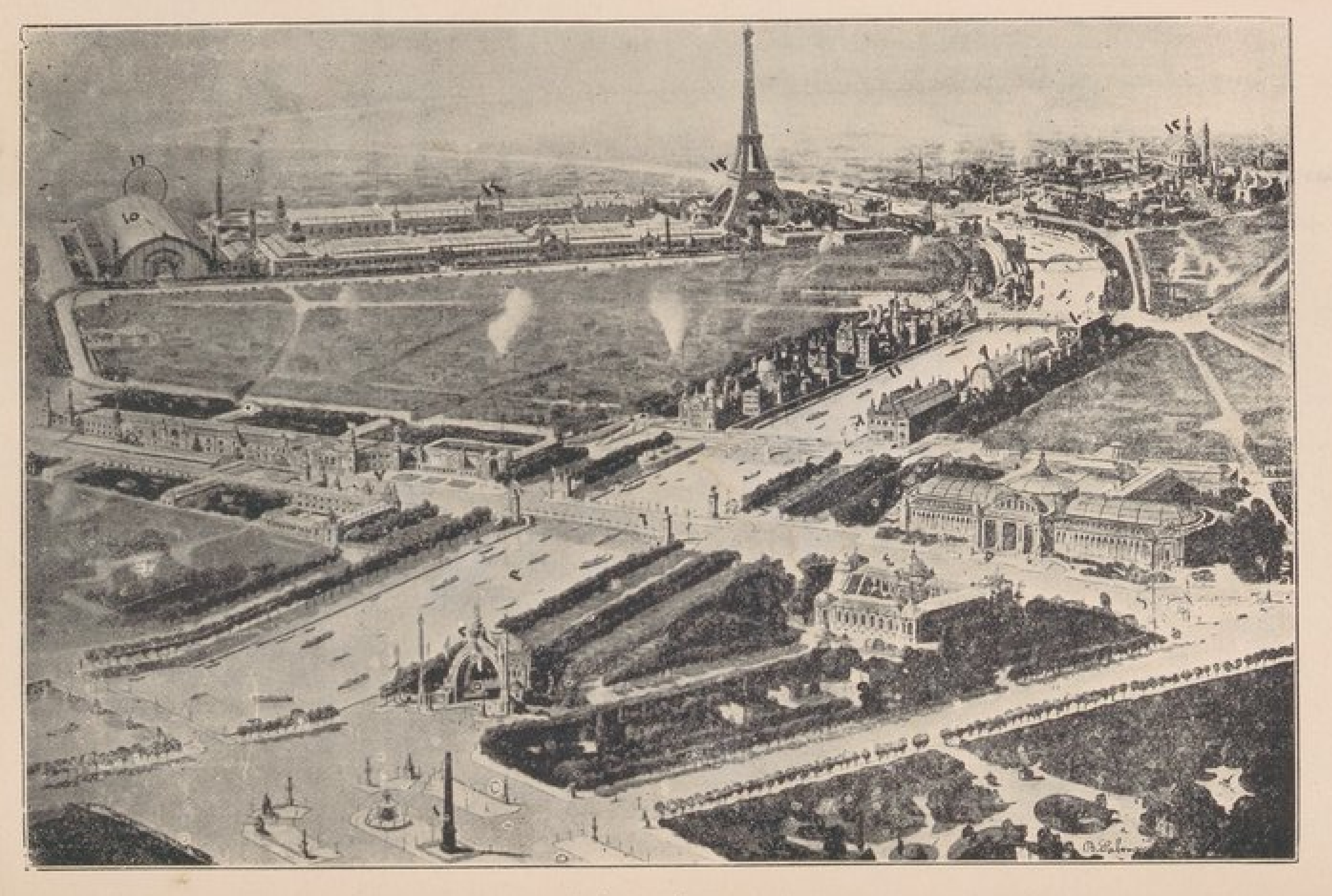
ولقد عنَّ لي ان القي دلوي في الدلاء فازور هذا المعرض الاكبر واسجل ما يدور في خاطري عن بعض مشاهدهِ وآياتهِ فاجتزت البحر الى مرسيليا يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٠٠ وسرنا ذلك اليوم فلما كان الغد ظهرت جزيرة كريت ودنت الباخرة منها فكانت تسير على مقربة منها وهي الى الجهة اليمنى حوالي ١٢ ساعة لانها جزيرة طويلة لا تقل عن ١٥٠ كيلو متراً من طرف الى طرف . ثم دخلت الباخرة البحر اليوناني اطلقوا عليه هذا الاسم لوقوع الجزر اليونانية فيه وفي جملتها الجزر التي كانت لدولة الانكليز ثم تنازلت عنها لحكومة اليونان في بدء حكم الملك جورج الحالي سنة ١٨٦٤ . وظهرت في اليوم الثالث جزيرة صقلية (سيسيليا) الى جهة اليمين وجبال كلابرا الى جهة الشمال وكلاهما من الاملاك الطليانية . ثم بلغنا خليج مسينا وهو مضيق من الماء تنحصر فيه الامواج وتكثر اهوال السفر فيه بسبب الانواء وقد بنيت على شاطئهِ مدينة مسينا المعروفة بجمال منظرها وحسن موقعها فكنا نرى شوارعها من الباخرة واعمدة قناديلها نظراً الى اقترابنا منها . وفي اليوم الرابع مررنا بجزيرة كورسكا على الجهة اليمنى وهي الجزيرة التابعة لفرانسا وقام منها نابوليون الكبير . ثم جزيرة سردينيا وهي تابعة لايطاليا مررنا بها وهي الى الجهة اليسرى . وظللنا على هذا السفر المتوالي حتى بلغنا مدينة مرسيليا في اليوم الخامس

من ايام السفر واقمنا فيها ثلثة ايام ثم برحناها الى باريس واقمنا ١٢ ساعة في القطار
واقمت في باريس شهراً كاملاً اتردد يوماً بعد يوم على معرضها العظيم فرأيت
ان الذي يريد العلم الصحيح بكل ما فيه يلزم له ان يقيم على ذلك مدة المعرض باكملها
وقد لا تكفيه حتى ان اصحاب المعرض انفسهم لا يعلمون فيما اظن كل ما يعرضون
فيه من الاشكال . وتاريخ هذه المعارض يرجع الى الاسواق التي كانوا يقيمونها في
المدائن والقرى مدة العصور الغابرة ولكنها لم تصر شيئاً يستحق الذكر الا في اواسط
القرن الماضي حين اقام الانكليز معرضاً عاماً سنة ١٨٥١ بناء على اقتراح البرنس البرت
والد جلالة الملك ادورد الحالي وقد بقيت اجزاء هذا المعرض وحفظ كثير من بقاياه
في سدنام من ضواحي لندن واسمه قصر البلور وهو من مشاهد لندن المعدودة الى
اليوم . ومساحة هذا المعرض ٧٣١٥٠ متراً مربعاً زاره مدة وجوده ستة ملايين
نفس وعدَّ ذلك يومئذٍ نجاحاً كبيراً . ثم بدأت فرانسا باقامة هذه المعارض فانشأت
اولها سنة ١٨٥٥ بعد الانتهاء من حرب القرم المشهورة في ميدان شان ده مارس
وكانت مساحته ١٦٨٠٠٠ متر مربع ومساحة قصره ٣٢٠٠٠ متر مربع ثم عادت
لندن في سنة ١٨٦٢ واقامت معرضاً آخر في حي كنزنتون وهو من مساكن الاكابر
في عاصمة الانكليز وقصره باقٍ الى الان جعلوه معرضاً للمنحوتات والنقوش القديمة
والحديثة ونقلوا اليه كثيراً مما كان في المتحف البريطاني المشهور . وفي سنة ١٨٧٣
قامت دولة النمسا لمجاراة الرفيقات في هذا المضمار فانشأت معرض ڤينا وتبعتها
جمهورية اميركا ففتحت معرضها الاول سنة ١٨٧٦ تذكاراً لمرور مئة سنة على اعلان
حريتها واستقلالها وعلى اثر ذلك اصدرت حكومة فرانسا قراراً باقامة معرض عام
في عاصمتها كل عشر سنين لان جمال باريس الفتان واتساع ضواحيها وميادينها
وتوسط مركزها وشهرتها بالمحاسن عامةً تضمن اقبال الناس على معارضها ولو كثرت

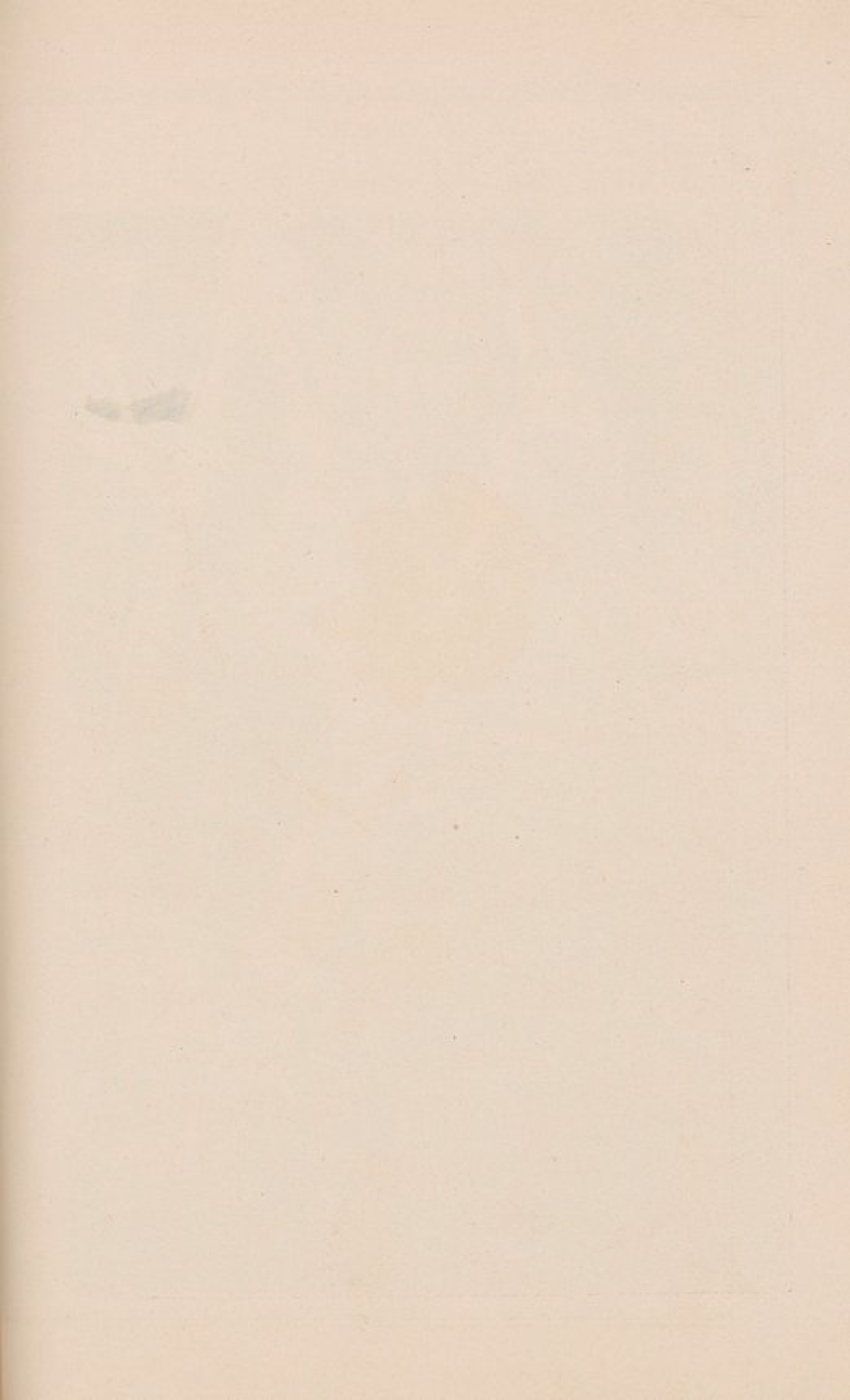
فاقامت معرضاً سنة ١٨٧٨ وبقي منه الى الان قصر التروكاديرو واقامت المعرض التالي سنة ١٨٨٩ تذكاراً لمرور مئة عام على سقوط الباستيل في يد الشعب الفرنسوي وسقوط الاستبداد ونشأة الحكومة الجمهورية في فرانسا فكان معرضاً عظيم الشان· وكانت جمهورية الاميركان ابداً في تقدم كبير فرأت بعد ذلك ان تبرز ادلة تقدمها الباهر للعالمين واقامت معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ وجعلتهُ اكبر ما تم من نوعهِ الى ذلك الحين وانتهت باقامة معرض سان لويس الاخير سنة ١٩٠٤ فكان اوسع المعارض طراً في مساحة ارضهِ وزادت نفقاتهُ عن عشرة ملايين جنيه.

واما فرانسا فانها عادت الى العمل بقرارها السابق وارادت ان تخلد ذكر القرن التاسع عشر بتمثيل غرائبهِ وجعلت المعرض في سنة ١٩٠٠ آخر سني القرن المذكور وهو موضوع كلامنا الآن

اقيم هذا المعرض على ضفتي نهر السين في ساحة شان دي مارس وبلغت مساحة ارضهِ مليون وثمانين الف متر مربع منها ٤٦٠ الفاً شيدت عليها الصروح الفخيمة والمباني الفاخرة ونحو مئة الف متر زرعت حدائق غناء وروضات فيحاء تشرح برؤيتها الصدور وفي جملة ذلك زهاء اربعين الف متر فرشت بالعشب النضير بساطاً عديم المثال ومثل هذا العشب السندسي كثير في جهات اوروبا ولونهُ كالزمرد البهي . وقد غرسوا ٣٠٠٠ شجرة في جوانب هذا المعرض وجعلوا بعضها حرجات في البهاء والرواء وكان الورد المزروع على اشكالهِ الكثيرة يشغل ٣٠٠٠ متر من الارض وحدهُ غير بقية الاشجار والازهار . وجاؤا بنحو ٢٨ الف قصعة او برميل نمت فيها الشجيرات والاعشاب والازهار المتنوعة ورصوها في طرق المعرض وهم يتعهدونها يومياً ويسقونها ما يعادل ٣٠٠ الف ليتر من الماء .



(معرض باريس العام)



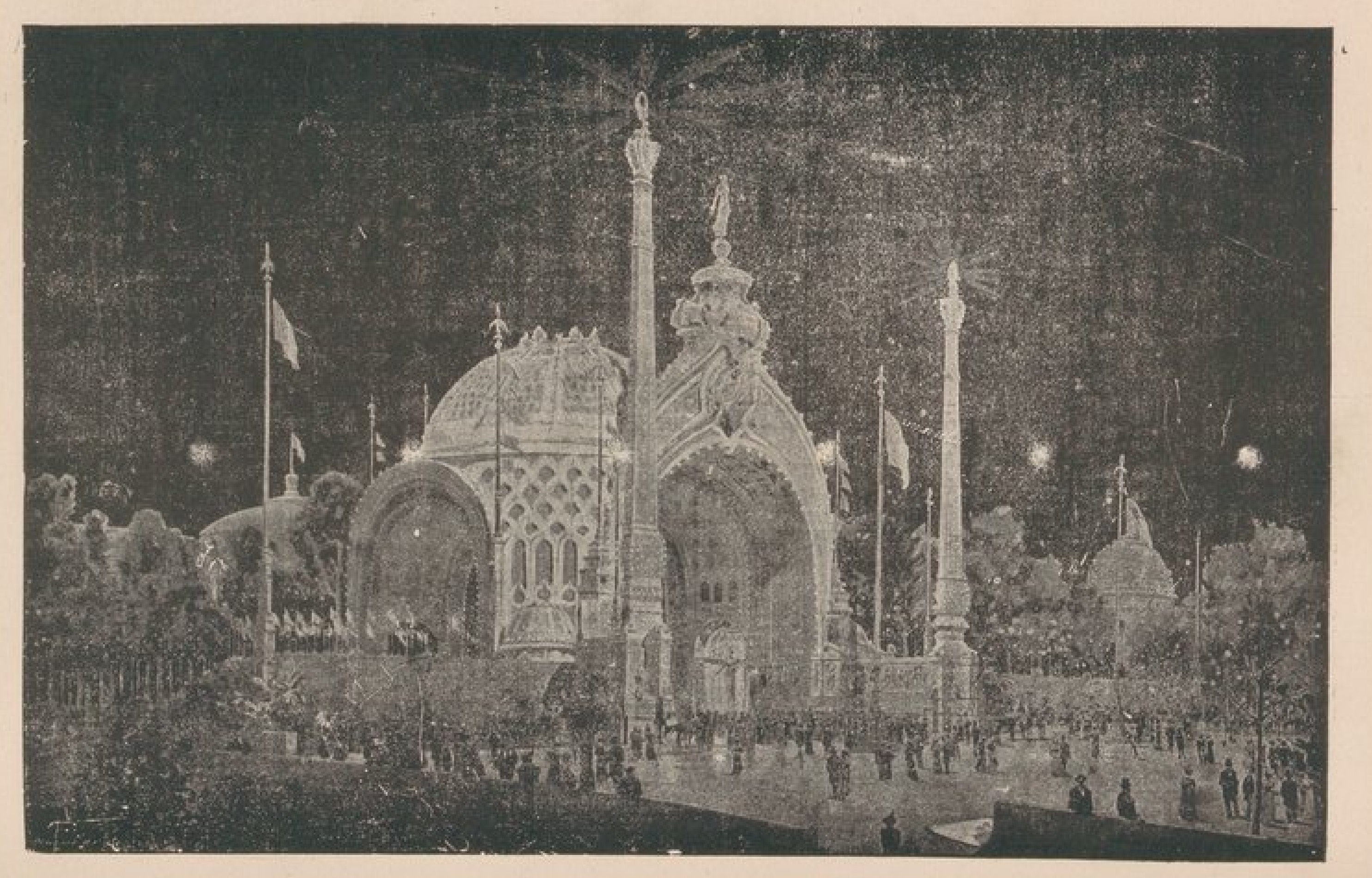
واقاموا كثيراً من الانصاب والتماثيل صنعت من الرخام يتدفق الماء منها على أشكال تروق للناظرين . يكفي للعلم بمحاسن هذه الاشجار والرياحين والازهار انهُ انفق عليها وحدها مبلغ ٢٣ الف جنيه

وقد فتح للمعرض ٤٥ باباً تتوارد جموع الناس منها كل يوم الى اجزائهِ وبنوا فوق نهر السين ٢٥ جسراً او قنطرة لما ان المعرض كان على ضفتي النهر كما تقدم الكلام فكان الجسر لا يبعد عن الجسر الآ مسافة ٣٠٠ متر بوجه التقريب حتى لا يجد الناس عناءً في الانتقال من جزء في المعرض الى جزء . وكانوا يفتحون هذه الابواب كل صباح لجماهير المنتظرين في الساعة ٨ من الصباح ويوصدونها في الساعة ١١ من الليل ولكن عمال المعرض وهم لا يقلون عن ٢٠٠ رجل كانوا يهبون للعمل قبل فتح ابوابهِ بساعتين على الاقل لكنس طرقهِ وجوانبهِ واعادة رونقهِ ونظامهِ ويلي ذلك توارد المكلفين بحفظ الامن والنظام وهم ١٢٠٠ من الشرطة و٦٠٠ من الحراس و٣٠٠ من الفرسان و٥٠٠ من الحرس الجمهوري و٤٠٠ من المراقبين على الابواب لتذاكر الدخول فمجموع هؤلاء العمال ٣٠٠٠ وهم المعينون رسمياً من الحكومة ولجنة المعرض للقيام باعمالهِ العمومية لا يدخل في عدادهم العمال الذين خصوا من داخل المعارض بخدمة اجزائهِ وهم يعدون بالالوف . وكان هؤلاء يدخلون بعد العمال الرسميين الذين ذكرناهم فيتواردون افواجاً من باب المطاعم والحوانيت وخدمة الحانات والمقاولين والمتعهدين والجزارين وباعة السمك والطير وعمال البريد والتلغراف والتلفون ويليهم موظفو المعرض كلٌ يذهب الى محلهِ حتى اذا جاءت الساعة ٨ والمراقبون على الابواب فتحت للداخلين وبدأت حركة الاعمال . وقد كان عناؤهم بمسألة الانتقال شديداً حتى يسهلوا سبل الحركة والمسير على الزائرين فما تركوا وسيلة حتى عمدوا اليها فاتوا بالشيء الكثير من

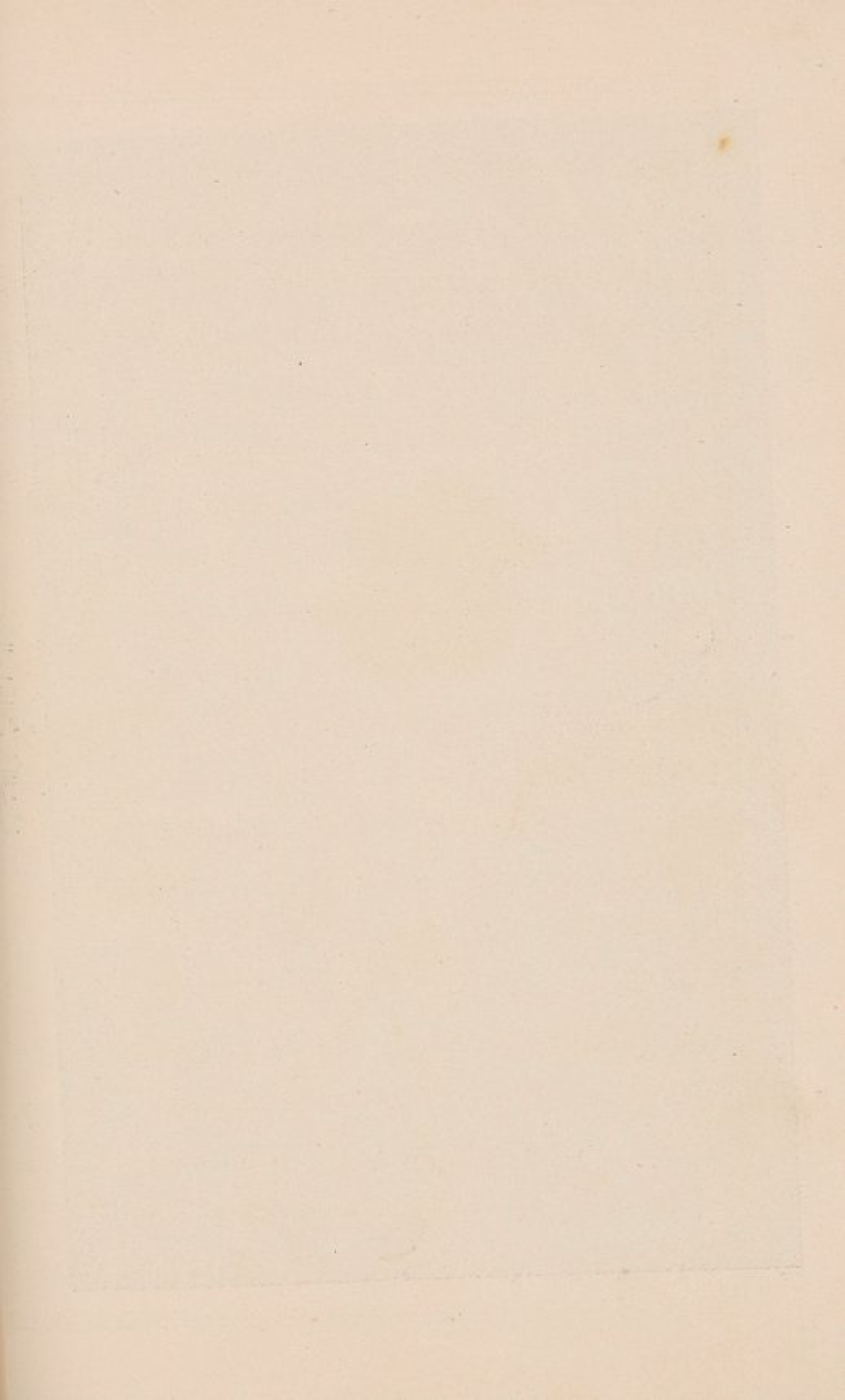
العربات السيارة والتراموای الكهربائي والبخاري أو الذي تجرهُ الخيل والدراجات والسيارات او هي الاوتوموبيل على اشكالهِ والباخرات تسير في نهر السين طول مدة العمل مملوءة بالزائرين تأتي بهم من بعيد الجوانب وكل عربة او سفينة قادمة تنزل الركاب عند أقرب الابواب اليها فكان عدد الداخلين ما بين مايتي الف وثلثمئة الف في اليوم وزاد عن هذا المعدل كثيراً في ايام الآحاد والاعياد لانهُ دخلهُ يوم عيد العنصره نصف مليون زائر وفي غد ذلك العيد نحو ذلك وزاد عددهم في يوم الاحد ٩ سبتمبر حتى بلغ ستمئة الف نفس

وقد انشأوا مكاتب للبريد داخل المعرض ووضعوا ٧٦ صندوقاً للمراسلات يفرغها السعاة في اوقات معلومة . واوجدوا ايضاً مكاتب للتلغراف والتلفون بلغ عددها ٥٦ مكتباً حتى ان الواقف في أرض المعرض كان يمكن لهُ مراسلة أية جهة ارادها من اقاصي الارض وهو في مكانهِ فكان في ذلك تسهيل كبير لاعمال المعرض واصحابهِ وزائريهِ . وفتحوا ثلثة فروع للبنوك المشهورة داخل أرض المعرض فكان المرء يقبض المال اذا أبرز تحويلهُ بلا مشقة الانتقال الى مكان بعيد. وبلغ عدد المطاعم في جوانب المعرض مبلغاً كبيراً ولكن كثرتها لم تغنِ عن الزحام بالنظر الى كثرة القادمين فكانوا يدخلون الطالبين في اكثرها بموجب نمر يعطونها لكل قادم في دورهِ فيقف الرجل وبيدهِ النمرة حتى اذا خلا مكان على موائد المطعم دخل وتغذى فيهِ فكان كثير من الناس يضجر من طول زمان الوقوف وانتظار أمر الخادم لهُ بالدخول فينصرف وهو جائع والمال في جيبهِ وفير كثير

دخلت هذا المعرض من البوابة الاثرية يوصل اليها من ميدان الاتحاد (بلاس ده لا كونكورد) وهي بناء جميل علوها ٣٨ متراً ومساحة بنائها ٥٠٠ متر وقد فتحوا فيها ٧٦ طاقة أو نافذة لبيع التذاكر و٣٨ مدخلاً يمكن أن يدخل



البوابة الأثرية الفخمة



منها ٢٠٠٠ شخص في آن واحد أو ٦٠٠٠ شخص في كل ساعة . بنوها من الطوب والحديد والخشب وطلوها ببهي الالوان الزاهية كالاخضر والاحمر والازرق وبتخلل خطوطها عروق الذهب وتخفق في أعلاها وفي جوانبها الاعلام ورصعوها ترصيعاً بديعاً بالمصابيح الكهربائية الصغرى اذا خيم الظلام وارخى الليل سدوله اناروها بالنور الكهربائي فتلألأت وضاءت كأنما هي نجوم الثريا في كبد السماء او عقود من الجوهر واللؤلؤ تسطع وتلمع في عنق غانية حسناء ولها جمال فتان ورونق يذهب بالافكار ويسترق الاذهان . فدخلت من هذه البوابة البديعة عَلَى ما تقدم القول وسرت في جنة من الازهار والرياحين تتدفق المياه من انصابها وبركها البهية حتى وجدتني امام قصرين منيفين وصرحين نخيمين شادتهما حكومة فرانسا من المرمر النفيس بناء متيناً محكماً وزينتهما بمنتهى ما وصل اليهِ حذق الصناع من غرائب النقش والزخرف والتزويق حتى انها انفقت عليهما مليوني جنيه وكان بينهما شارع جميل يوصل الى جسر اسكندر الثالث . وهذا قليل من وصف هذين القصرين الفخيمين

﴿ القصر الكبير ﴾ فاما القصر الكبير فكان معرض الفنون وما تمَّ في بابها مدة السنين العشر التي مضت قبل افتتاح المعرض بلغت ساحتهُ ٤٠٠٠٠ متر مربع او اقل من عشرة فدادين بالشيء القليل وجمع بين متانة البناء وفخامتهِ وبين غرائب الزخرف ودقة الصناعة وبهاء الالوان . ولم ينهج مهندسوهُ منهجاً واحداً في بنائهِ ولكنهم جمعوا بين الاساليب اليونانية والاوروبية الوسطى (رنيسانس) وهم يريدون بهذا الاسم تجدد الحضارة على عهد لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من ملوك فرانسا في القرن السابع عشر . وقد جعلوا عمد هذا البناء العجيب مضلعة ونقشوا بين ضلوعها ورق السنديان وثمرهُ على المرمر النقي وجعلوا هذا

النقش بلون السنديان الطبيعي فكان لمنظر تلك العمد البهية تأثير يفرح النفوس . وزخرفوا واجهتهُ بالتماثيل والانصاب وجعلوا لهُ بوابة واسعة ذات عمد رخامية توصل الى رواقين قام كل رواق منهما على ١٤ عموداً وهما يتصلان بفناء رحيب طولهُ ٢٠٠ متر وعرضهُ ٥٥ وقد سقف بالزجاج فعرضت دولة فرانسا في هذا الفناء ما صنعهُ النحاتون والمصورون من ابنائها من النقش والحفر على الرخام والحجر والجبس اشكالاً لا تعد هي رسوم رجال او نساء من المشاهير ووحوش ضارية وطيور فكان عدد هذه القطع اكثر من الف . واشتركت بقية امم اوروبا مع فرانسا في عرض هذه الانصاب والتماثيل فكان لمجموعها منظر رهيب ولا سيما اذا رآها المرء بمفردهِ في الليل . وقد تفنن الصناع في نقش بعض التماثيل فجعلوا بدن التمثال من الرخام الابيض وشعره من الاسود وملابسه من الرخام الملون مثل تمثال الطبيعة وهي شكل فتاة اسفرت عن وجهها وكشفت ستارها جسمها من الرخام الابيض وثوبها من الرخام المعرق بالاحمر والاصفر وشعرها من الاشقر الذهبي ورداؤها ضارب الى الصفرة وغير هذا مما يحدث فتنة في نفوس الناظرين

ولقد صعدنا الدور الثاني من هذه الفسحة على سلم بديع الصنع من الحديد جعلوا له اشكالاً يشتغل بها الفكر دون سواها مدة الصعود فانهم صنعوا الحديد على شكل الاوراق والاغصان الطبيعية وطلوها باللون الاخضر تمثيلاً للشكل الطبيعي. وقد خصَّ هذا الدور الثاني بالفنون الجميلة او (التصوير بالقلم) وهو مطلب له عند الغربيين قدر وقيمة حتى ان نفقات هذا القسم في المعرض بلغت ١٢ مليون فرنك وكان فيه ٤٠ قاعة جميلة عالية السقوف عريضة الجدران محلاة بعروق الذهب وقد علقت في جدرانها الرسوم النفيسة فلم تقل عن خمسة آلاف رسم نصفها من صنع مصوري فرانسا والنصف من بقية الامم . وقد رأيت بين هاتيك الرسوم البديعة

ما يمثل كل حالة في الارض واهلها ففيها رسوم الليل والنهار وصور الضاحك والباكي والشيخ والفتى والحب والهجر والجبال والبحار والمعارك والمؤتمرات والملوك والكبراء وبقية الاحوال على اشكالها فكانت افواج الزائرين تقف متأملة ممعنة معجبة بتلك المحاسن التي اظهرتها فنون المصورين . وحانت مني التفاتة الى صورة في القسم الروسي فالفيتها تمثل ملك الحبشة في مجلسهِ الرسمي واقفاً ويده على رأس نمر . ورأيت صورة القيصر بطرس الاكبر و بيدهِ طفل هو لويس ملك فرانسا العظيم لانه لما ذهب بطرس لزيارة باريس كان لويس طفلاً فاخذه بين يديهِ وقال اني الان احمل فرانسا كلها بيدي . وهنالك صور افراد بالشكل الطبيعي لا تستره الملابس وهو منظر لم تألفه الاذهان الشرقية ولكنهم تعودوه في بلاد الغرب فترى صغارهم وكبارهم من النوعين يتفرجون عليها ولا يبالون . مثل صورة الريشة وهي على شكل فتاة لم تلبس غير قميص يستر بدنها ومنكبيها وحول وسطها منطقة تتدلى منها الحمائل وقد عقصت شعرها ولفته في اعلى الراس غدائر متوالية صعداً ثم عصبت هذه الغدائر الحسناء بعصابة من الذهب مرصعة باللؤلؤ والجوهر وقد امسكت ريشة زرقاء بيسارها فكان ذلك علة اسمها

ومن ذلك صورة الزهرة وهي ايضاً على شكل فتاة غضة الشباب بهية الاهاب ارخت بعض ذوائبها على جبين لها وضاح يزري بنور الصباح وقد كللت رأسها الجميل بديع الازهار والرياحين وامسكت بيمينها عرقاً من هذه الازهار . وغير هذا كثير

❊ القصر الصغير ❊ واما القصر الصغير فما اطلق عليه هذا الاسم لصغر فيه او قلة في موادهِ لانه كان كثير الجوانب واسع الغرف جامعاً لكل اثر من آثار الانسان في ادوارهِ السابقة جميعها فترى فيه ادوات الحروب القديمة كالسيوف

والخوذ والدروع والتروس مما كانو يحاربون بهِ قبل السلاح الناري . وفيه الساعات القديمة والنقود على اشكالها والاقفـال والامواس والسكاكين والانية الفخارية ورياش البيوت كلها وضعت على نسق يريكها لما كانت في اول الحالات كيف تحسنت وارتقت الى ان بلغت مبلغها الحالي لانهم جمعوا مواد الحياكة والنسج كلها ليراها الرائي ويتضح له كيف ينسج الثوب ثم كيف يفصل ثم كيف يخاط الى غير ذلك . وسيبقى هذان القصران في جملة معارض باريس الدائمة اتماماً للفائدة وضناً بكنوزهما من التلف ذلك مع ان عاصمة الفرنسيس ملأى بالمتاحف مثل اللوفر والتروكاديرو ولكنها ابداً تطلب المزيد في مثل هذا الامر المفيد

☀ جسر اسكندر الثالث ☀ بعد الفراغ من هذين القصرين تركتهما وذهبت ماراً على جسر اسكندر الثالث دعي باسم القيصر الروسي السابق تخليداً لذكر التحالف بين دولتي روسيا وفرانسا وقد وضع اساسه القيصر الحالي وهو يومئذٍ ولي العهد لما زار مدينة باريس سنة ١٨٩٦ واستقبل استقبالاً بالغاً منتهى العظمة والفخامة ما زال الناس يذكرونه الى الان . والجسر من غرائب الصناعة الحديثة ومشاهد باريس المعدودة قليل نظيره في جمال شكلهِ ورقة زخارفهِ واتقان صنعهِ هو عبارة عن قوس واحدة نصبت فوق نهر السين طوله ١٠٧ امتار من ضفة الى ضفة وعرضه ٤٠ متراً وقد انفقوا عليه سبعة ملايين فرنك وزينوا طرفيهِ بقباب شاهقة مموهة بالذهب في اعلاها اشكال النسور الروسية وهم ينيرونه كل ليلة بمآت من الانوار الكهربائية فيكون منظره غاية في الجمال

☀ البنايتان ☀ واقاموا في منتهى هذا الجسر بنايتين عظيمتين كل منهما ذات دورين واحدة الى اليمين وواحدة الى الشمال وطولها ١٥٠٠ متر وعرضها ٣٠٠ متر يفصلهما طريق الانفاليد الذي يوصل الى طريق قبر نابوليون الاول . فالبناء القائم

على الشمال عبارة عن معرض تام لجميع مصنوعات فرانسا ومعاملها تجد فيه كل اداة تصنعها معامل الفرنسيس من المكانس الى الجواهر ومن الابر الى اخف الاطالس . وقد قسموا هذا البناء اقساماً ووضعوا فيه النمر ليسهل الاطلاع على محتوياتهِ وكتبوا اسم المعمل على كل سلعة او صنعة حتى اذا اراد المرء ان يشتري شيئاً من فرانسا قصد هذا المعرض وعرف اين توجد احسن معاملها . والبناء الثاني القائم عَلَى اليمين فيه مصنوعات الاجانب قسم لكل امةٍ قسماً واقام فيه العمال الساهرون يستقبلون القابلين باللطف ويشرحون . واجمل ما في هذا المعرض خريطة فرانسا في القسم الروسي لما رأيتها كان حولها جمع متألب من المتفرجين يحدق ويعجب وكانت اجزاء هذه الخارطة تسطع وتلمع فتفرح بمرآها القلوب وقد صنعت كلها من نفيس الجواهر ترصيعاً بديعاً ما له في صناعة الناس نظير خططت فيها الاقاليم وظهرت المدن بالوان الجواهر المختلفة مثل باريس وضعوا موضعها في الرسم الماسة عظيمة تبهر النظر بانوارها ومرسيليا اشاروا اليها بحجر من الزمرد الاخضر وروين بلؤلؤة وليون بياقوتة وقس عَلَى هذا ما جرى مجراه فكانت هذه الخارطة هدية القيصر لحكومة فرانسا تخليداً لذكر معرضها والصداقة الكائنة بين الامتين وهي اجمل الهدايا وانفسها في العصر الحديث . وقد ورد في جريدة روسيا الرسمية انهم انفقوا على هذه التحفة الثمينة اربعة ملايين فرنك وقضى الصياغ في صنعها ثلاث سنين . هذا في قسم روسيا واما الاقسام الاخرى فكانت مجموع محاسن تستحق الذكر من ذلك القسم الاميركي فيه غرائب الاختراعات وتميزه عن سواه مروحة كبيرة ميكانيكية تدفع الهواء الساكن فتصيره هبوباً شديداً كان الناس في حاجة اليه يومئذٍ والحر شديد . ورايت فيهِ الالات التي تصنع الحذاء في ثلث ساعة فاذا اوصيت عليهِ وانت واقف فصلوا الجلد بدقيقة واحدة وخاطوه بسبع دقائق

ووضعوه في القالب ٧ وعملوا النعل في ٦ واتموا بقية اللوازم في ١٠ فمجموع ذلك ٣١ دقيقة . وهنالك قسم الصين يحار العقل مما فيهِ من صناعة العاج الدقيقة حتى كأن العظم في يد الصينيين حرير يوشونهُ ويطرزونهُ على ادق الانواع . وفيهِ ايضاً موكب امبراطورة الصين بكل بهائهِ وزخرفهِ ممثل نقشاً على العاج .

ولما انتهيت من هذه الاقسام صعدت الدور الاعلى من البناء ولكن الصعود كان على طريقة تعد من الطف غرائب الصناعة . ذلك اننا لم نرقَ سلماً في الصعود بل وقفنا على بساط عرضه متر واحد وهو ابداً يدور ويلتف علَى اسطوانة تديرها الكهربائية ولا نهاية له فيما يرى الرائي . فاذا وقف المرء علَى هذا البساط العجيب وامسك بيمناه حبلاً من القطيفة يستعين بهِ علَى الثبات جعل البساط السحري يلتف من نفسهِ تحت الارجل ويرفع الواقف عليه بسير رويد حتى يوصله الى الدور الاعلى فكأنما هو بساط الريح الذي توهمته عقول الاولين في ما نشروا من الحكايات والاساطير . ولما بلغت الدور الاعلى رأيت جماهير الخلق محتشدة ما بين البنايتين وعلمت انهم ينتظرون قدوم جلالة شاه ايران متفرجاً على المعرض فنزلت ووقفت مع الواقفين ورأيته حين اقبل مع بعض الكبراء فاذا هو كما يمثله الرسم الشائع ولكن الاصفرار ظاهر في عينيه وقد خط الشيب عارضيهِ فنزل من العربة وسار من ورائهِ حاكم اقليم السين ورئيس المجلس البلدي وياور رئيس الجمهورية ولم يرجع من حيث تمكن رؤيته لانه كان يؤثر التواري يومئذٍ بعد ان حاول احد الفوضويين قتله في اليوم السابق

﴿ قصور الممالك ﴾ لم تكتفِ الامم الاجنبية بما كان لها من الاقسام في البناء العمومي الذي سبق ذكره ولكنها شيدت قصوراً منيفة في شارع عظيم يمتد على ضفة السين سمي بشارع الممالك وقد كانوا في بعض الاحيان ينظرون الى بهاء منظر

القصر من الخارج وزخارفهِ اكثر من نظرهم الى ما فيهِ من المصنوعات • وكان قصر ايطاليا اجمل هذه القصور طراً أنفقوا عليه اكثر مما انفقت انكلترا واميركا على قصريهما مع انهما اشهر بكثرة النضار وسعة اليسار حتى ان القصر الطلياني كلف عشرة ملايين فرنك ولعل الداعي الى هذا سياسي يدل على عود ايطاليا وفرانسا الى المجاملة والصفاء بعد ان طال بينهما التنافر والجفاء • وهذه اسماء الممالك التي بنت قصورها على ضفة النهر في الشارع المذكور :—

ايطاليا • تركيا • اميركا • النمسا • المجر • انكلترا • بلجيكا • النورويج • المانيا • اسبانيا • السويد • اما روسيا والهند والصين فبنت قصورها في شارع الترو كاديرو

❋ قصر ايطاليا ❋ تأملت هذا القصر كثيراً قبل ان ولجتهُ وحدقت بما فيهِ من نقش دقيق ورسم انيق وما في بنائهِ من الحسن الظاهر للعيان • وقد بنوا هذا القصر دورين ونقشوا على واجهتهِ رسوماً وصوراً اشتغل بها مهرة الصناع والمصورين حتى انها لو رسمت على القماش بدل تلك الجدران لكانت من أحسن ما تزدان بهِ معارض الرسوم • ودخلت الدور الاول من هذا البناء الفاخر فاذا بهِ متسع القاعات بهي الجوانب علقوا فيهِ المصابيح والثريات الكبرى من اجمل ما تصنع معامل الزجاج في البندقية وهي ملونة ببهي الالوان ووضعوا هنالك انواعاً شتى من صناعة البندقية المشهورة بمعامل الزجاج نسقوها على مناضد طويلة وهي مختارة من كل معمل ارسل اليها أجود ما عندهُ فكانت مناظرها بهجة للعيون

❋ قصر تركيا ❋ بني هذا القصر ومن فوقهِ في الدور الاعلى منهُ ملهى أو تياترو وقد انفق على بناء الدورين مليون ومئة الف فرنك ولهُ ردهة فسيحة تطل على نهر السين ويرى الواقف فيها كثيراً من ابنية المعرض واجزائهِ • وكان

ووضعوه في القالب ٧ وعملوا النعل في ٦ واتموا بقية اللوازم في ١٠ فمجموع ذلك ٣١ دقيقة . وهنالك قسم الصين يحار العقل مما فيهِ من صناعة العاج الدقيقة حتى كأن العظم في يد الصينيين حرير يوشونهُ ويطرزونهُ على ادق الانواع .وفيهِ ايضاً موكب امبراطورة الصين بكل بهائهِ وزخرفهِ ممثل نقشاً على العاج .

ولما انتهيت من هذه الاقسام صعدت الدور الاعلى من البناء ولكن الصعود كان على طريقة تعد من الطف غرائب الصناعة . ذلك اننا لم نرقَ سلماً في الصعود بل وقفنا على بساط عرضه متر واحد وهو ابداً يدور ويلتف علَى اسطوانة تديرها الكهربائية ولا نهاية له فيما يرى الراؤن . فاذا وقف المرء علَى هذا البساط العجيب وامسك بيمناه حبلاً من القطيفة يستعين بهِ علَى الثبات جعل البساط السحري يلتف من نفسهِ تحت الارجل ويرفع الواقف عليه بسير رويد حتى يوصله الى الدور الاعلى فكأنما هو بساط الريح الذي توهمته عقول الاولين في ما نشروا من الحكايات والاساطير . ولما بلغت الدور الاعلى رأيت جماهير الخلق محتشدة ما بين البنايتين وعلمت انهم ينتظرون قدوم جلالة شاه ايران متفرجاً على المعرض فنزلت ووقفت مع الواقفين ورأيته حين اقبل مع بعض الكبراء فاذا هو كما يمثله الرسم الشائع ولكن الاصفرار ظاهر في عينيه وقد خط الشيب عارضيهِ فنزل من العربة وسار من ورائهِ حاكم اقليم السين ورئيس المجلس البلدي وياور رئيس الجمهورية ولم يرجع من حيث تمكن رؤيته لانه كان يؤثر التواري يومئذٍ بعد ان حاول احد الفوضويين قتله في اليوم السابق

﴿ قصور الممالك ﴾ لم تكتفِ الامم الاجنبية بما كان لها من الاقسام في البناء العمومي الذي سبق ذكره ولكنها شيدت قصوراً منيفة في شارع عظيم يمتد على ضفة السين سمي بشارع الممالك وقد كانوا في بعض الاحيان ينظرون الى بهاء منظر

القصر من الخارج وزخارفهِ اكثر من نظرهم الى ما فيهِ من المصنوعات • وكان قصر ايطاليا اجمل هذه القصور طراً أنفقوا عليه اكثر مما انفقت انكلترا واميركا على قصريهما مع انهما اشهر بكثرة النضار وسعة اليسار حتى ان القصر الطلياني كلف عشرة ملايين فرنك ولعل الداعي الى هذا سياسي يدل على عود ايطاليا وفرانسا الى المجاملة والصفاء بعد ان طال بينهما التنافر والجفاء • وهذه اسماء الممالك التي بنت قصورها على ضفة النهر في الشارع المذكور :—

ايطاليا • تركيا • اميركا • النمسا • المجر • انكلترا • بلجيكا . النورويج • المانيا • اسبانيا . السويد . اما روسيا والهند والصين فبنت قصورها في شارع الترو كاديرو

❊ قصر ايطاليا ❊ تأملت هذا القصر كثيراً قبل ان ولجتهُ وحدقت بما فيهِ من نقش دقيق ورسم انيق وما في بنائهِ من الحسن الظاهر للعيان . وقد بنوا هذا القصر دورين ونقشوا على واجهتهِ رسوماً وصوراً اشتغل بها مهرة الصناع والمصورين حتى انها لو رسمت على القماش بدل تلك الجدران لكانت من أحسن ما تزدان بهِ معارض الرسوم . ودخلت الدور الاول من هذا البناء الفاخر فاذا بهِ متسع القاعات بهي الجوانب علقوا فيهِ المصابيح والثريات الكبرى من اجمل ما تصنع معامل الزجاج في البندقية وهي ملونة ببهي الالوان ووضعوا هنالك انواعاً شتى من صناعة البندقية المشهورة بمعامل الزجاج نسقوها على مناضد طويلة وهي مختارة من كل معمل ارسل اليها أجود ما عندهُ فكانت مناظرها بهجة للعيون

❊ قصر تركيا ❊ بني هذا القصر ومن فوقهِ في الدور الاعلى منهُ ملهى أو تياترو وقد انفق على بناء الدورين مليون ومئة الف فرنك ولهُ ردهة فسيحة تطل على نهر السين ويرى الواقف فيها كثيراً من ابنية المعرض واجزائهِ . وكان

الازدحام كثيراً تجاه هذا القصر ومنظرهُ مع ما فيهِ يفكر المرء بالاستانة ولا سيما منظر هذه الابضعة المتراكمة من المنسوجات الحريرية يحيكونها بالانوال في حمص وحماه ودمشق ومن الاقمشة المطرزة بالقصب على النسق التركي المعروف وطنافس نفيسة من صنع ازمير ومن معمل هيريكه السلطاني في الاستانة . وكان فيهِ كثير من الادوات التي تصنع في القدس وهي مصنوعات شتى من الخشب ومن الصدف وعرق اللؤلؤ وفيهِ أيضاً انواع جميلة من الحلي والمصاغ الذهبي والفضي على رسوم اكثرها شرقية تختلف اختلافاً ظاهراً عن صياغة الفرنجة فكان المتفرجون على هذه البدائع كثيرين . وفي جملة ما عرضوا هنالك الدخان الاستامبولي وبعض لوازمهِ من الاقمام والشبوقات بعضها من الكهرمان والبعض من موادٍ أخرى. واما الملهى الذي بنوهُ في الدور الاعلى من هذا القصر فكان فيهِ خليط من الممثلين والعمال من الاتراك والسوريين والارمن وسواهم يرقصون ويلعبون العاباً شتى ويغنون الاغاني الشرقية ويطربون . وقد كان العثمانيون والشرقيون عامة يجدون في القصر التركي شيئاً تميل اليهِ النفوس ولا وجود لهُ في غير هذا الموضع من باريس هو القهوة العربية على مثل ما تصنع في مصر والشام فكان ذلك من حسنات القصر التركي

✻قصر اميركا✻ انفقوا على بناء هذا القصر خمسة ملايين فرنك وكان يختلف عن بقية القصور في ادارة امورهِ الداخلية لانهُ كان نادياً للاميركيين الذين يؤمون باريس مدة المعرض وقد جعلوهُ ثلثة أدوار في الاول منها مكتب للاستعلام يرأسهُ شاب اميركي ولد في باريس وهو من الاذكياء كان يقضي النهار كلهُ في مجاوبة السائلين على كل ما يخطر لهم الاستعلام عنهُ في دائرة المعرض وكثيراً ما يسألون عن غيرهِ أيضاً فكنت ارق لحالة هذا الشاب اذا اراهُ ابداً في ايضاح

ومجاوبة لا ينتهي من سائل او سائلة حتى يبدأ بمجاوبة فردٍ جديد . وعادة النساء الاوربيات والاميركيات في الاستعلام واستقصاء الامور مشهورة ولا سيما اذا وجدنَ عاملاً مثل هذا عرف المطلوب كلهُ وقد انقطع لخدمة السائلين . وفي هذا الدور ايضاً مكتب للبريد القادم من اميركا باسماء الذين لم يعرفوا موضع اقامتهم حين قاموا من بلادهم فاوصوا ان ترسل اليهم الرسائل الى القصر الاميركي في المعرض . ويليهِ مكتب آخر تباع فيهِ طوابع البريد وادوات الكتابة تسهيلاً للذين يريدون ان يحرروا الكتب والرسائل من ذلك المكان ووضعوا ايضاً صندوقاً للرسائل وانشأُوا غرفة للجرائد الاميركية من كل ولاية . وكانوا يسجلون اسماء القادمين الى المعرض من اميركا فيكتبون الاسم ومحل الاقامة ويوم الوصول الى باريس ويوم ذهابهم منها والجهة التي ذهبوا اليها والفندق الذين ينوون الاقامة فيهِ حتى اذا ورد علَى احدهم شيء من بلادهِ بعد ان يبرح باريس يرسلون الشيء اليهِ في محلهِ الجديد او اذا اراد احد الاصحاب ان يعرف مقر صاحبهِ عرف ذلك في الحال . وكانوا يعلنون في هذا المكتب اخبار العالم الواردة بالتلغراف واسعار البورصة في نيويورك اما الدور الثاني من هذا القصر فاعدوهُ لمندوب جمهورية اميركا في المعرض ومن معهُ من العمال والمساعدين . والدور الثالث خص بالحفلات الراقصة او الجمعيات الادبية ولهذين الدورين آلة رافعة تصعد من الدور الاول وفي الدور الثاني عمال يأخذون بطاقة كل قادم يريد ان يوصل اسمهُ الى المندوب فكان كل اميركي يدخل هذا القصر في المعرض يشعر انهُ في وطنهِ ومنزلهِ من حسن التدبير

❊ قصر النمسا ❊ أُنفق على هذا القصر سبعة ملايين فرنك وعرضت فيهِ مصنوعات بلاد النمسا وبعض ما ميزتها بهِ الطبيعة من المياه المعدنية التي يستفيد

منها أهل الاقطار جميعهم مثل مياه الينابيع المشهورة في مارينباد وكارلسباد وغيرهما ولها شهرة ذائعة في الاقطار . وقد كانت هذه المياه سبب اشتهار المدن المذكورة ونمائها لانها قامت بسبب وجودها وتوارد الناس من كل صوب للانتفاع بمائهـا وقد أصبحت مثابة الالوف ومعظمهم من الاغنياء والاكابر في كل عام

﴿قصر المجر﴾ صرفوا على هذا القصر مليوني فرنك ونصف مليون وجعلوهُ خاصاً بمملكة المجر وحدها فلم يضموهُ الى معرض النمسا لان المجر مملكة مستقلة قائمة بنفسها ولها أحكام وسياسة وقوانين ووزارة ومجلس نواب غير التي في بلاد النمسا فلا رابطة بين المملكتين في ما سوى ان ملكهما واحد هو الامبراطور فرانس يوسف الحالي . والمجر حريصون جداً على اظهار انفصالهم عن النمسا واستقلالهم فجعلوا هذا القصر خاصاً بهم ولا محل لوصف ما كان فيهِ من المصنوعات المجرية لاننا لم نفسح المجال في هذا الفصل لوصف بقية المصنوعات

﴿قصر انكلترا﴾ انفق الانكليز على بناء هذا القصر مليون وثمانمئة الف فرنك وانفقوا كثيراً غير هذا على بناء الاقسام والمعارض للمستعمرات الانكليزية مثل كندا واوستراليا ونيوزيلاند وافريقيا الجنوبية وهي اشغلت نحو ٧٠٠٠ متر من أرض المعرض غير الذي انفقوهُ أيضاً على قصر الهند وسيأتي ذكرهُ .وقد كان القصر الانكليزي مثل كل عمل انكليزي جميلاً مع قلة الزخارف وكان الترتيب سائداً على ما فيهِ وعلى أعمالهِ ايضاً حسب المعروف عن هذه الامة فانهم اوقفوا ضابطاً عَلَى باب القصر يشير الى الناس بالوقوف والامتناع عن الدخول حتى اذا اجتمع منهم ٨٠ او ٩٠ أشار اليهم بالدخول اذ يكون الذين سبقوهم وهم بمثل هذا العدد تقريباً قد خرجوا من باب آخر فلا يختلط حابلهم بالنابل من تكاثر الافراد

في قاعات القصر ولا يحدث اضطراب وقلق للعمال او للزائرين

﴿ قصر بلجيكا ﴾ بلغ المال الذي انفق على هذا القصر مليون فرنك وكان معرضاً بديعاً لصناعة هذه البلاد الراقية التي سبقت الممالك العظمى في كثير من المصنوعات ولا سيما الحديدية منها كالسلاح والآلات الزراعية والمنسوجات وسواها وتمتاز المصنوعات البلجيكية بمتانتها وجودتها وقد تقدمت في السنين الاخيرة تقدماً عظيماً حتى انها حلت محل الصناعة الانكليزية في كثير من اسواق الارض واشتهرت الشركات البلجيكية بالهمة والتفنن في انجاز الاعمال

﴿ قصر السويد ﴾ كانت جملة المال الذي انفق عليه مليون وثمانين ألف فرنك وقد صنع كله من الخشب على نسق بديع يشهد بالبراعة لصانعيه فانهم قطعوا الواح الخشب في ستوكهولم واتقنوا نجارتها وجعلوه على القياس المطلوب للبناء ووضعوا لها نمراً ثم ارسلوها في سفينة شراعية الى مرسيليا فما بقي على بناء القصر السويدي في المعرض غير ان تركب تلك الالواح بعضها الى بعض حسب نمرها وان تطلى بالالوان بعد ذلك فهم اكتفوا بعدد قليل من العمال والنجارين في باريس لاتمام البناء لم يزد عددهم عن ١٢ نجاراً ومهندساً وقد كان هذا القصر احسن مثال لبلاد السويد وحالتها ولكن القوم لم يكتفوا بعرض الحاصلات والمصنوعات فيه بل انهم مثلوا هيئة بلادهم في الشتاء حين تتراكم فيها الثلوج وتطول الليالي وفي الصيف حين يطول النهار فيشرق القمر والشمس معاً في وسط النهار وهي من الحوادث الطبيعية الناشئة عن مركز الارض تجاه الشمس لا ترى الا في الاقاصي الشمالية مثل بعض روسيا وبلاد السويد والنورويج . وقد اعادوا هذا القصر برمتهِ الى ستوكهولم بعد انتهاء مدة المعرض في باريس لانهم فكوا تلك الالواح ونقلوها ولا بد انهم استعملوها لاغراض اخرى بعد ذلك

﴿ قصر النورويج ﴾ يقال في السويد والنورويج مدة هذا المعرض ما قيل في النمسا والمجر من حيث العلاقة السياسية فان المملكتين كانتا دولة واحدة ثم انفصلتا على ما رايت في تاريخهما . وقد انشأ اهل نروج معرضهم الخاص في باريس لهذه الغاية وانفقوا عليهِ نصف مليون فرنك وعرضوا فيه حاصلات بلادهم ومصنوعاتها واهم ما يقال في هذا القصر انهُ مثّل قوة اهل النورويج على التجارة وصناعة السفن لان لهم امتيازاً بذلك جعلهم من اهل الطبقة الاولى بين الامم. ومما شهدت في هذا القصر تمثال نانسن وهو رحالة نورويجي مشهور ذاع اسمهُ في الاقطار لانهُ بلغ في سياحاتهِ الى نواحي القطب الشمالي شأواً لم يدركه السابقون فكان اعظم مكتشفٍ لدائرة القطب قبل بيري . وقد ذهب الرجل في باخرة قوية بناها لهذا الغرض وسماها فرام والاسم نورويجي معناه "الى الامام" واستصحب معهُ الدراجات التي تسير على الثلج والكلاب التي لا يمكن السير بدونها في تلك الاصقاع المتجمدة ومؤونة ٣ سنين حتى اذا لم يعد السير ممكناً في الماء ترك الباخرة وتقدم زحفاً على الجليد الى آخر ما بلغهُ يومئذٍ فافاد أهل العلم فوائد كبرى وعاد على الزحافات اما الباخرة فانهُ تركها محبوسة في الجليد فلما اشرقت الشمس طويلاً وذاب بعض الجليد نزلت الباخرة من نفسها مع تيار الماء فوجدوها في ثغور النورويج وجعلوا يوم وصولها مثل الاعياد . واما نانسن نفسهُ فانهُ نال غاية العز والاكرام بعد رجوعهِ وقابل الملوك والعظماء وخطب وكتب كثيراً عن سياحتهِ فجمع مالاً طائلاً جزاء مخاطرتهِ في خدمة العلم والاكتشاف

﴿ قصر اسبانيا ﴾ لم يكن لهذا القصر نظير بين قصور الدول لانهُ مثل كثيراً من حالة العرب على عهد امتلاكهم لبلاد اسبانيا فكان منظرهُ وما فيهِ يلذ للشرقي ويعيد الى الذهن ذكر أحسن ايام الدول العربية الزاهرة في الاندلس .

فقد رأيت فيهِ قباء ابي عبد الله آخر سلاطين الاندلس من بني الاحمر واسلحتهُ وجرابين كان يضع فيهما نسختين من القرآن . ورأيت عمامة حربية من النحاس كان يلبسها أمير البحر خير الدين باشا وهو الذي يعرفهُ الافرنج باسم باربا روسا او ذي اللحية الحمراء وكان في هذا القصر كثير يمثل الازياء الاسبانية الحالية ومصنوعات تلك البلاد

﴿ قصر المانيا ﴾ اهتمت امة الالمان باقامة هذا القصر ونحو ٢٠ موضعاً غيره في اجزاء المعرض العام لانها خطت في الصناعة والتجارة مدة الاعوام الاخيرة خطوات واسعة فنمت معاملها وتعددت مصنوعاتها وجعلت ترسل المندوبين منها الى سائر الاقطار يعلمون حاجة الناس ويوصون على الاشياء التي تفي بحاجاتهم حتى ان المتاجر الالمانية عمت واصبح كثير من اسواق الارض خاصاً بالالمانيين دون سواهم ولهذا كان الاهتمام لعرض المصنوعات الالمانية في معرض الدول عظيماً فانهم انفقوا على بنائهِ ستة ملايين وستمائة الف فرنك وكان بناء بديعاً فخيماً دهن بتراب الرخام حتى يخيل للرائي انهُ مبني من الرخام برمتهِ . وكان هذا القصر الالماني ممتازاً بين امثالهِ من معارض الدول في ان لهُ شرفة طويلة في الدور الثاني يظهر منها المعرض كلهُ . واما الاشياء التي ضمها هذا القصر فكثيرة لا يسهل عدها على القاريء نذكر منها آلات جديدة لصب الحروف المستعملة في الطباعة وصورة جوتمبرج وهو الماني مرَّ ذكرهُ في فصل آخر من هذا الكتاب كان اول من اخترع الطباعة بالحروف على النسق الحديث . وغير هذا كثير

هذه سلسلة القصور التي بنيت على ضفة النهر تمثل حالة الدول والامم تمثيلاً يجعل المتنقل بينها كأنهُ ساح من قطر الى قطر ورأى زبدة ما يستحق الذكر في كلٍ من تلك الاقطار . واما قصور الدول الاخرى التي بنيت في شارع تروكاديرو

فهي كما يجيء :—

﴿قصر روسيا﴾ معلوم للجميع ان هذه الدولة الضخمة السلطان مشهورة باتساع مواردها وكثرة كنوزها وحاصلاتها ولها مزية بكثير من المصنوعات والحاصلات ليست لبقية الامم مثل الفرو يصدر اكثره من بلاد الروس ويصنع في مدائنهم . وقد كان لهذا النوع قسم كبير في القصر الروسي استلفت انظار المتفرجين ولا سيما السيدات منهم وقد اتقنوا عرض هذه الفراء الثمينة فوضعوا اشخاصاً من الخشب كالرجال والنساء والاولاد والبسوها أنواع الفرو الثمين مفصلة على جميع الازياء هذا لملابس السيدات داخل المنازل وهذا للخروج في ايام الشتاء وهذا للحفلات وهذا للاستقبال . وكان بين تلك الازياء شكل سيدة خارجة من حفلة وهي لابسة جبة من اثمن انواع الفرو وهو يقدر باضعاف قيمتهِ من الذهب لندرتهِ وجمالهِ المفرط وصعوبة الحصول عليهِ . وكان هنالك قطعة من فرو السمور الاسود لم ارَ لها نظيراً في جمال سوادها الساطع اللامع ونعومتها فلا عجب اذا بلغ ثمنها ٧٥٠٠٠ فرنك وقد كتب عليها هذا الثمن الكبير . وقد مثلوا في هذا المعرض ايضاً حالة الصياغة الروسية ولا سيما ما خصَّ منها بالآثار الكنائسية فانهم جاؤُا بالصياغ من روسيا كانوا يصيغون افاريز من الفضة تطلى بالذهب وتوضع فيها الايقونات . كذلك صنع الطلاء المعروف بالمينا وهو مما امتاز بهِ الروس وكان لهُ قسم في القصر الروسي . وكانا في هـذا القصر خارطة الشرق البعيد وفي وسطهِ سكة الحديد العظيمة التي توصل روسيا من اطرافها عند بطرسبرج باقصى املاكها في الشرق عند ڤلادڤستوك والارض التي قامت بسببها اكبر الحروب الحديثة بين دولتي روسيا واليابان

﴿قصر الصين﴾ بني القصر الصيني الى يمين القصر الروسي وقد جعلوا

لهُ مدخلاً يحكي البوابة الكبرى التي قامت في اول حي الامبراطور في مدينة بكين عاصمة الصين . اشغل هذا القصر أرضاً واسعة من المعرض لانهم لم يقتصروا فيهِ على عرض الاشياء الصينية بل هم جاؤُا بالعمال من بلاد الصين وقد رأيت فيهِ الصياغ يصيغون جميل الاشكال والنجارين والخراطين والنحاتين كل يعمل بحرفتهِ ولهم صبر غريب على نقش الزخارف الدقيقة في العاج والخشب والمعادن اشتهرت بها صناعتهم من قدم . وكذلك رأيت النساجين يحيكون الحرير وغيره بالانوال على الطرق الصينية فكأنما هذا القصر كان معملاً لصنع البدائع الشرقية يود الزائر لو يقيم فيه زماناً يتأمل اولئك الصناع وما يصنعون

✻ قصر الهند ✻ اذا دخل المرء هذا القصر حسب نفسهُ متنقلاً في بلاد الهند العظيمة لما يرى في جوانبهِ من أنواع المنسوجات الشرقية والاسلحة القديمة والحجار الكريمة والمعادن الثمينة من نحاس وذهب وفضة وغيرها كلها منقوشة أجمل نقش وقد قطع العاج أشكالاً شتى كثيرة الزخرف والاتقان. ويذكر في هذا الباب ايضاً قصر جزيرة سيلان المشهورة لانها من اجزاء السلطنة الهندية وهي معروفة بما يصدر من ارضها كل سنة من الشاي والافاويه والرصاص الذي تصنع منهُ الاقلام المعروفة فان قيمة المتصدر من هذا الصنف وحدهُ كل سنة لا تقل عن ١٢ مليون فرنك . ولما كانت المصنوعات الهندية مشهورة في هذا القطر فلا نطيل في وصف قصرها ومصنوعاتها في معرض باريس

✻ المستعمرات الانكليزية ✻ اشهر المستعمرات الانكليزية التي اقامت لها القصور الخاصة وعرضت مصنوعاتها وحاصلاتها في هذا المعرض مستعمرة كندا وهي قطر واسع عظيم واقع في اميركا الشمالية كانت ملكاً لدولة الفرنسيس بعد اكتشاف اميركا ولكن انكلترا استولت عليها في سنة ١٧٦٠ بالحرب وما زالت

هي اهم مستعمراتها واهلها خليط من مهاجري الانكليز والفرنسيس وهم على درجة عليا من التقدم والارتقاء . وقد اظهروا بين معروضاتهم في قصر كندا أنواع الشجر الكبير الباسق الذي يكثر في غياض تلك البلاد و كثيراً من الحاصلات الزراعية التي يصدرونها الى بعيد الاقطار

ومن هذا القبيل قصر اوستراليا اي القارة التي ملكتها انكلترا برمتها وهي تزيد خمسة وعشرين ضعفاً عن مساحة امها انكلترا وقد عرضوا في هذا القصر انواع الذهب الاوسترالي وهو أهم حاصلات البلاد الطبيعية و كان المستخرج منهُ في السنوات الخالية مقداراً عظيماً فهم بنوا في هذا القصر هرماً ورقموا عليهِ السنين التي اشتغلوا فيها باخراج الذهب من ارض اوستراليا ومقدار ما اخرجوا كل عام وقد بلغ الذي استخرجوهُ قبل عام المعرض اي في سنة ١٨٩٩ مليون اوقية ونصف مليون بلغت قيمتها ٦ ملايين جنيه

ومن هذا القبيل أيضاً قصر الترانسفال و كانت يومئذٍ جمهورية مستقلة ولم تكن مستعمرة انكليزية كما هي الآن وكانت الحرب سجالاً بينها وبين انكلترا في ايام المعرض فاراد أهلها ان يظهروا قوتهم على ماهم من قلة العدد و براعتهم في مقاتلة دولة عظيمة جردت عليهم ٢٦٠ الف مقاتل قتل منهم وجرح نحو ٤٥٠٠٠ وانفق عليهم وعلى لوازم تلك الحرب ٢٣٠ مليون جنيه بعد حرب دامت ٣٠ شهراً . وكان في صدر القصر يوم دخلتهُ صورة كروجر آخر رؤساء جمهورية البوير وفيهِ نساء واولاد من البوير يظهرون طرق استخراج الالماس من بلادهم وتنقيتهِ والبحث عنهُ في الاتربة والحصى . وهنالك جدول بمقدار ما استخرج من هذا الجوهر سنة بعد سنة وجدول آخر بمقادير الذهب التي استخرجوها من مناجم جوهانسبرج وكانت اهمية الترانسفال يومئذٍ منحصرة في الذهب والالماس

والحرب التي ادت الى تظاهر كثير من الزائرين

☼ بقية القصور ☼ وقد ضاق بنا المقام فليس يمكن الاسهاب في وصف بقية القصور فنشير اليها موجزين . من ذلك قصر اليابان اشهر ما وضعوا فيهِ اللؤلؤ الاسود . وقصر موناكو يمثل أشهر ما فيها وهو الكازينو الذي فاق كل اماكن المقامرة في الوجود . وقصر البورتوغال بني من دورين وامتاز بوجود جوق على بابهِ من الموسيقيين الزنوج وهم جنود بملابسهم الرسمية تحت قيادة ملازم من جنسهم جاؤُوا بهم من مستعمرة سان توماس وكان اقبال الناس عظيماً على هذا القصر ليروا هؤُلاء الجنود وما بهم من اعتدال في القد وتناسب في الملامح وليسمعوا الانغام

على ان الامم لم تكتفِ بهذه القصور كما تقدم القول فان انكلترا عرضت اشياءها المتعددة في ٢١ مكاناً غير قصرها في الابنية العمومية مثل قصر الآلات الميكانيكية وقصر البحرية والحربية والمعادن والخمور . واميركا أشغلت ٢٠ مكاناً بمعروضاتها والنمسا والمانيا ١٩ وبلجيكا ١٧ وايطاليا ١٥ وكل من اسبانيا والسويد والنورويج ١٣ فكان تمثيل حالة الامم ظاهراً في كل جزء من اجزاء هذا المعرض العظيم

☼ معرض الآلات ☼ لا ريب ان التمدن الحديث قائم بآلات الصناعة على اشكالها وان معارض الحضارة تزيد اهميتها بزيادة ما فيها من هذه الآلات فقد أجمع الكتاب على اعتبار ذلك نقطة الاهمية في كل معرض لانهُ الدليل الاكبر على درجة تقدم الامم وانا اعد قولهم صواباً . والآلات الميكانيكية التي يقوم بها التمدن الغربي لا تعد ولا تحصى منها ما هو صغير تكاد لا تراهُ الاَّ اذا قربت منهُ ومنها ما هو كبير بحجم الآكام الكبرى ولكل آلة غرض معلوم فمن الاغراض ما هو نافع مثل انماء الزراعة

واتقان الصناعة ومنها ما يضر وقد اوجد للهلاك مثل آلات القتل والفتك في الحروب البحرية والبرية وهي كثيرة عندهم متنوعة الاشكال حتى انها حوت خلاصة علوم البشر في الهندسة والطبيعيات وسواها وقد تفننوا بها في هذه الايام تفنناً غريباً وكان في معرض الآلات الذي نحن بصدده ادوات كثيرة من هذا القبيل ولكن القسم الاكبر من هذا المعرض المهم كان للآلات النافعة مثل المحاريث وبقية الآلات الزراعية الحديثة والآلات الرافعة والدارسة والطاحنة والكاسرة والعازقة والراوية والقاطعة والناشرة اشكالاً تحار في دقتها الافكار . وقد اشتركت جميع المالك في هذا القسم من المعرض واتت كل امة بما عندها من الاشكال لكل نوع من انواع الآلات الميكانيكية . فكنت ترى من آلات الحرث مثلاً عشرين نوعاً على الاقل ومن الطلمبات اكثر من ذلك وقس على هذا في الباقي فكان بناء الآلات شغلاً شاغلاً للزائرين يبقون على التنقل في جوانبهِ والتفرج على ما فيهِ ساعات متوالية حتى تملَّ النفوس ولا تنتهي العين من رؤية جميع الاشكال . واني وقفت زماناً مثل بقية الواقفين وجعلت اتأمل ادلة الحضارة الحديثة مثل معاصر القصب من معامل البلجيك وآلات الحرث بالبخار من انكلترا واميركا وقاطرات سكة الحديد من فرانسا وبعضها من اميركا وهي العربات المعروفة باسم مخترعها بولمان لا ريب انها احسن عربات سكك الحديد واقلها رجرجة وانسبها للسفر وراحة المسافرين ومعدل ثمن العربة منها اربعة آلاف جنيه . وبين الآلات الكبرى التي رأيتها في هذا المعرض عيار لرفع الاثقال من صنع المعامل الالمانية وزنهُ ٢٥ الف كيلو وآلة تدير غيرها من الآلات بقوة البخار لها قوة ٢٠ الف حصان من صنع المعامل الفرنسوية وغير هذا كثير لو شئت ان اشير اليهِ موجزاً لطال المقام

﴿ قصر الكهرباء ﴾ ومعلوم ان عصرنا عصر البخار والكهربائية وان التمدن

الحديث يظهر بابهى مظاهرهِ في ابواب الآلات البخارية والكهربائية . فاما البخارية فقد تقدم بعض الكلام عليها واما الكهربائية فانهم جعلوا لها في المعرض بناء خاصاً كان من تحف الدهر وغرائب هذا المعرض العظيم ولا سيما لان اجزاء المعرض كلها كانت تنار بالمصابيح الكهربائية وبعض اثقالها يجر بالقوة الكهربائية ايضاً وكل هذه الانوار وهذه القوى تتولد من الآلات الموجدة لها في بناء الكهربائية الذي نحن الآن بشأنهِ وتتوزع منهُ الى بقية الاجزاء حتى الى رأس برج ايفل المشهور . وكان طول هذا البناء ١٣٠ متراً وارتفاع سقفهِ عن الارض ٧٠ متراً وهو كما تقدم القول ينير المعرض ويدير بعض آلاتهِ حتى اذا اضطرب سير هذه الآلات في قصر الكهربائية بطل كثير من الحركة في اجزاء المعرض وساد الظلام بدل النور البهي . وقد كانوا في آخر مدة التفرج من كل ليلٍ يفعلون ذلك اي انهم يوقفون الحركات ويطفئون جميع الانوار بزر صغير يضغطون عليهِ فينقطع المجرى الكهربائي وينتهي دور العمل في ذلك اليوم

☀ قصر الجيوش ☀ مثلوا في هذا القصر حالة الجيوش البرية والبحرية في جميع الممالك حسب طرقهم الحديثة والنظامات المتبعة الآن عند المتمدنين . وقد اشتركت فيهِ كل الممالك الكبرى فلزم لعرض اشكالهِ ان يكون البناء واسعاً ولهذا بلغت مساحة هذا القصر ٤٦١٠ امتار مربعة وكان مثابة الالوف كل يوم من الزائرين لان آلات الحرب ومعدات القتال ما زالت من قدم ساحرة للافكار جاذبة للنفوس . ولقد كان في هذا القصر كافة ما في جيوش الاقطار المتمدنة من ادلة التقدم والارتقاء مثل مستشفى عسكري لنحو ٣٠٩ من الجنود جاؤُا بهِ من المانيا وصنعوهُ على نسق المستشفيات المعول عليها في الجيش الالماني . ووضعوا فيهِ ايضاً انواعاً من الآلات البخارية التي يستعملونها لتدفئة الثكنات في الشتاء

وانابيب تمتص الهواء الفاسد من غرف الجنود وتدفعهُ الى الخارج وتأتي بدلهُ بالهواء وهنالك مثال المستشفيات النقالة لساحات الحرب وطرق التمريض وبعض الآلات العلمية التي تفيد في الاكتشاف والاستطلاع غير الاسلحة التي اشتهر امرها ولكل دولة منها انواع .

وقد عرضوا في هذا القصر ايضاً امثلة من البارجات الحربية على اشكالها فكنت ترى المدرعة الكبرى مثالاً امامك واقفاً على قاعدة من الخشب وقد ظهرت في هذا المثال اجزاء المدرعة من اسفلها الى اعلاها بكل وضوح حتى انهم صنعوا تماثيل الضباط واقفة تدير حركة البارجة وقد اعدوها للحرب والقتال او للسفر الى بعيد الثغور فكان اعجاب الزائرين كثيراً بما في هذا القصر الجميل

﴿ سكة الحديد ﴾ ذكرت فيما مرَّ الوسائل التي عولوا عليها لنقل الزائرين الى المعرض وقد بقي عليَّ ان اذكر ما استنبطوا من الطرق لنقل الناس من جهة الى جهة في جوانب المعرض من داخل ابوابهِ . ويعلم القارئ ان اتساع هذا المعرض العظيم جعل تسهيل سبل النقل والحركة امراً محتماً لانهُ اشغل ارضاً مساحتها مليون وثمانون الف متر مربع كما تقدم فكان الانتقال من طرف في داخلهِ الى طرف عسيراً لو لا ما دبروا من وسائل التسهيل وفي جملة ذلك سكة الحديد تكاد تحيط باطراف المعرض كلهِ وطولها ٣٢٦٥ متراً كانت الارتال تجري عليها بسرعة ١٧ كيلو متراً في الساعة . وجعلوا لهذا الخط البديع داخل ارض المعرض خمس محطات يقف القطار في كل منها وملؤهُ الافراد من الذين يتنقلون بين هذه المحطات البهية برخيص الثمن لا يزيد عن نصف فرنك يحسبها المرء قليلة في جنب اللذة التي يشعر بها من ركوب قطار كهذا في اجمل مواضع الحضارة و بين ابهى المناظر وانخم ايات الارتقاء . ولكن هذه السكة مع غرابتها وجمال المشاهد المحيطة بها لم تكن احسن

ما ابتكروا من طرق الانتقال في ارض المعرض بل انهم صنعوا طريقة اغرب منها واعظم ترى بيانها في ما يجيء :

﴿ الرصيف المتحرك ﴾ هو آية الغرابة الكبرى ودليل التفنن البديع في وصل اجزاء المعرض بعضها ببعض وتقريب المسافات بينها ونقل الافراد من جانب الى جانب كان نزهة النفوس وجاذب الخواطر وموضوع الحديث والاستحسان في جميع الاوقات . ولقد تسابقت اقلام الادباء والبارعين الى وصف هذا الرصيف المتحرك وبعض محاسنهِ ولكن الذي نشر منهُ بالعربية الى الآن لم يكفِ لتصوير الحقيقة بتمامها حتى يفهم القاريء معنى هذا الرصيف البديع وكيفية حركتهِ التي كانت شاغلاً للاكثرين

ولبيان ما تقدم عن هذه الاية الكبرى من غرائب المعرض اقول انهُ شكل في باريس شركة بنت جسراً (كوبري) من خشب طوله ٣٣٧٠ متراً ولكنهُ كان مع هذا الطول له منظر يقرب من الاستدارة وقد اقاموا هذا الجسر على عمد متينة ضخمة من الحديد والخشب وكان علوهُ سبعة امتار عن سطح الارض . وبنوا فوق هذه العمد رصيفاً من الواح الخشب رصت بعضها الى بعض حتى كأَنها لوح واحد من الخشب . وركبوا تحت هذه الالواح عجلات صلبة مثل عجلات السكك الحديدية تدور بقوة المجرى الكهربائي وانت لا ترى حركتها من تحت قدميك ولكنك ترى نفسك واقفاً فوق الرصيف او جالساً الى احد الكراسي الموضوعة عليهِ . وقد قسموا هذا الرصيف ثلثة صفوف او ارصفة احدها الى جانب الاخر ولا يبعد الرصيف منها عن التالي لهُ الا مقدار قيراطين . وكان الرصيف الاول اوهو الصف الاول من هذا الرصيف المتحرك ثابتاً لا يتحرك وعرضهُ متر وعشر المتر . واما الرصيف الثاني وعرضهُ متر وتسعون سنتمتراً فكان يتحرك سائراً بسرعة ٤ كيلو متر في

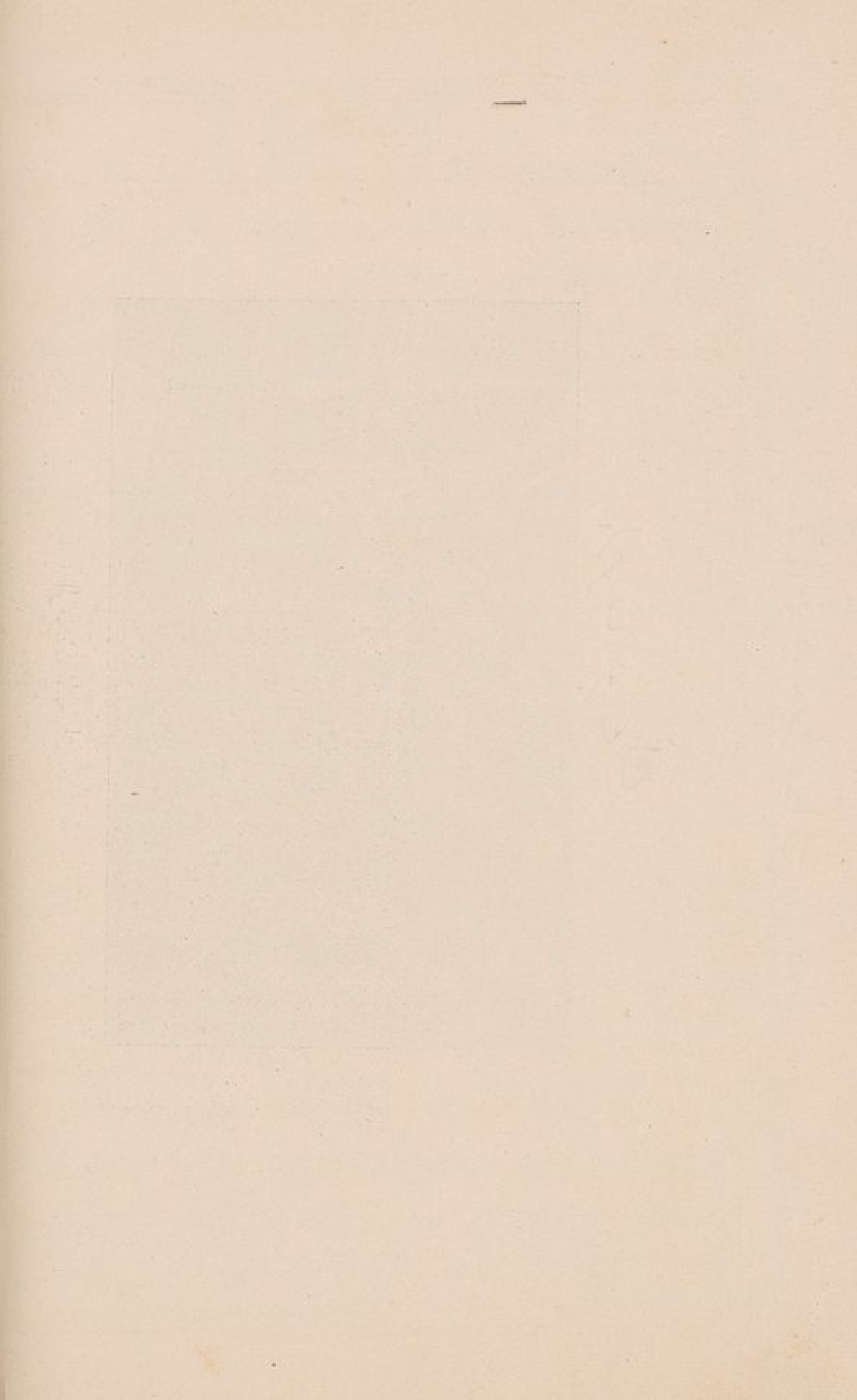
الساعة · والثالث وعرضهُ متران يتحرك ايضاً بضعفي سرعة الرصيف الثاني اي ٨ كيلو مترات في الساعة · فكان الركاب اذا ارادوا الذهاب على الرصيف المتحرك من مكان في المعرض الى مكان يشترون تذكرة الانتقال بنصف فرنك ثم يقفون قليلاً على الرصيف الاول او هو الجزء الثابت من الرصيف ثم يخطون الى الرصيف الثاني المتحرك بالسرعة المعتادة وهو سرعة الماشي في الطريق ويتقدمون الى الرصيف الثالث السريع فاذا شاؤُا وقفوا وان شاؤُا جلسوا الى الكراسي ويخيل لهم ان المكان ثابت بهم لانهم لا يرون له حركة ولا يشعرون بقلقلة ولا رجرجة ولا ضجة ولا غوغاء ولا تصفير ولا عثير مثل الذي ينشاء عن الركوب في ارتال سكة الحديد · كل ذلك والرصيف سائر بهم يتنقل على ضفة السين ما بين هاتيك المباني الفخيمة والمشاهد العظيمة والحدائق الغناء والقصور الشماء والزخارف الحسناء فهي سياحة قصيرة ليس لها نظير في ما تجتازهُ ارتال السكك الحديدية في جميع الاقطار . ولقد كان الراكبون في الرصيف المتحرك يرون المعرض برمتهِ تقريباً خلافاً للواقف في جانب منهُ ويمرون بالبواخر السائرة في النهر فتزيد المشاهد التي تعرض عليهم في هذا السفر الشهي · وكان الرصيف المذكور دائم التحرك لا يبطل انتقالهُ في جوانب المعرض من الصباح الى المساء والناس تنتابهُ الوفا هؤُلاء يصعدون على الطريقة التي تقدم وصفها وهي طريقة التدرج من الرصيف الثابت الى المستعجل وهؤُلاء ينزلون على عكس الطريقة المذكورة اي انهم ينتقلون من الرصيف الاخير الى الثاني ومنهُ الى الاول الثابت حيث يريدون النزول . وقد جعلوا حركة هذا الرصيف في ابهى بقاع المعرض واعظم جوانبهِ وكان يجتاز هذه المسافة في ٢٥ دقيقة ويمكن ان يقف عليه ١٣٤٠٠ شخص في آن واحد . وكان اقبال الناس على هذا الرصيف الجميل عظيماً وكثر حدوث النكات والحوادث المضحكة عليهِ في كل يوم

الرصيف المتحرك بمعرض باريس

الرصيف المتحرك



الرصيف المتحرك



فان زمراً من الناس كانت تجيء معاً للانتقال عليهِ فاذا انتقل بعض الرفاق قبل غيرهم الى الرصيف المستعجل سبقوا رفاقهم الذين يسيرون بسرعة الرصيف البطيء فتنقسم الزمر ويبعد الرفاق عن الرفاق وهم لا يرون حركة توجب هذا الانفصال ويقوم المتأخرون منهم عدواً حتى يدركوا المتقدمين . وكان بعضهم ولا سيما الصغار يركضون الى الوراء فوق الرصيف اي في جهة تخالف جهة سيرهِ فيتعبون من الجري وهم على ما يرون ما زالوا في مواضعهم لا ينتقلون . وكان لهذا الرصيف تسع محطات ولكنهُ لم يجعل تلك المحطات للوقوف لانه كان دائم الحركة انما الركاب كانوا يدخلونهُ او يخرجون منهُ في تلك المحطات . وكان المتفرجون من الكبار والصغار مآت على جوانب هذا الرصيف والمصورون ابداً هنالك ياخذون رسوم الراكبين وقد عرضوها بعد ايام المعرض بالسيناتوغراف او هي طريقة الصور المتحركة في كثير من الاقطار فكان الناس يرونها كأنما هم في ارض المعرض واقفون امام الرصيف المذكور

هذا اهم ما يقال في الرصيف المتحرك وهو بدعة المعرض ونقطة بهائهِ وقد بنتهُ الشركة التي بنت سكة الحديد الكهربائية وكان رأس مالها اربعة ملايين فرنك

وقد فطنوا الى طرق أُخرى كثيرة غير هذه لتسهيل الانتقال على الزائرين ووضعوا الوفاً من المقاعد والكراسي في شوارع المعرض وميادينهِ وطرقهِ كان الذين يتعبهم الانتقال الطويل يستريحون عليها بزهيد الاجرة وكان في هذه الطرق نوع من الكراسي المتحركة يجلس اليها المرء مستريحاً ومن فوقهِ المظلة تقيهِ من المطر أو حر الشمس ومن ورائهِ خادم يدفع الكرسي فيسير على عجلات صغيرة الى حيث يريد الراكب الوقوف . وعلى الجملة فانهم اظهروا مزيد الاهتمام براحة الزائرين فلم اسمع بشكوى مدة هذا المعرض العظيم

﴿المعرض المصري﴾ كان في ارض المعرض العام غير القصور الرسمية التي تقدم ذكرها معارض أخرى خصوصية شكلت شركات شتى للقيام بها واهمها واوفرها اتقاناً المعرض المصري بنتهُ شركة رأس مالها ٤٠ الف جنيه على شكل هيكل مصري قديم في خارجهِ وعلى شكل خان او وكالة من الداخل مثل خان الخليل في مصر لمبيع الحلى والمصاغات العربية. وكان فيهِ مرسح عربي على شكل قاعة في هيكل مصري قامت على اعمدة ضخمة مثل عمد هيكل دندره في قنا من مديريات القطر المصري او هيكل بعلبك من بلاد الشام وزينت بالالوان المصرية على يد ذوي خبرة بهذا الفن وكان مسطح هذا المرسح وحدهُ ١٠٠٠ متر يمثل بهِ الرقص المصري. على ان هذه الشركة وشركات أخرى سواها خسرت في هذا المعرض بدل الربح المنتظر ذلك مع ان المعرض المصري كان عظيم الاتقان حتى انهُ عدَّ بين قصور الممالك ولكن الخسارة جاءَت من كثرة ما في هذا المعرض من المشاهد والمعارض واتساع جوانبهِ حتى ان الناس كانوا يملون بعد روءية الاشياء العمومية او لا يبقى لديهم وقت لبقية الفروع. وقد حدث لي ما أيد هذا الظن في ذهني فاني يوم وصلت باريس قصدت روءية المعرض المصري قبل كل الاشياء فحال دون مرادي الف منظر فتان والف موضع بديع سبقت اليهِ فلم أتمكن من دخول القسم المصري الّا في زيارتي الثالثة لارض المعرض ولا ريب ان غيري تخلفوا عنهُ لمثل هذا السبب فكان ذلك داعياً الى الخسارة كما تقدم القول

﴿باريس القديمة﴾ من المعارض الخصوصية التي بنتها الشركات معرض باريس القديمة بنوها في ارض لا تقل مساحتها عن ٦٠٠٠ متر مربع واقاموا فيها اشكال البناء والتنظيم لتمثيل حالة باريس كما كانت من مئة سنة فكان في جملة ذلك الكنائس والاسواق والمنازل على شكلها في اول القرن التاسع عشر تماماً ووضعوا

هنالك ايضاً زوارق وسفن شراعية مثل التي كانت تمخر في نهر السين في ذلك الحين . كذلك المراسح اقاموها على المثال القديم وقام الممثلون والممثلات بتشخيص الروايات التي كانت شائعة يومئذٍ وعلى طريقة ذلك الزمان وازيائهِ . والمدارس القديمة على نسق العصر الغابر كان الاولاد فيها بملابس القدماء فكان ذلك كلهُ فرجة للناظرين تقاطر عليهِ الناس بالالوف وعشرات الالوف وكان فيهِ لذة لطلبة العلم باحوال الناس من قدم وتذكر الآباء والاجداد على الحالة التي درست الآن فما بقي لها ذكر الاَّ في مثل هذا المعرض او في كتب التاريخ

﴿ القرية السويسرية ﴾ ومن اجمل ما جادت بهِ القرائح وولدتهُ علوم المهندسين في هذا المعرض قرية سويسرية خطر لاثنين من اهل مدينة جنيف ان يشيداها في ارض المعرض وساعدتهما حكومة سويسرا على اتمام هذا الاقتراح البديع لانهُ كان بمثابة اعلان لمحاسن سويسرا المشهورة يشوق الناس الى زيارة تلك البلاد وزيادة عدد السائحين وبالتالي زيادة الارباح لحكومة سويسرا واهلها مما ينفق اولئك السائحون وهو نظر اولي الحصافة ورجال التدبير وشأن كل حكومة ساهرة على مصلحة البلاد . وقد تمَّ بناء هذه القرية على ابدع منوال فجاءت مثالاً ساحراً لما في بلاد سويسرا من السهول والاودية والجبال والبحيرات والشلالات والبيوت وكانت القرية السويسرية في المعرض كأَنها قطعة حقيقية من ارض سويسرا تسرح الابقار الضليعة والماشية في مراعيها وتمرح الصبية والفلاحون في ربوعها وتنحدر المياه العذبة من شلالها حتى ان الناظر لا يميز بينها وبين قرى سويسرا المشهورة بجمال مناظرِها البهية وآيات محاسنها الطبيعية التي ذاعت اخبارها في الخافقين . وقد صنعوا المراعي وجاؤُا لها بالبقر والغنم والماعز ترعي فيها على الطريقة الطبيعية واتوا بالفلاحين عيالاً وبيوتاً برمتها من اهل سويسرا اقاموا في

تلك القرية الصناعية كأنهم في الوطن المحبوب وانشأُوا معملاً للجبن على أشكالهِ مما يصنع في قرى سويسرا ومحلاً لبيع اللبن الشهي يغني فيهِ ثلثة من رعاة سويسرا اغاني بلادهم الجبلية وبيتاً يمثل البيت الذي بات فيهِ نابوليون العظيم في حملتهِ المشهورة على ايطاليا عن طريق جبال الالب في سنة ١٨٠٠ . وانشأُوا أيضاً محلاً لمصارعة الرعاة السويسريين على طريقة بلادهم وكثيراً من المناظر التي يمكن ان يتصورها ذهن القاريء اذا رجع الى الفصول السابقة عن هذه البلاد . وفي طرف هذه القرية مثال من جبال الالب جاؤُا لها بحجارة صنعت على مثال صخور الالب ولونها ورصعوها بالزرع والنبت مما نما في سويسرا نفسها ونقلوهُ بترابهِ في البراميل واوجدوا نوعاً من الشلال ينصب ماؤُهُ من قمة الجبل الى وادٍ بديع المنظر وكان في ذلك الجبل مثال من مراعي سويسرا الخصيبة وبقولها الخضلة وماشيتها الضليعة وحرجة من الشجر وغير هذا مما بلغت نفقاتهُ اكثر من مليون فرنك وكان في جملة المشاهد المعدودة بين غرائب المعرض الكبير

﴿ قصر الازياء ﴾ كان المعرض على وجه الجملة ممثلاً للبشر في حالتهم الحديثة يوم انشائهِ وفي الحالات السابقة ايضاً فهو أعظم مدرسة نشأت في الارض للعلم بامور الانسان في جميع الازمان ولهذا اوجدوا بين اجزائهِ جزءا يعرف بقصر الازياء جمعوا فيهِ نصباً وتماثيل للرجال والنساء من اهل كل عصر وملة والبسوا تلك النصب ملابس الامم المختلفة حسب ازيائها في كل من العصور المشهورة حتى اذا دخل الزائر رأى البشر امام عينهِ من قرون واجيال على اشكالهم كأنما هو ساح الارض في زمانهِ وفي زمان الاقدمين معاً بزيارة هذا المعرض العظيم . وقد نسقوا تلك الازياء حسب اجناس أصحابها ووضعوا كل فئة في غرف فرشوها برياش يشبه رياش الايام التي وجدت فيها تلك الازياء . واكثر ما عرضوا في هذه

الغرف ازياء النساء ما خلا قليل منها مثل نابوليون الكبير بزيهِ وشكلهِ الطبيعي وهنري الرابع ملك فرانسا وغيرهما . وكان في الدور الاول من هذا القصر غرفة للازياء المصرية القديمة الى يمين القادم طليت بالالوان المصرية وفيها امرأة تردت بثوب رقيق يتلاءم بهواء مصر وحرها وشكلها مصري من النوع القديم المعروف. وقد جعلت تحدق بحاوٍ امامها يقلب الحيات بين يديهِ والتعابين . وتجاه الغرفة المصرية غرفة لازياء الرومانيين القدماء وفيها النساء الرومانيات بجلابيبهنَّ الضافية وشعرهنَّ المعقوص وشكلهنَّ البديع وقد وجهنَ الانظار الى خطيب يلقي عليهنَّ القول البليغ على عادة الرومانيين القدماء . وفي الدور الاعلى قاعة للازياء الرومية على عهد مملكة القسطنطينية وفيها مثال ملكة من ملكات القسطنطينية بملابسها الفاخرة تستقبل الضيوف من السيدات وهنَّ بازياء ذلك العصر المشهور بكثرة الزخارف والالوان . ويلي ذلك ازياء الفرنسيس انفسهم في العصور الماضية كلها وامثلة من شهيرات النساء في هذه العصور بملابس ازمانهنَّ ومن اشهرهنَّ جوزفين زوجة نابوليون الاول مثلوها هنا بثوب التتويج وهي تخيط سلعة وامامها قرينها يتأمل ويفكر وملابسها فاخرة نفيسة اكثرها بيضاء موشاة بالذهب رسوماً تشبه النحل وعلى كميها صفوف من الالماس وثمن هذا الرداء عشرة آلاف فرنك وكان فوقهُ رداء آخر من القطيفة الحمراء مبطن بفرو غالي الثمن من روسيا قيمتهُ مئة الف فرنك وقيمة تطريزهِ بالذهب ١٦٨٠٠ فرنك . وحذاؤُها قطيفة بيضاء مطرز بالذهب ايضاً . وقس على هذا بقية الازياء في كل ادوار التاريخ الفرنسوي حتى ايام المعرض والمقام ضيق عن الاسهاب في وصفها والتطويل

✻ مثال البندقية ✻ وقد صنعوا مثالاً في المعرض لمدينة البندقية في ايطاليا فانشأُوا الترع وفيها الزوارق الخاصة بتلك المدينة الحسناء (جوندولا) واقاموا من

حول هذه الترع ابنية وشوارع كأنها البندقية نفسها مثل قصر الدوجات او هم الحكام القدماء لتلك المدينة و كنيسة مار مرقص والميدان الفسيح الكائن امامها وحوانيت شتى يباع فيها الزجاج الملون آنية مختلفة الانواع من صنع المعامل المشهورة في البندقية وكان بعض الصناع يصنعون شيئاً من هذه الانية في الحوانيت المذكورة على مرأى من الزائرين

﴿ بعض الغرائب ﴾ ومن هذا القبيل انهم صنعوا كرة طول قطرها ٤٦ متراً جعلوها على شكل الكرة الارضية ومن حولها القمر والكواكب تدور في افلاكها وحول محورها الدورات المعلومة وكل ذلك بواسطة الات مثل الات الساعات . وصنعوا ايضاً نظارة عظيمة مقربة للاشباح كانوا يرقبون القمر بها ويرونهُ كأنهُ على مقربة من الناظرين . وهنالك قاعة القلب ملأُوها بالمرائي التي تعكس المنظر مقلوباً اسفلهُ اعلاهُ واعلاهُ اسفلهُ فكنت ترى كل شيء في هذه الغرفة مقلوباً حتى الاشخاص ارجلهم من فوق ورؤُوسهم من تحت يرون ذلك ويخرجون ضاحكين مقهقهين . وقاعة الرقص كان فيها جماعات شتى من الراقصين والراقصات على كل الانواع منها الرقص القديم لليونان والرومان والمصريين والعرب والصينيين وهؤلاء كانوا اذا انتهى دورهم بالرقص ابدوا للحاضرين التحية على طريقتهم اي انهم يركعون ويقبلون الارض وينصرفون خلافاً للغربيين الذين يكتفون بالانحناء المعلوم . ومن هذا القبيل ايضاً صورة السفر حول الارض في مكان جمعوا فيهِ رسوم الاقطار وكانت المناظر المتابعة تمر امام الرائي من داخل نظارات متوالية تمثل جهات الارض كان الرائي متنقل بنفسهِ يرى مختلف الديار مثل مرسيليا تمر امامهُ بمينائها ومافيها من بواخر التجار وطولون في مائها البارجات الحربية وعدن وبومباي ونيويورك وغير هذا يتمثل امام المتفرج على اهون سبيل . ومن هذا ايضاً معرض الفواكه

والخمور جمعوا فيه خموراً واثماراً من كل الاقطار حتى اني رأيت رابية فيهِ من تفاح استراخان في بلاد الروس . وكان هذا المعرض كبيراً وله سقف مرتفع من الزجاج وفيه لكل مملكة قسم تعرض فيه اهم الخمور التي تصنع في تلك المملكة مثل الوسكي لانكلترا والنبيذ الحلو لاسبانيا والبيرا للنمسا والشمبانيا والكونياك لفرانسا وهم يعرضون عليك خمورهم هنا ويقدمون منها مثالاً ويعطونك جداول بما عندهم واثمانها ترويجاً لبضائعهم على عادة التجار الغربيين

﴿المعرض في الليل﴾ اذا كان المعرض مجموع غرائب وبدائع في النهار فانهُ كان آية البهاء في الليل وفتنة للانظار وان انوارهُ الملونة التي لا تعد كانت عجيبة ساحرة للافكار ما رأى الراؤُن أبهى منها ولا احسن في جميع الاقطار . كانوا اذا غابت الشمس وارخى الليل سدولهُ يعوضون عن ام الانوار بالوف وعشرات الالوف من المصابيح الكهربائية في كل موضع من جوانب المعرض وقد نسقوا هذه الانوار علَى طرق بلغت غاية ما تروم النفوس من الجمال الفتان حتى انك اذا تنقلت بين هاتيك الصروح المنيفة والآثار المرصوفة والنفائس الحسناء والحرجات الغضيضة الفيحاء والطرق الباهرة الغناء وجدت الكل في حللٍ من الانوار التي تعشقها العين والنفس وقد تفاوتت الوانها وتبدلت من حين الى حين تُبدى لك المناظر من دونها صوراً متغيرة من عالم الغيب فما أنت الاَّ في ارض مسحورة تُتجلى لك الغرائب فيها من حيث لا تدري وتنطبع في ذهنك من هاتيك الآيات البينات صور ورسوم لم تخطر لك من قبل في بال وليس ينسيها مرور الاعوام عليك والاحوال

كان برج ايفل غريبة من غرائب الدهر في الليل لانك اذا رأيتهُ في النهار حسبتهُ طوداً عن الحديد واما في الليل فانهُ كان قطعة من الذهب الوضاح رصعت

بالجوهر الوهاج لانهم مدوا الاسلاك الكهربائية واوصلوها بالمصابيح الملونة في جميع اجزائهِ من اسفلهِ الى قمتهِ الباسقة على علو ٣٠٠ متر عن سطح الارض فكانت تلك الانوار تتألق وتسطع كأنها الكواكب في كبد السماء . وكذلك البوابة الاثرية ابدعوا واجادوا في تنسيق مصابيحها الملونة وعددها ٣٠٠٠ نور وقنطرة اسكندر الثالث زينوها بنحو ١٢٠٠ نور وفعلوا مثل ذلك في كل صرح وحرجة وبركة وطريق فما كنت ترى في الليل الّا انواراً وراء انوار ترتاح اليها نفسك ويعجز عن وصف بهائها اللسان

﴿ قصر الماء ﴾ ولقد كان لهذه الانوار ابدع المناظر والطف انواع التأثير اذ تسطع من قصر الماء الغريب حتى ان كثيرين من الذين زاروا هذا المعرض حسبوا قصر الماء في الليل اغرب غرائبهِ وابهى آيات محاسنهِ التي لا تحصى ولا تعد ولا عجب فان قصر الماء هذا كان من مدهشات الامور ومما يسحر الالباب ويدعو الى التأمل بمحاسن الطبيعة ومقدرة الانسان وانهُ كان غريبة من غرائب هذا المعرض بلا مراء . ولقد تفنن الكاتبون بكل لسان في وصف هذا القصر العجيب ولست بذاهب اني اقدر على الاجادة في الوصف اكثر مما فعلوا وهم مع كل الذي قالوا لم يفوا هذا المنظر المدهش عشر حقهِ من دقة الوصف والاطناب . ذلك انهم بنوا قصر الماء هذا على شكل قوسٍ طولها ١٣٠ قدماً وارتفاعها ٧٠ قدماً وصنعوا لها كثيراً من الابواب والمخارج والكوى والنوافذ وطلوها كلها بهي الالوان ورصعوا كل هذه الجوانب بالمصابيح الكهربائية فكان عددها ٥٠٠٠ مصباح اذا جاء الليل واطلق فيها النور سطعت ولمعت كأنها الجواهر الغالية الحسناء او الكواكب اللامعة في السماء . على ان هذا لم يكن منتهى الاعجاز في قصر الماء بل ان الماء نفسهُ عدَّ غاية الغرابة والاتقان ومعجزة الجمال في

هذا المنظر الشهي لانهم بنوا قصر الماء على اكمة من الارض وجعلوا لها درجات ومساطب صخرية يخرج الماء من أعلاها فيتدفق في هذه الجوانب عن علو ٢٠ متراً وبعرض عشرة امتار ثم ينصبُّ في بركة واسعة ومقدارهُ ١٩٠٠ لتر في كل دقيقة . وفي وسط هذه البركة نحو ٦٠ انبوبة يتصاعد الماء منها ثم يعود وينصب في البركة . وفي دائرها وجوانبها تماثيل وحوش من الرخام يخرج الماء ايضاً من افواهها فما كنت ترى الاَّ مياهاً متدفقة بين تلك المناظر الحسناء . ثم اذا جاءت الساعة التاسعة من الليل بدأ موعد السحر الحلال وآية الجمال الذي يحدث في النفوس فتنة ويشرح الصدور . ذلك انهم كانوا في هذه الساعة ينيرون قصر الماء بالانوار وعددها ٥٠٠٠ في جوانبهِ ويطلقون الماء فيتدفق في تلك العيون والنوافذ التي ذكرناها ثم يبدأُون بارسال الالوان الشهية البهية على تلك المصابيح وعلى الماء المتساقط ايضاً من جميع الجوانب فترى القصر وماءهُ حيناً كلهُ اخضر ثم يبدلون اللون فاذا هو احمر فاذا هو ازرق فاذا هو بنفسجي ولهذا التغيير تأْثير ساحر ومنظر لا يعرف قدرهُ الاَّ من يراهُ لانك ترى جداول الماء امامك تتدفق وهي حمراء او خضراء وقد يجعلون بعضها احمر والبعض اخضر او يجعلون النقط المتساقطة من موضع واحد الواناً تفرح القلوب وتدعو الى الطرب والاعجاب ولهذا كان الناس يتسابقون الى رؤْية هذا المنظر الفتان من قبل موعدهِ ويتألبون الوفا شاخصة عيونها الى قصر الماء حين تدنو ساعة هذه الانوار وهذه الالوان فما ترى الاَّ استحساناً ولا تسمع الاَّ استصواباً واعجاباً من الواقفين . وقد بنوا هذا القصر البديع في شارع تروكاديرو وهو الذي قام في وسطهِ برج ايفل وفيهِ خمسون الف نور وفي الطرف الآخر قصر التروكاديرو لا تعد انوارهُ فكنت ترى الناس كل ليلة في هذا الشارع تعد بعشرات الالوف وقد عزَّ اليها ان تنتقل من بؤْرة

المحاسن الباهرة وتبرح هذا المكان العجيب

﴿ قصر خداع البصر ﴾ هو موضع اجادوا في تسميتهِ باسم الاوهام او خداع البصر لانهُ كان من ايات التفنن التي تخدع الابصار ولكنها تسر النفوس. بنوه قصراً وراء قصر الكهربائية وله قبة كبيرة تحكي قبة الجامع وقد صنعوا هذه القبة وجدران القصر كلها من الداخل قطعاً من المرايا الصغيرة لصقوا بعضها الى جانب بعض فكان الناس يدخلون اليها وهم لا يعلمون الشيء الذي سيظهر لهم. واذكر اني لما دخلت هذا الموضع كان المتفرجون معي نحو ٢٠٠ نفس على الاقل فلما دخلنا وتكامل عددنا اضاؤا المكان بالنور الكهربائي فكان كل نورٍ ينعكس في كل مرآة وفي بقية المرائي وصور المتفرجين تعددت تعدداً هائلاً لانها كثرت بهذا الانعكاس فكنت تظن ان اهل الارض جميعهم حشروا من وراء تلك المرائي وما هم الا تكرار صورة الواقفين معك ويخيل لك انك ترى فضاء واسعاً او عالماً جديداً كلهُ انوار في انوار لا نهاية لها الى آخر ما ترى العين وهو منظر جميل موءثر في النفوس

﴿ قصر البلور ﴾ ويذكر من هذا القبيل قصر البلور ايضاً بني كلهُ من الزجاج السميك بارضهِ وسقفهِ وجدرانهِ وسلمِهِ ودرجاتهِ وجميع اجزائهِ وقد بنتهُ شركة من اصحاب معامل الزجاج . وكان اكبر ايات التفنن فيهِ انهم كانوا ينيرونهُ من تحت الزجاج فترى الجدران والكراسي والسقوف والارض وجميع ما في هذا القصر زجاجاً منيراً كأنَّ النور يخرج من الزجاج لانك لا ترى مصدره او كانك جالس في وسط مادة جديدة شفافة لامعة يصدر النور منها وانت في حيرة من هذا التفنن الغريب . وكانت اجرة الدخول الى هذا المكان فرنكاً واقبال الناس عليهِ يستحق الذكر

﴿ معرض الاندلس ﴾ شكلت شركة مهمة للقيام بعمل يمثل حالة بلاد

الاندلس حين كانت في يد العرب واستأجرت هذا المكان ومساحتهُ ٥٠٠٠ متر مربع من ارض المعرض وبنت له بوابة للدخول طويلة العماد على شكل باب القصر العربي في اشبيلية من بلاد الاندلس ويلي هذا الباب حوش اورحبة مثل حوش السباع المشهور في قصر غرناطه وفيهِ النقوش العربية نقلاً عما في القصر المذكور يضيء من ورائها النور الكهربائي حتى يرى المتفرجون تلك الرسوم والكتابات العربية بأجلى بيان . وقد اقاموا في هذا المعرض الاندلسي مرسحاً (تياترو) للراقصات الاندلسيات والاسبانيات وعددهنَّ اكثر من خمسين راقصة تتهادى بملابس الاسبان البهية وترقص وهي تنقر على الصنج في يدها او تلوح بمنديل وتنشد الانغام المطربة او الحماسية على الطريقة الاسبانية المشهورة . ويلي هذا مرسح عربي واسع زخرفوهُ بالاشكال العربية وكانوا يمثلون فيه حالة العرب ايام استيلائهم على اسبانيا من ذلك حفلة عرس عربي وفي جملة فصولهِ موكب الزوج قادم وفيه رجال بالملابس العربية المقصبة وقد ارتدوا الرداء المعروف بالبرلس من الحرير واعتقلوا الرماح والاسلحة الاخرى وركبوا الجياد العربية بسروجها العربية المذهبة . ويتبع ذلك موكب الزوجة وهي داخل هودج يحملهُ جملان زينا بالجوخ الاحمر المقصب والصدف تحت قيادة رجال من العرب . وكان الممثلون يدورون مراراً داخل المرسح بهذين الموكبين حتى يرى الناس جلياً صورة الاعراس العربية القديمة وينتهي بذلك الفصل الاول من فصول التشخيص في المرسح الاندلسي . واما الفصل الثاني فكانوا يمثلون فيهِ حرباً بين العرب والاسبان بملابس القومين في زمان تلك الحروب . وكان المكان محاطاً بالحوانيت والطرق بنيت ضيقة على الشكل العربي حتى ان المرء لا يخرج منهُ الا وقد ارتسمت في ذهنهِ صورة من حالة العرب في ايام دولهم الزاهرة وعزهم في بلاد الاسبان

﴿ وليمة المشايخ ﴾ رأت حكومة فرانسا ان تعمل بالكرم الفرنسي المشهور في سنة المعرض وتكرم مشايخ البلاد وعمدها فدعتهم ليشهدوا محاسن ذلك المعرض واولمت لهم وليمة عظيمة كبيرة لا بدَّ ان تبقى في التاريخ من ولائم البشر المعدودة لانها لم يحدث لها نظير في التاريخ الحديث وقد لبى الدعوة يومئذٍ ٢٢٩٩٥ شيخاً تواردوا الى باريس من كل جهات فرانسا واعدت لهم الوليمة في حديقة التويلري المشهورة حيث ضربت المضارب والسرادقات وصفت الموائد صفوفاً صفوفاً ولكل مديرية من مديريات فرانسا صفوف معلومة وضعت في موضع من الحديقة يضاهي موقعها في خارطة فرانسا وكتبت اسماء المديريات والجهات امام كل قسم من هذه الموائد حتى يهتدي المدعوون الى مواضعهم في ذلك الزحام الشديد . ولو ان تلك الموائد وضعت صفاً واحداً لما كفاها شارع كبير من شوارع باريس لان طولها يبلغ اذ ذاك ٧٠٠٠ متر على الاقل . ولا حاجة الى القول بان الخادمين والطهاة والندل وسواهم بلغوا في هذه الوليمة عدداً عظيماً لا يقل عن ٣٠٠٠ منهم ٣٠٠ طاه و ١٥٠ رجلاً اشتغلوا يومين من قبل الوليمة في اعداد ادوات الطعام كالشوك والملاعق والسكاكين ولزم لهم ان يمدوا تلفوناً بين الموائد والمطبخ تسهيلاً لطلب الالوان . وقد بلغ عدد الصحون التي استعملوها في هذه الوليمة ١٧٦ الف صحن و ٥٠ الف ملعقة . وقدّم في خلال تناول الطعام ٦٦ الف رغيف و ١٥٠٠ ديك و ٢٥٠٠ بطة و ٢٥٠٠ كيلو من السمك و ٣٠٠٠ كيلو من لحم البقر و ٤٠٠٠ طير . وقد شرب المدعوون ٢٢ الف زجاجة من النبيذ الاعتيادي و ١١ الف زجاجة من النبيذ الفاخر و ٧٠٠٠ زجاجة من الشمبانيا و ١٠ الاف زجاجة ماء . والظاهر ان هذه الخمور لعبت برؤُوس اصحابنا المشايخ حتى انهم لما انتهوا من الطعام والشراب ذهبوا الى المعرض وقد وضعوا جدول الالوان الذي يضعهُ

الغربيون على الموائد هذا في قبعتهِ وهذا في زر سترتهِ وساروا على هذا الشكل كانما هم يعلنون ما اكلوا وما شربوا فكان ذلك داعياً الى تضاحك الجمهور وتبادل النكات الهزلية مثل الدعاء بطول العمر للمشايخ وطلب اللذة لحضراتهم فيما يأكلون وغير هذا من النكات التي اشتهر بها القوم الفرنسيس

﴿عيد ١٤ يوليو﴾ معلوم ان يوم ١٤ يوليو هو يوم الجمهورية الفرنسوية وعيد الحرية لتلك الامة المجيدة لانهُ تذكار يوم تخلصت الامة من الحكم الاستبدادي في سنة ١٧٨٩ وسادت قوة الشعب حين ثار الشعب على حكومة الملك لويس السادس عشر وحارب جندهُ فتمكن في يوم ١٤ يوليو من تلك السنة من فتح قلعة الباستيل والاستيلاء عليها وكانت تلك القلعة سجناً للمجرمين السياسيين الذين يزجون بامر الحكومة الاستبدادية وموضعاً للظلم فلما سقطت بين يدي الشعب عدَّ سقوطها يوم النصر لمباديء الجمهورية فيومهُ عيد الحرية الى الآن والفرنسيس يحتفلون بهِ في كل مكان وهم يقيمون الزينات الفاخرة في حديقة الازبكية في مصر يومئذٍ كما يذكر القراء ويفعلون ما في الامكان اينما كانوا في البر او في البحر يوم ١٤ يوليو المذكور . واما الاحتفال السنوي في باريس فانهُ أبهى من كل ما يصنعون في المدن الاخرى لما انها عاصمة الدولة ومركز العز والحضارة فهم احتفلوا بهذا العيد في سنة المعرض احتفالاً زاد في الابهة والفخامة عن كل ما تقدمهُ لان السنة كانت مشهورة وباريس يومئذٍ مثابة اهل الارض اجمعين فما كنت ترى في تلك المدينة الزاهرة في ذلك العيد الاَّ الراية الفرنسوية كبيرة فوق الدور والحوانيت والاشجار او صغيرة في رؤُوس الرجال والنساء والاولاد وملابسهم سواء كانوا من الفقراء او الاغنياء وما مرت عربة او حافلة ولا ظهر منظر في ذلك اليوم الاَّ وفيهِ راية الجمهورية احتفالاً بهذا العيد . وقد استعرضوا

قسماً من الجيش في ساحة لونشان المشهورة وحضر الاستعراض رئيس الجمهورية واكابر دولتهِ وسفراء الدول ورصعت تلك الساحة بالسرادقات البهية الفخيمة وملئت الطرق والجوانب بالعربات وافراد الناس حتى ان الاشجار لم تخلُ من المتسلقين الذين اقاموا فيها لرؤية الاستعراض . ولما أقبل الرئيس لوبيه في الساعة الثالثة بعد الظهر بموكبهِ الحافل خف الوزراء والقواد من سرادقاتهم لاستقبالهِ فلما استقرَّ في مكانهِ رفع علم الجمهورية فوق رأسهِ واطلقت المدافع وهتفت جماهير الناس بالدعاء لهُ وللجيش . ثم بدأ الاستعراض بامرٍ من وزير الحرب وجعلت فرق المشاة والفرسان تمرُّ تباعاً بازيائها المختلفة ونظامها البديع وكلما وصلت فرقة امام موضع الرئيس حيتهُ وكان رجال المدافع في آخر الجنود المستعرضة فلما مروا بعرباتهم الثقيلة ومدافعهم الضخمة ضجَّ الناس بدوي الاستحسان لهم وكان منظر الفرق عامة غاية في الجمال والانتظام . ثم انتهى الاستعراض وجعلت هذه الفرق تعود الى ثكناتها امام كل فرقة منها الموسيقى العسكرية وعاد رئيس الجمهورية الى قصرهِ وهو في كل موضع يحيي الجمهور ويحيونهُ بالهتاف ورفع القبعات . وبقي الناس كل ذلك النهار في هرج وحماس وطرب عظيم حتى اذا جاء الليل واضيئت الانوار التي لا تعد في المعرض والمدينة كانت باريس كأنها شعلة من نار تتوقد بما فيها من بدائع السحر الحلال ومدت الموائد في اطراف الطرق والرحبات فكان الناس يتنابونها للاكل والشرب وسماع الانغام ويقوم كثير منهم للرقص والمخاصرة في وسط الميادين وقد بطل النقد وعم السرور وسار حكم العيد على الجميع . وكان اجمل مواضع باريس في تلك الليلة بعد المعرض ساحة الكونكورد (الاتحاد) المشهورة حيث اتجهت الانظار الى تمثال الالزاس واللورين وهما الولايتان اللتان سلختا من فرانسا وملكتهما المانيا بعد حرب سنة ١٨٧٠ وقد اقامت لهما الجمهورية هذا التمثال

بعد الحرب على شكل اختين متعانقتين وغطى الجمهور شكلهما بالسواد اشارة الى الحداد عَلَى فقدهما وضياعهما من قبضة فرانسا وكان نشيد المارسلييز الحماسي المشهور ينشد حول هذا التمثال في كل حين والناس ينشدونهُ متأثرين متحمسين . وقد اشتدَّ زحام الناس مدة الليل في شوارع باريس وطرقها لان الناس رأوا ان الليل صار نهاراً بما ضاء من الانوار في كل منزلٍ وحانوت وسكة فخرجوا بالوفهم يتمشون ويشاركون الآخرين في الفرح بالعيد ويتفرجون عَلَى تلك الانوار والمشاهد التي تسحر الناظرين

واني في الختام اقول اني شهدت معارض شتى في هولاندا واميركا وفرانسا والذي أرى ان المعارض الباريسية تزيد رونقاً واهميةً عن كل المعارض التي تقام في المدن الاخرى ولا عبرة باتساع المعارض الاميركية الاخيرة فان ذلك الاتساع لم يجعلها اهم من معارض باريس ولا اجمل . وباريس نفسها تعد معرضاً عاماً لانواع الحضارة وطوائف البشر فهي ابداً مثابة الكبراء والموسرين ومتنزه السائحين من كل قطر وملة ليس يمكن ان تجاريها مدينة اخرى في هذه المزية نظراً الى ما اشتهر عن باريس من المحاسن والى قرب مركزها البديع من اكثر ديار المتمدنين

فيشي

هي المدينة التي اشتهرت بمياهها المعدنية على اختلاف الاشكال توزع منها على سائر الاقطار وينتابها الوف الناس في كل عام من كل صوب وبعضهم من اهل هذا القطر لمعالجة داء المعدة والكبد بمياهها اما شرباً او استحماماً حسب شور الاطباء . ذهبت اليها من باريس والمسافة بينهما بسكة الحديد سبع ساعات فاذا بها مدينة قامت في سهل فسيح منبسط يحكي اراضي القطر المصري لا حزن فيها

ولا وادٍ . وقد بنيت على ضفتي نهر اسمهُ آليه يتدفق ويسيل في الشتاء من ماء المطر فاذا جاء الصيف جفَّ اكثر الماء ورأيت قاعهُ وما فيهِ من حصى ورمل مثل كثير من الانهر التي تفيض بماء الامطار . ومعظم ما نعلم عن تاريخ هذه المياه المعدنية في فيشي انهُ كان في هذه الجهة دير لرهبان السيلستين كانوا يعرفون نفع المياه التي تخرج من تلك الينابيع بعضها بارد وبعضها حار ويعالجون مرضاهم وبهائمهم بهذه الميـاه فاتصل الامر باطباء باريس وعرفوا مزية ماء فيشي حتى ان اطباء الملك لويس الرابع عشر استحضروا منها مقادير بالبراميل وعولوا عليها في شفاء الامراض فثبت حينئذٍ نفعها وبدأ الناس يعرفون طرق الانتفاع منهـا وزاد في شهرتها ان مدام سفينيه الكاتبة المشهورة زارت فيشي سنة ١٦٧٦ وطفقت ترسل منهـا الرسائل الرنانة الشهية بانشائها اللطيف فلما شاعت تلك الرسائل اصبحت فيشي كعبة المستشفين . ولما كانت ايام نابوليون الاول امر هذا القائد الذكي ببناء مستشفى في مدينة فيشي وحمامات لجنوده . وبنى الامبراطور نابوليون الثالث قصراً فيها لقرينتهِ الامبراطورة اوجيني اقامت فيهِ زماناً وما زال القصر على حالهِ وهو الآن ملك احد الاطباء

اما ينابيع هذه المدينة المعدنية فثمانية بعضها بارد والبعض حار . من ذلك نبع الكران كريل ماؤُهُ حار بدرجة ٤٤ سنتغراد . وماء اوبيتال وهو دافيء بدرجة ٣١ . وماء سيلستين بارد درجتهُ ١٢ . وقد اظهرت الحكومة عناية كبرى بتحسين هذه المدينة فانشأَت من زمان طويل روضة غناء في وسطها لها سور من الحجر علوهُ نحو متر ولها ابواب عديدة لا تقفل وقد غرسوا في جوانبها باسق الشجر الجميل من الصنوبر والكستناء ونظمت الطرق البهية في وسطهِ تتمشى فيها جماهير الناس والافراد بعد شرب المياه او تستريح على مقاعدها وفي القهاوي الكثيرة الموجودة

فيها . ويحيط بهذه الروضة دائرة من الفنادق لا يقل عددها عن اربعين وهي متلاصقة متوالية يتصل احدها بالآخر اتصالاً فكلما جاء الصباح خرج المستشفون من هذه الفنادق وسار كل منهم الى النبع الموصوف لدائهِ واكثر الينابيع على مسيرة عشر دقائق من دائرة هذه الفنادق وقد احاطوا بعضها مثل الكران كريل واو بيتال التي تباع مياهها في كل الصيدليات بجدار من العمد الثخينة منفصل بعضها عن بعض ومن داخلها بنات يمشينَ على القباقيب العالية حذراً على ارجلهنَّ من البلل وهنَّ يأْخذن من الناس اقداحهم اذ يقف الناس خارج دائرة العمد المذكورة فيملأْنها بالماء ويناولنها للشاربين من طاقات صغيرة صنعت لهذا الغرض واذا لم يكن مع الشارب قدح اعطينهُ الماء بقدح من عندهنَّ . ويتبع الناس في مقدار الماء المشروب وكيفية شربهِ امر الاطباء حتى ان بعضهم يشرب من نبع قبل الظهر ومن نبع آخر بعدهُ واذا كان الماء حامياً مثل الذي درجتهُ ٤٤ شربوهُ مصاً كما يشرب الشاي والقهوة واكثرهم يحتم عليهم التمشي ساعات معلومة بعد شرب هذه المياه وتناول الطعام . واذا جاء احد الشاربين بشيء للفتاة التي تخدمهُ في هذه الينابيع اخذت الفتاة مالهُ ووضعتهُ في علبةٍ ليقسم المجموع كلهُ على الرفيقات بالسواء في آخر النهار

❊ الحمامات ❊ ان ماء فيشي يفيد في الشرب وفي الاستحمام ايضاً فهم بنوا عدة حمامات على مقربة من الينابيع التي سبق ذكرها وجعلوها ثلاث درجات حتى يتمكن الاغنياء والفقراء من الانتفاع بمائها . ومع ان هذه الحمامات بنيت من وقت قريب فان الحكومة الفرنسوية اعدت مشروعاً لهدمها واعادة بنائها لتوسعها وتزيد معدات الراحة فيها للمستشفين وهي اي الحمامات ملك الحكومة تؤجرها للشركات . وفي هذه الحمامات انواع كثيرة فمنها البرك ومنها المغاطس الباردة

والحارة ومنها الراشات المختلفة ينام العليل تحت احداها على سرير فيتساقط عليه الماء رشاً ويصيب كل جسمهِ مدة عشر دقائق تقريباً يدأب فيها الخادم على دلك الجسم حتى اذا انتهى ذلك وقف العليل وصوّب اليهِ الخادم انبوبة كبيرة ذات ثقوب يندفع الماء منها بقوة شديدة والواقف ابداً يدور فاذا انتهى من ذلك سار الى خادم آخر ينشف الجسم ويمسدهُ على الطريقة المشهورة عند الفرنجة باسم « مساج » وهو لفظ منقول عن العربية لان التمسيد والمسح والدلك وما يشبه هذا من عوائد العرب في الحمامات · واليك احصاء يظهر منهُ مقدار النفع من حمامات فيشي وينابيعها فانهُ قدم في سنة ١٨٥٢ الى هذه المدينة ٦٨٢٣ نفساً بقصد الاستشفاء فلما جاء عام ١٨٦٢ صار عدد القادمين ١٧٤٠١ وزاد بعد عشر سنين فصار ٢٥٥٢٤ وفي سنة ١٨٨٢ بلغ ٤٢٧٠٢ حتى اذا جاءت سنة ١٨٩٩ كان عدد الزائرين ٨٠٠٠٠ وهو تقدم مستمر ظاهر للعيان

وفي هذه المدينة معامل يصنع فيها الملح والاقراص من مواد مياهها المعدنية وتباع في جميع الصيدليات · وفيها مواضع كثيرة للتصدير تملأ الزجاجات فيها بالماء المعدني مآتٍ والوفاً كثيرة كل يوم وترسل في القطارات الى جميع الاقطار وعدد الذين يذهبون للفرجة على هذه المواضع ليس بقليل · وفي هذه المدينة من المتنزهات والملاهي ما يجعل السكن فيها هيناً على المستشفين اهم ذلك الكازينو وهو بناء فخيم على بعد خطوات قليلة عن الحديقة يمكن ان يضم ١٠٠٠ متفرج وتمثل فيهِ الروايات المفرحة والهزلية · وهنالك قاعة للرقص فسيحة اناروا سقفها بعشرات من المصابيح الكهربائية فهي تسطع كالنجوم في قبة السماء . وهنالك ايضاً قاعات مشهورة للعب الميسر وقاعات للجرائد والكتابة وعندهم جريدة تنشر اسماء القادمين الى فيشي كل يوم واخبار السياسة والتجارة · وللكازينو ميدان واسع

يشرف علَى الروضة التي سبق ذكرها وفيهِ كثير من المقاعد والكراسي يجلس الناس اليها ويسمعون الموسيقى كل يوم بعد الظهر . وليس هذا كل ما في ڤيشي لانها اصبحت مثابة المتنزهين وملتقى المتفرغين من عناء الاعمال كما انها مقصد الطالبين للعلاج فهي فيها غير ما تقدم ذكرهُ روضة اخرى انشئت في ايام نابوليون الثالث وفيها شجر الكستناء والصنوبر والدلب وقد نظمت هذه الروضة علَى ضفة النهر وانشئت بها مغارس الازهار اللطيفة يعنون بها شديد العناء فالناس يختلفون الى هذه الروضة الحسناء الوفاً يتمشون كل يوم بين صفوف الشجر او يجلسون الى المقاعد القائمة في وسط الازهار البهية والرياحين . وهم يقيمون حفلة لسباق الخيل مرة كل عام في ڤيشي فيأتيها المتفرجون من باريس وسواها لرؤْية هذا السباق وقد كان وصولي الى ڤيشي في يوم ١٥ اوغسطس وهو يوم عيد السيدة العذراء عمَّ الناس فيهِ دليل السرور فرأيت ان زيارة هذه المدينة علَى الجملة تملأُ البدن عافية والنفس سروراً ولا يخرج المرء منها الاَّ شاكراً ما لقي من اسباب الصحة والصحة اساس الحياة وهناء الوجود

﴿ بين ڤيشي وجنيف ﴾ برحت ڤيشي في قطار قام في الساعة العاشرة صباحاً فبلغ جنيف بعد ٩ ساعات اي الساعة السابعة بعد الظهر وكان ذلك على طريق ليون حيث ينتظر القطار نصف ساعة لتمرَّ الارتال الذاهبة الى باريس ومرسيليا فدخل بعض الركاب قاعة الطعام واخذ بعضهم من المطعم سلالاً صغيرة خفيفة من القش النظيف الجميل في كلٍ منها اللحم والدجاج ونصف زجاجة من النبيذ والخبز واقراص الحلوى والفواكه نوعين واقراص الشوكولاته بدل القهوة واقراص النعنع بدل الشراب وادوات الاكل من شوك وسكاكين وصحون وفوط من الورق النظيف . كل ذلك باربعة فرنكات فقط تأْكلهُ وترمي

بقيتهُ من نافذة القطار وهو سائر

اما مناظر الطريق بين هاتين المدينتين فانها مما لا تملُّ النفس رؤْيتهُ فكلها بدائع طبيعية كالتي سبق وصفها في كثير من فصول هذا الكتاب وصفوف من الشجر غرست عَلَى طرق هندسية تروق للناظرين ولا سيما حين كان القطار يقرب من ضفاف الرون . ولما قربنا من حدود فرانسا وسويسرا عند مدينة بل جارد تنوعت الوان الغرس والزهر فكانت الارض جنات تجري من تحتها الانهار والاعشاب والازهار كانها الجواهر الحسناء تبهر ببهائها الانظار وجبل ساڤوى يزيد في جمال هذه المناظر والوقار . ولما بلغت مدينة جنيف ذهبت توًّا الى فندق البوسطة ونزلت في غرفة تطلُّ عَلَى بحيرتها المشهورة وكان الليل قد ارخى سدولهُ فبتنا ليلتنا فيها . فلما اصبح الصباح عليَّ في تلك الغرفة فتحت شباكها فتجلى لديَّ منظر بديع فتان لم أرَ اشهى منهُ وابهى في كل سياحاتي لان البحيرة النقية البهية كانت تحت طاقة غرفتي وفيها الباخرات الجميلة تنقل الوف السائحين والمتفرجين ومن ورائها مباني جنيف وحدائقها الموصوفة ويلي ذلك مناظر جبال جنيف مما ترى وصفهُ في الفصل الذي يجيء

جنيف

هي قاعدة سويسرا الفرنسويَّة ويعدُّ تاريخها جزءًا من تاريخ سويسرا العام فنكتفي هنا بالقول انها تولاها امير الماني حين دخلت في حوزة المانيا في القرن العاشر فوقع النفور بين هذا الامير وبين الاسقف لان الامير استقلَّ بالاحكام فاغضب الاسقف وهو يومئذٍ ذو نفوذ عظيم فوقع معظم الضرر من هذا التنافس عَلَى الاهالي الذين سئموا الحالة ودعوا الكونت ساڤوا وهو امير جبل ساڤوا المجاور لجنيف ليريحهم من الاثنين فلبى الرجل الدعوة وقد لقَّب خلفاؤُهُ بلقب دوك

ساقوا ومن نسله امراء البيت المالك في ايطاليا الآن أُطلق عليهم اسم موطنهم الاصلي وهي عادة البيوت المالكة في اكثر الممالك الحديثة مثل آل كوبرج وآل اورليان وآل هوهنزولرن وغير هذا كثير ومعروف

ولمدينة جنيف مأثرة على الانسانية وفضل على اهلها لانها نشأت فيها الحركة التي ادَّت الى وجود جمعيات الصليب الاحمر وهي مركز هذه الجمعيات الى الآن فقد كان جرحى الحروب في اوروبا الى سنة ١٨٤٦ يعاملون معاملة سيئة ويقاسون مرّ الآلام فعقد في تلك السنة موتمر جنيف الاول وسن فيها قانون خفف ويلات الحروب وقلل متاعب الجرحى والمرضى وهو الآن سُنة كل الدول في حروبها الحديثة نذكر هنا أهم بنوده زيادة في البيان ومنها ما يجيء : —

١ تعتبر جميع المستشفيات الثابتة والنقالة في الحرب على الحياد فيلزم على الجانبين حمايتها ومراعاتها ما دام فيها جريح او مريض

٢ ان رجال الدين والاطباء وخدمة المستشفيات عامة يعدون على الحياد

٣ يجوز لخدمة المستشفيات أن يبقوا على عملهم في معالجة المرضى والجرحى بعد ان يخرج جيشهم من موضع وجودهم ويحتله العدو . واذا شاؤا الانسحاب بعد ذلك ساعدهم قائد العدو على الخروج ولا يأخذون معهم في هذه الحالة غير امتعتهم الخصوصية

٤ يجب المحافظة على جميع المرضى والجرحى والاعتناء بهم بقطع النظر عن جنسهم او دينهم . ويحق للقواد أن يسلموا الجرحى والمرضى بعد الاتفاق بين الفريقين حينما تسمح الاحوال

هذه اهم الشروط التي اتفقوا عليها سنة ١٨٤٦ وقد جعلوا الصليب الاحمر علامة هذه الجمعيات لانه علامة جمهورية سويسرا التي ابتكرت هذا النظام والشعار

المذكور كثير في مصر يلبسهُ عمال المستشفيات في الجيش الانكليزي ويطبع على عربانهم وقد ابدل بالهلال الاحمر في الجيش المصري ومستشفياتهِ. وقد جروا على هذه السنة في كل حرب حتى انهُ كلما نشبت حرب تألفت جمعيات الصليب الاحمر من اهل الاقطار الباقية على الحياد وأرسلت عمالها وبواخرها وادويتها لخدمة المتحاربين على السواء

وسكان جنيف مع ضواحيها نحو ٨٠ الفاً نصفهم من البروتستانت وكلهم يتكلمون الفرنسية والسبب في تكاثر البروتستانت هنا مذبحة يوم برثلماوس المشهورة التي حدثت في فرانسا سنة ١٥٧٢ حين هرب جون كالفن وبعض الذين اصابهم اضطهاد وخيم وقام هذا الرجل خطيباً في المدينة يلقي الاقوال الحماسية حتى ضمَّ الاهالي الى رأيهِ وحملهم على اعتناق مذهبهِ وطرد اسقفهم الكاثوليكي فكثر اهل هذا المذهب من ذلك الحين. والمدينة على الجملة جوهرة من جواهر سويسرا وهي من اجمل مدائنها يحدها من الشرق والغرب والجنوب اقليم سافوا الذي ذكرناهُ وقد كان ملكاً لامراء سردينيا وهم ملوك ايطاليا الحاليين فاهدتهُ حكومتهم لفرانسا سنة ١٨٦٠ جزاء مساعدتها لفكتور عمانوئيل الثاني على توحيد ايطاليا وجعلها مملكة واحدة لهُ ولنسلهِ من بعدهِ. وقد امتاز اهل جنيف من قدم بصياغة المعادن والجواهر وبعمل الساعات فهم يصدرون منها كل سنة ما تبلغ قيمتهُ ١٠ ملايين فرنك او تزيد وأول ما صنع من الساعات التي تدار بلا مفتاح كان في هذه المدينة. ولها شهرة بمدارسها ايضاً لان التعليم فيها على قواعد قويمة حتى ان الطلبة يؤمون مدارسها من جميع الاقطار. وهي من قدم مثابة الادباء نبغ فيها الكاتب الفرنسي المشهور جان جاك روسو واقام فيها الشاعر الانكليزي اللورد بيرون والقصاص الفرنسي لامارتين وكتبوا فيها كثيراً من ذائع مؤلفاتهم

وقد بني قسم من جنيف وهو الاهم على ضفتي بحيرتها المشهورة التي سنفرد لها فصلاً خصوصياً واما القسم الآخر فبني على نهر الرون الذي يخرج من طرف البحيرة وعليهِ ٨ جسور او قناطر اهمها جسر مون بلان يذهب الناس عليهِ الى الاحياء المبنية على ضفة البحيرة او النهر. وجنيف مثابة السائحين والزائرين قلَّ ان يذهب امرؤٌ الى سويسرا الاَّ ويقصدها لان موقعها بديع وهواؤُها طيب واسباب المعيشة فيها هينة وليس فيها مع كل متنزهاتها وملاهيها عيوب المدن الكبيرة الداعية الى الانهماك واضناء القوى. والجبل القريب منها مرصع بالضياع العامرة والفنادق الحافلة بالزائرين قد تقيم فيها العائلات برخيص الثمن وتتمتع بلذيذ المأكول الذي لا يدخلهُ غش فان لبنها وعسلها مما تضرب بهِ الامثال. واذا اردت ان ترى شكل المدينة عامة فقف على جسر مون بلان الذي سبق ذكرهُ ترَ البحيرة البهية تمخر فيها الباخرات المزخرفة والى الضفتين صفاًّ من شجر الدلب تليهما الفنادق والمنازل الحسناء. ومن وراء هذا الجسر يرى الواقف كيف يخرج نهر رون الذي يروي قسماً عظيماً من اراضي فرانسا. فاذا سار المرء قليلاً من هذا الجسر الى الضفة اليمنى رأى تمثال دوك برنسوك وهو من افخر آثار الصناعة الحديثة في اوروبا كلها كان سبب انشائهِ ان هذا الامير الالماني جار برعاياهُ فطردوهُ سنة ١٨٣٠ فلجأ الى جنيف واقام فيها بقية ايامهِ حتى اذا توفي سنة ١٨٧٣ وهب المدينة عشرين مليون فرنك فاقاموا لهُ هذا الاثر الجميل بمليوني فرنك داخل حديقة صغيرة وصرف الباقي في تحسين المدينة. ويليهِ الكورسال وهو مثابة النزلاء والسائحين فيهِ مواضع للمقامرة ووراءَهُ متحف اريانا فيهِ آثار سويسرية. وكل هذا الطريق يرى السائر الى يمينهِ البحيرة وباخراتها والى يسارهِ صفوف البناء المنسق والحوانيت الملأَى بصناعة السويسريين مثل الحلي والجواهر

على انواعها . ويمكن الوصول من هنا الى قصر البارون روتشلد وحديقتهِ بتذكرة تعطى في الفنادق مجاناً وفي هذا القصر من بدائع التماثيل الرخامية ما يستوقف الانظار

هذا مجمل ما في الضفة اليمنى . واما الضفة اليسرى من البحيرة فلا بدَّ للذهاب اليها من الرجوع الى جسر مون بلان واجتيازهِ حيث يرى المرء عند طرفهِ قهوة كورون يختلف اليها الناس الوفاً وجماعة النزلاء المصريين على نوع اخص . وعلى مقربةٍ منها تمثال الاتحاد الوطني وهو عبارة عن فتاتين ضمت احداهما الاخرى تمثلان ولاية جنيف وبقية الولايات السويسرية حين انضمامها سنة ١٨١٥ بعد سقوط نابوليون الاول الذي استولى على جنيف في جملة املاكهِ . وبقرب التمثال حديقة تعرف بالحديقة الانكليزية وهي من بدائع الموجودات تصدح الموسيقى فيها عصارى كل يوم وتقام حفلات راقصة في الليالي المقمرة يأتيها اهل الطرب من جميع الانحاء ليتمتعوا الانظار بمنظر البحيرة وفسقيات هذه الحديقة وهي يخرج الماء من نحو ٣٠ حنفية فيها ويندفع من صخور صناعية الى علو ٦٠ متراً وقد يلونون الماء ليلاً فيكون لهُ منظر يطرب النفوس . وفي هذه الحديقة منظر يمثل شكل مون بلان (الجبل الابيض) يرى الناس فيهِ هذا الجبل وغرائبهُ بالمنظار اذا لم يمكنهم المسير اليهِ . ويمكن المسير من هذه الحديقة الى متنزه اوفيف وهو مجموع مطاعم وحدائق ومناظر شتى تروق للالوف الذين ينتابونها في الليل والنهار

وقد انتهينا الآن من وصف المناظر القائمة على ضفتي البحيرة فعد الى جسر مون بلان لنصف ما قام في مدينة جنيف على ضفتي نهر الرون وهي متصلة بهذه القناطر او الجسور واول ما تجد في طريقك ميدان مولار تباع فيهِ الازهار على انواعها وفيهِ المحطة العمومية للترامواي الممتد الى اطراف المدينة . واستمر على المسير من هنا تبلغ محلاً بني فيهِ توربين وهي آلات ميكانيكية لها قوة ٤٢٠٠ حصان

تدور من جري الماء عليها وضغطهِ فتوزع منها المياه على المدينة وتنار بالكهربائية وتدار بعض المعامل وكل هذا بالقوة الكهربائية المتولدة من الحركة التي يولدها دفع الماء على هذه الآلات . ويمكن الوصول من هنا الى موضع ملتقى النهرين وهما نهر الرون الذي نحن بشأنهِ ونهر آخر يجري معهُ ويفرق بين النهرين لونهما لان الرون ماؤُهُ ازرق كالفيروز الشهي ونهر آخر اغبر فانهُ يخرج من الجبل ويجرف كثيراً في سبيلهِ من المواد فيتعكر ماؤُهُ . ويمكن المسير من هذا الموضع الى متنزه الباستيون وهو جميل كثير المراسح والملاعب والمناظر الحسناء وهو من المواضع التي تقضى فيها الاوقات ولا تمل النفوس . والانتقال من طرف في جنيف الى طرف هين يسير لان فروع الترامواي كائنة في كل جانب والعربات كثيرة اينما سرت

﴿ جبل ساليف ﴾ هو أبهى ضواحي جنيف لا يأتيها سائح الاَّ ويقصدهُ وقد جعلهُ الاهالي مثابتهم في ايام الاحاد لانهم يبلغونهُ بسهولة واجرة قليلة بعربات الترامواي الى سفحهِ ثم بقطار سكة الحديد الى اعلاهُ . وقد ذهبت اليهِ في الصباح في رتل الترامواي ماراً بين الحارات والاحياء داخل المدينة وكروم العنب وبساتين الفواكه في ظاهرها حتى بلغت محطة اترامبيه وهي بدء سكة الحديد فدخلت القطار وسار متعوجاً متعرجاً ملتفاً بين هاتيك الصخور والاعشاب وكان منظر البحيرة من دوننا بهياً ورائحة العطر تتضوع من اشجار الصنوبر والكستنا وحرجاتها كثيرة في تلك الوديان التي اشرفنا عليها من القطار . وبلغنا المحطة الاولى في الجبل واسمها مونتيه وهي على علو ٧٥٠ متراً عن سطح البحر فيها الفنادق الفاخرة تشرف على الوادي يقيم فيها المصطافون وينزلون منها الى المدينة متى ارادوا او يصعدون أعلى الجبل في القطار كما فعلنا حين عاد القطار الى التثني والتعوج بين تلك المناظر الساحرة حتى بلغنا محطة الثلاث عشرة شجرة وهي آخر المحطات في أعلى

الجبل ارتفاعها ١١١٢ متراً تفرق الركاب منها في اراض فرشت بالعشب السندسي ولم تخطط فيها الشوارع محافظة على جمال الطبيعة وكان بعضهم يجمع روامز من اعشاب ذلك الجبل وفراشهِ ليحفظ منها مجموعاً يفخر بهِ مثل مجموع طوابع البوسطة. وعندهم في هذه المحطة خيل وحمير لمن اراد التنقل وانتياب أعلى المواضع والمشي في الجبل كلهِ هين لما انهُ متدرج الانحدار فليس فيهِ مشقة في الصعود والنزول. وقد جعلوا لهُ طريقاً آخر الى المدينة رجعت بها حتى أرى بقية المناظر المحيطة بهذا الجبل البهي وكان القطار يسير على حافة لا يفصلها عن الوادي غير مترين وقد اجتاز نفقاً رأيت النور فيهِ خلافاً لامثالهِ لانهم جعلوا لهُ نوافذ الى الوادي يدخل منها النور والهواء ولما انتهينا من هذا النفق وصل القطار الى منبسط من الارض فتركناهُ وعدنا بعد الظهر الى المدينة فكان يوم هذه النزهة من اجمل الايام وهي تستغرق يوماً كاملاً

﴿بحيرة جنيف﴾ ويقال لها ملكة البحيرات طولها ٤٥ ميلاً وعرضها ٨ اميال ومساحتها ٢٢٥ ميلاً وماؤُها ازرق نقي كماء البحار الكبرى ولا مثيل لهُ في البحيرات الاخرى . وهذه البحيرة تنقص في الشتاء وتزيد في الصيف مما يذوب وينصب فيها من جليد الجبال وتمخر فيها الباخرات والسفن على أشكالها وقد قامت على جوانبها ١٦ مدينة بهية زاهرة بعضها في فرانسا والبعض في سويسرا وسيأتي الكلام عنها . وفي هذه البحيرة اسماك شتى يأتون ببعضها من بعيد في البراميل ويلقونهُ فيها لينمو ويتكاثر هذا غير طيور الماء التي تحوم حول البحيرة وتحط فيها ولمنظرها بهاءٌ معروف . والبحيرة هذه هي مدينة جنيف كما ان البوسفور هو الاستانة وقد قلت ذلك في حينهِ وهي فاصلة بين سويسرا وفرانسا فالباخرات تنتقل بين هذه المدائن من قطر الى قطر كما تنتقل بواخر البوسفور من الشاطئ

الاوروبي الى الشاطئ الاسيوي . وقد انجزت السياحة في هذه البحيرة فكانت على النسق الذي يجيء

ركبت باخرة كبيرة من الرصيف الذي قتلت فيهِ اليزابيت امبراطورة النمسا في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٨ يدلونك الى المحل الذي حصلت الواقعة فيهِ مؤشراً عليهِ بعلامة . ولهذه البواخر مقاعد في الطبقة العليا منها وهي ابداً ملأى بالمسافرين والمتنزهين هذا يتأمل مناظر البلاد وهذا يحدق بنظرهِ في بعض الاشياء وهذا يقرأ أو يسمع قول الدليل والكل في حديث دائم بكثير من السن الامم المتمدنة والناس في البر يتأملون هذه البواخر ومن فيها ايضاً حتى ان السفر في هذه البحيرة يعد من الذ النزهات . وقد قامت الباخرة الساعة ٩ صباحاً محاذية للشاطئ السويسري فوقفت في ڤيرسوا (١) وهي قريبة من جنيف تكثر فيها الفنادق الصغيرة الرخيصة للعائلات وكلها هادئة امامها الحدائق المنظمة . وقامت الباخرة بعد ذلك الى كيوبيت (٢) ومنها الى سيلي (٣) ثم الى مينون (٤) وكل هذه المدن تبدأ من طرف الشاطئ وترتفع ارتفاعاً متدرجاً وفيها كثير من كروم العنب والفواكه حتى انهُ لا يخلو بيت من حديقة لهُ صغيرة ولمجموعها منظر جميل من البحيرة يأخذ بمجامع القلوب . ودارت الباخرة بعد ذلك فانتقلت الى الشاطئ الفرنسوي ووقفت في تونون (٥) ثم سارت الى ايڤيان (٦) ثم رجعت الى الشاطئ السويسري ورست في لوزان (٧) وكان المسافرون يصعدون وينزلون في كل بلد ولحركتهم لذة يشعر بها الركاب . وتقدمت الباخرة بعد لوزان الى ڤيڤه (٨) ثم الى مونترو (٩) ثم الى شيلون (١٠) وهي في طرف البحيرة عند حدود فرانسا وسويسرا وقد وضع علم كل جمهورية في جهتها ثم دارت الباخرة على اليمين الى شاطئ فرانسا فوقفت في بوڤره (١١) فمدينة سان جنجولف (١٢)

ثم ميلري (١٣) ثم (تورون) (١٤) ثم امفون (١٥) ثم دوفين (١٦) وهي آخر محطة رجعنا منها الى جنيف فبلغناها الساعة ٩ من المساء فكأنما هذه السياحة استغرقت ١١ ساعة وكانت نزهة لا تمل منها النفوس . وفي البواخر اطعمة ومشروبات من كل الانواع وفي البر ما بين ضفة البحيرة والمرتفعات طرق بهية جميلة زرعت فيها صفوف الدلب والناس يتمشون فيها او يسيرون بالعربات والدراجات بين الاغصان الملتفة والمناظر البديعة ولهم خطوط تراماوي في هذه الطرق ايضاً تسهل الانتقال

ويجدر بكل سائح في هذه المواضع الجميلة ان يقضي يوماً في البحيرة متنقلاً على مثل ما قدمنا ثم يزور مدينتي لوزان وايفيان وهما اجمل ما رصعت بهِ ضفاف البحيرة بعد جنيف . وقد فعلت ذلك وذهبت الى لوزان وهي في الجانب السويسري سكانها نحو ٤٠ الفاً تعد من اجمل المدن منظراً وهواء وموقعاً وقد بنيت على تلال وهضبات شهية وفيها المستشفيات والمدارس ودور العجزة وغير هذا مما اختاروها بسبب ما اشتهر عن حسن موقعها وطيب الهواء . وزرت مدينة ايفيان ايضاً وهي فرنسوية مشهورة بمائها المعدني فلذلك يكثر الذاهبون للاستشفاء بمائها وقد وصفت غير مرة كيفية المعيشة في هذه المواضع فلا حاجة الى التكرار . ولا يقوم قطار من ايفيان الا وفيهِ عربات عديدة من مائها يصدرونهُ الى جميع الجهات . واكثر الذين يأتونها من اهل فرنسا وهي كثيرة القصور والحدائق الغناء فيها دوالي العنب معلقة ما بين شجرة وشجرة والعناقيد مدلاة ما بين تلك الاشجار وفيها كثير من شجر التفاح والكمثرى وغيرهما وفيها الفنادق الكثيرة تقام فيها المراقص الحافلة كما يجري في فنادق مصر مدة الشتاء وقد زرت احد ينابيعها المعدنية البهية فالقيتهُ مثل ينابيع النمسا وغيرها مما ورد

ذكرهُ وتفاصيلهُ في فصولٍ أُخرى من هذا الكتاب

﴿ صخر ناي ﴾ هو صخر شاهق اشتهر بهذا الاسم وقد قام على جبل باسق فعلوهُ عن سطح الارض ٢٠٤٠ متراً ذهبت اليهِ بباخرة البحيرة عن طريق مدينة جليون في الشاطىء السويسري وكان معي سياح كثيرون في جملتهم حضرة الدكتور حبيب خياط وقرينتهُ من مصر . وهم يصلون الى هذا الصخر في سكة من الحديد طولها اربعة اميال ونصف يلزم لمسيرها صعداً ساعة ونصف واما النزول فيكفيهِ نصف ساعة . وقد نحتوا هذه السكة في الجبل من اسفلهِ واقاموا حواجز من الخشب (درابزين) الى جانبي هذه السكة في طول الطريق والقطار يمشي فيها كأنهُ صاعد صعوداً عمودياً والى يمينهِ وشمالهِ اودية عميقة لها منظر مهيب . وبعد ان سار هذا القطار زماناً دخل في نفق تحت الجبل فخرج منهُ عند محطة كو وهي على ارتفاع ١٢٠٠ متر عن سطح الارض اقيمت فيها الفنادق الكبرى تشرف على البحيرة وهاتيك الاودية والجبال وينتابها الناس لقضاء ايام الحر الشديد . وسرنا من هذه المحطة صعداً والقطار يعرج فيها ويتعوج ويلتف حتى دخل نفقاً آخر طولهُ ٨٢ متراً ثم خرج منهُ الى محطة جامان وعلوها ١٥٠٠ متر . ثم عاد الى المسير ودخل نفقاً ثالثاً طولهُ ٢٦٧ متراً وخرج منهُ وكان في كل مسيرهِ ملتفاً متعرجاً مرتداً تارة يسير الى اليمين وطوراً الى اليسار ونحن في داخلهِ كأَننا في قبة طيارة حلقت في الجو فاذا هي بين الارض والسماء وقنن الجبال محيطة بنا عشرات عشرات من جميع الجهات . وشعرنا عند ذلك العلو الشاهق بشدة البرد ورأينا الضباب مخيماً فوق الرؤُوس فما عتمنا ان وصلنا المحطة الاخيرة حتى اسرعنا الى الفندق لنشرب شيئاً يدفىءُ الابدان . وتفرجنا زماناً على ذلك الصخر المرتفع وما يحيط بهِ من المناظر ثم رجعنا في القطار

كأننا نهبط من علٍ حتى بلغنا اسفل الجبل وركبنا الباخرة في البحيرة فعدنا بها الى جنيف وكان زمان الذهاب والرجوع ١٣ ساعة شعرنا في خلالها اننا في ارض غريبة ومنظر عجيب فتان

﴿ الجبل الابيض ﴾ هو اعلى جبال اوروبا ويقال لهُ سلطان الجبال ارتفاع قمتهِ العليا ٤٨١٠ امتار وهو ابداً تكسوهُ الثلوج ولهُ قمم كثيرة ما بين كلسية وصوانية وحجرية وترابية يتخللها اودية عظيمة تتراكم الثلوج فيها ايضاً وتنصب منها الجداول والشلالات · وقد كان امر هذا الجبل مجهولاً الى اوائل القرن الماضي فدأب الافراد والجمعيات العلمية على انتيابهِ وقياس ابعادهِ واكتشاف مجاهلهِ وتسمية اجزائهِ والجبال التابعة لهُ وهي كثيرة مثل جبل المسلة وجبل قتب الجمل وجبل الاهرام وغير هذا حتى أصبح الآن كلهُ معروفاً لا يجهل الناس منهُ شبراً وهم الآن في كل سنة يصعدون أعاليهُ فبعضهم يبلغ أعلاها والبعض ما دونها بقليل وكلهم يأخذون الادلاء معهم والمرشدين ويمسكون بالحبال حتى اذا زلت القدم بسائر في تلك القنن العسيرة لم يهوِ الى حضيض احد الاودية ويلقَ الفناء · واكثر الذين يفعلون ذلك من الانكليز لانهم اشتهروا بهذه المخاطرات وهم يتنافسون في تسلق هذا الجبل فلا يمر عام حتى تدون الجرائد اسماء القتلى منهم الذين يروحون شهداء المخاطرة وحب العلم واكتشاف المجهول فان اسباب العطب هناك كثيرة فاما ان تزلّ القدم او تزلق على املس الجليد او ان ينهال اجرف من الصخر او التراب او الجليد فيودي بمن يقع في طريقهِ او تنشق الارض المتجمدة تحت الاقدام من ذوبان بعض جليدها فيغور الذي يطأ تلك الارض . ومن امثال هذه الحوادث المكدرة ان شاباً سويدياً كان يرتقي احدى هذه المرتفعات فرأى زهرة اسرع ليقطفها ويبقيها معهُ تذكار تلك الرحلة لوالدتهِ

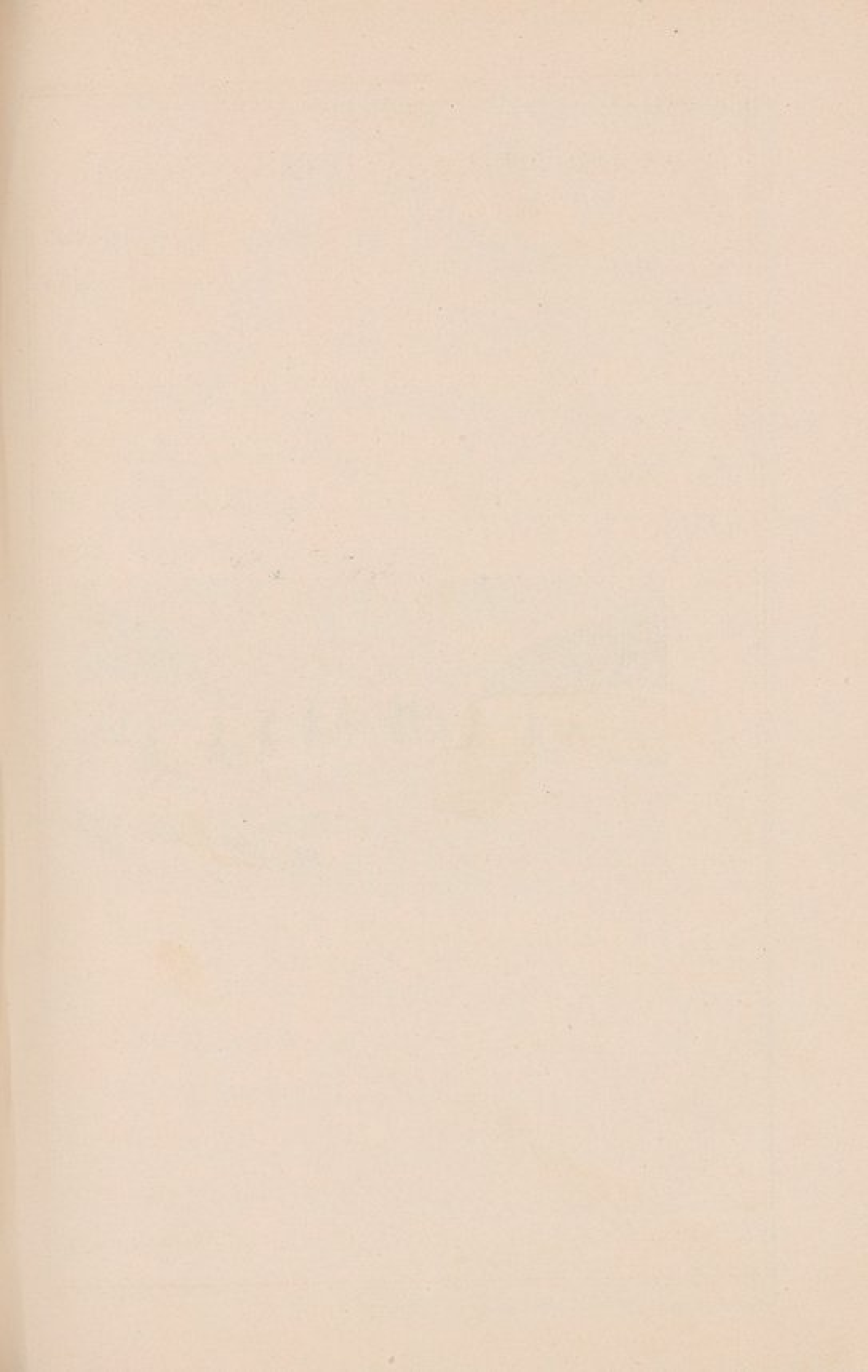
فزلت بهِ القدم وهوى الى هوة عمق الثلج فيها ٥٠ متراً وفارق الحياة . ولما علمت والدة الشاب بهذا الخبر جاءت بنفسها وصعدت الى محل حتفهِ والادلاء معها ثم تقدمت الى تلك الزهرة حذرة متأنية فقطفتهــا وعادت بها مع جثة ابنها الى الوطن . وقد رسموا طرق السير في هذا الجبل من بعد هذه الحوادث فالسياح يمرون في الطرق المرسومة فوق الثلج المتراكمة في الوادي

وقد التقينا في جنيف بحضرات سعاد بك وكيل دائرة دولة البرنس جميل باشا طوسن سابقاً وراشد بك من اعيان مصر فاتفقنا معهما عَلَى زيارة الجبل الابيض مع ما في ذلك من العناء فذهبنا في قطار وقف في عدة قرى سويسرية ثم وصل مدينة لفايه بعد ٣ ساعات وكان معنا سياح اكثرهم من الانكليز والاميركان قاصدين روءية الجبل الابيض أيضاً فتناولنا الغداء جميعاً في مطعم المحطة ثم ركبنا عربة كانت تنتظرنا وتجرها ستة جياد قوية بدينة فقامت في طريق خصت بهذه العربات ولا تسع غير واحدة منها بعد واحدة وكانت العربة تلف وتتعرج وترتد وتدور حسب المعتاد في كل طرق الصعود الى الجبال فلما مضى على هذه الحالة خمس ساعات بلغنا بلد شاموني وهي في اسفل الجبل الابيض ولا حاجة الى القول ان المناظر التي شاهدناها في هذه الساعات الخمس كانت من بدائع الطبيعة بلا مراء . والمسافة بين جنيف وشاموني ٨ ساعات فهي قريبة من بلد الانس ولكنها كانت الى عهد قريب اي من نحو ٥٠ سنة بلا ساكن فاصبحت الآن مثابة حسناء يقصدها نحو خمسة آلاف زائر كل عام ليتقدموا منها الى قمة الجبل وقد قامت فيها الفنادق الكبرى بعضها يلي بعضاً لتفي بحاجات هؤلاء السائحين وكثير منهم لا يتعدون هذه الجهة بل يكتفون بما يرون امامهم من القمم والمناظر الفتانة ولكنني كنت من الذين عولوا على روءية هذه المناظر وبلوغ آخرها فبتُّ مع

الذين عزموا عزمي ليلة في شاموني وقضينا ليلة أخرى للراحة والاستعداد ثم اشترينا الاحرمة وجوارب الصوف تلبس فوق الحذاء منعاً للزلق واخذنا لكل منا عصاً في آخرها حديد كالحربة يغرز في الثلج حتى يتكيء السائر عليهِ ولا ينقلب فيحل بهِ العطب واكترى كل منا بغلاً وكان معهُ دليل ايضاً. وفي صباح اليوم التالي تقدمنا على هذه البغال صعداً بسير رويد وكانت الطريق ضيقة لا تكفي لاكثر من جسم البغل وكان مرورنا متعرجاً حسب العادة والمناظر من دوننا في هذه الشعاب والمسالك والاودية مما يخلب الابصار ولا سيما هذه الصخور الهائلة المقدار منها حجر من الصوان اراهُ لنا الدليل وطولهُ ١٥ متراً . وبعد ان سرنا اربع ساعات على ظهور البغال بلغنا محطة مونتافير وهي آخر ما يمكن الوصول اليهِ على المطايا علوها ٦٤٠٠ قدم وربما عجب القاريء اذا ذكرنا لهُ اننا وجدنا في هذه الطريق العسيرة المحفوفة بالبرد والاخطار بعضاً من السيدات يغلب على الظن انهنَّ اميركيات كنَّ سائرات في تلك المواقف على الاقدام وهنَّ يفتخرنَ بمثل هذه المخاطرات ويؤثرنَ المشي على الركوب مغالاة في الفخر والمباهاة . والبرد هنا شديد والهواء يجلد الابدان وقد بنوا في مونتافير فندقاً صغيراً تباع فيهِ السلع الصغرى تذكاراً لهذا الموضع واكثرها من الخشب كالافاريز الصغيرة وسكاكين الورق وحجارة الالماس الصخري وهي باهرة اللمعان كأنها الجوهر الحقيقي وحجارة عين الهر وفي سويسرا كثير من هذين النوعين يصوغونهُ بالذهب ويبيعونهُ في اشهر المدن . وقد التقينا في هذا الفندق ببعض مندوبي الصحافة قادمين من معرض باريس وفي جملتهم حضرة الامير امين ارسلان مندوباً من صحف البلاد العثمانية وكان معهُ نواب صحف الصين واليابان وغيرهما واما مصر فلم تندب صحفها احداً في ذلك المؤتمر . وكثير من السائحين يبلغون هذا المكان ولا يمرون فوق بحر الجليد



المرور من بحر الجليد



واما بحر الجليد هذا فهو موضع غريب على مقربة من مونتاڤير وهو عبارة عن وادٍ عظيم ما بين جبلين شاهقين وقد غطى الجليد ارضهُ فجعلها كالبحر منظراً ولذلك اطلقوا هذا الاسم عليهِ وطول هذا الوادي اربعة اميال ونصف وعرضهُ ميل وربع ميل . فلما جاء وقت الذهاب اليهِ قمنا مع القائمين وسرنا في اول الامر نحو ربع ساعة حتى اذا بلغنا طرف هذا البحر المتجمد لبسنا جوارب الصوف فوق الاحذية وامسكنا بالعصي التي في طرفها حراب بيسارنا وامسك بنا الادلاء باليمين فسرنا على هذه الطريقة فوق منبسط من الماء المتجمد وقد نقروا فيهِ مواضع صغيرة هي اشارات الى حيث يلزم ان توضع القدم وتأملنا ساعتئذٍ منظر هذا الموضع فاذا هو بديع يولد مهابة في النفوس وهو بلا مثيل بين المناظر التي ينتابها السائحون ولا سيما اذا تأملهُ الواقف في وسطهِ كما فعلنا حين بلغنا موضعاً يقال لهُ البئر وهو مكان تشقق فيهِ الجليد وجرى من تحتهِ الماء والناس يجرون فوق هذا المنظر ويعجبون وبين نحن نتأمل هذه البئر العجيبة نبه السياح والادلاء اذهاننا الى منظر بعيدهو جرف من التراب انهال من الجبل الابيض على مرأى منا وتطاير غباره فكان كالغيم والضباب في ذلك الجو الرفيع

وظللنا على المسير حتى بلغنا الطرف الآخر بعد ثلث ساعة بوجه التقريب وكانت الحجارة الصوانية الكبرى مبعثرة هناك وهي متساقطة من جبل شابو القائم امامنا فجعلت انتقل من حجر الى حجر حتى وصلت آخر الجليد وهو في الارض باسفل الجبل المذكور ولكنني لحظت في تلك الساعة ان كل السائحين عادوا من بئر الجليد السابق ذكرها الى الفندق في نفس الطريق التي سلكناها ونحن قادمون وبقيت انا وحدي مع بعض من الرفاق فلم ادرك العلة في ذلك لاول وهلة وعدت مع رفاقي الى المسير على الاقدام في لحف جبل شابو حتى التقينا بجبل

آخر من الحجر الصواني الساطع يلمع كأنه المرآة وقد قام على شكل عمودي تقريباً كأنه الجدار اسفله في بحر الجليد واعلاه في القمة ولا بد من اجتياز هذا الجبل العسير لاتمام الرحلة فهم وجدوا طريقاً سموها (موفه يا) اي المسلك الوعر وطريقهم هذه عبارة عن نقر في هذا الجبل غرزوا بهِ قضيباً من نحاس فكنت اسير على هذه الحفر وامسك بذلك الحديد وانا على غاية من التأني والحذر وكان وجهي لا يبعد اكثر من نصف متر عن هذا الجدار وورائي بحر الجليد ولكنني لم التفت الى الوراء عملاً بنصيحة الدليل . وقد ادركت في هذا الموقف الحرج سبب رجوع السياح من بئر الجليد لان المسير هنا خطر على السائرين وقد استغرق معنا في هذا المكان نحو خمس دقائق تقريباً فلما انتهينا منهُ فرحنا بالفرج وحمدنا الرحمن الرحيم ورأينا امامنا خصاً تباع فيهِ المشروبات فاسترحنا قليلاً في هذا الخص وهو ترى منهُ الجبال المحيطة بهذا الموضع وقد ذكرنا بعضها ويرى ايضاً منتهى بحر الجليد وهو قائم كالجدار يخرج منه نهر آفر وينحدر بسرعة وهو الذي يسير مع نهر الرون من جنيف وقد سبق ذكره . وعلو هذا الجدار من ١٠ امتار الى ١٥ متراً وهو يزحف في بعض الاحيان ويتقدم من ثقل الجليد وراءه فهم يضعون علامات من الحجر لمواضع انتقالهِ . وقد سرنا من هذا المكان على الاقدام في طريق انشيء بلحف الجبل وطوله نحو ثلث ساعة والتقينا اثناء المسير هنا بجبل آخر صواني لون حجره ازرق قام عمودياً كالجدار ايضاً وعلوه ١٢٠٠ متر وعرضه ٤٠٠ متر تقريباً تنحدر من اعلاه مياه صافية كالزلال وهي تجري على كل عرضهِ ولها منظر بديع شربنا من هذه المياه بايدينا لان منظرها شهي والشرب منها يحلو للنفوس . وما زلنا على المسير حتى انتهينا من المسالك العسيرة ورأينا البغال واقفة بانتظارنا حسب اتفاق سابق مع الادلاء فركبنا ظهورها وسرنا في وادٍ من شجر الصنوبر تلتف اغصانه بعضها على بعض

حتى انها تحجب نور الشمس في بعض اجزاء هذه الغيضة الحسناء . ولما هبطنا على ظهور المطايا الى سطح الارض ظللنا على المسير بين عمائر السويسريين ومزارعهم وبساتينهم ومراعيهم الغضة نمتع الطرف بمنظر هذه الاكواخ التي قامت على عمد من الخشب ومن تحتها فراغ حتى اذا جرت السيول لا تجرف الاكواخ بما فيها ولها سطوح من القرميد المتدرج في الصعود لا تستقرُّ عليه المياه من الامطار الكثيرة . وكنا نعجب بالمواشي والابقار الضليعة تتنقل بين هذه الاعشاب والمرابع البهية حتى اذا جاءت الساعة ٧ مساءً عدنا الى شاموني بعد سفر ١٢ ساعة وقد اعيانا التعب من المسير في اعسر مسالك اوروبا الجبلية واغرب مواقع الطبيعة الفخيمة التي تؤثر في الصدور .

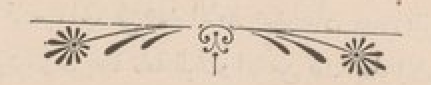
وبقينا يوماً آخر في شاموني طلباً للراحة ثم عدنا الى جنيف من طريق غير الذي سلكناه في المجيء فقمنا في حافلة مثل عربات الامنبوس صعدت الجبل بنا متعرجة ملتفة حسب العادة واكثر مسيرها على ضفة نهر آفر الذي يخرج من بحر الجليد وقد مرَّ ذكره . ورأينا ان النهر ضيق المجرى سريع كثير الصخور الزرقاء في مجراه فهو سلسلة شلالات صغيرة لها دوي عظيم . وكانت الحافلة تنساب بين هذه المشاهد الساحرة للعيان وتدخل من نفق الى نفق وكلما برزت من احدها تجلت لنا المحاسن التي لا يصفها قلم او لسان او تمر فوق جسور من الحديد علقت من طرف في تلك المرتفعات الى طرف حتى بلغنا جهة تعرف باسم تريان وهي في واد شاهق علوه ٤٢٥٠ قدماً وقنن من الجبال المكسوة بالثلج من حولها تعد بالعشرات منها جبل يدعى مسلة البرج علوه ١١٥٨٥ قدماً والثلج في جوانبهِ الى ابعاد بعيدة لهُ منظر كاللجين حتى اطلقوا عليهِ اسم الفضية لهذا السبب ومن هنا تتصل الطرق بشعاب سان برنار المشهورة بديرها وكلابها التي تنقذ المسافرين من الموت تحت الجليد وهي في

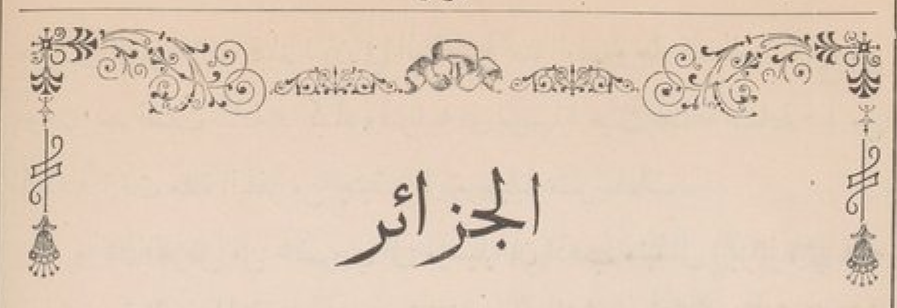
الطريق الذي سلكه نابوليون حين هاجم ايطاليا وفتحها في اوائل عهده بالحروب . وفي تريان هذه فندق اقمنا فيهِ ريثما استرحنا وتغذينا ثم ابدلنا خيل العربة وعدنا في طريق يعرف باسم الراس الاسود ومررنا في طريقنا بجبل الطير فنبه الادلاء نظرنا الى قمتهِ التي كنا عازمين على بلوغها فاذا بالنسور محلقة من فوقهِ وهو على علو ٨٦٥٥ قدماً . وكنا في كل هذه الطريق نرى شجر الصنوبر منسقاً احسن تنسيق صفوفاً فوق صفوف كانها عولجت بالمقراض وبعض هذه الاشجار ينمو فوق الصخور. ولقينا في الطريق صغاراً من الصبية والبنات يبيعون ازهاراً برية وفاكهة حتى بلغنا مدينة مارتيني وهي تتصل بجنيف بسكة الحديد وبعدها عن تريان ٤ ساعات وعن شاموني ٨ . واجتزنا المسافة بين مارتيني وجنيف بسكة الحديد في ٣ ساعات مررنا فيها بجبل سان موريس الشهير . وكانت مناظر الجبال والوديان والبلاد كلها بين شاموني وجنيف في طريق الذهاب والاياب معاً مجموع غرائب وبدائع طبيعية تخلب الالباب . وكثير من السياح يكتفون بالمناظر التي يمكن الوصول اليها بالعربة وسكة الحديد لحد شاموني فلا يعبأون بزيارة الجبل الابيض مشياً وركوباً على البغال كما فعلنا لان في ذلك مشقة لا تخفى على القارئين .

﴿ من جنيف الى مرسيليا ﴾ لما انتهيت من هذه السياحة البهية في ٣١ اغسطس قمت من جنيف الى مرسيليا في قطار سكة الحديد مخترقاً بلاد سافوا الجبلية وهو يخرج من نفق ويدخل في نفق حتى اجتاز السابع وبلغ مدينة بيل جارد وهي واقعة على حدود فرانسا وسويسرا كما قلنا في فصل غير هذا وفيها جمرك فرنسوي يشددون فيه ويدققون في تفتيش عفش المسافرين لان اكثرهم ياتون بالاشياء المصنوعة في سويسرا وهي عليها رسوم جمركية في فرانسا. واما الذي يتنقل في مدائن سويسرا فانه يستريح من عناء الجمارك وتفتيشها اينما سار . وقد قام القطار من بيل

جارد في ارض فرانسا فبلغ ليون في الساعة ٤ بعد الظهر وجاء القطار السريع من باريس بعد نصف ساعة فركبناه وسرنا بهِ الى مرسيليا حيث بلغناها الساعة ١٠ من المساء فكانت مدة السفر من جنيف الى مرسيليا عشر ساعات

وكان الغرض من حضوري الى مرسيليا ان اذهب منها الى الجزائر وهي بلاد عربية قديمة العهد لها تاريخ ممتزج بتواريخ مصر والشام يهمُّ قرَّاء اللغة العربية وعليه عزمت على السياحة في بلاد الجزائر ووضعت لها خلاصة تاريخية حسب عادتي ليكون المرء عَلَى بينةٍ مما يقرأ عنها وهي خلاصة مفيدة بدأتها من عهد الفينيقيين فالرومانيين والفندال والروم والعرب والاتراك والفرنسويين واسهبت في الاسباب التي ادّت الى قيام وسقوط كل دولة على حدتها





الجزائر

خلاصة تاريخية

رأيت صعوبة في جمع هذه الخلاصة التاريخية لما ان الكتب العربية مثل تاريخ ابن خلدون وابي الفداء مطولة وكتب الافرنج تسرد الاسماء العربية على طريقة بعيدة عن الصواب . ولكنني جمعت هذه المواد الآتية من عدة مؤلفات للعرب والاوروبيين

يبدأ تاريخ الجزائر المعروف على عهد اجدادنا الفينيقيين وقد تلاهم الرومانيون في حكم تلك البلاد ثم الفندال ثم الروم ثم العرب ثم الاتراك ثم الفرنساويون وهم اصحاب البلاد الآن . وكانت البلاد تعرف باسم ليبيا على عهد الرومانيين واهلها الاول من البربر يعيشون عيشة القبائل المنحطة ولكنهم اشتهروا بالبأس والشدة فلم يخضعوا خضوعاً صحيحاً لامة ملكتهم ولم يأخذوا عنها شيئاً من علومهم وحضارتهم بل انهم بقوا على عبادة الوثن ما خلا بعضهم دانوا بالاسلام بعد استيلاء العرب على بلادهم . وحدث كثيراً ان البلاد جزئت بين الفاتحين حتى ان هذه التجزئة ظهرت من عهد قريب اي على عهد الامير عبد القادر حين تقرر ان يكون بعض البلاد لهُ والبعض لفرانسا . ولم ترسم خريطة تامة للبلاد الأمن بعد ابعاد الامير عبد القادر واستيلاء فرانسا عليها برمتها

وقبل ان اذكر امر الفينيقيين في هذه البلاد اقول ان بلاد فينيقيا الاصلية كانت تمتد من وراء صور في شطوط الشام الى رأس الخنزير على مقربة من اللاذقية . وكان في جملة المدائن الفينيقية صور وهي العاصمة القديمة وصيدا وحيفا ويافا وبيروت وعكا وطرابلس واللاذقية وكلها ثغور بحرية كما لا يخفى . وكان لهذه الامة مراكز في اعالي الجبال مثل رأس الكرمل فوق حيفا ورأس الناقوره والرأس الابيض ورأس الدامور فوق صيدا ورأس نهر الكلب فوق بيروت ورأس الشقعة فوق طرابلس والرأس البسيط فوق اللاذقية حتى انهم لما كثر عديدهم اوغلوا في داخلية البلاد وآثارهم كثيرة في قرى لبنان وجبال النصيرية فوق

اللاذقية وكانت جزيرة ارواد ما بين طرابلس واللاذقية من مراكزهم المهمة قبل ان اسمها هذا فينيقي بقي على حالهِ الى اليوم وفيها آثار لهم كثيرة الى الآن

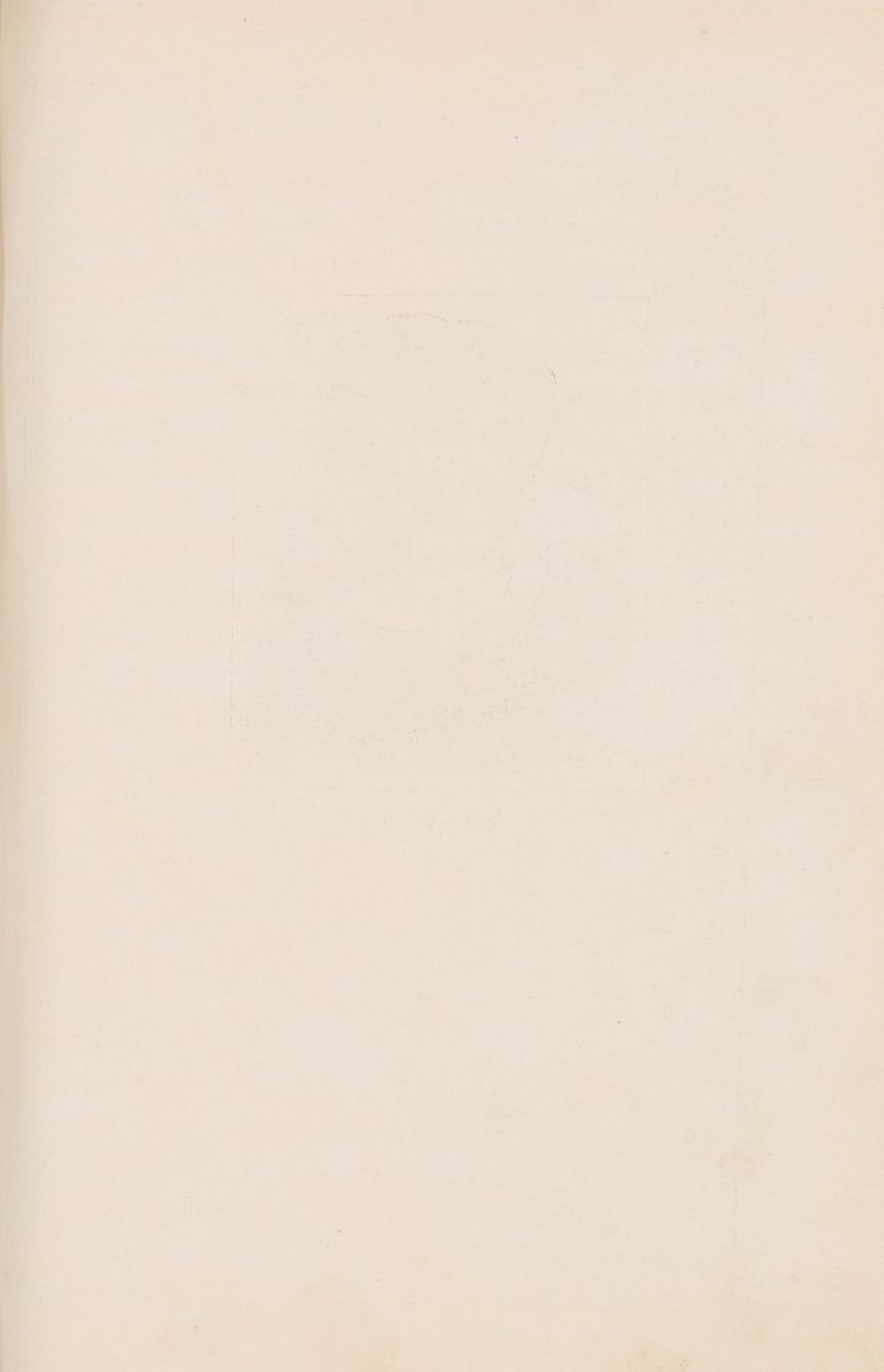
واما كيفية استيطان الفينيقيين لاقطار افريقيا الشمالية مثل تونس وطرابلس الغرب والجزائر ومراكش فيقال فيه ان اميرة اسمها ديدون — وقيل في كتاب سيرة القديسين ان اسمها اليشير — هربت من وجه اخيها بجماليون ملك صور الذي قتل زوجها طمعاً بثروتهِ حوالي سنة ٨٦٠ قبل المسيح وابحرت الى حيث لا تدري ومعها حاشية واعوان حتى القتها الاقدار عند موقع مدينة تونس الحالي فالقت عصا الترحال فيها واشترت ارضاً من زعيم قبيلتها وقيل انها احتالت على هذا الزعيم وادعت انها لا تريد غير بقعة صغيرة حتى اذا باعها واستقرَّ بها النوى جعلت تتوسع في امتلاك الارض مع اعوانها وبنت مدينة قرطاجه المشهورة على مقربة من تونس ثم تبعها اقوام من اهل وطنها فعمروا تلك الجهة تعميراً وبنوا فيها بعض القلاع واقاموا يتاجرون في البحار والاقطار ولكنهم لم يسمع عنهم شيء غير الاشتغال بالتجارة مدة ثلثة قرون بعد انشاء مدينتهم الا بعد خراب مدينة صور عاصمة فينيقيا الاصلية حين فتحها بختنصر ملك بابل حوالي سنة ٥٧٤ قبل المسيح ودكَّ معالمها وخرب ما فيها فرحل الناس منها ومن بقية المدن الفينيقية الى قرطاجه لانها بلغت في ذلك الزمان منزلة تذكر من التقدم والنماء . وكان اهل هذه المستعمرة جميعهم يشتغلون بالتجارة حتى عمال الحكومة منهم وكانوا يعلمون الاهالي المجاورين لهم طرق المتاجرة والارباح . ولم يهملوا الزراعة بل انهم اتقنوها وعلموا الاهالي طرق الانتفاع منها وفرضوا على المزروعات مالاً قليلاً لا يمنع الناس من الانقطاع لها وبذلك خدموا المدنية ورقوا حالة الاقوام المجاورة لهم وبنوا المدائن والطرق منهـا ما هو باقٍ الى اليوم ومطروق مثل طريق الصحراء الى السودان فانها طريق القوافل الى هذا النهار . كذلك الصناعة حذقوا بعض فروعها وقد عثروا على آثار كثيرة من الحلي الذهبية والفضية صنع الفينيقيين تشهد لهم بالتفنن والذكاء وهي الآن في متحف قرطاجه وسنعود اليهِ . وكان لهذه المستعمرة جيش معظمهُ من غير العنصر الفينيقي لان شبانهم كانوا يستأجرون افراداً من اهل افريقيا للقيام بهذه الخدمة عنهم . واشتهروا بحكومتهم الجمهورية مع انهم عاشوا في عصور الاستبداد والحكم المطلق فكان لهم مجلس (سناتو) اعضاؤُهُ مئة ينتخبون من الشعب كل سنة وهم حكام المستعمرة وقضاتها ووزراؤُها معاً لان مجلسهم كان يشهر الحروب ويعقد المحالفات ويقضي في مسائل الناس . واتسع نطاق تجارتهم في جميع الانحاء فبنوا المواني الواسعة واكثروا من السفن ترتاد البحار حتى انهم بلغوا شطوط البلطيق في الشمال وشطوط البحر الهندي وخليج فارس في الجنوب

وقيل اكثر من ذلك مما لم تؤيدهُ الآثار والاخبار . وكانوا يذهبون بسفنهم الى مصر ليشتروا منها الحبال والقماش لمراكبهم والورق والقمح وغير ذلك . واختلفوا الى ثغور البحر الاحمر حيث كانوا يأتون بالتبر والافاويه والعطور والبخور . وكانوا في كل هذه المواضع يعطون الاهالي بدل هذه الاشياء اقمشة من صنع بلادهم ملونة اكثرها باللون الارجواني وهم اول من اهتدى الى صنعهِ وبعض الادوات المعدنية من الحديد والنحاس والرصاص كانوا يستخرجونهُ من اقليم نوميديا فاشتهروا بهذا بين طوائف الاقدمين

وكان مجلس الشيوخ مشرفاً على شؤون البلاد قرر ان تستولي الجمهورية على كل القرى والمدن الواقعة على شاطىء البحر الشمالي وفي جملتها موقع الجزائر الحالي وكل ما امكن امتلاكهُ بين جبل طارق في آخر البحر المتوسط من ناحية الغرب الى اطراف بلاد طرابلس وما يقابلها وكذلك بعض اجزاء اوروبا من جنوب اسبانيا الى حدود مرسيليا . واستولوا ايضاً على جزيرتي سردينيا وكورسيكا وجزء في صقليه ومالطه وكانوا يستولون على كل هذه الاقطار بالتداخل السياسي والتجارة بدل الحرب وهي طريقة الانكليز في بعض ما ملكوا من الهند وسواها في التاريخ الحديث . ولكن هذا السؤدد لم يدم زماناً لاهل قرطاجه لان دولة روميه بدأت تحسدهم على هذه النعم وتطمع في اختلاسها منهم وكان بدء الخصام بين الدولتين ثورة في مدينة صقلية اذ طلب فريق من اهلها الانضمام الى جمهورية روميه واراد الآخرون ان يبقوا تحت راية قرطاجه فقامت الحرب الاولى بين الجمهوريتين وكان الفوز في اوائلها للقرطاجيين لما ان سفنهم الحربية كانت اكثر عدداً واتقاناً ولكن اهل روميه اسرعوا الى بناء سفن جديدة على شكل السفن القرطاجية فانتصروا بها واستولوا على جزيرة صقلية وجزيرة سردينيا ثم توجهوا الى قرطاجه ففتحوها عنوة مع ان قائدها اميكلار ابلى بلاء حسناً وقاوم الاعداء زماناً طويلاً ولكنهُ قتل في احدى المعارك وخلفهُ صهرهُ اسدروبال وهذا ايضاً قتل غدراً وخلفهُ ابن اميكلار وهو شاب في الثانية والعشرين من عمرهِ والقائد العظيم المشهور باسم هنبال او (هنبعل) الذي يعدهُ الناس الى هذا الزمان من اكبر العارفين باصول الخدمة الحربية فان هذا البطل الهمام دخل بلاد الرومانيين بجيش اكثرهُ من اهل اسبانيا وفاز في كل المعارك التي حدثت لهُ مع اعدائهِ حتى انهُ بلغ سور روميه واصبحت تلك الدولة العظيمة في خطر كبير فما عرفت كيف تخلص من عدوها القاهر حتى فطنت الى طريقة كانت هي القاضية ذلك انها جردت جيشاً تحت قيادة رجلٍ من سراتها وسيرتهُ على قرطاجه ليضايقها حتى يضطر هنبال الى الخروج من بلاد ايطاليا والذهاب الى وطنهِ ليدافع عنهُ . وقد تم ذلك لروميه وعاد



(هنيبال)



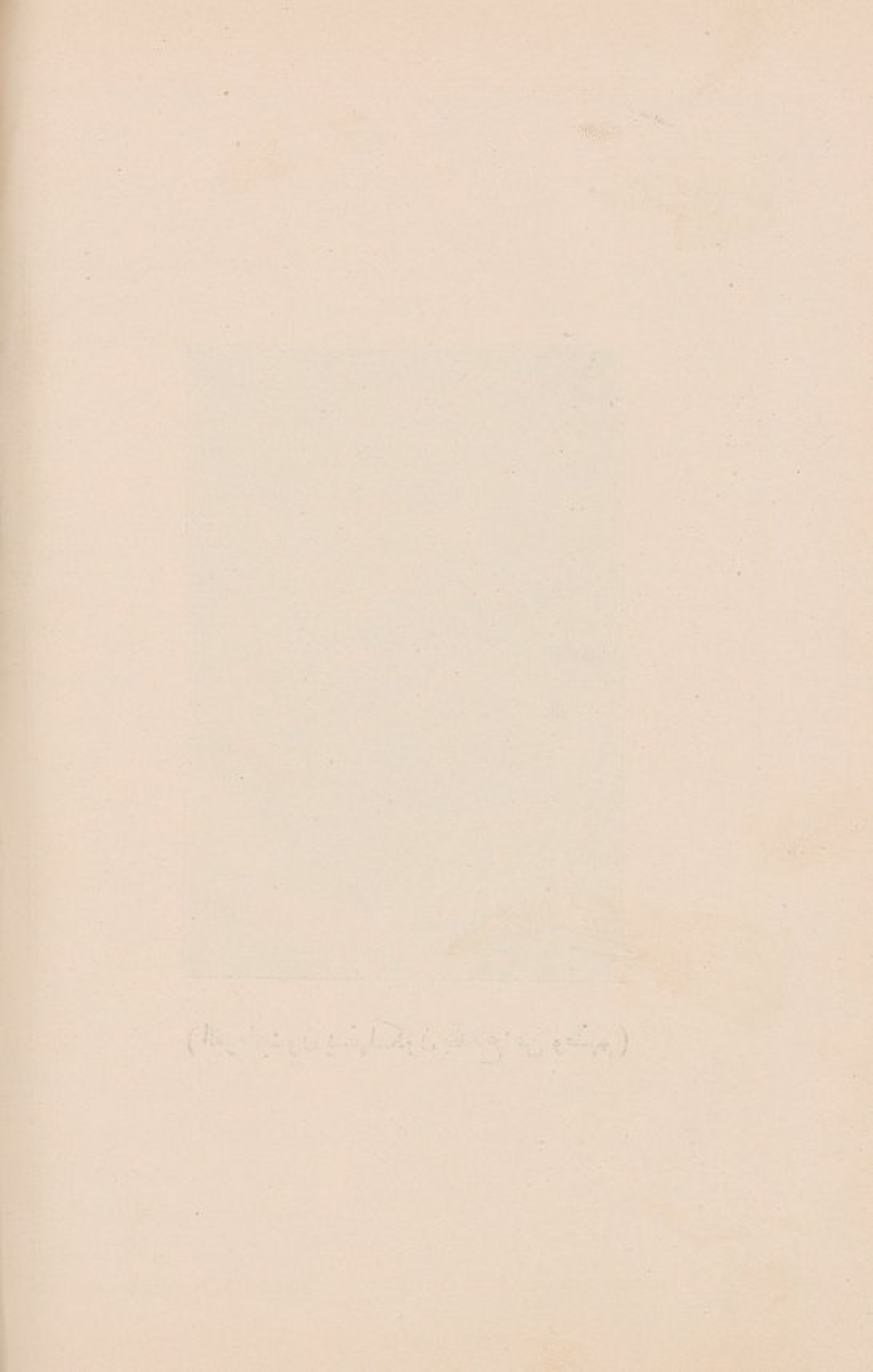
هنبال على كرهٍ منهُ بعد ان افنى معظم جيشهِ في المعارك الطليانية التي دامت ١٤ سنة وابقت لهذا البطل الفينيقي اعظم ذكر في تاريخ الحروب ولاسيما انهُ كان اول قائد اجتاز جبال الالب بجيش جرار وما فعل فعلهُ في الزمان الحديث غير نابوليون الفاتح المشهور · قيل ان هنبال بكى حين جاءهُ امر السناتو بالرجوع للدفاع عن وطنهِ لانهُ كان قد اقسم ان يدخل روميه ويهد اركانها فما تم لهُ المراد ورجع بعد ان افنى من جيشهِ ٦٠ الف بطل وبقي معهُ ٤٠ الفًا فقط · وكان غيظهُ شديداً حين بلغ الوطن ووجد اهلهُ في خمول ورخاء لا يهتمون للدفاع عن استقلالهم وقد انغمسوا في تجارتهم وصناعتهم حتى انهم توسلوا اليهِ ان يعقد صلحًا مع الاعداء بدلًا من ان يتحمسوا معهُ · وكانت خزانة حكومتهم فارغة من المال وليس لديها رجال يصلحون لانجاد الجيش المحارب بين ان جيش روميه كان يزيد ويشتد من يوم الى يوم وقائدهُ شيبيو يعتز ويضمن النصر فطلب هنبال مقابلتهُ وكان الرجل معسكراً على بعد ايام عن قرطاجه فلما تقابل القائدان طلب شيبيو شروطاً ثقيلة تقضي على حياة قرطاجه فابى هنبال قبولها وتقدم الفريقان للحرب القاضية والتقيا عند قرية اسمها زاما وهنالك دارت رحى القتال الشديد وبذل هنبال جهدهُ في ادارة جنودهِ وهم يومئذٍ ٤٠ الفًا ولكنهُ كثر عليهِ العدد حتى قتل من رجالهِ نصفهم عدا من اسر فامرهم بالتراجع الى المدينة وعاد في اضطراب واسف عظيمين زادهما ما لقي من فتور الهمم بين قومهِ واستسلامهم للاقدار وكانت هذه الموقعة في سنة ٢٠٣ قبل المسيح

ورأى هنبال بعد هذه الكسرة ان دولة قومهِ دالت وانهُ لا بدَّ من قتلهِ اذا بقي في بلادهِ ففر منها وذهب الى سورية حيث اكرمهُ ملكها انطيوخوس واعلى مقامهُ لان الملك المذكور كان كارهاً للرومانيين · ولكن هنبال كره الحياة بعد ذلهِ فتجرع سمًّا ومات غريبًا واستسلم اهل قرطاجه بعد غيابهِ فسلموا كل سفنهم واسلحتهم للرومانيين وعدد السفن ٥٠٠ اضرم القائد شيبيو فيها النار فاضاءت الفضاء بنارها اياماً ثم عاد بالاسلاب والغنائم الى روميه حيث قابلهُ قومهُ بالاكرام العظيم · واشتدت وطأة الحكام الرومانيين بعد هذا الانتصار على اهالي قرطاجه حتى انهم تآمروا مع الاهالي على خلع نير الطاعة ومن ثم شبت الحرب القرطاجية الثانية مع روميه وانتهت بالخضوع التام وضم قرطاجه وما يتبعها الى املاك الرومانيين · وكانت هذه الحرب شديدة الاهوال لان اهل قرطاجه ذاقوا طعم الاستبداد الروماني فتجند رجالهم ونساؤهم للحرب تحت قيادة اسدروبال وجدّوا في بناء السفن حتى انهم كانوا يهدمون المنازل ليبنوا المراكب باخشابها ولا تفوتهم فرصة الانتقام والاستقلال وجعلوا

معابدهم معامل لصنع السلاح والتمرين واستخدموا النساء والاولاد في عمل المهمات الحربية وباعوا حلى نسائهم ليشتروا بها ذخائر للحرب وقطعت النساء شعورها حتى تجعلها حبالاً للسفن الحربية واظهر القوم غاية الانفة والحماسة الوطنية حين اقبل الرومانيون عليهم بالجنود والسفن الحربية فحصروا مدينة قرطاجه واقاموا على الحصار سنتين وهم لا يتقدمون خطوة واهل المدينة ينسلون تحت جنح الظلام من حين الى حين للبطش بجموعهم ويأتون غرائب الصبر والاقدام في الدفاع عن الوطن العزيز حتى اذا كانوا في سنتهم الثالثة من سني هذا الحصار قل الزاد داخل المدينة واشتد الكرب والضيق فجعل الرومانيون يوالون الهجمات وهم ابداً على ازدياد مما يأتيهم من النجدات واستمروا ستة ايام بلياليها يكرون ويهجمون والمحصورون يردونهم بعزم الابطال الاشداء حتى تيسر لهم الدخول من سطح احد المنازل المتطرفة وجعلوا ينتقلون منهُ الى السطوح الاخرى فوق الواح من الخشب وضعوها لهذا الغرض واهل المدينة يضربونهم بقلب شديد ولكن الدفاع لم يغنِ فتيلاً لان الرومانيين تكاثروا في السطوح ودخلوا الشوارع ثم اضرموا النار في منازل المدينة فرأى القائد اسدروبال ان الآخرة دنت وانهُ لم يبق بدٌّ من التسليم او الفناء فذهب الى جهة القائد الروماني وبيدهِ غصن زيتون علامة التسليم ولكن زوجتهُ سمعت الناس يقولون انهُ خان الوطن بهذا التسليم فهاج دم النخوة في عروقها وبلغت بها الحماسة الوطنية مبلغ الجنون حتى انها اقتادت ولديها احدهما باليمين والثاني بالشمال ودخلت بهما الهيكل ثم نادت بالناس فتبعوها كباراً وصغاراً وهنالك قالت لاهل وطنها ان الموت خير من التسليم للعدو واشارت بان يحرق الهيكل وهم فيهِ فرضوا بما قالت واضرموا النار في موضعهم فالتهبت النار واحترقت هذه المرأة الشريفة مع ولديها وبقية اولئك الابطال الكرام . ولما استولت الجنود الرومانية على المدينة اكملت المصاب بالنار ايضاً عملاً بامر السناتو فاحرقت المدينة العظيمة بكل ما فيها وبقيت النيران تأكل تلك المنازل والقصور اسبوعاً باكملهِ والناس داخل المدينة يتعذبون ويموتون حتى اذا فرَّ احدهم تلقاهُ الرومانيون بسلاحهم وقتلوهُ . وكان منظر ذلك الحريق الهائل وصراخ المحروقين والمعذبين يفطر الاكباد ولكنهُ لم يؤثر في جنود الرومان لانهم لما انتهوا من امر النار وخربت المدينة صدر لهم الامر بدفن الموتى من اعدائهم فجعلوا يدفنون الحي مع الميت وبهذا قضي على اعظم جمهورية شرقية قامت في التاريخ القديم وكان مصابها الاخير في عام ١٤٦ قبل المسيح . وقد كانت قرطاجه عروس المدائن في زمانها ودار الانس والصفاء والعز واليسار بلغ عدد سكانها ٧٠٠ الف نفس كثر فيهم الاغنياء واصحاب الذكاء وكانت



(القرطجنيون يستهلكون بالدفاع عن وطنهم)



جوانب قرطاجه حافلة بالمعابد الفخيمة والقصور المنيفة والمتنزهات الجميلة وهي مدة اجيال مصدر الصناعة والعلم ومرجع اصحاب المتاجر من جميع الاصقاع . وقد سادت وشادت خمسة قرون كانت فيها مثال الحكمة والعدل وبنت قواعدها على اساس الحكم الجمهوري ونبغ من اهلها العظماء والكرام ورتع الاهالي في ظل عدلها فما شكوا ظلماً ولا هبوا لثورة في كل تلك القرون . وما زالت اثار هذه المدينة العظيمة على مقربة من ضواحي مدينة تونس الحالية وقد بني فوقها مدن سيدي بومدين ومدينة المرسي حيث قام قصر الباي وغير هذا مما سنذكره في فصل سياحتنا التونسية

السلطنة الرومانية

لما استولت رومية على بلاد قرطاجه جعلت ولايتها لرجل من سراتها اسمهُ ميشبسا وهو جعل مقر حكومتهُ في مدينة سيرتا (قسنطينة الآن) وسار على خطة القرطاجيين في انهُ عمر البلاد بالنازحين من اهل بلادهِ وساعدهم على الارتحال الوفاً وحاول ان يعلمهم طرق الاتجار مع الاهالي ولكن اهل البلاد كانوا يكرهون الرومانيين بسبب اثرتهم واستبدادهم بعد الذي ذاقوا من حلاوة العدل القرطاجي . وبدأ هذا الوالي يبني القصور والمعابد في عاصمتهِ الجديدة وجرَّ المياه اليها من المواضع البعيدة وبنى لبعضها القناطر على شكل قناطر الملك بيبرس في مصر وبعضها باقٍ الى اليوم مع انهُ مرَّ ٢٠٠٠ سنة على بنائهِ . وكانت مدة حكم هذا الوالي ٣٠ سنة توفي بعدها وقسم الملك قبل وفاتهِ بين ولديهِ همبسال والدربال وابن اخيهِ جوجورتا وكان هذا الاخير ذا شهرة واقدام وطمع شديد خدم الدولة الرومانية في بعض حروبها ولما صار والياً طمع بملك ابني عمهِ فارسل رجلاً الى همبسال قتلهُ واضطر الآخر الى الفرار من وجههِ حتى انهُ قصد روميه ليرفع امرهُ الى السناتو فيها ولكن جوجورتا اسرع الى ارسال الوفود الى روميه وزودها بالهدايا لبعض اعضاء المجلس فلم يمكن الحكم للدربال بل ان المجلس ارسل وفداً الى الولاية الافريقية ليقسمها بين الرجلين فكان القسم الاهم بحكم هذا الوفد لجوجورتا بسبب هباتهِ ورشاويهِ . ولكن هذا الطماع لم يكتفِ بكل ذلك بل هو اشهر حرباً على ابن عمهِ حال رجوع الوفد لسبب صغير وحاصرهُ في بلدهِ فرأى الدربال ان يعمل بشور البعض ويطلب مقابلة خصمهِ على شرط الأ يؤذيهِ فوعدهُ جوجورتا بذلك ولكنهُ غدر ساعة المقابلة وقبض على ابن عمهِ وقتلهُ اشنع قتلة ودخل مدينة قسنطينة فنكل بكبارها واكثر من الفظائع حتى ان اهل روميه لما بلغتهم الاخبار لم يطيقوا صبراً على اعمال هذا الرجل ولم

يقدر حزبه على ايقاف تيار السخط فاعلنت الحرب على هذا الطاغية ودامت ٧ سنين اظهر جوجورتا فيها مقدرة كبرى على الحيلة والتخلص حتى انهم اطلقوا عليهِ اسم هنبال الثاني ولكن اهل روميه عادوا الى الشكوى من عجز دولتهم كل هذه المدة عن اخضاع احد الولاة وكان السبب في ذلك ان اثنين من القواد الرومانيين اهملا بدواعي الرشوة التي قدمها جوجورتا فعين السناتو قائداً جديداً اسمهُ ماريوس عرف بالعفة والاقدام وكان معهُ جيش من ابطال الرومانيين فضيق على جوجورتا في الحرب حتى اضطرهُ الى الفرار والالتجاء الى حميهِ والي مورتانيا (هي الآن اقليم وهران) ولكن هذا الوالي خاف بطش روميه فسلمها صهرهُ وأُخذ جوجورتا اسيراً الى العاصمة حيث قضى بقية عمرهِ في العذاب والشقاء جزاء سيئاتهِ الكثار وكان الرومانيون يهتمون كثيراً لهذه الولاية الافريقية لان نصف القمح والزيت الذي يلزم لروميه كانوا يشحنونهُ من اراضي قرطاجه . وكان على هذه الولاية رجل فاضل عادل اسمهُ جوبا الف كتباً مفيدة واحسن السياسة في الناس وطال حكمهُ ٥٤ سنة فخلفهُ ابنهُ بطليوس وكان ضعيفاً سيء التدبير منغمساً في الملذات فهبَّ الاهالي للثورة عليهِ تحت قيادة رجل من زعمائهم اسمهُ تكفارنياس كان قد انتظم في سلك الجيش الروماني حتى يتعلم الفنون الحربية فكان خصماً عنيداً لروميه ارسلت عليهِ جيشاً يقودهُ ابرونيوس ودامت الحرب زماناً لان الزعيم الوطني كان يلوذ بالقفار كلما اصابهُ انكسار في الحرب ولكن القائد الروماني جعل مالاً للذي يأتيهِ بهذا العاصي ميتاً او حياً ثم عرف بوجودهِ في جهة اوزايا فباغتهُ فيها ونكل بهِ وبجيشهِ في ساعة الفجر وكان في هذه المعارك ما يشبهُ حوادث الحرب الحديثة التي حدثت بين جنود فرانسا والامير عبدالقادر الجزائري وسيأتي بيانها . ولما استتبَّ الامن لروميه وخلصت من الثائرين قسمت افريقيا الشمالية وعينت لكل ولاية والياً وكان ذلك سنة ٤٣ بعد المسيح . وقد ذهب القيصر اوغسطس بنفسهِ الى هذه الولاية ولما رأى موقع قرطاجه امر باعادة بنائها مخالفاً اسلافهُ في ذلك ولكنهُ اشترط الأ يزيد علو اسوارها عن مترين ولما كانت قرطاجه بديعة الموقع فانهُ لم يمر زمان حتى عمرت وكبرت وصارت ثالثة المدائن في السلطنة الرومانية لا يتقدمها في الاهمية غير روميه واسكندريه وذلك بعد الخراب السابق بنحو مئتي عام

وتعاقب الولاة الرومانيون على هذه الولاية فما كان لاحدهم امر يستحق الذكر على نوع اخص غير القيصر ادريانوس فانهُ ذهب الى افريقيا بنفسهِ وانصف وعمر وشاد حتى ان الرومانيين بقوا كل مدة حكمهم يذكرون ايام هذا القيصر واثارهُ ولكنهم لم يزيدوا على

اعماله شيئاً . وكان في هذه البلاد جماعة كبيرة من اليهود نزحوا من فلسطين بعد ان فتحها القيصر تيطس ودمر عاصمتها اورشليم . واما النصرانية فانها دخلت البلاد على يد قرطاجي اسمهُ ترتولين وخلفهُ مار اغسطينوس المشهور فنشر مبادئ النصرانية بين الاهالي وبنى الكنائس وملجأً للعجزة في مدينة هبون وسيأتي الكلام عنها وعن الاساقفة واتى غير ذلك كثيراً من آيات الحض والارشاد . وقد كان القياصرة والحكام الرومانيون يضطهدون النصارى هنا على عادتهم في تلك الازمان و يعذبونهم بالطرق الوحشية المعروفة في تاريخ النصرانية مدة القرون الاولى . وقد ظل القياصرة يتعاقبون حتى قام الامبراطور ڤلانتين واشرك معهُ اخاهُ ڤالانس سنة ٣٦٥ مسيحية وكان ذلك العام بدء انقسام السلطنة الرومانية وتجزئتها لان الاخوين تقاسماها فخص ڤالانتين الولايات الغربية جعل مدينة ميلانو في ايطاليا قاعدتها موقتاً وخص ڤالانس الولايات الشرقية واقام في القسطنطينية . وحدث بعد ذلك ان الڤندال تقدموا على ولايات السلطنة الرومانية في حكم الامبراطور ڤلانتين الثالث وهو يومئذٍ قاصر تحت وصاية امهِ بلاسيد ودخلوا اسبانيا . فذهب بونيفاس معتمد السلطنة في الولايات الغربية الى اسبانيا وقابل ملك الڤندال واتفق معهُ على احترام الحدود حقناً للدماء . وحدث انهُ رأى ابنة اربوسيه بارعة الجمال في بلاط الملك فاقترن بها وكان هذا موافقاً لرغائب الملك لانهُ سهل عليهِ دخول افريقيا

سلطنة الڤندال

هم القوم المعروفون بالبربر خرجوا جيوشاً جرارة طامية من بلاد البلطيك في شمال اوروبا وجاؤوا بلاد جرمانيا العليا حيث تنصروا على مذهب اريوس ثم تقدموا للغزو والفتح فشنوا الغارة على فرانسا او هي بلاد الغول في سنة ٤٠٦ وتقدموا منها الى اسبانيا فملكوها وكان جندريك احد ملوكهم فيها هو الذي امتلك ولايات افريقيا من الرومانيين وخلفهُ ابنهُ جنسريك وهو ذو شهرة عظيمة بالدهاء وفنون الحرب اراد ان يستولي على قرطاجه فيسير عليها جيشاً عددهُ ٨٠ الف رجل مع نسائهم واولادهم كانوا من الهمج الفقراء فلما بلغوا تلك المدائن الرومانية العامرة ورأوا ما فيها من العز والنعم تمادوا في السلب والنهب وقام ملكهم الى قرطاجه ومع ان بونيفاس ذكرهُ بوعدهِ ان لا يتعدى الحدود فان كلامهُ راح سدى واضطر ان يهرب من وجه الملك الى مدينة هيبون الواقعة على شاطئ البحر . وجاءت في خلال ذلك نجدة من ملك الروم في الاستانة فلم تفد في ردجوع الڤندال وعلى

ذلك نزل اهل المدينة في مراكب الروم وهجروها فدخلها الفندال ولم يبقوا بها حجراً على حجر وكان ذلك سنة ٤٣٢ واستبدّ جنسريك بعد ذلك بالملك وكان اريوسياً شديد الوطأة على المسيحيين وحاول مراراً ان يحملهم على اعتناق المذهب الاريوسي وفتح مدينة قرطاجه بلا عناء كبير في سنة ٤٣٩ وابتزّ مال اهلها وعذب الكثيرين منهم حتى يسلموهُ ما خبأُوا من الاموال والكنوز . وكان هذا الملك الفندالي شديد الاهتمام للعفاف والصيانة فشدد الوطأة على كل متزوج بغير الطرق الشرعية ومنع الحفلات الدينية في الشوارع وكان على الجملة رجلاً عظيماً قويًا مخالفاً لاكثر اهل النصرانية فيما يعتقدون

وظل جنسريك يطمع بتوسيع الملك حتى انهُ قام الى صقليه واستولى عليها فذعر اهل روميه والقسطنطينية من انتصارهِ وتحالف الامبراطوران عليهِ فارسل الامبراطور ثيودوسيوس جيشاً عدده ٣٠ الفاً من الاستانة في سنة ٤٤١ اخذهم جنسريك بالحيلة واوهمهم انهُ ارسل وفداً الى امبراطورهم بطلب الصلح وكان في الحقيقة قد ارسل جيشاً للسطو على ثغور بلادهم فلما اتضحت الحقيقة اضطرّ الجيش الرومي الى الرجوع ليحافظ على بلادهِ فبقيت صقليه لملك الفندال وهو اعدّ فيها اسطولاً قويًا وجيشاً عظيماً للاستيلاء على رومية وساعدهُ اختلال احوالها وسوء تصرف الامبراطور على مرادهِ لان الامبراطور فالنتين المذكور كان قد اتى امراً معيباً مع زوجة واحد من اعضاء السناتو فقتلهُ العضو المذكور واكره الامبراطورة على الاقتران بهِ واصبح صاحب السلطان . ولكن الامبراطورة انتقمت منهُ بمخابرة ملك الفندال سرًّا حتى اذا جاء بجيشهِ استولى على عاصمة العالم القديم بلا قتال ولا عناء كبير ثم امر بنهبها واحراقها وجمع النفائس والغوالي من كنائسها وقصورها ومتاحفها وعاد بها الى قرطاجه ومعهُ الامبراطورة وبنتيها في جملة الاسرى فلما بلغ عاصمتهُ عفا عن الامبراطورة واحدى البنتين وارسلهما الى الاستانة وزوج الثانية لابنهِ اونريك

وقد كان لاستيلاء الفندال على روميه تأثير عظيم القى الرعب في القلوب حتى خاف اهل القسطنطينية ان يأتي دورهم ولاسيما بعد ان استولى جنسريك على جزر صقليه وسردينيا وكورسيكا وسير اسطولاً هاجم بعض مدن اسيا الصغرى فهب ليون امبراطور الروم للدفاع وارسل اسطولاً فيهِ مئة الف محارب تحت قيادة احد اعوانهِ يدعى باسيليكوس وامر جيشاً بريًّا ان يقوم من مصر لمعاونة الاسطول على محاربة الفندال فوصل الاسطول الى ثغر بونا (عنابه) ورسا فيهِ وكاد يقضي على الاعداء ولكن جنسريك عاد الى الحيلة ولاطف رجال هذا الاسطول واولم الولائم لهم وقرب مراكبهُ من مراكبهم واوهم القوم انهُ ذاهب الى

القسطنطينية بنفسهِ ليتفق مع امبراطورهم حتى اذا انسوا بلطفهِ دسَّ بين مراكبهم صنادل مملوءة بالمواد الملتهبة ليلاً وتحت مراكبهِ بعد اضرام النار في الصنادل فاحترق معظم الاسطول الرومي واضطرت البقية الى الفرار ورجع القائد باسيليكوس الى القسطنطينية وقد خاف من غضب الامبراطور فلجأ الى كنيسة ايا صوفيا . وكان الجيش الرومي يتقدم من البر حتى اذا قرب من العدو علم بما اصاب الاسطول وكان فيهِ معظم القوة فاركن الى الفرار وعاد الى مصر سنة ٤٦٧ . وخلا الجو لملك القندال حتى اضطرَّ ملك الروم ان يعترف بهِ سلطاناً لروميه والغرب على شرط ان يحترم دين المسيح . وتوفي جنسريك سنة ٤٧٧ في قرطاجه وهو في اوج عزهِ ومجدهِ وترك سلطنتهُ لابنهِ اونريك

وقد بدأ الضعف يظهر في سلطنة القندال حالما توفي جنسريك الفاتح لان ابنهُ اونريك انغمس في الرذائل وزاد في الجور والظلم وقتل الوفاً من الناس في جملتهم المطران الاربومي الذي احتجَّ على مظالمهِ . وظلَّ خلفاء جنسريك في جور و بطر واسراف الى ان كانت ايام الامبراطور يوستنيانوس في القسطنطينية واستغاث بهِ بعض المسيحيين من حكومة القندال فعقد مجلساً من اكابر دولتهِ كان اكثرهم على ترك الحرب خوفاً من شدة القندال وبأسهم ولكن قائداً اسمهُ بلزاروس خالف الباقين واثبت لهم ان القوم القندال اضاعوا بسالتهم السابقة وانغمسوا في الملذات فصار الانتصار عليهم مضموناً ولذلك اقروا العمل برأي القائد بلزاروس واشهار الحرب واعدَّ جيش واسطول عدد سفنه ٥٠٠ ورجالهُ ٢٠ الفاً تحت امرهذا القائد وسار وراءهُ اسطول آخر فيهِ ١٠٠ مركب و٢٠٠٠ شاب من المتطوعين في سنة ٥٣٣ وهي السنة السابعة من حكم الامبراطور يوستنيانوس . ووصلت هذه السفن جزيرة صقلية بعد ثلثة اشهر ثم انتقلت الى شطوط افريقيا على مقربة من ثغر قرطاجه فهبَّ ملك القندال للدفاع واسمه يومئذٍ جيلمر وكان بلزاروس شديد الوطأة على المعتدين من جنودهِ لا يسمح لهم بالاعتداء على الاهالي حتى امال الاهالي اليهِ فلما دارت رحى الحرب كسرت فيالق القندال وهرب ملكهم الى هبّون فحاصر فيها . وتقدم بلزاروس بعد هذا الانتصار على قرطاجه فقابلهُ اهلها بسرور عظيم لانهم كانوا قد ملوا جور القندال فدخلها بابهة كبرى واقام في قصر ملوك القندال وذهب الى كنيستها فصلى مع المسيحيين من اهلها وهم في طرب عظيم ثم اهتم لتحصين قرطاجه فاشغل جيشهُ وجيشاً من الاهالي مدة شهر في البناء والحفر والتحصين استعداداً لهجمات القندال وكان ملكهم قد بدأ يستعد الزحف عليهِ واستدعى اخاً لهُ من سردينيا ليعاونهُ على حشد الجيوش وقيادتها فلما بلغت جنودها قرطاجه قام بلزاروس

لمقابلة اعدائهِ ونشبت حرب عنيفة قتل فيها اخو ملك الفندال وظهر الضعف في جيشهِ حتى انهُ لزم الفرار وترك قناطير مقنطرة من النفائس والتحف والذخائر غنيمة باردة للروم وكان اكثر هذه الغنائم اصلهُ من رومية فاخذها القائد الرومي وعاد بها الى الاستانة فلما سمع بهِ الامبراطور يوستنيانوس فرح فرحاً عظيماً واهتزت جوانب القسطنطينية طرباً ولكن الدسائس بدأت على القائد الفاتح حسب العادة وجعل الخصوم يتهمونهُ بالعمل على امتلاك افريقيا وباختلاس الجواهر والنفائس التي لا تعد من غنائم حربهِ مع الفندال غير ان بلزاروس لم يحفل بهذه المساعي بل دأب على اتمام حربهِ مع الفندال حتى لا يبقى لسلطانهم اثر وعلم ان ملكهم جيلمر فرّ الى جبل ادوغ (سنذكرهُ في فصل السياحة) فارسل وراءهُ قائداً اسمهُ فاروس حاصرهُ في ذلك الجبل مع اصحابهِ وهم في فقر وضنك شديد. وتقدم بلزاروس بعد ذلك على بقية الولايات الافريقية ففتحها بلا مقاومة وفي جملتها اقليم طرابلس وهو آخر ملك الروم في شمال افريقيا واستولت مراكبهُ على جزر البحر ايضاً فما بقي غير الملك في جبل ادوغ. الا ان هذا الملك المنكود الحظ اشتد الفقر عليهِ وقيل انهُ رأى ابن اخيهِ يوماً يخاصم احد اولاد القرو بين الفقراء على لقمة من خبز الشعير فحزن لهذه الحالة وبكى ثم ارسل يعلم القائد الرومي بعزمهِ على التسليم لبلزاروس القائد العام على شرط ان يحسن معاملتهُ وبذلك انتهى امر هذا الملك واخذ اسيراً الى قرطاجه حيث قابلهُ بلزاروس وفرح بتسليمهِ واخذهُ معهُ الى الاستانة فاكرمهُ الامبراطور وعين لهُ راتباً واسكنهُ في قصرٍ وبذلك دالت دولة الفندال بعد كل تلك القوة وحلت محلها دولة الروم في ولايات افريقيا. وقد احتفل ملك الروم وشعبهُ بهذا الانتصار احتفالاً عظيماً واتوا بملك الفندال لابساً حلتهُ الارجوانية فامروهُ ان يركع امام يوستنيانوس وزينت المدينة كلها في المساء وفي الغد سار القائد المنصور في الشوارع حسب عادتهم تحيط بهِ الزينات وايات النصر والطرب وكان ملك الفندال سائراً وراء الفاتح الذي جعل ينثر الذهب والفضة على الجموع. وانقضت سلالة جنسريك بموت جيلمر

سلطنة الروم او البيزانس

لما استتب الامر لدولة الروم في افريقيا تقرر في مجلس القسطنطينية ان يعين لها والٍ عام فوقع الانتخاب على صالومون لهذا المنصب وهو قائد محنك يحبهُ الشعب. وذهب هذا الوالي الجديد الى محل عملهِ فوجد حال وصولهِ ان الاسقفيات المسيحية نقصت في الاقاليم السبعة

(ما بين طنجه وطرابلس) الى ٢١٠ بعد ان كانت ٦٩٠ اسقفية وان الاهالي جعلوا يظهرون العدوان والتمرد وانهم اعتدوا في كثير من المواضع حتى تقدموا لحد ابواب قرطاجه فارسل الى زعمائهم يذكرهم بانصاف بلزاروس ونعمهِ لم ويقول انهم اذا ظلوا على العدوان كانت آخرتهم مثل آخرة القندال . وكان جوابهم شديداً حتى انهُ اضطرَّ ان يقوم لمحاربتهم بعد ان خطب في عساكرهِ وحضهم على حسن البلاء . والتقى صالومون بالاهالي العصاة على مقربة من احد الجبال ومعهم الوف من الجمال صفوها اثنين اثنين على شكل مربع لتكون سوراً يقيهم سلاح الروم وكان مع العصاة عدة من النساء يساعدنَ في العمل ويداوينَ الجرحى فلما دار القتال تمكن الروم من اختراق مربع الثائرين ودخلوا معسكرهم فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وقتل من الروم الفان . وفي الليل تراجع الفريقان وفر العصاة الى الجبل عادة الاهالي في هذا القطر في كل حروبهم القديمة والحديثة يعتصمون بالجبال او يلجأون الى القفار حين يشتد عليهم امر العدو . فلما كان الغد عاد القتال على غير جدوى فاهتم صالومون للامر واختار الفين من اشد رجالهِ ليتسلقوا الجبل في الليل ويدخلوا معسكر الاعداء واوصاهم بالحذر حتى اذا كان الليل دخلوا حسب امرهِ وانسلوا بين العصاة فلما دنت ساعة الفجر هبوا يقتلون العصاة من كل جانب حتى اهلكوا عشرة آلاف منهم واسروا اكثر من هذا العدد وعادوا الى قرطاجه بالاسرى فباعوهم بارخص الاثمان

على ان هذه الثورة ما كادت تخمد حتى ظهر روح الشر من جديد بين الاهالي وقام صالومون للقتال مرة اخرى فتمكن الاريوسيون في غيابهِ عن المدينة من اغراء حاميتها الرومية على التمرد فاختل نظام الجنود وقاموا يعيثون فساداً في احياء المدينة وعم السلب والاعتداء حتى اضطر الوالي حين بلغهُ الخبر ان يترك الاعداء ويعود الى المدينة ولكنهُ رأى انهم ينوون الايقاع بهِ فتركهم وعاد الى الاستانة سنة ٥٣٧ . ولما عرف الامبراطور يوستنيانوس بهذه الحالة عيّن ابن اخيهِ جرمانوس ليصلح الحال فذهب هذا الامير بمفردهِ الى قرطاجه ولما بلغها القى في الجنود خطاباً بليغاً ردهم فيهِ الى الطاعة واعادهم الى الامانة للامبراطور . وكان الامير زكياً حازماً فابطل المظالم والمغارم ودفع الرواتب المتأخرة الى الجنود وشدد في معاقبة المعتدين وكافأ الامناء والمجدين فرتعت البلاد في بحبوحة الامن ولكن الامبراطورة تيودوره وهي زوجة يوستنيانوس كانت تكره جرمانوس فظلت على الوشاية بهِ الى عمهِ حتى عزلهُ واعاد صالومون للولاية مرة اخرى سنة ٥٨٩ فلما عاد الرجل الى قرطاجه رأى ان احوالها متحسنة فارسل وراء ولدي اخيهِ وهما سيروس وسرجيوس ولّى الاول اقليم قسطنطينة والثاني اقليم طرابلس وكان

الشابان بلا مقدرة ولا ذكاء اهملا شؤُون الحكومة ارتكانًا على صولة عمهما الوالي العام ٠ وحدث ان زعماء القبائل في ولاية سرجيوس جاؤُا لمقابلتهِ لينالوا الخلعة وهم يثمنونها كثيرًا فاكرمهم الشاب ودعاهم الى مائدتهِ ولكنهُ غدربهم وامر بقتلهم بعد الطعام وهم ٨٠ شيخًا وزعيمًا فما نجا منهم غير واحد دار في البلاد يحدث اهلها بخيانة سرجيوس حتى هيج الاهالي كلهم عليهِ فقاموا يدًا واحدة لطلب الانتقام من الحاكم الخائن ففرَّ سرجيوس الى قرطاجه وتبعتهُ جموع الثائرين حتى اذا قربت منها بعث صالومون يطلب الزعماء ليكلمهم في الصلح فقالوا انهم لا يثقون بوعد الروم وايمانهم وانهم لا يصدقون صالومون الأَّ اذا عاقب ابن اخيهِ اولاً على تلك الخيانة الكبرى وعلى هذا دار القتال بين الفريقين وكان فيهِ النصر للاهالي ٠ وقد كبا الجواد بصالومون في وسط المعركة فوقع بين الاعداء ومات مقتولاً

والظاهر ان سوء التدبير في القسطنطينية عجل بزوال ملك الروم لانهُ لما علم الامبراطور بموت صالومون عين سرجيوس واليًا عامًا مكانهُ مع ان سرجيوس هو اصل هذه الفتنة وسببها وزاد الرجل عتوًّا وصلفًا حين اتاهُ الامر بتعيينهِ للولاية فاشتدَّ ظلمهُ على الاهالي وقاموا لمحاربتهِ تحت رئاسة زعيم من زعماء قبائلهم اسمهُ انتالاس وكان هذا الزعيم قد كتب الى الامبراطور يرجوهُ ان يعين غير سرجيوس للولاية اذا شاء ان يبقي بلاد افريقيا لهُ فلم يسمع الامبراطور لهُ قولاً وظلَّ على رأي الملكة ثيودوره فزاد سرجيوس ظلمًا وبغيًا حتى عم الاضطراب وعقد مجلس في القسطنطينية تقرر فيهِ ان يُعيَّن مستشار للوالي سرجيوس فكان ذلك ارضاء للملكة فعينوا سريًا من الكبراء اسمهُ اريونيدس وهو زوج بنت اخت الامبراطور ٠ وذهب هذا المستشار مع بعض القواد والاعوان الى قرطاجه فلما بلغها رأى ان الحالة عسيرة وان الهياج عام والثورة كبرى فقام في الحال لرد الاعداء الذين كانوا قد قربوا من المدينة ودعا سرجيوس للذهاب معهُ فابى الوالي ان يذهب وبقي مع حظياتهِ في القصر مع دنو الخطر واشتداد الخطب ووقع القتال بين جيش الحكومة والثائرين فكان النصر للعصاة وارتدت الجنود الى المدنية ولجأ المستشار الى كنيسة عند البحر على امل ان ينجو منها بنفسهِ ويعود الى القسطنطينية ولكن هياج البحر اوقفهُ عن المسير ٠ ولما علم انتالاس رئيس العصاة ان المستشار الرومي في الكنيسة سأل الاسقف ان يدعوهُ لمقابلتهِ وتعهد بالأَّ يؤذيهِ فذهب اريونيدس برداء الاسير لمقابلة هذا الزعيم وركع امامهُ ولكن الرجل رفعهُ عن الارض واكرمهُ ودعاهُ الى مائدتهِ ثم بعد الطعام امر بقتلهِ فانتقم بذلك من الروم لاخوانهِ الذين قتلهم سرجيوس وكان هذا المصاب في سنة ٥٩٢ ٠ ولما علم

الامبراطور بهذه الامور اصدر امراً بعزل سرجيوس وكان هو قد هرب وذهب الى القسطنطينية وبقيت ولايات افريقيا في اختلال واضطراب حتى قيل في تاريخ بروكوبوس احد مؤرخي الروم ان عدد الناس في تلك الولايات نقص ٥ ملايين نفس في عشرين سنة على عهد الدولة الرومية من الحروب المتواصلة التي لم تبطل يوماً واحداً ومن المهاجرة الدائمة الى الجزر وغيرها · وانتشرت الفوضى بعد هذه المدة حتى ان الولاة او بعضهم خرجوا عن طاعة السلطنة وفي جملتهم قائد اسمهُ غريغوريوس استقل بولاية طرابلس وكان طماعاً فرض الرسوم الراية على الاشخاص والاراضي حتى انهُ جعل رسماً على استنشاق الهواء لكي يجمع لنفسهِ الاموال · وما برحت حكومة الروم في اختلال وضعف على هذه الحالة حتى ظهر انهُ لا بد من تغيير الحالة وكان زمانهم زمان ظهور الاسلام وانتشارهِ السريع فانتقلت افريقيا من قبضة الروم الى قبضة العرب كما ترى في الفصل التالي

السلطنة العربية

لما نهض العرب نهضتهم العجيبة في بدء الاسلام تطلعوا الى كل ما يلي بلادهم من الاقطار وفي جملتها ولايات افريقيا الشمالية التابعة لسلطنة الروم فكان اول عمل لهم في فتحها على عهد عمر بن الخطاب وعاملهِ عمرو بن العاص والي مصر فانهُ تقدم من هذا القطر الى برقة سنة ٢٢ هجرية فصالحهُ اهلها على الجزية ثم سار منها الى طرابلس وحاصرها ففتحها عنوة وولى عليها وعلى برقة حكاماً من العرب ورجع الى مصر · وعُزل عمرو بن العاص من ولاية مصر على عهد الخليفة عثمان بن عفان فخلفهُ عبدالله بن سعيد بن ابي سرح العامري الذي زحف بامر الخليفة لفتح بقية الاقطار الافريقية باربعين الف محارب سنة ٢٩ هجرية (٦٤٧ م) وكان صاحب تلك البلاد يومئذٍ غريغوريوس الذي سبق ذكرهُ واسمهُ عند العرب جرجير فاستعد لمقاتلة القادمين بجيش من الروم والرومانيين والبربر وبقية السكان وبلغ عدد جيشهِ فيما يقال مئة الف مقاتل · وارسل عبدالله بن سرح قبل القتال وفداً الى جرجير يعرض عليهِ ان يعتنق الاسلام او يدفع الجزية ولكن الرجل نفر وابى واقسم ان يزوج بنتهُ للذي يأتيهِ براس القائد العربي فلما رجع الوفد الى عبدالله بدأ الهجوم وشدد القتال حتى هزم جرجير وجيشهُ وشد عبدالله بن الزبير على جرجير فقتلهُ وتزوج بنتهُ بعد ان ملك العرب مدينة سبيطله عاصمة تلك البلاد ونهبوها وسبوا الوفا من اهلها · وتقدم المسلمون بعد ذلك في البسائط والضواحي ووقع بينهم وبين البربر والروم عدة حروب ثم رأى القائد عبدالله ان جنوده قلت وان الحروب متواصلة

مع اهل البلاد فرضي بما جمع من الغنم وعاد الى مصر

ولما صارت الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان استأنف العرب هجومهم على افريقيا وعيَّن ابن خديج الشكوني من مصر لفتح افريقيا سنة ٤٥ هجرية (٦٥٣) وكان في جيشهِ عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير وعبد الملك بن مروان وكثير غيرهم من سراة العرب وامرائهم ففرقهم خديج وارسل مع كل منهم جيشاً لفتح الجهات ففتحوا جزيرة صقلية ومدينة جربه وغيرهما ثم قفل خديج راجعاً الى مصر وعيَّن مكانهُ عقبه بن نافع سنة ٤٧ ﻫ وكان رجلاً باسلاً هماماً زحف بجنوده واستولى على قسم كبير من بلاد المغرب وهو الذي اختط مدينة القيروان وجعلها مقام جيشهِ وبنى فيها القصور والثكنات واحاطها بسور منيع وبنى الجامع المشهور باسمهِ فيهِ ٥٠٠ عمود من الرخام

ولما علم امبراطور القسطنطينية بما اصاب ولاية افريقيا ارسل اليها اسطولاً وفيهِ جيش كبير وحدثت معركة ما بين الروم والعرب عند القيروان دارت الدائرة فيها على العرب فقتل القائد العربي ونحو ٣٠٠ من كبار الصحابة وجم غفير من التابعين فيهم ابو المهاجر وهو من اشهر قواد العرب يومئذٍ فتقهقرت بقية العرب الى برقه وصدر امر الخليفة معاوية بتعيين زهير بن قيس بدل عقبه وبقيامهِ لمحاربة الاعداء والاخذ بثار عقبه فزحف بجيش صغير من العرب سنة ٦٧ﻫ فانتصر في اول الامر ولكنهُ بين كان راجعاً الى مصر لقيهُ اسطول الروم نقاتلهُ وانتصر عليهِ وقتلهُ مع جملة من اكابر جيشهِ فسكت العرب بعد هذه الكسرات زماناً عن فتح افريقيا الى ان كانت خلافة عبد الملك بن مروان في دمشق فبعث الى حسان بن النعمان وهو يومئذٍ والي مصر ان يخرج الى افريقيا وارسل اليهِ المدد فزحف اليها سنة ٧٩ ﻫ وتقدم منتصراً حتى بلغ مدينة قرطاجه ففتحها وامر بتدميرها فخربت عن آخرها وكان في ذلك بدء السلطنة العربية وآخر دولة الروم في افريقيا

وقد تعاقب الولاة والقواد من العرب بعد ذاك على حكومة افريقيا او ما ملكوا منها فلا حاجة الى ذكرهم ولكننا نشير الى اشهرهم وهو موسى ابن نصير كان والي هذه البلاد من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك الاموي سنة ٨٨ ﻫ وهو الذي دوخ المغرب واثخن في البربر وفتحت بلاد الاندلس في ايامهِ وقد ذكرنا ذلك في فصل اسبانيا. وحدث كثير من الاضطراب والخلل في ما تلا ايام موسى بن نصير وكثر العزل والتنصيب بين الولاة والحكام في عهد الخلفاء الامويين والعباسيين معاً. فقد تولى هذه البلاد زماناً في اوائل الفتح العربي بنو عبيد وهم الذين فتحوا صقلية ودام ملكهم ١١٢ سنة هجرية. ثم قام الامام المهدي ودام حكمهُ الى

سنة ٣٢٢ هجرية ولما توفي خلفهُ ابنهُ المنصور وخلف هذا ابنهُ المعز لدين الله الذي ارسل جوهراً الى مصر حين علم بوفاة كافور الشهير فيها وكان جوهر امن عماله وقواده فجاء جوهر سنة ٣٦٠ هـ ودعا لمولاه بالخلافة في القطر المصري ثم ارسل اليهِ الكتب يحثهُ على المجيء الى مصر فجاءها سنة ٣٦٢ هـ . ويعلم القراء ان جوهر هذا هو الذي بنى مصر الحديثة في موقعها الحالي والازهر وبدأ استحكامات القلعة وكان مركز المدينة قبل ذلك في موقع مصر العتيقة الآن . ولما جاء الخليفة المعز لدين الله من الغرب الى مصر اسس فيها الدولة العبيدية فكان هو اول خلفاء هذه الدولة ولا حاجة الى الاسهاب عنها هنا لاننا في تاريخ الغرب . وترك الرجل في المغرب عند حضورهِ الى مصر قائداً اسمهُ بلكين الصنهاجي فانتقلت حكومة المغرب الى يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي السابق الذكر وهو رأس الدولة الصنهاجية اشتهرت بكثير من الحروب الداخلية في بلاد افريقيا وحدث لبعض امرائها حروب مع خلفاء مصر العبيديين لاعراض امراء المغرب عن الدعوة بالخلافة للعبيديين واعترافهم بها لبني العباس . وربما كان اشهر الامراء الصنهاجيين آخرهم وهو الامير حسن الذي طالت مدة محاربتهِ لمملكة صقلية على عهد صاحبها روجير وقد خلفهُ على امارة المغرب المولى ابو محمد عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية واخر رجال هذه الدولة الحسن بن كنون مات سنة ٧٤٨ خلفهُ بعد موتهِ يوسف بن تاشفين وهو من الذين اشتهروا في اواسط التاريخ الاسلامي عرف بكرم الخلق وعفة النفس وبالدراية في الحروب وقد ابلى بلاءً حسناً في مقاتلة البلاد التي لم تخضع للوحدة الاسلامية في افريقيا الشمالية وردها الى الطاعة . وبنى مدينة مركوك واسمها بالفرنساوية ماروك ولعلها اصل الاسم مراكش المتداول الآن . وخلفهُ ابنهُ علي الذي ظهر في ايام عدة من مدعي المهدوية وبعضهم جمعوا الناس اليهم وحاربوهُ فبدأت من ذلك العهد فتن وقلاقل وحروب داخلية بين العرب في بلاد المغرب يطول شرحها ونقل فائدة سردها ولكنها لم تنتهِ الأ بنهاية الاحكام العربية في تلك البلاد ودخول البلاد في قبضة الاتراك كما ترى في الفصل التالي

السلطنة التركية

في سنة ١٥١٠ مسيحية اتت سفينة من جزيرة مدلي (متلين) ورست في ثغر جيجل على مقربة من قرية الجزائر وكان في السفينة اخوان احدها اسمهُ عروج والثاني خير الدين وهو قائد البحر المشهور بغزواتهِ والذي اهتزت اوروبا لذكرهِ وفعلهِ واسمهُ في تاريخها

باربا روسا او ذو اللحية الحمراء . وكان الاخوان مدربين على الملاحة من صغر فاقاما يصنعان السفن في الثغر الذي ذكرناه حتى توفر عندهما عدد كبير منها فجعلا يهاجمان سفن الافرنج وينهبان ما فيها ويأسران رجالها في عرض البحار وكان رجال خير الدين يزيدون عدداً من حين الى حين حتى ان شيخ الجزائر وهو يومئذٍ سالم بن تومي دعا خير الدين لمساعدته على طرد الاسبانيين الذين كانوا قد استولوا على قسم كبير من الجزائر بعد ان طردوا العرب منها وبنوا قلعة على شاطىء القرية فقبل خير الدين هذه الدعوة واشترك مع حليفهِ في محاصرة القلعة ٢٠ يوماً حتى فتحها واخرج الاسبانيين منها في سنة ١٥١٦ ولما دخلها رأى انهُ لم يبقَ من رجالها غير عشرين وزعيمهم شاهر سيفه لا يريد التسليم وهو ذو مهابة وجمال فعرض خير الدين عليهِ الاسلام وابى فامر بضربهِ وجلدهِ حتى مات معذباً وهو ينادي بالمحافظة على دينهِ

وعظم امر خير الدين في الحال بعد هذه الواقعة فكبرت آمالهُ وطمعت نفسهُ وامر رجالهُ الاتراك بقتل سالم بن تومي حليفهِ فقتلوهُ وحل هو محلهُ . وقد غضب العرب لما اصاب شيخهم فحاولوا الاخذ بثارهِ ولكن خناجر الاتراك ارهبتهم وردتهم الى الطاعة فاستبدَّ خير الدين بالامر وجعل عمال حكومتهِ كلهم من الاتراك . ولكن السلام لم يستتب زماناً لان اسبانيا عزمت على استرجاع قلعتها فجردت اسطولاً عدد سفنه ٨٠ وفيهِ ٨٠٠٠ جندي تحت قيادة الجنرال دي فيرو نقدم على قرية الجزائر ونزل بجنودهِ اليها بلا مقاومة من العرب والاتراك ثم قسم جيشهُ اربعة اقسام فكان ذلك علة انكسارهِ لان خير الدين اوجد الحماسة في صدور رجالهِ ثم جعل يهاجم العدو فرقة بعد فرقة وهو يفلُّ مواكبها تباعاً حتى كسرهم شر كسرة والجأ بقيتهم الى الاعتصام بالسفن البحرية حيث دهمتهم العواصف والانواء فكادت تجهز على الاسطول ومن فيهِ ونجا بقية قليلة عادت الى وطنها تخبر بهذا الانكسار

وزاد خير الدين رفعة بعد هذا النصر الباهر فبين هو يفكر في توسيع ملكهِ علم ان بوحمو صاحب تلمسان (سنذكرها في سياحتنا) اختلف مع اخيهِ مسعود فارسل خير الدين اخاهُ عروجاً ليستلم المدينة باسم السلطان وقام عروج بالامر فطرد بوحمو من المدينة وولي مسعوداً مكانهُ بلا مقاومة من الاهالي ففر بوحمو الى الاملاك الاسبانية وطلب مساعدة اهلها ووعد حاكمها في وهران بالذهب الوفير فانجدهُ الحاكم ببعض رجالهِ سار بهم وبمن التف حولهُ من العرب الناصرين لهُ وحصر تلمسان ٢٦ يوماً كان عروج في خلالها مقيماً في القلعة مع كبراء المدينة حتى ضاق صدرهُ من شدة الحصار فخرج يوماً بمن معهُ من احد الابواب

معولاً على الفرار وتأثره الاعداء فجعل يلقي لهم المال والتحف وهو فار ليلهيهم عن مطاردتهِ ولكن هذا لم يجدهِ نفعاً لانهم ادركوه وقتلوه وقطعوا رأسهُ فارسلوه الى الحاكم الاسباني في وهران وبهذا عاد بوحمو الى تلمسان بعد ان تعهد بدفع جزية سنوية الى الحاكم الاسباني مقدارها ١٢٠٠٠ دوكا من الذهب ٠ وقد اثر مقتل عروج في اخيهِ خير الدين وجعلهُ يخاف على نفسهِ فجمع اليهِ قواد العرب وحرضهم على منازلة النصارى وارسل وفداً الى الاستانة ليعرض حال المدينة على السلطان ويطلب حمايتهُ ومعونتهُ فعاد الوفد من الاستانة بامر من السلطان سليم الاول يقضي بتعيين خير الدين حاكماً للجزائر واعطائهِ لقب بك وجاءه ٢٠٠٠ جندي من الاتراك الاشداء

وقد اصاب خير الدين في خوفهِ من اسبانيا لان ملكها كارلوس الخامس ارسل جيشاً تحت قيادة المركيز دي مونكاد لمحاربتهِ عدده ٧٥٠٠ جندي انتقلوا في ٦٠ سفينة فلما قربوا من ثغر الجزائر نزل بعضهم الى برٍ قريب واقام قائدهم ينتظر النجدة من بوحمو حليف الاسبانيين فبين هو في الانتظار هبت عواصف حطمت ٢٦ سفينة من اسطولهِ واغرقت ٤٠٠٠ من جنودهِ ففر بقية قواتهِ الى الجزر الاسبانية ٠ وفرح خير الدين فرحاً لا يوصف بهذا النصر الجديد حتى انهُ همَّ بالانتقام من صاحب تلمسان الذي كان السبب في قتل اخيهِ فزحف عليهِ بجيش قوي ولما قرب من تلك المدينة علم ان صاحبها مات وترك ولدين يتنازعان الملك فطردهما منها وضمها الى املاكهِ وعاد الى الجزائر بعد ان ترك حامية فيها

ولما ذاع خبر استيلاء خير الدين على تلمسان خاف سلطان تونس وهو يومئذٍ مولاي محمد الحفصي ان يتقدم هذا القائد عليهِ ويملك بلاده ايضاً فتقدم لمحاربتهِ بجيش كبير وكان مولاي محمد واسع الثروة فاستخدم بعض مالهِ في اغراء بعض من مشايخ الجزائر على موالاتهِ سراً ضد خير الدين ولكن خير الدين ادرك المكيدة فدعا المشايخ المذكورين الى جامع بدعوى انهُ يريد مشاورتهم ولما صاروا داخلهُ اقفل الابواب عليهم وامر رجالهُ الاتراك فقتلوهم عن آخرهم كما فعل محمد علي بالمماليك في مصر ٠ وتقدم بعد ذلك لمحاربة سلطان تونس فحاربهُ وظهر عليهِ والجأهُ الى الفرار ٠ فلما استراح خير الدين من هذا العدو تفرغ للسطو في البحار على عادتهِ السابقة فغنم كثيراً من سفن الافرنج وهاجم صقلية وسردينيا واسبانيا فعاد منها بالغنائم والسبايا ثم توجه باربعمئة من الحور والولدان الى الاستانة وكان سلطانها يومئذٍ سليمان القانوني المشهور فامر باكرامهِ واحسن وفادتهُ واعطاه رتبة قبطان باشا ٠ وبعد ان اقام مدة في الاستانة على الرحب والسعة عاد بجنود تركية وسفن جديدة وعرج على تونس

في رجوعهِ لينتقم من صاحبها فاستولى على تلك المدينة باسم السلطان

واستمرَّ خير الدين باشا على السطو في الثغور والبحار حتى اقلق راحة اهل اوروبا وارعبهم ولاسيما اهل صقلية وسردينيا وبعض ايطاليا فعرض الناس امرهم على البابا وقداستهُ اشار على ملك اسبانيا بمقاتلة القرصان وكان ملك اسبانيا الذي سبق ذكرهُ اعظم ملوك اوروبا يومئذٍ. فجمع كارلوس ٤٠٠ سفينة حشد فيها ٢٥٠٠٠ جندي وقادهم بنفسهِ لمحاربة خير الدين باشا ولما وصل الجيش الاسباني وبدأ القتال حدث امر لم يكن في الحساب هو ان ٢٥٠٠٠ رجل من النصارى كانوا اسرى في قلعة تونس فلما علموا بقدوم اخوانهم كسروا ابوابها وخرجوا يقاتلون عساكر خير الدين فاوقعوهم بين نارين وجيشين من الاعداء فاضطر خير الدين ان يفر الى مدينة الجزائر بحراً وارسل جيشهُ اليها براً فوقعت تونس في يد الملك كارلوس ونصب فيها مولاي حسين الحفصي اميرها السابق وحليف الاسبانيين اعيد الى الامارة على ان يدفع جزية سنوية الى اسبانيا مقدارها ١٢٠٠٠ دوكا من الذهب ويكون تحت سيادتها ويمنع القرصان من السطو على مراكب الافرنج

ولما رجع ملك اسبانيا الى بلادهِ عاد خير الدين الى السطو على البحار والثغور من قاعدة الجزائر فدخل كثيراً من مدن اسبانيا ونهبها واسر عدداً من اهلها. واسر سفينتين للبورتوغال في عرض البحر وذهب الى مدينة نابولي المشهورة بثروتها ثم الى البندقية فجمع منهما تحفاً واموالاً وجيشاً من الاسرى ثم الى مدن اخرى بلغت جملتها ٢٥ مدينة. وكانت طريقتهُ واحدة في كل موضع هي انهُ يرسو امام المدينة ليلاً ويدهمها في اول النهار فالذي لا ينجو بنفسهِ من اهلها يقتل او يؤْخذ اسيراً. وطال زمان هذه الحالة وعمَّ القلق بسببها حتى انهم بنوا ابراجاً في الثغور يقيم فيها الحراس اذا بصروا بسفن خير الدين باشا قادمة انذروا اهل البلد استعداداً للفرار. وضاق صدر اوروبا من هذا القلق حتى انها رجت السلطان سليمان ان يأمر خير الدين باشا بالامتناع عن السطو وعادت الى ملك اسبانيا فرجتهُ ان ينقذها من هذا الرجل القدير فعاد الملك كارلوس الى الاستعداد لمحاربة خير الدين باشا والانتقام منهُ فجمع ٥١٦ سفينة في سنة ١٥٤١ وحشد ١٢٠٠٠ من الجنود البحرية و ٢٢٠٠٠ من الجنود البرية وكان الاميرال اندريا دوريا قائد الاسطول والماركيز كورتيز قائد الجيش وفيهما مئات من سراة الاسبانيين ذهبوا للحرب متطوعين. وكان زحف هذه القوات في اول الشتاء فجعل الناس ينذرون الملك كارلوس بتأجيلهِ الى اول الصيف وفي جملة من انذرهُ البابا ولكن الملك كان عجولاً فقام بنفسهِ وبلغ شطوط الجزائر في اوائل اكتوبر سنة ١٥٤١ وبدأت

جنوده تنزل الى البر . ولما رأت الحامية التركية ان السفن قادمة من البحر استعدت بما في الامكان وارسل قائدها حسن آغا يستنجد مشايخ القبائل . وكان اهل المدينة يومئذٍ قد سمعوا نبوءة منجم فحواها ان جيشاً من الافرنج جراراً يلبس الملابس الخضراء سيقدم على المدينة ويرتد عنها خاسراً وانهُ لا يملكها من الافرنج غير اصحاب الملابس الحمراء . وقد صدقت هذه النبوءة بعد ٣٠٠ سنة حين استولى الجيش الفرنساوي على الجزائر وملابسهُ حمراء حسب المعلوم. ولما نزلت جنود اسبانيا كلها الى البر قسمها الملك اربعة اقسام فجعل احدها في حي مصطفى العالي والثاني على باب عزون والثالث على باب الويد والرابع في جهة الحمّى (وكلها ستذكر في فصل السياحة) واراد الملك من هذا التقسيم ان يحيط بالمدينة ويرد النجدات عن بلوغها ثم امر مراكبهُ ان تقترب من البر ما امكن حتى تساعد في اطلاق النار على المدينة . وكان موقناً بالظفر لان الحامية لم تزد عن ٦٠٠٠ ومدافعها يومئذٍ اصغر من مدافع الاسبانيين . وارسل الملك قبل القتال رسولاً يطلب التسليم فردهُ حاكم المدينة بالقول انهم انتصروا مرتين على قواد الملك فيسرهم ان ينتصروا هذه المرة على الملك نفسهِ فام الملك بعد هذا ببدء القتال غير ان الدهر عاندهُ لان السماء امطرت في ليلة الهجوم سيلاً مدراراً فاوحلت الطرق وغرقت الخيام واضرت الذخائر وجعلت حركات الجنود امراً عسيراً . واشتدت الرياح بعد ذلك فاثارت الامواج في البحر وحطمت السفن تحطيماً حتى كان جنود اسبانيا في البر يرون سفنهم تغرق وهم في حالة يرثى لها من المطر والاوحال طول الليل . كل هذا والملك يهدئ روع اصحابهِ حتى اذا كان النهار وجدوا انهُ غرق من الاسطول ١٥٠ سفينة وان الذين نجوا الى البر من البحرية لقيهم العرب وقطعوا روؤسهم . وزاد الطين بلة ان معظم موءُونة الجيش كانت في السفن التي غرقت فاصبح الجيش الاسباني في موقف حرج ولاسيما بعد ان تعطلت ذخيرتهُ من المطر وكانت حامية المدينة توالي ضرب النار فادرك الاميرال الاسباني ان الخطر على قومهِ عظيم واشار على الملك بالانسحاب فرضي الملك بذلك لما ايقن بالبلاء وجعلت جنوده تتقهقر تاركةً مدافعها وخيامها وهي تسير تحت وابل من رصاص العرب والترك وفي وسطها جمهور من الجرحى والمرضى حتى بلغت السفن ودخلتها فعاد الملك الى اسبانيا على هذه الحالة بعد ان فقد ربع قواتهِ ولم يلحق اذى بالاعداء ومن ذلك الحين وقع اهل اوروبا في القنوط وتركوا الامور تجري في مجراها واستمر خير الدين باشا على سيرهِ فرجع الى مدائن صقلية وتوسكانا وايطاليا وجعل ينهب حسب عادتهِ . ولما كان في مدينة رجيو الطليانية وقعت بنت الحاكم في يدهِ وهي فتاة بارعة الجمال فتزوجها بعد ان حملها على الاسلام . ولما ملأ سفنهُ من الاسرى ذهب بهم وعددهم ٧٠٠٠

الى الاستانة حيث قضى بقية عمره في راحة ونعيم الى ان توفي عن ٨٠ عاماً في سنة ١٥٤٧ وقبره في زاوية من حي بشكطاش الى الآن

ولما علمت حامية الجزائر بوفاة خير الدين باشا نصبت حسن آغا رئيس الوجاق حاكماً محله وبعد وفاته عينت حجي آغا بدون مراجعة حكومة الاستانة . ولكن الدولة عينت حسن باشا ابن خير الدين باشا والياً للجزائر وكان شاباً نجيباً تعلم الذوق من الاستانة . فلما جاء الجزائر بنى فيها قصراً جاء برياشه من الاستانة وبنى ديواناً لحكومته وحمامات ومستشفيات عمومية وفتح الشوارع فاقتدى به ضباطه وجعلوا يشيدون المنازل الحسناء اكثرها من الرخام الجميل . ولكن حسن باشا لم يتمتع بالولاية طويلاً لان الحساد وشوا به للسلطان وزينوا له ان الرجل عامل على الاستقلال فامر بعزله . ولما علم حسن باشا بذلك ذهب بنفسه الى الاستانة ليصلح الحال فلما بلغها علم انه معزول وخلفه صالح باشا كان رجلاً ذا مهابة ودهاء وسياسة فجعل يقسم القبائل بعضها على بعض ويقلل قوة الجنود حتى انه ادخل بعض اخصائه في مصاف الجند ليستعين بهم على الاستئثار بالقوة ولكنه توفي بالطاعون سنة ١٥٥٦ وخلفه القائد حسن اغا براي الوجاق لا بامر الاستانة ولكن الدولة عينت طقلي باشا فلما وصل الجزائر حاول حسن آغا ان يمنعه من النزول الى البر ولكنه نزل بمساعدة القواصة الاتراك الذين خافوا سطوة الدولة فانزلوه في منتصف الليل حتى اذا كان الصبح اعلن امر حاوله واستلم الاحكام وزج حسن آغا في السجن فاذاقه العذاب الواناً ثم اقام على الحكم زماناً حتى قتله جنود الوجاق فعينت الدولة مكانه حسن باشا ابن خير الدين باشا مرة اخرى فلما عاد الى الجزائر قوبل فيها بالاحترام الكثير ورأى بعد مدة ان القوة كلها اصبحت في يد الجنود فعزم على استخلاصها منهم فجعل يتودد لرؤساء القبائل وتزوج واحدة من بناتهم والغى الاوامر القديمة القاضية بمنعهم من اقتناء السلاح فاحس رجال الوجاق بالغاية من فعله وذهبوا الى قصره فاوثقوه ونقلوه الى سفينة ذهبت به الى الاستانة ونصبوا حسن آغا مكانه ومعه مساعد اسمه كوسى محمد . ولما علم السلطان بما فعل الجنود اهانة لعامله اظهر الغضب الشديد ولكنه عمد الى حسن السياسة فاوفد من قبله حامد باشا من كبار دولته حتى اذا وصل هذا المندوب الى الجزائر اقنع الوجاق بان السلطان يريد ان يعرف حسن اغا وكوسى محمد ويقف على مقدرتهما بنفسه فسلموهما له وذهب بهما الى الاستانة حيث شنقا بعد الوصول واعيدت الولاية لحسن باشا مرة ثالثة في سنة ١٥٦٣ فلما بلغ هذا الوالي مقره تناسى جناية الوجاق واثار حرباً على الاسبانيين في وهران حتى يجمع كل قوته على العدو الاجنبي ولكنه كان يريد من هذه الحرب ابادة الوجاق بكل رجاله فجمع كل

عساكره و ٦٠٠٠ آخرين من القبائل ذهب بهم الى وهران براً وحاصرها وفيها يومئذٍ ١٢٠٠ جندي اسباني فقط وشدد في مقاتلتها وتحريض جنوده على اقتحام الاهوال حتى انه كان يتقدمهم في الكرات العنيفة فلا يعود الا وقد قتل من الجنود عدد كبير ثم عاد حسن باشا الى الجزائر ولم ينل طائلاً من وهران فلما استقر النوى بالجنود تآمروا عليهِ بدعوى انهُ كان ينوي ابادتهم وعزلوهُ وارجعوهُ الى الاستانة سنة ١٥٦٧ . وعين بعدهُ محمد باشا والياً على عهد السلطان سليم الثاني فذهب اليها مزوداً بالاوامر القاضية الا يدعو الوجاق الى النفور منهُ ولكن الرجل كان كريم الاخلاق لم يطق اعمال الوجاق فاستعفى وعاد الى الاستانة بعد سنة واحدة تخلفهُ علي باشا واصلهُ نصراني من اهل كورسيكا وكان من كبار قواد الدولة العلية لما وصل الجزائر قوبل بالاكرام وحيتهُ المدافع من الطوابي البرية والبحرية الف مرة ومرة واركب على جواد عدتهُ من الذهب والفضة المرصعة بالفيروز وسار رئيس الوجاق امام موكبهِ بملابس بيضاء علامة الخضوع والمسالمة فذهب تواً الى الديوان بين جماهير الاهالي وكان بدء اعمالهِ انهُ خابر الدولة بالاستيلاء على تونس وحاكمها يومئذٍ الامير محمد الحفصي تحت حماية اسبانيا وكان يدفع اليها جزية والقبطان الاسباني يشاركهُ في الاحكام فعمل السلطان برأيهِ وسيّر اسطولاً من ٥٠٠ اسفينة تحت قيادة الاميرال قلج علي باشا . وكان قائد الجنود البرية في هذه الحملة سنان باشا . فوصلت المراكب الى حلق الوادي وهو ثغر يبعد عن تونس ١٦ ميلاً ووصل ايضاً الى تونس علي باشا والي الجزائر وحيدر باشا والي قيروان ومصطفى باشا والي طرابلس الغرب فذهب الكل لمقابلة سنان باشا واخذوا منهُ المدافع وساروا مع ابرهيم بك من سنجق مصر ومحمود بك من سنجق قبرص فاحاطوا بمدينة تونس وكان الاسبانيون قد امتنعوا بحلق الوادي وبالغوا في تحصينها واحاطوا المكان بخندق عميق لزم جنود الدولة ان تعبرهُ فاشتغلت ليلاً ونهاراً بردمهِ وانتشب القتال في تونس وحلق الوادي معاً وكانت المدافع العثمانية تقصف كالرعد والجنود تكبر وتهلل بصوت جهير حتى فتحت تونس بعد حرب ٤٣ يوماً قتل فيها من كل جانب نحو عشرة آلاف رجل وكان ذلك سنة ١٥٨٤ . ولكن سنان باشا لم يضم تونس الى ولاية الجزائر بل جعلها ولاية مستقلة وعين لها والياً ورئيساً للوجاق اعطاهُ خمسة آلاف جندي ثم عاد الى الاستانة ظافراً منصوراً . وكان وجاق تونس يسطو على مراكب الافرنج مثل وجاق الجزائر حتى انهُ اسر من اهل اوروبا من ٢٥ الفاً الى ٣٠ الف اسير بنيت لهم السجون المخصوصة حشروا فيها حشراً . وكانوا يبيعون الاسرى في مدينة الجزائر على ثلثة اشكال اولها انهم كانوا يأخذون الاولاد والنساء والبنات الى ديوان الوالي ليختار منهم من

يربدءُ لخدمتهِ وخدمة بيتهِ وثانيها انهم كانوا يسخرون البحرية الاسرى في الترسانات وابنية الحكومة فيعطى كل اسير مأكولهُ من الخبز والبرغل والزيت والبصل وملبوسهُ قميصاً ولباساً اسمر . وثالث الانواع كان يقسم ما بين القرصان وعساكر الوجاق ويباع افرادهُ الوفاً في السوق بطريقة المزاد اذ يتقدم الدليل ويقرع الارض بعصاهُ ثلاثاً علامة البدء في البيع ثم يدور بالاسير على المشترين ويفحصهُ كل منهم في جسمهِ وفمهِ لئلا يكون ذا عاهة ويسألهُ عن حرفتهِ واصلهِ وبلدهِ والذي يدفع الثمن الاكبر يأخذ الاسير ملكاً لهُ . وكانوا يعيدون المزاد اياماً متوالية ولكن الاسرى بلغوا الوفاً فلم يوجد عدد كافٍ من الشارين فكانوا يسجنون الذين لا يباعون ويضيقون عليهم الخناق . ولما رأت دول اوروبا انها عجزت عن ابطال هذه الحالة وانقاذ الاسرى جعل القسيسون يطوفون في المدن والقرى لجمع الاموال حتى تدفع فكاكاً ودعيت هذه الجمعية « جمعية الاحسان لفكاك الاسرى » ولكن المال الذي كان القسوس يملكونهُ لم يكفِ لفكاك الوف من الاسرى فكانوا يعدون الباقين منهم بفكاكهم في العام المقبل وكثيراً ما كان اهالي الاسرى يدفعون الفكاك فيذهب القسوس الى الجزائر بالمال ويعودون بالاسرى . وقد حدث ان قسيساً فرنسوياً دفع الى الوالي ٦٠ الف فرنك فكاك فتاة كانت في قصرهِ عبدة وعمرها ١٢ سنة وكان الوالي قد عرف انها عريقة في المجد وان جدها الجنرال بورك الفرنساوي اخذت اسيرة مع عمها وخادمتها في اثناء السفر من مرسيليا

ودامت هذه الحالة سنين طويلة حتى كانت ايام لويس الرابع عشر ملك فرانسا المشهور وعزم هذا الملك على سحق قوة القرصان فاعد ٢٩ سفينة حربية ملأها بالمدافع الكبيرة وسلم قيادتها للاميرال ديسنره فذهب هذا القائد في سنة ١٦٨٨ ورسا امام عاصمة الجزائر وجعل يطلق القنابل عليها حتى بلغت جملة قنابلهِ الكبيرة عشرة آلاف فدمر قسماً كبيراً منها واكره الناس على الفرار الى الصحراء ولم يكن عند الوالي مراكب مثل المراكب الفرنسوية ولا مدافع كبرى مثل مدافعها لان فرانسا كانت قد اخذت في تحسين مراكبها ومدافعها فحار في امرهِ وارسل الى الاميرال يدعوهُ للنزول الى البر والنزال فيهِ ويعيرهُ بالجبن اذا بقي في المراكب فلم يعدل الاميرال عن اطلاق الكرات وانتقم منهُ الوالي بقتل كل القسوس والاسرى الذين في المدينة وفعل الاميرال فعلهُ فقتل ١٧ تركياً كان قد اتى بهم من طولون والقى جثثهم في البحر ليوصلوا الى البر ثم عاد الى فرانسا على غير جدوى . ورأت اوروبا بعد ذلك انهُ لا سبيل الى ابطال هذه الحالة غير السياسة فخابرت رئيس الوجاق وهو الباي بتعيين قناصل لها في المدينة فرضي على شرط ان تدفع اليهِ المرتبات فصارت صقلية تدفع مرتباً مقدارهُ ٢٤٠٠٠

قرش ومملكة البورتوغال ٢٤٠٠٠ ومملكة توسكانا ٢٣٠٠٠ وسردينيا ٢٣٠٠٠ واسبانيا ٢٤٠٠٠ والنمسا ٢٤٠٠٠ . ولم تقبل انكلترا بدفع هذا الراتب ولكنها تعهدت بتقديم هدايا بمثل هذه القيمة عند تعيين قنصلها وكذلك اميركا وهولاندا والسويد والدنمارك كلها قبلت بهذه الشروط المهينة فما اعفي منها غير البابا . ولكن دفع المرتبات لم يرد القرصان عن الاعتداء على مراكب الافرنج ولاسيما الاسبانيين وهم اصحاب وهران في الجزائر من قدم فلم تطق اسبانيا هذا التخصيص بالاذى ولذلك اعدت ٣٠٠ مركب وجردت ٢٢٠٠٠ جندي فيها استلم قيادتها اوربلي الارلندي وهو من كبار ارلندا واصحاب الثروة فيها زحف بهذه القوة على الجزائر سنة ١٧٧٥ ولكنهُ لم ينزل جنودهُ الى البر حالاً بل اضاع اسبوعاً يمخر بمراكبهِ امام المدينة فجعل بكوات الاقاليم في هذه المدة يحتشدون برجالهم للدفاع عن المدينة حتى اذا نزلت الجنود الاسبانية تعاونوا عليها ودحروها فارتدت خائبة وعادت الى اسبانيا فرأت حكومة مدريد بعد هذا ان تترك وهران حتى لا يبقى لها ما يدعوها الى محاربة الترك والعرب بعد ما اصابها من خسارة المال والرجال

وقد دامت هذه الحالة الى سنة ١٨١٥ حين عقد مؤتمر فينا لتسوية احوال اوروبا بعد ابعاد نابوليون وقد اتفقوا في ذلك المؤتمر على ابطال سطو القرصان واسر الافرنج وابطال المرتبات المالية لحكومة الجزائر وكانت اميركا البادئة في هذه الحرب العوان على القرصان لان بوارجها اسرت ٣ سفن قرصانية وفي السنة التالية ارسلت انكلترا اسطولاً بقيادة اللورد اكسموث عدد قطعهِ الحربية ٢٦ فذهب الرجل الى ميناء الجزائر وطلب من الوالي عمر بك ان يرد الاسرى المسيحيين ويرد المبالغ التي قبضها من مملكتي سردينيا ونابولي من عهد قريب او يطلق المدافع على المدينة فلما لم يأتهِ الجواب اطلق مدافعهُ الضخمة فاهتزت منها المدينة وخاف رجال الوجاق فاشاروا على الوالي بقبول طلب الاميرال فقبل وصرف الاشكال وعاد الاسطول الانكليزي وكان الجنود قد اتهموا الوالي بالجبن والخيانة لانهُ سلم للانكليز فقتلوهُ في ديوانهِ وخلفهُ خوجه باي وكان ذا بطش شديد قتل ٥٠٠ شخص في ثلثة اشهر من اوائل حكمهِ ومات بالطاعون فخلفهُ علي بك فحسين باشا وهو آخر بابات الجزائر سلم العاصمة لفرانسا سنة ١٨٣٠ كما ترى في الفصل القادم

الدولة الفرنسوية

كان علي باي سلف حسين باشا يبيع مقادير كبرى من القمح والشعير لدولة فرانسا منذ سنة ١٧٩٨ حتى بلغ مجموع ما لهُ عليها ١٤ مليون فرنك وكان وسطاؤُهُ في البيع تجار يهود يقال انهم كانوا يشحنون الغلال المباعة لفرانسا في مراكب يوعزون الى القرصان ان يضبطوها في البحر فتعود الغلال اليهم ويبيعونها مرة اخرى لدولة فرانسا وقنصلها يشكو للباي هذه الحالة فلم يعرهُ الباي التفاتاً وجعل يطالبهُ بالمال المتأخر على حكومتهِ كما قابلهُ حتى تمت تسوية في سنة ١٨١٩ من مقتضاها ان الباقي على فرانسا للباي ٧ ملايين فرنك · وفي سنة ١٨٢٣ توفي علي باي وخلفهُ حسين باشا على الجزائر فبدأ يطلب المال من فرانسا ملحًّا على قنصلها في ذلك وكتب مرةً الى وزيرها في باريز رأساً فلم يأتهِ رد · ودامت هذه الحالة الى شهر ابريل من سنة ١٨٢٧ حين حدث امر جلل كان بدء العدوان والحرب بين فرانسا والجزائر ذلك ان قنصل فرانسا ذهب لمقابلة الباي بشان مركب روماني اسرهُ القرصان وكان الباي يكره هذا القنصل فقال لهُ ما الذي يوجب تداخلكم والمركب ليس للفرنسويين ثم ذكر لهُ الدين وقال ان وزير الخارجية لم يجاوبهُ بشأنهِ فاجاب القنصل ان الوزير يرسل الرد عن يدهِ لانهُ وكيل دولتهِ في الجزائر فظن حسين باشا ان القنصل يقول لهُ ان الوزير لا يتنازل الى الرد عليهِ وغضب غضباً شديداً حتى انهُ رمى القنصل بمروحة اصابت وجههُ فخرج القنصل مهاناً من ديوان الباي وانذر دولتهُ بما حدث فامرتهُ بالخروج من الجزائر دليل قطع العلاقات · ولم يحسن حسين باشا التدبير بعد هذه الحادثة لانهُ تصدى للتجار الفرنسويين في ثغور بلادهِ وطردهم منها مع انهم كانوا يدفعون اليهِ ٤٠٠ الف فرنك في السنة قيمة الاذن لهم باستخراج المرجان وهو يومئذٍ معدود من الجواهر الغالية وتجارتهُ رائجة ولا سيما في بلاد الهند

وهاجت فرانسا لما لحق قنصلها وتجارها في الجزائر فندبت حكومتها الاميرال لابرونيير ليذهب الى تلك المدينة ويطلب من الباي الترضيات الآتية وهي (١) ان يذهب كل رجال الديوان الجزائري الى سفينة الاميرال ويعتذروا لهُ باسم الباي (٢) ان يطلق بعد عودتهم مئة مدفع ومدفع من القلعة (٣) ان يعوض على التجار الفرنسويين ما خسروا (٤) ان تنفذ المعاهدة القديمة بين فرانسا والباب العالي · ولما ذهب الاميرال لمقابلة الباي وطلب هذه الشروط دخل عليهِ بسيفهِ ولم يسلمهُ على الباب حسب العادة وقابلهُ حسين باشا جالساً على عرشهِ وجعل يطالبهُ بمتأخر المال فرجع الاميرال مغضباً وهو يقول للباي انهُ لا بد لفرانسا من

نبل الترضية وكان الباي يقول له انهُ اذا كان عند فرنسا بارود ففي الجزائر منهُ شيء كثير.
ولما اقلعت السفن الفرنسوية من ميناء الجزائر اطلقت عليها المدافع من القلعة فعطلت بعض
اجزاء سفينة الاميرال فلم تجاوب السفن على هذه الاهانة الجديدة ولكن قناصل الدول اذهلهم
فعل حكومة الجزائر فذهبوا لمقابلة الباي وسألوهُ عما فعل قال ان رئيس القلعة فعل ذلك
بلا امر منهُ وهو عذر واضح البطلان

وما عتم خبر اهانة الاسطول ان بلغ باريس حتى اعلنت حكومة فرانسا الحرب على الجزائر
وانذرت الدول كلها فعلمت انها لا تنوي التداخل واخذت على حكومة مراكش عهداً ان
تبق على الحياد . وكان حسين باشا يؤمل المساعدة من انكلترا وتونس ومراكش فلما قطع
املهُ منها رضي ان يقوم بكل مطالب فرانسا . ولما تم جمع الاسطول الفرنسوي وعدد قطعهِ
١٠٤ عقد لواؤهُ للاميرال دوبرّه سنة ١٨٣٠ وكان فيهِ من الجنود البرية ٣٠ الفاً تحت
قيادة الجنرال دي بورمون وقام الى الجزائر فالتقى بسفينة عثمانية تقل طاهر باشا الوزير
العثماني كان قادماً من الاستانة ليقبض على حسين باشا بامر السلطان وايعاز من دولة انكلترا
فالحّ الباشا على الاميرال الفرنسوي بالعدول عن الحرب ووعدهُ برد شرف فرانسا على اهون
سبيل ولكن الاميرال استمرّ في سيرهِ حسب اوامر دولتهِ وسار طاهر باشا الى باريس ليخابر
حكومة فرانسا فيما جاء لاجلهِ . ووصل اسطول فرانسا ثغر الجزائر وكان معهُ ترجمان
من اهالي بيروت اسمهُ جرجس جروه تبرع بالذهاب الى العرب بمفردهِ واقترح على الجنرال
الفرنسوي ان يبعث معهُ منشوراً يبين بهِ نيات فرانسا السلمية وميلها الى اعطاء البلاد لاهلها
وكان هذا الترجمان يعلم ان في مهمتهِ خطراً ولكنهُ آثر ان يفدي الجيوش بنفسهِ وتقدم
لهذا الامر حتى اذا وصل محلة العرب قتلوهُ فراح ضحية المروءة ومن ثمّ بدأت الجنود تنزل
في جهة الحراش وهو لسان ممتد في البحر طولهُ ١١ الف متر وكان احمد بك حاكم قسنطينة
وحسن بك حاكم وهران ومصطفى بك حاكم تيطري ورؤساء القبائل وفي مقدمتهم مصطفى بو
مزراق قد تجمعوا برجالهم استعداداً للحرب ورأس جنودهم ابرهيم آغا صهر الباي وجملة الجنود
تحت قيادتهِ ٣٠ الفاً . وبدأ القتال على عجل فقتل في المعركة الاولى ٦٠٠ من الفرنساويين
و ٣٠٠٠ من جنود الباي وهرب قائدهم ابرهيم آغا الى منزل لهُ في الضواحي فما خرج منهُ الاَّ
بعد ان شفعت زوجتهُ بهِ امام ابيها وكان قد عزم على قتلهِ فاكتفى بعزلهِ وعين قائداً موضعهُ
بومزراق وامر بالحض على الجهاد في الجوامع والطرق ولكن هذا لم يرجع الفرنسويين عن متابعة
الهجوم فانهم تقدموا على قلعة تعرف باسم مولاي حسن في اطراف المدينة ففتحوها عنوة بعد

قتال شديد فكان في ذلك القضاء على دولة الباي الذي اراد ان يحرق الجبخانه ويموت فيها بمن معه ثم اذعن لنصح اعوانه فارسل كاتب يده سيدي بو مصطفى الى الجنرال الفرنسوي يطلب الصلح و يعد بالترضية ولكن الجنرال رد الرسول واوفد ترجمانه وهو بولوني الاصل يعرف التركية والعربية ليبلغ حسين باشا شروط التسليم التي يطلبها مكتوبة بالفرنساوية وقد ترجمت الى العربية . وهذا نصها نقلاً عن لسان الترجمان قال

« اني لما وصلت الباب الجديد الموصل للسراي لم يفتح لي الا من بعد مخابرات شتى من الداخل . وبعد دخولي وجدت نفسي محاطاً بالجنود من الباشبزوق والارنؤوط والعرب اسمعوني السباب والشتائم وهددوني بالسلاح وتبعوني في الطريق على هذه الكيفية لحد باب السراي فبادر سيدي مصطفى وفتح لي الباب وادخلني فالتقيت في الحوش بكثير من القواصه ولما دخلت الديوان وجدت حسين باشا جالساً الى عرشه وامامه وزراؤه وقوفاً وبعض القناصل جالسين على المقاعد وكانت ملامحه تدل على الانفعال الشديد فاشار بيده على الجميع ان يلتزموا السكوت واشار الي ان اتقدم فتقدمت وفي يدي الشروط فوقفت امام الباي وقرأت هذه الشروط بالعربية بصوت خافت وهي

اولاً — ان تسلم الى الجيش الفرنساوي عاصمة الجزائر والقصر والقلاع والبنايات العمومية وذلك من الغد الواقع في ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ الساعة العاشرة صباحاً . قال الترجمان وما انتهيت من قراءة هذا الشرط الاول حتى سمعت ضجيجاً وتهكماً وظننت انهم سيضربونني بالسيف على رأسي من الوراء ولكني وجدت رأسي ما زال موجوداً على عنقي واسرعت بالقراءة

ثانياً — يجب احترام ديانة الجزائريين ولا يجوز التداخل في امورهم الخصوصية ولا يجوز لاحد من العساكر الدخول في الجوامع . قال الترجمان ان هذا الشرط اوقع الهدوء والسكينة ما بين الموجودين حتى ان الباي نظر اليهم نظرة الاستحسان واشار الي ان استمر في القراءة

ثالثاً — يجب على الباي والاتراك ان يتركوا العاصمة باسرع ما يمكن من الوقت . فما انتهيت من قراءة هذا الشرط حتى سمعت ضجة من الموجودين ملأت جوانب الديوان اذ قام الباي من مكانه وهو مصفر اللون ينظر الى الموجودين امامه وحوله نظرة الاضطراب والقلق فما كنت اسمع الا التهديد وعبارات القتل والموت من افواه القواصة الذين شهروا سيوفهم فوق رأسي فقلت في نفسي هذا هو القضاء المبرم لولا ان الباي صرخ فيهم صرخة شديدة واشار الي ان اتم القراءة

رابعاً — يجوز للاتراك ان يأخذوا معهم اموالهم وامتعتهم الخصوصية وهم احرار ان يذهبوا

اين شاؤُه · قال الترجمان وبعد قراءة هذا الشرط الاخير اجتمعوا جميعاً في ساحة الديوان للبحث في ما يوافق اجراؤُهُ فقسم منهم وهم الفتيان الاتراك ارادوا مداومة الحرب ولكن اصحاب الكلمة المسموعة اثبتوا انهُ ليس من وراء المقاومة الأخراب البلد وهلاك اهلها · وبعد ذلك صدر امر الباي ان يخلى الديوان وما بقي فيهِ الأهو ووزراؤُهُ وانا وسيدي مصطفى الذي كان يعيد قراءة الشروط لحسين باشا ويترجمها لهُ على حسب هواهُ تخفيف ثقلها على الباشا الذي وقّع عليها وسلمها لي ثم امر سيدي مصطفى والباش چاويش ومعهُ بعض العساكران يرافقوني الى الباب الجديد حتى اذا اقتربت من المعسكر الفرنساوي وكنت في طمأنينة وامان تركوني ثم قابلت الجنرال وسلمتهُ الشروط ممضاة · وفي تلك الليلة اصابتني حمى شديدة من الخوف كادت تقضي على حياتي »

وفي الغد استلمت العساكر الفرنساوية القصر والقلاع وابواب المدينة والبنايات العمومية · قال قنصل الانكليز للجنرال دي بورمون قائد عموم العساكر انهُ يقدّر ما كان من النقود في خزينة السراي بما لا يقل عن مئة وخمسين مليون فرنك ولكن الاحصاء الرسمي الذي امر الجنرال باجرائهِ عن يد لجنة مخصوصة دل ان الذي وجد من المال بلغ خمسين مليون فرنك فقط · وكانت اللجنة قد طلبت الدفاتر قبل هذا الاحصاء من امين خزينة حسين باشا فقال انهُ لم يكن عندهُ دفاتر منظّمة بل ان النقود تدخل وتخرج بامر الباشا ودلها الى اكوام العملة الذهبية من فرنساوية وانكليزية ونمساوية متراكمة بعضها فوق بعض

واستلم الجيش الفرنساوي مدينة الجزائر بكل ما فيها فلجأ الباي الى منزل خارج البلد وذهب رؤساء القبائل وحسن بك حاكم وهران ومصطفى بك حاكم طيطري كل الى محلهِ اما احمد بك حاكم قسنطينه فانهُ قال لابرهيم آغا صهر الباي انهُ قضي على حميهِ والاوفق ان يأخذا اموالهُ ويتبعهُ فتبعهُ ومعهُ سبعون الف مجر ولكن احمد بك سلب هذا المال منهُ فاضطر الرجل ان يعود من حيث اتى · وطلب حسين باشا مقابلة الجنرال فقابلهُ في ديوان الحكومة وكان ساعتئذٍ كالضيف والجنرال صاحب المحل فبعد الحديث اختار حسين باشا ان يذهب الى لفورنو من مدن ايطاليا فاعدت لهُ سفينة حربية نقلتهُ من الجزائر مع عائلتهِ وهو يبكي على ملك ضاع ودولة دالت وعزٍ قضى فيهِ ١٢ سنة وكان ذلك آخر عهد الجزائر بحكم البايات الذين استمرت دولتهم من سنة ١٥١٧ لغاية سنة ١٨٣٠ · وكان حسين باشا ينوي الحج الى مكة بعد ذلك الانكسار وقد وردت عنهُ حكاية في بعض الكتب ربما كانت صحيحة هي انهُ جاء الاسكندرية في عهد واليها محمد علي باشا وكان محمد علي قد

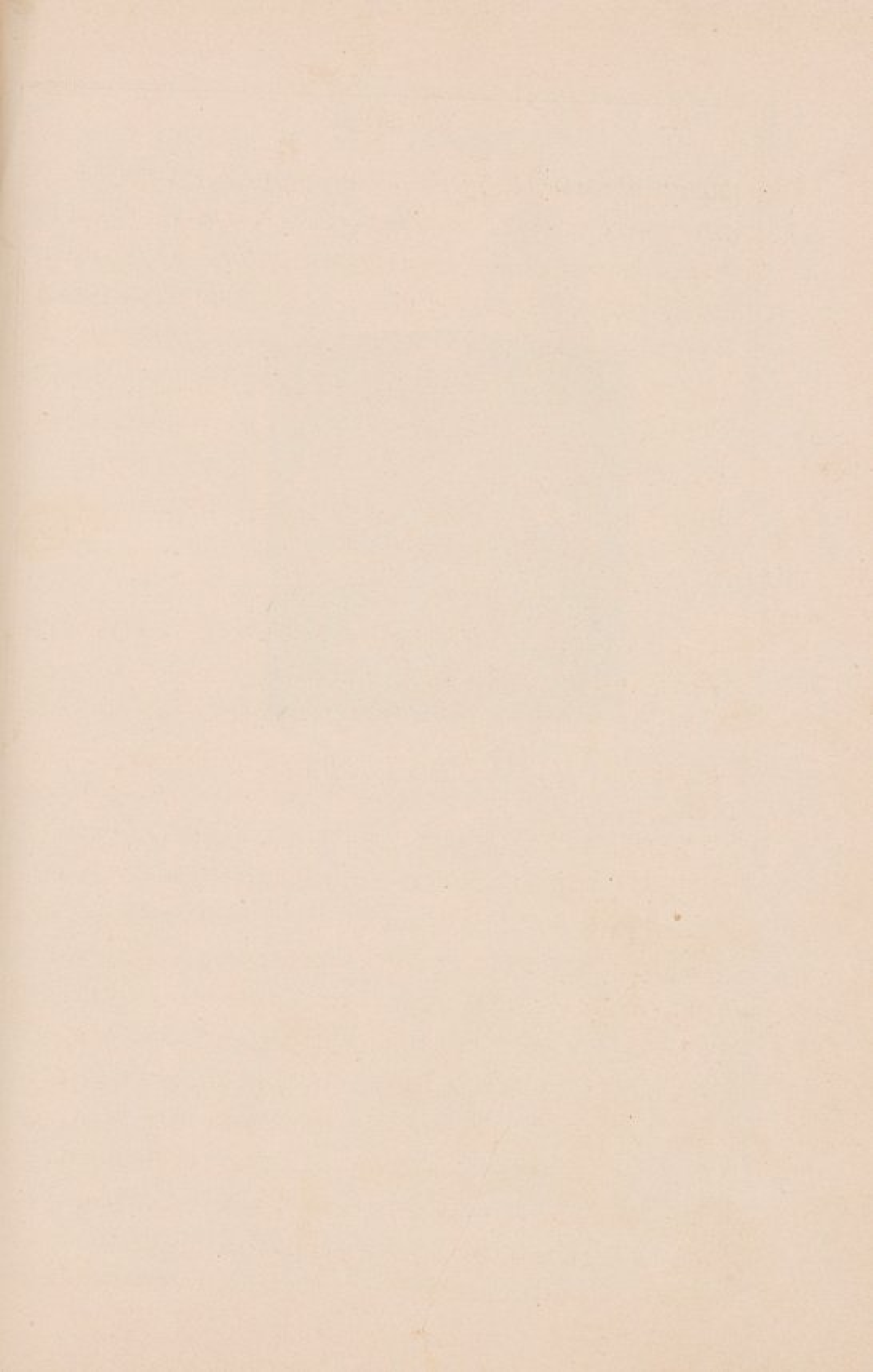
ارسل مرة يرجو حسين باشا الا يوءذي التجار الفرنسويين وذلك بطلب من حكومة فرانسا فلما سمع حسين باشا قول المندوب المصري اجابهُ قل لسيدك ان يأكل فولاً واستمر على عنادهِ مع الفرنسويين · ثم قدّر لهُ الانكسار على ما علمت والرحيل الى الاسكندرية فاكرمهُ محمد علي ودار بهِ على جنودهِ ومواقعهِ ليفرجهُ عليها وهو يبدي العجب من اين جاء كل ذلك حتى اذا سأل هذا السوءال قال لهُ محمد علي ان هذا كلهُ من اكل الفول

ولما وصلت اخبار النصر الى باريس طرب الناس لها وسروا وانعمت الحكومة برتبة مارشال على الجنرال دي بورمون · وحدثت مناوش صغرى بعد هذا مع بعض اهالي الداخلية لم تسفر عن نتيجة ولكن الجيش الفرنساوي لم يوغل في البلاد لان حكومتهُ ارادت الاكتفاء بالمدن البحرية وربما ارادت ان تترك بقية البلاد يومئذٍ للدولة العلية ولذلك ارسل القائد العام تجريدة صغرى الى ثغر عنابه تحت قيادة الجنرال دامرمون وتجريدة أُخرى الى وهران تحت قيادة ابنهِ الكولونل دي بورمون (وسيأتي ذكر المدينتين في فصل السياحة) فسلمت عنابه بلا قتال ولكن العرب قاتلوا في اطرافها وهزموا · وسلمت وهران بلا قتال ايضاً · وبين كان الجيش الفرنسوي في ذلك بلغهُ ان ثورة سنة ١٨٣٠ حدثت وان الملك لويس فيليب نصب على العرش بدل الملك شارل العاشر فجمع القائد العام جنودهُ في عاصمة الجزائر وسافر الى باريس وخلفهُ الجنرال كاوزيل

ولما وصل القائد الجديد الى الجزائر علم ان سلطة فرانسا منحصرة في الثغور وان القبائل عاملة على العناد وطلب الاستقلال مع حكام الاقاليم الذين سبق ذكرهم وكان روءساء الدين ابداً يحضون الناس على الجهاد حتى انهم نبهوا حكومة تونس الى الخطر المحدق بها من فرانسا وسعوا في اقامتها مع حكومة مراكش لمساعدتهم فاهتم القائد الفرنسوي وخطب في جنودهِ موضحاً لهم الحالة ونظم ادارة المدينة مستعيناً بافاضل الجزائريين وبعض الفرنسويين وطلب من وزير الحرب في باريس ان يزيد جيشهُ الى ١٨ الفاً وكان الباقي عندهُ ١٠ آلاف فكان جواب الوزير ان قوتهُ تكفي لاخضاع الجزائر وعليهِ قام الرجل لقمع الثورة فلما بلغ بليدا سلم اهلها لهُ ورجوهُ الا يدخل بلدتهم فابى اجابة الطلب وحارب العرب المتجمعين في اطرافها فطردهم منها ثم تقدم الى الميديه وهي في وسط الجبال فاستولى عليها بعد قتال شديد ولكن الاهالي استمروا على مضايقتهِ بالمهاوش والمناوش ولم يكن عدد الجنود الفرنساوية كافياً لاخضاع البكوات فعاد القائد الى عاصمة الجزائر وابرم اتفاقاً مع باي تونس ان يبقى على الحياد ولكنهُ تعب من مخالفة وزير الحرب لهُ في كل ما يفعل فاستقال من القيادة وعاد الى بلادهِ



(الامير عبد القادر الجزايري)



وعين الجنرال تريزل سنة ١٨٣١ قائداً عاماً في الجزائر فحاول اصلاح الادارة وابطال الاختلاس فيها وقام لمحاربة العصاة فلم يفلح في اول الامر ولكنهُ عاود الكرة وجرد حملات على عنابه ووهران وقام هو بنفسهِ لفتح الميدية فرجع عنها مرة اخرى واصاب عاملهُ في عنابهِ فشل ايضاً لانهُ اركن الى تركي خدعهُ واوقع جندهُ في المهالك. وكذلك حملة وهران عادت الى الجزائر بالخسران. فلما علمت فرانسا بهذا فصلت الادارة عن القيادة العسكرية فجعلت الموسيو بيشون حاكماً والجنرال روفيكو قائداً سنة ١٨٣٢ وقد فاز هذا القائد بفتح ثغري وهران وعنابه بعد قتال كثير

وحدث في خلال هذه الحوادث انهُ ظهر زعيم في جهة بسكره على حدود الصحراء اسمهُ محيي الدين من قبيلة هاشم جعل يحض الناس على الجهاد في محاربة الاجانب فاثر صوتهُ في القبائل وعرضت عليهِ ان يقودها للحرب فآثر الرجل ان يبقى في زاويتهِ وجعل ابنهُ عبد القادر اميراً وقائداً لتلك القبائل بدعوى انهُ رأى في المنام ان ابنهُ المذكور سيكون اميراً للعرب فنودي بامارة عبد القادر يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٣٢ في محفل حفيل وكان هذا الشاب قد تربى في مدرسة القليعة وتضلع في العلم والفقه والشعر بمجالس العلماء وبباحثهم ولهُ بينهم منزلة سامية على حداثة سنهِ. وكان طلق اللسان قوي الجنان مشهوراً بين الفرسان تبعهُ ١٢٠٠٠ مقاتل من العرب الي مدينة وهران ليطردوا الفرنساويين منها فلما بلغوها قاتلوا قتال الابطال ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة مع قلة حاميتها لان مدافع الفرنساويين كانت تصبُّ ناراً حامية ولا امكن الحامية ان تخرج لمقاتلة العرب بسبب كثرتهم فانقضى القتال على غير جدوى. ولما وصلت هذه الاخبار الى باريس صدر امر حكومتها بعزل قوادها في الجزائر فعين الجنرال ڤوارول قائداً عاماً والجنرال البارون ده ميشيل قائداً لحامية وهران. ووصل القائدان الجديدان الى مواضعهما في سنة ١٨٣٤ فتجدد القتال في اطراف وهران ولكن الفرنسويين رأوا ان الامير عبد القادر غاب عن معسكرهِ في اثناء الحرب لعلة لم يفهموها فاتضح يومئذٍ انهُ عرف بوفاة والدهِ في بسكره فذهب اليها لاقامة الفروض المعتادة وعاد في شهر اغسطس من تلك السنة وعادت الحرب ايضاً ولكنها لم تعد بفائدة لاحد الطرفين فرأى الجنرال ده ميشيل ان يخابر الامير عبد القادر في المصالحة وندب الامير كاتب يدهُ المدعو ميلود لمفاوضة الجنرال في ذلك وكان هذا القائد اي البارون دي ميشيل من سراة فرانسا ووزير الحرب يومئذٍ صديقهُ لا يخالف لهُ رأياً فهو وافق على المعاهدة التي ابرمها هذا القائد مع الامير عبد القادر بدون مراجعة القائد العام في عاصمة الجزائر حسب الاصول وخلاصة

المعاهدة المذكورة (١) ان الحرب تبطل من يوم التوقيع على المعاهدة (٢) يتبادل الطرفان ماعندهما من الاسرى (٣) يكون للامير عبد القادر مندوب في وهران ولفرانسا مندوب في بسكره (٤) لا يجوز للفرنساويين ان يسافروا في داخلية البلاد الاَّ بتذكرة يعلّم عليها الامير او من يقوم مقامهُ ولا يجوز للعرب دخول المدن البحرية التي احتلتها فرانسا الاَّ بتذكرة يعلم عليها الحكام الفرنساويون (٥) تعطى الحرية المطلقة للاديان والمتاجر وفي جملتها المتاجرة بالسلاح

ولما اشتهر امر هذه المعاهدة وعلا ذكر عبد القادر كثر حسادهُ ومبغضوهُ من العرب وتألبت بعض القبائل لمحاربتهِ واهمها قبيلة بني عامر وهي اكثر القبائل عدداً في بلاد الجزائر فلما التقت جنود القبائل بجنود الامير عبد القادر هزمت جنود الامير واضطر عبد القادر الى الفرار فلما علم القائد الفرنساوي بذلك وكان يدري ان اعداء عبد القادر نقموا عليهِ لانهُ عاهد الفرنسيس وهادنهم ولم يعتدوا بمعاهدتهِ مدهُ بالرجال والسلاح حتى ان الامير رجع الى محاربة هؤلاء الاعداء المتحدين عليهِ وكسرهم شر كسرة وعاد الى مقامهِ الرفيع وعلا شأنهُ بين الجميع · ولكن زمان الراحة لم يطل لان القائد العام في الجزائر غضب من عقد معاهدة وهران بلا اطلاعهِ ولا امرهِ فارسل الى وزير الحرب يعترض على هذا الصنيع ويقول ان المعاهدة المذكورة جعلت عبد القادر اميراً حاكماً في الجزائر وهو عدو فرانسا وكان الواجب على البارون ده ميشل قائد حامية وهران ان يساعد اعداء عبد القادر على سحقهِ واقام ينتظر الرد من حكومتهِ على هذا الاعتراض وهو في خلال ذلك دائم التنافس والتخالف مع الموسيو يشون الحاكم الملكي حتى صدر امر الوزارة باقالة الاثنين وتعيين الجنرال ديرلون قائداً عاماً في بلاد الجزائر · فلما وصل هذا القائد الجديد اقال الجنرال ده ميشل من القيادة في وهران وزاد حاميات المدن البحرية وشكل فرقة من الفرسان الوطنيين سماهم جنود الزواف وهم يعرفون بهذا الاسم الى اليوم ودفع مبالغ طائلة الى بعض رؤساء القبائل لكي يحملهم على موالاة فرانسا والبقاء تحت طاعتها · فلما علم الامير عبد القادر بهذا ارسل الى رؤساء القبائل يحذرهم من الانتماء للاجانب والرضى لسيادتهم وارسل الى القائد العام يقول لهُ ان المسلمين لايمكنهم الخضوع لدولتهِ فاستعد الفريقان لمعاودة الحرب واصدر القائد العام امرهُ الى الجنرال تريزل قائد وهران الجديد بالقيام لمحاربة عبد القادر وكان الامير قد قام لمقابلة الاعداء وفتك بسربة تنقل اليهم العلف ثم تقدم بثمانية الاف مقاتل وكان مع القائد الفرنسوي ٢٥٠٠ رجل فقط فانتشب قتال شديد بين الطرفين دارت الدائرة فيهِ على العرب واضطر عبد القادر الى الفرار ولكنهُ اعاد الكرة في احد الايام بين كانت الجنود الفرنسوية تتغدى فهزمها شر هزيمة وامر

منها ٢٠ رجلاً وقتل عدداً كبيراً وحملها على الفرار الى ثغر ازرو لتكون تحت حماية البواخر الحربية وكان هذا الانكسار علة عزل الجنرال تريزل بامر القائد العام وتعيين الجنرال دارلانج مكانهُ ولكن هذا العزل لم يرق لوزير الحرب لان قائد وهران بذل غاية ما في الامكان فعزل القائد العام وعين الجنرال كلوزيل قائداً وحاكماً عاماً في بلاد الجزائر

ولما وصل هذا الحاكم العام الجديد رأى ان الاحوال سيئة وان نفوذ فرنسا قلَّ بين الاهالي وان الامير عبدالقادر اصبح الحاكم المطلق في داخلية البلاد الى حدود مراكش فجعل همهُ اصلاح الاحوال وانتقى بعض الامناء من كبار الاهالي فعينهم حكاماً وعمالاً في المدن الواقعة تحت حكم فرانسا وارسل اثنين منهم الى مواضعهما فعاد الاثنان منها بداعي كثرة المعادين لحكومة فرانسا في الجبال وقام القائد العام بنفسهِ ليفرق شمل هؤلاء الاعداء ومعهُ ٥٠٠٠ جندي ولكنهُ حين بلغ ارضهم رأى ان جيشهُ لا يكفي لمحاربتهم فصبر ريثما جاءتهُ النجدات من فرانسا وتقدم لفتح بسكره وهي مسقط رأس الامير عبدالقادر فذهب عن طريق وهران بحراً وسير جيشهُ منها ٤ فرق كان في احداها الدوك دورليان ابن ملك فرانسا ومجموع قواتها ١١٠٠٠ ۰ ورأى الامير عبدالقادر ان القوة كبيرة عليهِ هذه المرة فارسل يخابر القائد الفرنسوي بالصلح ولم يقبل القائد بل هاجم جيش الامير وجعل يفوز عليهِ ويدحرهُ والامير يتقهقر من امامهِ حتى وصلت جنود فرانسا الى قرية بسكره فتقدم رؤساء القبائل وعرضوا الطاعة على القائد الفرنسوي فقبل وطلب منهم رأس عبد القادر واعداً بثلاثين الف فرنك للذي يأتي بهِ ۰ وكان الدوك دورليان من اكثر الجنود بسالةً في هذه المواقع ولكنهُ عاد الى فرانسا على عجل لانهُ أُصيب بالحمى فودعهُ القواد والجنود بالهتاف والاكرام العظيم ۰ وفي سنة ١٨٣٦ قام القائد العام في اثر عبدالقادر فادركهُ عند مدينة تلمسان في اطراف الجزائر وحاربهُ فكسرهُ كسرة هائلة وعاد الى مدينة الجزائر بمئتي اسير ومنها ارسل منشوراً الى القبائل يعلمها بانكسار عبدالقادر فاسرع بعضها الى اعلان الطاعة وبقي البعض الآخر مصرًّا على ولاء الامير وبهذا انقسم الجزائريون بعضهم على بعض وكان فريق منهم يحارب الفريق الآخر مع الفرنساويين وقد حدث هذا في معركة الميديه سنة ١٨٣٧ حين سير القائد العام بعض جنودهِ والقبائل المتحابة لمحاربة علي مبارك عامل الامير عبدالقادر فكسرتهُ وبددت شمل رجالهِ ۰ وكذلك حدث وراء وهران في تلك السنة حين قام قائد المدينة مع بعض القبائل لاعادة الكرة على الامير عبدالقادر ونازوا عليهِ وفرقوا مواكبهُ بعد قتال شديد

وقد سرَّ اهل فرانسا سروراً عظيماً من هذه الاخبار ورأَت الوزارة انهُ لم تبق حاجة الى الجيش العديد في الجزائر فارجعت بعضهُ رغماً عن احتجاج القائد العام · وكان في هذا دافع جديد للامير عبدالقادر الى معاودة القتال لانهُ طمع ببقية الجيش الفرنساوي فتقدم بسبعة آلاف مقاتل على وهران وقابلهُ قائدها بثلثة آلاف فدارت الدائرة على الحامية الفرنسوية وجرح قائدها ورجع الجيش الى وهران بعد ان قتل منهُ خلق كثير فكان لهذا الانكسار تأثير شديد في فرانسا وعادت حكومتها الى تقوية جيشها في الجزائر فسيرت النجدات تحت قيادة الجنرال بوجو وهو من اشهر قواد فرانسا وصل وهران في سنة ١٨٣٧ بستة آلاف مقاتل واستعد لمحاربة الامير عبدالقادر واما الحاكم العام فانهُ ذهب الى باريس في خلال هذه الحوادث وعرض الحالة على الوزارة بوجه عام وخيّرها بين امتلاك الجزائر كلها او الاكتفاء بالثغور منها او الخروج من كل البلاد فتقرر الاستيلاء على البلاد كلها وعاد الحاكم العام الى الجزائر يستعد لحرب عمومية شديدة واراد التقدم الى قسنطينة للاستيلاء عليها (وسنذكرها في فصل السياحة) وكان حاكمها احمد بك وقد استبد الرجل بحكم قسنطينة وابتز مال اهلها وشدد العقوبات لاقل هفوة وبنى لهُ قصراً جميلاً في المدينة وجامعاً على مقربة من القصر · وكانت جنود فرانسا تتقدم من ثغر عنابه لفتح قسنطينة ومعها الدوك دورليان السابق ذكرهُ وعددها ٧٠٠٠ من الفرنساويين و ١٥٠٠ من العرب والاتراك الموالين تحت قيادة يوسف بك التونسي فسار الكل في ايام الامطار الغزيرة والاوحال وطغيان الانهر وكان السير من اعسر الامور زادهُ خيانة بعض المكارين الوطنيين ووقوع الجيش في المتاعب حتى ان القائد قال في تقريرهِ للوزارة يومئذٍ ان حملة موسكو المشهورة لم تكن اكثر عذاباً من سير جيشهِ من عنابه الى قسنطينة · على انهم بلغوا المدينة بعد ان فقدوا ضابطاً و ١٠ صف ضباط و ١١٦ جندياً واقام القائد حولها يعاين مواقعها وابوابها واسوارها وكان يؤمل دخول المدينة من احد ابوابها القديمة ولكنهُ لم يرَ حركة دفاع او مقاومة من حاميتها في اول الامر فحسب انهُ يستولي عليها بلا قتال · وبين هو ينتظر قدوم المندوب ليخابرهُ بالتسليم رأى راية الحرب وسمع نداء القوم بالجهاد وتقدم قائد اسمهُ ابن عيسى لمقاتلة الفرنسويين في اكمة احتلها القوم واسمها تل علي واما احمد بك حاكم المدينة فبقي فيها مع فريق من الجنود التركية · وبعد ان قاتل ابن عيسى قتالاً شديداً هُزم وارتد الى المدينة ففتح احمد بك الباب الموجه للتل المذكور وتقدم للقتال برجالهِ ولكنهُ هزم ايضاً وارتد الى المدينة واوصد الابواب وعاد ابن عيسى فخرج مرة اخرى الى ساحة القتال وهزم ايضاً فرجع الى المدينة وصدر امر القائد العام الفرنساوي الى الجنرال تريزل باطلاق القنابل

على احد الابواب واسمهُ باب القنطرة كان يؤمل الدخول منهُ وبين هو يتفرج على فعل مدافعهِ اطلق العرب رصاص بنادقهم دفعة واحدة على الهاجمين فاصابت الجنرال تريزل رصاصة قتلتهُ ولكن هذا لم يثنِ عزم القائد العام فوجه مدافعهُ الى باب آخر وقتل امام ذلك الباب ضابطان و٥ ١ جندياً وجرح ٧٩ من الفرنسويين. ودام اطلاق المدافع اربعة ايام على اسوار قسطنطينة حتى نفد ما كان منها مع الجيش الفرنساوي ورأى قائدها ان الاستمرار على الحرب لا يفيده فامر جنوده بالتقهقر والرجوع وتبعها احمد بك وابن عيسى يضربان في ظهورها و يزيدان متاعب السير في تلك الاوحال. وكان جملة من قتل في هذه الحملة المشؤمة ١١ ضابطاً و٤٤٣ جندياً وجرح ١٦ ضابطاً و٣٠٤ جنود . هذا غير ما اصاب القوم من الامراض واهوال الطريق في الذهاب والاياب فلم يقل عدد الموتى عن ٢٠٠٠ محارب وكانت نتيجة هذا الانكسار ان الحاكم العام استعفى لان حكومة فرانسا لم تمدهُ بكل ما اراد من القوات وسافر الى باريس مع الجنرال بوجو فلما وصلاها عينت الحكومة الجنرال دامرمون حاكماً عاماً واعادت بوجو الى قيادة موقع وهران

ووصل الحاكم العام دامرمون عاصمة الجزائر في اوائل سنة ١٨٣٧ وكان الجنرال بوجو قد ذهب من طريق آخر الى وهران وهو يقول لبعضهم انهُ مفوض من وزير الحرب في باريس بمخابرة الامير عبد القادر رأساً وعقد صلح يحفظ شرف فرانسا . فلما بلغ وهران ارسل الى مشايخ القبائل يتهددهم باحراق الزرع والمحصولات اذا جردوا سلاحاً على فرانسا واوعز الى يهودي اسمهُ دوران بالذهاب الى محل الامير عبد القادر واستطلاع رأيهِ في امر الصلح فكانت نتيجة هذا انهم عقدوا معاهدة في ٣ مايو من تلك السنة هذه زبدة شروطها

١ يعترف الامير عبد القادر بسلطة فرانسا في الجزائر

٢ يحدد اقليم وهران ما بين البحر وجبل الاطلس في داخلية البلاد

٣ لا يجوز للامير ان يعتدي على الحدود الفرنساوية

٤ لا يجوز لاحد الطرفين ان يتداخل في شؤون الخاضعين للطرف الاخر في دائرة نفوذهِ

٥ لا يعارض المسلمون في منطقة فرانسا في بناء الجوامع او حرية دينهم

٦ يتعهد الامير عبد القادر بتوريد ٣٠٠٠٠ كيلة جزائرية من القمح كل سنة و٢٠٠٠٠ كيلة من الشعير و٥٠٠٠ بقرة للجيش الفرنساوي

٧ يجوز للامير ان يشتري ما يلزمهُ من السلاح ولكن من معامل فرانسا فقط

٨ تعطى مدينة تلمسان بقلعتها ومدافعها للامير عبد القادر

٩ يجوز لرعايا الطرفين ان يقيموا اينما شاؤا في الجزائر بلا معارضة

١٠ يجوز لرعايا الطرفين ان يشتروا الاراضي في المنطقتين

١١ لا يجوز للامير ان يتنازل عن شيء من ارضه لدولة غير فرانسا

١٢ يجوز لكل فريق ان يعين لهُ وكيلاً سياسياً في منطقة الفريق الآخر

هذه خلاصة المعاهدة اهتم الامير عبد القادر على اثرها بانشاء معامل السلاح والبارود وضرب نقوداً على احد وجهيها « هذه مشيئة الله عليهِ توكلت » وعلى الوجه الآخر « السلطان عبد القادر ضرب في تكرمة » وتكرمة بلدة انشأها عبدالقادر بهذا الاسم . وارسل الجنرال بوجو صورة هذه المعاهدة الى وزير الحرب فابى رئيس الوزارة وهو يومئذٍ الكونت موله ان يقرّها ولكن وزير الحرب ارسل مندوباً من قبلهِ الى وهران بلغ الجنرال ان الملك راضٍ عن المعاهدة وانهُ سيرسل صورتها الى الحاكم العام في الجزائر ليقرها بامضائهِ . وكان الجنرال بوجو قد طلب مواجهة الامير عبدالقادر على مسافة بضع ساعات من وهران وذهب الى المكان المعين ببعض جنودهِ فبلغهُ والامير لم يأتهِ بعد فما وصلهُ الا بعد ٣ ساعات ومعهُ نحو ٢٠٠ من رؤساء القبائل على فاخر الجياد بكامل سلاحهم وزخرف ملابسهم فكان منظرهم جميلاً جدًّا فتقدم الجنرال ومد يدهُ للسلام على الامير ولكن الامير اسرع وترجل وجلس الى الارض ففعل القائد فعلهُ ثم دار بينهما الحديث الآتي

— اعلم يا عبد القادر اني ضمنتك امام ملك فرانسا بحسن السلوك

— لا تخف ان ديننا يأمرنا بالصدق في ما نقول

— هل امرتم بارجاع العلاقات التجارية مع عاصمة الجزائر والمدن البحرية

— لا . ولكنني افعل حين استلم تلمسان وقلعتها حسب الشروط

— لا يمكن تسليمها الا بعد مصادقة الملك على المعاهدة

— أفلست اذاً مفوضاً بعقدها

— نعم اني مفوض ولكنهُ لا بد من تصديق الملك والتصديق خير لك لانهُ ربما اتى بعدي قائد عبث بها اذا لم يصدق الملك واما بعد تصديقهِ فالعبث بها امر مستحيل

— اذا لم تسلمني تلمسان فلا تعد هذا معاهدة منا بل اعتبر اننا في هدنة

— صحيح ولكنك انت الرابح من اطالة زمان الهدنة لاني لا احرق الزرع في خلالها

— مهما تحرق فانهُ يبقى عندنا مقادير من الحبوب تكفينا في كل حين

— لست اظن هذا صحيحاً فان قبائل كثيرة رجتني الا احرق زرعها وحاصلاتها

فتبسم عبد القادر من هذا القول ولما علم من الجنرال انهُ يلزم ثلثة اسابيع على الاقل لورود المصادقة من الملك ابدى اشارة الملل وقال انهُ لا يعيد العلاقات التجارية الا عند المصادقة النهائية على المعاهدة . ورأى الجنرال بوجو ان استطراد الحديث ربما ادى الى ما لا يحمد فقام يريد الانصراف وبقي الامير جالساً يكلم الجنرال بصوت خافت والجنرال واقف وكان يريد من هذا ما اراد من ابطائهِ في الحضور للمقابلة وهو التظاهر بعلو المقام وعدم الاعتداد بالقائد الفرنسوي فلحظ القائد مراده وقال لهُ بلسان الترجمان انهُ اذا قام القائد الفرنسوي وجب عليهِ ان يقوم هو ايضاً فوقف عبد القادر في الحال وانصرف الرجلان على غير نتيجة من المقابلة

ولما علم الحاكم العام دامرمون بمعاهدة بوجو وعبد القادر زاد بهِ الغيظ وكتب الى وزير الحرب ينذر فرانسا بالذل من الموافقة عليها ويجعل القبائل الموالية لها تحت ارهاب عبد القادر ويجعل لهذا الامير دولة مستقلة مثل فرانسا . وكان في الصحف والنواب فريق عظيم على رأي الحاكم العام قاموا يندون بهذه المعاهدة ويقولون ان فرانسا ازالت السلطنة التركية من الجزائر لتخلق فيها سلطنة عربية قوية تعضدها مراكش وغيرها وهؤلا في الامر حتى اضطرت الوزارة ان تجيب طلب الحاكم العام وتعضدهُ بكل ما يريد وقررت الاستيلاء على بلاد الجزائر كلها بصورة نهائية وارسلت تجريدة جديدة كان في جملة قوادها الدوك دي نمور من امراء البيت المالك في فرانسا . وسارت هذه الحملة الجديدة الى عنابه حيث عقد مجلس الحاكم العام دامرمون والدوك دي نمور والقواد ومشائخ القبائل الموالية لفرانسا فقرروا ان يؤجل الزحف على الاعداء الى اول الصيف حتى لا يصيب الجنود ما اصابهم في الحملة السابقة ولكنهم عادوا وقرروا الزحف في اول اكتوبر — سنة ١٨٣٧ — فقامت الحملة من نفس الطريق الذي اتبعتهُ الحملة السابقة ووصلت امام قسنطينة في اليوم السادس من الشهر المذكور فصدر امر القائد العام الى قسم من جيشهِ باحتلال جهة المنصورة وهي من ضواحي المدينة والقسم الآخر بان يحتل تلال علي وعند ذاك رأوا الراية الحمراء فوق القلعة والنساء على سطوح المنازل تحض الرجال على الدفاع والاستقتال وكان ابن عيسى قائد العرب خارج المدينة واحمد بك قائدهم داخلها . وبين كانت العساكر تستعد لدخول المدينة من ناحية تلال علي اطلق العرب رصاصهم فقتلوا ضابطاً وبعض الجنود وهجم ابن عيسى من جانب آخر على الفرنساويين فقاتلهم قتالاً شديداً ولكنهُ نقهقر وعاد الى المدينة بعد عدة

ساعات فقرب الفرنساويون مدافعهم الى مسافة ٣٠٠ متر من باب القنطرة ودام القتال من تلك الجهة طول النهار . ونزل المطر مدراراً حتى اذا عادت الجنود الفرنسوية للمبيت وجدت المضارب بركاً واوحالاً . وعاود الفرنسويون اطلاق القنابل على المدينة في ٩ من الشهر المذكور وضموا مدافعهم كلها الى جهة واحدة هي جهة تلال علي بعد عناء شديد من نقلها في الوحل وظلوا على هذا الحال الى يوم ١٢ من الشهر المذكور حين جمع القائد العام كل قواتهِ في التلال المذكورة واراد التعجيل في فتح هذه المدينة فخطر لهُ ان يخابر اهلها وارسل اليهم جنديًا تركيًا بكتاب عربي فذهب الجندي وفوق رأسهِ العلم الابيض حتى اذا بلغ سور المدينة القوا اليهِ حبلاً وبلغ الكتاب ثم عاد في اليوم الثاني بجواب شفاهي معناهُ ان الاهالي عندهم ما يكفيهم من القوت والذخيرة وانهم عولوا على الدفاع الى الفناء فاعجب القائد العام بسالتهم ولكنهُ عوّل على مقاتلتهم الى الختام ثم خطر لهُ ان يمعن في الامور ويعيد معاينة المواقع قبل اعادة الهجوم العام فتقدم بمفردهِ وفي يدهِ منظار يعاين بهِ تلك المواقع وحذرهُ الجنرال روليه من هذه المخاطرة فلم يرتد حتى اطلقوا عليهِ قنبلة من السور اصابتهُ في تلك الحالة فخرَّ قتيلاً . وتولى القيادة مكانهُ الجنرال بيريجو رئيس اركان الحرب فما عتم ان بدأ القيادة حتى اصابتهُ رصاصة اودت بحياتهِ ايضاً فوقع الى جنب رئيسهِ ميتاً فاصاب الجيش الفرنسوي من فقد القائدين بلاء عظيم واسقط في يد الجنود وكادت احوالهم تتضعضع لولا وجود الدوك دي نمور معهم وهو امير عاقل هدأ روع الجنود في الحال وسلم القيادة للجنرال ڤاله فقام هذا القائد الجديد بمداومة الحرب وصوّب كل مدافعهِ على الباب الذي ذكرناهُ وكان احمد بك قد وضع وراءهُ اكياس الرمل فلم يفدهُ ذلك لان مدافع الفرنسويين ظلت تنسف السور وما وراءهُ حتى اخترقتهُ وفتحت باباً رأى الفرنسويين داخل المدينة منهُ وعند ذلك صدر امر القائد الى جنودهِ بدخول المدينة فدخلوها بعد ان قتل منهم عدد كبير على الباب وفي الطرق التي ساروا منها الى القلعة لان الطرق كانت ضيقة وقد تجمعت نساء العرب على سطوحها ترمي الفاتحين بالحجارة واللعنات واختبأ الرجال في الحوانيت ووراء الجدران وكان العرب يتصيدون الفرنسويين برصاصهم من شرفات المنازل واسطحة الجوامع والمآذن اثناء ذهابهم الى القلعة حتى اذا بلغ الفرنسويون القلعة التحموا واعداءهم بقتال شديد يهول وصفهُ فكان الفرنسويون يقاتلون بحرابهم والعرب بسيوفهم ونساء العرب بالخناجر والطبنجات فكان يوماً عصيباً وقتالاً شديداً عجيباً فيهِ تفانى الفريقان وعلت الصيحات ولاسيما من نساء العرب واشتد الهول فما حقنت الدماء وبطل البلاء الاّ حين دخل الفرنسويون قلعة المدينة واستولوا عليها ثم اداروا مدافعها

على المدينة فجعلوا يطلقونها على الاحياء ويفتكون باهلها الفتك الفريع · وكان القائد العام والدوك دي نمور قد دخلا قصر احمد بك بعد ان فرَّ الرجل منهُ فلما هدأَت الحال وبطل القتال طلبا قاضي المدينة وامراءُ ان ينشر في المدينة وجوامعها ان الفرنساويين لا يتعرضون للدين ولا لعوائد البلاد وان احتلالهم عائد على البلاد بالخير ففعل وكان هذا آخر حرب الفرنسيس لامتلاك مدينة قسنطينة

وبرح الجنرال ڤاله قسنطينة بعد ان ترك فيها حامية ونظم ادارتها الملكية والعسكرية وعاد الى عاصمة الجزائر في اواخر سنة ١٨٣٧ فلما بلغها علم ان عبد القادر اتحد مع احمد بك وان الاثنين هيجا القبائل لمعاودة العدوان وان القبائل المذكورة تقدمت على بلدة بليدا وهي تبعد ساعات قليلة عن العاصمة وسنذكر في باب السياحة وبعضها زحف على الثغور الكائنة في قبضة فرانسا · وارسل القائد جنوداً على الهاجمين فدارت رحى الحرب في اقليمي قسنطينه ووهران مدة عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ على غير جدوى حتى ثبت للقائد العام انهُ لا يمكن احتلال الجزائر نهائياً الا اذا قضي على الامير عبد القادر فارسل يقول ذلك لحكومتهِ وطلب منها ٧٠٠٠٠ جندي لهذا الغرض · وبين هو يعلل نفسهُ بنيل الحكومة العامة جزاء فتح قسنطينه واجابة سؤلهِ جاءهُ من وزير الحرب ان الجنرال بوجو الذي سبق ذكرهُ عين حاكماً وقائداً عاماً للجزائر وانهُ وضع تحت امرهِ ٧٥ الفاً من المشاة و ١٣٥٠٠ من الفرسان وانهُ كلف سحق عبدالقادر مهما كلف ذلك من العناء

وصل الحاكم العام بوجو عاصمة الجزائر في اوائل سنة ١٨٤٠ فبادر حال وصولهِ الى انذار القبائل بسوء العقبى من البقاء على العناد ودعاها الى تسليم سلاحها للدولة الفرنسوية واتبع ذلك بالزحف من وهران وقسنطينه والعاصمة معاً وكان الفريق الاكبر تحت قيادتهِ والكل مجدون في اثر عبدالقادر حتى اذا بلغوا الميديه علموا انهُ في الجبل ومعهُ ١٥ الفاً من الجنود المشاة وعشرة الاف من الفرسان فتأثروهُ وادركوهُ ودارت الحرب معهُ سجالاً فكسروهُ شر كسرة وحملوهُ على الفرار الى الصحراء وكان الجنرال لامورسير في اثناء ذلك قد قام بجيشهِ من وهران والتقى بمبارك البلقاني وهو مستشار عبدالقادر ونصيرهُ معهُ ٤٠٠ مقاتل فكسرهُ ايضاً واستولى على مالهِ وامتعة جيشهِ واكرههُ على الفرار ووزع المال والامتعة على القبائل الموالية ثم ان الجنرال بيريجو قائد اقليم قسنطينه التقى باحمد بك فقاتلهُ وهزمهُ شر هزيمة وكان ذلك آخر العهد بهذا الحاكم التركي فانهُ لم يسمع عنهُ شيء بعد هذه المعركة · وفوق هذا فان القبائل الموالية لفرانسا قاتلت القبائل المعادية لما وظهرت عليها فكان النصر

عاماً شاملاً ولكنهُ لم يعد بالمطلوب لان عبد القادر فرَّ بمعظم رجالهِ وعاد الجنرال بوجو الى عاصمة الجزائر ليستعد لحملة جديدة تقضي على خصمهِ حتى اذا كان عام ١٨٤٣ قام بقوة كبرى ومعهُ رؤساء القبائل الموالية يرشدونهُ الى محل العدو . وحدث ان بعض العرب كمنوا لهُ في الطريق واطلقوا عليهِ عدة رصاصات على حين غرة فقتلوا الجواد من تحتهِ واما هو فنجا وجدَّ رجال القبائل وراء هؤلاء الفاعلين فادركوهم وقتلوهم عن آخرهم . وارسل القائد العام طليعة يقودها الدوك دومال ابن الملك لويس فيليب رجالها ٦٠٠ فارس و ١٣٠٠ راجل ومعها المدافع الخفيفة ومؤونة ٣٠ يوماً تحملها ٨٠٠ جمل فالتقت هذه الطليعة بعبد القادر في اطراف الصحراء وقاتلتهُ قتالاً شديداً كثر فيها صراخ النساء وعويلهنَّ وعظم البلاء حتى فاز الفرنسيس وكانوا يظنون ان عبد القادر وقع في يدهم فاذا هو قد فرَّ مرة اخرى من وسطهم وقد رأيت صورة هذه المعركة في قصر فرسايل المشهور وكان لها تأثير عظيم في فرانسا وكان من نتائجها ان القبائل المتذبذبة اذعنت لفرانسا ولاسيما ان عدد الاسرى فيها من المغاربة بلغ ٣٠٠٠ تسعة اعشارهم نساء . ولما كان الدوك دومال قد اسرع في الهجوم فهو لم يترك وقتاً لعبد القادر حتى يفر بما معهُ ولكنهُ ترك اوراقهُ وخزينتهُ وامتعتهُ الثمينة والعَلَم الذي كان يرفع امامهُ وكثيراً من عدده وبغالهِ فكان كل هذا غنيمة عادت على الدوك دومال بالفخر العظيم . وقد قابلهُ القائد العام حين رجوعهِ ظافراً وحياهُ معانقاً لهُ وهنأهُ برتبة مارشال وهنأ الزعيم العربي مصطفى بن اسماعيل برتبة جنرال انعم بها ملك فرانسا عليهِ ولكن هذا الزعيم لم يهنأ بهذه الرتبة زماناً لانهُ قتلهُ العرب في كمين حين كان راجعاً بالغنائم الى وهران وعمرهُ يومئذٍ ٨٠ سنة

وعاد القائد العام والدوك دومال الى العاصمة فطلب نجدة جاءتهُ حتى صار عدد جيوشهِ اكثر من مئة الف جندي وكان عبد القادر قد ضاقت بهِ المسالك بعد هذه الكسرات حتى انهُ دخل بلاد مراكش ليطلب المعونة من اهلها ويحضهم على المجاهدة مع قومهِ فدخل مدينة وجده (وستذكر في باب السياحة) وارسل الى السلطان سيدي عبد الرحمن يعرض عليهِ ان يضم الجزائر الى املاكهِ ويجعلهُ عاملاً لهُ عليها فارسل السلطان في ٢٠ مايو من سنة ١٨٤٤ قائداً اسمهُ ابن الكناوي معهُ ٧٠٠٠ جندي انضموا الى عبد القادر ورجالهِ وهم ٥٠٠ فاسرع القائد العام من الجزائر لمقابلة هذه القوة ولكنهُ تحاشى الدخول في حرب مع سلطان مراكش حتى لا يتسع خرق القتال فارسل ياوراً لمقابلة القائد المراكشي ومخابرتهِ بالصلح وبهذا عين يوم ١٥ يونيو موعداً للمقابلة على ضفة جدول صغير اسمهُ اسلي . فلما جاء الموعد

ذهب الرجل ومعهُ حاكم تلمسان والقاضي والمفتي وبعض العلماء فما بدأ الحديث بين بوجو وابن الكناوي حتى تداخل الضباط المراكشيون وعلت اصواتهم وكثرت الجلبة حتى تعذر سماع الحديث بين القائدين ولكنهم سمعوا صوت البنادق ورأى القائد الفرنسوي ان العرب تحمسوا يريدون القتال ولم يقدر ابن الكناوي على ردهم فامر جنودهُ بالقتال وبهذا عادت الحرب وانجلت تلك المعركة عن فوز تام للفرنساويين وفرَّ المراكشيون الى بلادهم والفرنسويون وراءهم يضربون في ظهورهم حتى غابوا عن الانظار . ولكن هذا الانتصار لم يرجع المراكشيين عن الشر لانهم عادوا في اواخر السنة المذكورة تحت قيادة ولي عهد مراكش واسمهُ سيدي محمد عبد المؤمن وهم عشرة آلاف راجل وخمسة عشر الف فارس ومعهم ١١ مدفعاً وعسكروا على ضفة نهر اسلي . وكانت فرانسا قد ارسلت بوارجها الى طنجه تحت قيادة البرنس دي جوانفيل فلما بلغ ذلك الثغر ارسل الى سلطان مراكش يلومهُ على محاربة فرانسا بدون علة او انذار سابق وطلب منهُ عزل حاكم وجده وطرد الامير عبدالقادر من مراكش واعطاهُ مهلة ١٥ يوماً اذا انقضت ولم يجب سؤْلهُ اطلق المدافع على الثغر فورد عليهِ الرد من السلطان بان الاعتداء كان من القائد الفرنسوي ولم يشر الى بقية المطالب ولذلك اطلقت المدافع على ثغري طنجه ومداغور فاحدثت فيهما ضرراً كبيراً

قلنا ان جيش مراكش تحت قيادة ولي العهد عسكر على نهر اسلي وكان الجنرال بوجو يتقدم على هذه الجبهة ومعهُ ٨٥٠٠ من المشاة و ١٤٠٠ من الفرسان فلما بلغها نصح للقائد المراكشي ان يعود الى بلادهِ بلا قتال فلما ابى الرجل امر القائد بوجو جيشهُ بالهجوم ففعلوا وفتكوا بالمراكشيين وبددوا شملهم وجعلوهم يهربون طلباً للسلامة فكان هذا خاتمة القتال بين فرانسا ومراكش وعدل المراكشيون عن الانتصار للامير عبدالقادر وعظم قدر الجنرال بوجو بعد هذه المعركة فاعطي لقب دوك اسلي وعاد الى عاصمة الجزائر قرير العين كثير الافتخار

وتفرغ الجنرال بعد هذا لاخضاع القبائل المتمردة من اهل الجزائر مثل قبيلة اولاد رباع سيَّر عليها الكولونيل بليسيه فلما دخل ارضها فرت القبيلة من وجههِ الى كهوف قديمة العهد من ايام الرومانيين واعتصموا بها فحاول الكولونيل ان يخرجهم منها بالنصح فابوا وآثروا الموت في تلك الكهوف على التسليم حتى اذا نفدت حيلة الكولونيل امر رجالهُ ان يحيطوا المغائر باعشاب ويضرموا النار فيها على امل ان يخرج القوم متى احسوا بالنار ولكنهم اصروا على البقاء حتى هلكوا عن آخرهم هلاكاً شنيعاً وكان عدد الموتى لا يقل عن ٦٠٠ وكان ذلك في منتصف شهر يونيو من سنة ١٨٤٥ . وكان لهذه الحادثة اسوأ وقع في فرانسا لان نفوس اهلها نفرت

من هذه القسوة الوحشية وانكرت هذا الصنيع وهبَّ النواب والكتاب للتقريع والتنديد بكل لسان فقابلوا ما بين الاتراك الذين حكموا الجزائر بنفرٍ من المتطوعين ولم ينفقوا عليها شيئاً و بين فرانسا التي جردت عليها اكثر من مئة الف جندي منظم و بلغت نفقات حكومتها فيها مئة مليون فرنك كل سنة · وما زال تيار التنديد مندفعاً حتى استقال الجنرال بوجو من منصبهِ ارضاء للجمهور وذهب الى باريس ليدافع عن نفسهِ فبقي الجنرال لامورسيير حاكماً عاماً مكانهُ في ٢٤ اوغسطس من السنة المذكورة وكان عزل بوجو من احب الامور الى الامير عبد القادر لان الامير كان يخاف شر هذا القائد و يحسب اكبر حساب لتدبيرهِ في الحروب

ودخلت سنة ١٨٤٦ والجنود مشتبكة بالحرب مع اهل الجزائر في كل مكان والنصر غير معروف لاحد الجانبين · وحدث في هذه السنة ان شيخ قبيلة السواحلية اخبر القائد الفرنسوي في جهتهِ ان الامير عبد القادر دخل ارضهُ وكان الشيخ يضمر الشر للفرنساويين فلما سمع القائد الفرنسوي بالخبر ارسل في الحال ٣٥٠ جندياً وكلفهم القبض على الامير وكان معهم ٦٠ فارساً فلما بلغت هذه القوة موضعاً اسمهُ سيدي ابرهيم وجدت عبد القادر كامناً لها بقوة كبيرة ورأت ان العرب احاطوا بها فصاح القائد برجالهِ ان دافعوا عن انفسكم حتى الممات فقاتلت قتال الابطال وابت التسليم حتى هلكت عن آخرها تقريباً ولكنها استمرت على الجهاد اياماً وما نجا منها غير ١٤ رجلاً بلغوا المعسكر الفرنسوي بعد البلاء الشديد وقصوا قصة هذه المجزرة الشنعاء · و بلغت اخبار هذه الحادثة فرانسا فكثر تضجر الناس من استمرار البلاء والشقاء في الجزائر ومن كثرة اهوالها الشنيعة ووقعت الحكومة في حيص بيص لا تدري ماذا تفعل حتى انها ارسلت وراء الجنرال بوجو واسترضتهُ وعرضت عليهِ القيادة العامة من جديد فافرغ الجنرال جعبة حقدهِ على الوزراء الذين عزلوهُ وافاض في سوء حالة الجزائر من بعد عزلهِ مؤيداً قولهُ بكتاب ورد اليهِ من صديقهِ الجنرال لامورسيير الذي حلَّ محلهُ . ونشر هذا الكتاب في الصحف بلا اذن الوزارة فعدَّ فعلهُ خرقاً لقانون المخابرات الرسمية وجعل الناس يتحدثون بمحاكمة بوجو على هذه الفرية فاذا بالحكومة قد اعادت تعيينهُ ووضعت بارجة حربية في خدمتهِ تنقلهُ الى الجزائر فاطمأنت القلوب وعادت الآمال بالنصر لما كان لذلك القائد من الاحترام في نفوس الفرنساويين

وصل بوجو في اواخر سنة ١٨٤٦ فنشر اعلانات الشكر على جنودهِ واعلانات التحذير والارهاب على القبائل المعادية لفرانسا ثم قام في إثر عبد القادر بقوة كبرى فدخل اقليم وهران وجعل الامير يتقهقر امامهُ من موضع الى موضع وهو لا يلقى من اكثر القبائل الا صدوداً

واعراضاً . وجاء الدوك دومال من فرانسا في اوائل السنة التالية مصمماً على اسر عبد القادر او قتلهِ وانجاز هذه الحرب التي طال عهدها فهمَّ في اقتفاء اثارهِ وكان عبد القادر يلقى الملل من القبائل وخور العزائم فثبت لهُ ان البقاء على هذه الحالة محال ورأى بعد التفكير الطويل ان يسلم لفرانسا مختاراً ويخلص من العناء الذي قضى فيهِ كل تلك السنين وهي لا تقل عن عشرين . ثم انهُ قطع الامل من مساعدة انكلترا ومراكش وقبائل العرب فارسل يطلب مقابلة الجنرال لامورسيير وهو اقرب قواد فرانسا اليهِ ويخبرهُ بعزمهِ على التسليم فلما قابلهُ بادر بتسليم سيفهِ وختمهِ في الحال علامة الخضوع وزوال السلطة وطلب من القائد ان تعاملهُ فرانسا بالحسنى وان ترسلهُ الى الاسكندرية ليموت في ارض اسلامية وكان ذلك في اواخر سنة ١٨٤٧

وأخذ الامير عبد القادر اسيراً الى طولون في بارجة حربية فبقي فيها مدة مع حاشيتهِ في احدى القلاع وكان عدد من معهُ ٨٨ شخصاً ثم امرت حكومة فرانسا بتحسين حالهِ فنقلتهُ الى مدينة امبواز واعطتهُ قصراً لهُ حديقة كبرى وجعلت ضابطاً برتبة ميرالاي اسمهُ دوماس حارساً عليهِ فلزم غرفتهُ ولم يفارقها حتى ان حارسهُ قال لهُ مراراً ان يتمشى في الحديقة لاستنشاق الهواء مراعاة لصحتهِ ولكن عبد القادر كان يجيبهُ ان هذا الهواء ليس هواء الحرية . يروى ان وزير الحرب سأل الميرالاي دوماس ذات يوم ماذا يفعل عبد القادر كل يوم فاجاب انهُ يستيقظ الفجر من النوم فيصلي صلاة الفجر ثم الظهر ثم العصر والمغرب والعشاء وما بين اوقات الصلوة يقرأ القرآن . وحدث ان حكومة لويس فيليب انقلبت على عهد الثورة الفرنساوية الثانية سنة ١٨٤٨ في باريس وعبد القادر يومئذٍ في امبواز فاحزنهُ هذا الانقلاب لان الدوك دومال ابن اخي الملك كان قد وعدهُ بالنقل الى بلاد اسلامية . وحدث في السنة التالية ان رجالهُ اشتجروا مع الحرس اذ صمموا ان يخرجوا من امرهم بالقوة وهم يقولون للحراس ان سيدهم لم يؤخذ اسيراً بل سلَّم تسليماً وعليهِ طُلب الامير عبد القادر الى باريس ليقابل رئيس الجمهورية وهو لويس نابوليون الذي صار امبراطوراً بعد ذلك فذهب ولقي لطفاً واكراماً زائدين من ذلك الرئيس الذي عرض عليهِ قصر التريانون في فرسايل او الاقامة في بلاد شرقية فآثر الشرق ونال وعد الرئيس باجابة طلبهِ ثم خابر الدولة العلية في الامر فتمنعت في البداية وقبلت بعد مخابرة دامت سنتين ان يقيم الامير ومن معهُ في مدينة بورصه . ولما جاء هذا الرد اراد البرنس نابوليون ان يزف هذه البشرى للامير عبد القادر بنفسهِ فذهب الى قصرهِ والامير غير عالم بما تمَّ ولما اخبروهُ ان البرنس ينتظرهُ في قاعة الاستقبال خف اليهِ

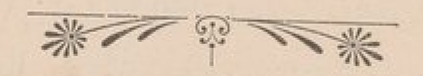
حالاً فوقف البرنس لهُ وعانقهُ ثم اعلنهُ بالخبر ففرح الامير كثيراً وشكر رئيس الجمهورية وودعهُ مراراً مردداً ايات الشكر ثم دخل الى حريمهِ ليبشر من معهُ بهذا الخبر المليح

وبعد هذا بايام قليلة تقابل الامير عبد القادر والبرنس نابوليون في الاوبرا الباريسية وكانوا قد اعدوا لهُ لوجاً واكتظ المكان بالكبراء والغادات ليروا هذا الامير العربي ويراهم فكانت الانظار كلها متجهة اليهِ مدة التمثيل ولما خرج بين الفصول ليقابل رئيس الجمهورية اصطف لهُ الناس على الجانبين وحياهُ الرجال برفع القبعات والسيدات باحناء الرأس فسرهُ هذا الاكرام لانهُ كان يخشى ان يعاملوهُ بغير ذلك بداعي ان اكثر العائلات فقد منها افراد في حرب الجزائر . وقابلهُ الرئيس هذه المرة ايضاً بالاكرام العظيم مصافحاً لهُ على الطريقة العربية بتقبل العارضين ثم وعدهُ بمقابلة رسمية بعد رجوعهِ من صيد كان قد استعدَّ لهُ فلما رجع ذهب عبد القادر الى قصرهِ في سان كلو فقوبل بالحفاوة الكبرى وحدث انهُ رأى في القصر ساعة كبيرة تدل على الوقت في كثير من المدن المشهورة وفي جملتها مكة فلما علم منها ان الساعة توافق ساعة العصر في مكة طلب ان يصلي ثم جعل ساعتهُ على حساب ساعة مكة ولما انتهى من ذلك قابل رئيس الجمهورية وقدم لهُ قصيدة من نظمهِ بالعربية لم اقف على نصها واهداهُ البرنس سيفاً مرصعة قبضتهُ بالجواهر قيمته ١٥٠٠٠ فرنك راجياً منهُ الا يستعملهُ في محاربة فرانسا . ثم رجع عبدالقادر الى امبواز واجتمع بوالدتهِ فبشرها بالانتقال الى بلاد اسلامية وكان الفرح عاماً في بيتهِ ذلك النهار . وحدث قبل مبارحة الامير الى بورصه ان لويس نابوليون اصبح امبراطوراً فحضر الامير عبدالقادر الاحتفال بتتويجهِ في قصر التويلري يوم ٢ دسمبر سنة ١٨٥٢ ومن غرائب الدهر انهُ في مثل هذا اليوم اعني في ٢ دسمبر سنة ١٨٣٢ نودي بالامير عبد القادر اميراً للعرب وذلك منذ ٢٠ سنة

وسافر الامير في اواخر سنة ١٨٥٢ الى الاستانة في باخرة حربية فرنسوية فلما بلغها ذهب للصلاة في احد الجوامع ثم قصد سفارة فرانسا وسأل السفير ان يبلغ شكرهُ لدولتهِ على ما اتت معهُ من الجميل ثم تشرف بمقابلة السلطان عبد المجيد وتوجه الى بورصة مع جماعة كثيرة من المغاربة تبعوهُ اليها حتى ان مرتبهُ اصبح قليلاً لا يكفيهِ . ولم يهنأ هذا الامير بعيشة بورصة لان اهلها يجهلون العربية ولم يحفلوا بهِ حتى قيل ان واليها لما سئل ان يرسل اليهِ عربة قال ما بال هذا العربي لا يركب جملاً . فطلب ان ينتقل الى دمشق الشام واذن لهُ بذلك بعد مخابرات بين فرانسا والباب العالي

وتاريخ عبد القادر في الشام معروف فانهُ طابت لهُ الاقامة فيها واحبَّ اهلها وعاشر

اكابرها واتى حسنة في سنة ١٨٦٠ يخلدها التاريخ لهُ الى آخر الدهر لانهُ حمى الوفا من الذبح حين ثار الاهالي على المسيحيين وعرفت الدول بمروءتهِ فاغدقت عليهِ نياشينها . وما زال يتقلب في نعم الشام وفضلهُ يتدفق على الوف من اللاجئين الى ساحتهِ حتى توفاهُ الله فيها في سنة ١٨٨٨ وكان لهُ يوم وفاتهِ عشرة بنين وست بنات وخمس زوجات . فاما البنون فهم الامير محمد باشا ومحيي الدين باشا وكلاهما في الاستانة الآن والامير هاشم توفي في الجزائر والامير احمد وهو في دمشق مع اخيهِ الامير عبدالله . والامير ابرهيم توفي في دمشق . وعلي باشا وهو الآن عضو مجلس الادارة في ولاية سورية وصهر دولة عزت باشا العابد والامير عمر وهو ايضاً في دمشق . والامير عبدالملك في الاستانة . والامير عبد الرازق في دمشق



من مرسيليا الى جزاير الغرب

ان السفر الى الجزائر ممكن من مرسيليا الى عاصمة ذلك القطر على اقرب الطرق ولكنني اخترت الذهاب منها الى وهران اولاً لما ان وهران هذه واقعة على مقربة من مدينة تلمسان عند حدود مراكش لكي ادخل مراكش منها . وعليهِ ركبت باخرة من سفن شركة ترانساتلانتيك الفرنسوية وكان في جملة ركابها عدد يذكر من الاسبانيين ذاهبين الى وهران ليسافروا منها الى قرطجنه وهي مدينة اسبانية على شطوط اسبانيا الجنوبية تبعد عن وهران نحو ٤ ساعات ومنها يتقدم المسافرون الى داخلية اسبانيا وكان سير الباخرة الى الغرب وقد قام على يمين وجهتها قلعة ديف والى اليسار صخور رملية كأنها الرايات . وبعد ان غابت مرسيليا عن الانظار وسارت الباخرة في عرض البحر بقينا يوماً على هذه الحالة حتى ظهرت لنا في الغد جزائر باليار فجعلت الباخرة تسير امامها وهي من املاك اسبانيا مساحتها ٥٠١٤ ميلا مربعاً وقاعدتها ماجوركا وعدد اهلها ٣١٢٦٥٥ نفساً . وحدث ان بعض آلات الباخرة تعطل عند هذه الجزر فتعطل سيرها نحو ساعة ريثما اصلحت واضطرب الركاب ولا سيما النساء منهم فما هدأ الروع الا بعد ان علموا حقيقة الحال ولكن القوم عادوا الى الاضطراب في الليل بسبب هياج البحر وتعالي امواجهِ . ولما كان صباح اليوم الثالث اطلت الباخرة على شطوط وهران فرأينا جبل موجاجو وعلى قمتهِ قلعة سانتا كروز بناها ماركيز اسباني بهذا الاسم سنة ١٧٠٨ ولما بطلت اهميتها بنى الفرنسويون قلعة جديدة على الجبل المذكور . وقد اخبرني احد ضباط الباخرة انهُ يمكن للمرء ان يرى بعض ثغور اسبانيا مثل قرطجنه والميرية من هذا الجبل حين يكون الجو صافياً . ولما القت الباخرة مرساها في مرسى وهران كان قد مرَّ علينا

٤٠ ساعة في السفر من مرسيليا . وتأملنا المدينة عند ذلك فاذا نصفها مبني على الجبل المذكور وهو اجرد اقرع لا خضرة فيهِ ولا نبت والنصف الآخر في لحف ذلك الجبل فلا بد من السير صعداً والدوران المألوف للذي يريد الذهاب من المينا الى البلد ولهذا ركبنا عربة من الفندق تجرها اربعة افراس وجملت تسير بنا الهوينا وهي تتقدم صعداً بسير رويد مرة تنثني الى الشمال ومرة الى اليمين ولحظت ان عربات العفش تجرها ٦ افراس ولو قلت احمالها بالنظر الى صعوبة السير في هذه الطرق . ولما بلغت الفندق ارسلت نظري الى البحر فاذا الباخرة التي جئت بها راسية في منخفض كأنهُ وادٍ عميق

وهران

في هذه المدينة حوالي ٧٢٧٣٨ نفساً من السكان منهم نحو ٣٦ الفاً من المسلمين و ٢٤ الفاً من الفرنسويين و ٨ آلاف من اليهود والبقية خليط من الاجانب الشرقيين والغربيين . وهي قاعدة اقليم وهران فيها الدوائر الادارية والعسكرية وتعرف عند الفرنساويين باسم اوران ولعلَّ اسمها محرف عن (خوران) لانها كانت في الاصل مبنية بين خورين تجري المياه فيهما مدة الشتاء

ولا بد من القول هنا ان وصف مدائن الجزائر لا يتضمن ذكر العمائر الفخيمة والمشاهد العظيمة والمتنزهات البديعة كالتي ورد ذكرها في مدن اوروبا واميركا ولكن المزية هنا في اختلاف العناصر واجناس البشر مما يقل نظيرهُ وفي قيام المدن الداخلية على قمم الجبال يختلف علوها ما بين ٦٠٠ متر و ٧٠٠ ومن حولها الاودية المتسعة كثيرة الزرع والغرس ولكل من هذه المدن اسوار عالية يراد منها الدفاع ساعة اللزوم . مثل وهران هذه لها سور يحيط بها وارتفاعهُ ٥

امتار وقد جعلوا لهُ ٤ ابواب في جهات الارض الاربع فلا بد من المرور في احد هذه الابواب لداخل البلدة . والناس هنا تعرف اجناسهم من اختلاف ملابسهم فالمسلم يلبس الطربوش المغربي الكبير ولهُ زر (شرابة) طويل يبلغ الاكتاف تقريباً فاذا لم يكن لطربوشهِ زر لف عليهِ عمامة بسيطة او مجدولة كالحبل من شعر الجمال . ولهُ صديري صدري بازرار وحزام احمر عريض وسراويل فوق سراويل قصيرة الى عند الركبة ومن تحتها جوارب بيضاء صنع اليد وحذاء اصفر مكشوف . ونساء المسلمين يبالغنَ في التحجب والتستر تلتفُّ الواحدة منهنَّ بحرام من الصوف فلا يظهر منها غير احدى العينين ولم التقِ مدة وجودي الاَّ بامرأة واحدة لان المرأة المسلمة لا تخرج من منزلها واذا ما دخلت بيت زوجها بقيت فيهِ الى يوم الممات ولم تتعرف بجاراتها من النساء وفي ذلك مبالغة في الحجاب قليل مثلها في بقية الاقطار . واما اليهود من اهل هذه المدينة فلبسهم يعرف بالعمامة البيضاء او السوداء والسراويل فوقها القفطان وبعضهم يلبس الطربوش المغربي فوق الملابس الافرنجية . ونساء اليهود يلبسنَ الفساطين البسيطة ومن فوقها شال وعلى الراس منديل . ولليهود قوة سائدة هنا حتى ان يوم السبت يعد بمثابة العيد في المدينة يقفل فيهِ قسم كبير من المخازن والحوانيت وتجلس نساء اليهود امام البيوت بالملابس المقصبة والحريرية وبانواع الحلى

ويكثر العنصر الاسباني في وهران واقليمها لان اسبانيا استولت عليها نحو ٢٥٠ سنة . واما الآن فان المنظر الاهم فيها لجنود فرنسا لانها الدولة المالكة وجيشها شهرة في نظامهِ وهندامهِ . والفيلق الفرنسوي المعسكر في الجزائر يعد طليعة الجيش في كل حرب تقع لدولتهِ في الشرق مثل مدغسكر او الصين ذلك لان هذه الجنود

لها قدرة على احتمال الحر ومتاعب السفر ولها شهرة بالبسالة تضرب بها الامثال

وتقسم وهران احياء عديدة يربط بعضها ببعض خطوط ترامواي متصلة الى جميع الاطراف ومركزها العمومي موضع يعرف باسم ميدان السلاح هو احسن نقطة في المدينة وقد جعلوهُ في وسطها مستديراً متوسط الاتساع وفيهِ اشجار من العناب والنخل والخروب تنمو مع المعالجة الدائمة لان الارض صخرية والماء قليل . وفي طرف هذا الميدان بناء الحكومة فيهِ المصالح الاميرية وقلم الجوازات وقلم المواليد والوفيات وقد وضعوا عند مدخل هذا البناء اسدين كبيرين من الرخام الابيض . ارتقيت الدور الاعلى من هذا البناء على سلم من الرخام الابيض والاصفر كالموجود في جامع قلعة مصر واصله من مديرية بني سويف كما ان اصل هذا السلم في بناء وهران من مقلع الى جانبها . وفي الطرف الآخر من هذا الميدان نادٍ للضباط لا يدخلهُ سواهم وقد بني داخل حديقة صغيرة تصدح الموسيقى العسكرية فيها كل يوم بعد الظهر وقد تقام فيهِ حفلات يدعى اليها الاعيان والوجوه . وفي وسط الميدان تمثال سيدي ابرهيم يمثل حادثة تاريخية هي انهُ لما كانت الحرب سجالاً بين الفرنسويين والامير عبد القادر صاحب الجزائر في سنة ١٨٤٥ احاطت جنود الامير على كثرتها بشرذمةٍ من رجال الفرنسيس فصاح القائد الفرنسوي برجالهِ ألا يسلموا وان يدافعوا حتى الممات فقتلوا عن آخرهم ابطالاً مجاهدين ونصب هذا التمثال في سنة ١٨٩٨ لاحياء ذكرهم كما ذكرت في فصل التاريخ . والاثر عمود من الرخام في اعلاهُ تمثال غادة حسناء تمثل فرانسا وفي يدها قلم كتب على العمود بحروف الذهب هذه العبارة (دافعوا حتى الممات)

وفي هذا الميدان محطة الترامواي العمومية ومنهُ تتفرع احسن شوارع المدينة بدأت الفرجة باحسنها وهو شارع سيجين على اسم احد القواد الفرنسويين يشبه

شارع الموسكي في مصر بحركتهِ التجارية المهمة وكثرة المختلفين اليهِ من وكلاء
المعامل الاوروبية ولاسيما معامل المانيا يعرضون مصنوعاتها على التجار الاجانب
والوطنيين ويشترون منهم انواع الجلد والصوف والشمع · ولما انتهيت الى آخر
هذا الشارع سلكت شارعاً آخر ينتهي الى ضاحية باسم غامبتا وفيهِ تمثال السياسي
الشهير المعروف بهذا الاسم كتب على قاعدتهِ انهُ تذكار من اهل وطنهِ العارفين
فضلهُ · وهنالك حانات يختلف اليها جماهير الناس وهي تشرف على الوادي
الكائن تحت المدينة . وسرت ايضاً ذلك النهار في شارع سفاستوبول فانتهيت
منهُ الى قرية المغاربة واسمها عند الفرنسويين قرية العرب رأيت الاولاد يلعبون
في طرقاتها والرجال جالسين امام الابواب · والقرية واطئة الموقع ولكنها نظيفة
قد لا يخلو منزل فيها من شجرة تين او عناب امامهُ طلباً للظل وفراراً من اشعة
الشمس الكاوية . واماما قرية العبيد اذا دخلها المرء حسب نفسهُ في داخلية
السودان · وعلى مقربة من ميدان السلاح جامع الباشا بناهُ محمد باشا حاكم وهران
سنة ١٧٩١ وتهدم على ممر الايام فذهب وفد من اهالي المدينة الى باريس يرجو
الامبراطور نابوليون الثالث بترميمهِ على نفقتهِ فاذن وكتبوا على بابهِ هذه العبارة
(ان نابوليون الثالث امر بترميم هذا الجامع سنة ١٨٥٧) قرأتها ودخلت الجامع
فوجدت فيهِ اروقة ملبسة بالقيشاني الازرق وفيها مدرسة للصبيان . وفي داخل
الجامع مغاربة التفوا بالاحرمة بعضهم في صلاتهِ والبعض نائم . وقد دعاني شيخ
هذا الجامع للصعود معهُ الى الصومعة او هي المأذنة ففعلت ورأيت البلدة بكل
ضواحيها من ذلك المكان

وزرت بعد ذلك الاحياء السفلى من المدينة يسمونها بذلك تمييزاً لها عن
الاحياء العليا · وهذه الاحياء مثل بلد قائم بنفسهِ سرت في شارع كليبر منها

وشارع ملاكوف وشارع الجمهورية وكلها اسماء فرنسوية حلت محل الاسماء العربية القديمة حسب عادة الفرنسويين في املاكهم . وقد زرعوا بعض الشجر في هذه الاحياء السفلى فنمت فيها خلافاً للاحياء العليا . ويتصل بها متنزه يبتدىء من رأس المدينة اسمهُ لتانج على اسم قائد فرنسوي تفرد في حرب الجزائر ثم صار حاكماً لاقليم وهران . ويمتد هذا المتنزه الى الاحياء السفلى متعوجاً ملتفاً فيرى السائر فيهِ البحر ونهر الرحى سمي بهذا لان الرحى او المطاحن اقيمت عليهِ في ايام العرب وكانوا يديرونهُ بضغط الماء . وقد غرسوا في الصف الايسر من هذا المتنزه اشجاراً من الرمان والتين والزيتون

ويقال على الجملة ان هواء وهران على غاية الجودة وهو ناشف خالٍ من الرطوبة . وقد زرت مدة اقامتي فيها عدة اماكن غير التي ذكرتها ولكنها لا تهم القراء وتركتها بعد ذلك قاصداً تلمسان وهي على بعد ١٦٥ كيلو متراً يجتازها القطار في ٥ ساعات . وكان اول هذه المسافة سهلاً فسيحاً لا ترى العين آخرهُ زرعت فيهِ الحبوب والكروم واشجار التين والزيتون وكثرت فيهِ القناطر الحديدية فوق جداول الانهر وفيهِ عدة ينابيع يتفجر الماء من ارضها وتروى بمائها المزارع والاغراس . وظللنا على هذه الحالة حتى بلغنا بلدة ابي العباس وهي في منتصف الطريق اسمها بلسان المغاربة بلعباس وتعد مركز قبيلة بني عامر التي اشتهرت بالحرب تحت قيادة الامير عبد القادر ولذلك رأت حكومة فرانسا في سنة ١٨٥٠ ان تجعلها من مراكز الجيش الفرنساوي فهي اليوم مدينة فرنسوية محضة فيها مياه كثيرة من نهر مخاره وارضها خصبة طيبة فلا يقل سكانها الآن عن ٢٧٠٠٠ نفس . ووقف القطار في هذه المحطة نصف ساعة انتهزت فرصتها وركبت عربة دارت بي في الطرق والشوارع فالفيتها نظيفة زرعت اشجار الدلب

الى جانبيها مثل شوارع مرسيليا ولها تياترو يأتون لهُ بجوق فرنساوي كل سنة وفيها سوق على شاكلة اسواق المدن الاوروبية . وعدت الى القطار في موعد قيامهِ فعاد بنا الى المسير في وادٍ بين جبلين وفيهِ نهر تليتات مثل كل انهر هذه البلاد او بلاد الشام وهي جداول قليلة المقدار

تلمسان

واما تلمسان فانها من اجل مدن الجزائر الداخلية وجدت في بقعة من الارض تكثر فيها ينابيع الماء فهي ملأى بالحدائق والبساتين تزرع فيها كل اشجار فرانسا واثمارها ولمنظرها عامة رونق وبهاء . يبلغ عدد سكانها الآن حوالي ٣٥٠٠٠ منهم ٣٥٠٠ فرنساويون و ٤٥٠٠ يهود والبقية من الاهالي . وقد بنيت على جبل ارتفاعهُ الف متر ومن حولهِ الاودية مرصعة بالقرى تحكي مناظر جبل لبنان . وفي المدينة وضواحيها مواضع ومتنزهات كثيرة تستحق الذكر مثل غاب بولونيا والشلال وبلدة سيدي ابي مدوين وجامعها المشهور ومدينة المنصورة بنيت سنة ٥٣٠ هجرية (١١٤٥ مسيحية) وبداخلها قلعة يسمونها قصر المشورة لان العرب كانوا يعقدون المجالس فيها للمشاورة وقد دخلناها من باب عالٍ متسع فوقهُ ساعة فلكية من الساعات العربية القديمة كان لها شهرة مثل ساعة ستراسبرج في هذه الايام ولكنها تخربت من طول الزمان . وقد جعلوا هذا الموضع الآن مركزاً للادارة العسكرية الفرنسوية وبنوا فيهِ ابنية كثيرة على النسق الاوروبي . ولهذه القلعة ساحة داخلية طولها ٥٠٠ متر وعرضها ٣٠٠ ولها سور سمكه ٣ امتار تقريباً . ومما يروى عن محاسن هذا القصر في ايام العرب ان يوسف ابن تاشفين امر بان توضع في ساحتهِ شجرة من الفضة وفيها الطيور على اشكالها من الفضة ايضاً وانها تحرك وتخرج

اصواتاً كلما هبّ عليها الهواء

وسرت في شارع فرانسا من شوارع هذه المدينة ما بين ابنية ذات دور واحد وصفوف من الحوانيت تباع بها السلع الافرنجية والعربية وفيها القهاوي بعضها للفرنساويين والبعض للعرب وهم يجلسون فيها على مقاعد من الجريد ويشربون القهوة من فناجين كبيرة من غير ظرف والاولاد امامهم يلعبون او يمرنون الكلاب على النباح وبعض الاولاد يلبس العباءة البيضاء او اللبدة او المركوب الاصفر وبعضهم حفاة او عراة وقد لحظت انهم ذوو شدة وعناد لا يسمعون كلام الرجال الذين ينتهرونهم ويردونهم عن الصياح . ورأيت بعض المراكشيين الذين يأتون هذه المدينة يستغربون نور الغاز واعمدتهُ فيتسلقها بعضهم ويضعون يدهم على النور ليروا اذا كان من نار تحرق او لا . وفي طرف هذا الشارع ميدان الجمهورية اذنت الحكومة للاهالي ان يبيعوا فيهِ السلع والخضر والفواكه فهم يبسطونها في ارضهِ مدة النهار ويغسلون الارض عند الغروب ثم ينصرفون . وعلى مقربة من هذا الميدان متحف دخلتهُ فرأيت فيهِ كثيراً من الآثار العربية وجد اكثرها في جوار هذه المدينة وفي جملة ذلك الذراع الذي قرر طولهُ يوسف بن تاشفين ما زال يعرف باسم ذراع الملك وهو قياس الناس في اعمالهم يرجعون اليهِ منعاً للغبن والذراع المذكور من زجاج فرض عليهِ النصف والثلث والربع وبقية الاجزاء وجدهُ ضابط فرنسوي في قيصرية (سوق) تلمسان فنقل الى هذا المتحف وعلق فيهِ داخل غطاء من البلور فيراهُ الراؤُون ولا يمسونهُ وهو من الآثار النفيسة حتى ان فرانسا فكرت حيناً في نقله الى اللوفر في باريس ولكنها عادت وابقتهُ في موضعهِ الحالي

وفي المتحف المذكور حجارة على شكل القنابل صنعت من الرخام الابيض

والازرق طول الواحد منها متر وعرضهُ نصف متر ووزنهُ من ١٠٠ كيلو الى ١٣٠ ومنظرها يقرب من منظر قوالب السكر او قنابل المدافع في المدرعات الحربية وبعضها كرات مستديرة وكلها من الرخام كانت تلقى على الاعداء في زمان الحصار . وهناك كثير من حجارة القبور او هي التي تكتب عليها اسماء المتوفين وتاريخ وفاتهم منها حجر كتب عليهِ اسم ابي عبد الله سنة ٧٦٠ ورأيت هنا مدفعاً من الرخام الابيض يحشى بالبارود فيهِ من ثقب في طرفهِ واظنهُ نادر المثال لان المدافع لا تصنع من الرخام . وتجاه هذا المتحف الجامع الكبير وهو بقية ما بقي من ٦١ جامعاً كانت في تلمسان دليل ما كان لها من الاهمية السابقة وبناء هذا الجامع متين كغيره من جوامع هذه البلاد فربما بقي قروناً أُخرى بعد الآن . وسقفهُ واطيء كغيره في بلاد المغاربة وهم لا يبنون الجوامع الشاهقة كالتي نعرفها في مصر وبلاد الدولة العلية وقل ان يزيد ارتفاع جوامعهم عن ٢٥ متراً او ٣٠ . والجامع الذي نحن بصددهِ قائم على ١٣ قنطرة وهي قائمة على ٧٢ عموداً مستدقاً من الرخام ولهُ ثمانية ابواب وسقفهُ من خشب السنديان طلي باللون الاسود وقناطرهُ كلها مطلية بالجير الابيض الناصع . وليس يخلو الجامع من بعض المصلين في كل حين ولكنهُ يكثر اجتماع الناس فيهِ للتحدث بشؤُونهم العمومية وهم يقعدون على شكل دائرة ويتكلمون بصوت خافت وعليهم ادلة الوقار والخشوع وهم لا يأنفون من دخول الزائرين جامعهم اذ كانوا من غير المسلمين . واما مآذن هذه البلاد فانها تختلف عن المآذن العالية المستدقة التي نعهدها هنا بل ان اكثرها واسع قليل الارتفاع يستريح المرء في صعودهِ وقد صعدت مأْذنة هذا الجامع فاشرفت منها عَلَى المدينة كلها وهي عادة لي اينما كنت ارتقي هذه المرتفعات حتى أرى المدن بشكلها التام وانصح لكل سائح ان يتبع هذه الخطة لانها تفيدهُ في رؤْية المناظر

أينما كان

﴿ المنصورة ﴾ وعزمت في هذا النهار على زيارة ضواحي تلمسان الجميلة فركبت عربة بلغت بها المنصورة في نصف ساعة تقريباً وهي بلدة بناها ابو يعقوب سنة ٧٠٢ هجرية اي سنة ١٣٠٢ مسيحية وغزاها من بعده فريق من العرب فهدموها عن آخرها . وقد كانت المنصورة في ايام عزها كثيرة القصور واسعة التجارة مع الاقطار العربية المجاورة ولكنني ما رأيت منها حين وصولي اليها غير سورها العالي طولهُ ٤٠٠ متر وقد تخرب اكثرهُ الآن وبقيت آثار ابراجه القديمة التي كانوا يحاربون الاعداء منها . ومن موجبات الاسف ان آثار المدينة لم تحفظ كما يفعل القوم المتمدنون في بقايا مدنهم القديمة لان ارضها صارت كروماً للعنب وما ابقوا منها غير الجامع وساحتهُ وبركة الوضوء . والجامع لم يبقَ منهُ غير باب كبير عني الفرنساويون بحفظهِ فاقاموا حولهُ سياجاً من قضبان الحديد وهو يشبه باب جامع السلطان حسن في مصر . وفي هذه الجهة تربة سيدي محمد السنوسي فانهُ توفي هنا سنة ٨٥٩ هجرية (١٤٨٩ مسيحية) وقد دهنوا القسم الواطيء من القبة بالجير الابيض والقسم الاعلى مدهون بالاخضر وفي داخل القبة طبول واعلام خضراء وحمراء عليها آيات وعبارات دينية . وبين انا راجع من طريق غير الذي جئت بهِ رأيت حياً جميل الشوارع كثير الحدائق والاغراس والناس فيهِ من الاوروبيين فعلمت انهم نحو ١٠٠ عائلة من الفرنساويين نزحوا من بلاد الالزاس حين استولت المانيا عليها بعد حرب ١٨٧٠ وقد اعطتهم الحكومة هذه الارض فزرعوها وعمروها وهم يستخرجون الخمر من كرومها ويبيعونهُ لمعامل بوردو . وقد بقيت سائراً في العربة حتى دخلت حرجة دعيت باسم غاب بولون المشهور في باريس فيهـا شجر الصنوبر مرَّت عليهِ القرون حتى علت فروعها وتشبكت

اغصانها فاصبحت قوساً يسير من تحتهِ المتنزهون اما في العربات او الدراجات او على الخيل واكثرهم من الضباط الفرنسويين يمتطون الجياد العربية الكريمة وقد اعتنوا بامر الحدائق في هذه الجهة وجاؤُا ببذور الاثمار من فرانسا مثل الخوخ والكمثرى وغيرهما فنمت في ارض الجزائر نمواً عظيماً

﴿ابو مدوين﴾ يقول لها الاهالي بومدوين وهي مدينة تستحق الذكر في الضواحي بلغتها بالعربة بعد مسير نصف ساعة فاذا بها بنيت على اكمة وطليت كل بيوتها بالجير الابيض ومن حولها صفوف الرمان والزيتون والعناب والتين فمنظرها عن بعد جميل شهي . وقد سميت المدينة باسم سيدي ابو مدوين وهو عالم ولد في اشبيلية من مدن الاندلس سنة ٥٢٠ هجرية (١١٢٦) وتلقى دروسهُ في مدرستها الكبرى ثم جعل يلقي الخطب فيها وفي قرطبة حتى انتقل الى فاس عاصمة مراكش فلما علم بهِ المنصور سلطان تلمسان وسمع بكراماتهِ ارسل يدعوهُ اليهِ فلبى الدعوة ولكنهُ توفي في الطريق ودفن في هذه الجهة فسميت باسمهِ وبني لهُ فيها ضريح قامت المدينة من حولهِ . ولما قام السلطان محمد الناصر خليفة المنصور بنى لهُ جامعاً عظيماً حوى شيئاً كثيراً من دقائق الصناعة العربية وهو الآن من مشاهد الشرق المعدودة يأذنون بالدخول اليهِ مرتين في الاسبوع لغير المسلمين ولا بد من امر خصوصي في بقية الايام من ضابط فرنسوي قابلتهُ حين كنت هنالك واستأذنتهُ في دخول الجامع فامر كاتبهُ ان يحرر لي الاذن والكاتب مغربي متعمم يلبس المركوب الاحمر والجبة ويعرف لغة الفرنسيس فكتب لي الامر بالعربية وسرت بهِ حتى اذا ناولتهُ لشيخ الجامع وعرف اني قادم من مصر وهي طريق الحجاز تنهد وقال لي ان منيتهُ الكبرى ان يتمكن من اداء فريضة الحج قبل وفاتهِ . وحدقت بباب هذا الجامع قبل ان ادخلهُ فاذا هو من الابنوس مصفح بصفائح من النحاس

المذهب وعليها كتابات دينية ولهُ حلقات ومطرقة من هذا النحاس المذهب ايضاً فذكرني ذلك بكنيسة مار مرقص في فنسيا وبابها · وقد قام هذا الجامع على اربعة قناطر في طوله واربعة في العرض وللقناطر عمد مستدقة من الرخام ملئت بالنقوش الدقيقة البديعة كأنها شغل الابرة او حفر اهل الصين على العاج وكل عمود تختلف نقوشهُ عما في العمود الآخر . وجدران الجامع منقوشة على هذا الشكل ايضاً ذكرتني بنقوش السراي الحمراء في غرناطه وذكرها مشهور . والسقف عروق من خشب الابنوس ممتدة من قنطرة الى قنطرة تحكي سقف ديوان الاوقاف في مصر . والمحراب قائم على عمودين مستدقين من الرخام وقد نال هذا الجامع شهرة عظيمة في اوروبا حتى انهم يرسلون اليهِ الوفود حيناً بعد حين لتنقل رسومهُ العربية دليل اعتبارهم لصناعة العرب وقد رأيت فيهِ اميركياً يفعل ذلك وعلمت انهُ جاء من قبل متحف نيويورك لينقل رسوم هذا الجامع الى ذلك المتحف النفيس

واما ضريح سيدي ابي مدوين فانهُ الى جانب الجامع نزلت اليهِ بعض درجات فاذا الارض مبلطة بالرخام الابيض والقبر مغطى بالحرير الاحمر المزركش بالذهب وحولهُ حاجز من نوع المشربية وفوقهُ سراج لا يطفأ نورهُ في الليل او في النهار واعلام مختلفة الالوان كتبت عليها الآيات الدينية . ولا يخلو هذا الضريح من الزائرين والذين يقدمون النذور من رجال هذه الجهة ونسائها وبعضهم يعود ومعهُ شيء من ماء البئر المجاورة للضريح على زعم انها تشفي من السقام · ورأيت هنالك نساء تصلي وقد التفت كل منهنَّ بحرام ومنظرهنَّ غريب فما هنَّ الاَّ احرمة تتحرك وعلمت من شيخ الجامع ان الصلاة فيهِ جائزة للعجائز واما الفتيات فانهنَّ يصلينَ في البيوت . وللجامع اوقاف كثيرة كانت مهملة قليله الريع فلما جاء الفرنسويون تولوا ادارة هذه الاوقاف واجروها للاهالي وجعلوا ينفقون على خدمة

الجامع ومدرسته من ايراد المجلس البلدي

✻ الشلال ✻ ومن متنزهات تلمسان الشلال يبعد نحو نصف ساعة ايضاً بالعربة وقد رأيت الماء فيه يخرج من صخور مرتفعة حمراء وينصب في بحيرة يجري بعد ذلك منها ويروي الاراضي . وفي هذا المكان كثير من الحانات والملاهي بعضها للاهالي والبعض للاوروبيين . ورأيت اولاداً من المغاربة واقفين على هذه المرتفعات حيث ينحدر الماء وهم ينتظرون اشارة الناس بالسقوط الى البحيرة طلباً للبخشيش وكنت اظن ذلك محالاً بالنظر الى علو المكان عن الماء ولكنني ما لبثت ان رأيتهم يفعلون ذلك ويهوون ارجلهم الى الاسفل ثم يسبحون الى البر . وبعض المغاربة هنا يلبسون نوعاً من القبعات الكبيرة من القش فوق ملابسهم المغربية ويقولون انها مظلة للوقاية من الشمس والحر بدل المظلات الافرنجية

مراكش

لا بدَّ لي من الاشارة في خلال هذا الفصل الى سلطنة مراكش او المغرب الاقصى وقد تقدم لي القول ان مدينة تلمسان التي كنت في شأنها واقعة على الحدود بين الجزائر ومراكش وليس بين القطرين اتصال بسكك الحديد ولكنهم عندهم عربات ثقيلة تجرها الخيل والسفر فيها عسير . هذا غير ان المواضع التي يمكن الوصول اليها من الجزائر قليلة وهي خالية من الفنادق للمسافرين والامن فيها غير مضمون حتى ان القوم يسلبون القادمين الى بلادهم من الجزائر في كثير من الاحيان فتتأثرهم الجنود الفرنسوية الى ما وراء الحدود وتقبض عليهم في ارض مراكش وتعيدهم بما سلبوا الى تلمسان للمحاكمة فيها . وقد ذهبت الى مدينة وجده من مدن مراكش وهي التي حدثت فيها معركة مدة حرب الفرنساويين مع الامير عبد القادر

الجزائري فان اهل مراكش قصدوا نجدة الجزائريين فلاقاهم الجنرال بوجو وحاربهم عند وجده فكسرهم شر كسرة. وقد سارت بنا العربة الى وجده في سهل كثر عثيره واتسع نطاقه يلزم لاجتيازهِ ايام واسابيع وارضهُ حمراء تزرع قمحاً وشعيراً وتروى من الامطار. وبصرت من بعيد بمرتفعات لم اعلم ما هي فقيل لي انها سرب من الجمال تعد بالالوف وقد عودوها ان ترعى في تلك المرابع بلا راعٍ ثم تعود الى القرى من نفسها في آخر النهار. وغاية ما يقال في وجده انها صغيرة حقيرة وان حالتها مثل حالة كل المدن المراكشية فمنازلها واطئة ليس لها الاَّ دور واحد وطرقها ضيقة قذرة ولسان اهلها عربي مراكشي لا يفهمهُ العربي من الاقطار الاخرى وهم يلتفون بجلاليب الصوف فوق قمصان وملابس من القطن وحالتهم العمومية تدل على الانحطاط. ولما رأيت ان التوغل في مراكش اكثر مما فعلت غير ممكن عدت الى مدينة تلمسان عملاً بنصيحة صاحب الفندق

وعلمت بعرسٍ في تلمسان عند رجوعي فذهبت اليهِ مع ترجمان الفندق لارى عوائد القوم في الافراح فرأيت ان العريس ذهب الى الحمام واستأجرهُ في ذلك اليوم لهُ ولاصحابهِ لا يدخلهُ سواهم ثم سار من الحمام الى الجامع حيث كان المدعوون واسمهم في الجزائر المعرسين فسرت في الموكب وكان في اولها المشاعل ومن ورائها ستة يزمرون بالمزمار ورجل ينقر على الطبل وانغامهم شجية تروق للآذان ويلي الموسيقى الشمعدان وهو عصاً ثخينة يحملها اثنان من طرفيها ولها ثقوب تقرب من الاربعين عداً وفي كل منها شمعة. ووراء الشمعدان العريس على فرسٍ مسرج بسرج مقصب ولهُ شراريب من القصب ولجامهُ من حرير مقصب ايضاً. ويحيط بالعريس اقاربه واصحابه ووراءهم جوقة موسيقى فيها قانون وعودان وكمنجه وقيثار وهم يضربون عليها بلا غناء. وكانوا كلما بلغوا بيت احد الوجهاء

يعزفون نغماً للرقص فيبدأ حصان العريس بالرقص اي انهُ يرفع يديهِ ويقف على رجليهِ ويشير برأسهِ ذات اليمين وذات اليسار علامة السلام ثم طأطأ رأسهُ الى الارض وقبلها علامة السلام. واستمر الموكب على هذه الحالة حتى بلغ بيت العريس فترجل الرجل وسار الى غرفتهِ والاصحاب من حولهِ يلقون الهدايا بين يديهِ من نقود واسلحة واقمشة وكنت انا في جملتهم وكانت الموسيقى في اثناء ذلك تصدح في صحن الدار ادواراً وموشحات يلذ سمعها وكان مقدم الموسيقيين يهودياً يضرب على الكمنجه والبقية من المسلمين وكانوا يقدمون الشاي والدخان والقهوة للحاضرين وقد سرني امر لحظتهُ في اثناء الغناء وتمنيت لو يقتدي المصريون باهل الجزائر في هذا الامر هو ان القوم لا يضجون ولا يصيحون في ساعة الغناء بل هم يسمعون منصتين متلذذين وقد يقول احدهم «طيب الله عليكم» حين ينتهي الدور. واحسن من ذلك ان الاولاد وصغار البنات كانوا في جملة السامعين وهم يتحدثون بصوت خافت حتى لا تعلو ضجتهم على السامعين. وهم يحلقون للاولاد شعر رأسهم او يتركون لهم خصلة في القمة يلبسون فوقها الطربوش المغربي ومن دونهِ سترة قصيرة من نوع «الكبران» وسراويل وحذاء اصفر. ولصغار القوم هنا نجابة وحسن وسيماء الوقار والاقدام ولبعضهم عيون زرقاء وليس في خلقتهم تشويه كالذي يكثر بين صغار المصريين. واما البنات فان محاسنهنَّ تستلفت الانظار فلا تتعب العين من النظر اليهنَّ ولاجسامهنَّ قوة واعتدال ولا سيما في الاذرع والصدور وهنَّ يظهرنَ مكشوفات الى سن السابعة في هذا السن ويلبسنَ عزيزية على الرأس تختلف عن المستعمل من نوعها في تونس والجزائر وتشبه الهرم في شكلها لانها واسعة من اسفلها وعلوها نحو ربع متر وهم يزركشونها بالقصب والبرق الصغير لتلمع وتبرق. وجلباب النساء هنا احمر في اكثر الاحيان من الشيت او الحرير

والحذاء احمر مزركش . اما النساء فكنَّ مصطفات فوق السطح واحدة لصق الاخرى وهنَّ ملتفات بالبرانس من الرأس الى القدم فلا تظهر الاَّ عين واحدة لكل منهنَّ حتى ترى بها ما يرى الآخرون

﴿ من تلمسان الى عاصمة الجزائر ﴾ ركبت القطار من تلمسان الى عاصمة الجزائر والمسافة بينهما ١٦ ساعة وكان القطار يخترق سهولاً فسيحة فيها كروم العنب بعضهُ للشمبانيا والبعض للبوردو من اشكال الخمر وفيها القمح والشعير والعدس والحمص ومن الشجر التين والزيتون والعناب . ويخرج الماء في بعض المواضع من ينابيع قامت عَلَى مجاريها اشجار الحور والصفصاف . وتكثر الاضرحة للاولياء في الطريق وكلها مطلية بالجير الابيض . ويجري اولاد المغاربة وراء القطار في مسيرهِ جري الغزلان وهم حفاة تحت نار الشمس الكاوية وعَلَى رؤُوسهم الطرابيش المغربية . وهنالك مزارع لاناس من الفرنسويين او للاهالي وكل هذه الاراضي تشبه برية الشام التي تزرع قمحاً وشعيراً وتروى بماء المطر . وتشبه ارض الصعيد في مصر ايضاً لانها سهل منبسط يكتنفهُ جبلان من هنا ومن هنا والجبال قاحلة جرداء . ووقف القطار في محطات كثيرة العدد حتى اذا كان الظهر دعي الركاب للغداء في القطار فقدموا لنا طير الحجل مقلياً ومشوياً وهو كثير في هذه البلاد ومن الفواكه البطيخ والقاوون وكلاهما طعمه لذيذ . واكبر المدن التي وقف فيها القطار اورليان ڤيل وමليانه . وقد حدث في اثناء المسير وقطارنا يجتاز تلك السهول والحزون ان احد المسافرين صاح بالآخرين ان انظروا نهر الرون وهو اسم نهر مشهور في فرانسا فحدقنا واذا بنا نرى نهراً ماؤُهُ يجري مع انهُ ليس في تلك الجهات انهر فعلمنا انهُ السراب وتأملتهُ بالعين والمنظار معجباً لهذا المشهد البديع الذي يعسر الفرق بينهُ وبين الصحيح . ووقف القطار اول المساء في مدينة البليدا وهي عَلَى

مسيرة ساعة واحدة من عاصمة الجزائر ثم في محطات أُخرى حتى بلغ تلك العاصمة وقد جنّ الليل وخيم الظلام

الجيه او عاصمة الجزاير

فيها الآن من السكان حوالي ١١٠ آلاف منهم ٤٤ الفاً من الفرنسويين و٣٦ الفاً من المسلمين و٩٢ الفاً من اليهود و١٠ آلاف من اجناس أُخرى يغلب بينها العنصر الطلياني · بني قسم منها على شاطئ البحر وقسم على هضبةٍ تعلو ٤٠٠ متر تقريباً عن سطح الماء وابنيتها قائمة من ضفة الماء الى قمة تلك الهضبة صفوفاً متوالية في الارتفاع فهم يبلغون الاحياء العليا منها على درج او بطرق ملتفة طويلة والقادم الى المدينة من البحر يراها باكملها امامهُ بكنائسها وجوامعها وحدائقها وطرقها ومنازلها واحداً واحداً فمنظرها جميل في النهار وفي الليل حين تسطع الانوار من هذه المباني المتدرجة على أبهى الاشكال · واول الشوارع المهمة شارع الجمهورية يبدأُ عند ضفة البحر وتجري فيهِ العربات والترامواي من جميع الانواع · والقادم الى هذه المدينة ينزل في الجمرك الكائن على الشاطئ ويسير في شارع فسيح فوق الضفة حوالي ١٠ دقائق ثم يدور في الطرق الملتفة حتى يبلغ مركز العاصمة هذا اذا كان راكباً واما المشاة فانهم يرتقون سلماً درجاتهُ نحو مئة فاذا هم في قلب المدينة علَى اهون سبيل

اما وصف هذه المدينة فسأَتبع فيهِ الطريقة التي جريت عليها في وصف مدينة باريس اي اني ابدأُ بالطرق المهمة واحداً واحداً فاصف كلاً منها الى آخرهِ بدل ان انتقل تنقل الدليل الفرنسوي لهذه العاصمة وغيرها من موضع الى موضع ومن حي الى حي حتى يحار القارئ في معرفة موضعهِ وكيفية الانتقال · وقد

بدأت هنا بشارع الجمهورية وهو الشارع الاول الممتد من البحر الى آخر المدينة كان اسمهُ شارع الامبراطورة لان الامبراطووة اوجيني وضعت اساسهُ عَلَى نسق شارع ريڤولي في باريس سنة ١٨٦٠ في رأسهِ ميدان يدعى ميدان الحكومة وهو مستدير الشكل قامت فيهِ احسن الفنادق والحوانيت وفي وسطهِ تمثال الدوك دورليان نقش على قاعدتهِ انهُ تذكار من الجزائر والجيش سنة ١٨٤٢. والشارع يمتد على طول المدينة فوق البحر وقد تركوا جانب البحر منهُ بلا بناء حتى لا يحجب منظرهُ وجعلوا الجانب الآخر صفاً من الابنية القائمة عَلَى قناطر تحتها احسن الحوانيت والمطاعم والحانات وفوقها منازل الاكابر والقناصل والشركات وبنك الجزائر. ويمر في وسط هذا الشارع خط للتراموای الى اطراف المدينة وهو متنزه العامة في ساعات العصر والغروب يتمشون فيهِ فوق ضفة الماء الى موضع يقال لهُ السكوير وهو لفظ انكليزي معناهُ الميدان غرست فيهِ اشجار الزيتون والنخل وعلى مقربة منهُ التياترو الكبير. ويلي هذا الشارع لجهة الجبل شارع باب الويد وهو ينتهي الى شارع باب عزّون وكلاهما يخترقان قلب البلد بني من القناطر الى الجانبين وقد رصت ارصفة الشارعين تحت القناطر بالسمنت الناعم مثل ارصفة الاسكندرية ودارت في الحوانيت حركة تجارية مهمة حيث تباع الابضعة البارزية من جميع الاشكال. ويلي ذلك الشارع الثالث يمتد الى جهة الجبل واسمهُ لالير فيـهِ تجار البضائع الوطنية وقد بنيت القناطر الى جانبيهِ للوقاية من الحر والمطر وهو يبتدي من ميدان ملاكوف حيث قام قصر الحاكم العام الشتوي واصله دار حسن باشا والاسقفية واصلها دار بنت الباشا والمكتبة العمومية واصلها دار مصطفى باشا. وقد بنوا في هذا الميدان كنيسة سنة ١٨٩٠ جعلوها على الطراز المغربي لها قبتان للاجراس كأنهما المآذن والجدران لها خط احمر وخط ابيض. ويليهِ شارع اسلي

دعي بهذا الاسم تخليداً لذكر انتصار الجنرال بوجو على المغاربة في جهة نهر اسلي على مقربة من مدينة وجده وسمي القائد بعد ذلك الدوك اسلي . ويلي هذا الشارع لجهة الجبل ايضاً حي اسمهُ مصطفى العالي بني على سطح الجبل وفيهِ منازل الاغنياء تشرف على المدينة والبحر وهو احسن احياء هذه المدينة · وقد جعلوا شوارعهُ ملتفة متعوجة مثل كل المواضع المرتفعة وفيها قسم للتراموواي وقسم للمشاة وقسم للعربات ·وقد ركبت عربة من ميدان الحكومة الذي سبق ذكرهُ وجئت هذا الحي العالي حتى بلغت قصر الباردو وهو القصر الصيفي السابق لولاة الجزائر ويقيم الآن فيهِ الحاكم العام الفرنساوي رأيت عند بابهِ تماثيل الحكام الفرنساويين ودخلت مع خادم عادتهُ ان يدور القصر مع المتفرجين الغرباء ليرشدهم وسرت في حديقة واسعة اكثر شجرها مما ينمو في البلاد الحارة كالنخل وقصب الغاب والنارنج والبهار البري ورأيت ان الدور الاول كلهُ على النسق الشرقي فيهِ الاروقة القائمة على عمد مستدقة وارضهُ مبلطة بالرخام الابيض والغرف تحت هذه القناطر متلاصقة صفوفاً صفوفاً لا مدخل من احداها الى الاخرى مثل بناء قصر شبرا . وتحت الاروقة ارائك من الحجر كانوا يضعون عليها المراتب والمخدات ليجلس الباي عليها امام برك الماء

وقد ارتقيت سلم الرخام الى الدور الاعلى فاذا بالجدران ملبسة بالقيشاني الازرق وعليها آيات دينية مكتوبة بالقيشاني الابيض فتأملت تلك الصناعة الدقيقة زماناً . وفي آخر السلم قاعة رحبة سقفها من عروق الابنوس ممتدة وبارزة وقد رصّعت بالصدف والعاج على نسق قاعة ديوان الاوقاف في مصر كما تقدم القول . ولهذه القاعة شبابيك كثيرة اذا فتحت كلها غطت جميع الجدران وكان لها مقعد عريض في دائرها يجلس فوقهُ البايات مربعين فابدل الآن بالكراسي

والمقاعد الحديثة . وتلي هذه القاعة غرف أُخرى نقيم فيها عائلة الحاكم العام في الصيف

وخرجت الى الحديقة فرأيت في طرفها من ناحية البحر كشكاً قام على عشرة عمد من الرخام الابيض وهو مطل على البحر وكل اجزاء المدينة وقد كان هذا الكشك مثابة الباي في الزمان السابق . وعلى مقربة من القصر متحف جمعوا فيهِ آثاراً قرطاجية ورومانية ورومية واسبانية وعربية اهمها الاسلحة ومعدات القتال القديمة وقطع رخامية من مدافن الرومان والعرب القديمة منها مشهد كتب عليهِ باسم الله الرحمن الرحيم وباعلاهُ صورة عمامة ومشهد آخر عليهِ عمامة مجدولة ولكنهُ طمست الكتابة التي كانت عليهِ

وحي مصطفى العالي هذا مجموع دور نخيمة ومنازل للاغنياء تحيط بها الحدائق الغناء وكلها تشرف على البحر والمدينة . وفيهِ فنادق عظيمة ينتابها كثير من السياح لقضاء فصل الشتاء واكثرهم من الانكليز يفضلها بعضهم على مصر لما انها قريبة من اوروبا فبعدها عن مرسيليا ٢٦ ساعة فقط وهواؤُها يشبه هواء القطر المصري . وقد حدث اني حانت مني التفاتة بين كنت في هذا الحي فرأيت ملكة مدغسكر في عربة مع تابعاتها من النساء وهي حبشية اللون يعلم القراء ان فرانسا استولت على جريرتها بعد حرب شديدة ونفتها الى هذه العاصمة من الاملاك الفرنسوية وقداجروا عليها رزقاً وعينوا لها قصر نقيم فيهِ الى آخر الايام .ورجعت عن طريق غاب فيهِ اشجار الصنوبر وقد اطلقوا عليهِ اسم غاب بولون كالذي في ضواحي باريس

وذهبت يوم الاحد بعد الظهر الى حديقة عمومية في اطراف المدينة اصل اسمها الحمَّا ولكن الفرنسويين يسمونها حديقة ديسيه (اي التجربة والاختبار في غرس الاشجار) وهي تبعد نصف ساعة بالعربة وشكلها غريب فاني سرت في اول الامر

مع السائرين في طريق مستطيل زرع الى جانبيهِ قصب الغاب الفارسي وطريق آخر مستطيل فيهِ شجر النخل المعروف في مصر باسم الدوم يتفرع من ساق النخلة نحو خمس نخلات . وآخر فيهِ شجر النارنج والبرتقال ثم طريق الجوز واللوز والدفل والمانيلا تضوع منها رائحة تملأ الحديقة . وقد نمت شجيرات الورد الابيض حتى ان بعضها بلغ قمة اشجار الحور متعرشاً عليها . ورأيت دالية تعرشت ايضاً حتى بلغت أعلى شجرة حور وتدلت عناقيد العنب منها . وفيها ايضاً شجرة من التين الهندي كالتي في حديقة الازبكية بمصر وهي تتدلى اغصانها فاذا اتصلت بالارض نمت اشجاراً جديدة متصلة بالشجرة الاصلية ولو تركوها على حالها لغطت كل ارض الحديقة

وتجاه هذه الحديقة حمامات بحرية يؤمها خلق كثير فلا اسهب في وصفها هنا لاني ذكرت امثالها مراراً في فصول هذا الكتاب . ومن مشاهد الضواحي كنيسة نوتردام الافريقية بنيت على قمة جبل في شمال المدينة ذهبت اليها بالعربة مسيرة نصف ساعة تقريباً فمررت بحي سان اوجين امام البحر حيث اقيمت المنازل البهية وكانوا يومئذٍ يبنون كثيراً منها ليجعلوا هذا الشارع على مثال شارع الكورنيش بمرسيليا . ولما بلغنا اسفل الجبل تسلقناهُ الى الجهة العليا فاذا بمدينة الجزائر ظاهرة امامنا بجميع الاجزاء ومنظرها من هنا جميل . ولما دخلت الكنيسة رأيت جدرانها مغطاة باسماء اصحاب النذور وهم يدفعون رسماً على كتابة الاسماء وقد ملئت بها الجدران فكتبوا بقية الاسماء في ارض الكنيسة وقد علقوا في تلك الجدران ادوات مصنوعة على شكل القلب او العين او اليد اشارة الى الامراض التي اعترت تلك الاعضاء ونذروا النذور لشفائها . والكنيسة جميلة بنيت سنة ١٨٧٢ وفي هيكلها صورة العذراء من الجبس الاسود اشارة الى سواد الافريقيين وعلى رأسها

تاج مذهب فوقهُ صليب ويداها مبسوطتان الى الامام لنجدة المستغيثين فهم يسمونها المنجدة . وفي الهيكل ايضاً سيوف الامير عبدالقادر والجنرال بوجو اغمدت في القبض دليل السلام . والشموع ابداً موقدة هنا من المصلين واكثرهم نساء فرنسويات . وخارج الكنيسة قبور الاساقفة اكثرها من الرخام

وعدت الى ميدان الحكومة فدخلت جامعاً بالقرب منهُ بناهُ الاتراك للمذهب الحنفي سنة ١٠٧٠ هجرية (١٦٦٠) ولهُ قبة كبرى تحيط بها اربع قبات صغيرة على شكل جوامع الاستانة . والجامع كبير دهن بالجير الابيض من داخلهِ وخارجهِ ما خلا المنبر فانهُ من الرخام الابيض . وقد رأيت لطفاً من خدمة هذا الجامع وقابلت فيهِ السيد محمد بو غندوره مفتي الجزائر فذكر لي المرحوم الشيخ محمد عبده واثنى عليهِ واراني المصحف القديم المكتوب بخط اليد وهو وقف هذا الجامع من حسن باشا كتب سطر منهُ بالحبر الاسود وسطر بماء الذهب ولولا ان الواقف اشترط الأَّ يخرج هذا المصحف من الجامع لارسلهُ سيادة المفتي الى باريس ليرسم وتطبع نسخ كثيرة مثله . ولهم هنا طريقة الكنائس في جميع الصدقات من الزائرين والمصلين لانهم وضعوا صندوقاً صغيراً على مقربة من الباب يضع فيهِ الناس ما شاؤُا من النقود

وعلى مقربة من الجامع الذي تقدم ذكرهُ جامع آخر اسمهُ الجامع الكبير للمذهب المالكي هو اقدم جوامع الجزائر وقد بني قسم منهُ على ١٤ قنطرة قائمة على عمد من الرخام . ثم تركت الجوامع وتوجهت الى حي المغاربة وهو قديم الشكل لم يتغير بمرور السنين يشبه بعض احياء مصر الوطنية التي لم يطرأْ عليها تغيير وبعض شوارعهِ ضيقة حتى ان ترجمان الفندق كان يسير امامي وانا من ورائهِ . واكثر بيوتهِ من دور واحد لها من نوع المشربية والطرق مبلطة بالحصى المتناثرة يعسر

المسير عليها وبعضها بنيت فوق اقبوة فظلامها دامس وهواؤُها غير طلق ولهذا خرج اصحاب اليسار من المغاربة الى الاحياء الاخرى وبقيت الالوف الكثيرة على هذه الحالة . وعلى مقربة من هذا الحي اثر القلعة القديمة واسمها عندهم القصبة لم يبقِ الفرنساويون منها غير الغرفة التي حدثت فيها حادثة حسين باشا مع قنصل فرانسا وقد تقدم ذكرها في مقدمة هذا الفصل

﴿البليدا﴾ هي مدينة جميلة طالما قرأت عنها وسمعت ومع انها واقعة في الطريق بين تلمسان والعاصمة فاني لم اعرج عليها من قبل ولكنني رجعت اليها من مدينة الجزائر وهي متنزه سكان العاصمة يذهبون اليها مسيرة ساعة تقريباً بسكة الحديد ويعودون في آخر النهار . وقد سار بي القطار بين صفين من شجر الكينا في طول الطريق وهذا الشجر كثير في الاراضي المنخفضة والمستنقعات لانهُ يحسن الهواء ويمنع انتشار الحميات . ولما بلغت هذه البلدة حسبت اني في اوروبا وليس في مدينة افريقية لان الطرق نظيفة وعريضة يرشونها بالماء مرتين كل يوم وفيها صفوف من شجر البرتقال ولها ميدان اسمهُ ميدان السلاح غرست بهِ اشجار البرتقال والموسيقى تصدح فيهِ مرتين كل اسبوع فيأتيها الناس افواجاً ولا سيما الضباط العسكريون وهم لا تخلو منهم نقطة مهمة في هذه البلاد . عدد سكانها الآن حوالي ٣٠ الف نفس وهي مبنية على رابية ولها سور حولها مثل كل مدن الجزائر الداخلية ولهذا السور اربعة ابواب ٠ والمدينة تشرف على وادي متيجه بسبب ارتفاعها فالواقف فيها يرى عدة مناظر جميلة في ذلك الوادي الطويل لا يبلغ النظر آخرهُ ويرويهِ نهر اسمهُ واد الكبير غير الينابيع التي تتدفق مياهها فيهِ حتى انهم انشأوا حدائق للبرتقال كبيرة واسعة تشبه الحرجات العظيمة فلا تقل اشجارها عن مئة الف يصدرون منها نحو ٥ ملايين برتقالة كل سنة الى فرانسا وغيرها ٠ وقد

كان المهاجرون المسلمون من الاندلس هم الذين ادخلوا زراعة البرتقال الى الجزائر وكذلك زراعة الدخان وهم يصدرون منهُ نحو مليون اقة كل سنة وورقهُ يشبه ورق الدخان المصري او الكوراني · ويحدق بهذا الوادي جبال بني صالح تعلو ١٠٠٠ متر الى ١٢٠٠ وقد التقيت في فندق هذه المدينة ببعض من سياح الانكليز معهم الخيام والسروج للنساء والرجال والتراجمة ورأيتهم ينوون الذهاب الى وادي شيلفا الوعر ليتفرجوا فيهِ على القرود بحالتها الطبيعية · ويجوز للسائحين ان يقبضوا على صغار القردة اذا امكن ولكنهم لا يجوز لهم ان يقتلوا منها وذلك حسب قرار المجلس البلدي · فذهبت مع هؤلاء السياح الى الوادي المذكور وكنا نمر تارة بين الصخور وطوراً بين الاشجار البرية الغضة حتى بلغنا مكان القرود فجعل الترجمان يرمي لها قطع الخبز والسكر فظهر بعضها ما بين كبير وصغير تختطف الذي يلقى اليها ثم تختفي بين الاشجار فراراً وخوفاً . وبعد ان سرنا نحو ساعتين عدنا للاستراحة في كوخ بني فوق عين اسمها عين السعادين ومنها تقدم رفاقي الى جبل بني عامر ليقيموا فيهِ اسابيع وسط تلك المناظر الطبيعية اما انا فرجعت الى البليدا ومنها الى العاصمة

علمت بعد وصولي في المساء ان الموسيو ماكس رجي رئيس المجلس البلدي المشهور بعدائهِ لليهود سيلقي خطاباً في التياترو الكبير ليعلن للناس نتائج سفرهِ الاخير الى باريس · ولهذا الزعيم انصار من النصارى والمسلمين يكرهون اليهود مثلهُ ويزعمون ان ثروة البلاد اصبحت في ايديهم بالطرق المالية التي الفوها · فذهبت الى هذا التياترو ووجدت الناس حولهُ مآتٍ والوفاً غير الذين تحصلوا على التذاكر ودخلوا قاعة الخطابة فلما انتهى الرجل من خطابهِ داخلاً جعل الواقفون خارج الباب يصيحون لتعش فرانسا وليسقط اليهود · والظاهر ان كره البعض

لليهود بالغ هنا حتى اني رأيت حانوتاً في شارع باب عزّون كتب على لوحهِ من الخارج انهُ لا يخص اليهود ولا يعاملهم وهو للمجوهرات وادوات الذهب والفضة. ويقال على الجملة ان اليهود في قطر الجزائر يمتازون عن بني ملتهم في اوروبا فهم اشداء ولهم جمال عظيم وقد عرفوا بالصلف والخيلاء فلا يخالطون النصارى والمسلمين الاَّ قليلاً ويوم السبت في هذه المدينة مثل الاحد في غيرها تقفل فيهِ الحوانيت والمحلات التجارية وتظهر عليها هيئة البطالة . وقد زرت حي اليهود في اليوم التالي وكان يوم عيد فوجدت بعضاً منهم يصلون في العيد ورأيت انهُ يختلف عن بقية معابد اليهود لانهُ رسم على جدرانهِ موسى الكليم وبيدهِ لوح الشريعة كتب عليهِ وصايا الله العشر الواردة في التوراة

ولما عدت الى ميدان الحكومة كان البريد قد وصل ووزع فرأيت الناس يقبلون على مواضع بيع الصحف البارزية ويتخاطفونها متلهفين لقراءة الاخبار . ويندر بين الاهالي من لهُ عمل او تجارة ولا يعرف الفرنسوية وبعضهم يتكلمها بطلاقة توجب الاعجاب. واما لغتهم العربية فالبعد بينها وبين عربية مصر والشام باعد يدل على ذلك اني تعرفت بتاجر هنا اعطاني كتاب توصية بي الى صديق لهُ في قسنطينه فلما تلاهُ عليَّ لم افهم منهُ شيئاً وحاولت قراءتهُ فما قدرت لان حروفهم من النوع الكوفي المعلّق وهو غير مألوف في هذه الديار . وملابس المغاربة هنا متنوعة فاهل الطبقة الاولى يرتدون الملابس الافرنجية والطربوش المغربي المعروف بزرهِ الطويل يبلغ الكتفين . وبعضهم يلبس السراويل والدامر او القفطان والعمامة. واصحاب اليسار منهم يلبسون البرنس الازرق من الحرير واما بقيتهم فالبرنس الابيض وهم يتأثرون من كل شيء لا يوافق مشربهم وذوقهم . اما النساءُ فلباسهنَّ مستغرب يرتدينَ سراويلات بعضها فوق بعض من القماش

الابيض ومن فوقها ملاية او حرام تلتف المرأة بهِ لفاً فكأنما هي برميل لا قوام لها ولا هندام · وهنَّ يضعنَ البراقع البيضاء على الوجوه و يندر ان تخرج احداهنَّ الى الطريق · وكانت مدة اقامتي في هذه العاصمة عشرة ايام يكفي نصفها للذي يطالع الكتب عنها قبل وصولهِ ثم يدور للفرجة كما فعلت و برحتها بعد هذه المدة الى مدينة في داخلية البلاد اسمها قسنطينه تبعد ١٥ ساعة بسكة الحديد

(من عاصمة الجزائر الى قسنطينه) مرَّ بنا القطار في مناظر متنوعة فكان تارة يخترق السهول والبطاح وطوراً يمر بالهضبات والحزون ومعظم الاراضي زرعت فيها كروم العنب والقمح والشعير والحمص والعدس والجبال قائمة الى جانبي هذه السهول الحسناء . واهم ما فيها مزارع الزيتون وهي حرجات بعيدة الاطراف قد تكون بلا مثيل في الارض لان مساحتها لا تقل عن ١٥٠٠ هكتار والهكتار كما لا يخفى عشرة آلاف متر وهي تمتد من الساحل متدرجة الى قمم الجبال وفي الاودية المتوسطة بين تلك الجبال. واصل هذه الاشجار برية طعمت فصارت ذات ايراد كبير. ووقف القطار عند الظهر في محطة سيدي ابرهيم حيث تناولنا الغداء واتوا لنا بثلج طبيعي ينقلهُ العرب من اعالي الجبال · ولما قام القطار دار الحديث علَى الابواب المشهورة التي سنمر منها ولها ذكر عظيم في اوروبا حتى ان ملك انكلترا الحالي لما أتى عاصمة الجزائر في شهر ابريل سنة ١٩٠٥ ذهب الى قسنطينه في قطار مخصوص ليمر من هذه الابواب وهي عبارة عن صخور حمراء علوها ١٠٠٨ متر يخترقها وادٍ هو طريق يمر فيهِ قطار الحديد وطولهُ ٤٠ كيلو متراً · وقد ورد في التاريخ ان الرومانيين عجزوا عن المرور في هذه الابواب ايام حربهم مع قبائل الفندال وان جنود الاتراك عبروا منها بعد ان دفعوا مبلغاً الى شيخ القبيلة ولكن جنود فرانسا عبرت منها سنة ١٨٣٩ تحت قيادة الدوك دورليان بعد ان قتل

المغاربة عدداً كبيراً منها · وقد دخل قطارنا هذا الوادي وانا انظر اليهِ كالناظر الى السماء فوقهُ ثم خرجنا الى الجهة الاخرى ووقف القطار في محطة سطيف وهي بلدة فيها ١٦٠٠٠ الف نفس منهم ٣٠٠٠ فرنساويون · وقد تعشينا في هذه المحطة لان القطار وقف فيها نصف ساعة ثم قام في جهة كلها اكام وهضبات في وسطها طريق لا يزيد عن سعة العربات وفي هذه الروابي شجر السنديان والبلوط والخروب · ثم سار القطار في سهل منبسط يحكي سهول القطر المصري وتحدهُ الجبال من هنا ومن هنا وكان ينتقل من محطة الى محطة حتى بلغ مدينة قسنطينه

قسنطينه

اختلف كتاب العرب واهل الجزائر في تسمية هذه المدينة وذكرها ابن خلدون على مثل ما كتبناها هنا وخالفهُ بعض الفرنجة وياقوت الشهير فقالوا قسطنطينة وهي مدينة جميلة اطلق الروم عليها هذا الاسم لانهم ملكوها في ايام امبراطورهم قسطنطين وقد بنيت على جبل صخري يطلُّ على ما دونهُ من السهول المزروعة ومنظرها بديع ولاهل هذه المدينة شهرة عظيمة في بلاد الجزائر لان اهلها دافعوا دفاع الابطال عن مدينتهم حين حصرها الفرنساويون وقد ذكرت ذلك في الخلاصة التاريخية · وعدد اهلها نحو ٥٣ الفاً منهم حوالي ٢٨ الفاً من المسلمين ونحو ١٨ الفاً من الفرنساويين و٥٠٠٠ من اليهود والبقية من اجناس أخرى وهي قاعدة اقليم يعرف باسمها فيها جنرال فرنساوي وادارات اميرية · وقد سرت في المدينة مع دليل الفندق فرأيت ان المدينة لم تضع تقاليدها القديمة ولم تنتقل تجارتها من يد الاهالي الى يد الاجانب وعندهم مناسج كثيرة للاقمشة الوطنية يعول اكثرهم عليها في اللباس وقد حذقوا فن الدباغة واتسعت تجارة الجلود عندهم

وعندهم معاصر للزيت جاؤا بآلاتها من فرانسا ولهم عملاء من ابناء امتهم في مرسيليا ومنشستر لبيع الصوف وارسال الابضعة المنسوجة. قصدت في اول الامر قصر احمد بك وهو الحاكم الوطني الذي فرّ من وجه الفرنساوبين كماورد في المقدمة فدخلتهُ من زقاق ضيق وباب صغير فاذا انا في رحبة واسعة وحديقة كبيرة في وسطها فيها الاشجار والازهار كالورد والفل والياسمين تضوع منها الروائح الطيبة وفيها بركة حولها الاغراس والازهار . ويحيط بالحديقة رواق قام على عمد من الرخام وتحت هذا الرواق قاعات وغرف وفوقهُ الدور الثاني من البناء وللقصر على الجملة منظر يشرح الصدر لان مساحتهُ مع الحديقة ٥٦٠٠ متر مربع . وفي جدران القصر نقوش ليست بذات اهمية قيل ان اسيراً نقشها على عهد البكوات فكوفيء باخلاء سبيلهِ وهنالك المصطبة التي كان احمد بك يجلس فوقها بعد ان تفرش بالبسط والمراتب وامامهُ الراقصات والمغنيات والعازفات بآلات الطرب على عادة امراء العرب

وعلى مقربة من القصر كنيسة كبرى اصلها جامع بناهُ احمد بك المذكور بناء فخماً ولهُ نقوش فخيمة . وقد قام هذا البناء على اربعة صفوف من الاعمدة الضخمة العظيمة ربما كان اصلها من الهياكل الرومانية ومثلها غير قليل في هياكل المصريين . وهنا المنبر والمحراب كلاهما من الرخام الابيض وفي الجدران آيات عربية مثل « بسم الله الرحمن الرحيم . وبسم الله الحي » فهم لم يغيروا شكل الجامع الاَّ قليلاً حتى صيروه كنيسة واضافوا الهيكل في الجهة الغربية . وان الجوامع التي صارت كنائس في اسبانيا وغيرها والكنائس التي صارت جوامع في الشرق كلهِ كثيرة معروفة في كل مكان . وفي هذه المدينة عدة جوامع عظيمة منها جامع صالح بك بني سنة ١١٩٠ هجرية (١٧٧٦) دخلتهُ مع احد المعارف المسلمين ورأيت

جدرانهُ بعضها رخام ابيض والبعض رخام اسود ومنها احمر سماقي وابيض. والمحراب قطع من الرخام متعددة الالوان . ومنها الجامع الاخضر بناهُ حسن بك المذهب الحنفي . والجامع الكبير وهو قديم جدًّا يظهر انهُ كان هيكلاً للرومانيين لان فيهِ كتابات لاتينية الى الآن . والجامع المذكور في دور أعلى صعدنا اليهِ فوق سلم وهو نادر في شكل الجوامع وقد كتبوا على ابوابهِ نقشاً في الحجر عبارات مثل (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) و (علو الهمة من الايمان) . وقد التقيت بجنازة للمسلمين ساعة خروجي من هذا الجامع فاذا بالمغاربة ينادون بالشهادة بصوت عالٍ ويركضون ركضاً وراء الميت بدل ان يسيروا الهويناء . ورأيت عرس القوم يسير امامهم الطبل والمزمار . وعرساً لليهود ظهرت فيهِ النساء بكل وسائل الزخرف والبهرجة مثل الطرطير والقصب والعزيزية الطويلة المقصبة على الرأس وهنَّ يكشفنَ السواعد والاذرع الى حد الكتف حسب عادة هذه البلاد وكانت العروس تحت ظلة مبرقعة الوجه

وذهبت عند الغروب الى حي المغاربة فكنت اصعد وانزل في انحائهِ حسب شكل الارض ورأيت ان شوارعهُ ضيقة ومنازلهُ دور واحد تخطر فيها الجنود الوطنية لحفظ النظام وتباع في دكاكينها المغربية (كوسكسو) وهو الطعام الوطني عندهم

(نهر الرمل) هو اهم الانهار في قسنطينه يتدفق ماؤُهُ في الشتاء من المطر ويدخل في البلد مسافة ٣٠٠٠ متر طولاً بين صخور حمراء يبلغ ارتفاعها ٥٠٠ متر وهي قائمة كالجدار فوقهُ وعرض مجراهُ ٢٠ متراً فقط يعدونهُ من عجائب الكائنات لما زار الملك ادورد السابع هذا القطر حضر الى قسنطينه ليراهُ . وكان النزول الى ضفتهِ من اعلى هذه الصخور محالاً ولكن المجلس البلدي كلف احد

المهندسين فبنى ممراً من اعلى الصخور الى ضفة الماء وممراً آخر على طول المجرى مسافة ٦٠٠ متر وعرض هذا الممر نحو مترين ورسم المسير في هذا الطريق فرنكان ونزلت اليهِ مع الدليل في سلم لولبية تحكي ما في المآذن حتى بلغتهُ وهو من الخشب محكم الصنع يسير المرء فيهِ والصخور فوقهُ ولها تأثير عجيب . وفي آخر هذا الطريق بركة من الماء الحديدي رأيت بعض المغاربة يستحمون فيها حتى اذا انتهوا من الاستحمام تمددوا على حصر فوق مجرى الماء الخارج من بين الصخور . والتقيت هنا باميركي جاء مع عروسهِ لقضاء شهر العسل واذكر ان السيدة ذكرت لي اعجابها بمناظر المغاربة ولا سيما عيونهم السوداء وحواجبهم العريضة . وللنساء يومان من الاسبوع يأتينَ فيهما للاستحمام بهذه المياه الشافية . والظاهر ان هذا الحمام المعدني قديم لان في الصخور القريبة منهُ كتابات رومانية تدل انهم كانوا يعرفون نفعهُ وكتابات أُخرى تدل ان الشهيدين يعقوب وماريوس قتلا في هذه المدينة ايام اضطهاد المسيحيين . وكان الرومانيون يعرفون هذا الاقليم باسم نوميديا وكان احد حكامهم المدعو سالوستوس يقيم في قسنطينه وهو الذي بنى فيها القصور والهياكل تخربت بمرور الاعوام وعني المجلس البلدي في هذه السنين بجمع آثارها فعندهُ منها ٥٠٠ قطعة وضعت في محل خارج المدينة يدخلهُ المتفرجون برسم قليل . وضواحي هذه المدينة زاهرة زاهية لكثرة الماء فيها يتفجر من عيون في الارض وقد اتوا لها بالاشجار المثمرة من فرانسا على اشكالها فلها شهرة بالفواكه . ويحيط بالمدينة طريق عريض انشأهُ الفرنساويون وغرسوا الاشجار الى جانبيهِ وكان المتنزهون في هذا الطريق يوم قصدناهُ بالعربة كثيرين بعضهم على الخيل والبعض في العربات والدراجات يمتعون الانظار بمشاهدة الحقول والمزروعات المحدقة بالمدينة في ما يليها من الاودية والسهول . وقد اهتم المجلس البلدي بانشاء

متنزه على روابي علي وهي من الضواحي التي سيكون لها شأن عظيم وقد ذكرت في المقدمة ذكر المعارك التي جرت في هذه الآكام بين المغاربة والفرنساويين . وذهبت في اليوم التالي الى ضاحية المنصورة وقد ذكرتها ايضاً في المقدمة وهي طيبة التربة والهواء رأيت بعض الفرنساويين يحرثون فيها ويفلحون وفيها غاب من شجر الصنوبر جميل . وتوجهت بعد ذلك لرؤية القناطر التي بناها الامبراطور جوستنيانوس البزانتي وهي تشبه القناطر التي بناها الملك الظاهر بيبرس في مصر في اواسط القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد المسيحي

﴿ من قسنطينه الى عنابه ﴾ اقمت خمسة ايام في قسنطينه ثم برحتها الى عنَّابه والمسافة بينهما بسكة الحديد ٨ ساعات (وكان في نفس هذه الطريق ذهاب العساكر الفرنساوية لفتح قسنطينه كما ذكرت في المقدمة) اجتازها القطار مخترقاً عدة قرى ومشاهد ووقف في محطة كالمه وهي بلدة فيها نحو ٧٤٠٠ نفس منها ١٥٠٠ فرنساويون وبدأنا نشعر بهواء البحر منها وقد سار القطار بعد كالمه في كروم للعنب ارضها حمراء هي احسن اراضي الجزائر . وطريقتهم في الكروم تختلف عن نظائرها في مصر والشام فانهم يقطعون رأس الاغراس كل سنة حتى ينمو الساق ويتسع فتصبح كل دالية مثل الشجرة تتدلى منها العناقيد بيضاء وحمراء وسوداء . ثم وصل القطار محطة عنابه

﴿ عنَّابه ﴾ هي مدينة رومانية قديمة تعرف باسم بونا ويكتبها الفرنساويون بون ولكن العرب يسمونها عنابه لكثرة ما فيها من شجر العناب . يبلغ سكانها الآن ٣٤٤٩٨ نفساً منهم ١٢٠١١ فرنساويون و ٨٧٠٥ مسلمون و ١٣١١ يهود و ١٢٤٧١ من الطليانية والاسبان والمالطية وسواهم وموقعها جميل جداً على شاطىء البحر ولها مينا مستدير بنتهُ الحكومة الفرنساوية للبواخر وهي لا تخلو المدينة من

بعضها تقوم من مرسيليا وتمر على المدن البحرية مثل عاصمة الجزائر وجيجلي و بوجي وفيليب فيل وعنابه هذه و بزرت وتونس لحد طرابلس ثم تعود الى مرسيليا . والبحر محيط بعنابه من ثلاث جهات وشكلها منظم على الطريقة الفرنساوية حتى ان الزائر ليظن نفسهُ في احدى مدن فرانسا . من ذلك الميدان الاهلي يمتد من تل في شمال البلد الى رصيف المينا في الجنوب يقرب من منشية الاسكندرية في طوله وعرضه وقد غرست فيه اشجار الدلب اربعة صفوف واقيمت من حولهِ الابنية العظيمة مثل بناء المجلس البلدي بني على اعمدة من الرخام الاسود اللماع . والتياترو يسع ٨٠٠ شخص . وبنك الجزائر . وشركات البواخر . ومنازل الموسرين . وكل هذه الابنية قائمة على قناطر تحتها الحوانيت والخانات والقهاوي . والحركة في هذا الميدان دائمة ولكن الذين يخطرون فيهِ ابداً هم الفرنساويون من الرجال والنساء فلا تسمع هنالك غير لغتهم . وتصدح الموسيقى العسكرية في هذا الميدان مرة في النهار ومرة في الليل وفيه تمثال تيرس اول رؤساء الجمهورية الحالية نصب في آخر الميدان من جهة الرصيف . والرصيف من المتنزهات الجميلة في هذا البلد يختلف الناس اليهِ لاستنشاق هواء البحر وسماع الموسيقى في الليالي . و يتفرع من هذا الميدان عدة شوارع ممتدة من الشرق الى الغرب و كلها نظيفة زرعت في جوانبها الاشجار ولكل منها اسم كبير من مشاهير فرانسا . وحي المغاربة هنا انظف من كل احياء المغاربة يكنس و يرش بالماء كل يوم ومنازله مبنية عَلَى النسق الاوروبي . دخلت المحكمة الشرعية في هذا الحي فرأيت القاضي بالملابس البيضاء والبرنس الحريري وعلى صدرهِ وسام لجيون دونور من حكومة فرانسا . وذهبت الى المحكمة الاهلية ايضاً ورأيت بين اعضائها افراداً من المغاربة درسوا الحقوق في فرانسا ولها ترجمان مغربي ينقل اقوال الشهود والمتهمين بالفرنسوية للقضاة

ولهذه المدينة ضواحي جميلة منها الكرنويل (الضفادع) واقعة على شاطئ البحر وتتصل بها ضاحية اخرى اسمها الكورنيش على اسم متنزه في مرسيليا . وقد قمت في الامنبوس وهو يذهب الى هذه الضواحي من الميدان الاهلي كل نصف ساعة ويسير الى يمين البحر والى الشمال المزارع والحدائق والهضبات البهية حتى يبلغ محل الضفادع وفيه الحمامات للرجال والنساء والقهاوي والمطاعم وكنت كثير التردد على هذا المتنزه اتفرج على البحر وهو هنا على شكل جون فيهِ جزر من الصخور وجداول من الماء تصب في البحر بعد ان تمر في تلك الحدائق الحسناء

ورافقني في هذا اليوم الموسيو ميرسينيه وهو صاحب الفندق الذي كنت فيهِ وشقيق الموسيو ميرسينيه التاجر في دمنهور ووكيل قنصلاتو فرانسا فيها فذهبنا الى الضواحي الشرقية وفي جملتها هيبو وهي من المدن الرومانية القديمة وقد ذكرتها في المقدمة فحالما خرجنا من المدينة راينا نهر بوجيمة وهو يخرج من جبل ادوغ ويصب في البحر وعليهِ قنطرة تمر فوقها العربات والناس وله خزانات واقنية من اعمال الرومانيين . والارض هنا شديدة الخصب ولكن الحر شديد مثلهُ في كل ثغور افريقيا الشمالية فجميع العربات في هذا البلد من نوع اللاندو لها نافذتان بقصد الوقاية من الحر . ووقفت بنا العربة عند بيت جميل لاحد الفرنساويين لهُ حديقة غناء فاستقبلنا الرجل بالترحاب وارانا بعض الآثار الرومانية في حديقة كائنة في الحفر فهو يقول ان مكانهُ كان معبداً قديماً للرومانيين وقد عرضت عليهِ ادارات المتاحف ان تشتري منهُ البيت والحديقة باضعاف ثمنها . والظاهر من التاريخ ان القديس اوغسطينوس كان مطران هذه المدينة وهو توفي سنة ٤٣١ وان الفندال هجموا في تلك السنة على دير للراهبات فاحرقتهُ القديسة بارب بمن فيهِ تخلصاً منهم . وقد بنيت كنيسة في هذه الجهة على اكمة

بناها الكردينال لافجري المشهور (توفي سنة ١٨٩٢) وجعلها لاسم القديس اوغسطينوس فهي اجمل من كل كنائس اللاتين في القطر المصري . وبنى ايضاً ديراً للراهبات باسم القديسة بارب وداراً للعجزة و كل هذه الابنية تحيط بها الحدائق الحسناء وقد انفق الكردينال عليها اموالاً طائلة جمعها من الفرنساويين

ويرى من الميدان الاهلي جبل ادوغ السابق ذكرهُ وقد ذكرت في المقدمة التاريخية ان ملك الفندال جلمر هرب من وجه القائد البزانتي بلزاروس الى هذا الجبل . وهو قائم الى جهة الشرق علوهُ نحو ٦٠٠ متر وفيهِ حراج الصنوبر فهو مصيف الاوروبيين من اهل المدينة قصدتهُ بالعربة فاذا هو مثل برمانا من قرى جبل لبنان ويمكن الذهاب اليهِ من عنابه والرجوع اليها في نهار واحد

(من عنابه الى تونس) برحت هذه المدينة في القطار وطريقهُ كالتي وصفتها من قبل تكثر فيها غابات الزيتون فوصلت بعد ٤ ساعات محطة غار الماء وفي اصطلاح الفرنساويين غارديما وهي الحد الفاصل بين امارة تونس وبلاد الجزائر وفيها جمركان احدهما تابع لحكومة تونس والآخر لحكومة الجزائر فدخلنا جمرك تونس حتى تفتش امتعتنا فيهِ لاننا كنا ذاهبين اليها واما القادمون من تونس الى الجزائر فيذهبون للتفتيش في الجمرك الآخر . ثم قام القطار في ارض تونس وهي منبسطة غرس الفرنساويون في طرقها شجر الحور الى جانبي خط القطار فمنظر الطريق هنا جميل . وقد غرس اصحاب الاراضي حول ارضهم هذه الاشجار ايضاً فزادت البلاد رونقاً وجمالاً . وبعد سفر ساعتين او ما يقرب من ذلك بلغنا محطة تونس فذهبنا منها تواً الى فندق جران اوتل في ميدان فرانسا

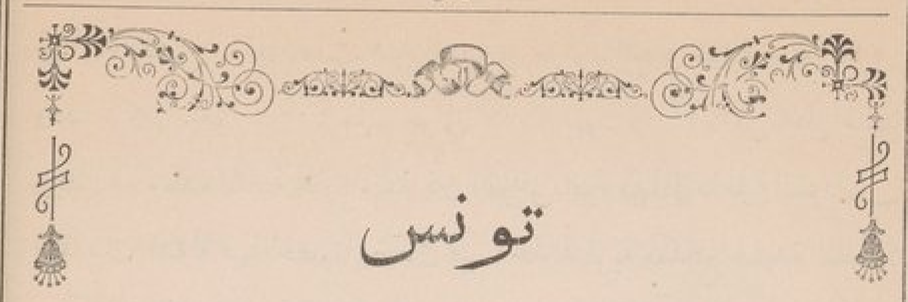
السفر من تونس الى طرابلس

لما بلغت هذا الفندق تعرفت بالماني من وكلاء البيوت التجارية كان ينوي الذهاب الى طرابلس فلما علم اني ذاهب الى طرابلس ومنها الى مالطه بعد ان اقيم في تونس زماناً قال لي ان السفر من طرابلس الى مالطه غير مضمون واما من تونس الى مالطه فان سير البواخر منتظم والمسافة قريبة فعملت برأيهِ وذهبت معهُ في الغد الى طرابلس على ان اعود منها الى تونس والمسافة بين الموضعين ٥٤٣ ميلاً او ٤٥ ساعة او اقل حسب سير البواخر لان بعضها يقف في الجهات الواقعة بين المدينتين والبعض لا يقف . وقد وقفت باخرتنا في سوسه وهي مدينة عدد سكانها ٢٠ الفاً منهم ٤٠٠٠ اوروبي في جملتهم ١٣٠٠ يهودي هم اصحاب التجارة والصرافة ولهذه المدينة تجارة غير قليلة اهمها تجارة الزيت والزيتون والجلد وفيها حصون قديمة وقلعة اقامت فيها الحامية الفرنسوية

قامت الباخرة بنا من سوسه الى صفاقس وهي بلد مهم عند الفرنسويين بعد بيزرت عدد سكانها ٣٤٠٠٠ منهم ٥٠٠٠ اوروبيون وقد قسمت قسمين حي الافرنج وحي العرب وهو القسم الذي اطلقت عليهِ المدافع من بوارج فرانسا سنة ١٨٨١ واحتلتهُ جنودها قبل غيرهِ من بلاد تونس . وسارت الباخرة بعد ذلك الى مدينة قابس في آخر حدود الولاية التونسية بلغناها في الليل وفي الصباح ظهرت لنا مدينة طرابلس والاهالي يسمونها طارابلس والكلمة يونانية (تريبولس) ومعناها المدن الثلاث مثل طرابلس الشام المدن الثلاث اي انفه وطرابلس والبترون كلها كائنة الى اليوم شمالي بيروت . وجاء في قاموس لاروس الفرنسوي ان المدن الثلاث المكونة لطرابلس الغرب في الزمان القديم كانت ايتا

وسابراتا ولبدس . وقد دخلت هذه المدينة في حيازة الدولة العلية سنة ١٧١٤ وعدد سكانها نحو ٤٠٠٠٠ منهم حوالي ٨٠٠٠ يهود و٤٥٠٠ من اهل مالطه وايطاليا . ولهذه المدينة تجارة مهمة فان القوافل تقوم فيها الى داخلية السودان وقد بنت الدولة فيها حصوناً وضعت فيها حامية قوية ومدافع جديدة الطراز . وما كادت الباخرة ترسو حتى ازدحم فيها التراجمة وباعة الآثار القديمة وهي كثيرة فيها نظراً الى ما تغلب عليها من الدول . وفيها الى اليوم قوس نصر من الرخام بنيت على عهد القيصر ماركوس اوريليوس الروماني سنة ١٦٤ بعد المسيح . وقد سرت مع الدليل في اسواق المدينة وهي لكل حرفة او بضاعة سوق ورأيت دار الوالي فيها مهيبة ودور القناصل عظيمة ايضاً واقمت يومين في طرابلس ثم عدت منها في هذا الطريق الى تونس وهو الطريق الذي جاء منهُ العرب وفتحوا الجزائر كما فصلنا في فصل مرَّ من فصول هذا الكتاب





تونس

خلاصة تاريخية

ان القطر التونسي واقع في شمال افريقية يحده من الشمال بحر الروم ومن الشرق بحر الروم وطرابلس الغرب ومن الجنوب الصحراء الكبرى ومن الغرب الجزائر . وتاريخه ممتزج بتاريخ الجزائر وقد فصلناه من قبل ولكننا تكملة للفائدة نورد هنا فذلكة موجزة من تاريخ تونس على عهد البايات فنقول

كانت الفتن والقلاقل دائمة في ايالة تونس وكان الباي لا يعتم ان يتقلد منصبه حتى يعزل او يقتل ومن كان منهم ذا بطش يأمر بقتل كثيرين ليستتب له الامر فكانت البلاد في حالة من الفوضى حين تولاها حسين باي الذي تبتدئ الدولة الحسينية منه وهي الدولة الحاكمة الآن

تولى حسين باي وكان ابوه يوناني الاصل اعتنق الاسلام وجعل الولاية ارثاً في عائلته للاكبر سناً من اولاده . وقد حصل ان ابن اخيه علي نازع عمه الملك وحاربه وقتله وانتزع الولاية منه وكانت مدة ولاية حسين من سنة ١٧٠٥ الى سنة ١٧٤٠ . قرأت في كتاب ان علياً قتل عمه بيده فكان ابداً يراه في حلمه متألماً متوجعاً ولم يهنأ بالولاية لان التونسيين ذاقوا طعم الراحة والسير على احكام القانون فساءهم ما فعل علي بعمه حسين وكانوا يودون اولاد المقتول وهما محمد وعلي اللذان حاربا قاتل ابيهما ودخلا تونس بمساعدة الاهالي وقتلاه . وكانت مدة ولاية علي من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٥٦ ثم نودي باسم احدهما محمد باي لولاية تونس . وكان محمد هماماً عالماً توفي بعد ان ولي الولاية من سنة ١٧٥٦ الى سنة ١٧٥٩ وخلفه اخوه علي باي فسار سيراً محموداً وله مآثر يذكرونها الى الآن . وكانت مدة ولايته من سنة ١٧٥٩ الى سنة ١٧٨٢ وخلفه ابنه حموده باي وهو الذي حارب جمهورية البندقية وكان لها الحول والطول في ذلك الزمان وحارب جيرانه الجزائرين وكان معه على ما يقال خمسون

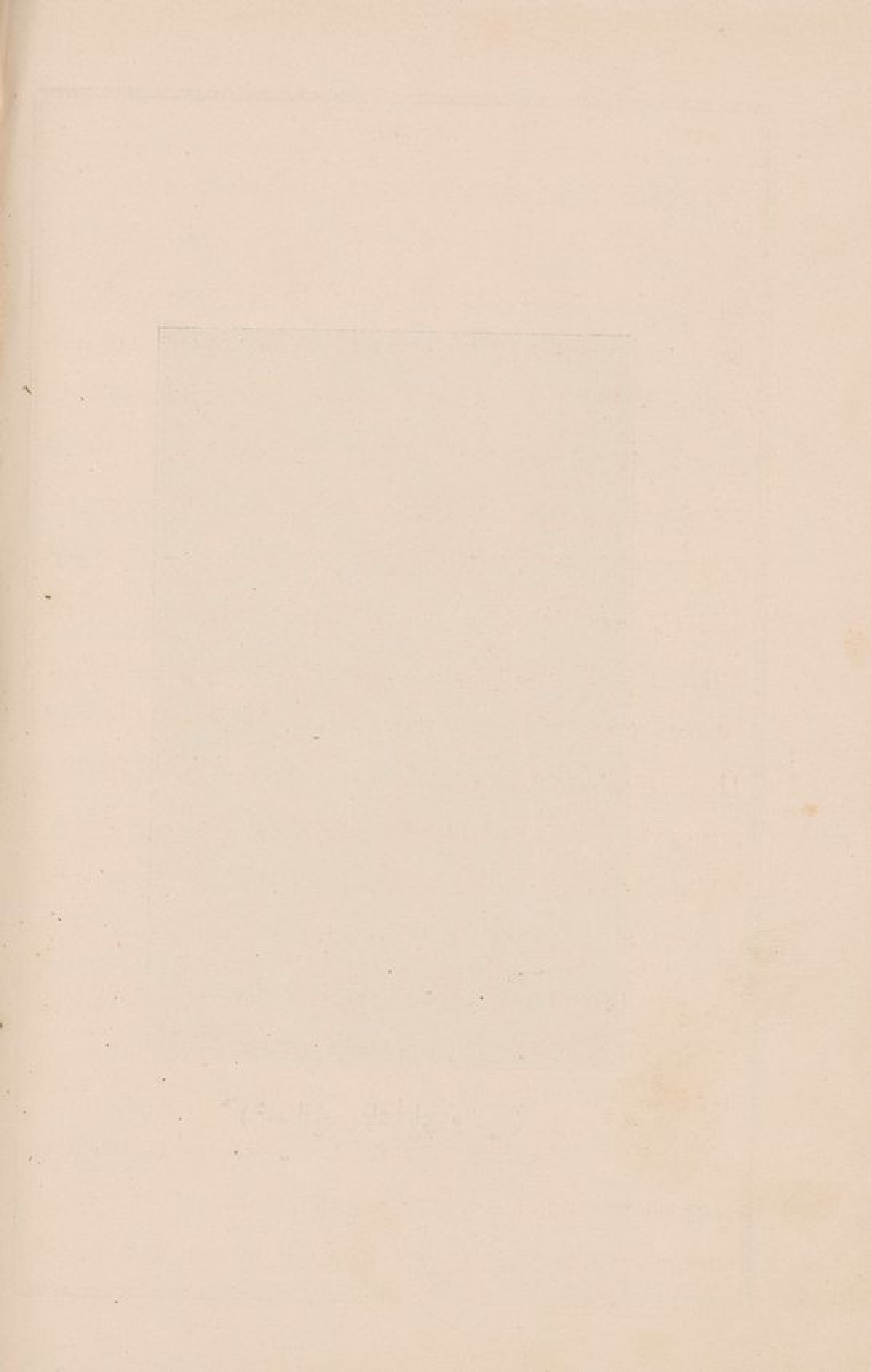
الف مقاتل فدارت الدائرة على الجزائريين ثم تصالح الفريقان . وتوفي حموده باي وكانت مدة ولايتهِ من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٨١٤ وخلفهُ اخوهُ عثمان باي ولكنهُ لم يهنأ بالولاية لانهُ قتل في تلك السنة . وخلفهُ محمود باشا باي كان محبًا للسلم مع اوروبا والجزائر وتوفي بعد ان حكم من سنة ١٨١٤ الى ١٨٢٤ وقام بعدهُ ابنهُ حسين باي الذي عقد الشركات مع بعض الافرنج لاستخراج المرجان في السواحل وكانت مدة ولايتهِ من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٣٥ . وحكم بعده اخوهُ مصطفى باي من سنة ١٨٣٥ الى سنة ١٨٣٧ . وخلفهُ ابنه احمد باي فنظم الجيش والبحرية وسار على خطة الوداد مع اوروبا ولا سيما مع فرانسا فانهُ ذهب الى باريس وقوبل بالاكرام الزائد ثم توفي سنة ١٨٥٥ فخلفهُ ابن عمهِ محمد باي ولكنهُ اظهر العدوان لفرانسا وحدثت لهُ مشاكل معها وكانت مدة ولايتهِ قصيرة اعني من سنة ١٨٥٥ الى سنة ١٨٥٩ وخلفهُ محمد الصادق باي وكان فاتر الهمة تاركاً لوزيره مصطفى خزندار التصرف المطلق في تدبير شؤون الحكومة . وكان هذا الوزير يقترض الاموال الطائلة من اوروبا بفائظ فاحش قيل انهُ جمع لنفسهِ ثلاثين مليون فرنك من هذه الديون وغيرها فوقعت تونس في ارتباك مالي واشتدت حاجتها الى المال لدفع ماهيات الموظفين فصبت المدافع النحاسية وضربتها نقوداً دفعت منها اليهم والى غيرهم باعتبار قطعة النحاس قرشاً صاغاً . وقد حدث مثل هذا في مصر ايام الخديوي اسماعيل فانهُ صرف للموظفين بالحكومة جانباً من الماهية نقوداً نحاسية بقيمة النقود الفضية . ولكن هذا لا يذكر امام التقصير في دفع فوائظ الاسهم من حكومة تونس للمداينين الاوروبيين لانهُ نتج عن ذلك تشكيل لجنة دولية للنظر في المالية التونسية كما حصل في مصر ايام اسماعيل باشا . ومما زاد الطين بلة ان المال المفروض على القبائل والافراد والممتلكات زاد لتسديد فوائظ الديون فنتج من ذلك ثورة وخاف الاوروبيون على ارواحهم واموالهم فساقت فرانسا عساكرها من الجزائر الى تونس واحتلتها بدعوى تعضيد الباي وصيانة ارواح واموال رعاياها ومنع تعدي قبائل التونسيين على اراضي الجزائر وطلبت من محمد الصادق باي وضع ولاية تونس تحت حمايتها . وكان القنصل الفرنسوي في تونس المسيو روستان من اهل الحزم والقوة عرفهُ اهل الاسكندرية لانهُ ناب فيها عن دولتهِ زماناً وهو مثل المسيو تريكو الذي كان قنصل فرانسا الجنرال في مصر ايام تنازل اسماعيل باشا وقد ذهب القنصل المذكور الى قصر الباي ومعهُ العساكر فخاف الباي ورضي بوضع ولاية تونس تحت حماية فرانسا ووقع على المعاهدة في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ في قصر السعيد . ومن وقتها صارت فرانسا صاحبة الحل والعقد وعينت من قبلها وكيلاً (رزيدان) او هو المقيم او الحاكم العام ينظر في جميع شؤون

البلاد . ومن بعد مرور سنة توفى محمد الصادق باي وكانت مدة ولايتهِ من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٨٢ . وقام بعدهُ اخوه علي الصادق باي اضطرَّ ان يسير حسب المعاهدة فهجر قصر الباردو وبنى لهُ قصراً في المرسى وكان علي باي على جانب عظيم من العلوم والمعارف عرف بالصلاح وطيبة القلب وتوفي سنة ١٩٠٢ فخلفهُ ابنهُ محمد عبد الهادي باشا باي . وبما اني تشرفت بمقابلة سموهِ في قصرهِ في درمش في تونس حين كان ولي العهد فترى الكلام عن سموهِ في وصف تونس وقد ارسلت من مصر تلغرافًا الى سموهِ حين تولى تونس فيهِ تعزية وتبريك وكانت مدة ولايتهِ من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩٠٦ . وخلفهُ ابن عمهِ الحالي سمو الباي محمد الناصر باشا ولهُ منزلة كبرى عند التونسيين والفرنسويين وقد توسموا فيهِ خيراً فذهب للحال مندوب من طرف الوزير المقيم الفرنسوي لقصر الباي الجديد في سيدي ابي سعيد ليقدم لسموهِ التعزية باسم الجمهورية الفرنساوية وفي الغد جرت حفلة الولاية وهي في تونس لها شأن عظيم فاقت كل الحفلات في عهد سمو الباي الحالي ودامت طول النهار فاصطفت العساكر من فرنسويين وتونسيين على الجانبين وكانت البلدة عن بكرة ابيها تتفرج على الموكب الذى قام من قصر الباي في سيدي ابي سعيد الى قصر الباردو الرسمي في المدينة وكان الباي جالسًا في العربة الاميرية ووراءها العربات تقل آل البيت الحسيني ورجال الحكومة فاحتشدت الناس الوفًا مؤلفة لتحي الباي الجديد . فلما وصل الموكب الى قصر الباردو (سنذكرهُ في وصف تونس) كان الناس يصيحون «فليعش سمو الباي» حتى دوى الفضاء بصياحهم وعزفت الموسيقى سلام الباي ثم دخل سموهُ قاعة العرش وجلس فوقهُ من حولهِ آل البيت الحسيني الكريم والوزراء والعلماء والمشايخ وحين ذاك تقدم الباش شاطر ونطق بصيغة الولاية ومن بعدها استقبل سموهُ رجال الحكومة العظام وقناصل الدول ثم عاد بالعز والاقبال الى قصرهِ حيث تمت حفلة وجيزة قلد بها ابن عمهِ الامير سيدي محمد الحبيب شعار ولاية العهد

وقد اجمع الجميع من تونسيين وفرنسويين على حب سمو الباي الحالي واعتبارهِ لانهُ طاهر القلب يحب بلاده حبًا مفرطًا ويعمل على ترقية رعاياهُ وتقدم بلادهِ



(محمد الناصر باشا باي تونس)



تونس

هي ترشيش القديمة وقداطلق عليها العرب اسم تونس بعد الفتح الاسلامي لانهم في ما روى احد المؤرخين جاءوا هذه الجهة واقاموا فيها مضاربهم فسمعوا رهبان الروم في الليل ترتل الانغام وقالوا ان هذه بقعة تؤنس فبقي لها هذا الاسم الى الآن . وذكر ابن ياقوت انهُ سأل بعض النصارى عن حقيقة اسمها فقالوا انها تنس ومعناهُ ماتقدم . وقداشتهرت في كتابات العرب باسم تونس الخضراء على حد قولهم حلب الشهباء ودمشق الفيحاء وهي في منبسط من الارض تدور بها بحيرة من الشرق والشمال طولها ٦ اميال وعرضها ٨ ومسافتها نحو ١٠ وعمقها لا يزيد عن مترين . وقد كان موقع هذه البحيرة ارضاً تزرع فطغى عليها ماء البحر وصيرها بحيرة . ولما كانت بحيرة تونس قليلة العمق فهم كانوا يلقون عناء في نقل الابضعة الى المدينة لان البواخر كانت ترسو في البحر وتفرغ ابضعتها في صنادل تسير في البحيرة الى الكمرك فتلافت احدى الشركات هذا الامر وحفرت ترعة في وسط البحيرة طولها ٦ اميال وعمقها يكفي لان تمخر البواخر فهي الآن تدخل من هذه الترعة وترسو في الميناء الذي انشئ لهذه الغاية وتفرغ شحنها في الكمرك

ويقدر اهل تونس الآن بحوالي ١٤٠٠٠٠ نفس منهم ٧٠٠٠٠ مسلمون و٤٠٠٠٠ يهود وهم اي اليهود فيها وفي كل بلاد تونس طائفة كبيرة بسبب ارتحالهم اليها من فلسطين بعد خراب مملكة اسرائيل وزاد عددهم ايضاً من مهاجرة القوم اليها من اسبانيا حين طردهم المسلمون . وبقية السكان نصارى منهم ١١٠٠٠ من ايطاليا و١٠٠٠٠ من مالطة فمعظم الاوروبيين فيها من هذين القطرين بسبب اقترابها منها فان مدة السفر من تونس الى مالطة ١٤ ساعة والى صقلية من اعمال

ايطاليا ١٢ ساعة

وهواء تونس طيب على الجملة يقرب من هواء سواحل الشام والحر يشتد بها بسبب موقعها الجغرافي . وتقسم هذه المدينة الى اربعة احياء هي حي المدينة وحي باب سويقه في الشمال وحي الجزيرة في الجنوب وحي الافرنج في الشرق . اما حي المدينة فلهُ سور قديم فيهِ خمسة ابواب هي باب سعدون في الغرب وباب سيدي عبد السلام في الشمال و باب الخضراء في الشرق و باب عليوه و باب الفتح كلاهما في الجنوب . ويقال عَلَى الجملة ان هذه المدينة من المدائن الجميلة لان تقدم البلاد وهمة الحكومة الفرنسوية ساعدا عَلَى تحسين شوارعها ومتنزهاتها وساعدهم في هذا التحسين وجود اراضٍ من بدء باب المدينة الى شاطيء البحر كانت فيما مرَّ ارضاً مهملة ينبع الماء في جوانبها فردموها وبني فيها حي الافرنج الحالي وفي اولهِ شارع اسمهُ شارع فرانسا تكثر فيهِ المخازن الكبرى حيث تباع نفائس الاشياء الباريسية وفيهِ الحانات الجميلة بعضها يلي بعضاً حتى ان المرء ليظن نفسهُ اذا قعد فيها انهُ في قهاوي مرسيليا بشارع الكنابيير . وفي هذا الشارع النادي العسكري تعزف الموسيقى فيهِ مرتين في الاسبوع فتتزاحم اقدام القادمين الى هذه القهاوي حتى لا يبقى فيها موضع خالٍ في بعض الاحيان ويتصل شارع فرانسا بشارع المينا او شارع البحر طولهُ ٥٠٠٠ متر وعرضهُ ٦٠ متراً وقد غرست في وسطهِ الاشجار عَلَى نسقٍ يشبه ما في منشية الاسكندرية ولكن المنازل فيهِ قليلة القيمة وفي اول هذا الشارع الى الشمال الكنيسة الكبرى والى اليمين قصر الحاكم العام الفرنسوي (ريزيدان) وفي آخر هذا الشارع تمثال المسيو جول فري وهو الذي كان رئيس وزارة فرانسا حين احتلت جنودها بلاد تونس صنعوهُ واقفاً على قاعدة من الرخام والى جانبهِ تمثال فتاة بيدها غصن زيتون علامة السلام . والى الجانب الآخر

تمثال فلاح يحمل ادوات الزراعة بيده · والشارع المذكور ممتد من الشرق للغرب تشطره عدة شوارع أخرى من الشمال الى الجنوب وقد اطلقوا اسماء الممالك على هذه الشوارع مثل شارع روسيا وشارع انكلترا والنمسا وايطاليا واسبانيا وغير هذا من الاسماء

والمدينة قسمان منفصلان احدهما افرنجي وهو الذي مرَّ ذكرهُ والآخر عربي يفصلهُ عن القسم الآخر باب كبير دخلت المدينة العربية منهُ ورأيت في اعلاهُ كتابات عربية وتقدمت الى الشوارع فالفيت اكثرها ضيق ولكنها اكثر نظافة من الشوارع المصرية ووجدت ان حوانيتها صغيرة نوعاً ولكنها ملأى بالاشكال والالوان وقد راق لي منظر سوق الخضر والفواكه وحسن تنسيقها · وقد بنوا السوق العمومية هنا عَلَى شكل سوق الاستانة ولو انها اقل اهمية وجعلوا اسواقاً كثيرة تتفرع منها لكلٍ منها اسم الشيء الذي يباع فيها مثل سوق البلاغجية او هي لبيع الاحذية وسوق العطارين تتضوع من حوانيتها روائح العطر · والورد في هذه البلاد معروف بالجودة وروائح المسك والبخور والند وهم يوقدون بعض هذه الاصناف تشويقاً للطالبين. وسوق الدلالين يدور فيها الرجال حاملين البسط والاحرمة على اكتافهم وفي ايديهم الخواتم والحلى والساعات وفي اعناقهم السلاسل يعملون على بيعها بالمزاد ذاهبين آيبين · وهنالك مخازن كبرى ووكالات تباع فيها المنسوجات الحريرية والبسط الصوفية والبرانس الحريريةَّ الجميلة الالوان ينتابها السياح ويشترون منها مقادير في كل عام · وعلى مقربة من هذه السوق جامع الزيتونه وهو جامع قديم مشهور بني سنة ١٤١ هجرية وفيهِ المدرسة الاسلامية تلقي دروسها على الطلاب مثل الجامع الازهر ولكن دخول الجوامع غير مباح لغير المسلمين في كل بلاد تونس خلافاً لبلاد الجزائر · وعَلَى مقربة منهُ جامع سيدي

ابن العروس قام في موضع كنيسة اسبانية قديمة شهدناهُ من الخارج. وداومنا المسير
حتى بلغنا القلعة واسمها عندهم القصبة وهي قديمة بناها الاسبانيون واحتلها الاتراك
زماناً وغيَّر الفرنسويين هيئتها بعد احتلالهم وهي الآن منزل الحامية الفرنسوية .
ولهذه القلعة ذكر في التاريخ بحوادثها العظيمة من ذلك انهُ لما تقدم ملك اسبانيا
كارلوس الخامس لفتح تونس في سنة ١٥٣٥ كان في هذه القلعة عشرون الف
اسير من النصارى سجنهم خير الدين باشا فكسروا الابواب وخرجوا لمساعدة الملك
على الدخول كما مرَّ في المقدمة التاريخية . وقد ذكرنا ان المسلمين من اهل هذه
المدينة ٧٠ الفاً وربما كانوا اكثر فهي فيها ساحات رحبة ولكنها خالية من
الاغراس والاشجار وبرك الماء على النسق الافرنجي فكل ما هنالك بعض القهاوي
يجلس الرجال فيها الى مقاعد او دكك من الخشب بعضها مفروش بالبسط والبعض
بلا فرش وهم يتربعون على هذه المقاعد بعد نزع الاحذية او يقعدون على الكراسي
يشربون القهوة وماء السوس ولا يدخن منهم الاَّ القليل . وقد يجتمع حوالي
الف منهم في ساحة واحدة ولاسيما ساعة الغروب في ساحة جامع سيدي محرز حيث
ترى الهيئة التونسية على اتم أشكالها . ولما كانت الشوارع كلها ضيقة في الاحياء
العربية لا تكفي لمرور العربات فقد بنوا خطاً لعربات الترامواي تجرها الخيل في
محل السور القديم حول المدينة من خارجها اولهُ عند باب المدينة الذي ذكرناهُ
ويمر على اليمين في شارع باب السويقة فشارع المالطيه فشارع قرطاجه ثم يمر امام
القلعة ويتجه بعد ذلك شمالاً الى شارع الجزيرة حتى يبلغ باب المدينة من الشمال بعد
مسير نصف ساعة يرى الراكب في خلالها هيئة هذه المدينة وشوارعها واسم
الشارع نهج

☀ قصر الباردو ☀ ذهبت في هذا اليوم الى قصر الباردو وهو لفظ اسباني

معناهُ المتنزه وقد مرَّ وصف الباردو في فصل الكلام عن مدريد من هذا الكتاب
واما باردو تونس فانهُ كان قصر البايات في الزمان الماضي موقعهُ الى شمال تونس
عَلَى مسيرة كيلو مترين . وقد احاطوهُ بسور بنوا من داخلهِ عدة قصور ومنازل لهم
وثكنة للجنود وداراً للقضاء وسجناً وكل هذا داخل السور على طريقة القلعة في
مصر مدة ايام محمد علي . وكان الباي ينتقل كل يوم من منزلهِ الى دار المحكمة او
الديوان حيث يجتمع الوزراء والمشيرون بين يديهِ ويبتون في امور البلاد ولكن
علي باشا وهو الباي الاسبق ترك هذا المكان بعد الاحتلال الفرنسوي وبنى لهُ
قصراً في المرسى سنعود الى الكلام عنهُ . ولا شيء في الباردو من عظمة البناء
وجمالهِ غير انهُ كثير الاتساع يمل المرء من التجول في جوانبهِ لانهُ يدخل من ردهة
الى ردهة ومن صحن الى صحن ومن ممرٍ الى ممرّ وفيها مسافات بعيدة . على انني
صعدت سلماً من الرخام الى جانبهِ من هنا ومن هنا تماثيل ثمانية سباع من
الرخام الابيض وكان حارس القصر معي . وقد ولجت ردهة واسعة مبلطة بالرخام
الابيض وحولها رواق قام على عمد مستدقة من الرخام قيل انها نقلت من قرطاجه
وقد نقشوا على جدران هذا الرواق نقوشاً عربية جميلة وآيات قرآنية . وتحت هذا
الرواق قاعات فهي تحكي قاعات قصر شبرا في مصر ورواقه . ودخلت ردهة ثانية
مبلطة بالرخام الابيض كالاولى وفي وسطها بركة وحولها رواق قائم على ٨٠ عموداً
دقيقاً وجدرانهُ ملبسة بالقيشاني الجميل ازرق واخضر . واما القاعات فكثيرة العدد
اذكر منها قاعة كانت محكمة في صدرها عرش كبير يرتقى اليهِ على ذروتين وكلهُ
مذهب ومكسو بالحرير الاحمر كان يجلس الباي اليهِ ومن حولهِ الكراسي الاخرى
للاعضاء والاعوان . ومنها قاعة الاستقبال وهي واسعة كبيرة في صدرها عرش
يرتقى اليهِ فوق ثلاث ذرى وهو مذهب ايضاً ومكسو بالقطيفة الحمراء تتدلى منهُ

شراريب القصب وفي اعلاهُ الهلال والنجمة وهما شعار الولاية التونسية . هنا
تجري التشريفات التونسية الكبرى في ايام المواسم والاعياد اذ يأتي سمو الباي
بموكب حافل وهو بملابسهِ الرسمية وسيفهِ ونياشينه ويقابل وفود المهنئين من رجال
الحكومة الوطنيين والاجانب وكلهم بالملابس الرسمية والنياشين وعادة الوطنيين
ان يقبلوا راحة الباي عند السلام خلافاً للمصريين فانهم يقبلون ظاهر يد الامير
وقد ذكر لي احد التونسيين ان التشريفات عندهم مهيبة لان القادم يحيي الباي بما
يليق بمقامهِ فيصدر الباي امره الى احد رجال التشريفات ان يبلغهُ الجواب . وقد
زينت هذه القاعة من قدم برسوم الملوك والبايات بقدهم الطبيعي داخل براويز
مذهبة منها صورة محمد باي وحسين باي واحمد باي وصادق باي وهو الذي امضى
المعاهدة مع حكومة فرانسا في شهر مايو سنة ۱۸۸۱ . وهنالك صورة فيكتور
عمانويل الثاني ملك ايطاليا ونابوليون الثالث وامبراطور النمسا الحالي في سن
العشرين وهو السن الذي كان بهِ يوم زار تونس . واثمن هذه الرسوم صورة لويس
فيليب ملك فرانسا رسمت على قماش من معمل دوبلين الشهير وثمنها لا يقل عن
مئة الف فرنك . وصحبنا الحارس بعد ذلك الى قسم في القصر كان معداً لزوجات
محمد باي الاربع الشرعيات وفيهِ ردهة عظيمة ارضها رخام ابيض وفي كل من
اركانها الاربعة غرفة لاحدى الزوجات ولهنَّ جميعاً قاعة عمومية عرفت بقبتها
الشاهقة يسطع ذهبها الوهاج وقد زخرفت بالمرائي الصغيرة براويزها زرقاء وحمراء
وبيضاء . وعلى الجملة فهم بالغوا في اتقان هذه القاعة وزخارفها اكراماً للزوجات
المذكورات وقد اصبحت هذه القاعة والغرف والردهات جزءًا من المتحف العلوي
دعي باسم علي باي جمعوا فيهِ كل ما في بلاد تونس من العاديات والآثار
والنفائس التاريخية ونقلوا اليهِ ما وجدوا من الفسيفساء من المعابد الرومانية

ورصوها في هذا المتحف على يد صناع من مهرة الطليان وهي كثيرة بلغت مساحتها ١٣٧ متراً مربعاً . وهنالك قبور قياصرة رومية وتماثيل منها تمثال من حجر الصوان لاورفه من الهة الموسيقى عند الاقدمين وفي يدها قيثار وحولها اشكال وحوش البر كأنها تسمع وتطرب لشجي الانغام

❊ البرنس محمد الهادي بك ❊ وقد زرت في هذا اليوم سمو البرنس محمد الهادي بك ولي عهد تونس يومئذٍ وهو الباي السابق كنت قد عرفتهُ في فيشي من مدن فرانسا فتلطف حفظهُ الله وتنازل الى دعوتي لزيارتهِ اذا ما اتيت تونس . ذهبت الى قصرهِ في درمش وهي من ضواحي المدينة على شاطيء البحر فارسلت بطاقتي ولما دخلت عليهِ حياني باللطف والترحيب وخاطبني بلسانهِ الطلق وقدهابني منظرهُ الوقور وقامتهُ الطويلة وجبينهُ العالي وعيناهُ السوداوان البراقتان يرى المرء من حديثهِ وملامحهِ في الحال مقدار ذكائهِ واقدامهِ ولجنابهِ شهرة في الاقتدار السياسي والاداري والمالي وفي حل المعضلات زار باريس مراراً وقصدها في هذا العام ايضاً بالنيابة عن والدهِ في معرضها العام فقابلهُ رئيس الجمهورية بما يليق بمقامهِ السامي من الاكرام وانزلهُ ضيفاً كريماً في القصر الذي أُضيف بهِ شاه العجم . ولما مثلت بين يديهِ استدعى انجالهُ الكرام وعرفني بهم فلما انتهت المقابلة رافقني هؤلاء الانجال الى حديقة القصر وفي بعض انحائها لهم الخيول المطهمة العربية تحكي الغزلان في رشاقتها وسرعة المسير . وقد برحت القصر شاكراً ما لقيتهُ من لطف اصحابهِ الفخام

❊ البرنسيس ناظلي هانم ❊ وزرت في هذه المدينة ايضاً دولة البرنسيس ناظلي هانم وهي من صاحبات المقام الخطير بين اميرات البيت الخديوي الكريم كانت في قصرها في حلق الوادي حيث تمَّ عقد زواجها بحضرة السري سليل

الكرام خليل بك بو حاجب . وقد تنازلت حفظها الله ودعتني للطعام بعد ان
قابلتني بالاكرام فسمعت من درر اقوالها وشهدت من صائب آرائها ما شهد بهِ قبلي
العارفون واشتهر عن هذه الاميرة الكريمة بين الشرقيين والغربيين . وكنت
مدة اقامتي في تونس اتردد الى هذا البيت الكريم فتعرفت بهِ بالشاب النبيل
السيد شاذلي بكوش ابن بكوش باشا الذي كان ناظر خارجية تونس ولهُ قصران
فخيمان احدهما في مدينة سيدي ابو سعيد على شاطيء البحر والثاني في اريانا من
ضواحي تونس في جهة الشمال وهو القصر الذي ذهبت اليهِ مع السيد شاذلي
وقد رأيت من هذا الشاب ذكاء وعلماً وهو من الذين درسوا الحقوق في باريس
وحالما دخلت القصر رأيت ادلة النعمة والترف لان كل جوانبهِ مبلطة بالرخام
الابيض وقاعاتهُ فسيحة بديعة فرشت بفاخر الطنافس ونفيس الاطالس وفي جملة
رياشها حرير دمشقي احمر معرق مضى عليهِ نحو ٥٠ سنة وهو كأنهُ جديد الآن
وتمشيت مع هذا الشاب السري في حديقة القصر فاذا هي ملأى باشكال الشجر
والزهر من افريقية واوروباوية وبعضها نادر المثال . ومن سراة تونس المعدودين
آل بيرم وبو حاجب وعياد وهي بيوت كان لها صولة في الايام الماضية وكان
افرادها الحاكمين . واهل الطبقة العليا من التونسيين يلبسون الملابس الافرنجية
ولكن طرابيشهم مغربية لها ازرار طويلة تصل الى الاكتاف وقد صار الشبان
يلبسون الآن الطربوش الاسلامبولي المعروف . واما النساء فخروجهن نادر وهنَّ
تضرب الامثال بعفافهنَّ ورزانتهنَّ . ونساء اليهود من الطبقة الاولى يلبسنَ
مثل الافرنجيات واما نساء الطبقة الوسطى فانهنَّ يلبسنَ سراويلات بعضها فوق
بعض حتى تصبح الواحدة منهنَّ مثل البرميل ومن فوق الكل شال احمر افرنجي
او برنس تونسي وعزيزية طويلة على الرأس

✻ بلفيدير ✻ لا بدّ للفرنساويين ايما حلوا من متنزهات ينتابونها كما ينتاب اهل باريس غاب بولونيا وغيره وهم ذوو همة في تحسين المدن حتى ان مدن فرانسا ولو صغرت لتعد من اجمل مدائن الاوروبيين . وقد وجدوا على مقربة من تونس في جهة الشمال ارضاً بعضها مرتفع والبعض منبسط فجعلها المجلس البلدي متنزهاً اطلق عليهِ اسم بلفيدير اي المنظر الجميل وقرران ينفق عليها ٢٠ مليون فرنك وقد قصدت هذا المتنزه فاذا هو مثل المتنزهات الفرنسوية في رسم اشكالهِ وشجرهِ وغرسهِ ومناظرهِ وقد بلغت قمتهُ بالعربة فرأيت منها مدينة تونس كلها بيضاء ناصعة لانهم يطلون جميع جدرانها بالكلس الابيض وتظهر الضواحي ايضاً من هذه القمة واضحة واحدة بعد واحدة على شاطيء البحر

✻ الضواحي ✻ والضواحي كثيرة حول تونس لما ان البحر يحيط بالمدينة من الشرق والشمال وقد بنيت على ضفافهِ المدن الصغرى مثل حلق الوادي وخير الدين وقرطاجه والمرسى وسيدي ابو سعيد • ومدت احدى الشركات الطليانية سكة حديد من المدينة الى هذه الضواحي طولها ١٦ كيلو متراً فاشتراها الفرنساويون بثمن بالغ حتى تكون المصالح كلها في يدهم • وتبدأ هذه السكة من حي الافرنج حيث يقوم كل ساعة في النهار والليل ويكثر الركاب ولا سيما في الليالي المقمرة • واليك بيان هذه الضواحي واحدة بعد واحدة حسب وضعها الطبيعي

✻ حلق الوادي ✻ واسمها عند الفرنساويين لاجوليت كانت مرفاء تونس القديم ولكنها ضاعت اهميتها بعد حفر الترعة في وسط البحيرة وبناء الميناء الجديد ولكن حسن موقعها على شاطيء البحر وانشاء سكة الحديد اعاد اليها الرونق السابق فقامت فيها الاحياء الجديدة على شاطيء البحر ويعد اهلها الآن بستة آلاف

﴿ خير الدين ﴾ دعيت باسم خير الدين باشا وزير تونس وهو الذي صار الصدر الاعظم في الدولة العلية ولهُ هنا قصر . وهي مدينة صغيرة يكثر قصادها للاستحمام بالحمامات البحرية وقد جعلوا قصر خير الدين فندقاً وملهىً فالناس تتنابهُ عند الغروب لتناول الطعام والشراب في الموائد الممدودة على شاطئ البحر وفي الليل يدخلون التياترو وكل المشخصات فيهِ من يهوديات تونس المعروفات بالملابس المزوقة الحسناء

﴿ قرطاجة ﴾ لها شهرة من ايام الفينيقيين كما ذكرنا في المقدمة التاريخية وهي قريبة من محطة سكة الحديد ذهبت مع دليل كان يدلني الى حدود قرطاجة القديمة من الجهات الاربع وكل الاراضي المتاخمة لها تزرع الآن قمحاً وشعيراً وهي اراضي يكفي النظر اليها للعلم بما كانت دولة قرطاجه عليهِ من الثروة والقوة حتى انها حاربت سلطنة الرومانيين ثم دالت دولتها فما بقي من آثارها الاَّ الساحة التي كان جمهور الرومان يؤُمها في مدائنهم وتعرف باسم فورم وفيها حتى الساعة اعمدة او قطع منها مبعثرة في جوانب الارض . وفي صدر هذا الموضع كنيسة صغيرة تتلى فيها الصلوات احياناً للشهداء الذين قتلوا في هذه الساحة حين كان الرومانيون يضطهدون النصارى و يطلقون عليهم الضواري في مثل هذه المواضع وكان الرومانيون يعدون الفرجة على هذه المشاهد من اعظم المسرات . وزرنا الصهاريج الرومانية وهي مبنية بالطوب الاحمر وكلها طويلة قليلة العرض غير عميقة وربما كان عدم عمقها من رسوب الاكدار والغبار فيها مدة هذه القرون حتى انها كادت تساوي سطح الارض وقد جعلها الفلاحون في هذه الايام مساكن لهم او زرائب لمواشيهم . وذهبت من هنالك لارى آثار الكردينال لافجري وهو كاهن فرنسوي عظيم وقد بنى متحفاً عظيماً جمع فيهِ آثار دول قرطاجه ورومية

و بزانتيوم واسبانيا والعرب والترك جعلوا اقساماً في كل منها الوف من هذه الآثار . وفيهِ قبور قياصرة رومية نقشت اسماؤهم عليها ولا سيما المواقع التي فازوا فيها . وهنالك مطاحن حجرية وآلات فلكية واسلحة قديمة كثيرة الانواع ومصابيح وحلى ونقود من الذهب والفضة والنحاس والزجاج وهي اي نقود الزجاج نادرة المثال . وفيهِ موازين واقفال ومفاتيح رومانية من الخشب كالتي تستعمل في قرى مصر والشام الآن واشياء أُخرى لا تعد . والى جانب هذا المتحف الكنيسة بنيت سنة ١٨٤٢ حيث مات ملك فرانسا لويس التاسع وهو المعروف باسم القديس لويس سنة ١٢٧٠ عند رجوعهِ من بعض الحروب الصليبية لانهُ زار المطعونين حين تفشى الوباء فمات بهِ واقاموا لهُ التمثال . وقد بنى الكردينال لافجري في سنة ١٨٩٠ كنيسة كبرى لها ثلثة ابواب وهي قائمة على صفين من عمد الرخام مذهبة الرؤوس وفيها كثير من آنية الذهب والفضة تراها العين كيفما اتجهت في ذلك البناء وانفقوا اموالاً طائلة في زخارف السقف وكتبوا اسماء المتبرعين لها بالمال على الجدران فهي بالجملة من الكنائس الفخيمة لا نظير لها بين كنائس اللاتين في مصر واسكندرية مع انها لا يؤمها للصلاة الاَّ قليل من الرهبان ومن يقصدها من نصارى تونس مرة كل سنة في عيد مار لويس . وفي هذه الكنيسة قبر الكردينال لافجري بانيها وتمثالهُ وضع بعد وفاتهِ فوق القبر متكئاً وبيدهِ كتاب . كل ذلك عمل من الرخام الابيض الناصع

وفي قرطاجه فندق صغير فيهِ نحو عشرين غرفة لمندوبي الجمعيات العلمية وغيرهم وهم يأتون من انحاء اوروبا فينقبون زماناً ويبحثون ثم يعودون لنشر خلاصة ما رأوا من الآثار . ولكن انقاض هذه المعابد والقصور واجزائها فرقتها الايدي من زمان طويل حتى انهم يقولون ان كل معابد تونس من جوامع وكنائس بنيت

من حجارة المباني القديمة في قرطاجة . وكأن هذا لم يكفها حتى انهم نقلوا كثيراً من بقايا القدماء الى مالطه وصقليه وبنوا بها ما عندهم من الكنائس والقصور فما بقي من تلك العظائم غير اراضٍ زراعية للرهبان يؤجرونها للفلاحين فسبحان مغير الاحوال

﴿ المرسى ﴾ لما احتلَّ الفرنسويون تونس وبسطوا حمايتهم عليها ترك علي باي قصر الباردو وتوطن المرسى مع اهل بيتهِ في قصر بناهُ . وقد رأيت العلم التونسي يخفق عليهِ دليل وجوده في القصر وهو توفي فيهِ . وليس لهذا القصر جمال ظاهر ولكنهُ بني في ارض واسعة كبيرة ولهُ باب بالغ العلو يقف امامهُ رجال الحرس الخصوصي للباي يلبسون مثل جنود الدولة العلية غير ان طربوشهم تونسي لهُ شرابة طويلة وحلية من القصب فوق جهة الجبين هي شعار تونس فترى هؤلاء الجنود يخطرون امام القصر والناس تمر من الساحة الكبرى التي تحكي ساحة قصر عابدين يريدون الذهاب الى القهاوي الواقعة على شاطىء البحر

﴿ سيدي ابو سعيد ﴾ وهذه مدينة صغيرة جميلة بنيت على مرتفع فوق ماء البحر وبعدها عن المرسى قليل تكثر فيها كروم العنب والزيتون الشهية في وسطها البيوت البيضاء وهواؤها جيد صحي فاغنياء المسلمين بنوا فيها المنازل او استأجروها لقضاء اشهر الصيف فراراً من حر تونس وهو يشتد كثيراً في فصل الصيف

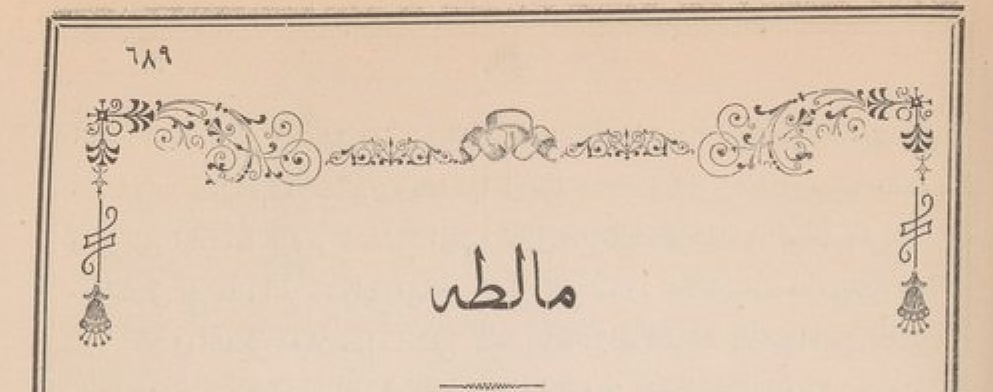
﴿ حمام الانف ﴾ ان كل ما تقدم ذكرهُ من الضواحي واقع الى شمال مدينة تونس ما خلا هذه فانها في الشمال الغربي وهي تعد المتنزه العمومي للمدينة يقصدها الناس بسكة الحديد وقد ذهبت اليها يوم احد حين تكثر القطارات فكنت أرى البحر في الطريق الى الشمال والمزارع البهية الى اليمين

وفي طرفها جبل ابي قرنين سموهُ بهذا الاسم لان لهُ راسين كالحراب في اعلاه
وعلوهُ ٦٤٠ متراً . ولما نزلنا في المحطة سرت مع الرفاق في طريق رصع بالحصى
والى جانبهِ المنازل الصغيرة كلها ذات دور واحد ومنظرها يشرح الصدور حتى
بلغت شاطئ البحر بعد مسير ربع ساعة فاذا بهم قد انشأوا على ضفتهِ طريقاً عظيماً
غرسوا فيهِ الاشجار الافريقية والاوروبية الى الجانبين يسير فيهِ الناس لاستنشاق
هواء البحر النقي . وفي هذا المكان تياترو بني على النسق المغربي رأينا فيهِ جوقاً
فرنساوياً من المغنين والراقصين وهم يأتون بمثل هذا الجوق في كل صيف وهناك
فندق وملهى وكازينو وحمامات كالتي توجد في كل المصايف البحرية في سائر
الاقطار

﴿من تونس الى مالطه﴾ وفي هذا اليوم برحت تونس فقامت الباخرة
في ترعة البحيرة السابق ذكرها وكانت تسير الهوينا سير البواخر في ترعة
السويس وجعلت مناظر تونس تضمر وتتضاءل حتى غابت عن العيون . ولما
دخلت الباخرة عرض البحر جدت في المسير وكان الليل قد بدأ فدخلنا غرفة
الطعام ووجدنا فيهِ رجالاً من وكلاء البيوت التجارية ذاهبين الى مالطه لشراء
الخروج (دانتيلة) منها لان هذا الصنف رخيص في مالطه جيد الصنعة تصنعهُ
بنات الفقراء بايديهنَّ ويبعنهُ برخيص الاثمان . وظهرت جزيرة مالطه في
الصباح بحصونها والمدافع فيها مصوبة الى جهة البحر والبوارج الانكليزية راسية
في موضعها وبواخر التجار في ميناء لها آخر . وقد كان شكل هذه الجزيرة ودخول
الماء في خلال ارضها مكوناً لاحسن المواني الطبيعية تضارع مواني بور سعيد
واسكندرية وهي التي انفقوا عليها الملايين . وقد ملكت دولة انكلترا هذه المواني
المعدة لمرادها بلا نفقة من ادلة حظها المشهور . وحالما رست الباخرة صعد الطبيب

في يدهِ الانجيل والصليب وجعل يطلب من كل راكب ان يقسم انهُ لم يأْتِ من مصر حيث انتشر الهواء الاصفر فلما جاءني ابرزت شهادة من قنصل انكلترا في تونس تدل باني تركت مصر من نحو ثلثة اشهر وكنت سائحاً في اوروبا والغرب فكان يلمسني بالصليب مراراً وهو يتلو عليَّ الايمان باني لست قادماً من مصر ولعل القوم يعذرون في هذا التشديد لان التاريخ يدل ان الطاعون والهواء الاصفر يفتكان في جزيرتهم فتكاً ذريعاً وليس لهم ملجأٌ غير تلك الجزيرة يفرون اليهِ





مالطه

خلاصة تاريخية

احتل هذه الجزيرة اجدادنا الفينيقيون الذين اشتهروا بمتاجرهم واطلقوا عليها اسم اوجاجيه وهو لفظ معناهُ الملجأ . وليس العلم بتاريخ استيلائهم على مالطه ميسوراً لما ان تاريخهم كلهُ غامض قليل الآثار وربما كان ذلك في اواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح ثم اخذها منهم الرومانيون في سنة ٢١٦ قبل المسيح واقاموا فيها ٧٠٠ سنة . قال ديودور المؤرخ الشهير ان الجزيرة نمت وتقدمت في تجارتها وثروتها مدة الرومانيين نمواً عظيماً . وقد ورد ذكرها في الانجيل حيث قيل ان بولس الرسول كان مسافراً في سفينة جنحت بهِ عند هذه الجزيرة في خليج اسمهُ خليج مار بولس الى الآن وهم يحجون اليهِ ويتباركون من الاغتسال بمائهِ . وكانت حادثة هذا الرسول على عهد طيباريوس قيصر رومية في سنة ٥٨ مسيحية وهو اقام في الجزيرة ثلثة اشهر وادخل اليها الدين المسيحي ونصب فيها اسقفاً يدعى بوبليوس . وبقيت مالطه في حوزة الرومان قروناً كما تقدم ثم انتقلت الى سلطنة القسطنطينية سنة ٣٥٥ مسيحية على يد قايد بيزانتي اسمهُ بليزاروس واطلق عليها في ذلك العهد اسم مليته اي العسل لكثرة هذا النوع فيها يومئذٍ ثم دخلت الجزيرة في حوزة العرب سنة ٨٧٠ فتحها قائد اسمهُ محمد بن الاغلب واطلق قومهُ عليها اسم مالطه بدل مليته فهو اسمها عندنا الى اليوم . وقد فتك العرب يوم هذا الفتح باهل الجزيرة فباعوا من نسائها واولادها عبيداً بقيمة ٥٠٠٠ اوقية ذهب وبنوا حصوناً جديدة فيها لرد هجمات الاعداء . وقد بقيت مالطه للعرب الى سنة ١٠٩٠ حين قام الملك روجر واكره حاكمها العربي على الرحيل باولادهِ واهل بيتهِ . ولما كانت سنة ١١٩٤ اقترن هنري الثاني امبراطور المانيا بالاميرة كونستانس بنت الملك روجر فاهداها ابوها جزيرة مالطه مهراً واصبحت الجزيرة بعدذلك من املاك قياصرة المانيا .وظلت على ذلك ٧٢ سنة تقدمت في خلالها ونمت حتى انها قويت على جمهورية بيزا ودمرت اسطولها . وفتحها في سنة

١٢٦٦ الامير شارل انجو شقيق لويس التاسع ملك فرانسا فبقيت في يد الفرنساويين حتى سنة ١٢٨٤ حين فتحها الاسبانيون وبقوا فيها الى سنة ١٥٢٠ وكان ملك اسبانيا يومئذٍ وامبراطور المانيا معاً كارلوس الخامس المشهور تنازل عن مالطه لفرسان مار يوحنا وهم اشهر من استولى على هذه الجزيرة وابقى فيها من الآثار فنحن نورد زبدة تاريخهم هنا موجزين

كان في القدس رهبان بنوا مستشفى للمرضى وكانوا ابداً عرضة للاعتداء من المسلمين حين مدتهم روميه بنجدة من الرهبان المسلحين عرفوا بالرهبان الفرسان كثروا وبعدت شهرتهم حتى ان اهل اوروبا كانوا في كل بلد يوقفون لهم الاموال والاملاك فزادت ثروتهم زيادة كبرى · ولكنهم قوي عليهم المسلمون وطردوهم من القدس فساروا تحت قيادة زعيم لهم اسمهُ فولك دي فيلاري الى جزيرة رودس سنة ١٣١٠ واستولوا عليها بعد معارك شديدة بينهم وبين المسلمين واليونان معاً فبقيت في حوزتهم قرنين وهاجمهم السلطان محمود الثاني باسطولهِ سنة ١٤٨٠ فمات قبل ان ينال منهم منالاً ولكن السلطان سليم الثاني رد الكرة عليهم سنة ١٥٢٢ بجيش عرمرم يزيد عن مئة الف مقاتل ودام الحصار الشديد خمسة اشهر استغاث رئيس الفرسان في آخرها بملوك اوروبا فلم يغثهُ غير كارلوس الخامس الذي ذكرناهُ مراراً فانهُ تنازل للفرسان عن جزيرة مالطه فخرجوا من رودس واتوا مالطه في العام المذكور · ولكن الاهالي لم يسلموا للفرسان الا بعد ان اقسم قائدهم وهو يومئذٍ فيليه آدم دي ليل ألا يعارضهم في لغتهم وامتيازاتهم وكان هذا القسم فرضاً على كل رئيس بعدهُ للفرسان · وزاد غنى الفرسان في اوروبا الكاثوليكية في هذا العهد من الاوقاف الكثيرة حتى بلغ ٥٠ الف جنيه في السنة وهو ايراد كبير جعل الجزيرة دولة قوية بثروتها وجنودها وسفنها واسلحتها فجعلت تسطو وتحارب وتوسع نطاق ملكها وشنت الغارة على جزائر الغرب وهي قريبة منها وسيرت اسطولاً لضبط السفن العثمانية التي كانت تمخر بين الاستانة وتونس حتى اضطرت السلطان سليمان ان يهمّ للانتقام منها فجرد عليها سنة ١٥٦٥ جيشاً واسطولاً تحت قيادة مصطفى باشا ومعهُ ١٨٠ مركباً و٣٨٣٠٠ محارب و٦٣ مدفعاً · وكان قائد الفرسان في ذلك العهد شجاعاً باسلاً اسمهُ لا فاليتا لهُ دراية بفنون الحرب ومعهُ ٤٧٤ فارساً من اخوانهِ و٨١٠٠ محارب يعضدهم الاهالي · فلما وصل الاتراك بدأُوا بمحاصرة الجزيرة في الحال واطلاق المدافع عليها ففتحوا الحصن الاول بعد شهر ورفعوا عليهِ راية آل عثمان وعدوا ذلك دليل الفوز التام ولكنهُ ورد على مالطه نجدات قوية من اسبانيا وايطاليا فارتد الاتراك عنها بعد حصار وحرب داما اربعة اشهر ورجع مصطفى باشا الى الاستانة وهو يقول ان هذه الطفلة اي مالطه لا

تعادل الخسارة الكبرى التي لحقت بجيشهِ لانهُ قتل من عساكرهِ نحو ٢٥ الفاً ومن الفرسان ٢٠٠ ومن بقية جنود مالطه ٣٠٠٠ ومن اهل الجزيرة ٧٠٠٠ ولما انتهت هذه الحرب رمم رئيس الفرسان الحصون فبنى لنفسهِ قصراً جميلاً على احدى ربوات مالطه وفعل بقية الفرسان فعلهُ وتمثل بهم الاهالي ايضاً فما مرّت اعوام حتى قامت فوق تلك الاكمة فاليتا عاصمة مالطه الآن واسمها من اسم هذا القائد المشهور • وقد توفي هذا القائد بالرعن في شهر مارس من سنة ١٧٥٠ ودفن في كنيسة مار يوحنا فبكاهُ الجميع وخلفهُ بطرس دل مونته في القيادة وهو رد الاتراك عن الجزيرة مرة أخرى لانهم هاجموها في السنة الاولى من حكمهِ وحاصروها ولكن قائدهم رجع في الحال حين علم ان المدافع في حصون مالطه واسوارها تعد بمئة وستين مدفعاً كبيراً من النحاس • وفي سنة ١٥٩٠ جاءت سفن من الشرق ورست في مالطه فادخلت الطاعون اليها وفتك باهلها فكان عدد الوفيات بهِ ٤٠٠٠ وفي سنة ١٦٢٢ توفي قائد الفرسان الوفيو وحصرت تركتهُ الخصوصية فكانت ٢٠٤٦٠ جنيهاً و ٢٠٠٠ خادم وخادمة • وكان رئيس الفرسان اذا ذهب في عيد او موسم الى الكنيسة يركب مركبة تجرها ٦ بغال تكسوها اقمشة مزركشة بالذهب ولها قيمة كبرى ويسير بموكب عظيم امامهُ ١٦ فتى من ابناء الاشراف لا يزيد عمر احدهم عن ١٦ سنة على الجياد المطهمة ووراء المركبة ٤٠٠ من الفرسان على الاقدام وغير هذه من آيات الفخر والابهة التي لم يأتها ملك او قيصر كبير • وكان ذلك اوجب البابا ان يقول ان هؤلاء الفرسان نسوا او تناسوا انهم رهبان • وقد اشترى الفرسان في سنة ١٦٥٠ املاكاً واسعة في اوروبا فتنعموا بايرادها زماناً ولكن الطاعون عاد الى الجزيرة سنة ١٦٧٥ فقتل من اهلها احد عشر الفاً وتلاهُ زلزال في سنة ١٦٩٣ دمر وزاد الخراب • وكانت مراكب الاتراك والمغاربة تكثر الاعتداء على مالطه في ذلك الزمان حتى ان المراكب التركية التقت سنة ١٧٠٩ بسفينة الاميرال المالطي وفيها ٥٠٠ نفس فاغرقتها بمن فيها • وكان في مالطه نحو ٤٠٠٠ مسلم تخلفوا فيها من قدم فلما علموا بانتصار اخوانهم عقدوا اجتماعاً سرياً تعاقدوا فيهِ على ان يقوموا في ساعة معينة ويذبحوا جميع الفرسان وجعلوا عيد بطرس وبولس موعد هذه الفعلة لان الفرسان يجتمعون يومئذٍ في الكنيسة ولكن مكيدتهم ظهرت لان ابنة فلاح جاءت من مزرعتها واخبرت الفرسان بالمكيدة فقبضوا على ٦٠ من المتآمرين واعدموهم • وفي سنة ١٧٦٨ امر قائد الفرسان وهو يومئذٍ بنتو بطرد الجزويت من مالطه وضبط اديرتهم واملاكهم فلما وصل المطرودون الى فرانسا واخبروا رهبان طريقتهم بما جرى لهم اضمروا السوء لرهبان

ماريوحنا ونشأ عن مساعيهم المتواصلة ان مجلس الشورى في باريس قرر سنة ١٧٩٢ ابطال طريقة الفرسان ومحو آثارها من فرانسا فضبطت الحكومة املاك الفرسان وكانت خسارتهم كبيرة لان اوقاف طريقتهم كانت شيئاً يستحق الذكر في بلاد الفرنسيس وايرادها لا يقل عن ٥٠ الف جنيه في العام . واقتدت الدول الاخرى بفرانسا مثل المانيا ونابولي واسبانيا فكلها ضبطت املاك الفرسان وكذلك انكلترا البروتستانتية فاثر ذلك في رهبان مالطه اشد تأثير واوقعهم في الارتباك لانهم كانوا في حاجة الى ايرادهم من تلك الممالك ولذلك عمدوا الى اخذ الاواني الذهبية من الكنائس وضربوها نقوداً رغماً عن معارضة الاتقياء من اهل مالطه الذين بدأوا يتضجرون من حكم الفرسان ولاسيما بعد ان اوقف الفرسان صرف الرواتب وساءت الحالة الداخلية كثيراً حين ظهرت مراكب الدولة الفرنساوية امام مالطه سنة ١٧٩٨ تحمل نابوليون وجيشه الى مصر وكان عددها ٣٦ سفينة حربية و ٤٧٠ سفينة أخرى لنقل المهمات هاجمت الجزيرة فقاومها الفرسان وعددهم يومئذٍ ٤٠٠ فقط وعددجنودهم ٦٠٠٠ ولكن القوات الفرنساوية تغلبت عليهم فدخلت جزيرتهم من ١٢ مكاناً في ١٠ يونيو سنة ١٧٩٨ فاضطربت مالطه بمن فيها لدخولهم واشتد الهياج والقلق ودام الفاتحون في محاربة اصحاب الجزيرة من ساعة دخولهم في الفجر الى آخر النهار حين سلمت لهم الجزيرة على شروط امضيت في السفينة الفرنساوية المسماة لوريان اي الشرق وخلاصتها حفظ امتيازات المالطيين ودفع مرتب الى رئيس الفرسان وهو يومئذٍ هوبش والى رفاقهِ الفرسان عن سنة كاملة على شرط ان لا يذهبوا الى فرانسا ولا يدخلوا ارضها في حالٍ من الاحوال . وكان في الجزيرة يوم احتلها الفرنساويون ١٢٠٠ مدفع و ٤٠٠٠٠ بندقية ومليون ونصف رطل من البارود . وكان قائد الفرسان المذكور ضعيفاً فيما يقال وقد بلغ من العمر عتياً فترك مالطه ومعهُ ١٢ فارساً وسافر في سفينة نمساوية الى تريسته ومنها الى بطرسبورج . وماتت طريقة الفرسان معهُ بعد ان بلغت من السؤدد ما تقدم وصفهُ في هذا الفصل . وكان اول قائد للفرسان من حكام مالطه فيليه آدم دي ليل بدأ حكمهُ سنة ١٥٣٢ وآخرهم هوبش انتهى حكمهُ سنة ١٧٩٨ فمدة استيلائهم على الجزيرة ٢٧٦ سنة

ولما تمكن الفرنساويون في مالطه جعلوا يمحون اثار الفرسان فاحتلوا قصورهم وازالوا شعارهم ثم مدوا ايديهم الى انية الكنائس الذهبية . ولم يقم نابوليون في مالطه طويلاً لانهُ برحها في ٢١ من شهر يونيو المذكور بعد ان ترك فيها الجنرال ڤوبوا ومعهُ ٣٠٠٠ جندي وخمس بطريات من المدافع وتقدم هو الى الاسكندرية . واساء الفرنسويون سلوكهم في

مالطه بعد سفر نابوليون لانهم سلبوا كنيسة في المدينة القديمة فقام الاهالي عليهم في ١٢ سبتمبر من تلك السنة وذبحوهم ليلاً وهم ٦٥ نفساً حامية تلك الجهة . وارسل الجنرال ڤوبوا من ڤاليتا نجدة تقتص من الاهالي حين بلغهُ هذا الخبر فاعترضت جنوده الوف من الفلاحين في الطريق واحاطت بها من كل جهة ولم يحدث قتال بين الفريقين ولكن المالطيين انتهزوا هذه الفرصة وارسلوا للاميرال نلسون قائد الاسطول الانكليزي الذي كان يتأثر اسطول نابوليون فجاء حالاً وحصر الجزيرة واطلق المدافع على حاميتها الفرنسوية وكان المالطيون محيطين بالمدينة من كل جهة ليمنعوا عنها الزاد فاقام الفرنساويون على الحصار ورأى نلسون انهُ لا يمكنهُ الانتظار فترك قوة امام مالطه تحت قيادة السير اسكندر بال وسار باسطولهِ وراء نابوليون حتى التقى باسطولهِ عند ابي قير على مقربة من الاسكندرية حيث حدثت المعركة المشهورة التي دُمّر بها اسطول الفرنسيس. واما السير اسكندر بال فانهُ اقام على حصار مالطه نحو سنة على غير جدوى واظهر الجنرال ڤوبوا الفرنساوي في خلال الحصار مقدرة وبسالة زادتا قدره ولكنهُ رأى ان الاهالي موالون للاعداء وقد قطع الزاد والمدد عنهُ من البر والبحر فسلَّم في اوائل ابريل سنة ١٧٩٩ للقائد الانكليزي واسمهُ الجنرال بجوت . فلما استولى الانكليز على الجزيرة وزع بجوت اعلاناً على الاهالي قال فيهِ ان جلالة ملك انكلترا لا يريد الاستيلاء على مالطه ولكنهُ يقيم فيها حامية لحفظ الامن والنظام وتعهد بحفظ استقلال المالطيين وحريتهم في الدين واللغة والعوائد والاملاك. واخبرهم ايضاً في هذا المنشور ان انكلترا ارسلت ٤٠٠٠ جنيه الى الاستانة فكاكاً للامرى المالطيين فرضي الاهالي عن هذا الاعلان ولما جاء الامرى فرحوا بلقياهم فرحاً عظيماً واظهروا كل ولاء للانكليز . على ان انكلترا ضمّت هذه الجزيرة رسمياً الى املاكها بعد ١٤ سنة بمقتضى البند السابع من معاهدة باريس سنة ١٨١٤

وكان اول حاكم انكليزي لمالطه السير اسكندر بال السابق ذكرهُ توفي سنة ١٨٠٩ فاسف الجميع لوفاتهِ وخلفهُ الحكام في جملتهم السر بونسونبي سنة ١٨٣٥ اشتهر بتأسيس المجالس المحلية. وخلفهُ السر فرال سنة ١٨٤٠ وهو الذي قال مالطه للمالطيين وحصر وظائف حكومة مالطه بالمالطيين ما خلا ثلثة من المناصب الرئيسية . وتلاهُ لمرشنت فاهتم لزيادة عدد المدارس في مالطه وتوسيع نطاقها . وفي سنة ١٨٦٢ ذهب جلالة الملك ادورد الحالي وهو يومئذٍ ولي العهد فزار مالطه وقوبل بالاحتفاء العظيم وفي سنة ١٨٧٧ عُيّن الديوك اوف كونوت شقيق الملك ادورد حاكماً لمالطه ورزق فيها بنتاً سماها ڤيكتوريا مليته باسم الجزيرة

القديمة وهي الآن زوجة ولي عهد السويد. وقد توالى الحكام الانكليز على الجزيرة وكلهم من بعدالديوك اوف كونوت قواد عسكريون وهم يحكمون باسم الملك وارادة الشعب المالطي ونوابهِ الان. هذا اشهر ما يقال في تاريخ مالطه نسقتهُ تنسيقاً لا يملُّ القارئ من مطالعتهِ وقد جمعتهُ من عدة قواميس ومؤلفات والآن اتقدم لوصف هذه الجزيرة وما فيها فاقول :

تتكون مالطه من اربع جزر اولها ڤاليتا على اسم مؤسسها وقد تقدم ذكرهُ وفيها العاصمة. وجزيرة غوسو سماها العرب هودج لانهم شبهوها بالهودج وهي على مقربة من ڤاليتا. وجزيرة كومينو سماها العرب كمونه وهي صغيرة واقعة بين الجزيرتين السابقتين. والرابعة فيلافلا سماها العرب فلفله لصغرها. طول هذه الجزر ٢٠ ميلاً وعرضها ١٢ ومساحتها ١١٧ ميلاً وعدد سكانها مئتا الف نفس وهي مجموع اكمات يختلف علوها ما بين ٦٠٠ قدم و١٠٠٠ قدم واكثرها صخرية رملية لونها اصفر فاقع وابنيتها من الحجر الرملي قائمة على الروابي وضفاف الماء وبعضها في الخلجان والكهوف. وقد تخللت المياه ارض هذه الجزيرة فدخلتها من اليمين ومن الشمال حتى كوّنت ثغوراً طبيعية واسعة ترسو فيها البوارج وبواخر التجار فالواقف في اي الاحياء في مالطه يرى البحر من امامهِ ومن ورائهِ. وطرق الاتصال بين هذه الاحياء سهلة اما بحراً بالوابورات الصغيرة والقوارب مسافة ٥ دقائق تقريباً او براً بالعربات او على الاقدام. ومالطه نظيفة يعنى مجلسها البلدي بالرش والكنس كثيراً ولا سيما في زمان الصيف حيث يكثر الغبار ويشتد الحر واذا هبت الرياح في الشتاء كانت شديدة هوجاء يلجأُ الناس منها الى المنازل والحوانيت حتى قال احد المؤرخين ان مالطه مخزن الاهوية ولكنها مع ذلك معتدلة الاقليم ومع ان الارض صخرية فقد زرعوا فيها العنب والصبير (التين بشوكه) وهو مشهور بحمرة لونهِ وحلاوتهِ وفيها بعض مزارع القمح والشعير. على ان سوقها ملأى بكل انواع الفاكهة والخضر تأتيها من صقلية من اعمال

ايطاليا وهي قريبة منها لا تزيد المسافة عن ١٢ ساعة ويرد منها باخرة كل يوم

واما راية العاصمة فانها هرمية الشكل مثل قالب السكر نظموا في قمتها شارعين مهمين اولهما اسمهُ رياله اي الشارع الملكي والثاني مركانته اي الشارع التجاري وبقية طرقها منحدرة تتصل من القمة الى ضفة البحر فهم جعلوها ماتفة معوجة حتى لا يتعب المرء من السير فيها وهي طريقة التنظيم في كل الجبال . وقد بنوا سلالم من الحديد والخشب في بعض جهاتها حيث يكثر الانحدار تسهيلاً للصعود والنزول . وفي شارع رياله السابق ذكره احسن الابنية للمنازل والفنادق والحوانيت والقهاوي والتياترو الكبير والمكتبة والبورصة والنادي والمجلس البلدي . وهنالك ايضاً قصر ڤاليتا قائد الفرسان مساحتهُ ٣٠٠٠ قدم مربعة وقد جعلهُ الانكليز مقام الحاكم العام دخلتهُ لارى ما فيهِ من التحف واثار دولة الفرسان فوجدت باباً كبيراً وصلت منهُ رحبة ثم رقيت سلماً من الرخام عريض الدرى واطئاً يكاد المرء لا يشعر بمشقة الصعود عليهِ . ودخلت القاعة الكبرى التي كان الفرسان يجتمعون فيها وقد جمعوا فيها انواع الاسلحة القديمة وعددها ١٥٠ قطعة من كل الاشكال وفيها ملابس الفرسان وكسوة قائدهم ڤاليتا مزركشة بالذهب والقصب ومنظرها يروق للعيون . قال لنا الدليل كان لهذه الكسوة سيف من الذهب مرصعة قبضتهُ بحجارة الالماس الكبرى وقد اخذهُ نابوليون الاول حين احتل الجزيرة . وفي وسط القاعة منضدة كبرى وضعت فيها حلى الفرسان وجواهرهم مغطاة بالزجاج وفي جملتها صولجان الامارة للقائد ڤاليتا وهو من الذهب في رأسهِ صليب وحجة تملك الفرسان لمالطة من شارلكان . وهناك البوق الذي نفخوا فيهِ اعلاناً بالخروج من رودس حين تركوها للاتراك . وفي الجدران رسوم جميلة لمعارك الحصار التركي تمثل الاتراك في المراكب بسترهم الحمراء

والعمامات البيضاء وقد شهروا السيوف وهموا بالنزول الى البر . وعلى الجدران ايضاً نقوش ورسوم افريقية ذات قيمة واعتبار . وفي القصر نحو ٦٠ غرفة كبيرة للحاكم العام وعمال ديوانهِ وبعضها لعائلتهِ وهو يقيم فيهِ كل سنة حفلة راقصة يدعوا اليها كبار الموظفين ووجوه الاهالي وفيهم اصحاب الشرف ورتب الشرف كالماركيز والكونت والبارون وفيهم عدة اغنياء ورثوا الاموال الطايلة عن الاباء والاجداد . وفي قاعة الطعام رسوم كل قواد الفرسان من اولهم الى آخرهم . وقد اضاف المجلس البلدي رسوم الحكام الانكليز من بدء استيلاء هذه الدولة عليها الى الآن فكلما جد حاكم وضعوا رسمهُ هنا . وما زال في مالطه سبعة قصور بناها الفرسان اخذتها الحكومة الانكليزية واعطت بعضها للضباط واحدها للنادي العسكري والاخرى لمراكز الحكومة . وقد قضيت زماناً في هذا القصر ثم نزلت منهُ فرأيت في ردهتهِ الخارجية عربة من النوع القديم كانت لهومبش وهو آخر قادة الفرسان . قيل ان نابوليون الاول ركب هذه العربة حين كان في مالطه وقال بعضهم غير ذلك اي ان نابوليون طلب اليهِ الركوب فيها فقال ان مالطه لا تسع قدمهُ .

وتجاه القصر ميدان القديس جورجيوس وكان اسمهُ ميدان الفرسان لانهم كانوا يجتمعون فيه ليراهم الرئيس من الشباك . وكان المرور غير مباح للاهالي في هذا الميدان فجعلهُ الفرنساويون حراً واطلقوا على الموضع اسم ميدان الحرية واقاموا يوم ١٤ يوليو حفلات فيه وزينات دعوا اليها الاهالي . وهنا اعدم الفرنساويون ايضاً الذين تآمروا عليهم ووالوا الانكليز مدة الحصار الذي جاهد فيهِ الجنرال ڤوبوا . والميدان هذا احسن مواضع مالطه لان تصدح الموسيقى فيهِ احياناً فيتألب الناس لسماعها جمهوراً كبيراً وعلى مقربة من هذا الميدان ساحة

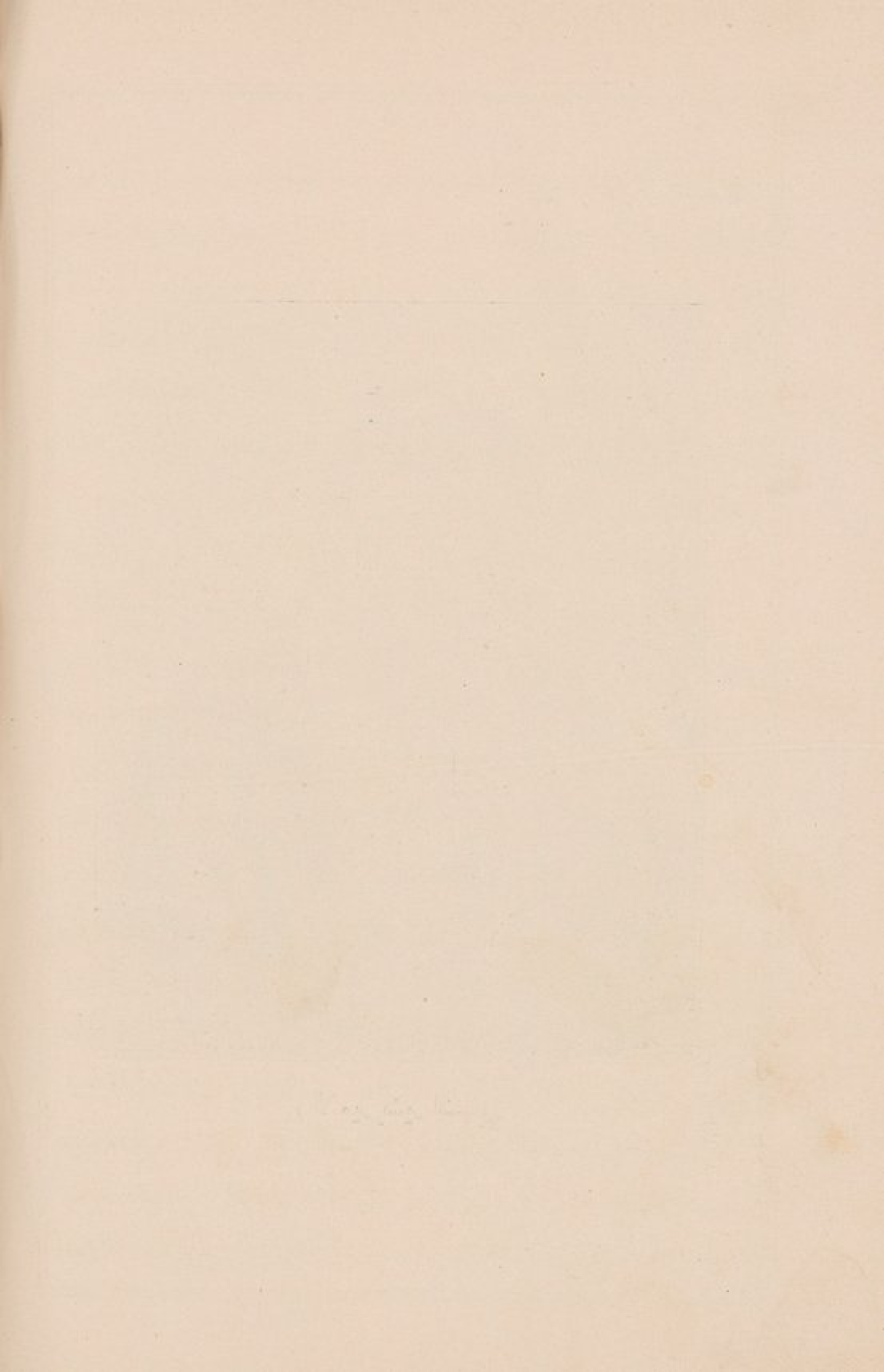
نصب فيها تمثال الملكة فكتوريا فوق العرش وعلى رأسها تاج الملك وبيدها
اليمنى صولجان الملك والتمثال كلهُ من الرخام الابيض . وهناك قهوة يجتمع
المالطيون فيها كنت انتابها احياناً لاسمع لغتهم الغريبة وهي خليط من العربي
والطلياني . وعلى مقربة من هذه الساحة كنيسة يوحنا المعمدان وهي من كنائس
اوروبا المشهورة طولها ١٨٧ قدماً والعرض ١١٨ والعلو ٦٣ دخلتها فوجدت
فيها جمهوراً من الاهالي في غير وقت الصلاة للتحدث والمباحثات الدينية ومشاهدة
الرسوم وهم لا يشبعون من ذلك · وقد قلَّت تحف هذه الكنيسة عما كانت في
ايام الفرسان لانهُ كان يفرض عَلَى كل فارس يرتقي درجة ان يهدي الكنيسة
شيئاً وكانت هدية الرئيس عند تنصيبهِ ٥٠ اوقية من الذهب فلهذا كانت كل
آنية الكنيسة من الذهب حتى ان بابها كان يغشاه الذهب وقد راح معظم هذه
التحف في ايام الاحتلال الفرنسوي ما عدا بعض اثار قديمة عظيمة القيمة
حفظت في صندوق من الحديد من اقدم ايام النصرانية وفي جملتها يد القديس
يوحنا المعمدان كانت في بدء امرها في احدى كنائس انطاكية ونقلها القيصر
يوستنيانوس الى القسطنطينية · وحدث بعد هذا ان نجل السلطان بايزيد مرض
مرضاً ثقيلاً فاتوا لمعالجتهِ بفارس من فرسان رودس اشتهر بالطب ولما شفي الامير
على يدهِ طلب ان يكافأهُ السلطان بيد يوحنا المعمدان · فلما طرد الفرسان من رودس
اخذها رئيسهم معهُ الى مالطه حيث البسها غشاء من الذهب ووضعها في صندوق
ذهبي وحفظ هذا الصندوق في خزانة الحديد التي ذكرناها بقيت الى ان وصل
نابوليون وفتح هذا الصندوق فوجد في اصابع اليد خواتم ذات حجارة ثمينة من
الالماس فاخذ الحجارة واعطى اليد للقائد هومبش ثم طردهُ من مالطه كما سبق
البيان · وسافر هومبش بهذه اليد الى تريسته ومنها الى بطرسبورج واليد باقية

الى اليوم في القصر الشتوي لقياصرة الروس ملبسة بغشاء من الفضة وقد ذكرت اني رايتها عند الكلام عَلَى عاصمة الروس . وكنيسة ماريوحنا التي نحن في شأنها جميله ارضها مبلطة بنحو ٤٠٠ قطعة من الرخام الكبير وكل قطعة منها مرصعة بقطع أُخرى من جميع الوان الرخام . وفي جدران هذه الكنيسة وسقفها نقوش بديعة ورسوم حوادث الانجيل كلها وافية الاتقان ولا سيما المختصة منها بحياة مار يوحنا المعمدان وفيها ايضاً مدفن رؤَساء الفرسان الذين توفوا ما بين سنة ١٥٣٤ وسنة ١٧٧٦ وفي جملتهم ڤاليتا مؤَسس عاصمة مالطه الحالية

﴿ قلعة سان المو ﴾ لما خرجت من كنيسة ماريوحنا التقيت بضابط مالطي عرفتهُ في مصر فذهب بي الى قلعة سان المو واراني ما بها من المدافع الكبرى وانواع السلاح القديم والحديث ورأيت ركاماً من الكرات التي قذفها الاتراك على مالطه مدة الحصار . ثم دخلت ثكنة الجنود وكلهم من اهل الجزيرة فاشرفنا منها على المدافع الهائلة المصوبة الى البحر ورأينا ما فيهِ من البوارج الراسية . وفي هذه القلعة قبر السر ابر كرومبي وهو القائد الانكليزي الذي حارب نابوليون الاول وقتل عَلَى مقربة من الاسكندرية . وخرجت من القلعة الى شارع رياله وفي آخرهِ باب كبير يفصل المدينة عن الخلاء والى يمينهِ تمثال ڤيليه آدم دي ليل وهو رئيس الفرسان الذي دافع عن رودس والى الشمال تمثال ڤاليتا مؤَسس المدينة . وعند خروجنا من هذا الباب الفينا نفسنا في الخلاء ورأينا المخازن المبنية تحت الارض التي كان الفرسان يذخرون بها الزاد والمؤُونة مدة الحصار ولها فوهات تشبهُ فوهات الآبار والصهاريج وهي تؤَجرها الحكومة الانكليزية للتجار يخزنون فيها الغلال والمحصولات وقد انشأُوا في هذهِ الارض حديقة جميلة دخلتها مع حضرة المركيزة تيستا فراتا فقالت لي ان سيدات المدينة يعنينَ بها كثيراً ليكونَ لهنَّ بعض الازهار



(الامير بشير الشهابي



فيها . ثم ذهبت الى ضاحية سان انطونيو وهي تبعد اربعة اميال عن العاصمة فقصدتها بالعربة في طريق منحدر حسب طبيعة الارض فكنت ارى المالطيين قاعدين امام ابواب منازلهم الكائنة في الطريق وكلها ذات دور واحد وربما كانت عادة الجلوس عَلَى الابواب في اهل مالطه شرقية الاصل . ولهذهِ الضاحية حديقة فيها نحو ٥٠٠ شجرة برتقال زرعوها في تراب نقلوهُ من ايطاليا لان ارض الجزيرة كلها رملية صخرية كما تقدم القول فرأيت في الحديقة عدداً من القسوس والرهبان يتنزهون وعددهم يزيد عن عدد الآخرين ولا عجب فان مالطه فيها ٢٠٠ كنيسة و١٤ ديراً . وفي طريق الحديقة قصر بناهُ دي بولا رئيس الفرسان في سنة ١٦٢٥ فصار قصراً صيفياً لخلفائهِ وقد اقام فيهِ الملك ادورد السابع لما زار مالطه على عهد امهِ وكان مسكن الامير بشير اللبناني حين اعتزل في هذهِ الجزيرة زماناً وسماهُ بعضهم بعد ذلك بالمالطي

(المدينة القديمة) هي ثغر كانت عاصمة الجزيرة قبل بناء ڤاليتا سماها العرب المدينة وكان اسمها قبل نوتابلي وأهل الجزيرة يعرفونها باسم المدينة العتيقة على حد مصر العتيقة . وفي هذهِ المدينة آثار الدول والشعوب التي تداولتها ففيها معابد جونو وابولو وتلك الكهوف التي جعلها المسيحيون كنائسهم وملاجئهم ايام الاضطهاد في بدء النصرانية . وهنالك حدثت المعارك الكثيرة والحصار المتوالي لما هاجمها العرب والاتراك والفرنساويون والانكليز . وقد مدوا سكة حديدية سنة ١٨٨٣ بين العاصمة والمدينة القديمة هذهِ واشترتها الحكومة الانكليزية من الشركة التي مدتها في سنة ١٨٩٢ وطول هذهِ السكة ٨ أميال وهم يتوصلون الى المحطة من سرداب طولهُ ١٠٠٠ متر وعرضهُ ٧٠ وقد جعلوا للسرداب نوافذ يدخل منها النور والهواء فذهبنا منهُ الى المحطة وسافرنا في القطار الى المدينة العتيقة فبلغناها

بعد الوقوف في محطات كثيرة وتوجهنا تواً الى قصر اللورد جرنفل وهو يومئذ حاكم الجزيرة كان في القصر الصيفي مثل كثير من الذين يقضون اشهر الحر في هذا المكان نظراً لكونهِ قائماً على ضفة البحر . ولما علم جنابهُ من الحديث انني اريد الكتابة عن مالطه امر سكرتيرهُ وهو اللورد توين ان يسير معي في القصر ليدلني على تحفهِ وآثارهِ فبدأ هذا الشاب النبيل يقول لي ان القصر بناه فيروال رئيس الفرسان في سنة ١٥٨٢ واخذني بعد ذلك الى سرداب تحت الارض بلغتهُ على سلم لولبي قال لي انهُ كان سجن الفرسان بامر الرئيس والسجن عبارة عن غرفة واسعة لها اربع نافذات ولها جدران سميكة وارضها مبلطة دلني اللورد الى بلاطة عليها رسم الشطرنج كان المسجونون من الفرسان يقضون الاوقات باللعب عليها فيما يظهر . واخذني السكرتير بعد ذلك الى سطح القصر حيث رأيت مالطه باوضح الاشكال . وكان الرجل يسالني في خلال ذلك عن بعض اخوانهِ من ضباط الانكليز في مصر . ولما انتهيت من القصر شكرت اللورد جرنفل وودعتهُ وسرت الى غابة قريبة من القصر فيها نحو ١٠٠ شجرة من الازدرخت والصفصاف والتوت والخروع زرعت بلا نظام وهي نامية بماء عين يجري تحت الارض . ورأيت في هذهِ المدينة كنيسة عظيمة لا مثيل لها في مصر او الشام كل جدرانها من الرخام الابيض اتوا بهِ من ايطاليا وعمدها ضخمة من الرخام السماقي الاحمر وفيها اعمدة من الرخام الاصفر والذهب كثير في سقفها وجوانبها ولها قبة شاهقة نقشوا عليها الصور الدينية . وفوق الهيكل صليب طولهُ ٣ امتار اتى بهِ الفرسان من رودس وفي خارج الكنيسة بعض المدافع القديمة . وذهبت بعد ذلك الى كهوف النصارى الاول وقد تهدم كثير منها فاوقد الدليل شمعة وجعل يشرح لي ما يعلمهُ عنها ومن حكاياتهِ ان معلماً دخل مع تلاميذهِ يوماً ليتفرجوا عليها فاختفى الكل ولم يقف

احد على اثر لهم من ذلك الحين . وقالوا انهُ دخلها خنزير يوماً فوجدوا بعد ثلاثة ايام انهُ خرج الى شاطىء البحر كانما هي متصلة بهِ . وشاهدت بعد هذا تماثيل جونو وابولو . ثم عدت الى العاصمة في الطرق المنحدرة والاراضي الصخرية والرملية كالذي تقدم عنهُ الكلام

(سليمه) من الاحياء الجميلة في مالطه حي بُني على شاطىء البحر اسمهُ سليمه وربما كان اصل الاسم عربياً يمكن الوصول اليهِ من العاصمة وقد قصدتهُ من شارع رياله بالطرق الملتفة المنحدرة ووجدت في الطريق اكمةً حفروا تحتها سرداباً ولهُ نوافذ يدخل منها النور فلما خرجت من هذا السرداب ظهر البحر وفيهِ الباخرات الصغيرة والقوارب على اشكالها وهي ابداً تمخر بين سليمه والعاصمة كل خمس دقائق والمسافة بينهما لا تزيد عن عشر دقائق بين الجهتين . وقد كان حي سليمه شاطئاً مهجوراً من سنين فاصبح الآن من اجمل الاحياء لهُ حديقة طويلة غرس فيها بعض الاشجار والزهور على يمينها البحر وعلى الشمال منازل السكان واكثرها لطيف المنظر وتحتشد الجماهير في هذهِ الجهة كل مساء من اهل هذا الحي وغيرهِ يأتونها بعد الغروب لاستنشاق الهواء النقي ولا سيما في الليالي المقمرة حيث تصدح الموسيقى ويكثر القاعدون في القهاوي المحدقة بهذا المتنزه الجميل

⁂ لغة مالطه ⁂ ما زال اهل العلم والآداب حتى الساعة في ريب من اصل اللغة المالطية وهي خليط ظاهر من العربية والطليانية . قال بعضهم انها لغة ايطاليا مكسرة وزعم غيرهم انها لغة اهل لبنان ولكن الغالب على الظن ان القوم ركبوا لغتهم من لسان ايطاليا ولسان تونس وكلا القطرين قريب من مالطه لا تزيد المسافة عن ١٤ ساعة ولفظهم العربي قريب من لفظ اهل تونس وهم يكسرون الالف كالياء فبدل ان يقولوا فارس يقولون فيرس . واللغة المالطية لا تكتب فهم يتعلمون

الطليانية في مدارسهم ويكتبون بها في كل حالة وقد طبعت الجمعيات الدينية اسفاراً من الانجيل والتوراة بلسان المالطيين بحروف افرنجية يخالطها بعض الحروف العربية فالقوم يتكلمون بهذه اللغة المستغربة ولكنهم يكتبون بالطليانية واكثر المتعلمين منهم يعرفون الانكليزية لانها لغة الحكومة ولكن عامتهم لم يألفوها مع انهُ مضى اكثر من قرن على احتلال الانكليز وربما كان السبب نفور القوم من لغة الامة الفاتحة وهو شأن كل امة خضعت لغيرها قهراً مثل بولونيا وفنلاندا والالزاس واللورين وغيرها . وهذا انموذج من لغة مالطه

(عربي)	(مالطي)
دخلت بستانكم وقطفت من رمانكم	دحلت فلجردين تيعكم وقطعت من الرومين تيعكم
مالطه ظريفة زهرة العالم	مالطه صبيحه فلور دلموندو
كيف حالكم اليوم	كيف احنا الوم
وهذا انموذج من شعرهم	
كل من يحب في هذه الدنيا لياليهِ دائماً مقلقة	كول من يحوب فدين الدنيا ليلو دجم
	بلا مستريحه
المحبة تضيع لهُ نعاسه ولا تكون افكارهُ رائقة	آل محبة اتلفو نعاسه قط محة تخليه مرتاحه

ومع ان المالطيين عامةً اهل ولاء للدولة الانكليزية وهم يفخرون بالانتماء اليها الَّا انهم لم يتمثلوا بالانكليز في شيء من عوائدهم واخلاقهم . وقد ظهر هذا للمستر تشامبرلن سنة ١٩٠٠ حين زار مالطه وهو وزير المستعمرات الانكليزية وساءتهُ قلة المتكلمين بلغة قومهِ في بلاد لهم من زمان طويل فاصدر امراً باكراه المالطيين على استبدال الطليانية بلغة انكلترا في الرسميات وجعل موعداً لهذا الابدال آخرهُ بعد ثلاث سنين فاشتدَّ هياج المالطيين لذلك وقام كبار الموظفين منهم كالقضاة والمحامين والمأمورين الذين لا يعرفون الانكليزية وكثرت آيات اعتراضهم في المجالس

البلدية والمظاهرات ضد الحاكم العام والوزير تشامبران مُدة سنتين حتى اضطر هذا الوزير الى الرجوع عما اراد مع اشتهاره بمضاء العزم وميلهِ الشديد الى توحيد المصالح واللسان في كل المستعمرات الانكليزية . وكانت جرائد ايطاليا كلها معضدة للمالطيين في نفوذهم وهياجهم حتى اذا اشتدت الاحوال قال الوزير تشامبرلن في مجلس النواب انهُ رأى ان منشورهُ قد يعكر صفاء الود بين انكلترا وايطاليا فهو ابطلهُ محافظة على وداد الدولتين ومراعاةً لاميال المالطيين فهدأ بال اهل الجزيرة وشكرت حكومة الطليان لوزارة انكلترا هذا الصنيع الودي على لسان السفير . وفي هذه الحادثة دليل على استقلال نفوس المالطيين وحبهم الشديد للوطن ولتقاليد الآباء والاجداد وهم اشتهر عنهم قول معناهُ ان مالطه حلوة وهي زهرة العالم وبالمالطيه (مالطه حنينه فيور دل موندو) وعندي ان عدم سيادة الآراء الانكليزية في هذه الجزيرة ناشيءٌ عن تنحي الانكليز من الاختلاط بالآخرين فلو ان حكوماتهم وجمعياتهم عنيت بانشاء المدارس الانكليزية في مالطه ولو انهما كثروا من الاختلاط باهلها لما بقي هذا البعد الباعد بين الحاكمين والمحكومين

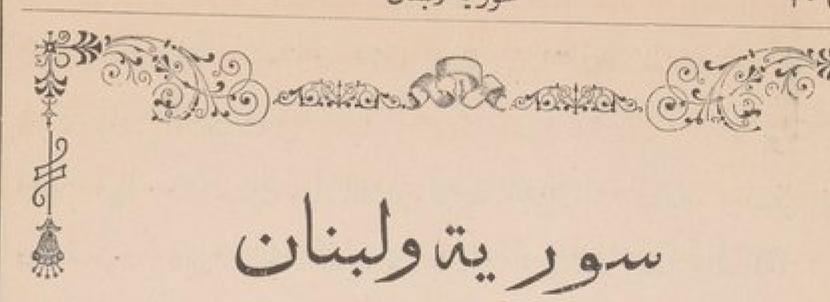
واهل مالطه على الجملة سمر الالوان كالطليانيين ولكنهم ذوو نخوة وحدةٍ غريبة يتأثرون لاقل ما يمس النفوس . ولهم شهرة بالورع والتدين وكثرة الصلاة يظهر ذلك من تعدد كنائسهم فانها لا تقل عن ٢٠٠ كنيسة في جزيرة لا يزيد اهلها عن ٢٠٠ الف وفيها ايضاً ١٤ ديراً فكيفما اتجهت لقيت الرهبان والقسوس وهم يميل اهل الجزيرة الى محادثتهم ومعاشرتهم ويدعونهم الى كل جمعية عائلية وقلَّ ان يخلو حديث لهم من موضوع الدين كما انهُ ليس يخلو منزل لهم من الايقونات توقد امامها الشموع وليس فيهم شخص الا وهو على اسم احد القديسين ولاسيما القديس يوحنا المعمدان وهم يذهب كل يوحنا منهم الى كنيسة هذا القديس يوم

عيدهِ مع افراد عائلتهِ حتى اذا رجع منها توارد عليهِ المهنئون بهذا العيد وهي عادة سار عليها معظم النصارى في مصر والشام . واكبر الاهانات في مالطه ان احدهم يسب اسم قديس خصمهِ واعظم آيات المجاملة تمجيداً للقديس الذي سمي الرجل باسمهِ ويندر ان تمرّ بضعة اسابيع لا ترى فيها موكباً لاحد القديسين وقد رأيت مدة اقامتي موكباً يوم عيد السيدة العذراء فكان جمعاً حافلاً خرج من الكنيسة وامامهُ فريق من القسوس والرهبان يتقدمهم حامل الصليب وفي ايديهم الشموع والمباخر ومن ورائهم جموع الناس معهم صورة العذراء صنعت من الجبس وتردت بثوب ازرق وعلى رأسها اكليل من الذهب وقد حملوا تلك الصورة على كرسي فوق اكتاف الرجال وكان اسعد الناس حالاً الذين حملوا ذلك الكرسي . ورأيت وراء كرسي السيدة بحراً اسود متلاطماً عجاجاً من النساء المالطيات وهنَّ يلبسنَ فوق ملابسهنَّ نوعاً من الازار الاسود (حبره) يسمونها فديتا ومنظرها يقرب من منظر الحبرة المصرية المعروفة غير ان القسم الاعلى من الفديتا يصنع على شكل مظلّة تضعهُ المرأة فوق رأسها للاستظلال والوقاية من الشمس والمطر . غير ان سيدات مالطه من اهل الطبقة العليا يلبسنَ الآن ملابس الاوروبيات وهنَّ مثل الرجال يقل فيهنَّ زرقة العين . وللمالطيات شهرة بالعفة وبراعة في تدبير المنازل . ويقال على الجملة ان مالطه قسم من اوروبا وان اهلها لا يختلفون عن الاوروبيين . وكانت اقامتي في هذه الجزيرة خمسة ايام لما انقضت ركبت باخرة انكليزية وسرت فيها الى القطر المصري

وختام القول اني أرى كثيراً من السائحين بين اهل هذا القطر يذهبون كل سنة الى اوروبا عن طريق مرسيليا ويعودون من هذا الطريق مع انهم يمكنهم الرجوع عن طريق الجزائر وتونس فيرون اقطاراً عربية يفيدنا الاختلاط باهلها ولا

يكلفهم ذلك مالاً او زماناً غير القليل وذلك سهل اذا سافر المرء في باخرة من شركة ترانس اتلانتيك في مرسيليا وهي يقوم منها كل اسبوع اربع بواخر اجرة السفر فيها ١٠٠ فرنك والمسافة الى عاصمة الجزائر ٢٦ ساعة . والسفر منها الى عاصمة تونس هين بسكة الحديد وباجرة ١٠٠ فرنك ايضاً والمسافة ٢٠ ساعة تقريباً . ومن تونس الى مالطه بحراً باجرة ٤٠ فرنكاً والمسافة ١٤ ساعة . ومن مالطه بالبواخر الانكليزية الى الاسكندرية ثلثة ايام والاجرة ١٢٥ فرنكاً . فالمسافة بين مرسيليا واسكندرية بهذا الطريق ٧ ايام والاجرة ٣٦٥ فرنكاً ترى نفع هذه الخطة من ان الذين يعودون الى اسكندرية عن طريق مرسيليا يقضون ٥ ايام في البحر ويدفعون ٣١٥ فرنكاً . فبهذا الفرق وهو ٥٠ فرنكاً ويوماً يرى المسافر بلاد الجزائر وبلاد تونس ويشاهد كثيراً من جبالها وانهارها غير العاصمتين ويرى جزيرة مالطه ايضاً وهو فرق صغير لا يذكر في جنب هذا النفع الكبير . واذا اقام المسافر في كل من العواصم التي ذكرتها اياماً كان النفع اظهر واتم .

ورأيي على المسافر الذي يتبع هذه الخطة ان يجعل سفرهُ في اشهر الخريف وهو يكفيهِ ٤٠ او ٥٠ يوماً لكل ما يريد لانهُ يذهب من مرسيليا بحراً الى وهران وهي ثغر في غرب الجزائر بعدها ٣٨ ساعة عن مرسيليا ويسير منها بسكة الحديد الى تلمسان عند حدود مراكش ومسافتها ٥ ساعات ومن تلمسان الى عاصمة الجزائر وهي الى الشمال على بعد ١٧ ساعة ومنها الى قسنطينه في الجنوب على بعد ١٥ ساعة . ومنها بسكة الحديد الى عنابه في الشمال الشرقي على بعد ٨ ساعات ومنها يدخل القطار ولاية تونس ويبلغ عاصمتها في ١٠ ساعات . فمجموع الساعات ٩٢ وبيان المشاهد في هذه الجهات كلها مبين فيما تقدم من فصول هذا الكتاب



سورية ولبنان

(في السفر من مصر الى بيروت ولبنان)

ان المسافة بين مصر وبيروت يمكن اجتيازها في نحو ٢٤ ساعة اذ يقوم القطار من محطة مصر عند الساعة السابعة صباحاً فيبلغ بور سعيد بعد الظهر بقليل ومنها يبحر في الساعة الثانية فيصل بيروت صباح الغد. والذاهب الى بيروت يتجلى لهُ منظر لبنان عن بعدٍ وقد امتدَّ هذا المنظر من ضفة البحر وظهرت صخورهُ بالوانها الطبيعية ما بين احمر وازرق ورمادي لان الاشجار في هذا الجبل لا تكسو كل جوانبهِ ولا تحجب منظر ارضهِ وصخرهِ عن الناظرين مثل اشجار الجبال الاوروبية وكذلك القرى تظهر للمرء من عرض البحر وقد سطع نور الشمس عليها مثل عين سعاده والزوق وجوبيه وغيرها . واما بيروت فهي عند سفح هذا الجبل وقد قامت فوق البحر على شكل هضبة متدرجة الارتفاع من الشاطيء فما فوق كأنما هي مرسح متدرج الطبقات صعداً (انفتياتر) وكل منازلها مشرفة على الماء ومطلة على منظر لبنان . واحسن ما يكون لرؤية بيروت ان يتأملها المرء من البحر ولا سيما في الليل حين تسطع انوار الغاز من منازلها بعضها فوق بعض . ومنازل بيروت جميلة الظاهر فسيحة الغرف كثيرة الطاقات وكلها بالحجر الرملي الاصفر او البرتقالي ومعظم سقوفها بالاجر الاحمر وكذلك معظم المنازل المستجدة في جبل لبنان . ومن اهم بناياتها المدرسة الكلية لمرسلي الاميركان وهي مجموع ابنية ضخمة

جميلة الشكل في الطرف الغربي من المدينة ويعرف باسم رأس بيروت . ومنها بناء البنك العثماني الجديد عند شاطيء البحر والثكنة العسكرية بعده بقليل ومدرسة اليسوعيين ومدرسة الناصره ومنازل بعض الاكابر من آل سرسق وبسترس و تويني وفريج وغيرهم في الاحياء الشرقية من المدينة وهي يسكنها معظم الاهالي من المسيحيين وسراي الحكومة في اواسط البلد وغير هذا مما جعل امبراطور المانيا يقول حين زار بيروت سنة ١٨٩٨ ان تلك المدينة جوهرة في تاج آل عثمان . وطول مدينة بيروت كيلو متر ونصف وعرضها ثلثة كيلو مترات ونصف ومساحتها ٤٥٣٠ كيلو متراً . بنيت محل بيريت القديمة واسمها الحالي محرف من هذا الاسم القديم وقد تقلبت عليها الادوار والدول كما تقلبت على بقية مدن سورية واكثر جهات الشرق القريب فنكتفي هنا بالقول ان بدوين الاول فتحها سنة ١١١٠ ايام الحروب الصليبية واسترجعها السلطان صلاح الدين الايوبي من الافرنج سنة ١١٨٧ ثم وقعت في حوزة آل عثمان على عهد السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧ وما زالت عاصمة احدى الولايات العثمانية الكبرى الى الآن . وتقسم ولايتها الى اربع متصرفيات هي عكا ونابلس وطرابلس واللاذقية ولها اقضية تتبعها رأساً هي صيدا وصور ومرجعيون ولكل من المتصرفيات السابق ذكرها اقضية تابعة لها ففي متصرفية عكا اقضية حيفا والناصره وصفد وطبريه وفي متصرفية نابلس جنين وبني صعب وفي متصرفية طرابلس عكار والحصن وصافيتا وفي متصرفية اللاذقية جبله والمرقب وصهيون . وقد بقيت بيروت ثغراً غير كثير السكان بسبب الحروب والمخاصمات الى عهد قريب فان سكانها في سنة ١٨٤٨ لم يزيدوا عن ٢٥ الفاً ولم يكن بها منزل خارج سور المدينة فكانت مثل مصر قبل انشاء التوفيقية والاسمعيلية وغيرهما من الاحياء المستجدة . ولكن بيروت زادت اهمية وسكاناً في النصف الثاني

من القرن الاخير حتى ان اهلها الان لا يقلون عن ١٢٠ الفاً منهم ٣٧٥٠٠ من المسلمين و ٣٦٥٠٠ من الارثوذكس و ٢٩٠٠٠ من الموارنة و ٩٠٠٠ من الروم الكاثوليك و ٣٠٠٠ من اليهود و ٢٠٠٠ بروتستانت و ١٨٠٠ لاتين و ٥٠٠ سريان كاثوليك و ٥٠٠ دروز و ٤٠٠ ارمن كاثوليك و ٣٠٠ ارمن ارثوذكس و ٢٠٠ متاولة وهو احصاء تقريبي لم اقف على ما هو اقرب منهُ الى الصواب

ولا بدَّ للذي يريد الذهاب الى لبنان ان يقيم يوماً او اياماً في بيروت ليرى ضواحيها ومتنزهاتها مثل الفنار وهو على الطرف الغربي الاقصى من المدينة فوق شاطىء البحر. والحرش وهو غابة من شجر الصنوبر عند حدود جبل لبنان يمكن الوصول اليها بالعربة في مسافة ثلثي الساعة ولها ضواحي اخرى تقوم اليها قطر الحديد خمس مرات كل يوم وتقف في ١٣ مثابة منها قريب بعضها من بعض مثل محطات خط المطرية او خط حلوان في ضواحي مصر. واسماء المحطات في بيروت وضواحيها كما يأتي: — المدوّر و بيروث والدوره ونهر الموت والفوار وانطلياس وضبيه ونهر الكلب وعنطوره وصربا وجونيه وموقف البيطار والمعاملتين واحسن هذه المواضع الضبيه ونهر الكلب يمكن رويتهما في يوم واحد وهما في منتصف الطريق. وقد قمنا اليهما في القطار من محطة المدوّر فسار بنا من عند الجمرك يخترق شوارع المدينة حتى اذا بلغ اطرافها جعل يدخل في نفق ويخرج من نفق وهو جارٍ الى يمينه بساتين الزرع الشهية والى يساره البحر. ولما وصلنا نهر الكلب استرحنا في قهوة وكان من ورائنا جبال صخرية وامامنا بساتين واغراس ومن ورائها الرمل والبحر بعدهُ والمنظر من تلك البقعة لهُ جمال فتان. ومشينا نحو ربع ساعة من ذلك المكان فوصلنا شلال نهر الكلب والحجر المحفور عليهِ كتابات باللغات المصرية القديمة والاشورية واليونانية والرومانية وسنعود الى ذكرها عند

الكلام عن انهر جبل لبنان . وعدنا بعد ذلك في القطار الى محطة ضبيه وهي اجمل متنزهات الضواحي البيروتية والناس ينتابونها اكثر من كل ناحية اخرى لانها مجموع غياض حسناء من اشجار الصنوبر والزنزلخت والدلب تحجب نور الشمس ويقعد الناس تحت ظلها الى مقاعد ومناضد كثيرة نثرت في جوانبها . ويتقاطر البيروتيون بعيالهم الى هذا المكان في ايام الاحد فتزدحم القطرات بهم واكثرهم يقضون النهار بطولهِ هنا فيا كلون مما تزودوا او يطبخون ما كولهم في تلك الغابات حيث تكثر اللحوم والسمك يصيدونهُ ويقلونهُ في الحال . وقد قسم المكان ارصفة ومراتب صغرى تختار كل فئة او عائلة من المتنزهين ما تشاء منها وتقضي الساعات في قصف وراحة وسماع اصوات المغنين او انغام الفونوغراف . قلنا ان هذا المكان فيهِ شلال وهو يزيد محاسنهُ الكثيرة وعرض هذا الشلال نحو ١٢ متراً يتدفق منهُ الماء كاللجين وهو يهبط من علو خمسة امتار بوجه التقريب ثم ينساب بين تلك الاغراس والاشجار ويتفرع في جوانب المكان فيحلو للناس ان يجلسوا فوق المجاري الكثيرة يشنفون السمع بخرير الماء ويمتعون الطرف بمنظرهِ ويقضون يومهم في هناء حتى يجيء موعد الرجوع الى بيروت

جبل لبنان

كان جبل لبنان في سني تاريخهِ الحديث تابعاً لايالة صيدا حتى سنة ١٨٦٠ حين حدثت فيهِ الحرب الاهلية بين المسيحيين والدروز وتداخلت دول اوروبا الخمس لفض مشاكلهِ وهي فرانسا وانكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا فاتفقت مع الدولة العلية على ان يمنح لبنان استقلالاً ادارياً ويعين لهُ متصرف مسيحي من رعايا الدولة العلية ترشحهُ الدولة العلية وتوافق دول اوروبا على تعيينهِ . واتفقت

هذه الدول ايضاً على نظام جبل لبنان . ولما تذاكر السفراء عند وضع القانون الاساسي عن تعيين متصرف مسيحي رأت روسيا جواز تعيين متصرف ارثوذكسي ومن بعد مفاوضات ودية مع فرنسا تمَّ الاتفاق على ان يكون المتصرف كاثوليكياً من غير الطوائف المنتشرة بالجبل . وكان ذلك مراعاةً لطائفة الموارنة لانها الفئة الغالبة من اللبنانيين

وقد شكل بناءً على هذا النظام مجلس الادارة من سراة الجبل ونواب طوائفهِ رئيسهُ المتصرف وعدد اعضائهِ ١٢ منهم ٤ عن الموارنة و ٣ عن الدروز و ٢ عن الروم الارثوذكس وواحد عن الروم الكاثوليك وواحد عن المسلمين وواحد عن المتاولة . ولهذا المجلس ان يقرر جباية الاموال ويراقب طرق انفاقها بحيث لاتتجاوز مصروفاتهُ القدر المعين في الميزانية وهو ٧٠٠٠ كيس اي ٣٥٠٠٠ ليرا مجيدية . وقد عين حسب هذا النظام الى الآن سبعة من المتصرفين هم :—

١ — داود باشا . ارمني كاثوليكي اصلهُ من الاستانة عين في شهر يوليو سنة ١٨٦١

٢ — فرانكو باشا . ارمني لاتيني اصلهُ من حلب عين في ٢٧ يوليو سنة ١٨٦٨

٣ — رستم باشا . لاتيني المذهب اصلهُ من ايطاليا عين في ٢٢ يوليو سنة ١٨٧٣

٤ — واصا باشا . لاتيني ارنؤوطي عين في ٨ مايو سنة ١٨٨٣

٥ — نعوم باشا . ارمني لاتيني اصلهُ من حلب عين في ١٧ اوغسطس سنة ١٨٩٢

٦ — مظفر باشا . لاتيني بولوني الاصل عين في ٢١ اوغسطس ١٩٠٢

٧ — يوسف باشا . ابن فرانكو باشا المتصرف الثاني وهو لاتيني ارمني اصلهُ من حلب وقد عين في ١٠ يوليو سنة ١٩٠٧

هؤلاء هم ولاة لبنان من عهد نظامهِ الحالي يعين كل منهم حسب النظام المذكور لمدة ٥ سنين ويجوز ان تجدد هذه المدة بفرمان سلطاني يصدر بعد موافقة الدول الخمس . وكيفية تعيين المتصرف ان الباب العالي يعد كشفاً باسماء البعض من رعاياهُ المسيحيين ويعرضهُ على جلالة السلطان ثم ينتقي احد المكتوبين في هذا الكشف ويطلب من سفراء الدول تعيينهُ فاذا اختلف السفراء ولم يوافقوا بالاجماع عرض الباب العالي اسماً آخر عليهم من الاسماء المدرجة في الكشف المذكور . ومتى انتخب احدهم لهذه الولاية ينعم السلطان عليهِ برتبة الوزارة ويرسلهُ بفرمان منهُ الى لبنان فتقابلهُ حكومة بيروت والجبل عند وصولهِ بالاحتفاء الكبير وتقام في احدى قرى لبنان حفلة حافلة لتلاوة الفرمان القاضي بتعيين المتصرف الجديد يحضرها المتصرف الذي انتهت مدتهُ ووالي بيروت او من يقوم مقامهُ وقناصل الدول الجنرالية في ولاية بيروت وجميع سراة لبنان وامرائهِ واكابرهِ ومعظم افراد الفرقة اللبنانية وجمع غفير من المتفرجين وتطلق المدافع وتصدح الموسيقى ويعدُّ ذلك النهار عيداً في لبنان تتلوهُ حفلات التهاني . ويعقب ذلك ما يرى المتصرف الجديد اجراءهُ من التغيير والتبديل في حكومة لبنان وموظفيها

ويقيم متصرف لبنان مدة الصيف في قرية بتدين (بيت الدين) في سراي الامير بشير الشهابي وهو اشهر حكام لبنان قبل تقرير نظامهِ الحالي بنيت سنة ١٨٢٨ واشترتها الحكومة من ورثتهِ في اوائل حكم داود باشا فجعلتها مقر الحاكم وديوانهُ في الصيف. واما فصل الشتاء فان المتصرفين يقضونهُ في بيروت او في بعض قرى السواحل والغالب انهم يقيمون في قرية بعبدا حيث لهم منزل وديوان مشهور

﴿ موقع الجبل ﴾ تمتدُّ سلسلة جبل لبنان من الشمال الشرقي في اواسط سورية الى الجنوب الغربي وطولها ١٤٥ كيلو متراً وعرضها ٤٥ ومساحة الجبل كلهُ ٦٥٠٠ كيلو متر مربع . واما حدودهُ فمن الشمال متصرفية طرابلس ومن الشرق اقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا ومن الجنوب قضاء صيدا ومن الغرب بيروت وشاطئ البحر . ويقال على الجملة ان لبنان مجموع سلاسل من الجبال البهية والاودية معظمها مشرف على البحر ومدنهِ وارتفاع اجزائهِ يختلف فمنهُ ما لا يزيد عن سطح البحر الاَّ قليلاً ومنهُ ما هو متوسط الارتفاع او بالغهُ . اذكر من ذلك سلسلة جبال الباروك ارتفاعها ١٦٠٠ متر وجبال نيحا ١٨٥٠ متراً وجبل الكنيسة ٢٠٣٠ متراً وجبل ظهر القضيب ٢٤٩٠ متراً وجبل صنين ٢٦١٠ امتار

ولكن المشهور ان لبنان قسمان هما الجبل الغربي والجبل الشرقي فاما الجبل الغربي فيبتدئُ من قلعة الحصن عند جبال النصيرية شمالاً وينتهي في وادي الليطاني عند حدود بلاد حاصبيا ومرجعيون جنوباً . واما الجبل الشرقي فاول سلسلتهِ على مقربة من حمص وتمتد من هنالك في جهة الجنوب الغربي ويفصل بين الجبلين سهول بعلبك والبقاع المشهورة

﴿ تعداد الجبل ﴾ يقرب عدد السكان في متصرفية لبنان من اربعمئة الف نفس منهم حوالي ٢٣٠ الفاً من الموارنة و٥٥ من الروم الارثوذكس و٤٥ الفاً من الدروز و٣٥ الفاً من الروم الكاثوليك و١٧ الفاً من المتاولة و١٤ الفاً من المسلمين و٨٠٠ من البروتستانت و١٥٠ من اللاتين وقليل من الطوائف الاخرى وفيهِ حسب الاحصاء الاخير ٧٨٢ كنيسة و١٤٠ ديراً و١٥٠ خلوة للدروز و٥٠ زاوية وضريحاً للمسلمين . وعدد قرى لبنان ٩٨٠ قرية داخلة في سبعة اقضية ومديرية واحدة هي اقضية الشوف والمتن وكسروان والبترون وجزين

والكوره وزحله ومديرية دير القمر وهي تعد قضاء ممتازاً مستقلاً

☀الانهر☀ في لبنان انهار وجداول كثيرة اشهرها عشرة هي هذه :—

نهر قديشا والاسم لفظ سرياني معناهُ المقدس وهو نهر كبير نبعهُ تحت قرية بشري وهو يمر على مقربة من اهدن وزغرته في قضاء البترون و يدخل مدينة طرابلس حيث يسمونهُ بابي علي و يروون من مائهِ البساتين وهو يصبُّ في البحر عند طرابلس وطولهُ ٣٨ كيلو متراً

نهر الجوز اصلهُ من جبل تنورين ينبع من مغارة فوق كفر صلدا ويجري في وادي الجوز الى الجنوب الشرقي ثم الى الشمال الغربي وبعد ان يمرَّ في اقضية الكوره والبترون يصب في البحر عند رأس الشقعة ما بين بيروت وطرابلس

نهر ابرهيم واسمهُ عند القدماء ادوني يخرج من مغارة افقا على مقربة من العاقوره ويجري من الشرق الى الغرب ماراً بقضاء كسروان ثم يصب بين جونيه وجبيل في البحر وطولهُ ١٨ ميلاً وقد سمي بهذا الاسم لان الامير ابرهيم احد امراء المردة بنى عليهِ قنطرة

نهر الكلب واسمهُ عند قدماء اليونان ليقوس اي الذئب يخرج من مغارة جعيتا و يختلط في واديها بماء نبع العسل ونبع اللبن و يصب في البحر بين غزير وبيروت . وقد جرَّت احدى الشركات الانكليزية ماء هذا النهر الى بيروت فكلها تستقي من مائهِ الآن . قيل ان رعمسيس الثاني ملك مصر لما فتح فينيقية نقش تاريخ فتحهِ على صخرٍ بالقرب من هذا النهر وكذلك فعل الملك سنحاريب الاشوري . وفي سنة ٥٢٠ قبل المسيح بنى لهُ انطيوخوس ملك سورية جسراً عظيماً تهدم واعاد بناءهُ الامبراطور انطونينوس الروماني سنة ١٤٠ بعد المسيح وقد اقام القدماء فيهِ نصباً من الحجر على هيئة كلب ربط الى سلسلة من الحديد

وزعموا انهُ اذا فاجأهم العدو نبح هـذا الكلب ونبههم فسمي لذلك نهر الكلب وهو يصب عند بيروت وطولهُ ٣٠ كيلو متراً

نهر انطلياس يبعد ٣ اميال عن نهر الكلب ومخرجهُ من ينابيع الصفصافات والتنور والحاووز

نهر بيروت اصلهُ نهران احدهما يخرج من بين قريتي ترشيش و كفر سلوان والآخر من عند قريتي فالوغا وحمانا ويجري في حدود قضائي المتن والشوف ويصب عند بيروت بعد ان تستقي مزارعها المشهورة منهُ

نهر الدامور معناهُ بالسريانية العجب وهو نهر كبير يجتمع ماؤهُ من نهر الغابون الخارج من عين الدلم ومن نهر الصفا ونبع القاع الذي جرَّ الامير بشير الشهابي بعض مائهِ الى قصرهِ في بيت الدين بقناة اشتغل الاهالي بها ٢٢ شهراً . ونهر الدامور يجري من الغرب منحرفاً الى الجنوب ويصب عند معلقة الدامور بعد ان يسقي السهل والمزارع وطولهُ ٢٥ كيلو متراً

نهر الاولى سمي بهذا الاسم من يوم صارت صيدا قاعدة الشطر الجنوبي من لبنان او المدينة الاولى وكان العرب يسمونهُ نهر فردوس بسبب ما حول مجراهُ في صيدا من الحدائق والبساتين . اصلهُ من الباروك وهو يسقي سهول صيدا وبساتينها المشهورة وطولهُ ٤٥ كيلو متراً

نهر الليطاني واسمهُ ايضاً نهر القاسميه عند مصبهِ يخرج من نبع العليق وتنضمُّ اليهِ عدة جداول مثل البرذوني وغيرهِ وهو يخترق سهل البقاع من اطرافهِ الشرقية ويمرُّ في بلاد مرجعيون والشقيف ويصب على مقربة من صور

نهر البرذوني وقد تقدم ذكرهُ وهو يسقي بساتين زحله وطولهُ ٢٤ كيلومتراً

(السكك) لم يكن في لبنان قبل عهد نظامهِ الحالي سكك منظمة فكل ما

فيهِ منها الآن حديث بدأ بعضهُ داود باشا وتمّ البعض في ايام المتصرفين السابقين ولاسيما ايام نعوم باشا ومظفر باشا حتى ان طول سكك العربات في الجبل الآن يزيد عن ٧٥٠ كيلو متر . واشهر هذه السكك ما بين بيروت والمصايف الكبيرة التي سنأتي على ذكرها مثل سكة عالية وبحمدون وصوفر الى زحله وسكة بيت مري وبرمانا وهي تنتهي في ظهور الشوير وسكة دير القمر وهي تمتد الى ما وراء جزين وغيرها كثير من السكك تمر بها العربات وسط حرجات بهية من الصنوبر ومزارع وكروم وتلف من وراء الجبال وتخترق الاودية والسهول فالسفر داخل لبنان نزهة جميلة بعد ان اصلحت هذه الدروب وصارت احسن من دروب كثيرة في مدن الشام . وقد ادّى اصلاح هذه الطرق وتنظيمها الى تحسين حالة الاراضي وارتفاع اثمانها في كثير من القرى ولعلّ ذلك هو الذي دفع اهل الجبل الى تحسين حالة منازلهم فانهُ يندر فيهِ الآن ما كان قديماً من المنازل بل ان معظم بيوتهِ جديد جميل الخارج بني بالحجر الصلد وسقف بالقرميد او الآجر الاحمر وهو شيءٌ كان نادراً من نحو عشرين سنة . هذا غير ان الفنادق والخانات والحوانيت كثرت في القرى التي تخترقها هذه الطرق والمواصلات سهلت فكثر عدد الذين يقضون اشهر الصيف في لبنان من اهل المدن السورية والمصرية وتبارى الاهالي في بناء المنازل الحسنة ولاسيما الذين نزحوا الى اميركا والمستعمرات الانكليزية وعادوا الى وطنهم بعد ان قضوا في الغربة اعواماً وجمعوا اموالاً وفيرة فان كل راجع من هاتيك الاقطار ينفق معظم ثروتهِ في اصلاح منزلهِ او بناء منزل جديد حتى عمر لبنان وتقدم في ظاهرهِ وابنيتهِ تقدماً كبيراً وكان الفضل في كل هذه الهمة لتحسين الدروب .

﴿ الحاصلات ﴾ يقال على الجملة ان الحاصلات قليلة لما ان البلاد صخرية وقد

ضاقت بسكانها في بعض الجوانب وتعذرت الزراعة فجعل الاهالي يقطعون الصخور في بعض المواضع ويزرعون مكانها او يغرسون حتى انهم حاولوا غرس الصنوبر فوق الصخور في عدة مواضع . وفي الجبل مواسم للغلال والحبوب اهمها القمح والحمص والشعير والعدس ولكن الموسم الاكبر هو موسم الحرير يشتغل بهِ كل الاهالي تقريباً بعض اشهر السنة وقلَّ ان يخلو منهُ بيت فهم يكثرون من اغراس التوت لان دود القز يغتذي بورقها فاذا انتهوا من تربية الدود ونمت الشرانق باعوها لسماسرة وتجار يدورون في القرى ويجمعونها من البيوت فيستفيد منها كل الناس ولا يقل موسم الشرانق في السنة عن ثلثمائة الف اقة ولعلهُ يزيد عن هذا المقدار . ويلي التوت عندهم في الاهمية شجر الزيتون ففي نواحي لبنان اكثر من ٣١١٨١ دنماً زرعت زيتوناً او نحو ٧٧٩٥ فداناً من الارض يستغل الناس غلتهُ ويصنعون منهُ الزيت والزيتون المحفوظ عَلَى انواعهِ والوقود من بذورهِ . ومعظم القرى كانت تعول على الزيت في انارة منازلها الى عهد قريب ولكن البترول حلَّ محلهُ الآن في كثير من الجهات . وفي لبنان غابات زيتون كثيرة اشهرها واكبرها صحراء الشويفات وهي اكبر غابات الزيتون في كل بلاد سورية . والشويفات قرية في قضاء الشوف عند سواحل بيروت . وفي قرية المختاره من قضاء الشوف ايضاً غابة اخرى للزيتون مساحتها ١٦ كيلو متراً مربعاً . وفي المعصره من قضاء الكوره غابة مساحتها نحو ٧ كيلو مترات مربعة . ويقال ان جملة موسم الزيتون في لبنان كلهِ نحو ١٤ مليون اقة وجملة الزيت الذي يستخرج منهُ نحو ثلثة ملايين ونصف مليون اقة

والعنب والتين من الحاصلات المشهورة في لبنان ايضاً لا تخلو قرية من كروم هذين النوعين والتين اللبناني لذيذ الطعم لعلهُ احسن انواع التين في الوجود . واما

العنب فاشكالهُ كثيرة وكرومهُ واسعة لا تخلو منها بقعة حتى ان جملة هذه لكروم لا تقل مساحتها عن ٢١٥٢٠ دنماً او نحو ٥٣٨٠ فداناً ومقدار العنب الذي يخرج منها كل سنة لا يقل عن ثلثة ملايين اقة . ومقدار الخمور التي تستخرج في لبنان من العنب يزيد عن ١٦٠ الف اقة

(الهواء) اشتهر لبنان من قدم بجودة هوائهِ وطيب مائهِ وشهد لهُ الاطباء الحديثون من اهل الشرق والغرب بذلك حتى ان كثيراً من السائحين يفضلونهُ على اقطار اوروبا بسبب اعتدالهِ وقلة امطارهِ في الصيف وظهور الفصول الاربعة فيهِ ظهوراً واضحاً وفيهِ ما بين السهول البحرية وقنن الجبال العليا كل درجة من الحر تطلبها النفس فسواحلهُ تصلح للشتاء واعاليهِ للصيف واواسطهُ في الربيع والخريف من اجمل مثابات الوجود . ولا حاجة الى القول بان لبنان اصلح من غيرهِ للشرقي لما ان حالتهُ وما كولاتهِ اقرب الى الذوق الشرقي ولهُ مزية على مصايف اوروبا في انهُ ليس فيهِ دواعي الانهماك والاتلاف الكثيرين بل ان المصطاف يستعيض عن حانات اوروبا وكازيناتها بهذه العيون والجداول والينابيع والاحراش التي تشرح الصدور بمنظرها ويشفي ماؤُها من السقام . هذا غير ان الغش في ماكولات لبنان وخضرها وفاكهتها غير معروف على طريقة بعض المصايف الاوروبية وفي كل قرية من قرى لبنان الآن بيوت حسنة نظيفة يمكن استئجارها وفي المصايف المشهورة منها بيوت مفروشة وفنادق حسنة مثل فنادق اوروبا في اتقانها . واجرة المنازل في بعض القرى رخيصة جداً ولكنها معتدلة في المصايف المشهورة وهي

✻ عاليه ✻ قرية جميلة في قضاء الشوف بنيت على قمة جبل مثل اكثر القرى المشهورة في لبنان وعلوها ٨٢٠ متراً عن سطح البحر يمكن الوصول اليها

بسكة الحديد من بيروت او بالعربات وقد اصبحت مدينة صغرى جميلة الطرق والمساكن بعد ان تهافت الاكابر وبعض النزلاء الاجانب على بناء البيوت فيها من نحو ٢٥ سنة وكثرت حوانيتها وحاناتها وفنادقها منها فندق بجار اشتهر بحسن الخدمة واتقان الطبخ واكثر اغنياء بيروت الذين ليس لهم بيوت في عاليه يقضون بعض الصيف فيهِ وقد أُضيف اليهِ نادٍ مشهور يقصدهُ الرجال والسيدات من بيروت والقرى المجاورة في كثير من ليالي الصيف . واجرة الاقامة في هذا الفندق ٨ فرنكات في اليوم وقد تكون اقل اذا طال زمان الاقامة . واجمل منهُ في الموقع والبناء فندق القصر (بالس هوتل) اصلهُ قصر لسري من آل بسترس وقد بني على رأس القمة فوق عاليه واحيط بحديقة حسناء فهو يشرف على البحر وجزء كبير من لبنان ومنظرهُ في غاية الجمال . وقد جروا في بعض السنين الاخيرة على اقامة حفلات الرقص في هذا الفندق الجميل واجرة السكن فيهِ من ٨ فرنكات الى ١٠ في اليوم . ويحيط بعاليه قرى مثلها في الجمال وجودة الهواء ولو انها اقل منها شهرة مثل عين الرمانه يتفجر الماء الزلال من صخورها فيجري بين اشجار الصفصاف ومن حولهِ الناس يتفرجون ويعجبون وعند نبعهِ قهوة يأتي الناس منها بالاراكيل (الشيشه) ويضعونها في مجرى الماء ويزينها لهم صاحب القهوة ببعض الاغصان والازهار . وتبعد هذه المثابة ثلث ساعة عن عاليه ومثلها عين الجوزة وهي على مسيرة ساعة من عاليه وماؤُها يجري تحت شجر الجوز الباسق الكبير وهو من الاشجار التي تعمر كثيراً والذي يجنى من ثمرها غير قليل

☀ مكين ☀ تبعد نصف ساعة عن عاليه وفيها فندق حجار يشرف على الطريق والوادي من امامه والجبل الشاهق من ورائهِ كسي بشجر الصنوبر والمصطافون هنا يقصدون عين السيدة في اواخر النهار حيث يجدون قهوة ومعدات

الخدمة وهذه العين واقعة في بقعة شهية بين عاليه ومكين . ومركز هذه القرية متوسط بين كثير من المصايف المشهورة وهواؤها غاية في الاعتدال

﴿سوق الغرب﴾ قرية تكاد تكون ملتصقة بمكين والذي يقصدها من جهة عاليه يظنها جزءًا من القرية المذكورة لان البناء متواصل ما بين الجهتين وتخترقهما طريق واسعة للعربات اقيم على طولها حاجز من الحجارة المتينة الى ناحية الوادي حتى لا تتدهور فيهِ بعض العربات وهي مسرعة في النزول . وفي سوق الغرب مدارس للاميركان داخلية وخارجية وسوق صغيرة وكنيسة جديدة باسم مار جرجس للروم الارثوذكس جميلة الوضع وقد عني ببنائها نيافة المطران جراسيموس مسره مطران بيروت وفيها متنزهات طبيعية من كل جانب وقد بنيت قهوة شملان في ضواحيها فوق صخر يظنهُ الرائي على وشك ان يهوي الى الوادي الكائن تحتهُ . وقد بني في سوق الغرب فندق جديد اسمهُ نزهة لبنان اتقنت معداتهُ وامتاز بجمال موقعهِ واهتمام صاحبهِ لراحة المسافرين والى جانبهِ غابة من شجر الصنوبر العطر يجلس الناس تحت غصونها ويتناولون القهوة على مهلٍ . ومن اجمل المتنزهات التي يقصدها اهل سوق الغرب عين حمانا يرغب الناس في انتيابها والتلذذ بمنظرها فطريقها لا تخلو من الذاهبين اليها والآيبين . ويمكن الوصول من هذه القرية الى عبيه بالعربة فانها تبعد عنها ساعة واحدة وهي من القرى المعروفة اشتهرت بمدرسة للاميركان عالية هذبت عددًا كبيرًا من رجال سورية في اواسط القرن الماضي واواخرهِ ثم استعاض الاميركان عنها بالمدرسة الكلية الشهيرة في بيروت . وهواء عبيه وما حولها قليل الرطوبة يشبه هواء بحمدون فهو مفيد لصحة الابدان

﴿صوفر﴾ كانت عين صوفر قرية صغرى لا يعرفها من الناس الآفئة قليلة الى عهد قريب فلما مرَّ منها خط الحديد ما بين بيروت ودمشق وبني الفندق

الكبير صارت هذه القرية مثابة الكبراء ومصيف السراة الاغنياء وشيدت فيها فنادق اخرى غير الكازينو الكبير وعدة منازل وقصور لاهل الترف واليسار من السوريين المقيمين في بيروت او في مصر · وصوفر موضع عالٍ لا يقل ارتفاعهُ فوق سطح البحر عن ١٢٨٠ متراً ولكن الماء فيهِ قليل فهو في ذلك يشبه كثيراً من اهم القرى اللبنانية لان القرى المذكورة بنيت على رؤُوس الجبال والماء لا ينبع من راس الجبل بل من سفحهِ والاودية المتصلة بهِ فلذلك ترى الماء قليلاً في اكثر هذه المثابات الجميلة · ويحدث في صوفر وعاليه كثيراً امر يميز لبنان عن غيرهِ هو ان الضباب يتكاثف فوق بعض جهاتهِ ويخيم حتى يصبح مثل بحرٍ من السحاب تحت تلك الشعاب والقنن وهو يعرف عند اللبنانيين باسم « الغطيطه » ومنظرهُ غريب ولكنهُ لا يدوم كثيراً لان الرياح تتلاعب بهِ وتبددهُ بعد انعقادهِ بقليل · وفي ضواحي صوفر نزهة الشاغور ويقال لهُ متنزه حمانا ايضاً يرغب الناس في انتيابهِ كثيراً لان ماءهُ ينحدر من شلال علوهُ نحو ٢٠ متراً ويهبط على صخور ثم يجري بينها ومن حولهِ المقاعد والكراسي العريضة يجلس الناس اليها ويتفرجون وصاحب القهوة يقدم للطالبين ما عندهُ من طعام وشراب وقد بنيت هذه القهوة على راس وادي حمانا الذي يستقي من ماء هذا الشلال . ومسافة هذا الموضع عن صوفر نحو ساعة بالعربة

✻ بحمدون ✻ هي قرية مشهورة بجفاف هوائها وليس فيها شجر بل كل ما حولها كروم عنب لذيذ فالاطباء يصفونها للمرضى وقد جعلوها مستشفى بديعاً وهي لا تبعد اكثر من نصف ساعة بالعربة عن صوفر . وبحمدون على كتف وادٍ غير عميق فلا يتصاعد الضباب منهُ كما يتصاعد في الجهات الاخرى وارضها صخرية

✻ نهر الصفا ✻ يبعد هذا النهر نحو ساعة بالعربة عن صوفر وطريقهُ بين

جبلين من الصخر الازرق القاتم يكاد التراب لا يتخلل الصخور فلا نبت فيها ولا غرس . وقد ذهبنا اليها في عربة ومررنا في الطريق بخلوة للدروز او هي معبدهم ونادي العقال منهم دهنت بالجير الابيض من الخارج والدخول اليها محظور على كل فردٍ من الناس ما خلا عقال الدروز . وما زالت العربة تهبط بنا تلك الاودية حتى بلغنا نهر الصفا البديع مجراهُ وقد قامت من حولهِ منازل وفنادق ومضارب يقضى فصل الصيف فيها وقد بنوا عند هذا المجرى قهوة ووضعوا فيها مطحنة تدور آلاتها من ضغط الماء ويتكون من دورانها شلال من الماء يتطاير ويتناثر على الصخور ثم يجري من عدة مواضع في خور نمت فيهِ اشجار من الدلب والحور والصفصاف . ويمر الماء بعد ذلك تحت جسر فيسقط في خور آخر ويسمع لسقوطهِ دوي ويرى الى جانبيهِ صفوف اخرى من الاشجار التي تنمو الى جانب الماء كالتي ذكرناها حتى ان ذلك المكان اضحى بهجة للناظرين ومجموع بدائع للمتأملين وقد تمشينا فوق صخور نهر الصفا نحو ربع ساعة حتى بلغنا نبع القاع وهو مصدر هذا النهر يتفجر ماؤُهُ من قاعة او مغارة عالية في وسط الصخور اذا تسلق المرء قليلاً بلغ تلك القاعة ووجد انهُ في شبه كهف عالٍ كأنما هو منحوت في قلب الجبل والماء يجري من ذلك الكهف الى ما دونهُ تحت اشجار غضيضة ملتفة تحجب نور الشمس وقد جعلت منظر ذلك المكان من المشاهد المعدودة في جبل لبنان

✻ عين زحلته ✻ من القرى المشهورة بجمال موقعها ولكنها لا تطلُّ على البحر مثل اكثر مصايف لبنان وقد اهلت بالسكان وكثرت عمائرها ولكن المصطافين يؤْثرون السكن في حدودها والجبل القائم فوقها لا يقل ارتفاعهُ عن ١٣٠٠ متر فوق سطح البحر . وعند سفح هذا الجبل غابة من الصنوبر فيها فندق صغير وبعض المنازل والمضارب والاكواخ يصنعونها من اغصان الصنوبر وتقضى

فيها اشهر الصيف

﴿ الباروك ﴾ قرية قريبة من عين زحلته والمسافة بينهما نحو نصف ساعة وجملة المسافة من صوفر الى الباروك بالعربة نحو ساعتين ونصف ساعة فالذين يقصدون هذه الجهة من النازلين في فندق صوفر عدد كبير اكثرهم يعودون في نفس النهار بعد ان يتناولوا الطعام مما تزودوا على نهر الصفا ونهر الباروك ويضعوا سلال الفاكهة في هاتيك المجاري الشهية لتبرد ثم يرجعون الى صوفر في آخر النهار كما فعلنا وهي نزهة يقلُّ نظيرها في سائر الاقطار . واشهر ما في الباروك نبعها البديع ونهرها الذي يشبه ماؤُهُ الزلال وهو يجري في ارض منبسطة خلافاً لبقية ينابيع لبنان ويسقي عدة مزارع في قرية الباروك وسواها . وقد اشتهر هذا النهر بنقاء مائهِ وبرودتهِ في ايام الحر حتى ان المرء لا يطيق بقاء يدهِ في المجرى اكثر من دقيقة واذا وضع نصف ريال في قاع المجرى بين الصخور امكن للرائي ان يقرأ حروفهُ لان الماء بالغ النقاء . وعلى مقربة من الباروك غابة من شجر الارز يقصدها المتفرجون وهي كائنة عند قاعدة جبل اسمهُ صات الجبل يبلغ علوهُ ١٥٤٥ متراً فهو من اعلى مواضع لبنان

﴿ زحله ﴾ هي اكبر مدن لبنان طرّاً ومن اكثرها جمالاً وثروة واحسنها موقعاً وهواء . ذهبت اليها من صوفر فلما بلغت محطة المعلقة ركبت عربة قامت تجري في وسط طرق منظمة الى جانبيها مجاري الماء وشهي الاغراس والاشجار وقد بنيت مدينة زحلة الى جانبي وادٍ كبير ونهر البردوني يجري بين الشطرين والى ضفتي هذا النهر من هنا ومن هنا اشجار الدلب والصفصاف والحور والصنوبر والزنزلخت وقد بنوا من فوقهِ جسراً ليعبر الناس عليهِ من جانب الى جانب . ولما كانت زحلة مدينة عامرة فقهاويها وفنادقها كثيرة ومروجها الخضراء عند مجرى

الماء من أشهى ما وقعت عليهِ العين . واهل زحلة ميالون الى الطرب فيكثر ان تسمع في هاتيك المروج اصوات المغنين او آلات الطرب ثم ان لوازم المعيشة فيها كثيرة ورخيصة ولا سيما الفواكه واخصها العنب فان في كروم زحلة المشهورة نحو عشرين نوعاً من العنب الشهي حتى ان بعضهم يقصد هذه المدينة للاستشفاء بهوائها ومائها وعنبها . واحسن موضع ترى منهُ مناظر زحلة هو بناء الحكومة الجديد في ساعات النهار واما في الليل فان منظر هذه المدينة يحلو من الوادي او ضفاف البردوني لان الواقف هنالك يرى الانوار ساطعة من جانبي الوادي متصلة من مجرى الماء الى أعلى الجبل في الجانبين

وقد اكتريت عربة من زحله وذهبت بها الى حدائق تعنايل للآباء اليسوعيين وهي اي تعنايل واقعة في سهل البقاع الذي يتصل بزحله ولهُ بها علاقات زراعية وتجارية كثيرة فلما بلغت ذلك المكان بعد ساعة رأيت العجب من اتقان العمل على الطريقة الفرنسوية فان القوم قاموا بعمل لم يجارهم في مضمارهِ غير الخواجات بولاد المشهورين ببيع نبيذ لبنان وقد غرسوا كروم العنب عَلَى الاسلوب الفرنسوي وزرعوا الوفاً من اشجار الفاكهة الاخرى جاؤا ببعض بذورها من اوروبا وانموها في ذلك المكان المعتدل الهواء فهم يستخرجون الخمور انواعاً ويصنعون مربيات الاثمار اشكالاً من التفاح والخوخ والسفرجل والبرقوق وغير ذلك ويرسلون هذا كلهُ الى اوروبا . وقد قابلنا مدير هذه الحدائق ودار معنا بنفسهِ يفرجنا متلاطفاً وكان معنا في اثناء هذه الزيارة بعض المعارف من القطر المصري وعندهم هنالك مدرسة زراعية صغيرة لتعليم اولاد الجبل . وفي هذه القرية ايضاً حديقة غناء للوجيه الخواجا نخله تويني تكثر فيها اشجار التوت لتربية دود الحرير وانواع شتى من اشجار الفاكهة

﴿ظهور الشوير﴾ هي قمة عالية فوق قرية الشوير المشهورة التي أُنشئت فيها المطابع العربية من اكثر من مئة عام اي قبل دخول المرسلين الاجانب الذين انشأُوا مطابعهم الكبرى وطبعت هنالك عدة مؤلفات عربية وكتب مقدسة من زمان بعيد

بلغنا يوم وجودنا في صوفر انهُ سيقام في الشوير معرض صناعي في ١٠ اوغسطس يحضرهُ المتصرف فعزمنا على الذهاب اليهِ مع حضرة الوجيه الخواجا جورج قرداحي والمسافة بالعربة من صوفر الى ظهور الشوير نحوه ساعات في جبال حمانا وارصون وصليما وبعبدات وظهور الشوير والعربة تدور من حول هذه الجبال كلاً في دوره فهي تارة في صعود وطوراً في هبوط ولكن المسافر لا يمل من طول الطريق وتكرار النزول والصعود لما ان المناظر جميلة متنوعة واشجار الصنوبر وغيرها الى جانبي الطريق وفيها عدة حانات الى جانب عيون الماء تباع فيها المأ كولات والمشروبات ويستريح فيها المسافرون بين شهي المناظر الطبيعية وقد يمرُّ المرء بابعاد ليس فيها زرع بل ان صخورها ظاهرة وبعض هذه الصخور ضخم رأيت واحداً عند دير مرحاتا يشبه في شكلهِ تمثال ابي الهول الكائن عند اهرام الجيزة

سرنا بالعربة من صوفر وارتقينا جبل حمانا ثم هبطنا وادي حمانا وهو من اخصب اودية الجبل تكثر فيهِ اشجار التوت وقد تسلقت غصون اللوبياء على اصولهِ وجذوعهِ حتى اصبحت الارض كلها خضراء كالزمرد . وعدنا الى الصعود حين بلغنا جبل ارصون وتكثر فيهِ غابات الصنوبر وقد استرحنا عند عين ارصون قليلاً حيث تباع المأ كولات والفواكه ومررنا بعد هذا بجسر ارصون وقرية العربانية وجسر الجماني حتى اذا انتهينا من ذلك دخلنا الجبل الثالث وفيهِ قرية صليما فالجبل

الرابع وفيهِ قرية بعبدات وهي مشهورة تتفرع منها الطرق احدها الى برمانا وبيت مري وآخر الى ظهور الشوير سرنا بهِ الى جبل الشوير وهو الخامس من حلقات هذه السلسلة التي اخترقناها وقد استرحنا مدة عند عين عرعار وهو نبع يتدفق ماؤهُ بين الصخور ولهُ منظر في غاية الجمال . ومررنا بقرية مرحاتا ودير مار موسى حتى بلغنا ظهور الشوير ونزلنا في فندق كيرلس وهو على اكمة قائمة بنفسها في ذلك الجبل الشاهق يعلو عن سطح البحر نحو ١١٩٠ متراً وهو يعد من اجمل المصايف واحسنها لان هواءهُ جيد جداً وارضهُ مع ارتفاعها كثيرة الكروم والبساتين والغابات وقد كثرت فيهِ العمائر والفنادق الآن بعد ان تهافت المصطافون عليهِ في الزمن الاخير . والمرء يرى من هنا الجبال العديدة متصل بعضها ببعض الى بعد باعدٍ وقد زاد حسن الشوير عام زيارتنا لها بوجود المعرض الذي اشرنا اليهِ وهو من عمل احد ادباء الشوير اسمهُ فارس افندي مشرق اقام زماناً في اميركا وتعلم من اهلها طرق العمل والنهضة فانشأ هذا المعرض بعد رجوعهِ الى وطنهِ وهو اول معرض لبناني من نوعهِ . وقد أمَّ هذا المعرض نحو خمسة آلاف نفس من المدعوين وغيرهم ولما جاءهُ المتصرف قابلتهُ اللجنة بالاكرام وصدحت الموسيقى بالنشيد اللبناني ثم ارتقى منصة فتليت بين يديهِ الخطب والقصائد بالعربية والتركية والفرنسوية ثم دار مع المتفرجين في اجزاء المعرض وكان فيهِ اواني فضية ودخان كوراني لف على طريقة السيجار الافرنجي واجراس وطنافس وصور مناظر لبنان مطرزة باليد على القماش ومنسوجات حريرية وقطنية ورياش واسلحة وكلها مما صنع في قرى لبنان

☀ بكفيا ☀ قرية جميلة كثيرة العمائر الجديدة ولاهلها شهرة بالجد والاقدام وهي تبعد اقل من ساعة عن ظهور الشوير

﴿ برمانا ﴾ من القرى الجميلة اشتهرت بمدارسها وفنادقها ومستشفياتها ففيها مدارس داخلية للبنات والصبيان بعضها للانكليز والبعض للفرنسويين وفيها فندقان عظيمان وفنادق أخرى وهي تبعد ساعتين ونصف ساعة عن بيروت بالعربة والناس يرغبون في قضاء الصيف فيها . وقد اقمنا في فندق بونفيس وهو بناء جميل يفضل فندق صوفر في حسن موقعهِ لانهُ بني على هضبة قائمة بنفسها يرى المرء منها البحر وكل ما تقدم ذكرهُ من مصايف لبنان

﴿ بيت مري ﴾ وهي قرية جميلة جداً تكاد تكون ملاصقة لبرمانا وقد بنيت على رأس جبل مثلها وكثرت فيها المنازل والفنادق واهل بيروت يؤثرون الاصطياف في هاتين القريتين على بقية قرى لبنان

بعلبك

ذهبت لزيارة مدائن بعلبك وحمص وحماه من صوفر في قطار سكة الحديد مع حضرة الوجيه الخواجا جرجي كرم ومررنا بمحطة رياق حيث انتقلنا الى قطار يذهب في جهة بعلبك واما القطار الآخر الذي تركناهُ فيسير الى دمشق وقد مرَّ وصف الطريق بين بيروت ودمشق فلا حاجة الى التكرار . والمسافة بين رياق وبعلبك بالقطار ساعة وربع اكثرها ارض منبسطة حمراء تقرب من ارض مصر وتعرف باسم بقاع بعلبك وهي أعرض من البقاع الاخرى الكائنة بين دمشق وبيروت . ولما قربنا من بعلبك ظهرت بساتينها وجناتها الفيحاء بما فيها من اشجار التفاح والمشمش وغير ذلك والقطار يسير بينها زماناً . وقد ذكرني هذا الطريق الجميل بطريق آخر لبعلبك اذ قصدتها مرة من طرابلس واهدن والارز راكباً جواداً واهدن قرية جميلة في كسروان ارتفاعها نحو ١٤٤٥ متراً اشتهرت بجودة

هوائها وعذب مائها المتدفق وهو انقى من الزلال واشهى من السحر الحلال يتفجر من الصخر مثلجاً فلا تطيق ان تضع اصابعك فيهِ اكثر من دقيقة وهي عند الطرابلسيين بمثابة صوفر عند البيروتيين . وقد ذهبنا الى حرجة ارز لبنان المشهور من اهدن لانهُ على مقربة منها ولهذا الارز شهرة قديمة يأتيهِ السياح من ابعد الاقطار لرؤية شجرهِ القديم وقد يبلغ طول ساقها احياناً ١٠٠ قدم ودائرها من ٢٤ قدماً الى ٣٠ وتمتد فروعها المنبسطة الى مسافة ٢٠ قدماً و ٣٠ و ٤٠ وهي طبقات بعضها فوق بعض خضراء في جميع الاوقات ولخشبها مزية الصلابة وجمال المنظر والرائحة الزكية لا يأكلهُ سوس ولا تضرهُ رطوبة . والظاهر ان الارز كان كثيراً في معظم انحاء لبنان في الزمان السابق فقد ورد عن سليمان الحكيم انهُ بنى هيكل اورشليم العظيم من هذا الخشب واستعان بملك صور على نقلهِ من لبنان فاستخدم هذا الملك ٣٠ الف عامل في هذا العمل . ولكن الاهالي دأبوا على قطع الاشجار حتى لم يبقَ من ارز لبنان الَّا غابات قليلة اهمها التي نحن الآن في ذكرها فيها نحو ٤٠٠ شجرة وموضعها عالٍ تحيط بهِ الجبال لا يقل ارتفاعهُ عن ٦٠٠٠ قدم واقدم هذه الاشجار ١٢ شجرة محيط بعضها نحو ٤٠ قدماً والبعض ٢٠ او ٣٠ . وفي لبنان غابات أُخرى منها واحدة قرب الباروك وواحدة فوق عين زحلتا وقد مرَّ ذكرهما وغابات أُخرى ما زالوا يقطعون اشجارها ليبنوا بهِ بعض منابر الكنائس في اوروبا او ليبقوهُ تذكاراً في البيوت

وقد بتنا ليلة في الارز الكبير وصعدت منهُ قمة برأس القضيب هي أعلى ما في لبنان علوها ٢٤٩٥ متراً وتأملت منها المناظر الشهية في كل جانب فانك ترى البحر وطرابلس كأنها تحت يدك مع ان المسافة بينهما ١٠ ساعات وترى في الجانب الآخر قلعة بعلبك مع انها تبعد ١٢ ساعة . وكان بعض الثلج باقياً في هذه

القمة مع اننا زرناها في اواسط شهر اغسطس . ثم انحدرنا من هنا حتى بلغنا قرية عيناتا وهي من القرى البديعة وماؤُها غزير بارد عذب زلال لا يقل علوها عن ١٥٩٠ متراً وقد بتنا هنا ليلة ثم استأنفنا المسير في اليوم التالي ومررنا بقرية الدير الاحمر تحيط بها غابات من شجر السنديان وهي في اول بقاع بعلبك . وقد ظللنا ٤ ساعات نسير في هذا السهل حتى وصلنا بعلبك وهي موضوع حديثنا الآن

كان اول ما خطر لي في بعلبك ان ارى قلعتها المشهورة واسمها هنا الخربه وهي معبد قديم فيهِ آثار العصور الفينيقية واليونانية والرومانية حوّلهُ العرب الى قلعة وزادوا فيهِ الحصون والابراج باقية الى هذا النهار . وقد زادني رغبة في زيارة هذا الاثر العظيم ان امبراطور المانيا كان اتاهُ عام ١٨٩٨ فلما رجع الى بلادهِ سأل الدولة العلية ان تأذن لبعثة علمية المانية ان تبحث وتنقب في جوانب هذه القلعة وقد اذنت الدولة وعادت ابحاث البعثة الالمانية بنفع كثير واظهرت عدة مخبآت . وقد اشتريت دليلاً لهذه القلعة وتاريخاً بالعربية الفهُ مخايل افندي موسى الوف البعلبكي وهو يستحق على تأليفهِ الثناء . دخلت بادئ بدء من قبو مظلم طولهُ من الشرق الى الغرب ١٢٠ متراً وعرضهُ ٥ امتار وربع المتر وعلوهُ ٦ امتار وعلى مسافة ٢٠ متراً من داخلهِ قبو آخر يعارضهُ من الشمال الى الجنوب طولهُ ٩٣ متراً يؤدي الى قبو ثالث موازٍ للاول وكل هذه الاقبية متناسبة الوضع لما انتهيت منها صعدت ذرى قليلة فاشرفت على البناء الضخم الانيق لهُ منظر يؤثر في النفس نظراً الى ضخامة اجزائهِ واتساعهِ وكبر اعمدتهِ بعضها ثابت في مكانهِ والبعض تساقط بفعل الزمان طول العمود منها ٢٠ متراً ومحيطهُ اكثر من ٣ امتار ونصف متر وفي اعلاهُ افريز جميل بديع النقوش . وقد كان في هذا المعبد ٦٢ عموداً كالتي ذكرناها فتهدم اكثرها والباقي منها على وضعهِ الاصلي ٦ فقط يراها القادم الى بعلبك من

مكان بعيد . وفي وسط البناء معبد جوبتر وهو كبير الالهة في معتقد اليونان القدماء طولهُ ١١٧ متراً وعرضهُ ١١٢ وزخارف هذا المعبد المنقوشة على الحجر بالغة حد الاتقان يحار المرء من دقة نقش الورد والازهار فيها اذا ذكر انها صنعت في زمان الاقدمين وتقدمنا بعد هذا الى معبد باخوس وهو اله الخمر عند الرومانيين وهو اي هذا القسم يفوق كل الاقسام الاخرى ببدائع نقشهِ ولم يتخرب منهُ على قدر ما تخرب من سواهُ طولهُ ٦٨ متراً والعرض ٣٤ وقد بقي من عمدهِ الاصلية ٩ ملاصقة للجدار وكان عددها فيما مرَّ ٥٠ عموداً طول الواحد منها ١٨ متراً ودائرة محيطهِ من الاسفل ٥ امتار ونحو ثلثة ارباع المتر ومن الاعلى اقل من ذلك بقليل

واما باب المعبد الرخامي وهو الباب الرسمي لهذه الآثار فانهُ اجمل ما ترك الاولون للآخرين لم ارَ لهُ نظيراً في آثار رومية واثينا وصعيد مصر طولهُ ١٣ متراً وعرضهُ نصف الطول وقد ملئ دائرهُ بابهى انواع النقش على الرخام وظهرت فيهِ صورة الكوبيدون اله الجمال ومن حولهِ القينات يحملنَ عناقيد العنب من كروم نقشت نقشاً يشرح الصدور و يبهر الابصار حتى ان الضلوع المعروفة في ورق العنب من ظهرها بدت في تلك النقوش وقد تعرشت اغصان منها على اغصان بشكل بديع . وهنالك كنيسة بناها الامبراطور ثيودوسيوس ملئت برسم الصليب اليوناني جدرانها وعلى مقربة منها اعمدة من حجر الغرانيت الاحمر المصقول مبعثرة في الارض وهي مثل عمد الهياكل المصرية المشهورة اصلها من مقالع اصوان ولا بدَّ ان يعجب القارئ لمقدرة الذين نقلوها الى بعلبك من ذلك المكان السحيق

واما منظر هذه القلعة من الخارج فانهُ مهيب ايضاً ولو ان النقوش ليست متوفرة مثل الاجزاء الداخلية فقد بني الصف الاول كلهُ مع طولهِ من ستة حجارة

فقط طول الحجر منها ١٠ امتار وعلوهُ ٤ والصف الثاني كلهُ ثلثة حجارة فقط طول الواحد منها ١٩ متراً ونصف متر والعلو ٤ امتار وبعض الشيء ووزن الحجر من هذا الصنف ٧٢٠ طنلاته فلوانهم وضعوا ٥٠ حجراً من هذا النوع في صف واحد لبلغ طول الصف الف متر. كل هذا والحجارة الكبرى المذكورة محكمة البناء احكاماً لا مثيل لهُ حتى ان ادخال الابرة في شقٍ بين الحجرين ليعد بمثابة المستحيل. وقد استخرجوا هذه الحجارة من مقلع عند باب البلد لم يزل في ارضهِ بعض منها واهمها حجر كبير اسمهُ عند الاهالي حجر الحبلى طولهُ ٢١ متراً وعرضهُ ٥ امتار وثلث المتر من احد الطرفين واقل قليلاً من الطرف الآخر. وهم يقدرون وزن هذا الحجر بالف طن واذا شاؤا رفعهُ مقدار قدم عن الارض فقط لزم للرفع آلة بخارية قوتها ٢٠ الف حصان. وقد اشتغلت البعثة الالمانية بوضع كتاب فيهِ بيان هذه الآثار ورسومها وغرائبها واعلنت ان ثمن الجزء من كتابها الف قرش فقابل هذا بما ترى من اعراض الشرقيين عن مشترى الكتب من هذا القبيل فقد رأيت جمعاً غفيراً من اهل الشام ومصر في بعلبك يأبون شراء الكتاب الصغير الذي ذكرتهُ من قبل مع انهُ يفيدهم في فهم اعظم آثار الاقدمين واجلها باجماع جميع العارفين. والحق يقال ان علماء المانيا اكثر الناس اهتماماً بآثار الشرق في هذه الايام وابحاثهم في الاناطول وما بين النهرين وتدمر واثينا وبعلبك وقبرص ومصر تشهد لهم بالدأب والاجتهاد. وقد رأيت عند قلعة بعلبك نحو ٤٠ صندوقاً ملئت بما تناثر من آثار القلعة لترسل الى برلين

والقادم الى بعلبك اذا رآها في سهلٍ من الارض منبسط كما هي حالتها توهم انها في مكان منخفض ولكنها عالية يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١١٧٠ متراً وفيها متنزه جميل من أشهى مثابات الانس في سورية عند نبعها يعرف باسم رأس العين

تجمع فيها بهاء الماء النقي الجاري والعشب السندسي والاشجار الغضة المزروعة الى جانبي الطريق الممتد من البلد الى هذا المكان البديع

حمص

ذهبت الى حمص من بعلبك والمسافة بينهما نحو ساعتين في القطار يرى المسافر في خلالها سهل البقاع المشهور وهو معروف بترابهِ الاحمر وخصبهِ الكثير وغلالهِ الوافرة . وقد مررنا بضياع بهية في هذا الطريق وكان منظر جبل لبنان مرافقاً لنا في اكثرها حتى بحيرة نهر العاصي التي يخرج منها النهر المعروف بهذا الاسم وغيرهِ طولها ١٤ كيلو متراً . ويمر هذا النهر وهو المعروف عند القدماء باسم اورونتس في حمص وحماه والجسر وانطاكيه ويصبُّ في البحر عند السويدية . وامام البحيرة سدٌّ قديم العهد كان يراد منهُ حفظ الماء فيها الى حين اللزوم . واما مدينة حمص فتبعد نحو ثلث ساعة بالعربة عن محطتها ذهبت منها الى فندق خارج نطاق المدينة وقد كثرت من حولهِ المزارع والاشجار . بلغ سكان حمص نحو ٥٠ الف نفس والداخل اليها يرى الى اليمين قلعة قديمة متردمة قيل انها من ايام الصليبيين و يليها بيت لسعادة عبد الحميد باشا الدروبي فسراي الحكومة والى الجهة الاخرى منها حديقة اسمها المنشية وثكنة متخربة من ايام ابراهيم باشا المصري و يلي ذلك الى جهة اليمين الثكنة الحالية بما فيها من الجنود ثم سوق كبيرة تعرف هنا باسم سوق الحسبي وهي مثابة العربان الذين يأتونها من الضواحي والقرى لبيع الصوف والسمن ولمشترى بعض اللوازم . وقد اشتهرت حمص بمنسوجاتها الحريرية والقطنية فيها عشرة آلاف نول او نحو عشرين الف عامل على الاقل ومصنوعاتها رخيصة ومتينة ولكن الاجانب اضروا بها كما اضروا بصناعة الشرق في كل مكان

وفي حمص مدرسة للصبيان اسستها الجمعية الفلسطينية الروسية عدد طلابها نحو ٧٠٠ وينفق عليها من الجمعية المذكورة ومن طائفة الارثوذكس في البلد ومدرسة للبنات فيها نحو ٤٠٠ طالبة. وقد زرت الكنيسة فرأيت في صدرها الايقونسطاس من الرخام الابيض كتب عليهِ (من احسانات الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية) وكان نيافة المطران اثناسيوس غائباً ولكني سمعت ثناء عاطراً على اعمالهِ وهي في حي النصارى وهو قديم مزدحم البناء بنيت منازلهُ بالحجر الاسود وليس لها شرفات فالسائر في شوارع حمص الضيقة لا يرى غير الجدران السوداء في وجههِ ولكن الطرق نظيفة والبيوت من الداخل جميلة في بعضها البرك والحدائق تسقى من ماء نهر العاصي واما البيوت الصغيرة فيجلب الماء اليها بالقرب على طريقة المدن المصرية في احيائها الوطنية وهي شائعة الى الآن

واشهر متنزهات حمص موضع اسمهُ ميماس على ضفة النهر قامت الى جانبيهِ الاشجار والاغراس ولا سيما الاشجار المثمرة واهمها هنا الرمان ينمو نمواً عجيباً . وميماس تبعد نحو ثلث ساعة عن حمص وهي كثيرة الجمال بمروجها الخضراء وحدائقها الغضيضة وفيها مثابات للناس يأتونها بالعربات او على الخيل والحمير او مشياً على الاقدام . ونهر العاصي يجري في هذه الجهة بقوة كبرى ويجتمع حول ضفافهِ عشرات ومآت من المتنزهين كل يوم

حماه

ذهبنا اليها من حمص والمسافة بينهما نحو ساعتين بالقطار يرى في خلالها جبال النصيرية وبينهما محطتان صغيرتان. وحماه مدينة جميلة عدد سكانها نحو ٦٠ الفاً ونهر العاصي يخترقها ويشطرها شطرين وهي كثيرة البساتين والحدائق حتى

ان مجموعها ليعد متنزهاً يسر الناظرين في طرفها آثار القلعة القديمة وقد اصبحت
تلاً من التراب ارتفاعهُ ٣٠٠ متر والناظر منهُ يرى جبل زين العابدين وسهولاً
تمتد الى حلب . ومدينة حماه من هذا المكان تظهر بكل احيائها واجزائها المتعرجة التي
ترويها السواقي المعروفة عندهم باسم ناعورة (ساقية) يأنس الناس الى صوتها في
الليل والنهار وهي تدفع اليهم الماء فتروي الحدائق والمنازل وعندهم منها عدد كبير .
وقد درت في المدينة فكنت أرى من حدائقها الشجر الباسق فقط لان اسوار
المنازل هنا عالية بداعي الحجاب الشرقي وفي وسط المدينة مواضع خالية لا غرس
بها ولا بناء هي مرابض للجمال التي يكثر ورودها مع العربان والفلاحين يتنابون
اسواقها الكثيرة واهمها السوق الطويلة وهي طويلة بالفعل ولها سقف يقي الناس
حر الشمس وماء المطر وفي حوانيتها كثير من الاقمشة الافرنجية والسلع المختلفة .
وفي كل اسواق حماه وكالات واسعة تضم تجار العرب ومعهم جمالهم والغلال التي
اتوا لمبيعها . وفي هذه المدينة جامع السلطان وهو كبير واسع وكرسي مطران الروم
الارثوذكس وكنيستهم وفي حوش الكنيسة مقام المطران وقبور الموتى وهي طريقة
قديمة في الدفن جروا عليها هنا الى الآن . وفي هذه المدينة ديوان (سراي) للحكومة
جميل بني في شارع واسع نظيف ينار بمصابيح الغاز والى جانبيهِ صفوف من شجر
الزنزلخت . وقد قصدت في آخر النهار قهوة السعدية على ضفة النهر فالفيت الناس
فيها يجلسون الى كراسي واطئة او يفترشون الحصر ويقعدون اليها ولا يشربون
الاَّ القهوة او عرق السوس واما المسكرات فلا . والنهر عريض عند هذه المثابة
تكثر على ضفافهِ اشجار الحور والصفصاف والدلب والزنزلخت والقصب ويسمع
صوت هاتيك النواعير او السواقي من كل جهة . وتجري في النهر هنا زوارق
صغيرة يستأجرها بعض المتنزهين . وقد متعنا الانظار بكل هذه المشاهد في وادي

نهر العاصي وعدنا من حماه الى مصيف صوفر الذي كان مقراً لنا مدة هذه الرحلة

دمشق

ان الطريق ما بين بيروت ودمشق من أجمل الطرق وا كثرها لذة لان المسافر بها يرى البحر والانهار والجبال والاودية والغور والنجد والسهل والقمة والشجر والخضر من كل الاشكال . والقطار ينساب ما بين هاتيك القرى والعمائر متخللاً كروم العنب وغياض الزيتون والصنوبر والتين والتوت وغير هذا مما ذكرناه في وصف المشاهد السابقة والمسافة بينهما في القطار ١٠ ساعات لا يملها المرء ولا يميل الى انقضاء زمان المرور في وسطها. والمحطات كثيرة قريب بعضها من بعض وعددها ٢٥ محطة هي بيروت وبعدها بخمس دقائق الكرنتينا وبعد ذلك بربع ساعة الحدث يرى منها مطرانخانة الروم الارثوذكس التي بناها السيد بولس مطران جبل لبنان والطريق الى هذه المحطة كلها بساتين ومزارع تكثر فيها أنواع الفاكهة والخضر ثم محطة بعبدا وهي مقام متصرف لبنان في الشتاء وعلى مقربة منها قبر فرانكو باشا المتصرف السابق . ويبدأ القطار بعد بعبدا بالصعود في الجبل فيبلغ محطة الجمهور تباع فيها الفواكه والخبز المرقق يكاد يكون قطر الرغيف ذراعاً وهو مستدير رقيق كالورق الخفيف يصنعونهُ في قرى سورية ولا خبز سواه في كثير منها . ويلي ذلك عاريا ثم عاليه فبحمدون فصوفر وكلها من المصايف التي سبق ذكرها وبعد صوفر يدخل القطار في نفق ويخرج منهُ الى ظهر البيدر وهو يصعد صعداً الى جبلين وهذا المكان مرتفع ١٤٨٧ متراً عن سطح البحر وهو أعلى نقطة في هذا الطريق ينحدر القطار بعدهُ الى محطة المريجات حيث يرى المرء سهل البقاع المشهور وقد تقدم الكلام عنهُ وهو من السهول الاريضة التي لا يخلو قيد

شبر فيها من الزرع وعرضهُ يختلف من ٧ كيلومترات الى ١٠ وبساتينه تحكي غوطة دمشق ويلي ذلك محطات جديده وسيدنابل وبعد معلقة زحله التي سبق وصفها يقوم الى رياق وهي ملتقى الارتال يتفرع منها خط حمص وحماه وحلب الذي ذكرناه . ولا يزال القطر مجداً من هناك في وسط السهول المرتفعة حتى يبلغ محطة يحفوفه تظهر في الطريق جبال تناطح السماء ثم محطة سرغايا وهي واقعة في منفسح من الارض مع أن العلو هنا يبلغ ١٣٧١ متراً ثم يدخل في سهل الزبداني وفيهِ مدينة بهذا الاسم عدد سكانها نحو ٢٠ الفاً ولها شهرة ذائعة بأثمارها وفاكهتها لا تفوقها شهرة موضع في بلاد الشام . وتليها قرية بلودان وهي مكان جميل كثير الاشجار رقيق الهواء غزير الماء وقد ارتفعت كل هذه الاماكن عن البحر ارتفاعاً كبيراً . وبعد محطات أخرى صغيره يدخل القطار وادي بردى ثم يبلغ محطة عين الفيجه حيث يتفجر الماء من نبعين شهيين عذبين ويتكون منهما الماء الذي يجري في وسط مدينة دمشق ويسقي منازلها وحدائقها المشهورة . وتلي ذلك محطات أخرى هي الهامه ودمر والبرامكة وهذه منتهى الطريق كلها بساتين وحدائق ومزارع تسحر الانظار وقد اشتهر جمالها من قدم حتى عرفت مدينة دمشق بها من عدة قرون وربما لم يكن في أوروبا متنزه اجمل من الامكنة الواقعة ما بين عين الزبداني ودمشق وهو يجتازهُ القطار في اكثر من ساعة ولا تشبع العين والنفس معاً من النظر اليهِ

هذا موجز مما يقال في طريق قليل مثلهُ بين طرق الارتال في سائر الاقطار . واما مدينة دمشق الفيحاء واسمها بين العامة الشام فمن أقدم المدن الوارد ذكرها في التاريخ والبعض يذهب انها أقدم مدينة باقية على عظمتها الى الآن . قامت فيها دول سورية واشورية وكلدانية كثيرة وتغلب عليها الفاتحون الاجانب

مراراً حتى ملكها الفرس زماناً ثم انتقلت من حوزتهم الى قبضة اليونان حين استولى اسكندر المكدوني على كل مملكة ايران القديمة . وانتقلت الى الرومان على عهد القيصر تراجانوس في سنة ١٠٥ بعد المسيح فظلت من اشهر اجزاء ملكهم الى أيام الفتح العربي حين سير الخليفة أبو بكر الصديق جيشاً من العرب تحت قيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وقد دخلها هذان القائدان من بابين واحدهما جاهل بما فعل الآخر غير ان أبا عبيده دخل مهادناً مصالحاً وخالد دخل قاتلاً ضارباً فلما التقى الرجلان في أسواق دمشق وكل منهما على حالة تخالفا وتعاتبا ثم تشاور الزعماء واتفقوا على اتباع رأي أبي عبيده ومصالحة أهل الشام . وقد ولي معاوية بن أبي سفيان ولاية الشام بعد الفتح المذكور وهو الذي استبدَّ بملك العرب بعد ذلك وأسس الدولة الاموية وجعل دمشق قاعدة أحسن السلطنات العربية من سنة ٦٦٠ الى ٧٣٥ مسيحية وقد ظلت البلاد من أملاك العرب على عهد الدولة العباسية وملوك الطوائف والمماليك والشركس والاكراد وحدثت في أيام دولتهم على عهد صلاح الدين الايوبي حروب لهم مع الصليبين فحاصرها من ملوكهم لويس السابع ملك فرانسا مع كونراد أمير جرمانيا سنة ١١٤٨ ولكنهما لم يتمكنا من فتحها . وسنة ١٤٠١ دخلها تيمورلنك التتري كما دخل غيرها في غزوتهِ الكبرى وقد فتك بأهلها ونقل الصناع منهم الى بلادهِ ثم أضرم النار في مبانيها . وسنة ١٥٦١ دخلت في حوزة الاتراك فتحها السلطان سليم الاول فهي تابعة لدولتهم الى الآن . وحكمها ابراهيم باشا المصري من سنة ١٨٣٢ الى ١٨٤٠ ثم عادت الى قبضة آل عثمان

وقد امتازت دمشق بصنائعها القديمة من ذلك الصيني وقد زالت صناعتهُ من نحو ٢٠٠ سنة والقطع الباقية منهُ في المتاحف أو دور الاكابر تعد من نفيس الآثار . ومنها الحرائر المعرقة والمقلمة والمخططة نقلها الافرنج عن دمشق فهي تعرف

عندهم باسمها (داماس) الى الآن . ومنها السيوف الدمشقية المشهورة لم يدرك الافرنج سرها الا من نحو ١٠٠ سنة وصناعة الخشب المرصع بالعاج أو بصدف اللؤلوء . واشكال النجارة والصياغة بعضها زال و بعضها باقٍ الى الآن. واما غوطة دمشق وبساتينها وحدائقها فانها تعد جنة الله في أرضهِ وشهرتها قديمة عمت جميع الاقطار . وأحسن مافيها الفواكه الكثيرة وهي على لذتها رخيصة الاثمان و بعضها مثل أنواع من المشمش والتوت والآس والخوخ والعنب الزيني لا نظير لهُ في سائر الانحاء

ومنظر دمشق من الظاهر غير جميل لان الشوارع ضيقة عوجاء والارض غير مرصوصة والانوار في الليل قليلة واما منازل المدينة من داخلها فكثيرة الجمال ومعظمها على النسق الشرقي أي ان فيهِ ساحة من حولها الغرف وفي الساحة أشجار وأغراس و برك ماء وقد تكون البرك في داخل بعض الغرف أيضاً والارض كلها مباطة بالرخام الجميل و بعض السقوف والجدران مذهبة أومزخرفة بفاخر الفسيفساء حتى ان الافرنج اذا رأوا بيوت سراة دمشق أذهلهم مافيها من دقيق الصناعة وبديع الزخارف مثل منازل سعيد باشا وهولو باشا والبارودي والقوتلي وفي اكثرها من الصيني النفيس والطنافس الفاخرة وغير ذلك ما يبهر الابصار . ولما كان هذا حال دمشق وهذه آيات جمالها المتوفرة داخل البيوت فقد اعتاد أهلها قضاء أوقات الفراغ في البيوت أو في الغوطة والمتنزهات الطبيعية المحيطة بالمدينة . وطول هذه المدينة نحو خمسة كيلو مترات وعرضها نحو ثلثة وسكانها لا يقلون في هذه الايام عن ثلثمائة الف نفس بوجه التقريب

وتقسم دمشق الى عدة أحياء منها الصالحية والميدان وسوق ساروجه والقميرية وباب توما وهو حي النصارى . وفي هذه المدينة ١٧٣ جامعاً أهمها الجامع الاموي المشهور بناهُ الوليد بن عبد الملك بن مروان وقبل ان يبدأ البناء في سنة ٨٨ هجرية

جمع اليهِ النصارى وطلب منهم كنيسة مار يوحنا حتى يضيف أرضها الى أرض الجامع الجديد فابوا واستعانوا بالعهد المعطى لهم من خالد بن الوليد وابي عبيدة فلم يعبأ بهِ وامر بهدم الكنيسة ثم بني هذا الجامع موضعها واشغل عشرة آلاف بناء ونقاش وعامل آخر مدة تسع سنين حتى اذا انتهت الزخارف الكثيرة وتمت الفسيفساء المذهبة والقبة الكبرى المعروفة بقبة النسر كان الجامع آية في حسنهِ وبهائهِ . ولهُ منارتان احداهما منارة العروس والثانية منارة مريم هما من اعجب المنائر زخرفاً وشكلاً . وقد احترق معظم هذا الجامع سنة ١٨٩٣ فجمع ٨٠ الف جنيه اكثرها تبرعات من الناس والبعض من ضرائب فرضت على اللحم اعادوا البناء بها وطولهُ ٢٥٠ متراً وعرضه ١٨٢

واسواق دمشق شرقية الشكل اكثرها مسقوف وضيق ولكن فيها سوق الحميدية الجديدة وسوق الخوجه وسوق محمد علي تعد كلها من الاسواق الحسنة الجديدة . والحمامات في دمشق كثيرة ومشهورة يؤمها خلق كثير . وفيها من الخانات أو الوكالات عدد كبير اقدمها خان اسعد باشا وخان سليمان باشا . وجوامعها كثيرة ايضاً اهمها بعد الجامع الاموي جامع السنانية وجامع المعلق وجامع درويشية . واحسن ابنيتها العمومية ديوان الحكومة ودائرة الاراضي السنية وسراي السر عسكرية . واشهر بناء فيها تاريخي كنيسة مار حنانيا في الباب الشرقي ومكتبة الظاهر وضريح صلاح الدين الايوبي . والمدينة تنار الآن بالانوار الكهربائية وفيها تراموای كهربائي واليك وصفها على وجهِ الاجمال :

ان الداخل الى دمشق من المحطة يمرُّ في المرجة وهي بقعة شهية سندسية يكسوها العشب الطبيعي وتأتيها الوف الناس لقضاء اوقات الفراغ والنزهة على ضفتي نهر بردى الذي يشطرها شطرين ومن فوقهِ في هذا المكان عدة جسور والى

كل من جانبيهِ طرق حسناء ومسالك للمارة والخيل والعربات . والنهر هنا يقرب من ترعة الابراهيمية في مصر بعرضهِ تحد مرجتهُ من اليمين والشمال غابات كثيفة من اشجار الحور والدلب والصفصاف ويليها جامع السلطان سليم المشهور بقباتهِ الكثيرة ثم ديوان الولاية وسراي الدائرة السنية فالميدان فبعض الفنادق وهي احسن ما في دمشق من نوعها في هذا الميدان وفيهِ عمود تذكار سكة الحجاز الحديدية نقش على قاعدتهِ رسوم التلغراف وسكة الحديد وجامع المدينة وبعض الاشعار التركية مذهبة وقد كتبت بخط جميل . وتبدأ من هذا الميدان السوق الحميدية التي مرّ ذكرها وفي آخرها الجامع الاموي وقد مرّ ذكرهُ ايضاً دخلناهُ وتأملنا رحبتهُ الواسعة الكبرى ورأينا بناءهُ قائماً على ٤٠ عموداً ضخماً وضعت صفوفاً ويمكن لاكثر من ١٥ الف رجل ان يصلي في صحن هذا الجامع الكبير ومحرابهُ جميل من المرمر الملون لا تشبع العين من النظر اليهِ . وفي هذا الجامع قبر النبي يحيى (يوحنا) ولهُ قبة عظيمة عالية على جوانبها اسماء رجال الصحابة وفي بعض جوانبهِ آثار الكنيسة السابقة وكتابات يونانية لم تزل واضحة معنى احداها (نحمدك اللهمّ في سائر الاجيال) . وقد ارتقيت المأذنة على ١٨٧ درجة ورأيت الغوطة والمدينة من داخلها كأنها قطعة من الصخر الرمادي في اطار من الزمرد الاخضر الشهي وذهبت لزيارة قبر السلطان صلاح الدين الايوبي ونظرت في الطريق قبر الملك الظاهر بيبرس مغطى بشال من الكشمير وقد جمعت عندهُ مكتبة من المؤلفات العربية القديمة على عهد مدحت باشا وهو ابو الدستور العثماني واحد ولاة سورية السابقين . اما قبر صلاح الدين فداخل حديقة صغيرة فيها بركة ماء وفوق القبر اكليل وضعهُ امبراطور المانيا وقد عقد فيهِ العلم الالماني والعلم العثماني . ومن هناك سرنا الى سوق باب البريد ويليهِ سوق الدراع وسوق ساروجه وسوق

البزوريه حيث تباع الحلويات اللذيذة . وفي اسواق دمشق حركة تجارية كبرى لان اهل المدينة نحو ٣٠٠ الف ولا يقل اهل الضواحي والنواحي المحدقة بها عن ذلك وكلهم يشترون حوائجهم من هذه الاسواق . وقد دخلنا بيت اسعد باشا العظم وهو من المنازل الفخيمة المشهورة في دمشق فدار حضرة صالح بك احد الورثة معنا يشرح لنا مناظرهُ وما فيهِ من النفائس المذهبة والزجاج القديم والفسيفساء الجميلة وقد بني هذا البيت من ١٨٠ سنة . ودخلنا ايضاً بيت القوتلي لهُ ردهة فسيحة واسعة مبلطة كلها بالرخام الابيض النقي ومنظرها يشرح الصدور وفي وسطها بركة ماء معين تحيط بها الاغراس واشكال الزهر وبعض الاشجار والغرف في دائرة هذه الرحبة اهمها قاعة الاستقبال بما فيها من فاخر الفسيفساء وهي تصلح لدور الملوك

ثم قصدت ضواحي دمشق التي قيل في وصفها نثراً وشعراً ما لم يقل في وصف مكان آخر فالحق يقال ان غوطة دمشق وضواحيها من اجمل مناظر الارض واشهى متنزهاتها على الاطلاق متنزه الربوة حيث تمر انهر خمسة الى دمشق وقد ذكرناها قبل الآن . ومنها موضع اسمهُ الشادروان ومنها متنزه دمر وقد مرَّ ذكرهُ ايضاً وكلها متناسقة متشابهة الجمال لانها مجموع حدائق وبساتين وغياض وجنات تجري من تحتها الانهار . وزرت الصالحية ايضاً وهي قرية متصلة بدمشق وقد بنيت على هضبةٍ حسناء وفيها مصطبة عالية تعرف بمصطبة الامبراطور لان امبراطور المانيا وقف عليها حين أتى هذه المدينة ورأى المحاسن منها . وعند رجوعنا من الصالحية مررنا بجنينة الدفتردار حيث تصدح الموسيقى بالانغام العربية والتركية ويختلف الناس في الليل والنهار وقد تجولت في باب توما وهو حي النصارى ورأيت ما يليهِ من البساتين الكثيرة معظمها داخل اسوار عالية من

اللبن او التراب الممزوج بالتبن ورأيت هنالك شجرة دلب على مقربة من خان الباشا يقال ان عمرها ٣٠٠ سنة فرغ قلبها من احدى جهاتها فعمل فيهِ دكان وهي نامية بعروقها الى الآن

وقد زرت بطرنخانة الروم الارثوذكس في دمشق وهي بناء واسع داخل حديقة غناء وتشرفت بمقابلة غبطة البطريرك غريغوريوس المشهور بالصلاح والتقوى ولما انتهيت من مشاهدة ما في دمشق برحتها قاصداً حلب الشهباء

بين دمشق وحلب

ان المسافة بين المدينتين بسكة الحديد ١٨ ساعة فاني قمت في الصباح من دمشق ولما بلغت محطة رياق انتقلت الى قطار آخر بلغت بهِ بعلبك بعد ٦ ساعات وبت ليلتي هنالك . وفي الصباح التالي قمت من بعلبك عن طريق حمص وحماه وقد مرَّ ذكرهما وكان القطار يسير من حماه الى محطة قمحانه على ضفاف نهر العاصي تارة الى يمينهِ وطوراً الى يسارهِ . وبعد ان وقف في محطات ام كوكب وام الرحيم وتل الجن والضويحي تظهر منها جبال انطاكيه واسكندونه عن كثبٍ اقترب من مدينة حلب وجعل يخترق بساتينها المشهورة وكان اول ما رأينا من مناظرها القلعة القديمة . ومعظم المسافة بين حماه وحلب سهل واسع احمر ترابهُ كثير خصبهُ تزرع فيهِ الحبوب والخضر على اشكالها وفيهِ كثير من الانعام ترعى وبعض مضارب لقبائل العرب

وحال وصولنا حلب ركبنا عربة وسرنا في طريق تعرف باسم السكة الجديدة وهي حديثة ومستقيمة الشكل الى جانبيها صفوف الشجر وفي طرفها نهر قويق مررنا فوق جسرهِ الى فندق العزيزية في ضواحي حلب وهو احسن ما في هذه

المدينة وحي العزيزية هذا اجمل الاحياء في حلب فيهِ منازل بديعة بنيت بالحجر المنحوت وفرشت بفاخر الرياش لاكابر الحلبيين وقد زرت بعضهم فلقيت ما اشتهر من لطفهم ومؤانستهم للغريب

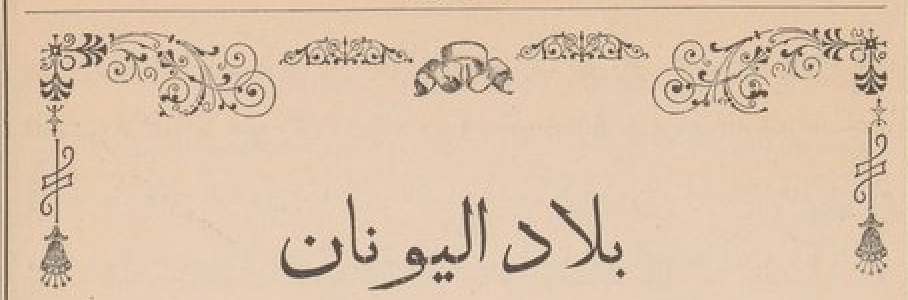
وقد درنا مع دليل الفندق في حي العزيزية فوصلنا باب الفرج وفيهِ برج بأعلاهُ ساعة . ثم دخلنا البلد من باب انطاكية وهو عالٍ وواسع وقديم عهدهُ صنع من الخشب ولبس بالحديد والمسامير مثل باب قلعة مصر دخلنا منهُ الى سوق الزرب وهي سوق طويلة يؤمها الاهالي ويتفرع منها عـدة أسواق حيث يأتي العرب والفلاحون لبيع الحاصلات ومشترى اللوازم . وفي هذه الاسواق الوكالات أو الخانات المشهورة مثل خان النحاسين وخان الجمرك وخان العلبية وخان الوزير . وهو ذو بوابة شاهقة من الرخام الازرق قديمة العهد يتفرج عليها سياح الافرنج كثيراً وخان الصابون وفيهِ البنك العثماني . وقد مررنا بجامع زخريا وهو اكبر جوامع حلب وخرجنا من باب النصر فعدنا الى الفندق

وفي هذا النهار ذهبنا الى حارة الصليبة ورأينا كنيسة الموارنه وهي اكبر كنائس حلب فكنيسة الروم الكاثوليك فكنيسة الروم الارثوذكس وهي قائمة على اربعة اعمدة من الرخام الاصفر كل عمود منها حجر واحد . وزرنا سرايـے الحكومة حيث قابلنا دولة ناظم باشا الوالي صاحب الأيادي البيضاء . والسراي قديمة مثل كثير في حلب ولكن التحسن منتظر بعد ان اتصلت حلب بغيرها من المدن بواسطة سكة الحديدوالبناء الآن قائم فيها على قدم وساق . وقضيت السهرة في موضع طرب « أو نوبة » كما يقول الحلبيون وهم يقعدون حول المغني يدخنون الشيشة او يشربون القهوة والسوس ولا يضجون ولا يقطعون الغناء على المغني في اثناء تلحينهِ كما يفعل عامة المصريين ولكنهم يبدون آيات الاستحسان بعـد كل دور

وقد ذهبنا الى كروم الفستق المشهورة وهي التي تميز حلب عن غيرها لأن الفستق لاينمو الاَّ فيها وهي أي الكروم في خارج البلد مسيرة ساعة بالعربات عنها في طريق يمكن الوصول منها الى بغداد . وهذه الكروم من مثابات الاهالي في ايام موسمها وهي جميلة المنظر تتدلى عناقيد الفستق الحمراء من اشجارها الكبيرة كأَنما هي العنب . وموسم الفستق هنا كبير يستحق الاعتبار . ثم عدنا الى الفندق بطريق جنينة الجانكية وهي من مثابات المتنزهين في هذا البلد الجميل

ولا بد لي قبل نهاية الكلام عن حلب ان أذكر شيئاً عن قلعتها القديمة بناها سلوقس الذي بنى هذه المدينة فوق تل يشرف عَلَى المدينة وزاد كسرى في منعتها وبنائها ويظهر من تاريخ حلب ن قلعتها كانت عقدة الفاتحين وشاغل القواد الهاجمين فيما مرَّ من العصور وقد اشتغل بها كثير من أُمراء العرب وسلاطينهم مثل سيف الدولة وصلاح الدين وغيرهما . ومع كل مامرَّ عليها فان أسوارها باقية على أصلها تقريباً الى الآن

هذا واني رجعت من حلب بسكة الحديد التي ذكرتها الى مصيف صوفر في جبل لبنان وذهبت منها يوماً الى بيت الدين عاصمة الجبل ونزلنا فيها ضيوفاً عَلَى سيادة المفضال المطران بولس بصبوص رئيس اساقفة صور وصيدا للطائفة المارونية ومنزلهُ من القصور التي بناها الامير بشير المشهور . وذهبنا في الغد الى ديوان الحكومة اللبنانية حيث قابلنا دولة المتصرف ورأينا منهُ لطفاً واكراماً ودرنا مع احد حجابهِ نتفرج على السراي وما فيها من الفسيفساء القديمة ثم ذهبنا الى دير القمر وهي على مسيرة نصف ساعة ودخلنا السراي القديمة فيها حيث حصلت مجزرة سنة ١٨٦٠ وغيرها من الحوادث المشهورة في تاريخ هذه البلاد . ثم رجعنا الى صوفر حيث قضينا بقية الصيف وعدنا الى مصر والحمد لله في كل حال



بلاد اليونان

خلاصة تاريخية

ان تاريخ الروم هو بدء تاريخ اوروبا القديم وتقدم هذه الامة وعزها الغابر مما تضرب بهِ الامثال بين الناس ونوابغ اليونان القدماء وعظماؤهم معروفة اسماؤهم في كل مكان فليس يمكن التوسع في ذكر تاريخهم القديم هنا لانهُ يمتد الى اكثر من ١٨٠٠ سنة قبل المسيح وغاية ما يمكن ان يقال في هذه الخلاصة الموجزة ان مملكة الفرس لما اغارت على سوريا ومصر واسيا الصغرى استولت ايضاً على جزءٍ من هذه البلاد ولكن الاروام قاوموا جيوش فارس فسير عليهم ملكها داريوس جيشاً وارسل اسطولاً ينقل الجنود عن طريق خليج ماراثون حيث نزلت العساكر وتقدمت على السهل المعروف بهذا الاسم وهو قريب من مدينة اثينا التي كانت يومئذٍ مثل بقية مدن اليونان دولة مستقلة بنفسها منافسة لاسبرطه وكورنثوس وغيرهما من المدن اليونانية فارسلت اثينا عشرة آلاف مقاتل لمحاربة جيش داريوس تحت قيادة ملتيادس فظن الفرس حين رأوا هذا الجيش الصغير ان الروم قوم مجانين ولكنهم حاربوا مستفانين دفاعاً عن وطنهم فكانت النتيجة ان الفرس هزموا بعد ان قتل خلق كثير منهم وهربوا الى سفنهم فعادت السفن بهم الى اسيا الصغرى . واستمرت الحروب متواصلة تقريباً بعد هذه الحادثة الى ما بعد وفاة داريوس حتى ان خلفهُ زركسيس استعد لحرب هائلة وجند لها اكبر جيش سمع بهِ في تاريخ الاقدمين وقد بالغ مؤرخو اليونان في وصفهِ حتى قالوا انهُ بلغ الملايين جمعوا من كل اقطار اسيا التي استولت عليها دولة الفرس في ذلك الزمان . وقد ركب هذا الجيش العرمرم في ٤٢٠٠ مركب وتقدم على بلاد الروم وكانت البلاد قد استعدت للدفاع ولكن دفاعها لم ينفع فتيلاً لان الفرس دخلوا اثينا واحرقوها وهدموا تماثيلها ومعابدها . ولكن الاروام انتصروا في عدة جهات اخرى براً وبحراً حتى اضطر زركسيس ان يعود الى بلادهِ

بعد ان ترك قائداً ومعهُ ٣٠٠٠٠٠ محارب لانجاز الحرب · ثم تواردت نجدات الروم من سبارتا وغيرها حتى بلغت ١١٠٠٠٠ مقاتل وذلك في سنة ٤٨٠ قبل المسيح وظهر القوم على الفرس وطردوهم من بلادهم ومن ذلك الحين بدأ تقدم اليونان وبلغوا اوج مجدهم القديم

وفي سنة ٣٣٦ قبل المسيح قام اسكندر ذو القرنين ملك مكدونيا وورث عن ابيهِ فيلبس رئاسة دول اليونان كلها وحارب بعض الخصوم في جوار مملكتهِ ففاز عليهم ثم تقدم بجيش اكثرهُ من الروم وعددهُ ٤٠ الف مقاتل لمحاربة دولة الفرس وهي يومئذٍ مملكة ضخمة وغنية ولكنها كانت على غاية الضعف وسوء التدبير · وكان الاسكندر اقدر اهل زمانهِ على القيادة ففاز على الفرس وضمَّ كل الاقطار الخاضعة لهم الى مملكتهِ · وملك بلاد اليونان بعد الاسكندر احد قوادهِ فبقيت البلاد لهُ ولنسلهِ حتى اغار عليها الرومانيون وضموها الى سلطنتهم ثم صارت جزءًا من مملكة القسطنطينية وبقيت كذلك فلم يقوَ العرب على فتحها حتى قامت دولة آل عثمان وتقدم السلطان عثمان ابن السلطان اورخان على تلك البلاد من تساليا وعين فيها حكاماً من القواصة استبدوا بالناس وجاروا جوراً لا مثيل لهُ في التاريخ · كانوا يأخذون اولاد الروم وبناتهم ارقاء للخدمة في منازل الحاكمين وقدعزم احدهم مرة على ابادة الاروام جميعاً حتى لا يبقى مسيحي في الديار ولكنهُ ذكرهُ بعضهم انهُ اذا فعل ذلك لم يبق النجار والفران والخادم والخادمة وصانع الاحذية ولا من يحرث الاراضي ويقدم خيراتها للحاكمين فعدل عن رأيهِ · وقد دامت هذه الحالة الى سنة ١٨٢١ حين وقف جرمانوس مطران بتراس في الكنيسة من بعد القداس في يوم عيد البشاره وفاه بخطبة موثرة محزنة ختمها بالقول انهُ لا بد للخلاص من الذل إما بالموت او بالاستقلال · وقد جعل الاروام عيد البشاره عيد الاستقلال والحرية يقيمون فيهِ الصلاة ويفرحون في كل سنة كالفرنسويين في يوم عيد حريتهم ١٤ يوليو · ولما علم بالثورة اسكندر ابسلانتي وهو ضابط روسي اصلهُ من بلاد الاروام دخل بلاد الدولة يحرض الاروام فيها على العصيان ولكنهُ ضبط ووضع بالسجن فمات فيهِ ثم ذهب اخوهُ دمتربوس ابسلانتي الى بلاد اليونان يحارب معهم مدة الحرب كلها فلما دخلت سنة ١٨٢٣ كانت الحرب سجالاً والمعارك بين الاروام والاتراك دائمة براً وبحراً فان الروم بنوا سفناً واستلم قيادتها رجل جسور اسمهُ كنارس وآخر اسمهُ مايوليس كان لهما اليد الطولى في الانتصار على المراكب العثمانية حتى ان السلطان العثماني دعا محمد علي والي مصر ليساعدهُ على اخماد ثورة الروم فقام ابرهيم باشا من مصر في سنة ١٨٢٥ ومعهُ العساكر والمدافع انزلها في السفن وكان يفتح البلاد ويصلي

العصاة ناراً حامية ولكنهُ لم يقدر على فتح بلدة ميسولوغي فانها حاصرت من شهر ابريل سنة ١٨٢٥ الى شهر ابريل سنة ١٨٢٦ وقد اكتسبت هذه البلدة شهرة ما زالت ترنُّ في آذان الاروام الى هذا اليوم لانها وقفت في وجه ابرهيم باشا عاماً كاملاً ومما زادها شهرة ان النساء والبنات كانت تحارب مع الرجال فشبان اليوم يفخرون اذا اقترنوا بابنة ميسولوغية كأنها من بنات الملوك · وكان المحرك للاروام على استقلالهم اللورد بيرون الشاعر الانكليزي المشهور لانهُ تطوع لمساعدتهم في استقلالهم مثل اللورد كوكران الذي استلم قيادة السفن والسير شرش استلم قيادة الجنود البرية · وتطوع غير هؤلاء رجال من روسيا وجرمانيا وفرانسا ولكن مساعدتهم لم تثمر لان عساكر الدولة دخلت اثينا في اليوم الثاني من شهر جونيو سنة ١٨٢٧ · وفي هذه السنة حصل حادث كان من حظ الاروام هو ان السفن الانكليزية والفرنساوية والروسية كانت تروح وتغدو في الموانى منعاً للتعدي والقسوة على اهالي البلاد فلما اتى فصل الشتاء رأت ان تلتجئ من العواصف وتقيم في خليج نافارين حيث اجتمعت المراكب العثمانية والمصرية · فلما رأى العثمانيون هذه السفن الاجنبية توهموا انها تريد لهم شراً فرموها بمدافعهم وانتشب القتال بين الطرفين · وكانت النتيجة ان المراكب العثمانية وخصوصاً المصرية وعدد هذه ٦٣ قطعة حربية دمرت عن آخرها وفي سنة ١٨٢٨ عُين كابوديستريا من عمال سياسة روسيا الكبار واصلهُ رومي رئيساً لهيئة الحكومة اليونانية الجديدة لمدة سبع سنين وكان الرجل ميالاً الى الحكم المُطلَق المألوف في روسيا فلم ترق للاروام اساليبهُ في الحكم بعد استقلالهم · ولذلك قام بعضهم عليهِ وقتلوهُ رمياً بالرصاص في سنة ١٨٣١ وانتخب الشعب بعد هذا البرنس اوتو الباڤاري ملكاً وذلك في سنة ١٨٣٢ فاعترفت دول اوروبا بانتخابهِ وبدأت المملكة اليونانية الجديدة بشكلها الحالي من ذلك العام

وصل الملك الجديد الى اثينا ومعهُ العدد العديد من ابناء جلدتهِ الالمانيين فقلدهم اهم الوظائف في المملكة فاسخط عليهِ الاروام حتى انهم قاموا وطلبوا منهُ ان يعزل جميع النظار والحكام ويعين خلافهم من الوطنيين وان يشكّل مجلس نواب فعمل الملك برأي الشعب وشُكّل مجلس نواب في سنة ١٨٤٣ ولكن هذا الملك ظل مترفعاً على الاروام غير ميال الى مخالطتهم او عامل على تعمير بلادهم فكثر نفورهم منهُ · ودامت هذه الحالة الى سنة ١٨٦٢ حين قام القوم وطلبوا من اوتو ان يترك بلادهم ويعود الى وطنهِ · وقد زاد في نفورهم من الملك اوتو انهُ لم يرزق اولاداً وهم كانوا يريدون ان يقوم لهُ وارث يعيد مجد بلادهم فاضطر اوتو ان يترك ملك اليونان وعاد بأهلهِ وصحبهِ الى وطنهِ الالماني · وعلى ذلك انتخب القوم في



(جورج ملك اليونان)



سنة ١٨٦٣ البرنس وليم الدنمار كي وهو الملك جورج الحالي وقد تنازلت لهُ انكلترا في اول حكمهِ عن جزر الارخبيل الروميّ وضمّت الى بلادهِ ايضاً اجزاءً من بلاد تساليا ونُظّمت قوات اليونان الحربية وماليتها وتحسنت مدائنها ونمت متاجرها وكثر المتعلمون فيها على ايام هذا الملك . ولم تحدث لبلاد اليونان حروب كبيرة كل هذه المدة ما خلا حربها الاخيرة مع الدولة العلية وامرها معروف

والملك جورج ولد في عاصمة الدنمارك سنة ١٨٤٥ واقترن بالاميره اولغا الروسية ورزق منها خمسة اولاد منهم قسطنطين وهو ولي العهد وجورج ونقولا واندراوس وخريستو فوروس . والملك جورج مرتبط بصلات القرابة مع امبراطور المانيا لان ولدهُ ولي العهد متزوج بشقيقتهِ وصهرهُ ملك الانكليز وزوجتهُ اقرب اقارب امبراطور روسيا فهو مسموع الكلمة في اوروبا يسعى في تقدم مملكتهِ ونجاح بلادهِ



أثينا

سبق لي ان أتيت بيريه وهي ثغر أثينا قادماً من الاستانة حتى اكتب عن هذه البلاد بعض الشيء ولكن حكومتها منعت الركاب من النزول الى البر بالنظر الى وجود بعض اصابات بالكوليرا في الاستانة وعليهِ أتيت الاسكندرية وفي عزمي ان أعود الى أثينا يوماً وقد سهّل المولى ذلك فذهبت اليها في صيف سنة ١٩٠٦ حتى أضمّن هذا الكتاب وصف عاصمة اليونان اسوةً لها بعواصم أوروبا وأمريكا فأقول

قمنا من اسكندرية بالوابور الخديوي وأول مارأينا من الارض جزيرة كريت الى شمال الباخرة وقد سارت تجاهها ثلاث ساعات تقريباً واقتربت منها حتى ان القرى كانت تظهر للمسافرين . وقبل ان تصل الباخرة ثغر بيريه بخمس ساعات تقريباً مررنا بكثير من الجزر ذات اليمين وذات اليسار بعضها عامر والبعض صخري لا ينبت فيهِ شيء . وقد أخبرنا ربان السفينة ان هذه الجزيرة تدعى سنبوس وتلك سرموس وقس على ذلك وقال أيضاً ان البحر محصور ما بين هذه الجزر ففي أيام العواصف يهيج هنا هياجاً شديداً مثل هياجهِ في بوغاز مسينا عند نابولي . ولما بلغنا بيريه ظهرت المدرسة البحرية وهي جميلة مبنية على تل قائم بنفسهِ ثم البواخر الراسية في الثغر المذكور أكثرها عدداً السفن الصغيرة التي تسافر الى الجزائر اليونانية وهي كثيرة فنزلنا للكمرك ومنهُ ذهبنا الى مصيف فاليرا او فاليرون الواقع على البحر وموقعهُ يظهر من ظهر الباخرة وهو يبعد عشر دقائق عن بيريه وخمس عشرة دقيقة عن أثينا وهذه المدن الثلاث مرتبطة بخط سكة حديد كهربائية يقوم منها واليها القطار كل ربع ساعة

بعد استقلال بلاد اليونان كما هو معلوم ومشهور حصلت مداولات دامت السنين الطوال لانتقاء مركز يكون هو العاصمة فقر الرأي في سنة ١٨٣٤ ان تكون أثينا العاصمة وما هي يومئذ الأ قرية تعد بثلاثمائة بيت ذات شوارع قذرة وضيقة وهم يدلونك لحد الآن الى المنزل الذي أقام فيهِ الملك أوتو لما نُصبَّ ملكاً وهو منزل صغير حقير . ومع انهُ كان في البلاد مدن أعظم من أثينا فقد أقروا انتقاءها لما فيها من الآثار القديمة تذكر الاروام بمجد أجدادهم وهم قوم اشتهروا بحب وطنهم . على ان هذه القرية أصبحت بعد زمن مدينة جميلة فيها البنايات العمومية وجميعها من الرخام الابيض الناصع وهو كثير في ضواحي البلد حتى ان ثمنهُ لا يزيد كثيراً عن ثمن الحجر فالمرء يرى واجهات بعض المنازل والفنادق من الرخام حتى ان مماشي شارع المدراس رصّ بالرخام الابيض الناصع مثل قاعات المنازل ولا مثيل لذلك في أوربا . وسكان أثينا الآن ماية وأربعون الفاً وثغرها أي پيريه يعد بخمسين الفاً وقد اشتريت كتاب دليل اثينا وأخذت معي ترجماناً من الفندق وهاك وصف اثينا وهو معروف لكثيرين من المصريين الذين يذهبون الى الاستانة فيكون عندهم وقت ان يذهبوا من الثغر في سكة الحديد الكهربائية مسافة ربع ساعة يتفرجون على اثينا وهم يرون عند المحطة ميدان أمونيا أي الاتحاد يتفرّع منهُ عدّة شوارع اهمها شارع ستاديون وهو في قلب العاصمة يسير المرء فيهِ كما سرنا فيرى الحوانيت والقهاوي ومجلس النواب ونظارات المالية والداخلية وحركة ذهاب واياب وفيهِ خط للتراموای وفي آخرهِ قهوة زخرانوس يرى فيها ما بين القوم ضباط الجيش والبحرية بملابسهم الرسمية وقد جرت العادة ان يختلف الغرباء الى هذه القهوة وامامها ميدان فسيح يدعى ميدان الكونستيتوسيون او ميدان الدستور وهو مثابة الناس عند زوال الشمس يخطرون بهِ او يجلسون في القهاوي ومن حول

الميدان احسن الفنادق وهي كثيرة العدد منها فندق بريطانيا العظمى واجهتهُ من الرخام الابيض . ويلي من هذا الميدان لجهة الشمال حديقة فيها اشجار البردقان أو الفلفل البرّي وهو كثير في الشوارع الاخرى لانهُ يفيد في تحسين الهواء .ومن هذه الحديقة يمكن الوصول الى قصر الملك بني سنة ١٨٣٤ على تلٍ منفرد والبناء بسيط داخلاً وخارجاً يجوز الدخول اليهِ كما دخلنا وكان دخولنا من سلّم رخام درجاتهُ عشر الى رواق قائم امام القصر على عشرة اعمدة ضخمة من الرخام . وكان دليل القصر واقفاً هناك رافقنا الى الدور الاعلى من سلم رخام درجاتهُ اربعون فرأينا عند باب الدخول صورة الملكة بنيلوب والدة تيلماك ثم دخلنا الردهة الخارجية فيها اعلام رومية وتركية باقية الى الآن من ايام حرب الاستقلال في سنة ١٨٢١ وفي دائرة الردهة من الجهات الاربع صور بالزيت تمثل الوقائع الحربية فيها الاتراك بالعمائم يطلقون البنادق والاروام بلباسهم الارناؤدي وغيرهم بالسراويل الطويلة وفي بعض المواقع كان القتال بالسيف الابيض . وهناك صورة الموقعة البحرية المعروفة بموقعة نافارين السابق ذكرها في المقدمة . ثم دخلنا قاعة العرش وفيها عرش من قطيفة حمراء وكرسي آخر يجلس اليهِ الملك عند مقابلتهِ الزائرين ثم قاعة الاستقبال وهي رحبة يقام فيها حفلة رقص في رأس كل سنة يؤُمها الف مدعو تقريباً من أعيان البلد وليس فيها مفروشات فاخرة عدا عدة ثريات من النحاس الاصفر المذهب تنار بالكهرباء . وبعد ذلك وقفنا في شرفة القصر وهي تطل علَى الميدان السالف الذكر وقسم كبير من البلد ولهذا القصر حديقة كبرى يمكن الدخول اليها ولكن لا يجوز شرب الدخان فيها بأمر الملكة . خرجنا من القصر الى الميدان السالف الذكر ومنهُ سرنا في شارع هرمس لجهة الغرب في أوّلهِ قهوة تباع فيها حلويات شرقية كالبقلاوة والكنافة وهي مثابة العائلات . والشارع المذكور طويل وعريض

جميل المنظر فيهِ منازل جميلة وحوانيت كبيرة تباع فيها البضائع الاوربية النفيسة .
وفي الغد ذهبنا الى شارع المدرسة وهو اجمل الشوارع واعرضها مماشيهِ مبلطة بالرخام الابيض الناصع وفيهِ ثلاث مباني نخيمة واجهاتها وعمدها واروقتها الضخمة خارجاً وداخلاً من الرخام أولها دار الاكادمي او مجمع العلماء بنيت كلها من الرخام وقد بناها البارون سينا على طرز دور العلوم في باريس و برلين وهو يوناني الاصل اكتسب ثروة من اقامتهِ في عاصمة النمسا وتجنس بالجنسية النمساوية ولكنهُ لم ينس وطنهُ . وداخل هذا البناء قاعة فيها المقاعد للمباحث العلمية وصور بعض العلماء وصور بالزيت ذات قيمة عظيمة . ويمكن الوصول من هذه الدار الى متحف النقود فيهِ شيء كثير من النقود الذهبية القديمة مرتبة حسب تاريخ ضربها . من ذلك نقود من ايام اسكندر المكدوني لا نظير لها في متاحف اوروبا وقد اقيم خارجاً تمثال البارون سينا ليخلد ذكر اسمهِ وعلى بضع خطوات البناء الثاني وهو المدرسة الكلية بنيت في سنة ١٨٣٧ ومدخلها من رواق بني على جملة اعمدة رخامية ضخمة وعلى يمين الباب تمثال البطريرك غريغوريوس الذي قتلهُ القواصة في الاستانة لما ثار الاروام بطلب الاستقلال في سنة ١٨٢١ وعلى شمالهِ الخطيب والشاعر ريجاس الذي كان يلقي الخطب ويقول الاشعار الحماسية في الحرب . وهناك ايضاً تمثال غلادستون السياسي الانكليزي الشهير الذي كان لهُ فضل كبير على مملكة اليونان واما البناء الثالث فهو المكتبة العمومية بناها الخواجه فاليانوس فيها مائتان وخمسون الف مجلد وقد نصب لهُ تمثال يخلد ذكر اسمهِ . وليس بعيداً من هذا الشارع مدرسة عظيمة للبنات معروفة بمدرسة ارساكيون على اسم الخواجا ارساكس الذي بناها بمالهِ

ذكرت ان ميدان الاتحاد يتفرّع منهُ جملة شوارع منها شارع يدعى باتيسا

وهو اطول شارع في اثينا غرس الشجر الى جانبيهِ وفيهِ المتحف والدخول اليهِ من حديقة · وقد قسم عدة اقسام منها القسم المصري فيهِ موميات وتماثيل مصرية من البرونز والحجر ونخار وجعلان · وهنالك تمثال امرأة من خشب راكعة وهي تعجن والتمثال الآن ذو قيمة عظيمة مثل تمثال شيخ البلد الخشبي في متحف مصر لهُ سمعة في كل اوروبا · وقد جمع هذه الآثار رومي اسمهُ دمتريو يوانيو من مصر منذ ١٨٧١ وارسلها الى هذا المتحف · وفي المتحف المصري المذكور غرفة خصوصية على اسم روستوفتش بك المقيم بمصر الآن جمع فيها شيءٌ كثير من الآثار والعاديات المصرية هدية للمتحف المذكور · فالرومي ولو تغرَّب عن وطنهِ يذكرهُ في كل حالة حتى ان اولادهُ الذين يولدون في بلاد غريبة لا ينسون وطنهم كما هو معلوم ومشهور · وفي هذا المعرض ايضاً القسم اليوناني وضعوا فيهِ تمثالاً وجدوهُ في البحر اعني ان الغوَّاصة وجدوا في قاع البحر قطعاً صغيرة مجموعة بعضها بلي بعضاً فاخرجوها وركب اجزائها بعد ذلك عالم طلياني حسب الوضع الاصلي فكان منها هذا التمثال · وهناك تماثيل الآلهة او المعبودات اليونانية القديمة مثل نبتون اله البحر واثينا معبودة الصحة وسيأتي ذكرها · وهناك ايضاً قبور من الرخام نقش عليها رسوم حوادث التاريخ اليوناني القديم من ذلك رسم معركة مراثون التي حدثت للقوم مع جيش داريوس ملك الفرس بالقرب من اثينا وتمثال عسكري مات في الحرب وهو ما زال راكباً علَى الحصان ووالدهُ ووالدتهُ على يمينهِ وشمالهِ يندبانهِ كل ذلك من الرخام · اما المصوغات الذهبية التي وجدت في الكهوف كالاساور والحلق والخلاخل فانها تعد بالالوف وهي اكثر هنا من نظائرها في متحف مصر · وهناك ايضاً دهليز طويل فيهِ قسم الفخار كالآنية والاباريق وجدت تحت الردم في سهل طرواده واتيكا يدل تاريخها انها صنعت من ٢٥٠٠

سنة قبل المسيح وقد دهنت بالوان باقية على حالها الى الآن • ويقال بالاختصار ان متحف اثينا هذا فيهِ ٢٥ غرفة عدا الدهاليز والفسحات حوت الوفاً كثيرة من القطع الاثرية وقد طبع عنها مجلد يباع للراغبين في المتحف فيهِ النمر الموضوعة على القطع لمعرفة اصلها • وفي الشارع المذكور دار الفنون الجميلة اعني الصور والداخل اليهِ يعجب من فخامة البناء العظيم وهو طبقتان جميعهُ من الرخام الابيض الناصع وفيهِ خارجاً وداخلاً ١٥ من الاعمدة الرخامية الضخمة الناصعة البياض تسطع وتلمع وقد صعدنا سلماً لهُ اطار من نوعهِ كلهُ رخام فدخلنا قاعات الصور اكثرها تمثل وقائع حرب الاستقلال والذين اشتهروا بها

(الستاديون) ممكن الذهاب الى الستاديون من ميدان الدستور السابق ذكرهُ وهو يعدُّ من أغرب الاماكن كان يقام فيهِ الالعاب الاولمبية بني في سنة ٣٣٠ قبل المسيح وكان الخطيب اليوناني والوطني الشهير ليكورغوس يلقي فيهِ خطباً حماسية على القوم اثناء الحروب ولا سيما في حربهم مع اسكندر المقدوني بني على شكل امفيتياتر (مدرّج) مثل ملعب الخيل وكلهُ من الرخام ومقاعدهُ حجارة مستديرة من الرخام ايضاً بدون مسند للظهر بلغ عددها خمسين الف قطعة وكانوا يقيمون فيهِ الالعاب الرياضية لاشداء الرجال واهمها المصارعة وكانوا يكللون الظافر باكليل من شجر الغار حتى ان بطليموس ملك مصر الذي حكم فيها من سنة ٢٤٦ الى سنة ٢٨٤ قبل المسيح ذهب من مصر ليرى هذه الالعاب وكذلك ملك سوريا انطيوخوس الذي حكم سوريا من سنة ١٦٤ الى سنة ١٧٥ قصد هذا المكان ايضاً واجرى فيهِ بعض الترميمات ولكن هذا الملعب تخرب على ممر الدهور واخذت مقاعدهُ الرخامية حتى حركت الحمية الوطنية المرحوم افيروف المثري الاسكندري المعروف فأخذ في اعادة هذا البناء الفخيم الى حالتهِ الاصلية بثمانين الف جنيه

تعهد بدفعها عن طيبة خاطر واستحضر مهرة المهندسين من ايطاليا والمانيا اشتغلوا السنين العديدة في قطع الرخام من الجبل على شكل المقاعد الرخامية الاصلية واحضروها الى هذا المكان ووضعوا المقعد الرخامي لصق الآخر من اول دائرة الملعب صفوفاً صفوفاً وابقوا طريقاً ضيقاً للمرور بين كل اثني عشر صفاً وكان طول المقاعد من دائرة الملعب الى اعلاهُ ٦٠٠ قدم وعرضها ٤٠٠ وللملعب المذكور افريز من الرخام ايضاً وهو الحائل ما بين المتفرجين واللاعبين مثل ملعب الخيل وافريز آخر في اعلاه كذلك من الرخام. ومما يزيد البناء حسناً انهُ لا يرى فيهِ حجر ولا حديد ولا آجر (طوب) ولا خشب بل ان جميعهُ رخام في رخام. وكانوا قد جعلوا شهر ابريل من سياحتنا موعداً لهذه الالعاب حسب العادة القديمة واشترك فيها الرجال الاشدَّاء من اروام وغير اروام اتوا من أوروبا ولكي امثل للقاري هذه الالعاب وهذا المكان بنوع خصوصي اقول ان ملك أنكلترا ادورد السابع حضر خصيصاً من لندن ليرى الالعاب والمكان في ربيع هذه السنة. واعطوا خمسين الف تذكرة دخول لخمسين الف مقعد ثم صرفوا ١٥ الف تذكرة ايضاً للطالبين وقفوا حول الدائرة فلما وصلنا اندهشنا من رؤْية هذا المكان وتأملنا دائرتهُ ثم تقدمنا صعوداً في احدى هذه الطرق الى اعلى صف فيهِ وجلسنا الى احد هذه المقاعد فعددناها من الاسفل الى الاعلى فكانت في صفٍ واحدٍ ١٠٥ مقاعد. فالستاديون أو الملعب هذا اعجوبة من عجائب العالم بين الآثار الباقية الى هذا اليوم. وقد أُقيم تمثال المرحوم اڤيروف بانيهِ عند باب الدخول وهو واقف يشير بيدهِ الى جهة الملعب ولسان حالهِ يقول انظروا هذا فهو من اعمالي

الاكروبول ومن اهم ما يرى في اثينا ايضاً الاكروبول ممكن الذهاب اليهِ من الستاديون وهو معبد فيهِ جملة معابد بني على مرتفع صخري في طرف البلد

علوهُ ٥٠٠ قدم وهو يشبه آثار بعلبك ولكنهُ حفظ من العوامل الطبيعية والزلازل لان فيهِ للآن ٢٦ عموداً طول كل منها ٢٨ قدماً وسمكهُ ٥ اقدام ولكن اذا أُضيف اليها القاعدة والتاج فيكون الطول ٣٣ قدماً واما بعلبك فلم يبقَ فيها الاَّ ٦ اعمدة فقط ويوجد مثل هذه الاعمدة في الكرنك عند لقصر في صعيد مصر ولولا ان الفرس خربوا هذا المعبد عند استيلائهم عليهِ سنة ٤٨٠ قبل المسيح لبقي اقرب الى الاصل مما هو الآن . ولكن اسكندر المقدوني اعاد الاعمدة بعد انتصارهِ الباهر . قيل ان قيمة الذهب والعاج التي ادخلت في معبد اثينا بلغت (٦١٧) تالان او نحو ١٥٠ الف جنيه في ذاك الزمان . ولما وصلنا صعدنا من سلم درجاتهُ واطئة جداً ولكنها متخربة نوعاً ولا يبعد انهم تركوها متخربة على حالتها الاصلية ليظهر قدمها ودخلنا من باب سمي باب بيله لان الموسيو بيله الفرنساوي هو الذي اكتشفهُ في سنة ١٨٥٢ من تحت الحصون العثمانية التي كانت بنيت فوقهُ . واول معبد اشار اليهِ الترجمان وكتاب الدليل الذي كان في يدنا معبد اثينا وقد تخرب ولكن الاثريين الفرنساويين والالمانيين رمموهُ من انقاضهِ الملقاة في الارض في سنة ١٨٣٦ وكانت اثينا الهة الصحة لانهُ حدث في اثناء البناء ان عاملاً سقط على الارض وجرح وكان بيريكلس قد حلم في الليل ان اثينا اهدتهُ الى حشيشة تنبت قرب المعبد يقطف منها ويدهن بها المجروح فيطيب ففعلوا بالحلم وشفي المجروح . وهناك معبد بروبيليا بني في سنة ٤٣٧ قبل المسيح وفيهِ رواق جميل قائم على تماثيل في غاية الدقة اخذ منها اللورد الجين تمثالاً ونقلهُ الى متحف لندن وقد قرأت في الكتب الانكليزية تنديداً على اللورد لانهُ خرب آثاراً كثيرة من المعابد اليونانية ونقلها الى وطنهِ . واني انصح القارئ قبل نزولهِ ان يقف في مكان في طرف الاكروبول لجهة البلد يدعى منظر آمليا على اسم

ملكة الاروام الاولى فانهُ يرى منهُ كل مدينة اثينا بميادينها وشوارعها وبناياتها فلا يغيب شيء عنهُ . ويرى ايضاً من الاكروبول عند اسفلهِ تياترو ديونسيوس بني في سنة ٣٤٠ قبل المسيح يضمُّ ١٤٠٠٠ شخص وهو محل للخطابة تجتمع فيهِ الجمعيات للمداولة في شؤون البلاد وكان قد بقي فيهِ تمثال واحد ولكن قنابل الاتراك خربتهُ اثناء الحرب وهم يومئذٍ ملكوا الاكروبول واقاموا فيهِ وجعلوهُ حصناً لهم . وفي الاكروبول نفسهُ متحف جمع فيهِ آثار لا يحصى عددها كانت ملقاة على الارض وفيهِ جملة غرف ودهاليز فيها القطع الرخامية جميعها من بقايا المعابد وقد رأينا من جملتها حجارة المعابد كانت ملقاة عَلَى الارض مدهونة باللون الازرق والاحمر وهذه الالوان باقية على اصلها لحد الآن مع انهُ مضى عليها اكثر من الفي سنة وهي مثل التي في بعلبك . ومن المعلوم ان عاصمة بلاد الاروام اشتهرت في اوروبا واميركا ويقصدها السياح ليس حباً في رؤية البلد بل لرؤية الآثار القديمة فيها فلا يخلو احد احيائها من آثار كثيرة يقصدها السياح من ذلك قوس ادريين احد قياصرة الرومانيين ارتفاعها ٥٩ قدماً واتساعها ٤٤ وهي قائمة على ١٣ عموداً من الشرق و٩٣ من الغرب و٦ من الجنوب و٦ من الشمال طولها ٥١ قدماً وقطرها ٥ اقدام ونصف . وبينما كنت سائراً مع الترجمان دعانا لرؤية برج الهوا وهو يدل على المطر وحالة الهواء بواسطة علامات تخربت وقد بنى الاتراك فيهِ جامعاً صغيراً وهذا تخرّب ايضاً قرأت على جدرانهِ كلمة الجلالة حفرت حفراً على الجدار . ومن هذا المكان ذهبت الى الكنيسة الكبرى وهي جميلة جداً دهنوا جوانبها بالذهب وليس فيها مقاعد مطلقاً بل ان المصلين يقفون على اقدامهم ما خلا الملك والملكة فقد اعدوا لهما كرسيين

ضواحي اثينا

سبق القول اني اقمت في فالير من ضواحي اثينا . والذين يهجرون العاصمة من شدة الحر في زمن الصيف ويقيمون في الضواحي عدد كبير . وفالير هذه على شاطىء البحر مثل سان ستيفانو في رمل الاسكندرية بني فيها فنادق ولكن الوطنية حرّكت همة المرحوم بستمازوغلو المثري ومدير بنك اثينا فبنى فندق اكتيون الفخيم وفيهِ العشرات من الاعمدة الرخامية الضخمة في الدور الاسفل ذات بياض ناصع وفيهِ القاعات على الطرز الصيني والمصري بمفروشاتها . ولفالير رصيف ممتد على البحر مسافة ٣٠٠٠ متر تقريباً يكنس و يرش بالمياه وتصدح به الموسيقى العسكرية في كل يوم من بعد الظهر فيتقاطر الناس افواجاً لهذا المكان من العاصمة والمسافة بينها عشر دقائق فبعضهم يجلسون في القهاوي الكثيرة العدد في الرصيف المذكور او يخطرون فيهِ ذهاباً واياباً وفيهم الضباط من عسكرية وبحرية بملابسهم الرسمية و بعضهم يتناولون طعامهم على المنضدات المنتشرة على شاطىء البحر وآخرون يولمون الولائم في الليالي المقمرة . والفنادق في هذا المكان رخيصة ومأكولاتها بعيدة عن الغش فان اللحوم والخضر والفواكه وغير ذلك جيدة وهناك تياترو مكشوف لان الهواء جاف . وقد بنوا رصيفاً من الخشب في داخل البحر مسافة ٣٠٠ متر تقريباً وفي آخرهِ فسحة واسعة من الخشب ايضاً يقام احياناً فيها حفلات رقص ومنها ترى المراكب الحربية الراسية في ميناء فالير وهناك قوارب بخارية أو شراعية للنزهة في البحر وحمامات للاستحمام بماء البحر بعضا للرجال والبعض للحريم يؤمها خلق كثير في كل يوم من بعد الظهر . و يحدُّ فالير من الشرق والغرب سهل فيهِ الزرع والضرع ومعامل للصناعة و يحدُّ هـذا السهل جبال قاحلة مثل بعض

اجزاء جبل لبنان

﴿ كيفيسيا ﴾ هي ثانية الضواحي ذهبنا اليها من العاصمة بالسكة الحديدية في ساعة في وسط أراضٍ ضعيفة التربة وبعض اشجار الزيتون والتين هنا وهناك ولكننا دهشنا حين وصلنا من روءية روضة غناء فيها الاشجار الباسقة وبرك المياه العديدة والزهور المتنوعة والناس في ذهاب واياب في هذه الروضة حتى خيل لنا اننا في حديقة فرسايل . ويتفرع من هذه الروضة عدة شوارع بني فيها قصور جميلة داخل حدائق لطيفة بناها الموسرون الاروام بعد ان حصلوا علَى ثروة من متاجرهم في بلاد الغربة وعادوا الى وطنهم المحبوب ليستريحوا من عناء الاعمال ويذوقوا ثمر اتعابهم ومنهم من قضى السنين الطوال في القطر المصري وهم الآن في أرغد عيش في هذه الجهة . وهناك فندق عظيم يؤمهُ خلق كثير خصوصاً في ايام الاحد من بعد الظهر

﴿ طاطوي ﴾ أو هي ضاحية الملك لان الملك بنى فيها قصراً لهُ ولانجالهِ ذهبنا اليها بالعربة من كيفيسيا مسافة ساعة يريد المرء لو انها تطول لان الطريق في حرجة تمتد مسافة ساعات في الطول والعرض من اشجار الصنوبر الاخضر والسنديان والبلوط والصفصاف واشجار بريّة غضة ملتف بعضها حول بعض حتى انها غطت وجه الارض وقد خططت الحكومة في وسطها شارعاً تمر فيهِ عربتان فقط للذهاب والاياب . ولهذه الغابة رائحة عطرية وتغرد فيها الطيور وهي كثيرة ومتنوعة في هذه الجهة حتى اذا وصلنا المحل المقصود ذهبنا الى الفندق الذي بُني فيهِ لراحة المسافرين ثم سرنا الى قصر الملك وهو مبني في الحرجة المذكورة لم يقطعوا منها الاشجار والاعشاب الاموضع بناء القصرفقط . وكان على باب الحرجة الخارجي الحراس وهم يطلبون فقط ان يكتب اسماء الزائرين في دفتر أعدُّوه لهذا الغرض

فسرنا في الحرجة في الطريق الموصل للقصر والقصر صغير وبناؤه بسيط ملتصق بقصور الامراء اولاد الملك ومن حولهِ حديقة رابتُ فيها تمثالاً يمثل النسر يصيد غزالاً وقد كان البرنس حليم باشا المصري مغرماً بهذا فكان يركب جواداً ويأخذ النسر على كتفهِ الشمال ولما يرى الغزال من بعيد يدل النسر عليهِ فيطير النسر ويفقأ عيني الغزال بجناحيهِ والغزال يعدو ليتخلص منهُ ولكن النسر يتبعهُ أينما سار وهو مستمر على العمل المذكور حتى يصل الصياد ومعهُ الكلاب ويكون الغزال قد ضعف وتعذر عليهِ الفرار فيمسكهُ بيدهِ · ويرى من طاطوي سهل ماراثون حيث حصلت الموقعة الحربية في سنة ٤٩٠ قبل المسيح ما بين الفرس واليونان · كان الاروام فيها عشرة آلاف فقط تحت قيادة ملتيادس وكان الفرس نحو ١٥٠ الفاً ولكنهم هزموا بعد قتال شديد وفروا من وجه الاروام

وكثيراً ما يذهب السياح الانكليز والامريكان الى هذا السهل ومعهم الخيام ينصبونها فيهِ ويقيمون الايام وهم يعدون ذلك من دواعي الفخر والتباهي وفي آخر النهار عدنا من نفس الطريق

قبل مبارحتي اثينا لا بدَّ لي ان اذكر الحماسة الوطنية المشهورة عن الاروام وسعيهم وراء ترقيــة وطنهم وحبهم الشديد لهُ يشهد بذلك تعلقهم على ذكره واستمرارهم على تحسين عاصمتهم مع قطع النظر عن الحكومة لان كل الابنية العمومية التي شيدت في العاصمة من اموال الاهالي . وهذهِ اسماء الذين تبرعوا بالمال الوفير لهذا الغرض

(الخواجه افيروف) بنى المدرسة الحربية وصرف عليها مبلغ عشرين الف جنيه وبنى الستاديون او هو ملعب الالعاب الاولمبية الذي سبق ذكرهُ وصرف عليهِ ثمانين الف جنيه وبنى سجوناً بعضها للاحداث الذكور والبعض للاناث بمبلغ

اربعة آلاف جنيه ولا يخفى ما في هذه السجون من النفع ويقال لها الاصلاحية لا يختلط فيها الصغار بكبار المجرمين اجتناباً لفساد الاخلاق فضلاً عن ان الصغار يعلمون صناعات شتى اثناء سجنهم والغرض من ذلك منعهم عن الشر وتقويم النفوس . ولما فتحت وصية الخواجه المشار اليهِ وجد انهُ ترك فيها ماية وخمسين الف جنيه لبناء مدرسة حربية تعلم فيها الفنون البحرية

(البارون سينا) سبق اني ذكرت اسمهُ بنى دار مجمع العلماء وهو بناء فخيم عظيم صرف عليهِ مايتين وخمسين الف جنيه

(الخواجه سنكرو) بنى داراً للعجزة صرف عليها اربعة آلاف جنيه وبنى داراً اخرى للفقراء بمبلغ اربعة آلاف جنيه ولما نظر ان حالة السجون العمومية رديئة مثل ما كانت عليهِ سجون مصر في الماضي بنى سجوناً على القواعد الصحيحة بمبلغ خمسة آلاف جنيه ثم بنى داراً للبنات الفقيرات بمبلغ عشرة آلاف جنيه يتعلمنَ فيها الخياطة والتطريز وغير ذلك من الصنائع اليدوية ومن هذه الدار تخرج معلمات ماهرات بفن الخياطة . ولما فتحت وصيتهُ وجد فيها انهُ ترك ماية الف جنيه تصرف في المبرات والخيرات والمنافع العمومية في العاصمة وقد فتحوا بمالهِ بعض الشوارع وسمي احد هذه الشوارع باسمهِ

(الخواجه فاساني) بنى المدرسة البحرية وصرف عليها مبلغ عشرين الف جنيه وهي التي ترى عند قدوم المسافرين الى ثغر بيريه بنيت على تل قائم بنفسهِ ولما فتحت وصيتهُ وجدوا انهُ اوقف مبلغ عشرين الف جنية لهذه المدرسة

(الخواجه باغي) افتكر بامر اخر وهو انهُ بنى فندقين وفرشهما بمبلغ اربعين الف جنيه في احسن مواقع المدينة وقد خصص ايرادهما للارامل والايتام

(كوستا) بنى مدرسة داخلية للصنائع يعلم فيها اولاد الفقراء ويصرف لهم

المأكول والملبوس مجاناً بمبلغ عشرين الف جنيه وكان يريد من ذلك منع التسول

* الخواجا ارساكي * بنى بناءً فخيماً جداً صرف عليه مبلغ اربعين الف جنيه اعدهُ للبنات الفقيرات يقمنَ فيهِ ويتعلمنَ الصنائع من كل الانواع من ذلك كيفية تربية الاولاد وادارة المنازل والطبخ ومعالجة المرضى والبناء المذكور في اهم مواقع العاصمة لا تقل قيمتهُ عن مئة الف جنيه الآن

* الخواجه فاليانوس * بنى المكتبة العمومية صرف عليها وعلى الكتب مبلغ اربعين الف جنيه

* الخواجات زبا وهم اشقاء * بنوا داراً للعلوم والعمليات او هي المهندسخانة بجميع فروعها صرفوا عليها مبلغ اربعين الف جنيه ثم تركوا مبلغ مئة الف جنيه لتصرف في الاعمال الخيرية والمنافع العمومية

فهذه الارقام اذا جمعت زادت عن مليون جنيه وهي ارقام رسمية مأخوذة من سجلات الحكومة تبرع بها الكرام من تلقاء انفسهم حباً بوطنهم واخوانهم في الجنسية مع انهم كانوا فقراء الاصل لا يملكون شيئاً على ما علمت ولكن لما وفقهم الله تعالى في جدهم واجتهادهم لاحراز ثروة عملوا الخيرات والمبرات تخلد ذكر اسمهم في التاريخ

ولطالما قرأنا في الجرائد اليومية بمصر ان فلاناً وفلاناً من الاروام بالقطر المصري حتى وفي السودان تبرعوا بالمال الكثير لوطنهم فما تركت اثينا لاعود الى مصر الاَّ وانا أُفكر بما جادت بهِ نفوس هؤلاء المحسنين

البلقان

في سنة ١٩٠٨ عزمت علَى السياحة في ممالك رومانيا والسرب والبلغار لان هذه البلاد غير مطروقة كثيراً منا نحن الشرقيين بل اعتدنا ان نذهب الى اوروبا مع ان هذه البلاد أوروبية من كل الوجوه في علومها ومتاحفها ومعالمها ومتنزهاتها . ولها تاريخ جليل مفيد مشحون بكثير من عبر الدهر وحوادثهِ يرتقي الى عدة قرون . وبناءٌ عليهِ ركبت الباخرة من الاسكندرية وهي باخرة رومانية استعارت اسمها (داسيا) من اسم رومانيا القديم فقامت بنا يوم الجمعة الموافق ٣ يوليو سنة ١٩٠٨ عند الساعة الرابعة بعد الظهر وكان الهواءُ جميلاً . وفي الغد ظهرت لنا جزائر كارباتوس وكاسوس على شمال الباخرة ثم جزيرة رودس على اليمين وقد بقيت خمس ساعات او اكثر ظاهرة للعيان والباخرة تسير ثم ظهرت بعدها جزائر أُخرى صخرية راسخة هنا وهناك كالجبال في وسط البحر بعضها معمور بالسكان وبعضها لا يفيد بشيءٍ . وعلى هذه الصورة لم يكن البر يتوارى عن عيان المسافرين مدة السفر بل ظلّ يؤْنسهم ويمتع ببهجتهِ النواظر والخواطر وفي اليوم الثالث من السفر وهو الخامس من الشهر المذكور لاحت لنا ازمير ولكننا قبلما نبلغها صدرت الاوامر لباخرتنا بقضاء مدة الحجر الصحي القانونية في جزيرة كلاموزين (ڤورلا) المعدَّة لهذه الغاية . فكان الحجر مضروباً بسبب بعض وفيات طاعونية حدثت في الاسكندرية قبل قيامنا منها بيومين فتوجهنا الى الجزيرة المذكورة ووجدنا ميناءها امينة طبيعية تبلغ في الطول ثلاثة كيلومترات وفي العرض نحو كيلومترين تكفي لخمسين بارجة حربية . وقد احدقت الجبال بها الَّا من جهة واحدة فكأنَّ الطبيعة أرادت ان تغنيها بمواهبها عن أيدي البشر

ولهذه الميناء نظائر عديدة في سلطتنا العثمانية مثل مرسى ازمير وسلانيك وغيرهما مع ان الممالك الاخرى انفقت ملايين من الجنيهات لاعداد موانئ ترسو فيها المراكب آمنة سطوة البحر ومنها مدينة الاسكندرية فقد انفق على مينائها مئات الوف من الجنيهات . ولما قضينا مدة الحجر الصحي وهي ثلاثة ايام قامت الباخرة في الثامن من الشهر المذكور الى ازمير فبلغتها بساعة بعد ان رأينا في مرورنا طابية فيها المدافع ثم سلسلة قرى مبنية على خليج ازمير منها قرية كور دي ليون أي قلب الاسد اسم خليج ازمير سمي في الخارطة خليج الاسد . وفي كثير من هذه القرى في الضواحي مساكن اعدها الازميريون لهم يذهبون اليها ويعودون منها كل يوم الى اشغالهم . وبعد ان رست الباخرة في ميناء ازمير نزلنا للتفرج عليها واهمُّ ما يرى فيها الرصيف المبني على شاطيء البحر الذي يبلغ طولهُ بضعة كيلو مترات تجاورهُ منازل صغيرة نظيفة وهذا الرصيف اكبر ملتقى للازميريين يتنزهون فيهِ بعد غروب الشمس او يجلسون في القهوات او في النادي الاهلي حيث تناولنا الطعام وللنادي فناءٌ خارجيٌّ يشرف على البحر وفيهِ قاعات للجرائد والالعاب المختلفة حسبما يعهد في الاندية ومنهُ ذهبنا الى كنيسة الروم الارثوذكس وهي قديمة العهد بنيت على النسق البيزانتي ورأينا ان الايقونسطاس والكراسي من خشب مدهون باللون الاسود كأنهُ اللك الصيني ومحفورة فيهِ حفراً صور الملائكة والقديسين والقيامة وفي ساحة الكنيسة قبة الجرس وهي شاهقة ذات اعمدة رخامية مستدقة وثلاثة اجراس كبار قدمت هدية من الغراندوق سرجيوس الروسي . ومن الكنيسة خرجنا نتجول في الاسواق وهي مثل سوق الموسكي في مصر ثم خرجنا الى الضواحي وهي جميلة وعند عودتنا الى الباخرة وقفنا في محطة سكة الحديد الموصلة الى آيدين في داخلية الاناطول ثم قامت الباخرة غروباً

الى متلين (مدلي) فبلغتها بعد سير اربع ساعات فنزل من الركاب من نزل وصعد
من صعد ثم سارت الباخرة الى الاستانة وفي الغد اي ٩ من الشهر المذكور دخلت
الدردنيل حيث توجد الطوابي والاستحكامات الشاهانية التي اشتهر امر منعتها .
وكان الهواء لم يزل جميلاً في بحر مرمره حين ظهرت شطوط آسيا
الصغرى على اليمين وشطوط (بروسة) على الشمال وعند الساعة الثانية بعد الظهر
لاحت لنا سان ستيفانو ويدي قوله ثم دارت الباخرة نحو السراي القديمة فكان
امامها غلطه و بيرا وعلى شمالها استامبول وعلى يمينها اسكودار وقاضي كوي
واخيراً رست في الميناء وفيهِ عدد كبير من البواخر فضلاً عن البواخر التي
تمخر في البوسفور ذاهبة الى المدن المبنية على ضفتهِ او عائدة منها فنزلنا الى
الاستانة ومررنا بكوبري غلطه وفي آخرهِ جامع سلطان والده ثم جامع آيا صوفيا
وجامع السلطان احمد وسبيل الامبراطور غليوم بني تذكاراً لزيارتهِ الاستانة
وكتب على قبتهِ الحرف الاول من اسمه ومسلة مصرية قائمة على قاعدة فيها تماثيل
رومانية وتجاهها عمود الامبراطور يوستنيانوس والعمود المحروق والسر عسكرية
وسوق الاستانة وقد وصفت ذلك كلهُ بالتفصيل في سياحتي الاولى للاستانة
ثم عدنا الى الباخرة بعد الغروب . والآن لا يسعني الاَّ ان اظهر دهشتي من منظر
الاستانة في الليل كما يدهش كل سائح غريب فما غابت شمس السماء حتى بزغت
الف شمس وشمس من الانوار تسطع وتبهر الابصار وهي منتشرة في الجبال السبعة
التي تتألف منها الاستانة وذلك من شاطيء البوسفور الى أعلى هذه الجبال فاذا
وجهت نظرك الى الامام ترى غلطه و بيرا كأَنهما شعلة نار وعلى الشمال استامبول
وقرن الذهب وعلى اليمين اسكودار وقاضي كوي وبالاختصار اقول ان منظر
الاستانة الاجمالي في الليل قليل النظير في العالم جلالاً وبهجة وجمالاً . وفي

الحادي عشر من الشهر المذكور قامت الباخرة من مرساها ودخلت البوسفور مارة امام القصور الشاهانية مثل طولمه بغجه وجراغان ومحطات طرابيه وبيوكدره حتى اذا اجتازت البوسفور دخلت البحر الاسود حيث رأينا الطوابي وقد رفع في اعلاها العلم العثماني اكراماً لوجود دولتلو محمود نديم باشا سفير الدولة في فينا وكان معنا في الباخرة عائداً الى مركزهِ عن طريق بخارست وهو يتكلم العربية الفصحى والبحر الاسود هذا طولهُ ١١٨٧ كيلو متراً وعرضهُ ٦١٣ كيلو متراً ومساحتهُ ٤٢٣٩٧٢ كيلو متراً مربعاً وهو مشهور في العمق اذ يبلغ متوسطهُ ١١٠٠ متر على انهُ يبلغ عند القريم عمق ٢٦١٦ متراً . وبعد سير ثماني ساعات لاحت لنا شطوط بلغاريا وبعد ساعة رست الباخرة في قسطنسه وهي ثغر لرومانيا فكانت مدة السفر من الاسكندرية الى قسطنسه تسعة أيام منها مدة الحجر الصحي . ولا بد قبل براح الباخرة من كلمة ثناء طيبٍ عادلٍ على مستخدميها لما بذلوهُ من الجهة في سبيل راحة الركاب وحسن معاملتهم وبعضهم من سكان مصر فقد كان الطعام احسن طعام تناولناهُ في بواخر الشركات الاخرى وكان الخدم كثيرين مستعدين للقيام بواجباتهم عند أول اشارة واما عن نظافة الغرف فحدث ولا حرج فضلاً عن وجود مروحة كهربائية في كل غرفة . وفي الباخرة غرفتان كبيرتان اشبه بالقاعات الاولى مفروشة اطلس أزرق والثانية اطلس اصفر وفي كل منهما سرير نحاس مثلما يرى في أحسن البيوت . وبالباخرة كرسي ميكانيكي يدار بالكهرباء عكس دوران الباخرة وحركتها يستعملهُ كلُّ من يصيبهُ الدوار وقد اوجدوا طريقة فيها راحة تامة للمسافرين وهي ان جمرك رومانيا ينتدب من قبلهِ معاوناً يرافق المسافرين من الاستانة الى ثغر رومانيا السالف الذكر وهو يسأل الركاب هل عندكم شيء تؤخذ عليهِ رسوم فاذا اجابوهُ سلباً تركهم وشأنهم ووضع ورقة

على كل طرد وبناءً على ذلك لم ندخل الجمرك عند وصولنا الى قسطنسه بل ذهبنا توًّا الى فندق كارول وهو متسع قائم داخل حديقة تقدم فيهِ اطايب الاطعمة ولا سيما السمك

☙ قسطنسه ❧ اسمها بالتركية قسطنجه هي الآن ثغر من ثغور رومانيا كبير الاهمية واقع في اقليم دوبريجه وكان هذا الاقليم قبلاً تابعاً لتركيا وضم الى رومانيا سنة ١٨٨٨ بمقتضى معاهدة برلين المشهورة كما تقدم ذكرهُ في المقدمة التاريخية . وقسطنجه هذه كانت فيما مضى قرية واما الآن ففيها شوارع عريضة بعضها مبلط بالاسفلت وغيرها مرصوف غرست الاشجار الى جانبيهِ . فمررنا من شارع رومانيا الى ان وصلنا الى ميدان اقيم في وسطهِ تمثال اوفيدو الشاعر يجتمع فيهِ خلق كثير حيث يخطرون ذهاباً واياباً او يجلسون في القهوات ومنهُ ذهبنا الى شارع تريان سمي باسم الملك الروماني تريانوس وهو لا يقلُّ حسناً عن الاول بني فيهِ قصر لولي العهد والى يمينهِ قصر آخر للبلدية والى شمالهِ بناية المجلس وهي من الابنية الجديدة وكان معنا طبيب الباخرة فذهبنا معهُ الى ضواحي البلدة ومررنا ما بين اشجار الكرز والمشمش وكروم العنب حتى وصلنا ادارة التلغراف بلا سلك فدخلناها بعد الاستئذان وهناك رأينا سارية شاهقة العلو قائمة بقرب البحر تتدلى منها اسلاك تتصل ببطارية ويتصل بالبطارية سلك يفضي الى غرفة حاوية جهازاً للتلغراف يخرج منها شريط ورق فيهِ علامات الحروف التي تتركب منها كلمات التلغراف وكان مدير المحل يرينا الضربات التي تنبه العمال لاخذ الاشارات ثم ذهبنا لمشاهدة شحن زيت البترول . ولا يخفى ان رومانيا تعد الآن الثالثة بعد امريكا وروسيا في آبارها البترولية تستخرج منها مقادير كبيرة من اقليم كاربات وهو كل سنة بازدياد يصدرونهُ الى مرسيليا وجهات اخرى للتجارة من ثغر قسطنسه

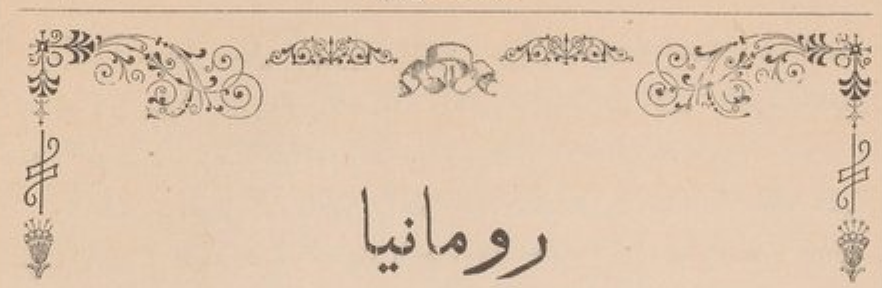
وقد رأينا في القطارات صهاريج مخصوصة لشحن هذا الصنف وتفريغهِ وهم يفرغونهُ في حوض ومن هذا الحوض تمتد القنيُّ الى الباخرة الراسية بقرب الشاطيء

﴿ من قسطنسه الى بخارست ﴾ وفي هذا اليوم ركبت القطار من قسطنسه الى بخارست عاصمة رومانيا والمسافة بينهما ٦ ساعات وعدد المحطات ٢٢ محطة فقام القطار ينهب الارض نهباً وهي الى هذه الجهة ما بين مرتفع ومنخفض مسافة ساعة تقريباً واما بعد ذلك فكانت الاراضي منبسطةً سهلةً مثل اراضي القطر المصري سوى ان هذه تحدق بها الجبال يميناً وشمالاً وان تلك لا تعوق مدى البصر بشيء لانها متصلة بأقاليم واسعة وتزرع على المطر اذ لا يركبها نهر الطونة لانخفاضهِ ومن ثمَّ لا يرى الرائي ترعاً وجداول كما يرى في الديار المصرية . وقد لاحظت ان قسماً من تلك الاراضي لهُ لون اسود حالك كانهُ محروق وهو مخصب يغل كثيراً فان زراعة الذرة الشامية نامية فيهِ نمواً عظيماً وزراعة الشوفان اكثر من ذلك وهناك مراعٍ طبيعية ترعى فيها الثيران معظمها رمادية اللون واما السواد والحمرة فنادران فيها ولها قرون كبيرة وجاؤا بشيء منها الى القطر المصري أيام موت البهائم . وما زال القطار يستقبل محطة و يودع أُخرى والمسافرون ينتظرون بفروغ صبر بلوغ الكبري العظيم (الجسر) الذي له شهرة مستطيرة في العالم وقد بني فوق نهر الدانوب عند مدينة شيرناڤودا بناهُ مهندس روماني يدعى سالين طولهُ ٤٠٠٠ متر نظراً لوجود برك مياه على ضفة النهر فهو اطول واجمل كبري في العالم . وقد استغرق من النفقات ٣٥ مليون فرنك حتى مرَّ القطار فوق هذا الجسر فتأملنا أولاً في النهر فوجدناه كانهُ في وادٍ عميق بالنسبة الى علو الجسر وهو وان كان جميعهُ مدهوناً بدهان أبيض يظهر للناظر كقطعةٍ من الحليّ رونقاً ورواءً وذلك لاحكام صنعتهِ وحسن هندستهِ . وقد سار القطار

مسافة طويلة والناس تتفرّج عليهِ من عربات القطار الذي له شرفات كالقطارات بين القاهرة والاسكندرية . وفي النهر بعض بوارج مدفعية فضلاً عن وجود قوة عسكرية تخفر الجسر . ووقف القطار في احدى المحطات ٥ دقائق فاتت بنات بايديهنَّ اقداح من ورق ابيض ثخين مملوءة حليباً ممزوجاً بالدقيق وعصير الليمون فاشتراها المسافرون وبعد ما شربوها رموا الاقداح وهو شراب مرطب مقبول في فصل الصيف . ورأينا في محطة المجيدية جامعاً صغيراً و كنا نرى في اثناء الطريق رجالاً ونساءً من الفلاحين بملابسهم الوطنية وبعد ٦ ساعات دخل القطار محطة بخارست عاصمة رومانيا ومنها ذهبنا الى فندق بولفار

وقبل ان أتقدم لوصف عاصمة رومانيا اكتب خلاصة تاريخية لهذه المملكة فأقول : —





رومانيا

خلاصة تاريخية

﴿ اصل الشعب الروماني ﴾ كان مهد الشعب الروماني في الناحية الواقعة بين البحر الاسود والبحر الادرياتيكي والبحر الابيض المتوسط

وكان يسكن هذه البقعة في الاعصر القديمة شعب التراس اجداد الذين نسميهم اليوم « الرومان » وكان يطلق اسم « الالليريين » على الذين كان يسكنون منهم القسم الغربي من شبه جزيرة البلقان على شواطىء البحر الادرياتيكي · والذين كانوا يسكنون على شمال نهر الدانوب (الطونه) في جبال ترانسلفانيا والكاربات فيهم « الداس » « والجيت » اما القسم الشرقي من شبه الجزيرة الواقع على شمالي الدانوب فكان يسكنهُ فرع من عائلة التراس وهم المقدونيون

وهذا الفرع هو اول من تمكن من ان يجعل لهُ اثراً باقياً في تاريخ الشعوب · فان المقدونيين توصلوا في القرن الرابع قبل المسيح الى مد رواق سلطتهم حتى الى اواسط اسيا ونواحي افريقيا تحت قيادة الاسكندر ذي القرنين فالفوا اكبر سلطنة أُتيح لرجل فرد ان يتولاها

وبعد تقسيم ملك الاسكندر امتدت السلطة الرومانية على كل شبه جزيرة البلقان · ولم يلبث الالليريون وبعدهم المقدونيون ان امتزجوا بالعنصر الروماني واصبح نهر الدانوب عند مجراهُ الاسفل حدًّا فاصلاً بين الشعب الروماني والتراس او الداس · وكان هؤلاء يقيمون كما تقدم في جبال ترانسلفانيا حيث الفوا مدة عدة قرون مملكة ذات نظامٍ راقٍ نالت شأواً بعيداً من العمران · وكان هذا الشعب شعب زراعة واقتصاد واقدام هذه مدة بقيادة ملوكهِ الشجعان امثال بيربيستا وديسيبال الشعب الروماني النازل بين بحر الادرياتيكي ونهر الطونه

وكثيراً ما حاول رجال الجمهورية الرومانية وامبراطرة الرومان إخضاع هذا الشعب وتدويخهِ لان خطرهُ كان يتفاقم يوماً فيوماً · ولكنهم لم ينجحوا في ذلك · فكانوا يكتفون بعقد الصلح بشروط مرضية هذا اذا لم يدحروا ويردوا على الاعقاب خاسرين

ولما جلس على العرش الامبراطور تراجان الروماني تبدلت هذه الحال · فانهُ اشهر الحرب الاولى على التراس سنة ١٠١ بعد المسيح وذلك ليضمن الراحة والسكينة لمملكتهِ المترامية الاطراف · وبعد مواقع دموية بين الفريقين انكسر التراس في السنة التالية (١٠٢) واضطر ملكهم ديسيبال الى دفع الجزية التي ضربها عليهِ الامبراطور تراجان

على ان السلم لم يستتب طويلاً فان ديسيبال لم يقبل بشروط الرومان الاَّ ليتسنى لهُ الوقت اللازم لاتخاذ اهبتهِ واستعداد قومهِ لخلع نير الاجنبي · فاخذ يحصن الحصون ويجمع العُدد ويعقد محالفات مع الشعوب المتاخمة · فاضطر الامبراطور تراجان الى معاودة الحرب · وفي سنة ١٠٥ بعد المسيح زحفت الجيوش الرومانية ثانية على بلاد التراس وعبرت نهر الدانوب على جسر اقامتهُ فوقهُ · فقاتل الملك ديسيبال حتى اعياهُ القتال وتكاثر عليهِ عدد الاعداء فقتل نفسهُ · وعاد الامبراطور تراجان الى رومة بالغنائم الثمينة

وسميت تلك البلاد بعد اخضاعها «داسيا» وكانت تشتمل على مقاطعات ترانسلفانيا وبانات واولتنيا وما نسميهِ اليوم فلاخيا · ولما كان الرومانيون ارقى حضارة من الداس لم يلبثوا ان اضطروهم الى استعمال لغتهم والتخلق بعاداتهم · وهكذا اندثرت لغة التراس وحلت محلها اللغة اللاتينية من الادرياتيكي حتى البحر الاسود

ومن امتزاج ذينك الشعبين شعب التراس او الداس والشعب الروماني تولد شعب الرومان الذي يسكن الآن رومانيا

وقد لاقت الامارات الرومانية — وهي فلاخيا ورومانيا ومولداڤيا — مصاعب شتى منذ نشأتها · فمن جهة كانت البلاد المجاورة كالمجر وبولونيا تسعى لتخضعها لسلطتها ومن جهة ثانية كان انقسامها على نفسها يُضعفها ويضعضع قواها · ولم يلبث ان ظهر خطر اكبر من وراء الدانوب بظهور الاتراك

فظلت تلك الامارات مدة ثلاثة قرون تقريباً موجهة كل اهتمامها لايقاف زحف الاتراك · وكان الرومان بدفاعهم عن وطنهم يُدافعون عن تخوم اوروبا

وقد ظهر في ذلك العهد رجلان عظيمان وهما مرشيا الكبير (١٣٨٦ — ١٤١٨) في ڤلاخيا واسكندر الصالح (١٤٠٠ — ١٤٣٣) في مولداڤيا · وقد وطد هذان الاميران

الكبيران الامارات الرومانية على اساس متين عند شواطىء الدانوب الاسفل . فقد انتشرت راية السلم في مولداڤيا على كل عهد اسكندر الصالح فتسنى للبلاد ان تنظم امورها وتدبر شؤونها وتسرع الخطى في سبل الترقي والعمران . وكان لملك مرشيا الكبير في ڤلاخيا اهمية عظيمة ايضاً . فان هذا الامير نظم احوال بلادهِ ووسع تخومها حتى بلغت البحر الاسود بضمهِ اليها المقاطعة المعروفة اليوم باسم دوبرودجا . وقد ردَّ مدة طويلة غارات الاتراك ودحر في موقعة روڤين (١٣٦٤) السلطان بايزيد الذي كان عبر نهر الطونه ليغزو تلك البلاد ويفتحها . ولما ضاق الامير مرشيا ذرعاً ولم يبقَ في طاقتهِ مداومة القتال اعترف بسيادة الدولة وعقدت محالفة بينهُ وبينها سنة ١٤٠٢

وبعد ذلك ضعفت مولداڤيا وانكسرت شوكتها بسبب المشاحنات والتنازع على السيادة وظلت هذه الحال حالها حتى ولي العرش الامير اسطفان . وقد امتاز بصفاتهِ الحميدة وفضائلهِ العديدة حتى أُطلق عليهِ لقبا « الكبير » « والقديس » وظلَّ في دست الامارة ما يناهز نصف قرن (١٤٥٧ — ١٥٠٤) وتمتعت البلاد على عهدهِ باستقلالها الوطني وذلك بفضل جيوشها المنظمة وخصوصاً بفضل اميرها المغوار . فانهُ كسر عسكر المجر في موقعة بايا وانتصر على عسكر الاتراك في راهوڤا وراز بويني وعلى البولونيين في غابات كوسمان وهكذا صان استقلال بلادهِ . واشتهر اسم اسطفان الكبير وخبر انتصاراتهِ الباهرة في الغرب فمنحهُ البابا سكستس الرابع لقب « بطل المسيح »

وبعد موت اسطفان ولي الاحكام ابنهُ بوغدان فعمل بنصيحة ابيهِ لهُ على فراش موتهِ فاعترف بسيادة الدولة وعقد مع الباب العالي نفس المعاهدات التي كانت ڤلاخيا قد رضيت بها منذ قرن من الزمن

وقد حفظت الامارتان الرومانيتان بموجب هذه المعاهدات استقلالاً تاماً تقريباً وبقيت الاختصاصات الاساسية لسلطة الامراء الوطنيين سالمة دون مساس وحصرت حقوق الباب العالي في تثبيت الامراء الذين تنتخبهم الامة وفي ضرب جزية سنوية مقررة . ولم يكن يحق للاتراك ان يبنوا مساجد ولا ان يقيموا في البلاد الرومانية بمقتضى تلك المعاهدات

وقد حاولت ڤلاخيا مرتين ان تخلع عن عاتقها نير الاتراك وكان ذلك اول مرة على عهد ڤلاد تزبش فانهُ ابى تأدية الجزية المفروضة فارسلت الدولة حملة تحت قيادة حمزى باشا لتطويعهِ . فهزمهم ڤلاد شرَّ هزيمة بعد ان قتل منهم عشرين الفاً مع قائدهم حمزى باشا . على ان الاتراك عاودوا الكرة وتمكنوا سنة ١٤٦٢ من عبور الدانوب فخلعوا ڤلاد وولّوا مكانهُ اميراً موالياً لهم

وثاني مرة في اواخر القرن السادس عشر عند ما صعد على عرش ڤلاخيا ميشيل البطل وكانت اذ ذاك الدولة العلية في ارفع ذروة المجد والعز بعد ان اذعنت لسلطتها بلاد المجر الشرقية فكانت وطأتها شديدة على الشعب الروماني فلما قبض ميشيل على زمام الاحكام وجد البلاد في حالة محزنة والعساكر يعاملونها كولاية لهم . فتحالف مع سيجيسموند امير ترانسلڤانيا التي كانت اذ ذاك امارة رومانية وأرون امير مولداڤيا وتواطؤوا ثلاثتهم على طرد الاتراك فقتلوا كلَّ من كان منهم في بخارست ثم احرق ميشيل مدينة جورجيڤو وزحف على هورسوا وسليسترا حيث كسرهم

فصعب على السلطان مراد فوز الامير وامر حشمت باشا بمحاربتهِ وخلعهُ وتولية غيرهِ . فسار الباشا ومعهُ ٤٥ الف مقاتل على ان الامير ميشيل كسرهُ في مواقع شديدة بالرغم عن جيشهِ الجرار وقتل الرومان حشمت باشا نفسهُ في احدى المواقع

وظلَّ الامير ميشيل يحارب وتمكن في اربعة اشهر بمساعدة جنود ترانسلڤانيا ومولداڤيا من الانتصار في عشر مواقع وفتح خمس وعشرين مدينة كانت تحتلها الدولة العلية

وبعد موت السلطان مراد خلفهُ ابنهُ السلطان محمود الثالث المشهور بشدتهِ وصرامتهِ ففتح باب القتال وانفذ الصدر الاعظم سنان باشا ومعهُ ١٨٠ الف مقاتل . فابدى الامير ميشيل حينذاك بأساً غريباً واقداماً عجيباً فاوقف الجيش العثماني في كالوجاريني وحال دون زحفهِ الى الامام مع ان هذا الجيش كان يزيد جيشهُ عشرين ضعفاً

وعلى اثر هذه الانتصارات الباهرة فتح الامير ميشيل بلاد ترانسلڤانيا ودخل مدينة ألباجوليا غانماً ظافراً بصفتهِ اميراً على تلك البلاد ثم استولى سنة ١٦٠٠ على مولداڤيا وحلف لهُ « البويار » او الامراء يمين الامانة . وهكذا حقق ميشيل البطل في مدة وجيزة اعزَّ اماني الشعب الروماني اذ جمع على رأسهِ ثلاثة تيجان ڤلاخيا ومولداڤيا وترانسلڤانيا

على ان العهد لم يطل على هذه المملكة التي اسسها ميشيل . فان بعض المجريين قتلوهُ غيلةً وهو نائم في مضربهِ ولم يكن يتجاوز الثالثة والاربعين من عمرهِ وكان مقتلهُ سنة ١٦٠١ وبعد قتلهِ عادت المملكة الرومانية فانفصلت ثانية الى ثلاث إمارات

∴

(تاريخ الامارات الرومانية من ١٦٠٠ الى ١٨٦٦) ومنذ غرة القرن السابع عشر نرى رومانيا تدخل في طور جديد من التاريخ ولم تبقَ الولاية فيها لسلالات امرائها الاقدمين اي امراء موزاتيني في مولداڤيا وامراء بشارابيا في ڤلاخيا . بل ادعت تركيا لنفسها حق تعيين

الامراء الحاكمين وعزلهم وكان هذا خرقاً للمعاهدات والاتفاقات · واستبدت بسلطتها فكانت تعين كل سنتين او ثلاث اميراً جديداً وكان هذا ينقدها اموالاً طائلة ثمن فرمان توليتهِ · وبعد قبضهِ على ازمة الامور كان همهُ بالطبع ابتزاز الاموال من الاهالي ليسترد ما تسرَّب منهُ الى الاستانة سيما وهو عارف بان عهد ولايتهِ لا يطول بل ينقضي عند وجود من يدفع اكثر منهُ

فليس والحالة هذه ما يقضي بالعجب من نزول هذا الشعب الى دركات الاستعباد بعد ان كان نشيطاً قوياً · اما الاشراف الذين كانوا في سالف الزمن حياة البلاد وروحها فقد انحطوا هم ايضاً وحصروا مساعيهم في الدسائس والتزلف للحصول على الامارة

على ان هناك امراً جديراً بالملاحظة فان البلاد الرومانية بالرغم عن انحطاطها ظلت محتفظة بنظاماتها وادارتها الخصوصية فكانت تحت سيادة الدولة فقط ساعة كانت سائر البلاد النصرانية الواقعة وراء الدانوب كالصرب والبلغار واليونان وقسم من المجر تحت سلطة الدولة العلية مباشرةً تديرها كسائر ولاياتها

وفي بداية هذا العهد عند ما كان يدير زمام الاحكام امراء رومانيون ذاقت البلاد طعم الراحة والسكينة بعد ما كانت قضت مدة ليست باليسيرة في قتال دائم وحرب مستمرة

ومن الامراء الذين يستحقون ذكراً خصوصياً في ذاك العهد ماتاي بساراب في ڤلاخيا وباسيل لوبو في مولداڤيا · فان هذين الاميرين وضعا همهما في انشاء المطابع وفتح المدارس لنشر العلوم والمعارف · وكان ذلك اشبه بالمنافسة بينهما · فبدت في البلاد نهضة حقيقية فطُبعت الكتب الكنسية ودونت الامور التاريخية وخصوصاً المتعلقة منها بتاريخ الشعب الروماني الاول ونشرت كتب القانون والشرائع لتعميم المعارف القانونية · وفي ذاك العهد ايضاً شيدت الاديرة واشهرها دير القديسين الثلاثة في يامي · واعظم عملٍ يذكر لهذين الاميرين استبدال اللغة السلاڤونية باللغة الرومانية في الطقوس الكنسية

ثم اخذت سلطة الاتراك تضعف وظلهم يتقلص شيئاً فشيئاً سيما بعد انكسارهم امام ڤينا وبدأت النمسا وروسيا تنشران نفوذهما في الإمارة الرومانية · وكان الامراء حكام البلاد يضعفون امامهم تارة بهذا وتارة بتلك ليخلعوا نير الاتراك

ولهذا السبب عدلت تركيا عن تقليد الامارة للامراء الوطنيين وصارت تولي رجالاً من اليونان عرفوا ان يكتسبوا ثقتها بالطرق المألوفة

وهذا هو عهد اليونان الفناريين الذي دام اكثر من قرن كامل (١٧١٢ — ١٨٢١)

وكان هؤلاء الحكام الاجانب ينزلون في البلاد مع حاشية كبيرة من الاهل والمقربين فيطلقون سراحهم لسد مطامعهم وعليهِ فلا عجب اذا كان قد حفظ الرومان اسوأ ذكرٍ لهذا العهد

وكان الباب العالي استناداً الى سلطتهِ قد استبد بالبلاد وجعل الجزية عشرة اضعاف ما كانت عليهِ . وكان يضيق على الاهالي ايما تضييق ليضطرهم الى دفع المترتب عليهم

وقد رأت البلاد بعض امراء صالحين تركوا فيها ذكراً حسناً كالاميرين نقولا وقسطنطين مفروكوردات في ڤلاخيا والامير جبريل جيكا الروماني في مولداڤيا وقد ادخل الاولان في امارتهما اصلاحات عديدة ترمي الى تحسين حالة الفلاحين

وكان المقام الاول في هذا العهد للنفوذ اليوناني حتى تخلقت الدوائر العالية باخلاق اليونان ونسجت على منوالهم . وفي هذا العهد ايضاً تمكن الرهبان اليونان من الاستيلاء على قسم كبير من املاك البلاد بفضل الاديرة الرومانية الموقوفة . وكان ايراد هذه الاوقاف بدلاً من ان يبقى في البلاد يرسل الى الخارج ليضاف الى ايراد الاديرة اليونانية في كل الشرق من جبل اتوس الى القبر المقدس الى البطريركتين الاورشليمية والاسكندرية . وظلت الحال على هذا المنوال حتى سنة ١٨٦٣ يوم كان يحكم البلاد الامير كوزا الروماني حيث أُخذت املاك الاديرة واصبحت عالمية

وحدثت اذ ذاك مشاكل عديدة بين تركيا وروسيا والنمسا جعلت بلاد رومانيا مدة من الزمن ميدان حروب طاحنة واحتلتها الجيوش الاجنبية سنين طويلة فاقتطعت لها قسماً من اطرافها ففي سنة ١٧١٨ حفظت النمسا لها اثر عقد السلم في بساروفيتز ولاية اولتانيا وقد اعادتها الى رومانيا سنة ١٧٣٩ بمعاهدة بلغراد

وارادت روسيا بعد حربها مع الدولة العثمانية (١٧٦٨ — ١٧٧٤) ان تحتل الولايات الرومانية فقاومتها النمسا بكل شدة ونالت من تركيا جزاء هذه الخدمة مقاطعة مولداڤيا المعروفة باسم بوكوفين حيث توجد رفات الامير اسطفان الكبير اعظم امراء الرومان

وقد نالت روسيا بعد حربها الثانية مع تركيا (١٨٠٦ — ١٨١٢) كل المقاطعة الواقعة بين نهري بروت ودنستر اعني ولاية بساراييا . وهكذا اصبحت مولداڤيا نصف ما كانت عليهِ على عهد اسطفان الكبير

فايقظت هذه الحالة التعيسة التي آلت اليها الامارتان الرومانيتان على عهد اليونان الفنار بين العاطفة الوطنية في صدور الشعب والاشراف وقد تجلى هذا الاستياء باكمل مظاهره في الحركة التي تمت على يد تودور ڤلادميريسكو سنة ١٨٢١ . وكانت حركة موجهة ضد

اليونان الذين حاولوا اذ ذاك احداث فتنة في البلاد ليستولوا على رومانيا و يتوصلوا هكذا الى انقاذ وطنهم من تحت سلطة الدولة فدارت الدائرة عليهم وطردوا من كل البلاد الرومانية

ومن منذ ذاك العهد لم يعد الباب العالي يرسل الى رومانيا ولاةً اجانب بل عاد يعين كذي قبل امراء وطنيين . وكان لذلك تأثير حسن في البلاد لان الامراء الذين تولوا الاحكام بعد ثورة ١٨٢١ بذلوا مجهودهم لتحسين الحال وتدبير الامور وتنظيم الادارة ونشر المعارف . وفي ذاك العهد أُنشئت المدارس الرومانية التي لا تزال زاهرة الى ايامنا هذه

و بعد بضع سنوات عاد الروس على اثر حرب جديدة مع الدولة العثمانية (١٨٢٨—١٨٣٤) فاحتلوا الولايات الرومانية ونظموها على شكل جديد حسب ما هو مبين في القانون الاساسي وقد وضع لمولدافيا قانون خاص بها وكذلك قانون خصوصي لفلاخيا . وبالوقت نفسهِ وطدت روسيا نهائياً دعائم نفوذها في تلك الامارات

ولما كانت البلاد سائرة بموجب القانون الاساسي المذكور كانت شؤونها منظمة من كل الاوجه وكان هناك جمعية عمومية تنظر في القوانين وتوافق عليها وكان انتخاب الامراء منوطاً بها . وفتحت المدارس ونظم جيش وانشئت سبل المواصلات . على ان هذا القانون الاساسي كان يحصر السلطة في فريق من الاشراف ولا يفتح مجالاً لادخال الاصلاحات الحرة التي كان يتطلبها الشعب . وكان ذلك سبباً لايجاد حركة تولدت عن مجرى الافكار وبلغت اشدَّها سنة ١٨٤٨ على انها لم تنجح الاّ في فلاخيا . وكانت نتيجتها ان احتلت الجيوش الاجنبية البلاد الرومانية . وعقد اتفاق (بالطاليان) سنة ١٨٤٩ فظلت الادارة بموجبهِ كما كانت على عهد القانون الاساسي الذي وضعهُ الروس ما عدا بعض تعديلات وتحويرات طفيفة أُدخلت عليهِ . وجاء الحكم الذي عقب هذه الثورة بنتائج مرضية للغاية لان الحكام تابعوا عمل الاصلاح الذي ابتدأ سنة ١٨٢١

ثم كانت حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٦) وخرجت روسيا منها مكسورة . وعقد على اثرها مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ ومن جملة الامور التي نظر فيها كانت مسألة رومانيا التي تقرر بشأنها ما يأتي: تسلخ البلاد من تحت حماية روسيا وتعود تحت سيادة الدولة العلية كما كانت على عهد الامتيازات القديمة . وترك وضع الطريقة الادارية الى بعد تشكيل لجنة خصوصية تؤلفها الدول لتنظر في مطالب الشعب الروماني . وقد اعربت اللجنة المشكلة لهذا الغرض عن المطالب الآتية: اولاً استقلال البلاد الاداري حسب الامتيازات . ثانياً ضم الامارة الى إيالة واحدة . ثالثاً تعيين امير اجنبي من احدى الامر المالكة في اوروبا . رابعاً

حكومة دستورية مع جمعية عمومية تمثل مصالح الامة

فاجابت اللجنة الدولية باتفاقية سنة ١٨٥٨ الى مطالب الشعب الروماني ما عدا مطلبين وهما ضم الولايات وتعيين امير اجنبي ٠ ولكن الشعب حقق هذه الامنية في اليومين العظيمين في تاريخ رومانيا الحديث وهما ٥ و ٢٤ يناير من سنة ١٨٥٩ حيث انتخب الميرالاي اسكندر يوحنا كوزا اميراً لمولداڤيا ثم اميراً لڤلاخيا باتفاق آراء الجمعيتين العموميتين ٠ ووافق الباب العالي بتصعب على هذا الانتخاب واعترف بضم الولايتين تحت سلطة امير واحد مع ابقاء وزارة وجمعية كل ولاية مستقلة ٠ وبعد مضي سنتين تم الاتحاد بتوحيد الادارة في الولايتين باسم الامارات المتحدة ٠ وهكذا تحققت اعز اماني الوطنيين الرومانيين

وتمت اصلاحات خطيرة على ايام البرنس كوزا واهمها وضع يد الحكومة على املاك الاديرة وبهذه الطريقة قُطعت احدى الروابط التي كانت تربط رومانيا بسائر الشرق لان رهبان اليونان كانوا يستفيدون وحدهم من مدخول الاديرة والاراضي الموقوفة عليها

ومن اهم هذه الاصلاحات ايضاً جعل الفلاحين ملاَّكاً للاراضي التي كانوا يحرثونها فكان ذلك حلاً لمشكلة الزراعية وهي المسألة الوحيدة التي اغفلتها الادارة السابقة ٠ اما طريقة هذا الحل فكانت بالغاء السخرة والعشور والزام الفلاحين مقابل ذلك بدفع تعويض للملاك الاصليين مدة ١٤ سنة ٠ واصبح المزارعون اصحاباً للاراضي التي كانوا يزرعونها بالسخرة ٠ وقد تم هذا الاصلاح بالرغم عن ارادة مجلس شورى القوانين بعد ثورة ٢ مايو ١٨٦٤ وذلك ان البرنس كوزا اوقف العمل بموجب الاتفاقية وعرض على الامة قانوناً لحكم الامارات المتحدة بموجبهِ ٠ وقد سنَّ البرنس قوانين خطيرة للغاية قبل عقد شورى قوانين جديد واهمها قانون الفلاحين وقانون التعليم والقانون المدني وقانون الجزاء الخ٠ كل الاصلاح تمَّ بفضل البرنس كوزا وجعل اسمه مباركاً من كل الشعب الروماني الذي حفظ لهُ احسن ذكر

وفي ١١ فبراير سنة ١٨٦٦ اضطر البرنس كوزا ان يستقيل ليتم تنفيذ مطالب الامة باكملها وذلك باجلاس امير اجنبي من اسرة مالكة في اوروبا على عرش رومانيا

❊ حكم الملك شارل الاول ❊ وثاني يوم استعفاء البرنس كوزا نادى مجلس شورى القوانين اميراً بالبرنس الكونت فيليب ده فلاندر اخي ملك البلجيك سابقاً فرفض هذا العرش المعروض عليهِ خشية حصول مشاكل اوربية ٠ وفي ٨ ابريل سنة ١٨٦٦ انتخب الشعب باتفاق الاراء البرنس شارل ده هوهنزلرن سيجمار نجن اميراً لهُ ٠ واتخذ الامير الجديد اسم شارل الاول في ١٠ مايو من تلك السنة ودخل رسمياً الى العاصمة (بخارست) حيث أُقيمت

الافراح والاحتفالات البهيجة

وكان جلوس شارل الاول على عرش رومانيا فاتحة عصر مجيد في تاريخ البلاد الرومانية فيهِ ابتدأ حكم سلالة من سلالات الملوك الحاكمين في الغرب ونالت البلاد استقلالها التام ورفعت الى درجة مملكة

وتمَّ تنظيم رومانيا تقريباً في العشر السنين الاولى من حكم البرنس شارل فمدت الخطوط ونظمت المالية واصلحت الادارة والمحاكم وتوسعت دائرة المعارف . وقد وجه البرنس الجديد عناية خصوصية الى تنظيم الجيش . وكان بذلك مصمماً على الحرب كما تبين عند نشوب الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٧ . وفي سنة ١٨٧٦ كانت الاكثرية في الانتخابات للاحرار فعهد البرنس الى المسيو جان براتيانو زعيم الحزب الحر بتأليف الوزارة . وكان هذا الزعيم على مبدإ البرنس من حيث وجوب تداخل رومانيا في الحرب الروسية العثمانية . فتم بين رومانيا وروسيا توقيع اتفاق ١٦ ابريل سنة ١٨٧٦ الذي اباح للجيوش الروسية المرور في الاراضي الرومانية على شرط ان يضمن القيصر لرومانيا سلامة املاكها وصيانتها . وكانت المفاوضة جارية بين الفريقين كأنها بين مملكتين دون وساطة الباب العالي مع ان رومانيا كانت لم تزل تحت السيادة العثمانية . وقد قطعت اخر روابط هذه السيادة يوم ارادت الدولة ان تعامل البرنس كحاكم تحت سلطتها ورومانيا كولاية من ولاياتها الممتازة فاجاب الرومان على هذه المعاملة باعلان استقلالهم في ٢٣ مايو سنة ١٨٧٧ . وفي ٢٦ منهُ تبودلت القنابل الاولى بين الرومان والجيش العثماني في ويدين حيث اضطرت رومانيا الى محاربة الدولة لاكتساب امتيازها والدفاع عن مصالح جيرانها في شبه جزيرة البلقان

فعبر الجيش الروماني نهر الدانوب بناءً على الحاح الروس في احرج اطوار هذه الحرب على اثر اندحار الروس مرتين متواليتين في مهاجمتهم بلفنا

وكان البرنس شارل قد تربى تربية عسكرية كاملة وكان قبل مجيئهِ الى رومانيا قد اشترك في حملة شلسويج هولستين ضد الدانمرك مع ولي عهد بروسيا الذي صار بعد ذلك الامبراطور فردريك الثالث ومع القائد الشهير الفلد مارشال ده مولتك

ومنذ بداية الحرب تولَّى البرنس شارل بذاتهِ قيادة جيشهِ واهتم بان يحفظ لجيوشهِ حركة عسكرية مستقلة وكان معسكرهُ العام في كرايوفا ومعسكر الروس في بولستي - وفي شهر يونيو عبر الجيش الروسي نهر الدانوب وكُسرَ في نيكوبولي وبلفنا . فارسل الغراندوق نقولا يطلب نجدة البرنس شارل بكل الحاح . فلم يتأخر البرنس عن تلبية الدعوة وذهب في ٢١ اغسطس

وتولى قيادة الجيش الروسي الروماني امام بلفنا٠ وكانت قوات الرومان ٣٥ الف مقاتل و ١٠٨ مدافع وقوات الروس ٣٠ الف مقاتل و ٢٨٢ مدفعاً ٠ فهاجم الجيش تحت قيادتهِ متاريس غريفيتزا ٠ وكان موقف الجيش الروماني صعباً للغاية فان اكثر انفاره ُ لم يكونوا قد زاولوا مهنة القتال وكانوا مضطرين الى الهجوم تحت نيران آكلة تصبها عليهم الجنود العثمانية الممتنعة في حصونها والمتباهية بانتصاراتها السالفة ٠ على ان كل ذلك لم يقعد بهمة الجيش الروماني بل تمكن من احتلال التحصينات والاستيلاء على غريفيتزا وسيظل هذا العمل المجيد مفخرةً لذلك الجيش وقائده ُ الباسل

وفي ٢٨ نوفمبر ١٨٧٧ سلمت مدينة بلفنا بفضل حنكة ودراية البرنس شارل الذي كان يقود الجيش المحاصر وكان بذلك ترجيح كفة النصر فان طريق الاستانة فتحت بوجه الروس واستولى البرنس شارل على كل الحصون العثمانية على ضفاف الدانوب

وقد ارسل القيصر اسكندر الثاني كتاباً بخط يدهِ يعترف برجوح القسم الاكبر من الفضل في الانتصار الى الجيش الروماني وانعم على البرنس شارل باعظم واعلى وسام عسكري وهو وسام القديس اندريا مع السيف

وفي معاهدة سان اسطفانو التي عقبت هذه الحرب اعادت الدولة الى رومانيا مقاطعة دبرودجا التي كانت لها قديماً ٠ لكن روسيا انتزعت منها مقاطعة بساريبا الجنوبية فاحتجت رومانيا على هذا العمل

وقد تسنى لي مدة وُجودي في بخارست ان اتعرف بكثيرين من الرومانيين وكانوا كلهم يعربون عن استيائهم الشديد من روسيا التي نزعت منهم بسارابيا لتعطيهم مقاطعة دبرودجا التي هي بالحقيقة بقعة من بلادهم كانت تابعة لفلاخيا على عهد الامير مرشيا فاخذتها منها الدولة

واعترف مؤتمر الدول المجتمع في برلين سنة ١٨٧٨ باستقلال رومانيا الذي كان قد أُعلن في ١٤ مايو ١٨٧٧

ويظهر من هذه الخلاصة التاريخية ان رومانيا لم تخضع ولم تضم قط الى دولة اجنبية ٠ فقضت قروناً كاملة في ازمان داخلية ومشاكل خارجية ولكنها جعلت وجهتها الدائمة استقلالها حتى نالتهُ بعد بذل الذهب وسفك الدم

وفي ١٠ مايو رُفعت رومانيا الى درجة مملكة ونودي بالبرنس شارل ملكاً ٠ فاقيمت الافراح في هذه المناسبة مدة ثمانية ايام في كل البلاد ٠ وقد اعترفت كل الدول حالاً بالملك الاول لرومانيا وارسلت تهنئةُ



شارل الاول ملك رومانيا



وكان الملك في سنة ١٨٦٩ قد اقترن بالبرنسس اليزابت ده ويلد المعروفة في عالم الادب باسم «كارمن سيلفا» ولها مؤلفات عديدة · فولدت لهُ منها ابنة ماتت صغيرة وعليهِ عين البرنس فردينان ابن اخي الملك وليًا للعهد سنة ١٨٨٩ وهو نجل البرنس ليوبلد ده هوهنزلرن الذي عرض عليهِ سنة ١٨٧٠ عرش اسبانيا فكان ذلك سببًا للحرب بين فرنسا والمانيا · واقترن البرنس فردينان ولي العهد بالبرنسيس ماري الانكليزية بنت الدوق ده ادنبورج شقيق الملك ادورد السابع وامها الغراندوقة ماري بنت قيصر روسيا اسكندر الثاني · وعليهِ فان اشد روابط القرابة تربط ولي عهد رومانيا بثلاث دول من اعظم دول اوروبا هي المانيا وانكلترا وروسيا · وقد ولد لهُ من هذا القران

١ البرنس شارل (كارول) ٣ اكتوبر ١٨٩٣ حسابًا شرقيًا

٢ البرنسيس اليصابت ١٨٩٤

٣ البرنسيس ماري ١٩٠٠

٤ البرنس نقولا ١٩٠٣

٥ البرنسيس هيلانه ١٩٠٩

وعلى اثر حرب ١٨٧٧ — ١٨٧٨ كبرت رومانيا في عين اوروبا وفي عين نفسها فاخذت تسير مسرعة في طريق التقدم والفلاح كما يتضح من الارقام والملاحظات الآتية

☼ جغرافيتها ☼ يحدُّ رومانيا شمالاً النمسا وشرقًا روسيا والبحر الاسود وجنوبًا بلغاريا التي يفصلها عنها نهر الدانوب وغربًا بلاد الصرب · وفي سنة ١٩٠٧ كان عدد سكانها ٦ ملايين و٢٦٥ ٦٨٤ نسمة منهم ٦ ملايين و٤٠٦ ٧١٧ من الارثوذكس و ٨٨٢ ٣١٣ من الاسرائيليين و ٨٨٢ ١٧٥ من المسلمين و٥٦٠ ٥٢ من البروتستانت و ٧٣٠ ٢٦ من الكاثوليك و ٧٩٠ ٢٤ من مذاهب مختلفة · ولا ريب بان عدد سكانها الآن قد بلغ سبعة ملايين · وهي بعد روسيا اكبر دولة ارثوذكسية وكمية سكانها النسبية تجعلها في المقام الثاني عشر بين البلاد الاوربية اذ يبلغ متوسط السكان في كل كيلو متر مربع ٥٠ نسمة ويمكنها ان تكفي ضعفي سكانها بالنظر الى ثروتها الزراعية الوافرة التي يصدَّر معظمها الى الخارج

☼ ميزانيتها ☼ ٤١١ مليونًا و١١٠٣٦ فرنكًا · وبالنظر الى ثروة البلاد وترقيتها توجد هناك زيادة مستمرة تقدَّر سنويًا باثنين وخمسين مليونًا · وخصصت كل الاموال التي استُقرضت لمشاريع نافعة للبلاد

ومن اهم الاعمال التي تمت وتستحق ذكرًا خصوصيًا الخطوط الحديدية وقد كلفت مبلغ

٧٧٣ مليونًا و ٣١٥٠٤٨ فرنكاً

وكلف مينا قسطنسه ومخازنه والسفن البخارية للادارة البحرية الرومانية والارصفة الخ ٨٩ مليونًا و ٩٥٩ الف فرنك

وتساوي التحصينات والقشلاقات والاسلحة والذخائر والاسطول الصغير مبلغ ٢٤٤ مليونًا و ٨٦٠ ٨٤٩ فرنكاً . وتقدر المدارس والكنائس بقيمة ٥٧ مليونًا و ١٦٩ ٤٢٠ فرنكاً

وهناك الاعتماد الزراعي وشركات احتكار الحكومة تقدر بمبلغ ٥١ مليون فرنك

وما عدا رأسمال هذه الاعمال الذي يبلغ ملياراً و ٢٦٠ مليون فرنك فان للحكومة الرومانية املاكاً واسعة كالغابات والاراضي والمعادن ويساوي دخلها السنوي ٣٠ مليون فرنك مما يفيد ان قيمتها تزيد على ٦٠٠ مليون فرنك

☼ الجيش ☼ اصبحت رومانيا اليوم دولة عسكرية خطيرة ونظامها متين الاساس . ويؤخذ من تقويم غوطا الذي يُنشر سنويًا في اوروبا انها قادرة عند الحرب على تجنيد ٢٨٠ الف مقاتل يقودهم ٧٦٠٠ ضابط مع ٨٦ الف حصان و ٦٤٤ مدفعاً . هذا ما عدا الجندرمة

☼ الاسطول ☼ يبلغ ٥٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة

☼ الزراعة ☼ ترى من الجدول الآتي مساحة الاراضي الرومانية مقدرة بالهكتار :

ارض للفلاحة	٥ ٢٣٦ ٣٣٢
جنائن وكروم	٢٢٤ ٨٠٠
مروج	٥١١ ١١٨
مرعى	١ ٧٨١ ٣٨٠
احراج	٢ ٧٥٥ ٧٥٥
مياه وبحيرات	٨٠٧ ٣٠٠
املاك مبنية	٢٧٠ ٠٠٠
طرق وسكك حديد	٢٠٠ ٠٠٠
اراضٍ غير مستعملة	١ ٣٤٨ ٦١٥
المجموع	١٣ ١٣٥ ٣٠٠ هكتار

وتبلغ مساحة الارض المخصصة بزرع الذراء مليونين و ٨٩٥٧٣ هكتاراً . والارض المخصصة بزرع القمح مليونًا و ٤٦٧ ٦٨١ هكتاراً

☼ الحيوانات ☼ (سنة ١٩٠٠) مليونان و ٥٢٦ ٥٨٨ رأس بقر وجواميس و ٥ ملايين

و ٦٥٥٤٤٤ رأس غنم ومليون ٢٥٠ ٧٠٩ حصان و٣٢٤ ٨٦٤ راس ماعز و٧٧٠٠ حمار

☀ الصيد ☀ رومانيا من اغنى بلاد اوروبا بالمياه الحلوة فان مساحة الانهر التي تصب في نهر الدانوب والبحيرات الداخلية والبحيرات الواقعة على شواطىء البحر الاسود تبلغ ما يزيد عن ثمانمئة الف هكتار . و يقدر دخل الصيد بثلاثة ملايين من الفرنكات

☀ الغابات ☀ مساحة الاحراج والغابات تبلغ مليونين و ٧٠٥ ٧٧٥ هكتاراً يبلغ دخلها ١١ مليوناً و ١٧٠٥٥٧ فرنكاً ورومانيا غنية بالمعادن وخصوصاً بالبترول اذ بلغ محصول البترول سنة ١٩٠٤ ٤١٢ مليوناً و ٣٩٠٢٠٢ كيلو وفي سنة ١٩٠٦ وصل المحصول الى ستماية وواحد وثمانين مليون و ٤٩٥٨١٥ كيلو . ويؤكدون ان المحصول الذي بلغ سنة ١٩٠٧ تسعين الف عرباً سيبلغ هذه السنة ما يزيد على ١١٣٠ عرباً

والقسم الاكبر من الاراضي التي يستخرج منها البترول (الغاز) اي ٩٢ في المئة هي ملك الاهالي و ٨ في المئة فقط ملك الحكومة . ومن هذا القبيل تعد رومانيا اغنى بلاد بعد اميركا وروسيا في البترول . وفي سنة ١٩٠٤ بلغت الاموال الاجنبية المستعملة في شركات البترول الرومانية ٢٤ مليوناً و ٦٥٠ الف فرنك . ولا تزال الابحاث عن آبار البترول متواصلة في كل انحاء البلاد . وقد قرأ لي يوماً جناب المسيو باكليانو معتمد دولة رومانيا في مصر كتاباً تلقاهُ من وكيلهِ يفيدهُ فيهِ بانهم قد وجدوا في اراضيهِ شيئاً وافراً من البترول وانهم قد فتحوا حتى الآن خمسة آبار . (الملح) هو بعد البترول اهم محصولات رومانيا المعدنية . ولا شك ان القارىء سيعجب من الارقام التي سنوردها عليهِ فان تل اوكنل ماري يبلغ ٦ كيلو مترات طولاً ونصف كيلو متر عرضاً و ١٠٠ متر عمقاً اي ١٥٠ مليون متر مكعب او ٣٣٠ مليون طن وتل تاركو اوكنا يبلغ ٤ كيلو مترات طولاً و ٣٠٠ متر عرضاً و ١٠٠ متر عمقاً اي ١٢٠ مليون متر مكعب او ٢٦٤ مليون طن . ولا يزيد كل ما استخرج من المعدنين حتى الآن على مليون طن

ومن سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٩٠٤ اكتشفوا اربع ملاحات استخرج منها ما ينيف عن مليار كيلو وصدر في هذه المدة الى بلغاريا وصربيا وروسيا ٦٠٣ ٣٥٥ ٣٧٢ كيلو

واخذت الصناعة تتقدم في رومانيا تقدماً سريعاً وخصوصاً صناعة الخشب فلا يوجد في البلاد اقل من ٥٥ معملاً كبيراً تدار بالبخار للتجارة ويوازي رأسمالها خمسة وثلاثين مليوناً و ٣٤٢٥٤ فرنكاً وقدرت مصنوعاتها سنة ١٩٠٤ بمبلغ ٥٩٨ ٢٣٩ ١٧ فرنكاً

☀ صناعات المأكولات ☀ رأسمالها ٦٣٣ ٦٦٧ ٥٢ فرنكاً وقدر محصولها لسنة ١٩٠٤ بمبلغ ٦٨٨ ١٩٠ ٧٦ فرنكاً

﴿الكحول﴾ فذكر في هذا الباب خصوصاً الجعة (البيرا) التي انتشرت صناعتها في رومانيا حديثاً . ورأسمالها ٠٠٠ ٦٢٨ ١٣ وقدر محصولها لسنة ١٩٠٤ بمبلغ ٦٥٠ ٨٦٥ ٤ فرنكاً

﴿السكر﴾ رأسمال هذه الصناعة ٢٨٦ ٥٨٤ ٣٣ فرنكاً وقدر محصولها لسنة ١٩٠٤ بمبلغ ٨٣٠ ٩٠٨ ١٣ فرنكاً وبلغت كمية السكر المصنوعة سنة ١٩٠٦ ٥٥٢ ٠٨٥ ٢٨ كيلو وهي تزيد على حاجة الاهالي الذين لا يحتاجون الأ الى ٢٠ مليون كيلو سنوياً . ويصدر الباقي عادة الى تركيا وبلغاريا . وقد اشترت هاتان الدولتان من هذا الصنف سنة ١٩٠٥ ٠٠٠ ٥٣٦ ٤ كيلو من السكر المكرر ثمنها ٧٠٠ ٣٦٠ ١ فرنك

﴿التجارة﴾ سنة ١٩٠٥ :- الصادرات ٤٥٧١٠١٣٩٤ فرنكاً

الواردات ٣٣٧٥٣٧٩٨٥ .

﴿السكك الحديدية﴾ يبلغ طول مجموع الخطوط الحديدية في رومانيا الآن ١٨٠ ٣ كيلو متراً

﴿الطرق﴾ لما وصل البرنس شارل الاول سنة ١٨٦٦ لم يكن طول الطرق المرصوصة يزيد عن ١٩٥ كيلو متراً . ثم اخذت الطرق تفتح خصوصاً بعد سن القانون على سبل المواصلات فبعد هذا العهد بعشر سنوات اي سنة ١٨٧٦ بلغ طول الطرق ١٦٥ ٥ كيلو متراً وبعده باحدى وعشرين سنة اي ١٨٨٧ بلغ ٩٣١ ١٢ كيلو متراً

وبعده باربعين سنة اي سنة ١٩٠٦ بلغ طول الطرق ٩٢٨ ٣٠ كيلومتراً منها ٤٢٥ ٢٦ كيلومتراً قد أنجزت تماماً ومنها ٤٥٠٣ كيلومترات لا يزال العمل جارياً فيها

﴿الملاحة النهرية﴾ تدلك الارقام الآتية على اهمية هذه الملاحة فان مجموع السفن الداخلة والخارجة في سنة ١٩٠٥ قد بلغ ٧٧٢ ١٨ سفينة محمولها ٩٥٥ ١٥٦ ٤ طناً . ولا يدخل في هذا العدد الأ السفن التي سارت بين المرافىء الرومانية في نهر الدانوب ما عدا السفن التي دخلت النهر او خرجت منهُ عن طريق البحر الاسود . ومن هذا العدد ٥٩٠٨ سفن رومانية و ٨٦٤ ١٢ سفينة اجنبية

﴿الملاحة البحرية﴾ لم تأخذ الملاحة البحرية في رومانيا الأ بعد ضم ولاية دوبرودجا . ومن ذاك العهد فقط اصبحت رومانيا متمكنة من المواصلات مع اي ثغر كان من ثغور العالم . وفي سنة ١٩٠٥ بلغ مجموع السفن الداخلة والخارجة ٢٦٢٠ سفينة محمولها ٤٢٩ ١١٧ ٣ طناً

﴿مصلحة البواخر الرومانية﴾ حتى سنة ١٨٩٥ لم يكن ما يمثل الراية الرومانية في الملاحة البحرية لان النقل كان يتم على البواخر الاجنبية . وبعد ذلك بقليل لم يكن هناك الأ

باخرتان لنقل الركاب والبضائع على ان نطاق البواخر الرومانية توسع في السنة نفسها وكبرت دائرتها بمشترى سفن جديدة . وهي اليوم كما يأتي : اربع بواخر للركاب مجموع قوتها المحركة ٢٥ الف حصان وسرعتها ١٨ عقدة في الساعة وخمس بواخر لنقل البضائع وثلاث بواخر للمصلحة وتبلغ قيمة هذه السفن تقريباً ١٣ مليون فرنك وهي تسير على خطين الخط الشرقي وهو يصل ثغر قسطنسه بثغور الشرق الآتية : الاستانة والبيريه ومدلة وازمير واسكندرية ويسير على هذا الخط اربع بواخر منها اثنتان تسافران الى الاسكندرية واثنتان الى ازمير

وقد نقلت هذه البواخر في سنة ١٩٠٥—١٩٠٦ ذهاباً واياباً ٣٨٧٣٢ راكباً و٣٠٣٥٩ طناً من البضائع . وبلغ الدخل ١٠٤٠٢١٤ فرنكاً

وتسير على خط برايلا وغالاتي خمس بواخر فلا تنقل الا بضائع . وبلغ المنقول على هذا الخط الغربي ١٥٢٧٧٠ طناً سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ومدخولها ١٣٣٤٥١١ فرنكاً

ومعظم ما تنقله هذه البواخر ذهاباً من الحبوب وما تنقله اياباً من الفحم والبضائع العمومية ولمصلحة البواخر الرومانية عشر وكالات لتسهيل المعاملات : اربع منها في ثغور رومانيا وست في الثور الاجنبية

✻ البوسطة والتلغراف والتلفون ✻ لم تكن هذه المصلحة في اول عهدها تعود على الحكومة بشيء من الربح بل هي كانت مضطرة الى الانفاق عليها بالنظر لحالة البلاد الاقتصادية وقلة المخابرات فيها . وظلت على هذه الحال حتى سنة ١٨٧٧ حيث زاد الدخل على المصروف وظلت الزيادة مطردة حتى ان الدخل تضاعف في هذه العشرين سنة المنقضية

وسنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ كان الدخل ١١٣٤٥٧٥٥ فرنكاً والمصروف ٧٧٢١٨٨٤ فتكون زيادة الداخل على الخارج ٣٦٢٣٨٧٠ فرنكاً

✻ اللغة ✻ واللغة الرومانية هي مشتقة من اللغة اللاتينية بل هي اقرب اليها من لغات سائر الشعوب اللاتينية الاصل كالفرنسوية والاسبانيولية والبرتغالية حتى والطليانية

✻ وكيل رومانيا في مصر ✻ : في سنة ١٩٠٦ عين المسيو ميشيل ده باكليانو وكيلاً سياسياً مفوضاً وقنصلاً عاماً لدولة رومانيا في مصر . وكان قبلاً سكرتيراً عاماً ومديراً سياسياً لنظارة خارجية رومانيا وظل في هذا المنصب سبع سنوات . بعد ان كان قد تنقل اولاً بوظيفة سكرتير في وكالات رومانيا السياسية في الاستانة العلية وبطرسبورج وباريس وبروكسل وصوفيا . وقد درس الحقوق والعلوم السياسية في باريس . وكان في الثامنة والثلاثين من عمره عند ما عين في مصر

بخارست ـــ بكرش ـــ عاصمة رومانيا

يبلغ سكان بخارست عاصمة رومانيا ثلاثماية الف نفس وهي واقعة على نهر دامبو ڤيتسا الذي يخرقها في طرفها مسافة ٧ كيلو مترات وقد بني عَلَى طوله ١٢ كبري بعضها من حديد والبعض الآخر من حجر . قيل انها دعيت بخارست وفي لغة البلاد بو كورستو على اسم بو كور وهو راعي غنم كانت هذه البقعة من الارض لهُ ولما احتلها الاتراك دعوها بكرش . اما جمالها فباهر يدهش كل غريب قادم اليها الاسيما اذا كان من سوريا أو مصر لاننا اعتدنا ان نذهب الى أُوروبا ونفتكر ان لاسواها في العالم مع ان عاصمة رومانيا هذه قسم من أُوروبا في جميع احوالها المدنية والعلمية لا ينقصها شيء مما يرى في أي عاصمة كانت من عواصم أُوروبا فهي تشتمل عَلَى البنايات العمومية من الطبقة الاولى مثل البوسطة و بنك التوفير و بنك الحكومة والاثينه والتياترو الكبرى وقصر جلالة الملك ونظارات الحقانية والمالية والخارجية . وما من بناية من هذه البنايات الاَّ و يدخل اليها من حديقة فضلاً عن حديقتين عظيمتين الواحدة في قلب العاصمة والثانية بعيدة عنها وفيها عدة ميادين باشجارها وازهارها وقد غرست الاشجار على يمين وشمال الشوارع وفي محلات الجيعة وعليهِ يقال ان بخارست كبستان ونظيفة فان شروط النظافة متوفرة فيها حتى في الاحياء المتطرفة • وأهم شوارعها شارع ڤيكتوري وشارع كارول . وعربات الاجرة فيها تمتاز على امثالها في كل عاصمة أخرى حسناً واتقان خدمة . وقد شهد لها بذلك قبلي كل سائح أتاها حتى ان الحوذيين مفروض عليهم من الحكومة ان يتخذوا زيًّا واحداً نظيفاً جميلاً يتألف من جبة قطيفة ذات لون أزرق داكن وهي طويلة تصل الى القدمين وعليها من الامام ازرار

كبيرة و يضم وسطها حزام احمر في عرض اربعة أصابع تتدلى منهُ فضلات على الجبة ومن لوازم الزي قبعة مستديرة متخذة من القطيفة ايضاً . فتأمل ذلك كله وقابل بينهُ و بين ملابس حوذيي مصر والشام . واما خيل عربات الاجرة في بخارست فهي تعادل خيل الامراء والوجهاء في مصر . وهذه العربات تقف متراصة بالترتيب بجوار الفنادق والملاعب وسائر المحلات العمومية حتى اذا استؤجرت أولها في الصف تقدمت التي وراءها تنتظر نوبتها وكلها تمر في سيرها بشارع ڤيكتوري فتظهر فيهِ كسلسلة متلاحقة لا تكاد تنقطع الى الساعة الثانية بعد نصف الليل . وقد بلغني أمر غريب عن فئة من هؤلاء الحوذيين هو ان احدهم بعد ما يتزوج و يرزق أول ولد يقدم نفسهُ لاجراء عملية جراحية تقضي بعقمهِ واما سبب ذلك فمجهول . وهذه الفئة روسية الاصل ولما شعرت حكومتهم بعادتهم هذه الجانية على ناموس الاجتماع والعمران طردتهم من بلادها فلجأوا بخيولهم الى بخارست . وفي شارع ڤيكتوري عدة فنادق منها فندق سبلانديد انجليش وفرانسا ولكن أحسنها فندق بولڤار القائم ما بين بولڤار اليصابات و بولڤار ڤيكتوري حيث توجد المخازن والقهوات مثل قهوة كابسا وقهوة هاي لايف ستتكلم عنهما . واكثر منازل بخارست ذات طبقتين واقلها ذات ثلاث واما المشتملة منها على أربع أو خمس طبقات فنادرة الوجود . واذا اضفت الى قلة علو المنازل اتساع الشوارع علمت انهُ يتألف من ذلك منظر يشرح الصدر ويبهج القلب

شرعت اطوف المدينة مبتدياً من شارع ڤيكتوري أحد الشارعين المهمين الآتي الذكر وهو يمتد من جوار نهر دامبو ڤيتسا غرباً الى نظارة الخارجية شرقاً . وكان برفقتي ترجمان الفندق فشهدنا في طريقنا اولاً بناء البوسطة العمومية المشتمل ايضاً على ادارة التلغراف والتليفون . وماذا عساي ان أقول في فخامة المحل ورونقهِ

وحسب الناظر اليهِ القادم من القاهرة أو الاسكندرية ان يعتبر بناء البوسطة في هاتين المدينتين اشبه شيء بالاكواخ بالنسبة اليهِ فهو يشغل مساحة عشرين الف متر مربع من الارض في ثلاث طبقات ولهُ رواق عند الواجهة قائم على ١٥ دعامة حجرية ضخمة • وبين عماله بنات رومانيات كما هي العادة الغالبة في أوروبا أي اشتغال البنات في المصالح العمومية ولا سيما دوائر البوسطة والتلغراف والتليفون بحيث تستطيع الفتاة ان تجمع من المال ما تجعلهُ لنفسها بائنة (دوطة) تمهّد لها طريق الزواج فالمال أصبح الشرط الاساسي الجوهري لطلاب الزواج حتى كاد يقضي على سائر المزايا كالاداب والجمال والذكاء ومعرفة تدبير المنزل والحسب والنسب . وتجاه البوسطة بناية بنك التوفير وهي تعادل بناية البوسطة في الفخامة والاتساع ذات هندسة متينة جميلة وفيها العدد العديد من الاعمدة الرخامية الضخمة وقد بنيت في ثلاث طبقات فكأنها فتنة للناظرين . وفي وسطها قبّة هي اشبه شيء بقبة جامع كبير وتلوها بناية الضبط وهي عظيمة مبنية بالطوب الاحمر. فقهوة كابسا بداخلها مطعم ويباع فيها اصناف الحلوى وهي مشهورة في لذة طعمها وفيها مشروبات أخصها مشروب اسمه ويتسكا معمول من ثمر الخوخ (برون) وهو خفيف لطيف • وللقهوة ممشى فيهِ المنضدات يجلس الناس عليها لينظروا مرور العربات المتصلة ببعضها فيخيّل اليك انك جالس في قهوة دي لابه في باريس • ثم انتهينا الى التياترو الكبرى الذي لا يشتغل الاّ في فصل الشتاء ودار التياترو تسع الف نفس أو اكثر وفيها للملك والملكة وولي العهد وزوجته غرف خصوصية قيل لنا انها بالغة منتهى الحسن والاتقان • ويتلو ذلك نظارة الحربية ولا تخلو ساحتها من ضباط يخطرون ذهابًا وإيابًا ثم القصر الملكي يدخل اليهِ من حديقة ولهُ جناحان ممتدان يزيدانهِ زينة ولم يمكنا دخولهُ لغياب

الاسرة المالكة في جبل سينايا الذي يبعد من هنا ثلاث ساعات وسنتكلم عنهُ فيما بعد . وقد نزل في هذا القصر ضيفاً كل من امبراطور النمسا وملك السرب . قيل لنا ان ملك رومانيا طالما اعتنى بمكتبتهِ كما ان الملكة اعتنت بانتقاء الصور الزيتية واقتنائها . وبالقرب منهُ التياترو الصيفي لانهُ يشتغل في زمن الصيف ويدعى اوتيشانو وفيهِ حديقة واسعة ومطعم ولا تمر ليلة الأَّ وهو مزدحم بالوافدين الذين لا يقل عدهم عن الف نفس لمشاهدة التمثيل ثم بلغنا الاثينة الذي لهُ شهرة في هذه العاصمة فدخلناهُ من حديقة واسعة جدًّا وفيها من جميع انواع الاشجار والازهار والعدد العديد من التماثيل وعند باب القصر خادم مهمتهُ ان يطلع الزوار الغرباء على التحف الموجودة في المكان فسرنا معهُ الى الدور الاول وفيهِ مجموعة صور بالزيت منها صورة امير رومانيا ميجاي (مخائيل او ميشيل) ثم صعدنا الى الدور الثاني وهو مستدير بني على نسق التروكاديرو في باريس وتقام فيهِ حفلات وتلقى فيهِ خطب وفيهِ كراسي للاسرة المالكة و كراسي موضوعة على حدةٍ لمندوبي الصحف. وللصحافيين شأن في بخارست بل في كل بلاد راقية . ويوجد من الصحف كثير بلغة البلاد وجريدتان فرنساويتان تصدران يومياً .قال لنا احد موظفي السفارات انهم يتلقون احياناً اهم الاخبار عن اوروبا من صحف بخارست لان لهم وكلاء في عواصمهم يتسقطون الاخبار والتلغرافات . وما زلنا نتقدم في بولفار فيكتوري حتى وصلنا الى نظارة المالية ومجلس النظار ونظارة الداخلية وقهوة هاي لايف امامها ممشى عريض يجتمع فيهِ خلق كثير ولا سيما الضباط العسكرية وفي اثناء مرورنا حانت مني التفاتة الى قصر بديع هو قصر البرنس كوتروكوزينو وفي آخر هذا البولفار نظارة الخارجية دخلناها ومعنا توصية من جناب المسيو ميشيل باكليانو معتمد رومانيا وقنصلها الجنرال . ونظارة الخارجية هذا قصر بديع كان بناهُ البرنس ستودزا

وبعد وفاتهِ اشترتهُ الحكومة من ورثائهِ كما جرى لسراي نظارة الخارجية في مصر
اذ بناها المرحوم حيدر باشا ثم اشترتها الحكومة منهُ على ان سراي نظارة الخارجية
في رومانيا اجمل من رصيفتها المصرية على ما لهذه من الحسن الرايع فليتصور
القارئ جمال تلك دخلناها من حديقة ولما وصلت الى الباب كان خادم واقفاً
لابساً كسوتهُ الرسمية وفي يدهِ قفاز ابيض وهو يحسن التكلم باللغة الفرنساوية
فسرت معهُ في فسحة رحبة وارضيتها من خشب الورد المشجر يكاد الانسان يزلق
عليها لشدة ملاستها ونعومتها . وكنت اتأمل في نقوش الجدران والسقف الكثيرة
التذهيب حتى اذا وصلت الى قاعة الاستقبال وهي مفروشة بالحرير والاطالس
دخلت مكتب المسيو زامفيرسكو السكرتير العام للنظارة الذي قابلني بالترحاب
وانصرفت شاكراً . وتجاه نظارة الخارجية كان يومئذٍ يبنى متحف تاريخي يخصص
قسم منهُ بالوحوش وسيكون لهُ اهمية كبرى . هذا اهم ما يرى السائح الغريب في
شارع ڤيكتوري حيث بنيت البنايات العمومية وهو صرّة البلد ومحورها . ويوجد
بولفار آخر يدعى كولسا سكن اهل الطبقة العالية يمتد من جانب نظارة الخارجية
وقد بني على نسق الرينغ ستراس في ڤينا اي ان لهُ ممشى على اليمين بجانبهِ الاشجار
لمرور الناس ثم طريق لمرور العربات ثم طريق في الوسط للخيل مفروش بالرمل
وبجانبيهِ الاشجار ثم طريق آخر لمرور العربات ثم الممشى وبجانبيهِ الاشجار . ومن هنا
يتضح لك عظم اتساع هذا الشارع بحيث يشرح الصدر . ومما يزيدهُ حسناً انهُ
اعد لسكنى ارباب الاموال واهل الترف والجاه فلا ترى فيهِ حوانيت او قهوات
كما هي الحالة في حي قصر الدوبارة بمصر . وما كنت أرى قصراً استحسنهُ حتى
أرى آخر اجمل ثم ثالثاً يفوق الاثنين ولكل قصر حديقة وللقوم عناية كبيرة
بتذهيب الدرابزين والابواب في هذا البولفار تمر العربات الفاخرة والخيول تهتز

تحت سنابكها جنبات الارض رهبة او تهيباً

علمت ان بولفار فيكتوري يخترق العاصمة من الشرق الى الغرب فاعلم الآن ان لها بولفار او شارع آخر لا يقل عنهُ اهمية يخترقها من الجنوب الى الشمال ويدعى بولفار كارول باسم جلالة الملك وانما قسم لفرط طولهِ الى قسمين وسمي كل منهما باسم كما جرى في بولفارات باريس التي تقسم الى بولفار التليان وكابوسين وغير اسامي فالقسم الاول من بولفار كارول سمي اليصابات على اسم الملكة والقسم الثاني سمي المدرسة لان فيهِ المدرسة الجامعة وفي البولفار المذكور بني المتحف وهو مهم لما يعلم ان اصل شعب رومانيا هو من بقايا الرومانيين القدماء ولغتهم الآن مشتقة من اللاتينية فما بطلت فيها الحروب من عدو يطرقها من الخارج او من الاحزاب الداخلية فلما دخلنا المتحف رأينا في قسم منهُ ابواب وايقونسطاسات من الكنائس القديمة وصور قديسين واساقفة بالقد الطبيعي وصور المسيح والعذرا والرسل كتب عليها سنة ١٥٥٦ وغيرها سنة ١٧٦٥ وانجيل غطاؤهُ من ذهب من سنة ١٤٠٥ مكتوب باللغة السلافية وانجيل آخر باللغة اليونانية سنة ١٥١٩ وعصا مطران رأيت مثلها في كنائس سوريا من خشب اسود مطعمة بعظم ملتفٍ بعضهُ على بعض وهي منذ سنة ١٦٠٠ . وقد احتلها الاتراك ٦٠٠ سنة وبنوا فيها الجوامع ولكن رومانيا ما خضعت وما ضمت قط الى مملكة اجنبية خضوعاً تاماً وانما اقتبس اهلها كثير من الكلام التركي بسبب طول احتلال الاتراك وهم يلفظون ويكتبون باللغة الرومانية توتون (دخان) ويكتب على باب المخزن توتون وكبريت وقفطان وبنش للرجال ومفرجية للنساء واغا وسقا وبخشيش ودخان وصراف وفي ايجارات المنازل كرى اوده وحمال يكتب عَلَى صدرهِ حمّال ليعرف ويقولون هايدي (هيا بنا) فان الحمّال لما استلم امتعتنا من المحطة قال لنا هايدي ولما احتجنا

الى صدرية بيضاء وسألت الخياط على نوع الازرار قال صدف وارانا ازرار الصدف وقس على ذلك . وفي المتحف كساوي رومانية فيها الشبه لكساوي الارناؤوط مزركشة بالقصب والذهب بالكاد يرى القماش وفيهِ كساوي وصور البويار وهم الاشراف الذين كانوا حاكمين البلاد مثل امراء جبل لبنان . ورأيت مومياء واولادها داخل صندوق من زجاج وهناك حجارة هائلة لا تنقص عن المائة عداً حفر فيها صور الملوك راكبين عربات بعجلين وصور وقائع حربية واسرى مجندلين تسوقهم العساكر من ايام الملك تريانوس الروماني . وهذه الاحجار والآثار من معابد الرومانيين ستبنى مثل ما كانت عليهِ ورأيت ايضاً حجر شاهد مسلم وجد تحت الارض قرأت باعلاهُ (هو الحي الباقي) وعشرين سطر تقريباً باللغة التركية اشعار . ويوجد في هذا المتحف ما يقال لهُ كنز الملك اثاريش اكتشف سنة ١٨٥٧ في قرية بتريوزا وهو مجموعة آثار لها مقام كبير عندهم . وبعد ذلك دخلنا المدرسة الجامعة وشاهدنا فيها مقاعد الاساتذة والتلاميذ وهي تقفل في زمن الصيف وقصاد المدرسة تمثال الوزير الاول براتيانو . ولما كان هذا البولفار طويل جداً جعلوا فيهِ ميادين ذات اشجار وازهار ومنهُ يرى في الجانب الآخر الكنيسة المسكوبية التي لم يتم بناها ولكنهُ قريب من التمام وقد علمت انها للروس من اول وهلة قياساً على ما شاهدت من نظائرها في روسيا كوجود قبة كبيرة في وسطها وقبب أخرى تحيط بها وهي بديعة التذهيب تسطع وتلمع . وفي البولفار المذكور تمثال البرنس ميخاي والرومانيين يسمونهُ البطل وهو المذكور في المقدمة التاريخية مثلوهُ راكباً جواداً وبيدهِ بلطة يشير بها . والتمثال قائم على قاعدة من الصوان غرسوا حواليها ازهاراً متنوعة . وتمثال لازار الذي عاش من سنة ١٧٧٩ الى سنة ١٨٢٣ وهو الذي احيا اللغة الرومانية بعد ان طراء عليها الفساد من الاجانب

وبعدهُ تمثال جان فلياد رادوليسكو الذي عاش من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٧٢ ولهُ الايادي البيضاء في انهاض علم الآداب والانشاء في الرومانية . وعند منعطف هذا الشارع تمثال بروتوبوسكو الذي كان حاكم العاصمة ولهُ عليها الايادي البيضاء . وعلى ذكر هذه التماثيل اقول ان الرومانيين يقدرون رجالهم العظماء من علماء وشعراء وقواد وساسة حق قدرهم فانهم اقاموا تماثيل للاهوقاري الخطيب ومجموعة تماثيل الى العساكر الطلمبجية الذين قاتلوا الاتراك في سنة ١٨٤٨ وفي حديقة الاثينه السابق ذكرها تماثيل للقائد فلوريسكو وللشعراء مينسكو وشربانيسكو وديمتريسكو ولارباب القلم ڤاكاريسكو وتيودوريسكو وروسيتي وتمثال كونتاكوجين الذي ضربت عنقهُ في سنة ١٧١٦ في اندرينوبل بامر السلطان

قد يكون القاريءُ مل من وصف الشوارع والميادين ولكن السايح الغريب يفتقد ذلك قبل شيء ليحيط علماً بالبلد فضلاً على ان البنايات العمومية تبنى في احسنها مثل شارع ليبسكاني يتوصل اليهِ من بناء البوسطة لا يقل قيمةً عن شواع ڤيكتوري وكارول وفيهِ المخازن التي تباع فيهِ البضائع النفيسة لا سيما للسيدات من كل فنّ وطراز جديد فان الرومانيين ولاسيما نساء وهم شديدو العناية بملابسهم وازيائهم وربما انفقوا عليها دون كيل وحساب . وفي الشارع المذكور بنك الحكومة البناية هذه لا تقل عن بناية البوسطة فضلاً عن انها مزخرفة وهي تشغل مساحة ١٢٠٠٠ متر من الارض أو اكثر محاطة من جهاتها الاربع بدرابزين حديد مرتفع جداً اكثروا فيهِ التذهيب في الباب الخارجي دخلنا منهُ الى حديقة صغيرة ومنها الى البنك فوجدنا نفسنا في فناء شاسع فيهِ العدد العديد من الناس الذين اتوا لاشغالهم ولاحظت انهم يتكلمون همساً بعضهم مع بعض وهم مكشوفو الرؤس ولا يشربون دخاناً مما يدل على التوقير والاحترام ثم صعدنا

الى الدور الاعلى على سلم رخام ابيض متسع وتجولنا حسب عادة كل غريب ثم نزلنا وذهبنا الى سراي الحقانية المجاورة لهُ وفيها المجالس الابتدائية والاستئافية لا تقل مساحتها عن ٢٠٠٠٠ متر مبنية في ثلاث طبقات الدور الاول قائم على اعمدة رخامية ومثله الدور الاعلى وفيها نحو ١٢٠ قاعة وغرفة وهي حديثة العهد اذ بنيت في سنة ١٨٩٥ ولما انتهى بناؤُها حضر الملك بنفسهِ لافتتاحها بطريقة رسمية محاطاً برجال حكومتهِ وهذا برهان على عظمتها فكل داخل اليها يدهش مما يرى

قلت ان عاصمة رومانيا هذه كأنها بستان لكثرة ما فيها من الاشجار في الميادين والشوارع وفيها متنزهات كحدائق سيسميجو وفيلاره التي سنتكلم عنها ولكن احسن نزهاتها نزهة الشوسه حيث ملتقى السواد الاعظم من الاهالي وهي بمثابة نزهة الجزيرة والاهرام بمصر يذهب الناس اليها خصوصاً في أيام الاحد والاعياد فتسير العربات بعضها وراء بعض حتى اذا انتهت من بولفار فيكتوري تخرج الى الخلاء ولا يخفى ان بخارست لم تكن في الحسبان في الزمن الماضي ولكن بعد حربها في سنة ١٨٧٨ مع تركيا جعل لها رسم جديد . واذ كان عندهم كثير من الاراضي خططوا بلدهم كما شاؤُا ومتنزه الشوسه هذا طويل جداً لا يمكن الوصول الى آخرهِ فان ذلك يستغرق زمناً طويلاً ولذلك يصل الناس الى موضع معلوم ثم يعودون • وقد جعل الشوسه ذا اتساع عظيم تحدهُ الغابات على اليمين وعلى الشمال وفيها جميع الاشجار من صنوبر وسنديان وبلوط ممتد الى بعد شاسع يتضوَّع منها روايح زكية وبداخل الغابات شوارع وحدائق وبرك الماء والمطاعم والقهوات ومحلات الجعة (البيرة) وقد يضم المحل الواحد خمسمئة نفس يسمعون انغام الموسيقات ماعدا الموسيقى العسكرية فالروماني بعد اشغالهِ يتنزه ويصرف

الدرهم والدينار في سبيل ذلك . والذاهب الى الشوسه يرى العربات الجميلة والخيول المطهمة تسير بعضها وراء بعض متصلة غير منفصلة وهي تذهب وتعود لانهُ جرت العادة ان يكتفوا بالمرور ولا ينزلوا من عرباتهم ويتراشقوا النظر مما يهدد الرجال بفتنة حب عظيمة فان لجمال الرومانيات شهرة مستطيرة

وللعاصمة حديقة عمومية لنزهة الاهالي قائمة في وسط البلد تدعى سيسمنجو سهل الوصول اليها من اي جهة لايميز من يدخل اليها اولها من آخرها لاتساعها وفيها خليج مياه يتلوى في مجراه تلوي الافعى وفي الخليج قوارب ذات مجاذيف وبالحديقة شوارع مستطيلة بجانبيها اشجار مضى عليها قرون يسيرون فيها في أي جهة تحلى لهم وزهور متنوعة غرسوها في اراضي منبسطة او عالية رفعوا الارض عن سطحها بضعة امتار وقد بولغ في العناية بتنسيقها وترتيبها بحيث جعل فيها الازهار كنارات مختلفة الالوان بين احمر واصفر واخضر وابيض . وبالحديقة مطعم يدعى مونته كارلو موائده منتشرة هنا وهناك عدا كشوكة مخصوصة لتساع مائدتان واربعة فأكثر تناولنا طعامنا هنا على سماع نغمات الموسيقى . ويوجد حديقة ثانية عمومية في طرف العاصمة تدعى فيلاره تشتمل على كثير من الازهار وبرك المياه وقد اقيم فيها معرض روماني عام من عهد قريب اي منذ سنتين وما زالت بنايتهُ موجودة وهي مثل سائر ابنية المعارض التي اشرت اليها مراراً في هذا الكتاب ولو اراد العالم بالنبات ان يصنف كتاباً ضخماً في الملاحظات الفنية والاستقراآت العلمية التي يجعلها من مشتملات هذه الحدائق لامكنهُ ذلك على اهون سبيل . وفي الضواحي قصر البرنس فردينان ولي العهد ذهبتُ اليهِ وكنت أرى قبل وصولي حدائق على اليمين وعلى الشمال وما امكن الدخول الى القصر لغياب صاحبهِ في جبل سينايا ولكن دخلت حديقتهُ مستأذناً في ذلك الضابط

الواقف عَلَى بابهِ مع الحرس ورأيت على تل مرتفع في هذه الحديقة قبر البرنسيس ماري الكريمة الوحيدة للملك التي كانت وريثة الملك اما الآن فالوريث هو البرنس فرديتان ابن اخيهِ وفي عودتنا دخلنا الى مدرسة الطب وهي بناية كبيرة من الطوب الاحمر تقفل في الصيف ولكن المعاون قال انني اذا عدت الساعة العاشرة من غد ذلك اليوم فالمدير يريني الادوات وكيفية تدريس الطب فانصرفت شاكراً وذهبت لمقابلة نيافة المتروبوليت يوسف وهو رئيس الدين في رومانيا مركزهُ بخارست ومقيم في قصر بجانب الكنيسة الكبرى . وفي اثناء طريقنا الى قصره مررنا بجسر (كوبري) قائم على النهر واذ كان المتروبوليت غائباً قابلنا وكيله وقام يرينا بنفسهِ تحف القصر ونفائسه وهي قديمة العهد اذكر منها تيجان الاساقفة المعروفة في الكنائس الشرقية وعددها ١٢ تاجاً موضوعة بالترتيب حسب قدمها بعضها الى جانب بعض وهي تسطع وتلمع من الذهب والحجارة الكريمة مثل تيجان البطاركة ثم ارانا القاعة التي يعقد فيها المجلس الديني وقاعة الاستقبال وغيرها ثم دخلنا الكنيسة التي على اسم قسطنطين وهيلانه توّج فيها الملك الحالي في سنة ١٨٨١ وهي قديمة العهد بنيت سنة ١٦٥٦ اكثروا فيها التذهيب حتى ان خشب الايقونسطاس لا يبين وفيها كرسي للملك وآخر للملكة وكرسيان لولي العهد وزوجته . وفي اثناء التجول حانت مني التفاتة الى تابوت من فضة وضع على مائدة مستطيلة داخل الكنيسة وفيهِ عظام القديس ديمتري الذي له مقام كبير عند الرومانيين واذا انحبس المطر يأخذ الاكليروس يطوفون بالتابوت في البلدة بناء على طلب المزارعين ويدعون الله تعالى ان يجود عليهم بالمطر لانعاش الزرع ولا ينقطع الرومانيون عن الصلوة وفي عاصمتهم هذه ١١٦ كنيسة ارثوذكسية مع ان تعدادهم لا يزيد عن ثلاثمئة الف . وجاري هنا بناء فخيم هو البارلمان

جبل سينايا

قبل ان ابرح مصر قال لنا حضرة معتمد رومانيا ان اذهب الى جبل سينايا وهو من المناظر المعدودة يقيم فيهِ جلالة الملك والاسرة المالكة وولي العهد ورجال حاشية البلاط الملكي ولهذا الجبل نبذة تاريخية وهو ان احد امراء هذه البلاد المدعو كونتا كوزين قطع رأسهُ بامر السلطان في اندرينوبل ثم وشي في ابنهِ ميشيل وهذا هرب والتجأ الى دير سينا بجهة بحر الاحمر مشهور عند كل الناس وكان نذر انهُ اذا كان يعود سالمًا الى بلادهِ يبني ديرًا في جبل يدعيهِ جبل سينا والرومانيين يقولوا سينايا فعاد بالسلامة وبنى دير صغير للرهبان وهم امتلكوا فيما بعد اراضي شاسعة وبنوا البنايات في المدن وكثرت النذورات والوقفيات لهذا الدير حتى ان املاكهُ تقدر الآن بسبعة وستين مليون فرنك وايراداتهُ السنوية بمبلغ خمسة ملايين فرنك وعليهِ عزمت ان اذهب اليهِ في هذا اليوم الموافق ١٨ يوليو والمسافة ما بين بخارست والجبل المذكور ثلاث ساعات بقطار سكة الحديد فذهبت من الفندق الى محطة الشمال وبينما كنت اهم بمشتري تذكرة السفر نصحني رجل روماني يشتري هو ايضاً تذكرة لنفسهِ ان آخذ تذكرة لاجل الذهاب والاياب معاً وثمنها ١٧ فرنكاً عوضاً من أخذ تذكرة ذهاب وثمنها ١٣ فرنكاً ثم أخرى للاياب وثمنها المبلغ ذاتهُ مع انهُ يؤخذ من مصر الى الاسكندرية على هذه المسافة ٢٢ فرنكاً ولا يبعد انهم يتقاضون اجرة خفيفة لعمران الجبل وتسلية للناس . فلما نظرت الى التذكرة وجدت انهُ طبع عليها تاريخ ٦ من الشهر بدلاً من ١٨ لان رومانيا وهي بلاد ارثوذكسية تتبع الحساب الشرقي كالروسيين فقام بنا القطار والمطر يهطل ولا بأس فيهِ لان بلاد رومانيا حرها وبردها كثير وان كانت في الحر دون مصر

وبيروت يهطل المطر فيها عند اشتداد الحر فيبرد الطقس على اثرهِ . وكان معنا عدة ركاب في القطار ذاهبون الى الجبل قال لنا احدهم ولعلهُ من ارباب الاطيان ان هذا المطر يفيد الذرة وربما يضر بالقمح وللقوم طريقة غريبة في زرع الفاصوليا فانهم يعرشونها على اوتاد في طول ٨ الى ٩ امتار ويجعلون مسافة مترين تقريباً بين كل وتدين فتظهر الفاصوليا بذلك كأنها صفوف من الاشجار . وفي خلال السير دار الحديث بيننا وبين رفقائنا عن رومانيا ومصر فان اهالي تلك البلاد قريبو المعاشرة لا يتطلبون للتعارف شروطاً وقيوداً مثل الانكليز وكان كل واحد منهم يجتهد ان يرينا شيئاً جديداً فقالوا ان هذا النهر يدعى براهوفا وارونا آبار زيت البترول قريبة من شريط سكة الحديد على اليمين والشمال تستخرج من اراضي كاربات . وهناك القنوات توصلهُ الى الصهاريج والمعامل لتكرارهِ وشحنهِ بقطارات سكة الحديد . وقد تألفت ثلاث شركات لاستخراج هذا الزيت رأس مالها ملايين . وقيل لنا اذا امكن اكتشاف آبار جديدة لزيت البترول فاقت رومانيا روسيا في هذا المعدن لان احدى هذه المحطات فقط وسمها كامبينا يصدر منها وحدها ١٦ الف عربة منهُ في كل سنة . ولما قربنا من الجبل جعل القطار يجري بنا صُعُداً وفي احدى المحطات اشترى بعض الركاب كرزاً اسود اللون لذيذ الطعم وجوزاً غضاً (فريك) وبعد مسير ثلاث ساعات وقف القطار في محطة سينايا وكان وصولنا اليها في الساعة الثامنة ونصف بعد الظهر ولكن في اوروبا ولا سيما في مثل ذلك المكان المرتفع لا يزال لنور النهار اثر واضح حتى الساعة التاسعة وينبغي للراكب في زيارة جبل سينايا ان يحجز لنفسهِ مقدماً غرفة يستأجرها في الفنادق لان زوار الجبل جماهير عديدة ليسوا من اعيان بخارست فقط بل فيهم كثيرون من بلاد اخرى رومانية وذلك لشهرة الجبل الطائرة في جمال مناظرهِ

واشرافهِ على مواهب الطبيعة البديعة

اما عن محاسن هذا الجبل فمهما افضت فيها اراني مقصراً عاجزاً ومع اني ذهبت الى كثير من الجبال في سويسرا والى الجبل الابيض واميركا ما رأيت جبلاً يضاهيهِ في جمالهِ الطبيعي وهو ليس شديد العلو فان علوهُ ٨٠٠ متر فقط ولكن قمم الجبال التي وراءهُ تبلغ من ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ متر فبقعة جبل سينايا تكون بذلك كأنها في واد طويل عريض وان لم تكن عند التحقيق وادياً . وقد جعلوا من جبل سينايا حديقة كبيرة (بارك) فيهِ اشجارهُ الاصلية القديمة العهد من صنوبر ودلب وانواع أُخرى لا يدرك اسماءها واوصافها الاَّ احد علماء النبات وفيهِ المروج الخضراء السندسية التي انشئت وهناك الازهار البرية الصغيرة من احمر وازرق واصفر وبنفسجي مما يقر الناظر ويسر الخاطر اضيفت الى الازهار المعتادة فاتحدت الطبيعة والايدي البشرية عَلَى جعل هذه البقعة من الارض فردوساً يحير اللب ويسبي القلب . وقد بنوا فيهِ البرك التي تتدفق فيهـا المياه وخططوا الشوارع ما بين منبسطة ومرتفعة وفرشوها بالحصى الابيض الناعم ممزوجاً بالرمل وبنوا فوقها اجنحة وشرفات واسعة (كشوكة) دهنوها باللون الاخضر وعرشوا عليها العرائش من ورد ابيض وغيره وانشأوا المظلات الهندية التي تشبه الخيام وجعلوا مقاعد من رخام وخشب في الماشي وهناك مطاعم وقهوات ورحبات للعب الكرة وغيرها من الالعاب وبنوا لوكندتين عظيمتين ولا يخلو هذا البارك من وارد وصادر وهو ملتصق بجبال أُخرى منها جبل ممتد مكتس بالاشجار من اسفله الى اعلاه وهي بديعة في تنسيقها وترتيبها كأنها عولجت بالمقراض ولونها كلون الزمرد واذاء هذا الجبل جبلٌ آخر على شاكلتهِ وبينهما جبل ثالث دونهما علواً يظهر للناظر كالوادي وليس هو كذلك ويعارض هذه الجبال جبالٌ أُخرى

ووراءها جبال تعد بالعشرات متفاوتة في قرب المسافة وبعدها . وبعد ما قضيت في البارك حيناً متنزهاً مع حضرة صفوت بك السكرتير الاول لسفارة تركيا وكان غاصاً بالمتنزهين زرافات ووحداناً ركبت عربةً وذهبت اتجول بداخل الغابات الى قصر الملك وهو ليس بعيداً . وقد خططوا شوارع داخل هذه الغابات لمرور العربات تكفي لمرور عربتين فقط والباقي على اليمين وعلى الشمال جميعهُ غابات واحراش من انواع الصنوبر بعضها تحاكي السحاب في علوها وبعضها ممتدة العروق من كل الجوانب من اسفلها الى اعلاها مثل اشجار الارز ويسمع في اثناء المرور خرير المياه وهي تنحدر الى الوادي حتى وصلنا الى القصر وهو بني في احسن بقعة في ذلك المكان ويدعى قصر بليش باسم ينبوع ماء قريب منهُ والقصر جميل الهندسة يشرح منظره الصدر اكثروا في بنائهِ من الطوب ودهنوها بألوان حمراء وزرقاء وخضراء كلون اوراق الاشجار وذهبوا قسماً منها . وفي وسط القصر قبّة شاهقة نصب بأعلاها العلم الملكي وهم لا يمنعون الناس ان يقتربوا من القصر ويدوروا بجانبه على الاقدام ويمتعوا نظرهم بالحديقة التي امامه الحاوية لكل انواع الزهر وقد رأيت فيها من زهر الورد اشجاراً ذلك انهم يربون ساق الورد ويعالجونها حتى تكبر وتغلظ وتصير شجرة في ارتفاع مترين تقريباً وفي رأس الساق اربعة أو خمسة وردات ضمت بعضها الى بعض كأنها باقة . وامام القصر بركة فيها نوفرة تتصاعد منها المياه الى علو شاهق . وفي زوايا القصر عساكر الحرس وقوف بسلاحهم ومدفعان وقنابل وعند الظهر يتغير الحرس على ضرب النفير . ولا يبعد من قصر الملك قصر آخر لسموّ البرنس فردينان ولي العهد وعائلتهُ مبني على نسق قصر عمهِ الملك ولكنهُ اصغر ويرفع العلم فوقهُ ثم عدنا للفندق من طريق آخر من داخل هذه الغابات الجميلة وممكن التنزه فيها ساعات والمرء لا يمل النظر

لتنوع المناظر والمشاهد وخصوصاً القصور لاربابها من اهل السعة واليسار منتشرة بعضها في وادي وبعضها على ربوةٍ او لحف جبل وغيرها في الطرقات وجميعها داخل حدائق وهم الذين اسعدهم الدهر ان يكونوا في أحسن بقعة من الارض . والفنادق هناك في غاية النظافة والترتيب وفيها العدد العديد من الخدم بثيابهم النظيفة ينفذون الطلبات بسرعة وواجهة قاعة الطعام في فندق كريمان الذي اخترناه لاقامتنا من زجاج تشرف على الحديقة وعلى بركة تتصاعد منها المياه على علو شاهق . وعلى طول قاعة الطعام رف من الخشب عليهِ آنية صغيرة للزهر ورأيت عريشة وصلوها الى سقف القاعة فالجالسون يتناولون طعامهم ويشنفون اذانهم بسماع الموسيقى ويمتعون نظرهم في نوفرة المياه وازهار الحديقة وطعامهم لذيذ فيهِ الوان عربية مثل بادنجان محشي باللحم المفرومة وارز دفين لانهُ يدفنون قطع اللحم في خلالهِ ومعهُ لبن رائب في كاسات بيضاء عليها القشطة على شاكلة ما يصنع في بيوت مصر والشام . ومن حلواهم البقلاوه والقطايف يسمونها باسمائها العربية وقبل تناول الطعام يشربون الوتسكا وعلى المائدة يشربون نبيذهم الوطني اللذيذ الطعم الرخيص الثمن وبعد فراغ الطعام ينتقلون الى قاعة للمسامرة واخرى للعب الورق ويوجد قاعة كبرى للرقص في كل يوم خميس وتلبس السيدات كل ما هو خفيف ولطيف ولهنّ عناية شديدة بالقبعات الصيفية الجبلية وهكذا يقضي القوم نهارهم وليلهم في ارغد عيش

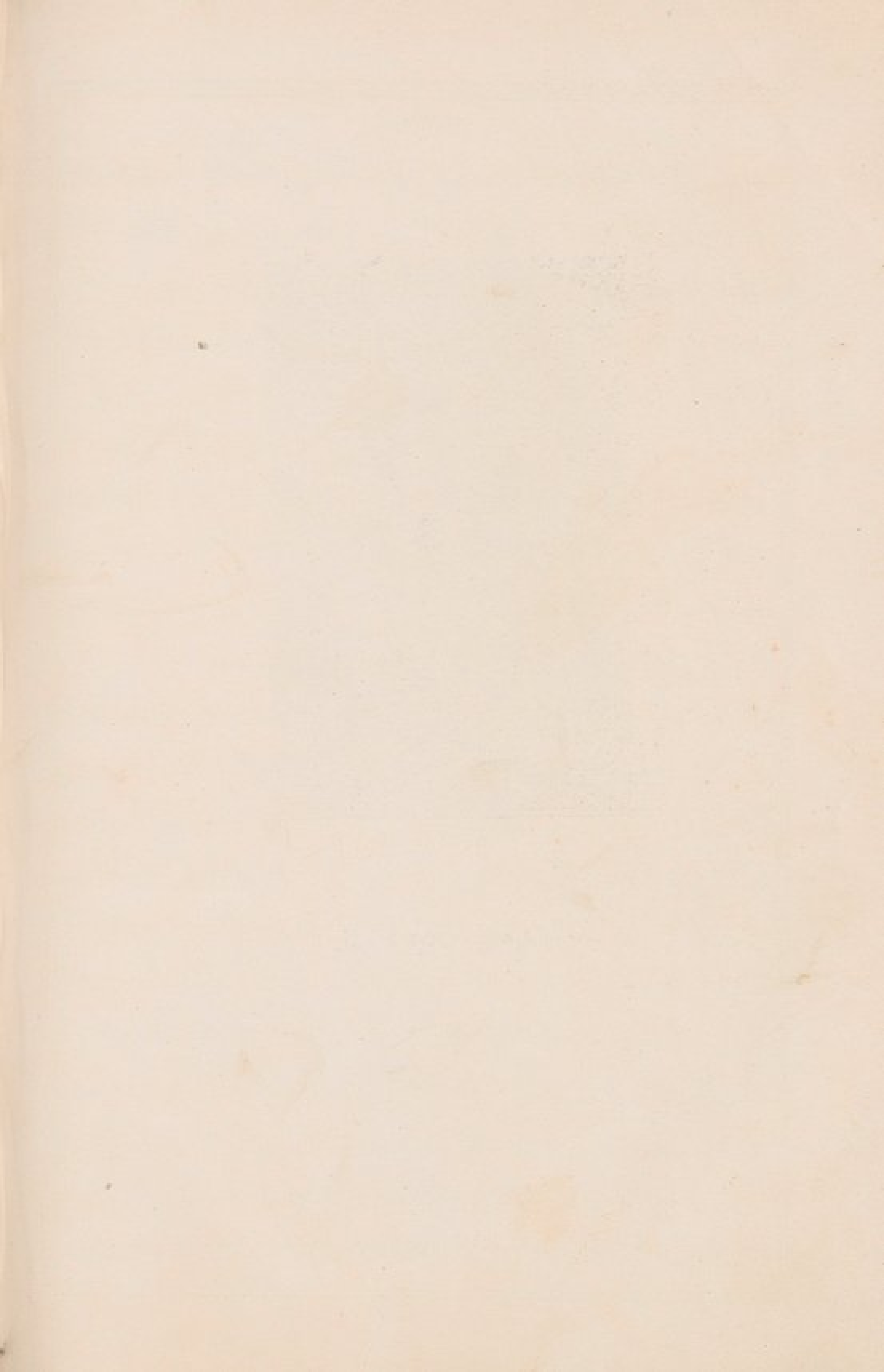
وفي هذا اليوم ذهبت الى قصر جلالة الملك وبيدي توصية للمثول وكنت اطلعت في الجرائد ان صحتهُ منحرفة فقابلت الماريشال ماڤرو كوردات وكان لابساً كسوتهُ الرسمية وفي صدرهِ نيشان يتدلى على صدرهِ وهو طويل القامة حسن الطلعة مهيبها فلما علم ان الغرض من حضوري الى رومانيا الكتابة عنها في

اللغة العربية كما كتبت عن اوروبا واميركا قال لا ريب انك علمت بانحراف صحة جلالة الملك وهذا هو المانع ولكن سمو ولي العهد يقابلك بالنيابة عن جلالة الملك فاعطاني تذكرة الى حضرة الياور الاول الميرالاي كريشيانو وارسل معي رسولاً اوصلني الى القصر فسلمت اليهِ التذكرة وبعد ان قرأها قال انهُ سيرسل لي الجواب الى الفندق ثم ارسلهُ وقال فيهِ ان سمو البرنس فردينان ولي عهد رومانيا يقابلني اليوم التالي الساعة الثالثة بعد الظهر وفي الميعاد المذكور كنت في قصرهِ حيث انتظرت قليلاً في غرفة مع احد الضباط ثم دخلت الى قاعة كان سموهُ واقفاً فيها لابساً كسوتهُ العسكرية وعلى صدرهِ سلسلة نياشين تتلألأ كما هي عادتهُ في مقابلاتهِ فدار الحديث عن مصر ورومانيا من ضمن ذلك قال يجب ان ازور دير ارجيش لارى قبب الاجراس الرخامية المذهبة التي صنعت بطريقة هندسية غريبة الشكل بن نوعها فيخيل الى الناظر انها تهم بالسقوط الى الارض وان ازور معامل الملح وهذه غريبة في بابها لانهُ يمكن النزول الى عمق ١٥٠ متر في عرض ٥٠٠ متر وليس في كل هذه المسافة لا حجر ولا تراب بل الملح النقي الابيض وقال ومع ان بلاد رومانيا زراعية كالقطر المصري فالهمة مبذولة في ترقية صناعتها واستخراج معادنها من جوف الارض . وحدثت سموهُ عن فوائد الخط الحالي من الوابورات الرومانية ما بين قسنطسه واسكندرية . ورأيت سموّهُ طلق اللسان حسن البيان جميل الطلعة تدل ملامحهُ كلها على النجابة كيف لا وهو من عائلة هوهنزولرن الشهيرة في فضائلها في اوروبا وكان يسأل ويستعلم عن كل شيء واسئلتهُ دقيقة حتى سأل عن اسم الوابور الذي ركبتهُ واستغرقت زيارتي ساعة تقريباً ثم انصرفت شاكراً

وفي هذا الجبل الدير والكنيسة وقد بنيتا على ربوة فذهبت الكنيسة وهي تكاد تكون كلها ذهباً لان اهالي رومانيا يكثرون من التذهيب في كنائسهم وفي



البرنس فردينان ولي عهد رومانيا



تلك الكنيسة كراسي للعائلة الملوكية ومع ان الصلوة باللغة الرومانية يسهل على كل شرقي ان يتبعها ويفهمها من النغمات واصطلحوا ان لا تكون جوقة المرتلين في جانب الكنائس مثل كنائس مصر والشام الشرقية بل في كشك فوق الباب تسمع نغماتهم ولا احد يراهم واظن ان ذلك ادعى الى الخشوع والوقار لا سيما وهم ينتخبون المرتلين من ذوي الاصوات الرخيمة فيخيل لك ان هناك آلات موسيقية وقسسهم حسان الطلعة متهذبون وملابسهم الكهنوتية كملابس اساقفة وخوارنة الكنائس الشرقية بلا فرق البتة ورأيت المصلين يظلون وقوفاً لا يستريح احدهم ولو قليلاً على الكراسي التي هي مثل كراسي الكنائس الشرقية وهم دائماً صامتون متخشعون يشخصون الى امامهم فقط غير ملتفتين يمنةً ولا يسرة ومتى دار القداس تركع جميع السيدات على ركبها الى الارض واما الرجال فاظن ان البنطلون هو الذي يزعجهم في الركوع ولا يركعون وتعود النساء الى السجود عند عرض الكاس ولا يدار بالصينيات في الكنيسة لجمع نقود كما يجري في مصر وسوريا وانما عند باب الكنيسة الخارجي طاولة عليها صينية وفيها الشمع فالداخلون يأخذون شمعة ويضعون في الصينية ما تسمح بهِ نفسهم ويوقدون الشمعة في الشماعدين . وقد قابلت رئيس الكنيسة وهو لا يتكلم الاَّ اللغة الرومانية فاستحضر قسيسين للترجمة يتكلمان الجرمانية التي أجهلها انا فعدنا الى الحديقة واذا بعاصفة شديدة من الريح والمطر فاشتد البرد وكان لهُ تأثير في صحتنا فتركت الجبل وكنت أنوي اطالة الاقامة فيهِ وعدت الى بخارست . ولا يخفى ان بخارست تبعد ساعة واحدة عن روستشوك وجيورجوفو يفصلهما نهر الدانوب وهو عريض في هذا المكان فالاولى من مدن بلغاريا والثانية من مدن رومانيا يذهبون اليها من بخارست ويعودون على سبيل النزهة لجمال موقعهما على النهر فذهبت في الصباح واعجبني في روستشوك مدرستها

الجامعة للذكور يومّها مئات من التلامذة ثم عدنا الى بخارست لنسافر منها الى السرب . ويخلق بي في هذا المقام ان اقول ان كثيرين من سكان القطر المصري يصطافون في اوروبا فاذا اتخذوا طريقهم اليها من بخارست رأوا جانباً من اوروبا لا تخلو روءيتهُ من الفائدة واللذة . اما نفقات السفر فتكاد تكون واحدة

﴿ السفر من بخارست الى بلغراد ﴾ يجب على المسافر ان يركب قطار سكة الحديد من بخارست الى مدينة أُورسوڤو الواقعة في آخر حدود رومانيا من جهة الغرب وذلك مسافة ١٠ ساعات والمدينة المذكورة مبنية على نهر الطونه ومنها يركب الوابور الى بلغراد والسياحة في نهر الطونه تستغرق ١٥ ساعة الى بلغراد فبناء عليهِ قام القطر بنا يمر في بلاد رومانيا في اراضي منبسطة مثل اراضي القطر المصري ومزروعة كلها كأنها مرجة خضراء وزراعتها نامية جداً معظمها الدرة الشامية رأيت منها على يمين القطار وشماله قدر مد البصر مدة عشر ساعات في نهايتها وصلنا الى أُورسوڤو ورأينا في هذه المدينة ما يقال لهُ في اوروبا بالاصطلاح العسكري ابواب الحديد (بورت دي فير) اعني الجبال الواقعة ما بين المجر والسرب ورومانيا . فدخلنا مع الركاب الى الجمرك لعرض تذكرة المرور والامتعة وهم يرون ذلك بطريقة لطيفة ثم ركبنا عربة في طريق لطيف مسافة نصف ساعة تقريباً الى الباخرة الراسية في نهر الدانوب المستعدة للسفر الى بلغراد

﴿ السفر في نهر الدانوب ﴾ قامت الباخرة تمخر في هذا النهر الجميل قبل شروق الشمس بقليل على نية ان تصل بنا الى بلغراد في الساعة التاسعة مساء فتكون المسافة ١٥ ساعة وعلى القاريء ان يتصوَّر قدر النزهة التي نقضي في طول هذه المسافة من تنوع المناظر في كل اونةٍ فان نهر الطونه (الدانوب) الشهير في العالم ينساب كالافعى ما بين الجبال على اليمين وعلى الشمال فالجبال التي على يمين المسافر

هي للمجر والجبال التي على يساره هي للسرب وقد اجمع العارفون على ان اجمل السياحات في الانهر السياحة في نهر الطونه . واجملها ما بين أورسوڤو وبلغراد وتأييداً لذلك اقول اني كنت قد سافرت في نهر الطونه من ڤينا الى بودابست مسافة ١٢ ساعة فلم أجد في الطريق الجبال التي تطاول السحاب لا سيما على الحدود السربية وهي تعد بالعشرات بعضها وراء بعض وكنا نرى الجبال في بعض الجهات تلاصق ضفاف النهر وامامنا جبل آخر فنحسب نفسنا محصورين في بحيرة لا منفذ للباخرة منها ثم لا نشعر الأ والباخرة اخترقت لنفسها منفذاً واتبعت سيرها . ويبلغ عرض النهر على مسافة ١٥ ساعة ٥٠٠ متر الى ٨٠٠ متر فاكثر . وتبعد الجبال من ضفافه في بعض الجهات من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ متر حيث تغرس الارض اشجار مثمرة وتزرع من مزروعات أخرى وتظهر فيها عدة قرى ومزارع ومعامل . ويرى على ضفافه في بعض الجهات اشجار الحور الباسقة صفوفاً ممتدة مسافات طويلة كأنها حائط . وهناك طيور مائية كثيرة ترفرف فوق النهر . وكلما وصلت الباخرة الى بلدة القت المرساة ليصعد من الركاب من يريد الصعود وينزل من يريد النزول وأبهج ما يكون في هذه السياحة الجزر القائمة في وسط النهر مزروع بعضها اشجار مثمرة وذرة وفي بعضها الآخر غابات من اشجار الصنوبر وربما شاهد الناظر في بعض الجهات عشرات من الجزر الصغيرة والباخرة تمر على يمينها أو يسارها . وهناك شلالات اصطناعية هي كناية عن جسور من صخور وحجارة تعترض مجرى المياه لاغراض يقصدها القوم فالمياه تمر من فوقها ثم تنحدر ويسمع لها دوي وخرير : وبينما كانت الباخرة سائرة رأيت الركاب ينظرون الى اسفل الجبل مما يلي السرب واذا هناك طريق قد انشأهُ في طول الجبل قيصر الرومانيين تريانوس ومرّت منهُ عساكرهُ . وفي جبل المجر اليوم طريق آخر فتحتهُ حكومة المجر

يفضي الى حدود رومانيا رأيت الناس فيهِ بين ذهاب واياب · وتكملة للفائدة اقول ان نهر الطونه هذا نبعهُ الاصلي من جبال فريبور في المانيا اعني الغابات السوداء (التي سبق اني ذهبت اليها وذكرتها في هذا الكتاب) وهو اطول نهر في أوروبا ما عدا نهر ڤولكا في روسيا وتصب فيهِ انهر وجداول . وقد عرفت النمسا كيف تنتفع منهُ عكس حكومة مصر فان وابوراتها تمخر فيهِ وهي تنقل الركاب والبضائع عدا الوابورات التي تقطر الصنادل مشحونة بالبضائع وكنت ارى العدد العديد من هذه الوابورات يقطر كل واحد منها صندلين فثلاثة واربعة توصلها الى المدن القائمة على النهر لحد البحر الاسود

فلما اقتربنا من بلغراد بعدت عنا الجبال وكانت الاراضي هنا سهلة ومزروعة وهناك البقر والغنم والثيران لا سيما في بر السرب وفي الميعاد المعين ظهرت لنا بلغراد وهي مبنية على جبل انوارها منتشرة ومنظرها جميل من النهر فتركنا الباخرة ودخلنا الكمرك ولا يحس السائح بانزعاج لان عمالهُ يكتفون بالسؤال واذا فتحوا صندوقاً اقفلوه بسرعة فذهبنا منهُ بالعربة وكانت تجري بنا صعداً الى لوكندة موسكو التي بنتها شركة روسية وتعد اجمل فنادق البلقان





السرب

خلاصة تاريخية

ان السربيين اصلهم سلاف استوطنوا البلقان وعظم شأنهم بعد ضعف مملكة بيزانس التي كانت مالكة بلادهم ولا سيما بعد وفاة الامبراطور يوستينيانوس الكبير في القرن السابع ٠ فلما قووا وكثر عددهم طردوا الاقوام الغريبة مثل اللاتين والتراس والاروام والارناووط من هذه البلاد وحملوها على الرحيل الى جهة بحر الادرياتيك ٠ وكانوا قد اقتبسوا بعض ظواهر التمدن عن البيزانتيين وتعلموا منهم الديانة الارثوذكسية على يد راهبين من الاروام هما كيرلس ومثيديوس وذلك في القرن التاسع ولم يكن لهم يومئذٍ حكومة او رئيس عام ولكنهم انقسموا قبائل شتى لا تقل عن مايتي قبيلة لكل منها رئيس وعوائد خاصة بها حتى اذا دخلت سنة ١٠٥٣ رأس هذه البلاد ميخايلو (مخايل او ميشيل) ونودي بهِ ملكاً في سنة ١٠٧٧ وخلفهُ غيرهُ من الملوك امتاز منهم نمانيا وكان تقياً ورعاً بنى الكنائس والاديرة ثم ترهب وخلفهُ ولدهُ ستيفان في سنة ١٢٢٣ وهذا استقل في كنيستهِ عن سلطة بطريرك القسطنطينية وعين الاساقفة في مراكزهم واتخذ لنفسهِ رئاسة الاساقفة وخلفهُ ابنهُ رادوسلاف وكان لهُ اخوة وابناء عم كثيرون تنازعوا على الملك زماناً حتى فاز احدهم وهو دراجوتين بمساعدة حماتهِ ملكة المجر وهي تنازلت لهُ عن البلاد المجاورة لانهر الطونا والساف والدرينا وكان في جملة هذه البلاد البوسنه (البشناق) ولا بد لي من القول هنا ان تعداد هذا الاقليم الذي كلف دولة النمسا حكمه بمقتضى معاهدة برلين وضمتهُ الى املاكها نهائياً بعد اعلان الدستور

العثماني فيهِ مليون نفس معظمهم من السربيين الارثوذكس والباقون يعدون انفسهم سربيين ايضاً ويريدون الانضمام الى مملكة السرب . وقد خلف دراجوتين ملوك امتاز منهم الملك دوزان وهو الذي سن قانوناً للمملكة وازال كل اثر بقي لدولة بيزانس واتخذ لنفسهِ لقب تزار او قيصر في ١٣٥٥ وخلفهُ ولدهُ اوروس وكان فاتر الهمة جزئت بلادهُ اقساماً على عهدهِ وكان ذلك علة احتلال الاتراك لهذه البلاد رغماً عن مقاومة السربيين الذين حاربوا متفانين حتى ان الدولة جردت عليهم مايتي الف عسكري

يروى عن حبهم للاستقلال ان احدهم واسمهُ عندهم البطل ميلوش او بيلش تقدم في موقعة كوسوفو الى خيمة السلطان مراد وطعنهُ في بطنهِ بخنجر فقتلهُ . وخلف الملك اوروس عدة امراء سربيون حاربوا عساكر الدولة على غير فائدة حتى استولى محمد الفاتح على القسطنطينية (الاستانة) في سنة ١٤٥٣ فبطلت كل حركة عدوانية من طرف السربيين واحتلت الدولة العلية جميع البلاد السربية واستولت على بلاد الارناؤوط وفتحت ولاية بوسنه (البشناق) في سنة ١٤٦٣ ثم ولاية هيرزوجوفين (الهرسك) في سنة ١٤٨٢ فولاية زيتا سنة ١٤٩٦ فما دخل القرن الخامس عشر الا وجميع الولايات البلقانية كرومانيا والسرب والبلغار في قبضة آل عثمان ولكن حكومتها في البلقان كانت سيئة وجنودها ولاسيما الباشبزوق منهم اهل جور وقسوة ظلموا الناس واغتصبوا اراضيهم وممتلكاتهم وهم يقولون لهم ان هذه الاراضي اصبحت جميعها ملكاً لهم وكانوا يأخذون ايضاً اولاد المحكومين وبناتهم لخدمة الحكام ورؤساء العساكر حتى ان قسماً كبيراً من السربيين هجروا بلادهم وذهبوا الى المجر وكرواسيا ولجأ بعضهم الى الجبال العالية وانتحل بعضهم دين الاسلام حتى عين منهم الحكام وكان هؤلاء الحكام اشدّ وطأة وجوراً على ابناء امتهم من الآخرين . بقيت بلاد السرب في يد الدولة العلية الى القرن السابع عشر حين تنفست الصعداء قليلاً لما ان النمسا استخلصت المجر من قبضة الدولة ولكن الاكليروس النمسوي والمجري وهم على المذهب اللاتيني اضطهدوا السربيين لانهم من اهل المذهب الارثوذكسي حتى ان قسماً كبيراً منهم رحل الى روسيا وكان من وراء هذه المحن ان روسيا حاربت الدولة من ايام بطرس وكاترينا وان السربيين عادوا الى طلب استقلالهم وحريتهم منذ سنة ١٨٠٤ بواسطة احد كبارهم المدعو جورج بيتروفيش او هو قراجورج (جورج الاسود) وحكاية هذا الرجل انهُ كان راعياً واراد احد عساكر الاتراك ان ياخذ منهُ رأس غنم بالقوة فضربهُ على رأسهِ بالعصا ضربةً اودت بحياتهِ حتى انهُ فرَّ الى الجبال خوفاً على نفسهِ . واشتدت بعد ذلك وطأة الحكام الاتراك على السربيين

حتى دفعوهم الى الثورة العامة وعند ذلك ظهر قراجورج من جديد وأُطلق عليهِ لقب محرر السرب ولكنهُ قتل غدراً وهو نائم في خيمتهِ في سنة ١٨١٧ وقيل ان قتلهُ كان خيانةً من احد الزعماء وهو ميلوش او برونوفيش بايعاز من الدولة التي جعلتهُ حاكماً جزاء فعلهِ ولكن البعض من كبار السربيين اجبروهُ على التنازل عن الرئاسة في سنة ١٨٣٩ واقاموا بدلاً منهُ ولدهُ ميخايلو او برونوفيش الذي تنازل لاعتلال صحتهِ فعادت الرئاسة الى عائلة قراجورج الاولى فتولاها اسكندر قراجورج ابن قراجورج الذي سبق ذكر حكايتهِ من سنة ١٨٤٢ الى سنة ١٨٥٨ وقد تمكن بحسن تدبيرهِ من اصلاح حالة بلادهِ وادخل فيها التمدن ولكن ذلك لم يحلُ لآل او برونوفيش فظلوا على النزاع والدسائس حتى اسقطوا اسكندر المذكور عن عرشهِ وعليهِ اجتمعت الجمعية العمومية وقررت اعادة الرئاسة الى ميلوش او برونوفيش السابق ذكرهُ وكان قد بلغ من الكبر عتياً ثم توفي وخلفهُ ابنهُ ميخايلو واقام في الرئاسة من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦٨ اجتهد في خلالها ان ينيل السربيين الاستقلال ولكنهُ قتل في حديقة طوبجي دره في بلغراد (سنتكلم عنها) وخلفهُ ابن اخيهِ ميلان او برونوفيش من سنة ١٨٦٨ الى سنة ١٨٨٩ وكان يوم ارتقائهِ قاصراً فكلف بمهام الحكومة ثلاثة من ذوات العاصمة يحكمون حسب قانون سنَّ لهذه الغاية . وقد حدثت مدة حكم ميلان امور مهمة منها ان السربيين حاربوا الدولة العلية من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٨ ونالوا استقلالهم بمقتضى معاهدة برلين المشهورة ونودي باسم البرنس ميلان ملكاً في سنة ١٨٨٢ . ومنها ان الملك ميلان كان في خصام دائم مع زوجتهِ نتالي حتى تنازل عن كرسي الملك في سنة ١٨٨٩ وخلفهُ ابنهُ اسكندر الذي ولد في سنة ١٨٧٦ واذ كان قاصراً شكلت لجنة من رجال الحكومة للوصاية حتى يبلغ الملك سن الرشاد . ولكن اسكندر كان ذا اثرةٍ فانهُ ابعد اللجنة واستبدَّ بالامر قبل نهاية مدة الوصاية . واقترن هذا الملك بامرأة من سيدات الشرف عند والدتهِ في سنة ١٩٠٠ ضد ارادة والدهِ ووالدتهِ ورجال حكومتهِ فاشتدَّ كره الناس لهُ حتى تآمر عليهِ بعض رجال الجيش ودخلوا قصرهُ في احدى الليالي عنوة فقتلوا الملك وزوجتهُ وكان ذلك سنة ١٩٠٣ . ثم اجتمع مجلس الامة السربية وقرر تولية الملك الحالي وهو حفيد قراجورج راعي الغنم السالف الذكر تحت اسم بطرس الاول . والملك الحالي ولد في بلغراد في سنة ١٨٤٤ واقترن في سنة ١٨٨٣ بالاميرة ذوركا ابنة امير الجبل الاسود ماتت سنة ١٨٩٠ ولهُ منها بنت وولدان اكبرهما اسمهُ جورج والثاني اسمهُ اسكندر ولد في سنة ١٨٨٨ وهو الآن ولي العهد من بعد تنازل اخيهِ الاكبر . والملك الحالي محترم ومحبوب من رعيتهِ ومبهران

على تقدم بلاده ونجاحها ٠ والسرب واقعة الى جانب النمسا يفصل بينهما نهر الدانوب شمالاً ويحدها من الشرق رومانيا ومن الجنوب تركيا ومن الغرب بلاد البوسنه والهرسك يفصلها عنهما نهر درينا وتعدادها الآن ثلاثة ملايين نفس جميعهم اروثوذكس ما عدا الوف قليلة من اليهود والالمان والمجر ٠ ويمكن للسرب ان تجرّد من العساكر ٣٥٢٩٢٢ محارباً ٠ وقد اشتهرت العساكر السربية بالبسالة والاقدام ٠ وتقرب ايرادات هذه المملكة من اربعة ملايين جنيه كل سنة ومصروفاتها كذلك ٠ وقيمة صادراتها عام ١٩٠٧ بلغت مئة مليون فرنك ومعظم الصادر منها حاصلات زراعية ولحوم ٠ وهواء البلاد يوافق زراعة الدخان فهو عندهم كالدخان التركي وهم يعتنون بزراعة الاشجار المثمرة فيصدرون من القراصيا الناشفة (برون) ما قيمتهُ ١٥ مليون فرنك في السنة ٠ وعندهم مراعٍ واسعة فهم يصدرون مليوني رأس من البقر كل سنة الى النمسا والمجر وتركيا والقطر المصري و ١٢ مليون خنزير ويصدرون من الدقيق ما قيمتهُ مليونا فرنك ومن البيض ما تزيد قيمتهُ عن ٤ ملايين فرنك ٠ وطبيعة البلاد جبلية فيها ٢١ جبلاً يختلف ارتفاعها من ١٠٠٠ متر الى ٢٠٠٠ وفيها ٢١ نهراً منها نهر الدانوب ونهر الساف تمخر فيهما البواخر الكبرى ونهر مورافا تمخر فيهِ السفن ايضاً طولهُ ١٢٠ كيلو متراً وطول جميع انهرها ٢١٥٨ كيلو متراً تخترق البلاد

وللسربيين شهرة بالتدين فهم لا ينقطعون عن الصلوة وقد سمعت في كنائسهم نغمات الترتيل ينشدها رجال واولاد على غاية الضبط ٠ وما زالوا متمسكين بعوائدهم القديمة من جهة الاعياد مثال ذلك ان كل رجل لهُ عيد باسمهِ من اسماء القديسين واهمهم هنالك مار نقولا ومار جرجس وميخائيل وجبرائيل. فاذا جاء عيد القديس الذي يوافق اسمهُ اسم صاحب البيت كان ذلك اليوم عيداً تشترك فيهِ زوجة الرجل واولادهُ واسم هذا العيد عندهم (سلافا) اي عيد قديس البيت ٠ وفي اليوم المذكور يأتي الخوري ومعهُ في اناء صغير ماء مصلى عليهِ وباقة من الريحان يغمسها في الماء ويرش اصحاب البيت والغرف ويبخر صورة القديس ويعطي اهل البيت قرباناً او خبزاً مصلى عليهِ وقد طبع بعلامة الصليب في وسطهِ ٠ وفي هذا اليوم يمتنع صاحب العيد عن العمل ويستقبل اقاربهُ واصحابهُ وهم اذا دخلوا لمعايدتهِ قالوا (سترينا سلافا) اعني كل عام وانتم سالمون فالرجل يقبل الرجل والامرأة تقبل الامرأة ثم يقدم للضيوف المربى فيقضون نهارهم في المسرات والصلوات ٠ اما العيد العظيم عندهم فهو عيد الميلاد ومن امثالهم (لا يوجد يوم الاَّ ويظهر معهُ النور كما انهُ لا يوجد عيد الميلاد الاَّ ومعهُ المسرات) ويكثر بينهم الذين يصومون صيام الميلاد كل



بطرس الاول ملك السرب



ايامه تراهم ينتظرون العيد بفروغ صبر ليأكلوا الخرفان المشوية وهم يشكون هذه الخرفان ساعة شيها بقضبان يقطعونها من الشجر بعد الصلاة ومتى بدأوا بذلك بذر صاحب البيت قليلاً من حب القمح طالباً من الله تعالى ان يديم لهم القمح في منزلهم ثم ان الوالدة والاولاد يدورون في جهات البيت فالوالدة تقلد نغمة الدجاجة والاولاد نغمة الفراخ طالبين من الله ان لا يحرمهم منها . واذا جلسوا لمناولة الطعام بدأوا بصلاة وجيزة ثم ان رب البيت يأخذ في يده ثلاث جوزات ويقول على اسم الاب فيرمي احداها في الشرق ويرمي الثانية لجهة الغرب وهو يقول هذه على اسم الابن والثالثة على اسم الروح القدس ويرميها لجهة الجنوب وبعد هذا يرسمون الصليب على وجوههم ويبدأون بمناولة الطعام . وفي آخره يستحضرون قرصاً من القمح المجبول بالعسل فيه قطعة من النقود فيقتسمون هذا القرص فيما بينهم والذي يجد قطعة النقود منهم في حصته يعدُّ سعيداً على مدار السنة . والافراح في العيد الكبير لا تقل عن عيد الميلاد لانهم يصبغون البيض الواناً ويدور بعضهم بها لنوع من المقامرة فكل من كسر بالبيضة التي في يده بيضة أخرى ربح البيضة المكسورة وهي عادة معروفة في الشام وكثير من الاقطار الشرقية والغربية في العيد الكبير



بلغراد

هي عاصمة السرب لا يزيد سكانها عن مئة الف نفس ولكنها عظيمة الحركة لانها يؤمها خلق كثير يأتون اليها من القرى الكثيرة في الضواحي . وموقعها جميل جدًا فانها بنيت على جبلٍ يشرف على نهر الدانوب ونهر ساف من كل جهاتها فاحياء العاصمة بعضها على قمة هذا الجبل وبعضها على لحفهِ من هنا ومن هنا فكل مناظرها بالغة الجمال تقرب من مناظر الاستانة على البوسفور . والذي يقف في الاحياء الواقعة على رأس الجبل يرى الشوارع ممتدة والى جانبيها الاشجار تحدها المنازل وهي منحدرة في الوادي حتى ضفة النهر لا يظهر آخرها للعين بسبب طولها . وهنالك ترى العربات او الترامواي نازلة الى النهر او صاعدة كأنها خارجة منهُ . ومن بعض هذه الاحياء تظهر شطوط المجر والبعض من قراها ويظهر ايضاً الجسر العظيم الذي يمر عليهِ قطار سكة الشرق آتياً من باريس الى بلغراد وفيها مبانٍ عمومية مهمة مثل قصر الملك وبنك السرب والتياترو وفندق موسكو وهو احسن من فنادق رومانيا وبلغاريا . ومن المشهور ان للسربيين غيرة زائدة على ابناء جلدتهم حيث كانوا وهم يحبون بعضهم بعضاً كالاخوة فالجنسية السربية وجهتهم وضالتهم في كل حين

اخذنا ترجمان من الفندق للتفرج على ما في هذه العاصمة وكان معهُ كشف بيان المحلات التي يجدر بالسائح ان يراها . ومن الضروري الاستعانة بالترجمان في بلاد يجهل السائح لغتها فالترجمان يقلل العناء والنفقات لانهُ يرشد الغريب في يوم واحد لى ما يعسر على الغريب رؤيتهُ في ايام وكانت هذه عادتي في كل سياحاتي فلما خرجنا من الفندق وجدنا نفسنا في بولفار او شارع ممتد في قلب البلد سمي

ميخايلو على اسم الملك الوارد اسمهُ في المقدمة التاريخية وقد اقيم لهذا الملك تمثال من البرونز في ميدان بالقرب من الشارع راكباً جواداً مثل تمثال ابراهيم باشا في ازبكية مصر فوق قاعدة من حجر الصوّان الاحمر وفي هذه القاعدة رسوم معركة حربية فيها نساء سربيات بيدهنّ اطفال تتوسل الى عساكر الاتراك بطلب الرحمة . وفي هذا الميدان البنك العقاري السربي والتياترو الكبير . كلاهما من الابنية الجميلة وشارع ميخايلو هذا كثير الاتساع الى جانبيهِ منازل عظيمة للبنوك والشركات تحتها الحوانيت يباع فيها كل ما يشتهي المرء وقهاوي وحانات . وفي آخر هذا الشارع قره ميدان والاسم تركي هو اليوم الحديقة العمومية للاهالي وهي حديقة لطيفة جداً فيها الزهور وبرك الماء والاشجار المتنوعة يخطرون فيها زرافاتٍ ووحداناً ويسمعون انغام الموسيقى . وفي آخرها لجهة نهر الدانوب القلعة دخلناها من باب يدعى قبو استامبول وهو مثل باب قلعة مصر تماماً مصفح بالحديد والمسامير . وقد مشينا مسافة طويلة بعد هذا الباب حتى بلغنا باباً آخر على شاكلتهِ يليهِ ميدان ثانٍ وباب ثالث ايضاً وقد صنع الكل على طريقة هندسية حربية لصد هجمات الاعداء . قال لنا الترجمان انهُ لغاية سنة ١٨٦٠ كانت العساكر العثمانية محتلة هذه القلعة والبلد في يد السربيين . فلما وصلنا الميدان الثالث واسمهُ قلعة ميداني رأيت فيهِ مدافع تركية كثيرة العدد قديمة العهد وكراتٍ كبيرة وصغيرة مرصوصة بعضها فوق بعض على شكل هرمي عدا المدافع الموجودة في الطوابي والاستحكامات وهي محكمة الوضع حول القلعة . والقلعة هائلة الاتساع فاني سرت مسافة طويلة جداً ما بين كل باب من الابواب الثلاثة حتى وصلت آخرها ومنها رأيت نهري الدانوب وساف كأنهما تحت الاقدام في هذا المكان . وقد رأيت هنا بعض قرى المجر وهي يفصلها نهر الدانوب عن السرب ورأيت على بعض المدافع شعار الدولة قمراً ونجمة وفي غيرها

نقشت الطغراء العثمانية وعلى بعضها كتابات تركية جميلة عليها اسم محمود . وفي الميدان المذكور جامع تخرّب والمأذنة هي الآن منارة . وفي هذا الميدان المتحف وهو عبارة عن قاعة فسيحة مستديرة جمع فيها كثير من الاسلحة والرايات التي غنمها السربيون في الحروب منها بنادق طويلة مزخرفة بنقوش دقيقة وقبضاتها مرصعة بحجارة المرجان وسيوف تركية عوجاء منها سيف شفرتهُ مرصعة بالجوهر وعليها كتابات بحروف جميلة جداً أمسكتهُ بيدي بعد الاستئذان وقرأت عليهِ هذه العبارة (بسم الله الرحمن الرحيم . نصرٌ من الله وفتح قريب) وعلى الوجه الآخر (لا فتى الأ علي ولا سيف الأ ذو الفقار) . ورأينا في هذا المتحف قبعة الملك ميلان الذي ذكرناهُ في المقدمة التاريخية . هذا اهم ما يرى في هذا القسم من شارع ميخايلو لحد حديقة قره ميدان

والقسم الآخر من هذا الشارع على يمين فندق موسكو يعرف باسم ميلان وفيهِ قصر الملك وهو جميل باعلاهُ العلم وامامهُ عساكر الحرس وعلى مقربةٍ منهُ نظارة الخارجية وفي آخره ميدان سلافيا يتفرّع منهُ خمسة شوارع عريضة غرس الى جانبيها الاشجار ومن ورائها المنازل ذات دور واحد وهي جميلة المنظر لكل منها حديقة ومعظمها للموسرين. ومع ان بلغراد ليست من العواصم الكثيرة السكان فانها لها موقع طويل وقد سرنا من شوارعها السابقة الذكر الى فراتشار وهو موضع حدثت فيهِ المعركة الحربية بين عساكر الدولة والسربيين و كان الفوز فيها لرجال السرب بعد ان قتل منهم خلق كثير وهناك قبورهم عليها الصلبان وتمثال باعلاهُ صليب كتب عليهِ تاريخ سنة ١٨٠٠ وفي هذا الموضع كثير من القرى والمزارع والمعامل دليل حياة القوم السربيين

وفي هذا اليوم ذهبت الى الكنيسة الكبرى ورأيت ان صورها من احسن

صناعة منهـا صورة المسيح عند باب الهيكل بيدهِ الكرة الارضية فوقها الصليب وفي الكنيسة مقاعد مذهبة للعائلة المالكة . وقد قال لنا الخادم ان جلالة الملك لا ينقطع عن الحضور الى الكنيسة في كل احد وفي كل عيد كبير خصوصاً في هذا اليوم وكان يومئذٍ عيد مار الياس ولو لم يكن مريضاً لرأيناهُ في كرسيهِ . وفي هذه الكنيسة ايضاً قبر ميحايلو من الرخام الابيض ومن الكنيسة ذهبنا بشارع ميحايلوش اعني ابن ميحايلو وفيهِ نظارة الحربية والمدرسة الحربية ومستودع المدافع لا يجوز الدخول اليهِ والمتحف التاريخي رافقنا الدليل وكان الترجمان يترجم لنا كلامهُ عن الآثار وعددها لا يحصى وهي متنوعة الاشكال والاجناس متسعة في دهاليز واروقة وغرف كثيرة العدد ملئت بما يسر الناظر ويمثل حالة الاشخاص من رجال ونساء وبنات سربيات بالقد الطبيعي من الشمع كأنها تنطق بلسانها وتنظر اليك بعيونها لابسة اللباس السربي وتليها تماثيل بنات تركيات بالسترة والسراويل الحريرية الواسعة مزركشة بالقصب وعلى رأس كل واحدة عزيزية مقصبة مائلة قليلاً الى جهة الشمال تزيد منظر الفتاة دلالاً . ولها صدور مكشوفة وقد حليت هذه التماثيل بالمصوغات والنقود التركية من الذهب والفضة واكثرها ليراً مجيدية وانصافها وارباعها وقد صنعوا ايضاً من هذه النقود تيجاناً للرأس وعقوداً واساور واحزمة للوسط . والى جانب هذه التماثيل الحسناء آلات الطرب التركية مثل العود والقانون والقيثار وبعض الاقمشة الحريرية للملابس والمفروشات . وفي هذا المتحف ايضاً تماثيل الرجال على رؤوسهم اللبد البيضاء مطرزة بالعروق الزرقاء وقد تقلدوا الطبنجات في حزامهم والسيوف على اجنابهم

ومن هذا المتحف ذهبنا الى مدفن الملك اسكندر وزوجته دراجا ذكرت مقتلهما في المقدمة التاريخية فالمدفن الآن عبارة عن كنيسة صغيرة فتحها الخادم

وليس فيها قبر من الرخام بل ان الخادم اشار الى اكاليل موضوعة على الحائط وقال ان في هذه البقعة دفن كلٌّ من الملك اسكندر وزوجتهُ دراجا فاعاد ذلك الى ذهننا غدرات الزمان وبطشهِ بالكبار والصغار على السواء . ولما اردت ان ازور القصر الذي قتلا فيهِ وهو بالقرب من القصر الجديد للملك الحالي قيل لنا انهُ هدم وما بقي الأ ارضهُ من الآثار . والحكومة تبني الآن في هذه الجهة بناءً نخياً جداً لمجلس البارلمان ولبلغراد حديقة ثانية في طرفها من الشمال تدعى طوبجي درّه والكلمة تركية معناها وادي الطوبجية والطريق للوصول اليها من المتنزهات البديعة مسافة نصف ساعة بالعربة او الترامواي فيها الاشجار الباسقة صفوفاً على اليمين ووراءها المزارع ونهر ساف وهو كنهر الدانوب تمخر فيهِ البواخر . وعلى الشمال تلال وهضبات فيها اشجار الصنوبر وكروم العنب حتى انهم سموا هذه الجهة بالكروم وفيها قصور جميلة لكل قصر منها حديقة فيحاء وهي للاغنياء وارباب الوجاهة منها قصر لناظر الحربية وآخر للشر تشريفاتي . وقد زرت هذه الجهة لمقابلة احد الذوات فيها قبل هذه المرة . ولما بلغنا حديقة طوبجي درّه عجبنا فيها لاتساعها ورأينا فيها الزهور وبرك المياه على شاكلة حدائق العواصم في اوروبا تصدح فيها الموسيقى وتسير الناس بداخلها افواجاً وقد حانت مني التفاتة الى شجرة دلب ما رأيت اطول من غصونها الممتدة في كل سياحاتي حتى انهم اسندوها الى عمدٍ من الحديد ثم عدنا الى فندق موسكوولهُ شرفة واسعة تطل على الطريق وتصدح فيها الموسيقى كل يوم بعد الظهر فيتوافد الناس للجلوس وشرب البيرا ومناولة الطعام والمسامرة والنظر الى المارة في الشارع . وقد لحظت ان العوائد الشرقية لم تبطل هنا كما بطلت في بعض بلاد الشرق فانهُ مرَّ امامنا جنازة بطلت من اجلها الموسيقى ووقف الرجال وقد نزعوا القبعات احتراماً للميت ولكن النساء كنَّ حسب العادة الشرقية القديمة

ماشيات وراء النعش وامامهُ الصلبان والمراوح واولاد يرتلون وهم بالجلاليب الحمراء عليها صلبان بيضاء وعلى رؤوسهم قبعات مثل التي يلبسها الاقباط الارثوذوكس ثم جوق المرتلين يرتلون وكان القسوس صامتين فاشار عليَّ الترجمان ان نذهب للمقبرة بالتراموای وهي تمر من امام باب الفندق · ولا يخفى على احد ان المدافن في اوروبا متنزهات خلافاً لما في بلادنا فقبور الاغنياء في عاصمة السرب محاطة باسوار من الحديد المذهب او الرخام الابيض وبداخلهِ عمود من رخام كتب عليهِ اسم المتوفي وتاريخ الوفاة وامام كل منها نور يوقد في الليل والنهار ومن حولها برك الماء والازهار . وقد رجعت بعد زيارة هذه المدافن الى الفندق فالفيت الموسيقى تصدح فيهِ

ومما يلتفت اليهِ اثناء التجول في شوارع بلغراد الزي السربي في بعض الرجال والنساء . اما الرجال فيلبسون اللباد الابيض على شكل كبوت مشغول بالقيطان الازرق وتحتهُ سراويل واسعة وظاقات لباد فوق حذاء بلدى عالي الرأس بأعلاه شرابة وعلى رؤوسهم قبعات . والنساء تلبس سلطة حرير او قطيفة لحد ظهرها وفسطان حرير والصدر مكشوف يغطيهِ قميص من الحرير رفيع من صناعة البلاد وعلى رأسها طربوش احمر واطيء مثل الطاقية لهُ شرابة (زر) حرير تلف عليهِ عصبة مزركشة وشعرها مقصوص كالهالة حول رأسها. وحذاء بلدي بأعلاه شرابة حرير . ويرى ضباط العسكرية يخطرون في الشوارع بكساويهم ونياشينهم فيهم روح النشاط والحرب . وقد اعتادت نظارة الحربية ان تأتي بأجود سلاح للحرب فاذا رأت ان المدافع الالمانية اجود من غيرها اخذت منها لوازمها وان علمت بطرز بنادق انكليزية او فرنساوية اشترت لجنودها منها وهي ابداً تتبع كل فن جديد مهما كلفها من المصاريف حتى تكون دائماً على اهبة الحرب

واذا كان الغريب يريد ان يرى بلغراد بتمامها فما عليه الآن يصعد سطح فندق موسكو يراها جميعها ولا يغيب شيء عن نظره فانهُ يتجلى لهُ منظر نهري الدانوب وساف والجزر القائمة فيهما والسفن تمخر ذاهبة أو عائدة وقرى وغابات ومزارع و يرى ايضاً الجسر المبني فوق نهر الدانوب لقطارات سكة الحديد خصوصاً قطار اكسبريس الشرق آتياً من بودابست لمحطة بلغراد وهي عظيمة الاتساع وذهبت في هذا اليوم الى دار مجلس النواب واسمه عندهم سكو بتشينا فرأيت في القاعة صورة الملك وتجاهها شعار المملكة وكراسي للنظار ومقاعد للنواب وارباب الجرائد حسب ترتيب المجالس النيابية الاخرى ورأيت بين الاعضاء ثلاثة قسوس ونحو عشرة من المزارعين بملابسهم الوطنية تكلم واحد منهم بحماسة وهو باللباس الوطني السابق ذكره. وعند الظهر انفضّت الجلسة وهنأت ناظر الخارجية المسيو ميلانوفيش لانهُ اجاب كل سؤال من النواب وانا لا اعلم بشيء مما قيل. وكان سعادتهُ قد ارسل تذكرة الى رئيس التشريفات يخبره بها اني اتيت من مصر ومعي توصية من حضرة المسيو انتيتش المعتمد السياسي والقنصل العام بها لدولة السرب حتى اكتب عن بلادهم بعض الشيء باللغة العربية وطلب ان يعرض على جلالة الملك التنازل الى مقابلتي ولكن صحة الملك كانت يومئذ معتلة فاشار عليّ ان انتظر اسبوعاً وكان مضى على اقامتي في بلغراد عشرة ايام وفي عزمي ان اذهب الى بلغاريا وسلانيك وجبل لبنان فتشكرت واعتمدت على السفر في الغد الى صوفيا عاصمة البلغار

بين بلغراد وصوفيا

قمنا من بلغراد الى صوفيا عاصمة بلاد بلغاريا في قطار سكة الحديد المعروف باكسبرس الشرق وهو يأتي من باريس ويمر في بلاد النمسا والمجر والسرب والبلغار الى الاستانة والمسافة بين عاصمتي السرب وبلغاريا عشر ساعات يسير القطار معظمها فى بلاد السرب حتى ينتهي في مدينة تزاربود وهي من مدن بلغاريا عند الحدود السربية . وكانت مدة سيرنا في بلاد السرب شهية لان جبال البلقان الشاهقة كانت الى يميننا وشمالنا وبقية الارض ملأى بالمزارع والحقول والعمائر يزرع القمح فيها والذره ولاهلها جد ونشاط مشهور وفيها من بهائم الحرث شيء كثير . ومعظم ابقارها ضليعة رمادية اللون يصدرون منها ومن لحومها الى سائر الاقطار مقادير كبرى وقد ورد عَلَى القطر المصري منها عدد وافر ايام مرض البهائم . ومررنا على مدينة نيش حيث وقف القطار سبع دقائق وهي من المدن السربية المهمة . لما قام القطار منها دخل في وسط جبال البلقان وصخورها رملية حمراء مهدوا في اسفلها طريقاً للارتال فالسائر فيها يرى الجبال كأنها معلقة فوق رأسهِ ولكن القطار الذي ذكرتهُ كان متقن الصنع قليل الارتجاج حتى انهُ يمكن الكتابة فيه . وتابعنا المسير بعد تزاربود الكائنة عند الحدود حتى بلغنا صوفيا في العصر وذهبنا الى فندق بلغاريا وهو قريب من قصر الملك والحديقة العمومية وسيأتي ذكرهما



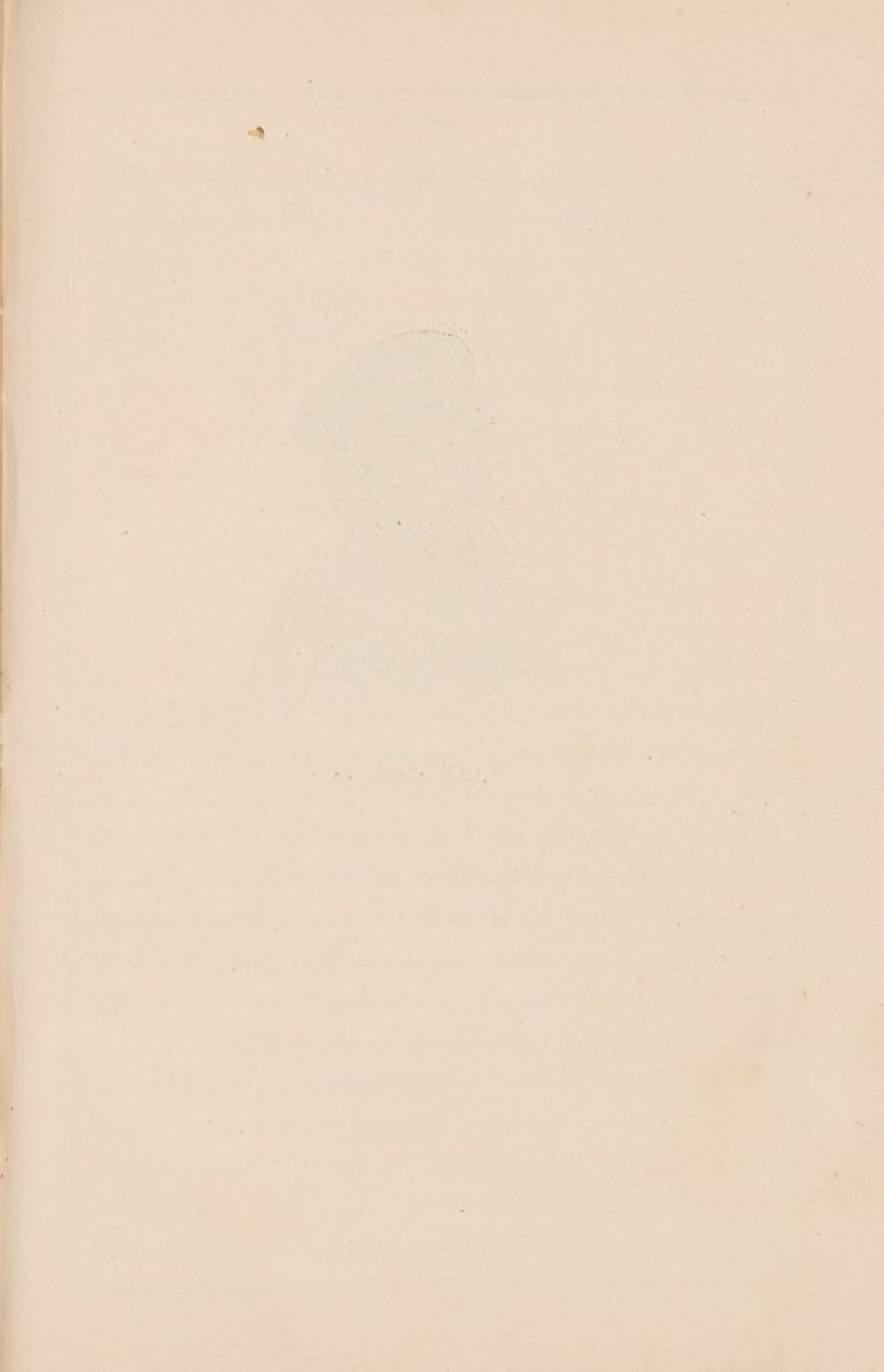
بلغاريا

خلاصة تاريخية

ان تاريخ بلغاريا القديم يعدُّ جزءاً من تاريخ البلقان فقد ساد على هذه البلاد الجنس الروماني والمقدوني والرومي والتركي . ولكن اصل البلغاريين الحقيقي سلاف من قبائل نشأت عند نهر فولكا اسمها بولغار . وكان رجالها اشداء دابهم شن الغارات فما تمدنوا الأ في القرن التاسع على يد ملكهم بوريس الذي تنصر بارشاد كيرلس ومتوديوس وهما راهبان يونانيان ادخلا الديانة الارثوذكسية الى بلغاريا . وخلف بوريس ولده سيمون فقويت دولتهُ واستولى على الفلاخ وقسم من بلاد المجر والارناؤوط ومقدونية . ولقب تسار او قيصر كل البلغار وكان من درجة امبراطور بيزانس (الروم) في القسطنطنية ولكن بعد وفاته كثرت الاحزاب والضغائن في هذه البلاد حتى ضعفت وسقطت في يد الدولة العلية سنة ١٣٩٣ واصبحت ولاية عثمانية تابعة في امورها الدينية لبطريركية القسطنطينية . وقد رأت هذه البلاد من جور الحكام الأتراك والجنود ما رأت غيرها فانهم كانوا يستعبدون الناس استعباداً . قرأت في كتاب ان احد الحكام اغتصب بنت فلاح واخذها لمنزله فلما علمت اختها هربت الى الجبال العالية وهي تنشد قصيدة مؤثرة عن اغتصاب اختها وهي قصيدة يغنيها القوم الى هذا النهار . ولكن البلغاريين حافظوا على جنسيتهم السلافية وعلى ديانتهم الارثوذكسية . وكان لهم جمعيات سرية تسعى في الاستقلال فلما انتقض الاروام على الدولة في سنة ١٨٢١ واشهرت روسيا حرباً عليها في سنة ١٨٢٧ قوي حزب الاستقلال في بلغاريا . وقد تلا ذلك ان بلاد الفلاخ والبغدان



فرديناند ملك البلغار



ثارت في سنة ١٨٥٧ وتبعتها البشناق والهرسك فاقتدت بلغاريا بهذه الام في طلب الاستقلال وطاف وفد بلغاري في عواصم اوروبا ليستغيث باهلها من مظالم الاتراك . وقد حدث ان الاتراك قتلوا قنصلي فرانسا والمانيا في سلانيك عامئذٍ فكان لذلك دوي عظيم في كل اوروبا وقام المستر غلادستون السياسي الشهير في انكلترا يلقي الخطب ضد الدولة ليساعد البلغاريين على استقلالهم

واهمُّ من كل ذلك ان امبراطور روسيا اسكندر الثاني جمع سفراء الدول في قصره في بطرسبورغ في ١٢ ابريل سنة ١٨٧٧ وقال لهم انهُ لم يبقَ في طوقهِ ترك البلغاريين اخوانهِ في الجنسية والمذهب يقاسون العذاب الاكبر من ظلم الاتراك بعد ان مرت القرون عليهم في هذه الحالة وانهُ اشهر الحرب على الدولة لتنال بلغاريا استقلالها وامر عساكرهُ ان تزحف في الغد الى البلقان . فاشتبكت روسيا في حرب شعواء مع الدولة . وقد بدأت هذه الحرب ببعض التصرات للغازي مختار باشا وتقدمهِ على حدود الاراضي المسكوبية ولكنهُ تقهقر بعد ورود نجدات قوية للجيش الرومي . وكذلك اشتهر القائد العثماني الغازي عثمان باشا في حصار بلفنا وقد نال شرفًا عظيمًا من قيصر روسيا بعد تسليم سيفهِ لان الامبراطور قابلهُ مقابلة بطل ضرغام ورد اليهِ سيفهُ وهو يقول لهُ ان مثلك لا يؤخذ منهُ السيف . وتقدمت العساكر الروسية بعد ذلك ففازت على القواد فؤاد باشا وسليمان باشا وزحفت حتى وصلت سان استفانو من ضواحي الاستانة حيث عقدت معاهدة الصلح ما بين روسيا والدولة في شهر مارس سنة ١٨٧٨ ثم أُبدلت الشروط بمعاهدة برلين في العام التالي وهاك نص شروط الصلح فيما يخص بلغاريا . اولاً استقلال بلغاريا تحت سيادة الدولة العلية . ثانيًا ان يكون الوالي مسيحيًا ينتخبهُ الشعب البلغاري وتوافق عليهِ الدولة وممالك اوروبا على شرط الا يكون من افراد العائلات المالكة في اوروبا حتى لا يميل في سياستهِ مع الدولة التي يكون هو منها . ثالثًا تُعين لجنة عثمانية وروسية لفصل املاك بلغاريا وتحديد التخوم قبل ان تبرح العساكر الروسية بلاد الروملي الشرقية . رابعًا تدفع بلغاريا جزية الى الدولة العلية باعتبار دخل البلاد التي سلخت منها . خامسًا يُعين كومسير عال مسكوبي لتنفيذ الشروط المذكورة ويقيم في بلغاريا مع ٥٠ الف عسكري مدة سنتين حتى يمكن لبلغاريا ان تنظم جنوداً لها لحفظ الامن ويكون لها مجلس نظار ومجلس نيابي ينظران في امورها

بقي بعد هذا ان بلغاريا تنتخب لها واليًا وقد وقع اختيارها على البرنس اسكندر باتنبرج من عائلة غير مالكة في المانيا وكان الامير يومئذٍ شابًا في الثانية والعشرين من عمرهِ وقد

عرفهُ البلغاريون لانهُ حارب معهم قبل ذلك الحين بعامين مع صفوف الجنود الروسية واقرت الدول الاوروبية والدولة العلية تعيينهُ · وكان البرنس اسكندر يوم انتخابهِ في حاشية القيصر في لقاديا لقرابةٍ بينهُ وبين القيصرة فذهب وفد بلغاري اليها وعرض الامارة عليهِ فقبلها وحضر مع الوفد وحلف يمين الامانة واستلم مهام الاعمال فعمَّت الافراح في طول البلاد وعرضها

اما الروملي الشرقية المتاخمة لبلغاريا فانها عُين لها والٍ مسيحي لمدة خمس سنين يدفع جزية الى الدولة ويكون تحت سيادتها وانتخب لهذا المنصب عليكو باشا وهو رومي الاصل · ولكن ذلك لم يحلُ للبرنس باتنبرج ولم يوافق مطامعهُ لانهُ كان يريد توسيع مملكتهِ وكان الشعب حيّاً سار على خطتهِ فحركوا اهل الروملي الشرقية ومعظمهم سلاف ارثوذكس حتى ثاروا وانضموا الى بلغاريا سنة ١٨٨٥ وكان حاكم الروملي الذي سبق ذكره في قصرهِ فوفدت عليهِ فلاحة بلغارية ومن ورائها نحو ثلثة آلاف من الاهالي اشاروا عليهِ بالفرار او يقتلونهُ ففرَّ من البلاد وسرَّ الاهالي سروراً عظيماً · وبين هم واميرهم في هذه المسرات وفد تلغراف على الامير من جلالة قيصر روسيا يوبخهُ على عملهِ هذا وصدر امرهُ الى ناظر حربية البلغار وهو روسي كان مندوباً من حكومة روسيا لتعليم الضباط البلغاريين فنون العسكرية ان يترك بلغاريا هو وجميع الضباط الروسيين ويعودوا الى اوطانهم حالاً · ومع ان امير بلغاريا رجا القيصر مراراً ان يعفو عن زلتهِ فلم يفلح ووقع في حيرة لان حكومتهُ لم ترَ كيف يمكن التخلي عن الروملي . وكان ميلان ملك السرب يطمع في ولاية الروملي الشرقية ليعيد مملكة سربيا القديمة فاغتنم فرصة الاستياء الذي ابدتهُ روسيا وزحف بعساكرهِ على صوفيا عاصمة بلغاريا ومعهُ ٦٠ الف عسكري · فلما علم البرنس اسكندر باتنبرج بهذا وهو يومئذٍ في الروملي مع قسم من عساكرهِ قام منها حالاً ليدافع عن بلادهِ واشتبك بقتال مع السربيين في موضع اسمهُ سلفنتزا ومع انهُ لم يكن معهُ الا نصف عدد العساكر السربية فقد هزمهم شرَّ هزيمة بفضل ما ابدى جنودهُ من البسالة وحسن قيادتهِ لهم في تلك المعركة · ولكن هذا النصر لم يفد البرنس شيئاً لانهُ سار على سياسة تضاد غاية روسيا فظلت حكومتها واجدة عليهِ وذاع بين الناس ان القيصر غير راضٍ عنهُ وهو عند البلغاريين في اعلى منزلة فنما في البلاد حزب العداء للبرنس اسكندر وساعدهُ وكيل دولة روسيا الموسيو نليدوف حتى اقدم بعض الضباط يوماً على مؤامرة حملهم عليها ميلهم الى روسيا واعتراف اهل بلغاريا جميعهم بفضلها في انالتهم الاستقلال ولذلك طلبوا الى البرنس ان يستعفي ويترك بلادهم ففعل في شهر اوغسطس سنة ١٨٨٦ وذهب الى النمسا واشتغلت الافكار بامرهِ كثيراً وكان معظم الامة معهُ هاج مما جرى لهُ فشكلت حكومة موقتة

اظهرت اسفاً مما حدث وارسلت تدعو البرنس اسكندر ليعود الى امارتهِ وكان رئيس هذه الحكومة الموسيو ستامبولوف وهو اشهر وزير بلغاري في التاريخ الحديث · ولما رجع البرنس اسكندر الى بلغاريا قابلهُ الناس بسرور عظيم ولكن قيصر روسيا ارسل اليهِ تلغرافاً يعلنهُ باستيائهِ من هذا الرجوع فظهر للرجل ان بقاءهُ في مكانهِ رغماً عن ارادة الحكومة القيصرية محال ولذلك استعفى وبرح بلغاريا عائداً الى النمسا وهناك تزوج راقصة بارعة الجمال فنبذهُ الملوك والامراء ومات حقيراً وهو في السادسة والثلثين من عمرهِ · وقد اظهر البلغاريون حبهم لهُ بنقل جثتهِ ودفنها في بلادهم ولهُ مدفن سنذكرهُ في باب السياحة

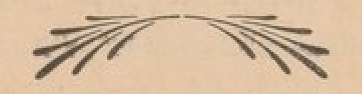
وقد شكلت على اثر استعفاء البرنس اسكندر حكومة موقتة رأسها الموسيو ستامبولوف وكانت غايتها المحافظة على استقلال بلغاريا واهتمت الامة لانتخاب امير جديد ترضى بهِ روسيا وبقية دول اوروبا فوقع الانتخاب بقرار صدر من الجمعية العمومية في سنة ١٨٨٧ على البرنس فرديناند من آل كوبرج في النمسا وهو حفيد لويس فيليب من عائلة اورليان الشهيرة في فرانسا من بنتهِ البرنسيس كليمنتين التي اشتهرت بالفضائل وصادقت الدولة العلية على هذا الانتخاب بفرمان صدر في السنة المذكورة واعترفت الدول الموقعة على معاهدة برلين بهِ ايضاً

وصل البرنس الجديد الى صوفيا عاصمة بلغاريا في اواخر سنة ١٨٨٧ وألف وزارة رأسها المسيو ستامبولوف وكان هذا الوزير ذا اثرة واقدام وكان يولي الناظر او الحاكم الذي يريدهُ حتى انهم اتهموهُ بقتل بعض المعارضين لهُ من ارباب الجرائد وغيرهم وعليهِ اصبحت كل البلاد في قبضة يدهِ وكانت يدهُ هذه من حديد حتى على نفس البرنس الذي اصبح آلةً يحركها ستامبولوف كيفما اراد وكان هو الحاكم المطلق في كل بلغاريا مدة سبع سنين · ولما كان لكل شيء حد ففي ذات يوم ذهب ستامبولوف الى قصر البرنس ليعرض عليهِ مسألة قال انها اذا لم تنتهِ على الطريقة التي يريدها فانه يستعفي فلما توقف الامير خرج ستامبولوف مغضباً وهو يظن انهُ لا بد للبرنس ان يسترضيهُ ولكن البرنس كان قد ملَّ استبداد وزيرهِ فارسل اليهِ كتاباً بقبول الاستعفاء · وحدث بعد مدةٍ ليست بطويلة ان ستامبولوف كان خارجاً من نادي الاحرار ليعود الى منزلهِ فهاجمهُ ثلثة رجال بالخناجر واثخنوهُ بالجراح وهو يدافع ما استطاع عن نفسهِ حتى وهنت قواهُ وسال الدم من رأسهِ ويديهِ فنقل الى منزلهِ حيث ادركهُ الاطباء ولكنهُ توفي بعد ان قاسى اشد الآلام ثلثة ايام · وشكلت بعد وفاة ستامبولوف وزارة جديدة تحت رئاسة استويلوف فكان اول عملٍ قامت بهِ انها سعت في ارضاء روسيا فذهب البرنس فرديناند الى بطرسبورغ وقابل الامبراطور وتقرر في هذه المقابلة ان ولي عهد بلغاريا البرنس

بوريس يعتنق المذهب الارثوذكسي ويكون الامبراطور عرابهُ . وبذلك ارضى البرنس روسيا وكسب محبة اهل بلادهِ لان امة البلغار ارثوذكسية مثل اكثر دول البلقان . ولما اشتهر ذلك ارسل امير الجبل الاسود الى امير بلغاريا تلغرافاً هذا نصهُ « اني اهنئك يا اخي بدخول ولدك ولي العهد في كنيستنا المقدسة الارثوذكسية واتحادنا السلافي فبالاصالة عني وبالنيابة عن كل شعبي اهديك التهانيءَ وادعو لولدك الذي سيحكم بلغاريا بطول العمر فليحيَ الامبراطور نقولا الثاني عراب ولدكم »

وقد ظلَّ امير البلغار من ذلك العهد يسعى في الاستقلال التام وتلقيب نفسهِ بلقب ملك او تزار حتى أُعلنَ الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ واعلنت حكومة بلغاريا استقلالها التام في بلغاريا والروملي الشرقية وصيرورتها مملكة ونودي باسم فردناند الاول ملكاً (تزار) واختارت المملكة الجديدة لرايتها من الالوان الابيض والاحمر والاخضر . واما الملك فردناند فجملة ما يقال في تاريخهِ انهُ ولد في ڤينا سنة ١٨٦١ واقترن اولاً بالبرنسيس لويز السالف ذكرها في سنة ١٨٩٣ ثم اقترن بعد وفاتها بالبرنسيس الينورا من آل روس الالمانية ورزق من زوجتهِ الاولى البرنس بوريس وهو ولي العهد ولد في صوفيا في سنة ١٨٩٤ وولداً اخر اسمهُ اسكندر ولد سنة ١٨٦٥ وابنة اسمها اوكسيا ولدت في سنة ١٨٩٨ وابنة اخرى اسمها نديجدا ولدت في سنة ١٨٩٩

وقد احصي سكان بلغاريا سنة ١٩٠٥ فكانوا ٤٠٣٥٦١٥ منهم ٣٣٤٦٧٧٣ ارثوذكس و ٦٠٣١١٣ مسلمون و ٣٧٦٥٣ يهود و ٢٩٤٤٢ كاثوليك و ١٢٦٩٤ ارمن ارثوذكس و ٥٤٠٢ بروتستانت وعدد جيشها في وقت السلم مايتا الف محارب . ويقال على الجملة ان الملك فردناند سهران على تقدم بلادهِ واعمالهُ ظاهرة مما اتى منذ ارتقى العرش وهو يميل الى بساطة المعيشة ويربي اولادهُ على الصلاح وعمل الخير



صوفيا

كانت عاصمة بلغاريا قبل استقلال هذه البلاد قرية صغيرة ولكنها نمت حتى اصبحت من المدن العامرة لا يقل عدد سكانها عن تسعين الفاً . والبلغاريون ذوو وطنية وشمم لما نالوا غايتهم من الاستقلال وصار لهم ملك يغار على مصالحهم ويسهر على اعمال دولتهم اهتموا بتحسين هذه العاصمة واعادة بنائها على رسم جديد وجعلوا فيها من الابنية العمومية ما يستحق الذكر . من ذلك قصر السوبرانا او هو مجلس النواب وهو قصر جميل فخيم البناء ونادي الضباط ونظارات الخارجية والحربية والمالية والبوسطة العمومية والمدرسة الحربية والمدرسة الجامعة والبنك الاهلي والتياترو وسنأتي على وصف كل منها على حدتهِ . وقد انشأُوا حديقتين احداهما داخل المدينة والثانية خارجها ومدوا خطوط الترامواي في كل جهات العاصمة تسهيلاً للنقل منها خط الى اسفل جبل ڤيتوش من جبال البلقان مسافة بضعة كيلومترات حتى ان الناس يشترون هنا الارض ويبنون منازل فيها . وقد اتبعوا في ذلك الطريقة الاميريكية اي انهم يمدون سكك الحديد في البراري وبعد مرور السنين تقوم مدن عامرة فيها فتم لهم ذلك لان هذه الاراضي كانت في البدء تباع بالفدان أو الدنم وهي تباع الآن بالمتر . وقد وجد في العاصمة مياه معدنية تشفي من ألم المعدة فبنوا حمامات كثيرة الاتساع على شاكلة حمامات ڤيشي . وفي اثناء تجولي في العاصمة رأيت ان البناء قائم على ساق وقدم خصوصاً في تبليط الشوارع . وقد اختاروا الطوب الاصفر لانهُ يسهل السير عليهِ للعربات فضلاً عن نظافتهِ وهو يكنس مرتين في كل يوم . وما اكتفوا بتحسين عاصمتهم حتى انها صارت تعد من العواصم الجميلة بل اظهروا ميلهم الشديد للمنافع العمومية مثل مد

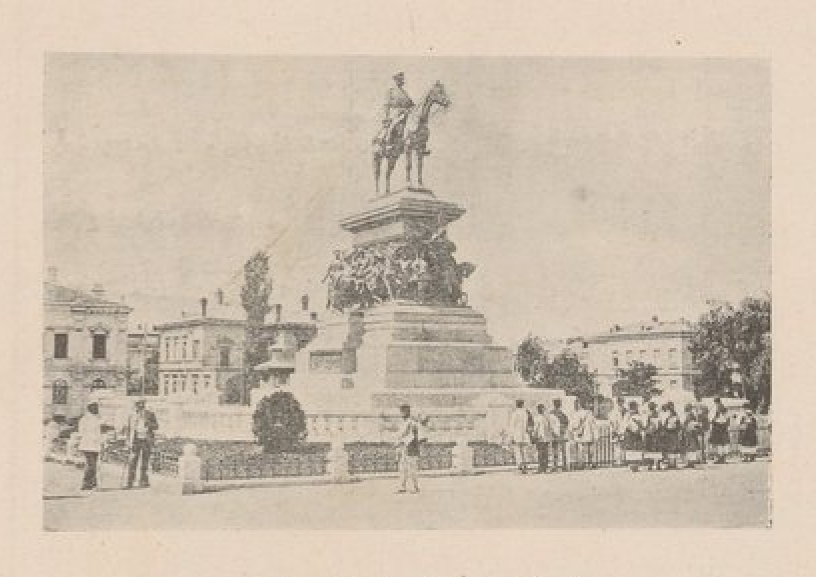
سكك حديدية و بناء قناطر ولاسيما المدارس الابتدائية في كل القرى ولهم مدرسة جامعة في روستشوك عظيمة جداً ولهم ميل زائد للعسكرية : اخذت ترجماناً من الفندق للتفرج على ما في هذه العاصمة فبدأت بشارع المحرر (أي القيصر اسكندر الثاني) وفيهِ قصر الملك بني على مرتفع محل السراي التركية وسط حديقة فيها كل انواع الشجر والزهر . وقد دخلت القصر بعد الاستئذان من الباب الخارجي حيث وقف بعض العساكر فدرت في الحديقة ثم صعدت مع احد العمال من سلم رخام الى الدور الاعلى من القصر ورأيت في احدى قاعاتهِ صور قياصرة الروس وصور الوقائع الحربية في شبقا مع عساكر الدولة العلية وصورة الواقعة الحربية مابين البلغاريين والسرب كان الفوز للبلغار وصورة ماري لويز زوجة الملك راكبة جواداً ابيض ولابسة كسوة جنرال لان احد الالايات سمي على اسمها وصورة عماد ولي العهد على المذهب الارثوذكسي كما اوضحناه في المقدمة . اما الملك وزوجتهُ و بناتهِ فعلى المذهب الكاثوليكي وقد جعلوا في قصر ملك بلغاريا كنيستين في الدور الاول منهُ احداهما كاثوليكية يذهب اليها البرنس و زوجتهُ و بناتهِ والكنيسة الثانية ارثوذكسية يصلي فيها ولي العهد واخوهُ و يكون معهما رئيس مجلس النظار والنظار والتشريفاتية والياويرية . والقاعات في هذا القصر كثيرة العدد رأيت في واحدة منها صورة البرنس اسكندر باتنبرج وصورة الملك الحالي ضمن افاريز مذهبة ثم انتقلنا الى قاعة رحبة معدة للحفلات الموسيقية يجتمع فيها الملك وافراد عائلتهِ والنظار والسفراء وعائلاتهم ومن بعدها قاعة الرقص تضمُّ الف شخص وقد علق فيها ست ثريات من النحاس الاصفر المذهب تنار بالكهربائية ويليها قاعة الطعام طويلة تكفي لمئة مدعو او اكثر فلا يمكن وصف ما يحوى هذا القصر من التحف والاواني وغير ذلك ولكنني اقول انهُ يعد من القصور الجميلة

ما بين قصور ملوك اوروبا . ولما خرجتُ من هذا القصر بلغت نادي الضباط ولا يجوز الدخول اليهِ ولكنهم يقيمون فيهِ حفلات يدعون اليها وجوه البلد واحياناً تصدح الموسيقى في حديقتهِ فتسمعها المارة من هذا الطريق . وهذا النادي قصر واسع عظيم . قال المؤلفون الاوروبيون انهُ يضارع النادي العسكري الشهير في برلين وانا أرى رأيهم فيهِ ايضاً . وعلى خطوات قليلة من هذا النادي نظارة الخارجية بنيت على أحسن هندسة ونظام قابلنا فيها المسيو ديمتروف مستشار الخارجية فاعطانا بعض كتب عن البلغار . وبعد الخارجية بناء السوبرانا وهو مجلس النواب بني على اكمة قائمة بنفسها فزاد ذلك في رونقهِ وفخامتهِ . وقد نقش فوق بابهِ شعار الحكومة دخلناهُ من سلم رخامي صغير الى القاعة الكبرى محل اجتماع النظار والنواب فرأينا في صدرها العرش وهو عالٍ ومذهب ومفروش بقطيفة حمراء وفوقهُ مظلة يجلس اليهِ الملك عند افتتاح البارلمان ومنهُ يتلو خطابهُ السنوي . وقد وضعوا في هذه القاعة صورة المسيح وامامهُ قنديل ينار ليلاً ونهاراً وللقصر قبة شاهقة تظهر من بعيد وكل شيء فيهِ يدل على النظافة والرونق والذوق . ثم دخلنا قاعة فيهاصور رؤساء النظار منذ تأسيس الحكومة واستقلالها وهم يسيرون على هذه الطريقة الى ما شاء الله فتجتمع عندهم مجموعة صور تذكرهم باعمال رجالهم . وجميع هذه الصور عملت بالقد الطبيعي وبالاردية الرسمية والنياشين ووضعت ضمن براويز مذهبة . وهناك قاعات شتى منها للراحة والمسامرة والمطالعة ومكتبة ومطعم . وتجاه البارلمان ميدان فسيح فيهِ تمثال الامبراطور اسكندر الثاني

وقد مرَّ في المقدمة التاريخية ان هذا الامبراطور انال بلغاريا استقلالها فما اجتمعت يلغاري الأ وكل امياله روسية . والتمثال المذكور من احسن صناعة

ما رأيت احسن منهُ والقيصر فيهِ راكب جواداً وهو بملابسهِ الحربية ينظر الى حصار بليفنا والحصان واقف فوق قاعدة ضخمة من الصوان الازرق وفي هذه القاعدة من الامام رسوم بارزة لنحو اربعين قائداً من القواد الروسيين مثل سكوبليف وغيره بعضهم على ظهور الخيل والبعض يشيرون بسيوفهم الى الامام وعلى الوجه الآخر من القاعدة كتب من (بلغاريا المتشكرة) ولا يبعد من هذا التمثال مدفن البرنس اسكندر باتنبرج امير بلغاريا السابق دخلناهُ من حديقة لطيفة محاطة بسور من حديد مذهب. وقد بادر الخادم وفتح باب المدفن فرأيناهُ من الرخام الابيض الناصع وحول المدفن آثار من اكاليل واعلام قدمت في يوم دفنهِ ٠ وهناك خزانة من زجاج فيها كسوتهُ وسيفهُ وقبعتهُ ٠ ثم مشينا لجهة الشمال وهناك تمثال احد البلغاريين من ابناء هذه العاصمة يدعى واسيليڤكي كان من قادة الثورة وقتلهُ الاتراك في هذا المكان فاقيم فيهِ تمثالهُ

هذا اهم ما يرى في هذا الشارع خارجاً عن البلد ٠ اما القسم الآخر منهُ لجهة البلد فاسمهُ شارع التجارة وفيهِ المخازن والقهاوي وحركة الاشغال والاعمال رأيت احد موظفي الصحة يراقب بداخل الحوانيت لبيع المأكولات فقال لنا الترجمان ليس الغرض من ذلك فحص المأكولات والموازين فقط بل عليهِ ملاحظة النظافة فان وجد وساخة عوقب صاحب الدكان. وقد حانت هنا مني التفاتة الى جامع ومأذنة فاستأذنت الشيخ بالدخول فرافقني لداخلهِ وقرأت على الجدران اسماء عمر وعلي ومصطفى وعلى جدرانهِ خارجاً هذه الجملة (عجلوا بالصلوة قبل الفوت) (وعجلوا بالتوبة قبل الفوت) وقد قال هذا الشيخ ان بقية المسلمين هنا ٢٥ عائلة فقط والباقون هجروا البلاد ٠ وفي هذه الجهة قام بناء سوق عمومية من الحجر في غاية الاتساع ٠ وقد وجدوا هنا مياهاً معدنية تشفي من مرض المعدة



تمثال الامبراطور اسكندر الثاني



فبنوا حمامات على شاكلة حمامات ڤيشي في فرانسا وهي تضم نحو الف شخص في آن واحد وهذا شيء كثير على بلد تعد بتسعين الفاً • وقد اخبرني ذلك فرنسي مقيم في صوفيا وهو الذي قال لي ان السوق الجديدة ستكلف ستين الف جنيه واظن على الجملة ان بلغاريا صرفت مليار فرنك في تحسين عاصمتها ومدنها وامورها النافعة • وكأني باليهود ارادوا ان يظهروا وطنيتهم ويقتدوا بالحكومة فانهم بنوا معبداً دخلناه وهو على وشك النهاية لهُ قبة ترى من كل جهة لعلوها وهو واسع جدًا وقبتهُ وجدرانهُ مموهة بالذهب وقد صرف عليهِ سبعمائة الف فرنك لحد الآن مع ان اليهود هنا لا يزيدون عن اثني عشر الفاً • وفي هذه الجهة كنيسة ارثوذكسية للرومانيين واخرى للسرب يصلون بها بلغاتهم

ولصوفيا حديقة عمومية تدعى حديقة اسكندر بالقرب من قصر الملك يؤمها خلق كثير في كل يوم قبل الغروب وتصدح فيها الموسيقى وفيها مطعم وهم يضعون المنضدات والكراسي ما بين الاشجار ومطعم آخر بني من غير اعمدة في الوسط تقام فيهِ حفلات موسيقية ورقص فيهِ نحو ٦٠ منضدة صغيرة للطعام • قال لنا شكري بك السكرتير الاول لسفارة تركيا واصلهُ من عنتاب القريبة من حلب انهم بنوا هذا المكان الواسع بسرعة غريبة • وحول الحديقة المذكورة نظارة الحربية والتياترو الكبير تحسدها عاصمة القطر المصري على حسن وضعهِ وجمالهِ بناهُ مهندس نمساوي عالم خبير على أحسن طراز جديد . فلما دخلناهُ وتأملنا دائرة اللوجات (الغرف) رأيناها على كثرة عددها واتساع المرسح في دائرة صغيرة وما ذلك الاَّ من حسن الهندسة فذكرت تياترو لاسكالا في ميلان • وبالقرب من المرسح غرفة الملك وهي مذهبة ورياشها اطلس احمر • ويقال على الجملة ان هذا الملهى يذهل الرائي بحسن شكلهِ وزخارفهِ ونقوشهِ تدل على الفنون

الموسيقية . والبناء منفرد تحيط بهِ طرق زينت بديع الازهار والاغراس من كل
جانب وحول الحديقة المذكورة بنايات أُخرى مثل نظارة الحربية والبنك الاهلي
وهما بنايتان نخيمتان والمتحف فيهِ آثار قديمة اكثرها حجار كبيرة تمثل وقائع حربية
من ايام الرومانيين وقبور من ملوك هذه المملكة وقطع حجار من المعابد الرومانية
وهذا المتحف اصلهُ جامع كبير قائم على ثمانية عمد ضخمة . وهنالك ايضاً حديقة
يتنزه بها الاهالي في طرف البلد تدعى حديقة بوريس عَلَى اسم ولي العهد لانها
متصلة بغابات لا يرى المرء آخرها انشأوا بها نادياً لالعاب الكرة يجتمع فيهِ وكلاء
الدول وعائلاتهم . والبلغار قوم يميلون الى الحرب والقتال فانهم بنوا مدرسة حربية
على مرتفع في اطراف العاصمة ذات ثلاث طبقات وهي طول قصر عابدين بمصر
تقريباً وقد تكلمت عن جميع هذه البنايات العمومية والمتحف وغير ذلك بمجرد النظر
والسؤَال عنها من هذا وذاك . ولو كان في عاصمة البلغار دليل يفيد السائح فيما
يريد ان يحيط بهِ علماً مثل عواصم اوروبا لكان من وراء ذلك فائدة كبرى . وقد
اعلنت هذا النقص لمن يهمهم هذا الامر فقال لي احدهم انهُ سيكتب دليلاً
لبلادهِ بالانكليزيةَّ والالمانية

وفي هذا اليوم توجهنا لسماع الصلوة باللغة البلغارية وحقيقة الحال ان الانغام
التي سمعتها من المرتلين وهم يقفون داخل جدار من الشعرية من خيرة ما ينشد من
هذا القبيل . وقد سألت اذا كان مع جوقة المرتلين ارغن فقيل لي انهُ لا يجوز
الارغن في الكنائس الشرقية . والكنيسة المذكورة كبيرة جداً لها قبب
واصلها جامع

وفي هذا اليوم بعد الظهر ذهبنا الى جبل البلقان اسمهُ ڤيتوش في هذا المكان
وقد سبق ذكرهُ يبعد ساعة تقريباً علوهُ ١٤٠٠ متر وقد مدوا خط ترامواي هنا

عاد بالنفع فكثرت في هذه الجهة القرى والمزارع والمنازل والحدائق لحد الجبل
وبأسفله عدة مطاعم وقهاوٍ تصدح فيها الموسيقى جلست في احداها ما بين جماهير
الناس وهم اذا سمعوا النشيد الوطني اظهروا علامات الفخر والسرور والاولاد يطربون
ويرقصون فالبلغاريون يحبون وطنهم محبة العبادة ويفتخرون بجنديتهم. وفي أسفل
هذا الجبل مياه كبريتية بنيت عندها حمامات يؤمها خلق كثير للاستحمام من العاصمة
والمدن الاخرى

وقد كان يومنا هذا ١٥ اوغسطس وهو عيد جلوس الملك فردناند وكان
جلالتهُ في مصيفهِ في ڤارنا فقام القوم باحتفال عظيم في طريق جبل البلقان المار
ذكرهُ حيث نصب سرداق نخيم لوكلاء الدول والنظار واصحاب المقامات في
العاصمة فعند وصولنا للسرادق رأينا منهُ ان العساكر كانت مصطفة مشاةً وفرساناً
ومدفعية . وكان ناظر الحربية راكباً جواداً والى جانبهِ مندوبون حربيون من
قنصليات انكلترا وفرانسا والسرب بكساويهم ونياشينهم وهم على خيولهم. فقبل
الابتداء بالمناورة الحربية أقيمت الصلوة بداخل السرادق من الاكليروس وكان
المرتلون من الجنود . وبعد نهاية الصلوة تقدم النظار وقبلوا الانجيل ثم أمر ناظر
الحربية ان تتحرك عساكر المشاة فمشت صفوفاً كل فرقة وامامها الموسيقى والعلم المختص
بها وكانت كل فرقة اذا بلغت السرادق ومرت تحيي ناظر الحربية وهو ينادي ليحيى
الجيش فيجيبهُ الجنود بمثل ندائهِ. ولما انتهت فرق المشاة من هذه الحركة تبعتها فرق
الفرسان برماحها ثم رجال المدفعية بمدافعها وكان ذلك ختام الموكب . وحسب
العادة أُقفلت المصالح العمومية ورفعت بأعلاها الاعلام البلغارية وبطلت الاعمال
وتوارد ألوف الناس ليشاهدوا موكباً يذكرهم بحريتهم واستقلالهم

وفي هذا اليوم دعاني حضرة المسيو سمنتوسكي المعتمد السياسي وقنصل جنرال

دولة روسيا لمناولة الطعام في منزلهِ وهو أي المنزل قصر فخيم بنتهُ الحكومة الروسية على نفقتها مفروش بأحسن الاثاث ولا تقل قيمتهُ عن ثلاثين ألف جنيه ٠ وأذكر هنا عادة عند الروسيين ما سمعت عنها قبلاً وهي انهُ بعد الفراغ من الطعام قام القنصل وقبل زوجتهُ وهي قبلتهُ وولدهُ قبل شقيقتهُ وهي قبلتهُ أيضاً ٠ وكان السير با كنون المعتمد السياسي وقنصل جنرال دولة انكلترا قد دعانا أيضاً للعشاء وعلمت من حضرة زوجتهِ انها تقضي فصل الشتاء في لندن لان البرد شديد هنا وسببهُ قرب جبل البلقان من البلد وانها تود أن تقضي بعضاً من فصول الشتاء في مصر اذ طالما سمعت من الانكليز عن اعتدال الطقس فيها فودعنا هذه العائلات الكريمة واعتمدنا ان نبرح صوفيا في الغد الى سلانيك والمسافة بينهما ٢٠ ساعة بسكة الحديد

❊ بين صوفيا وسلانيك ❊ قام القطار من صوفيا في الساعة الحادية عشرة مساء ومرَّ في بلاد السرب حتى اذا وصلنا مدينة زبتجه وهي الحد الفاصل ما بين السرب وولاية سلانيك انتقلنا الى قطار آخر سار بنا في ولاية سلانيك وفيها المدن والقرى آهلة بالسكان من أتراك وبلغار بين وسربيين وأروام وأرناؤوط وجميعهم على مختلف مذاهبهم وأجناسهم ولغاتهم يقيمون في بلد واحد أو قرية واحدة ٠ والاراضي في هذه الولاية خصبة تجري في سهولها الانهر والجداول رأيت فيها كثيراً من شجر التوت ٠ ولا يخفى ان الدستور العثماني نبت في هذه البلاد وفيها عقدت الاتفاقات والجمعيات على بذل كل غالٍ ورخيص للحصول عليهِ كما هو معلوم ومشهور وكان الدستور قد أُعلن منذ شهر ولذلك كانت الحركة عظيمة في هذه البلاد اثناء مرورنا ولا سيما لانهُ كان معنا أفراد من حزب تركيا الفتاة الذين نفتهم الحكومة أو فروا وقد عادوا الى سلانيك فكان كلما بلغ القطار محطة وهي كثيرة العدد في هذه الجهات يجتمع فيها الجم الغفير من كافة الملل والنحل ولكلٍ منها

ازياء خاصة تعرف بها ليرحبوا بالقادمين من اخوانهم ويعانقوهم عند اللقاء · وكلما قام القطار هتفوا لهم فلتحيي الحرية كل واحد بلسانهِ · ودخل القطار في أُوسكوب عاصمة اقليم نوفي بازار وهي مدينة عامرة فيها نحو ٥٠ ألف · كان حضرة قنصل السرب الجنرال بمصر قد أشار عليَّ ان أقضي فيها يوماً ولكنني وجدت حرها يومئذٍ شديداً وترابها كثيراً وقد قال لي احد اهاليها ان هذه المدينة غير مبلطة وكل ما كان يجمع من الاهالي لتبليطها كان يذهب الى الجيوب فلا يمكن وصف طريق قضينا بهِ ٢٠ ساعة لحد سلانيك وهو طريق جبال عالية او منخفضة وسهول ونجاد ووهاد وكان نهر وردان سائراً معنا من اسكوب الى سلانيك حتى دخل القطار محطتها ومنها ذهبنا الى فندق أُولمبيا المبني على شاطيء البحر

وبهذا انتهيت هنا من سياحتي في رومانيا والسرب والبلغار ومقدونيا ومن شاء ان يتبع طريقتي هذه في السفر فانهُ يرى قسماً كبيراً من البلقان في مدة شهرين وما عليهِ غير ان يذهب من اسكندرية الى قسطنسة وهي ثغر رومانيا ومنها يركب قطار سكة الحديد شرقاً الى بخارست عاصمة رومانيا مسافة ٦ ساعات ومنها الى مدينة اورسوفو الواقعة في اول حدود السرب مسافة ١٠ ساعات ومن هذه يركب باخرة في نهر الطونة لحد بلغراد عاصمة السرب مسافة ١٥ ساعة ومن بلغراد الى صوفيا عاصمة البلغار مسافة ١٠ ساعات ومن صوفيا الى سلانيك ٢٠ ساعة جميع ذلك مسافة ٤٦ ساعة بالسكة الحديدية و١٥ ساعة في نهر الطونة

سلانيك

سألت كثيرين عن تعدادها فكان كل يختلف بالقول عن الآخر ولكن المرجح انها تعد بماية وخمسين الفاً منهم ٦٠ الفاً من اليهود والبقية اتراك واروام

واجناس مختلفة والسبب في كثرة اليهود هنا انهم رحلوا من اسبانيا وجاؤُا هذه الجهة وما زالوا يتكلمون لغة الاسبان . اما موقع البلد فعلى البحر يشبه موقع ازمير أو هو احسن منهُ لان الرصيف الممتد فيهِ غرست الى جانبيهِ الاشجار تحدها المنازل على الشمال والبحر على اليمين وهذا الرصيف اطول واعرض من رصيف ازمير ومنازل سلانيك في آخر هذا الرصيف اكثرها للأوروبيين من اصحاب اليسار لكل منهم منزل داخل حديقة جميلة تشرف على البحر . وقد مدوا خطوط الترامواي من عهدٍ قريب والخط يسير ازاء البحر من اول الرصيف المذكور الى آخرهِ في مسافة نصف ساعة وهو للشركة البلجيكية التي احتكرت كل المشروعات من هذا القبيل في رومانيا والسرب ومصر وبيروت . وعدا الترامواي هذا فانهُ يوجد خط آخر للبواخر الصغيرة تمخر في البحر ازاء الرصيف من اولهِ الى آخرهِ وفي المحطة الاخيرة لهذه البواخر قصر اللاتيني الذي نفي اليهِ السلطان عبد الحميد بعد عهد الدستور فسبحان مغير الاحوال ! وفي هذا الرصيف محطات للبواخر يذهب الناس منها الى احيائهم او يعودون منها فحركة الانتقال لا تبطل من الصباح لحد نصف الليل . قلت ان الرصيف ممتد ازاء البحر تمتد منهُ شوارع لجهة الجبل تعد بالعشرات فيها الحوانيت ومواضع التجارة والاسواق بعضها مسقوف مثل اسواق دمشق وبعضها عريض ولا سيما في واخر هذا الرصيف وقد غرسو الشجر الى الجانبين فسلانيك على الجملة اجمل من مدينة ازمير . اخذت دليلاً من الفندق وهو كما سبق القول مبني على البحر وامامهُ ساحة دعيت من بعد الدستور ساحة الحرية فيها الفندق المذكور وفنادق أُخرى تشرف على البحر وقهاوي يجتمع فيها خلق كثير حتى لا يبقى مكان خالياً من كثرة عددهم وخصوصاً بعد الغروب وقد ذهبنا في اول الامر الى جهة الجبل او التلال سائرين صعداً حتى بلغنا جهة فيها قصر الوالي والمجالس والمصالح الاميرية .

وذهبت من هنالك الى جامع اصلهُ كنيسة على اسم مارجرجس من ايام دولة
بيزانس (الروم) واسمهُ الآن خور طه جي جامع فأرانا الدليل في بنائهِ الخارجي بركة
ماء صنعت من الرخام الابيض وقد أعدت للوضوء ثم دخلنا الجامع فالفيناهُ
كبيراً واسعاً لهُ قبة شاهقة حولها صور الملائكة والقديسين مثل بطرس وبولس
ويوحنا المعمدان والعذراء وصورة المسيح يبارك الشعب كل ذلك ظاهر للعيان لم
يطمسوهُ مثل ما حصل في كنيسة آياصوفيا في الاستانة . وكل هذه الصور مصنوعة
بالفسيفساء ولم يغيروا هيئة الكنيسة ولكنهم بنوا منبراً عليهِ علمان من اللون الاخضر
كتب عليهما لا اله الاَّ الله ومحراباً من رخام حفر فيهِ آيات قرآنية وكتب على
الجدران بالخط الكبير اسم الجلالة ومحمد وعلي وعمر . ثم ذهبنا الى جامع آخر دعي
قاسميه جامع اصلهُ ايضاً كنيسة على اسم ماردیمتري يظن الداخل اليهِ انهُ في
كنيسة وهذا الجامع لا يقل اتساعاً عن جامع السلطان حسن في مصر وهو ايضاً بني
في مدة مملكة الروم ولم يتغير شكلهُ الاصلي ولكنهم اضافوا المنبر والمحراب والمأذنة
وتركوا الصور جميعها على حالتها الاصلية على الجدران والركائز والسقف ما عدا
الصور من جهة القبلة . والصور هنا كثيرة صنعت بالقد الطبيعي من الفسيفساء وهي
تلمع وتسطع كأنها تمَّ عملها الآن ولا سيما الصور التي نقشت على العمد والاركان .
والفسيفساء قطع من الزجاج صغيرة مثل رأس المسمار يلصقون بعضها ببعض
ويلونونها بالوان تشبه الوان البشر والملابس ويطلونها بالذهب ولا بد في صنعها
من الصبر الطويل والعناية الفائقة . ويوجد على بعض جدران هذا الجامع كتابات
باللغة اليونانية باقية لحد الآن لم أتمكن من ترجمتها . والكنيسة بنيت من دور
اول للرجال قائم على اعمدة رخامية ضخمة بعضها من الرخام الاخضر وهو نادر
الآن . وفي الدور الاعلى المعد للنساء عمد خضراء كهذه ايضاً ولكنها مستدقة .

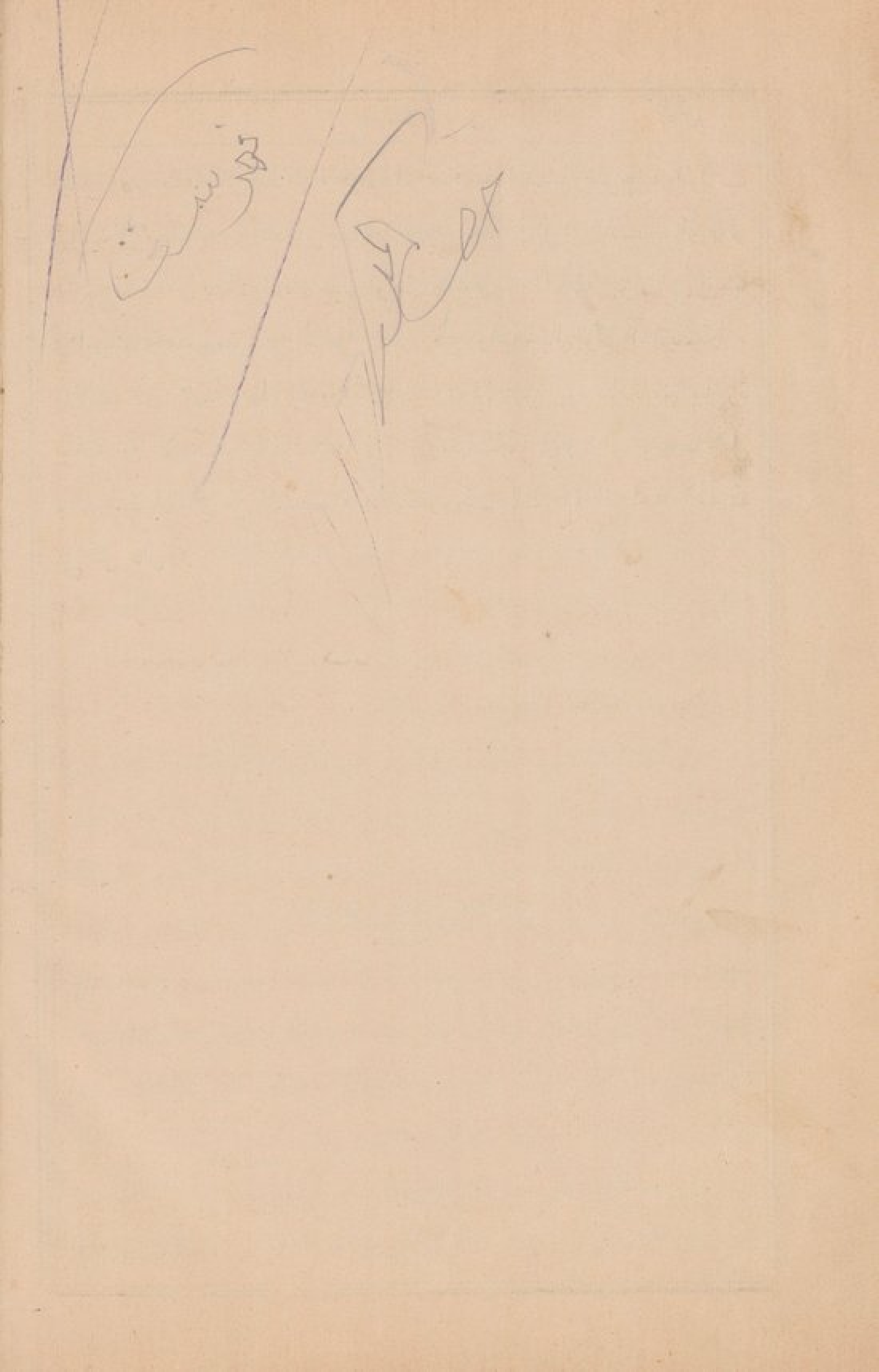
وقد رآني شيخ الجامع ولحظ اني اعد الاعمدة فاخبرني انها ١١٢ عموداً وباعلاها تيجان من الرخام مزخرفة بادق النقوش . واشار الى قبر لصق جدران الجامع وهو بارز مقدار متر فقال انهُ قبر ابنة ملك الروم واراني ايضاً في صحن الجامع قطع رخام كبيرة عليها صلبان و كتابات باللغة اليونانية قال ان تحتها قبور الاساقفة واراني قطع رخام كبيرة على الجدران من اللون الاحمر والابيض معرقة مثل ما يحاك على القماش فقال ان سائحاً انكليزياً دفع للجامع ٥٠٠٠ جنيه ليأخذها الى متحف لندن فلم يقبل طلبهُ . ولا يبعد من هذا الجامع قوس نصر تخربت ولكن ما زال القسم الواطئ منها باقياً وهو من الرخام الاصفر وفيهِ تماثيل قواد ومواقع حربية فيها الاسرى ذات صناعة بديعة يندهش المرء من رؤيتها ولا يمكن التعبير عنها بالكتابة . ومن سوء الحظ لا يوجد في سلانيك كتاب دليل يستدل منهُ عَلَى تاريخ بناء هذه الجوامع والقوس لافادة القارىء

وفي سلانيك حديقة للبلدية هي احسن محل لتمضية الاوقات والوصول اليها هين بالعربة او الترامواي او بباخرة البحر وهي كبيرة فيهـا كل انواع الاشجار والزهور ومطعم وقهاوي وتياترو ومنها ذهبت لزيارة دولتلو حسين حلمي باشا مفتش اصلاحات مقدونيا الذي كان لهُ اليد الطولى في تقرير الدستور وكانت المخابرة معهُ من يلدز وصار فيما بعد صدراً اعظم ودولتهُ رجل طويل القامة عالي الجبهة لهُ عينان سوداويان براقتان وكل ملامحهِ واقوالهِ تدل على مدارك سامية . اقام السنين والياً على بيروت ولا ريب انهُ يحفظ الود لانهُ كلفني ان ابلغ سلامهُ الى كثيرين من ذوات بيروت سماهم باسمائهم

وفي هذا اليوم اظهرت رغبتي للترجمان وهو الدليل الذي كان يرافقني من الفندق في الاشراف على موقع سلانيك من محل مرتفع فذهبنا الى طرفها من جهة

الجبل وقد رأيناها بكل اجزائها وجوامعها وكنائسها واحيائها وضواحيها والمراكب الراسية في مينائها . وفي الغد برحتها مع الوابور النمساوي في ١٩ اغسطس الى ڤولو عاصمة تساليا من مملكة اليونان حيث رست الباخرة ٦ ساعات تجولت في اثنائها في احيائها وجميعها مبنية على شاطيء البحر ومن ورائها جبال وهي آهلة بالسكان. وفي الغد اي ٢٠ منهُ وصلنا پيريه اسكلة اثينا . وفي نفس اليوم سافرنا منها بباخرة يونانية الى الاسكندرية فوصلناها في ٢٣ ومنها سافرنا في ٢٦ الى بيروت فجبل لبنان لتمضية الباقي من الصيف ثم عدنا لمصر وكان ذلك خاتمة السياحة والحمد لله على كل حال .





فهرست

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة







